

مِنْ نَفَائِسِ الْمُفَسِّرِينَ

تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم

جَمْعُ

د / محمد أحمد بامحرّم

ج / ٠٥٥٩٤٩٣٩٣٧

المقدّمّة:

الحمد لله ربّ العالمين على كماله وجماله ونعمائه عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ما بقيت الدنيا وما دامت الآخرة، والصلاة والسلام على سيّدنا ونبينا محمّد سيّد البشر وأكملهم خلقا ما أقبل ليل وما أسفر صبح، أمّا بعد:

فإنَّ الناظر في كتب تفسير القرآن الكريم يجد أنَّ كثيرا منها تميَّز بصحَّة التفسير، وسلامة المنهج، وحسن الأسلوب، وجمال العبارة، وصحَّة التعليق، وورود اللطائف، ووجود الفوائد...، إلا أنه يجد في تفسير ما لا يجده في غيره، ويجد في غيره ما لا يجده فيه؛ لهذا وغيره شرعت مستعينا بالله في تأليف تفسير يجمع أطيِّب وأميز وأنفس ما وجدت فيما قرأت من كتب التفسير، أسميته **أَوَّلَا (التفسير النفيس)**، ثم بدا لي أن أسميه (من نفائس المفسرين)، وذلك لتمام المطابقة، فأسميته **مؤخرا بذلك**، سائلا الله العون والسداد، والقبول والرشاد...

جَمْعُ / د. مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ صَالِحٌ بِأَحْرَمَ

جوال / ۰۵۵۹۴۹۳۹۳۷

- تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم:
- قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا مَا كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾:
- مناسبة الآية التي قبلها:

قال أبو حيان: ومُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنََّّهُ لَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْبِرَّ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِبُّ. وَنَبِيُّ اللَّهِ إِسْرَائِيلُ رُويَ فِي الْحَدِيثِ: "أَنَّ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا، فَطَالَ سَقَمُهُ، فَذَرَّ لِلَّهِ نَذْرًا إِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ أَنْ يُحَرِّمَ، أَوْ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمُ الْإِبِلِ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ أَلْبَانُهَا، فَقَعَلَ ذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ" رواه أحمد وغيره، وصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ حَجَرٍ، وَأَحْمَدُ شَاكِرٌ. فَقَدْ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا قَبْلَهَا فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِيمَا تَرَكَ مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ وَمَا يُؤَثِّرُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّقَرُّبِ بِهِ لِلَّهِ.

وقال ابن كثير: وَلِهَذَا السِّيَاقُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مُنَاسَبَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ إِسْرَائِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَلَهُ مُنَاسَبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِمَّا يُحِبُّ الْعَبْدُ وَيَشْتَهِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وَقَالَ ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]. الْمُنَاسَبَةُ الثَّانِيَةُ: لِمَا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، وَاعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ وَتَبَيَّنَ زَيْفُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَظُهُورُ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ فِي أَمْرِ عِيسَى وَأُمَّهِ، وَكَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ.

وقال ابن عاشور: هَذَا يَرْتَبِطُ بِالْآيِ السَّابِقَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضَاتٌ وَانْتِقَالَاتٌ فِي فُنُونِ الْخِطَابِ.

• سبب نزول الآية:

قال البغوي: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: "أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؟ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ لَا يَأْكُلُ لَحْمَ الْإِبِلِ وَالْبَائِهَا وَأَنْتَ تَأْكُلُهَا، فَلَسْتَ عَلَى مِلَّتِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَانَ ذَلِكَ حَلَالًا لِإِبْرَاهِيمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .، فَقَالُوا: كُلُّ مَا تُحَرِّمُهُ الْيَوْمَ كَانَ ذَلِكَ حَرَامًا عَلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾".

وقال أبو حيان: قَالَ أَبُو رَوْقٍ، وَابْنُ السَّائِبِ: نَزَلَتْ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَنَا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَأْكُلُ لَحْمَ الْإِبِلِ وَالْبَائِهَا؟ فَقَالَ ﷺ: ذَلِكَ حَلَالٌ لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَنَحْنُ نَحِلُّهُ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: كُلُّ شَيْءٍ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ تُحَرِّمُهُ فَإِنَّهُ كَانَ مُحَرَّمًا عَلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَكْذِيبًا لَهُمْ".

• تفسير الآية:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾: قال السمعاني: يَعْنِي لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوا مِنْ حُرْمَةِ لَحْمِ الْإِبِلِ وَالْبَائِهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .، بَلْ كَانَ الْكُلُّ حَلَالًا لَهُ وَلِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّمَا حَرَّمَهَا يَعْقُوبُ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ، يَعْنِي أَنَّ حُرْمَتَهَا لَيْسَتْ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي شَرَعِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ. وقال البغوي: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: يُرِيدُ سِوَى الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَلَالًا قَطُّ. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: هُوَ يَعْقُوبُ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .. وقال ابن عطية: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ..﴾: إِنْجَابُ بِمُعْيَبٍ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَجَمِيعِ الْأُمِّيِّينَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: الرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ فِي كُلِّ مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ: إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ جَمِيعَ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لَهُمْ، إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ خَاصَّةً وَلَمْ يُرِدْ بِهِ وَلَدَهُ، فَلَمَّا

اسْتَنُوا هُمْ بِهِ جَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ مِنَ التَّوْرَةِ شَيْءٌ مِنَ الزَّوَائِدِ الَّتِي يَدْعُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا. وَانْتَزَعَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ لِلْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُحَرِّمُوا بِاجْتِهَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا افْتَضَاهُ النَّظَرُ لِمَصْلَحَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ أَوْ زُهْدٍ، وَمِنْ هَذَا عَلَى جِهَةِ الْمَصْلَحَةِ تَحْرِيمُ النَّبِيِّ ﷺ جَارِيَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَعَابَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يُعَاتِبْ يَعْقُوبَ، فَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ لِحَقِّ آدَمِيِّ تَرْتَّبَ فِي نَازِلَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا تَحْرِيمٌ تَقَرُّبٍ وَزُهْدٍ، وَتَحْرِيمٌ الْجَارِيَةِ تَحْرِيمٌ غَضَبٍ وَمَصْلَحَةٍ نُفُوسٍ. وَقَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ...﴾: الطَّعَامُ: اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْحِلُّ: الْحَلَالُ، وَمِثْلُهُ الْحَرَمُ وَالْحَرَامُ، وَاللُّبْسُ وَاللِّبَاسُ. وَفِي الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: لِحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَاحُهَا. رُويَ هَذَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَعَطَاءُ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْعُرُوقُ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ، وَالسُّدِّيَّ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ زَائِدَتَا الْكَبِدِ، وَالْكُلَيْتَانِ، وَالشَّحْمُ إِلَّا مَا عَلَى الظَّهْرِ، قَالَهُ عِكْرَمَةُ. وَفِي سَبَبِ تَحْرِيمِهِ لِذَلِكَ: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: "أَنَّهُ طَالَ بِهِ مَرَضٌ شَدِيدٌ، فَذَكَرَ: لَيْسَ شِفَاؤُهُ إِلَّا بِشَرِّهِ، لِيُحَرِّمَ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ" رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. الثَّانِي: أَنَّهُ اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَحَرَّمَ الْعُرُوقَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَطِبَّاءَ وَصَفُوا لَهُ حِينَ أَصَابَهُ النَّسَا اجْتِنَابَ مَا حَرَّمَهُ، فَحَرَّمَهُ، رَوَاهُ الضَّحَّاكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَكَلَ ذَلِكَ الطَّعَامَ، أَصَابَهُ عِرْقُ النَّسَا، فَيَبِيتُ وَقِيدًا فَحَرَّمَهُ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وَاجْتَنَبُوا: هَلْ حَرَّمَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، أَوْ بِاجْتِهَادِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. وَاجْتَنَبُوا: بِمَاذَا ثَبَتَ تَحْرِيمُ الطَّعَامِ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى الْيَهُودِ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ. أَحَدُهَا: أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِتَحْرِيمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا فِي التَّوْرَةِ، قَالَهُ عَطِيَّةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ يَعْقُوبُ: لَيْسَ عَافِيَنِ اللَّهِ لَا يَأْكُلُهُ لِي وَلَدٌ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ وَافَقُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ فِي تَحْرِيمِهِ، لَا أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِالْشَّرْعِ، ثُمَّ أَضَافُوا تَحْرِيمَهُ إِلَى اللَّهِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكَ. الثَّالِثُ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ التَّوْرَةِ لَا فِيهَا. وَكَانُوا إِذَا أَصَابُوا ذَنْبًا

عَظِيمًا، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِهِ طَعَامٌ طَيِّبٌ، أَوْ صُبَّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ السَّائِبِ. وقال أبو حَيَّان: الحِلُّ: الحَلَالُ، وهو مَصْدَرُ حَلَّ، نَحْوُ عَزَّ عِزًّا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢]، أَي حَلَالٌ بِهِ. وفي الْحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ: "كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِحَلِّهِ وَلِحُرْمِهِ" رواه البخاري؛ وَلِذَلِكَ اسْتَوَى فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ وَالْمَذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المتحنة: ١٠]، وَهِيَ كَالْحُرْمِ، أَيِ الْحَرَامِ، وَكَاللُّبْسِ، أَيِ اللَّبَاسِ. وقال البقاعي: ﴿كَانَ حِلًّا﴾: أَي كَانَ حَلَالًا أَكْلُهُ، كَمَا كَانَ حِلًّا لِمَنْ قَبْلَهُمْ، عَلَى أَصْلِ الْإِبَاحَةِ. وقال الشوكاني: الطَّعَامُ: أَيِ الْمُطْعُومِ. وَالْحِلُّ: مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُفْرَدُ وَالْجَمْعُ وَالْمَذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَهُوَ الْحَلَالُ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ كُلَّ الْمُطْعُومَاتِ كَانَتْ حَلَالًا لِبَنِي يَعْقُوبَ، لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ حِلًّا﴾: أَيِ أَنَّ كُلَّ الْمُطْعُومَاتِ كَانَتْ حَلَالًا. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾: أَيِ كَانَ مَا عَدَا الْمُسْتَتَنَى حَلَالًا لَهُمْ. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ لِظُلْمِهِمْ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ لَمَّا أَنْكَرُوا مَا فَصَّهَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. مِنْ أَنَّ سَبَبَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُوَ ظُلْمُهُمْ وَبَغْيُهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وَقَالُوا: إِنَّمَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ تَكْذِيبَ مَا فَصَّهَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ. وقال ابن عاشور: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: هَذِهِ حُجَّةٌ جُزْئِيَّةٌ بَعْدَ الْحُجَجِ الْأَصْلِيَّةِ عَلَى أَنَّ دِينَ الْيَهُودِيَّةِ لَيْسَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ فِي شَيْءٍ، فَإِنَّ الْحَنِيفِيَّةَ لَمْ يَكُنْ مَا حُرِّمَ مِنَ الطَّعَامِ بِنَصِّ التَّوْرَةِ مُحَرَّمًا فِيهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَبْلَ التَّوْرَةِ عَلَى شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ، فَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ مَا حُرِّمَ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا طَعَامًا حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ. وَالْحُجَّةُ ظَاهِرَةٌ،

وَيَذُلُّ لِهَذَا الْإِزْتِبَاطِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِهَا: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. وَتَعْرِيفُ (الطَّعَامِ) تَعْرِيفُ الْجِنْسِ. وَ(كُلُّ) لِلتَّنْصِصِ عَلَى الْعُمُومِ. وَقَوْلُهُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ تَصْرِيحٌ بِمَحَلِّ الْحُجَّةِ مِنَ الرَّدِّ إِذِ الْمَقْصُودُ تَنْبِيهِهُمْ عَلَى مَا تَنَاسَوْهُ فَتُنْزِلُوا مَنَزِلَةَ الْجَاهِلِ بِكَوْنِ يَعْقُوبَ كَانَ قَبْلَ مُوسَى . عَلَيْهِ السَّلَامُ .. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: الطَّعَامُ: مَا يَطْعَمُ. فَإِنْ قُرِنَ بِالشَّرَابِ صَارَ الْمُرَادُ بِهِ: مَا يَحْتَاجُ إِلَى مَضْغٍ. وَالشَّرَابُ: مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَضْغٍ. وَأَمَّا إِذَا أُطْلِقَ، وَقِيلَ: طَعَامٌ، صَارَ شَامِلًا لِمَا يُؤْكَلُ وَمَا يَشْرَبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فَسَمِيَ شَرِبَ الْمَاءِ طَعْمًا أَوْ طَعَامًا. ﴿كَانَ حَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: (حَالًا): بِمَعْنَى حَالًا، سِوَاءَ كَانَ مِنَ النَّبَاتِ، أَوْ مِنَ الْحَيَوَانِ، أَوْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، يَعْنِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ حَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَوَّلِ. وَبَنُو إِسْرَائِيلَ: هُمُ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَإِسْرَائِيلُ: بِمَعْنَى عَبْدَ اللَّهِ. وَبَنُو عَمَّتِهِمْ: هُمُ بَنُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. فإِسْمَاعِيلُ، وَإِسْحَاقُ أَخَوَانِ، أَبُوهَا إِبْرَاهِيمُ، وَيَعْقُوبُ هُوَ ابْنُ إِسْحَاقَ . عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .، وَقَدْ بَشَّرَ اللَّهُ بِهِ جَدَّتَهُ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: يَعْنِي فَكَانَ حَرَامًا. إِذَا فَهِنَاكَ حَلَالٌ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَهِنَاكَ حَرَامٌ فِي ثَانِي الْأَمْرِ. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِإِسْرَائِيلَ: يَعْقُوبَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .، فَهُوَ عَلَّمَ عَلَى شَخْصٍ مَعِيْنٍ، لَا عَلَى قَبِيلَةٍ مَعِيْنَةٍ. يَعْنِي: إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ نَفْسَهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَقَدَّمَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ، وَأَبْهَمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ (مَا) اسْمُ مَوْصُولٍ، وَالْاسْمُ الْمَوْصُولُ مَبْهَمٌ يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ وَلَمْ يَبَيِّنْ، لَمْ يَقُلِ اللَّهُ: (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ كَذَا وَكَذَا)، فَمَا حَرَّمَهُ مَبْهَمٌ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ أَكْلَ الْإِبْلِ؛ لِأَنَّهُ أُصِيبَ بِعَرَقِ النِّسَاءِ، وَهُوَ عَرَقٌ يَمْتَدُّ مِنَ الْقَدَمِ إِلَى الْوَرِكِ فِي الرَّجْلِ، وَيُؤْلَمُ كَثِيرًا وَيَتَعَبُ. وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا تَصَدَّقُ وَلَا تَكْذَّبُ.

وحينئذٍ لا نجزم بالذي حرّم إسرائيل على نفسه، بل نقول: هو معلوم عند اليهود، ولكننا لا ندري ما هو؛ لأن الله أجمعه. هذا على القول بأنّ المراد بإسرائيل علّم الشخص، يعني إسرائيل نفسه. وقيل: المراد بإسرائيل: القبيلة، كما تقول: قريش، فإنّ قريشاً كان اسماً لشخص معيّن، ثم انتقل من اسم الشخص إلى اسم ذريّته القبيلة التي تنسب إليه، فيكون المراد بإسرائيل على هذا القول: بني إسرائيل. وعلى هذا القول الذي حرّم بنو إسرائيل على أنفسهم هذا مبين في القرآن: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمَنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، لكن هذا الرأي ضعيف؛ لأن الله فرق بين بني إسرائيل، وإسرائيل، فقال: ﴿حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾، ولم يقل: إلا ما حرّموا على أنفسهم. ثم إنه يرّد عليه إشكال آخر: بأنّ بني إسرائيل لم يحرموا على أنفسهم شيئاً، وإنما حرّم عليهم شيء بسبب ظلمهم. والأصل أنّ الشيء إذا أضيف فهو لما أضيف إليه مباشرة لا تسبباً. فالصحيح: أنّ المراد بإسرائيل علّم الشخص. لكن ما الذي حرّم؟ هذا الذي نتوقّف فيه؛ لأن الله أجمعه، والواجب أن نبهم ما أجمعه الله، ونقول: إنّ إسرائيل - عليه السلام - حرّم على نفسه شيئاً أو أشياء ولكن لا نعلمها، حتى يأتيها خبرها عن طريق معصوم. وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ معناه: أنّ هذا أمر متقرّر من قديم الزمان، وبين إسرائيل وبين نزول التوراة دهور طويلة، وأزمان كثيرة، لكنّ الله أراد أن يقرّر بأنّ تحريم ما أحلّ كان سابقاً متقدّماً بكثير على التوراة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾: (التَّوْرَةُ): هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى - عليه السلام .. وقد نزلت التوراة مكتوبة، كتب الله التوراة في الألواح، فأخذها موسى، وتلاها على الناس، وعلمهم إياها، وبقيت التوراة إلى أن جاء محمد ﷺ لكن صار فيها تحريف، كما قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: قال السمعاني: طالبهم بالإتيان بِالتَّوْرَةِ حُجَّةً عَلَى مَا ادَّعَوْا فَلَمْ يَأْتُوا بِهَا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ تَحْرِمُهَا فِي التَّوْرَةِ، فَعَجَزُوا عَنِ الْإِثْنَانِ بِالتَّوْرَةِ وَكَانَ ذَلِكَ كَالْمَعْجِزَةِ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِمُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَخَرَجَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مُخْرَجَ الْمُتَكِنِ، وَهُمْ مَعْلُومٌ كَذِبُهُمْ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْءِ بِهِمْ، كَقَوْلِكَ: إِنْ كُنْتَ شَجَاعًا فَالْقِنِي، وَمَعْلُومٌ عِنْدَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَجَاعٍ، وَلَكِنْ هَزَأْتَ بِهِ، إِذْ جَعَلْتَ هَذَا الْوَصْفَ مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يُتَّصَفَ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ الزَّجَّاجُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَعْظَمُ دَلَالَةٍ لِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي كِتَابِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَبَوْا، يَعْنِي عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُحَاجَّهُمْ بِكِتَابِهِمْ وَيَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حُكْمًا مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَا مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ حَتَّى تَعْلَمُوا صِدْقَ مَا قَصَّه اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ. وَفِي هَذَا مِنَ الْإِنْصَافِ لِلْخُصُومِ مَا لَا يُقَادِرُ قَدْرُهُ وَلَا يَبْلُغُ مَدَاهُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَمَرَ لَهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِأَنْ يُحَاجَّهُمْ بِكِتَابِهِمُ النَّاطِقِ بِصِحَّةٍ مَا يَقُولُ فِي أَمْرِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ. وَإِظْهَارُ اسْمِ التَّوْرَةِ؛ لِكَوْنِ الْجُمْلَةِ كَلَامًا مَعَ الْيَهُودِ مُنْقَطِعًا عَمَّا قَبْلَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَيُّ فِي دَعْوَاكُمْ، شَرْطُ حُذْفِ جَوَابِهِ؛ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا، رُويَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجَسُرُوا عَلَى الْإِثْنَانِ بِهَا فَبَهْتُوا وَأُلْقَمُوا حَجَرًا. وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوءَةِ نَبِيِّنَا . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ إِذْ عَلِمَ بِأَنَّ مَا فِي التَّوْرَةِ يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِمْ وَهُوَ لَمْ يَقْرَأْهَا وَلَا غَيْرَهَا مِنْ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ، وَمِثْلُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ وَحْيٍ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَيُّ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا قُلْنَا أَوْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ: مِنْ قَوْلِكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى دِينِ الْيَهُودِيَّةِ، وَهُوَ أَمْرٌ لِلتَّعْجِيزِ، إِذْ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِهَا إِذَا اسْتَدَلُّوا عَلَى الصِّدْقِ. وَ(الفاء) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا﴾ فَاءُ التَّفْرِيعِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿ شَرَطُ حُذْفِ جَوَابِهِ لِدَلَالَةِ التَّفْرِيعِ الَّذِي قَبْلَهُ عَلَيْهِ . وَالتَّقْدِيرُ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ . وَقَالَ الْعِثْمِينُ: ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾: هذا من باب التحدي . فالأمر هنا: ﴿ قُلْ فَأَتُوا ﴾ للتحدي وإقامة الحجة على ما ادَّعوه . ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ ﴾: يعني هاتوها فاتلوها وانظروا أنّ ما قلته فهو حق، أي أنّ الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، ثم نسخ ما بقي الحلال، بل نسخ حلّ أشياء كثيرة، كما قال عيسى . عليه السلام .: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني هناك أشياء كثيرة حرّمت فأحلّ لهم عيسى . عليه السلام . بعض ما حرّم . ﴿ فَأَتْلُوهَا ﴾: أي أنتم أيضاً لا نحن حتى لا تتهمونا بأننا حذفنا شيئاً وأضفنا شيئاً، اتلوها أنتم بأنفسكم حتى يتبين لكم أن ما جئت به هو الحق . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾: يعني فيما تدّعون من كذب ما جئت به . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾: هذه الشرطيّة؛ لتمام التحدي، كما أقول لك في الكلام العابر: إن كنت صادقاً فافعل كذا، فهذا من كمال التحدي وتمامه، وكان سبب هذا: أنّ اليهود كانوا ينكرون ما جاء به النبي ﷺ، ويقولون: إنك أحللت شيئاً، وحرّمت شيئاً، والشرائع لا تبدّل ولا تتغيّر؛ لأنّها من عند الله؛ ولهذا كانوا يُنكرون النسخ، ويقولون: إنّ النسخ في أحكام الله مستحيل؛ لأنّ النسخ إمّا أن يكون لحكمة أو عبثاً، فإن كان عبثاً فالله منزّه عنه، وإن كان لحكمة لزم منه أنّ الله تظهر له الحكمة بعد أن كانت خافية عليه، وهذا يلزم منه الظهور بعد الجهل، وهو أيضاً مستحيل على الله؛ ولهذا كذبوا عيسى . عليه السلام .، وكذبوا محمداً ﷺ؛ لأنّ هذا نسخ، والنسخ على الله مستحيل، لا يمكن أن تنسخ الشرائع، فقليل لهم: هاتوا التوراة، والتوراة تُثبت وتُقرّر أنّ كلّ الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل، ثم حرّم إسرائيل على نفسه أشياء، وبقي هذا التحريم في ذرّيته حرام عليهم . إذاً هذا نسخ لكنّه في الحقيقة ليس النسخ الكامل الذي يأخذ الحكم كلّهُ، ولكنّه نسخ لبعض أفرادهِ، وهو ما يسمّى عند بعض الأصوليّين: بالتخصيص، ويُسمّى عند السلف: بالنسخ . إذاً في هذا إقامة الحجة

عليهم بما ادَّعوه من أنه لا يمكن أن تُنسخ الشرائع، وأنت يا مُحمد كاذب، وأن عيسى كاذب، فأراد الله أن يُبين كذبهم من كتبهم.

● قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤):

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال أبو حيان: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُنْدرِجًا تَحْتَ الْقَوْلِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءً إِحْبَارٍ مِنَ اللَّهِ بِذَلِكَ. وقال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نَهَايَةٌ لِتَسْجِيلِ كَذِبِهِمْ، أَيْ مَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، أَيْ فَمَنْ افْتَرَى مِنْكُمْ بَعْدَ أَنْ جَعَلْنَا التَّوْرَةَ فَيَصَلًا بَيْنَنَا، إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدَّعُوهُ شُبْهَةً لَهُمْ فِي الْإِخْتِلَاقِ، وَجُعِلَ الْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ لِيَتَعَلَّقَ بِهِ دِينُ اللَّهِ. و(الفاء) لِلتَّفْرِيعِ عَلَى الْأَمْرِ.

● تفسير الآية:

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: قال الطبري: أي فمن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ مِنَّا وَمِنْكُمْ، من بعد مجيئكم بالتوراة، وتلاوتكم إياها، وَعَدَمِكُمْ ما ادَّعَيْتُمْ من تحريم الله العروقَ ولحومَ الإبل وألبانها فيها. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أي فهم الكافرون، القائلون على الله الباطل. وقال ابن عطية: تَحْتَمِلُ الْإِشَارَةُ بِ(ذَلِكَ) أَنْ تَكُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ إِلَى التَّلَاوَةِ؛ إِذْ مُضْمَنُهَا بَيَانُ الْمَذْهَبِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ، أَيْ فَمَنْ كَذَبَ مِنَّا عَلَى اللَّهِ، أَوْ نَسَبَ إِلَى كُتُبِ اللَّهِ مَا لَيْسَ فِيهَا فَهُوَ ظَالِمٌ، وَاضِعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ. وَالْآخَرُ: أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى اسْتِقْرَارِ التَّحْرِيمِ فِي التَّوْرَةِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ حَرَّمَتُهُ التَّوْرَةُ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَزَادَ فِي الْمَحْرَمَاتِ فَهُوَ الظَّالِمُ. الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ

الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة، أي من تسنن يعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبته إلى ملة إبراهيم فهو الظالم. ويؤيد هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿فِظْلَمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشددون فشدد الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة. وقال ابن كثير: أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبب والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع التسخي وظهور ما ذكرناه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وقال صديق خان: الافتراء: اختلاق الكذب والقذف والإفساد، أصله من فرى الأديم إذا قطعه؛ لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود. وقال الألوسي: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: أي المفترون المبعدون عن عزِّ القرب. ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أي لأنفسهم بفعل ما أوجب العقاب عليهم. وقيل: هم الظالمون لأنفسهم بذلك ولأشياءهم بإضلالهم لهم بسبب إصرارهم على الباطل وعدم تصديقهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم .. وإنما قيد بالبعدية مع أنه يستحق الوعيد بالكذب على الله في كل وقت وفي كل حال؛ للدلالة على كمال القبح. وقيل: لبيان أنه إنما يؤخذ به بعد إقامة الحجة عليه، ومن كذب فيما ليس بمحجوج فيه فهو بمنزلة الصبي الذي لا يستحق الوعيد بكذبه. وقال العثيمين: ﴿فَمَنْ﴾. (من) عامة، يعني أي إنسان يفترى على الله الكذب. والافتراء معناه: التقول بغير حق، يعني أن تنسب إلى الشخص ما لم يقله. وقوله: ﴿الْكُذِبُ﴾: أي الإخبار بخلاف الواقع؛ لأن الإخبار بالواقع يُسمى صدقاً، وبما يخالف الواقع يُسمى كذباً، فمن قال بعد هذا البيان: أنه لا يمكن أن تنسخ الشرائع بعضها ببعض فهو ظالم. يقول الله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: المشار إليه من افتري. و﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: الجملة اسمية. و(هم) ضمير فصل، وليس له محل من الإعراب، وإنما جيء به؛ للفصل بين الخبر والصفة، وقد ذكرنا: أنه يُفيد ثلاثة أمور:

(التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة)، فإذا قُلت: (مُحَمَّدٌ هو الفاضل)، فأنت ترى أنَّ (هو) أَكَّدتَ الجملة، وترى أيضًا أنها حصرت الفضل فيه، ومعلوم أنَّ محمدًا . صلى الله عليه وسلم . أفضل الخلق. وثالثًا: أنها فَرَّقت بين الخبر والصفة؛ لأنه لو قيل: (مُحَمَّدُ الفاضل) لاحتُمِلَ أن يكون (الفاضل) صفة لمحمد، وأنَّ الخبر لم يأتِ بعد، فإذا قيل: (هو الفاضل) تَعَيَّنَ أن تكون (الفاضل) خبرًا. ﴿الظَّالِمُونَ﴾: يعني المتَّصفين بالظلم. والظلم في الأصل: النقص، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]: أي لم تُنقص منه شيئًا، وهو في الحقيقة إمَّا تفريط في واجب، وإمَّا انتهاك لمحرَّم، وكلاهما نقص؛ لأن المنتهك للمحرَّم، أو المفرط في الواجب قد نقص الأمانة والرعاية؛ لأنه أمين على نفسه، وراعٍ عليها، فإذا أقدم على فعل المحرَّم، فقد أخلَّ بما يجب عليه من الرعاية، وخان الأمانة، فإذا فرط في الواجب فكذلك. أمَّا قوله: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: فهذا جملة شرطية، وجواب الشرط: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، واقترن بـ(الفاء)؛ لأنه جملة اسمية، وفيه أن: (مَنْ) روعي فيها اللفظ والمعنى، وفي الشرط روعي اللفظ، وفي الجواب روعي المعنى. ﴿افْتَرَى﴾: مصوغ للواحد، روعي فيه اللفظ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ للجماعة، روعي فيه المعنى.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥):
- مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعي: لَمَّا اتَّضَحَ كَذِبُهُمْ . أي أهل الكتاب .، وافتضح تَدْلِيْسُهُمْ أَمَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيُّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ..﴾.
- تفسير الآية:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: قال مكِّي بن أبي طالب: معناه: قل يا مُحَمَّدُ صدق الله في جميع ما أخبرنا به، وأنَّ إسرائيل حرَّم لحوم الإبل وألبانها من غير تحریم من الله في كتابه، فإن كنتم

أَيُّهَا الْيَهُودَ عَلَى حَقِّ فِي قَوْلِكُمْ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا. والوقف على قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ حسن. وقال السمعاني: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: يَعْنِي: فِيمَا أَخْبَرَ وَأَنْزَلَ. وقال ابن الجوزي: الصِّدْقُ: الْإِخْبَارُ بِالشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، وَضِدُّهُ الْكَذِبُ. وَاحْتَلَفُوا أَيَّ خَبَرٍ عَنِ هَذِهِ الْآيَةِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَنِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾، قَالَهُ مُقَاتِلٌ، وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. الثَّانِي: أَنَّهُ عَنِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا﴾، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ. وقال الرازي: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: يَحْتَمِلُ وُجُوهًا: أَحَدُهَا: ﴿قُلْ صَدَقَ﴾: فِي أَنَّ ذَلِكَ التَّوَعُّدَ مِنَ الطَّعَامِ صَارَ حَرَامًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَوْلَادِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَلَالًا لَهُمْ فَصَحَّ الْقَوْلُ بِالنَّسْخِ، وَبَطَلَتْ شُبُهَةُ الْيَهُودِ. وَثَانِيهَا: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ لَحُومَ الْإِبِلِ وَالْبَاهَا كَانَتْ مُحَلَّلَةً لِإِبْرَاهِيمَ. عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَإِنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَنَّ إِسْرَائِيلَ حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَتَبَتَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمَّا أَفْتَى بِحِلِّ لَحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَاهَا، فَقَدْ أَفْتَى بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ. وَثَالِثُهَا: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فِي أَنَّ سَائِرَ الْأَطْعِمَةِ كَانَتْ مُحَلَّلَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهَا إِنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَى الْيَهُودِ جَزَاءً عَلَى قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ. وقال أبو حَيَّان: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: أَيُّ فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ. وَقِيلَ: فِي أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِبْرَاهِيمُ كَانَ مُسْلِمًا. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ..﴾، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ. وَقِيلَ: فِي أَنَّهُ مَا كَانَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا. قَالَهُ مُقَاتِلٌ، وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وقال ابن كثير: أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ: صَدَقَ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ. وقال القاسمي: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: تَعْرِيزٌ بِكَذِبِهِمْ، أَيُّ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ فِيمَا أَنْزَلَ وَأَنْتُمْ الْكَاذِبُونَ. وقال العثيمين: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: الْخُطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصْحَحُ تَوَجُّهُ الْخُطَابِ إِلَيْهِ، أَيُّ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾: جُمْلَةٌ تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَى اللَّهِ بِالْصِّدْقِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فَلَا أَحَدَ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ. وَالْصِّدْقُ: مُطَابَقَةُ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ. وَالْكَذِبُ: مُخَالَفَةُ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ.

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: قال البغوي: وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّ فِي اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ اتِّبَاعُهُ ﷺ. وقال أبو حيان: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: هِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَيَخْلُصُونَ مِنَ مِلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ. وقال ابن كثير: أَيِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِئَةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلَ مِنْهَا وَلَا أَبَيَّنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ. وقال القاسمي: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: أَيِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَالَّتِي هِيَ فِي الْأَصْلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ. عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى تَتَخَلَّصُوا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي وَرَّطَنَكُمْ فِي فَسَادِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ حَيْثُ اضْطَرَّتْكُمْ إِلَى تَحْرِيفِ كِتَابِ اللَّهِ؛ لِنَسْوِيَةِ أَغْرَاضِكُمْ، وَأَلْزَمْتُكُمْ تَحْرِيمَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَلِمَنْ تَبِعَهُ، وَ﴿حَنِيفًا﴾: أَيِ مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ الزَّائِفَةِ. وقال العثيمين: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: الْخَطَابُ لِلأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَهُ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، فَالنَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِأَنْ نَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. وَالْمِلَّةُ: هِيَ الشَّرِيعَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ، فَكُلَّ شَرْيْعَةٍ يَكُونُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فَهِيَ مِلَّةٌ، فَالْإِسْلَامُ مِلَّةٌ، وَالْيَهُودِيَّةُ مِلَّةٌ، وَالنَّصْرَانِيَّةُ مِلَّةٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَيْءٌ" رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: أَيِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فِي التَّوْحِيدِ وَعَدَمِ الشَّرِكِ، لَا فِي الشَّرَائِعِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: حَنِيفًا: أَيِ مَائِلًا عَنِ كُلِّ شَرِكٍ. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: قَالَ الْقَاسِمِيُّ: هَذَا تَعْرِيزٌ بِمَا فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ شَرِكِ إِثْبَاتِ الْوَلَدِ أَوْ إِلَهِيَّةِ عِيسَى، فَكَيْفَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ، وَمَا كَانَ يَدْعُو إِلَّا إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ عَنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؟! وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْمُتَرَادِفِينَ أَوْ الْمُرَادِفِ عَلَى مُرَادِفِهِ، فَالْحَنِيفُ مَعْنَاهُ: الْمَائِلُ عَنِ كُلِّ شَرِكٍ، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

المُشْرِكِينَ ﴿توكيد لذلك، وإذا انتفى الشرك في ملّة إبراهيم لزم من ذلك أن يكون مخلصًا في التوحيد، وهو كذلك؛ ولهذا يسمّى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إمام الحنفاء. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي الذين يدخلون الشرك في عبادتهم.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦):

• سبب نزول الآية: عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: تَفَاخَرِ الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ فَقَالَتِ الْيَهُودُ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَعْبَةِ، لِأَنَّهُ مُهَاجِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَفِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: بَلِ الْكَعْبَةُ أَفْضَلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: ومُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - وَكَانَ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمِنْ حُصُوصِيَّاتِ دِينِهِ - أَخَذَ فِي ذِكْرِ الْبَيْتِ وَفَضَائِلِهِ؛ لِيُبَيِّنَ عَلَى ذَلِكَ ذِكْرَ الْحَجِّ وَوُجُوبِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْيَهُودَ حِينَ حَوَّلَتْ الْقِبْلَةَ إِلَى الْكَعْبَةِ طَعَنُوا فِي نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: بَيْتُ الْمَقْدِسِ أَفْضَلُ وَأَحَقُّ بِالِاسْتِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ وُضِعَ قَبْلَ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ أَرْضُ الْمُحْشَرِّ، وَقَبْلَهُ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾.

وقال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ شُرُوعٌ فِي بَيَانِ كُفْرِهِمْ بِبَعْضِ آخَرِ مِنْ شَعَائِرِ مِلَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِثْرَ بَيَانِ كُفْرِهِمْ بِكَوْنِ كُلِّ الْمَطْعُومَاتِ حِلًّا لَهُ.

وقال ابن عاشور: هَذَا الْكَلَامُ وَقَعَ مَوْقِعَ التَّغْلِيلِ لِلْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الْبَيْتَ الْمُنَوَّهَ بِشَأْنِهِ كَانَ مَقَامًا لِإِبْرَاهِيمَ فَفَضَائِلُ هَذَا الْبَيْتِ تُحَقِّقُ فَضِيلَةَ شَرْعِ بَانِيهِ فِي مُتَعَارِفِ النَّاسِ، فَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ خِطَابِيٌّ، وَهُوَ أَيْضًا إِخْبَارٌ بِفَضِيلَةِ

الْكَعْبَةِ وَحُرْمَتِهَا . فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ . وَقَدْ آذَنَ بِكَوْنِ الْكَلَامِ تَعْلِيلًا مَوْقِعٌ إِنَّ فِي أَوَّلِهِ فَإِنَّ التَّأَكِيدَ بِ(إِنَّ) هُنَا لِمُجَرَّدِ الْإِهْتِمَامِ وَلَيْسَ لِرَدِّ إِنْكَارِ مُنْكَرٍ، أَوْ شَكِّ شَاكٍّ.

● تفسير الآية:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: قال الواحدي: قال أبو إسحاق: معنى (الأول) في اللغة: ابتداء الشيء. ثم جائز أن يكون له ثانٍ، وجائز أن لا يكون، كما تقول: (هذا أول مالٍ كَسَبْتُهُ)، جائز أن يكون بعده كسبٌ، وجائز أن لا يكون، ولكن إرادتك: (هذا ابتداء كَسْبِي). وقال ابن الجوزي: وفي معنى كَوْنِهِ أَوَّلَ: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ كَانَ فِي الْأَرْضِ. الثَّانِي: أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلْعِبَادَةِ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَهُ بُيُوتٌ، هَذَا قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .، وَالْحَسَنُ، وَعَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ. انتهى كلام ابن الجوزي. وروي عن ابن عباس أيضًا أنه قال: هو أول بيت وُضِعَ للناس يُحْجُّ إِلَيْهِ، واختاره الزجاج. وقال القرطبي: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ: بَكَّةُ هِيَ مَكَّةُ. قَالَ(مِيمٌ) عَلَى هَذَا مُبْدَلَةٌ مِنَ (الْبَاءِ)، كَمَا قَالُوا: طِينٌ لَا زِبْتُ وَلَا زِمٌ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْمَوْرُجُ. وَسُمِّيَتْ بَكَّةً بِهَذَا الْإِسْمِ؛ لِأَزْدِحَامِ النَّاسِ فِي مَوْضِعِ طَوَافِهِمْ. وَأَمَّا مَكَّةُ فَقِيلَ: إِنَّهَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِقَلَّةِ مَائِهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا تَمُكُّ الْمُحَّ مِنَ الْعَظَمِ مِمَّا يَنَالُ قَاصِدُهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَكَكْتُ الْعَظَمَ إِذَا أَخْرَجْتُ مَا فِيهِ. وَمَكََّ الْفَصِيلُ ضَرَعَ أُمِّهِ وَامْتَكَّهُ إِذَا امْتَصَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ وَشَرِبَهُ. وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَمُكُّ مَنْ ظَلَمَ فِيهَا، أَيْ تُهْلِكُهُ وَتُنْقِصُهُ. وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَمُكُّونَ وَيَضْحَكُونَ فِيهَا، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، أَيْ تَصْنِيفًا وَتَصْنِيفًا. وَهَذَا لَا يُوجِبُهُ التَّصْرِيفُ؛ لِأَنَّ "مَكَّةً" ثَنَائِيٌّ مُضَاعَفٌ وَ"مُكَاءٌ" ثَلَاثِيٌّ مُعْتَلٌّ. وقال ابن كثير: بَكَّةُ: مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ. قِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَبُكُّ أَعْنَاقَ الظُّلَمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى: يُبْكَونَ بِهَا وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَيْ يَزْدَحُمُونَ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ بَكَ بِه النَّاسَ جَمِيعًا، فَيُصَلِّي النِّسَاءُ أَمَامَ الرِّجَالِ،

وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِلَدِّ غَيْرِهَا. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَمْرُو بْنِ شُعَيْبٍ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ. وَذَكَرَ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَكَّةُ مِنَ الْفَجِّ إِلَى التَّنْعِيمِ، وَبَكَّةُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْبَطْحَاءِ. وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ: بَكَّةُ: الْبَيْتُ وَالْمَسْجِدُ. وَكَذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي رَوَايَةٍ، وَمَيِّمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: الْبَيْتُ وَمَا حَوْلَهُ بَكَّةُ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَكَّةُ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: بَكَّةُ مَوْضِعُ الْبَيْتِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مَكَّةُ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: مَعْنَى (وُضِعَ): أُسِّسَ وَأُثْبِتَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمَكَانُ مَوْضِعًا، وَأَصْلُ الْوَضْعِ أَنَّهُ الْحَطُّ ضِدَّ الرَّفْعِ، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْءُ الْمَرْفُوعُ بَعِيدًا عَنِ التَّنَاولِ، كَانَ الْمَوْضُوعُ هُوَ قَرِيبَ التَّنَاولِ، فَأُطْلِقَ الْوَضْعُ لِمَعْنَى الْإِذْنَاءِ لِلْمُتَنَاولِ، وَالتَّهْيِئَةِ لِلْإِنْتِفَاعِ. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: الظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ (بَكَّةَ) اسْمٌ بِمَعْنَى الْبَلَدَةِ وَضَعَهُ إِبْرَاهِيمُ. عَلَيْهِ السَّلَامُ. عَلَّمَا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ لِسُكْنَى وَلَدِهِ بِنِيَّةٍ أَنْ يَكُونَ بَلَدًا، فَيَكُونُ أَصْلُهُ مِنَ اللَّعَةِ الْكَلْدَانِيَّةِ، لَعَةِ إِبْرَاهِيمَ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ سَمَّوْا مَدِينَةَ بَعْلَبَكَّ أَيْ بَلَدَ بَعْلٍ وَهُوَ مَعْبُودُ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَمِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ هَذَا اللَّفْظُ عِنْدَ ذِكْرِ كَوْنِهِ أَوَّلَ بَيْتٍ، فَلَا حِظَّ أَيْضًا لِاسْمِ الْأَوَّلِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ [النمل: ٩١] وَقَوْلُهُ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وَغَدَلَ عَنْ تَعْرِيفِ الْبَيْتِ بِاسْمِهِ الْعَلَمَ بِالْعَلْبَةِ، وَهُوَ الْكَعْبَةُ، إِلَى تَعْرِيفِهِ بِالْمَوْضُوعِيَّةِ بِأَنَّهُ (الَّذِي بِبَكَّةَ)؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّلَةَ صَارَتْ أَشْهَرَ فِي تَعْيِينِهِ عِنْدَ السَّامِعِينَ؛ إِذْ لَيْسَ فِي مَكَّةَ يَوْمَئِذٍ بَيْتٌ لِلْعِبَادَةِ غَيْرُهُ، بِخِلَافِ اسْمِ الْكَعْبَةِ، فَقَدْ أُطْلِقَ اسْمُ الْكَعْبَةِ عَلَى الْفُلَيْسِ الَّذِي بَنَاهُ الْحَبَشَةُ فِي صَنْعَاءَ لِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَلَقَّبُوهُ الْكَعْبَةَ الْيَمَانِيَّةَ. وَالْمَقْصُودُ: إِثْبَاتُ سَبْقِ الْكَعْبَةِ فِي الْوُجُودِ قَبْلَ بُيُوتٍ أُخَرَ مِنْ نَوْعِهَا.

﴿مُبَارَكًا﴾: قَالَ الْمَاورِدِيُّ: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ بَرَكَتَهُ: مَا يُسْتَحَقُّ مِنْ ثَوَابِ الْقَصْدِ إِلَيْهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ آمَنُ لِمَنْ دَخَلَهُ حَتَّى الْوَحْشِ، فَيَجْتَمِعُ فِيهِ الصَّيْدُ وَالْكَلْبُ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ﴿مُبَارَكًا﴾: نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ عَلَى قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِنَّهُ أَوَّلُ

بَيَّنَتْ وَضَعَ بِهَذِهِ الْحَالِ قَوْلُهُ: ﴿وُضِعَ﴾. وَالْعَامِلُ فِيهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ: الْفِعْلُ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ (بَاءُ) الْجَرِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِبَكَّةَ﴾، تَقْدِيرُهُ: اسْتَقَرَّ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: ﴿مُبَارَكًا﴾: أَيُّ عَظِيمِ الثَّبَاتِ، كَثِيرِ الْخَيْرَاتِ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿مُبَارَكًا﴾: أَيُّ كَثِيرِ الْخَيْرِ؛ لِمَا أَنَّهُ يُضَاعَفُ فِيهِ ثَوَابُ الْعِبَادَةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يُعْفَرُ فِيهِ الذُّنُوبُ لِمَنْ حَاجَّهُ وَطَافَ بِهِ وَاعْتَكَفَ عِنْدَهُ. وَقَالَ الْقَمَلُ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَرَكَتُهُ مَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وَقِيلَ: بَرَكَتُهُ: دَوَامُ الْعِبَادَةِ فِيهِ وَلُزُومُهَا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿مُبَارَكًا﴾: الْبَرَكَةُ لَهَا مَعْنَيَانِ: الْأَوَّلُ: التَّمُومُ وَالزِّيَادَةُ. الثَّانِي: الثُّبُوتُ وَالِدَوَامُ وَالِاسْتِقْرَارُ، وَمِنْهُ الْبَرَكَةُ؛ لِثُبُوتِ الْمَاءِ فِيهَا. وَالْبَرَكُ: الصَّدْرُ؛ لِثُبُوتِ الْحِفْظِ فِيهِ، وَالْبَرَائِءُ الثُّبُوتُ فِي الْقِتَالِ. وَ﴿مُبَارَكًا﴾: اسْمٌ مَفْعُولٍ مِنْ بَارَكَ الشَّيْءُ إِذَا جَعَلَ لَهُ بَرَكََةً، وَهِيَ زِيَادَةُ فِي الْخَيْرِ، أَيُّ جُعِلَتِ الْبَرَكَةُ فِيهِ بِجَعْلِ اللَّهِ، إِذْ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ دَاخِلُهُ مُثَابًا وَمُحَصَّلًا عَلَى خَيْرٍ يَبْلُغُهُ عَلَى مَبْلَغِ نِيَّتِهِ، وَقَدَّرَ لِمُجَاوِرِيهِ وَسُكَّانِ بَلَدِهِ أَنْ يَكُونُوا بِبَرَكََةِ زِيَادَةِ الثَّوَابِ وَرَفَاهِيَةِ الْحَالِ، وَأَمَرَ بِجَعْلِ دَاخِلِهِ آمِنًا، وَقَدَّرَ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بَرَكََةً. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿مُبَارَكًا﴾: أَيُّ أَنَّ فِيهِ الْبَرَكَةُ. وَبَرَكَاتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ "مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرُفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ. وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْحَسَنَاتِ فِيهِ مُضَاعَفَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الْعِبَادَةَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي غَيْرِهِ، سَوَاءً كَانَتْ صَلَاةً أَمْ صَدَقَةً أَمْ صِيَامًا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ. وَمِنْ بَرَكَتِهِ أَيْضًا: أَنَّهُ تُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنْ مَكَّةَ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَمِنْ بَرَكَتِهِ أَيْضًا: أَنَّ فِيهِ مَاءً مِنْ شَرِبَهُ لِأَيِّ شَيْءٍ بَنِيَّةٌ صَادِقَةٌ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُ، وَهُوَ مَاءُ زَمْزَمَ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ" رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ. وَمِنْ بَرَكَتِهِ: مَا يَحْصُلُ مِنَ الْمَكَاسِبِ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ فِي أَيَّامِ الْمَوَاسِمِ وَغَيْرِ أَيَّامِ الْمَوَاسِمِ. وَمِنْ بَرَكَتِهِ: أَنَّهُ بَعَثَ فِيهِ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ شَرِيعَتَهُ أَفْضَلَ شَرِيعَةٍ كَانَتْ لِلْخَلْقِ.

﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: قال ابن الجوزي: في الهدى هاهنا أربعة أقوال. أحدها: أنه بمعنى القبلة، فتقديره: وقبله العالمين. الثاني: أنه بمعنى: الرحمة. الثالث: أنه بمعنى: الصلاح؛ لأن من قصده، صلحت حاله عند ربه. الرابع: أنه بمعنى: البيان، والدلالة على الله بما فيه من الآيات التي لا يقدّر عليها غيره، حيث يجتمع الكلب والظبي في الحرم، فلا الكلب يهيج الظبي، ولا الظبي يستوحش منه، قاله القاضي أبو يعلى. وقال أبو حيان: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: أما كونه هدى؛ فلأنه لما كان مقومًا مصلحًا كان فيه إرشاد. ويولع بكونه هدى، أو هو على حذف مضاف، أي وذا هدى. وقال السعدي: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: الهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبّدات المختصة به، وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾. وقال ابن عاشور: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: جعل هدى للعالمين كليلهم؛ لأن شهرته، وتسامع الناس به، يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه، وأنه لتوحيد الله، وتطهير النفوس من حُبِّ الشُّرْك، فيَهْتَدِي بِذَلِكَ الْمُهْتَدِي، وَيَرْعَوِي الْمُتَشَكِّكُ. وقال العثيمين: ﴿وَهْدَىٰ﴾: أي منارًا يَهْتَدِي به؛ لأنه يجتمع فيه المسلمون من كلِّ جانب، يأوون إليه من كلِّ فج عميق، فيَهْتَدِي الضالّ منهم بالمهتدي ويحصل به التعليم والأسوة الحسنة، وكذلك أيضًا هدى للعالمين؛ لأن الأمة الإسلامية كلّها تهوي إليه وتتجه إليه في كلّ يوم خمس مرّات. ومن هدايته للعالمين: أنّ فيه إقامة الحج وإقامة العمرة وذلك هدى؛ لأن الأمة تزداد إيمانًا وهدى بالحج والعمرة. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: المراد بهم: الإنس، فهو عامّ أريد به الخاصّ، وليس المراد بهم: من سوى الله؛ لأن العالمين في بعض المواضع يراد بها: من سوى الله، وفي بعض المواضع يراد بها: الإنس فقط، وقد يراد بها: الإنس والجنّ، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

[الفرقان: ١]. وَتُؤْمِنُوا عَالَمِينَ مِنَ الْعَلَامَةِ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَّمُوا عَلَى خَالِقِهِمْ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْبَشَرُ بَلْ وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى خَالِقِهَا.

- فائدة: عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: "قلت: يا رسول الله أيُّ مسجدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلًا؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أيُّ؟ قال: المسجد الأقصى. قال: قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قال: فأينما أدركتكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، فَهُوَ مَسْجِدٌ" رواه الشيخان.

-
- قال الله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾:
 - مناسبة الآية للتي قبلها:

قال ابن عاشور: جُمْلَةُ ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ اسْتِثْنَاءٌ ثَنَاءٍ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ بِمَا حَفَّ بِهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْمَزَايَا.

- تفسير الآية:

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾: قال ابن عطية: الضميرُ في قَوْلِهِ: (فِيهِ) عَائِدٌ عَلَى الْبَيْتِ، وَسَاعَ ذَلِكَ مَعَ كَوْنِ الْآيَاتِ خَارِجَةً عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ إِنَّمَا وُضِعَ بِحَرَمِهِ، وَجَمِيعُ فَضَائِلِهِ فَهِيَ فِيهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَاخِلَ جُذْرَانِهِ. وقال النسفي: أيُّ عِلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ، لَا تَلْتَبِيسُ عَلَى أَحَدٍ. وقال السعدي: أي أدلة واضحة، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيد الله ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما منَّ به على أنبيائه وأوليائه. وقال ابن عاشور: وَصَفُ الْآيَاتِ بِبَيِّنَاتٍ؛ لِظُهُورِهَا فِي عِلْمِ الْمُخَاطَبِينَ. انتهى كلامه. واختلف أهل العلم في المراد بها: فقيل: أي دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ. وقيل: الصِّفَاتُ وَالْمَرْوَةُ مِنَ الْآيَاتِ. وقيل: من الآيات: أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وقيل: أي وَمَنْ دَخَلَهُ عَامَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم كَانَ آمِنًا. وقيل: منها: الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ، وَالْحَطِيمُ (الحجر)، وَمَاءُ

زَمَرُمْ، وَالْمَشَاعِرُ كُلُّهَا. وقيل: منها: أَنَّهُ بَلَدٌ صَدَرَ إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ وَالْأَوْلِيَاءُ
وَالْأَبْرَارُ. وقيل: منها: أَنَّ الطَّاعَةَ وَالصَّدَقَةَ فِيهِ تُضَاعَفُ بِمِائَةِ أَلْفٍ. وقيل: منها: تَعَجِيلُ
الْعُقُوبَةِ لِمَنِ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ. وقيل: منها: إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْفِيلِ لَمَّا قَصَدُوا تَخْرِيْبَهُ. وقيل:
منها: إِذْعَانُ النُّفُوسِ لِتَوْفِيرِ الْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ زَاجِرٍ. وقيل: مِنْهَا: أَنَّ الطَّائِرَ لَا يَعْلُو الْبَيْتَ
صَحِيحًا. وقيل: مِنْهَا: أَنَّ الْجَارِحَ يَطْلُبُ الصَّيْدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْحَرَمَ تَرَكَهُ. وقيل: مِنْهَا: أَنَّ
الْغَيْثَ إِذَا كَانَ نَاحِيَةَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ كَانَ الْخِصْبُ بِالْيَمَنِ، وَإِذَا كَانَ بِنَاحِيَةِ الشَّامِيِّ كَانَ
الْخِصْبُ بِالشَّامِ، وَإِذْ عَمَّ الْبَيْتَ كَانَ الْخِصْبُ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ.

﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: قال الرازي: فيه أقوال: القول الأول: قَوْلُهُ: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لَا تَعْلُقُ
لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ
مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَقَرُّهُ وَالْمَوْضِعُ الَّذِي اخْتَارَهُ وَعَبَدَ اللَّهُ فِيهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي بِهَا
يُشْرَفُ وَيُعَظَّمُ. القول الثاني: أَنَّ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ مَذْكُورٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: أَيِ
هِيَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. وقال ابن جزي: قَوْلُهُ: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ عَطْفٌ
بَيَانٍ، وَإِنَّمَا جَازَ بَدَلُ الْوَاحِدِ مِنَ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَحْتَوِي عَلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى
قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَلَى نَبَوَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وقيل: الْآيَاتِ: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَأَمَّنْ مِنْ دَخَلِهِ،
فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عَطْفًا، وَعَلَى الْأَوَّلِ اسْتِثْنَاءً. وقيل: التَّقْدِيرُ: مِنْهُنَّ
مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، فَهُوَ عَلَى هَذَا مُبْتَدَأٌ. انتهى كلامه. واخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْمَرَادِ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ
عَلَى أَقْوَالٍ: القول الأول: قَالَ الْجُمْهُورُ: هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ
إِبْرَاهِيمَ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ.
عليهما السلام.، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِفًا بِجِدَارِ الْبَيْتِ، حَتَّى أَخْرَجَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ. فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطُّوَافُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ
عِنْدَهُ بَعْدَ الطُّوَافِ. والآية فيه: قيل: أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة، وبقي ذلك
الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات. قَالَ مُجَاهِدٌ: أَثَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ

آيَةُ بَيِّنَةٍ. وقيل: إِنَّ الآية فيه: ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه. القول الثاني: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: أي البَيْتُ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ بَنَاهُ وَقَامَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِهِ. القول الثالث: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. القول الرابع: مَكَّةُ كُلُّهَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾: الضميرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عائِدٌ عَلَى الْبَيْتِ. وقيل: هو عائِدٌ عَلَى الْحَرَمِ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾: صُورَةُ الْآيَةِ حَبْرٌ وَمَعْنَاهَا أَمْرٌ، تَقْدِيرُهَا: وَمَنْ دَخَلَهُ فَأَمَّنُوهُ. وقيل: الآية خبر، والمعنى: ومن دخله فارًّا من غيره مستجيرًا به أَمِنَ مَنْ يَطْلُبُهُ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَي وَمَنْ دَخَلَهُ مُعْظَمًا لَهُ مُتَقَرِّبًا إِلَى اللَّهِ كَانَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾: (اللَّامُ) فِي قَوْلِهِ: (وَلِلَّهِ) لِلِاخْتِصَاصِ. وقيل: لَامُ الْإِيجَابِ وَالْإِلْزَامِ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (عَلَى) الَّتِي هِيَ مِنْ أَوْكَدِ الْفَاطِ الْوُجُوبِ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَإِذَا قَالَ الْعَرَبِيُّ: لِفُلَانٍ عَلَيَّ كَذَا، فَقَدْ وَكَّدَهُ وَأَوْجَبَهُ. فَذَكَرَ اللَّهُ الْحَجَّ بِأَبْلَغِ الْفَاطِ الْوُجُوبِ؛ تَأْكِيدًا لِحَقِّهِ وَتَعْظِيمًا لِحُرْمَتِهِ. وَلَا خِلَافَ فِي فَرِيضَتِهِ، وَهُوَ أَحَدُ فَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ يَجِبُ إِلَّا مَرَّةً فِي الْعُمْرِ. وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصَّصه الدليل كالصبي والمجنون ونحوهما. قال البيضاوي: وَقَدْ أُكِّدَ أَمْرُ الْحَجِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وَجْهِ الدَّلَالَةِ عَلَى وَجْهِهِ بِصِغَةِ الْحَبْرِ، وَإِبْرَازِهِ فِي الصُّورَةِ الْاسْمِيَّةِ وَإِبْرَازِهِ عَلَى وَجْهِ يُفِيدُ أَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ لِلَّهِ فِي رِقَابِ النَّاسِ، وَتَعْمِيمُ الْحُكْمِ أَوَّلًا ثُمَّ تَخْصِصُهُ ثَانِيًا فَإِنَّهُ كإيضاحٍ بَعْدَ إِيهامٍ وَتَثْنِيَّةٍ وَتَكْرِيرٍ لِلْمُرَادِ، وَتَسْمِيَّةُ تَرْكِ الْحَجِّ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فِعْلُ الْكُفْرَةِ، وَذِكْرُ الْإِسْتِغْنَاءِ فَإِنَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمَقْتِ وَالْحِذْلَانِ. وقال ابن كثير: هَذِهِ آيَةُ وَجُوبِ الْحَجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقِيلَ: بَلْ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: ﴿مَنْ﴾ هَذِهِ بَدَلٌ مِنْ ﴿النَّاسِ﴾، بَدَلٌ بَعْضٌ مِنْ كُلِّ مَخْصَصٍ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ قِسْمَانِ: مُسْتَطِيعٌ وَغَيْرُ مُسْتَطِيعٍ، فَالْمُسْتَطِيعُ بَعْضٌ مِنْ

الناس. قال البغوي: الاستِطاعةُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ. وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مُسْتَطِيعًا بِغَيْرِهِ. أَمَّا الْإِسْطِطَاعَةُ بِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا بِنَفْسِهِ عَلَى الدَّهَابِ وَوَجَدَ الزَّادَ وَالرَّاحِلَةَ. وَأَمَّا الْإِسْطِطَاعَةُ بِالْغَيْرِ هُوَ: أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَاجِزًا بِنَفْسِهِ، بَأَنْ كَانَ زَمَنًا أَوْ بِهِ مَرَضٌ غَيْرُ مَرْجُوِّ الزَّوَالِ، لَكِنْ لَهُ مَالٌ يُكْفِيهِ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مَنْ يَحْجُجُ عَنْهُ، يَحِبُّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْجِرَ، أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ لَكِنْ بَذَلَ لَهُ وَلَدُهُ أَوْ أَجْنَبِيَّ الطَّاعَةَ فِي أَنْ يَحْجُجَ عَنْهُ، يَلْزِمُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ إِذَا كَانَ يَعْتَمِدُ صِدْقَهُ.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: أَيُّ وَمَنْ جَحَدَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ فَقَدْ كَفَرَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: الْحَجُّ إِلَى مَكَّةَ غَيْرُ وَاجِبٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ مَنْ وَجَدَ مَا يَحْجُجُ بِهِ ثُمَّ لَمْ يَحْجِجْ حَتَّى مَاتَ فَهُوَ كُفْرٌ بِهِ. وَقِيلَ: أَيُّ مَنْ لَمْ يَرْجُ ثَوَابَ حَجِّهِ، وَلَمْ يَخَفْ عِقَابَ تَرْكِهِ، فَقَدْ كَفَرَ بِهِ، رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ. وَقِيلَ: أَنَّهُ أَرَادَ الْكُفْرَ بِالْآيَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِي ذِكْرِ الْبَيْتِ، لِأَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: نَحْنُ نَكْفُرُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ. قَالَ الْبَيْضاوي: قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: يَدُلُّ عَلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ مُبَالَغَةِ التَّعْمِيمِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالْبُرْهَانِ وَالْإِشْعَارِ بِعِظَمِ السُّحْطِ؛ لِأَنَّهُ تَكْلِيفٌ شاقٌّ جَامِعٌ بَيْنَ كَسْرِ النَّفْسِ وَإِتْعَابِ الْبَدَنِ وَصَرْفِ الْمَالِ وَالتَّجَرُّدِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: وَمَعْنَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: الْوَعِيدُ لِمَنْ كَفَرَ، وَالْقَصْدُ بِالْكَلَامِ: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَلَكِنْ عَمَّ الْفِظُ؛ لِيَبْرَعَ الْمَعْنَى، وَتَنْتَبِهَ الْفِكْرُ لِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨):

- سبب نزول الآية:

قال ابن عطية: "قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي الثَّقَلِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ الْيَهُودِيُّ . وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضَّغَنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْحَسَدِ لَهُمْ .، عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْجِ، وَهُمْ فِي مَجْلِسٍ يَتَحَدَّثُونَ، فَعَاظُهُ مَا رَأَى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ، وَصَلَّاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَاللَّهُ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَأُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ فَتَى شَابًّا مِنْ يَهُودٍ، فَقَالَ: اعْمَدْ إِلَيْهِمْ واجْلِسْ مَعَهُمْ وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أَيَّامٍ حَرَبِهِمْ، وَأَنْشِدْهُمْ مَا قَالُوهُ مِنَ الشَّعْرِ فِي ذَلِكَ، فَفَعَلَ الْفَتَى، فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ فَتَفَاخَرُوا وَتَنَارَعُوا، حَتَّى تَوَاتَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكْبِ: أَوْسُ بْنُ قَيْظِي، أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الْخَزْجِ، فَتَقَاوَلَا، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ شِئْنُكُمْ وَاللَّهُ رَدَدْنَا جَذَعَةً، فَعُضِبَ الْفَرِيقَانِ، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، السِّلَاحَ السِّلَاحَ، مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةُ، يُرِيدُونَ الْحَرَّةَ، فَحَرَّجُوا إِلَيْهَا، وَتَحَاوَرَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَاهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ، أَبَدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟، وَوَعَظَهُمْ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَلْقُوا السِّلَاحَ وَبَكَوْا وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْجِ، وَانْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ". وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ، بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِالْمَوْصُوفِ فِي كِتَابِنَا. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ

رَحْمَةُ اللَّهِ: وَلَا شَكَّ فِي وُقُوعِ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ وَمَا شَاكَلَهُمَا مِنْ أَفْعَالِ الْيَهُودِ وَأَقْوَاهِمَ، فَنَزَلَتْ الْآيَاتُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ". انتهى.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا أَتَمَّ سُبْحَانُهُ الْبَرَاهِينَ، وَأَحْكَمَ الدَّلَائِلَ عَقْلاً وَتَمَعّاً، وَلَمْ يَبْقَ لِمُتَعَنِّتِ شُبْهَةٌ، وَلَمْ يُبَادِرُوا الْإِدْعَانَ، بَلْ زَادُوا فِي الطُّغْيَانِ، وَكَادُوا أَنْ يُوقِعُوا الضَّرَابَ وَالطِّعَانَ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ، أَعْرَضَ تَعَالَى عَنْ خِطَابِهِمْ؛ إِذَا نَأَى بِشَدِيدِ الْعُضْبِ، وَرَابِعِ الْإِنْتِقَامِ؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾:

● تفسير الآية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: قال مكِّي: هذا خطاب لليهود والنصارى وتوبيخ لهم؛ لأنهم كفروا بمحمد وهم يشهدون أنه حق يجدونه عندهم في التوراة مكتوباً. وقال الواحدي: إن قيل: لم جاز أن يقال لليهود والنصارى: (أهل الكتاب)، وهم لا يعملون به، ولم يجز مثل ذلك في أهل القرآن؟ قيل: إنَّ القرآن اسمٌ خاصٌ لما أنزل الله على مُحَمَّدٍ ﷺ، فأما الكتاب فيجوز أن يذهب به إلى معنى: (يا أهل الكتاب المحرف عن جهته)، وأيضاً فإنهم نُسبوا إلى الكتاب؛ احتجاجاً عليهم بالكتاب؛ لإقرارهم به، كأنه قيل: يا من يُقَرُّ بأنه من أهل الكتاب لم تكفروا بآيات الله؟. وقال ابن عطية: هذه الآيات تَوَيْخٌ لِلْيَهُودِ الْمُعَاصِرِينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. والكتاب: التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون. وآيات الله: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهَا هُنَا الْقُرْآنَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِالْآيَاتِ الْعَلَامَاتُ الظَاهِرَةُ عَلَى يَدَيِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وقال الرازي: اِخْتَلَفُوا فِيمَنْ الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: هُمْ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ عَلِمُوا صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾. وقال بعضهم: بل المراد: كُلُّ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ فَكَأَنَّهُمْ بَتَرَكِ الْإِسْتِدْلَالِ وَالْعُدُولِ إِلَى التَّقْلِيدِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ عَلِمَ ثُمَّ أَنْكَرَ. وقال أبو حيان: حَصَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالذِّكْرِ دُونَ سَائِرِ

الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، الْمُرَادُ الدَّلَائِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْمُجَابُونَ عَنْ شُبُهِهِمْ فِي ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ أَقْوَى؛ لِتَقَدُّمِ اعْتِرَافِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ وَأَصْلِ النُّبُوَّةِ؛ وَلِمَعْرِفَتِهِمْ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّهَادَةِ لِلرَّسُولِ وَالْبَشَارَةِ بِهِ. وَالْآيَاتُ: هِيَ الْعَلَامَاتُ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ دَلَالَةً عَلَى الْحَقِّ. وَقِيلَ: آيَاتُ اللَّهِ: هِيَ آيَاتُ مِنَ التَّوْرَةِ فِيهَا صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَيُحْتَمَلُ: الْقُرْآنُ، وَمُعْجَزَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَإِنَّمَا حُوطِبُوا بِعُنْوَانِ أَهْلِيَّةِ الْكِتَابِ الْمَوْجِبَةِ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا يُصَدِّقُهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ مُبَالَغَةً فِي تَقْيِيحِ حَالِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِهَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿لَمْ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الْإِسْتِنْفَاهُ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى تَعْجِيزِهِمْ عَنْ إِقَامَةِ الْعُدْرِ فِي كُفْرِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَاتُوا عُذْرَكُمْ إِنْ أُمَكْتَكُم. وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَاتِ مُطْلَقُ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصِدْقِ مُدَّعَاهُ الَّذِي مِنْ جُمْلَتِهِ الْحُجُّ وَأَمْرُهُ بِهِ، وَبِهِ تَظْهَرُ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: هُنَا أَمْرُ اللَّهِ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُوَبِّخَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَ﴿تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: أَيِ تَحْدُوْنَهَا وَتَتَغَافَلُونَ عَنْهَا وَتَتَعَامَلُونَ عَنْهَا، وَالْمُرَادُ بِالْآيَاتِ هُنَا: الْآيَاتُ الْكُونِيَّةُ، وَالشَّرْعِيَّةُ. وَالْكَفَرُ بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَنْ يَنْكَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرِيكًا فِي إِيجَادِهَا، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ مَعِينًا فِيهَا.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: قَالَ مَكِّي: أَيِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ بَاطِلٍ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ حَقٌّ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: جُمْلَةً حَالِيَّةً فِيهَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، أَيُّ أَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ مُطْلَعًا عَلَىٰ أَعْمَالِهِ مُشَاهِدًا لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ لَا يُنَاسِبُهُ أَنْ يَكْفُرَ بِآيَاتِهِ، فَلَا يُجَامِعُ الْعِلْمَ بِأَنَّ اللَّهَ مُطْلَعٌ عَلَىٰ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَيَقَّنَ أَنَّ اللَّهَ مُجَازِيهِ لَا يَكَادُ يَقَعُ مِنْهُ الْكُفْرُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْكِبَائِرِ. وَأَتَتْ صِبْغَةً: ﴿شَهِيدٌ﴾؛ لِتَدُلَّ عَلَى الْمِبَالَعَةِ بِحَسَبِ الْمِتَعَلِّقِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ يُرَادُ بِهَا الْعِلْمُ فِي حَقِّ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ حَيْثُ هِيَ لَا تَقْبَلُ التَّفَاوُتَ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ. فَإِذَا

جاءت الصِّفَةُ مِنْ أَوْصَافِهِ لِلْمُبَالِغَةِ فَذَلِكَ بِحَسَبِ مُتَعَلِّقَاتِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿شَهِيدٌ﴾، وَ(مَا) مَوْصُولَةٌ. وَجَوَّزُوا أَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً، أَيْ عَلَى عَمَلِكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ الْعَامِلُ فِيهَا (تَكْفُرُونَ)، وَهِيَ مُفِيدَةٌ لِتَشْدِيدِ التَّوْبِيخِ. وَالشَّهِيدُ: الْعَالِمُ الْمَطَّلِعُ. وَصِغَةُ الْمُبَالِغَةِ؛ لِلْمُبَالِغَةِ فِي الْوَعِيدِ. وَ(مَا): إِمَّا عِبَارَةً عَنْ كُفْرِهِمْ، وَإِمَّا عَلَى عُمُومِهَا وَهُوَ دَاخِلٌ فِيهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا. وَالْمَعْنَى: لِأَيِّ سَبَبٍ تَكْفُرُونَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعُ أَعْمَالِكُمْ وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا عَلَى أَتَمِّ وَجْهِهِ، وَلَا مَرِيَّةَ فِي أَنَّ هَذَا مِمَّا يَسُدُّ عَلَيْكُمْ طُرُقَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَيَقْطَعُ أَسْبَابَ ذَلِكَ أَصْلًا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿شَهِيدٌ﴾: أَيُّ شَاهِدٍ، وَأَتَى بِصِغَةِ الْمُبَالِغَةِ أَوْ بِالصِّفَةِ الْمَشْبَهَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَعْمَالُهُمْ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا كَثُرَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ كَثُرَتِ الشَّهَادَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي ضَمَنِ التَّوْبِيخِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تَكْفُرُوا﴾، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (الْوَاوُ) لِلِاسْتِثْنَاءِ، وَأَنْ يَكُونَ التَّوْبِيخُ انْتَهَى عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بِأَنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَعْمَلُونَ، وَإِذَا كَانَ شَهِيدًا عَلَى مَا يَعْمَلُونَ فَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

• قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩):

• سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ مُقَاتِلٌ: دَعَتِ الْيَهُودُ حُذَيْفَةَ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، إِلَى دِينِهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: لَمَّا أَنْكَرَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي ضَلَالِهِمْ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ فِي إِضْلَالِهِمْ لِضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾. وقال أبو حيان: لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَضَلَالَهُمْ، وَلَمْ يَكْتَفُوا حَتَّى سَعَوْا فِي إِضْلَالِ مَنْ آمَنَ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى ذَلِكَ.

وقال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾: تَوْبِيخٌ ثَانٍ وَإِنْكَارٌ عَلَى مُجَادَلَتِهِمْ لِإِضْلَالِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ضَلَالَهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ.

● تفسير الآية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: قال ابن الجوزي: في المرادِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ هَاهُنَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَهُ الْحَسَنُ. الثَّانِي: الْيَهُودُ. قَالَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَمُقَاتِلٌ. قال أبو حيان: قَالَ الرَّاعِبُ: وَقَدْ جَاءَ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ دُونَ (قُلْ)، وَجَاءَ هُنَا (قُلْ)، فَبَدُونِ (قُلْ) هُوَ اسْتِدْعَاءٌ مِنْهُ تَعَالَى لَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، فَجَعَلَ خِطَابَهُمْ مِنْهُ اسْتِثْنَاءً لِلْقَوْمِ؛ لِيَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَى الْإِنْقِيَادِ. وَلَمَّا قَصَدَ الْعِصْيَ مِنْهُمْ ذَكَرَ (قُلْ)؛ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَأْهِلِينَ أَنْ يُخَاطَبَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ كِلَا الْخِطَابَيْنِ وَصَلَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ. وَأُطْلِقَ (أَهْلَ الْكِتَابِ) عَلَى الْمَدْحِ تَارَةً، وَعَلَى الذَّمِّ أُخْرَى. وَأَهْلُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَا يَنْطَلِقُ إِلَّا عَلَى الْمَدْحِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ قَدْ يُرَادُ بِهِ مَا افْتَعَلُوهُ دُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، نَحْوُ: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وَأَيْضًا فَقَدْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ وَالتَّهْكُمِ، كَمَا لَوْ قِيلَ: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) لِمَنْ لَا يَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهُ. وقال البقاعي: كَرَّرَ هَذَا الْوَصْفَ؛ لِأَنَّهُ . مَعَ أَنَّهُ أَبْعَدُ فِي التَّقْرِيعِ . أَقْرَبُ إِلَى التَّلَطُّفِ فِي صَرْفِهِمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ. وقال ابن عاشور: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: فَصِلَ بِلا عَطْفٍ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِثْنَائِهِ بِالْقَصْدِ، وَلَوْ عُطِفَ لَصَحَّ الْعَطْفُ.

﴿لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾: قال ابن عطية: صدَّ معناه: أَعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ، وهو فِعْلٌ، يَقِفُ وَيَتَعَدَّى بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، تَقُولُ: صَدَدْتُ عَنْ كَذَا، وَصَدَدْتُ غَيْرِي عَنْهُ، فَالَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْفِعْلُ الْمَتَعَدِّي. وقال ابن عاشور: الصَّدُّ يُسْتَعْمَلُ قَاصِرًا وَمُتَعَدِّيًا: يُقَالُ: صَدَّهُ عَنْ كَذَا فَصَدَّ عَنْهُ. وَقَاصِرُهُ بِمَعْنَى: الْإِعْرَاضِ. فَمُتَعَدِّيهِ بِمَعْنَى: جَعَلَ الْمَصْدُودَ مُعْرَضًا، أَيْ صَرَفَهُ، وَيُقَالُ: أَصَدَّهُ عَنْ كَذَا، وَهُوَ ظَاهِرٌ. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ الْإِسْلَامَ، وَالْحُجَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ، وَعَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا إِذَا سُئِلُوا: هَلْ بَجَدُوا مُحَمَّدًا فِي كُتُبِكُمْ؟ قَالُوا: لَا. فَصَدُّوا عَنْهُ النَّاسَ. وَقِيلَ: صَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ: مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْرَاضِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ حَتَّى يَتَذَكَّرُوا حُرُوبَ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَتَفَرَّقُوا، وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْيَهُودِ خَاصَّةً، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ. وَقِيلَ: صَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ: تَكْذِيبُهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَإِنْكَارُهُمْ ثُبُوتَ صِفَتِهِ فِي كُتُبِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ. ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: أَيْ مَنْ آمَنَ بِالْفِعْلِ، أَوْ مَنْ أَرَادَ الْإِيمَانَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أَيْ عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ. وَسَمَّى الدِّينَ سَبِيلًا لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ مَوْصِلٌ إِلَيْهِ، وَأَضِيفَ إِلَى اللَّهِ لَوَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي وَضَعَهُ سَبِيلًا لِلخَلْقِ يَمْشُونَ عَلَيْهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ مَوْصِلٌ إِلَى اللَّهِ، فَمَنْ سَلَكَ السَّبِيلَ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لِلْعِبَادِ فَسَيَصِلُ إِلَى اللَّهِ.

﴿تَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: ﴿تَبْعُونَهَا﴾: الْبَغْيُ يُقْتَصَرُ لَهُ عَلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ (الْلَامُ)، كَقَوْلِكَ: (بَغَيْتُ الْمَالَ وَالْأَجَرَ وَالثَّوَابَ). وَأُرِيدُ هَهُنَا: تَبْعُونَ لَهَا عِوَجًا. فَلَمَّا سَقَطَتِ (الْلَامُ)، عَمِلَ الْفِعْلُ فِيمَا بَعْدَهَا، كَمَا قَالُوا: (وَهَبْتُكَ دَرَهْمًا)، وَأَصْلُهُ: وَهَبْتُ لَكَ دَرَهْمًا، وَمِثْلُهُ: (صَدْتُكَ ظَنِيًّا)، يَعْنُونَ: صَدْتُ لَكَ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ أَيْضًا: وَ(الْهَاءُ) فِي قَوْلِهِ: ﴿تَبْعُونَهَا﴾ عَائِدَةٌ عَلَى السَّبِيلِ؛ لِأَنَّ السَّبِيلَ يُؤَنَّثُ وَيُذَكَّرُ. وَ(الْعِوَجُ)، يَعْنِي بِهِ: الزَّيْغُ وَالتَّحْرِيفُ، أَيْ تَلْتَمِسُونَ لِسَبِيلِهِ الزَّيْغَ وَالتَّحْرِيفَ بِالشَّبهِ الَّتِي تُلَبِّسُونَ بِهَا، وَتُؤْهِمُونَ أَنَّهَا تَقْدَحُ فِيهَا، وَأَنَّهَا مُعَوَّجَةٌ بِنَتَاقُضِهَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿عِوَجًا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: تَبْعُونَهَا ضَالِّينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى

دين الله وسبيله، فقال الله: إنكم تبغون سبيل الله ضالين عنها. وهذا قول أبي إسحاق، ذكر ذلك في سورة إبراهيم، عند قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣). وعلى هذا القول، لا يحتاج إلى إضمار اللام في ﴿تَبْغُونَهَا﴾. وقال بعض أهل المعاني: تأويل الآية: يطلبون أن يُعْوجُّوا سبيل الله، وأن يكون فيها عِوَج؛ لأن معنى (سبيل الله): الطريق التي هي الوُصْلَة إلى رضا الله، فهم يطلبون أن يُعْوجُّوا هذا الطريق؛ حتى لا يصل إلى رضا الله من سلكها بدلالة اليهود. وقال ابن عطية: الضمير في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ عائِدٌ على السبيل، ومعنى (تَبْغُونَ): تَطْلُبُونَ، فالمعنى: تَطْلُبُونَ لها العِوَجَ، أي الاعوجاج والافتساد. وقيل: إِنَّ (تَبْغُونَ) هُنا، مِنَ البَغْيِ الَّذِي هو التَعَدِّي، أي تَبْغُونَ عَلَيْهَا، وَيَكُونُ (عِوَجًا) على هذا التَأْوِيلِ نَصْبُهُ على الحالِ مِنَ الضميرِ في (تَبْغُونَ)، أي عِوَجًا مِنْكُمْ وَعَدَمَ اسْتِقَامَةٍ. وقال ابن الجوزي: قَالَ اللُّغَوِيُّونَ: (الهَاءُ) كِنَايَةٌ عَنِ السَّبِيلِ، وَالسَّبِيلُ يُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ. وَمَعْنَى ﴿تَبْغُونَهَا﴾: تَبْغُونَ لها، تَقُولُ الْعَرَبُ: ابْغِي خَادِمًا، يُرِيدُونَ: ابْتَغِي لِي، فَإِذَا أَرَادُوا: ابْتَغِ مَعِي، وَأَعِنِّي عَلَى طَلْبِهِ، قَالُوا: ابْغِي، فَفَتَحُوا الْأَلِفَ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: يَلْتَمِسُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ الرَّفْعَ وَالتَّخْرِيفَ، وَيُرِيدُونَ رَدَّ الْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِعْوِجَاجِ. وَيَطْلُبُونَ الْعُدُولَ عَنِ الْقَصْدِ، هَذَا قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَالرَّجَّاحِ، وَاللُّغَوِيِّينَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: خَرَجَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى السَّبِيلِ، وَالْمَعْنَى لِأَهْلِهِ، كَأَنَّ الْمَعْنَى: تَبْغُونَ لِأَهْلِ دِينِ اللَّهِ، وَلَمَنْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ عِوَجًا. وَ﴿عِوَجًا﴾: أي ضَلَالًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْعِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ، فِي الدِّينِ، وَالْكَلَامِ، وَالْعَمَلِ، وَالْعِوَجُ بِفَتْحِهَا، فِي الْحَائِطِ وَالْجَذْعِ. وَقَالَ الرَّجَّاحُ: الْعِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ: فِيمَا لَا تَرَى لَهُ شَخَصًا، وَمَا كَانَ لَهُ شَخَصٌ قُلْتُ: عِوَجٌ بِفَتْحِهَا، تَقُولُ: فِي أَمْرِهِ وَدِينِهِ عِوَجٌ، وَفِي الْعَصَا عِوَجٌ. وَرَوَى ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ عَنْ ثَعْلَبٍ، قَالَ: الْعِوَجُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِكَسْرِ الْعَيْنِ: فِي كُلِّ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ، وَالْعِوَجُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَا لَا يَحْصُلُ، فَيُقَالُ: فِي الْأَرْضِ عِوَجٌ، وَفِي الدِّينِ عِوَجٌ، لِأَنَّ هَذَيْنِ يَتَسَعَّانِ، وَلَا يُدْرَكَانِ. وَفِي الْعَصَا عِوَجٌ، وَفِي السِّنِّ عِوَجٌ؛ لِأَنَّهُمَا يُحَاطُ بِهِمَا، وَيَبْلُغُ كُنْهُمَا. وَقَالَ ابْنُ

فَارِسٍ: الْعَوْجُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ: فِي كُلِّ مُنْتَصِبٍ، كَالْحَائِطِ. وَالْعَوْجُ: مَا كَانَ فِي بَسَاطٍ أَوْ أَرْضٍ، أَوْ دِينَ، أَوْ مَعَاشٍ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ تَطَلُّبُونَ لَهَا، فَحَذَفَ (اللام)، مِثْلُ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]. يُقَالُ: بَعَيْتُ لَهُ كَذَا: أَيُّ طَلَبْتُهُ. وَأَبْعَيْتُهُ كَذَا: أَيُّ أَعْنَيْتُهُ. وَالْعَوْجُ: الْمَيْلُ وَالزَّيْعُ فِي الدِّينِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَمَا خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِوَاءِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْعَوْجُ. بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الْوَاوِ: ضِدُّ الْإِسْتِقَامَةِ وَهُوَ اسْمُ مَصْدَرٍ عَوْجَ كَفَرَحَ، وَمَصْدَرُهُ الْعَوْجُ كَالْفَرَحِ. وَقَدْ حَصَّ الْإِسْتِعْمَالُ غَالِيًا الْمَصْدَرَ بِالْأَعْوِجَاجِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ، كَالْحَائِطِ وَالْقَنَاةِ. وَحَصَّ إِطْلَاقَ اسْمِ الْمَصْدَرِ بِالْأَعْوِجَاجِ الَّذِي لَا يُشَاهَدُ كَأَعْوِجَاجِ الْأَرْضِ وَالسَّطْحِ، وَبِالْمَعْنَوِيَّاتِ كَالدِّينِ. وَالْمَعْنَى: تَصُدُّونَ عَنِ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ وَتُرِيدُونَ السَّبِيلَ الْمَعْوَجَّ فِي ضَمِيرٍ تَبْعُوهَا اسْتِخْدَامٌ؛ لِأَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ الْمَصْدُودَ عَنْهَا هِيَ الْإِسْلَامُ، وَالسَّبِيلُ الَّذِي يُرِيدُونَهَا هِيَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بَعْدَ نَسْخِهِ وَتَحْرِيفِهِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: الْعَوْجُ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ مَوْضُوعُهُ أَمْرَانِ: الْأَوَّلُ فِي الْأَوَامِرِ، وَالثَّانِي فِي النَّوَاهِي، أَمَّا فِي الْأَوَامِرِ فَاعْوِجَاجُهَا: إِمَّا بِالتَّهَوُّنِ بِهَا وَالتَّفْرِيطِ، وَإِمَّا بِالْإِفْرَاطِ فِيهَا وَالْغُلُوِّ. فَالنَّاسُ بِالنِّسْبَةِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ وَسْطٌ، وَقِسْمٌ مُفَرِّطٌ، وَقِسْمٌ مُفْرِطٌ، يَعْنِي غَالِيٌ مَتَجَاوِزٌ لِلْحَدِّ، فَالْوَسْطُ هُوَ الْمُسْتَقِيمُ، وَالْمُفَرِّطُ عَوْجٌ، وَالزَّائِدُ عَوْجٌ أَيْضًا، هَذَا فِي الْأَوَامِرِ. وَالْعَوْجُ فِي النَّوَاهِي: هُوَ انْتِهَاكُهَا وَارْتِكَابُهَا، هَذَا عَوْجٌ؛ لِأَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فِي النَّوَاهِي أَنْ تَدَعَهَا وَأَنْ تَتَجَاوَزَهَا، فَإِذَا أَنْتَ فَعَلْتَهَا وَانْتَهَكْتَهَا فَهَذَا هُوَ الْعَوْجُ فِيهَا، فَهَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَهْلُ الْكِتَابِ يَرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ الْعَوْجَ فِي الْأَوَامِرِ وَفِي النَّوَاهِي.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾: قِيلَ: أَيُّ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ بِصِحَّةِ مَا صَدَدْتُمْ عَنْهُ، وَبُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: مَعْنَى الشُّهَدَاءِ هَاهُنَا: الْعُقَلَاءُ، ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى. وَقِيلَ: أَيُّ شُهَدَاءُ أَنْ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبًا أَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ الْإِسْلَامُ؛ إِذْ فِيهِ نَعْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيلَ: أَيُّ شُهُودًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ صَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وَقِيلَ: أَيُّ شُهُودًا عَلَى عِنَادِهِمْ وَكَذِبِهِمْ. وَقِيلَ: أَيُّ شُهَدَاءَ عَلَى ظُهُورِ الْمَعْجَزَاتِ عَلَى نُبُوتِهِ

ﷺ. وقيل: أي شَهِدَاءُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وقيل: أي شَهِدَاءُ بَيْنَ أَهْلِ
 دِينِكُمْ عُذُولٌ يَتَّقُونَ بِأَقْوَالِكُمْ وَيُعْمَلُونَ عَلَى شَهَادَتِكُمْ فِي عِظَامِ الْأُمُورِ وَهُمْ الْأَخْبَارُ. قال
 ابن عاشور: ﴿وَأَنْتُمْ شُهِدَاءُ﴾: أي وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ أَنَّهَا سَبِيلُ اللَّهِ. وَقَدْ أَحَالَهُمْ فِي هَذَا
 الْكَلَامِ عَلَى مَا فِي ضَمَائِرِهِمْ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ وَخَزِ قُلُوبِهِمْ،
 وَانْتِثَائِهِمْ بِاللَّائِمَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.
 ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قال أبو السعود: اعْتِرَاضٌ تَذِيلِيٌّ فِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ
 شَدِيدٌ. قِيلَ: لَمَّا كَانَ صَدُّهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِطَرِيقِ الْحَقِّيةِ حُتِمَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِمَا يَحْسِمُ مَادَّةَ
 حِيلَتِهِمْ مِنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِهِمْ، كَمَا أَنَّ كُفْرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَمَّا كَانَ بِطَرِيقِ
 الْعِلَاقَةِ حُتِمَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ بِشَهَادَتِهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَعْمَلُونَ. وَقَالَ صَدِّيقُ خَانَ: فِيهِ
 وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَجْتَهِدُونَ وَيَحْتَالُونَ بِإِلْقَاءِ الشُّبْهَةِ
 فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالتَّصَدِّيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بِطَرِيقِ الْحَقِّيةِ، حُتِمَتِ
 الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِمَا يَحْسِمُ مَادَّةَ حِيلَتِهِمْ مِنْ إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ وَتَذَكِيرٌ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تُخْفِي
 الصُّدُورَ، وَهُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ فِي مَوْعِظَتِهِمْ السَّابِقَةِ: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، إِلَّا أَنَّ
 هَذَا أَعْلَظُ فِي التَّوْبِيخِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِبْطَالِ اعْتِقَادِ عَقَلَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ
 حَالِ مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: نَفَى اللَّهُ أَنَّ
 يَكُونَ غَافِلًا عَنْ عَمَلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ. وَهَذَا نَجْدٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ مِنْ
 الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ قِسْمَانِ: ثُبُوتِيَّةٌ، وَسَلْبِيَّةٌ، يَعْنِي شَيْءٌ ثَابِتٌ لِلَّهِ، وَشَيْءٌ
 مَنفِي عَنْهُ، فَهَذَا الصِّفَةُ سَلْبِيَّةٌ، مَا الَّذِي نُفِيَّ عَنْ اللَّهِ؟ الْغَفْلَةُ. وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ:
 أَنَّ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةَ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ: الْأَوَّلُ: انْتِفَاءُ هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي نَفَاهَا اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ.
 الثَّانِي: ثُبُوتُ الْكَمَالِ فِي ضِدِّهَا؛ لِأَنَّهَا مَا نُفِيَّتْ عَنْهُ إِلَّا لِأَنَّهُ كَامِلٌ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مُتَضَمِّنًا لِنَفْيِ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ، وَالثَّانِي ثُبُوتُ كَمَالِ الْمُرَاقَبَةِ؛ لِأَنَّ

من كان كامل المراقبة فإنه ليس عنده غفلة، فيكون هذه الآية مثبتة لله كمال المراقبة ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وانتفاء الغفلة عنه، والجملة تفيد التهديد لهؤلاء الذي يصدون عن سبيل الله من آمن ويغونها عوجًا.

• قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ (١٠٠)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال البغوي: قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: "إِنَّ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ الْيَهُودِيَّ . وَكَانَ شَيْخًا عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الطَّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . مَرَّ عَلَى نَقَرٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسِ جَمْعِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ، فَعَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أَلْفَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ، قَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ شَابًّا مِّنَ الْيَهُودِ كَانَ مَعَهُ فَقَالَ: اعْمَدْ إِلَيْهِمْ وَاجْلِسْ مَعَهُمْ ثُمَّ ذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ، وَكَانَ بُعَاثٌ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ مَعَ الْخَزْرَجِ وَكَانَ الظَّفَرُ فِيهِ لِلْأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ، فَفَعَلَ وَتَكَلَّمَ فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ فَتَنَازَعُوا وَتَفَاحَرُوا حَتَّى تَوَانَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيِّينِ عَلَى الرَّكْبِ، أَوْسٌ بْنُ قَيْطِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ شَيْئًا وَاللَّهِ رَدَدْتُهَا الْآنَ جَدْعَةً، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا وَقَالَا قَدْ فَعَلْنَا السِّلَاحَ السِّلَاحَ مَوْعِدُكُمُ الظَّاهِرَةُ، وَهِيَ حَرَّةٌ فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، وَانْضَمَّتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى جَاءَهُمْ. فَقَالَ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَدْعُو الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمُ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَلْفَ بَيْنِكُمْ؟ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ

عَلَيْهِ كُفَّارًا، اللَّهُ اللَّهُ!! فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيَّدَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَأَلْقَوْا
السِّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبَكَوْا وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ
مُطِيعِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا حَدَّرَ الْفَرِيقَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى عَنْ
الْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ، حَدَّرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ وَمَنْعِهِمْ عَنْ
الِاتِّفَاتِ إِلَى قَوْلِهِمْ.

وقال أبو حيان: لَمَّا أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ صَدَّهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ الْمُؤْمِنِينَ، حَدَّرَ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِغْوَاءِ الْكُفَّارِ وَإِضْلَالِهِمْ.

● تفسير الآية:

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ﴾: قال ابن عطية: الْخِطَابُ هُنَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَالْإِشَارَةُ فِي ذَلِكَ وَقْتُ نُزُولِهِ
إِلَى الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ بِسَبَبِ نَائِرَةِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ. وَالْفَرِيقُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَالْمِرَادُ بِهَا
هُنَا: الْأَخْبَارُ وَالرُّؤُوسُ. وَ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: أَيُّ بِالْإِضْلَالِ وَالتَّشْكِيكِ وَالْمِخَادَعَةِ وَإِظْهَارِ الْغِشِّ
فِي مَعْرِضِ النُّصْحِ. وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: الْآيَةُ لَفْظُهَا عَامٌّ وَالْخِطَابُ
لِلْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ؛ إِذْ كَانَ الْيَهُودُ يَرِيدُونَ فَتْنَتَهُمْ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: الْكُفْرُ الْمِشَارُ إِلَيْهِ هُنَا
لَيْسَ بِكُفْرٍ حَقِيقَةٍ؛ لِأَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ هُوَ فِي إِلْقَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ. وَلَوْ
وَقَعَتْ لَكَانَتْ مَعْصِيَةً لَا كُفْرًا، إِلَّا أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مُسْتَحْبِبِينَ لَهُ. وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ
بِتَحْسِينِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَهُمْ مِنْهُنَّ بَعْدَ مَنْهِيٍّ، وَاسْتِدْرَاجِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنِ
الْإِسْلَامِ وَيَصِيرُوا كَافِرِينَ حَقِيقَةً. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: خِطَابٌ لِلْأَوْسِ
وَالخَزْرَجِ عَلَى مَا يَفْتَضِيهِ سَبَبُ النُّزُولِ، وَيَدْخُلُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ،
وَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ بَعْدَ مَا أَمَرَ رَسُولُهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِخِطَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛

إِظْهَارًا لِحِلَالَةِ قَدَرِهِمْ؛ وَإِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ هُمُ الْأَحْقَاءُ بِأَنْ يُخَاطَبَهُمُ اللَّهُ وَيُكَلِّمَهُمْ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُقَالَ: الْمَخَاطَبُ الرَّسُولُ بِتَقْدِيرٍ: قُلْ لَهُمْ. والمرادُ مِنَ الْفَرِيقِ: بَعْضٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ، أَوْ هُوَ شَمَّاسُ بْنُ قَيْسٍ الْيَهُودِيُّ، وَفِي الْإِقْتِصَارِ عَلَيْهِ مُبَالَغَةٌ فِي التَّحْذِيرِ؛ وَلِهَذَا عَلَى مَا قِيلَ: حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الْفِعْلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى مَعْنَى إِنْ تُطِيعُوهُمْ فِي قَبُولِ قَوْلِهِمْ بِأَحْيَاءِ الضَّغَائِنِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَ﴿كَافِرِينَ﴾: إِمَّا مَفْعُولٌ ثَانٍ لِ﴿يُرْذَوُكُمْ﴾ عَلَى تَضْمِينِ الرَّدِّ مَعْنَى التَّصْيِيرِ، أَوْ حَالٌ مِنْ مَفْعُولِهِ، قَالُوا: وَالْأَوَّلُ أَدْخُلُ فِي تَنْزِيهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ نِسْبَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِكَوْنِ الْكُفْرِ الْمَفْرُوضِ بِطَرِيقِ الْقَسْرِ، وَ﴿بَعْدَ﴾: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِيُرْذَوُكُمْ، وَأَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِكَافِرِينَ، وَإِيرَادُهُ مَعَ عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؛ لِإِعْنَاءِ مَا فِي الْخِطَابِ عَنْهُ، وَاسْتِحَالَةِ الرَّدِّ إِلَى الْكُفْرِ بِدُونِ سَبْقِ الْإِيمَانِ، وَتَوْسِيطِهِ بَيْنَ الْمَنْصُوبَيْنِ؛ لِإِظْهَارِ كَمَالِ شِنَاعَةِ الْكُفْرِ، وَغَايَةِ بُعْدِهِ مِنَ الْوُقُوعِ، إِمَّا لِيَزِيدَ قُبْحَهُ، أَوْ لِمُمَانَعَةِ الْإِيمَانِ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ الرَّاسِخِ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا يَخْفَى، وَقَدْ تَوَيَّحَ الْكُفَّارُ عَلَى هَذَا الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا كَالْعِلَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ. انْتَهَى كَلَامُ الْأُلُوسِيِّ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: الْفَرِيقُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَأَشَارَ بِهِ هُنَا إِلَى فَرِيقٍ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمْ: شَاسُ بْنُ قَيْسٍ وَأَصْحَابُهُ، أَوْ أَرَادَ: شَاسًا وَحْدَهُ، وَجَعَلَهُ فَرِيقًا كَمَا جَعَلَ أَبَا سُفْيَانَ نَاسًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وَأَصْلُ الرَّدِّ: الصَّرْفُ وَالْإِرْجَاعُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُثْرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِتَغْيِيرِ الْحَالِ بَعْدَ الْمَخَالَطَةِ فَيُفِيدُ مَعْنَى التَّصْيِيرِ. وَقَوْلُهُ ﴿بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ: ﴿يُرْذَوُكُمْ﴾ وَالْقَصْدُ مِنَ التَّصْرِيحِ تَوْضِيحُ قَوَاتِ نِعْمَةِ عَظِيمَةٍ كَانُوا فِيهَا لَوْ يَكْفُرُونَ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا﴾: هَذَا الْحُكْمُ مُصَدَّرٌ بِالنداءِ، وَتَصْدِيرُ الْحُكْمِ بِالنداءِ يَدُلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِ وَالْعَنَاءِ بِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَتَضَمَّنُ تَنْبِيهَ الْمَخَاطَبِ، وَالتَّنْبِيهَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِأَمْرٍ هَامٍّ تَحِبُّ الْعَنَاءَ بِهِ، ثُمَّ صَارَ النِّدَاءُ مُوجَّهًا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَابِ الْإِغْرَاءِ؛ لِأَنَّ وَصْفَهُمُ بِالْإِيمَانِ يَقْتَضِي أَنْ يَقُومُوا بِمَقْتَضَى هَذَا

الخطاب الموجّه لهم، كما لو قلت لشخص: يا رجل افعل كذا، يعني أن مقتضى رجولتك أن تفعل هذا، فإذا قلت: يا مؤمن افعل هذا، فالمعنى أنه من مقتضى إيمانك أن تفعل هذا؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَزْعِمَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ" أخرجه سعيد بن منصور في التفسير، ثم إن الخطاب بوصف الإيمان يقتضي: أن امتثال ذلك من مقتضيات الإيمان، ويقتضي أيضاً: أن مخالفته نقص في الإيمان؛ لأن المؤمن يقتضي إيمانه أن يقوم بما أمر به، وأن يدع ما نُهي عنه. وقال أيضاً: ﴿فَرِيقًا﴾: بمعنى طائفة، و﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: هم اليهود والنصارى، فالكتاب لليهود هو التوراة، والكتاب للنصارى هو الإنجيل، وقوله: ﴿فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني لا جميعهم؛ لأن بعض أهل الكتاب ليسوا على هذا الوصف، فإنّ منهم من آمن، من أهل الكتاب من آمن، فأمن من النصارى النجاشي، وآمن من اليهود عبد الله بن سلام، وهؤلاء من خيار المؤمنين، لكن فريقاً منهم، يقول: ﴿يُرْذَوْنَكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، يعني يوحبوا لكم أن ترتدوا بعد الإيمان، سواء كان ذلك بالقتال فيما بينكم أو بغيره، وقد صرح الله بذلك في آيات أخرى، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

- قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لما حذرهم من أهل الكتاب عظم عليهم طاعتهم بالإنكار والتعجب من ذلك، مع ما هم عليه بعد اتباع الرسول صلّى الله عليه وآله من الأحوال الشريفة؛ فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾: قال السمعاني: قَالَ الْأَخْفَشُ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ: أَيُّ عَلَى أَيْ حَالٍ تَكْفُرُونَ؟! وقال القرطبي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: قَالَ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ التَّعَجُّبِ. ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾: يَعْنِي الْقُرْآنَ. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾: يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ. وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ لَمْ يَرِ النَّبِيَّ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا فِيهِمْ مِنْ سُنَّتِهِ يَقُومُ مَقَامَ رُؤُوسِهِ. قَالَ الرَّجَّاجُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخِطَابُ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِيهِمْ وَهُمْ يُشَاهِدُونَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخِطَابُ لَجَمِيعِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ آثَارَهُ وَعَلَامَاتِهِ وَالْقُرْآنَ الَّذِي أُوتِيَ فِيْنَا مَكَانَ النَّبِيِّ ﷺ فِيْنَا وَإِنْ لَمْ نُشَاهِدْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِلْمَانِ بِنَبَا؟: كِتَابُ اللَّهِ، وَنَبِيُّ اللَّهِ، فَأَمَّا نَبِيُّ اللَّهِ فَقَدْ مَضَى، وَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَقَدْ أَبْقَاهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَحْمَةً مِنْهُ وَنِعْمَةً، فِيهِ حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ، وَطَاعَتُهُ وَمَعْصِيَتُهُ. وقال الألوسي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: المرادُ اسْتِنْعَادُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ الْكُفْرُ وَعِنْدَهُمْ مَا يَأْبَاهُ. وقيل: المرادُ التَّعْجِيبُ، أَيْ لَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَكْفُرُوا فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ لَا سِيَّما فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي فِيهَا الْكُفْرُ أَفْطَحَ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَلَيْسَ الْمَرَادُ انْكَارَ الْوَاقِعِ. وقيل: المرادُ بِكُفْرِهِمْ: فَعْلُهُمْ أَفْعَالَ الْكَفَرَةِ كَدَعَا الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِفْهَامُ لِانْكَارِ الْوَاقِعِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وفي الآية تَأْيِيسٌ لِلْيَهُودِ بِمَا رَامُوهُ. وقال صَدِّيقُ خَانَ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الْإِسْتِفْهَامُ لِلانْكَارِ وَالِاسْتِنْعَادِ، أَيْ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيكُمْ ذَلِكَ وَلَدَيْكُمْ مَا يَمْنَعُ مِنْهُ، وَيَقْطَعُ أَثَرَهُ، وَهُوَ تِلَاوَةُ آيَاتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَيِ الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ بَيَانُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَوْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي يَبَيِّنُ الْحَقَّ وَيُدْفَعُ الشُّبْهَةَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ. وقيل (كيف) كلمة تعجب وتوبيخ، والمراد منه: المنع والتغليظ. وقال القاسمي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: مَعْنَى الْإِسْتِفْهَامِ فِيهِ الْإِنْكَارُ وَالتَّعْجِيبُ. والمعنى: مِنْ أَيْنَ يَتَطَرَّقُ لَكُمْ الْكُفْرُ؟. ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾: هِيَ الْقُرْآنُ الْمُعْجِزُ الَّذِي هُوَ أَجَلٌ مِنَ الْآيَاتِ الْمُتَلَوَّةِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾: يُنَبِّهُكُمْ وَيَعْظُمُكُمْ وَيُزِيحُ شُبْهَكُمْ، وَقَدْ هَدَاكُمْ مِنْ

الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنَ الْجَهَالَةِ. وقال العثيمين: ﴿كَيْفَ﴾: تحتمل وجهين: الأول: الاستبعاد، فإذا نظرنا إلى حالهم أنهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله قلنا: إن ارتدادهم بعيد. الثاني: أن تكون للتعجب، فيكون هذا تعجبًا من حال من يمكن أن يرتد، فإن الذي يرتد وتلى عليه آيات الله وفيه رسوله لا شك أن حاله عجيبة. ﴿تُتلى﴾: أي تُقرأ عليكم، والتلاوة تأتي بمعنى القراءة، أي تُقرأ عليكم، والذي يقرأها عليهم رسول الله ﷺ. ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: جمع آية وهي العلامة، والمراد بها هنا القرآن، والقرآن آيات، كل آية منه دليل على المتكلم بها وهو الله على ما له من الصفات المقتضية لتلك الآيات، ولهذا كل آية من القرآن فإنها معجزة. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾: (في) للظرفية، أي في مجتمعكم.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: قال القرطبي: أَي يَمْتَنِعُ وَيَتَمَسَّكُ بِدِينِهِ وَطَاعَتِهِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾: أَي يُؤْمِنُ بِهِ. وَقِيلَ: أَي يَتَمَسَّكُ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ. يُقَالُ: أَعَصَمَ بِهِ وَاعْتَصَمَ، وَتَمَسَّكَ وَاسْتَمَسَكَ إِذَا امْتَنَعَ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ. وَاعْتَصَمْتُ فَلَانًا هَيَأْتُ لَهُ مَا يَعْتَصِمُ بِهِ. وَكُلُّ مُتَمَسِّكٍ بِشَيْءٍ مُعَصِّمٌ وَمُعْتَصِمٌ. وَكُلُّ مَانِعٍ شَيْئًا فَهُوَ عَاصِمٌ. ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أَي وَفَّقَ وَأَرْشَدَ. وقال ابن كثير: الإِعْتِصَامُ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ، وَالْعُدَّةُ فِي مُبَاعَدَةِ الْعَوَايَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ، وَطَرِيقُ السَّدَادِ، وَخُصُولُ الْمُرَادِ. وقال الألوسي: قَالَ الطَّبَّيُّ: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: لِكَوْنِهِ مَاضِيًا مَعَ (قَدْ) أَفَادَ الْكَلَامُ تَحَقُّقَ الْهُدَى حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ. قِيلَ: وَالتَّنْوِينُ لِلتَّفْخِيمِ. وَوُصِفَ الصِّرَاطُ بِالِاسْتِقَامَةِ؛ لِلتَّصْرِيحِ بِالرَّدِّ عَلَى الَّذِينَ يَبْغُونَ لَهُ عَوَاجًا. وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ كَانَ هُوَ الدِّينَ الْحَقُّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَالْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهِ هُوَ الْإِعْتِصَامُ بِهِ بِعَيْنِهِ، لَكِنْ لَمَّا اخْتَلَفَ الْإِعْتِبَارَانِ وَكَانَ الْعُنْوَانُ الْأَخِيرُ مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ أُبْرِزَ فِي مَعْرِضِ الْجَوَابِ؛ لِلْحَثِّ وَالتَّرْغِيبِ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ رُحِّخَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقال صديق خان: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ حَثٌّ لَهُمْ فِي الْإِلْتِمَاسِ إِلَى اللَّهِ فِي دَفْعِ شَرِّ الْكُفَّارِ عَنْهُمْ.

﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أي طريق واضح، وهو طريق الحق المؤدي إلى الجنة. وفي وصف الصراط بالاستقامة: رَدَّ عَلَى مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْعُوجِ. وقال القاسمي: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أَيِّ وَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِدِينِهِ الْحَقِّ الَّذِي بَيْنَهُ بَيِّنَاتُهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَالتَّوْحِيدُ، الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِسَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ عَلَى هُدًى لَا يَضِلُّ مُتَّبِعُهُ. وقال ابن عاشور: في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: إشارة إلى التَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَدِينِهِ لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وقال العثيمين: وقوله: ﴿يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ﴾: يشمل الاعتصام به توكلاً عليه، والاعتصام به تعبدًا له؛ لأن في كلٍّ منهما عصمة. ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: حذف الفاعل، وذلك لتعدد طرق الهداية، فأعلى الهداية من الله، قال تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ثم الهداية من الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم الهداية من ورثة الرسول، وهم العلماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

• قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢):

• سبب نزول الآية:

قال البغوي: قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: "كَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَتْلًا حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَافْتَحَرَ بَعْدَهُ مِنْهُمْ رَجُلَانِ: ثَعْلَبَةُ بْنُ غَنَمٍ مِنَ الْأَوْسِ وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَقَالَ الْأَوْسِيُّ: مِنَّا حُرْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ، وَمِنَّا حَنْظَلَةُ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنَّا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ بْنُ أَفْلَحَ حَمِي الدَّبْرِ، وَمِنَّا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الَّذِي اهْتَزَّ لِمَوْتِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَرَضِيَ اللَّهُ بِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. وَقَالَ

الْحَزْرَجِيُّ: مِمَّا أَرْبَعَةٌ أَحْكَمُوا الْقُرْآنَ: أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَمِمَّا سَعَدُ بْنُ عُبَادَةَ خَطِيبُ الْأَنْصَارِ وَرَئِيسُهُمْ، فَجَرَى الْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا فَعَضِبَا وَأَنْشَدَا الْأَشْعَارَ وَتَفَاخَرَا، فَجَاءَ الْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ وَمَعَهُمُ السِّلَاحُ فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَدَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِضْلَالِ الْكُفَّارِ وَمِنْ تَلْبِيسَاتِهِمْ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَجَامِعِ الطَّاعَاتِ، وَمَعَاقِدِ الْخَيْرَاتِ. وقال البقاعي: لَمَّا انْقَضَى هَذَا التَّحذِيرُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالتَّعْجِيبُ، وَالتَّرْغِيبُ، أَمَرَ بِمَا يُثْمِرُ ذَلِكَ مِنْ رِضَاهُ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾. وقال ابن عاشور: انْتَقَلَ مِنْ تَحذِيرِ الْمُخَاطَبِينَ مِنَ الْإِغْدَاعِ لِيُؤَسِّسَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ، إِلَى تَحْرِيزِهِمْ عَلَى تِمَامِ التَّقْوَى؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ زِيَادَةَ صِلَاحٍ لَهُمْ وَرُسُوحًا لِإِيمَانِهِمْ، وَهُوَ خِطَابٌ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَسْرِي إِلَى جَمِيعٍ مَنْ يَكُونُ بَعْدَهُمْ.

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: قال الزجاج: أَيِ اتَّقُوهُ فِيمَا يَحِقُّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّقُوهُ فِيهِ. انتهى. قال الماوردي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أَرْبَعُ أَقَاوِيلَ: أَحَدُهَا: هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ. الثَّانِي: هُوَ اتِّقَاءُ جَمِيعِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفِينَ. الثَّالِثُ: هُوَ أَنْ يَعْتَرَفُوا بِالْحَقِّ فِي الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ. الرَّابِعُ: هُوَ أَنْ يُطَاعَ، وَلَا يُتَّقَى فِي تَرْكِ طَاعَتِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ. وقال القرطبي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَلَّا يُعْصَى طَرْفَةً عَيْنٍ. وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا؟ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فَنَسَحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ وَابْنِ زَيْدٍ. قَالَ مُقَاتِلٌ: وَلَيْسَ فِي آلِ عِمْرَانَ مِنَ الْمَنْسُوحِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ.

وَقِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بَيَانٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ. وَالْمَعْنَى: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَهَذَا أَصَوْبٌ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ عَدَمِ الْجُمُعِ وَالْجُمُعُ مُمَكِّنٌ فَهُوَ أَوَّلَى. وَقَدْ رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَوْلُ اللَّهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ لَمْ تُنْسَخْ، وَلَكِنَّ ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أَنْ يُجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَتَقُومُوا بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ. وقال ابن كثير: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، قَالَ: "أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ". وَرُويَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَتَّقِي الْعَبْدُ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ حَتَّى يُخْزَنَ مِنْ لِسَانِهِ". وَقَدْ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُنِ: ١٦]. وقال أبو السعود: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: الْإِتْقَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ الْوَقَايَةِ وَهِيَ فَرْطُ الصِّيَانَةِ. ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أَيُّ حَقَّ تَقَوَاهُ وَمَا يَجِبُ مِنْهَا، وَهُوَ اسْتِغْرَاقُ الْوُسْعِ فِي الْقِيَامِ بِالْمَوْجِبِ وَالْاجْتِنَابِ عَنِ الْمَحَارِمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. وقال الشوكاني: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أَيُّ التَّقْوَى الَّتِي تَحِقُّ لَهُ، وَهِيَ أَنْ لَا يَتْرَكَ الْعَبْدُ شَيْئًا مِمَّا يَلْزَمُهُ فِعْلُهُ، وَلَا يَفْعَلُهُ شَيْئًا مِمَّا يَلْزَمُهُ تَرْكُهُ، وَيَبْذُلُ فِي ذَلِكَ جُهِدَهُ وَمُسْتَطَاعَهُ. وقال الألوسي: كَرَّرَ الْخِطَابَ بِهَذَا الْعُنْوَانِ؛ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي تَكَرُّرِهِ مِنَ اللَّطْفِ بَعْدَ تَكَرُّرِ خِطَابِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ. وقال ابن عاشور: هُوَ خِطَابٌ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليهم وَيَسْرِي إِلَى جَمِيعٍ مَنْ يَكُونُ بَعْدَهُمْ. وقال العثيمين: مَعْنَى ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ التَّقْوَى الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا بِآيَاتٍ أُخْرَى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُنِ: ١٦]: أَيُّ ابْذِلُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُونَ فِي تَقْوَى اللَّهِ؛ وَلِهَذَا لَا تَظَنُّوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُهَوِّنُ التَّقْوَى؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَتَّخِذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ تَهْوِينًا لِأَمْرِ التَّقْوَى، وَيَقُولُ: اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا بِالْعَكْسِ يَعْنِي: اتَّقُوا اللَّهَ بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُونَ، ابْذِلُوا كُلَّ الْجُهِدِ فِي تَقْوَى اللَّهِ، فَيَكُونُ

قوله: ﴿حَقُّ ثِقَاتِهِ﴾ موازيًا لقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وبناء على هذا تكون الآية مُحْكَمَةً، أي غير منسوخة، وهذا القول هو الراجح.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: قيل: أَي حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ؛ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ. وقيل: أَي مُؤْمِنُونَ. وقيل: أَي مُخْلِصُونَ مَفْوضُونَ أُمُورَكُمْ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَي مُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِاللَّهِ. وقال العثيمين: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: يعني إلا وأنتم مسلمون لله ظاهرًا وباطنًا، والإسلام هنا يدخل فيه الإيمان، وكما مر عليكم في آيات كثيرة الدعاء بأن يموت الإنسان مسلمًا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وفي سورة يوسف قال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، لكن جاء في السنة: أن الرسول ﷺ كان يقول في دعاء الميت: "اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ" رواه الخمسة، وصححه الألباني، ففرق بين حال الحياة وحال الموت، والجواب عن ذلك أن نقول: إنما غَايَرَ النَّبِيُّ ﷺ بينهما؛ لأن صلاح الأمة على سبيل العموم بالإسلام، إذا حَيَّتِ الْأُمَّةَ مُسْلِمَةً انتظم أمرها؛ لأن الإسلام معناه: الاستسلام، انتظم أمرها ولم يكن فيها ما يُوجب العناد والاستكبار، ولما قال: "مَنْ أَحْيَيْتَهُ فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ" قال: "وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ"؛ لأن المدار عند الموت على ما في القلب، لكن في هذه الآية وكذلك في الآيات الأخرى التي أشرنا إليها لم يُذكر الإيمان معه، فيكون الإسلام هنا شاملاً للإيمان.

• قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾:

• مناسبة الآية التي قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما أمرهم بالإتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات، وهو الاعتصام بحبل الله.

وقال البقاعي: لما كان عزم الإنسان فاترا، وعقله قاصرا؛ دهم على الأصل لجميع الخيرات المتكفل بالحفظ من جميع الزلات، فقال: ﴿واعتصموا...﴾.

وقال ابن عاشور: ثنى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق؛ ليكتسبوا بإحاديثهم قوة ونماء.

• تفسير الآية:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: الاعتصام بالله: التمسك به. يقال: اعتصم به، واستعصم، وتمسك، واستمسك: إذا امتنع به من غيره، وعصمه الطعام: منع الجوع منه. ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾: والحبل: لفظ مشترك، وأصله في اللغة: السبب الذي يتوصل به إلى البغية. ﴿جَمِيعًا﴾: أي مجتمعين عليه. ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: قيل: أي عن رسول الله ﷺ. وقيل: أي في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية، متدابرين، يُعادي بعضكم بعضا، ويحارب. وقيل: أي ولا تُحدثوا ما يكون عنه التفرق، ويؤزل معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها. وقيل: أي ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانا، فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابير، ودل عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. قال ابن الجوزي: وفي المراد بحبل الله هنا:

سَنَتْهُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الْقُرْآنُ، رَوَاهُ شَقِيقٌ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْجَمَاعَةُ، رَوَاهُ الشَّعْبِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ دِينُ اللَّهِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَمُقَاتِلٌ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ. الرَّابِعُ: عَهْدُ اللَّهِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَقَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ، وَأَبُو عُبَيْدٍ. الْخَامِسُ: أَنَّهُ الْإِخْلَاصُ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ. السَّادِسُ: أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ بْنُ حَيَّانٍ. قَالَ الرَّجَّاجُ: وَقَوْلُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ كُونُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِعْتِصَامِ بِهِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: فِي التَّوِيلِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ نُحْيِي عَنْ الْإِخْتِلَافِ فِي الدِّينِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا، وَمَا عَدَاهُ يَكُونُ جَهْلًا وَضَلَالًا، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ النِّهْيُ عَنِ الْإِخْتِلَافِ فِي الدِّينِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. الثَّانِي: أَنَّهُ نُحْيِي عَنِ الْمَعَادَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُوَظِّينَ عَلَى الْمَحَارَبَةِ وَالْمُنَازَعَةِ فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْهَا. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ نُحْيِي عَمَّا يُوجِبُ الْفُرْقَةَ وَيُزِيلُ الْأَلْفَةَ وَالْمَحَبَّةَ. وَقَالَ الْعِثْمِينُ: الْإِعْتِصَامُ بِاللَّهِ: الْاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ. وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِهِ: أَيْ بِشَرْعِهِ. وَسُمِّيَ شَرْعَ اللَّهِ حَبْلًا؛ لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ إِلَيْهِ. وَأُضِيفَ إِلَى اللَّهِ لِأَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهُ سَبْحَانَهُ. الثَّانِي: أَنَّهُ مُوَصِّلٌ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ.

﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: قَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أَيْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ. ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾: أَيْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: أَيْ بِالْإِسْلَامِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَمَرَ تَعَالَى بِتَذَكُّرِ نِعْمِهِ، وَأَعْظَمُهَا الْإِسْلَامُ، وَاتِّبَاعُ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .، فَإِنَّ بِهِ زَالَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْفُرْقَةُ وَكَانَتِ الْمَحَبَّةُ وَالْأَلْفَةُ. وَالْمُرَادُ: الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ. وَالْآيَةُ تَعْمُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: اخْتَلَفُوا فِيمَنْ أُريدَ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، كَانَ الْقَوِيُّ يَسْتَبِيحُ الضَّعِيفَ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ. الثَّانِي: أَنَّهُمُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، كَانَ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ شَدِيدٌ، قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ. وَالْأَعْدَاءُ: جَمْعُ عَدُوٍّ. قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: وَهُوَ مِنْ عَدَا: إِذَا ظَلَمَ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ

تعالى: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ، أَوْ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالاً مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ ظَرْفٌ لَهُ أَوْ لِلِاسْتِقْرَارِ فِي ﴿عَلَيْكُمْ﴾، أَيِ ادْكُرُوا إِنْعَامَهُ عَلَيْكُمْ، أَوْ ادْكُرُوا إِنْعَامَهُ مُسْتَقَرًّا عَلَيْكُمْ وَفَتْ كَوْنَكُمْ ﴿أَعْدَاءً﴾ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَكُمْ الْإِحْنُ وَالْعَدَاوَاتُ وَالْحُرُوبُ الْمُتَوَاصِلَةُ. وَقِيلَ: هُمْ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ كَانَا أَخَوَيْنِ لِأَبٍ وَأُمٍّ فَوَقَعَتْ بَيْنَ أَوْلَادِهِمَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ وَتَطَاوَلَتِ الْحُرُوبُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً. ﴿فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بِتَوْفِيقِكُمْ لِلْإِسْلَامِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَادْكُرُوا﴾: أَيِ ادْكُرُوا بِالسُّنَنِ، وَادْكُرُوا بِقُلُوبِكُمْ. وَالذِّكْرُ بِالْقَلْبِ هُوَ التَّذَكُّرُ تَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ حَتَّى وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ يَتَذَكَّرُ الْحَالَ الَّتِي أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا، وَادْكُرُوا أَيْضًا بِالسُّنَنِ ثَنَاءً عَلَى اللَّهِ بِذَلِكَ وَتَحَدُّثًا بِنِعْمَتِهِ. ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: النِّعْمَةُ: بِمَعْنَى الْعَطَاءِ وَالرِّزْقِ، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا، وَأَمَرْنَا أَنْ نَذْكُرَهَا هِيَ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ هَذَا مَحَلٌّ أَوْ بَيَانٌ هَذِهِ النِّعْمَةُ، أَيِ أَنَّ بَعْضَكُمْ عَدُوٌّ لِبَعْضٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مَعَ الْعَدَاوَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَقِيمَ الْأُمَّةُ، فَالْعَدَاوَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَزَالَهَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ بَيْنَ قِبَائِلِ الْعَرَبِ مِنْ قَرِيْشٍ وَهَوَازِنَ وَغَيْرِهِمْ، وَمَا كَانَ بَيْنَ قِبَائِلِ الْأَنْصَارِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ حُرُوبَ وَفْتَنَ وَعَدَاوَاتٍ وَثَارَاتٍ. ﴿فَأَلَفَ﴾: يَعْنِي جَمَعَ، وَمِنْهُ قَوْلُنَا: أَلَفَ فُلَانٌ كِتَابًا يَعْنِي جَمَعَهُ. ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: لَمْ يَقُلْ: بَيْنَكُمْ؛ لِأَنَّ الْإِتِّلَافَ فِي الْقُلُوبِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَدَارُ، لَيْسَ الْمَدَارُ الْإِتِّلَافُ بِالْأَجْسَامِ، فَلَا فَائِدَةُ مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَبْدَانِ مَعَ تَفَرُّقِ الْقُلُوبِ.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾: أَيِ صِرْتُمْ. قَالَ الرَّجَّاجُ: وَأَصْلُ الْأَخِ فِي اللَّعَةِ: أَنَّهُ الَّذِي مَقْصِدُهُ مَقْصِدُ أَخِيهِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فُلَانٌ يَتَوَخَّى مَسَارَّ فُلَانٍ، أَيِ مَا يَسْرُهُ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾: أَيِ فَصِرْتُمْ. ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾: أَيِ بِرَحْمَتِهِ وَبِدِينِهِ الْإِسْلَامِ. ﴿إِخْوَانًا﴾: أَيِ فِي الدِّينِ وَالْوِلَايَةِ بَيْنَكُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾: عِبَارَةٌ عَنِ الْاسْتِمْرَارِ، وَإِنْ كَانَتْ اللَّفْظَةُ مَخْصُوصَةً بِوَقْتٍ مَا، وَإِنَّمَا حُصِّتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى

مِنْ حَيْثُ هِيَ مَبْدَأُ النَّهَارِ، وَفِيهَا مَبْدَأُ الْأَعْمَالِ، فَالْحَالُ الَّذِي يُحْسِنُهَا الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ فِيهَا هِيَ حَالُهُ الَّذِي يَسْتَمِرُّ عَلَيْهَا يَوْمُهُ فِي الْأَعْلَابِ. ﴿بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾: (الباء) هنا للسببية، أي بسبب إنعامه عليكم بعد العداوة أصبحتم إخوانًا. والإخوان: جَمْعُ أَخٍ، وَيُجْمَعُ إِخْوَةً، وَهَذَانِ أَشْهُرُ الْجَمْعِ فِيهِ، عَلَى أَنَّ سَيَبَوِيهَ يَرَى أَنَّ إِخْوَةً اسْمُ جَمْعٍ، وَلَيْسَ بِنَاءٍ جَمْعٍ؛ لِأَنَّ فَعْلًا لَا يُجْمَعُ عَلَى فِعْلَةٍ، قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْأَخُ فِي الدِّينِ يُجْمَعُ إِخْوَانًا، وَالْأَخُ فِي النَّسَبِ يُجْمَعُ إِخْوَةً، هَكَذَا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: أَصْبَحَ تُسْتَعْمَلُ لِاتِّصَافِ الْمُوصُوفِ بِصِفَتِهِ وَقْتَ الصَّبَاحِ، وَتُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى صَارَ، فَلَا يُلْحَظُ فِيهَا وَقْتُ الصَّبَاحِ، بَلْ مُطْلَقُ الْإِنْتِقَالِ وَالصَّيْرُورَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ مِنْ أَنَّ أَصْبَحَ لِلِاسْتِمْرَارِ، وَعَلَّلَهُ بِمَا ذَكَرَهُ، لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ التَّحْوِيلِينَ ذَهَبَ إِلَيْهِ، إِنَّمَا ذَكَرُوا أَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾: قَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿وَكُنْتُمْ﴾: أَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. ﴿عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: أَيُّ عَلَى طَرَفِ حُفْرَةٍ مِثْلَ شَفَا الْبَيْتِ مَعْنَاهُ: كُنْتُمْ عَلَى طَرَفِ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا عَلَى كُفْرِكُمْ. ﴿فَأَنْقَذَكُمْ﴾: أَيُّ اللَّهُ. ﴿مِنْهَا﴾: أَيُّ بِالْإِيمَانِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: هَذَا تَمْثِيلٌ يُرَادُ بِهِ خُرُوجُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الشَّفَا: الْحَرْفُ. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِإِشْرَافِهِمْ عَلَى الْهَلَاكِ. وَفُرَجِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: كُنْتُمْ عَلَى حَرْفِ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا الْمَوْتُ عَلَى الْكُفْرِ. قَالَ السُّدِّيُّ: فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: قَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿كَذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى مَصْدَرِ الْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلْإِيذَانِ بِعُلُوِّ دَرَجَةِ الْمِشَارِ إِلَيْهِ وَبُعْدِ مَنْزِلَتِهِ فِي الْفَضْلِ وَكَمَالِ تَمَيُّزِهِ بِهِ عَمَّا عَدَاهُ وَانْتِظَامِهِ بِسَبَبِهِ فِي سِلْكِ الْأُمُورِ الْمِشَاهِدَةِ، وَ(الْكَافُ) مُقْحَمَةٌ؛ لِتَأْكِيدِ مَا أَفَادَهُ اسْمُ الْإِشَارَةِ مِنَ الْفَخَامَةِ، وَمَحَلُّهَا النَّصْبُ عَلَى أَنَّهَا صِفَةٌ

لَمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ مِثْلُ ذَلِكَ التَّبْيِينِ الْوَاضِحِ. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾: أَيْ دَلَائِلُهُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿كَذَلِكَ﴾: أَيْ مِثْلُ ذَلِكَ التَّبْيِينِ الْوَاضِحِ. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾: أَيْ دَلَائِلُهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَهَأَكُم عَنْهُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿كَذَلِكَ﴾: أَيْ مِثْلُ ذَلِكَ الْبَيَانِ، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾: أَيْ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ لِإِنْفَادِكُمْ عَنْ الضَّلَالِ فِيهِ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿كَذَلِكَ﴾ يَذْكُرُهَا اللَّهُ كَثِيرًا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَهِيَ عَلَى تَقْدِيرٍ: مِثْلُ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ، أَيْ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ هِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ السِّيَاقِ، فَفِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ تَكُونُ مَفْعُولًا مُطْلَقًا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَقُولُوا: نَائِبَةٌ مِنْابِ الْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: مِثْلُ ذَلِكَ الْبَيَانِ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ، أَيْ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ آيَاتِهِ لَنَا، آيَاتِهِ الْكُوتِبِيَّةَ وَآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةَ بَيَانًا وَاضِحًا ظَاهِرًا لَيْسَ فِيهِ لَبْسٌ؛ لِأَنَّهُ هُنَا لَمَّا ذَكَرَهُمْ حَالَهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالدِّينِيَّةَ وَهِيَ حَالٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَشْكُلُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ ذَلِكَ بَيَانًا فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾: أَيْ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْآيَةُ؛ لِأَنَّ كُلَّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى مِنْ مَعَانِي رَبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: قَالَ السَّمْعَانِيُّ: أَيْ تَرْشُدُونَ، وَتَسْلُكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تَرْجُّ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، أَيْ مَنْ تَأَمَّلَ مِنْكُمْ الْحَالَ رَجَا الْإِهْتِدَاءَ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: طَلَبًا لِثَبَاتِكُمْ عَلَى الْهُدَى وَازْدِيَادِكُمْ فِيهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَيْ لِكَيْ تَدُومُوا عَلَى الْهُدَى، وَازْدِيَادِكُمْ فِيهِ كَمَا يُشْعِرُ بِهِ كَوْنُ الْخِطَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَوْ صِبْغَةُ الْمَضَارِعِ مِنَ الْإِفْتِعَالِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أَيْ لِرُشْدِكُمُ الدِّينِيَّ وَالْدُّنْيَوِيَّ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أَيْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، أَيْ لِأَجْلِ أَنْ تَهْتَدُوا. وَالْهُدَايَةُ هُنَا شَامِلَةٌ لِهَدَايَةِ التَّوْفِيقِ، وَهُدَايَةِ الْإِرْشَادِ وَالِدَّلَالَةِ، أَيْ تَهْتَدُوا اهْتِدَاءً عِلْمِيًّا، وَتَهْتَدُوا اهْتِدَاءً عَمَلِيًّا. الْإِهْتِدَاءُ الْعِلْمِيُّ: هُوَ هَدَايَةُ الْإِرْشَادِ وَالِدَّلَالَةِ. وَالْإِهْتِدَاءُ الْعَمَلِيُّ: هُوَ هَدَايَةُ التَّوْفِيقِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِفَطْرَتِهِ كَلَّمَا تَبَيَّنَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَزْدَادَ إِيمَانًا وَيَقِينًا وَعَمَلًا.

• قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو السعود: أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِتَكْمِيلِ الْغَيْرِ وَإِشَادِهِ، إِثْرَ أَمْرِهِمْ بِتَكْمِيلِ النَّفْسِ وَتَهْدِيئِهَا بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي؛ تَثْبِيثًا لِلْكَلِّ عَلَى مُرَاعَاةِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ بِأَنْ يَقُومَ بَعْضُهُمْ بِمُوَاجَهَةِهَا وَيُحَافِظَ عَلَى حُقُوقِهَا وَحُدُودِهَا وَيُذَكِّرَهَا النَّاسَ كَافَّةً وَيُرَدِّعَهُمْ عَنِ الْإِحْلَالِ بِهَا.

وقال الألوسي: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَكْمِيلِ الْغَيْرِ إِثْرَ أَمْرِهِمْ بِتَكْمِيلِ النَّفْسِ لِيَكُونُوا هَادِينَ مَهْدِيِّينَ عَلَى ضِدِّ أَعْدَائِهِمْ.

وقال ابن عاشور: هَذَا مُفَرَّغٌ عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَظْهَرَ لَهُمْ نِعْمَةَ نَفْلِهِمْ مِنْ حَالَتِي شَقَاءٍ وَشَنَاعَةٍ إِلَى حَالَتِي نَعِيمٍ وَكَمَالٍ، وَكَانُوا قَدْ ذَاقُوا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ثُمَّ الْأَخْلَوَيْنِ، فَحَلَبُوا الدَّهْرَ أَشْطَرِيهِ، كَانُوا أَحْرِيَاءَ بِأَنْ يَسْعَوْا بِكُلِّ عَزْمِهِمْ إِلَى انْتِشَالِ غَيْرِهِمْ مِنْ سُوءٍ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حُسْنٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً خَيْرَةً.

• تفسير الآية:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: ﴿وَلْتَكُنْ﴾: (الَلَامُ) هُنَا لَامُ الْأَمْرِ. قال ابن عاشور: وَصِيغَةُ ﴿وَلْتَكُنْ﴾ صِيغَةُ وُجُوبٍ؛ لِأَنَّهَا أَصْرَحُ فِي الْأَمْرِ مِنْ صِيغَةِ أَفْعَلُوا؛ لِأَنَّهَا أَصْلُهَا. ﴿مِنْكُمْ﴾: قِيلَ: (مِنْ) هُنَا لِلتَّبْعِيضِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْأَمْرَيْنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عُلَمَاءَ. وَقِيلَ: (مِنْ) هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَالْمَعْنَى: لِيَكُونُوا كُلُّكُمْ كَذَلِكَ. وَقِيلَ: لِلتَّبْيِينِ، وَقِيلَ: زَائِدَةٌ. قال البغوي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾: أَيُّ كُونُوا أُمَّةً. وَ﴿مِنْ﴾ صَلَةٌ، لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] لَمْ يُرِدْ اجْتِنَابَ بَعْضِ الْأَوْثَانِ بَلْ أَرَادَ فَاجْتِنَابَ الْأَوْثَانِ كُلِّهَا. وقال الرازي: فِي قَوْلِهِ: (مِنْكُمْ) قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ (مِنْ) هَاهُنَا لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِذِلِيلَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى كُلِّ الْأُمَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والثَّانِي: هُوَ أَنَّهُ لَا مُكَلَّفَ إِلَّا وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِمَّا بِيَدِهِ، أَوْ بِلِسَانِهِ، أَوْ بِقَلْبِهِ، وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ دَفْعُ الضَّرَرِ عَنِ النَّفْسِ إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ كُونُوا أُمَّةً دُعَاءً إِلَى الْخَيْرِ آمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ نَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَمَّا كَلِمَةُ (مِنْ) فَهِيَ هُنَا لِلتَّيْسِينِ لَا لِلتَّبَعِيضِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا عَلَى الْكُلِّ إِلَّا أَنَّهُ مَتَى قَامَ بِهِ قَوْمٌ سَقَطَ التَّكْلِيفُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، فَالْأَمْرُ عَامٌّ، ثُمَّ إِذَا قَامَتْ بِهِ طَائِفَةٌ وَقَعَتِ الْكِفَايَةُ وَزَالَ التَّكْلِيفُ عَنِ الْبَاقِينَ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ (مِنْ) هَاهُنَا لِلتَّبَعِيضِ، وَالْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا أَيْضًا عَلَى قَوْلَيْنِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّ فَائِدَةَ كَلِمَةِ (مِنْ) هِيَ أَنَّ فِي الْقَوْمِ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدَّعْوَةِ وَلَا عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلُ النِّسَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْعَاجِزِينَ. وَالثَّانِي: أَنَّ هَذَا التَّكْلِيفَ مُخْتَصٌّ بِالْعُلَمَاءِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهَانِ. الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْأَمْرِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: الدَّعْوَةُ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ مَشْرُوطَةٌ بِالْعِلْمِ بِالْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ فَإِنَّ الْجَاهِلَ رُبَّمَا عَادَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَمَرَ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَى عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَرُبَّمَا عَرَفَ الْحُكْمَ فِي مَذْهَبِهِ وَجْهَهُ فِي مَذْهَبِ صَاحِبِهِ فَنَهَاةً عَنْ غَيْرِ مُنْكَرٍ، وَقَدْ يُعْلِظُ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ وَيَلِينُ فِي مَوْضِعِ الْغِلْظَةِ، وَيُنْكَرُ عَلَى مَنْ لَا يَرِيدُهُ إِنْكَارُهُ إِلَّا تَمَادِيًا، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا التَّكْلِيفَ مُتَوَجِّهٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ بَعْضُ الْأُمَّةِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وَالثَّانِي: أَنَّا أَجْمَعْنَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى سَبِيلِ الْكِفَايَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ مَتَى قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمَعْنَى: لِيَقُمْ بِذَلِكَ بَعْضُكُمْ، فَكَانَ فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا إِجَابًا عَلَى الْبَعْضِ لَا عَلَى الْكُلِّ، وَاللَّهُ

أَعْلَمَ. وقال ابن الجوزي: قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَى الْكَلَامِ: وَلِتَكُونُوا كُلُّكُمْ أُمَّةً تَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَتَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَكِنَّ (مِنْ) هَاهُنَا تَدْخُلُ لِتَحْضَرَ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ، وَهِيَ مُؤَكَّدَةٌ أَنَّ الْأَمْرَ لِلْمُخَاطَبِينَ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُلَّ أَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى . بَعْدَهَا فِي سِيَاقِهَا .: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. قَالَ . أَيِ الزَّجَّاجِ .: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ مِنْهُمْ فِرْقَةً؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ بِمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عُلَمَاءَ، وَالْعِلْمُ يَنْوُبُ بَعْضُ النَّاسِ فِيهِ عَنْ بَعْضٍ، كَالْجِهَادِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: (مِنْ) تَبْعِيضِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْأَمْرِ أَوْ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالًا مِنْ الْفَاعِلِ وَهُوَ (أُمَّةٌ)، وَ(يَدْعُونَ) صِفْتُهَا: أَيُّ لُتُوجِدَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ دَاعِيَةٌ إِلَى الْخَيْرِ. وَالْأُمَّةُ هِيَ: الْجَمَاعَةُ الَّتِي يُؤْمِهَا فِرْقُ النَّاسِ، أَيُّ يَقْصِدُونَهَا وَيَقْتَدُونَ بِهَا، أَوْ مِنْ النَّاقِصَةِ وَ(أُمَّةٌ) اسْمُهَا وَ(يَدْعُونَ) حَبَرُهَا، أَيُّ لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ دَاعِيَةٌ إِلَى الْخَيْرِ. وَأَيًّا مَا كَانَ فَتَوَجَّهَ الْخِطَابُ إِلَى الْكُلِّ مَعَ إِسْنَادِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْبَعْضِ؛ لِتَحْقِيقِ مَعْنَى فَرْضِيَّتِهَا عَلَى الْكِفَايَةِ، وَأَتَمَّا وَاجِبَةً عَلَى الْكُلِّ، لَكِنْ بِحَيْثُ إِنَّ أَقَامَهَا الْبَعْضُ سَقَطَتْ عَنِ الْبَاقِينَ، وَلَوْ أَخْلَ بِهَا الْكُلُّ أَثْمُوا جَمِيعًا. وَقِيلَ: (مِنْ) بَيَانِيَّةٌ، وَالْأَمْرُ مِنْ كَانَ النَّاقِصَةِ، وَالْمَعْنَى: كُونُوا أُمَّةً يَدْعُونَ...، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ كَوْنَ الدَّعْوَةِ فَرْضَ عَيْنٍ، فَإِنَّ الْجِهَادَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ مَعَ ثُبُوتِهِ بِالْخِطَابَاتِ الْعَامَّةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: قِيلَ مُتَوَجَّهٌ إِلَى مَنْ تُوجَّهَ الْخِطَابُ الْأَوَّلُ إِلَيْهِ فِي رَأْيِي، وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنِ الضَّحَّاكِ: أَنَّهُ مُتَوَجَّهٌ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . خَاصَّةً وَهُمْ الرُّوَاهُ. وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى جَعْلِهِ عَامًّا، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ ذَكَرَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: حَذَفُ الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ مِنَ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ إِمَّا لِلْإِعْلَامِ بِظُهُورِهِ، أَيْ يَدْعُونَ النَّاسَ وَلَوْ غَيْرَ مُكَلَّفِينَ وَيَأْمُرُونَهُمْ وَيَنْهَوْنَهُمْ، وَإِمَّا لِلْقَصْدِ إِلَى إِيجَادِ نَفْسِ الْفِعْلِ عَلَى حَدِّ: فَلَانُ يُعْطَى، أَيْ يَفْعَلُونَ الدُّعَاءَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَيُوقِعُونَهَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿أُمَّةٌ﴾: أَيُّ جَمَاعَةٍ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا يُؤْمِهَا فِرْقُ النَّاسِ، أَيْ

يَقْصِدُونَهَا وَيَقْتَدُونَ بِهَا. انتهى كلامه. ﴿أُمَّةٌ﴾ لها في القرآن الكريم أربعة معانٍ: الأول: جماعة، كهذه الآية. الثاني: زمن، كقوله تعالى: ﴿وَلَعِنَ أَخْرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَخْبِئُهُ...﴾ [هود: ٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]. الثالث: القدوة والإمامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. الرابع: ملّة، كقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. وقال ابن عاشور: حُذِفَتْ مَفَاعِيلُ (يَدْعُونَ، وَيَأْمُرُونَ، وَيَنْهَوْنَ)؛ لِقَصْدِ التَّعْمِيمِ، أَيَّ يَدْعُونَ كُلَّ أَحَدٍ. انتهى كلامه. وفي المراد بـ(الخير) هنا أقوال: الأول: الإسلام، قاله مقاتل. الثاني: العمل بطاعة الله. قاله أبو سليمان الدمشقي. الثالث: هو ما فيه صلاح ديني ودنيوي. الرابع: إلى جميع الخيرات.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: قال أبو حيان: ذِكْرُ أَوَّلِ الدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وهو عامٌّ في التَّكْلِيفِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالتُّرُوكِ، ثُمَّ جِيءَ بِالْخَاصِّ إِعْلَامًا بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ. وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْمَعْرُوفَ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْمُنْكَرَ بِالْكُفْرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّوْحِيدَ رَأْسُ الْمَعْرُوفِ، وَالْكُفْرَ رَأْسُ الْمُنْكَرِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ الْعُمُومَ فِي كُلِّ مَعْرُوفٍ مَأْمُورٍ بِهِ فِي الشَّرْعِ، وَفِي كُلِّ مَنْهِيٍّ هُوَ فِي الشَّرْعِ. وقال الشوكاني: هذا من بابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ إِظْهَارًا لِشَرَفِهِمَا، وَأَنَّهُمَا الْفَرْدَانِ الْكَامِلَانِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالْدُّعَاءِ إِلَيْهِ. وقال الألوسي: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَسَّرَ (الْخَيْرَ) بِمَعْرُوفٍ خَاصٍّ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَجَعَلَ (الْمَعْرُوفَ) فِي الْآيَةِ مَا عَدَاهُ مِنَ الطَّاعَاتِ. وقال ابن عاشور: والتَّعْرِيفُ فِي (الْخَيْرِ، وَالْمَعْرُوفِ، وَالْمُنْكَرِ) تَعْرِيفُ الْإِسْتِعْرَاقِ، فَيُفِيدُ الْعُمُومَ فِي الْمَعَامَلَاتِ بِحَسَبِ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعِلْمُ وَالْمُقَدَّرَةُ فَيُشَبِّهُ الْإِسْتِعْرَاقَ الْعَرَبِيِّ. انتهى كلامه. واختلف في المراد بالآية، فقليل المعروف هنا: اتباع محمد ﷺ. وقيل: المعروف: هو ما استحسنته الشرع. والمنكر: ما استتبعه الشرع. وقيل: المعروف: هو ما يَعْرِفُ كُلُّ عَاقِلٍ صَوَابَهُ، وَضِدُّهُ الْمُنْكَرُ. وقيل:

المعروف هاهنا: طاعة الله. والمنكر: معصيته. وقيل: المعروف: هو الحق والصلاح. وقيل: المنكر: أي الجبت والطاغوت. وقيل: المنكر: أي العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة. وقيل: أي ما لا يصلح عقلا. وقال العثيمين: جعل الله الأمر بالمعروف بعد الدعوة؛ لأن الدعوة سابقة على الأمر، فأنت تدعو أولا، ثم تأمر ثانيا، ثم تغير ثالثا.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: قال أبو السعود: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمّن عداهم وانتظامهم بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعُلُوّ طبقتهم وبعْدَ منزلتهم في الفضل، والإفراد في (كاف) الخطاب إما لأن المخاطب كلٌّ من يصلح للخطاب، وإما لأنّ التّعيين غير مقصود، أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة. ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الأخصاء بكمال الفلاح. (وهم): ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة، ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه، أو مبتدأ خبره (المفلحون)، والجملة خبر لإولئك. وتعريف ﴿المفلحون﴾: إما للعهد، أو للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين. وقال الشوكاني: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: الإشارة هنا ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها. ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي المختصون بالفلاح، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد. انتهى كلامه. وقيل: أي الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم. وقيل: أي الفائزون بالنعيم المقيم. وقال ابن عاشور: وجملة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معطوفة على صفات أمة وهي التي تضمنتها جملة: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، والتقدير: وهم مفلحون؛ لأنّ الفلاح لما كان مسببا على تلك الصفات الثلاث جعل بمنزلة صفة لهم، ويجوز جعل جملة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حالا من أمة، و(الواو) للحال. والمقصود: بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك. وكان مقتضى الظاهر: فصل هذه الجملة عما قبلها بدون عطف، مثل فصل جملة ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾

[البقرة: ٥]، لَكِنَّ هَذِهِ عُطِفَتْ أَوْ جَاءَتْ حَالًا؛ لِأَنَّ مَضْمُونَهَا جَزَاءٌ عَنِ الْجَمْلِ الَّتِي قَبْلَهَا، فَهِيَ أَجْدَرُ بِأَنْ تُلْحَقَ بِهَا. وَمُفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: قَصْرُ صِفَةِ الْفَلَاحِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ إِمَّا قَصْرٌ إِضَافِيٌّ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَمْ يَقُمْ بِذَلِكَ مَعَ الْمُقَدَّرَةِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا قَصْرٌ أُريدَ بِهِ الْمِبَالَعَةُ؛ لِعَدَمِ الْإِعْتِدَادِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِفَلَاحِ غَيْرِهِمْ، وَهُوَ مَعْنَى قَصْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى الْكَمَالِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أَيِ الْفَائِزِينَ بِالْمَطْلُوبِ، الْنَاجِينَ مِنَ الْمَرْهُوبِ.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا أَمَرَ بِذَلِكَ أَكَّدَهُ بِالنَّهْيِ عَمَّا يُضَادُّهُ، مُعَرِّضًا بِمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مُبَكِّتًا لَهُمْ بِضَلَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ فِي دِينِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا...﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ مَنْ افْتَرَقَ مِنَ الْأَمَمِ فِي الدِّينِ، فَأَهْلَكَهُمُ الْإِفْتِرَاقُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ الْمُبْتَدِعَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: هُمْ الْحُرُورِيَُّةُ بِالشَّامِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ: وَقَفَ أَبُو أُمَامَةَ وَأَنَا مَعَهُ عَلَى رَأْسِ الْحُرُورِيَّةِ بِالشَّامِ، فَقَالَ: هُمْ كِلَابُ النَّارِ، كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَكَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٦]. قَالَ السَّمُرْقَنْدِيُّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: يَعْنِي الَّذِينَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ، أَيِ الْعَلَامَاتِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَيَانِ

الطريق. وقال الواحدي: ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾: يعني اختلفوا في الديانة. ولاختلافهم وجوه: أحدها: أنَّ اليهود اختلفوا من بعد موسى، فصاروا فرقتا، والنصارى اختلفوا من بعد عيسى، فصارت فرقتا، فأمر الله بالاجتماع على كتابه. الثاني: أنَّ المراد بالاختلاف ههنا: اختلاف أهل الكتاب في الإيمان بمحمد ﷺ، فبعضهم آمن، وبعضهم كفر.

الثالث: أنَّ الاختلاف ههنا: اختلاف اليهود والنصارى، وكتابهم جميعا التوراة، وهم يختلفون، كل فرقة منهم ليست على شريعة الأخرى. وقال الرازي: قَوْلُهُ تعالى: ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ فِيهِ وَجُوهٌ: الأول: تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بِسَبَبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَطَاعَةِ النَّفْسِ وَالْحَسَدِ، كَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ تَرَكَ نَصْرَ اللَّهِ بِسَبَبِ حَسَدِهِ لِآدَمَ. الثاني: تَفَرَّقُوا حَتَّى صَارَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ يُصَدِّقُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، فَصَارُوا بِذَلِكَ إِلَى الْعَدَاوَةِ وَالْفُرْقَةِ. الثالث: صَارُوا مِثْلَ مُبْتَدِعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِثْلَ الْمَشْبَهَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْحَشَوِيَّةِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَذَكَرَهُمَا لِلتَّأْكِيدِ. وَقِيلَ: بَلْ مَعْنَاهُمَا مُخْتَلِفٌ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ: تَفَرَّقُوا بِالْعَدَاوَةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ. وَقِيلَ: تَفَرَّقُوا بِسَبَبِ اسْتِخْرَاجِ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ مِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِأَنْ حَاوَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نُصْرَةَ قَوْلِهِ وَمَذْهَبِهِ. وَقِيلَ: تَفَرَّقُوا بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنْ صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلِيَّكَ الْأَخْبَارِ رَئِيسًا فِي بَلَدٍ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِأَنْ صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ صَاحِبَهُ عَلَى الْبَاطِلِ. وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: وَلَمْ يَقُلْ: (جَاءَهُمْ)؛ لِجَوَازِ حَذْفِ عِلَامَةٍ مِنَ الْفِعْلِ إِذَا كَانَ فِعْلُ الْمُؤَنَّثِ مُتَقَدِّمًا. انْتَهَى كَلَامُ الرَّازِيِّ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَنْهَى اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَكُونَ كَالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: أَيِ الْآيَاتِ وَالْحُجُجِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْحَقِّ الْمَوْجِبَةِ لِاتِّحَادِ الْكَلِمَةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: التَّوْرَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَأَبُو أَمَامَةَ: الْقُرْآنُ.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: قَالَ السَّمَرَقَنْدِيُّ: يَعْنِي دَائِمٌ لَا يَرْفَعُ عَنْهُمْ أَبَدًا. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: أَيِ: الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: أَيِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

بَعْدَ عَذَابِ الدُّنْيَا؛ بِاخْتِلَافِهِمْ، مُنَابِذِينَ لِمَا مِنْ شَأْنِهِ الْجَمْعُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: لَا يَكْتَنِبُهُ .
 أَي لَا تَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ وَكُنْهَهُ . عَلَى تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ الْمَذْكُورُ، وَفِي ذَلِكَ وَعِيدٌ لَهُمْ وَتَهْدِيدٌ
 لِلْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ بِالْمَعْضُوبِ عَلَيْهِ يَسْتَدْعِي الْعُضْبَ. وَقَالَ الْعَنِيَمِيُّ: الْعَذَابُ:
 هُوَ الْعُقُوبَةُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْلَمُ صَاحِبُهُ وَيُعَذَّبُهُ. وَالْعَظِيمُ: هُوَ الشَّيْءُ الْمُسْتَغْطَمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ وَفِي
 كَمِّيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ عَذَابُهُمْ شَدِيدٌ، مُتَنَوِّعٌ.

● قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسَوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ
 بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْيَهُودَ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَهَاجَمَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، ثُمَّ أَمَرَ
 الْمُسْلِمِينَ بِالْبَعْضِ وَهَاجَمَهُمْ عَنِ الْبَعْضِ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ؛ تَأْكِيدًا لِلْأَمْرِ.

● تفسير الآية:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: قال الماوردي: يَعْنِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِيهِ
 بَيْنَ مَثَابٍ بِالْجَنَّةِ وَمُعَاقِبٍ بِالنَّارِ، فَوُصِفَ وَجْهُ الْمَثَابِ بِالْبَيَاضِ؛ لِإِسْفَارِهِ بِالسُّرُورِ،
 وَوُصِفَ وَجْهُ الْمُعَاقِبِ بِالسَّوَادِ؛ لِانْكِسَافِهِ بِالْحُزْنِ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَمَعْنَى ابْيَاضَ
 الْوُجُوهَ: إِشْرَاقُهَا، وَاسْتِنَارَتُهَا، وَسُرُورُهَا، وَاسْتَبْشَارُهَا؛ لِمَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ،
 كَقَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ (٣٨)
 ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) ﴿عَبَسَ﴾. وَمَعْنَى اسْوَدَّهَا: حَزَنَهَا، وَكَابَتْهَا، وَكَسَفَهَا؛ لِمَا
 تَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَاسِقَةٌ﴾ [عبس: ٤٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ
 تَكُونُ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ مُبَيَّضَةً وَوُجُوهُ الْكَافِرِينَ مُسْوَدَّةً. وَيُقَالُ: إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ قِرَاءَةِ
 الْكِتَابِ، إِذَا قَرَأَ الْمُؤْمِنُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِي كِتَابِهِ حَسَنَاتِهِ اسْتَبَشَرَ وَابْيَضَ وَجْهُهُ، وَإِذَا قَرَأَ

الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ كِتَابَهُ فَرَأَى فِيهِ سَيِّئَاتِهِ اسْوَدَّ وَجْهَهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ إِذَا رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ اَبْيَضَ وَجْهَهُ، وَإِذَا رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ اسْوَدَّ وَجْهَهُ. وَيُقَالُ: ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا تَزُولُ الْيَوْمَ أُيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. وَيُقَالُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُؤْمَرُ كُلُّ فَرِيقٍ بِأَنْ يَجْتَمَعَ إِلَى مَعْبُودِهِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَيْهِ حَزَبُوا وَاسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ، فَيَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبُّنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَتَعْرِفُونَهُ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟ فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَهُ! إِذَا اعْتَرَفَ عَرَفْنَاهُ، فَيُروْنَهُ كَمَا شَاءَ اللَّهُ، فَيَخْرُجُ الْمُؤْمِنُونَ سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَتَصِيرُ وُجُوهُهُمْ مِثْلَ التَّلَاجِ بَيَاضًا، وَيَبْقَى الْمُنَافِقُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى السُّجُودِ فَيَحْزَنُوا وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ. انتهى كلامه. وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَبَيُّضَ وَجْهِهِ بِالقِنَاعَةِ، وَتَسْوَدَّ وَجْهُهُ بِالطَّمَعِ. وقال القاسمي: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهُ وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ﴾: (يَوْمَ): مَنْصُوبٌ إِمَّا مَفْعُولٌ لِمُضْمَرٍ حُوطَبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، أَيْ: اذْكُرُوا يَوْمَ. أَوْ ظَرْفٌ لِلِاسْتِقْرَارِ فِي (لَهُمْ) أَوْ لَ (عَظِيمٌ) أَوْ لَ (عَذَابٌ). وقال العثيمين: قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهُ﴾: يحتمل أنها جملة استئنافية، وأنها متعلّقة بمحذوف تقديره: اذكر يوم تبيض وجهه وتسود وجهه، يعني واذكر هذا اليوم الذي ينقسم فيه الناس إلى هذين القسمين. ويحتمل أنها متعلّقة بالخبر لقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: يعني لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهُ﴾: الايبضاض معروف، أي تكون بيضاء، وهذه الوجوه التي تكون بيضاء هي وجوه المؤمنين، وتختص هذه الأمة بأنها يكون لايبضاضاها نور تُعرف به يوم القيامة، كما قال النبي . عليه الصلاة والسلام .: "سَيَمَّا لَيْسَتْ لِعَيْرِكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ" رواه مسلم. وسبب هذا الايبضاض والاسوداد: أنه ممّا يبشّر به هؤلاء ويوبّخ به هؤلاء، فإنّ المؤمنين يبشّرون إذا بعثوا من قبورهم برحمة الله، قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وأمّا الكافرون فبالعكس، ومن المعلوم أنّ الإنسان إذا بشّر بما يسره يستنير وجهه ويظهر عليه علامة السرور.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: (ألفاء) للتفريع. و(أما) للتفصيل؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾. قال أبو السعود: هَذَا تَفْصِيلٌ لِأَحْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا إجمالاً. وَتَقْدِيمُ بَيَانٍ هَؤُلَاءِ لِمَا أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ التَّحْذِيرِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ وَالْإِفْضَاءِ إِلَى خَتْمِ الْكَلَامِ بِحُسْنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا بُدِئَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِجْمَالِ. وقال الألوسي: ابْتَدَأَ بِحَالِ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ؛ لِمَجَاوَزَتِهِ ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ﴾؛ وَلِيَكُونَ الْإِبْتِدَاءُ وَالْإِحْتِثَامُ بِمَا يَسُرُّ الطَّبَعَ وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ. وقال العثيمين: بدأ بذكر الذين اسودت وجوههم مع أنه آخر ذكرها فيما قبل؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُهُمْ وَتَسْوَدُّ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، وكان المتوقع أن يقول: فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وجوههم؛ لأن هذا هو الترتيب، ولكنه كان الأمر بخلاف المتوقع. ويسمي علماء البلاغة هذا النوع من السياق: لَفًّا وَنَشْرًا مُشْتَوِشًا، أو أحسن نقول: غير مرتب. انتهى كلامه. واختلف العلماء في تعيينهم: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ. وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: هُمُ الْكُفَّارُ. وقال الحسن: هم المنافقون. وقال قتادة: هُمُ الْمُرْتَدُّونَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُمُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا مُصَدِّقِينَ بِأَنْبِيَائِهِمْ مُصَدِّقِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، فَلَمَّا بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَفَرُوا بِهِ، وَهُوَ اخْتِيارُ الرَّجَاحِ. وقال مالك بن أنس: هِيَ فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ. وقال أبو أمامة الباهلي: هُمُ الْحُرُورِيَّةُ. وَقِيلَ: هُمُ الْقَدَرِيَّةُ.

﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: (الهمزة) لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ. قَالَ الرَّجَّاحُ: مَعْنَاهُ: فَيَقَالُ لَهُمْ: أَكْفَرْتُمْ، فَحَذَفَ الْقَوْلُ؛ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَيْهِ. قال البقاعي: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: أَيِ بِمَا جُبِلْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ، وَمُكِّنْتُمْ بِهِ مِنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَقِيمَةِ، مِنَ النَّظَرِ فِي الدَّلَائِلِ، ثُمَّ بِمَا أَحَذَّ عَلَيْكُمْ أَنْبِيَائُكُمْ مِنَ الْعُهُودِ. وقال القاسمي: والمعنى: أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَكُمْ مَا يُوجِبُ الْإِيمَانَ، وَهُوَ الدَّلَائِلُ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ،

وما يُنَاجِيكُمْ بِهِ وَجَدَانُكُمْ مِنْ صِدْقِ هَذِهِ الدَّعْوَى وَحَقِّيَّتِهَا وَشَهَادَتِهِ بِصِحَّتِهَا. وقال العثيمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: جواب (أما) محذوف، والتقدير: فيقال: أكفرتم، وأما الجملة: فهي مقول للقول المحذوف، أي فيقال: أكفرتم. ويحتمل أن القائل هو الله عز وجل، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة، وعلى كل تقدير فالمراد بالاستفهام هنا: التوبيخ والتنديد، أي أن هؤلاء يوبخون فيُجمع لهم بين الألم البدني، والألم القلبي النفسي. والمراد بالإيمان هنا: إيمان الفطرة، ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان: الإيمان الفطري الاختياري، وتكون الآية في سياق من ارتدوا بعد إيمانهم، لكن الأول أولى؛ لأنه أعم.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: قال الألوسي: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: أي المعهود الموصوف بالعظم. والأمر للإهانة؛ لِتَقَرُّرِ المأمور به وَتَحَقُّقِهِ. وقيل: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ تَسْخِيرٌ بِأَنْ يَذُوقَ الْعَذَابَ كُلُّ شَعْرَةٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ. و(الفاء) لِلإِيدَانِ بِأَنَّ الأَمْرَ بِذُوقِ الْعَذَابِ مُتَرَتِّبٌ عَلَى كُفْرِهِمْ الْمَذْكُورِ كَمَا يُصْرَحُ بِهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ف(الباء) لِلتَّسْبِيَةِ. وقيل: لِلْمُقَابَلَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى التَّسَبُّبِ وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى اللّامِ، وَلَعَلَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ (بَعْدَ إِيمَانِكُمْ). وَالْجَمْعُ بَيْنَ صِغَتَيِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ كُفْرِهِمْ، أَوْ عَلَى مُضِيِّهِ فِي الدُّنْيَا. وقال العثيمين: وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: أي مَسُّهُ، والذوق هنا ليس ذوقاً باللسان، بل هو ذوق بالبدن كله؛ لأن الذوق قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالبدن.

• قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

عندما ذكر الله مآل الكافرين ثنى بذكر حال المؤمنين، وهذه هي عادة القرآن وطريقته.

● تفسير الآية:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ الْمُؤْمِنُونَ. وقيل: هُمْ أَهْلُ طَاعَةِ اللَّهِ والوفاء بعهده. قال الواحدي: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: قال أبو إسحاق: كَرَّرَ (في)؛ للتأكيد، الذي هو تمكين المعنى في النفس. وقال غيره: كَرَّرَ (في)؛ للبيان عن الصفتين، والمعنى: أنهم في رحمة الله، وأنهم خالدون فيها، فكل واحدٍ منهما قائمةٌ بنفسها. وقال القرطبي: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي في جَنَّتِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ خَالِدُونَ بَاقُونَ. وقال ابن الجوزي: رَحْمَةُ اللَّهِ: جَنَّتُهُ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَسَمِيَ الْجَنَّةَ رَحْمَةً؛ لِأَنَّ دُخُولَهُمْ إِيَّاهَا كَانَ بِرَحْمَتِهِ. وَقَالَ الرَّجَّازُ: مَعْنَاهُ: فِي ثَوَابِ رَحْمَتِهِ، قَالَ: وَأَعَادَ ذَكَرَ (فِيهَا) تَوْكِيدًا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: انْظُرْ تَفَاوُتَ مَا بَيْنَ التَّفْسِيرَيْنِ، هُنَاكَ جَمْعٌ لِمَنْ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ بَيْنَ التَّعْنِيفِ بِالْقَوْلِ وَالْعَذَابِ، وَهُنَا جَعَلَهُمْ مُسْتَقَرِّينَ فِي الرَّحْمَةِ، فَالرَّحْمَةُ ظَرْفٌ لَهُمْ وَهِيَ شَامِلَتُهُمْ. وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مُسْتَقَرُّونَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْإِسْتِقْرَارَ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْخُلُودِ، لَا زَوَالَ مِنْهُ وَلَا انْتِقَالَ، وَأَشَارَ بِلَفْظِ الرَّحْمَةِ إِلَى سَابِقِ عِنَايَتِهِ بِهِمْ، وَأَنَّ الْعَبْدَ وَإِنْ كَثُرَتْ طَاعَتُهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ. وَذَكَرَ الْخُلُودَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ لِلْكَافِرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ جَانِبَ الرَّحْمَةِ أَغْلَبَ. وَأَضَافَ الرَّحْمَةَ هُنَا إِلَيْهِ، وَلَمْ يُضِفِ الْعَذَابَ إِلَى نَفْسِهِ، بَلْ قَالَ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. وَلَمَّا ذَكَرَ الْعَذَابَ عَلَّلَهُ بِفِعْلِهِمْ، وَلَمْ يَنْصَحْ هُنَا عَلَى سَبَبِ كَوْنِهِمْ فِي الرَّحْمَةِ. وَ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبَرًا. وَخَالِدُونَ الْعَامِلُ فِي الظَّرْفَيْنِ، وَكُرِّرَ عَلَى طَرِيقِ التَّوْكِيدِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِدْعَاءِ وَالتَّشْوِيقِ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: جُمْلَةُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ اسْتِنَافِيَّةٌ وَقَعَتْ جَوَابًا عَمَّا نَشَأَ مِنَ السِّيَاقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُونَ فِيهَا؟ فَأُجِيبَ بِمَا تَرَى. وَفِيهَا تَأْكِيدٌ فِي الْمَعْنَى لِمَا تَقَدَّمَ. وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ؛ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى رُءُوسِ الْآيِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: الْمُرَادُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ: الْجَنَّةُ، عَبَّرَ عَنْهَا بِالرَّحْمَةِ؛ تَنْبِيْهًُا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَإِنْ اسْتَعْرَقَ عُمرُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى.

- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨):

- مناسبة الآية لما قبلها:

قال ابن عطية: الإشارة بـ(تلك) إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تغذيب الكفار وتنعيم المؤمنين.

وقال ابن عاشور: الإشارة في قوله: (تلك) إلى طائفة من آيات القرآن السابقة من هذه السورة كما اقتضاه قوله: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

- تفسير الآية:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾: قال ابن عطية: الإشارة بـ(تلك) إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تغذيب الكفار وتنعيم المؤمنين. ولما كان فيها ذكر التغذيب أخبر تعالى أنه لا يريد أن يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا لم يرد ذلك فلا يوجد البتة؛ لأنه لا يقع من شيء إلا ما يريد تعالى. وقوله تعالى: (بالحق): معناه: بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون المعنى: نتلوها عليك مضمنة الأفاعيل التي هي حق في أنفسها، من كرامة قوم، وتغذيب آخرين. وقال القرطبي: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾: ابتداءً وخبر، يعني القرآن. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: يعني نُنزل عليك جبريل فيقرؤها عليك. ﴿بالحق﴾: أي بالصدق. وقال الزجاج: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾: المذكورة حُجج الله ودلائله. وقيل: ﴿تِلْكَ﴾: بمعنى هذه، ولكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت، فقيل: ﴿تِلْكَ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾: بدلاً من ﴿تِلْكَ﴾، ولا تكون نعتاً، لأن المبهم لا يُنعت بالمضاف. وقال أبو حيان: الإشارة بـ(تلك): قيل: إلى القرآن كله. وقيل: إلى ما أنزل من الآيات في أمر الأوس والخزرج واليهود الذين مكروا بهم، والتقدم إليهم بنجيب الافتراق. وقيل: (تلك) بمعنى هذه، لما انقضت صارت كأنها بعدت. ومعنى التلاوة: القراءة شيئاً بعد شيء، والتالي هو جبريل. عليه السلام.. ومعنى (بالحق): أي

بِإِخْبَارِ الصِّدْقِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى مُتَضَمِّنَةٌ الْأَفْعِيلَ الَّتِي هِيَ أَنْفُسُهَا حَقٌّ مِنْ كَرَامَةِ قَوْمٍ وَتَعْذِيبِ آخَرِينَ. وَتِلْكَ مُبْتَدَأٌ أَوْ آيَاتُ اللَّهِ حَبْرُهُ، وَتَتْلُوها جُمْلَةً حَالِيَةً. قَالُوا: وَالْعَامِلُ فِيهَا اسْمُ الْإِشَارَةِ. وَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ آيَاتُ اللَّهِ بَدَلًا، وَالْحَبْرُ تَتْلُوها. وَقَالَ الرَّجَاجُ: فِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمَذْكُورَةُ حُجَجُ اللَّهِ وَدَلَائِلُهُ. فَعَلَى هَذَا الَّذِي قَدَرَهُ يَكُونُ حَبْرُ الْمُبْتَدَأِ مَحْذُوفٌ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ بِهَذَا التَّقْدِيرِ يَتِمُّ مَعْنَى الْآيَةِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ هَذَا الْمَحْذُوفِ؛ إِذِ الْكَلَامُ مُسْتَعْنٍ عَنْهُ تَامٌ بِنَفْسِهِ. وَ(الْبَاءُ) فِي (بِالْحَقِّ) بَاءُ الْمَصَاحَبَةِ، فَهِيَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ، أَيْ مُلْتَبِسَةٌ بِالْحَقِّ. وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى يَتْلُوها: يُنَزِّلُهَا مُتَوَالِيَةً شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿تِلْكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى تَنْعِيمِ الْأَبْرَارِ وَتَعْذِيبِ الْكَافِرِ. وَمَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلْإِذَانِ بِغُلُوبِ شَأْنِهَا وَسُمُومِ مَكَانِهَا فِي الشَّرَفِ. ﴿تَتْلُوها﴾: الْإِلْتِفَاتُ إِلَى التَّكْلُمِ بِنُونِ الْعِظَمَةِ مَعَ كَوْنِ التَّلَاوَةِ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ. عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْعِنَايَةِ بِالتَّلَاوَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿تَتْلُوها﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ، أَيْ مُلْتَبِسِينَ أَوْ مُلْتَبِسَةً بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ لَيْسَ فِي حُكْمِهَا شَائِبَةٌ جَوْرٍ بِنَقْصِ ثَوَابِ الْمُحْسِنِ أَوْ بَزِيَادَةِ عِقَابِ الْمُسِيءِ أَوْ بِالْعِقَابِ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ مُوَفَّى لَهُمْ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ بِمُوجِبِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾: أَيِ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اللَّهِ، عَلَى وَجُودِهِ، وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾: الْبَاءُ هُنَا لِلْمَصَاحَبَةِ، يَعْنِي أَنَّهَا مَصْحُوبَةٌ بِالْحَقِّ وَنَازِلَةٌ بِالْحَقِّ، أَيْ هِيَ نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا بَلَا شَكٍّ، وَهِيَ أَيْضًا نَازِلَةٌ بِالْحَقِّ، وَالْقَاعِدَةُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْآيَةَ إِذَا تَضَمَّنَتْ مَعْنَيْنِ لَا يَتَنَافِيَانِ فَالْوَاجِبُ حَمْلُهَا عَلَى الْمَعْنَيْنِ، فَإِنْ كَانَ يَتَنَافِيَانِ طُلِبَ الْمَرَجِّحُ، فَمَا تَرَجَّحَ مِنْهُمَا فَهُوَ الْمُرَادُ. وَمَعْنَى ﴿بِالْحَقِّ﴾: أَيِ صِدْقٍ فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلٍ فِي الْأَحْكَامِ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾: قال أبو السعود: تَذْيِيلٌ مُّقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِهٍ وَآكِدِهِ، فَإِنَّ تَنْكِيرَ الظُّلْمِ وَتَوَجُّهَ النَّفْيِ إِلَى إِرَادَتِهِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ دُونَ نَفْسِهِ، وَتَعْلِيقَ الْحُكْمِ بِأَحَادِ الْجَمْعِ الْمَعْرُوفِ وَالِاتِّفَاتِ إِلَى الْإِسْمِ الْجَلِيلِ إِشْعَارًا بِعِلَّةِ الْحُكْمِ بَيَانٌ لِّكَمَالِ نَزَاهَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الظُّلْمِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، أَيْ مَا يُرِيدُ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِ الظُّلْمِ لِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَظْلِمَهُمْ، فَإِنَّ الْمُضَارِعَ كَمَا يُفِيدُ الْإِسْتِمْرَارَ فِي الْإِثْبَاتِ يُفِيدُهُ فِي النَّفْيِ بِحَسَبِ الْمَقَامِ، كَمَا أَنَّ الْجُمْلَةَ الْإِسْمِيَّةَ تَدُلُّ بِمَعُونَةِ الْمَقَامِ عَلَى دَوَامِ الثُّبُوتِ وَعِنْدَ دُخُولِ حَرْفِ النَّفْيِ تَدُلُّ عَلَى دَوَامِ الْإِنْتِفَاءِ لَا عَلَى انْتِفَاءِ الدَّوَامِ. وَفِي سَبْكِ الْجُمْلَةِ نَوْعٌ إِمَاءٌ إِلَى التَّعْرِيصِ بِأَنَّ الْكَفَرَةَ هُمْ الظَّالِمُونَ، ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَعْرِيصِهَا لِلْعَذَابِ الْخَالِدِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: جِيءَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا؛ لِإِفَادَةِ تَقْوَى الْحُكْمِ، وَهُوَ انْتِفَاءُ إِرَادَةِ ظُلْمِ الْعَالَمِينَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَتَنْكِيرُ (ظُلْمًا) فِي سِيَاقِ النَّفْيِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ جِنْسِ الظُّلْمِ عَنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ إِرَادَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَا يُعَدُّ ظُلْمًا فِي مَجَالِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مُنْتَفٍ أَنْ يَكُونَ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْعَثِمِينَ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾: (مَا) نَافِيَةٌ، وَهِيَ حِجَازِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الشَّرْطَ تَامَّةً، لَكِنْ اسْمُهَا مَفْرَدٌ كَمَا هُوَ الْعَادَةُ فِي الْمُبْتَدَأِ أَنْ يَكُونَ مَفْرَدًا، وَخَبَرُهَا جُمْلَةٌ ﴿يُرِيدُ﴾، وَالتَّرْتِيبُ مَوْجُودٌ، وَلَمْ يَنْتَقِضِ النَّفْيُ، وَلَمْ تَقْتَرَنَّ بِ(إِنْ)، فَالشَّرْطُ تَامَّةٌ، إِذَا هِيَ حِجَازِيَّةٌ، وَلَيْسَ مُرَادُنَا بِقَوْلِنَا: حِجَازِيَّةٌ، أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا إِلَّا أَهْلُ الْحِجَازِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِهَا جَمُوعُ الْعَرَبِ، لَكِنْ أَهْلُ الْحِجَازِ يُعْمَلُونَهَا عَمَلُ (لَيْسَ)، وَبَنُو تَمِيمٍ يَهْمَلُونَهَا، فَمِثْلًا إِذَا خَاطَبْتَ شَخْصًا وَقَالَ: مَا زَيْدٌ مَوْجُودًا، تَعْرِفُ أَنَّهُ حِجَازِيٌّ، وَإِذَا خَاطَبْتَ شَخْصًا آخَرَ فَقَالَ: مَا زَيْدٌ مَوْجُودًا، عَرَفْتَ أَنَّهُ تَمِيمِيٌّ، وَالْمُرَادُ لَوْ خَاطَبَكَ أَحَدُ بِلْسَانِ الْحِجَازِيِّينَ الْأَوَّلِ، أَمَّا لِسَانُ الْحِجَازِيِّينَ الْآلِ فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾: نَفَى اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ يَرِيدَ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ أَوْ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ لَمْ يُظْلَمُوا، الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ نَالُوا هَذَا بِعَمَلِهِمْ، أَيْ بِسَبَبِهِ، وَالَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ نَالُوهُ أَيْضًا بِعَمَلِهِمْ، فَالْأَوَّلُونَ عَمِلُوا صَالِحًا فَأَثَبُوا هَذَا

الثواب، والآخرون عملوا سيئاً فأثيبوا هذا الثواب؛ لأن الله لا يمكن أن يظلم أحداً.
وقوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: المراد بهم كل من سوى الله. انتهى كلامه.

● قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٠٩):

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال القرطبي: قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: وَجْهُ اتِّصَالِ هَذَا بِمَا قَبْلَهُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ، وَصَلَهُ بِذِكْرِ اتِّسَاعِ قُدْرَتِهِ وَغِنَاهُ عَنِ الظُّلْمِ؛ لَكُونَ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهِ.

وقال أبو حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ أَحْوَالَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ يَخْتَصُّ بِعَمَلٍ مَنْ آمَنَ فَيَرْحَمُهُمْ بِهِ، وَيَخْتَصُّ بِعَمَلٍ مَنْ كَفَرَ فَيُعَذِّبُهُمْ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ هُوَ فِيمَا يَمْلِكُهُ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ تَعَالَى.

● تفسير الآية:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: قال السمرقندي: قال بعضهم: هذا معطوف على الأول، كأنه يقول: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ لأنهم كلهم عبيده ومخلوقه ومرزوقه، فلا يريد ظلمهم. وقال بعضهم: هذا ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض له، حتى يسألوه ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. وقال ابن عطية: وَلَمَّا كَانَ لِلذَّهْنِ أَنْ يَقِفَ هُنَا فِي الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ حَصَّ اللَّهُ قَوْمًا بِعَمَلٍ يَرْحَمُهُمْ مِنْ أَجْلِهِ، وَآخَرِينَ بِعَمَلٍ يُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، ذَكَرَ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ فِي مِلْكِهِ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقال: (ما)، وَلَمْ يَقُلْ: (مَنْ) مِنْ حَيْثُ هِيَ جُمْلٌ وَأَجْنَاسٌ. وقال ابن كثير: أَيِ الْجَمِيعِ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ. وقال أبو السعود: أَيُّ لَهُ تَعَالَى وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ شَرَكَةٍ أَصْلًا مَا فِيهِمَا مِنْ

المخلوقات الفائقة لِلْحَصْرِ مُلْكًا وَخُلُقًا إِحْيَاءً وَإِمَانَةً وَإِثَابَةً وَتَعْذِيبًا. وإيرادُ كَلِمَةِ (مَا):
إِمَّا لِتَغْلِيْبِ غَيْرِ الْعُقَلَاءِ عَلَى الْعُقَلَاءِ، وَإِمَّا لِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةً غَيْرَهُمْ؛ إظهارًا لِحَقَارَتِهِمْ فِي مَقَامِ
بَيَانِ عَظَمَتِهِ تَعَالَى. وقال القاسمي: أَيُّ لَهُ تَعَالَى وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ شَرِكَةٍ مَا فِيهِمَا مِنْ
المخلوقات مُلْكًا وَخُلُقًا، وَإِحْيَاءً وَإِمَانَةً، وَإِثَابَةً وَتَعْذِيبًا. وقال الشوكاني: أَيُّ لِلَّهِ ذَلِكَ
يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ وَعَلَى مَا يُرِيدُ. وَعَبَّرَ بِ(مَا)؛ تَغْلِيْبًا لِغَيْرِ الْعُقَلَاءِ عَلَى الْعُقَلَاءِ؛
لِكَثْرَتِهِمْ، أَوْ لِتَنْزِيلِ الْعُقَلَاءِ مَنْزِلَةً غَيْرَهُمْ. وقال العثيمين: أَيُّ هُوَ مُلْكُ اللَّهِ خُلُقًا وَإِجَادًا
وتصرفًا وتديرًا. والخبر هنا مقدّم لفائدة، وهي الحصر، يعني التخصيص؛ لأنك إذا
قدّمت ما حقه التأخير كان بذلك حصر، سواء كان خبرًا أو مفعولًا به أو جازًا ومجرورًا،
فمثلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٥] قدّم المفعول به لإفادة الحصر، يعني: لا
نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك، وهنا: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يعني لا لغيره، فقُدِّم
الخبر لأجل الحصر. و(مَا) اسم موصول يشمل كلَّ ما في السموات والأرض. وأتى
ب(مَا)؛ تَغْلِيْبًا لِغَيْرِ الْعَاقِلِ؛ لأنهم الأكثر، فعُلبوا، هذا من وجه، من وجه آخر أنه إذا
أريدت الصفة فإنه يعبرَ ب(مَا) بدل (مَنْ) ولو في العاقل، ومثلوا لذلك بقوله تعالى:
﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، ولم يقل: (مَنْ طاب)؛ لأنه لم يقصد
عين الشخص العاقل، بل قصد الوصف والجنس والكم، انكح ما طاب من جميل وقبيح
وواحد ومتعدد من النساء.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: قال ابن أبي زمنين: يَعْنِي عَوَاقِبُهَا فِي الْآخِرَةِ. وقال مكِّي:
أعيد ذكر الاسم في الآية؛ لأنه أفخم؛ ولأنه لا يقع فيه أشكال؛ إذ هذا الاسم إنما هو
للرب لا يشركه فيه أحد. وقال الكوفيون: إنما أعيد ظاهراً؛ لأن كلَّ واحد من الاثنين في
قصة مفارقٍ معناها للآخرى. وقال ابن كثير: أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وقال الألوسي: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: تقدِّمُ الجارِّ
لِلْحَصْرِ، أَيُّ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ. والإظهارُ في مَقَامِ الإِضْمَارِ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ.

وقال العثيمين: تقديم الجار والمجرور ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ على المتعلق، وهي ﴿تَرْجِعُ﴾ مفيد للحصر أيضا. وقوله: ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ يعم كل أمر. والأمور جمع (أمر)، بمعنى: الشأن؛ لأن كلمة (أمر) يراد بها الشأن كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، أي ما شأنه، ويراد بالأمر أيضا: الخطاب الموجه على وجه طلب الفعل على وجه الاستعلاء، جمع أمر الأول: أمور، وجمع الثاني: أوامر، وعلى هذا فيكون (الأمور) جمع (أمر) وهي الشئون، كل الشئون تعود إلى الله وترجع إليه؛ لأنه الخالق الذي ابتدأها.

• قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْأَكْتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾:

• سبب نزول الآية:

قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَلَامِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .، وَذَلِكَ أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ وَوَهْبَ بْنَ يَهُودَا الْيَهُودِيَّيْنِ قَالَا لَهُمْ: نَحْنُ أَفْضَلُ مِنْكُمْ وَدِينُنَا خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال ابن عاشور: يَتَنَزَّلُ هَذَا مَنْزِلَةً التَّغْلِيلِ لِأَمْرِهِمْ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وما بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ كُنْتُمْ، فَهُوَ مُؤَذِّنٌ بِتَغْلِيلِ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ مَا كَانَ فِيهِ خَيْرِيَّتُهُمْ يَجْدُرُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَفْرُوضًا مِنْ قَبْلُ، وَأَنْ يُؤَكَّدَ عَلَيْهِمْ فَرَضُهُ، إِنْ كَانَ قَدْ فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ.

• تفسير الآية:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: إِنْ قِيلَ: لَمْ قَالَ: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) وَلَمْ يَقُلْ: (أَنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)؟ فَفِيهِ لِلْعُلَمَاءِ تِسْعَةُ أَجَوِبَةٍ: الأول: قَالَ ذَلِكَ؛ لِتَقْدِيمِ الْبَشَارَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأُمَمِيهِ،

فَالْمَعْنَى: كُنْتُمْ عِنْدَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ خَيْرَ أُمَّةٍ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

الثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ لِتَأْكِيدِ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

الثَّالِثُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: أَيِ تَجْرُونَ النَّاسَ بِالسَّلَاسِلِ إِلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ النَّحَّاسُ: وَالتَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا: كُنْتُمْ لِلنَّاسِ خَيْرَ أُمَّةٍ. الرَّابِعُ: أَيِ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. الْخَامِسُ: أَيِ صِرْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ إِذَا آمَنْتُمْ. السَّادِسُ: كُنْتُمْ مُذْ آمَنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ. السَّابِعُ: قَالَ الْأَخْفَشُ: يُرِيدُ أَهْلَ أُمَّةٍ، أَيِ خَيْرَ أَهْلِ دِينٍ.

الثَّامِنُ: قِيلَ: هِيَ (كَانَ) التَّامَّةُ، وَالْمَعْنَى: خُلِقْتُمْ وَوُجِدْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ، وَ(خَيْرَ أُمَّةٍ) حَالٌ.

التَّاسِعُ: (كَانَ) زَائِدَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ. قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَفِيهِمْ أُرِيدَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ الْمُهَاجِرُونَ. الثَّالِثُ: جَمِيعُ الصَّحَابَةِ.

الرَّابِعُ: جَمِيعُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، نُقِلَتْ هَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَهِدُوا بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ فَعَلَ فَعَلَهُمْ كَانَ مِثْلَهُمْ. وَقِيلَ: هُمُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَعْنِي الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ وَأَهْلَ الْفَضْلِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ؛ إِذْ كُنْتُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا صَارَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ أُمَّةٍ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ أَكْثَرُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيهِمْ أَفْشَى. انْتَهَى كَلَامُهُ. وَتَقَدَّمَ قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ "تَجْرُونَ النَّاسَ بِالسَّلَاسِلِ إِلَى الْإِسْلَامِ". وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ، كُلُّ قَرْنٍ بِحَسَبِهِ، وَخَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]: أَيِ خِيَارًا. وَإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرِّعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ،

يَقُومُ القَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامُهُ. وقال القاسمي:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ سِيقٌ؛ لِتَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى الْحَقِّ، والدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ. و﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صِفَةٌ لِأُمَّةٍ، و(الْأُمَّةُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أَيِ أَظْهَرَتْ لَهُمْ حَتَّى تَمَيَّزَتْ وَعُرِفَتْ، وَفُصِّلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا. وقال العثيمين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: الْخَطَابُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ. وقوله: ﴿كُنْتُمْ﴾ قِيلَ: فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ (كَانَ) لِلْمَاضِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ آخِرُ الْأُمَمِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهَا عَلَى أَنَّهَا أُمَّةٌ بَائِدَةٌ، فَمِنْ ثَمَّ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ فِعْلَ الْمَاضِي هُنَا بِاعْتِبَارِ عِلْمِ اللَّهِ، يَعْنِي: كُنْتُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَعِلْمُ اللَّهِ سَابِقٌ عَلَى وَجُودِ الْأُمَمِ. وقيل: (كَانَ) هُنَا مَبِينَةٌ لِاتِّصَافِ الْمُبْتَدَأِ بِالْخَبَرِ وَتَحَقُّقِ وَجُودِهِ فِيهِ، وَلَيْسَتْ دَالَّةٌ عَلَى زَمَانٍ، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ، وَلِهَذَا أَمْثَلَهُ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، هَلْ نَقُولُ: (كَانَ) هُنَا تَدَلُّ عَلَى الْمَاضِي وَأَنَّ هَذِهِ صِفَةٌ زَالَتْ عَنِ اللَّهِ؟ لَا، لَكِنَّهَا مَسْلُوبَةُ الزَّمَانِ، تَدَلُّ عَلَى تَحَقُّقِ اتِّصَافِ اسْمِهَا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ خَبَرُهَا. وقال الله: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ ولم يقل: (خُلِقَتْ)؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ وَصْفِهَا الْخُرُوجُ وَهُوَ الظُّهُورُ وَالْبُرُوزُ، فَخَيْرُ أُمَّةٍ ظَهَرَتْ وَبَرَزَتْ هِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ، هُنَاكَ أُمَّةٌ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَظَهَرَتْ وَبَانَتْ لَكِنَّهَا لَمْ تَحْصُلْ لَهَا الْخَيْرِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ. انتهى كلامه.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: قَالَ مَكِّي: مَعْنَى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَيِ تَشْهَدُونَ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتُقَرُّونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وَمَعْنَى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: أَيِ تَقَاتِلُونَ عَلَى ذَلِكَ. وَالْمُنْكَرُ: هُوَ التَّكْذِيبُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَأَصْلُ الْمَعْرُوفِ: هُوَ فِعْلٌ كُلٌّ مَا كَانَ مُسْتَحْسَنًا جَمِيلًا غَيْرَ مُسْتَقْبَحٍ. وقال ابن الجوزي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ شَرَطُ فِي الْخَيْرِيَّةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِيٌّ عَنْ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَمُجَاهِدٍ، وَالزَّجَّاجِ. الثَّانِي: أَنَّهُ ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ:

والمعروف: التَّوْحِيدُ. والمنكر: الشِّرْكُ. وقال القرطبي: هَذَا مَدْحٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا أَقَامُوا ذَلِكَ وَاتَّصَفُوا بِهِ، فَإِذَا تَرَكُوا التَّغْيِيرَ وَتَوَاطَعُوا عَلَى الْمُنْكَرِ زَالَ عَنْهُمْ اسْمُ الْمَدْحِ وَلَحِقَهُمْ اسْمُ الذَّمِّ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِهَلَاكِهِمْ. وقال البيضاوي: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ إِنَّمَا يَحِقُّ وَيُعْتَدُّ بِهِ إِذَا حَصَلَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ. وَإِنَّمَا أُخِرَ وَحَقُّهُ أَنْ يُقَدَّمَ؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ بِذِكْرِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ إِمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِهِ وَإِظْهَارًا لِدِينِهِ. وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي كَوْنَهُمْ آمِرِينَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَاهِيَيْنَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ؛ إِذِ اللَّامُ فِيهِمَا لِلِاسْتِعْرَاقِ، فَلَوْ أَجْمَعُوا عَلَى بَاطِلٍ كَانَ أَمْرُهُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ: هُوَ الْإِقْرَارُ الْمُسْتَلَزِمُ لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَمَنْ صَدَّقَ وَأَقَرَّ وَلَكِنْ لَمْ يَقْبَلْ وَيَذْعَنْ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مَقْرَأًا وَمَعْتَرَفًا بِصَدَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مَا جَاءَ بِهِ وَلَمْ يَذْعَنْ لَهُ.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: قَالَ مَكِّي: أَيُّ لَوْ صَدَّقَ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ لَكَانَ الْإِيمَانُ خَيْرًا لَهُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ وَآجِلِ آخِرَتِهِمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ إِيْمَانَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرٌ لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: لَمَّا مَدَحَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ شَرَعَ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْنِيهِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: أَيُّ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: أَيُّ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ؛ إِشَارَةً إِلَى تَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ فِي وُقُوفِهِمْ مَعَ مَا مَنَعَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ مِنَ الْعَوَضِ الْقَلِيلِ الْفَائِي وَالرِّيَاسَةِ التَّافِهَةِ، وَتَرْكِهِمْ الْغِنَى الدَّائِمَ، وَالْعِزَّ الْبَاهِرَ.

﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: قَالَ مَكِّي: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أَيُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَنْ يَصَدِّقُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنِ الدِّينِ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِمَا فِيهَا مِنْ

أمر النبي ﷺ، وبدلوا شريعتهم وغيرها. وقال أبو حيان: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: ظاهرُ اسمِ الفاعِلِ: التَّلَبُّسُ بِالْفِعْلِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِالْإِيمَانِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَخِيهِ، وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ. وَكَالنَّجَاشِيِّ، وَبَحِيرَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى، إِذْ كَانُوا مُصَدِّقِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَعْدَهُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِاسْمِ الْفَاعِلِ هُنَا: الْإِسْتِقْبَالُ، أَيِ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الْعُمُومُ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إِحْبَارًا بِمَغْيِبٍ، وَأَنَّهُ سَيَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَسْتَمِرُّونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ. وَأَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ أَكْثَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ قَلِيلٌ. وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي (الْمُؤْمِنُونَ) وَفِي (الْفَاسِقُونَ) يَدُلُّ عَلَى الْمِبَالَعَةِ وَالْكَمَالِ فِي الْوَصْفَيْنِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ مَنْ آمَنَ بِكِتَابِهِ وَبِالْقُرْآنِ فَهُوَ كَامِلٌ فِي إِيمَانِهِ، وَمَنْ كَذَّبَ بِكِتَابِهِ إِذْ لَمْ يَتَّبِعْ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَكَذَّبَ بِالْقُرْآنِ، فَهُوَ أَيْضًا كَامِلٌ فِي فِسْقِهِ مُتَمَرِّدٌ فِي كُفْرِهِ. انْتَهَى كَلَامُهُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أَيِ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَعَبَّرَ عَنِ الْكُفْرِ بِالْفِسْقِ؛ إِذْ بَانًا بِأَتَمِّ حَرْجُوا عَمَّا أَوْجَبَهُ كِتَابُهُمْ. وَقِيلَ: لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَهْمِّ فِي الْكُفْرِ بِمَنْزِلَةِ الْكُفْرِ فِي الْعَصَاةِ؛ لِخُرُوجِهِمْ إِلَى الْحَالِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي هِيَ مِنْهُمْ أَشْنَعُ وَأَفْظَعُ.

• قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُؤَلِّفُكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ

(١١١): ﴿﴾

• سبب نزول الآية: قال البغوي: قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ رُؤُوسَ الْيَهُودِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ فَأَذَوْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى...﴾.

• مناسبة الآية للتي قبلها: قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾:

اسْتِثْنَاءٌ نَشَأَ عَنْ قَوْلِهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لِأَنَّ الْإِحْبَارَ عَنْ أَكْثَرِهِمْ بِأَتَمِّ غَيْرِ

مُؤْمِنِينَ يُؤْذِنُ بِمُعَادَاتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوقَعَ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ خَشْيَةً مِنْ

بَأْسِهِمْ، وَهَذَا يَخْتَصُّ بِالْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ حِيَالَ الْمَدِينَةِ فِي حَيْبَرٍ، وَالنَّضِيرِ، وَقَيْنِقَاعَ، وَقَرْيَظَةَ، وَكَانُوا أَهْلَ مَكْرٍ، وَقُوَّةٍ، وَمَالٍ، وَعُدَّةٍ، وَعَدَدٍ، وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمئِذٍ فِي قَلَّةٍ فَطَمَأَنَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ بَأْسَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا يَخْشَوْنَ ضَرْبَهُمْ، لَكِنْ أَذَاهُمْ. أَمَّا النَّصَارَى فَلَا مُلَابَسَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَخْشَوْهُمْ.

● تفسير الآية:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾: قال الواحدي: هذا وعد من الله للمؤمنين في أهل الكتاب، أَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ مِنْهُمْ غَلَبَةٌ. انتهى كلامه. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَذَى قَوْلُهُمْ: ﴿عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾، و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٠]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَدُعَاؤُهُمُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الضَّلَالَةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ أَيْضًا، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: الْأَذَى: هُوَ تَحْرِيفُهُمْ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ الْبُهْتُ وَالتَّحْرِيفُ. وَقِيلَ: يَعْنِي لَا يَضُرُّوكُمْ أَثَرُهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ إِلَّا أَذًى بِاللِّسَانِ: وَعِيدًا وَطَعْنًا. وَقِيلَ: كَلِمَةٌ كُفِّرَ تَتَأَذَّوْنَ بِهَا. وَقِيلَ: أَيِ يُسَمِّعُونَكُمْ تَكْذِيبَ نَبِيِّكُمْ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: مَعْنَاهُ: لَنْ يُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ ضَرَرٌ فِي الْأَبْدَانِ وَلَا فِي الْأَمْوَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَذًى بِاللِّسَانَةِ، فَلَا اسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٍ. وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: أَيِ لَنْ يَضُرُّوكُمْ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ الْأَذَى، وَهُوَ الْكَذِبُ وَالتَّحْرِيفُ وَالبُهْتُ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الضَّرَرِ الَّذِي هُوَ الضَّرَرُ فِي الْحَقِيقَةِ بِالْحَرْبِ وَالنَّهْبِ وَنَحْوِهِمَا، فَلَا اسْتِثْنَاءَ مُفَرَّغٍ، وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرُسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَغْلِبُونَهُمْ وَأَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ أَلْبَتَّةَ، لَكِنْ يُؤْذُونَكُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْأَذَى: هُوَ الْأَلَمُ الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ لَا يَبْلُغُ حَدَّ الضَّرَرِ الَّذِي هُوَ الْأَلَمُ. وَقِيلَ: هُوَ الضَّرَرُ بِالْقَوْلِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾: الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَدْيِهِ. وَالْفَاعِلُ فِي ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، أَيِ لَنْ يَضُرَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا أَذًى. وَاخْتَلَفَ الْمَفْسَّرُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَذًى﴾: هَلْ هِيَ اسْتِثْنَاءٌ

منقطع أو استثناء متّصل؟، فمنهم من قال: إنها استثناء متصل؛ لأن الأصل في الاستثناء أن يكون متّصلاً، وعلى هذا الرأي يكون في الآية شيء من الحذف، تقديره: لن يضرّوكم إلا ضرر أذى، ليس ضرر عدوان حسّي ببتّر عضو أو أخذ مال، وإنما هو أذى، وذلك بأن يُسمعوكم ما تكرهون بالتوبيخ والاستهزاء وما أشبه ذلك، هذا إذا قلنا: إنّ الاستثناء متّصل، ولا شك أنّ الأذى نوع من الضرر، لكنّه ليس الضرر الذي يطلق عليه اسم ضرر. القول الثاني: أنّ الاستثناء هنا منقطع، وعلى هذا القول يكون المعنى: لن يضرّوكم ولكن يؤذونكم، ولكن يؤذونكم، والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، فأثبت أنّهم يؤذون الله ورسوله، وقال الله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: "يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي" رواه مسلم، فالضرر مُنتفٍ عن الله، الأذية حاصلة، ومن أمثلتها قوله في الحديث القدسي: "يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ" متفق عليه، ويوضح هذا أنه لو صلّى إلى جانبك رجل قد أكل بصلاً أو ثومًا فإنك تتأذى برائحته، ولكن لا يضرّك. وهذا القول أصحّ، وهو: أنّ الاستثناء منقطع، وهو وإن كان خلاف الأصل لكنّه أعلى في البلاغة. فإن قال قائل: يرّد على دعواكم: أنّ اليهود يعملون بنا اليوم ما هو من أشدّ الأضرار، ومعلوم أنّ خبر الله لا يُخلف، فما الجواب؟ الجواب: أن نقول: الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه، ومن كان على مثل ما كانوا عليه فلن يضرّه اليهود ولا النصارى. وحينئذ تبقى الآية مُحْكَمَة غير منسوخة، باقية إلى يوم القيامة، لكن المشروط يتوقّف على الشرط، فانتفاء الضرر موقوف على وجود شرطه، وهو أن نطبق سيرة مَنْ وُعِدُوا بهذا الوعد وهم النبي ﷺ وأصحابه. انتهى كلامه.

﴿وَأَن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾: قال ابن عطية: أخبر الله في قوله: ﴿وَأَن يُقَاتِلُوكُمْ...﴾ بِخَبَرٍ غَيْبٍ صَحَّحَهُ الْوُجُودُ، فَهِيَ مِنْ آيَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾، أي لا تكون حُرْمَتهم معكم سجالات. وَحَصَّ الْأَذْبَارَ بِالذِّكْرِ دُونَ

الظَّهْر؛ تَحْسِيسًا لِلْفَارِّ، وَهَكَذَا هُوَ حَيْثُ تَصَرَّفَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّان: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَدَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾: هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ تَضَمَّنَتَا الْإِخْبَارَ بِمَعْنَيَيْنِ مُسْتَقْبَلَيْنِ، وَهُوَ أَنَّ ضَرَرَهُمْ إِيَّاكُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا أَدَى، أَيْ شَيْئًا تَتَأَدَّوْنَ بِهِ، لَا ضَرَرًا يَكُونُ فِيهِ غَلْبَةٌ وَاسْتِئْصَالٌ؛ وَلِذَلِكَ إِنْ قَاتَلُوكُمْ خُذِلُوا وَنُصِرْتُمْ. وَكِلَا هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَقَعَ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا ضَرَّرَهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ضَرَرًا يُبَالُونَ بِهِ، وَلَا قَصْدُوا جِهَةً كَافِرٍ إِلَّا كَانَ لَهُمُ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ وَالْغَلْبَةُ لَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ﴾: هَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي عَدَمِ مُكَافَحَةِ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادُوا قِتَالَهُمْ، بَلْ بِنَفْسِ مَا تَقَعُ الْمَقَابِلَةُ وَلَوْ الْأَذْبَارَ، فَلَيْسُوا بِمَنْ يُغْلَبُ وَيُقْتَلُ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى قَرْبِهِ غَيْرُ مُدْبِرٍ عَنْهُ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ جَاءَتْ كَالْمُؤَكَّدَةِ لِلْجُمْلَةِ قَبْلَهَا؛ إِذْ تَضَمَّنَتِ الْأَخْبَارُ أَنَّهُمْ لَا تَكُونُ لَهُمْ غَلْبَةٌ وَلَا قَهْرٌ وَلَا دَوْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ حُصُولَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ سَبَبُهُ صِدْقُ الْقِتَالِ وَالثَّبَاتُ فِيهِ، أَوْ النَّصْرُ الْمُسْتَمَدُّ مِنَ اللَّهِ، وَكِلَاهُمَا لَيْسَ لَهُمْ. وَأَتَى بِلَفْظِ الْأَذْبَارِ لَا بِلَفْظِ الظُّهُورِ؛ لِمَا فِي ذِكْرِ الْأَذْبَارِ مِنَ الْإِهَانَةِ دُونَ مَا فِي الظُّهُورِ؛ وَلِأَنَّ ذَلِكَ أُبْلَغَ فِي الْإِهْزَامِ وَالْهَرَبِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: بَيَّنَّ اللَّهُ مَا نَفَاهُ مِنَ الضَّرَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ﴾: أَيْ يَنْهَزِمُونَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُقَاوَمَتِكُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَضُرُّوكُمْ. ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾: هَذَا عَطْفٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ، أَيْ ثُمَّ لَا يُوْجَدُ لَهُمْ نَصْرٌ، وَلَا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ غَلْبٌ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، بَلْ شَأْنُهُمْ الْخِذْلَانُ مَا دَامُوا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾: عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ. وَ(ثُمَّ) لِلتَّرْتِيبِ وَالتَّرَاخِي الْإِخْبَارِيِّ، أَيْ لَا يَكُنْ لَهُمْ نَصْرٌ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ عَاقِبَتُهُمُ الْعَجْزُ وَالْخِذْلَانُ إِنْ قَاتَلُوكُمْ أَوْ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ، وَفِيهِ تَثْبِيتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمٍّ وَجْهِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ﴾: أَيْ يَفِرُّونَ مِنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾: اخْتِرَاسٌ أَيْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارَ تَوَلِيَّةٌ مِنْهُمْ لَا تَوَلِيَّةٌ مُتَحَرِّفِينَ لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزِينَ إِلَى فِتْنَةٍ، أَوْ مُتَأَمِّلِينَ فِي الْأَمْرِ. وَفِي الْعُدُولِ عَنْ جَعْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَى جُمْلَةِ الْجَوَابِ إِلَى جَعْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَى جُمْلَتَي الشَّرْطِ وَجَزَائِهِ مَعًا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا دَيْدُهُمْ وَهَجِيرَاهُمْ، لَوْ قَاتَلُوكُمْ، وَكَذَلِكَ

في قتالهم غيركم. و(ثُمَّ) لِتَرْتِيبِ الْأَخْبَارِ دَلَّةٌ عَلَى تَرَاخِي الرُّتْبَةِ. وَمَعْنَى تَرَاخِي الرُّتْبَةِ كَوْنُ رُتْبَةِ مَعْطُوفِهَا أَعْظَمَ مِنْ رُتْبَةِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي الْعَرَضِ الْمُسَوِّقِ لَهُ الْكَلَامُ. وَهَذَا كُلُّهُ وَعِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ يَنْهَزِمُونَ، وَإِعْرَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِهِمْ.

- قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقُّوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّهُمْ إِنْ قَاتَلُوا رَجَعُوا مَخْذُولِينَ غَيْرَ مَنْصُورِينَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ.

- تفسير الآية:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقُّوا﴾: قال السمعاني: يَعْنِي: ذَلَّ الْكُفْرُ بِالْقَتْلِ، وَالسَّيِّءِ، وَالْإِغْتِنَامِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ الْأَزْمَةِ اللَّهُ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ أَيْنَمَا كَانُوا فَلَا يَأْمَنُونَ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ضُرِبَتْ: مَعْنَاهُ: أُثْبِتَتْ بِشِدَّةٍ وَإِزَامٍ، وَهَذَا وَصْفُ حَالٍ تَقَرَّرَتْ عَلَى الْيَهُودِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ قَبْلَ مَحْيِ الْإِسْلَامِ. وَتَفَقُّوا: مَعْنَاهُ أَخَذُوا بِحَالِ الْمَذْنِبِ الْمُسْتَحِقِّ الْإِهْلَاكِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿أَيْنَ مَا تَفَقُّوا﴾: أَيُّ وَجَدُوا. وَقِيلَ: أَخَذُوا وَظَفَرُوا بِهِمْ. وَقَالَ صَدِيقُ خَانَ: الْمُرَادُ بِالذِّلَّةِ: قَتْلُهُمْ وَسَبْيُهُمْ وَغَنِيمَةُ أَمْوَالِهِمْ. وَقِيلَ: الذِّلَّةُ: ضَرْبُ الْجَزْيَةِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهَا ذِلَّةٌ وَصْغَارٌ. وَقِيلَ: ذُلُّ التَّمَسُّكِ بِالْبَاطِلِ. وَقِيلَ: ذَلَّتْهُمْ: أَنَّكَ لَا تَرَى فِي الْيَهُودِ مَلَكًا قَاهِرًا وَلَا رَئِيسًا مَعْتَبَرًا، بَلْ هُمْ مُسْتَضَعَفُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيُّ أَحْيَطَ بِهِمُ الْهَوَانُ وَالصَّغَارُ كَمَا يُحِيطُ الْبَيْتُ الْمَضْرُوبُ بِسَاكِنِيهِ أَيْنَمَا وَجَدُوا. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الْمُرَادُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَمْ أَنَّهُ خَاصٌّ بِالْيَهُودِ؟ اخْتَلَفَ فِي هَذَا أَهْلُ

العلم، فقال بعضهم: إنه خاصٌّ باليهود، وقال بعضهم: بل هو عامٌّ. والأصل العموم؛ لأن الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على أهل الكتاب المذكورين في قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، وإذا قُدِّرَ أنه صار لهم عزٌّ في وقت من الأوقات فإنما ذلك لسبب يقتضيه، فهو خلاف الأصل، وإلا فالأصل أن الذلّة مضروبة عليهم.

﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾: قال مكِّي: أي إلا بسبب من الله، أو بسبب من المؤمنين، فإنهم يأمنون على أنفسهم، وذريّاتهم، والذلّة لا تفارقهم. والسبب هو العهد إذ عاهدوا. وتقدير الآية عند الكوفيّين: إلا أن يعتصموا بحبل من الله وحبل من المؤمنين؛ ولذلك دخلت (الباء) وهي متعلّقة بهذا الفعل المحذوف. وقال بعض الكوفيّين: هو استثناء من الأول محمول على المعنى؛ لأن المعنى ضربت عليهم الذلّة بكلّ مكان إلا بموضع من الله. وقال بعض البصريّين: هو استثناء ليس من الأول. وقال الزمخشريّ: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ﴾ في محلّ النصب على الحال، بِتَقْدِيرٍ: إِلَّا مُعْتَصِمِينَ أَوْ مُتَمَسِّكِينَ أَوْ مُلْتَبِسِينَ بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ، وهو استثناء من أعمّ عامّ الأحوال، والمعنى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ فِي عَامَّةِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا فِي حَالِ اعْتِصَامِهِمْ بِحَبْلِ اللَّهِ وَحَبْلِ النَّاسِ، يَعْنِي: ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ لَا عِزَّ لَهُمْ قَطُّ إِلَّا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ وَهِيَ التَّجَاوُّهُمُ إِلَى الذِّمَّةِ لِمَا قَبْلُوهُ مِنَ الْجَزِيَّةِ. وقال ابن الجوزي: قَالَ بَعْضُهُمْ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: إِلَّا بِعَهْدٍ يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ. قَالَ الرَّجَّاحُ: وَمَا بَعْدَ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ﴾ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَتَمُّ أَذِلَّةً، إِلَّا أَتَمُّ يَعْتَصِمُونَ بِالْعَهْدِ إِذَا أُعْطُوهُ. وقال ابن كثير: أَيْ إِلَّا بِذِمَّةٍ مِّنَ اللَّهِ، وَهُوَ عَقْدُ الذِّمَّةِ لَهُمْ وَضَرْبُ الْجَزِيَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالزَّامُ لَهُمْ أَحْكَامُ الْمِلَّةِ. ﴿وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾: أَيْ أَمَانٌ مِنْهُمْ وَلَهُمْ، كَمَا فِي الْمَهَادَنَ وَالْمُعَاهِدِ وَالْأَسِيرِ إِذَا أَمَّنَهُ وَاحِدٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ امْرَأَةً، وَكَذَا عَبْدٌ، عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيْ: بِعَهْدٍ مِّنَ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِّنَ النَّاسِ، وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. وقال

الألوسي: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ، وَالْمَعْنَى عَلَى النَّفْيِ: أَيُّ لَا يَسْلَمُونَ مِنَ الدَّلَّةِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا فِي حَالٍ أَنْ يَكُونُوا مُعْتَصِمِينَ بِذِمَّةِ اللَّهِ أَوْ كِتَابِهِ الَّذِي أَتَاهُمْ وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يَسْلَمُونَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَسَبْيِ الدَّرَارِيِّ وَاسْتِثْصَالِ الْأَمْوَالِ. وَقِيلَ: أَيُّ إِلَّا فِي حَالٍ أَنْ يَكُونُوا مُتَلَبِّسِينَ بِالْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ يَرْتَفِعُ عَنْهُمْ ذُلُّ التَّمَسُّكِ وَالْإِعْطَاءِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنَّ الْعَهْدَ مِنَ النَّاسِ أَعَمٌّ مِنَ الْعَهْدِ وَالْأَمَانِ وَالنَّصْرَةِ وَالْإِعْزَازِ، كَمَا حَصَلَ لِلْيَهُودِ الْآنَ مِنَ النَّصَارَى مِنَ الْأَمْرِيكَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْيَهُودَ أَذَلَّةٌ قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْهَوَانَ، لَكِنِ الْأُمَمُ النَّصْرَانِيَّةُ الْآنَ تَسَاعِدُهَا وَتُعَزِّزُهَا لَا مَحَبَّةَ لَهَا وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا ضِدُّ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْحَبْلِ مِنَ النَّاسِ هُنَا: مَا هُوَ أَعَمٌّ مِنَ الْعَهْدِ وَالْأَمَانِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِذَا صَلَحَ اللَّفْظُ لِلْعُمُومِ فَإِنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَبْقَى عَلَى عُمُومِهِ.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: قَالَ مَكِّي: أَيُّ تَحَمَّلُوا، وَانْصَرَفُوا وَرَجَعُوا بِهِ، وَحَقِيقَتُهُ: لَزِمَهُمْ ذَلِكَ، يُقَالُ: تَبَوَّاتِ الدَّارَ، أَيُّ لَزِمْتَهَا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَ(بَاءُوا) مَعْنَاهُ: مَضَوْا مُتَحَمِّلِينَ هَذَا الْحُكْمَ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي أَوْقَعَ بِهِمْ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾: قَالَ السَّمْعَانِيُّ: أَيُّ ذُلُّ الْكُفْرِ، بَزِي الْفَقْرِ، وَذَلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، حَتَّى لَا يَرَى يَهُودِيٌّ إِلَّا عَلَى زِيِّ الْفَقْرِ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيُّ الْفَقْرُ، لِيَكُونُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ أَعْرَقَ شَيْءٌ فِي الدَّلِّ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَ(آيَاتِ اللَّهِ) يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْمُتَلَوُّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ الْعِبَرَ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبَرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ وَالْمَسْكَنَةُ أَبَدًا، مُتَّصِلًا بِذِلَّةِ الْآخِرَةِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (ذَلِكَ) إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرْبِ الدَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْغَضَبِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿ذَلِكَ﴾: أَيُّ الْمَذْكُورُ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الدَّلَالَةُ عَلَى ثُبُوتِ مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: قال صديق خان: إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم؛ لرضاهم به، كما أنّ التحريف مع كونه فعل أحبارهم ينسب إلى كلّ من يسير بسيرتهم. وقال العثيمين: قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، هذه الصفة ليست قيداً، ولكنها كشف وإيضاح؛ لأننا لو قلنا: إنها قيد للزم من ذلك أن ينقسم قتل الأنبياء إلى قسمين: قسم بحق، وقسم بغير حق، وهذا لا يكون؛ لأن قتل الأنبياء كلّ بغير حق، ولو قلنا: إنها للإيضاح والكشف، صار المعنى يختلف، فلا تكون قيداً، بل تكون لبيان الواقع، أي أنّ قتل الأنبياء كلّ بغير حق، فيكون المقصود بذلك شدة التوبيخ لهؤلاء، وأنهم يقتلون أشرف الخلق بغير حق، وهذه الآية لها نظائر، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة للإيضاح والبيان؛ لأنك لو جعلتها قيداً ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ للزم من ذلك أن يكون الربّ ربّين: ربّاً خلق، وربّاً لم يخلق، والأمر ليس كذلك، بل الربّ هو الخالق، فيكون هذا بياناً وكشفاً، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ليس قيداً، ولكنه كشف وبيان؛ لأنك لو جعلته قيداً لكان دعاء النبيّ - عليه الصلاة والسلام - للمؤمنين ينقسم إلى قسمين: قسم يراد به الإحياء، وقسم يراد به الإماتة، وهذا غير صحيح، إذاً فقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بيان وكشف لما يدعو إليه، وهو أنه ﷺ لا يدعو الناس إلا لشيء يحييهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ حملة المفسّرون على أنّ الإشارة بـ(ذَلِكَ) إلى الشيء الذي أُشيرَ إليه بـ(ذَلِكَ) الأوّل، قاله الطبريّ والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إنّ الإشارة بـ(ذَلِكَ) الأخير إنّما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أنّ الله استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إنّ الله يُعاقبُ على المعصية بالإيقاع في

مَعْصِيَةٍ، وَيُجَازِي عَلَى الطَّاعَةِ بِالتَّوْفِيقِ إِلَى طَاعَةٍ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي النَّاسِ إِذَا تَأَمَّلَ. وَعَصِيَانُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاعْتِدَاؤُهُمْ فِي السَّبَبِ وَغَيْرِهِ مُتَقَرَّرٌ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ عِنْدَمَا فَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ: "اجْتَنِبُوا الْمَعْصِيَةَ وَالْعُدْوَانَ، فَإِنَّ بِهَا أَهْلِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ النَّاسِ". انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ عَطِيَّةَ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: أَيُّ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ وَفِيضُوا لِدَلِيلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ الْعَصِيَانَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَشْيَانَ لِمَعَاصِيِ اللَّهِ، وَالْإِعْتِدَاءِ فِي شَرْعِ اللَّهِ، فَعِيادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ. عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. عَلَى مَا يَفْتَضِيهِ الْقُرْبُ فَلَا تَكَرَّرَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ ضَرْبَ الدَّلَّةِ وَمَا يَلِيهِ كَمَا هُوَ مُعَلَّلٌ بِكُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمْ فَهُوَ مُعَلَّلٌ بِعَصِيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: أَيُّ ضَرْبِ الدَّلَّةِ وَالْمُسْكَنَةِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَاسْتِجَابِ الْعُضْبِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا هُوَ مُعَلَّلٌ بِكُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، فَهُوَ مُسَبَّبٌ عَنْ عَصِيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ حُدُودَ اللَّهِ. وَقِيلَ: ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عِلَّةِ الْعِلَّةِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْقَتْلُ، أَيُّ حَصَلَ مِنْهُمْ بِسَبَبِ عَصِيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، فَإِنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِهَانَةَ بِمُجَاوَزَةِ الْحُدُودِ يُهَوِّنُ الْكُفْرَ. قَالَ الْأَصْفَهَائِيُّ: قَالَ أَرْبَابُ الْمَعَامَلَاتِ: مَنْ ابْتُلِيَ بِتَرْكِ الْأَدَابِ وَقَعَ فِي تَرْكِ السُّنَنِ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِتَرْكِ السُّنَنِ وَقَعَ فِي تَرْكِ الْفَرَائِضِ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِتَرْكِ الْفَرَائِضِ وَقَعَ فِي اسْتِحْقَارِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَ(الْبَاءُ) سَبَبُ السَّبَبِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً ثَانِيَةً إِلَى ضَرْبِ الدَّلَّةِ وَالْمُسْكَنَةِ، فَيَكُونُ سَبَبًا ثَانِيًا. وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ بِسَبَبِ عَصِيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، وَهَذَا نَشْرٌ عَلَى تَرْتِيبِ اللَّفِّ، فَكُفْرُهُمْ بِالْآيَاتِ سَبَبُهُ الْعَصِيَانُ، وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ سَبَبُهُ الْإِعْتِدَاءُ.

- قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتُلوْنَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾:

- سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها قولان: أحدهما: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، اخْتَبَسَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ لَيْلَةً حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ جَاءَ فَبَشَّرَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَاةَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ.

الثاني: أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ ابْنُ سَلَامٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ أَخْبَارُهُمْ: مَا أَمَنَ بِمُحَمَّدٍ إِلَّا أَشْرَارُنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُقَاتِلٌ.

- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال ابن عطية: لَمَّا مَضَتْ الضَّمَائِرُ فِي الْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَالْعَصْيَانِ وَالْإِعْتِدَاءِ عَامَّةً فِي جَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ، عَقَّبَ تَعَالَى ذَلِكَ بِتَخْصِصِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خَيْرٍ وَإِيمَانٍ.

وقال البقاعي: لَمَّا كَانَ السِّيَاقُ رُبَّمَا أَفْهَمَ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ؛ قَالَ مُسْتَأْنَفًا؛ نَافِيًا لِذَلِكَ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً..﴾.

وقال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتُلوْنَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ قُصِدَ بِهِ إِنْصَافٌ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَى مُعْظَمِهِمْ بِصِغَةِ تَعْمُّهِمْ؛ تَأْكِيدًا لِمَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسُوا﴾ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُمْ آنِفًا.

- تفسير الآية:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: فيه قولان: أحدهما: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كَلَامٌ تَامٌّ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ؛ لِبَيَانِ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كَمَا وَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بَيَانًا لِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وَالْمَعْنَى: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ لَيْسُوا سَوَاءً، وَهُوَ تَقْرِيرٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ

الفاسيقون»، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾. الثاني: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كَلَامٌ غَيْرُ تَامٍّ وَلَا يَجُوزُ الْوَقْفُ عِنْدَهُ، بَلْ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ وَأُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ. قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: لَيْسَ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ وَالْيَهُودُ سَوَاءً، هَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَالسَّيِّدِيِّ. الثَّانِي: لَيْسَ الْيَهُودُ كُلُّهُمْ سَوَاءً، بَلْ فِيهِمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ. هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةَ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: الْوَقْفُ التَّامُّ (لَيْسُوا سَوَاءً): أَيُّ لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ مُتَسَاوِينَ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: أَيُّ أَهْلُ الْكِتَابِ غَيْرُ مُسْتَوِينَ بَلْ مُخْتَلِفِينَ. وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ سَيِّئَتْ؛ لِبَيَانِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ سَيِّئَتْ تَمْهِيدًا لِلتَّنَادِ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَخَلَعَ الْبَاطِلَ وَلَمْ يُرَاعِ سَلَفًا وَلَا خَلْفًا، وَتَذَكِيرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أَيُّ لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ مُتَسَاوِينَ وَمُتَشَارِكِينَ فِي الْمَسَاوِي. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿لَيْسُوا﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ. وَ﴿سَوَاءً﴾: بِمَعْنَى مُسْتَوِينَ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ، بَلْ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾، وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ فَاسِقَةٌ غَيْرُ قَائِمَةٍ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ.

﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَنَاءً لَّيْلٍ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ مَنْ آمَنَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: التَّقْدِيرُ: مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ ذُو أُمَّةٍ، أَيُّ ذُو طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ. وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ وَأُخْرَى غَيْرُ قَائِمَةٍ، فَتَرَكَ الْأُخْرَى اكْتِفَاءً بِالْأَوَّلَى. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَيُّ عَادِلَةٌ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَمُجَاهِدٍ، وَابْنِ جُرَيْجٍ. الثَّانِي: أَيُّ قَائِمَةٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُ السَّيِّدِيِّ. الثَّالِثُ: أَيُّ ثَابِتَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالرَّيِّعِ. الرَّابِعُ: أَيُّ مُسْتَقِيمَةٌ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ، وَالرَّجَّاجُ. الْخَامِسُ: أَيُّ قَائِمَةٌ تُصَلِّي لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَنَاءً لَّيْلٍ﴾. وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالتَّلَاوَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ عَلَى أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَيُّ صَلَاةِ الْعَمَةِ، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ. الثَّانِي: صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. الثَّالِثُ: هِيَ

الصَّلَاةُ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ، قاله الثوري. وَقِيلَ: هِيَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ. ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَيُّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَالرَّيْع. الثَّانِي: أَيُّ جَوْفِ اللَّيْلِ، وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ. قَالَ أَبُو السَّعُودِ: التَّصْرِيحُ بِتِلَاوَتِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ مَعَ أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَيْهَا قَطْعًا؛ لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِ الْمَخَالَفَةِ، وَتَوْضِيحِ عَدَمِ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ وَصِفُوا أَنْفَاءً بِالْكَفْرِ بِهَا، وَهُوَ السِّرُّ فِي تَقْدِيمِ هَذَا النَّعْتِ عَلَى نَعْتِ الْإِيمَانِ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ يَتَضَمَّنُ بَيَانَ الْجِهَةِ الَّتِي تَفَاوَتْ فِيهَا مِنْ كَوْنِ بَعْضِهِمْ أُمَّةً قَائِمَةً إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْ الصَّالِحِينَ﴾. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُبَيَّنٌ لِكَيْفِيَّةِ عَدَمِ التَّسَاوِي، وَمُرْتَبِلٌ لِمَا فِيهِ مِنْ الْإِبْهَامِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْفَاءً لَّيْلٍ﴾ أَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، إِمَّا لَطُولَ الْفَصْلِ بَيْنَ الظَّاهِرِ الَّذِي تَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمَائِرُ، وَإِمَّا لِاسْتِثْنَاءِ الْجُمْلَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ. وَكَلِمَةُ ﴿قَائِمَةٌ﴾ صِفَةٌ. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾: الْجُمْلَةُ أَيْضًا صِفَةٌ أُخْرَى، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا؛ لِأَنَّ لَدِينَا قَاعِدَةَ نَحْوِيَّةً، وَهِيَ: أَنَّهُ إِذَا وُصِفَتِ النُّكْرَةُ جاز فِي الصِّفَةِ الثَّانِيَةِ أَنْ تَكُونَ حَالًا وَأَنْ تَكُونَ صِفَةً، سَوَاءٌ كَانَتِ الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ جُمْلَةً أَمْ مُفْرَدًا، فَإِذَا قُلْتُ: (جَاءَنِي رَجُلٌ كَرِيمٌ رَاكِبًا) صَحَّ؛ لِأَنَّهُ وَصَفٌ، وَإِذَا قُلْتُ: (جَاءَنِي رَجُلٌ كَرِيمٌ رَاكِبٌ)، صَحَّ أَيْضًا. هُنَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: ﴿أُمَّةٌ﴾ نُّكْرَةٌ، وَ﴿قَائِمَةٌ﴾ صِفَةٌ لَهَا، وَ﴿يَتْلُونَ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾: التِّلَاوَةُ تَارَةً يَرَادُ بِهَا: الْإِتِّبَاعُ، وَتَارَةً يَرَادُ بِهَا: الْقِرَاءَةُ، فَإِنْ صَلَحَ الْمَقَامُ لِلْمَعْنِيِّينَ جَمِيعًا حَمْلَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ اخْتَصَّ بِأَحَدِهِمَا اخْتَصَّ بِهِ، فَإِذَا قُلْتُ: (تَلَا عَلَيَّ آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ) الْمُرَادُ الْقِرَاءَةُ، وَإِذَا قُلْتُ: (هَذَا الرَّجُلُ يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ إِخْلَاصًا وَتَعَبُّدًا)، فَهَذَا يَحْتَمِلُ الْقِرَاءَةَ، وَيَحْتَمِلُ الْإِتِّبَاعَ، وَإِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا لِلْمَعْنِيِّينَ، وَهِيَ لَا يَتَنَافِيَانِ، حَمْلَ عَلَيْهِمَا.

إِذَا قَوْلُهُ: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يشمل تلاوة اللفظ، وتلاوة العمل بآيات الله. وقوله: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ آناء بمعنى أوقات، ومنه النوء لوقت ظهور النجم. انتهى كلامه.

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: في المراد بذلك أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: يَعْنِي سُجُودَ الصَّلَاةِ. الثَّانِي: يُرِيدُ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تَكُونُ فِي السُّجُودِ وَلَا فِي الرُّكُوعِ، وَهَذَا قَوْلُ الرَّجَّاحِ، وَالْفَرَّاءِ.

الثَّالِثُ: مَعْنَاهُ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْجُدُونَ. الرَّابِعُ: أَيُّ يَخْضَعُونَ وَيَخْشَعُونَ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْحُشُوعَ سُجُودًا. قَالَ أَبُو السَّعُودِ: تَخْصِيصُ السُّجُودِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ؛ لِكَوْنِهِ أَدْلَى عَلَى كَمَالِ الْخُضُوعِ. وَإِيرَادُ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةً؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ. وَتَكَرُّرِ الْإِسْنَادِ؛ لِتَقْوِيَةِ الْحُكْمِ. وَتَأْكِيدِهِ وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ. وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ (يَتْلُونَ). وَقِيلَ: هِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَهُمْ يَقُومُونَ تَارَةً وَيَسْجُدُونَ أُخْرَى يَبْتَغُونَ الْفَضْلَ وَالرَّحْمَةَ بِأَنْوَاعٍ مَا يَكُونُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ (يَتْلُونَ) عَلَى مَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَالْمَرَادُ: وَهُمْ يُصَلُّونَ؛ إِذْ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ لَا قِرَاءَةَ فِي السُّجُودِ وَكَذَا الرُّكُوعِ بَلْ وَقَعَ التَّهْنِئَةُ عَنْهَا فِيهِمَا كَمَا فِي الْخَبَرِ، وَالْمَرَادُ بِصَلَاتِهِمْ هَذِهِ: التَّهَجُّدُ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبَعْضُ، وَعُلِّلَ بِأَنَّهُ أُدْخِلَ فِي الْمَدْحِ وَفِيهِ تَتَيَسَّرُ لَهُمُ التَّلَاوَةُ؛ لِأَنَّهَا فِي الْمَكْتُوبَةِ وَظِيفَةُ الْإِمَامِ، وَاعْتِبَارُ حَالِهِمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ يَأْبَاهُ مَقَامُ الْمَدْحِ وَهُوَ الْأَنْسَبُ بِالْعُدُولِ عَنْ إِيرَادِهَا بِاسْمِ الْجِنْسِ الْمُبَادِرِ مِنْهُ الصَّلَوَاتُ الْمَكْتُوبَةُ، وَبِالتَّعْبِيرِ عَنْ وَقْتِهَا بِالْآنَاءِ الْمُنْهَمَةِ، وَإِنَّمَا لَمْ يُعَبَّرْ عَلَى هَذَا بِالتَّهَجُّدِ؛ دَفْعًا لِاحْتِمَالِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ الَّذِي لَا مَدْحَ فِيهِ.

انتهى كلام الألويسي. وقال العثيمين: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: هذه الجملة يجوز فيها وجهان: أن تكون استئنافية، وأن تكون حالية من (الواو) في قوله: ﴿يَتْلُونَ﴾، يعني يتلون آيات الله والحال أنهم يسجدون، فوصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات؛ لأن السجود أفضل من القيام وأفضل من الركوع، حيث إن الساجد أقرب ما يكون من ربه، لكن تلاوة الآيات أفضل الأذكار؛ فلهذا اختصت بالقيام،

فقلوه: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا ذكر لأعلى أوصاف القول، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ذكر لأعلى أوصاف الفعل وهو السجود.

• قال الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَيْرَتِ وَأُولَئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَيْرَتِ وَأُولَئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ استكمال لبعض صفات مؤمني أهل الكتاب مما أراد الله ذكره عنهم.

• تفسير الآية:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: قال مكِّي: أي يصدّقون بالله وبما أنزل على أنبيائه من غيب الآخرة. وقال القرطبي: يعني يُقَرُّونَ بِاللَّهِ وَيُصَدِّقُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. وقال الشوكاني: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: صِفَةُ أُخْرَى لِأُمَّةٍ، أَيْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ، وَرَأْسُ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وقال العثيمين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: الإيمان بالله يتناول أربعة أشياء: الأول: الإيمان بوجوده. الثاني: الإيمان بربوبيّته. الثالث: الإيمان بالوحيّته. الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته. فلا بدّ من هذه، فمن أنكر وجود الله فهو لم يؤمن به، ومن آمن به وأنكر توحيده في الربوبية فإنّه لم يؤمن به، ومن آمن به وربوبيّته ولكنّه أنكر انفراده بالالوهية فإنّه لم يؤمن به، ومن آمن بذلك كلّهُ ولكن أنكر شيئاً من صفاته فإنّه لم يؤمن به، فلا إيمان بالله إلا بهذه الأمور الأربعة. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: المراد باليوم الآخر: هو يوم القيامة. وسمّي يوماً آخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ إذ هو منتهى الخلائق، ولا فيه ليل ولا نهار، كلّ يوم واحد، لا شمس ولا قمر ولا نجوم، كلّ في مكانه، إمّا في الجنة أو في النار، فهو آخر شيء يكون فيه العباد.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: قال مكِّي: أي بالإيمان بالله ورسوله. وقال القرطبي: قيل: هو عموم. وقيل: يُراد به الأمر بإتباع النبي ﷺ. وقال الشوكاني: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: صِفَةٌ أَيْضًا لِأُمَّةٍ، أَيْ أَنَّ هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَفَتِهِمْ. وظاهره يُفيد أنهم يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ عَلَى الْعُمُومِ. وقيل: المراد بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ هُنَا: أَمْرُهُمْ بِإِتِّبَاعِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وقال الألوسي: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: إشارة إلى وَفُورِ نَصِيحِهِمْ مِنْ فَضِيلَةِ تَكْمِيلِ الْغَيْرِ إِثْرَ الْإِشَارَةِ إِلَى وَفُورِهِ مِنْ فَضِيلَةِ تَكْمِيلِ النَّفْسِ، وَفِيهِ تَعْرِضُ بِالْمَدَاهِنِينَ الصَّادِينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: قال مكِّي: أي ينهون الناس عن الكفر بالله، وبمحمد ﷺ. ودلّ هذا من وصفهم على أنّ غيرهم يأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ، وينهون عن المعروف، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وقال القرطبي: النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ: النَّهْيُ عَنْ مُحَالَفَتِهِ. وقال الشوكاني: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: صِفَةٌ أَيْضًا لِأُمَّةٍ، أَيْ أَنَّ هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَفَتِهِمْ. وظاهره يُفيد أنهم يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْعُمُومِ. وقيل: المراد بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ: نَهْيُهُمْ عَنْ مُحَالَفَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: قال ابن عطية: هَذَا وَصْفٌ بِأَنَّهُمْ مَتَى دُعُوا إِلَى خَيْرٍ مِنْ نَصْرِ مَظْلُومٍ، وَإِعَاثَةِ مَكْرُوبٍ، وَجَبْرٍ مَهْيُضٍ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ أَجَابُوا. وقال القرطبي: أَيْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا مُبَادِرِينَ غَيْرِ مُتَثَاقِلِينَ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِقَدْرِ ثَوَابِهَا. وقيل: يُبَادِرُونَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْقُوَّةِ. وقال الشوكاني: قوله تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ مِنْ جُمْلَةِ الصِّفَاتِ أَيْضًا، أَيْ يُبَادِرُونَ بِهَا غَيْرَ مُتَثَاقِلِينَ عَنْ تَأْدِيتِهَا؛ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِقَدْرِ ثَوَابِهَا. وقال أبو حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَصَفَهَا بِصِفَاتٍ سِتٍّ: إِحْدَاهَا: أَنَّهَُا قَائِمَةٌ، أَيْ مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ. وَلَمَّا كَانَتْ الْإِسْتِقَامَةُ وَصْفًا ثَابِتًا لَهَا لَا يَتَغَيَّرُ جَاءَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ. الثَّانِيَةُ: الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ الْمَعْبَرِ عَنْهَا بِالتَّلَاوَةِ وَالسُّجُودِ، وَهِيَ الْعِبَادَةُ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا الْخُلُوعُ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ بِاللَّيْلِ. الثَّالِثَةُ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْحَامِلُ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ. وَذَكَرَ الْيَوْمَ الْآخِرَ؛ لِأَنَّ

فيه ظُهور آثار عِبادةِ الله من الجزاءِ الجَزِيلِ. وتَضَمَّنَ الإيمانُ باليومِ الآخرِ: الإيمانُ بالأنبياءِ؛ إذْ هُمُ الَّذِينَ أَخْبَرُوا بِكَيْنُونَةِ هَذَا الْجَائِزِ فِي الْعَقْلِ وَوُقُوعِهِ، فَصَارَ الْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبًا. الرَّابِعَةُ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ. الْخَامِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَمَّا كَمِلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ سَعَوْا فِي تَكْمِيلِ غَيْرِهِمْ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ. السَّادِسَةُ: الْمَسَارَعَةُ فِي الْخَيْرَاتِ، وَهِيَ صِفَةٌ تَشْمَلُ أَعْمَالَهُمُ الْمُخْتَصَّةَ بِهِمْ، وَالْأَفْعَالُ الْمُتَعَدِّيَّةَ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثَةُ نَاشِئَةٌ أَيْضًا عَنِ الْإِيمَانِ، فَانْظُرْ إِلَى حُسْنِ سِيَاقِ هَذِهِ الصِّفَاتِ حَيْثُ تَوَسَّطَ الْإِيمَانُ، وَتَقَدَّمَتْ عَلَيْهِ الصِّفَةُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْإِنْسَانِ فِي ذَاتِهِ وَهِيَ الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ الصِّفَتَانِ الْمُتَعَدِّيَتَانِ وَالصِّفَةُ الْمَشْتَرَكَةُ، وَكُلُّهُمَا نَتَائِجُ عَنِ الْإِيمَانِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: هَذِهِ صِفَةٌ جَامِعَةٌ لِفُنُونِ الْفَضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ. وَفِي ذِكْرِهَا: تَعْرِيزُ بِنَبَاطُ الْيَهُودِ وَتَنَاقُلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ. وَأَصْلُ الْمَسَارَعَةِ: الْمِبَادَرَةُ. وَتُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى: الرَّغْبَةِ. وَاخْتِيَارُ صِيعَةِ الْمَفَاعَلَةِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ. قِيلَ: وَلَمْ يُعَيَّرْ بِالْعَجَلَةِ؛ لِالْفَرْقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّرْعَةِ، فَإِنَّ السُّرْعَةَ: التَّقَدُّمُ فِيمَا يَجُوزُ أَنْ يُتَقَدَّمَ فِيهِ وَهِيَ مَحْمُودَةٌ، وَضِدُّهَا: الْإِبْطَاءُ، وَهُوَ مَذْمُومٌ. وَالْعَجَلَةُ: التَّقَدُّمُ فِيمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَقَدَّمَ فِيهِ، وَهِيَ مَذْمُومَةٌ. وَضِدُّهَا: الْأَنَاءُ، وَهِيَ مَحْمُودَةٌ. وَإِثَارُ (فِي) عَلَى (إِلَى)؛ لِلْإِذَانِ بِأَنَّهُمْ مُسْتَقَرُّونَ فِي أَصْلِ الْخَيْرِ مُتَقَلِّبُونَ فِي فُنُونِهِ، لَا أَهَمَّ خَارِجُونَ مُنْتَهَوْنَ إِلَيْهَا. وَصِيعَةُ جَمْعِ الْقَلَّةِ هُنَا تُغْنِي عَنْ جَمْعِ الْكَثَرَةِ كَمَا لَا يَخْفَى. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: صِفَةٌ أُخْرَى جَامِعَةٌ لِفُنُونِ الْمَحَاسِنِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالنَّفْسِ وَبِالْغَيْرِ. وَالْمَسَارَعَةُ فِي الْخَيْرِ: فَرَطُ الرَّغْبَةِ فِيهِ. وَقَالَ الْعَنِيَمِيُّ: قَالَ: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (إِلَى الْخَيْرَاتِ)، مَعَ أَنَّ (سَارِعَ) تَتَعَدَّى بِ(إِلَى) كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَسَارِعَتَهُمْ إِلَيْهَا وَفِيهَا أَثْنَاءُ الْقِيَامِ بِهَا، أَيْ أَنَّهُمْ يَسَارِعُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَيْهَا لَمْ يَقِفُوا عَنِ الْمَسَارَعَةِ فِيهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾: الْخَيْرَاتِ: جَمْعُ خَيْرٍ أَوْ خَيْرَةٍ: وَهِيَ كُلُّ مَا انْتَفَعَ بِهِ الْعَبْدُ أَوْ

نفع غيره، فالصلاة خير، وتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خير، والدعوة إلى الله خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خير أيضاً، فكل ما يقرب إلى الله فهو خير. ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: قال مكّي: أي من عداد الصالحين. وقال ابن عطية: وصف الله تعالى من تحصّلت له هذه الصفات بأنّه من جملة الصالحين. و(من) يحسُن أن تكون للتبعية، ويحسُن أن تكون لبيان الجنس. وقال القرطبي: أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد ﷺ في الجنة. وقال أبو حيان: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: هذه إشارة إلى من جمع الصفات الست سابقة الذكر. وقال الشوكاني: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي من جملة الصالحين. وقيل: (من) بمعنى (مع): أي مع الصالحين وهم الصحابة. رضي الله عنهم.. والظاهر أن المراد: كل صالح. والإشارة بقوله: (أولئك) إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات. وقال الألوسي: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي من عداد الذين صلحت عند الله حالهم. وهذا ردّ لقول اليهود: "ما آمن به إلا شرارنا". وقال العنيمين: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: قال أهل العلم: الصالح من قام بحق الله وحق العباد. وضده الفاسد. والصالح يدور على شيئين: علم، وعمل، وضده الجهل، والكفر، والتمرد، فمن كان جاهلاً فإنه ليس بصالح، والمراد ليس بصالح الصالح الذي يكون في قمة الصلاح، وإلا فإنّ معه من الصلاح بمقدار ما عنده من العلم، ومن لم يكن عاملاً فليس بصالح وعنده من فقد الصلاح بقدر ما فقد من العمل.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾:
- مناسبة الآية التي قبلها: لما أثنى الله على مؤمني أهل الكتاب أعقب ذلك بذكر حفظ ثوابهم جزائهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة.
- تفسير الآية: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: قال الواحدي: أي فلن تعدموا ثوابه، ولن تُحخدوا جزاءه. وسُمّي منع الجزاء على عمل الخير كَفَرًا؛ لأنه بمنزلة الجحْد له والسَّتر؛

لئلا يقع الجزاء عليه. ولما جعل ثواب الطاعة من الله شُكْرًا جعل منع الثواب كفرًا. وقال السمعاني: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: أي كائنًا ما كان مما ذُكِرَ أو لم يُذْكَر. وقال ابن كثير: أي لا يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ يَجْزِيكُمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. وقال القاسمي: أي لَنْ يَعْدِمُوا ثَوَابَهُ الْبَتَّةَ، عَبَّرَ عَنْهُ بِذَلِكَ كَمَا عَبَّرَ عَنْ تَوْفِيَةِ الثَّوَابِ بِالشُّكْرِ؛ إظهارًا لِكَمَالِ تَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَرْكِ إِثَابِهِمْ بِتَصْوِيرِهِ بِصُورَةٍ مَا يَسْتَحِيلُ صُدُورُهُ عَنْهُ تَعَالَى مِنَ الْقَبَائِحِ. وَتَعْدِيَّتُهُ إِلَى مَفْعُولَيْنِ بِتَضْمِينِ مَعْنَى الْحِرْمَانِ. وَإِثَارُ صِغَةِ الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ؛ لِلْجَزْيِ عَلَى سُنَنِ الْكِبَرِيَاءِ. وقال ابن عاشور: الْكُفْرُ ضِدُّ الشُّكْرِ، أي أَنَّ الْكُفْرَ: إنْكَارُ وَصُولِ النِّعْمَةِ الْوَاصِلَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: قال النسفي: هَذِهِ بَشَارَةٌ لِلْمُتَّقِينَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ. وقال ابن كثير: أي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. وقال أبو حيان: لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ وَارِدَةً فَيَمَنُ اتَّصِفَ بِالْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يُثَبِّتُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ نَاسَبَ حَتَمِ الْآيَةِ بِذِكْرِ عِلْمِهِ بِالْمُتَّقِينَ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِالْمُتَّقِينَ وَبِضِدِّهِمْ. وَمَعْنَى عَلِيمٌ بِهِمْ: أَنَّهُ مُجَازِيهِمْ عَلَى تَقْوَاهُمْ، وَفِي ذَلِكَ وَعْدٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَوَعِيدٌ لِلْمُفَرِّطِينَ. وقال أبو السعود: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، فَإِنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَحْوَالِهِمْ يَسْتَدْعِي تَوْفِيَةَ أَجُورِهِمْ لَا مُحَالَةً. وَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ: إِمَّا الْأُمَّةَ الْمُعْهُودَةَ، وَوُضِعَ مَوْضِعُ الضَّمِيرِ الْعَائِدِ إِلَيْهِمْ مَدْحًا لَهُمْ وَتَعْيِينًا لِعُنْوَانِ تَعَلُّقِ الْعِلْمِ بِهِمْ وَإِشْعَارًا بِمَنَاطِ إِثَابَتِهِمْ وَهُوَ التَّقْوَى الْمُنْطَوِي عَلَى الْخَصَائِصِ السَّالِفَةِ، وَإِمَّا جِنْسَ الْمُتَّقِينَ عُمُومًا، وَهُمْ مُنْذَرَجُونَ تَحْتَ حُكْمِهِ انْدِرَاجًا أَوَّلِيًّا. وَقَالَ الشُّوكَايِيُّ: وَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ: كُلُّ مَنْ ثَبَتَتْ لَهُ صِفَةُ التَّقْوَى. وَقِيلَ: الْمُرَادُ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُمْ الْأُمَّةُ الْمُوصُوفَةُ بِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ؛ مَدْحًا لَهُمْ، وَرَفْعًا مِنْ شَأْنِهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: أي بِأَحْوَالِهِمْ فَيُجَازِيهِمْ. وَهَذَا تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ. وَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ: إِمَّا عَامًّا وَيَدْخُلُ الْمِخَاطَبُونَ دُخُولًا

أُولَئِكَ، وَإِنَّمَا خَاصٌّ بِالْمَقْدَمِينَ. فِي وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ: إِيدَانُ بِالْعِلَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوزُ عِنْدَهُ إِلَّا أَهْلُ التَّقْوَى.

● قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦):

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: لَمَّا وَصَفَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْكُفَّارِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ أَتْبَعَهُ تَعَالَى بِوَعِيدِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾. وقال القرطبي: قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ذَكَرَ كُفَّارَهُمْ. وقال ابن عاشور: اسْتِثْنَانُ ابْتِدَائِيٍّ لِلِإِنْتِقَالِ إِلَى ذِكْرِ وَعِيدِ الْمُشْرِكِينَ بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ وَعْدِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

● تفسير الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَتَمَّا نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ كَثِيرَ الْإِفْتِخَارِ بِمَالِهِ، وَأَنْفَقَ أَبُو سُفْيَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ مَالًا كَثِيرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ. الْقَوْلُ الثَّانِي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَقْصُودَ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ فِي مُعَانَدَةِ الرَّسُولِ مَا كَانَ إِلَّا الْمَالُ. الْقَوْلُ الثَّالِثُ: قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ، وَكُلٌّ مِنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَفَاخَرُوا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَقَالُوا: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا. قَالَ مَكِّي: هَذِهِ الْآيَةُ وَعِيدٌ بِالْأُمَّةِ الْفَاسِقَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وَمَعْنَى الْكُفْرِ هُنَا: تَغْطِيَةٌ مَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَجُحُودِهِ. وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ أَمْوَالَهُمْ لَمْ تَمْنَعْ عَنْهُمْ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي

الآخرة شيئاً. وقال الواحدي: قال بعض المفسرين: لن تغني عنهم أموالهم في الصدقات، ولا أولادهم في الشفاعات، بخلاف المؤمن، فإنَّ المؤمن ينفعه ماله في الكفارات والصدقات، وأولاده في الشفاعة، والدليل على صحة هذا التفسير: ما ذكر من بطلان نفقاتهم عقيب هذه الآية. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾: أَي لَا تَدْفَعُ أَمْوَالُهُمْ بِالْفِدْيَةِ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بِالنُّصْرَةِ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَحَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ تَارَةً بِفِدَاءِ الْمَالِ وَتَارَةً بِالنُّصْرَةِ بِالْأَوْلَادِ. وقال ابن عطية: وَحَصَّ اللَّهُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ بِالذِّكْرِ؛ لِوُجُوهٍ، منها: أَنَّهَا زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعُظْمُ مَا تَجْرِي إِلَيْهِ الْأَمَالُ. ومنها: أَنَّهَا أَلْصَقُ النُّصْرَةِ بِالْإِنْسَانِ وَأَيْسَرُهَا. ومنها: أَنَّ الْكُفَّارَ الْمَكْذِبِينَ بِالْآخِرَةِ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَّا فِيهَا وَهِيَ عِنْدَهُمْ غَايَةُ الْمَرْءِ وَبِهَا كَانُوا يَفْخَرُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ هَذَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ لَا غَنَاءَ فِيهِمَا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا لَمْ تُغْنِ هَذِهِ فَعَيَّرَهَا مِنَ الْأُمُورِ الْبَعِيدَةِ أُخْرَى إِلَّا يُغْنِي. وقال القرطبي: حَصَّ الْأَوْلَادَ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ أَنْسَابِهِمْ إِلَيْهِمْ. وقال ابن كثير: أَي لَا يُرَدُّ عَنْهُمْ بِأْسِ اللَّهِ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ. وقال ابن عاشور: وَكَرَّرَ حَرْفَ النَّفْيِ مَعَ الْمِعْطُوفِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ لِتَأْكِيدِ عَدَمِ غَنَاءِ أَوْلَادِهِمْ عَنْهُمْ؛ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ مَا هُوَ مُتَعَارَفٌ مِنْ أَنَّ الْأَوْلَادَ لَا يَقْعُدُونَ عَنِ الذَّبِّ عَنْ آبَائِهِمْ.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: قال البغوي: أَي لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا يُقَارِفُونَهَا، كَصَاحِبِ الرَّجُلِ لَا يُقَارِفُهُ. وقال ابن عطية: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إِضَافَةٌ تَخْصِيصٍ مَا تَقْتَضِي ثُبُوتَ ذَلِكَ لَهُمْ وَدَوَامَهُ. وقال الألوسي: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: أَي الْمُؤْصِفُونَ بِالْكَفْرِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ. ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: أَي مُلَازِمُوهَا، وَهُوَ مَعْنَى الْأَصْحَابِ عُزْفًا. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: تَأْكِيدٌ لِمَا يُرَادُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى. وَاحْتِيَاؤُ الْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ؛ لِلإِذَانِ بِالدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ. وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ؛ مُحَافَظَةً عَلَى رُؤُسِ الْآيِ. وقال ابن عاشور: جُمْلَةُ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

أَوْلَادُهُمْ». وَجِيءَ بِالْجُمْلَةِ مَعْطُوفَةً عَلَى خِلَافِ الْغَالِبِ فِي امْتِثَالِهَا أَنْ يَكُونَ بِدُونِ عَطْفٍ؛ لِقَصْدِ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مُنْصَبًّا عَلَيْهَا التَّأْكِيدُ بِحَرْفِ (إِنْ) فَيَكْمُلُ لَهَا مِنْ أَدَلَّةٍ تَحْقِيقِ مَضْمُونِهَا خَمْسَةُ أَدَلَّةٍ هِيَ: التَّأْكِيدُ بِ(أَنَّ)، وَمَوْفِعِ اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَالْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، وَضَمِيرُ الْفَصْلِ، وَوَصْفُ خَالِدُونَ.

• قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧):

• مناسبة الآية التي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ أَمْوَالَ الْكُفَّارِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ رُبَّمَا أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ فِي وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ، فَيَحْطَرُّ بِبَالِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ، فَأَزَالَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ تِلْكَ الشُّبُهَةَ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِتِلْكَ الْإِنْفَاقَاتِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ قَصَدُوا بِهَا وَجْهَ اللَّهِ. وقال الألوسي: قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ...﴾ كَالدَّلِيلِ لِعَدَمِ إِغْنَاءِ الْأَمْوَالِ، وَلَعَلَّ عَدَمَ بَيَانِ إِغْنَاءِ الْأَوْلَادِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا كُفَّارًا . وَهُوَ الظَّاهِرُ . كَانَ حُكْمُهُمْ حُكْمَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مُسْلِمِينَ كَانُوا عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَبُعْضُهُمْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

• تفسير الآية:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: اختلف العلماء في تفسير هذا الإنفاق على قولين: القول الأول: أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْفَاقِ هَاهُنَا: هُوَ جَمِيعُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَرْجُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ. قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا ضَرَبَ الْإِنْفَاقَ مَثَلًا لِأَعْمَالِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ. وَقِيلَ: هِيَ قَوْلُ الْمُنَافِقِ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَهُوَ لَا يَنْفَعُهُ، كَمَا لَا يَنْتَفِعُ بِالزَّرْعِ الَّذِي أَصَابَتْهُ الرِّيحُ الَّتِي فِيهَا بَرْدٌ شَدِيدٌ. القول الثاني: أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْفَاقِ هَاهُنَا: إِنْفَاقُ الْأَمْوَالِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ

نَفَقَاتِ الْكُفَّارِ، وَصَدَقَاتِهِمْ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هِيَ نَفَقَةُ سَفَلَةِ الْيَهُودِ عَلَى عُلَمَائِهِمْ لِأَجْلِ التَّخْرِيفِ وَنَحْوِهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هِيَ نَفَقَةُ الْكُفَّارِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي أَعْيَادِهِمْ وَعَلَى أَصْيَافِهِمْ وَمَا يُعْطِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الضَّلَالَةِ. وَقِيلَ: هِيَ نَفَقَةُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقِيلَ: هِيَ نَفَقَةُ الْمُنَافِقِينَ إِذَا خَرَجُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِحَرْبِ الْمُشْرِكِينَ. وَقِيلَ: هِيَ صَدَقَاتُ الْكُفَّارِ عَلَى أَقْرَبَائِهِمْ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ. وَقِيلَ: هِيَ مَا يُنْفِقُونَهُ عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَذَاهُ. قَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾: هَذَا تَشْبِيهِ تَمْثِيلِيٍّ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ نَوْعَانِ: تَشْبِيهِ إِفْرَادِيٍّ. مِثْلُ أَنْ تَقُولَ: فَلَانٌ كَالْبَحْرِ، فَلَانٌ كَالْأَسَدِ. وَتَشْبِيهِ تَمْثِيلِيٍّ، بِمَعْنَى أَنَّكَ تَشَبَّهُ الْهَيْئَةَ بِالْهَيْئَةِ، يَكُونُ الْمَشَبَّهُ شَيْئًا مُؤَلَّفًا مِنْ عِدَّةِ أُمُورٍ، وَالْمَشَبَّهُ بِهِ كَذَلِكَ يَكُونُ شَيْئًا مُؤَلَّفًا مِنْ عِدَّةِ أُمُورٍ، فَيَسْمَى عِنْدَ الْبَلَاحِيِّينَ تَشْبِيهًا تَمْثِيلِيًّا، وَالْأَوَّلُ تَشْبِيهًا إِفْرَادِيًّا.

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ﴾: فِي الْمُرَادِ بِ(الصِّرِّ) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْبَرْدُ الشَّدِيدُ، قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةِ عَطَاءٍ، وَقَوْلِ قَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ، وَالسَّدِيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ النَّارُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَابْنُ كَيْسَانَ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: إِنَّمَا وُصِفَتِ النَّارُ بِأَنَّهَا صِرٌّ؛ لِتَصَوُّيَّتِهَا عِنْدَ الْإِلْتِهَابِ. الثَّلَاثُ: أَنَّ الصِّرَّ: التَّصْوِيتُ، وَالْحَرَكَةُ مِنَ الْحَصَى وَالْحِجَارَةِ، وَمِنْهُ: صَرِيرُ النَّعْلِ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ. وَ(الْحَرْثُ): الزَّرْعُ. وَفِي مَعْنَى (ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ جَحَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. الثَّانِي: أَيُّ ظَلَمُواهَا بِالْكَفْرِ، وَالْمَعَاصِي، وَمَنْعَ حَقِّ اللَّهِ. الثَّلَاثُ: ظَلَمُواهَا بِأَنْ زَرَعُوا فِي غَيْرِ وَقْتِ الزَّرْعِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مَعْنَى الْآيَةِ: مِثْلُ نَفَقَةِ الْكَافِرِينَ فِي بُطْلَانِهَا وَدَهَابِهَا وَعَدَمِ مَنْفَعَتِهَا، كَمَثَلِ زَرْعٍ أَصَابَهُ رِيحٌ بَارِدَةٌ، أَوْ نَارٌ، فَأَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ أَصْحَابُهُ بِشَيْءٍ بَعْدَ مَا كَانُوا يَرْجُونَ فَائِدَتَهُ وَنَفْعَهُ. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: أَيُّ فَلَمْ يَنْتَفِعْ أَصْحَابُهُ مِنْهُ بِشَيْءٍ. وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ: ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾، عُقُوبَةٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِهْلَاكَ عَنْ سُحُطٍ أَشَدُّ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾: أَيُّ بَرْدٌ شَدِيدٌ، فَإِنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ وَإِنْ شَاعَ إِطْلَاقُهُ عَلَى الرِّيحِ الْبَارِدَةِ

كَالصَّرَصِرِ. وَقِيلَ: كَلِمَةٌ ﴿فِي﴾ بَحْرِيْدِيَّةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: أَيِ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا وَصِفُوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْإِهْلَاكَ عَنْ سَخَطٍ أَشَدُّ وَأَفْطَعُ. ﴿فَأَهْلَكْتُهُ﴾: عُقُوبَةً لَهُمْ وَلَمْ تَدَعْ مِنْهُ أَثَرًا وَلَا عَثِيرًا. وَالْمِرَادُ: تَشْبِيهُ مَا أَنْفَقُوا فِي ضِيَاعِهِ وَذَهَابِهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِمْ نَفْعٌ مَا بِحَرْثِ كُفَّارٍ ضَرَبَتْهُ صِرٌّ فَاسْتَأْصَلَتْهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِيهِ مَنَفْعَةٌ مَا يَوْجُهُ مِنَ الْوُجُوهِ.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ مَا نَقَصَهُمْ ذَلِكَ بِغَيْرِ جُرْمٍ أَصَابُوهُ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ بِهِمْ ذَلِكَ لِظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ بِمَنْعِ حَقِّ اللَّهِ مِنْهُ، وَهَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِإِبْطَالِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: (أَنْفُسَ): مَفْعُولٌ بِهِ مَقْدَمٌ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّقْدِيمِ: الْحَصْرُ، أَيِ أَنَّهُمْ مَا ظَلَمُوا أَحَدًا غَيْرَ أَنْفُسِهِمْ. وَفِي مَعْنَى ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ سَبَقَتْ، وَهِيَ: الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ جَحَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. الثَّانِي: أَيِ ظَلَمُوا بِالْكَفْرِ، وَالْمَعَاصِي، وَمَنْعَ حَقِّ اللَّهِ. الثَّلَاثُ: ظَلَمُوا بِأَنْ زَرَعُوا فِي غَيْرِ وَقْتِ الزَّرْعِ.

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال البغوي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَاصِلُونَ الْيَهُودَ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالصَّدَاقَةِ وَالْحِلْفِ وَالْجَوَارِ وَالرِّضَاعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ يَنْهَاهُمْ عَنْ مُبَاطَلَتِهِمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا

يُصَافُونَ الْمُنَافِقِينَ، فَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ...﴾.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أن الله تعالى لما شرّح أحوال المؤمنين والكافرين شرّع في تحذير المؤمنين عن مخالطة الكافرين.

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾: قال مكّي: هُيَ الله المؤمنين أن يتّخذوا الكافرين والمنافقين أولياء. والبطانة: الدخيلة الذين يطلعهم الرجل على سرّه؛ لأنهم كانوا لا ييقون غاية في التلبس على المؤمنين، فأمر الله المؤمنين ألا يداخلوهم. وقيل: البطانة: الأصدقاء. وقيل: الأخلاء، والمعنى في ذلك متقارب. ومعنى ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: أي من دون أهل دينكم. وقال البغوي: ﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾: أي أولياء وأصفياء من غير أهل ملّكم. و**بِطَانَةُ الرَّجُلِ**: خاصّته، تشبيهاً بِبِطَانَةِ الثَّوْبِ الَّتِي تَلِي بَطْنَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَبْطِنُونَ أَمْرَهُ وَيَطْلَعُونَ مِنْهُ عَلَى مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ. وقال الرازي: ا**خْتَلَفُوا فِي الَّذِينَ هُمُ** الله المؤمنين عَنْ مُخَالَطَتِهِمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ هُمُ الْيَهُودُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يُشَاوِرُوهُمْ فِي أُمُورِهِمْ وَيُؤَانِسُوهُمْ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَالْحَلْفِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي الدِّينِ فَهُمْ يَنْصَحُونَ لَهُمْ فِي أَسْبَابِ الْمَعَاشِ، فَهَاهُمْ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَنْهُ. وَحُجَّةُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا مُخَاطَبَةٌ مَعَ الْيَهُودِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا كَذَلِكَ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ الْمُنَافِقُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَغْتَرُّونَ بِظَاهِرِ أَقْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ، فَيَقْشُرُونَ إِلَيْهِمُ الْأَسْرَارَ وَيُطْلَعُونَهُمْ عَلَى الْأَحْوَالِ الْخَفِيَّةِ، فَاللهُ مَنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ. وَحُجَّةُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ مَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يَلِيْقُ بِالْيَهُودِ، بَلْ

هو صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ. الثَّالِثُ: الْمَرَادُ بِهِ جَمِيعُ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِطَانَةٍ مِّن دُونِكُمْ﴾، فَمَنَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ نَهْيًا عَنِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: بِطَانَةُ الرَّجُلِ: هُمْ حَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: الْبِطَانَةُ: مَصْدَرٌ يُسَمَّى بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ. وَبِطَانَةُ الرَّجُلِ: حَاصَّتُهُ الَّذِينَ يَسْتَبْطِنُونَ أَمْرَهُ، وَأَصْلُهُ الْبَطْنُ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الظَّهْرِ، وَبَطْنُ فُلَانٍ بِفُلَانٍ يُبْطِنُ بَطُونًا وَبِطَانَةً: إِذَا كَانَ خَالِصًا بِهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾: (مِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِ(لَا تَتَّخِذُوا)، أَوْ بِمَحذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِبِطَانَةٍ. وَقِيلَ: (مِنْ) زَائِدَةٌ. وَ(مِنْ دُونِكُمْ): بِمَعْنَى مِنْ غَيْرِكُمْ، أَوْ بِمَعْنَى الْأَدْوَنِ وَالْدَنِيِّ. وَضَمِيرُ الْجَمْعِ الْمُضَافُ إِلَيْهِ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَالْمَعْنَى: لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ كَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ أَوْلِيَاءَ وَخَوَاصَّ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ يَمُنَّ لَمْ تَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ مَنْزِلَتِكُمْ فِي الشَّرَفِ وَالِدِّيَانَةِ. وَالْحُكْمُ عَامٌّ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ النُّزُولِ خَاصًّا، فَإِنَّ اتِّخَاذَ الْمَخَالِفِ وَلِيًّا مَطْنَةُ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ؛ وَلِهَذَا وَرَدَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْبِطَانَةِ بِالْخَوَارِجِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿بِطَانَةً﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ اسْتُعْمِلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ بِالْبِطَانَةِ، لِأَنَّ شَأْنَ الْبِطَانَةِ أَنْ يَسْعَوْا إِلَى مَا فِيهِ خَيْرٌ مِّنَ اسْتِبْطَانِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ هَؤُلَاءِ بِضِدِّ ذَلِكَ عَبَّرَ عَنْ سَعْيِهِمْ بِالضَّرِّ، بِالْفِعْلِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي السَّعْيِ بِالْخَيْرِ. وَقَوْلُهُ ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (مِنْ) زَائِدَةٌ وَ(دُونَ) اسْمٌ مَكَانِ بِمَعْنَى: حَوْلَكُمْ، وَهُوَ الْإِحْتِمَالُ الْأَظْهَرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي نَظِيرِهِ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، وَ(دُونَ) بِمَعْنَى غَيْرٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن: ١١] مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ، وَقَدْ عَلِمَ السَّامِعُونَ أَنَّ الْمُنْهَى عَنِ اتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ، وَدَخَالَتُهُمْ تَقْتَضِي التَّحْذِيرَ مِنَ اسْتِبْطَانِهِمْ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: تَصْدِيرُ الْخُطَابِ بِالْنِدَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ وَالتَّنْبَهُ لَهُ. وَتَوْجِيهِ الْخُطَابِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لَهُ ثَلَاثُ فَوَائِدَ: الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْإِغْرَاءُ عَلَى الْإِمْتِتَالِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا فَافْعَلْ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا فَلَا تَفْعَلْ كَذَا

وكذا، إن كنت مؤمناً فصدق بالخبر. الفائدة الثانية: أنَّ امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يخاطب الشخص بوصف ثم يُوجَّه إليه حكم متعلق بهذا الوصف إلا كان ذلك دليلاً على أنَّ امتثال هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يصحَّ أن توجه لفاسق كلمة تتعلق بالمؤمن. الفائدة الثالثة: أن الإخلال به نقص في الإيمان.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: قال الواحدي: أي لا يدعون جهدهم في مضرتكم، وفسادكم. وانتصب (الخبال) بـ(الألّو)؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين. وإن شئت نصبته على المصدر؛ لأن معنى قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: يُجْبِلُونَكُمْ خَبَالًا. وقال البغوي: أي لا يُقَصِّرُونَ وَلَا يَتْرُكُونَ جُهِدَهُمْ فِيمَا يُورِثُكُمُ الشَّرَّ وَالْفَسَادَ. وَالْخَبَالُ: الشَّرُّ وَالْفَسَادُ. وقال القرطبي: أي لا يَتْرُكُونَ الْجُهْدَ فِي فَسَادِكُمْ، يَعْنِي أَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الظَّاهِرِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ الْجُهْدَ فِي الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ. وقال أبو حيان: الجملة من قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا موضع لها من الإعراب؛ إذ جاءت بياناً لحال البطانة الكافرة هي والجملة التي بعدها؛ لِتَنْفِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً. وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا صِفَةٌ لِلْبَطَانَةِ أَوْ حَالٌ بِمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ (من) فَبَعِيدٌ عَنْ فَهْمِ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ؛ لِأَنَّهُمْ نُهُوا عَنِ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ كَافِرَةٍ، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى أَشْيَاءَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ابْتِغَاءِ الْعَوَائِلِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوِدَادَةِ مَشَقَّتِهِمْ، وَظُهُورِ بُغْضِهِمْ. وَالتَّقْيِيدُ بِالْوَصْفِ أَوْ بِالْحَالِ يُؤْذِنُ بِجَوَازِ الاتِّخَاذِ عِنْدَ انْتِفَائِهِمَا. وَقِيلَ: انْتَصَبَ (خَبَالًا) عَلَى التَّمْيِيزِ الْمَنْفُوعِ مِنَ الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، وَالتَّقْيِيدُ: لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالَكُمْ، أَيْ فِي خَبَالِكُمْ. فَكَانَ أَصْلُ هَذَا الْمَفْعُولِ حَرْفُ الْجَرِّ. وَقِيلَ: انْتَصَبَ (خَبَالًا) عَلَى إِسْقَاطِ حَرْفِ، وَالتَّقْيِيدُ: لَا يَأْلُونَكُمْ فِي تَحْيِيلِكُمْ. وَقِيلَ: انْتَصَبَ (خَبَالًا) عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمُنَافِقُونَ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ لَا يَأْلَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ خَبَالًا، أَيْ يَسْعَوْنَ فِي مُحَالَفَتِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَمِمَّا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ. وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: المراد لا يُقَصِّرُونَ

فِيمَا فِيهِ الْفَسَادُ عَلَيْكُمْ. وَإِنَّمَا عُذِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ؛ لِكَوْنِهِ مُضَمَّنًا مَعْنَى الْمَنْعِ، أَيْ لَا يَمْنَعُوكُمْ خَبَالًا. وَالْخَبَالُ وَالْخَبَلُ: الْفَسَادُ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَبْدَانِ وَالْعُقُولِ.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: فِي الْمَعْنَى: ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَيْ وَدُّوا إِضْلَالَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ، وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ. الثَّانِي: وَدُّوا أَنْ تَعَنَّتُوا فِي دِينِكُمْ، أَيْ تَحْمِلُونَ عَلَى الْمَشَقَّةِ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ، وَأَصْلُ الْعَنْتِ الْمَشَقَّةُ. الثَّالِثُ: أَيْ وَدُّوا مَا أَعْنَتَكُمْ مِنْ مَكْرُوهِ وَضُرٍّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: أَيْ يَوْدُونَ مَا يَشُقُّ عَلَيْكُمْ مِنَ الضَّرِّ وَالشَّرِّ وَالْهَلَاكِ. وَالْعَنْتُ: الْمَشَقَّةُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ فِي الْمَعْنَى مِنْ وَجْهِ: الْأَوَّلُ: لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ دِينِكُمْ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْهُ وَدُّوا إِلْقَاءَكُمْ فِي أَشَدِّ أَنْوَاعِ الضَّرْرِ. الثَّانِي: لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أُمُورِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا عَجَزُوا عَنْهُ لَمْ يَزَلْ عَنْ قُلُوبِهِمْ حُبُّ إِعْنَاتِكُمْ. الثَّالِثُ: لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أُمُورِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لِמَانِعٍ مِنْ خَارِجٍ، فَحُبُّ ذَلِكَ غَيْرُ زَائِلٍ عَنْ قُلُوبِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ يَوْدُونَ مَا يُعْنَتُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ وَدُّوا عَنَتَكُمْ. وَالْعَنْتُ: الْمَشَقَّةُ وَشِدَّةُ الضَّرْرِ. وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِلنَّهْيِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْوُدُّ: الْمَحَبَّةُ. وَالْعَنْتُ: التَّعَبُّ الشَّدِيدُ، أَيْ رَغِبُوا فِيهَا يُعْنِتُكُمْ. وَ(مَا) هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ، غَيْرُ زَمَانِيَّةٍ، فَعِلٌ (عَنِتُّمْ) لَمَّا صَارَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ زَالَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمِضِيِّ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: الْوُدُّ: خَالِصُ الْمَحَبَّةِ.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: قَالَ السَّمُرْقَنْدِيُّ: أَيْ ظَهَرَتِ الْعَدَاوَةُ وَالتَّكْذِيبُ لَكُمْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: يَعْني الْوَقِيعَةَ بِاللِّسَانِ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: أَيْ ظَهَرَتْ أَمَارَةُ الْعَدَاوَةِ. ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: أَيْ بِالشَّتِيمَةِ وَالْوَقِيعَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ. وَقِيلَ: بِإِطْلَاعِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: يَعْني بِالْأَقْوَالِ، فَهُمْ فَوْقَ الْمَتَسَرِّ الَّذِي تَبْدُو الْبَغْضَاءُ فِي عَيْنَيْهِ. وَحَصَّ تَعَالَى الْأَفْوَاهَ بِالذِّكْرِ دُونَ الْأَلْسِنَةِ؛ إِشَارَةً إِلَى تَشَدُّقِهِمْ وَتَرْتَرِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ

هذه. وقال الرازي: البغضاء: أشدُّ البُغْضِ، فالْبُغْضُ مَعَ الْبَغْضَاءِ كَالضُّرِّ مَعَ الضَّرَاءِ. وقال أيضا: قَوْلُهُ: ﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ إِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فَفِي تَفْسِيرِهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْمُنَافِقِ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ فِي كَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِ وَمُفَارَقَتِهِ لِطَرِيقِ الْمَخَالَصَةِ فِي الْوَدِّ وَالنَّصِيحَةِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [مُحَمَّد: ٣٠]. الثَّانِي: قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ لِاطِّلَاعِ بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ. أَمَّا إِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الْيَهُودِ فَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ تَكْذِيبَ نَبِيِّكُمْ وَكِتَابَكُمْ وَيَنْسُبُونَكُمْ إِلَى الْجَهْلِ وَالْحُمَقِ، وَمَنْ اعْتَقَدَ فِي غَيْرِهِ الْإِضْرَارَ عَلَى الْجَهْلِ وَالْحُمَقِ امْتَنَعَ أَنْ يُجِبَّهُ، بَلْ لَا بُدَّ وَأَنْ يَبْغِضَهُ. وقال القرطبي: يَعْنِي ظَهَرَتِ الْعَدَاوَةُ وَالتَّكْذِيبُ لَكُمْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ. وَالْبَغْضَاءُ: الْبُغْضُ، وَهُوَ ضِدُّ الْحُبِّ. وَالْبَغْضَاءُ مَصْدَرٌ مُؤَنَّثٌ. وَحَصَّ تَعَالَى الْأَفْوَاهَ بِالذِّكْرِ دُونَ الْأُنثَى؛ إِشَارَةً إِلَى تَشَدُّقِهِمْ وَتَزَيُّرَتِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ هَذِهِ، فَهُمْ فَوْقَ الْمُتَسَتِّرِ الَّذِي تَبْدُو الْبَغْضَاءُ فِي عَيْنَيْهِ. وقال ابن كثير: أَيُّ قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ. وقال الشوكاني: أَيُّ قَدْ ظَهَرَتِ الْبَغْضَاءُ فِي كَلَامِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا خَامَرَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْبُغْضِ وَالْحَسَدِ أَظْهَرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ مَا فِي صُدُورِهِمْ، فَتَرَكُوا التَّقِيَّةَ وَصَرَخُوا بِالتَّكْذِيبِ. أَمَّا الْيَهُودُ فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ وَاضِحٌ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَكَانَ يَظْهَرُ مِنْ فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مَا يَكْشِفُ عَنْ حُبِّهِ طَوِيَّتِهِمْ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ؛ لِبَيَانِ حَالِهِمْ. وقال العثيمين: ﴿بَدَتْ﴾: أَيُّ ظَهَرَتْ. ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (مِنْ): لِبَيَانِ مَحَلِّ الْبُذُو، فَهِيَ ابْتِدَائِيَّةٌ، يَعْنِي ظَهَرَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، كَأَنَّمَا يَرِيدُونَ أَنْ يَكْتُمُوا هَذِهِ الْبَغْضَاءَ وَلَكِنَّهَا تَبْدُو، لَا بَدَّ أَنْ تَفْهَمَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَرِيدُونَ هَذَا؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: (قَدْ أَبْدَوْا الْبَغْضَاءَ)، بَلْ قَالَ: (قَدْ بَدَتْ)، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا جَاءَتْ فَلْتَةً مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَإِلَّا فَهَمْ يَتَكْتُمُونَ فِي الْبَغْضَاءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى مَا رَغِبُوا فِي اخْتِذَاهِمْ بِطَانَةٍ.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾: قال السمرقندي: أي والذي في صدورهم من العداوة أكثر مما أظهروا بأفواههم. ويقال: وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، أي قصدهم قتل محمد ﷺ، لأنهم كانوا يضمرون ذلك. وقال الواحدي: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾: أي من العداوة والخيانة. وقيل: من الكفر بالله ومحمد ﷺ. وقال السمعاني: يَعْنِي: الَّذِي فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْغَيْظِ أَعْظَمُ مِنَ الْوَقِيعَةِ بِاللِّسَانِ. وقال القرطبي: هَذَا إِخْبَارٌ وَإِعْلَامٌ بِأَنَّهُمْ يُبْطِنُونَ مِنَ الْبَغْضَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا يُظْهِرُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ. وقال العثيمين: قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ فيه أربع جمل: الأولى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾. الثانية: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾. الثالثة: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. الرابعة: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، فهل هذه الجمل أوصاف لبطانة، أو هي جمل تعليلية للبطانة، أي لا تتخذوا بطانة من دونكم فإنهم لا يألونكم خبالاً ويودون ما عنتم... إلى آخره؟ في هذا احتمالان: الأول: يحتمل أن هذه الجمل أوصاف. الثاني: يحتمل أنها جمل استئنافية لبيان التعليل، يعني لا تتخذوا بطانة من دونكم؛ لأنهم لا يألونكم خبالاً... إلى آخره، وعلى القول الأول يكون معنى الآية: لا تتخذوا بطانة من دونكم على هذا الوصف، أي بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتم... إلى آخره، فإن قلنا: بأن هذه الجمل أوصاف، فإنَّ قوله: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ يعتبر وصفاً خامساً؛ لأنَّ ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ الجار والمجرور صفة لبطانة، وعليه فيكون نهي الله أن تتخذ بطانةً مَنْ اتَّصفوا بهذه الصفات الخمس: أنهم من دوننا، أنهم لا يألوننا خبالاً، يودون ما عنتنا، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: قال السمرقندي: أي أخبرناكم بما أخفوا، وبما أبدوا بالدلالات والعلامات. وقال مكِّي: أي العبارات من أمر هؤلاء. وقال الواحدي: قال عطاء: يريد ما أمرهم به من طاعته، وما نهاهم عنه من معصيته. وقال السُّدِّي: قد بيَّنَّا آياتهم؛ لتعرفوهم بها. وقال أبو حيان: أي بيَّنَّا لكم الآيات الدالَّة على وجوب الإخلاص في

الدِّينِ، ومُوالاةِ الْمُؤْمِنِينَ، ومُعَاداةِ الْكُفَّارِ. وقال القاسمي: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾: أي الدَّالَّةَ عَلَى سُوءِ اتِّخَاذِكُمْ إِيَّاهُمْ بَطَانَةً لِّتَمَنَّيْعُوا مِنْهَا، فَتُخْلَصُوا فِي الدِّينِ، وَتُؤَالُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَتُعَادُوا الْكَافِرِينَ. وقال ابن عاشور: أي قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ عِلَامَاتِ عِدَاوَتِهِمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ. وقال العثيمين: أي أظهرناها حتى صارت بَيِّنَةً مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ. و(الآيَاتِ): العِلَامَاتِ، وهل المراد العِلَامَاتِ التي وصف بها هؤلاء أو هي أعم فتشمل جميع ما بيَّن الله لنا؟ الأولى أن نجعلها عامّة، فنقول: بيَّن الله لنا العِلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْحَقِّ وَعَلَى الْبَاطِلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفِي غَيْرِهَا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: قال مكِّي: أي عن الله آياته ومواعظه. وقال الواحدي: قيل: إن كنتم تعقلون موقع يقع البيان، ومبلغ عائدته عليكم. وقيل: إن كنتم تعقلون الفصل بين ما يستحقّه العدو، والولي. وقال ابن عطية: أي إن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ تحذيراً وتنبهياً، وقد عِلِمَ سبحانه أنهم عقلاء، ولكن هذا هَزُّ لِلنَّفُوسِ، كما تقول: إِنْ كُنْتُ رَجُلًا، فافعل كذا وكذا. وقال الألوسي: أي إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْفَضْلَ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَوَاعِظَ اللَّهِ وَمَنَافِعَهَا. وجوابُ (إِنْ) مُحَذُّوفٌ؛ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. وقال القاسمي: أي إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ. أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ما بَيَّنَّ لَكُمْ فَعَمِلْتُمْ بِهِ. وقال ابن عاشور: أي إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَتَتَوَسَّمُونَ تِلْكَ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَوْ تَفْقَهُونَ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ أَعَمُّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ. وقال العثيمين: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: يعني أنه لا يظهر بياننا للآيات إلا لمن كان له عقل يعقل به نفسه وهواه، أما غير العاقل فإنه لا ينتفع. ويحتمل: أَنَّ الشَّرْطَ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عائد على قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، والمعنى على هذا التقدير: إن كنتم تعقلون فلا تتخذوا بطانة من دونكم. أمّا على الأول فيكون التقدير: إن كنتم تعقلون فقد بيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ فاعقلوها. والآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان فالأولى أن

تحمل عليهما، فيكون من العقل أن لا نتخذهم بطانة، ومن العقل أن ننبين ما بينه الله لنا من الآيات.

• قال الله تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ أَؤُلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: قال ابنُ عَبَّاسٍ: كَانَ عَامَّةُ الْأَنْصَارِ يُوَاصِلُونَ الْيَهُودَ وَيُوَاصِلُونَهُمْ، فَلَمَّا أَسْلَمَ الْأَنْصَارُ بَغَضَهُمُ الْيَهُودُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ تَحْذِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُحَالَطَةِ الْمُنَافِقِينَ. وقال البقاعي: ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْإِخْبَارَ عَنِ مُلَحَّصِ حَالِهِمْ مَعَهُمْ، فَقَالَ: ﴿هَا أَنْتُمْ أَؤُلَآءِ﴾.

• تفسير الآية:

﴿هَآأَنُتُمْ أَؤُلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: قال البغوي: (هَا) حَرْفُ تَنْبِيْهِ. وَ(أَنْتُمْ) كِنَايَةٌ لِلْمُحَاطَبِينَ مِنَ الذُّكُورِ. ﴿أَوَّلَآءِ﴾: اسْمٌ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِمْ يُرِيدُ أَنْتُمْ أَهْلُهَا الْمُؤْمِنُونَ. ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾: أَيُّ تُحِبُّونَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ نَهَيْتُكُمْ عَنْ مُبَاطَنَتِهِمْ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي بَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالرِّضَاعِ وَالْمُصَاهَرَةِ. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: أَيُّ هُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ؛ لِمَا بَيْنَكُمْ مِنْ مُحَالَفَةِ الدِّينِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هُمْ الْمُنَافِقُونَ يُحِبُّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ لِمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ. وقال ابن الجوزي: فِي مَعْنَى حُبِّهِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا الْمَيْلُ إِلَيْهِمْ بِالطَّبَاعِ، لِمَوْضِعِ الْقَرَابَةِ، وَالرِّضَاعِ، وَالْحَلْفِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَنْقُولٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهَا بِمَعْنَى الرَّحْمَةِ لَهُمْ، لِمَا يَفْعَلُونَ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي يُقَابِلُهَا الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَنْقُولٌ عَنْ قَتَادَةَ. الثَّالِثُ: أَنَّهَا لِمَوْضِعِ إِظْهَارِ الْمُنَافِقِينَ الْإِيمَانَ، رُوي

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ. الرَّابِعُ: أَنَّهَا بِمَعْنَى إِرَادَةِ الْإِسْلَامِ لَهُمْ، وَهُمْ يُرِيدُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفْرِ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُفْضَلِ، وَالرَّجَّاحِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُحِبُّونَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتُحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾: جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ صَدَّرَتْ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ؛ إِظْهَارًا لِكَمَالِ الْعِنَايَةِ بِمَضْمُونِهَا. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ﴾: أَيُّ لِمَا أَظْهَرُوا لَكُمْ الْإِيمَانَ أَوْ لِمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: أَيُّ لِمَا قَدْ اسْتَحْكَمَ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْغَيْظِ وَالْحَسَدِ. وَقَالَ الْعَثِيمِيُّ: ﴿هَا أَنْتُمْ﴾: (هَا) لِلتَّنْبِيهِ. قِيلَ: إِنَّهَا مَنْقُولَةٌ عَنْ مَكَانِهَا، وَإِنَّ الْأَصْلَ: أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ. وَقِيلَ: بَلْ هِيَ لِلتَّنْبِيهِ وَإِنَّمَا فِي مَكَانِهَا؛ لِأَنَّ التَّنْبِيَةَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ، فَهِيَ فِي مَكَانِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْلَاءُ﴾ مَنَادِي، وَأَصْلُهُ: يَا هَؤُلَاءِ. ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾: أَيُّ تُحِبُّونَ هَذِهِ الْبَطَانَةَ الَّذِينَ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا، وَالَّذِينَ وَدُّوا مَا عَنْتُمْ، وَالَّذِينَ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَالَّذِينَ مَا تَخْفِيهِ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، تُحِبُّونَهُمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ سَلَامَةُ الْقَلْبِ وَطَهَارَتُهُ وَعَدَمُ ظَنِّ السَّوِّءِ فِي غَيْرِهِمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ يَتَوَدَّدُونَ إِلَيْهِمْ وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَصْلُونَهُمْ، فَيُحِبُّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ بِنَاءً عَلَى تَغْيِيرِهِمْ بِهِمْ. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: قَالَ الرَّجَّاحُ: الْكِتَابُ: بِمَعْنَى الْكُتُبِ. قَالَ الرَّازِيُّ: فِي الْآيَةِ إِضْمَارٌ. وَالتَّقْدِيرُ: وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَحَسَّنَ الْحَذَفُ؛ لِأَنَّ الضَّيِّقَيْنِ يُعْلَمَانِ مَعًا، فَكَانَ ذِكْرُ أَحَدِهِمَا مُعْنِيًا عَنْ ذِكْرِ الْآخَرِ. وَذَكَرَ (الْكِتَابَ) بِلَفْظِ الْوَاحِدِ لِوُجُوهٍ. أَحَدُهَا: أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ مَذْهَبَ الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِمْ: كَثُرَ الدَّرَاهِمُ فِي أَيْدِي النَّاسِ. وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يُجْمَعُ إِلَّا عَلَى التَّأْوِيلِ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَقُلِ الْكُتُبَ بَدَلًا مِنَ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَانَ لَوْ قَالَ لَجَازَ تَوْسُّعًا. وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِكُتُبِهِمْ كُلِّهَا وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُبَغِضُونَكُمْ فَمَا بِالْكُمْ مَعَ ذَلِكَ تُحِبُّونَهُمْ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتَابِكُمْ، وَفِيهِ تَوَيْحٌ شَدِيدٌ بِأَنَّهُمْ فِي بَاطِلِهِمْ أَصْلَبُ مِنْكُمْ فِي حَقِّكُمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ

لَيْسَ عِنْدَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ. وعن ابنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ وَتُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ، وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبُعْضَاءِ لَهُمْ، مِنْهُمْ لَكُمْ.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾: قال ابن كثير: هَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. وقال الشوكاني: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾: أَيُّ نِفَاقًا وَتَقِيَّةً.

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾: الْأَنَامِلُ: أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْأَنَامِلُ: أَيُّ الْأَصَابِعِ. قال البغوي: ﴿مِنْ الْغَيْظِ﴾: لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ائْتِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ. وقال القرطبي: وَعَضُّ الْأَنَامِلِ مِنْ فِعْلِ الْمُغْضَبِ الَّذِي فَاتَهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، أَوْ نَزَلَ بِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهِ. وقال أبو السعد: ﴿مِنْ الْغَيْظِ﴾: أَيُّ مِنْ أَجْلِهِ؛ تَأَسُّفًا وَتَحَسُّرًا حَيْثُ لَمْ يَجِدُوا إِلَى التَّشْقِي سَبِيلًا. وقال الشوكاني: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ..﴾: أَيُّ تَأَسُّفًا وَتَحَسُّرًا، حَيْثُ عَجَزُوا عَنِ الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ. وقال العثيمين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾: يَعْنِي وَحْدَهُمْ أَوْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: قال القرطبي: إِنْ قِيلَ: كَيْفَ لَمْ يَمُوتُوا وَاللَّهُ إِذَا قَالَ لِشَيْءٍ: كُنْ فَيَكُونُ. قِيلَ عَنْهُ جَوَابَانِ: أَحَدُهُمَا: قَالَ فِيهِ الطَّبَرِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ، أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَدَامَ اللَّهُ غَيْظَكُمْ إِلَى أَنْ تَمُوتُوا. فَعَلَى هَذَا يَتَّجِهُ أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِهَذَا مُوَاجَهَةً وَغَيْرَ مُوَاجَهَةٍ بِخِلَافِ اللَّعْنَةِ. الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: أَحْبَبَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ مَا يُؤْمَلُونَ، فَإِنَّ الْمَوْتَ دُونَ ذَلِكَ. فَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى زَالَ مَعْنَى الدُّعَاءِ وَبَقِيَ مَعْنَى التَّفْرِيعِ وَالِإِغَاظَةِ. وقال ابن كثير: أَيُّ مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَغِيظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُكَمِّلَ دِينِهِ، وَمُعِلِّ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ بِغَيْظِكُمْ. وقال العثيمين: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .، أَوْ لِمَنْ يَتَأَتَّى خُطَابَهُ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَخَاطَبُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿مُوتُوا

بِعَظْمِكُمْ﴿﴾: قيل: (الباء) للغاية والمصاحبة، يعني ابقوا على غيظكم إلى أن تموتوا. وقيل: (الباء) للسببية، أي موتوا بسبب غيظكم، فإنه لا يهتّمنا. والثاني أقرب. فالأول: دعاء عليهم ببقاء الغيظ إلى الموت. والثاني: دعاء عليهم بتعجيل الموت بسبب الغيظ، فيكون هذا أقرب للصواب وأشدّ في التحدي والبعد عنهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: قال البغوي: أي بما في القلوب من خيرٍ وشرٍّ. وقال ابن كثير: أي الله عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغِلِّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يُريكُم خلاف ما تُؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها. وقال الشوكاني: المراد بذات الصدور: الخواطر القائمة بها. وقال صديق خان: أخبر الله بذلك؛ لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنوا، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد، و(ذات) هنا تأنيث (ذي) بمعنى صاحبة الصدور. وجعلت صاحبة لها؛ لملازمتها لها وعدم انفكاكها، نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار، والمراد بها: المضمرات. وقال القاسمي: أي يعلم ما في صدورهم من البغضاء والحق. وهو يحتمل أن يكون من (المقول)، أي وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تُخفونه من عَصِ الأناملِ غيظًا، ويحتمل أن يكون خارجًا عنه، بمعنى: قل لهم ذلك لا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم. وقيل: هو أمرٌ لرسول الله ﷺ بطيب النفس، وقوة الرجاء، والاستبشارِ بوعدِ الله أن يهلكوا غيظًا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول، كأنه قيل: حدّث نفسك بذلك. وقال ابن عاشور: أي أن الله مُطَّلِعٌ عليهم وهو مُطْلِعُكَ على دخائلهم. وقال العثيمين: هذه الجملة استئنافية يبيّن الله فيها أنه عليم بذات الصدور، أي بصاحبة الصدور، وهي القلوب؛ لأن القلوب هي محلّ العقل والإدراك والتدبير للجسد، وإنما قلنا: إن ذات الصدور هي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. والقلب هو محلّ العقل ومحلّ التدبير؛ ولهذا قال

النبي ﷺ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" متفق عليه. والقلوب هي محل النية والإرادة؛ لأن النبي ﷺ قال: "إنما الأعمال بالنيات" متفق عليه.

- قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠):
- مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ تَمَامِ وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ مَا لَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ الدِّمِيمَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ مُتَرَقِّبُونَ نُزُولَ نَوْعٍ مِنَ الْمَخْنَةِ وَالْبَلَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ.

- تفسير الآية:

﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: قال مكِّي: أي إن تناولوا سروراً، وظفراً بعدوكم وزيادة الناس في الدخول في الإسلام، وتصديق النبي ﷺ ساء ذلك اليهود. وقيل: يعني المنافقين، وإن يصبكم ضرر من عدوكم واختلاف بينكم فرح بذلك اليهود. وقيل: هم المنافقون. وقال الواحدي: (المس) أصله باليد، ثم يُسَمَّى الْمُقَارِبُ وَالْمَخَالِطُ: (ماساً)؛ تشبيهاً بالمتناول للشيء، فيقال: (أَمْرُكَ يَمَسُّنِي)، أي يَكْرِثُنِي، ويهمني، وَيَقْرُبُ مِنِّي قَلْبِي. فأشبه بذلك المسَّ بالأصابع. ومعنى (الحَسَنَةُ) ههنا: النصر، والغنيمة، والخِصْبُ. و(تَسُوهُمْ)، أي تُخْزِيهِمْ، يقال: (سَاءَهُ، يَسُوءُهُ، مَسَاءَةً، وَمَسَائِيَةً) ف(استاء): أي اهتم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ﴾: أي نالكم ضد ذلك. ويقال: (ساء الشيء، يسوء، فهو سيء)، والمؤنث: (سيئة). و(ساء): أي قَبَحَ، ومنه قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، أي قَبَحَ. و(سَوَّأْتُ عَلَى الرَّجُلِ فَعَلَهُ): أي قَبَحْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَبَيْتُهُ بِهِ. و(السُّوءَى): ضد الحسنَى. و(السَّوَاءُ): المرأة القبيحة. وقال البغوي: أَيِ إِنْ تُصِيبَكُمْ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَعَيْنِيَّةٌ تَنَالُونَهَا مِنْهُمْ، وَتَتَابِعُ النَّاسَ فِي

الدُّخُولُ فِي دِينِكُمْ، وَخِصْبٍ فِي مَعَايِشِكُمْ ﴿تَسُوهُمْ﴾ تُحْزِنُ عَدُوَّكُمْ. ﴿وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: أَيُّ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ مَسَاءَةٌ بِإِحْفَاقِ سَرِيَّةٍ لَكُمْ، أَوْ إِصَابَةٍ عَدُوٍّ مِنْكُمْ، أَوْ اخْتِلَافٍ يَكُونُ بَيْنَكُمْ، أَوْ جَذْبٍ، أَوْ نَكْبَةٍ تُصِيبُكُمْ. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾: أَيُّ عَلَى أَذَاهُمْ. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أَيُّ وَتَحَافُوا رَبَّكُمْ. ﴿لَا يَصْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: أَيُّ لَا يَنْقُصُكُمْ. وقال ابن عطية: الحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَفْظُ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يَحْسُنُ وَيَسُوءُ، وَمَا ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْخِصْبِ وَالْجَذْبِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَدُخُولِ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ، فَإِنَّمَا هِيَ أَمثلةٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِاخْتِلَافٍ، وَذَكَرَ تَعَالَى الْمَسَّ فِي الْحَسَنَةِ؛ لِئَبَيَّنَ أَنَّ بِأَدْنَى طَرُوءِ الْحَسَنَةِ تَقَعُ الْمَسَاءَةُ بِنُفُوسِ هَؤُلَاءِ الْمُبْغِضِينَ، ثُمَّ عَادَلَ ذَلِكَ بِالسَّيِّئَةِ بِلَفْظِ الْإِصَابَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّمَكُّنِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْمَصِيبَ لِشَيْءٍ فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ أَوْ فِيهِ، فَدَلَّ هَذَا الْمَنْزِعُ الْبَلِيغُ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ، إِذْ هُوَ حَقْدٌ لَا يَذْهَبُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، بَلْ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِ الشَّدَائِدِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهَكَذَا هِيَ عَدَاوَةُ الْحَسَدِ فِي الْأَغْلَبِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْجَسِيمِ الَّذِي هُوَ مِلَاكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وقال ابن الجوزي: قَالَ قَتَادَةُ: الْحَسَنَةُ هُنَا: هِيَ الْأُلْفَةُ وَالْجَمَاعَةُ. وَالسَّيِّئَةُ: هِيَ الْفُرْقَةُ وَالْإِخْتِلَافُ، وَإِصَابَةُ طَرَفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْحَسَنَةُ: التَّعَمُّةُ. وَالسَّيِّئَةُ: الْمَصِيبَةُ. وقال الرازي: الْمَسُّ أَصْلُهُ بِالْيَدِ، ثُمَّ يُسَمَّى كُلُّ مَا يَصِلُ إِلَى الشَّيْءِ (مَاسًّا) عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ، فَيُقَالُ: فُلَانٌ مَسَّهُ التَّعَبُ وَالتَّصَبُّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وَالْمَرَادُ مِنَ الْحَسَنَةِ هَاهُنَا: مَنْفَعَةُ الدُّنْيَا عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا، فَمِنْهَا: صِحَّةُ الْبَدَنِ، وَحُصُولُ الْخِصْبِ، وَالْفُوزُ بِالْغَنِيمَةِ، وَالِاسْتِيلَاءُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَحُصُولُ الْمَحَبَّةِ وَالْأُلْفَةِ بَيْنَ الْأَخْبَابِ. وَالْمَرَادُ بِالسَّيِّئَةِ أَضْدَادُهَا، وَهِيَ: الْمَرَضُ، وَالْفَقْرُ، وَالْهَزِيمَةُ وَالْإِهْزَامُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَحُصُولُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الْأَقَارِبِ، وَالْقَتْلُ وَالنَّهْبُ وَالْغَارَةُ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَحْزَنُونَ وَيَغْتَمُونَ بِحُصُولِ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِ الْحَسَنَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَيَفْرَحُونَ بِحُصُولِ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِ السَّيِّئَةِ لَهُمْ. وقال أبو حيان: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: التَّكْرَرُ هُنَا

في سياق الشرط بأن تعمَّ عمومَ البدل، ولم يأتِ مُعرِّفًا لإيهام التَّعِينِ بِالْعَهْدِ، وإيهام العمومِ الشُّمُولِ. وقابلَ الحُسْنَةَ بِالسَّيِّئَةِ، والمِساءةَ بِالْفَرْحِ وهي مُقابِلَةٌ بَدِيعَةٌ. وقال ابن كثير: هَذِهِ الْحَالُ دَالَّةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خِصْبٌ، وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ، وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُتَنَافِقِينَ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ جَذَبٌ أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، فَرِحَ الْمُتَنَافِقُونَ بِذَلِكَ. وقال أبو السعود: هَذَا بَيَانٌ لِتَنَاهِي عَدَاوَتِهِمْ إِلَى حَدِّ حَسَدُوا مَا نَالَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَمَنْفَعَةٍ وَتَمَتُّوا بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ضَرٍّ. وَشِدَّةٍ وَذِكْرُ الْمِسِّ مَعَ الْحُسْنَةِ، وَالْإِصَابَةِ مَعَ السَّيِّئَةِ: إِمَّا لِلْإِذَانِ بِأَنَّ مَدَارَ مَسَاءَتِهِمْ أَدْنَى مَرَاتِبِ إِصَابَةِ الْحُسْنَةِ، وَمَنَاطَ فَرْحِهِمْ تَمَامُ إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْمِسَّ مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِصَابَةِ. وقال القاسمي: الْمِسُّ أَصْلُهُ بِالْيَدِ، ثُمَّ يُسَمَّى كُلُّ مَا يَصِلُ إِلَى الشَّيْءِ مَسًّا. وَالتَّعْيِيرُ بِهِ فِي جَانِبِ الْحُسْنَةِ، وَبِالْإِصَابَةِ فِي جَانِبِ السَّيِّئَةِ؛ لِلتَّفَنُّنِ. وَقَدْ سَوَّى بَيْنَهُمَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وَقَالَ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]. قَالَ نَاصِرُ الدِّينِ فِي (الْإِنْتِصَافِ): "يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمِسُّ أَقْلُ تَمَكُّنًا مِنَ الْإِصَابَةِ، وَكَأَنَّهُ أَقْلُ دَرَجَاتِهَا، فَكَأَنَّ الْكَلَامَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . إِنْ تُصِيبَكَ الْحَسَنَةُ أَدْنَى إِصَابَةٍ تَسُؤْهُمْ وَيَحْسُدُوكُمْ عَلَيْهَا. وَإِنْ تَمَكَّنْتَ الْإِصَابَةُ مِنْكُمْ وَانْتَهَى الْأَمْرُ فِيهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَزِيهِ الشَّامِتُ عِنْدَهُ مِنْهَا، فَهُمْ لَا يَزْتُونُ لَكُمْ وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْ حَسَدِهِمْ، وَلَا فِي هَذِهِ الْحَالِ، بَلْ يَفْرَحُونَ وَيُسْرُونَ". وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ بَلَاغَةِ التَّنْزِيلِ. انْتَهَى كَلَامُ الْقَاسِمِيِّ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿إِنْ تَمَسَّنْكُمْ﴾: الْخَطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا أَتَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، وَأَتَى بِصِيغَةِ الْمَفْرَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾، وَسَبَقَ أَنْ جَاءَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، وَهَذَا مِنَ التَّفَنُّنِ فِي الْخَطَابِ، وَمِنْ فَوَائِدِهِ: الْإِتْبَاهُ، أَيْ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اخْتَلَفَ الْأَسْلُوبُ عِنْدَهُ انْتَبَهَ، وَلَيْسَ كَمَا إِذَا كَانَ الْأَسْلُوبُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَهَذَا قَالَ فِي الْحُسْنَةِ: ﴿إِنْ

تَمَسَّنْكُمْ»، وقال في السيئة: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ﴾، فهل هذا من باب اختلاف التعبير أو هناك فرق معنوي؟ الجواب: قال بعض العلماء: إنَّ هذا من باب اختلاف التعبير، وإن معنى قوله: ﴿إِنْ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةً﴾: أي إن تصيبكم حسنة، قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وقال بعض العلماء: بل بينهما فرق؛ لأنَّ المسَّ أخفَّ من الإصابة، المسُّ أخفَّ من الإصابة؛ وبناء على ذلك أنهم يُساوون من الحسنة وإن كانت قليلة جدًّا، ويفرحون بالسيئة إذا أصابت وأوجعت. وهذا الفرق بالنسبة لقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةً﴾ وجهه، لكن بالنسبة لقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ لو قلنا بهذا الفرق لكان فرحهم بالسيئة لا يكون إلا إذا كانت شديدة، وهذا فيما يظهر خلاف حالهم؛ وبناء على ذلك يترجَّح القول: بأنَّ مسَّ وأصاب بمعنى واحد، لكن اختلف التعبير لفائدة، وهي تنبيه المخاطب.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: قَالَ الرَّجَّاجُ: الضَّرُّ والضَّيْرُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَأَمَّا الْكَيْدُ، فَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: هُوَ الْمَكْرُ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: الْكَيْدُ فِي اللُّغَةِ: الْإِحْتِيَالُ بِغَيْرِ مَا يَبْدِي. وَقَالَ الرَّازِيُّ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ صَبَرَ عَلَى أَدَاءِ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَاتَّقَى كُلَّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ، فَلَا يَضُرُّهُ كَيْدُ الْكَافِرِينَ وَلَا حِيلُ الْمُحْتَالِينَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَتَّقُوا اللَّهَ، وَلَا تَفْنَطُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَذَاهُمْ وَتَكَرَّرَ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَتَتَّقُوا مُبَاطَنَتَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَتَتَّقُوا الشِّرْكَ. وَقِيلَ: وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى الطَّاعَةِ وَتَتَّقُوا الْمَعَاصِي. وَقِيلَ: وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى حَرْبِهِمْ. وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا مُتَعَلِّقَ الصَّبْرِ، وَلَا مُتَعَلِّقَ التَّقْوَى. لَكِنَّ الصَّبْرَ هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَالتَّقْوَى اتِّخَاذُ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. فَيَحْسُنُ أَنْ يُقَدَّرَ الْمَحْدُوفُ مِنْ جِنْسِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الصَّبْرِ وَلَفْظُ التَّقْوَى. وَفِي هَذَا تَبْشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَنْبِيْهُ لِنُفُوسِهِمْ، وَإِرْشَادٌ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ عَلَى كَيْدِ الْعَدُوِّ بِالصَّبْرِ

والتَّقْوَى. وقال ابن كثير: يُرْشِدُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ. وقال الألوسي: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: أَيُّ شَيْئًا مِنَ الضَّرَرِ لَا كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، بِبَرَكََةِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى؛ لِكَوْنِهِمَا مِنْ مُحَاسِنِ الطَّاعَاتِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَنْ تَحَلَّى بِذَلِكَ كَانَ فِي كَنْفِ اللَّهِ وَحِمَايَتِهِ مِنْ أَنْ يَضُرَّهُ كَيْدُ عَدُوِّهِ. وقال صديق خان: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾: أَيُّ عَلَى عداوتهم وأذاهم، أو على التكاليف الشاقة. ﴿وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: أَيُّ اتَّقُوا اللَّهَ فِي مَوَالِيَتِهِمْ، أو ما حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ شَيْئًا مِنَ الضَّرَرِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ. وقال القاسمي: أَيُّ إِنْ تَصَبَّرُوا عَلَى مَا يَنْتَلِيكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِ وَالْمَصَائِبِ، وَتَثَبَّتُوا عَلَى الطَّاعَةِ وَتَنَفَّسُوا الْإِسْتِعَانَةَ بِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ، وَالْإِلْتِجَاءَ إِلَى وَلَايَتِهِمْ. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾؛ لِأَنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ الصَّابِرَ عَلَى بَلَائِهِ، الْمُسْتَعِينُ بِهِ لَا يَغْيِرُهُ ظَافِرٌ فِي طَلِبَتِهِ، غَالِبٌ عَلَى حَصْمِهِ، مُحْفُوظٌ بِحُسْنِ كَلَاءَةِ رَبِّهِ. وَالْمُسْتَعِينُ بِغَيْرِهِ مَخْذُولٌ مُؤَكَّوْلٌ إِلَى نَفْسِهِ، مُحْرُومٌ عَنْ نُصْرَةِ رَبِّهِ، أَفَادَهُ الْقَاشَانِيُّ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِنَفْيِ الضَّرَرِ عَدَمُ الْمِبَالَاةِ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُتَدَرِّبَ بِالِاتِّقَاءِ وَالصَّبْرِ يَكُونُ قَلِيلَ الْإِنْفِعَالِ، جَرِيئًا عَلَى الْحَصْمِ. وَ(الْكَيْدُ): الْإِحْتِيَالُ عَلَى إِيقَاعِ الْغَيْرِ فِي مَكْرُوهِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: قَالَ السَّمَرَقَنْدِيُّ: يَعْنِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِأَعْمَالِهِمْ. وَالْإِحَاطَةُ: هِيَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ بِكَمَالِهِ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَيُّ عَالَمٌ بِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ بَاقِتْدَارُهُ عَلَيْهِ، وَعِلْمُهُ بِهِ، قَدْ حَصَرَهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، كَمَا حَصَرَهُ الْحَيْطُ بِهِ. هَذَا مَعْنَاهُ وَحَقِيقَتُهُ؛ لِأَنَّ الْحَيْطَ بِالشَّيْءِ، هُوَ الْحَيْطُ بِهِ مِنْ حَوَالِيهِ، وَهَذَا مِنْ صِفَةِ الْإِحْكَامِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: هَذَا وَعِيدٌ، وَالْمَعْنَى: مُحِيطٌ جَزَائُهُ وَعِقَابُهُ وَبِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الْمُحِيطُ: الَّذِي أَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِالأَشْيَاءِ كُلِّهَا. وَقَالَ النَّسْفِيُّ: أَيُّ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ فِي عَدَاوَتِكُمْ فَمُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيُّ مُحِيطٌ بِهِمْ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ، فَلَا

منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليهم منهم شيء. وقال العثيمين: الإحاطة هنا: إحاطة العلم، والقدرة، والسلطان، فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخله؛ أي لا يتمكن أن يفروا من قضاء الله وعلمه وسلطانه وقدرته.

● قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

(١٢١): ﴿

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أتبعه بما يذمهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ..﴾.

وقال الألوسي: الكلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استنباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة عن مضرة كيد الأعداء.

وقال ابن عاشور: مناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم: أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين والمنافقين، ولما كان شأن المنافقين وأهل يثرب واحداً، ودخلتهما سواءً، وكانوا يعملون على ما تدبره اليهود، جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزول هذه السورة عقب غزوة أحد.

● تفسير الآية:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ﴾: قال الماوردي: اختلفوا في أي مكان كان على قولين: أحدهما: أنه كان يوم أحد، وهو قول ابن عباس، والربيع، وقتادة، والسدي، وابن إسحاق. الثاني: أنه كان يوم الأحزاب، وهو قول الحسن، ومجاهد. وقال البغوي: أي واذكر إذا غدت. ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: قال مجاهد، والكلبي، والواقدي: عدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة. رضي الله عنها، فمشى على

رَجُلَيْهِ إِلَى أَحَدٍ، فَجَعَلَ يَصِفُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ كَمَا يَقُومُ الْقَدْحُ. ﴿تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيُّ تَنْزِلُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: أَيُّ مَوَاطِنَ، وَمَوَاضِعَ لِلْقِتَالِ، يُقَالُ: بَوَّأْتُ الْقَوْمَ إِذَا وَطَّنْتَهُمْ، وَتَبَوَّأُوا هُمْ إِذَا تَوَاطَنُوا. وَقِيلَ: تَتَّخِذُ مُعَسَّكَرًا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: مَعْنَاهُ: تُعَيِّنُ لَهُمْ مَقَاعِدَ يَتِمَكَّنُونَ فِيهَا وَيَثْبُتُونَ تَقُولُ: تَبَوَّأْتُ مَكَانَ كَذَا، إِذَا حَلَلْتَهُ حُلُولًا مُتِمَكِّنًا ثَبَّتَ فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: مَقَاعِدُ: جَمْعُ مَقْعَدٍ، وَهُوَ مَكَانُ الْقُعُودِ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: مَوَاقِفُ، وَلَكِنَّ لَفْظَةَ الْقُعُودِ أَذَلُّ عَلَى الثُّبُوتِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهٍ: الْأَوَّلُ: تَقْدِيرُهُ: وَادْكُرْ إِذْ غَدَوْتَ. الثَّانِي: قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: هَذَا كَلَامٌ مَعْطُوفٌ بِ(الوَإِ) عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَانِ فِتْنَةً تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣]، يَقُولُ: قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي نَصْرِ اللَّهِ تِلْكَ الطَّائِفَةُ الْقَلِيلَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الطَّائِفَةِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ مَوْضِعُ اعْتِبَارٍ؛ لِتَعْرِفُوا بِهِ أَنَّ اللَّهَ نَاصِرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ لَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ إِذْ غَدَا الرَّسُولُ ﷺ يُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ. الثَّالِثُ: الْعَامِلُ فِيهِ مُحِيطٌ: تَقْدِيرُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ إِذْ غَدَوْتَ. وَقَالَ أَيْضًا: اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْيَوْمِ أَيُّ يَوْمٍ هُوَ؟ فَالْأَكْثَرُونَ: أَنَّهُ يَوْمُ أُحُدٍ: وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ إِسْحَاقَ، وَالرَّبِيعِ، وَالْأَصَمِّ، وَأَبِي مُسْلِمٍ. وَقِيلَ: إِنَّهُ يَوْمُ بَدْرٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ يَوْمُ الْأَحْزَابِ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَمُقَاتِلٍ. وَحُجَّةٌ مَنْ قَالَ هَذَا الْيَوْمُ هُوَ يَوْمُ أُحُدٍ: وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ بِالْمَغَازِي زَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ. الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَمِنْ حَقِّ الْمَعْطُوفِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا يَوْمُ الْأَحْزَابِ، فَالْقَوْمُ إِنَّمَا خَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ لَا يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَكَانَتْ قِصَّةُ أُحُدٍ أَلْيَقَ بِهَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ تَقْرِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۖ فَتُبَّتْ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ أَحَدٍ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْإِنْكَسَارَ وَاسْتِيْلَاءَ الْعَدُوِّ كَانَ فِي يَوْمِ أَحَدٍ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي يَوْمِ الْأَحْزَابِ؛ لِأَنَّ فِي يَوْمِ أَحَدٍ قُتِلُوا جَمْعًا كَثِيرًا مِنْ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يَتَّفِقْ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَكَانَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى يَوْمِ أَحَدٍ أَوَّلَى. وقال القرطبي: الْعَامِلُ فِي ﴿وَإِذْ﴾ فِعْلٌ مُضَمَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَادُّكُرْ إِذْ عَدَوْتُ، يَعْنِي خَرَجْتَ بِالصَّبَاحِ. ﴿مَنْ أَهْلِكَ﴾: أَيِ مَنْ مَنَزَلِكَ، مِنْ عِنْدِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهَذِهِ غَزْوَةُ أَحَدٍ، وَفِيهَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كُلُّهَا. وقال أبو حَيَّانَ: ظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ عَدَوْتُ﴾: خُرُوجُهُ غَدَاةً مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ. وَفُسِّرَ ذَلِكَ بِخُرُوجِهِ مِنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غَدَاةً، حِينَ اسْتَشَارَ النَّاسَ، فَمِنْ مُشِيرٍ بِالْإِقَامَةِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ إِلَى الْقِتَالِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنْ جَاءُوا قَاتَلُوهُمْ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ رَأْيَهُ، وَمِنْ مُشِيرٍ بِالْخُرُوجِ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ صَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ فَاتَّهَمَ وَقَعَهُ بَدْرٍ. وَتَبَوُّهُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ هُوَ أَنْ يُقَسِّمَ أَقْطَارَ الْمَدِينَةِ عَلَى قَبَائِلِ الْأَنْصَارِ. وَقِيلَ: غَدَاةً: هُوَ نُهْوضُهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَتَبَوُّهُ فِي وَقْتِ حُضُورِ الْقِتَالِ، وَسَمَّاهُ غَدَاةً؛ إِذْ كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ غَدَاةً. وَقِيلَ: غَدَاةً كَانَ يَوْمَ السَّبْتِ لِلْقِتَالِ؛ وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُوَافِقَةً لِلْعَدُوِّ وَكَأَنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ. وقال ابن كثير: كَانَتْ وَقَعَةُ أَحَدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: لِإِحْدَى عَشْرَةِ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ شَوَّالٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ سَبَبُهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَلَمَتِ الْعِيرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا رَجَعَ قَقْلُهُمْ إِلَى مَكَّةَ قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ، وَرُؤُسَاءُ مَنْ بَقِيَ لِأَبِي سُفْيَانَ: ارْصُدْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيشَ وَأَقْبَلُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أَحَدٍ تَلْقَاءَ الْمَدِينَةِ. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: أَيِ بَيْنَ لَهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَنَجْعَهُمْ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ. وقال أبو السَّعُودِ: ﴿وَإِذْ عَدَوْتُ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ سِيقَ لِلِاسْتِشْهَادِ بِمَا فِيهِ مِنْ اسْتِبَاعِ عَدَمِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى لِلضَّرَرِ عَلَى أَنَّ وُجُودَهُمَا مُسْتَتَبِعٌ لِمَا وَعَدَ مِنَ النِّجَاحِ

مِنْ مَضَرَّةِ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ. وَ(إِذْ) تُصَبُّ عَلَى الْمُفْعُولِيَّةِ بِمُضَمِّ حُوطَبٍ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ خَاصَّةً
 مَعَ عُمُومِ الْخِطَابِ فِيمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِإِخْتِصَاصِ مَضْمُونِ الْكَلَامِ بِهِ .
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .، أَيْ وَادْكُرْ لَهُمْ وَقْتَ غُدُوكَ؛ لِيَتَذَكَّرُوا مَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ
 النَّاشِئَةِ عَنْ عَدَمِ الصَّبْرِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِنْ لَزِمُوا الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى لَا يَضُرُّهُمْ كَيْدُ الْكَفَرَةِ.
 وَتَوْجِيهِ الْأَمْرِ بِالذِّكْرِ إِلَى الْوَقْتِ دُونَ مَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْحَوَادِثِ مَعَ أَنَّهَا الْمُقْصُودَةُ بِالذَّاتِ؛
 لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِجْبَابِ ذِكْرِهَا وَاسْتِحْضَارِ الْحَادِثَةِ بِتَفَاصِيلِهَا. وَ(اللَّامُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿لِلْقِتَالِ﴾ إِمَّا مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿تُبَوِّئُ﴾، أَيْ لِأَجْلِ الْقِتَالِ، وَإِمَّا بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِمَقَاعِدَ،
 أَيْ كَائِنَةً. وَمَقَاعِدُ الْقِتَالِ: أَمَاكِنُهُ وَمَوَاقِفُهُ، فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ الْمُقْعَدِ وَالْمَقَامِ بِمَعْنَى الْمَكَانِ
 اتِّسَاعًا شَائِعٌ ذَائِعٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَجُودُ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي
 قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ مانِعٌ مِنْ تَعْلِيلِ الظَّرْفِ بِبَعْضِ الْأَفْعَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِثْلُ ﴿وَدُّوْا مَا
 عَنِتُّمْ﴾، وَمِثْلُ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾، وَعَلَيْهِ فَهُوَ آتٍ كَمَا أَتَتْ نَظَائِرُهُ فِي أَوَائِلِ الْآيِ وَالْقِصَصِ
 الْقُرْآنِيِّ، وَهُوَ مِنْ عَطْفِ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ وَقِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ، وَذَلِكَ انْتِقَالٌ اقْتِضَائِيٌّ،
 فَالْتَّقْدِيرُ: وَادْكُرْ إِذْ غَدَوْتَ. وَلَا يَأْتِي فِي هَذَا تَعَلُّقُ الظَّرْفِ بِفِعْلٍ مِمَّا بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:
 ﴿تُبَوِّئُ﴾ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ مَبْدَأَ الْغَرَضِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهَا: ﴿هَمَّتْ﴾ لَا يَصْلُحُ
 لِتَعْلِيلِ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾؛ لِأَنَّهُ مَدْخُولٌ ﴿إِذْ﴾ أُخْرَى. وَ﴿مِنْ﴾: فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾
 ابْتِدَائِيَّةٌ. وَالْأَهْلُ: الزَّوْجَةُ. وَالْكَلَامُ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ فِعْلُ ﴿غَدَوْتَ﴾: أَيْ مِنْ
 بَيْتِ أَهْلِكَ. وَقَالَ الْعَنِيْمِينَ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: مِنْ هُنَا إِلَى قَرِيبِ آخِرِ السُّورَةِ
 كُلِّهِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾: ﴿إِذْ﴾ هَذِهِ ظَرْفٌ، وَعَامِلُهَا
 مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: اذْكُرْ إِذْ غَدَوْتَ. وَ﴿غَدَوْتَ﴾: بِمَعْنَى خَرَجْتَ غُدُوَّةً، أَيْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ
 كَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ فِي أَوَّلِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمَوْافِقِ
 لِلْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَوَّالٍ، سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: (مِنْ) ابْتِدَائِيَّةٌ، يَعْنِي أَنَّ

مبتدأ هذه الغدوة من أهله من المدينة، خرج النبي - عليه الصلاة والسلام - غادياً إلى أحد بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم هل يخرج أو لا. ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: الجملة هذه حالية، يعني حال كونك تبوَّأ. ومعنى ﴿تَبَوَّأُ﴾: أي تُنزل، والتبوءُ معناه النزول. ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: المؤمن: هو المقر بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، وبهذا شهادة من الله أيما شهادة على أن هؤلاء الذين شهدوا هذه المعركة مؤمنون. ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: قال: ﴿مَقَاعِدَ﴾ ولم يقل: (منازل) من أجل أن تكون هذه الأماكن التي بُوِّئوها مكان ثبات كثبات القاعد في مجلسه، وليس المعنى أن الرسول ﷺ جعل لهم هذه المنازل وقال: اجلسوا، لا، هم يتكيفون كما يناسب مصلحة الحرب، لكنها سُميت مقاعد من أجل الثبات فيها. ﴿لِلْقِتَالِ﴾: يعني لقتال الأعداء، وتعلمون أن المقاتل لن يبقى في مكانه دائماً، بل هو يكرّر ويفرّ حسبما تقتضيه المصلحة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: في المراد به أقوال: الأول: سَمِيعٌ بما يَقُولُهُ الْمُنَافِقُونَ، عَلِيمٌ بما يُضْمِرُونَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ. الثاني: سَمِيعٌ لما يَقُولُهُ الْمَشِيرُونَ عَلَيْكَ، عَلِيمٌ بما يُضْمِرُونَ مِنَ نَصِيحِ الرَّأْيِ وَغَشِّ الْقُلُوبِ. الثالث: سَمِيعٌ لما يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلِيمٌ بما يُضْمِرُونَ مِنْ خُلُوصِ النِّيَّةِ. الرابع: أي سَمِيعٌ بما قَالَ الْمُؤْمِنُونَ، عَلِيمٌ بما أَضْمَرُوا، فَيَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ. الخامس: أي سَمِيعٌ ما تَقُولُ وما يَقَالُ لَكَ وقت المشاورة وغيره. السادس: قال الألويسي: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: أي لِسَائِرِ الْمُسْمُوعَاتِ، وَيَدْخُلُ مَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ مِنَ الْأَقْوَالِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا. ﴿عَلِيمٌ﴾: أي بِسَائِرِ الْمَعْلُومَاتِ، وَمِنْهَا مَا فِي ضَمَائِرِ الْقَوْمِ يَوْمئِذٍ.

• قال الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢):

• سبب نزول الآية:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "فِينَا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا﴾، قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ: بَنُو حَارِثَةَ، وَبَنُو سَلَمَةَ، وَمَا نَحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾" رواه البخاري.

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا كَانَ رُجُوعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ الْمُنَافِقِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مُتَّصِفُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، كَانَ إِيلَاءُ هَذِهِ الْقِصَّةِ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ بَطَانَةِ السُّوءِ الَّذِينَ لَا يَقْصُرُونَ عَنْ فُسَادٍ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ.

• تفسير الآية:

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: قال السمرقندي: هذه كلها مِنْ ذِكْرِهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ؛ ليعرف ويشكر الله، ويصبر على ما يصيبه من الأذى. وقال الماوردي: اِخْتَلَفَ فِي الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَهْمُ بَنُو سَلَمَةَ، وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ. الثَّانِي: أَهْمُ قَوْمٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالْأَنْصَارِ. وَفِي سَبَبِ هَمِّهِم بِالْفَشْلِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سُلُوكٍ دَعَاهُمَا إِلَى الرُّجُوعِ عَنْ لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَهَمَّا بِهِ وَلَمْ يَفْعَلَا، وَهَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ وَابْنِ جُرَيْجٍ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي الْخُرُوجِ فِي الْعُدُوِّ وَالْمَقَامِ حَتَّى هَمَّا بِالْفَشْلِ. وقال البغوي: ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾: أَيُّ أَنْ تَجْبُنَا وَتَضْعُفَا وَتَتَخَلَّفَا. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أَيُّ نَاصِرُهُمَا وَحَافِظُهُمَا. وقال الرازي: العاملُ في قَوْلِهِ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ فِيهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: قَالَ الرَّجَاجُ: الْعَامِلُ فِيهِ: التَّبَوُّةُ، وَالْمَعْنَى كَانَتِ التَّبَوُّةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. الثَّانِي: الْعَامِلُ فِيهِ: قَوْلُهُ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. الثَّالِثُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ عَدَوْتَ﴾.

والفشل: هو الجُبْنُ والخَوَرُ. فَإِنْ قِيلَ: الهمُّ بالشَّيءِ هو العَزْمُ، فَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ عَزَمَتَا عَلَى الْفَشْلِ وَالتَّرْكِ وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ، فَكَيْفَ بِهِمَا أَنْ يُقَالَ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾؟ وَالْجَوَابُ: الهمُّ قَدْ يُرَادُّ بِهِ الْعَزْمُ، وَقَدْ يُرَادُّ بِهِ الْفِكْرُ، وَقَدْ يُرَادُّ بِهِ حَدِيثُ النَّفْسِ، وَقَدْ يُرَادُّ بِهِ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ الدَّالِّ عَلَى قُوَّةِ الْعَدُوِّ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِ وَوُفُورِ عُدَدِهِ، لِأَنَّ أَيَّ شَيْءٍ ظَهَرَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ صَحَّ أَنْ يُوصَفَ مَنْ ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِأَنَّهُ هَمٌّ بِأَنْ يَفْشَلَ مِنْ حَيْثُ ظَهَرَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ ضَعْفَ الْقَلْبِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْصِيَةً وَقَعَتْ مِنْهُمَا. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: فِي الْمَعْنَى وَجُوهٌ. الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ: بَيَانُ أَنَّ ذَلِكَ الهمُّ مَا أَخْرَجَهُمَا عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ. الثَّانِي: كَأَنَّهُ قِيلَ: اللَّهُ نَاصِرُهُمَا وَمُتَوَلِّي أَمْرِهِمَا فَكَيْفَ يَلْبِقُ بِهِمَا هَذَا الْفَشْلُ وَتَرَكَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ؟ الثَّالِثُ: فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْفَشْلَ إِنَّمَا لَمْ يَدْخُلْ فِي الْوُجُودِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمَا فَأَمَدَّهُمَا بِالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ، وَالْعَرَضُ مِنْهُ: بَيَانُ أَنَّهُ لَوْلَا تَوْفِيقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَسْدِيدُهُ لَمَا تَخَلَّصَ أَحَدٌ عَنْ ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي خَتَمِهَا﴾. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الهمُّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ كَانَ بَعْدَ الْخُرُوجِ لَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْمَشَارَكَةِ فِي الْغَزْوَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، فَحَفِظَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: يَعْنِي حَفِظَ قُلُوبَهُمَا عَنْ تَحْقِيقِ هَذَا الهمِّ. وَقِيلَ: أَرَادُوا التَّقَاعُدَ عَنِ الْخُرُوجِ. وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ حَدِيثَ نَفْسٍ مِنْهُمْ خَطَرَ بِبَالِهِمْ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ، فَازْدَادُوا بَصِيرَةً، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْخَوَرُ مُكْتَسَبًا لَهُمْ، فَعَصَمَهُمُ اللَّهُ، وَدَمَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَنَهَضُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى أَطْلَعَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. وَالطَّائِفَتَانِ هُمَا: بَنُو سَلِمْةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْأَوْسِ، وَكَانَا جَنَاحِي الْعَسْكَرِ يَوْمَ أُحُدٍ. وَقِيلَ: هُمُ بَنُو الْحَارِثِ، وَبَنُو الْخَزْرَجِ، وَبَنُو النَّبَيْتِ، وَالنَّبَيْتُ هُوَ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ مِنْ بَنِي الْأَوْسِ. وَمَعْنَى ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾: أَنْ يَجْبُنَا. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾: الْفَشْلُ فِي الْبَدَنِ: هُوَ الْإِعْيَاءُ. وَالْفَشْلُ فِي الرَّأْيِ: هُوَ الْعَجْزُ وَالْحَيْرَةُ وَفَسَادُ الْعَزْمِ. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾:

أي مثبتهما. وقال أبو السعود: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطئة. والجملة اعتراض، ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿هَمَّتْ﴾ أو من ضميره في ﴿تَفْشَلَا﴾ مفيدة لاستبعاد فشلهما أو هَمَّهما به مع كونهما في ولاية الله. وقال الألوسي: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أي ناصرهما. والجملة اعتراض، وجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿هَمَّتْ﴾، أو من ضميره في ﴿تَفْشَلَا﴾ مفيدة لاستبعاد فشلهما أو هَمَّهما مع كونهما في ولاية الله. وقال السعدي: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أي بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم، وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن تَوَلَّيه هُما: أحما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما؛ لما معهما من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٥٧]. وقال العثيمين: ﴿هَمَّتْ﴾: الهم يُطلق على مجرد حديث النفس، يعني أنَّ الإنسان قد يهَمُّ يحدث نفسه هل يفعل أو لا يفعل، يقال: هذا هم. ويطلق الهم على العزم المصمم الذي ينقذ إن لم يوجد مانع. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: هذه ولاية خاصة. وولاية الله تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة، فالولاية التي بمعنى تدبير الشؤون هذه ولاية عامة، والتي بمعنى العناية، يعني التي تقتضي العناية هذه ولاية خاصة؛ لأن الإنسان إذا همَّ بمعصية ثم حصل له من عند الله ما يمنعه منه فهذه ولاية خاصة لا شك، كثيرا ما يهَمُّ الإنسان بفعل ذنب فيجد في قلبه انحلالا عن هذه الهمة وعدولا عنها، هذه ولاية من الله، أو أحيانا يهَمُّ بترك واجب فيقيض الله له من يعينه عليه حتى يفعل، هذا أيضا ولاية خاصة، فهاتان القيلتان لما هَمَّتَا تَوَلَّاهما الله بعنايته فلم تفشلا وبقينا مع الجيش.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: قال الواحدي: التَوَكَّلُ: تَفْعُل، مِنْ وَكَل أمره إلى فلان إذا اعتمد في كفايته عليه ولم يَتَوَلَّه بنفسه. وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يستدفع الإنسان ما يعرض له مِنْ حَزَفٍ ومكروهٍ بالتوكل على الله، وَأَنْ يَصْرِفَ الْجَزَعَ عَنْ نَفْسِهِ بالتوكل عليه سبحانه. وقال ابن الجوزي: التَوَكَّلُ على الله: هُوَ التَّيَقُّنُ بِاللَّهِ. قاله ابن عباس.

وقال بعضهم: هو تفويض الأمر إلى الله ثقةً بحُسن تدبيره. وقال القرطبي: التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ: هُوَ الثِّقَةُ بِاللَّهِ، وَالْإِيْقَانُ بِأَنَّ قَضَاءَهُ مَاضٍ، وَاتِّبَاعُ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي السَّعْيِ فِيمَا لَا بَدَّ مِنْهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَتَحَرُّزٍ مِنْ عَدُوٍّ وَإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِعْمَالِ مَا تَقْتَضِيهِ سُنَّةُ اللَّهِ الْمُعْتَادَةُ. وَهَذَا قَوْلُ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ. وقال أبو السعود: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ وَحْدَهُ دُونَ مَا عَدَاهُ مُطْلَقًا اسْتِقْلَالًا أَوْ اشْتِرَاكًا. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ فَإِنَّهُ حَسْبُهُمْ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ لِلتَّبَرُّكِ وَالتَّغْلِيلِ، فَإِنَّ الْأُلُوهِيَّةَ مِنْ مُوجِبَاتِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَ(الْإِيمَانُ) فِي (الْمُؤْمِنِينَ) لِلْجِنْسِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الطَّائِفَتَانِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ وَصْفَ الْإِيمَانِ مِنْ دَوَاعِي التَّوَكُّلِ وَمُوجِبَاتِهِ. وقال الألوسي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ: أَيُّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ لَا عَلَى غَيْرِهِ كَمَا يُؤْذَنُ بِهِ تَقْدِيمُ الْمُعْمُولِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ لِلتَّبَرُّكِ بِهِ وَالتَّغْلِيلِ. وَ(أَلْ) فِي قَوْلِهِ: (الْمُؤْمِنُونَ) لِلْجِنْسِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الطَّائِفَتَانِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَفِي هَذَا الْعُنْوَانِ: إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ مِنْ مُوجِبَاتِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وَخُذِفَ مُتَعَلِّقُ التَّوَكُّلِ؛ لِتَفْيِيدِ الْعُمُومِ، أَيُّ لِيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ عَزَّ شَأْنُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا سَهْلِهَا وَحَزَنِهَا. وقال القاسمي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ وَحْدَهُ دُونَ مَا عَدَاهُ اسْتِقْلَالًا أَوْ اشْتِرَاكًا. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، فَإِنَّهُ حَسْبُهُمْ. وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَدْفَعَ الْإِنْسَانُ مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ مَكْرُوهِ وَآفَةٍ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَأَنْ يَصْرِفَ الْجَزَعَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ التَّوَكُّلِ. وقال السعدي: فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ، وَأَنَّهُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ تَوَكُّلُهُ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَخُصُوصًا فِي مَوَاطِنِ الشَّدَّةِ وَالْقِتَالِ، فَإِنَّهُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَى التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِرَبِّهِمْ وَالِاسْتِنصَارِ لَهُ، وَالتَّبَرِّيِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، فَبِذَلِكَ يَنْصَرُّهُمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَايَا وَالْحَزَنُ. وقال العثيمين: التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ: هُوَ صَدَقَ الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ بِهِ، وَفَعَلَ السَّبَبَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣):

- مناسبة الآية لما قبلها:

قال ابن عطية: لما أمر الله بالتوكل عليه، ذكر بأمر بدر الذي كان ثمرة التوكل على الله والثقة به.

وقال الثعالبي: لما أمر الله بالتوكل عليه، ذكر بأمر بدر الذي كان ثمرة التوكل على الله سبحانه، والثقة به.

وقال أبو السعود: قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ جملة مستأنفة سيقت؛ لإيجاب الصبر والتقوى بتذكير ما ترتب عليهما من النصر إثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر. وقيل: سيقت لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجب.

وقال القاسمي: لما ذكر تعالى قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر. وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الضعف عدداً وعدداً، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة.

- تفسير الآية:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: بدر: قيل: هو ماء لبني غفار بين مكة والمدينة، وهو اسم لموضع، وعليه الأكترون. وقيل: اسم لبر هناك. وقال الشعيبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدرًا، وبه سمي الموضع، قال الزبير بن بكار: هو بدر بن النضر بن كنانة فسمي باسم صاحبه. وقال الواقدي وغيره: بدر اسم لموضع غير منقول. قال مكّي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: هذا تذكير من الله لنبهه محمد عليه الصلاة والسلام. وللمؤمنين بنصره لهم في بدر، فالمعنى: فكذاك ينصركم فيما بقي. وقال الماوردي: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: قولان: أحدهما: الضعف عن مقاومة العدو. الثاني: قلة العدد وضعف الحال، قال ابن عباس: كان المهاجرين يوم بدر سبعة وسبعين رجلاً، والأنصار مائتين وستة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون ما بين تسعمائة

وَأَلْفٍ. وقال ابن كثير: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: أَي يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ فِي جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَدَمَعَ فِيهِ الشِّرْكَ وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ، هَذَا مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فِيهِمْ فَرَسَانٍ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا، وَالْبَاقُونَ مُشَاةً، لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الْعَدَدِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ الْعَدُوُّ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي سَوَابِغِ الْحَدِيدِ وَالْبَيْضِ، وَالْعِدَّةِ الْكَامِلَةِ وَالْخَيُْولِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْخِلْيِ الرَّائِدِ، فَأَعَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَأَظْهَرَ وَحْيَهُ وَتَنْزِيلَهُ، وَبَيَّضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ، وَأَخْزَى الشَّيْطَانَ وَجِيلَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُثْنِتًا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: أَي قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ. وقال الشوكاني: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ سَبَقَتْ؛ لِتَصْبِيرِهِمْ بِتَذَكِيرٍ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الصَّبْرِ مِنَ النَّصْرِ. ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: أَذِلَّةٌ جَمْعُ قَلَّةٍ، وَمَعْنَاهُ: أَهْمُ كَانُوا بِسَبَبِ قِلَّتِهِمْ أَذِلَّةً، وَهُوَ جَمْعٌ ذَلِيلٍ اسْتُعِيرَ لِلْقَلَّةِ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّةً، بَلْ كَانُوا أَعَزَّةً. وقال الألوسي: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: حَالٌ مِنْ مَفْعُولٍ (صَرَكُم). و(أَذِلَّةٌ): جَمْعُ قَلَّةٍ لِدَلِيلٍ، وَاحْتِيَرٍ عَلَى (ذَلَالَةٍ)؛ لِيَذُلَّ عَلَى قِلَّتِهِمْ مَعَ ذَلَّتِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِهَا عَدَمُ الْعِدَّةِ لَا الذُّلَّ الْمَعْرُوفُ. وقيل: لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُرَادَ الْمَعْنَى الْمَعْرُوفُ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: أَي فِي أَعْيُنِ غَيْرِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَعَزَّةً فِي أَنْفُسِكُمْ. وقال العثيمين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾: الْجُمْلَةُ هَذِهِ مُؤَكَّدَةٌ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: الْأَوَّلُ: الْقَسَمُ الْمَقْدَّرُ. الثَّانِي: (اللام). الثَّالِثُ: (قد)؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: وَاللَّهُ لَقَدْ نَصَرَكَمُ اللَّهُ. والنصر هو أن يجعل الغلبة لهؤلاء على هؤلاء، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْغَلْبَةَ فَقَدْ نَصَرَهُمْ. وللنصر أسباب خمسة: أَوَّلًا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. الثَّانِي: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ. الثَّالِثُ: إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ. الرَّابِعُ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ.

الخامس: النهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (٤١) ﴿[الحجّ].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: قال السمرقندي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: يعني اعرّفوا هذه النعمة، واتقوا الله ولا تعصوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: أي لكي تشكروا الله. وقال ابن الجوزي: أي لِتَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ. وقال ابن كثير: أَي تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ. وقال الألوسي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي بِاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ وَالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ. وَلَمْ يُصْرَحْ بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ؛ اكْتِفَاءً بِمَا سَبَقَ وَمَا لَحِقَ مَعَ الْإِشْعَارِ. عَلَى مَا قِيلَ. بِشَرَفِ التَّقْوَى وَأَصَالَتِهَا وَكَوْنِ الصَّبْرِ مِنْ مَبَادِيهَا اللَّازِمَةِ لَهَا. وَفِي تَرْتِيبِ الْأَمْرِ بِهَا عَلَى الْإِخْبَارِ بِالنَّصْرِ: إِعْلَامٌ بِأَنَّ نَصْرَهُمُ الْمَذْكُورَ كَانَ بِسَبَبِ تَقْوَاهُمْ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: أَي لَعَلَّكُمْ تَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ الْقَرِيبِ بِسَبَبِ تَقْوَاكُمْ إِيَّاهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنْ نَيْلِ نِعْمَةٍ أُخْرَى تُوجِبُ الشُّكْرَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَنَالُونَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا، فَوَضَعَ الشُّكْرَ مَوْضِعَ الْإِنْعَامِ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لَهُ وَمُسْتَعِدٌّ إِيَّاهُ. وقال صديق خان: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي في الثبات مع رسول الله ﷺ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: أي ما أنعم عليكم من نصرته. وقال العثيمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: (الفاء) هذه للتفريع، يعني بهذا النصر الذي نصركم الله يجب عليكم أن تتقوا الله، وألا تجعلوا النصر سبباً للأشر والبطر كما يفعله من ليس عنده إيمان؛ إذا انتصر على عدوه جعل هذا سبباً للأشر والبطر، ودخل البلد وهو يغني ويطرب، بل يجعله من نعمة الله، ويتقي الله؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. التقوى: اتّخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: (لعلّ) هنا للتعليل، أي لأجل أن تنالوا شكر الله، أي درجة الشاكرين. والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. أمّا شكر القلب: أن تعتقد بأن هذه النعم من الله فضلاً منه ومنّة، وأنه ليس لك منها إلا فعل السبب الذي

أُذِنَ لَكَ فِيهِ، وَأَمَّا حَقِيقَتُهَا فَهِيَ مِنَ اللَّهِ. وَأَمَّا شُكْرُ اللِّسَانِ: أَنْ تَتَنَبَّأَ بِهِ عَلَى اللَّهِ، لَا أَنْ تَقُولَهَا فَخْرًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، بَلْ تَتَنَبَّأَ فَتَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. وَأَمَّا شُكْرُ الْجَوَارِحِ: أَنْ تَعْمَلَ بِجَوَارِحِكَ بَطَاعَةَ اللَّهِ، وَلَا سِيَّمَا فِيَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ بِخُصُوصِهَا.

• قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ (١٢٤)﴾:

• سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ الْبَغَوِيُّ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: قَالَ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ: إِنِّي أُمِدُّكُمْ بِقُوْمِي، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

• مَنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِلَّتِي قَبْلَهَا:

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ اتِّصَالُهَا بِمَا قَبْلَهَا، وَأَنَّهَا مِنْ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، فَيَكُونُ (إِذْ) مَعْمُولًا لـ ﴿نَصَرَكُمْ﴾.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْجَزَائِرِيُّ: مَا زَالَ السِّيَاقُ فِي تَذْكِيرِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا تَمَّ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ فِي مَوْقِفِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي بَدْرٍ.

• تَفْسِيرُ الْآيَةِ:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾: قَالَ السَّمْعَانِيُّ: الْإِمْدَادُ: هُوَ إِعَانَةُ الْجَيْشِ بِالْجَيْشِ، وَمِنْهُ: الْمَدَدُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾: الْكَافِيَةُ: مِقْدَارُ سَدِّ الْحَلَّةِ. وَالْإِكْتِفَاءُ: الْإِفْتِصَارُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿أَنْ يُدْعِيَكُمْ﴾: الْإِمْدَادُ: إِعْطَاءُ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ حَصَلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ بَيَانُ الْعَامِلِ فِي (إِذْ)، فَإِنْ قُلْنَا: هَذَا الْوَعْدُ حَصَلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ الْعَامِلُ فِي (إِذْ) قَوْلُهُ: ﴿نَصَرَكُمْ اللَّهُ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: إِذْ

نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ حَصَلَ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ ذَلِكَ بَدَلًا ثَانِيًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾. إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَتَقُولُ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْكَلْبِيِّ، وَالْوَاقِدِيِّ، وَمُقَاتِلٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ: الْحُجَّةُ الْأُولَى: أَنَّ يَوْمَ بَدْرِ إِنَّمَا أَمَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ٩]، فَكَيْفَ يَلِيقُ مَا ذُكِرَ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَخَمْسَةُ آلَافٍ يَوْمَ بَدْرِ؟ الْحُجَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرِ أَلْفًا أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ، وَالْمُسْلِمُونَ كَانُوا عَلَى الثُّلُثِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرِ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَصَارَ عَدَدُ الْكُفَّارِ مُقَابِلًا بِعَدَدِ الْمَلَائِكَةِ مَعَ زِيَادَةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا جَرَمَ وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْكُفَّارِ، فَكَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ أَلْفًا، وَعَدَدُ الْكُفَّارِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، فَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الثُّلُثِ مِنْ عَدَدِ الْكُفَّارِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، كَمَا فِي يَوْمَ بَدْرِ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يُنْزَلَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِيَصِيرَ عَدَدُ الْكُفَّارِ مُقَابِلًا بِعَدَدِ الْمَلَائِكَةِ مَعَ زِيَادَةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَصِيرُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَهْزِمُوهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ كَمَا هَزَمُوهُمْ يَوْمَ بَدْرِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّلَاثَةَ آلَافٍ خَمْسَةَ آلَافٍ؛ لِتَزْدَادَ قُوَّةَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَيُزُولَ الْخَوْفُ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا يَحْصُلُ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ هَذَا الْوَعْدَ إِنَّمَا حَصَلَ يَوْمَ أُحُدٍ. الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَيَأْتِيُوكُمْ مِنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وَالْمِرَادُ: وَيَأْتِيُوكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ مِنْ قَوَرِهِمْ، وَيَوْمَ أُحُدٍ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانَ يَأْتِيهِمُ الْأَعْدَاءُ، فَأَمَّا يَوْمَ بَدْرِ فَلَا أَعْدَاءَ مَا أَتَوْهُمْ، بَلْ هُمْ ذَهَبُوا إِلَى الْأَعْدَاءِ. فَإِنْ قِيلَ: لَوْ جَرَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فِي يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ إِنَّهُ مَا حَصَلَ هَذَا الْإِمْدَادُ لَزِمَ الْكَذِبُ. وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ إِنْزَالَهُ خَمْسَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَانَ مَشْرُوطًا بِشَرْطِ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَّقُوا فِي الْمَغَانِمِ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا وَلَمْ يَتَّقُوا فِي الْمَغَانِمِ، بَلْ

خَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا فَاتَ الشَّرْطُ فَاتَ الْمَشْرُوطُ، وَأَمَّا إِنْزَالُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَإِنَّمَا وَعَدَ الرَّسُولُ بِذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَوَّأَهُمْ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَأَمَرَهُم بِالسُّكُونِ وَالثَّبَاتِ فِي تِلْكَ الْمَقَاعِدِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا وَعَدَهُمْ بِهَذَا الْوَعْدِ بِشَرْطِ أَنْ يَتَّبِعُوا فِي تِلْكَ الْمَقَاعِدِ، فَلَمَّا أَهْمَلُوا هَذَا الشَّرْطَ لَمْ يَحْصُلِ الْمَشْرُوطُ. الْوَجْهُ الثَّانِي فِي الْجَوَابِ: لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَا نَزَلَتْ، رَوَى الْوَاقِدِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا، وَرَوَى "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى اللِّوَاءَ مُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ، فَقُتِلَ مُصْعَبٌ، فَأَخَذَهُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ مُصْعَبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَقَدَّمَ يَا مُصْعَبُ، فَقَالَ الْمَلَكُ: لَسْتُ بِمُصْعَبٍ، فَعَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ مَلَكٌ أَمَدَّ بِهِ"، وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ قَالَ: "كُنْتُ أَرْمِي السَّهْمَ يَوْمَئِذٍ فَيَرُدُّهُ عَلَيَّ رَجُلٌ أَبْيَضُ حَسَنُ الْوَجْهِ وَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ"، فَهَذَا مَا نَقُولُهُ فِي تَفْصِيلِ هَذَا الْوَجْهِ. إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: نَظُمُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ قِصَّةَ أُحُدٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أَيِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَوَكُّلُهُمْ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ فَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَكَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ النُّصْرَةِ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا أَعَادَ الْكَلَامَ إِلَى قِصَّةِ أُحُدٍ فَقَالَ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِمَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ كَانَ يَوْمَ بَدْرِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَاحْتَجُّوا عَلَى صِحَّتِهِ بِوُجُوهِ. الْحُجَّةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ كَذَا وَكَذَا، فَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُمْ بِبَدْرِ حِينَمَا قَالَ الرَّسُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْكَلَامَ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ هَذَا الْكَلَامَ يَوْمَ بَدْرِ. الْحُجَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ قِلَّةَ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ كَانَتْ يَوْمَ بَدْرِ أَكْثَرَ وَكَانَ الْإِخْتِيَاغُ إِلَى تَقْوِيَةِ الْقَلْبِ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَكْثَرَ، فَكَانَ صَرَفُ هَذَا الْكَلَامِ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْلَى. الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْوَعْدَ بِإِنْزَالِ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَانَ مُطْلَقًا غَيْرَ مَشْرُوطٍ بِشَرْطٍ، فَوَجِبَ أَنْ يَحْصُلَ، وَهُوَ إِنَّمَا حَصَلَ يَوْمَ بَدْرِ لَا يَوْمَ

أُحَدِّثُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُمْ نَزَّلُوا لِكَنَّهُمْ مَا قَاتَلُوا؛ لِأَنَّ الْوَعْدَ كَانَ بِالْإِمْدَادِ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمُجَرَّدِ الْإِنْزَالِ لَا يَحْصُلُ الْإِمْدَادُ بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِعَانَةِ، وَالْإِعَانَةُ
حَصَلَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَلَمْ تَحْصُلْ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَجَابُوا عَنْ دَلَائِلِ الْأَوَّلِينَ
فَقَالُوا: أَمَّا الْحُجَّةُ الْأُولَى: وَهِيَ قَوْلُكُمْ: الرَّسُولُ ﷺ إِنَّمَا أَمَدَّ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.
فَالْجَوَابُ عَنْهَا: مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى أَمَدَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ ﷺ بِأَلْفٍ ثُمَّ زَادَ فِيهِمْ
أَلْفَيْنِ فَصَارُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ، ثُمَّ زَادَ أَلْفَيْنِ آخَرِينَ فَصَارُوا خَمْسَةَ آلَافٍ، فَكَأَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - قَالَ لَهُمْ: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَقَالُوا: بَلَى، ثُمَّ قَالَ:
أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ؟ فَقَالُوا: بَلَى، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا
يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ، وَهُوَ كَمَا رَوَى أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: "أَيَسِّرْكُمْ أَنْ تَكُونُوا
رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أَيَسِّرْكُمْ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ:
فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" رواه الشيخان. الْوَجْهُ الثَّانِي فِي الْجَوَابِ: أَنَّ أَهْلَ
بَدْرٍ إِنَّمَا أُمِدُّوا بِأَلْفٍ عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، ثُمَّ بَلَغَهُمْ أَنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ
يُرِيدُ إِمْدَادَ قُرَيْشٍ بِعَدَدٍ كَثِيرٍ فَخَافُوا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِقَلَّةِ عَدَدِهِمْ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ
الْكُفَّارَ إِنْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ فَأَنَا أُمَدِّدْكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ قُرَيْشًا ذَلِكَ
الْمَدَدُ، بَلْ انْصَرَفُوا حِينَ بَلَغَهُمْ هَزِيمَةُ قُرَيْشٍ، فَاسْتَعْنَى عَنْ إِمْدَادِ الْمُسْلِمِينَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى
الْأَلْفِ. وَأَمَّا الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ أَلْفًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ أَلْفًا مِنَ
الْمَلَائِكَةِ وَيَوْمَ أُحُدٍ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ. فَالْجَوَابُ: إِنَّهُ تَقْرِيبٌ حَسَنٌ،
وَلَكِنَّهُ لَا يُوجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ قَدْ يُرِيدُ وَقَدْ يُنْقِصُ فِي الْعَدَدِ بِحَسَبِ
مَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: وَهِيَ التَّمَسُّكُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيَكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾. فَالْجَوَابُ عَنْهُ:
أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ قَدْ تَعَرَّضُوا لِلْعِيرِ ثَارَ الْغَضَبُ فِي قُلُوبِهِمْ
وَاجْتَمَعُوا وَقَصَدُوا النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ خَافُوا فَأَحْبَرَهُمُ اللَّهُ: أَنَّهُمْ إِنْ
يَأْتِيَكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. فَهَذَا حَاصِلُ مَا قِيلَ فِي تَقْرِيرِ

هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: دَخَلَتْ أَدَاةُ الْإِسْتِفْهَامِ عَلَى حَرْفِ النَّفْيِ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ؛ لِإِثْنَاءِ الْكِفَايَةِ بِهَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَكَانَ حَرْفُ النَّفْيِ (لَنْ) الَّذِي هُوَ أَبْلَغُ فِي الْإِسْتِثْبَالِ مِنْ (لَا)؛ إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ كَانُوا لِقَلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ كَالْأَيْسِينَ مِنَ النَّصْرَةِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: تَلْوِينٌ لِلْخِطَابِ بِتَخْصِيصِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ لِتَشْرِيفِهِ وَالْإِيْذَانِ بِأَنَّ وَقُوعَ النَّصْرِ كَانَ بِإِشَارَتِهِ. عَلَيْهِ السَّلَامُ .. وَ﴿إِذْ ظُرِفَ لِنَصْرِكُمْ﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى؛ لِإِظْهَارِ كَمَالِ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْوَقْتُ الْمُمْتَدُّ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مَا ذُكِرَ بَعْدَهُ وَمَا طُوِيَ ذِكْرُهُ تَعْوِيلًا عَلَى شَهَادَةِ الْحَالِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَجُودُ النَّصْرِ. وَصِبْغَةُ الْمُضَارِعِ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ؛ لِاسْتِحْضَارِ صُورَتِهَا، أَيْ نَصْرِكُمْ وَقْتَ قَوْلِكَ. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيْ حِينَ أَظْهَرُوا الْعَجْزَ عَنِ الْمَقَاتِلَةِ. ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ الْكِفَايَةُ: سَدُّ الْخَلَّةِ وَالْقِيَامُ بِالْأَمْرِ. وَالْإِمْدَادُ فِي الْأَصْلِ: إِعْطَاءُ الشَّيْءِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ. قَالَ الْمُفَضَّلُ: مَا كَانَ مِنْهُ بِطَرِيقِ التَّقْوِيَةِ وَالْإِعَانَةِ يُقَالُ فِيهِ: أَمَدُهُ يُمَدُّهُ إِمْدَادًا، وَمَا كَانَ بِطَرِيقِ الزِّيَادَةِ يُقَالُ فِيهِ: مَدَّهُ يُمَدُّهُ مَدًّا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرُ يُمَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. وَقِيلَ: الْمَدُّ فِي الشَّرِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُمَدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾. وَالْإِمْدَادُ فِي الْخَيْرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]. وَالتَّعَرُّضُ لِعُنْوَانِ الرِّبَوِيَّةِ مَعَ الْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ؛ لِإِظْهَارِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ وَالْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ الْإِمْدَادِ. وَالْمَعْنَى: إِنْكَارُ عَدَمِ كِفَايَةِ الْإِمْدَادِ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ وَنَفْيُهُ. وَكَلِمَةُ (لَنْ)؛ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا حِينَئِذٍ كَالْأَيْسِينَ مِنَ النَّصْرِ؛ لِضَعْفِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ وَكَثْرَتِهِمْ. ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾: بَيَانٌ، أَوْ صِفَةٌ لِآلَافٍ، أَوْ لِمَا أُضِيفَ إِلَيْهِ، أَيْ كَائِنِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. ﴿مُنْزَلِينَ﴾: صِفَةٌ لِثَلَاثَةِ آلَافٍ. وَقِيلَ: حَالٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾: أَيْ لِتَقْوِيَتِكُمْ وَنَصْرِكُمْ وَدَفْعِ أَعْدَائِكُمْ. ﴿ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ مِنْ سَمَائِهِ لِقِتَالِ أَعْدَائِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَظُرِفَ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ زَمَانِيٌّ

وهو مُتَعَلِّقٌ بِ (نَصَرَكُمْ) لِأَنَّ الْوَعْدَ بِنَصْرِهِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ لَا يَوْمَ أُحُدٍ. هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. وَحُصِّنَ هَذَا الْوَقْتُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَقْتُ ظُهُورِ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ وَهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَكَانَ جَدِيرًا بِالتَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ. وَالْمَعْنَى: إِذْ تَعَدُّ الْمُؤْمِنِينَ بِإِمْدَادِ اللَّهِ بِالْمَلَائِكَةِ، فَمَا كَانَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ تِلْكَ الْمَقَالَةَ إِلَّا بِوَعْدِ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَقُولَهُ. وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ تَقْرِيرِيٌّ، وَالتَّقْرِيرِيُّ يَكْثُرُ أَنْ يُورَدَ عَلَى النَّفْيِ. وَإِنَّمَا جِيءَ فِي النَّفْيِ بِحَرْفِ (لَنْ) الَّذِي يُفِيدُ تَأْكِيدَ النَّفْيِ؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ لِقَلَّتِهِمْ، وَضَعْفِهِمْ، مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَشَوْكَتِهِ، كَالْآيِسِينَ مِنْ كِفَايَةِ هَذَا الْمَدَدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَأَوْقَعَ الْإِسْتِفْهَامَ التَّقْرِيرِيَّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ تَلْقِينًا لِمَنْ يُخَالِجُ نَفْسَهُ الْيَأْسُ مِنْ كِفَايَةِ ذَلِكَ الْعَدَدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِأَنْ يُصَرِّحَ بِمَا فِي نَفْسِهِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ لَازِمُهُ، وَهَذَا إِثْبَاتُ أَنَّ ذَلِكَ الْعَدَدَ كَافٍ. وَوَصَفَ الْمَلَائِكَةَ بِ(مُنْزَلِينَ)؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ إِلَى الْأَرْضِ فِي مَوْقِعِ الْقِتَالِ عِنَايَةً بِالْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿إِذْ﴾: هَذِهِ ظَرْفٌ، وَالْقَاعِدَةُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: أَنَّ الظَرْفَ وَالْجَارَ وَالْمَجْرُورَ لَا يَدَّ لَهُ مِنْ مُتَعَلِّقٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الظَرْفَ وَالْجَارَ وَالْمَجْرُورَ يَقَعَانِ مَوْقِعَ الْمَفْعُولِ بِهِ، وَمَا كَانَ وَاقِعًا مَوْقِعَ الْمَفْعُولِ بِهِ فَلَا يَدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ يَكُونُ وَاقِعًا عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ إِذَا قُلْنَا: إِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى مُتَعَلِّقٍ فَأَيْنَ مُتَعَلِّقُهَا؟ قِيلَ: إِنَّ مُتَعَلِّقُهَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾: بِبَدْرِ نَصَرَكُمْ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنْ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهَا بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وَالتَّقْدِيرُ: إِذْ غَدَوْتَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا أَقْرَبُ. ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: الْخُطَابُ فِيهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا مِنَ الْخُطَابِ الْخَاصِّ بِهِ الَّذِي لَا يَتَعَدَّى إِلَى الْأُمَّةِ. وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الْخُطَابَاتِ الْمَوْجَّهَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهِ، فَهُوَ خَاصٌّ بِهِ، مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٣٧]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّارْحُ: ١]، وَكَقَوْلِهِ

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وإن كان الأمة يجب عليها التبليغ من جهة أخرى. القسم الثاني: ما دلّ الدليل فيه على العموم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، هذا واضح أنه عام؛ لأنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، فوجه الخطاب أولاً للنبي ﷺ ثم عمّم في الحكم فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾. القسم الثالث: ما لم يدلّ الدليل عليه لا هذا ولا هذا، فهو عام، حكمه عام، لكن هل الخطاب عام من حيث اللفظ أو لا؟ الذي يظهر أنه عام حتى من حيث اللفظ؛ وذلك لأن الخطاب للإمام خطاب لمن تبعه؛ ولهذا لو قال الوزير مثلاً للقائد: اذهب إلى الجهة الفلانية، كان ذلك خطاباً له ولمن كان تحت إمرته. كذلك الخطاب إذا وُجّه إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولم يدلّ الدليل على أنه خاصّ به فهو شامل له وللاّمة جميعاً. وقال بعض العلماء: إنه لا يشمل الأمة، وإنّ الخطاب له وحده، ولكن على الأمة الاتّباع. وإذا تأملتم وجدتم أنّ الخلاف قريب من اللفظ؛ لأنهم متفقون على أنّ الحكم عام، لكن هل الأمة تدخل في ضمن هذا الخطاب أو تدخل بـخطاب آخر؛ لأنها مأمورة بالاتباع؟ هذا محلّ الخلاف. والحقيقة: أنك إذا تأملتّه وجدت أنه قريب من الخلاف اللفظي. وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بهم الصحابة رضي الله عنهم، ووصفهم بالإيمان دون الصحبة لأن الوصف بالإيمان هو مناط النصر في كلّ وقت، حتى فيما بعد الصحابة، فإنّ الله ينصر الذين آمنوا. ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ هذه مقول القول، أي إذ تقول لهم هذا الكلام: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾. قال أهل العلم: إنّ الصحابة رضي الله عنهم بلغهم أنّ المشركين صار بعضهم يمدّ بعضاً على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم الرسول: ألن يكفيكم، أي ألن يكون كافياً لكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة؟! والملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور، ووجّه لهم عبادات وأعمالاً يقومون بها، لا يعصون الله فيها ويفعلون ما يؤمرون، فليس عندهم استكبار تكون به المعصية، وليس عندهم عجز يكون به تخلف الفعل، بل هم سامعون

مطيعون قادرون على تنفيذ أمر الله، بخلاف البشر، فإنه يكون عندهم استكبار فيعصون الله، ويكون عندهم عجز فلا يقدرّون على تنفيذ أمر الله، أمّا الملائكة فعندهم قوة لا يعجزون عن امتثال أمر الله، وعندهم انقياد تامّ، فلا يعصون الله.

• قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾:

• مناسبة الآية التي قبلها:

قال القاسمي: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم..﴾ إمّا من تنمّة مقوله ﷺ للمؤمنين، أو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ تأييداً لقول نبيّه وزيادةً على ما وعدهم تكرّماً وفضلاً.

• تفسير الآية:

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: قال البغوي: ﴿بلى﴾ نمدّكم. ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ لعدوّكم. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفةً نبيّكم. فصبروا يوم بدرٍ فاتقوا فأمدّهم الله بخمسة آلافٍ كما وعد. وقال الرازي: (بلى) إيجابٌ لما بعد (لن)، يعني بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية، ثمّ قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: يعني والمشركون يأتوكم من فوْرِهِمْ هَٰذَا يمدّدكم ربّكم بأكثر من ذلك العدد وهو خمسة آلافٍ، فجعل محييء خمسة آلافٍ من الملائكة مشروطة بثلاثة أشياء: الصبر، والتّقوى، ومحْيِ الكُفّار على الفور، فلما لم توجد هذه الشرائط لم يوجد المشروط. وقال ابن كثير: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾: يعني تصبروا على مصابرة عدوّكم، وتتقوني وتطيعوا أمري. وقال البقاعي: ﴿بلى﴾: أي يكفيكم ذلك، ثمّ استأنف قوله: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: أي توقعوا الصبر والتّقوى لله ربّكم، فتفعّلوا ما يُرضيه، وتنتهوا عمّا يُسخطّه. وقال الألوسي: ﴿بلى﴾ إيجابٌ لما بعد (لن): أي بلى (يكفيكم) ذلك، ثمّ وعدهم الزيادة بالشرط فقال سبحانه: ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ على مَضَضِ الجهاد وما أُمِرْتُمْ به. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ربّكم بالاجتناب عن معاصيه وعدم

المخالفة له. وقال القاسمي: ﴿بلى﴾: إما من تيمّة مقوله ﷺ للمؤمنين، أو ابتداء خطاب من الله؛ تأييداً لقول نبيه وزيادةً على ما وعدهم؛ تكثرماً وفضلاً، أي نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف، ولكنه يزيدكم ﴿إن تصبروا﴾ على قتلهم، ﴿وتتقوا﴾ الفرار عنهم. وقال ابن عاشور: ولأجل كون الاستفهام غير حقيقي كان جوابه من قبل السائل بقوله: ﴿بلى﴾؛ لأنه بما لا تسع المماراة فيه، فكان قوله: ﴿بلى﴾ إنطالاً للنفي وإثباتاً لكون ذلك العدد كافياً، وهو من تمام مقالة النبي ﷺ للمؤمنين.

﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾: قال البغوي: ﴿ويأتوكم﴾ يعني المشركين. وقال ابن كثير: ﴿من فورهم هذا﴾: قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسدي: أي من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أي من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العوفي عن ابن عباس: من سقرهم هذا. وقال الشوكاني: أصل الفور: القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجِدٍّ، وهو من قولهم: فارت القدرُ تفورُ فوراً وفوراناً: إذا غلت، والفور: الغليان، وفار غضبه: إذا جاش وفعله من فوره، أي قبل أن يسكن، والفوّارة: ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أي إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخّر عن ذلك. وقال الألوسي: ﴿ويأتوكم﴾: أي المشركون، أو أصحاب كُزُرٍ كما قال الشعبي. ﴿من فورهم هذا﴾: أصل الفور مصدر من فارت القدر إذا اشتد غليانها، ومنه أن شدّة الحرّ من فور جهنّم، ويطلق على الغضب؛ لأنه يشبه فور القدر وعلى أول كلّ شيء، ثم إنّه استعير للسرعة، ثم أطلق على الحال التي لا بؤء فيها ولا تراخي، والمعنى: ويأتوكم في الحال. ووصف بهذا؛ لتأكيد السرعة بزيادة التعيين والتقريب ونظم إتيانهم بسرعة في سلك شراطي الإمداد ومدارتيه مع تحقّق الإمداد لا محالة أسرعوا أو أبطأوا؛ إيداناً بتحقيق سرعة الإمداد لا لتحقيق أصله، أو لبيان تحقّقه على أيّ حال فرض على أبلغ وجهه وأكدّه، حيث علّقه بأبعد التقادير؛ ليعلّم تحقّقه على سائرها بالأولى، فإنّ هجوم الأعداء بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادةً،

فَمَتَى عُلِّقَ بِهِ تَحَقُّقُ الْإِمْدَادِ مَعَ مُنَافَاتِهِ لَهُ أَفَادَ تَحَقُّقَهُ لَا مُحَالَةَ مَعَ مَا هُوَ غَيْرُ مُنَافٍ لَهُ كَذَا قِيلَ. وَرُبَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ: أَنَّ الْإِمْدَادَ الْمُرْتَبَّ عَلَى الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ وَقَعَ لَهُمْ، وَفِي ذَلِكَ تَرْدِيدٌ وَتَرَدُّدٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ إِنْ كَانَ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ فَلَا شُبْهَةَ فِي عَدَمِ وَقُوعِ ذَلِكَ وَلَا بِمَلَكٍ وَاحِدٍ؛ لِعَدَمِ وَقُوعِ الشَّرْطِ؛ وَلِذَا وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ، وَإِنْ كَانَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كَمَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ، فَقَدْ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ فِي أَهَمِّ أُمْدُؤَا يَهْدِيهِ الْخَمْسَةِ الْآلَافِ أَوْ لَا، فَذَهَبَ الشَّعْبِيُّ: إِلَى أَنَّهُمْ أُمْدُؤُوا بِغَيْرِهَا وَلَمْ يُمْدُؤُوا بِهَا؛ بِنَاءً عَلَى تَعْلِيلِ الْإِمْدَادِ بِهَا بِمَجْمُوعِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ الصَّبْرُ، وَالتَّقْوَى، وَإِيتَاءُ أَصْحَابِ كُرْزٍ، وَقَدْ فَقَدَ الْأَمْرَ الثَّالِثُ كَمَا نَقَلْنَاهُ أَوَّلًا، فَلَمْ يُوجَدْ الْمَجْمُوعُ؛ لِانْعِدَامِهِ بِانْعِدَامِ بَعْضِ أَجْزَائِهِ، فَلَمْ يُوجَدْ الْإِمْدَادُ الْمَذْكُورُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الشَّعْبِيُّ، نَعَمْ ذَهَبَ جَمْعٌ إِلَى خِلَافِهِ، وَلَعَلَّهُ مَبْنَى صَاحِبِ الْقِيلِ، لَكِنْ يَبْقَى: أَنَّ تَفْسِيرَ الْقَوْرِ بِمَا فُسِّرَ بِهِ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ، بَلْ لَمْ يُوجَدْ صَرِيحًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ، وَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ مَوْلَى أُمِّ هَانِيٍّ: أَنَّهُ بِمَعْنَى الْعَضَبِ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ (مِنْ) لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَيْ يَأْتِيُكُمْ بِسَبَبِ عَضَبِهِمْ عَلَيْكُمْ، وَالْإِشَارَةُ (هَذَا): إِمَّا لِتَعْظِيمِ ذَلِكَ الْعَضَبِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَدِيدٌ وَمُتَمَكِّنٌ فِي الْقُلُوبِ، وَإِمَّا لِتَحْقِيرِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ وَالطَّرِيقِ الْمُخْمُودِ، فَإِنَّهُ إِمَّا كَانَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَتَسْفِيهِ آرَائِهِمْ وَذَمِّ آلِهِتِهِمْ، أَوْ عَلَى مَا أَوْقَعُوا فِيهِمْ وَحَطَّمُوا رُءُوسَ رُؤَسَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَإِلَى الثَّانِي ذَهَبَ عِكْرِمَةُ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَقَعَ فِي أَحَدٍ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَيَأْتِيُكُمْ مِنْ قَوْرِهِمْ هَذَا﴾: أَيْ سَاعَتِهِمْ هَذِهِ، فَلَا تَنْزَعُجُوا بِمُقَاجَأَتِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الضَّمِيرَانِ: الْمَرْفُوعُ وَالْمَجْزُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيُكُمْ مِنْ قَوْرِهِمْ﴾ عَائِدَانِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ جَرَى الْكَلَامُ عَلَيْهِمْ، كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَعَلَى هَذَا حَمَلَهُ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ. وَعَلَيْهِ فَمَوْقِعُ قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيُكُمْ﴾ مَوْقِعٌ وَعَدٍ، فَهُوَ فِي الْمَعْنَى مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾، وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَرَدَ بَعْدَهُ، وَلَكِنَّهُ قُدِّمَ عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ تَعْجِيلًا لِلطَّمَأْنِينَةِ إِلَى نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُ تَقْدِيمُهُ مِنْ تَقْدِيمِ الْمَعْطُوفِ عَلَى

المعطوف عليه. وجعل جمع من المفسرين ضميري الغيبة في قوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ عائدين إلى طائفة من المشركين، بلغ المسلمين أنهم سيُمْدَدُونَ جيش العدو يوم بدر، وهم كُرُز بن جابر المحاربي ومن معه، فشق ذلك على المسلمين وخافوا، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وعليه درج الكشف ومتابعوه. فيكون معاذ الضميرين غير مذكور في الكلام، ولكنه معلوم للناس الذين حضروا يوم بدر، وحينئذ يكون ويأتوك معطوفاً على الشرط، أي إن صبرتم واتقيتم وأتاكم كُرُز وأصحابه يُعَاوَنُونَ المشركين عليكم يمددكم ربكم بأكثر من ألف ومن ثلاثة آلاف بخمسة آلاف، قالوا: فبلغت كُرُزاً وأصحابه هزيمة المشركين يوم بدر فعُدل عن إمدادهم، فلم يمدَّهُم الله بالملائكة، أي بالملائكة الزائدين على الألف. وقيل: لم يمدَّهُم بملائكة أصلاً، والآثار تشهد بخلاف ذلك. ومعنى ﴿مِنْ قُوَرِهِمْ هَذَا﴾: المبادرة السريعة، فإن القور المبادرة إلى الفعل. وإضافته القور إلى ضمير الآتين؛ لإفادة شدة اختصاص القور بهم، أي شدة اتصافهم به حتى صار يُعرف بأنه قورهم، ومن هذا القليل قوهم: خرج من قوره. و(من) لا ابتداء الغاية. والإشارة بقوله: (هذا) إلى القور؛ تنزيلاً له منزلة المشاهد القريب، وتلك كناية أو استعارة لكونه عاجلاً.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: قال مكِّي: ثم لم يأت كُرُز بن جابر، ولم يمددهم الله بخمسة آلاف. وقال ابن عطية: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أي هم قد أعلموا أنفسهم بعلامة وأعلموا خيلهم. وقال كثير من أهل التفسير: أي هم قد سَوَّموا خيلهم، أي أعطوها سَوْمَهَا مِنَ الْجَزْيِ وَالْقِتَالِ وَالْإِخْضَارِ فَهِيَ سَائِمَةٌ. وقال ابن الجوزي: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أي أن الملائكة سَوَّمتْ أنفسها. وقال الأخفش: سَوَّمتْ خيلها. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم بدر: "تَسَوِّمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَوَّمتْ" قال ابن حجر: حديث مرسل، ونسب الفعل إليها، فهذا دليل الكسر. قال ابن قتيبة: ومعنى مُسَوِّمِينَ: مُعَلِّمِينَ بِعَلَامَةِ الْحَرْبِ، وهو من السِّمَاءِ مَأْخُودٌ. والسَّوْمَةُ: العَلَامَةُ الَّتِي يُعَلِّمُ بِهَا الْفَارِسُ نَفْسَهُ. قال عليّ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وَكَانَ سِيْمَاءُ خَيْلِ الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ،

الصُّوفُ الأَبْيَضُ فِي أَذْنَاهَا وَنَوَاصِيهَا". وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "العَهْنُ الأَحْمَرُ". وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
 "كَانَتْ أَذْنَابُ حُيُوهُمْ مَجْزُورَةً، وَفِيهَا الْعَهْنُ". وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ: "كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ
 عَلَى حَيْلٍ بَلَقٍ، وَعَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٌ". وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ قَالَ:
 "حَضَرْتُ أَنَا وَابْنُ عَمِّ لِي بَدْرًا، وَنَحْنُ عَلَى شِرْكِنَا، فَأَقْبَلَتْ سَحَابَةٌ، فَلَمَّا دَنَتْ مِنَ الْحَيْلِ
 سَمِعْنَا فِيهَا حَمَمَةَ الْحَيْلِ، وَسَمِعْنَا فَارِسًا يَقُولُ: أَقْدُمْ حَيْزُومُ، فَأَمَّا صَاحِبِي فَمَاتَ مَكَانَهُ،
 وَأَمَّا أَنَا فَكِدْتُ أَهْلَكَ، ثُمَّ انْتَعَشْتُ". وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الْمَازِنِيُّ: "إِنِّي لَأَتَّبِعُ يَوْمَ بَدْرِ رَجُلًا
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَضْرِبَهُ، فَوَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّ غَيْرِي قَدْ قَتَلَهُ".
 وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ مُحَدِّقَةٍ أَعْرَافُهَا، مُعَلِّمَةً نَوَاصِيهَا بِالصُّوفِ
 الأَبْيَضِ فِي أَذْنَابِ الْحَيْلِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَتَتْ الْمَلَائِكَةُ مُحَمَّدًا ﷺ
 مُسَوِّمِينَ بِالصُّوفِ، فَسَوَّمُ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْفُسَهُمْ وَحَيْلَهُمْ عَلَى سِيَمَاهُمْ بِالصُّوفِ. وَقَالَ
 عِكْرَمَةُ، وَقَتَادَةُ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أَيُّ بِسِيمَا الْقِتَالِ، وَقَالَ مَكْحُولٌ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بِالْعَمَائِمِ.
 وَقَالَ الْبُقَاعِيُّ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أَيُّ مُعَلِّمِينَ بِمَا يُعْرَفُ بِهِ مَقَامُهُمْ فِي الْحَرْبِ. وَالظَّاهِرُ مِنَ
 التَّعْيِيرِ بِالتَّسْوِيمِ: إِفْهَامُ الْقِتَالِ، وَمِنْ الْإِقْتِصَارِ عَلَى الْإِنْزَالِ: عَدَمُهُ، وَيَكُونُ فَائِدَةً نُزُولُهُمْ:
 الْبَرَكَةُ بِهِمْ، وَإِرْهَابُ الْكُفَّارِ بِمَنْ يَرَوْنَهُ مِنْهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: "لَمْ يُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ
 فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَّا يَوْمَ بَدْرِ، وَفِيهَا سِوَى ذَلِكَ يَشْهَدُونَ الْقِتَالَ وَلَا يُقَاتِلُونَ، إِنَّمَا يَكُونُونَ عَدَدًا
 وَمَدَدًا". وَقَالَ الشُّوكَايِيُّ: قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أَيُّ مُرْسِلِينَ حَيْلَهُمْ فِي
 الْغَارَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ اعْتَمَّتْ بِعَمَائِمٍ بَيْضٍ، وَقِيلَ: حُمْرٍ، وَقِيلَ: خُضْرٍ، وَقِيلَ: صُفْرٍ،
 فَهَذِهِ هِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي عَلَّمُوا بِهَا أَنْفُسَهُمْ، حُكِيَ ذَلِكَ عَنِ الرَّجَّاجِ، وَقِيلَ: كَانُوا عَلَى
 حَيْلٍ بُلُقٍ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْإِمْدَادَ وَقَعَ تَدْرِيجًا فَكَانَ أَوَّلًا
 بِأَلْفٍ ثُمَّ صَارُوا أَلْفَيْنِ ثُمَّ صَارُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ، ثُمَّ صَارُوا خَمْسَةَ آلَافٍ لَا غَيْرَ، فَمَعْنَى
 يُمَدِّدُكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ يُمَدِّدُكُمْ بِتَمَامِ خَمْسَةِ آلَافٍ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْحَسَنُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَانَتْ
 الْمَلَائِكَةُ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ، فَاِلْمَعْنَى: يُمَدِّدُكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ أُخَرَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿يُمَدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ

بِحَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: أَيُّ فِي حَالِ إِيْتَائِهِمْ لَا يَتَأَخَّرُ نُزُولُهُمْ عَنْ إِيْتَائِهِمْ. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أَيُّ مُعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِأَدَاةِ الْحَرْبِ عَلَى عَادَةِ الْفُرْسَانِ يَوْمَ اللَّقَاءِ؛ لِيُعْرِفُوا بِهَا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: مُشْتَقٌّ مِنَ السُّومَةِ، وَتُطْلَقُ السُّومَةُ عَلَى عَلَامَةٍ يَجْعَلُهَا الْبَطْلُ لِنَفْسِهِ فِي الْحَرْبِ مِنْ صُوفٍ أَوْ رِيَشٍ مُلَوَّنٍ، يَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَلَى رَأْسِ فَرَسِهِ، يَرْمِزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَّقِي أَنْ يَعْرِفَهُ أَعْدَاؤُهُ، فَيُسَدِّدُوا إِلَيْهِ سِهَامَهُمْ، أَوْ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ بِسُيُوفِهِمْ، فَهُوَ يَرْمِزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ وَاثِقٌ بِحِمَايَتِهِ نَفْسَهُ بِشَجَاعَتِهِ، وَصِدْقِ لِقَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْبَأُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعَدُوِّ. وَوَصَفُ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ؛ كِنَايَةٌ عَلَى كَوْنِهِمْ شِدَادًا. وَأَحْسَبُ أَنَّ الْأَعْدَادَ الْمَذْكُورَةَ هُنَا مُنَاسِبَةٌ لِجَيْشِ الْعَدُوِّ؛ لِأَنَّ جَيْشَ الْعَدُوِّ يَوْمَ بَدْرِ كَانَ أَلْفًا فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ بِمَدَدِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَلَمَّا خَشَوْا أَنْ يَلْحَقَ بِالْعَدُوِّ مَدَدٌ مِنْ كُرْزِ الْمُحَارِبِيِّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ، أَيُّ بِجَيْشٍ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ كُلُّ رُكْنٍ مِنْهَا أَلْفٌ، وَلَمَّا لَمْ تَنْقَشِ حَشِيَّتُهُمْ مِنْ إِمْدَادِ الْمُشْرِكِينَ لِأَعْدَائِهِمْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِحَمْسَةِ آلَافٍ، وَهُوَ جَيْشٌ عَظِيمٌ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ وَمُقَدِّمَةٌ وَسَاقَةٌ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَمِيسُ، وَهُوَ أَعْظَمُ تَرْكِيبًا، وَجَعَلَ كُلَّ رُكْنٍ مِنْهُ مُسَاوِيًا لِجَيْشِ الْعَدُوِّ كُلِّهِ. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ عَاشُورٍ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: هَذَا الْإِمْدَادُ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ هَلْ هَذَا فِي غَزْوَةِ بَدْرِ أَوْ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، فَإِنْ كَانَ فِي بَدْرِ فَفِيهِ إِشْكَالٌ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَنَّهُ أَمَدَّهُمْ فِي بَدْرِ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وَهَذَا قَالَ: (ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَخَمْسَةُ آلَافٍ)، لَكِنْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ لَهُمْ فَأَمَدَّهُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ زِيدَ فِيهِمْ إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ، ثُمَّ زِيدَ فِيهِمْ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ إِذَا تَمَّتِ الشُّرُوطُ؛ وَبَنَاءً عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ(نَصَرَ). الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ وَلَيْسَتْ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي بَدْرِ كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا غَيْرَ مُشْرُوطٍ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وَهَذِهِ مُشْرُوطَةٌ، وَلَمْ يَحْصُلِ الشَّرْطُ فَلَمْ يَحْصُلِ الْمَشْرُوطُ، أَيُّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ

في غزوة أحد لم يحصل منهم الشرط الذي اشترطه الله، وهي التقوى والصبر؛ وذلك لأنهم حصل منهم تنازع وفشل ومعصية، فلم يكونوا على الحال التي يستحقون بها ما شرط الله لهم. وهذا القول أصح وأقرب، وعلى هذا فلا يبقى إشكال بين الآيتين؛ لأن كل آية نزلت في غزوة. ثم إنه يجب أن نعلم أن الذي وعدهم به الرسول - عليه الصلاة والسلام - غير الذي وعدهم الله به، فليس الكلام من متكلم واحد، بل من النبي ﷺ ومن الله، فالرسول قال: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾، والله قال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

● قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لما كان التقدير: (وليس الإمداد بهم موجباً للنصر)، وكان قد قَدَّمَ في أول السورة: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾، قال هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد المذكور. وقال ابن عاشور: يجوز أن تكون جملة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، ويجوز أن يكون (الواو) للعطف، عطفت الإخبار على التذكير والإمتهان.

● تفسير الآية:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: قال القرطبي: (الهاء) للمدح، وهو الملائكة أو الوعد أو الإمداد، ويدل عليه قوله: ﴿يُمِدُّكُمْ﴾، أو للتسويم، أو للإنزال، أو العدد على المعنى؛ لأنَّ خمسة آلاف عدد. وقال أبو حيان: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: الظاهر أن (الهاء) في قوله: ﴿جَعَلَهُ﴾ عائدة على المصدر المفهوم من قوله: ﴿يُمِدُّكُمْ﴾، وهو الإمداد. وجوز أن يعود على التسويم، أو على النصر، أو على التنزيل، أو على

الْعَدَدِ، أَوْ عَلَى الْوَعْدِ. ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾: مُسْتَنْثَى مِنَ الْمَفْعُولِ لَهُ، أَيِّ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِبُشْرَى
إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ. فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ فَرَّغَ لَهُ الْعَامِلُ، وَبُشْرَى مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَشُرُوطُ نَصْبِهِ
مَوْجُودَةٌ، وَهُوَ: أَنَّهُ مَصْدَرٌ، وَمُتَّحِدُ الْفَاعِلِ وَالزَّمَانِ. وَقَالَ الْحَوْثِيُّ: ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ فِي
مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ (الْهَاءِ)، وَهِيَ عَائِدَةٌ عَلَى الْوَعْدِ بِالْمَدَدِ. وَقِيلَ: بُشْرَى
مَفْعُولٌ ثَانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿جَعَلَهُ﴾ اللَّهُ. فَعَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ تَتَعَلَّقُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَطْمَئِنَّ﴾
بِمَحْدُوفٍ؛ إِذْ لَيْسَ قَبْلَهُ عَطْفٌ يُعْطَفُ عَلَيْهَا. قَالُوا: تَقْدِيرُهُ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ بِشَرِّكُمْ.
وَبُشْرَى: فُعْلَى، مَصْدَرٌ كَ(رُجْعَى)، وَهُوَ مَصْدَرٌ مِنْ بَشَرَ الثَّلَاثِيَّ الْمَجْرَدِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ:
أَيُّ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِأَنْزَالِهَا إِلَّا بِشَارَةً لَكُمْ وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا، وَإِلَّا
فَأِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، الَّذِي لَوْ شَاءَ لَأَنْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ، وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى
قِتَالِكُمْ لَهُمْ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي حَيْزِ الْقَوْلِ،
مَسْقُوقٌ مِنْ جَنَابِهِ تَعَالَى؛ لِيَبَانَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الظَّاهِرَةَ بِمَعْرِزٍ مِنَ التَّأْثِيرِ، وَأَنَّ حَقِيقَةَ النَّصْرِ
مُخْتَصٌّ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِيَتَّقَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يَفْنَطُوا مِنْهُ عِنْدَ فُقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَأَمَارَاتِهِ، مَعْطُوفٌ
عَلَى فِعْلٍ مُقَدَّرٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَيَسْتَدْعِيهِ النَّظَامُ، فَإِنَّ الْإِحْبَارَ بِوُقُوعِ النَّصْرِ عَلَى
الْإِطْلَاقِ وَتَذَكِيرِ وَقْتِهِ وَحِكَايَةِ الْوَعْدِ بِوُقُوعِهِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ هُوَ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ مَرَّةً
بَعْدَ أُخْرَى. وَتَعْيِينَ وَقْتِهِ فِيْمَا مَضَى يَقْضِي بِوُقُوعِهِ حِينَئِذٍ قَضَاءً قَطْعِيًّا، لَكِنْ لَمْ يُصَرَّحْ
بِهِ؛ تَعْوِيلًا عَلَى تَعَاضُدِ الدَّلَائِلِ وَتَأْخُذِ الْأَمَارَاتِ وَالْمَخَايِلِ وَإِيدَانًا بِكَمَالِ الْغِنَى عَنْهُ، بَلِ
اخْتِرَازًا عَنْ شَائِبَةِ التَّكْرِيرِ أَوْ عَنْ إِيْهَامِ اخْتِمَالِ الْخُلْفِ فِي الْوَعْدِ الْمُخْتَوَمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ عَقِيبَ
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: (فَأَمْدَكُمْ بِهِمْ). ﴿وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: الْجَعْلُ مُتَعَدٍّ إِلَى وَاحِدٍ وَهُوَ الضَّمِيرُ الْعَائِدُ إِلَى مَصْدَرٍ ذَلِكَ الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ،
وَأَمَّا عَوْدُهُ إِلَى الْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ أَعْنِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُمْدِدْكُمْ﴾، أَوْ إِلَى الْمَصْدَرِ الْمَذْكُولِ
عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ كَمَا قِيلَ، فَغَيْرُ حَقِيقٍ بِجَرَالَةِ التَّنْزِيلِ؛ لِأَنَّ الْهَيْئَةَ الْبَسِيطَةَ
مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْمَرْكَبَةِ، فَبَيَانُ الْعِلَّةِ الْغَائِبَةِ لَوْجُودِ الْإِمْدَادِ كَمَا هُوَ الْمَرَادُ بِالنَّظْمِ الْكَرِيمِ حَقُّهُ

أَنْ يَكُونَ بَعْدَ بَيَانِ وَجُودِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْمَصْدَرَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ غَيْرُ مُعْتَبَرَيْنِ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودُ وَالْوُقُوعُ كَمَصْدَرِ الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ حَتَّى يَتَصَدَّى لِبَيَانِ أَحْكَامِ وَجُودِهِمَا، بَلِ الْأَوَّلُ مُعْتَبَرٌ مِنْ حَيْثُ الْكِفَايَةُ، وَالثَّانِي مِنَ حَيْثُ الْوَعْدُ، عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْإِمْدَادُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ وَالْوَاقِعُ هُوَ الْإِمْدَادُ بِخَمْسَةِ آلَافٍ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي مَقُولِ الْقَوْلِ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: (جَعَلَهُ) لِلْإِمْدَادِ الْمَذْلُولِ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ، أَوْ لِلتَّسْوِيمِ، أَوْ لِلْإِنْزَالِ، وَرَجَّحَ الْأَوَّلَ الرَّجَّاجُ وَصَاحِبُ الْكَشَافِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾: اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعْمِ الْعَامِّ. وَالْبُشْرَى: اسْمٌ مِنَ الْبِشَارَةِ، أَيْ إِلَّا لُتَبَشَّرُوا بِأَنْتُمْ تُنْصَرُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ حِينَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ بِهِ فِي حَالِ أَنْ اللَّهُ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الْوَعْدَ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَإِلَّا فَإِنَّهُ وَعَدَكُمْ النَّصْرَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (الْوَاوُ) لِلْعُطْفِ، عَطَفَ الْإِخْبَارِ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ. وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ؛ لِلتَّنْوِيهِ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ. وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ. وَضَمِيرُ النَّصْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَهُ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْإِمْدَادِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ أَوْ إِلَى الْوَعْدِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾. وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ. وَبُشْرَى مَفْعُولٌ ثَانٍ لِـ ﴿جَعَلَهُ﴾، أَيْ مَا جَعَلَ اللَّهُ الْإِمْدَادَ وَالْوَعْدَ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ بُشْرَى، أَيْ جَعَلَهُ بُشْرَى، وَلَمْ يَجْعَلْهُ غَيْرَ ذَلِكَ. وَ﴿لَكُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِبُشْرَى. وَفَائِدَةُ التَّصْرِيحِ بِهِ مَعَ ظُهُورِ أَنَّ الْبُشْرَى إِلَيْهِمْ: هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى تَكْرِمَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِأَنْ بَشَّرَهُمْ بُشْرَى لِأَجْلِهِمْ كَمَا فِي التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. وَالْبُشْرَى: اسْمٌ لِمَصْدَرٍ بَشَّرَ كَالرَّجْعَى، وَالْبُشْرَى: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسْرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا وَعَدَهُم بِالنَّصْرِ أَيْقَنُوا بِهِ، فَكَانَ فِي تَبْيِينِ سَبَبِهِ وَهُوَ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ: طَمَآنَةٌ لِنُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَزْكُنُ إِلَى الصُّورِ

المألوفة. وقال العثيمين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾: قيل: إن الضمير يعود إلى الإمداد، أو إلى الوعد به بالشروط الثلاثة، وقيل: إنه يعود إلى قول الرسول: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني أن الله لم يجعل قول الرسول إلا بشرى لكم. والبشرى: هي الخبر بما يسرُّ، وهذه لا شك أنها بشرى؛ إذ إن المقاتل إذا علم أن الله سيمدّه بالملائكة، فإنه سوف ينشط ويقوى ويؤمل النصر، بخلاف ما إذا كان لم يحصل له هذا الشيء.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾: قال الواحدي: أي لتطمئن قلوب المؤمنين فلا تجزع من كثرة العدو وقلة عددهم. وإنما قال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾، ولم يقل: (واطمئننا)، كما قال: ﴿بُشْرَى﴾؛ لأن ذكر المدد سبب لاطمئنان القلوب، ولم يكن نفس الاطمئنان، وكان ذكر المدد نفس البُشْرَى. وقال ابن الجوزي: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾: أي فتسكن في الحرب، ولا تجزع. وقال القرطبي: (اللام) لأم كي، أي ولتطمئن قلوبكم به جعله، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢]، أي وحفظاً لها جعل ذلك. وقال أبو حيان: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: معطوف على موضع بُشْرَى، إذ أصله لبُشْرَى. ولما اختلف الفاعل في ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: أي (اللام)؛ إذ فات شرط اتحاد الفاعل؛ لأن فاعل ﴿بُشْرَى﴾ هو قوله: ﴿اللَّهُ﴾، وفاعل ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ هو قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: منصوب بإضمار (أن) بعد (لام كي)، فهو من عطف الاسم على توهّم موضع اسم آخر. وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ على هذا التفسير متعدية إلى واحد. و(الهاء) في قوله: ﴿بِهِ﴾ تعود على ما عادت عليه في قوله: ﴿جَعَلَهُ﴾ على الخلاف المتقدم. وقال ابن عاشور: الطمأنينة، والطمأنينة: السكون وعدم الاضطراب. واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيهاً للعلم الثابت بثبات النفس، أي عدم اضطرابها. وعطف ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ على ﴿بُشْرَى﴾، فكان داخلاً في حيز الاستثناء، فيكون استثناءً من علل، أي ما جعله الله لأجل شيء إلا لأجل أن تطمئن قلوبكم به. وقال العثيمين: الاطمئنان: الاستقرار وعدم القلق، ولا شك أن طمأنينة القلب فيها راحة للنفس، وفيها

فتح للتفاؤل والأمل، وفيها ثبات على الأمر، بخلاف الإنسان الذي لم يطمئن قلبه، فتجده دائما في قلق وضيق.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: قال مكِّي: قال ابن زيد: أي لو شاء الله أن ينصركم بغير الملائكة فعل؛ لأنه عزيز في انتقامه، حكيم في تدبيره. وقال البغوي: يعني لَا تُحِيلُوا بِالنَّصْرِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْجُنْدِ، فَإِنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَعِينُوا بِهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعِزَّ وَالْحُكْمَ لَهُ. وقال ابن الجوزي: أي ليس بكثرة العدد والعدد. وقال القرطبي: يعني نصر المؤمنين، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ نَصْرُ الْكَافِرِينَ، لِأَنَّ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ غَلَبَةٍ إِنَّمَا هُوَ إِفْلَاءٌ مُحْضَوْفٌ بِخِذْلَانٍ وَسُوءِ عَاقِبَةٍ وَحُسْرَانٍ. وقال النسفي: ﴿الْعَزِيزُ﴾: أي الذي لا يُغَالِبُ فِي أَحْكَامِهِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: أي الذي يُعْطِي النَّصْرَ لِأَوْلِيَائِهِ، وَيَنْتَلِيهِمْ بِجِهَادِ أَعْدَائِهِ. وقال أبو حيان: حَصَرَ كَيْفُوتُ النَّصْرِ فِي جِهَتِهِ سُبْحَانَهُ، لَا أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمُقَاتِلَةِ، وَلَا مِنْ إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ. وَذَكَرَ الْإِمْدَادَ بِالْمَلَائِكَةِ تَقْوِيَةً لِرَجَاءِ النَّصْرِ لَهُمْ، وَتَثْبِيثًا لِقُلُوبِهِمْ. وَذَكَرَ وَصْفَ الْعِزِّ وَهُوَ الْوَصْفُ الدَّالُّ عَلَى الْغَلَبَةِ، وَوَصْفَ الْحِكْمَةِ وَهُوَ الْوَصْفُ الدَّالُّ عَلَى وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، مِنْ نَصْرٍ وَخِذْلَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وقال الألوسي: ﴿الْعَزِيزُ﴾: أي الغالب الذي لا يُغَالِبُ فِيهِمَا قُضِيَ بِهِ. وقيل: أي القادر على انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين. وفي إجراء هذا الوصف هنا عليه تعالى؛ إيدانًا بعلة اختصاص النصر به سبحانه. ﴿الْحَكِيمُ﴾: أي الذي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيَفْعَلُ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ فِي سَائِرِ أَفْعَالِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ نَصْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِوَاسِطَةِ أَنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ. وقال القاسمي: ﴿الْعَزِيزُ﴾: أي الذي لا يُغَالِبُ فِي حُكْمِهِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يَفْعَلُ كُلَّ مَا يَفْعَلُ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ. وقال السعدي: ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وفهره. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مَوَاضِعَهَا، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة. وقال ابن عاشور: وَجُمْلَةُ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تَذْيِيلٌ، أي كُلُّ نَصْرٍ

هو من عند الله لا من الملائكة. وإجراء وصفَي (العزیز، الحَكِيم) هُنا؛ لِأَتَهُمَا أُولَى بِالذِّكْرِ في هَذَا الْمَقَامِ؛ لِأَنَّ الْعَزِيزَ يَنْصُرُ مَنْ يُرِيدُ نَصْرَهُ، وَالْحَكِيمُ يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ نَصْرَهُ وَكَيْفَ يُعْطَاهُ. وقال العنيمین: ﴿الْعَزِيزُ﴾: يعني ذا العِزَّة، وعِزَّة الله ثلاثة أنواع: عِزَّة القُدْر، وعِزَّة القهر، وعِزَّة الامتناع. عِزَّة القُدْر: يعني الشرف والسيادة والفضل، مثل أن تقول: هذا الشيء عزيز وجوده، يعني أنه منفرد بالصفات الكاملة عن غيره. وعِزَّة القهر: يعني الغلبة، أي أنه سبحانه غالب، ومنه قوله: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي غلبني فيه. وعِزَّة الامتناع: يعني أَنَّ الله يمتنع أن يناله السوء أو النقص، وهو مأخوذ من قولهم: (أرض عزاز) يعني صلبة قوية، لا تؤثر فيها المعاول. ﴿الْحَكِيمُ﴾: مأخوذة من (الحُكْم)، ومن (الإحكام)، فالحكم يعني القضاء، والإحكام يعني الإتيان، ونحن نعلم أن حكم الله ينقسم إلى: حكم كوني لا يتخلّف المحكوم فيه، وحكم شرعي قد يتخلّف، فالحكم الكوني لا يتخلّف أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، يعني حكماً كونياً. وأمّا الحكم الشرعي فمثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْحُكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٠]، ومنه قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ثم إن في كلّ منهما حكمة، يعني ما من حُكم كونيّ أو شرعيّ إلا وهو مقترن بالحكمة؛ لأننا قلنا: إنها مأخوذة من الحكم والإحكام، فالحكم الكوني لا بد أن يكون له حكمة، والحكم الشرعي لا بد أن يكون له حكمة، ثم الحكمة قد يكون المراد بها أن وقوع الشيء على هذا الوجه حكمة، والغاية منه حكمة أيضاً، فتكون الحكمة في صورة الشيء، والحكمة الثانية في الغاية منه، فكون الصلوات على هذا الوجه هذا حكمة تتعلق بصورة العمل، والغاية منها حكمة تتعلق بالمراد من هذا العمل، فإذا قلنا: الآن الحكمة إمّا في الحكم الكونيّ أو الحكم الشرعيّ، وإمّا أن تكون في صورة الشيء أو في غايته، صار عندنا أقسام كثيرة، وكلّها داخلة في قوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾. وربط العِزَّة بالحكمة يفيد معني

ثالثاً غير المعنى المستفاد من العزة على انفراد أو الحكمة على انفراد؛ وذلك لأن العزيز قد تغلبه العزة حتى يتصرف تصرف الطيش والسفه، كما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، لكن عزة الله لا تخرج عن الحكمة، مع أن له العزة المطلقة، فلن يفعل شيئاً على وجه السفه، إنما يفعله على وجه الحكمة.

- قال الله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمُ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾.
- مناسبة الآية لما قبلها:

قال القرطبي: نَظُمُ الْآيَةِ: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ لَيْقِطَعٍ). وَقِيلَ: الْمَعْنَى: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيَقْطَعَ). وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾: (أَيَّ يُمْدِدْكُمْ لَيَقْطَعَ). وقال البقاعي: لَمَّا قَرَّرَ الْوَعْدَ ذَكَرَ ثَمَرَتَهُ، فَقَالَ مُعَلِّقًا الْجَارَ بِ(يُمْدِدْكُمْ): ﴿لَيَقْطَعَ...﴾.

- تفسير الآية:

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قال مكِّي: المعنى: ليقطع طرفاً من الذين كفروا نصركم، فبهذا تتعلّق (اللام)، ويجوز أن تكون متعلّقة بقوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾. والطرف: الطائفة من الكفار بمحمد ﷺ. وتقدير الآية ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ فيهلك من الذين كفروا بمحمد ﷺ. قال قتادة: قطع الله يوم بدر طرفاً من الذين كفروا، وقتل صناديد رؤسائهم في الشر. وقال السدي: عني بذلك يوم أحد قتل منهم ثمانية عشر رجلاً، فذكرهم الله في قوله: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾. وقال الماوردي: قال: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ ولم يقل: (وسطاً)؛ لأنَّ الطَّرْفَ أَقْرَبُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْوَسْطِ، فَاخْتَصَّ الْقَطْعُ بِمَا هُوَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقال البغوي: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يقول: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ لَيَقْطَعَ طَرَفًا، أَيَّ لِكَيْ يُهْلِكَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَيَّ لِيَهْدِمَ رُكْنًا مِّنْ أَرْكَانِ الشِّرْكِ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَمُتِلَ مِنْ قَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ يَوْمَ بَدْرِ سَبْعُونَ، وَأُسِرَ سَبْعُونَ. وَمَنْ حَمَلَ الْآيَةَ عَلَى حَرْبٍ أُحُدٍ فَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ

يَوْمَئِذٍ سِتَّةَ عَشَرَ وَكَانَتِ النُّصْرَةُ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى خَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ فَأَنْقَلَبَ عَلَيْهِمْ. وقال ابن الجوزي: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: معناه: نصركم ببدْرٍ لِيَقْطَعَ طَرَفًا. قال الزجاج: أي: لِيَقْتُلَ قِطْعَةً مِنْهُمْ. وفي أيِّ يَوْمٍ كَانَ ذَلِكَ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: فِي يَوْمِ بَدْرٍ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالْجُمْهُورُ. الثَّانِي: يَوْمَ أُحُدٍ، قُتِلَ مِنْهُمْ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وقال الرازي: (اللَّامُ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ نَصْرِكُمْ بِوَسِطَةِ إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ هُوَ أَنْ يَقْطَعُوا طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَيْ يُهْلِكُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ وَيَقْتُلُوا قِطْعَةً مِنْهُمْ. قِيلَ: إِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ بَعْضَ حَرْفِ الْعَطْفِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْبَعْضُ قَرِيبًا مِنَ الْبَعْضِ جَازَ حَذْفُ الْعَاطِفِ، وَهُوَ كَمَا يَقُولُ السَّيِّدُ لِعَبْدِهِ: أَكْرَمْتُكَ لِتُخْدِمَنِي لِتُعِينَنِي لِتَقُومَ بِخِدْمَتِي حَذْفَ الْعَاطِفِ؛ لِأَنَّ الْبَعْضَ يَتَرَبُّبُ مِنَ الْبَعْضِ، فَكَذَا هَاهُنَا. وَقَوْلُهُ: ﴿طَرَفًا﴾: أَيْ طَائِفَةً وَقِطْعَةً. وَإِنَّمَا حَسَنَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ذِكْرُ الطَّرَفِ وَلَمْ يَحْسُنْ ذِكْرُ الْوَسْطِ؛ لِأَنَّهُ لَا وُصُولَ إِلَى الْوَسْطِ إِلَّا بَعْدَ الْأَخْذِ مِنَ الطَّرَفِ، وَهَذَا يُؤَافِقُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]. وقال ابن كثير: أَيْ أَمَرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجِلَادِ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمَكِّنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ، فَقَالَ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أَيْ لِيُهْلِكَ أُمَّةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. وقال الألويسي: الْمَرَادُ مِنَ الطَّرَفِ: طَائِفَةٌ مِنَ الْكُفَّارِ. قِيلَ: وَلَمْ يُعَبِّرْ عَنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ بِالْوَسْطِ، بَلْ بِالطَّرَفِ؛ لِأَنَّ أَطْرَافَ الشَّيْءِ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَوْهِينِهِ وَإِزَالَتِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّ الطَّرَفَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٢٣]. وَقِيلَ: لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَافًا، فَفِي الْأَسَاسِ هُوَ مِنْ أَطْرَافِ الْعَرَبِ أَيْ أَشْرَافِهَا، وَلَعَلَّ إِطْلَاقَ الْأَطْرَافِ عَلَى الْأَشْرَافِ؛ لِتَقْدِيمِهِمْ فِي السَّيْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَالُوا: الْأَطْرَافُ مَنَازِلُ الْأَشْرَافِ، فَلَا يَرَدُّ أَنَّ الْوَسْطَ أَيْضًا يُشْعِرُ بِالشَّرَفِ، فَالْمَعْنَى: لِيُهْلِكَ صَنَادِيدَ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَرُؤْسَاءَهُمُ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهِمْ بِقَتْلِ وَأَسْرِ. وقال ابن عاشور: قَوْلُهُ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالنَّصْرِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ عَلَّةٌ لِبَعْضِ أَحْوَالِ النَّصْرِ، أَيْ لِيَقْطَعَ يَوْمَ بَدْرِ طَرَفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَالطَّرْفُ بِالتَّحْرِيكِ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى النَّاحِيَةِ، وَيُخَصُّ بِالنَّاحِيَةِ الَّتِي هِيَ مُنْتَهَى الْمَكَانِ، فَيَكُونُ اسْتِعَارَةً لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْجُزْءِ الْمُتَطَرِّفِ مِنَ الْجَسَدِ كَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالرَّأْسِ، فَيَكُونُ مُسْتَعَارًا هُنَا لِأَشْرَافِ الْمُشْرِكِينَ، أَيْ لِيَقْطَعَ مِنْ جِسْمِ الشِّرْكِ أَهَمَّ أَعْضَائِهِ، أَيْ لِيَسْتَأْصِلَ صَنَادِيدَ الَّذِينَ كَفَرُوا. وَتَنْكِيرُ ﴿طَرَفًا﴾ لِلتَّفْخِيمِ، وَيُقَالُ: هُوَ مِنْ أَطْرَافِ الْعَرَبِ، أَيْ مِنْ أَشْرَافِهَا وَأَهْلِ بُيُوتَاتِهَا. وقال السعدي: يخبر تعالى أَنَّ نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: الأمر الأول: إمَّا أَنْ يَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَيْ جَانِبًا مِنْهُمْ وَرَكْنًا مِنْ أَرْكَانِهِمْ، إمَّا بِقَتْلِ، أَوْ أَسْرِ، أَوْ اسْتِيلَاءِ عَلَى بَلَدٍ، أَوْ غَنِيمَةِ مَالٍ، فَيَقْوَى بِذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ وَيَذِلُّ الْكَافِرُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَقَاوِمَهُمْ وَمُحَارِبَتَهُمْ لِلْإِسْلَامِ تَتَأَلَّفُ مِنْ أَشْخَاصِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَرْضِهِمْ، فَبِهَذِهِ الْأُمُورِ تَحْصُلُ مِنْهُمْ الْمَقَاوِمَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ، فَقَطَّعَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ذَهَابَ لِبَعْضِ قُوَّتِهِمْ. الأمر الثاني: أَنْ يَرِيدَ الْكَفَّارَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، طَمَعًا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَبِمَنَّا أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ، وَيَحْرِصُوا عَلَيْهِ غَايَةَ الْحَرَصِ، وَيَبْذِلُوا قَوَاهِمَ وَأَمْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَيَنْصُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ وَيُرَدِّدُهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالُوا مَقْصُودَهُمْ، بَلْ يَرْجِعُونَ بِخَسَارَةٍ وَغَمٍّ وَحَسْرَةٍ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوَاقِعَ رَأَيْتَ نَصْرَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ دَائِرًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، غَيْرَ خَارِجٍ عَنْهُمَا، إمَّا نَصَرَ عَلَيْهِمْ، أَوْ خَذَلَ لَهُمْ. وقال العثيمين: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: (اللام) هنا للتعليل. والفاعل في قوله: ﴿يَقْطَعَ﴾ يعود إلى الله. والمراد بالقطع هنا: الإهلاك، أي ليهلك طرفًا. و(اللام) هذه متعلقة إمَّا بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾، ولكن هذا ضعيف؛ لأنه بعيد، يعني أنه جاءت آيات كثيرة تفصل بين العامل والمعمول، وهذا لا نظير له. وإمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (فَعَلْ ذَلِكَ لِيَقْطَعَ طَرَفًا)، وهذا القول أصح، فتكون (اللام) متعلقة

بفعل محذوف يُقدّر على وجه مناسب. وقوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾: أي لِيُهْلِكَ. ولكن هل هذا فيما إذا انتصروا على المسلمين أو فيما إذا انتصر المسلمون عليهم؟ أو على الوجهين جميعاً؟ الصواب: أنه على الوجهين جميعاً؛ لأنه إن انتصر المسلمون وهزموهم فقد هلك طرف منهم، وإن انتصروا هم على المسلمين فإنهم سوف يلحقهم الغرور ونشوة النصر، ثم يعيدون الكرة مرة ثانية وحينئذٍ يُقضى عليهم، فيكون الوجهان حاصلين سواء غلبوا أم غلبوا. وقوله: ﴿طَرَفًا﴾: الطرف: طرف الشيء هو منتهاه من أسفل أو من أعلى، والمراد به هنا: الذي يلي المسلمين، وذلك لأن المسلمين مطالبون بقتال من يليهم من الكفار حتى يفتحوا بلاد الكفار بلدًا بلدًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وهذا كما أنه سنة الله الشرعية فهو أيضًا موافق للفطرة؛ لأنه ليس من الحكمة أن تذهب إلى البعيد تقاتله وتترك القريب؛ إذ إن القريب في هذه الحال ربما يكون كمينًا، يعني يحول بينك وبين رجوعك إلى بلدك.

﴿أَوْ يَكْبِتْهُمْ﴾: قال ابن الجوزي: فيه سبعة أقوال: أحدها: أي يَهْزِمُهُمْ، قاله ابن عباس، والرجاج. الثاني: يُخْزِيهِمْ، قاله قتادة، ومقاتل. الثالث: يَصْرَعُهُمْ، قاله أبو عبيد، واليزيدي. وقال الخليل: هو الصرع على الوجه. الرابع: يُهْلِكُهُمْ، قاله أبو عبيدة. الخامس: يَلْعَنُهُمْ، قاله السدي. السادس: يَظْفَرُ عَلَيْهِمْ، قاله الميرد. والسابع: يَغِيْظُهُمْ، قاله النضر بن شميل، واختاره ابن قتيبة. وقال ابن قتيبة: أهل النظر يرون أن (التاء) فيه منقلبة عن (دال)، كأن الأصل فيه: يُكَبِّدُهُمْ، أي يُصِيبُهُمْ في أكبادهم بالحزن والغَيْظ، وشدة العداوة، ومنه يُقال: فلان قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبده. وقال ابن عاشور: ﴿أَوْ يَكْبِتْهُمْ﴾: أي يُصِيبُهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ. وأصل كَبَتَ: كَبَدَ بِالْدَّالِ إذا أصابه في كبده. كَقَوْلِهِمْ: صُدِرَ إذا أُصِيبَ في صدره، وكُلِيَ إذا أُصِيبَ في كَلْبَتِهِ، ومُتَنَ إذا أُصِيبَ في مَتْنِهِ، ورُئِيَ إذا أُصِيبَ في رِئْتِهِ، فَأُبْدِلَتِ (الدال) (تاء). وقد تُبْدِلُ (التاء) (دالًا)، كَقَوْلِهِمْ: سَبَدَ رَأْسَهُ وَسَبَتَهُ أي حَلَقَهُ. والعرب تتَحَيَّلُ الغَمَّ والحزن مَقَرُّهُ الكَبَدُ، والغضب مَقَرُّهُ الصَّدْرُ وأعضاء

التَّئُسِ. وَقَدْ اسْتَقْرَى أَحْوَالَ الْهَرَبَةِ، فَإِنَّ قَرِيبًا قُتِلُوا فَقُطِعَ بِهِمْ طَرَفٌ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَفَرِيقًا كُتِبُوا وَانْقَلَبُوا خَائِبِينَ، وَفَرِيقًا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا، وَفَرِيقًا عُذِّبُوا بِالمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا بِالدَّلِّ، وَالصَّعَارِ، وَالْأَسْرِ، وَالْمَنِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَتْحِ، بَعْدَ أَخْذِ بِلَدِهِمْ. وَ(أَوْ) بَيْنَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ؛ لِلتَّفْسِيرِ. وَهَذَا الْقَطْعُ وَالْكَثْبُ قَدْ مَضَى يَوْمَ بَدْرٍ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ بِنَحْوِ سَنَتَيْنِ، فَالتَّعْيِيرُ عَنْهُمَا بِصِغَةِ الْمُضَارِعِ؛ لِقَصْدِ اسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ فِي ذَلِكَ النَّصْرِ الْمَبِينِ الْعَزِيزِ النَّظِيرِ.

﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: قال الواحدي: الحَيَبَةُ: حِرْمَانُ البُعْيَةِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْأَمَلِ. وَالْيَأْسُ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ الْأَمَلِ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْدَهُ. فَنَقِضَ الْيَأْسَ: الرَّجَاءُ. وَنَقِضَ الْحَيَبَةَ: الظَّفَرُ. وَقَالَ السَّمْعَانِي: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: أَيُّ لَا يَدْرِكُونَ مَا أَمَلُوا، يُقَالُ: رَجَعَ فَلَانٌ مِنَ الْعَيْبَةِ بِالْخَيْبَةِ، إِذَا لَمْ يَدْرِكْ أَمَلَهُ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: أَيُّ لَمْ يَنَالُوا شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَرْجُونَ مِنَ الظَّفَرِ بِكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: أَيُّ فَيَنْهَزِمُوا مُنْقَطِعِي الْأَمَالِ. فَالْحَيَبَةُ: انْقِطَاعُ الْأَمَلِ.

• قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨):

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: فِي سَبَبِ نُزُولِهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ:
أَحَدُهَا: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، عَزَّ وَجَلَّ؟!" فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ "أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ.
الثَّانِي: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَعَنَ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ.

الثَّالِثُ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَمَّ بِسَبِّ الَّذِينَ انْهَزَمُوا يَوْمَ أُحُدٍ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَكَفَّ عَنْ ذَلِكَ". نُقِلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ.

الرَّابِعُ: "أَنَّ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، خَرَجُوا إِلَى قَبِيلَتَيْنِ مِنْ بَنِي سَلِيمٍ، عَصِيَّةً وَدُكْوَانَ، فَقَاتِلُوا جَمِيعًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". قَالَهُ مُقَاتِلٌ.

الخَامِسُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى حَمَزَةً مُثَلًّا بِهِ، قَالَ: "لَا مِثْلَ بَكْذَا وَكَذَا مِنْهُمْ"، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ.

قال ابن عثيمين: القاعدة في أسباب النزول: أنه إذا لم يمكن الترجيح، فلا مانع من أن يتعدّد السبب.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعْتِرَاضٌ وَسِطَةٌ بَيْنَ الْمُعْطُوفِ عَلَيْهِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْعَاجِلِ وَالْمُعْطُوفِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْآجِلِ؛ لِتَحْقِيقِ أَنَّ لَا تَأْثِيرَ لِلْمَنْصُورِينَ إِثْرَ بَيَانِ أَنَّ لَا تَأْثِيرَ لِلنَّاصِرِينَ.

● تفسير الآية:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي عِقَابِهِمْ وَاسْتِصْلَاحِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ. الثَّانِي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِيمَا تُرِيدُهُ وَتَفْعَلُهُ فِي أَصْحَابِكَ وَفِيهِمْ. الثَّالِثُ: أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ شَيْءٌ. الرَّابِعُ: أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، حَتَّى يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ إِلَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. قَالَ الطَّبْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَوْ يَكْتَبَهُمْ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). فَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْصُوبٌ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَكْتَبَهُمْ﴾. وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، حَتَّى يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)، فَيَكُونُ نَصْبُ ﴿يَتُوبُ﴾ بِمَعْنَى (أَوْ) الَّتِي هِيَ فِي مَعْنَى

(حتى). والقول الأول أولى بالصواب؛ لأنه لا شيء من أمر الخلق إلى أحد سوى خالقهم، قبل توبة الكفار وعقابهم وبعد ذلك. وقال مكِّي: معنى الآية: ليس لك يا محمد من الحكم في عبادي شيء، أو أتوب عليهم برحمتي إن شئت، فيؤمنوا، أو أعذبهم فيموتوا على كفرهم. ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: أي قد استحقوا العذاب بظلمهم. وقال الرازي: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فيه قولان: الأول: أن معناه: لَيْسَ لَكَ مِنْ قِصَّةِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ شَيْءٌ، وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات: أحدها: لَيْسَ لَكَ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِي شَيْءٌ إِلَّا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ. وثانيها: لَيْسَ لَكَ مِنْ مَسْأَلَةِ إِهْلَاكِهِمْ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ فَرُبَّمَا تَابَ عَلَيْهِمْ. وثالثها: لَيْسَ لَكَ فِي أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا فِي أَنْ يُعَذِّبَهُمْ شَيْءٌ. القول الثاني: أن المراد هو الأمر الذي يضاد النهي، والمعنى: لَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِ خَلْقِي شَيْءٌ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى وَفْقِ أَمْرِي، وهو كقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وكقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وعلى القولين فالمقصود من الآية: منعه ﷻ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ إِلَّا مَا كَانَ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ، وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية. وقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْعَذَابِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَذَابُ الدُّنْيَا، وهو القتل والأسر وأن يكون عَذَابُ الْآخِرَةِ، وعلى التفسيرين فعلم ذلك مَفْهُوضٌ إِلَى اللَّهِ. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة مُسْتَقَلَّةٌ، إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِهَا: تَعْلِيلُ حُسْنِ التَّعْذِيبِ، والمعنى: أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُ إِنْ عَذَّبَهُمْ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ. وقال القرطبي: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: قيل: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وَالْمَعْنَى: لِيَقْتُلَ طَائِفَةً مِنْهُمْ، أَوْ يُخْرِجَهُمْ بِالْهَزِيمَةِ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ. وقال أبو حيان: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: اِخْتَلَفَ فِي سَبَبِ النُّزُولِ وَمُلَحَّصِهِ: أَنَّهُ لَعَنَ نَاسًا أَوْ شَخْصًا عَيْنَ أَنَّهُ عَتَبَهُ بَنُو أَبِي وَقَاصٍ، أَوْ أَشْخَاصًا دَعَا عَلَيْهِمْ وَعُيِّنُوا: أَبَا سُفْيَانَ، وَالْحَارِثَ بْنَ هُشَامٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ. أَوْ قِبَائِلَ عَيْنَ مِنْهَا: لِحْيَانَ، وَرِغْلَ، وَذُكْوَانَ، وَعَطِيَّةَ. أَوْ هُمْ بِسَبَبِ الَّذِينَ انْهَزَمُوا يَوْمَ أُحُدٍ، أَوْ

اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يَدْعُو. وَدَعَا يَوْمَ أَحَدٍ حِينَ شُجَّ فِي وَجْهِهِ، وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ، وَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّى صُرِعَ لِحْنِهِ، فَلَحِقَهُ نَاسٌ مِنْ فُلَاحِهِمْ، وَمَالَ إِلَى أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمُ اللَّهُ وَيُريَحَ مِنْهُمْ، فَنَزَلَتْ. فَعَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ: التَّوْقِيفُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ، فَيَدْخُلُ فِيهَا هِدَايَةُ هَؤُلَاءِ وَإِقْرَازُهُمْ عَلَى حَالَةٍ. وَفِي خِطَابِهِ: دَلِيلٌ عَلَى صُدُورِ أَمْرٍ مِنْهُ أَوْ هَمٍّ بِهِ، أَوْ اسْتِئْذَانٍ فِي الدُّعَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَأَنَّ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ بِيَدِ اللَّهِ. قَالَ الْكُوفِيُّونَ: نَسَحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْفُتُوتَ عَلَى رِغْلِ وَدُكَّوَانَ وَعَصِيَّةَ وَعَظِيمَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ السَّخَاوِيُّ: لَيْسَ هَذَا شَرْطُ النَّاسِخِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْسَخْ قُرْآنًا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ أَيْضًا: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: قِيلَ: هُوَ عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمَنْصُوبَةِ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ، فَإِمَّا أَنْ يُهْلِكَهُمْ، أَوْ يَهْزِمَهُمْ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَسْلَمُوا، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إِنْ أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ. وَقِيلَ: (أَنْ) مُضْمَرَةٌ بَعْدَ (أَوْ)، بِمَعْنَى: إِلَّا أَنْ، وَهِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِمْ: (لَا تُزِمُّنَا أَوْ تَقْضِيَنِي حَقِّي)، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، فَيُسَرُّ بِهَدَاهُمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ بِقَتْلِ وَأَسْرِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ بِنَارٍ فِي الْآخِرَةِ، فَيَسْتَشْفِي بِذَلِكَ وَيَسْتَرِيحُ. وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَكُونُ الْجُمْلَةُ الْمُنْفِيَّةُ لِلتَّأْسِيسِ، لَا لِلتَّأْكِيدِ. وَقِيلَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى الْأَمْرِ. وَقِيلَ: عَلَى شَيْءٍ، أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ، أَوْ مِنْ تَوْبَتِهِمْ، أَوْ تَعْذِيبِهِمْ شَيْءٌ، أَوْ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ تَعْذِيبِهِمْ. وَالظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ التَّخَارِيجِ الْأَرْبَعَةِ هُوَ: الْأَوَّلُ. وَأَبْعَدَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾، أَيُّ أَمْرِ الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَنْ تَفْشَلَا. وَقَالَ ابْنُ بَحْرٍ: (مِنْ الْأَمْرِ): أَيُّ مِنْ هَذَا النَّصْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: أَمْرُ الْقِتَالِ. وَالظَّاهِرُ: الْحَمْلُ عَلَى الْعُمُومِ، وَالْأُمُورُ كُلُّهَا لِلَّهِ. ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى الْعِلَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّعْذِيبِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، وَأَتَى بِ(إِنَّ) الدَّالَّةَ عَلَى التَّأْكِيدِ فِي نِسْبَةِ الظُّلْمِ إِلَيْهِمْ. انْتَهَى كَلَامُ أَبِي حَيَّانٍ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى

أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أَيُّ بَلِ الْأَمْرِ كُلُّهُ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ: ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرَّعْدُ: ٤٠]، وَقَالَ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٧٢]، وَقَالَ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الْقَصَصُ: ٥٦]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: أَيُّ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ. ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾: أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿فَاتِمَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: أَيُّ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعْتِرَاضٌ وَسِطَةٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ الْمَتَعَلِّقِ بِالْعَاجِلِ وَالْمَعْطُوفِ الْمَتَعَلِّقِ بِالْآجِلِ؛ لِتَحْقِيقِ أَنَّ لَا تَأْثِيرَ لِلْمَنْصُورِينَ إِثْرَ بَيَانٍ أَنَّ لَا تَأْثِيرَ لِلنَّاصِرِينَ. وَإِنَّمَا حُصِّنَ الْإِعْتِرَاضُ بِمَوْقِعِهِ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْقَطْعِ وَالْكَتَبِ مِنْ مَظَانٍ أَنْ يَكُونَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِسَائِرِ مُبَاشِرِي الْقِتَالِ مَدْخَلٌ فِي الْجُمْلَةِ. وَتَخْصِيصُ النَّفْيِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى طَرِيقِ تَلْوِينِ الْخِطَابِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِنْتِفَاءِ مِنْ غَيْرِهِ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى يَكْتِبُهُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا لَكَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ اللَّهُ نَصْرَكُمْ عَلَيْهِمْ؛ لِيُهْلِكَهُمْ، أَوْ يَكْتِبَهُمْ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَسْلَمُوا، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ إِنْ أَصْرُوا، وَلَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ، إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ بِإِنْذَارِهِمْ وَجِهَادِهِمْ. وَالْمُرَادُ بِتَعَذُّبِهِمْ: التَّعَذِيبُ الشَّدِيدُ الْأُخْرَوِيُّ الْمَحْصُوصُ بِأَشَدِّ الْكَفَرَةِ كُفْرًا، وَإِلَّا فَمُطْلَقُ التَّعَذِيبِ الْأُخْرَوِيِّ مُتَحَقِّقٌ فِي الْفَرِيقَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ أَيْضًا. وَنَظْمُ التَّوْبَةِ وَالتَّعَذِيبِ الْمَذْكُورِ فِي سِلْكِ الْعِلَّةِ الْغَائِبَةِ لِلنَّصْرِ الْمَتَرَبِّتَةِ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ فَرَعٌ تَحْقُوقُهَا النَّاشِئُ مِنْ عِلْمِهِمْ بِحَقِّقَةِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ غَلَبَةِ أَهْلِهِ الْمَتَرَبِّتَةِ عَلَى النَّصْرِ، وَأَنَّ تَعَذُّبَهُمْ بِالْعَذَابِ الْمَذْكُورِ مُتَرَبِّتٌ عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ تَبَيُّنِ الْحَقِّ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ هَذَا. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ

والمعْطُوفِ عَلَيْهِ، أَيَّ أَنَّ اللَّهَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ يَصْنَعُ بِهِمْ مَا يَشَاءُ مِنَ الْإِهْلَاكِ أَوْ الْهَرِيمَةِ أَوْ
التَّوْبَةِ إِنْ أَسْلَمُوا أَوْ الْعَذَابِ، فَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ:
أَوْ (يَكْتَبُهُمْ). وَقَالَ الْفَرَّاءُ: إِنَّ (أَوْ) بِمَعْنَى (إِلَّا أَنْ)، بِمَعْنَى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِلَّا
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ فَتَفْرَحَ بِذَلِكَ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَتُشْفَى بِهِمْ. وَقَالَ صَدِّيقُ خَانَ: قَالَ
السيوطي: (أَوْ) بِمَعْنَى (إِلَّا أَنْ)، يَعْنِي غَايَةً فِي الصَّبْرِ، أَيَّ إِلَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ
عَاشُورَ: جُمْلَةٌ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَتَاعِطَاتِ. وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ
ﷺ، فَيَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ عَلَى صَرِيحِ لَفْظِهَا، فَيَكُونُ الْمَعْنَى نَفْيُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ، لِقِتَالِهِ
الْكُفَّارَ بِجَيْشِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، تَأْثِيرٌ فِي حُصُولِ النَّصْرِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي قَلَّةٍ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْقِتَالِ، أَيَّ فَالنَّصْرُ حَصَلَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،
وَهَذَا مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. وَلَفْظُ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ مَعْنَاهُ:
الشَّأْنُ، وَ(أَل) فِيهِ لِلْعَهْدِ، أَيَّ مِنَ الشَّأْنِ الَّذِي عَرَفْتُمُوهُ وَهُوَ النَّصْرُ. وَيَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ
الْجُمْلَةُ عَلَى أَنَّهَا كِنَايَةٌ عَنْ صَرْفِ النَّبِيِّ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِشَأْنِ مَا
صَنَعَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا، مِنْ قَطْعِ طَرَفِهِمْ، وَكُتْبَتِهِمْ أَوْ تَوْبَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ تَعْذِيبِهِمْ، أَيَّ
فَلِذَلِكَ مُؤَكَّدٌ إِلَيْنَا مُحَقَّقُهُ مَتَى أَرَدْنَا، وَيَتَخَلَّفُ مَتَى أَرَدْنَا، عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ
حِكْمَتُنَا، وَذَلِكَ كَالِاعْتِدَارِ عَنْ تَخَلُّفِ نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَفْظُ الْأَمْرِ بِمَعْنَى شَأْنِ
الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّعْرِيفُ فِيهِ عَوَظٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيَّ لَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِهِمْ اهْتِمَامٌ. وَهَذَا
تَذَكِيرٌ بِمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ تَخَوُّفِ ظُهُورِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ، وَالْحَاجَةِ فِي الدُّعَاءِ
بِالنَّصْرِ. وَلَعَلَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوَدُّ اسْتِصْالَ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ حَيْثُ وَجَدَ مُقْتَضَى
ذَلِكَ وَهُوَ نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ لِإِهْلَاكِهِمْ، فَذَكَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُقَدِّرْ اسْتِصَالَهُمْ جَمِيعًا، بَلْ
جَعَلَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ أَلَوَانًا فَانْتَقَمَ مِنْ طَائِفَةٍ بِقَطْعِ طَرَفٍ مِنْهُمْ، وَمِنْ بَقِيَّتِهِمْ بِالْكَتْبِ، وَهُوَ
الْحَزْنُ عَلَى قَتْلِهِمْ، وَذَهَابُ رُؤُسَائِهِمْ، وَاخْتِلَالُ أُمُورِهِمْ، وَاسْتَبْقَى طَائِفَةً لِيَتُوبَ عَلَيْهِمْ

وَيَهْدِيهِمْ، فَيَكُونُوا قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِعَدَدِ ذَلِكَ، وهم مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ
الْفَتْحِ، وَيَوْمَ الْفَتْحِ، مِثْلُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَخِي أَبِي جَهْلٍ، وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي
جَهْلٍ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَخَالِدَ بْنِ الْوَلِيدِ، وَعَذَّبَ طَائِفَةً عَذَابَ الدُّنْيَا بِالْأَسْرِ، أَوْ
بِالْقَتْلِ، مِثْلَ ابْنِ حَظَلٍ، وَالنَّضَرَ بْنِ الْحَارِثِ. وقال السعدي: في هذه الآية ما يدل على
أنَّ اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأنَّ العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد
يختار شيئا وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأنَّ الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء
فغيره من باب أولى، ففيها أعظم ردٍّ على من تعلّق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين
وغيرهم، وأنَّ هذا شرك في العبادة، ونقص في العقل، يتركون من الأمر كلّ له ويدعون
من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إنَّ هذا هو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى
توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سببا موجبا لذلك؛ ليدل ذلك على أنَّ
النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر
العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بـ(الفاء) المفيدة للسببية، فقال ﴿أَوْ
يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة
موضعها، ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه. وقال العثيمين: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ
الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: قال بعض العلماء: المعنى: ليس إليك من الأمر شيء، مثل قوله تعالى:
﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، يعني ينادي إلى الإيمان،
ولكنَّ الظاهر أنَّ (اللام) على بابها ليست بمعنى (إلى)، والمعنى: أنك لا تملك شيئا،
وليس المعنى: أنه لا يُرَدُّ إليك شيء، بل المعنى أنك لا تملك شيئا، والخطاب للنبي ﷺ.
وقوله: ﴿مِنْ الْأَمْرِ﴾ يعني الأمر الكوني، أمّا الأمر الشرعي فإنَّ للرسول منه شيء؛ لقوله
تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: توبة الله
على العبد قسمان: الأول: توبة سابقة. الثاني: توبة لاحقة. وتوبة العبد متوسطة بينهما،
وهذا مذكور في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (١١٨) [التوبة]. ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾: هذه التوبة السابقة، والتوبة السابقة معناها التوفيق للتوبة، والتوبة اللاحقة قبول التوبة، وتوبة العبد تكون بينهما. ومعنى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: أي ييسرهم للإسلام من الكفر.

- قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)﴾:
- مناسبة الآية لما قبلها:

قال مكِّي بن أبي طالب: قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تأكيد لما قبله.

وقال القاسمي: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لما قبله من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وقال صديق خان: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: هذا كالدليل على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وقال العثيمين: لما ذكر الله أن النبي ليس له من الأمر شيء فمن دونه من الخلق من باب أولى، بين لمن يكون الأمر، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾.

- تفسير الآية:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: قال السمرقندي: يعني: أن جميع الخلق في ملك الله وعبيده. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: وقال الضحاك: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ

على الذنب الصغير إذا أصرَّ على ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: في تأخير العذاب عنهم، حيث لم يعاقبهم قبل توبتهم. وقال مكِّي: أي أنَّ الله له كلّ الأشياء، يفعل ما يريد، ويحكم ما يريد، فيغفر لمن يشاء، ويتوب على من يشاء، ويعذب من يشاء. وقال الواحدي: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: قال أهل المعاني: لَمَّا نَفَى اللَّهُ الْأَمْرَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ، ذَكَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَمْرِ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: الْأَمْرُ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَمَنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَمَنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ. وقال تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ولم يقل: (مَنْ)؛ لأنه ذهب به مذهب الجنس، فَدَخَلَ فِيهِ الْجَمِيعُ. ﴿يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ، في رواية عطاء: الذنب العظيم للمُوحِّدِينَ. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: يريد المشركين على الذنب الصغير. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. وقال ابن عطية: ثُمَّ رَجَا فِي آخِرِ ذَلِكَ؛ تَأْنِيسًا لِلنَّفُوسِ، وَجَلَبًا لَهَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. و(مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إِشَارَةٌ إِلَى جُمْلَةِ الْعَالَمِ؛ فَلِذَلِكَ حَسُنَتْ (مَا). وما ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْمُشْرِكِينَ كَلَامٌ ضَعِيفٌ كُلُّهُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاضِعِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ. وقال أبو حيان: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَرْجِيحٌ لِحُجَّةِ الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ. وقال الثعالبي: أي: فَلِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ بِحَقِّ مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ، وَلَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ. وذكر سبحانه: أَنَّ الْعُقْرَانَ أَوْ التَّعْذِيبَ، إِنَّمَا هُوَ بِمَشِئَتِهِ، وَبِحَسَبِ السَّابِقِ فِي عِلْمِهِ، ثُمَّ رَجَى سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ ذَلِكَ تَأْنِيسًا لِلنَّفُوسِ. وقال الإيجي: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فلا تبادر إلى اللعن، والدعاء عليهم. وقال الألوسي: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ سَبَقَ لِبَيَانِ اخْتِصَاصِ مُلْكِيَّةِ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ بِهِ تَعَالَى إِثْرَ بَيَانِ اخْتِصَاصِ طَرَفٍ مِنْ ذَلِكَ بِهِ عَزَّ شَأْنُهُ؛ تَقْرِيرًا لِمَا سَبَقَ، وَتَكْمِلَةً لَهُ. وَتَقْدِيمُ الْحَبْرِ لِلْقَصْرِ. و(مَا) عَامَّةٌ لِلْعُقْلَاءِ وَغَيْرِهِمْ؛ تَعْلِيًّا، أَيْ لَهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ، أَوْ مَا فِي هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مُلْكًا وَمُلْكًا وَخَلْقًا وَاقْتِدَارًا لَا

مَدَّخَلَ لِأَحَدٍ مَعَهُ فِي ذَلِكَ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يُعَاقِبُهُ عَلَى ذَنْبِهِ فَضْلًا مِنْهُ. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يُعَذِّبَهُ عَذَابًا مِنْهُ. وَإِثَارُ كَلِمَةِ (مَنْ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ؛ لِإِحْتِصَاصِ الْمَغْفِرَةِ وَالتَّعْذِيبِ بِالْعُقُلَاءِ. وَتَقْدِيمُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى التَّعْذِيبِ؛ لِلإِيدَانِ بِسَبْقِ رَحْمَتِهِ عَلَى غَضَبِهِ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَتَعْذِيبَهُ غَيْرُ مُقَيَّدَيْنِ بِشَيْءٍ، بَلْ قَدْ يُدْعَى أَنَّ التَّقْيِيدَ مُنَافٍ لِلِسَوْقِ؛ إِذْ هُوَ لِإثْبَاتِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَالِكُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ لَا مَانِعَ لَهُ مِنْ مَشِئَتِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مَغْفِرَتُهُ مُقَيَّدَةً بِالتَّوْبَةِ، وَتَعْذِيبُهُ بِالظُّلْمِ لَمْ يَكُنْ فَاعِلًا لِمَا يَشَاءُ، بَلْ لِمَا تَسْتَدْعِيهِ التَّوْبَةُ أَوْ الظُّلْمُ، فَالْآيَةُ ظَاهِرَةٌ فِي نَفْيِ الْوُجُوبِ عَلَى اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغْفِرَ سُبْحَانَهُ لِلْمُذْنِبِ. وَقَالَ صَدِيقُ خَانَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: هُوَ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ؛ لِبَيَانِ سَعَةِ مُلْكِهِ، أَيْ يَفْعَلُ فِي مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْعَذَابِ، وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ، لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَتَبَشِيرٌ لِعِبَادِهِ بِأَنَّهُ الْمُتَصِفُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ، وَمَا أَوْقَعَ هَذَا التَّذِيلَ الْجَلِيلَ وَأَحْبَبَهُ إِلَى قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِأَسْرَارِ التَّنْزِيلِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ كُلُّهُ مَا فِيهِمَا مُلْكًا وَأَمْرًا، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: تَذِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، مَعَ زِيَادَةٍ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَذِيلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، مُشِيرٌ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ عَلَى التَّنَوُّعِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ؛ وَلَمَّا كَانَ مَظْنَةُ التَّطَلُّعِ لِمَعْرِفَةِ تَخْصِصِ فَرِيقٍ ذُونَ فَرِيقٍ، أَوْ تَعْمِيمِ الْعَذَابِ، دَيَّلَهُ بِالْحِوَالَةِ عَلَى إِجْمَالِ حَضْرَةِ الْإِطْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ أَسْرَارَ تَخْصِصِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يُعَيَّنُ لَهُ، أَسْرَارٌ خَفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، وَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خَلَقَ اللَّهُ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: لَمَّا نَفَى عَنْ رَسُولِهِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قَرَّرَ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ

والحيوانات والأفلاك والجمادات كلّها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكلّ ملك لله مخلوقون مدبّرون متصرّفون فيهم تصرّف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بأن يهديه للإسلام، فيغفر شركه، ويمنّ عليه بترك العصيان، فيغفر له ذنبه. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشرّ، فيعمل الشرّ ويعذبه على ذلك. ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأنّ منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يَحْتَمِها باسمين أحدهما دالّ على الرحمة، والثاني دالّ على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدلّ على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّهُ﴾: (اللام) هنا للاستحقاق والاختصاص والملك، يعني الله ملكًا واختصاصًا واستحقاقًا، والخبر الجار والمجرور مُقَدَّم على المبتدأ؛ لإفادة الحصر، يعني الله لا غيره. وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: (مَا) اسم موصول يشمل كلّ ما في السموات والأرض من إنس وجنّ وحيوان وجماد وغير ذلك، وعبرَ بـ(مَا) إمّا لأن غير العاقل أكثر من العاقل فصار هذا من باب التغليب، وإمّا لأن المقصود الأعيان والأوصاف، وإذا كان المقصود الأعيان والأوصاف فإنه يؤتى بـ(مَا)، لا بـ(مَنْ)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل: (مَنْ)؛ لأنه ليس المقصود العين، المقصود الوصف، يعني الذي يطيب لكم وتركونون إليه. على كلّ حال سواء كانت (مَا) من باب التغليب أو لأنه يقصد بذلك الأعيان والأوصاف فإنها تدلّ على العموم، وأنّ جميع ما في السموات وما في الأرض لله. وقوله: ﴿السَّمَوَاتِ﴾ هذه جمع، وقد صرح الله في القرآن بأن السموات سبع كما قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، أمّا الأرض فليس في القرآن

نصّ على أنّها سبع، وإنما فيه ظاهر، يعني ما يدلّ ظاهرًا على أنّ الأرضين سبع، وهو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإنّ المثليّة هنا لا يمكن أن تكون مثليّة الجنس والنوع والصفة؛ لأن الأرض مختلفة عن السماء اختلافًا ظاهرًا، فتعيّن أن يكون المراد المثليّة بالعدد، وقد جاءت السنّة مصرّحة بأنّ عدد الأرضين سبع، ولكن هذه الأرضون السبع هل هي متجاورة أو متطابقة كالسموات؟ ظنّ بعض العلماء أنّها متجاورة، وأنّ المراد بها القارّات السبع، ولكن هذا ليس بصحيح، والصحيح: أنّها متطابقة، أي بعضها فوق بعض، ودليل ذلك قول النبيّ . عليه الصلاة والسلام: "مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلُمًا طُوقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ" رواه مسلم، فإن هذا يدلّ على أنّها متطابقة؛ إذ لو لم تكن كذلك لم يُعَذَّب هذا الذي اقتطع شبرًا من الأرض إلا بأرض واحدة فقط. ثم هل هي متلاصقة أو متباعدة؟ قال بعض العلماء: إنّها متلاصقة، وقال آخرون: بل هي متباعدة، أي بين كلّ أرض وأخرى فاصل هواء، والله أعلم بذلك، وربما نطلع عن طريق العلم الحديث على الراجح من هذين القولين. ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: ﴿يَغْفِرُ﴾ مضارع من المغفرة، والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من (المغفر) الذي يوضع على الرأس عند القتال، فإنه ساتر للرأس وواقٍ للرأس. وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مقيّد بالحكمة، أي من اقتضت حكمة الله أن يغفر له غفر له، هذا واحد، ومقيّد بما عدا الشرك، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكن المشرك لو أسلم لغفر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني ممّن يستحقّ التعذيب، ولا يستثنى منه المشرك؛ لأن المشرك قد أعلمنا الله أنه لا يشاء أن يغفر له، فلا يكون داخلًا في المشيئة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب جدًّا؛ لقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فلكونه غفورًا صار يغفر لمن يشاء. والغفور اسم من أسماء الله المتعدية لا اللازمة. ولا يتمّ الإيمان

بأسماء الله إلا بثلاثة أمور: الإيمان بأنها اسم من أسماء الله. الثاني: الإيمان بما تضمنته من صفة. الثالث: الحكم المترتب على هذه الصفة، وهو هنا أنه يغفر، يعني ليس غفّارًا بلا مغفرة بل هو يغفر، فنستفيد إذاً من هذه الآية إثبات الاسم الغفور، إثبات الصفة المغفرة، إثبات الحكم المترتب على هذا أنه يغفر بهذه المغفرة. (الرحيم) أيضاً اسم من أسماء الله. والرحيم معناه: ذو الرحمة المقتضية للإحسان والإنعام، فالإحسان والإنعام من مقتضى الرحمة، وليس هو الرحمة، بل هو من مقتضاها، برحمته يُحسن ويُنعِم.

● قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾:

● سبب نزول الآية:

قال القرطبي: قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَبِيعُونَ الْبَيْعَ إِلَى أَجَلٍ، فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ زَادُوا فِي الثَّمَنِ عَلَى أَنْ يُؤَخَّرُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً...﴾.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: لَمَّا نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ بَطَانَةٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَاسْتَطَرَدَ لِذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ. وَكَانَ الْكُفَّارُ أَكْثَرَ مُعَامَلَاتِهِمْ بِالرِّبَا مَعَ أَمْثَالِهِمْ وَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذِهِ الْمَعَامَلَةُ مُؤَدِّيَّةٌ إِلَى مُخَالَطَةِ الْكُفَّارِ. نُهَوُا عَنْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ الَّتِي هِيَ الرِّبَا قَطْعًا؛ لِمُخَالَطَةِ الْكُفَّارِ وَمَوَدَّتِهِمْ، لَا سِيَّمَا وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَوَّلِ حَالِ الْإِسْلَامِ ذَوُو إِعْسَارٍ، وَالْكَفَّارُ مِنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ ذَوُو يَسَارٍ. وَكَانَ أَيْضًا أَكْلُ الْحَرَامِ لَهُ مَدْخَلٌ عَظِيمٌ فِي عَدَمِ قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْأَدْعِيَةِ، فَنَاسَبَ ذِكْرَ هَذِهِ الْآيَةِ هُنَا. وَقِيلَ: نَاسَبَ اعْتِرَاضَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ هُنَا: أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالْإِمْدَادِ مَقْرُونًا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، فَبَدَأَ بِالْأَهَمِّ مِنْهَا، وَهُوَ مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، وَأَمَرَ بِالتَّقْوَى، ثُمَّ بِالطَّاعَةِ. وَقِيلَ: لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١٠﴾، وَبَيَّنَّ أَنَّ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ مِلْكٌ لَهُ نَبَّهَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ عَمَّا كَانُوا فِي الْإِسْلَامِ مُسْتَمِرِّينَ عَلَيْهِ مِنْ حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وقال البقاعي: وَلَمَّا كَانَ الْحَتْمُ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ رُبَّمَا أَطْمَعَ فِي انْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ؛ لِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، فَكَانَ مُبْعَدًا لِمُتَعَاطِيهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مُدْنِيًا مِنَ النِّقْمَةِ، وَكَانَ أَعْظَمُ الْمُفْتَضِيَّاتِ لِلْخِذْلَانِ تَضْيِيعُهُمْ لِلشَّغْرِ الَّذِي أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِهِ، بِسَبَبِ إِقْبَالِهِمْ قَبْلَ إِنْتِمَاءِ هَزِيمَةِ الْعَدُوِّ عَلَى الْغَنَائِمِ؛ لِلزِّيَادَةِ فِي الْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى الرِّبَا فِي اللَّعَةِ؛ إِذْ هُوَ مُطْلَقُ الزِّيَادَةِ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا..﴾.

وقال القاسمي: وَمِمَّا يُعْلَمُ بِهِ حِكْمَةُ نَظْمِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سِلْكِ قِصَّةِ أُحُدٍ، مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: "أَنَّ عَمْرَو بْنَ أَقْيَشٍ كَانَ لَهُ رَبًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُسَلِّمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ، فَجَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: أَيُّنَ بَنُو عَمِّي؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ. قَالَ: أَيُّنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، قَالَ: فَأَيُّنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، فَلَبَسَ لِأَمَّتِهِ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ ثُمَّ تَوَجَّهَ قِبَلَهُمْ، فَلَمَّا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو! قَالَ: إِنِّي قَدْ آمَنْتُ، فَقَاتَلَ حَتَّى جُرِحَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ لِأُخْتِهِ سَلِيهِ: حِمِيَّةً لِقَوْمِكَ وَغَضَبًا لَهْمَ أَمْ غَضَبًا لِلَّهِ؟ فَقَالَ: بَلْ غَضَبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَمَاتَ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَا صَلَّى لِلَّهِ صَلَاةً.

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾: قال السمرقندي: قال الزَّجَّاجُ: يعني لا تضاعفوا أموالكم بالربا. وقال القتيبي: هو ما يضاعف منها شيء بعد شيء. ويقال: أضعافاً مضاعفة عند البيع، يبيعه بأكثر من قيمته مضاعفة بعد العقد، أن يزيده في الأجل ويزيد في المال. ويقال: المضاعفة هي نعت الأضعاف كما قال تعالى: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، والطيب هو نعت الحلال. وقال مكِّي: هذا نهي من الله للمؤمنين أن يأكلوا الربا بعد إسلامهم. ومعنى ﴿أَضْعَافًا﴾: أي تضعفون الدين إذا أحرتم الأجل، كان الذي عليه الدين يقول: أحرني، وأزيدك، فإذا حان قال: أحرني وأزيدك، فيتضاعف

الدين عليه. وقال الماوردي: يُريدُ بالأكلِ الأخذَ. والرِّبَا: زيادةُ القَدْرِ مُقابِلَةً لزيادةِ الأجلِ. وهو ربا الجاهليَّةِ المتعارِفُ بَيْنَهُم بالنِّسَاءِ. أي التأخير .. ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾: وهو أن يَقُولَ لَهُ بَعْدَ حُلُولِ الأجلِ: إمَّا أَنْ تُقْضِيَ وَإمَّا أَنْ تُرَبِّي، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ ضَاعَفَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَفْعَلُ كَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِهِ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَصِيرَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً. وقال السمعاني: قد ذكر الرِّبَا فِي سُورَةِ البَقَرَةِ، وَأَعَادَ ذَكَرَهُ هَا هُنَا تَأْكِيدًا. والأضعافُ المضاعفة: هُوَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ تَبْعِيدِ الأجلِ بِزيادةِ الدِّينِ. وقال القرطبي: وَإِنَّمَا حَصَّ الرِّبَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَعَاصِي؛ لِأَنَّهُ الَّذِي أَدْنَى اللَّهِ فِيهِ بِالْحَرْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وَالْحَرْبُ يُؤْذَنُ بِالْقَتْلِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَتَّقُوا الرِّبَا هُرِمْتُمْ وَقُتِلْتُمْ، فَأَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الرِّبَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَعْمُولًا بِهِ عِنْدَهُمْ. وَ(أَضْعَافًا) نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، وَ(مُضَاعَفَةً) نَعْتُهُ. وقرئ "مُضَعَفَةً" وَمَعْنَاهُ: الرِّبَا الَّذِي كَانَتْ الْعَرَبُ تُضَعِّفُ فِيهِ الدِّينَ، فَكَانَ الطَّالِبُ يَقُولُ: أَتُقْضِي أَمْ تُرَبِّي؟ وَ(مُضَاعَفَةً) إِشَارَةٌ إِلَى تَكَرُّرِ التَّضْعِيفِ عَامًّا بَعْدَ عَامٍ كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْمُؤَكَّدَةُ عَلَى شُنْعَةِ فِعْلِهِمْ وَفُجْحِهِ؛ وَلِذَلِكَ ذُكِرَتْ حَالَةُ التَّضْعِيفِ خَاصَّةً. وقال ابن كثير: ينهى الله عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرِّبَا وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: إِذَا حَلَّ أَجَلُ الدِّينِ إمَّا أَنْ يُقْضِيَ وَإمَّا أَنْ يُرَبِّي، فَإِنْ قَضَاهُ وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ وَزَادَهُ الْآخِرُ فِي الْقَدْرِ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ، فَزَيْدًا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وقال الشوكاني: قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: قِيلَ: هُوَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ لِلتَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا ذُكِرَ. وقيل: هُوَ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ اثْنَاءِ قِصَّةِ أَحَدٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ لَيْسَ لِتَقْيِيدِ النَّهْيِ لِمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ تَحْرِيمِ الرِّبَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَكِنَّهُ جِيءَ بِهِ بِإِعْتِبَارِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَادَةِ الَّتِي يَعْتَادُونَهَا فِي الرِّبَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُرْتُونَ إِلَى أَجَلٍ، فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ زَادُوا فِي الْمَالِ مِقْدَارًا يَتَرَضَّوْنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَزِيدُونَ فِي أَجَلِ الدِّينِ، فَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّى يَأْخُذَ الْمُرَبِّي أَضْعَافَ دَيْنِهِ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ. وَإِنَّمَا حَصَّ الرِّبَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي تَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ

بِالْحَرْبِ مِنْهُ لِفَاعِلِهِ. وَ﴿أَضْعَافًا﴾ حَالٌ. وَ﴿مُضَاعَفَةً﴾ نَعَتْ لَهُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَكَرُّرِ التَّضْعِيفِ عَامًّا بَعْدَ عَامٍ. وَالْمِبَالِغَةُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ تُفِيدُ تَأْكِيدَ التَّوْبِيخِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾: ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ؛ تَنْمِيْمًا لِمَا سَلَفَ مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى مَا هُوَ الْأَصْلَحُ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَفِي بَابِ الْجِهَادِ. وَلَعَلَّ إِيْرَادَ النَّهْيِ عَنِ الرِّبَا بِخُصُوصِهِ هُنَا؛ لِمَا أَنَّ التَّارْغِيبَ فِي الْإِنْفَاقِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ الَّذِي عُمْدَتُهُ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْجِهَادِ مُتَضَمِّنٌ لِلتَّارْغِيبِ فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ، فَكَانَ مَظْنَةً مُبَادَرَةَ النَّاسِ إِلَى طُرُقِ الْاِكْتِسَابِ وَمِنْ جُمْلَتِهَا بَلَّ أَسْهَلُهَا الرِّبَا فَتَنُوهَا عَنْهُ. وَقَدَّمَهُ عَلَى الْأَمْرِ؛ اعْتِنَاءً بِهِ وَلِيَجِيءَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بَعْدَ سَدِّ مَا يَحْدِثُهُ. وَقَالَ الْقَقَالُ: يُجْتَمَلُ أَنَّ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ أَكْثَرَ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ قَدْ اجْتَمَعَتْ مِنْ الرِّبَا، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ تِلْكَ الْأَمْوَالَ عَلَى الْعَسَاكِرِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ دَاعِيًا لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ كَيْ يَجْمَعُوا الْأَمْوَالَ وَيُنْفِقُوهَا عَلَى الْعَسَاكِرِ أَيْضًا وَيَتِمَكَّنُوا مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَوَرَدَ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ؛ رَحْمَةً عَلَيْهِمْ وَلُطْفًا بِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّهُ تَعَالَى شَأْنُهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ لَهُ التَّعْذِيبَ لِمَنْ يَشَاءُ وَالْمَغْفِرَةَ لِمَنْ يَشَاءُ وَصَلَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَمَّا لَوْ فَعَلُوهُ لاسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ الْعِقَابَ وَهُوَ الرِّبَا. وَخَصَّهُ بِالنَّهْيِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَائِعًا إِذْ ذَاكَ؛ وَلِلْاعْتِنَاءِ بِذَلِكَ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا دَلَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ بَلَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَلَّ صَرَخَ بِالنَّهْيِ. وَسَاقَ الْكَلَامَ لَهُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ؛ إِيدَانًا بِشِدَّةِ الْحَظَرِ. وَالْمِرَادُ مِنَ الْأَكْلِ: الْأَخْذُ. وَعَبَّرَ بِهِ عَنْهُ؛ لِمَا أَنَّهُ مُعْظَمُ مَا يُفْصَدُ بِهِ؛ وَلِشُيُوعِهِ فِي الْمَأْكُولَاتِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ التَّشْنِيعِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: وَفِي نِدَائِهِمْ بِاسْمِ (الْإِيمَانِ) إِشْعَارٌ بِأَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَتَصْدِيقِهِ تَرْكُ الرِّبَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾: أَيُّ زِيَادَاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ، وَلَيْسَتْ لِتَقْيِيدِ النَّهْيِ بِهِ، لِمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ تَحْرِيمِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، بَلَّ لِمُرَاعَاةِ عَادَتِهِمْ كَمَا بَيَّنَّا. وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنَ الرِّبَا. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: تَصْدِيرُ الْخَطَابِ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى الْاهْتِمَامِ بِهِ؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَوْجِبُ يَقْظَةَ الْمُخَاطَبِ وَانْتِبَاهَ الْمُخَاطَبِ، وَالْخَطَابُ الَّذِي يُعْنَى

به يُسبق بما يفيد الانتباه والاستيقاظ. وتوجيهه إلى المؤمنين يدلّ على فوائد: أولاً: الإغراء والحثّ على ما تضمّنه الخطاب؛ لأنّ مناداة هؤلاء باسم الإيمان يدلّ على أنّ ذلك من أجل أن يُثير همهم، كما تقول للرجل تخاطبه: يا كريم، أكرم ضيفك، فإنك إذا قلت: يا كريم، فإن هذا من باب الإغراء والحثّ، يعني من أجل كرمك أكرم، وتقول: يا رجل، اترك السفلة، أو: يا حليم، اترك السفه، وما أشبه ذلك، فالمقصود بمثل هذا: الإغراء والحثّ. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تأتي هكذا مُطلقة في القرآن الكريم، لكن معناها مقيّد بما يجب الإيمان به، وبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنّ الإيمان يتضمّن الإيمان بستة أشياء: (بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ حَيْثُ وَشَرُّهُ)، ثمّ الإيمان المراد به ليس مجرد التصديق فقط، بل الإقرار المتضمّن أو المستلزم للقبول والإذعان، أما مجرد أن يُصدّق الإنسان بالشّيء فإنه ليس بمؤمن، فأبو طالب مثلاً مُصدّق بأن محمداً رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم ينفعه؛ لأنه لم يقبل ولم يُدعن. ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾: الأكل معروف، وخلافه الشرب، واللبس، والسكنى، والانتفاعات الأخرى، لكنّه عبّر بالأكل؛ لأنه أخصّ ما يكون في مُلابسة الإنسان، فالذي يدخل إلى جوفك ليس كالذي تلبسه ظاهر جسدك، وليس كالبيت الذي تسكنه، فإنّ أبلغ ما يكون في مُلابسة الإنسان هو الأكل؛ ولهذا نُهى عنه، والإنسان عندما يكون عنده شيء وهو جائع عارٍ ليس عنده سكن، ما الذي يُقدّم؟ الأكل، فهو أشدّ ما يكون ضرورة للإنسان. وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ليس له مفهوم؛ لأنه جاء على وفق العادة الغالبة، وما جاء على وفق العادة الغالبة فإنه لا مفهوم له، هذه قاعدة من قواعد أصول الفقه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: قال السمرقندي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي في الربا فلا تستحلّوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي لكي تنجوا من العذاب. وقال مكّي: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي تنجون. والمفلح: الذي أدرك ما أمّل، ونجا ممّا خاف. وقال الواحدي: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال عطاء: يريد: كي تسعدوا، وتبقوا في الجنة. وقال الزجاج: المفلح:

الذي أدرك ما أمَلَ مِنَ الخير. وقال السمعاني: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي كونوا على رَجَاءِ الْفَلَاحِ، يَعْنِي مَنْ تَرَكَ الرَّبَّ وَفِيهِ الْفَلَاحُ، وَفِي عَطَاءِ الرَّبِّ الْهَلَاكُ. وقال القرطبي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي فِي أَمْوَالِ الرَّبِّ فَلَا تَأْكُلُوهَا. وقال أبو حيان: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لَمَّا تَهَاوَمَ عَنْ أَمْرِ صَعْبٍ عَلَيْهِمْ فِرَافُهُ وَهُوَ الرَّبُّ، أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ إِذْ هِيَ الْحَامِلَةُ عَلَى مُخَالَفَةِ مَا تَعَوَّدَهُ الْمَرْءُ مِمَّا نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لِرَجَاءِ الْفَلَاحِ وَهُوَ الْفَوْزُ، وَأَمَرَ بِهَا مُطْلَقًا لَا مُقَيَّدًا بِفِعْلِ الرَّبِّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا نَهَى عَنِ الرَّبِّ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَسْرَعَ شَيْءٍ لَطَوَاعِيَةِ اللَّهِ، فَلَمْ يَأْتِ وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَكْلِ الرَّبِّ، بَلْ أَمُرُوا بِالتَّقْوَى، لَا بِالتَّسَبُّعِ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ مَنَعُوهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرِيعَةِ. وقال الألوسي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي فِيمَا تُهَيِّئُ عَنْهُ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ أَكْلُ الرَّبِّ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي لِكَيْ تُفْلِحُوا، أَوْ رَاجِينَ الْفَلَاحَ، فَالْجُمْلَةُ حَيْنَزِدٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. قِيلَ: وَلَا يَخْفَى أَنَّ اقْتِرَانَ الرَّجَاءِ بِالتَّخْوِيفِ يُفِيدُ أَنَّ الْعَبْدَ يُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ. وقال صديق خان: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي فِي أَكْلِ الرَّبِّ وَمُضَاعَفَتِهِ، فَلَا تَأْكُلُوهُ وَلَا تَضَعُفُوهُ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي لِكَيْ تَسْعُدُوا. وفيه دليل على أَنَّ أَكْلَ الرَّبِّ مِنَ الْكِبَائِرِ؛ وَلِهَذَا عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. وقال القاسمي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي فِيمَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي بِإِيفَاءِ حُقُوقِكُمْ وَصَوْنِكُمْ عَنْ أَعْدَائِكُمْ، كَمَا صُنُّتُمْ حُقُوقَ الْأَشْيَاءِ. وقال العثيمين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: نَهَى عَنْ أَكْلِ الرَّبِّ أَوْ ضَعْفًا مُضَاعَفَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّوَكُّيدِ، يَعْنِي أَنَّ أَكْلَكُمْ مَجَانِبَ لِلتَّقْوَى، وَتَقْوَى اللَّهِ: هِيَ اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِهِ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّلْعِيلِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ صَادِرَ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّرَجُّيُّ فِي حَقِّ اللَّهِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّ التَّرَجُّيَّ طَلَبُ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَاللَّهُ لَا يَشَقُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ، كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ هَيِّنٌ، فَتَكُونُ (لَعَلَّ) لِلتَّلْعِيلِ، يَعْنِي مِنْ أَجْلِ أَنْ تَفْلِحُوا. والفلاح قال أهل العلم: إنه كلمة جامعة لحصول المطلوب وزوال المكروه. انتهى كلامه. وجاء في كتاب التفسير الميسر: أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، احذروا الربا

بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم وإن قلّت، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف كلّما حان موعد سداد الدين؟!، واتقوا الله بالتزام شرعه؛ لتفوزوا في الدنيا والآخرة.

• قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾:

• مناسبة الآية التي قبلها:

قال أبو حيان: لما تقدّم قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ..﴾ والذوات لا تُتقى، فإنما المتقى مخدوفٌ أوضحه في هذه الآية، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ..﴾.

وقال البقاعي: ولما كان الفائز بالمطالب قد لا يؤقّى المعاطب، قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ..﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: قال ابن عطية: النار في قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾: هي اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد. ثم ذكر أنها أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، أي أنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشنع أمر النار بذكر الكفر، وحسن للمؤمن أن يحذرها ويبعد بطاعة الله عنها. وقال ابن الجوزي: قال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين؛ لئلا يستحلوا الربا. وقال الزجاج: والمعنى: اتقوا أن تحلوا ما حرم الله فتكفروا. وقال الرازي: تدل هذه الآية على أن النار مخلوقة الآن أم لا؛ لأن قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إخبار عن الماضي. وقال القرطبي: قال كثير من المفسرين: وهذا الوعيد لمن استحل الربا، ومن استحل الربا فإنه يكفر ويكفر. وقيل: معناه: اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب ما يستوجب به صاحبه نزاع الإيمان ويخاف عليه، من ذلك عقوق الوالدين. وقال أبو حيان: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾: (الألف، واللام) للجنس، فيجوز أن تكون النار التي وعد بها آكل الربا أخف من نار الكافر، أي أعد جنسها للكافرين. ويجوز أن تكون (الألف، واللام) للعهد، فيكون آكل الربا قد

تُوعَدُ بِالنَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُ بِهَا الْكَافِرُ. وَقِيلَ: تُوعَدُ أَكَلَةُ الرَّبَا بِنَارِ الْكَفَرَةِ؛ إِذِ النَّارُ سَبْعُ طَبَقَاتٍ: الْعُلْيَا مِنْهَا وَهِيَ جَهَنَّمُ لِلْعَصَاةِ، وَالْخَمْسُ لِلْكُفَّارِ، وَالذَّرْكُ الْأَسْفَلُ لِلْمُنَافِقِينَ. فَأَكَلَةُ الرَّبَا يُعَذَّبُونَ بِنَارِ الْكُفَّارِ، لَا بِنَارِ الْعَصَاةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِلُّونَ الرَّبَا. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَالْمَعْنَى: وَاتَّقُوا أَنْ تُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَكْفُرُوا. وَقِيلَ: اتَّقُوا الْعَمَلَ الَّذِي يَنْزِعُ مِنْكُمْ الْإِيمَانَ وَتَسْتَوْجِبُونَ بِهِ النَّارَ. وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ: هِيَ أَخَوْفُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، حَيْثُ أُوْعِدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّارِ الْمَعْدَّةِ لِلْكَافِرِينَ إِنْ لَمْ يَتَّقُوهُ بِاجْتِنَابِ مُحَارِمِهِ. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فِيهِ الْإِرْشَادُ إِلَى بَحْثِ مَا يَفْعَلُهُ الْكُفَّارُ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ. قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: وَفِيهِ أَنَّهُ يَكْفُرُ مَنْ اسْتَحْلَى الرَّبَا. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: اتَّقُوا الرَّبَا الَّذِي يَنْزِعُ مِنْكُمْ الْإِيمَانَ فَتَسْتَوْجِبُونَ النَّارَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾: أَيِ احْذَرُوا عَنْ مُتَابَعَةِ الْمُرَابِيعِ وَتَعَاطِي مَا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ أَكْلِ الرَّبَا الْمُفْضِي إِلَى دُخُولِ النَّارِ. ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: أَيِ الَّتِي هُيِّئَتْ لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَقَوْلُهُ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ تَحْذِيرٌ وَتَنْفِيذٌ مِنَ النَّارِ وَمَا يُوقِعُ فِيهَا، بِأَنَّهَا مَعْدُودَةٌ لِلْكَافِرِينَ. وَإِعْدَادُهَا لِلْكَافِرِينَ عَدْلٌ مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ؛ لِأَنَّ تَرْتِيبَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَمْثَالِهَا مِنْ أَكْبَرِ مَظَاهِيرِ الْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَشْرَكَوا بِاللَّهِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَقَدْ اسْتَحَقُّوا الْحَرَمَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَرْضَوْنَ بِمُشَارَكَةِ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ الْحَقَّ يُوجِبُ كَرَاهِيَةً مَا يَنْشَأُ عَنِ الْكُفْرِ. وَذَاكَ تَعْرِيزٌ وَاضِحٌ فِي الْوَعِيدِ عَلَى اخْتِيارِ الرَّبَا. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: أَيِ بَتَرِكْ مَا يُوْجِبُ دُخُولَهَا، مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا، فَإِنَّ الْمَعَاصِي كُلَّهَا تَجَرُّ إِلَى الْكُفْرِ، بَلْ هِيَ مِنْ خِصَالِ الْكُفْرِ الَّذِي أَعَدَّ اللَّهُ النَّارَ لِأَهْلِهِ، فَتَرِكُ الْمَعَاصِي يَنْجِي مِنَ النَّارِ، وَيَقِي مِنْ سَخَطِ الْجَبَّارِ، وَأَفْعَالُ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ تُوْجِبُ رِضَا الرَّحْمَنِ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، وَحُصُولَ الرَّحْمَةِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾: هَذِهِ تَقْوَى مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، وَهِيَ أَنْ تَتَّخِذَ مَا يَقِيكَ مِنَ النَّارِ كَمَا تَتَّخِذُ مَا يَقِيكَ مِنَ الْحَرِّ فِي الدُّنْيَا، فَلَيْسَ تَقْوَانَا لِلنَّارِ تَقْوَى عِبَادَةٍ وَتَذَلُّ كَتَقْوَانَا لِلَّهِ،

فاللفظ واحد والمعنى مختلف، فتقوى النَّارَ معناه: أن نتخذ حجاباً دونها حتى لا يصيبنا لفعها. ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾: أي هُيِّئَتْ لهم، والمعد لها هو الله. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: أصل الكفر في اللغة: السَّتر. وفي الشرع: جَحْدُ الإنسان لنعمة الله، وأعظمه الكُفر المُخرج من الملة. وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: يعني الكافرين بما يجب الإيمان به.

● قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الواحدي: لَمَّا نَهَى عَنْ أَكْلِ الرِّبَا، أَمَرَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَغَيْرِهِ.

وقال الرازي: وَلَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ ذَكَرَ الْوَعْدَ بَعْدَهُ عَلَى مَا هُوَ الْعَادَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي الْقُرْآنِ. وقال أبو السعود: عَقَّبَ الْوَعِيدَ بِالْوَعْدِ تَرْهِيباً عَنِ الْمَخَالَفَةِ وَتَرْغِيباً فِي الطَّاعَةِ، وَإِيرَادُ (لَعَلَّ). فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِشْعَارِ بِعِزَّةِ مَنْالِ الْفَلَاحِ وَالرَّحْمَةِ.

● تفسير الآية:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: قال مكِّي: أي أطيعوه فيما نهاكم عنه من أكل الربا، وأطيعوا الرسول أن تخالفوه كما خالفتموه يوم أحد، فهذه معاتبه من الله للذين عصوا يوم أحد، قاله ابن عباس. وقال البيضاوي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أَتْبَعَ الْوَعِيدَ بِالْوَعْدِ؛ تَرْهِيباً عَنِ الْمَخَالَفَةِ، وَتَرْغِيباً فِي الطَّاعَةِ. و(لَعَلَّ، وَعَسَى) فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ دَلِيلُ عِزَّةِ التَّوَصُّلِ إِلَى مَا جُعِلَ حَبْرًا لَهُ. وقال النسفي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رَدُّ عَلَى الْمُرْجئة فِي قَوْلِهِمْ: (لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ، وَلَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ أَصْلًا)، وَعِنْدَنَا: غَيْرُ الْكَافِرِينَ مِنَ الْعَصاةِ قَدْ يَدْخُلُهَا، وَلَكِنْ عاقِبَةُ أَمْرِ الْجَنَّةِ. وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى: (لَعَلَّ، وَعَسَى) فِي نَحْوِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ. وَإِنْ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: إِنَّ لَعَلَّ وَعَسَى مِنَ اللَّهِ لِلتَّحْقِيقِ. مَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعَارِفِ مِنْ دِقَّةِ مَسْئَلِكِ

التَّقْوَى، وصُعُوبَةِ إِصَابَةِ رِضَا اللَّهِ، وَعَزَّةِ التَّوَصُّلِ إِلَى رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ. وقال الشوكاني:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: حَذَفُ الْمُتَعَلِّقِ مُشْعِرٌ بِالتَّعْمِيمِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي راجينَ الرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ. وقال الألوسي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾: أي في جَمِيعِ مَا أَمَرَكم بِهِ وَهَآكُم عَنْهُ، فَلَا يَتَكَرَّرُ مَعَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى السَّابِقِ. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: أي الَّذِي شَرَعَ لَكُمْ الدِّينَ وَبَلَّغَكُمْ الرِّسَالَةَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةُ اللَّهِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي لِكَيْ تَنَالُوا رَحْمَةَ اللَّهِ. أَوْ راجينَ رَحْمَتَهُ. وَعَقَّبَ الْوَعِيدَ بِالْوَعْدِ؛ تَرْهِيبًا عَنِ الْمُخَالَفَةِ، وَتَرْغِيبًا فِي الطَّاعَةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هَذِهِ الْآيَةُ مُعَاتَبَةٌ لِلَّذِينَ عَصَوْا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ أَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ فِي أُحُدٍ، وَلَعَلَّهُمُ الرُّمَاءُ الَّذِينَ فَارَقُوا الْمَرْكَزَ. وقال العثيمين: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: الطاعة: هي موافقة الأمر فعلاً للمأمور، وتركاً للمحذور. فمن ترك مأموراً به فليس بطائع، ومن فعل منهياً عنه فليس بطائع. وأصلها من الطَّوْع، وهو الانقياد، ومنه قولهم: هذه ناقة طَوَّع، أي منقادة لقائدها لا تستعصي عليه. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: الرسول هنا فيه (أل)، وهي للعهد؛ لأن هذا الخطاب موجه لهذه الأمة، وهذه الأمة رسولها واحد وهو مُحَمَّدٌ ﷺ، فتكون (أل) هنا للعهد الذهني، وذلك أَنَّ العهد ثلاثة أنواع: ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت (أل) تشير إلى شيء مذكور فهو ذكري، مثل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ (١٦)﴾ [المزمل]. وإن كانت تشير إلى شيء حاضر، فهي للعهد الحضوري، مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وهكذا فَإِنَّ كُلَّ (أل) تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري، مثل: هذا الرجل، هذا الإنسان، وما أشبه. الثالث: العهد الذهني الذي يكون معلوماً بالذهن، فهنا الرسول هو مُحَمَّدٌ ﷺ وهو معهود ذهنًا. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: (لعلّ) هنا للتعليل، وليست للترجي، و(لعلّ) تأتي للتعليل، وللإشفاق، وللترجي، وتأتي للتمني أحياناً، والفرق بين التمني، والترجي: أَنَّ التَّرجي فيما يُرجى حصوله، والتَّمني فيما لا يُرجى حصوله، إمَّا لِعُسْرِهِ، وإمَّا لِتَعَدُّدِهِ، وهنا للتعليل، يعني إذا أطعتم الله والرسول حصلت لكم الرحمة.

والرحمة يكون بها حصول المطلوب، وزوال المكروه، وإذا قُرِنت بالمغفرة صارت المغفرة لزوال المكروه، والرحمة لحصول المطلوب، أي لعلكم تكونون في رحمة الله التي بها النجاة وحصول الثواب والأجر الكثير.

● قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾:

● سبب نزول الآية:

قال الألوسي: سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ عَلَى مَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَعَيْزُهُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِبَاحٍ: "أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ كَانُوا أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَّا، كَانُوا إِذَا أَذْنَبَ أَحَدُهُمْ ذَنْبًا أَصْبَحَتْ كَفَّارَةٌ ذَنْبِهِ مَكْتُوبَةً فِي عَتَبَةِ دَارِهِ: اجْدَعْ أَنْفَكَ، اجْدَعْ أُذُنَكَ، افْعَلْ كَذَا وَكَذَا، فَسَكَتَ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. فَقَالَ النَّبِيُّ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلَاهَا عَلَيْهِمْ".

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال أبو حيان: لَمَّا أُمِرُوا بِتَقْوَى النَّارِ، أُمِرُوا بِالْمِبَادَرَةِ إِلَى أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ. وقال البقاعي: لَمَّا نَهَى اللَّهُ عَمَّا مَنَعَ النَّصْرَ بِالنَّهْيِ عَنِ الرَّبَا، وَأَمَرَ بِمَا تَضَمَّنَ الْفَوْرَ وَالنَّجَاةَ وَالْقُرْبَ، وَكَانَ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ مَعَ التَّوَانِي، أَمَرَ بِالْمِسَارَعَةِ فِيهِ؛ تَوْصُلًا إِلَى مَا أَعَدَّ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الْمُؤْعُودِينَ بِالنَّصْرِ الْمَشْرُوطِ بِتَقْوَاهُمْ وَصَبْرِهِمْ.

● تفسير الآية:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: قال ابن عطية: المِسَارَعَةُ: المِبَادَرَةُ، وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ؛ إِذِ النَّاسُ كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُسْرِعُ لِيَصِلَ قَبْلَ غَيْرِهِ، فَبَيَّنَهُمْ فِي ذَلِكَ مُفَاعَلَةً. ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾: أَيِ سَارِعُوا بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى

رَبِّكُمْ إِلَى حَالٍ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا، أَيْ يَسْتُرُ ذُنُوبَكُمْ بِغَفْوِهِ عَنْهَا وَإِزَالَةَ حُكْمِهَا، وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّةً. وَاحْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبٍ: الْأَوَّلُ: رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ قَالَ: تُقَرَّنُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ كَمَا يُبْسَطُ الثَّوبُ، فَذَلِكَ عَرَضُ الْجَنَّةِ، وَلَا يَعْلَمُ طُولُهَا إِلَّا اللَّهُ. الثَّانِي: قَالَ قَوْمٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ مَعْنَاهُ: كَعَرَضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَمَا هِيَ طِبَاقًا، لَا بِأَنْ تُقَرَّنَ كَبَسَطِ الثِّيَابِ، فَالْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ، وَعَرَضُهَا كَعَرَضِهَا وَعَرَضَ مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْأَرْضِينَ إِلَى السَّابِعَةِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ عَلَى الْعِظَمِ أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِ الطُّولِ. الثَّالِثُ: وَقَالَ قَوْمٌ: الْكَلَامُ جَارٍ عَلَى مَقْطَعِ الْعَرَبِ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ الْجَنَّةُ مِنَ الْإِتْسَاعِ وَالْإِنْفِسَاحِ فِي غَايَةِ قُصْوَى، حَسُنَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهَا بِ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ: هَذَا بَحْرٌ، وَلِشَخْصٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانِ: هَذَا جَبَلٌ، وَلَمْ تَقْصِدِ الْآيَةُ تَحْدِيدَ الْعَرَضِ. ﴿أَعِدَّتْ﴾: أَيْ يُسِرَّتْ وَانْتَظَرُوا بِهَا. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: بَادِرُوا إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ. وَفِي الْمَرَادِ بِمُوجِبِ الْمَغْفِرَةِ هَاهُنَا عَشْرَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْإِحْلَاصُ، قَالَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ. الثَّانِي: أَداءُ الْفَرَائِضِ، قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. الثَّالِثُ: الْإِسْلَامُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الرَّابِعُ: التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى مِنَ الصَّلَاةِ، قَالَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ. الْخَامِسُ: الطَّاعَةُ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. السَّادِسُ: التَّوْبَةُ، قَالَهُ عِكْرِمَةُ. السَّابِعُ: الْهِجْرَةُ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ. الثَّامِنُ: الْجِهَادُ، قَالَهُ الضُّحَّاكُ. التَّاسِعُ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، قَالَهُ يَمَانُ. الْعَاشِرُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْمُسَارَعَةُ: الْمُبَادَرَةُ، وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ. وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ، أَيْ سَارِعُوا إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ وَهِيَ الطَّاعَةُ. وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ مُوجُودَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وَقَالَ النَّسْفِيُّ: وَمَعْنَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ: الْإِقْبَالُ عَلَى مَا يُوصِلُ إِلَيْهِمَا. ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: الْمَرَادُ: وَصْفُهَا بِالسَّعَةِ وَالْبَسْطِ، فَشَبَّهَتْ بِأَوْسَعِ مَا عَلِمَهُ النَّاسُ مِنْ خَلْقِهِ وَبَسْطِهِ. ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: الْمُتَّقِي: هُوَ مَنْ يَتَّقِي الشِّرْكَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿[الحديد: ٢١]﴾، أَوْ مَنْ يَتَّقِي
 الْمَعَاصِيَ، فَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ الثَّانِي، فَهِيَ لَهُمْ بَغِيرُ عُقُوبَةٍ، وَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ الْأَوَّلُ فَهِيَ لَهُمْ أَيْضًا
 فِي الْعَاقِبَةِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَيَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ . أَيِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْمَرَادِ
 بِمُوجِبِ الْمَغْفِرَةِ هَاهُنَا . عَلَى التَّمَثِيلِ لَا عَلَى التَّعْيِينِ وَالْحَصْرِ. وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى
 الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهَا السَّبَبُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ. وَحُذِفَ الْمُضَافُ مِنَ السَّمَوَاتِ، أَيْ عَرْضُ
 السَّمَوَاتِ، بَعْدَ حَذْفِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ، أَيْ كَعَرْضِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ
 لِلْكَافِرِينَ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؛ تَنْبِيْهَا عَلَى اتِّسَاعِ
 طُولِهَا، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فَرَشِ الْجَنَّةِ: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرَّحْمَنِ: ٥٤]، أَيْ فَمَا
 ظَنُّكَ بِالظَّهَائِرِ؟ وَقِيلَ: بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا؛ لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَالشَّيْءُ الْمَقْبَبُ
 وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطُولِهِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: "إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ
 فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقَفُهَا عَرْشُ
 الرَّحْمَنِ" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: وَالْمَعْنَى: سَارِعُوا بِالطَّاعَةِ، وَالتَّقْوَى، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى
 رَبِّكُمْ إِلَى حَالٍ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَسَارِعُوا﴾: أَيِ بَادِرُوا وَأَقْبِلُوا.
 ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾: أَيِ إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِمَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾: أَيِ إِلَى أَسْبَابِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالظَّاهِرِ الْعُمُومِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ سَائِرُ
 الْأَنْوَاعِ. وَتَقْدِيرُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى الْجَنَّةِ؛ لِمَا أَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدِّمَةٌ عَلَى التَّحْلِيَةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا
 كَالسَّبَبِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ. وَ(مِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْدُوفٍ وَقَعَ نَعْتًا لِمَغْفِرَةٍ. وَالتَّعَرُّضُ لِعُنْوَانِ
 الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ الْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ؛ لِإِظْهَارِ مَزِيدِ اللَّطْفِ بِهِمْ. وَوَصَفُ الْمَغْفِرَةِ
 بِكَوْنِهَا مِنَ الرَّبِّ دُونَ الْجَنَّةِ؛ تَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا؛ وَتَنْوِيْهَا بِشَأْنِهَا. وَالتَّنْوِيْ فِي مَغْفِرَةٍ؛ لِلتَّعْظِيمِ،
 وَيُؤَيِّدُهُ الْوَصْفُ، وَكَذَا فِي (جَنَّةٍ)، وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا وَصْفُهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَرْضُهَا
 السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وَالْمَرَادُ: كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْعَرْضُ أَقْصَرُ الْإِمْتِدَادَيْنِ، وَفِي
 ذِكْرِهِ دُونَ ذِكْرِ الطُّوْلِ مُبَالَغَةٌ، وَزَادَ فِي الْمِبَالِغَةِ بِحَذْفِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ وَتَقْدِيرِ الْمُضَافِ، فَلَيْسَ

المَقْصُودُ تَحْدِيدَ عَرْضِهَا حَتَّى يَمْتَنِعَ كَوْنُهَا فِي السَّمَاءِ، بَلِ الْكَلَامُ كِنَايَةً عَنْ غَايَةِ السَّعَةِ بِمَا هُوَ فِي تَصَوُّيرِ السَّامِعِينَ، وَالْعَرَبُ كَثِيرًا مَا تَصِفُ الشَّيْءَ بِالْعَرَضِ إِذَا أَرَادُوا وَصْفَهُ بِالسَّعَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَعْرَضَ فِي الْمَكَارِمِ إِذَا تَوَسَّعَ فِيهَا. ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أَيِ هَيْئَتٍ لِلْمُطِيعِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِمْ؛ لِإِلْيَازٍ بِأَنَّهُمْ الْمَقْصُودُونَ بِالذَّاتِ، وَأَنَّ دُخُولَ غَيْرِهِمْ كَعَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ بِطَرِيقِ التَّبَعِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: وَفِي الْعَرَضِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ. وَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ تَنْبِيْهًُا عَلَى اتِّسَاعِ طَوْلِهَا، فَإِنَّ الْعَرَضَ فِي الْعَادَةِ أَذْنَى مِنَ الطُّولِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ فُرْشِ الْجَنَّةِ: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، أَيِ فَمَا ظَنُّكَ بِظَاهِرِهَا؟ فَكَذَا هُنَا. الثَّانِي: قَالَ الْقَقَالُ: لَيْسَ الْمَرَادُ بِالْعَرَضِ هَهُنَا: مَا هُوَ خِلَافُ الطُّولِ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ السَّعَةِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: بِلَادٌ عَرِيضَةٌ، وَيُقَالُ: هَذِهِ دَعَايَ عَرِيضَةٌ، أَيِ وَاسِعَةٌ عَظِيمَةٌ. وَالْأَصْلُ فِيهِ: أَنَّ مَا اتَّسَعَ عَرْضُهُ لَمْ يَضِقْ وَمَا ضَاقَ عَرْضُهُ دَقَّ، فَجُعِلَ الْعَرَضُ كِنَايَةً عَنْ السَّعَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَالْمَسَارَعَةُ عَلَى التَّقَادِيرِ كُلِّهَا تَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابِ الْمَغْفَرَةِ، وَأَسْبَابُ دُخُولِ الْجَنَّةِ. وَجِيءَ بِصِغَةِ الْمَفَاعَلَةِ، مُجَرَّدَةً عَنْ مَعْنَى حُصُولِ الْفِعْلِ مِنْ جَانِبَيْنِ، قَصَدَ الْمِبَالِغَةَ فِي طَلَبِ الْإِسْرَاعِ، وَالْعَرَبُ تَأْتِي بِمَا يَدُلُّ فِي الْوَضْعِ عَلَى تَكَرُّرِ الْفِعْلِ وَهُمْ يُرِيدُونَ التَّأَكِيدَ وَالْمِبَالِغَةَ دُونَ التَّكْرِيرِ، وَنَظِيرُهُ التَّنْبِيْهُ فِي قَوْلِهِمْ: (لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]. وَتَنْكِيرُ مَغْفَرَةٍ وَوَصْلُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مَعَ تَأْنِيٍّ الْإِضَافَةِ بِأَنَّ يُقَالُ: ﴿إِلَى مَغْفَرَةِ رَبِّكُمْ﴾؛ لِقَصْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْظِيمِ. وَوَصَفِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ عَرْضَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، بِدَلِيلِ التَّصْرِيحِ بِحَرْفِ التَّشْبِيهِ فِي نَظِيرَتِهَا فِي آيَةِ سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفَرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢١). وَقَالَ الْعَنِيْمِيُّ: قَالَ اللَّهُ: ﴿وَسَارِعُوا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَسْرِعُوا؛ لِأَنَّ الْمَفَاعِلَةَ تَكُونُ مِنْ اثْنَيْنِ فِي الْغَالِبِ. وَالْمَعْنَى: لِيَسْبِقُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِلَى الْمَغْفَرَةِ وَالْجَنَّةِ. وَالْمَسَارَعَةُ إِلَى الْمَغْفَرَةِ هِيَ: الْمَسَارَعَةُ إِلَى فِعْلِ أَسْبَابِ الْمَغْفَرَةِ، وَأَسْبَابُ الْمَغْفَرَةِ: إِمَّا اسْتِغْفَارُ، وَإِمَّا عَمَلٌ صَالِحٌ؛

لأن من الأعمال الصالحة ما يُكفّر الله به الخطايا مثل: الصلوات الخمس، الجمعة إلى الجمعة، رمضان إلى رمضان، العمرة إلى العمرة. وقوله: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾؛ لأن الإنسان لا تتمّ سعادته إلا بزوال المكروه، وحصول المطلوب، وزوال المكروه يكون بالمغفرة، وحصول المطلوب يكون بالجنة. والجنة هنا: هي الدار التي أعدّها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: هذا لا يدلّ على أنّ الجنة ملأت السموات والأرض وصارت في محلّهما، بل تدلّ على أنّ عرضها عرض السموات والأرض وإن كانت هي فوقهم؛ ولذلك نقول: إنّ الجنة فوق السموات والأرض كلّها؛ لحديث: "إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ" رواه البخاري، وهذا يدلّ على أنّ الجنة فوق السموات، وأمّا النار فهي في أسفل السافلين. وقال بعض أهل العلم: إنه إذا كان عرضها السموات والأرض، فطولها أعظم وأعظم؛ لأن العادة أنّ العرض دون الطول. ولكنّ الصحيح: أنّ عرضها واحد، ليس لها عرض وطول، وذلك لأنها مستديرة، وليست مربعة، وإذا كانت كذلك، فإنّ عرضها يكون طولها. ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي أعدّها الله، ولكنّه ذكّر بصيغة المجهول؛ ليوافق قوله تعالى في النار قَبْلُ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. والمتقون: هم الذين اتّخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

• قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّ الله تعالى لما بيّن أنّ الجنة مُعَدَّةٌ لِلْمُتَّقِينَ، ذكّر صفات المُتَّقِينَ حتّى يتِمَّكَنَ الإنسانُ مِنْ اكْتِسَابِ الْجَنَّةِ بِوَاسِطَةِ اكْتِسَابِ تِلْكَ الصِّفَاتِ. وقال القرطبي: قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ...﴾ هَذَا مِنْ صِفَةِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أُعِدَّتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ.

وقال ابن عاشور: أعقَب الله وصف الجنة بذكر أهلها؛ لأن ذلك مما يزيد التنويه بها.

● تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وجوه: الأول: أن المعنى: أنهم في حال الرخاء واليسر والقدرة والعسر لا يتركون الإنفاق، وبالجملة فالسراء هو: الغنى، والضرراء هو: الفقر. الثاني: أن المعنى: أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس. الثالث: المعنى أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه. وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق؛ لأنه طاعة شاقّة ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين. وقال القرطبي: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المؤمنين الذين أعدت لهم الجنة. وظاهر الآية: أنها مدح بفعل المندوب إليه. و(السراء): اليسر. (والضرراء): العسر، قاله ابن عباس، والكلبي، ومقاتل. وقال عبيد بن عمير، والضحاك: السراء والضرراء: الرخاء والشدة. ويُقال في حال الصحة والمريض. وقيل: في السراء في الحياة، وفي الضرراء يعني يوصي بعد الموت. وقيل: في السراء في العرس والولائم، وفي الضرراء في التوابع والمآتم. وقيل: في السراء النفقة التي تسرهم، مثل النفقة على الأولاد والقرابات، والضرراء على الأعداء. ويُقال: في السراء: ما يضيف به الفتى ويهدي إليه. والضرراء: ما ينفقه على أهل الضر ويصدق به عليهم. قلت: والآية تعم. وقال البيضاوي: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾: صفة مريحة للمؤمنين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿في السراء والضرراء﴾: أي في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يخلو في حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير. وقال أبو حيان: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: المعنى: لا يمنعهم حال سرور ولا حال ابتلاء عن بذل المعروف. وقال ابن كثير: أي يُنْفِقُونَ في الشدة

وَالرَّخَاءِ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَضِيهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: وَمَفْعُولُ (يُنْفِقُونَ) مَحْذُوفٌ؛ لِيَتَنَاوَلَ كُلُّ مَا يَصْلُحُ لِلْإِنْفَاقِ الْمُحْمُودِ، أَوْ مَتْرُوكُ الْكُلِّيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ يُعْطِي. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: بَدَأَ اللَّهُ بِالْإِنْفَاقِ دُونَ ذِكْرِ الصَّلَاةِ مَثَلًا، وَالصَّلَاةُ أَهَمُّ مِنَ الْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا نَهَى عَنْ أَكْلِ الرِّبَا بَدَأَ بِضَدِّهِ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٩]. وَحُذِفَ الْمَفْعُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى الْعُمُومِ، أَيْ يَنْفِقُونَ كُلَّ مَا يُمْكِنُ إِنْفَاقَهُ مِنْ أَعْيَانٍ، وَمَنَافِعٍ، وَجَاهٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنْفِقُ أَعْيَانًا كَالثِّيَابِ، وَدِرَاهِمَ كَالنَّقُودِ مَثَلًا، وَكَذَلِكَ قَدْ يُنْفِقُ مَنَافِعَ بَأَنٍ يُعِيرُ شَخْصًا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ هَذَا الْمُسْتَعِيرُ، وَجَاهًا بَأَنٍ يَتَوَسَّطُ لِشَخْصٍ أَوْ يَشْفَعُ لَهُ.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: قَالَ الرَّازِيُّ: أَيْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ عَنِ الْإِمْضَاءِ يَرُدُّونَ غَيْظَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ، وَهَذَا الْوَصْفُ مِنْ أَقْسَامِ الصَّبْرِ وَالْحِلْمِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشُّورَى: ٣٧]. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: كَظُمَ الْغَيْظُ: رُدُّهُ فِي الْجَوْفِ، يُقَالُ: كَظَمَ غَيْظَهُ: أَيْ سَكَتَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُظْهِرْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِيقَاعِهِ بَعْدَوَهُ. وَالْغَيْظُ: أَصْلُ الْغَضَبِ. وَكَثِيرًا مَا يَتَلَاوَزُ مَا بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْغَيْظَ لَا يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ، بِخِلَافِ الْغَضَبِ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ فِي الْجَوَارِحِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ إِسْنَادُ الْغَضَبِ إِلَى اللَّهِ؛ إِذْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ النَّاسِ الْغَيْظَ بِالْغَضَبِ، وَلَيْسَ بِجَيِّدٍ. وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: أَيْ الْمُمْسِكِينَ عَلَيْهِ، الْكَافِينَ عَنْ إِمْضَائِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ، مِنْ كَظَمَتِ الْقَرْبَةَ إِذَا مَلَأَتْهَا وَشَدَّدَتْ رَأْسَهَا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: الْغَيْظُ: فِعْلٌ نَفْسَانِيٌّ لَا يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ. وَالْغَضَبُ: فِعْلٌ لَهَا مَعَهُ ظُهُورٌ فِي الْجَوَارِحِ، وَفِعْلٌ مَا وَلَا بُدَّ؛ وَلِذَلِكَ أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ؛ إِذْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُسْنَدُ الْغَيْظُ إِلَيْهِ تَعَالَى.

وقال ابن كثير: أَي إِذَا ثَارَ بِهِمُ الْغَيْظُ كَظْمُوهُ، بِمَعْنَى كَتَمُوهُ فَلَمْ يَعْمَلُوهُ، وَعَقَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ. وقال أبو السعود: ﴿وَالكَاضِمِينَ الْغَيْظَ﴾ عَظَفَ عَلَى الْمُصُولِ. والْعُدُولُ إِلَى صِيعَةِ الْفَاعِلِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ، وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ فَحَيْثُ كَانَ أَمْرًا مُتَجَدِّدًا عَبَّرَ عَنْهُ بِمَا يُفِيدُ الْحُدُوثَ وَالتَّجَدُّدَ. وقال العثيمين: الْكَظْمُ: مَعْنَاهُ: الْمَنَعَ مَعَ أَلَمْ وَشِدَّةً وَتَأَثَّرًا. والغَيْظُ: قِيلَ: إِنَّهُ أَشَدُّ الْغَضَبِ.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: قال الرازي: قَالَ الْقَفَّالُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَاجِعًا إِلَى مَا ذُكِّرَ مِنْ فِعْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكْلِ الرِّبَا، فَتُهَيِّى الْمُؤْمِنُونَ عَنْ ذَلِكَ وَنُدْبُوا إِلَى الْعَفْوِ عَنِ الْمُعْسِرِينَ. وقال القرطبي: الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ أَجَلُ ضَرْبٍ فِعْلٍ الْخَيْرِ، حَيْثُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْفُو وَحَيْثُ يَنْتَجِهُ حَقُّهُ. وَكُلُّ مَنْ اسْتَحَقَّ عُقُوبَةً فَتَرَكْتُ لَهُ فَقَدْ عَفِيَ عَنْهُ. وَاحْتِلَفَ فِي مَعْنَى: ﴿عَنِ النَّاسِ﴾، فَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالْكَلْبِيُّ، وَالرَّجَّاجُ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: يُرِيدُ عَنِ الْمَمَالِكِ. وقال زيد ابن سلم: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: أَي عَنْ ظُلْمِهِمْ وَإِسَاءَتِهِمْ. وَهَذَا عَامٌّ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ. وقال البيضاوي: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: أَيِ التَّارِكِينَ عُقُوبَةً مَنِ اسْتَحَقُّوا مُوَاحَدَتَهُ. وقال أبو حيان: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: أَيِ عَنِ الْجُنَاةِ وَالْمُسِيئِينَ. وقال ابنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ: الْمَمَالِكُ. وَهَذَا مِثَالٌ؛ إِذِ الْأَرْقَاءُ تَكْتُرُ ذُنُوبَهُمْ لِجَهْلِهِمْ وَمُلَازِمَتِهِمْ، وَإِنْفَادُ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ سَهْلٌ؛ لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيِ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ إِذَا جَهِلُوا عَلَيْهِمْ. وقال البقاعي: لَمَّا كَانَ الْكَاضِمُ غَيْظَهُ عَنْ أَنْ يَتَجَاوَزَ فِي الْعُقُوبَةِ قَدْ لَا يَعْفُو حَتَّى عَلَى الْعَفْوِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْعَافِينَ﴾، وَعَمَّ فِي الْحُكْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَنِ النَّاسِ﴾، أَيِ ظَلَمَهُمْ هُمْ وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا مِنْهُمْ أَوْ جَرَحُوهُمْ؛ وَلَمَّا كَانَ التَّقْدِيرُ: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُمْ؛ لِإِحْسَانِهِمْ، عَظَفَ عَلَيْهِ . تَنْوِيهَا بِدَرَجَةِ الْإِحْسَانِ . قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وقال أبو السعود: فِي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: إِشْعَارٌ بِكَمَالِ حُسْنِ مَوْقِعِ عَفْوِهِ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . عَنِ الرُّمَاءِ، وَتَرَكَ مُوَاحَدَتَهُمْ بِمَا فَعَلُوا مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَنَدَبَ لَهُ إِلَى تَرَكَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُجَازَاةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا فَعَلُوا بِحِمْرَةٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ:

أَصْلُ الْكَظْمِ: شَدُّ رَأْسِ الْقَرْبَةِ عِنْدَ امْتِلَائِهَا، وَيُقَالُ: فَلَا كَظِيمٌ أَيْ مُتَمَلِّئٌ حُزْنًا. وَالْعَيْظُ: هَيْجَانُ الطَّنَعِ عِنْدَ رُؤْيَا مَا يُنْكِرُ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَيْظِ وَالْعَضَبِ عَلَى مَا قِيلَ: إِنَّ الْعَضَبَ يَتَّبِعُهُ إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ، وَلَا كَذَلِكَ الْعَيْظُ. وَقِيلَ: الْعَضَبُ: مَا يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ وَالْبَشَرَةِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ، وَالْعَيْظُ لَيْسَ كَذَلِكَ. وَقِيلَ: هُمَا مُتَلَازمانِ إِلَّا أَنَّ الْعَضَبَ يَصِحُّ إِسْنَادُهُ إِلَى اللَّهِ، وَالْعَيْظُ لَا يَصِحُّ فِيهِ ذَلِكَ. وَالْمَرَادُ: وَالْمُتَجَرِّعِينَ لِلْعَيْظِ الْمُمْسِكِينَ عَلَيْهِ عِنْدَ امْتِلَائِهِ نُفُوسَهُمْ مِنْهُ، فَلَا يُنْفِقُونَ مِمَّنْ يُدْخِلُ الضَّرَرَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُبْذُونَ لَهُ مَا يَكْرَهُ، بَلْ يَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْإِنْفَازِ وَالْإِنْتِقَامِ وَهَذَا هُوَ الْمَمْدُوحُ، فَقَدْ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَازِهِ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا". وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ الْخَوَرِ شَاءَ" صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَفِي الْأَوَّلِ جَزَاءٌ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَفِي الثَّانِي مَا هُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ. وَهَذَا الْوَصْفُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ. وَالْعُدُولُ إِلَى صِيعَةِ الْفَاعِلِ هُنَا؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ، وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ فَحَيْثُ كَانَ أَمْرًا مُتَجَدِّدًا عَبَّرَ عَنْهُ بِمَا يُفِيدُ التَّجَدُّدَ وَالْحُدُوثَ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الصِّفَةُ الثَّلَاثَةُ: الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ فِيمَا أَسَاءُوا بِهِ إِلَيْهِمْ. وَهِيَ تَكْمِلَةٌ لِصِفَةِ كَظْمِ الْعَيْظِ بِمَنْزِلَةِ الْإِحْتِرَاسِ؛ لِأَنَّ كَظْمَ الْعَيْظِ قَدْ تَعَرَّضَهُ نَدَامَةٌ فَيَسْتَعْدِي عَلَى مَنْ غَاظَهُ بِالْحَقِّ، فَلَمَّا وَصِفُوا بِالْعَفْوِ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كَظْمَ الْعَيْظِ وَصْفٌ مُتَأَصِّلٌ فِيهِمْ مُسْتَمِرٌّ مَعَهُمْ. وَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي نَفْسٍ سَهْلٍ مَا دُونَهَا لَدَيْهَا. وَبِجْمَاعِهَا يَجْتَمِعُ كَمَالُ الْإِحْسَانِ وَلِذَلِكَ دَلَّلَ اللَّهُ ذِكْرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مُحْسِنُونَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: الْعَفْوُ: تَرْكُ الْمُواخَاذَةِ عَلَى الذَّنْبِ. وَالْمَعْنَى: هُمُ الَّذِينَ إِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِإِسَاءَتِهِ بِالْعَفْوِ. وَخَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقَابِلُوهُ بِالْإِحْسَانِ، لَكِنْ بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، أَمَّا مَنْ عَفَا لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ فَهَذَا عَفْوُ الْعَاجِزِ

الذي لا يحمد عليه، بل يكون عفوه هذا عجزاً مذموماً؛ ولهذا قال الله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فأنتم إن عفوتُم عن السوء قد تعفون عن قُدرة وقد تعفون عن عجز، أما الله فإنه يعفو عن قدرة، وهذا هو محل المدح. وقال أيضا: وقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ عام شامل، ولكنه ليس على عمومته بالاتفاق، فإن الإساءة إذا كانت في حق الله فهي لله وليس لأحد أن يعفو عنها، فلو زنى رجل بمحرّم رجل وأراد أن يعفو عنه، قلنا: لا يمكن، الحق ليس إليك، والله يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، أمّا إذا كان حقاً للإنسان ليس فيه شائبة حق لله فهذا أيضا ليس على عمومته بل يُنظر فيه، فإن اقتضت المصلحة العفو فالعفو خير، وإن اقتضت المصلحة المؤاخذه فالمؤاخذه خير، وإن لم تقتض المصلحة لا هذا ولا هذا بأن تساوى الأمران فالعفو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، والدليل على هذا أنّ الله قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فعلم منه أنّ من عفا بدون إصلاح فلا أجر له، بل قد يأثم على عفوه، مثال ذلك: رجل اعتدى عليه شخص شرير، كلما عفا الناس عنه ازداد شرّاً، فهنا المؤاخذه خير. وقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يشمل حتى عن الكفار إذا لم يكونوا حربيين، فإنّ الإنسان إذا عفا عنهم فيما يتعلق بحقه الخاص، وكان في العفو إصلاح فإنه يدخل تحت الآية الكريمة.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: قال مكّي: أي يحبُّ من عمل بهذه الصفات. وقال الواحدي: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: قال ابن عباس: يريد الموحّدين، الذين هذه الخصال فيهم. وقال الرازي: اعلم أنّ الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه. أمّا إيصال النفع إليه فهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات، وأمّا دفع الضرر عن الغير فهو إمّا في الدنيا،

وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير؛ ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر الله ثوابها، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وقال القرطبي: أي يثيبهم على إحسانهم. قال سري السقطي: الإحسان: أن تحسن وقت الإمكان، فليس كل وقت يمكنك الإحسان. وقال أبو حيان: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: هم الذين يوقعون الأعمال الصالحة، مراقبين الله كأهم مشاهدوه. وقال الحسن: الإحسان: أن تعلم ولا تحصى، كالريح والمطر والشمس والقمر. وقال الثوري: الإحسان: أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إليه مناجزة، كنقد السوق، خذ مني وهات. وقال أبو السعود: عبر عنهم بالمحسنين؛ إيداناً بأن الثعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حُسْنُهَا الوصفِي المستلزم لحُسْنِهَا الدَّائِي، وقد فسره. عليه السلام. بقوله: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" متفق عليه. والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها. وقال الألوسي: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: تذييل لمضمون ما قبله، ويمكن أن يقال: الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجوه الثبح. وعبر عنهم بذلك؛ للإشارة إلى أنهم في جميع تلك الثعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط. ومما يؤيد كون الإحسان هنا بمعنى الإنعام ما أخرجه البيهقي: "أَنَّ جَارِيَةَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. جَعَلَتْ تَسْكُبُ عَلَيْهِ الْمَاءَ لِيَتَهَيَّأَ لِلصَّلَاةِ، فَسَقَطَ الْإِبْرِيُّ مِنْ يَدِهَا فَشَجَّهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالكَافِرِينَ﴾، فَقَالَ لَهَا: كَظَمْتُ غَيْظِي. قَالَتْ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قَالَ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. قَالَتْ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قَالَ: أَذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ لَوْجَهَ اللَّهِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: (اللام) إما للجنس، وهم داخلون فيه دُخُولًا أَوَّلِيًّا. وإما للعهد، عبر

عَنْهُمْ بِالْمُحْسِنِينَ إِذَا نَأَى بَأَنَّ النُّعُوتَ الْمُعْدُودَةَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ الَّذِي هُوَ الْإِثْيَانُ بِالْأَعْمَالِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ الَّذِي هُوَ حُسْنُهَا الْوَصْفِيُّ الْمُسْتَلَزِمُ لِحُسْنِهَا الدَّائِي. وقال السعدي: الإحسان نوعان: الأول: الإحسان في عبادة الخالق. الثاني: الإحسان إلى المخلوق. فالإحسان في عبادة الخالق فسره النبي ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" متفق عليه. وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والديني إليهم، ودفع الشر الديني والديني عنهم. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: يعني الذين يحسنون إلى الناس، وهل المراد بذلك المحسنين فيما سبق، أو المحسنين فيما يُستقبل؟ بمعنى: هل إن قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ عائد على قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وأن هؤلاء من المحسنين، أو أنه لما ذكر العفو ذكر حالاً أخرى أكمل منها وهي الإحسان، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، يعني فإذا أحسنوا مع العفو كان ذلك سبباً لمحبة الله؟ الجواب: الثاني له وجه، والأول أعم؛ لأنَّ المتقي محسن إذا كان كما وصف النبي . عليه الصلاة والسلام .: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ" متفق عليه، وكذلك الإنفاق إحسان، وكظم الغيظ إحسان، والعفو عن الناس إحسان، فيكون هذا أشمل، فعليه نقول: هذه الجملة فيها الترغيب والحث على فعل الخصال السابقة وأنها من الإحسان. وإذا فعل الإنسان خصلة أعلى مما سبق كانت داخلة في هذا من باب أولى، يعني كما لو عفا وأحسن، فإننا نقول: هذه خصلة زائدة على مجرد العفو، فتكون أولى بالدخول في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾:
- سبب نزول الآية: قال ابن الجوزي: في سَبَبِ نَزُولِهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: "أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ إِلَى نَبْهَانَ التَّمَارِ تَشْتَرِي مِنْهُ تَمْرًا فَصَمَّمَهَا، وَقَبَّلَهَا، ثُمَّ نَدِمَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ" رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثَّانِي: "أَنَّ أَنْصَارِيًّا وَثَقَفِيًّا أَخَى النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَهَا، فَخَرَجَ الثَّقَفِيُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَكَانَ الْأَنْصَارِيُّ يَتَعَهَّدُ أَهْلَ الثَّقَفِيِّ، فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَبْصَرَ الْمَرْأَةَ قَدْ اغْتَسَلَتْ وَهِيَ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، فَدَخَلَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ؛ فَذَهَبَ لِيَلْتَمِسَهَا فَوَضَعَتْ كَفَّهَا عَلَى وَجْهِهَا فَقَبَّلَهُ ثُمَّ نَدِمَ، فَأَذْبَرَ رَاجِعًا، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ حُنْتُ أَمَانَتَكَ، وَعَصَيْتَ رَبَّكَ، وَلَمْ تُصِبْ حَاجَتَكَ: قَالَ: فَخَرَجَ يَسِيحُ فِي الْجِبَالِ، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَنْبِهِ. فَلَمَّا قَدِمَ الثَّقَفِيُّ أَخْبَرَتْهُ الْمَرْأَةُ بِفِعْلِهِ، فَخَرَجَ يَطْلُبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَيْهِ، فَدَمَّ عَلَى صَنِيعِهِ فَوَافَقَهُ سَاجِدًا يَقُولُ: ذَنْبِي ذَنْبِي، قَدْ حُنْتُ أَخِي فَقَالَ لَهُ: يَا فُلَانُ انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَنْ ذَنْبِكَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ مَخْرَجًا، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِتَوْبَتِهِ" رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ مُقَاتِلٌ.

الثَّالِثُ: "أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنَّا! كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَذْنَبَ، أَصْبَحَتْ كَفَّارَةُ ذُنُوبِهِ مَكْتُوبَةً فِي عَتَبَةِ بَابِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَآتَى قَبْلَهَا". هَذَا قَوْلُ عَطَاءٍ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ وَجْهَ النَّظْمِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا وَصَفَ الْجَنَّةَ بِأَتَمِّ مَعْدَةٍ لِلْمُتَّقِينَ بَيَّنَّ أَنَّ الْمُتَّقِينَ قِسْمَانِ: أَحَدُهُمَا: الَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَهُمْ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالْإِنْفَاقِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَكُظُمِ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ. وَثَانِيَهُمَا: الَّذِينَ أَذْنَبُوا ثُمَّ تَابُوا وَهُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، وَبَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ الْفِرْقَةَ كَالْفِرْقَةِ الْأُولَى فِي كَوْنِهَا مُتَّقِيَةً، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَذْنِبَ إِذَا تَابَ عَنِ الذَّنْبِ صَارَ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ فِي اسْتِحْقَاقِ الْمُنَازَلَةِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ.

الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ نَدَبَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى إِلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ، وَنَدَبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الْإِحْسَانِ إِلَى النَّفْسِ، فَإِنَّ الْمَذْنِبَ إِذَا تَابَ كَانَتْ تِلْكَ التَّوْبَةُ إِحْسَانًا مِنْهُ إِلَى نَفْسِهِ. وَقَالَ الْبَقَايِيُّ: وَلَمَّا أُخْبِرَ أَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُحْسِنِينَ إِلَى الْغَيْرِ وَمَنْ قَارَبَهُمْ، أُخْبِرَ أَنَّهَا لِمَنْ دُوَّاهُمْ فِي الرُّتْبَةِ مِنَ التَّائِبِينَ الْمُحْسِنِينَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ؛ اسْتِجْلَابًا لِمَنْ رَجَعَ عَنْ غُرُوزِهِمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَلِغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَاصِينَ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: اختلف المفسرون في المراد بذلك على أقوال: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاحِشَةُ: الزَّنا. وَظَلَمَ النَّفْسَ: مَا دُونَ الزَّنا مِنَ النَّظَرِ وَاللَّمْسَةِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْفَاحِشَةُ: الزَّنا. وَظَلَمَ النَّفْسَ: سَائِرُ الْمَعَاصِي. وَقَالَ النَّحْعِيُّ: الْفَاحِشَةُ: الْقَبَائِحُ. وَظَلَمَ النَّفْسَ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَهُوَ لِيَزَادَةَ الْبَيَانِ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: جَمِيعُ الْمَعَاصِي. وَظَلَمَ النَّفْسَ: الْعَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا حُجَّةٍ. وَقَالَ الْبَاقِرُ: الْفَاحِشَةُ: النَّظَرُ إِلَى الْأَفْعَالِ. وَظَلَمَ النَّفْسَ: رُؤْيَا النِّجَاحِ بِالْأَعْمَالِ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: الْكِبِيرَةُ، وَظَلَمَ النَّفْسَ: الصَّغِيرَةُ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: مَا تُظْهِرُ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي. وَقِيلَ: مَا أُخْفِيَ مِنْهَا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ، وَالْكَلْبِيُّ: الْفَاحِشَةُ: مَا دُونَ الزَّنا مِنَ قُبْلَةٍ أَوْ لَمْسَةٍ أَوْ نَظَرَةٍ فِيمَا لَا يَحِلُّ. وَظَلَمَ النَّفْسَ بِالْمَعْصِيَةِ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: الذَّنْبُ الَّذِي فِيهِ تَبَعَةٌ لِلْمَحْلُوقِينَ. وَظَلَمَ النَّفْسَ: مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: كُلُّ فِعْلٍ يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْحَدُّ فِي الدُّنْيَا. وَظَلَمَ النَّفْسَ: مَا دُونَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: مَا اسْتَوْجِبُ بِهِ النَّارَ. وَظَلَمَ النَّفْسَ: مَا اسْتَوْجِبُ بِهِ الْحِسَابَ وَالْحَبْسَ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: فِعْلَةٌ مَتَزَايِدَةُ الْقُبْحِ. وَظَلَمَ النَّفْسَ: أَيُّ ذَنْبٍ يُوَاحِدُ بِهِ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ: الْمَعْصِيَةُ الْفِعْلِيَّةُ. وَظَلَمَ النَّفْسَ: الْمَعْصِيَةُ الْقَوْلِيَّةُ. وَقِيلَ: الْفَاحِشَةُ مَا يَتَعَدَّى. وَظَلَمَ النَّفْسَ: مَا لَيْسَ كَذَلِكَ. وَقِيلَ: هَذِهِ تَخْصِيصَاتٌ تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ صِنْفًا دُونَ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ، فَأَلْحَقَهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَمِنْهُ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ التَّوَابُونَ. وَقَوْلُهُ: (وَالَّذِينَ) عَطَفُ جُمْلَةٍ نَاسٍ عَلَى جُمْلَةٍ أُخْرَى، وَلَيْسَ (الَّذِينَ) بِنَعْتٍ كَرَّرَ مَعَهُ وَآوِ الْعَطْفِ،

لَأَنَّ تِلْكَ الطَّبَقَةَ الْأُولَى تُنَزَّهَ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَالْفَاحِشَةُ هُنَا: صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ أُقِيمَتِ الصِّفَةُ مَقَامَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: فَعَلُوا فَعْلَةً فَاحِشَةً. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: اخْتَلَفُوا هَلْ هَذِهِ الْآيَةُ نَعَتْ لِلْمُنْفِقِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ؟ أَمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَتَمَّا نَعَتْ لَهُمْ، قَالَهُ الْحَسَنُ. الثَّانِي: أَتَمَّا لِصِنْفٍ آخَرَ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وَالْفَاحِشَةُ: الْقَبِيحَةُ. وَكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ، فَهُوَ فَاحِشٌ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَتَبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: الْمَوْصُولُ إِمَّا مَفْصُولٌ عَمَّا قَبْلَهُ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَهُمَا مُشِيرٌ إِلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاوُتِ، فَإِنَّ دَرَجَةَ الْأَوَّلِينَ مِنَ التَّقْوَى أَعْلَى، وَحَظُّهُمْ أَوْفَى، أَوْ عَلَى الْمُتَّقِينَ، فَيَكُونُ التَّفَاوُتُ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ. وَأَصْلُ الْفُحْشِ: مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي السُّوءِ. فَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْفَاحِشَةِ هُنَا: الْمُعْصِيَةُ الْبَالِغَةُ فِي الْقُبْحِ. وَالْمُرَادُ بِالظُّلْمِ هُنَا: الدَّنْبُ مُطْلَقًا. وَذِكْرُهُ بَعْدَهَا مِنْ ذِكْرِ الْعَامِّ بَعْدَ الْخَاصِّ. وَ(أَوْ) لِلتَّنْوِيعِ. وَلَا يَرِدُ أَنَّهُ عَلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ: التَّرْدِيدُ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَقَدْ تَوَقَّفَ فِي قَبُولِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا تَرْدِيدٌ بَيْنَ فِرْقَتَيْنِ مَنْ يَسْتَغْفِرُ لِلْفَاحِشَةِ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ لِأَيِّ ذَنْبٍ صَدَرَ عَنْهُ وَكَمْ بَيْنَهُمَا. وَجَوَابُ (إِذَا): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إِنْ كَانَ عَطَفَ فَرِيقٍ آخَرَ، فَهُمْ غَيْرُ الْمُتَّقِينَ الْكَامِلِينَ، بَلْ هُمْ فَرِيقٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَإِنْ كَانَ عَطَفَ صِفَاتٍ، فَهُوَ تَفْضِيلٌ آخَرُ لِحَالِ الْمُتَّقِينَ بِأَنْ ذَكَرَ أَوَّلًا حَالَ كَمَالِهِمْ، وَذَكَرَ بَعْدَهُ حَالَ تَدَارُكِهِمْ نَقَائِصَهُمْ. وَالْفَاحِشَةُ: هِيَ الْفَعْلَةُ الْمُتَجَاوِزَةُ الْحَدَّ فِي الْفُسَادِ؛ وَلِذَلِكَ جُمِعَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]. وَاشْتِقَاقُهَا مِنْ فَحَشَ بِمَعْنَى: قَالَ قَوْلًا دَمِيمًا، كَمَا فِي قَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا" أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالتَّيَالِسِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، أَوْ فَعَلَ فِعْلًا دَمِيمًا، وَمِنْهُ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾

[الأعراف: ٢٨]. ولا شكَّ أنَّ التَّعْرِيفَ هُنَا تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، أَيَّ فَعَلُوا الْفَوَاحِشَ. وظلُّمُ النَّفْسِ: هو الذُّثُوبُ الْكَبَائِرُ، وَعَطْفُهَا هُنَا عَلَى الْفَوَاحِشِ كَعَطْفِ الْفَوَاحِشِ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال العثيمين: ﴿وَالَّذِينَ﴾: (الواو) هذه حرف عطف، والأصل في المعطوف أن يكون مغايرًا للمعطوف عليه، ولكن المغايرة قد تكون في المعنى، وقد تكون في الصفة، وقد تكون في اللفظ، وقد تكون في الذات، فلا يلزم من المغايرة إذا قلنا: إنَّ العطف يقتضي المغايرة أن يكون المغايرة بالذات، بل قد يكون التغير في الصفة، وفي اللفظ، وفي المعنى، وفي الذات، فإذا قلنا: (قدم زيد وعمرو)، فهنا العطف اقتضى المغايرة في الذات؛ لأن هذا غير هذا لا شكَّ، وفي هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ المغايرة بالصفة، فهي كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾ [الأعلى]، هل الذي قدَّرَ فهدى والذي أخرج المرعى هو الله، لكن هذا عطف صفة على صفة؛ ولهذا لا يأتي في اللغة العربيَّة: (كذبًا وكذبًا)، إنما يأتي (كذبًا ومينًا)، والمين: هو الكذب، فلا بدَّ من تغير اللفظ. والتغير في المعنى قريب من التغير في الصفة، فالذي معنا الآن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ من باب تغير الصفة. ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، والفاحشة: هي ما يُستفحش شرعًا أو عرفًا مثل الزنا، فإنَّ الزنا فاحشة شرعية وفاحشة عرفية، كذلك اللواط فاحشة شرعية وعرفية، قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، كذلك نكاح ما نكح الآباء هو أيضًا فاحشة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [النساء: ٢٢]؛ ولهذا نقول: الفاحشة كل ما يستفحش عقلاً أو شرعًا أو عادة، ولكن في باب الثواب والعقاب المرجع إلى الشرع؛ ولهذا قال بعض العلماء: المراد بالفاحشة الكبيرة. وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: المراد به ما دون الفاحشة؛ وهي الصغائر، وعلى هذا فالعطف بين قوله: ﴿فَاحِشَةً﴾ ﴿أَوْ ظَلَمُوا﴾

أَنفُسَهُمْ﴾ عطف بين متغايرين، وليس من باب عطف العام على الخاص، وإن كانت الفاحشة لا شك أنها داخلة في ظلم النفس، لكن المراد هنا التنويع، وإذا كان المراد التنويع لزم أن يكون كل نوع سوى النوع الآخر.

﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾: للمفسرين في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ أقوال: القول الأول: أن المراد بالذكر هنا: ذِكْرُ اللِّسَانِ، وهو الاستِغْفَارُ، قاله ابنُ مَسْعُودٍ، وَعَطَاءٌ. أو ذِكْرُ اللَّهِ بِالشَّائِءِ والتَّعْظِيمِ والإِجْلَالِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مَسْأَلَةً، فالوَاجِبُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ الشَّائِءَ عَلَى اللَّهِ، فَهَذَا لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ الْإِسْتِغْفَارَ مِنَ الذُّنُوبِ قَدَّمُوا عَلَيْهِ الشَّائِءَ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ اسْتَعْلَوْا بِالْإِسْتِغْفَارِ عَنِ الذُّنُوبِ. القول الثاني: أن المراد بالذكر هنا: ذِكْرُ الْقَلْبِ، ثُمَّ فِيهِ أَقْوَالٌ: الأول: أَنَّهُ ذِكْرُ الْعَرَضِ الْأَكْبَرِ عَلَى اللَّهِ، قاله الضَّحَّاكُ. الثاني: ذِكْرُ وَعِيدِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى مَا أَتَوْا، قاله ابنُ جَرِيرٍ. الثالث: ذِكْرُ نَهْيِ اللَّهِ لَهُمْ عَنْهُ. الرابع: ذِكْرُ عُقْرَانِ اللَّهِ: ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. الخامس: الْخَوْفُ مِنْ عِقَابِهِ وَالْحَيَاءُ مِنْهُ، قاله القرطبي. السادس: تَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَنْهُ، قاله الكَلْبِيُّ، وَمُقَاتِلٌ. السابع: قِيلَ: أَيِ ذَكَّرُوا جَمَالَهُ فَاسْتَحْيَوْا، وَذَكَرُوا جَلَالَهُ فَهَابُوا. الثامن: قِيلَ: ذَكَّرُوا ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ عَنْ جَمِيعِ الْقَبَائِحِ وَأَحَبُّوا التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالْمُنَاسِبَةِ لَهُ بِالتَّطَهُّرِ مِنَ الذَّمِّمِ. التاسع: ذَكَرُوا إِحْسَانَهُ، فَاسْتَحْيَوْا مِنْ إِسَاءَتِهِمْ. قال العثيمين: وقوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾: أي ذكروا الله باللسان، وبالجوارح، وبالقلب. أمَّا ذكر الله بالقلب: فإنه إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا عظمة الله وما أعدَّ للمخالفين من العقاب، وذكروا كذلك رحمة الله وما أعدَّ للطائعين من الثواب، هذا ذكر بالقلب، فإذا ذكروا الله بالمعنى الأول ذكروا عظمته فخافوا من عقابه واستقاموا على دينه؛ هربًا من عقابه، وإذا ذكروا الله بالمعنى الثاني وهو ذكر رحمته وثوابه فإنهم يستقيمون على شرعه؛ طلبًا للوصول إليه، فذكر الأول من باب الهرب، وذكر الثاني من باب الطلب، والعابد بمقتضى الطلب أعلى حالًا من العابد بمقتضى الهرب، قالوا: لأن الطالب ناصح في غيبة المطلوب وفي حضوره، والهارب

ناصح في حضور المخوف لكن في غير حضوره لا يهتم. وذكر الله باللسان يمكن أن يكون المراد به: الذكر الخاص، مثل: لا إله إلا الله. وكذلك أيضاً ذكر الله باللسان يكون بالاستغفار: اللهم اغفر لي أو يقول: أستغفر الله أو ما أشبه ذلك. والذكر بالفعل: هو أنهم يفعلون ما يكفر هذه الذنوب والخطايا، ومن ذلك الصدقة والصلاة.

﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِدُنُوبِهِمْ﴾: قال مكّي: أي استدعوا الغفران من الله، وهو الستر على فعلهم. وقال القرطبي: أي طلبوا الغفران لأجل دُنُوبِهِمْ. وقال الألويسي: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا﴾: أي طلبوا المغفرة منه تعالى. ﴿لِدُنُوبِهِمْ﴾: أي كيفما كانت. ومفعول ﴿فَاسْتَغْفِرُوا﴾ محذوف؛ لفهم المعنى، أي استغفروهم. وقال العثيمين: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِدُنُوبِهِمْ﴾: (الفاء): للترتيب والتعقيب، يعني فإذا ذكروا الله استغفروا لذنوبهم، أي طلبوا المغفرة من الله لذنوبهم. والمغفرة: تعني ستر الذنب والتجاوز عنه. ﴿لِدُنُوبِهِمْ﴾: الذنوب هنا: هي المعاصي.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾: قال ابن عطية: ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ اعتراضاً مرفوعاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجحاً في عفوهِ إذا رجع إليه. وجاء اسم الله مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب؛ حملاً على المعنى؛ إذ هو بمعنى: وما يغفر الذنوب إلا الله. وقال الرازي: والمقصود منه: أن لا يطلب العبد المغفرة إلا من الله، وذلك لأنه تعالى هو القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة، فكان هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، فصَحَّ أنه لا يجوز طلب الاستغفار إلا من الله. وقال القرطبي: أي ليس أحد يغفر المعصية، ولا يُزيل عُقُوبَتَهَا إِلَّا اللَّهُ. وقال البيضاوي: استفهام بمعنى النفي مُعْتَرِضٌ بَيْنَ الْمُعْطُوفَيْنِ، والمراد به وصفه تعالى بِسِعَةِ الرَّحْمَةِ وَعُمُومِ الْمَغْفِرَةِ، والحثُّ على الاستغفار، والوَعْدُ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ. وقال الثعالبي: ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾: اعتراضاً موقفاً للنفس، داعياً إلى الله مرجحاً في عفوهِ، إذا رجع إليه. وجاء اسم (الله) مرفوعاً بعد الاستثناء، والكلام موجب؛ حملاً على المعنى؛ إذ هو بمعنى، وما يغفر الذنوب إلا الله. وقال الشوكاني: وفي الاستفهام

يَقُولُهُ: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مِنَ الْإِنْكَارِ مَعَ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ
 الْمُخْتَصُّ بِذَلِكَ سُبْحَانَهُ دُونَ غَيْرِهِ، أَيْ لَا يَغْفِرُ جِنْسَ الذُّنُوبِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَفِيهِ تَرْغِيبٌ
 لِمَطْلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَنْشِيطٌ لِلْمُذْنِبِينَ أَنْ يَقِفُوا فِي مَوَاقِفِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، وَهَذِهِ
 الْجُمْلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ بَيْنَ الْمُعْطُوفِ وَالْمُعْطُوفِ عَلَيْهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا
 اللَّهُ﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُعْطُوفَيْنِ، أَوْ بَيْنَ الْحَالِ وَذِيهَا. وَالتَّرْكِيبُ عَلَى مَا أَفَادَهُ بَعْضُ
 الْمُحَقِّقِينَ يَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ، وَأُمُورٍ مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَعَلَى وَجْهِهِ:
 أَحَدُهَا: دَلَالَةُ اسْمِ الذَّاتِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ مَعْنَى الْعُقْرَانِ الْوَاسِعِ. وَإِيرَادُ
 التَّرْكِيبِ عَلَى صِيغَةِ الْإِنْشَاءِ دُونَ الْإِخْبَارِ بِأَنْ لَمْ يَقُلْ: (وَمَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) تَقْرِيرٌ
 لِدَلِيلِ الْمَعْنَى وَتَأْكِيدٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ تَعْرِفُونَ أَحَدًا يَقْدِرُ عَلَى غَفْرِ الذُّنُوبِ كُلِّهَا
 صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا سَالِفِهَا وَغَابِرِهَا غَيْرَ مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ. وَثَانِيهَا: تَقْدِيمُهُ عَنْ
 مَكَانِهِ وَإِزَالَتِهِ عَنْ مَقَرِّهِ؛ لِأَنَّهُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُتَدَاوِلِ وَهُوَ (الَّذِينَ) وَالْخَبَرُ الْآتِي، ثُمَّ بَيْنَ
 الْمُعْطُوفِ وَالْمُعْطُوفِ عَلَيْهِ أَوْ الْحَالِ وَصَاحِبِهِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ الْإِهْتِمَامِ بِهِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى
 أَنَّهُ كُلَّمَا وُجِدَ الْإِسْتِغْفَارُ لَمْ يَتَحَلَّفِ الْعُقْرَانُ. وَثَالِثُهَا: الْإِثْبَاتُ بِالْجَمْعِ الْمُحَلَّى بِ(الْلَامِ)؛
 إِعْلَامًا بِأَنَّ التَّائِبَ إِذَا تَقَدَّمَ بِالْإِسْتِغْفَارِ يُتَلَقَّى بِعُقْرَانِ ذُنُوبِهِ كُلِّهَا فَيَصِيرُ كَمَنْ لَا ذَنْبَ
 لَهُ، وَرَابِعُهَا: دَلَالَةُ التَّنْفِي بِالْخَصْرِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا مَفْرَعٌ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَّا كَرَمُهُ وَفَضْلُهُ،
 وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي نَشْرِهَا كَرَمًا وَفَضْلًا. وَخَامِسُهَا:
 إِسْنَادُ عُقْرَانِ الذُّنُوبِ إِلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَإِثْبَاتُهُ لِدَاوِمِهِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ وُجُودِ الْإِسْتِغْفَارِ
 وَتَنْصُلِ عِبِيدِهِ يَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ ذَلِكَ قَطْعًا، إِمَّا بِحَسَبِ الْوَعْدِ كَمَا نَقُولُ أَوْ بِحَسَبِ الْعَدْلِ
 كَمَا يَزْعُمُهُ الْمُعْتَزِلَةُ. وَأَمَّا الثَّانِي. أُمُورٌ مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ.. فَفِيهِ وَجْهُ أَيْضًا: الْأَوَّلُ: إِنَّ فِي
 إِبْدَاءِ سَعَةِ الرَّحْمَةِ وَاسْتِعْجَالِ الْمَغْفِرَةِ بِشَارَةِ عَظِيمَةٍ وَتَطْيِيبِهَا لِلنُّفُوسِ. الثَّانِي: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا
 نَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ الشَّدِيدَةِ وَالْإِهْتِمَامِ الْعَظِيمِ فِي شَأْنِ التَّوْبَةِ يَتَحَرَّكُ نَشَاطُهُ وَيَهْتَرُّ
 عَطْفُهُ فَلَا يَتَقَاعَدُ عَنْهَا. الثَّالِثُ: أَنَّ فِي ضَمَنِ مَعْنَى الْإِسْتِعْرَاقِ قَلْعَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ؛ وَهَذَا

عَلَّ سُبْحَانَهُ النَّهْيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. الرَّابِعُ: أَنَّهُ أُطْلِقَتِ الذُّنُوبُ وَعَمَّتْ بَعْدَ ذِكْرِ الْفَاحِشَةِ وَظَلَمَ النَّفْسَ وَتَرَكَ مُفْتَضًى الظَّاهِرَ؛ لِيُدَلَّ بِهِ عَلَى عَدَمِ الْمِيلَاةِ فِي الْعُفْرَانِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ وَإِنْ كَبُرَتْ فَعَفُو اللَّهِ أَكْبَرُ. الْخَامِسُ: أَنَّ الْإِسْمَ الْجَامِعَ فِي التَّرْكِيبِ كَمَا دَلَّ عَلَى سِعَةِ الْعُفْرَانِ بِحَسَبِ الْمَقَامِ يَدُلُّ أَيْضًا مَعَ إِرَادَةِ الْحَصْرِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ مَعَهُ مُصَحِّحَاتُ الْمَغْفِرَةِ مِنْ كَوْنِهِ غَرِيًّا لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ فَيُرَدُّ عَلَيْهِ حُكْمُهُ، وَكَوْنُهُ حَكِيمًا يَغْفِرُ لِمَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ عُفْرَانَهُ. وَقَدْ التَزَمَ بَعْضُهُمْ كَوْنَ (أَل) فِي قَوْلِهِ: (الذُّنُوبِ) لِلْجِنْسِ؛ لِتَفِيدِ الْآيَةُ امْتِنَاعَ صُدُورِ مَغْفِرَةٍ فَرَدٍ مِنْهَا مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى، وَهَذَا عَلَى ظَنِّهِ لَا تُفِيدُهُ الْآيَةُ عَلَى تَقْدِيرِ إِرَادَةِ كُلِّ (الذُّنُوبِ)، وَحِينَئِذٍ يَزْدَادُ أَمْرُ الْمِيلَاعَةِ، وَأَمَّا جَعْلُ الْجُمْلَةِ حَالِيَّةً بِتَقْدِيرِ قَائِلِينَ ذَلِكَ فَتَعَسَّفُ يَذْهَبُ بِكَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ اللَّطِيفَةِ كَمَا لَا يَخْفَى. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: الْإِسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ، بِقَرِينَةِ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْهُ. وَالْمَقْصُودُ: تَسْدِيدُ مُبَادَرَتِهِمْ إِلَى اسْتِغْفَارِ اللَّهِ عَقِبَ الذَّنْبِ.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾: قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: الْإِصْرَارُ مَعْنَاهُ: اعْتِرَاضُ الدَّوَامِ عَلَى الْأَمْرِ وَتَرْكُ الْإِفْلَاحِ عَنْهُ، وَمِنْهُ صَرُّ الدَّانِيَةِ أَيِ: الرِّبْطُ عَلَيْهَا. وَاحْتَلَفَتْ عِبَارَةُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْإِصْرَارِ، فَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَمْضِي قُدَمًا فِي الذَّنْبِ لَا تَنْهَاهُ مَخَافَةُ اللَّهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنِّيَانُ الْعَبْدِ الذَّنْبِ هُوَ الْإِصْرَارُ حَتَّى يَمُوتَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (لَمْ يُصِرُّوا) مَعْنَاهُ: لَمْ يَمْضُوا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِصْرَارُ: هُوَ تَرْكُ الْإِسْتِغْفَارِ وَالسُّكُوتِ عَنْهُ مَعَ الذَّنْبِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ الزَّجَّاجُ: الْإِصْرَارُ: هُوَ الْإِقَامَةُ عَلَى الشَّيْءِ. وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: هُوَ الْعَزْمُ عَلَى الشَّيْءِ وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِ. وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَرَادِ بِالْإِصْرَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ مُوَافَقَةُ الذَّنْبِ عِنْدَ الْإِهْتِمَامِ بِهِ. وَهَذَا مَذْهَبُ مُجَاهِدٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ التُّبُوتُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ، وَهَذَا مَذْهَبُ قَتَادَةَ، وَابْنِ إِسْحَاقَ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَرْكُ الْإِسْتِغْفَارِ مِنْهُ، وَهَذَا مَذْهَبُ السُّدِّيِّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ وَلَمْ يَنْبُتُوا وَيَعَزُّمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ وَلَمْ يَمْضُوا.

وَالْإِصْرَارُ: هُوَ الْعَزْمُ بِالْقَلْبِ عَلَى الْأَمْرِ، وَتَرْكُ الْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَمِنْهُ صَرُّ الدَّانِيَةِ أَيْ الرِّبْطُ عَلَيْهَا. قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: الْجَاهِلُ مَيِّتٌ، وَالتَّاسِي نَائِمٌ، وَالْعَاصِي سَكْرَانٌ، وَالْمُصِرُّ هَالِكٌ، وَالْإِصْرَارُ هُوَ التَّسْوِيفُ، وَالتَّسْوِيفُ أَنْ يَقُولَ: أَتُوبُ غَدًا، وَهَذَا دَعْوَى النَّفْسِ، كَيْفَ يَتُوبُ غَدًا وَغَدًا لَا يَمْلِكُهَا!. وَقَالَ غَيْرُ سَهْلٍ: الْإِصْرَارُ: هُوَ أَنْ يَنْوِي أَنْ يَتُوبَ، فَإِذَا نَوَى التَّوْبَةَ النَّصُوحَ خَرَجَ عَنِ الْإِصْرَارِ. وَقَوْلُ سَهْلٍ أَحْسَنُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿فَاسْتَغْفِرُوا﴾ أَوْ حَالٌ مِنْ فاعِلِهِ، أَيْ لَمْ يُقِيمُوا، أَوْ غَيْرُ مُقِيمِينَ عَلَى الَّذِي فَعَلُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ فَاحِشَةً كَانَتْ أَوْ ظُلْمًا أَوْ عَلَى فِعْلِهِمْ. وَأَصْلُ الْإِصْرَارِ: الشَّدُّ مِنَ الصَّرِّ. وَقِيلَ: الثَّبَاتُ عَلَى الشَّيْءِ. وَيُسْتَعْمَلُ شَرْعًا بِمَعْنَى: الْإِقَامَةُ عَلَى الْقَبِيحِ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ وَرُجُوعٍ بِالتَّوْبَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِرَادَةُ هَذَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ يَتَكَرَّرَ مَا فِي الْمَفْهُومِ مَعَ مَا فِي الْمَنْطُوقِ، فَلَعَلَّهُ فِيهِ بِمَعْنَى الْإِقَامَةِ، وَإِذَا حُمِلَ الْإِسْتِغْفَارُ عَلَى مُجَرَّدِ طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ فَقَطُّ كَانَ هَذَا مُشِيرًا لِلتَّوْبَةِ الَّتِي هِيَ مِلَاكُ الْأَمْرِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدَّمَ الْإِسْتِغْفَارَ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهَا فِي الظَّاهِرِ، وَإِذَا حُمِلَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي يَنْضَمُّ إِلَيْهِ التَّوْبَةُ كَانَ هَذَا تَصْرِيحًا بِبَعْضِ مَا أُريدَ مِنْهُ إشارَةً إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهِ كَمَا قَالُوا فِي ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ إِنَّمَا لِرُكْنِي التَّوْبَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِدُنُوبِهِمْ﴾ يُشِيرُ إِلَى النَّدَمِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ تَصْرِيحٌ بِنَقْيِ الْإِصْرَارِ، وَهَذَانِ رُكْنَا التَّوْبَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "النَّدَمُ تَوْبَةٌ" أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ. وَالْإِصْرَارُ: هُوَ الْمَقَامُ عَلَى الذَّنْبِ، وَنَفْيُهُ هُوَ مَعْنَى الْإِقْلَاعِ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: لِلْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَاهَا أَقْوَالٌ: الْأَوَّلُ: أَيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِصْرَارَ يَضُرُّ، وَأَنَّ تَرْكَهُ أَوْلَى مِنَ التَّمَادِي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَمُقَاتِلٌ، وَالْكَلْبِيُّ. الثَّانِي: أَيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، قَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو عِمْرَانَ. الثَّالِثُ: أَيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قَدْ أَذْنَبُوا، قَالَ السُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلٌ. الرَّابِعُ: أَيْ يَذْكُرُونَ ذُنُوبَهُمْ فَيَتُوبُونَ مِنْهَا. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ. الْخَامِسُ: أَيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَعَاقِبَ عَلَى الْإِصْرَارِ.

السادس: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدٍ بْنُ عُمَيْرٍ: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنْ تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. السابع: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنْ اسْتَغْفَرُوا غُفِرَ لَهُمْ. الثامن: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ. التاسع: قَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هُمْ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ. العاشر: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْعَازِمُهُ الْعَفْوُ عَنِ الذُّنُوبِ وَإِنْ كَثُرَتْ. الحادي عشر: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهَّةَ فِي أَهْلِهَا مَعْصِيَةً. الثاني عشر: أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ.

- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾:
- مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا أتمَّ وَصَفَ السَّابِقِينَ، وَهُمْ الْمُتَّقُونَ، وَاللَّاحِقِينَ، وَهُمْ التَّائِبُونَ، قَالَ . مُعَلِّمًا بِجَزَائِهِمُ الَّذِي سَارَعُوا إِلَيْهِ : ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

- تفسير الآية:

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: قال مكِّي: المعنى: أولئك الذين مضت صفتهم جزاؤهم مغفرة، أي ثوابهم مع ما ذكر مما أعد لهم. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: أي ثواب المطيعين. وقال ابن عطية: ثُمَّ شَرَكَ تَعَالَى الطَّائِفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: (أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ...)، وَهَذِهِ تُؤْذِنُ بِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ بِهَذَا الْخَبَرِ الصَّادِقِ قَبُولَ تَوْبَةِ التَّائِبِ، وَلَيْسَ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَالَى مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ لَا مُعَقَّبَ لِأَمْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: (وَنِعْمَ الْأَجْرُ)؛ لِأَنَّ (نِعْمَ، وَبِئْسَ) تَطْلُبُ الْأَجْنَاسَ الْمَعْرُوفَةَ أَوْ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا. وَقَالَ الْبَيْضاوي: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ حَبْرٌ لِلَّذِينَ إِنْ ابْتَدَأَتْ بِهِ، وَجُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ

مُبَيَّنَةٌ لِمَا قَبَلَهَا إِنَّ عَطَفَتُهُ عَلَى ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، أَوْ عَلَى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ
إِعْدَادِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ وَالتَّائِبِينَ جَزَاءٌ لَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْمَصْرُورُونَ، كَمَا لَا يَلْزَمُ مِنْ إِعْدَادِ
النَّارِ لِلْكَافِرِينَ جَزَاءٌ لَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا غَيْرُهُمْ. وَتَنْكِيرُ (جَنَّاتٍ) عَلَى الْأَوَّلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
مَا هُمْ أَدَوْنَ مِمَّا لِلْمُتَّقِينَ الْمُضَوِّفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَكَفَاكَ فَارِقًا
بَيْنَ الْقَبِيلَيْنِ أَنَّهُ فَصَلَ آيَتَهُمْ بِأَنْ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ مُسْتَوْجِبُونَ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ
حَافِظُونَ عَلَى حُدُودِ الشَّرْعِ وَتَخَطُّوا إِلَى التَّخَصُّصِ بِمَكَارِمِهِ، وَفَصَلَ آيَةَ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ:
﴿وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْمِتْدَارَكَ لِتَقْصِيرِهِ كَالْعَامِلِ لِتَحْصِيلِ بَعْضِ مَا قَوَّتَ عَلَى
نَفْسِهِ، وَكَمْ بَيَّنَّ الْمُحْسِنِ وَالْمِتْدَارَكَ وَالْمَحْبُوبَ وَالْأَحِيرَ، وَلَعَلَّ تَبْدِيلَ لَفْظِ الْجَزَاءِ بِالْأَجْرِ
لِهَذِهِ النُّكْتَةِ. وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ذَلِكَ، يَعْنِي الْمَغْفِرَةَ
وَالْجَنَّاتِ. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: وَلَمَّا أَتَمَّ وَصَفَ السَّابِقِينَ. وَهُمْ الْمُتَّقُونَ. ، وَاللَّاحِقِينَ. وَهُمْ
التَّائِبُونَ. ، قَالَ. مُعَلِّمًا بِجَزَائِهِمُ الَّذِي سَارَعُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ؛ وَالْجَنَّةِ، مُشِيرًا إِلَيْهِمْ بِأَدَاةِ
الْبُعْدِ؛ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ عَلَى وَجْهِ مُعَلِّمٍ بِأَنْ أَحَدًا لَا يَقْدُرُ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ. : ﴿أُولَئِكَ﴾:
أَيُّ الْعَالُو الرُّتْبَةِ، ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: أَيُّ لِقَاصِرِهِمْ، أَوْ لَهْفَوَاتِهِمْ، أَوْ لِدُنُوبِهِمْ. وَعَظَّمَهَا
بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: أَيُّ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِمْ بِكُلِّ إِحْسَانٍ. وَاتَّبَعَ ذَلِكَ لِلْإِكْرَامِ، فَقَالَ:
﴿وَجَنَّاتٍ﴾: أَيُّ جَنَّاتٍ. ثُمَّ بَيَّنَّ عِظَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: حَالُ كَوْنِكُمْ
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، هِيَ أَجْرُهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ، ﴿وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هِيَ. هَذَا عَلَى
تَقْدِيرٍ: أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ لِجَمِيعِ الْمُضَوِّفِينَ. وَإِنْ كَانَتْ لِلْمُسْتَعْفِرِينَ خَاصَّةً فَلَا مَرُوضٍ وَاضِحٌ
فِي نُزُولِ رُتْبَتِهِمْ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾: الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَذْكُورِينَ
بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْ اسْمِ الْإِشَارَةِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ حَبْرٌ مِنْ رَحْمَتِهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِمَغْفِرَةٍ، أَيُّ كَائِنَةٍ مِنْ رَحْمَتِهِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: الْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ، أَيُّ أَجْرِهِمْ، أَوْ ذَلِكَ
الْمَذْكُورُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِمْ بِمَا مَرَّ مِنْ

الصفات الحميدة. ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: أي سَتَرٌ لِدُنُوهِمْ. ﴿وَجَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي من أنواع المشروبات. وقال الألوسي: ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورين أخيراً باعتبار إصافهم بما تقدّم من الصفات الحميدة. والبعد؛ للإشعار ببعد منزلتهم في الفضل. وقيل: هو إشارة إلى المذكورين وهم طائفة واحدة، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال منه، أو مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ خبر ﴿أُولَئِكَ﴾، أو خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر الأول، وهذه الجملة خبر ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ إلخ على الوجه الأول. وقوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة للمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي مغفرة عظيمة كائنة من جهته تعالى. والتعرض لعنوان الرئويّة مع الإضافة إلى ضميرهم؛ للإشعار بعلة الحكم مع التشريف. وقوله: ﴿جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ عطف على قوله: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، والإخبار بأنّها جزاؤهم وأجرهم الذي لا بُدَّ بمقتضى الفضل أن يصل إليهم، وهذا فوق الإخبار بالإعداد أو مؤكدة له، فالتنوين؛ للتّعظيم على طُرز ما ذكر في المعطوف عليه. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدّرة من الضمير المجرور في ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾؛ لأنّه مفعول به معي؛ إذ هو في قوّة يجزيهم الله جنّات خالدين فيها، ولا مساعٍ لأن يكون حالاً من جنّات في اللفظ وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك لأبرز الضمير على ما عليه الجمهور. ﴿وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾: المخصوص بالمدح محذوف، أي ونعم أجر العاملين الجنة، وعلى ذلك اقتصر مقاتل، وذهب غير واحد أنّه ذلك، أي ما ذكر من المغفرة والجنّات. وفي الجملة على ما نصّ عليه بعض المحقّقين وجوه من المحسّنات: أحدها: أنّها كالتّذييل للكلام السابق، فيفيد مزيد تأكيد للاستلذاذ بذكر الوعد. وثانيها: في إقامة الأجر موضع ضمير الجزاء؛ لأنّ الأصل (ونعم هو)، أي جزاؤهم إيجاب إنجاز هذا الوعد، وتضوير صورة العمل في العمالة تنشيطاً للعامل. وثالثها في تعيم العاملين وإقامته مقام الضمير الدّالة على حصول المطلوب للمذكورين بطريق برهاني. والمراد من الكلام السابق

الَّذِي جُعِلَ هَذَا كالتَّذْيِيلِ لَهُ إِمَّا الْكَلَامُ الَّذِي فِي شَأْنِ التَّائِبِينَ، أَوْ جَمِيعُ الْكَلَامِ السَّابِقِ عَلَى الْخِلَافِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ قَالَ: وَكَفَاكَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْقَبِيلَيْنِ، وَهُمَا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ أَتَوْا بِالْوَاجِبَاتِ بِأَسْرِهِا وَاجْتَنَبُوا الْمَعَاصِيَ بِرُمْتِهَا، وَالْمُسْتَغْفِرُونَ لِذُنُوبِهِمْ بَعْدَ مَا أَذْنَبُوا وَارْتَكَبُوا الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ: أَنَّهُ تَعَالَى فَصَّلَ آيَةَ الْأَوَّلِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الْمَشْعُرُ بِأَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ مُحِبُّونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَفَصَّلَ آيَةَ الْآخِرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الْمَشْعُرُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَجْرَاءُ وَأَنَّ مَا أُعْطُوا مِنَ الْأَجْرِ جَزَاءٌ لَتَدَارِكِهِمْ بَعْضُ مَا فَوَّتُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ ذَاكَ وَبَعِيدُ مَا بَيْنَ السَّمَكِ وَالسَّمَكِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ التَّعْتِينَ نَعَتْ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَمَا حُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَقِيبَ تِلْكَ لِمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ، وَأَيُّ مَانِعٍ مِنَ الْإِخْبَارِ بِأَنَّهُمْ مُحِبُّونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ وَلَا بُدَّ وَكَوْهُمْ إِذَا أَذْنَبُوا اسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا لَا يُنَافِي كَوْنَهُمْ مُحْسِنِينَ، أَمَّا إِذَا أُريدَ مِنَ الْإِحْسَانِ الْإِنْعَامُ عَلَى الْغَيْرِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا إِذَا أُريدَ بِهِ الْإِثْنَانُ بِالْأَعْمَالِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ، أَوْ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الصَّحِيحِ؛ فَلِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ نَافَى لَزِمَ أَنْ لَا يَصْدُقَ الْمُحْسِنُ إِلَّا عَلَى نَحْوِ الْمُعْصُومِ، وَلَا يَصْدُقُ عَلَى مَنْ عَبْدَ اللَّهَ وَأَطَاعَهُ مُدَّةً مَدِيدَةً عَلَى أَلْتِي وَجْهِ وَأَحْسَنِهِ، ثُمَّ عَصَاهُ لَحْظَةً فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ وَاسْتَغْفَرَ سَيِّدَ الْإِسْتِغْفَارِ، وَلَا أَظُنُّ أَحَدًا يَقُولُ بِذَلِكَ فَتَدَبَّرْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿أَوَّلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾: اسْتِثْنَاءٌ لِلتَّوْبَةِ بِسَدَادِ عَمَلِهِمْ: مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ، وَقَبُولِ اللَّهِ مِنْهُمْ. وَجِيءَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أَوَّلَيْكَ﴾؛ لِإِفَادَةِ أَنَّ الْمِشَارَ إِلَيْهِمْ صَارُوا أُخْرِيَاءَ بِالْحُكْمِ الْوَارِدِ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ؛ لِأَجْلِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ الَّتِي اسْتَوْجَبُوا الْإِشَارَةَ لِأَجْلِهَا. وَهَذَا الْجَزَاءُ وَهُوَ الْمَغْفِرَةُ وَعَدٌ مِنَ اللَّهِ، تَفْصِيلًا مِنْهُ بِأَنْ جَعَلَ الْإِقْلَاعَ عَنِ الْمَعَاصِي سَبَبًا فِي عُفْرَانِ مَا سَلَفَ مِنْهَا. وَأَمَّا الْجَنَاتُ فَإِنَّمَا خَلَصَتْ لَهُمْ لِأَجْلِ الْمَغْفِرَةِ، وَلَوْ أَخَذُوا بِسَالِفِ ذُنُوبِهِمْ لَمَا اسْتَحَقُّوا الْجَنَاتِ. فَالْكُلُّ فَضْلٌ مِنْهُ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ تَذْيِيلٌ؛ لِإِنْشَاءِ مَدْحِ الْجَزَاءِ. وَالْمُخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ:

(هو). و(الواو) لِلْعَطْفِ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، فَهُوَ مِنْ عَطْفِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْإِخْبَارِ، وَهُوَ كَثِيرٌ فَصِيحٌ فِي الْكَلَامِ. وَسُمِّيَ الْجَزَاءُ أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ وَعْدٍ لِلْعَامِلِ بِمَا عَمِلَ. وَالتَّعْرِيفُ فِي (الْعَامِلِينَ) لِلْعَهْدِ، أَيْ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ هَذَا الْجَزَاءُ، وَهَذَا تَفْضِيلٌ لَهُ وَلِلْعَمَلِ الْمَجَازَى عَلَيْهِ، أَيْ إِذَا كَانَ لِأَصْنَافِ الْعَامِلِينَ أَجُورٌ، كَمَا هُوَ الْمَتَعَارَفُ، فَهَذَا نِعْمَ الْأَجْرُ لِعَامِلٍ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: أَيْ ثَوَابُهُمْ وَمُكَافَأَتُهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ. ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: أَيْ تَجَاوُزٌ عَنِ الذُّنُوبِ، وَسِتْرٌ عَنِ الْخَلْقِ، وَيَكُونُ بِهَا النِّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَهُوَ النَّارُ. وَ﴿جَنَّاتٌ﴾: جَمْعٌ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَمَنَازِلٌ مُتَنَوِّعَةٌ، يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِيهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ. وَيَكُونُ بِهَا حَصُولُ الْمَطْلُوبِ، وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وَوَصَفَهَا اللَّهُ بِأَنَّهَا جَنَّاتٌ؛ لِأَنَّ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ، فَهِيَ دَارٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْرِكَ الْإِنْسَانُ كُنْهَهَا وَحَقِيقَتَهَا، قَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَالَ اللَّهُ: "أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَيْ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا، لَا مِنْ تَحْتِ أَرْضِهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ تَحْتِ أَرْضِهَا لَكَانَتْ فِي الْأَسْفَلِ فِي قَعْرِ، وَلَكِنَّهَا تَمْشِي عَلَى سَطْحِ أَرْضِ الْجَنَّةِ تَحْتِ الْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ. وَقَوْلُهُ: ﴿الْأَنْهَارُ﴾: جَمْعُ نَهْرٍ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّهَا أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [مُحَمَّد: ١٥]. ﴿حَالِدِينَ فِيهَا﴾: أَيْ مَآكِنٍ فِيهَا مَكْنً طَوِيلًا، وَقَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُلُودُ خُلُودٌ تَأْيِيدٌ، وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مُؤَبَّدَةٌ بِمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: الْجُمْلَةُ هُنَا إِنْشَائِيَّةٌ؛ لِلْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ. الثَّنَاءُ عَلَى هَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ. وَ﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: أَيْ ثَوَابُهُمْ، وَجَعَلَهُ ذُو الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ أَجْرًا؛ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ مُطْمَئِنًّا عَلَى الْحَصُولِ عَلَيْهِ إِذَا قَدَّمَ الْعَوْضَ وَإِلَّا فَالْمُنَّةُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، لَكِنْ يَمُنُّ عَلَيْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِالْعَمَلِ، ثُمَّ يَمُنُّ عَلَيْنَا ثَانِيًا

بالجزاء، ويقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] كَأَنَّا نحن محسنون استقلالاً وابتداءً، فإذا أحسنَّا فجزاؤنا أن يحسن إلينا مع أنه سبحانه هو الذي أحسن إلينا أولاً وآخراً، كذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] سبحانه الله، يمن علينا بالسعي ويوفّقنا له ويعيننا عليه ثم يشكرنا عليه، هذا والله هو غاية الفضل والإحسان، فله الحمد والشكر. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: أي الذين يعملون لهذا الأجر العظيم.

- قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧):
- مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا وَعَدَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الْمُعْصِيَةِ الْعُقْرَانَ وَالْجَنَّاتِ، أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ وَعَلَى التَّوْبَةِ مِنَ الْمُعْصِيَةِ، وَهُوَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمَطِيعِينَ وَالْعَاصِينَ، فَقَالَ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾. وقال البقاعي: لَمَّا فَرَعَ مِنْ بَيَانِ الرِّلِّ الَّذِي وَقَعَ لَهُم بِهِ الْخَلَلُ، وَالتَّرْهيبُ بِمَا يُوقَعُ فِيهِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي مَا يُنْجِي مِنْهُ أَحَدٌ يُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ لِذَوِي الْفَسَادِ، فَبَدَأَ بِالسَّبَبِ الْأَفْوَى، وَهُوَ الْأَمْرُ بِمُشَاهَدَةِ مَصَارِعِ مَنْ مَضَى مِنَ الْمُكْذِبِينَ بِرُؤْيَةِ دِيَارِهِمْ وَتَتَبُعِ آثَارِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ خَلْقًا، وَأَقْوَى هِمَمًا، وَأَكْثَرَ عَدَدًا، فَقَالَ: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾. وقال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ رُجُوعٌ إِلَى تَفْصِيلِ بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ بَعْدَ تَمْهِيدِ مَبَادِي الرُّشْدِ وَالصَّلَاحِ وَتَرْتِيبِ مُقَدِّمَاتِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ.

- تفسير الآية:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾: قال ابن الجوزي: في معناها قولان: أحدهما: قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ أَهْلُ سُنَنِ وَشَرَائِعَ، فَانظُرُوا

ماذا صَنَعْنَا بِالْمُكَذِّبِينَ مِنْهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: قَدْ مَضَتْ قَبْلَكُمْ سُنَنُ اللَّهِ فِي
 إِهْلَاكِ مَنْ كَذَّبَ مِنَ الْأُمَمِ، فَاعْتَبِرُوا بِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ. وَفِي مَعْنَى ﴿فَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ السَّيْرُ فِي السَّفَرِ، قَالَهُ الرَّجَّاجُ: إِذَا سِرْتُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ، عَرَفْتُمْ
 أَحْبَارَ الْهَالِكِينَ بِتَكْذِيبِهِمْ. الثَّانِي: أَنَّهُ التَّفَكُّرُ. وَمَعْنَى: انْظُرُوا: اعْتَبِرُوا، وَالْعَاقِبَةُ: آخِرُ
 الْأَمْرِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ: قَدْ انْقَضَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.
 وَاحْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ: فَالْأَكْثَرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ: سُنَنُ الْهَلَاكِ وَالِاسْتِصْصَالِ،
 بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا الْأَنْبِيَاءَ
 وَالرُّسُلَ لِلْحَرِصِ عَلَى الدُّنْيَا وَطَلَبِ لَذَائِهَا، ثُمَّ انْقَرَضُوا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاهُمْ أَثَرٌ وَبَقِيَ اللَّعْنُ
 فِي الدُّنْيَا وَالْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ عَلَيْهِمْ، فَرَعَّبَ اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَأْمُلِ أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ
 الْمَاضِينَ؛ لِيَصِيرَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الرِّيَاسَةِ فِي الدُّنْيَا
 وَطَلَبِ الْجَاهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَلِ الْمُرَادُ: سُنَنُ اللَّهِ فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَا بَقِيَتْ
 لَا مَعَ الْمُؤْمِنِ وَلَا مَعَ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَبْقَى لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ فِي الدُّنْيَا
 وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ فِي الْعُقْبَى، وَالْكَافِرُ بَقِيَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْعِقَابُ فِي الْعُقْبَى، ثُمَّ إِنَّهُ
 تَعَالَى قَالَ: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لِأَنَّ التَّأْمُلَ فِي حَالِ أَحَدِ الْقِسْمَيْنِ
 يَكْفِي فِي مَعْرِفَةِ حَالِ الْقِسْمِ الْآخَرِ، وَأَيْضًا يُقَالُ: الْعَرَضُ مِنْهُ: رَجَزُ الْكُفَّارِ عَنْ كُفْرِهِمْ،
 وَذَلِكَ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِتَأْمُلِ أَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ وَالْمُعَانِدِينَ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هَذَا تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ
 لِلْمُؤْمِنِينَ. وَالسُّنَنُ: جَمْعُ سُنَّةٍ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ. وَقُلَانٌ عَلَى السُّنَّةِ: أَيُّ عَلَى طَرِيقِ
 الْإِسْتِوَاءِ لَا يَمِيلُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ. وَالسُّنَّةُ: الْإِمَامُ الْمُتَّبَعُ الْمُؤْتَمَّ بِهِ، يُقَالُ: سَنَّ فُلَانٌ
 سُنَّةً حَسَنَةً وَسَيِّئَةً إِذَا عَمَلَ عَمَلًا اقْتَدَى بِهِ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَالسُّنَّةُ: الْأُمَّةُ، وَالسُّنَنُ:
 الْأُمَمُ، عَنِ الْمُفْضَلِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: وَالْمَعْنَى: أَهْلُ سُنَنِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ. وَقَالَ أَبُو
 زَيْدٍ: أَمْثَالُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: شَرَائِعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يُعْنَى
 بِالْهَلَاكِ فِيمَنْ كَذَّبَ قَبْلَكُمْ كَعَادٍ وَثَمُودَ. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ: الْعَاقِبَةُ: آخِرُ الْأَمْرِ، وَهَذَا فِي يَوْمِ أُحُدٍ. يَقُولُ فَأَنَا أُمِّهِلُهُمْ وَأُمْلِي لَهُمْ
 وَأَسْتَدْرِجُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، يَعْنِي بِنُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِمُ
 الْكَافِرِينَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: خُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ تَأْنِيسًا
 لَهُمْ. وَقِيلَ: خُطَابُ لِلْكَافِرِينَ؛ تَخْوِيفًا لَهُمْ. ﴿فَانْظُرُوا﴾: مِنْ نَظَرِ الْعَيْنِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.
 وَقِيلَ: هُوَ بِالْفِكَرِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ
 أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، أَيُّ قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى
 الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ وَالِدَائِرَةُ عَلَى
 الْكَافِرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. وَقَالَ
 الثَّعَالِبِيُّ: الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَعْنَى: لَا يَذْهَبُ بِكُمْ أَنْ ظَهَرَ الْكُفَّارُ الْمُكَذِّبُونَ عَلَيْكُمْ
 بِأُحُدٍ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَقَدِيمًا مَا أَدَالَ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ انْظُرُوا كَيْفَ
 هَلَكَ الْمُكَذِّبُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ تَكُونُ عَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ. وَقَالَ النَّقَّاشُ: الْخُطَابُ لِلْكَفَّارِ.
 وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: ﴿قَدْ حَلَّتْ﴾: لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ بِالْقَرِيبِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَمَّ، وَكَانَ الَّذِينَ
 وَقَعَتْ فِيهِمْ السُّنَنُ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا فِي جَمِيعِ الزَّمَانِ، أَثْبَتَ الْجَارَّ، فَقَالَ: ﴿مِنْ
 قَبْلِكُمْ﴾: أَيُّ فَلَا تَظُنُّوا بِمَا أُمْلَى لَهُمْ بِهَذِهِ الْإِدَالَةِ أَنَّ نِعْمَتَهُ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ. ﴿سُنَنٌ﴾:
 أَيُّ وَقَائِعُ سَنَّاها اللَّهُ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ، وَأَحْوَالُ
 وَطَرَائِقُ كَانَتْ لِلْفَرِيقَيْنِ، فَتَأَسَّوْا بِالْمُؤْمِنِينَ، وَتَوَقَّعُوا لِأَعْدَائِكُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُكَذِّبِينَ، فَانْظُرُوا
 وَأَنْعِمُوا التَّأَمُّلَ فِي أَحْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّيْرِ فِي الْكَدِّ، وَالتَّعَبِ
 الشَّدِيدِ ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أَيُّ لِلِاتِّعَاطِ بِأَحْوَالِ تِلْكَ الْأُمَمِ بِرُؤْيَا آثَارِهِمْ؛ لِتَضُمُّوا
 الْحَيَرَ إِلَى الْحَيَرِ، وَتَعْتَبِرُوا مِنَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ، وَتَقْرِنُوا بَيْنَ النَّقْلِ وَالنَّظَرِ؛ وَلَمَّا كَانَ الرُّجُوعُ عَنْ
 الْمَهْمَةِ وَاجِبًا عَلَى الْفَوْرِ عَقَّبَ بِ(الفاءِ) قَوْلُهُ: ﴿فَانْظُرُوا﴾: أَيُّ نَظَرَ اعْتِبَارًا. وَنَبَّهَ عَلَى
 عَظَمَةِ الْمَنْظُورِ فِيهِ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُسْتَفْهَمَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ عَنِ الْعَوَائِدِ، فَتَعَاطَمَ إِشْكَالُهُ،
 فَقَالَ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾: أَيُّ آخِرُ أَمْرِ ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾. وَقَالَ صَدِّيقُ خَانَ: ﴿قَدْ حَلَّتْ

مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ: هذا رجوع إلى وصف باقي قصّة أحد بعد تمهيد مبادئ الرشد
 والصّلاح؛ تسليّة للمؤمنين على ما أصابهم من الحزن والكآبة. وأصل الخلو في اللغة:
 الإنفراد، والمكان الخالي: هو المنفرد عمّن فيه، ويستعمل أيضاً في الزمان بمعنى: الماضي؛
 لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه. وكذا الأمم الخالية. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾:
 الخطاب للمؤمنين. والمطلوب من هذا السير المأمور به هو: حصول المعرفة بذلك، فإن
 حصلت بدونّه فقد حصل المقصود، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلّة لمن لم
 يشاهدها. والأمر للندب لا على سبيل الوجوب. ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ﴾: فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقضوا فلم يبق من دنياهم التي
 آثروها أثر. هذا قول أكثر المفسّرين. والعاقبة: آخر الأمور، رغبتهم في تأمل أحوال الأمم
 الماضية؛ ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها؛ لأن
 النظر إلى آثار المتقدّمين له أثر في النفس. وفي هذه الآية تسليّة لأصحاب رسول الله
 ﷺ وما جرى لهم في غزوة أحد. وقال القاسمي: ﴿قَدْ حَلَّتْ﴾: أي مضت. ﴿مِنْ
 قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذّبين. ﴿فَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ﴾: أي التي فيها ديارهم الحرّة وآثار إهلاكهم. ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ﴾: أي وقيسوا بها عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال. والأمر بالسير
 والنظر؛ لما أنّ لمشاهدة آثار المتقدّمين أثراً في الاعتبار، والرّوعة أقوى من أثر السّماع.
 وقال ابن عاشور: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: استئنفت ابتدائي؛ تمهيداً لإعادة الكلام
 على ما كان يوم أُحد، وما بينهما استطراد. وهذا مُقدِّمةُ التّسليّة والبشارة الآتيتين.
 ابْتَدِئْتُ هَاتِهِ الْمُقَدِّمَةَ بِحَقِيقَةِ تَارِيخِيَّةٍ: وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية. وحيء (قد)،
 الدّالة على تأكيد الخبر؛ تنزيلاً لهم منزلة من يُنكر ذلك؛ لما ظهر عليهم من انكسار
 الخواطر من جرّاء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين، مع أنّهم يُقاتلون لنصر دين الله، وبعد
 أن ذاقوا حلاوة النصر يوم بدر، فبيّن الله لهم أنّ الله جعل سنة هذا العالم أن تكون

الأحوال فيه سجلاً ومداولةً. وذكرهم بأحوال الأمم الماضية، فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، والله قادرٌ على نصرهم، ولكن الحكمة اقتضت ذلك؛ لئلا يعتز من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب أن النصر حليفهم. ومعنى ﴿خَلَتْ﴾: مضت وانقرضت. والسُنَنُ جمعُ سُنَّةٍ، وهي: السيرة من العمل أو الخلق الذي يلازم صدور العمل على مثاها. وفسروا السُنَنَ هنا بسُنَنِ الله في الأمم الماضية. والمعنى: قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي: أن قوة الظالمين وعُتُوهم على الضعفاء أمرٌ زائلٌ، والعاقبة للمتقين المحققين؛ ولذلك قال ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾: أي المكذبين برُسلِ ربهم، وأريد النظر في آثارهم؛ ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله؛ لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان، فإن للعيان بدیع معنى؛ لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذبين، ومنهم: عادٌ، وثمودٌ، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثيرٌ منهم في أسفارهم. وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: السير في الأرض حسبي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للنّاظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره. وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علماً وتقوى علم من قرأ التاريخ أو قص عليه. وقال العثيمين: قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ جملة مُحَقَّقةٌ (قد)؛ لأن (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق كقول المقيم: (قد قامت الصلاة)، وإذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل، وقد تفيد التحقيق بالقرائن، فقول القائل: قد يجود البخيل، هذه للتقليل. وقوله تعالى: ﴿قَدْ

يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴿[الأحزاب: ١٨]﴾ هذه تفيد التحقيق. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: أي مضت. ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: الخطاب لهذه الأمة. والسنن جمع سُنَّة: وهي الطريقة. والمراد بها هنا: سنن الله في المكذبين حيث يأخذهم ويدمرهم. وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: (الفاء) هنا للترتيب وهي عاطفة، عطف جملة على جملة. ﴿فَسِيرُوا﴾: فعل أمر من السير وهو المشي، والمراد به هنا: سير القلوب، وسير الأقدام، أما سيره بقلبه فهو أن يتفكر في عاقبة من مضى زمنًا، وفي عاقبة من مضى مكانًا، فمثلاً ديار ثمود موجودة الآن يفكر الإنسان فيها زمنًا أو مكانًا، فينظر كيف كان عاقبتهم، والسير بالقدم قد يكون أشدّ وقعًا من السير بالقلب؛ لأن الإنسان يصل به إلى حقّ اليقين، والمشاهدة بالعين والسير بالقلب أعمّ وأشمل؛ لأن الإنسان يصل به إلى ما لا يمكنه الوصول إليه بالسير قدمًا. وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: (في) ظرفية ولكنها عند المفسرين هنا بمعنى (على)، أي سيروا على الأرض؛ لأن السير في جوف الأرض غير ممكن وغير مفيد أيضًا، وإنما يفيد السير على ظهر الأرض. وقوله: ﴿الْأَرْضِ﴾: أي أرض من سبق ف(أل) هنا للعهد المفهوم من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: أي سيروا في أرضهم وانظروا كيف كانت عاقبتهم. وقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾: أي انظروا بعين البصر وبعين البصيرة جميعًا، فإن وصل إلى مكان هؤلاء الأمم فالنظر يكون بعين البصر وبعين البصيرة، وإن لم يصل ولكنه فكر بقلبه فالنظر يكون بعين البصيرة؛ لأن البصر لا يمكن أن يصل إليه وهو ينظر في قلبه. ﴿عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾: أي مآل أمرهم، وعاقبة الشيء ما يعقبه ويعود إليه الشيء. و﴿الْمُكْذِبِينَ﴾ هنا المراد بهم: المكذبين الله ورسله. فماذا كان عاقبتهم؟ كان عاقبتهم الهلاك والدمار، وعقوبتهم على حسب ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. الذين أرسل الله عليهم حاصبًا مثل قوم لوط: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾

[القمر: ٣٤]. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كتمود قوم صالح. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وقوم نوح.

• قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الزمخشري: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ حَلَّتْ..﴾ جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً؛ لِلْبَعْثِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ بِهِ مَا ذَكَرَ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِينَ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾ إشارَةً إِلَى مَا لَخَّصَ وَبَيَّنَّ مِنْ أَمْرِ الْمُتَّقِينَ وَالتَّائِبِينَ وَالْمُصْرِينَ.

• تفسير الآية:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: قال مكِّي: قال الربيع: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: أي للناس عامة، وهو القرآن. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أي للمتقين خاصة. وقال الشعبي: ﴿وَهُدًى﴾: من الضلال ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: من الجهل، وذلك لمن اتقى المحارم. وقال الماوردي: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الْقُرْآنُ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ. الثَّانِي: أَنَّهُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ..﴾، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ نُورٌ وَأَدَبٌ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿وَهُدًى﴾: ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ الْبَيَانِ؛ لِأَنَّ الْبَيَانَ: ظُهُورُ الْمَعْنَى لِلنَّفْسِ كَائِنًا مَا كَانَ. وَالْهُدَى: بَيَانٌ لِّطَرِيقِ الرُّشْدِ؛ لِيُسَلِّكَ دُونَ طَرِيقِ الْغَيِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عَمَّ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، عِنْدَ ذِكْرِ الْبَيَانِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ فِي التَّكْلِيفِ، شَامِلٌ لِّلْمُشْرِكِ وَالْمُسْلِمِ. وَخَصَّ بِ(الهدى)؛ لِأَنَّهُ يَهْدِي بِالْقُرْآنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِفَضْلِهِ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: قَالَ الشَّعْبِيُّ: بَيَانٌ مِنَ الْعَمَى، وَهُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَمَوْعِظَةٌ مِنَ الْجَهْلِ، فَالْبَيَانُ: هُوَ إِظْهَارُ مَعْنَى الْكَلَامِ. وَالْمَوْعِظَةُ: هِيَ الدُّعَاءُ إِلَى الْحَقِّ بِالْتَرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: أَيِ

إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يعني: أنه مع كونه بياناً وتنبهاً للمكذبين فهو زيادة وتثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين. وقال ابن الجوزي: قال سعيد بن جبيرة: هذه الآية أول ما نزل من سورة آل عمران. والبيان: الكشف عن الشيء، وبأن الشيء: اتضح، وفلان أبين من فلان، أي أفصح. قال الشَّعْبِيُّ: هذا بيان للناس من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل. وقال الرازي: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يعني بقوله: (هذا) ما تقدم من أمره، ونهيه، ووعدِهِ، ووَعِيدِهِ، وذكرِهِ لأنواع البينات والآيات. ولا بُدَّ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْبَيَانِ وَبَيْنَ الْهُدَى وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَفْتَضِي الْمَغَايِرَةَ. فنقول فيه وجهان: الأول: أنَّ الْبَيَانَ هُوَ: الدَّلَالَةُ الَّتِي تُفِيدُ إِزَالََةَ الشُّبْهَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الشُّبْهَةُ حَاصِلَةً، فَالْفَرْقُ: أَنَّ الْبَيَانَ عَامٌّ فِي أَيِّ مَعْنَى كَانَ، وَأَمَّا الْهُدَى فَهُوَ: بَيَانٌ لِّطَرِيقِ الرُّشْدِ؛ لِيُسَلِّكَ دُونَ طَرِيقِ الْعَيِّ. وَأَمَّا الْمَوْعِظَةُ فَهِيَ: الْكَلَامُ الَّذِي يُفِيدُ الرَّجْرَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فِي طَرِيقِ الدِّينِ. فَالْحَاصِلُ أَنَّ الْبَيَانَ جِنْسٌ تَحْتَهُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: الْكَلَامُ الْهَادِي إِلَى مَا يَنْبَغِي فِي الدِّينِ وَهُوَ الْهُدَى. الثَّانِي: الْكَلَامُ الرَّاجِزُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فِي الدِّينِ وَهُوَ الْمَوْعِظَةُ. الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْبَيَانَ هُوَ الدَّلَالَةُ، وَأَمَّا الْهُدَى فَهُوَ الدَّلَالَةُ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مُفْضِيَةً إِلَى الْإِهْتِدَاءِ. وَفِي تَخْصِصِ هَذَا الْبَيَانِ وَالْهُدَى، وَالْمَوْعِظَةِ لِّلْمُتَّقِينَ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي حَقِّ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ كَالْمَعْدُومَةِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [النَّازِعَاتِ: ٤٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِرٍ: ٢٨]. الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كَلَامٌ عَامٌّ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مَخْصُوصٌ إِلَّا فِي حَقِّ الْمُتَّقِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. وَقَالَ النِّسْفِيُّ: ﴿هَذَا﴾: أَيِ الْقُرْآنِ، أَوْ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾: أَيِ إِرْشَادٍ. ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عَنِ الشِّرْكِ.

وقال أبو حيان: ولما كان القرآن ظاهرًا واضحًا قال: بيان للناس. ولما كانت الموعدة والهذى لا يكونان إلا لمن اتقى حصَّ بذلك المتقين؛ لأنَّ من عمى فكره وقسا فؤاده لا يَهْتَدِي ولا يَتَعَطَّ، فلا يُنَاسِبُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ الهذى والموعدة. وقال ابن كثير: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: يَعْنِي الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الْأَمُّمُ الْأَقْدُمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ. ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ﴾: يَعْنِي الْقُرْآنَ فِيهِ خَبَرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَهْدَى لِقُلُوبِكُمْ وَزَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ. وقال أبو السعود: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾: ﴿هَذَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَلَفَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَقِيلَ: إِشَارَةٌ إِلَى الْقُرْآنِ، وَلَا يَخْفَى بُعْدُهُ. ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: أَيُّ تَبْيِينٌ لَهُمْ، عَلَى أَنَّ (الْلَامَ) مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمُصَدَّرِ، أَوْ كَائِنٌ لَهُمْ، عَلَى أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لَهُ، وَتَعْرِيفٌ (النَّاسِ) لِلْعَهْدِ، وَهُمْ الْمَكْذِبُونَ، أَيُّ هَذَا إِضَاحٌ لِسُوءِ عَاقِبَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالسَّيْرِ وَالنَّظَرِ وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّ الْعَمَلَ بِمُوجِبِهِ غَيْرُ مُحْتَصٍّ بِوَاحِدٍ ذُوْنَ وَاحِدٍ، فَفِيهِ حَمْلٌ لِلْمَكْذِبِينَ أَيْضًا عَلَى أَنْ يَنْظُرُوا فِي عَوَاقِبِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّكْذِيبِ وَيَعْتَبِرُوا بِمَا يُعَايِنُونَ مِنْ آثَارِ دِمَارِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ مَسْوقًا لَهُمْ. ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ﴾: أَيُّ زِيَادَةٍ بَصِيرَةٍ وَمَوْعِظَةٍ لَكُمْ. وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لِلْإِيذَانِ بِعِلَّةِ الْحُكْمِ، فَإِنَّ مَدَارَ كَوْنِهِ هُدًى وَمَوْعِظَةً لَهُمْ: إِنَّمَا هُوَ تَقْوَاهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِ(الْمُتَّقِينَ): الصَّائِرِينَ إِلَى التَّقْوَى، وَهَدَى وَهْدَى عَلَى ظَاهِرِهِمَا، أَيُّ هَذَا بَيَانٌ لِمَالِ أَمْرِ النَّاسِ وَسُوءِ مَعْبِيَّتِهِ وَهْدَايَةُ لِمَنْ اتَّقَى مِنْهُمْ وَزَجَّرَ لَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ مَا يَعْمُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ بِالْفِعْلِ، وَيُرَادُ بِالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةِ أَيْضًا مَا يَعْمُ ابْتِدَاءُهُمَا وَالزِّيَادَةُ فِيهِمَا، وَإِنَّمَا قُدِّمَ كَوْنُهُ بَيَانًا لِلْمَكْذِبِينَ مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ مَسْوقٍ لَهُ عَلَى كَوْنِهِ هُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ مَعَ أَنَّهُ الْمُقْصُودُ بِالسِّيَاقِ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى مُشَاهَدَةِ آثَارِ هَلَاكِ أَسْلَافِهِمْ ظُهُورُ حَالِ أَخْلَافِهِمْ، وَأَمَّا زِيَادَةُ الْهُدَى أَوْ أَصْلُهُ فَأَمْرٌ مُتَرْتَّبٌ عَلَيْهِ. وَتَخْصِيصُ الْبَيَانِ لِلنَّاسِ مَعَ شُمُولِهِ لِلْمُتَّقِينَ أَيْضًا؛ لِمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مُجَرَّدُ الْبَيَانِ الْعَارِي عَنِ الْهُدَى وَالْعِظَةِ. وَالْإِقْتِصَارُ عَلَيْهِمَا فِي جَانِبِ

الْمُتَّقِينَ مَعَ تَرْبِيهِمَا عَلَى الْبَيَانِ؛ لِمَا أَتَتْهُمَا الْمَقْصِدُ الْأَصْلِيُّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفُ (النَّاسِ) لِلْجِنْسِ، أَيْ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿وَهْدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾: أَيْ هَذَا النَّظَرُ مَعَ كَوْنِهِ بَيَانًا فِيهِ هُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَطَفْتُ الْهُدَى وَالْمَوْعِظَةَ عَلَى الْبَيَانِ يَدُلُّ عَلَى التَّغَايُرِ وَلَوْ بِاعْتِبَارِ الْمُتَعَلِّقِ، وَبَيَانُهُ: أَنَّ اللَّامَ فِي النَّاسِ إِنْ كَانَتْ لِلْعَهْدِ فَالْبَيَانُ لِلْمُكَذِّبِينَ، وَالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ لِلْجِنْسِ فَالْبَيَانُ لِجَمِيعِ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وَالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةُ لِلْمُتَّقِينَ وَخَذَهُمْ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: أَيْ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ، تَبَيَّنَ لِلنَّاسِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَأَهْلُ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَهُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا أَوْقَعَ اللَّهُ بِالْمُكَذِّبِينَ. ﴿وَهْدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِالْآيَاتِ فَتَهْدِيهِمْ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ، وَتَعْظُمُهُمْ وَتَزْجِرُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْغَيِّ، وَأَمَّا بَاقِي النَّاسِ فَهِيَ بَيَانٌ لَهُمْ، تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ مِنَ اللَّهِ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَأَنَّهُ بَيَانٌ لِلنَّاسِ عَمُومًا، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ خُصُوصًا، وَكِلَا الْمَعْنِيَيْنِ حَقٌّ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذِيلٌ يَعُمُّ الْمَخَاطِبَيْنِ الْحَاضِرِينَ وَمَنْ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَجْيَالِ. وَالْإِشَارَةُ إِمَّا إِلَى مَا تَقَدَّمَ بِتَأْوِيلِ الْمَذْكُورِ، وَإِمَّا إِلَى حَاضِرٍ فِي الذَّهْنِ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْآيَةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ. وَالْبَيَانُ: الْإِيضَاحُ وَكَشَفُ الْحَقَائِقِ الْوَاقِعَةِ. وَالْهُدَى: الْإِرْشَادُ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرٌ النَّاسِ فِي الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ. وَالْمَوْعِظَةُ: التَّحْذِيرُ وَالتَّخْوِيفُ. فَإِنْ جَعَلْتَ الْإِشَارَةَ إِلَى مَضْمُونِ قَوْلِهِ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، فَإِنَّهَا بَيَانٌ لِمَا عَقَلُوا عَنْهُ مِنْ عَدَمِ التَّلَازُمِ بَيْنَ النَّصْرِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، وَلَا بَيْنَ الْهَزِيمَةِ وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَهِيَ هُدًى لَهُمْ؛ لِيَنْتَرِعُوا الْمُسَبِّبَاتِ مِنْ أَسْبَابِهَا، فَإِنَّ سَبَبَ النَّجَاحِ حَقًّا هُوَ الصَّلَاحُ وَالْإِسْتِقَامَةُ، وَهِيَ مَوْعِظَةٌ لَهُمْ؛ لِيَحْذَرُوا الْفُسَادَ وَلَا يَغْتَرُّوا كَمَا اغْتَرَّ عَادٌ إِذْ قَالُوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (هَذَا) قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ: الْأَوَّلُ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:

إنه عائد إلى القرآن؛ لجريان ذلك كثيراً في كتاب الله، كقوله وتعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. فتكون (هَذَا) أي القرآن بياناً للناس. الثاني: ومنهم من قال: إنه عائد إلى أقرب ما ذكر؛ لأن اسم الإشارة والضمير كلاهما يعودان على أقرب مذكور. ولكن الأول أولى أن يكون عائداً إلى القرآن كله، ومنه هذه الآية؛ لأن هذه الآية من القرآن، فإذا جعلنا (هَذَا) يعود على القرآن كله صار من ضمنه ما ذكر في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله: ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: (بَيَانٌ): اسم مصدر، بَيَّنَّ يَبِينُ تبييناً، مثل: بَدَّلَ يَبْدُلُ تبديلاً، ومثل: كَلَّمَ يَكَلِّمُ تكليماً، واسم المصدر: كلام. وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾: إذا قلنا: إنه اسم مصدر فقد عبّر باسم المصدر الذي هو البيان عن الموصوف بالبيان. وهذا من باب المبالغة أن يجعل الموصوف هو الصفة نفسها، كأننا سلبنا اتصافه بها حتى جعلناه هو نفس الصفة؛ ولهذا يقولون: إِنَّ قول القائل (فلان عدلٌ) أبلغ من قولهم: (فلان ذو عدل) كأنه جعل هذا الموصوف هو الصفة. إذاً القرآن ليس فيه البيان، بل هو نفسه البيان. وكيف كان القرآن وهو عربي بياناً للناس كلهم وفيهم العجم الذين لا يعرفون لغة العرب؟ نقول: لأن هؤلاء سيقبض الله لهم من يبلغهم إيّاه؛ ولهذا كثير من علماء المسلمين الآن الذين لهم قدم صدق في العلم والدين، كثير منهم عجم. وإن شئتم فاعجبوا! إن مرجع أكثر الناس في اللغة العربية الآن كتاب "القاموس المحيط" الذي ألفه أعجمي، هو: (الفيزوزآبادي) رحمه الله. وفي النحو من إمام البصريين؟ (سيبويه) رحمه الله. ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾: (هْدَى): بمعنى دلالة يستدلّ بها المتقي. و(مَوْعِظَةٌ): بمعنى امتثال؛ لأن الموعظة هي تليين القلوب بذكر ما يخاف منه، أو ذكر ما يرغب فيه. فوصف الله القرآن بثلاثة أوصاف: وصف عامّ، ووصفان خاصّان، الوصف العام: هو (بَيَانٌ لِلنَّاسِ)، والخاصّان (هْدَى، وَمَوْعِظَةٌ).

• قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩):

• سبب نزول الآية:

قال الألوسي: أَخْرَجَ الْوَاحِدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "انْهَزَمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِخَيْلِ الْمُشْرِكِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْلُوا عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ: اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ، اللَّهُمَّ لَيْسَ يَعْبُدُكَ بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ غَيْرُ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَثَابَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَصَعِدُوا الْجَبَلَ، وَرَمَوْا خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى هَزَمُوهُمْ".

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ، وَقَتَادَةَ: "أَتَاهَا نَزَلَتْ تَسْلِيَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِمَا نَالَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ".
وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: "أَتَاهَا نَزَلَتْ بَعْدَ يَوْمِ أُحُدٍ حِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَصْحَابَهُ بِطَلَبِ الْقَوْمِ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ مَا أَصَابَهُمْ، وَقَالَ: لَا يَخْرُجُ إِلَّا مَنْ شَهِدَ مَعَنَا بِالْأَمْسِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ".

• مناسبة الآية لما قبلها: قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ الَّذِي قَدَّمَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾ كَالْمَقْدَمَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: إِذَا بَحَثْتُمْ عَنْ أَحْوَالِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ عَلِمْتُمْ أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَإِنْ اتَّفَقَتْ لَهُمُ الصَّوْلَةُ، لَكِنْ كَانَ مَأْلُ الْأَمْرِ إِلَى الضَّعْفِ وَالْفُتُورِ، وَصَارَتْ دَوْلَةُ أَهْلِ الْحَقِّ عَالِيَةً، وَصَوْلَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مُنْدَرِسَةً، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَصِيرَ صَوْلَةُ الْكُفَّارِ عَلَيْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبَبًا لِضَعْفِ قُلُوبِكُمْ وَجُنُونِكُمْ وَعَجْزِكُمْ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَقْوَى قُلُوبُكُمْ فَإِنَّ الْإِسْتِغْلَاءَ سَيَحْصُلُ لَكُمْ، وَالْدَّوْلَةُ رَاجِعَةٌ إِلَيْكُمْ. وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالْمَسَارَعَةِ، وَاتَّبَعَهَا عِلَّتُهَا وَتَتَبَعَتْهَا، نَهَاهُمْ عَمَّا يَعُوقُ عَنْهَا مِنْ قَبْلِ الْوَهْنِ الَّذِي عَرَضَ لَهُمْ عِنْدَ رُؤْيَيْهِمُ الْمَوْتِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا...﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: قال السمرقندي: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي لا تضعفوا ولا تجبنوا. ويقال: ولا تعجزوا عن عدوكم. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أي على ما

أصابكم من القتل والهزيمة يوم أحد. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: يعني الغالبون يقول آخر الأمر لكم. ويقال: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: أي في الجنة. ويقال: هذا وعد لأصحاب محمد ﷺ في المستأنف، أي الغالبون على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك في عسكر إلا ظفروا في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ، إذا كان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم، فهذه البلدان كلها إنما فتحت في عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضهم ما فتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتحون في ذلك الوقت. ويقال: في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى . عليه السلام .: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾: [طه: ٦٨]، وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾. ويقال: اشتقت هذه اللفظة من اسم الله؛ لأن اسمه العليّ الأعلى. وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: يعني إن كنتم مصدقين بوعده الله. ويقال: معناه: إذ كنتم مؤمنين. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: (ولا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وأنتم الأعلون). ويقال: إن هذا وعد لهم بأنهم غالبون إن ثبتوا وصدقوا، فلو أنهم ثبتوا وصدقوا لعلبوا كما غلبوا يوم بدر، ولكنهم تركوا أمر رسول الله ﷺ فرجع الأمر عليهم. وقال البغوي: هَذَا حَثٌّ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْجِهَادِ، زِيَادَةٌ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُرْحِ يَوْمَ أُحُدٍ. ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي لا تضعفوا ولا تجبئوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: فإنكم ﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: أي تكون لكم العاقبة بالنصرة والظفر. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إذ كنتم مؤمنين، أي لأنكم مؤمنون. وقال ابن عطية: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: هي الله المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد، والحزن على من فقد وعلى مدمة الهزيمة، وأنسهم بأنهم الأعلون أصحاب العاقبة. والوهن: الضعف واللين والبلى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]. ومن كرم الخلق: ألا يهين الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محققاً، وأن يتقصى جميع قدرته ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم

والرَضَى، وفيه يَجْرِي قَوْلُ الْعَرَبِ: "إِذَا لَمْ تَعْلَبِ احْلُبْ"، عَلَى مَنْ تَأَوَّلَهُ مِنَ الْمُحْلَبِ، أَيْ حَارِبٍ وَلَوْ بِالْأُظْفَرِ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: "إِذَا عَزَّ أَحُوكَ فَهِنْ"، فَالرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَعْنَى فِيهِ: بِكَسْرِ (الهَاءِ) بِمَعْنَى: لَنْ وَاضْعُفْ ضَعْفَ الْمُطَوِّعِ. قَالَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ: يَجِبُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ لَا يُوَادَعَ الْعَدُوُّ مَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ، فَإِنْ كَانُوا فِي قُطْرٍ مَا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَيَنْظُرُ الْإِمَامُ لَهُمْ بِالْأَصْلَحِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ إِنْخِبَارٌ بِعُلُوِّ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِسَبَبِ عُلُوِّهِمْ فِي الْجَبَلِ، وَذَلِكَ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ انْحَارَ فِي نَقْرِ يَسِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْجَبَلِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ عَلَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَيْهِمُ الْجَبَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: اللَّهُ! اللَّهُ! لَا يَعْلُونَا، ثُمَّ قَامَ وَقَامَ مِنْ مَعَهُ فَقَاتَلَ أَصْحَابُهُ وَقَاتَلَ حِينَئِذٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَتَّى أَزَالُوا الْمُشْرِكِينَ عَنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، وَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾". وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ الشَّرْطُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا﴾، فَيَكُونُ الْمَقْصِدُ: هَزَّ النُّفُوسِ وَإِقَامَتَهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، فَيَكُونُ الشَّرْطُ عَلَى بَابِهِ دُونَ تَحْزُنٍ، وَيَتَرْتَّبُ مِنْ ذَلِكَ الطَّعْنُ عَلَى مَنْ نَجَمَ نِفَاقُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَعَلَى مَنْ تَأَوَّدَ إِيمَانُهُ وَاضْطَرَبَ يَقِينُهُ: أَلَا لَا يَتَحَصَّلُ الْوَعْدُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، فَالزُّمُوهُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أَيْ لَا تَضَعُفُوا. وَفِيمَا نُهُوا عَنِ الْحَزَنِ عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَتَلَ إِخْوَانَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ هَزَمَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَتْلَهُمْ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَا أَصَابَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ شَجٍّ، وَكَسَرٍ رُبَاعِيَّةٍ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِئِيُّ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ مَا فَاتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ، ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ النَّيْسَابُورِيُّ. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: أَنْتُمْ الْغَالِبُونَ وَأَخِرُ الْأَمْرِ لَكُمْ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ فِيهِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ حَالَكُمْ أَعْلَى مِنْ حَالِهِمْ فِي الْقِتْلِ لِأَنَّكُمْ أَصَبْتُمْ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَصَابُوا مِنْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَّلَمَّا

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أُنْزِلَ هَذَا ﴿[آلِ عِمْرَانَ: ١٦٥]﴾، أَوْ لِأَنَّ قِتَالَكُمْ لِلَّهِ وَقِتَالَهُمُ لِلشَّيْطَانِ، أَوْ لِأَنَّ قِتَالَهُمُ لِلدِّينِ الْبَاطِلِ وَقِتَالَكُمْ لِلدِّينِ الْحَقِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُوجِبُ كَوْنَكُمْ أَعْلَى حَالًا مِنْهُمْ. الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ بِالْحُجَّةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ. الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ مِنْ حَيْثُ أَنْتُمْ فِي الْعَاقِبَةِ تَظْفَرُونَ بِهِمْ وَتَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِمْ وَهَذَا شَدِيدُ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ انْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْوَهْنِ فَهُمْ كَانُوا مُتَحَاجِينَ إِلَى مَا يُفِيدُهُمْ قُوَّةً فِي الْقَلْبِ، وَفَرَحًا فِي النَّفْسِ، فَبَشَّرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَجُودٌ: الْأَوَّلُ: أَيُّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى إِيْمَانِكُمْ، وَالْمَقْصُودُ: بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا تَكْفَلُ بِإِعْلَاءِ دَرَجَتِهِمْ؛ لِأَجْلِ تَمَسُّكِهِمْ بِدِينِ الْإِسْلَامِ. الثَّانِي: أَيُّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ فَكُونُوا مُصَدِّقِينَ لِهَذِهِ الْبَشَارَةِ إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا يَعِدُكُمُ اللَّهُ وَيُبَشِّرُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَلَبَةِ. الثَّالِثُ: التَّقْدِيرُ: أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِنُصْرَةِ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ لَا تَبْقَى بِحَالِهَا، وَأَنَّ الدَّوْلَةَ تَصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْتِيلَاءُ عَلَى الْعَدُوِّ يَحْصُلُ لَهُمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: عَزَّاهُمْ وَسَلَّاهُمْ بِمَا نَالَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، وَحَثَّاهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَشْلِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾: أَيُّ لَا تَضَعُفُوا وَلَا تَجْبُنُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عَنْ جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ لِمَا أَصَابَكُمْ. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أَيُّ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَلَا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْمُصِيبَةِ. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: أَيُّ لَكُمْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَيُّ بِصِدْقِ وَعْدِي. وَقِيلَ: (إِنْ) بِمَعْنَى (إِذَا). وَقَالَ النَّسْفِيُّ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: أَيُّ وَحَالَكُمْ أَنْتُمْ أَعْلَى مِنْهُمْ وَأَغْلَبُ؛ لِأَنَّكُمْ أَصَبْتُمْ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَصَابُوا مِنْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، أَوْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ فِي الْعَاقِبَةِ. وَهِيَ بَشَارَةٌ لَهُمْ بِالْعُلُوِّ وَالْعَلَبَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصَّافَّاتُ: ١٧٣]، أَوْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ شَأْنًا؛ لِأَنَّ قِتَالَكُمْ لِلَّهِ، وَلِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَقِتَالَهُمُ لِلشَّيْطَانِ وَلِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ، أَوْ لِأَنَّ قِتَالَكُمْ فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿مُتَعَلِّقٌ بِالنَّهْيِ، أَيْ ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾ إِنَّ صَحَّ إِيمَانُكُمْ، يَعْنِي أَنَّ صِحَّةَ الْإِيمَانِ تُوجِبُ قُوَّةَ الْقَلْبِ، وَالثِّقَةَ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَقِلَّةَ الْمِبَالَاةِ بِأَعْدَائِهِ. أَوْ بِ﴿الْأَعْلُونَ﴾، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا يَعِدُكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَيُبَشِّرُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَلْبَةِ. وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾ تَقْوِيَةٌ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾ إِبْخَارٌ بَعَلُّو كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ثُمَّ نَهَى سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْوَهَنِ، وَهُوَ الضَّعْفُ، وَأَنْسَهُمْ بِأَنَّهُمُ الْأَعْلُونَ أَصْحَابُ الْعَاقِبَةِ، وَمِنْ كَرَمِ الْخَلْقِ أَلَّا يَهِنَ الْإِنْسَانُ فِي حَرْبِهِ، إِذَا كَانَ مُحِقًّا، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ الدِّينُ فِي السَّلَامِ وَالرَّضَى. وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾: إِبْخَارٌ بَعَلُّو كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾: فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ. وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: الْمَقْصِدُ: هَزُّ النَفُوسِ، وَإِقَامَتُهَا، وَيَتَرْتَّبُ مِنْ ذَلِكَ الطَّغْنُ عَلَى مَنْ نَجَمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نِفَاقُهُ أَوْ اضْطِرَابُ يَقِينِهِ، أَيْ لَا يَتَحَصَّلُ الْوَعْدُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، فَالزَّمُوهُ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَخْزَنُوا﴾: عَزَاهُمْ وَسَلَّاهُمْ بِمَا نَالَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، وَحَثَّهِمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ وَهَاهُمْ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَسَلِ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنََّّهُمُ الْأَعْلُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَهِيَ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، أَيْ وَالْحَالُ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ. وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ ظَفَرَ بِعَدُوِّهِ فِي جَمِيعِ وَقَعَاتِهِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا أَصَبْتُمْ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، فَإِنَّهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابُوا مِنْكُمْ الْيَوْمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾ وَمَا بَعْدَهُ، أَوْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَا تَهْنُوا وَلَا تَخْزَنُوا، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَلَا تَهْنُوا..﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ..﴾ بِحَسَبِ اللَّفْظِ، وَمُرْتَبِطَةٌ بِهِ بِحَسَبِ الْمَعْنَى إِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ عَوْدٌ إِلَى التَّفْصِيلِ، وَمِمَّا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ أُحُدٍ . إِنْ لَمْ نَقُلْ ذَلِكَ . وَبِهِ قَالَ جَمْعٌ، وَجَعَلُوا تَوْسِيطَ حَدِيثِ الرَّبِّ اسْتِطْرَادًا، أَوْ إِشَارَةً إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنْ عِدَاوَةِ الدِّينِ وَمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِهِ يَظْهَرُ الرِّبْطُ. وَمَنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ ارْتِبَاطَ هَذِهِ الْآيَةِ لَفْظًا بِمَحْذُوفٍ، أَيْ كُونُوا مُحَدِّثِينَ وَلَا

تَهْنَأُوا، وَهُوَ تَكَلَّفٌ مُسْتَعْنَى عَنْهُ. وَالْوَهْنُ: الضَّعْفُ، أَيْ لَا تَضَعُفُوا عَنْ قِتَالِ أَعْدَائِكُمْ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا نَالَكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أَيْ عَلَى مَا أَصَبْتُمْ بِهِ مِنْ قَتْلِ الْأَعِزَّةِ. وَقِيلَ: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أَيْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَلَا يَخْفَى بُعْدُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَقِيقَةَ النَّهْيِ غَيْرُ مُرَادَةٍ هُنَا، بَلِ الْمُرَادُ: التَّسْلِيَةُ وَالتَّشْجِيعُ، وَإِنْ أُريدَتِ الْحَقِيقَةُ فَلَعَلَّ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْوَهْنِ وَالْحُزْنِ مِنَ الْآثَارِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ أَيْ لَا تَفْعَلُوا مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ مِنْ فَاعِلٍ الْفُعْلَيْنِ أَيْ وَالْحَالُ أَنْتُمْ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾: أَيْ الْغَالِبُونَ دُونَ أَعْدَائِكُمْ، فَإِنَّ مَصِيرَهُمْ مَصِيرُ أَسْلَافِهِمُ الْمَكْدِيِّينَ، فَهُوَ تَصْرِيحٌ بَعْدَ الْإِشْعَارِ بِالْعَلَبَةِ وَالتَّنْصِيرِ. أَوِ الْمُرَادُ: وَالْحَالُ أَنْتُمْ أَعْلَى مِنْهُمْ شَأْنًا، فَإِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَقِتَالِكُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَقِتَالِكُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَقِتَالُهُمْ لِنُصْرَةِ كَلِمَةِ الشَّيْطَانِ وَقِتَالُهُمْ فِي النَّارِ، وَاشْتِرَاكُهُمْ عَلَى هَذَا فِي الْعُلُوِّ بِنَاءً عَلَى الظَّاهِرِ وَرَعْمِهِمْ، وَإِذَا أَخَذَ الْعُلُوُّ بِمَعْنَى الْعَلَبَةِ لَا يَخْتِاجُ إِلَى هَذَا لِمَا أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ حَالًا مِنْهُمْ حَيْثُ أَصَبْتُمْ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَكْبَرَ مِمَّا أَصَابُوا مِنْكُمْ الْيَوْمَ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَوَّزَ كَوْنَ الْجُمْلَةِ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ وَجَعَلَهَا مُعْتَرِضَةً بَيْنَ التَّهْنِئَةِ الْمَذْكُورِ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مَعْنَى، وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ مَحْذُوفًا، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَا تَهْنَأُوا وَلَا تَحْزَنُوا، فَإِنَّ الْإِيمَانَ يُوجِبُ قُوَّةَ الْقَلْبِ وَمَزِيدَ التَّيَمُّنَةِ بِاللَّهِ وَعَدَمَ الْمِبَالَاةِ بِأَعْدَائِهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ دَعْوَى التَّعَلُّقِ بِمَا لَا بَأْسَ بِهَا، لَكِنَّ الْحُكْمَ. بِكَوْنِ تِلْكَ الْجُمْلَةِ مُعْتَرِضَةً. مُعْتَرِضٌ بِالْبُعْدِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّرْطُ مُتَعَلِّقًا بِالْأَعْلَوْنَ، وَالْجَوَابُ مَحْذُوفٌ أَيْضًا، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَفْتَضِي الْعُلُوَّ لَا مَحَالَةَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِالْإِيمَانِ التَّصَدِيقُ بِوَعْدِ اللَّهِ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَلَا اخْتِصَاصَ لِهَذَا الْإِحْتِمَالِ بِالْإِحْتِمَالِ الْأَخِيرِ مِنْ اخْتِمَالِي التَّعَلُّقِ كَمَا يُوهَّمُهُ صَنِيعُ بَعْضِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ: الْمَقْصُودُ مِنَ الشَّرْطِ هُنَا: تَحْقِيقُ الْمَعْلُوقِ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِ الْأَخِيرِ: إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ فَأَعْطِنِي أَجْرِي، أَوْ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِكَ لَوْلَدَكَ: إِنْ كُنْتُ ابْنِي

فَلَا تَعْصِنِي، وَحَمَلْ بَعْضُهُمُ الشَّرْطَ عَلَى التَّعْلِيلِ، أَيْ لَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا لِأَجْلِ كَوْنِكُمْ مُؤْمِنِينَ، أَوْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى الْإِيمَانِ لَيْسَ لَهُ كَمَالٌ مُلَاءَمَةٌ لِلْمَقَامِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: يَقُولُ تَعَالَى مَشْجَعًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَقْوِيًا لِعِزَائِمِهِمْ، وَمَنْهَضًا لَهُمْمِهِمْ: ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا﴾: أَيْ وَلَا تَهْنُوا وَتَضَعُفُوا فِي أَبْدَانِكُمْ، وَلَا تَحْزُنُوا فِي قُلُوبِكُمْ، عِنْدَمَا أَصَابَتْكُمْ الْمَصِيبَةُ، وَابْتَلَيْتُمْ بِهَذِهِ الْبَلَا، فَإِنَّ الْحُزْنَ فِي الْقُلُوبِ، وَالْوَهْنَ عَلَى الْأَبْدَانِ، زِيَادَةُ مَصِيبَةٍ عَلَيْكُمْ، وَعَوْنٌ لِعَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ، بَلْ شَجَعُوا قُلُوبَكُمْ وَصَبَرُوا، وَادْفَعُوا عَنْهَا الْحُزْنَ وَتَصَلَّبُوا عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ بِهِمُ الْوَهْنُ وَالْحُزْنُ، وَهُمْ الْأَعْلَوْنَ فِي الْإِيمَانِ، وَرَجَاءُ نَصْرِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ، فَالْمُؤْمِنُ الْمُتَيَقِّنُ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا﴾ نَهْيٌ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ أَسْبَابِ الْفَشَلِ. وَالْوَهْنُ: الضَّعْفُ، وَأَصْلُهُ ضَعْفُ الدَّاتِ: كَالْجِسْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]. وَأَمَّا الْحُزْنُ فَهُوَ: شِدَّةُ الْأَسْفِ الْبَالِغَةُ حَدَّ الْكَآبَةِ وَالْإِنْكَسَارِ. وَالْوَهْنُ وَالْحُزْنُ حَالَتَانِ لِلنَّفْسِ تَنْشَأَانِ عَنْ اعْتِقَادِ الْحَيَاةِ وَالرُّزْءِ فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِمَا الْإِسْتِسْلَامُ وَتَرْكُ الْمَقَاوِمَةِ. فَالنَّهْيُ عَنِ الْوَهْنِ وَالْحُزْنِ فِي الْحَقِيقَةِ نَهْيٌ عَنْ سَبَبَيْهِمَا وَهُوَ الْإِعْتِقَادُ، كَمَا يُنْهَى أَحَدٌ عَنِ الْبُشْيَانِ، وَكَمَا يُنْهَى أَحَدٌ عَنْ فِعْلِ غَيْرِهِ فِي نَحْوِ لَا أَرَيْنَ فُلَانًا فِي مَوْضِعٍ كَذَا، أَيْ لَا تَتَرَكُهُ يَحُلُّ فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ قَدَّمَ عَلَى هَذَا النَّهْيِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ..﴾. وَعَقَّبَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: (الْوَاوُ) لِلْعَطْفِ، وَهَذِهِ بَشَارَةٌ لَهُمْ بِالنَّصْرِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَالتَّعْلِيقُ بِالشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قُصِدَ بِهِ تَهْيِيجُ غَيْرَتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ؛ إِذْ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَاحَ عَلَيْهِمُ الْوَهْنُ وَالْحُزْنُ مِنَ الْعَلَبَةِ، كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ ضَعُفَ يَقِينُهُ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ عَلِمْتُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ. وَجِيءَ بِإِنْ الشَّرْطِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا عَدَمُ تَحْقِيقِ شَرْطِهَا؛ إِمَامًا لِهَذَا الْمُقْصِدِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَلَا تَهْنُوا

وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾: الخطاب هنا لهذه الأمة، وعلى رأسها نبينا محمد ﷺ وأصحابه. فذكر الله حال إقدامهم وحال إدبارهم، حال إقدامهم نهم عن الضعف، وهذا يعطيهم قوّة وإقدامًا، وحال إدبارهم نهم عن الحزن، وهذا يعطيهم إعراضًا عمّا وراءهم وعدم الالتفات إليه. ومعلوم أنّ الحزن يكون فيما يسوء، والحزن على ما مضى لا يفيد الإنسان، بل يفتر عزيمته، ويقلق راحته؛ فلهذا نهم الله عمّا يعوقهم حال الإقبال، وعمّا يعوقهم حال الإدبار. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: اختلف المفسرون في (الواو) هنا هل هي حالية أو استثنائية؟ إذا قلنا: إنها حال، يعنى: والحال أنكم أنتم الأعلون، صار هذا النهي منحطًا على الأمة ما دامت هي العليا؛ لأن الأعلى لا يليق به أن يضعف أو يحزن. يعنى فإذا انخفضت فلها أن تحزن، ولها أن تحزن؛ لأنها ضعيفة لا يمكنها أن تتقدم، ولا يمكنها أن تتسلّى عمّا مضى؛ لأنها كيف تتسلّى وبأي شيء؟! وإذا جعلنا (الواو) استثنائية في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ فيقرر الله فيها علو المؤمنين، وإذا تقرر علوهم فإنّ حالهم تقتضي أن لا يهنوا ولا يحزنوا، فيصير فيها تشجيع للأمة بأن لا يضعفوا ولا يحزنوا؛ لأنهم هم الأعلون حتى لو أصيبوا بما يصابون به فيما تقتضيه حكمة الله بمداولة الأيام بين الناس فإنّ العاقبة لهم، وعلى هذا فيكون هذا الوجه الثاني هو أقرب إلى الصواب، وإن كان الوجه الأول محتملاً. والمعنيان متلازمان؛ لأن من اعتقد أنه الأعلى فسوف لا يجبن ولا يحزن، ومن كانت حاله العلو فإنه كذلك لن يضعف ولن يحزن. والإنسان في الحقيقة بين زمن ماضٍ وزمن مستقبل، فإذا فاته الخير أو حصل له الشرّ في الزمن الماضي فحاله الحزن، يحزن على ما مضى، وإذا ضعف وجبن فاته من الخير في المستقبل بقدر ضعفه وجبنه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي عن العمل في المستقبل، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي على ما جرى عليكم في الماضي؛ لأنكم أنتم الأعلون، ومن كان الأعلى فستكون العاقبة له. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: هذا شرط للعلو، يعنى أنتم الأعلون في حال كونكم مؤمنين. والإيمان أخصّ من الإسلام؛ لأن الإسلام يقع من

المنافق وضعيف الإيمان، والإيمان لا يكون إلا من كامل الإيمان، من المؤمن حقاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي حتى الآن لم يدخل الإيمان في القلب، عندكم إسلام لكن ليس عندكم إيمان، إلا أن الإيمان قريب منكم؛ لأن قوله: (لما) حرف نفي يدل على قرب المنفي، إذاً هذه الأمة هي العليا بشرط الإيمان، أما إذا لم يكن لديها إيمان فليس لها عهد عند الله بالنصر؛ لأن العهد الموثق بين الله وبين عباده بالنصر، هو أن يكون النصر متبادلاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، أما إذا لم يكن منّا نصرٌ لله فإنّ نصر الله قد يتخلف، يعني ليس بمضمون. وعلامات الإيمان كثيرة، منها: أن لا يخاف الإنسان في تنفيذ حكم الله أحداً من الخلق، فإن خاف أحداً من الخلق فليس بمؤمن، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم من أوليائه.

• قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠):

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: قال ابنُ عَبَّاسٍ: "أصابهم يوم أُحُدٍ قَرْحٌ، فَشَكَّوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا لَقُوا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، فَبَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِنَ الْقَرْحِ لَا يَجِبُ أَنْ يُرِيلَ جَدَّهُمْ وَاجْتِهَادَهُمْ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ،

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَمَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ عَدُوَّهُمْ مِثْلُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانُوا مَعَ بَاطِلِهِمْ، وَسُوءِ عَاقِبَتِهِمْ لَمْ يَفْتَرُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ فِي الْحَرْبِ، فَإِنَّ لَا يَلْحَقُكُمُ الْقَتْلُ مَعَ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ أَوَّلَى.

وقال البقاعي: لَمَّا نَهَاكَم عَمَّا تَقَدَّمَ، وَبَشَّرَهُمْ، سَلَّاهُمْ وَبَصَّرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾: قال مكِّي: هذا تعزية للمسلمين فيما أصابهم من الجراح والقتل يوم أحد، وأنهم إن كان أصابهم ذلك فقد أصاب المشركين مثله يوم بدر. وقال الماوردي: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَسِّ وَاللَّمْسِ: أَنَّ اللَّمْسَ مُبَاشَرَةٌ بِإِحْسَاسٍ، وَالْمَسَّ مُبَاشَرَةٌ بِغَيْرِ إِحْسَاسٍ، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ تَسْلِيَةً لَهُمْ فَإِنْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ قَرْحٌ فَقَدْ أَصَابَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلُهُ. وقال الواحدي: مَعْنَى ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: يُصِيبُكُمْ. يقال: (مَسَّهُ أَمْرٌ كَذَا)، أَوْ (مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ): أَيِ أَصَابَتْهُ. وتأويله: لَصِقَ بِهِ، وَأَصَابَهُ فِي ذَاتِهِ. وقال الرازي: فِي الْآيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَدْ مَسَّهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. الثَّانِي: أَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ نَالَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِثْلُ مَا نَالَكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ؛ لِأَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ نِيفٌ وَعِشْرُونَ رَجُلًا، وَقُتِلَ صَاحِبُ لِيَوَائِهِمُ وَالْجِرَاحَاتُ كَثُرَتْ فِيهِمْ وَعَقِرَ عَامَتُهُ حَيْلُهُمُ بِالنَّبْلِ، وَقَدْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ. فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ قَالَ: ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ وما كَانَ قَرْحُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِثْلَ قَرْحِ الْمُشْرِكِينَ؟ قُلْنَا: يَحِبُّ أَنْ يُفَسَّرَ الْقَرْحُ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ بِمُجَرَّدِ الْإِهْزَامِ لَا بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ. وقال ابن كثير: أَيِ إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ. وقال أبو السعود: وَالْمَعْنَى: إِنْ نَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَدْ نَلْتُمْ مِنْهُمْ قَبْلَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ لَمْ يُضْعِفْ ذَلِكَ قُلُوبَهُمْ وَلَمْ يُتَبِّطْهُمْ عَنْ مُعَاوَدَتِكُمْ بِالْقِتَالِ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِأَنْ لَا تَضَعُفُوا، فَإِنَّكُمْ تَرْجُونَ مِنْ

الله ما لا يَرُجُونَ. وقيل: كِلَا الْمَسِينِ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ نَالُوا مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُخَالِفُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَتَلُوا مِنْهُمْ نَيْفًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ صَاحِبُ لَوَائِهِمْ، وَجَرَحُوا عَدَدًا كَثِيرًا، وَعَقَرُوا عَامَّةَ حَيْلِهِمْ بِالنَّبْلِ. وقال الألوسي: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾: المضارع على ما ذَهَبَ إِلَيْهِ الْعَلَامَةُ التَّفْتَازَانِيُّ لِحِكَايَةِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْمَسَّ مَضَى. وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ (إِنْ) فَبِتَقْدِيرِ (كَانَ)، أَيْ إِنْ كَانَ مَسَّكُمْ قَرَحٌ، وَ(إِنْ) لَا تَتَصَرَّفُ فِي كَانَ لِقُوَّةِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمَضِيِّ، أَوْ عَلَى مَا قِيلَ: إِنَّ (إِنْ) قَدْ تَجِيءُ لِمُجَرَّدِ التَّغْلِيْقِ مِنْ غَيْرِ نَقْلِ فِعْلِهِ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا وَقَعَ فِي مَوْضِعِ جَوَابِ الشَّرْطِ لَيْسَ بِجَوَابِ حَقِيقَةٍ؛ لِتَحَقُّقِهِ قَبْلَ هَذَا الشَّرْطِ، بَلْ دَلِيلُ الْجَوَابِ، وَالْمَرَادُ: إِنْ كَانَ مَسَّكُمْ قَرَحٌ فَذَلِكَ لَا يُصَحِّحُ غُذْرَكُمْ وَتَقَاعُذَكُمْ عَنِ الْجِهَادِ بَعْدُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ مَسَّ أَعْدَاءَكُمْ مِثْلُهُ وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يُقَالُ: إِنْ مَسَّكُمْ قَرَحٌ فَتَسَلَّلُوا فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ. وَالْمِثْلِيَّةُ بِاعْتِبَارِ كَثَرَةِ الْقَتْلِ فِي الْجُمْلَةِ، فَلَا يَرُدُّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ، وَقَتَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ وَجَرَحُوا سَبْعِينَ، وَالتَّزَمَ بَعْضُهُمْ تَفْسِيرَ الْقَرَحِ بِمُجَرَّدِ الْإِهْزَامِ دُونَ تَكْثِيرِ الْقَتْلِ فِرَارًا مِنْ هَذَا الْإِيرَادِ. وقال ابن عاشور: القرَح هنا مُسْتَعْمَلٌ فِي غَيْرِ حَقِيقَتِهِ، بَلْ هُوَ اسْتِعَارَةٌ لِلْهَزِيمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ، فَإِنَّ الْهَزِيمَةَ تُشَبَّهُ بِالثَّلْمَةِ وَبِالْإِنْكَسَارِ، فَشُبِّهَتْ هُنَا بِالْقَرَحِ حِينَ يُصِيبُ الْجَسَدَ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْحَقِيقَةُ؛ لِأَنَّ الْجِرَاحَ الَّتِي تُصِيبُ الْجَيْشَ لَا يُعْبَأُ بِهَا إِذَا كَانَ مَعَهَا النَّصْرُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ التَّسْلِيَةَ وَقَعَتْ عَمَّا أَصَابَهُم مِنَ الْهَزِيمَةِ. وَالْقَوْمُ هُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَمَنْ مَعَهُمْ. وَالْمَعْنَى إِنْ هُزِمْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَدْ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ وَكُنْتُمْ كِفَافًا؛ وَلِذَلِكَ أَعْقَبَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. وَالتَّعْبِيرُ عَمَّا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ فِي يَمَسُّكُمْ؛ لِقُرْبِهِ مِنْ زَمَنِ الْحَالِ، وَعَمَّا أَصَابَ الْمُشْرِكِينَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِیُعْذِرَهُ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَ يَوْمَ بَدْرٍ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ﴾ لَيْسَ هُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَيْهِ أَعْنَى عَنْهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيجَازِ، وَالْمَعْنَى: إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرَحٌ فَلَا تَحْزَنُوا أَوْ فَلَا تَهِنُوا وَهَذَا بِالشَّكِّ فِي وَعْدِ اللَّهِ

بِنَصْرِ دِينِهِ؛ إِذْ قَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ فَلَمْ تَكُونُوا مَهْزُومِينَ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ كَفَافًا، وَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِقَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ نَصْرٌ مُبِينٌ. وَهَذِهِ الْمَقَابِلَةُ بِمَا أَصَابَ الْعَدُوَّ يَوْمَ بَدْرٍ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ تَسْلِيَةً وَلَيْسَ إِعْلَامًا بِالْعُقُوبَةِ كَمَا قَالَ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: قال الرازي: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ إشارة إلى جميع أيام الوقائع العجيبة، فَبَيَّنَ أَنَّهَا دَوْلٌ تَكُونُ عَلَى الرَّجُلِ حِينًا وَلَهُ حِينًا وَالْحَرْبُ سِجَالٌ. قَالَ الْفَقَّالُ: الْمَدَاوِلَةُ: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، يُقَالُ: تَدَاوَلَتْهُ الْأَيْدِي إِذَا تَنَاقَلَتْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَفَى لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، أَيُّ تَدَاوُلُوهَا وَلَا يَجْعَلُونَ لِلْفُقَرَاءِ مِنْهَا نَصِيبًا، وَيُقَالُ: الدُّنْيَا دَوْلٌ، أَيُّ تَنْتَقِلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ، ثُمَّ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَيُقَالُ: دَالٌ لَهُ الدَّهْرُ بِكَذَا إِذَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ أَيَّامَ الدُّنْيَا هِيَ دَوْلٌ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَدُومُ مَسَارُهَا وَلَا مَضَارُهَا، فَيَوْمٌ يَحْصُلُ فِيهِ السُّرُورُ لَهُ وَالْعَمُّ لِعَدُوِّهِ، وَيَوْمٌ آخَرُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِهَا وَلَا يَسْتَقِرُّ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهَا. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قِيلَ: هَذَا فِي الْحَرْبِ، تَكُونُ مَرَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَنْصُرَ اللَّهُ دِينَهُ، وَمَرَّةً لِلْكَافِرِينَ إِذَا عَصَى الْمُؤْمِنُونَ؛ لِيَنْتَلِيَهُمْ وَيُخَصِّصَ ذُنُوبَهُمْ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَعْصُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. وَقِيلَ: ﴿نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: مِنْ فَرَحٍ وَغَمٍّ، وَصِحَّةٍ وَسَقَمٍ، وَغِنًى وَفَقْرٍ. وَقَالَ الْبِضَاوِيُّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أَيُّ نَصَرِفُهَا بَيْنَهُمْ نُدِيلُ لَهُوْلَاءِ تَارَةً وَلَهُوْلَاءِ أُخْرَى. وَالْمَدَاوِلَةُ كَالْمَعَاوِدَةِ، يُقَالُ: دَاوَلْتُ الشَّيْءَ بَيْنَهُمْ فَتَدَاوَلُوهُ. وَالْأَيَّامُ تَحْتَمِلُ الْوَصْفَ وَالْحَبَرَ. وَنُدَاوَاهَا يَحْتَمِلُ الْحَبَرَ وَالْحَالَ، وَالْمِرَادُ بِهَا: أَوْقَاتُ النَّصْرِ وَالْعَلْبَةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾: اسْمُ الْإِشَارَةِ مُشَارًا بِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَمَا فِي الضَّمَائِرِ الْمُبْهَمَةِ الَّتِي يُفَسِّرُهَا مَا بَعْدَهَا نَحْوُ: (رَبِّهِ رَجُلًا) وَمِثْلُهُ يُفِيدُ التَّفْخِيمَ وَالتَّعْظِيمَ. وَ﴿الْأَيَّامُ﴾: بِمَعْنَى: الْأَوْقَاتِ لَا الْأَيَّامِ الْعُرْفِيَّةِ. وَتَعْرِيفُهَا لِلْعَهْدِ إِشَارَةٌ إِلَى أَوْقَاتِ الظَّفَرِ وَالْعَلْبَةِ الْجَارِيَةِ فِيمَا بَيْنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَيَوْمًا بَدْرٍ وَأُحَدٍ دَاخِلَانِ فِيهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا. ﴿نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أَيُّ نَصَرِفُهَا بَيْنَهُمْ، فَنُدِيلُ لَهُوْلَاءِ مَرَّةً وَلَهُوْلَاءِ أُخْرَى كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ،

والمداولة: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، يُقَالُ: تَدَاوَلَتْهُ الْأَيْدِي إِذَا انْتَقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ. و(النَّاسِ) عامٌّ. وقال القاسمي: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾: أَيُّ أَيَّامٍ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أَيُّ نُصَرِّفُهَا بَيْنَهُمْ، نُدِيلُ تَارَةً هَؤُلَاءِ، وَتَارَةً هَؤُلَاءِ فَهِيَ عَرْضٌ حَاضِرٌ، يُقَسِّمُهَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ. بِخِلَافِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ عَرْضَهَا وَنَصْرَهَا وَرَجَاءَهَا خَالِصٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا. وقال ابن عاشور: ﴿وَتِلْكَ﴾: (الوَأُو) اغْتِرَاضِيَّةٌ. وَالْإِشَارَةُ بِ(تِلْكَ) إِلَى مَا سَيُذَكَّرُ بَعْدُ، فَالْإِشَارَةُ هُنَا بِمَنْزِلَةِ ضَمِيرِ الشَّأْنِ؛ لِقَصْدِ الْإِهْتِمَامِ بِالْحَبْرِ، وَهَذَا الْحَبْرُ مُكْتَبًى بِهِ عَنْ تَعْلِيلٍ لِلْجَوَابِ الْمَحْذُوفِ الْمَذْلُولِ عَلَيْهِ بِجُمْلَةٍ ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. ﴿الْأَيَّامُ﴾: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جَمْعٌ يُرَادُّ بِهِ: يَوْمَ الْحَرْبِ، كَقَوْلِهِمْ: يَوْمٌ بَدْرٌ، وَيَوْمٌ بُعَاثٌ، وَيَوْمٌ الشَّعْنَمَيْنِ، وَمِنْهُ أَيَّامُ الْعَرَبِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَطْلَقَ عَلَى الزَّمَانِ. ﴿نُدَاوِلُهَا﴾: الْمَدَاوِلَةُ تَصْرِيفُهَا غَرِيبٌ؛ إِذْ هِيَ مَصْدَرٌ دَاوَلَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِذَا جَعَلَهُ عِنْدَهُ دَوْلَةً وَدَوْلَةً عِنْدَ الْآخَرِ، أَيُّ يَدْوِلُهُ كُلًّا مِنْهَا، أَيُّ يُزِمُّهُ حَتَّى يَشْتَهَرَ بِهِ، وَمِنْهُ: دَالَ يَدْوُلُ دَوْلًا اشْتَهَرَ؛ لِأَنَّ الْمَلَازِمَةَ تَقْتَضِي الشُّهُرَةَ بِالشَّيْءِ، فَالتَّدَاوُلُ فِي الْأَصْلِ: تَفَاعُلٌ مِنْ دَالَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْكَلَامِ، يُقَالُ: كَلَامٌ مُدَاوَلٌ. ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾: أَيُّ بَيْنَ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ السُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ، فَلَا يُخْتَصُّ بِالْقَوْمِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُمْ. وقال العثيمين: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾: الْمَشَارِ إِلَى هُنَا بَعِيدٌ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الزَّمَنُ فَهِيَ قَرِيبَةٌ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ الْأَيَّامُ مِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ قَرِيبٌ غَلَبَ جَانِبُ الْبَعْدِ. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أَيُّ نَجْعَلُهَا بَيْنَهُمْ دَوْلًا، فَمَرَّةً تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِهَؤُلَاءِ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَمَرَّةً تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِهَؤُلَاءِ عَلَى هَؤُلَاءِ، فَفِي بَدْرِ كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، وَفِي أَحَدٍ كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً؛ لِحِكْمِ عَظِيمَةِ بَيْنِهَا اللَّهُ فِيمَا بَعْدَ. وَقَوْلُهُ: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ يَشْمَلُ مَدَاوِلَتَهَا بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ، وَيَشْمَلُ كَذَلِكَ مَدَاوِلَتَهَا فِي الْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ، فَالْإِنْسَانُ يَجِدُ يَوْمًا سُرُورًا وَيَجِدُ يَوْمًا آخَرَ حُزْنًا، فَالدُّنْيَا هَكَذَا لَا تَبْقَى عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْحَالِ، فَالْأَيَّامُ دَوْلٌ. وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾

حيث أتت بصيغة نون العظمة إشارة إلى أنّ الله لكمال سلطانه وكبريائه يدل الناس بعضهم على بعض، فتارة تكون أيامًا لهؤلاء وتارة تكون أيامًا لهؤلاء.

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: قال الواحدي: اختلفوا في العامل في (اللام)، فذكروا فيه وجهين: أحدهما: أنّ (اللام) صلةٌ لفعلٍ مُضْمَرٍ يدلّ عليه أوّل الكلام، بتقدير: وليعلم الله الذين آمنوا نُدَاوِلُهَا. الوجه الثاني: أنّ العامل فيه: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ المذكور، بتقدير: نداولها بين الناس؛ ليظهر أمرهم وليتبيّن أعمالهم، وليعلم الله الذين آمنوا. فلَمَّا انكشف معنى (اللام) المضمرّة في (ليظهر، وليتبيّن)، جرت مجرى الظاهرة، فأمكن العطفُ عليها. والوجهان، ذكرهما ابنُ الأنباريّ وغيره من أهل النحْو. و(العِلْمُ) إذا لم يتعلّق بالذات، اقتضى معلومين، كما تقول: (عَلِمْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، وَجَوَادًا). فلا تقول: (عَلِمْتُ زَيْدًا) فقط، إلّا أن تريد به: عَرَفْتُهُ، وَعَلِمْتُ مَنْ هُوَ. والمفعول الثاني ههنا محذوف. والتقدير: وليعلم الله الذين آمنوا مُمَيِّزِينَ بالإيمان من غيرهم، أي إنما يجعل الدولة للكفار على المسلمين؛ لِيُمَيِّزَ المؤمن المخلص ممّن يرتدّ عن الدين إذا أصابته نكبة. ويحتمل أن يكون (العِلْمُ) ههنا بمعنى: معرفة الذات، والتأويل: وليعلم الله الذين آمنوا بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوّهم، أي لِيَعْرِفَهُمْ بأعيانهم. إلّا أنّ سَبَبَ العِلْمِ، وهو ظهور الصبر - حذف ههنا. وقال ابن الجوزي: أي لِيَعْلَمَ واقِعًا منهم؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُجَازِي عَلَى مَا وَقَعَ. وقال ابنُ عَبَّاسٍ: معنى العِلْمِ هاهنا: الرُّبُوبِيَّةُ. وقال الرازي: (الواو) في قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَتَصَغَى إِلَيْهِ أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وَالتَّقْدِيرُ: وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ لِيَكُونَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ. وَإِنَّمَا حُذِفَ الْمُعْطُوفُ عَلَيْهِ؛ لِلْإِذَانِ بِأَنَّ الْمِصْلَحَةَ فِي هَذِهِ الْمَدَاوِلَةِ لَيْسَتْ بِوَاحِدَةٍ؛ لِيُسَلِّيَهُمْ عَمَّا جَرَى؛ وَلِيَعْرِفَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ وَأَنَّ شَأْنَهُمْ فِيهَا، فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْمِصَالِحِ مَا لَوْ عَرَفُوهُ لَسَرَّهُمْ. و(اللام) في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ، إمّا بَعْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ،

أَمَّا الْإِضْمَارُ بَعْدَهُ فَعَلَى تَقْدِيرٍ: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَعَلْنَا هَذِهِ الْمَدَاوِلَةَ، وَأَمَّا الْإِضْمَارُ قَبْلَهُ فَعَلَى تَقْدِيرٍ: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ لِأُمُورٍ، مِنْهَا: ﴿لْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَمِنْهَا: ﴿لْيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، وَمِنْهَا: ﴿لْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَمِنْهَا: ﴿لْيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ﴾، فَكُلُّ ذَلِكَ كَالسَّبَبِ وَالْعِلَّةِ فِي تِلْكَ الْمَدَاوِلَةِ. فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: لِيُظْهَرَ الْإِخْلَاصُ مِنَ التَّفَاقِي، وَالْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ. وَالثَّانِي: لِيَعْلَمَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، فَأَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ تَفْخِيمًا. وَثَالِثُهَا: لِيُحْكَمَ بِالْإِمْتِيَّازِ، فَوَضَعَ الْعِلْمَ مَكَانَ الْحُكْمِ بِالْإِمْتِيَّازِ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ بِالْإِمْتِيَّازِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ. وَرَابِعُهَا: لِيَعْلَمَ ذَلِكَ وَقَعًا مِنْهُمْ كَمَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقَعُ؛ لِأَنَّ الْمِجَازَةَ تَقَعُ عَلَى الْوَاقِعِ دُونَ الْمَعْلُومِ الَّذِي لَمْ يُوْجَدْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مَعْنَاهُ: وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَدَاوِلَةُ؛ لِيُرَى الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ فَيُمَيَّزَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. وَقِيلَ: لِيَعْلَمَ صَبْرَ الْمُؤْمِنِينَ، الْعِلْمُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ كَمَا عَلِمَهُ غَيْبًا قَبْلَ أَنْ كَلَّفَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي مِثْلِ هَذَا لَنَرَى، أَيْ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَلْيَعْلَمْ﴾: هَذِهِ لَأَمْ كَي، قَبْلَهَا حَرْفُ الْعَطْفِ، فَتَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ مُتَأَخِّرٍ، أَيْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَهُوَ الْمَدَاوِلَةُ، أَوْ نَبْلُ الْكُفَّارِ مِنْكُمْ. أَوْ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى سَبَبٍ مُحْذُوفٍ هُوَ وَعَامِلُهُ، أَيْ فَعَلْنَا ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ كَيْتَ وَكَيْتٍ؛ وَلْيَعْلَمَ. هَكَذَا قَدَرَهُ الرَّمُحْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ، وَلَمْ يُعَيِّنْ فَاعِلَ الْعِلَّةِ الْمَحْذُوفَةِ إِنَّمَا كَتَبَ عَنْهُ بِكَيْتَ وَكَيْتَ، وَلَا يُكْتَبُ عَنِ الشَّيْءِ حَتَّى يُعْرَفَ. فَفِي هَذَا الْوَجْهِ حَذْفُ الْعِلَّةِ، وَحَذْفُ عَامِلِهَا، وَإِبْهَامُ فَاعِلِهَا. فَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ حَذْفِ الْعَامِلِ. وَ(يَعْلَمُ) هُنَا ظَاهِرُهُ التَّعَدِّي إِلَى وَاحِدٍ، فَيَكُونُ كَعَرَفَ. وَقِيلَ: يَتَعَدَّى إِلَى اثْنَيْنِ، الثَّانِي مُحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: مُمَيَّزِينَ بِالْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِهِمْ، أَيْ الْحِكْمَةُ فِي هَذِهِ الْمَدَاوِلَةِ: أَنْ يَصِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا مُتَمَيِّزِينَ عَنْ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَعِلْمُ اللَّهِ لَا يَتَجَدَّدُ، بَلْ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّمَثِيلِ، بِمَعْنَى: فَعَلْنَا ذَلِكَ فَعَلٌ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ مِنَ الثَّابِتِ عَلَى الْإِيمَانِ مِنْكُمْ مِنْ غَيْرِ الثَّابِتِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لِيُظْهَرَ فِي الْوُجُودِ إِيْمَانُ الَّذِينَ قَدْ

عِلْمَ أَرْلَا أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، وَيُسَاقِ عِلْمُهُ إِيْمَانَهُمْ وَوُجُودَهُمْ، وَإِلَّا فَقَدْ عِلْمُهُمْ فِي الْأَرْلِ؛ إِذْ عِلْمُهُ لَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ التَّعْيِيرُ. وَمِثْلُهُ أَنْ يَضْرِبَ حَاكِمٌ رَجُلًا ثُمَّ يُبَيِّنُ سَبَبَ الضَّرْبِ وَيَقُولُ: فَعَلْتُ هَذَا التَّبَيِّنَ لِأَضْرِبَ مُسْتَحِقًّا. مَعْنَاهُ: لِيُظْهَرَ أَنَّ فِعْلِي وَافَقَ اسْتِحْقَاقَهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلِيَعْلَمَهُمْ عِلْمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَزَاءُ، وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَهُمْ مَوْجُودًا مِنْهُمْ الثَّبَاتُ. وَقِيلَ: الْعِلْمُ بَاقٍ عَلَى مَذْلُولِهِ، وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلِيَعْلَمَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، فَأَسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ؛ تَفْخِيمًا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تَعْلِيلٌ لِمَا هُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ مُطْلَقِ الْمَدَاوِلَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا فِيمَا قَبْلُ، وَهِيَ الْمَدَاوِلَةُ الْمُعْهُودَةُ الْجَارِيَةُ بَيْنَ فَرِيقَيِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَ(الْلَامُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَطْلُوقُ مِنَ الْفِعْلِ الْمُقَيَّدِ بِالْوُقُوعِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، أَوْ بِنَفْسِ الْفِعْلِ الْمَطْلُوقِ بِاعْتِبَارِ وَقُوعِهِ بَيْنَهُمَا، وَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى عَلَّةٍ أُخْرَى لَهَا مُعْتَبَرَةٌ، إِمَّا عَلَى الْخُصُوصِ وَالتَّعْيِينِ؛ لِلدَّلَالَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَيْهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿نُداوِلُهَا﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ؛ لِيُظْهَرَ أَمْرُكُمْ وَلِيَعْلَمَ، وَإِمَّا عَلَى الْعُمُومِ وَالْإِبْهَامِ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْعِلَلَ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ فِيمَا عُدَّ مِنَ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ يَسْئُوهُ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ وَلَا يَشْعُرُ بِمَا لِلَّهِ فِي طَبِّهِ مِنَ الْأَلْطَافِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَجْعَلُهَا دُولًا بَيْنَكُمْ؛ لِتَكُونَ حَكَمًا وَفَوَائِدَ جَمَّةً. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: (الْوَاو) هُنَا حَرْفُ عَطْفٍ، فَمَا هُوَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ؟ هَلْ هِيَ الْجُمْلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ الْأَيَّامُ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾؟ نَقُولُ: لَا؛ لِأَنَّ ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وَالْعَلَّةُ غَيْرُ الْمَعْلُولِ، وَلَا يَصِحُّ عَطْفُهَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعَلَّةَ هِيَ السَّبَبُ فِي وَجُودِ الْمَعْلُولِ، إِذَا فَهِنَاكَ شَيْءٌ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ فَيَقْدَرُ بِمَا يَنَاسِبُ الْحَالِ، فَالَّذِي يَنَاسِبُ هُنَا هُوَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: ﴿نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ تَمَامُ سُلْطَانِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الْحُكْمُ يَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيَخْذِلُ أَقْوَامًا وَيَنْصُرُ آخَرِينَ، وَيَأْتِي بِالْعَسْرِ وَيَأْتِي بِالْيُسْرِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ بِهَذَا تَمَامُ سُلْطَانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَتَّى الْمَخْلُوقَاتُ بَعْضُهَا فِيهَا خَيْرٌ وَبَعْضُهَا فِيهَا شَرٌّ، كُلٌّ هَذَا؛ لِيُظْهَرَ لِلنَّاسِ تَمَامَ السُّلْطَانِ لِلْعَلِيِّ الْكَبِيرِ سُبْحَانَهُ. إِذَا

ف(الواو) هنا حرف عطف. ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي علم وجود، وعلمٌ يترتب عليه الجزاء، وإنما قلنا بذلك؛ لأن الله قد علم الذين آمنوا قبل أن يؤمنوا، فإنَّ علم الله بالأشياء علم أزليٍّ قديم يعلم سبحانه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، لكن يعلمه علم وجود، أي يعلمه موجودًا، أمَّا العلم السابق فإنَّه يعلمه أنه سيوجد، وهناك فرق بين علمه الشيء موجودًا حال وجوده وبين علمه الشيء بأنه سيوجد، فهذا هو الأول. والثاني: يعلمه علمًا يترتب عليه الجزاء، وذلك حين يوجد الإيمان أو يُفقد، أمَّا علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الجزاء، وذلك لأن المؤمن لم يكن موجودًا بعد حتى يجازى أو لا يجازى. وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: كيف ذلك؟ لأن المؤمن يرضى بهذه المداولة، بمداولة الله الأيام بين الناس، يرضى بها رضا تامًّا، إن أصابته ضرّاء صبر، وإن أصابته سرّاء شكر، ويعلم أنّ ذلك بتقدير الله فيرضى ويسلم، لكن غير المؤمن بالعكس إن أصيب بالسرّاء أشر وبطر، وإن أصيب بضرّاء ضجر وتسخط، وكم من إنسان ارتدّ؛ لأنه أصيب بمصيبة والعياذ بالله.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: قال الواحدي: أي وليُكْرِمَ قَوْمًا بالشَّهادة، وذلك أنّ المسلمين تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ يَوْمَ كَيْومٍ بَذْرٌ، يَقَاتِلُوا فِيهِ الْعَدُوَّ، وَيَلْتَمِسُوا الشَّهَادَةَ. والشُّهَدَاءُ: جمع شَهِيد، والمقتول من المسلمين بِسَيْفِ الْكُفَّارِ يُسَمَّى: شَهِيدًا. واختلفوا فيه: لم سُمِّيَ شَهِيدًا؟ فقال النضر بن شميل: الشَّهِيد: الحَيُّ. وقال ابنُ الأنباري: سُمِّيَ شَهِيدًا؛ لأن الله وملائكته شُهِدُوا له، فهو (فَعِيل)، بمعنى: (مَفْعُولُ له). وقال قوم: سُمُّوا شُهَدَاءَ؛ لأنهم يُسْتَشْهَدُونَ يَوْمَ الْبَعْثِ مع الأنبياء والصِّدِّيقِينَ على الأمم. وقيل سُمِّيَ شَهِيدًا؛ لأنه شَهِدَ الْجَنَّةَ، أي حَضَرَهَا حين استشهد، فهو على هذا التأويل بمعنى: شاهد، وهو: الحاضر، كما يقال: (سميع، وسامع)، و(عليم، وعالم)، وهذا قريب ممَّا قاله ابنُ شميل. وقال الرازي: في هذه الآية قولان: الأول: يَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ بِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، فَإِنَّ كَوْنَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ مَنْصِبٌ عَالٍ وَدَرَجَةٌ

عاليةً. الثاني: المراد منه: وليكرم قوماً بالشهادة، وذلك لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر، وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر يقاتلون فيه العدو ويلتصمون فيه الشهادة. وقال الألوسي: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد، وهو قتيل المعركة، وأراد بهم شهداء أحد كما قاله الحسن وقتادة وابن إسحاق، و(من): ابتدائية أو تبعية متعلقة بـ ﴿وَيَتَّخِذَ﴾، أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿شُهَدَاءَ﴾. وقيل: ﴿شُهَدَاءَ﴾: جمع شاهد، أي ويتخذ منكم شهوداً معدلين بما ظهر من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق؛ ليشهدوا على الأمم يوم القيامة، و(من) على هذا بيانية؛ لأن تلك الشهادة وظيفة الكل. وكفى بالإنخاذ عن الإكرام؛ لأن من اتخذ شيئاً لنفسه فقد اختاره وارضاءه، فالمعنى: ليكرم أناساً منكم بالشهادة. وقال العثيمين: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: انظر إلى هذا التعبير! لم يقل: وليوجد، بل قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، فهؤلاء الشهداء اتخذهم الله واصطفاهم لنفسه جل وعلا، ولولا مثل هذه الهزيمة لم يكن شهداء، ولكن من أجل أن يتخذ منكم شهداء، أي يتخذ منكم أناساً قتلوا في سبيل الله، وكم شهيد اتخذهم في غزوة أحد؟ سبعون رجلاً، لولا هذا لم يكن هناك شهداء.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: قال الواحدي: قال ابن عباس: أي لا يحب المشركين. وفي هذا إشارة إلى أنه إنما يدل الكافرين على المؤمنين لما ذكر، لا لأنه يحبهم. وإذا أدال المؤمنين أداهم نصرة لهم، ومحبة منه إليهم. وقال ابن الجوزي: قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: المنافقون. وقال غيره: هم الذين انصرفوا يوم أحد مع ابن أبي المنافق. وقال القرطبي: أي المشركين، أي وإن أنال الكفار من المؤمنين فهو لا يحبهم، وإن أحلّ ألماً بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين. وقال البيضاوي: أي الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين. وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً؛ استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين. وقال أبو حيان: أي لا يحب من لا

يَكُونُ ثَابِتًا عَلَى الْإِيمَانِ صَابِرًا عَلَى الْجِهَادِ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ اخْتَدَلَ يَوْمَ أُحُدٍ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَاتِّبَاعِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ بِإِخْدَالِهِمْ لَمْ يَطْهَرُوا إِيْمَانَهُمْ، بَلْ نَجَسُوا نَفْسَهُمْ، وَلَمْ يَصْلُحُوا؛ لِاتِّخَاذِهِمْ شُهَدَاءَ بِأَنْ يُقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَذَلِكَ إِشَارَةٌ أَيْضًا إِلَى أَنَّ مَا فُعِلَ مِنْ إِدَالَةِ الْكُفَّارِ لَيْسَ سَبَبُهُ الْمَحَبَّةُ مِنْهُ تَعَالَى، بَلْ مَا ذُكِرَ مِنَ الْفَوَائِدِ مِنْ ظُهُورِ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِ وَثُبُوتِهِ، وَاصْطِفَائِهِ مَنْ شَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلشَّهَادَةِ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اعْتَرِضَتْ بَيْنَ بَعْضِ الْعِلَلِ وَبَعْضِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّشْدِيدِ وَالتَّأْكِيدِ، وَأَنَّ مَنَاطَ انْتِفَاءِ الْمَحَبَّةِ هُوَ الظُّلْمُ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى فَحَاشَتِهِ وَقُبْحِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: أَيُّ يُبْغِضُهُمْ. وَالْمَرَادُ مِنَ الظَّالِمِينَ: إِمَّا الْمُنَافِقُونَ كَابْنِ أَبِي وَاتِّبَاعَهُ الَّذِينَ فَارَقُوا جَيْشَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا نَقَلْنَاهُ فِيمَا قَبْلُ فَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا تَقَدَّمَ الْمَفْسَرُ بِالثَّابِتِينَ عَلَى الْإِيمَانِ الرَّاسِخِينَ فِيهِ الَّذِينَ تُوَافَقُوا ظَوَاهِرُهُمْ بِوَاطِنِهِمْ، وَإِمَّا بِمَعْنَى الْكَافِرِينَ الْمَجَاهِرِينَ بِالْكُفْرِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ؛ لِتَقْرِيرِ مَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا، وَفِيهَا تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْصُرُ الْكَافِرَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُعَلِّبُهُ أَحْيَانًا اسْتِدْرَاجًا وَابْتِلَاءً لِلْمُؤْمِنِ، وَأَيْضًا لَوْ كَانَتِ النُّصْرَةُ دَائِمًا لِلْمُؤْمِنِينَ لَكَانَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي الْإِيمَانِ عَلَى سَبِيلِ الْيُسْرِ وَالْقَالِ، وَالْمَقْصُودُ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: الظَّالِمُونَ: هُمُ الَّذِينَ نَقَصُوا حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ عِبَادِهِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَعْنَى الظُّلْمِ: النِّقْصُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أَيُّ لَمْ تَنْقُصْ. الظَّالِمُ: هُوَ الَّذِي نَقَصَ فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ بَلْ وَحَقِّ نَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، فَالظَّالِمُ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَإِنْ كَانَ ظَلَمَهُ ظَلَمَ كُفْرًا فَلَا حَظَّ لَهُ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ ظَلَمَهُ دُونَ ذَلِكَ فَلَهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ بِقَدَرِ مَا مَعَهُ مِنَ الْعَدْلِ، وَمِنْ كِرَاهَةِ اللَّهِ بِقَدَرِ مَا مَعَهُ مِنَ الظُّلْمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قَدْ يَبْدُو غَرِيبًا عَلَى الْقَارِئِ مَنَاسِبَةً هَذِهِ الْجُمْلَةَ لِمَا قَبْلَهَا ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ كَيْفَ هَذَا؟ فَيَقَالُ: الْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: بَيَانُ أَنَّ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ أَحَدٍ،

لتمحيص المؤمنين، وأن نصر المؤمنين على الكفار إنما هو ليمحق الله الكافرين، أي يهلكهم. وقال ابن كثير: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي يُكفِّر عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، إِنَّ كَانَ لَهُمْ ذُنُوبٌ، وَإِلَّا رُفِعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ. وقال القاسمي: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي لِيُنَقِّيَهُمْ وَيُخَلِّصَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَمِنْ آفَاتِ النَّفْسِ. وأيضاً فإنه خَلَّصَهُمْ وَمَحَّصَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ. فَحَصَلَ لَهُمْ تَمْحِصَانِ: تَمْحِصٌ مِنْ نَفْسِهِمْ، وَتَمْحِصٌ مِمَّنْ كَانَ يُظْهَرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَدُوٌّ. وقال الألوسي: الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيَتَّخِذْ). وَتَكَرَّرَ (اللَّامُ)؛ لِلِإِعْتِنَاءِ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ؛ وَلِذَلِكَ أَظْهَرَ الْاسْمَ الْجَلِيلَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، أَوْ لِتَذْكِيرِ التَّعْلِيلِ؛ لَوْقُوعِ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا بِالْإِعْتِرَاضِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ عَلَلٌ لِلْمُدَاوَلَةِ الْمُعْهُودَةِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قُدِّمَتْ فِي الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا الْمُخْتَاةُ إِلَى الْبَيَانِ، وَلَعَلَّ تَأْخِيرَ الْعِلَّةِ الْأَخِيرَةِ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ؛ لِقَلَّا يُتَوَهَّمُ انْدِرَاجُ الْمَذْنِبِينَ فِي الظَّالِمِينَ، أَوْ لِتَقْتَرَنَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، حَيْثُ إِنَّ فِي كُلٍّ مِنَ التَّمْحِصِ وَالْمُخَقِّ إِزَالَةً، إِلَّا أَنَّ فِي الْأَوَّلِ إِزَالَةَ الْآثَارِ وَإِزَاحَةً الْأَوْضَارِ، وَفِي الثَّانِي إِزَالَةَ الْعَيْنِ وَإِهْلَاكَ النَّفْسِ. وقال العثيمين: (يُمَحِّصُ) بمعنى يَنْقِي. وهل المراد تنقيتهم من غيرهم، بحيث يتبين المؤمن النقي الصافي الإيمان، أو تنقيتهم من الذنوب بما أصابهم من القرح، أو الأمران جميعاً؟ الجواب: الأمران جميعاً؛ لأنَّ لدينا قاعدة سبقت وهي: "أَنَّ اللفظ إذا كان يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنه يحمل عليهما جميعاً"، إذاً فهو يَمْحَصُهُمْ وَيَنْقِيَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَرْحِ، وَيَنْقِيَهُمْ أَيْضًا بِاعْتِبَارِ الْخُلَاصَةِ، يَعْنِي يَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ خُلَاصَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ فِي إِيْمَانِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الشُّكِّ أَوْ الْكُفْرِ، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ، وَهُوَ كَمَا أَشَارَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إِذَا مِنْ الْحِكْمَةِ فِيمَا حَصَلَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَرْحِ: أَنَّ اللَّهَ يَمْحَصُ الَّذِينَ آمَنُوا: يَنْقِيَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَصِيبَةِ، وَيَنْقِيَهُمْ بَيَانِ الْخُلُصِ أَهْلَ الصَّفْوَةِ.

﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾: قال ابن الجوزي: فِي مَعْنَاهُ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: يُهْلِكُهُمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: يُذْهِبُ دَعْوَتَهُمْ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. الثَّالِثُ: يُنْقِصُهُمْ وَيُقَلِّلُهُمْ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ. الرَّابِعُ: يُجْبِطُ أَعْمَالَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُ الرَّجَّاجُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ يَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْهَلَاكِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَافِرِينَ هُنَا طَائِفَةٌ مَخْصُوصَةٌ، وَهُمْ الَّذِينَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَمْحَقْ كُلَّ كَافِرٍ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَاقٍ عَلَى كُفْرِهِ. فَلَفْظَةُ الْكَافِرِينَ عَامٌّ أُريدَ بِهِ الْخُصُوصُ. قِيلَ: وَقَابِلَ تَمْحِصِ الْمُؤْمِنِ بِمَحَقِّ الْكَافِرِ؛ لِأَنَّ التَّمْحِصَ: إِهْلَاكُ الذُّنُوبِ. وَالْمَحَقُّ: إِهْلَاكُ النَّفُوسِ، وَهِيَ مُقَابَلَةٌ لَطِيفَةٌ فِي الْمَعْنَى. وَفِي ذِكْرِ مَا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ إِدَالَةِ الْكُفَّارِ: تَسْلِيَةٌ لَهُمْ وَتَبَشِيرٌ بِهَذِهِ الْقَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْإِدَالَهَ لَمْ تَكُنْ لِهَوَانِ بِهِمْ، وَلَا تَحُطُّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، بَلْ لِمَا ذَكَرَ تَعَالَى. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾: أَيُّ فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَعَا وَبَطَرُوا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحَقِّهِمْ وَفَنَائِهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَصْلُ الْمَحَقِّ: تَنْقِصُ الشَّيْءِ قَلِيلًا قَلِيلًا، وَمِنْهُ الْمِحَاقُ، وَالْمَعْنَى: وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ، وَلَا يُبْقِي مِنْهُمْ أَحَدًا يَنْفُخُ النَّارَ، وَهَذَا عَلَّةٌ لِلْمُدَاوَلَةِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهَا عَلَيْهِمْ، وَالْمُرَادُ مِنْهُمْ هُنَا: طَائِفَةٌ مَخْصُوصَةٌ، وَهُمْ الَّذِينَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يَوْمَ أُحُدٍ، وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ مُحَقِّهِمْ جَمِيعًا. وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَّةٌ لِلْمُدَاوَلَةِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا، فَإِنَّ الْكُفَّارَ إِذَا غَلَبُوا أَحْيَانًا اغْتَرُّوا وَأَوْقَعَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي أَوْحَالِ الْأَمَلِ، وَوَسَّوَسَ لَهُمْ فَبَقُوا مُصِرِّينَ عَلَى الْكُفْرِ فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَخَلَدَهُمْ فِي النَّارِ. وَقَالَ الْعَنِيمِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾: سَبْحَانَ اللَّهِ، إِذَا نَصَرَهُمْ يَكُونُ سَبَبًا لِمَحَقِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا انْتَصَرُوا عَلَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَانْتَفَخُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ لَهُمُ السَّيْطَرَةَ دَائِمًا، فَحِينَئِذٍ يَعِيدُونَ الْكَرَّةَ مَرَّةً أُخْرَى لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مُحَقِّهِمْ، هَذَا هُوَ وَجْهُ الْآيَةِ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾: أَيُّ يَهْلِكُهُمْ بِمَا جَنَوْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَرْحِ، فَجَعَلَ الْحَقَّ يَعْنِي الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَوْجَهُ، أَنَّهُ يَمْحَقُهُمْ مُحَقًّا حَسِيًّا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ إِذَا انْتَصَرُوا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، حَاولُوا أَنْ يَعِيدُوا

الكرّة مرّة ثانية؛ لأجل الانتصار مرّة أخرى، وبذلك يكون محقهم والقضاء عليهم. وقوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾: مأخوذ من الكفر، وأصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه سمّي الكُفْرَى يعني وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر ما كان فيه.

• قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية الأولى الوجوه التي هي الموجبات والمؤثرات في مداولة الأيام، ذكر في هذه الآية ما هو السبب الأصلي لذلك، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾.

• تفسير الآية:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: قال السمرقندي: قال مقاتل: بيّن الله للمؤمنين أنه نازل بهم الشدة والبلاء في ذات الله؛ لكي يصبروا ويحتسبوا، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: أي أظنتم أن تدخلوا الجنة بغير شيء قبل أن يصيبكم من الشدة في ذات الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: قال مقاتل: أي ولما يرى الله الذين جاهدوا منكم. ويقال: ولما يظهر جهاد الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين الذين يصبرون عند البلاء. ويقال: ويعلم الكافرين أي غير الفارين عن القتال. وقال مكّي: المعنى: أم حسبتم أيها المؤمنون أن تنالوا الكرامة، ولم تختبروا بالشدة والبأساء، فيعلم منه صدقكم وصبركم واقعاً، وقد كان تعالى ذكره علمه غيباً، ولكن لا تقع المجازاة إلا على ما خرج من الأفعال إلى الوجود. وقال الواحدي: معنى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: بل حسبتم، على جهة الإنكار، أي لا تحسبوا ذلك. والنفي في الآية، واقع على العلم. والمعنى: على نفي الجهاد دون العلم؛

وذلك لما فيه من الإيجاز في انتفاء جهاد؛ لو كان؛ لَعَلِمَهُ. والتقدير: (ولمّا لم يكن
المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم)، فجرى النفي على العلم؛ للإيجاز، على سبيل
التوسّع في الكلام؛ إذ المعنى مفهوم من غير إخلال. وقال الزجاج: المعنى: ولمّا يقع العلم
بالجهاد، والعلم بصبر الصابرين، أي ولما يعلم الله ذلك واقعا منكم؛ لأنه يعلمه غيبا،
وإنما يجازيهم على عملهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ انتصب على الصّرف عن
العطف؛ إذ ليس المعنى على نفي الثاني والأول، وإنما هو على نفي اجتماع الثاني والأول.
قال ابن الأنباري: وهذه (الواو) يُسمّيها النحويون: (واو الصرف)، والذي بعدها يُنصب
على خلاف ما قبلها، كما تقول العرب: (لا تأكل السمك، وتشرب اللبن)، أي لا
تجمع بينهما، ولا تأكل السمك، في حال شربك اللبن. وقال أبو حيان: هذه الآية وما
بعدها عتب شديد لمن وقعت منهم الهفوات يوم أُحُد. واستفهم على سبيل الإنكار أن
يظن أحد أن يدخل الجنة وهو محل بما افترض عليه من الجهاد والصبر عليه. والمراد بنفي
العلم: انتفاء متعلّقه؛ لأنّه مُنتفٍ بانتفائه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، والمعنى: لم يكن فيهم خير؛ لأنّ ما لم يتعلّق به علم الله
موجودا لا يكون موجودا أبدا. وقال ابن كثير: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ
اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾: أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تثبتوا
ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنّة الأعداء. وقال الثعالبي:
حسبتم: معناه ظننتم، وهذه الآية وما بعدها عتب وتقريع لطوائف من المؤمنين الذين
وقعت منهم الهفوات المشهورة يوم أُحُد. وقال الشوكاني: قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ﴾ كلامٌ مُستأنف؛ لبيان ما ذكر من التمييز. و(أم) هي المنقطعة. و(الهمزة)
لِلإنكار، أي بل أحسبتم. و(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ (واو) الحال،
والجُملةُ حالية. وفيه تمثيل كالأول، أو علم يقع عليه الجزاء. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾
منصوب بإضمار (أن) على أن (الواو) للجمع. وقال الزجاج: (الواو) بمعنى (حتى).

وقيل: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ نَفْيِ الْمَعْلُومِ، وهو الجهاد. والمعنى: أمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، والحالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمْ الْجِهَادُ وَالصَّبْرُ، أَيِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا. وقال الألوسي: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ خِطَابٌ لِلْمُنْهَزِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وهو كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ؛ لِبَيَانِ مَا هِيَ الْغَايَةُ الْمُصَوِّى مِنَ الْمَدَاوِلَةِ، وَالنَّتِيجَةُ لِمَا ذُكِرَ مِنَ الْعِلَلِ الثَّلَاثِ الْأَوَّلِ. و(أَمْ) مُنْقَطِعَةٌ مُقَدَّرَةٌ بِ(بَلْ) وَهَمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيَّةِ، وَكَوْنُهَا مُتَّصِلَةً، وَعَدِيلُهَا مُقَدَّرٌ تَكْلُفٌ. وَالْإِضْرَابُ عَنِ التَّسْلِيَةِ بَيَانُ الْعِلَلِ فِيْمَا لَقُوا مِنَ الشَّدَّةِ إِلَى تَحْقِيقِ أَهْمَا مِنْ مَبَادِي الْقَوْرِ بِالْمَطْلَبِ الْأَسْنَى وَالْمَقَامِ الْأَعْلَى. والمعنى: بَلْ لَا يَنْبَغِي مِنْكُمْ أَنْ تَظُنُّوا أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَتَقُورُونَ بِنَعِيمِهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَدْخُلُوا﴾ مُؤَكِّدَةٌ لِلْإِنْكَارِ، فَإِنَّ رَجَاءَ الْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُنَوِّطٌ بِهِ مُسْتَبْعَدٌ عِنْدَ الْعُقُولِ. وَنَفْيُ الْعِلْمِ؛ بِإِعْتِبَارِ تَعْلُفِهِ التَّنْجِيزِيِّ كَمَا مَرَّ فِي الْإِثْبَاتِ عَلَى رَأْيِي. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ كِنَايَةً عَنِ نَفْيِ تَحَقُّقِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ مِنْ لَوَازِمِ نَفْيِ التَّحَقُّقِ؛ إِذِ التَّحَقُّقُ مَلْزُومٌ عِلْمِ اللَّهِ، وَنَفْيُ اللَّازِمِ لَازِمٌ نَفْيِ الْمَلْزُومِ، وَكَثِيرًا مَا يُقَالُ: (مَا عَلِمَ اللَّهُ فِي فُلَانٍ خَيْرًا)، وَيُرَادُ مَا فِيهِ خَيْرٌ حَتَّى يَعْلَمَهُ. وَإِثَارُ الْكِنَايَةِ عَلَى التَّصْرِيحِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَحْقِيقِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَهُوَ عَدَمُ تَحَقُّقِ الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْقَوْرِ الْأَعْظَمِ مِنْهُمْ؛ لِمَا أَنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهَا كَدَعَوَى الشَّيْءِ بَيِّنَةٍ، وَفِي ذَلِكَ رَمْزٌ أَيْضًا إِلَى تَرْكِ الرِّيَاءِ، وَأَنَّ الْمُقْصُودَ عِلْمُ اللَّهِ لَا النَّاسُ. وَإِنَّمَا وَجْهَ النَّفْيِ إِلَى الْمُصَوِّفِينَ مَعَ أَنَّ الْمُنْفِيَّ هُوَ الْوَصْفُ الَّذِي هُوَ الْجِهَادُ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ انْتِفَاءِ ذَلِكَ، وَعَدَمُ تَحَقُّقِهِ أَصْلًا، وَكَيْفَ تَحَقُّقُ صِفَةٍ بِدُونِ مَوْصُوفٍ. وَفِي اخْتِيَارِ (لَمَّا) عَلَى (لَمْ): إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْجِهَادَ مُتَوَقَّعٌ مِنْهُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؛ بِنَاءً عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ سَيِّوْنِي: إِنَّ (لَمَّا) تَدُلُّ عَلَى تَوَقُّعِ الْفِعْلِ الْمُنْفِيِّ بِهَا. و﴿مِنْكُمْ﴾ حَالٌ مِنَ الَّذِينَ، وَ(مِنْ) فِيهِ لِلتَّبْعِيضِ، فَيُؤْذَنُ بِأَنَّ الْجِهَادَ فَرَضُ كِفَايَةٍ. ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾: نُصِبَ بِإِضْمَارٍ (إِنْ). وقيل: بِ(وَإِ) الصَّرْفِ. وَالْكَلامُ عَلَى طَرَزٍ، (لَا تَأْكُلِ السَّمَكُ وَتَشْرَبِ اللَّبَنَ)، أَيْ أَمْ

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمْ الْجِهَادُ وَالصَّبْرُ، أَيِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا. وإِثَارُ الصَّابِرِينَ عَلَى الَّذِينَ صَبَرُوا؛ لِلإِذَانِ بِأَنَّ الْمُعْتَبَرَ هُوَ الإِسْتِمْرَارُ عَلَى الصَّبْرِ وَلِلْمُحَافَظَةِ عَلَى رُءُوسِ الْآيِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: "إِنَّهُ نَهَى وَقَعَ بِحَرْفِ الإِسْتِفْهَامِ الَّذِي يَأْتِي لِلتَّبَكُّيَةِ، وَتَلْخِصُهُ: لَا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَقَعْ مِنْكُمْ الْجِهَادُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ (١) أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكَوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]. وَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ (أَمْ) الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَا تَأْتِي فِي كَلَامِهِمْ وَاقِعَةً بَيْنَ ضَرِيئَيْنِ، يُشَكُّ فِي أَحَدِهِمَا لَا بَعِيْنِهِ. يَقُولُونَ: أَرَيْدَا ضَرَبْتَ أَمْ عَمَرًا؟ مَعَ تَيَقُّنِ وَقُوعِ الضَّرْبِ بِأَحَدِهِمَا. قَالَ: وَعَادَةُ الْعَرَبِ يَأْتُونَ بِهَذَا الْجِنْسِ مِنَ الإِسْتِفْهَامِ تَوْكِيدًا، فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، أَمْ تَحْسَبُونَ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ مُجَاهِدَةٍ وَصَبْرٍ! وَإِنَّمَا اسْتَبْعَدَ هَذَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ الْجِهَادَ قَبْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَأَوْجَبَ الصَّبْرَ عَلَى تَحْمِلِ مَتَاعِبِهَا، وَبَيَّنَّ وَجُوهَ الْمَصَالِحِ فِيهَا فِي الدِّينِ وَفِي الدُّنْيَا، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ فَمِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يَصِلَ الْإِنْسَانُ إِلَى السَّعَادَةِ وَالْجَنَّةِ مَعَ إِهْمَالِ هَذِهِ الطَّاعَةِ" انْتَهَى. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: (أَمْ) هُنَا مُنْقَطِعَةٌ، هِيَ بِمَعْنَى (بَلِ) الْإِنْتِقَالِيَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ انْتَقَلَ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ، وَهِيَ إِذَا اسْتُعْمِلَتْ مُنْقَطِعَةً تُؤْذِنُ بِأَنَّ مَا بَعْدَهَا اسْتِفْهَامٌ؛ لِمَلَازِمَتِهَا لِلإِسْتِفْهَامِ، حَتَّى قَالَ الرَّخْشَرِيُّ وَالْمُحَقِّقُونَ: إِنَّهَا لَا تُفَارِقُ الدَّلَالََةَ عَلَى الإِسْتِفْهَامِ بَعْدَهَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: ذَلِكَ الْغَالِبُ وَقَدْ تُفَارِقُهُ، وَاسْتَشْهَدُوا عَلَى مُفَارَقَتِهَا لِلإِسْتِفْهَامِ بِشَوَاهِدِ تَقَبُّلِ التَّأْوِيلِ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿وَلَا تَهِنُوا...﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا مَسَّهُمُ الْقَرْحُ فَحَزَنُوا وَاعْتَرَاهُمُ الْوَهْنُ حَيْثُ لَمْ يُشَاهِدُوا مِثْلَ النَّصْرِ الَّذِي شَاهَدُوهُ يَوْمَ بَدْرٍ، بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ لَا وَجْهَ لِلْوَهْنِ لِلْعَلَلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ هُنَا: أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ الَّذِي هُوَ مَرْغُوبُهُمْ لَا يَحْصُلُ إِذَا لَمْ يَبْذُلُوا نُفُوسَهُمْ فِي نَصْرِ الدِّينِ فَإِذَا حَسِبُوا دُخُولَ الْجَنَّةِ يَحْصُلُ دُونَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَخْطَأُوا. وَالإِسْتِفْهَامُ الْمَقْدَرُ بَعْدَ أَمْ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّغْلِيظِ وَالنَّهْيِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ بِ(أَمْ)؛ لِلدَّلَالََةِ عَلَى

التَّغْلِيظُ، أَي لا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ دُونَ أَنْ تُجَاهِدُوا وَتَصْبِرُوا عَلَى عَوَاقِبِ الْجِهَادِ. وَمِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ قَدَّرَ لِ(أَمْ) هُنَا مُعَادِلًا مَخْذُوفًا، وَجَعَلَهَا مُتَّصِلَةً، فَنَقَلَ الْفَخْرُ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: عَادَةُ الْعَرَبِ يَأْتُونَ بِهَذَا الْجِنْسِ مِنَ الْإِسْتِفْهَامِ تَوْكِيدًا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: أَفْتَعَلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَمَا تُؤْمَرُونَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَجُمْلَةُ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ..﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَهِيَ مَصَبُّ الْإِنْكَارِ، أَي لا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حِينَ لَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا. وَ(لَمَّا) حَرْفُ نَفْيٍ، أُحْتُ (لَمْ) إِلَّا أَنَّهُ أَشَدُّ نَفْيًا مِنْ (لَمْ)؛ لِأَنَّ (لَمْ) لِنَفْيِ قَوْلِ الْقَائِلِ: (فَعَلَ فُلَانٌ)، وَ(لَمَّا) لِنَفْيِ قَوْلِهِ: (قَدْ فَعَلَ فُلَانٌ)، قَالَهُ سِبْيَوْنِي، كَمَا قَالَ: إِنَّ (لَا) لِنَفْيِ: (يَفْعَلُ)، وَ(لَنْ) لِنَفْيِ: (سَيَفْعَلُ)، وَ(مَا) لِنَفْيِ: (لَقَدْ فَعَلَ)، وَ(لَا) لِنَفْيِ: (هُوَ يَفْعَلُ). فَتَدُلُّ (لَمَّا) عَلَى اتِّصَالِ النَّفْيِ بِهَا إِلَى زَمَنِ التَّكَلُّمِ، بِخِلَافِ (لَمْ)، وَمِنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ اسْتُفِيدَتْ دَلَالَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهَا تُؤْذِنُ بِأَنَّ الْمُنْفِيَ بِ(لَمَّا) مُتَرَقِّبُ الثُّبُوتِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؛ لِأَنَّهَا قَائِمَةٌ مَقَامَ قَوْلِكَ: اسْتَمَرَّ النَّفْيُ إِلَى الْآنِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الرَّخْشَرِيُّ هُنَا فَقَالَ: وَ(لَمَّا) بِمَعْنَى (لَمْ) إِلَّا أَنْ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ التَّوَقُّعِ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَعْرَابَ آمَنُوا فِيمَا بَعْدُ. وَأُرِيدَ بِحَالَةِ نَفْيِ عِلْمِ اللَّهِ بِالَّذِينَ جَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ: الْكِنَايَةُ عَنْ حَالَةِ نَفْيِ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا عَلِمَ شَيْئًا فَذَلِكَ الْمَعْلُومُ مُحَقَّقُ الْوُقُوعِ، فَكَمَا كَتَبَ يَعْلَمُ اللَّهُ عَنِ التَّحَقُّقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كَتَبَ بِنَفْيِ الْعِلْمِ عَنْ نَفْيِ الْوُقُوعِ. وَشَرَطُ الْكِنَايَةِ هُنَا مُتَوَقَّرٌ وَهُوَ: جَوَازُ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْمَلْزُومِ مَعَ الْمَعْنَى اللَّازِمِ؛ لِجَوَازِ إِرَادَةِ انْتِفَاءِ عِلْمِ اللَّهِ بِجِهَادِهِمْ مَعَ إِرَادَةِ انْتِفَاءِ جِهَادِهِمْ. وَعَقَبَ هَذَا النَّفْيَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ مَعْطُوفًا بِ(وَإِوَا) الْمَعْيَةِ، فَهُوَ فِي مَعْنَى: الْمَفْعُولِ مَعَهُ؛ لِتَنْظِيمِ الْقِيُودِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، فَيَصِيرُ الْمَعْنَى: أَتَحْسَبُونَ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ فِي حَالِ انْتِفَاءِ عِلْمِ اللَّهِ بِجِهَادِكُمْ مَعَ انْتِفَاءِ عِلْمِهِ بِصَبْرِكُمْ، أَي أَحْسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَجْتَمِعِ الْعِلْمَانِ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: (أَمْ) هُنَا مَنْقُطَةٌ، فَتَكُونُ بِمَعْنَى (بَل) وَهَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ،

أي بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة. وقولنا: منقطعة؛ احترازاً من المتصلة. والفرق بين المتصلة والمنفصلة: أنَّ المنقطعة بمعنى: (بل) والهمزة. والمتصلة بمعنى: (أو). و(أم) المتصلة يذكر معها المعادل، و(أم) المنقطعة ليس لها معادل، قال الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، (أم) هنا متصلة؛ لأنها ذكر فيها المعادل؛ ولأنها بمعنى (أو). وقال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢]، (أم) هنا منقطعة بمعنى (بل)؛ لأن أمر أحلامهم بهذا ليس معادلاً لكونهم طغاة. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾: أي أظننتم أن تدخلوا الجنة. والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني هل تظنون أن تدخلوا الجنة بلا اختبار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: (لما) هنا جازمة. والدليل على جزمها: أنَّ الفعل جزم بعدها، لكن لما كان ما بعده ساكناً كُسِرَ. وهي هنا حرف نفي وجزم، ويفرق بينها وبين (لم): بأنَّ مدخولها يترقب الحصول، كقوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ﴾ [ص: ٨]، أي لم يدوقوه، ولكنه قريب. وقوله: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾: أي بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الله بالقتال في سبيله. والعلم هنا ليس كالعلم الأول، فإن علم الله نوعان: الأول: أزلي سابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب. الثاني: علم بما حصل بعد حصوله، وهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، ويسميه بعض العلماء: علم ظهور، أي يعلمه ظاهراً بعد أن لم يكن، فالمراد بالعلم هنا: علم الشيء بعد كونه ووجوده؛ لأنه هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾: أي الذين يصبرون على ما أصابهم، والصبر هنا في هذا المقام: يشمل الصبر بأنواعه الثلاثة، وذلك لأن الجهاد فيه صبر على طاعة الله، وفيه صبر عن معصية الله، وفيه صبر على الأقدار المؤلمة. ففيه الصبر على طاعة الله؛ لأن الإنسان يصبر نفسه ويجبسها، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وفيه صبر عن معصية الله، عن الفرار حين يتلاقى الصفان، فإنَّ هذا يحتاج إلى صبر وتحمل؛ لأن صبر الإنسان قبل الدخول في المعركة قد يكون محتملاً لكن بعد الدخول وإذ يرى السيوف أمام وجهه فإنه قد يفرّ؛

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]. وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأن الجهاد لا يخلو من جراح ومن تعب ومن عناء ومشقة.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣):
- سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّحَابَةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، بِمَا فَعَلَ بِشَهْدَاءِ يَوْمِ بَدْرٍ مِنَ الْكِرَامَةِ، رَغِبُوا فِي ذَلِكَ، فَتَمَنُّوا قِتَالًا يَسْتَشْهَدُونَ فِيهِ، فَيَلْحَقُونَ بِأَخْوَانِهِمْ، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ انْهَزَمُوا إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَنَزَلَ فِيهِمْ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ...﴾.

- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا أُرْشِدَ السِّيَاقُ إِلَى أَنَّ التَّفْدِيرَ: فَلَقَدْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ: لَعْنُ حَرْجَتِ بِنَا لَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ بِلَاءً حَسَنًا، عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ...﴾. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ فَاعِلٍ ﴿حَسِبْتُمْ﴾.

- تفسير الآية:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾: قال ابن عطية: لَمَّا قَضَى اللَّهُ بِبَدْرٍ مَا قَضَى وَفَارَ حَاضِرُوهَا بِالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، كَانَ الْمُتَحَلِّفُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهَا يَتَمَنَّوْنَ حُضُورَ قِتَالِ الْكُفَّارِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَكُونَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَنَاءٌ يُلْحِقُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ بَدْرٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ أَحَدٍ وَحَضَرَ الْقِتَالُ لَمْ يَصْدُقْ كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَالزَّمَهُمُ تَعَالَى تَمَيُّ الْمَوْتِ مِنْ حَيْثُ تَمَنُّوا لِقَاءَ الرِّجَالِ بِالْحَدِيدِ وَمُضَارَبَتَهُمْ بِهِ، وَهِيَ حَالٌ فِي ضِمْنِهَا فِي الْأَغْلَبِ الْمَوْتُ، وَلَا يَتَمَنَّاها إِلَّا مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِالْمَوْتِ، فَصَارَ

الموتُ كأنَّهُ المَتَمَّى، وإلَّا فَفَنَفُسُ قَتْلِ الْمُشْرِكِ لِلْمُسْلِمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَمَّتِيَ مِنْ حَيْثُ هُوَ قَتْلٌ،
 وَإِنَّمَا تُتَمَّتِيَ لَوَاحِقُهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالتَّنْعِيمِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾:
 أَيِ تَمَنَّوْنَ الشَّهَادَةَ. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾: أَيِ مِنْ قَبْلِ تَلْقَاؤِ الْقَتْلِ. وَقِيلَ: أَيِ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ تَلْقَوْا أَسْبَابَ الْمَوْتِ، وَذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ لَمْ يَخْضُرُوا بَدْرًا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ يَوْمًا يَكُونُ فِيهِ
 قِتَالٌ، فَأَلَايَةُ عِتَابٍ فِي حَقِّ مَنْ أَنْهَزَ. وَتَمَّتِيَ الْمَوْتُ يَرْجِعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَمَّتِيَ الشَّهَادَةِ
 الْمُبَيَّنَّةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ، لَا إِلَى قَتْلِ الْكُفَّارِ هُمْ، لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ، وَلَا يَجُوزُ
 إِرَادَةُ الْمَعْصِيَةِ، وَعَلَى هَذَا يُجْمَلُ سُؤَالُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَهُمُ الشَّهَادَةَ، فَيَسْأَلُونَ
 الصَّبْرَ عَلَى الْجِهَادِ وَإِنْ أَدَّى إِلَى الْقَتْلِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾:
 عَبَّرَ عَنْ مُلَاقَاةِ الرِّجَالِ وَمُجَالَدَتِهِمْ بِالْحَدِيدِ بِالْمَوْتِ؛ إِذْ هِيَ حَالَةٌ تَتَضَمَّنُ فِي الْأَغْلَبِ
 الْمَوْتَ، فَلَا يَتَمَنَّاهَا إِلَّا مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِالْمَوْتِ. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾: أَيِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تُشَاهِدُوا شِدَائِدَهُ وَمَضَائِقَهُ. وَضَمِيرُ الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَلْقَوْهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ:
 عَلَى الْعَدُوِّ، وَأُضْمِرَ؛ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى مَذْكُورٍ. وَهَذِهِ
 الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ صِيغَتُهَا صِيغَةُ الْخَبَرِ فَمَعْنَاهَا الْعَتَبُ وَالْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ أَنْهَزَ يَوْمَ أُحُدٍ.
 وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيِ قَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَتَحَرَّقُونَ
 عَلَيْهِمْ، وَتَوَدُّوْنَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابِرَتَهُمْ، فَهَذَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنِّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ،
 فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: ﴿كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: أَيِ الْحَرْبِ، عَبَّرَ عَنْهَا
 بِهِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُهُ. وَلَقَدْ تَمَّتِيَ بَعْضُهُمُ الْمَوْتَ نَفْسُهُ بِتَمَنِّي الشَّهَادَةِ. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾:
 أَيِ رَغْبَةً فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلشَّهَدَاءِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ
 الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: كَلَامٌ أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ بِإِجْمَالٍ بِالْغَايَةِ
 الْإِيجَازِ؛ لِيَكُونَ جَامِعًا بَيْنَ الْمَوْعِظَةِ، وَالْمُعَذِرَةِ، وَالْمِلَامِ. وَ(الْوَاوُ) عَاطِفَةٌ، أَوْ حَالِيَّةٌ.
 وَالْخِطَابُ لِلْأَحْيَاءِ لَا مُحَالَةً، الَّذِينَ لَمْ يَدُوقُوا الْمَوْتَ، وَلَمْ يَنَالُوا الشَّهَادَةَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أُرِيدَ بِهِ تَمَّتِيَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ يَوْمَ أُحُدٍ، وَنَصَرَ الدِّينَ بِأَقْصَى جُهِدِهِمْ،

وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَفْتَضِي عَدَمَ اكْتِرَافِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِتَلَفِ نَفْسِهِ فِي الدِّفَاعِ؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ قَبْلَ هَلَاكِهِ قَدْ أُبْلِيَ فِي الْعَدُوِّ، وَهَيَّا النَّصْرَ لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُ، جَعَلَ تَمَنِّيَهُمُ اللِّقَاءَ كَأَنَّهُ تَمَيُّ الْمَوْتِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ؛ تَنْزِيلًا لِغَايَةِ التَّمَنِّيِ مَنْزِلَةً مَبْدِيَةً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ تَعْرِضٌ بِأَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَمْرًا مَعَ الْإِعْضَاءِ عَنْ شِدَّتِهِ عَلَيْهِمْ، فَتَمَنِّيَهُمْ إِيَّاهُ كَتَمَنِّي شَيْءٍ قَدْ جَهِلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْمَصَائِبِ.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: يُرِيدُ رَأَيْتُمْ أَسْبَابَهُ، وَهِيَ الْحَرْبُ الْمَشْتَعِلَةُ وَالرِّجَالُ بِأَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةً مَعَانٍ: أَحَدُهَا: التَّأَكِيدُ لِلرُّؤْيَةِ وَإِحْرَاجُهَا مِنَ الْإِشْتِرَاكِ الَّذِي بَيْنَ رُؤْيَةِ الْقَلْبِ وَرُؤْيَةِ الْعَيْنِ فِي اللَّفْظِ. الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فِي أَسْبَابِ النِّجَاحِ وَالْفِرَارِ، وَفِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. هَلْ قُتِلَ أَمْ لَا؟ وَذَلِكَ كُلُّهُ نَفْضٌ لِمَا كُنْتُمْ عَاهِدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَحَكَى مَكِّي وَعِزُّهُ عَنْ قَوْمٍ أَهَمُّ قَالُوا: الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، إِلَّا أَنْ يُنْحَى بِهِ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ: أَنَّهُ النَّظَرُ فِي أَمْرِهِ هَلْ قُتِلَ أَمْ لَا؟ وَالِاضْطِرَابُ بِحَسَبِ ذَلِكَ. الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ قَدْ وَفَّقَهُمْ عَلَى تَمَنِّيهِمْ وَمُعَاهَدَتِهِمْ، وَعَلَى أَهَمِّ رَأْوَا الَّذِي تَمَنَّوْا، ثُمَّ قَالَ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ وَالْعَتَبِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: أَيُّ فِي فِعْلِكُمْ الْآنَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ هَلْ وَفَّيْتُمْ أَمْ خَالَفْتُمْ؟ كَأَنَّهُ قَالَ: وَأَنْتُمْ حُسْبَاءُ أَنْفُسِكُمْ، فَتَأَمَّلُوا فَبَيَحْ فِعْلِكُمْ، وَفِي هَذَا التَّوْبِيخِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ضَرْبٌ جَمِيلٌ مِنَ الْإِنْبَاءِ وَالصَّوْنِ وَالِاسْتِدْعَاءِ. قَالَ ابْنُ فُورَكٍ: الْمَعْنَى وَأَنْتُمْ تَتَأَمَّلُونَ الْحَالَ فِي ذَلِكَ وَتُفَكِّرُونَ فِيهَا كَيْفَ هِيَ؟ وَهَذَا نَحْوُ مَا تَقَدَّمَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِي مَعْنَى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَيُّ تَنْظُرُونَ إِلَى السُّيُوفِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ ذِكْرٌ لِلتَّوَكُّيدِ، قَالَهُ الْأَخْفَشُ. وَقَالَ الرَّجَّاحُ: مَعْنَاهُ: فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ، وَأَنْتُمْ بُصَرَاءُ، كَمَا تَقُولُ: رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ فِي عَيْنِكَ عِلَّةٌ، أَيُّ رَأَيْتُهُ رُؤْيَةً حَقِيقَةً. الثَّالِثُ: أَيُّ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ مَا تَمَنَّيْتُمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: قَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ تَكْرِيرٌ بِمَعْنَى التَّأَكِيدِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ

رَأَيْتُمُوهُ»، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الانعام: ٣٨]. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَأَنْتُمْ بُصْرَاءُ لَيْسَ فِي أَعْيُنِكُمْ عِلٌّ، كَمَا تَقُولُ: قَدْ رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَيْسَ فِي عَيْنِكَ عِلَّةٌ، أَيْ فَقَدْ رَأَيْتُهُ رُؤْيَا حَقِيقَةً، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى التَّوَكُّيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: أَيْ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَفِي الْآيَةِ إِضْمَارٌ، أَيْ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فَلَمْ أَهْزَمْتُمْ؟. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أَيْ بِرُؤْيَا قَتَلَ إِخْوَانَكُمْ. وَالضَّمِيرُ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ لِلْمَوْتِ الْمَجَرَّبِ بِهِ عَنِ الْحَرْبِ، وَلِلْمَوْتِ نَفْسِهِ بِرُؤْيَا أَسْبَابِهِ الْقَرِيبَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: بِمَعْنَى رُؤْيَا الْعَيْنِ، فَهُوَ تَحْقِيقٌ لِإِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ. وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: وَمَحَلُّ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ النَّصَبُ عَلَى الْحَالِ. وَقَيْدُ الرُّؤْيَا بِالنَّظَرِ مَعَ اتِّحَادِ مَعْنَاهُمَا؛ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ قَدْ رَأَيْتُمُوهُ مُعَايِنِينَ لَهُ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أَيْ مَا تَمَيَّنْتُمُوهُ مِنَ الْمَوْتِ بِمُشَاهَدَةِ أَسْبَابِهِ. وَ(الْفَاءُ) فَصِيحَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَمَيَّنِكُمْ ذَلِكَ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ. وَإِبْثَارُ الرُّؤْيَا عَلَى الْمِلَاقَةِ إِمَّا لِلإِشَارَةِ إِلَى أَهْزَامِهِمْ، أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ فِي مُشَاهَدَتِهِمْ لَهُ كَتَفِيدِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ، أَيْ رَأَيْتُمُوهُ مُعَايِنِينَ لَهُ، وَهَذَا عَلَى حَدِّ قَوْلِكَ: رَأَيْتُهُ وَلَيْسَ فِي عَيْنِي عِلَّةٌ، أَيْ رَأَيْتُهُ رُؤْيَا حَقِيقَةً لَا خَفَاءَ فِيهَا وَلَا شُبْهَةً. وَقِيلَ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: أَيْ وَأَنْتُمْ تَتَأَمَّلُونَ وَتَتَفَكَّرُونَ، أَيْ وَأَنْتُمْ تَتَأَمَّلُونَ الْحَالَ كَيْفَ هِيَ. وَقِيلَ: أَيْ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلِلمَقْصُودِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: عِتَابُ الْمُهْزَمِينَ عَلَى تَمَيَّنِهِمُ الشَّهَادَةَ وَهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا حَتَّى يَسْتَشْهَدُوا، أَوْ عَلَى تَمَيَّنِهِمُ الْحَرْبَ وَتَسْبِيهِمُهَا لَهَا ثُمَّ جُبْنِهِمْ وَأَهْزَامِهِمْ لَا عَلَى تَمَيَّنِ الشَّهَادَةِ نَفْسِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِمَا لَا عِتَابَ عَلَيْهِ كَمَا وَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أَيْ رَأَيْتُمُ الْمَوْتَ، وَمَعْنَى رُؤْيَا: مُشَاهَدَةُ أَسْبَابِهِ الْمَحَقَّقَةِ، الَّتِي رُؤْيَاهَا كَمُشَاهَدَةِ الْمَوْتِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ تَمَثُّلًا، وَيَجُوزُ أَنْ تُطْلَقَ الرُّؤْيَا عَلَى شِدَّةِ التَّوَقُّعِ. وَ(الْفَاءُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ (فَاءُ) الْفَصِيحَةِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ تَمْنُونَ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: وَأَجَبْتُكُمْ إِلَى مَا تَمَنَيْتُمْ فَقَدْ

رَأَيْتُمُوهُ، والمعنى: فَأَيْنَ بَلَاءٌ مَن يَتَمَتَّى المَوْتَ. وَجُمْلَةُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ حَالٌ مُّوَكَّدَةٌ لِمَعْنَى رَأَيْتُمُوهُ، أَوْ هُوَ تَفْرِيعٌ، أَيُّ رَأَيْتُمُ المَوْتَ وَكَانَ حَظُّكُمْ مِّنْ ذَلِكَ النَّظَرِ، دُونَ الْعَنَاءِ فِي وَقْتِ الْحَظَرِ، فَأَنْتُمْ مَبْهُوثُونَ. وَمَحَلُّ المَوْعِظَةِ مِنَ الآيَةِ: أَنَّ المَرْءَ لَا يَطْلُبُ أَمْرًا حَتَّى يُفَكِّرَ فِي عَوَاقِبِهِ، وَيُسَبِّرَ مِقْدَارَ تَحْمُلِهِ لِمَصَائِبِهِ. وَمَحَلُّ المَعْدِرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾، وَفِي قَوْلِهِ ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾. وَمَحَلُّ المِلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمْنُونَ المَوْتَ﴾ بِمَعْنَى تَتَمَنَّوْنَ مَوْتَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ مُشَارَفَةَ المَوْتِ إِيَّاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ مَنْ مَاتَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، أَيُّ فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ حِينَ رَأَيْتُمْ المَوْتَ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: فِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْرَهُ تَمَتَّى الشَّهَادَةِ. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَفْرَهُمْ عَلَى أَمْنِيَّتِهِمْ، وَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهَا. وَقَالَ الْعَنِيَمِيُّ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ﴾: أَكَّدَ اللَّهُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُوَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُوَكَّدَاتٍ: بِالقَسَمِ المَقْدَّرِ، وَبِ(اللام) الواقعة فِي جَوَابِهِ، وَبِ(قَدْ). وَالْمَعْنَى: أَيُّ كُنْتُمْ فِيمَا مَضَى تَمْنُونَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ. وَالتَّمَتَّى هُوَ: أَنْ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ فِي قَلْبِهِ تَقْدِيرًا مَا، وَلَكِنَّهُ يَصْعَبُ حَصُولُهُ، سَوَاءٌ كَانَ يَصْعَبُ ثُمَّ يَحْصُلُ، أَوْ يَصْعَبُ وَلَا يَحْصُلُ؛ وَلِهَذَا يَقَعُ التَّمَتَّى عَلَى الْأَشْيَاءِ المَسْتَحِيلَةِ، وَيَكُونُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْعُسْرُ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ. ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: يَعْنِي رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ عَلَى أَشَدِّ مَا يَكُونُ إِحْسَاسًا. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، هَلْ هِيَ مُوَكَّدَةٌ أَوْ مُؤَسَّسَةٌ؟؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَرَى وَلَكِنْ لَا يَحَقِّقُ مَا يَرَى، قَدْ يَرَى الشَّيْءَ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ لَكِنْ إِذَا رَأَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ تَمَامًا قَدْ رَكَّزَ، فَهَذَا نَظَرٌ خَاصٌّ أَحْصَى مِنَ النَظَرِ الْعَامِّ. نَحْمِلُهَا عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ التَّأْسِيسُ؛ لِأَنَّ التَّوَكِيدَ نَوْعٌ زِيَادَةٌ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا تَوْكِيدٌ مَا مَضَى، وَقَدْ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَكِنْ التَّأْسِيسُ هُوَ الْأَصْلُ.

• قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: قال ابن عباس: "صاح الشيطان يوم أُحُد: قُتِلَ مُحَمَّدٌ. فقال قَوْمٌ: لئن
كان قُتِلَ لَنُعْطِيَنَّهُمْ بِأَيْدِينَا إِيَّاهُمْ لَعَشَائِرُنَا وَإِحْوَانُنَا، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ حَيًّا لَمْ نُهْزَمْ، فَتَرَحَّصُوا
فِي الْفِرَارِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". وقال الضحاك: "قال قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَاحْضَرُوا
بِإَيْدِينَكُمْ الْأَوَّلَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". وقال قتادة: "قال أنس: لَوْ كَانَ نَبِيًّا مَا قُتِلَ، وَقَالَ
نَاسٌ مِنْ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ: قَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّكُمْ حَتَّى تَلْحَقُوا بِهِ،
فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال القرطبي: هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ الْعِتَابِ مَعَ الْمُنْهَزِمِينَ.

• تفسير الآية:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: قال مكِّي: معنى الآية: أَنَّ اللَّهَ
أَخْبَرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَبَعُضَ رِسَالَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الرِّسَالَةِ وَالِدَعَاءِ، الَّذِينَ قَدْ مَضُوا وَخَلَوْا،
فَلَمَّا حَضَرَتْ آجَالُهُمْ مَاتُوا، فَهُوَ مِثْلُهُمْ مَيِّتٌ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مُعَاتَبَةٌ مِنْ
اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ حِينَ قِيلَ فِي أَحَدٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ،
وَمُقْبَحًا لَهُمْ انْهَزَامُ مَنْ انْهَزَمَ مِنْهُمْ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ. وقال ابن الجوزي: المعنى: أَيِ يَمُوتُ كَمَا
مَاتَتْ قَبْلَهُ الرُّسُلُ. وقال القرطبي: أَعْلَمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الرُّسُلَ لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ فِي
قَوْمِهَا أَبَدًا، وَأَنَّهُ يَجِبُ التَّمَسُّكُ بِمَا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَإِنْ فَقِدَ الرَّسُولُ يَمُوتُ أَوْ قُتِلَ. فَهَذِهِ
الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ الْعِتَابِ مَعَ الْمُنْهَزِمِينَ، أَيِ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْإِنْهَزَامُ وَإِنْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ، وَالنُّبُوَّةُ لَا
تَدْرَأُ الْمَوْتَ، وَالْأَدْيَانُ لَا تَزُولُ بِمَوْتِ الْأَنْبِيَاءِ. وَ(مَا) نَافِيَةٌ، وَمَا بَعْدَهَا ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ،

وَبَطَّلَ عَمَلُ (مَا). وقال الثعالبي: هذا استمرار في عتبهم، وإقامة الحجة عليهم. والمعنى: أَنَّ مُحَمَّدًا . عليه الصلاة والسلام . رَسُولُ كَسَائِرِ الرُّسُلِ قَدْ بَلَغَ كَمَا بَلَّغُوا، وَلَزِمَكُمْ أَتْيُهَا الْمُؤْمِنُونَ الْعَمَلُ بِمُضَمَّنِ الرِّسَالَةِ، وَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ وَبَقَاؤُهُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ شَرْطًا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَمُوتُ كَمَا مَاتَتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ. وقال أبو السعود: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَلَا عَمَلٌ لِّ(مَا) بِالِاتِّفَاقِ؛ لِإِتِّقَاضِ نَفْيِهِ بِ(إِلَّا). وقال الألويسي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾: (مُحَمَّدٌ): عَلَمٌ لِنَبِيِّنَا . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . مَنْقُولٌ مِنْ اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْ حَمْدِ الْمُضَاعَفِ لُغَةً. ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾: اخْتَلَفُوا فِي الْقَصْرِ هَلْ هُوَ قَصْرٌ قَلْبٍ أَمْ قَصْرٌ إِفْرَادٍ؟ فَذَهَبَ الْعَلَامَةُ الطَّبِيعِيُّ وَجَمَاعَةٌ: إِلَى أَنَّهُ قَصْرٌ قَلْبٍ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْمَخَاطَبُونَ بِسَبَبِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ التَّكْوِصِ عَلَى أَعْقَابِهِمْ عِنْدَ الْإِرْجَافِ بِقَتْلِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . كَأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ حُكْمُهُ حُكْمَ سَائِرِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ دِينِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، بَلْ حُكْمُهُ عَلَى خِلَافِ حُكْمِهِمْ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ أَنَّ حُكْمَ النَّبِيِّ حُكْمٌ مِنْ سَبَقٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَنَّهُمْ مَاتُوا وَبَقِيَ أَتْبَاعُهُمْ مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ ثَابِتِينَ عَلَيْهِ، فَتَكُونُ جُمْلَةُ ﴿قَدْ خَلَتْ..﴾ صِفَةً لِرَسُولٍ مُنْبِئَةٍ عَنْ كَوْنِهِ فِي شَرَفِ الْخُلُوفِ، فَإِنَّ خُلُوفَ مُشَارِكِهِ فِي مَنْصِبِ الرِّسَالَةِ مِنْ شَوَاهِدِ خُلُوفِهِ لَا مُحَالَةَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أَمْثَالُهُ فَسَيَخْلُو كَمَا خَلَوْا، وَالْقَصْرُ مُنْصَبٌّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، فَلَا يَرُدُّ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنَ قَصْرِ الْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْمَخَاطَبُونَ مُنْكَرِينَ لِلرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ نَاشِئٌ مِنَ الذُّهُولِ عَنِ الْوَصْفِ. وقيل: الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي رَسُولٍ، وَالْإِنْصِبَابُ هُوَ الْإِنْصِبَابُ. وَذَهَبَ صَاحِبُ الْمِفْتَاحِ: إِلَى أَنَّهُ قَصْرٌ إِفْرَادٍ؛ إِخْرَاجًا لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ بِتَنْزِيلِ اسْتِعْظَامِهِمْ عَدَمَ بَقَائِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . مَنْزِلَةً اسْتِيعَادِهِمْ إِيَّاهُ وَإِنْكَارِهِمْ لَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِيهِ وَصْفَيْنِ الرِّسَالَةِ وَالْبُعْدَ عَنِ الْهَلَاكِ، فَقُصِرَ عَلَى الرِّسَالَةِ نَفْيًا لِلْبُعْدِ عَنِ الْهَلَاكِ، وَاعْتَرِضَ بِأَنَّهُ يَتَعَيَّنُّ عَلَى هَذَا: جَعْلُ جُمْلَةٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مُسْتَأْنَفَةً؛ لِبَيَانِ أَنَّهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لَيْسَ بَعِيدًا عَنْ عَدَمِ الْبَقَاءِ كَسَائِرِ الرُّسُلِ؛ إِذْ عَلَى اعْتِبَارِ الْوَصْفِ لَا يَكُونُ إِلَّا قَصْرٌ

قَلْبٍ؛ لِإِنْصَابِ الْقَصْرِ عَلَيْهِ. وَكَوْنُ الْجُمْلَةِ مُسْتَأْنَفَةً بَعِيدًا؛ لِمُخَالَفَتِهِ الْقَاعِدَةَ فِي الْجُمْلِ بَعْدَ التَّكْرَارِ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُتَعَيِّنٍ؛ لِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ صِفَةً أَيْضًا مُؤَكَّدَةً لِمَعْنَى الْقَصْرِ مُتَأَخَّرَةً عَنْهُ فِي التَّقْدِيرِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: اسْمُ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، سَمَّاهُ بِهِ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ. وَقِيلَ لَهُ: لَمْ سَمَّيْتَهُ مُحَمَّدًا وَلَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ آبَائِكَ؟ فَقَالَ: رَجَوْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ النَّاسُ. وَقَدْ قِيلَ: لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ مُحَمَّدًا قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ. وَذَكَرَ الشُّهَيْلِيُّ فِي الرَّوْضِ أَنَّهُ لَمْ يُسَمَّ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ وَلَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: مُحَمَّدُ بْنُ سُوَيْبَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ، جَدُّ جَدِّ الْفَرَزْدَقِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أُحْيَحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ الْأَوْسِيِّ. وَمُحَمَّدُ بْنُ حِمْرَانَ مِنْ رِبِيعَةَ. وَهَذَا الْإِسْمُ مِنْ اسْمِ مَفْعُولٍ حَمَدَهُ تَحْمِيدًا إِذَا أَكْثَرَ مِنْ حَمْدِهِ. وَالرَّسُولُ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: حُلُوبٌ وَرُكُوبٌ وَجُرُورٌ. وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْإِضْطِرَابِ حِينَ أُرْجِفَ بِمَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَرُورَةِ أَحَدٍ. وَقَصَرَ مُحَمَّدًا عَلَى وَصْفِ الرِّسَالَةِ قَصَرَ مَوْصُوفٍ عَلَى الصِّفَةِ قَصْرًا إِضَافِيًّا؛ لِرَدِّ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ رَدَّ انْكَارٍ، سَوَاءٌ كَانَ قَصْرُ قَلْبٍ أَوْ قَصْرُ إِفْرَادٍ.

﴿أَفَايُن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: قَالَ مَكِّي: أَيِ ارْتَدَدْتُمْ عَنْ دِينِكُمْ لَوْ مَاتَ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِثْلُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرِّسْلِ مَيِّتٌ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ؟ فَلَوْ مَاتَ أَكُنْتُمْ تَكْفُرُونَ؟. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: أَيُّ أَفَانٍ مَاتَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى فِرَاشِهِ، أَوْ قُتِلَ كَمَنْ قُتِلَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَتَنْقَلِبُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟! أَيِ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ؟! وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ، يُقَالُ: لِكُلِّ مَنْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ: قَدْ انْقَلَبَ عَلَى عَقْبَيْهِ، وَأَصْلُهُ: رَجَعَهُ الْقَهْقَرَى. وَالْعَقِبُ: مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: لَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَفَايُن مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ شَكٌّ وَهُوَ عَلَى اللَّهِ لَا يَجُوزُ، فَإِنَّا نَقُولُ: الْمَرَادُ: أَنَّهُ سَوَاءٌ وَقَعَ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي ضَعْفِ الدِّينِ وَوُجُوبِ الْإِزْتِدَادِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿أَفَايُن مَاتَ﴾: شَرْطٌ. ﴿أَوْ قُتِلَ﴾: عَطْفٌ عَلَيْهِ، وَالْجَوَابُ: ﴿انْقَلَبْتُمْ﴾. وَدَخَلَ حَرْفُ الْإِسْتِفْهَامِ عَلَى

حَرْفِ الْجَزَاءِ؛ لِأَنَّ الشَّرْطَ قَدْ انْعَقَدَ بِهِ وَصَارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَخَبَرًا وَاحِدًا. وَالْمَعْنَى: أَفْتَنَقِلُون عَلَى أَعْقَابِكُمْ إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ؟ وَكَذَلِكَ كُلُّ اسْتِفْهَامٍ دَخَلَ عَلَى حَرْفِ الْجَزَاءِ، فَإِنَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَمَوْضِعُهُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ جَوَابِ الشَّرْطِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ تَمْثِيلٌ، وَمَعْنَاهُ: ارْتَدَدْتُمْ كَفَّارًا بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ. وَيُقَالُ لِمَنْ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ: انْقَلَبَ عَلَى عَقْبَيْهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْقِلَابِ هُنَا: الْإِهْزَامُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: فَعَلْتُمْ فِعْلَ الْمُرْتَدِّينَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِدَّةً. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿أَفِإِنْ مَاتَ﴾: دَخَلَتْ (أَلِفُ) التَّوْبِيخِ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، وَدَخَلَتْ (الفاءُ)؛ لِتَرْبِطَ الْجُمْلَةَ الشَّرْطِيَّةَ بِالْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَتْلَهُ لَا يَقْتَضِي انْقِلَابَ أَصْحَابِهِ عَلَى أَعْقَابِهِمْ؛ لِأَنَّ شَرِيعَتَهُ قَدْ تَقَرَّرَتْ، وَبَرَاهِينُهُ قَدْ صَحَّتْ، فَعَاتِبَهُمْ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَوْ صَدَرَ مِنْهُمْ انْقِلَابٌ لَوْ مَاتَ ﷺ أَوْ قُتِلَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ، وَلَكِنْ ذَكَرَ ذَلِكَ؛ لَمَّا صَرَخَ بِهِ صَارِخٌ وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿أَفِإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: لَمَّا صَرَخَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، تَزَلَزَتْ أَقْدَامُ الْمُؤْمِنِينَ، وَرُعِبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَأَمْعَنُوا فِي الْفِرَارِ، وَكَانُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ قَالَتْ: مَا نَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ، فَقَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا، مِنْهُمْ: أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ. وَفِرْقَةٌ قَالُوا: نُلْقِي إِلَيْهِمْ بِأَيْدِينَا فَإِنَّهُمْ قَوْمُنَا وَبَنُو عَمِّنَا. وَفِرْقَةٌ أَظْهَرَتْ النِّفَاقَ وَقَالُوا: ارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمُ الْأَوَّلِ، فَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا مَا قُتِلَ. وَظَاهِرُ الْإِنْقِلَابِ عَلَى الْعَقَبَيْنِ هُوَ: الْإِرْتِدَادُ. وَقِيلَ: هُوَ بِالْفِرَارِ لَا الْإِرْتِدَادُ. وَقَدْ جَاءَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْإِرْتِدَادِ وَالْكُفْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿أَفِإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: إِنْكَارٌ لِإِرْتِدَادِهِمْ وَانْقِلَابِهِمْ عَنِ الدِّينِ بِخُلُوهِ بِمَوْتِ أَوْ قَتْلِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِخُلُوهِ الرُّسُلِ قَبْلَهُ وَبَقَاءِ دِينِهِمْ مُتَمَسِّكًا بِهِ. وَقِيلَ: (الفاءُ) لِلْسَّبَبِيَّةِ، (وَالِهَمْزَةُ) لِإِنْكَارِ أَنْ يَجْعَلُوا خُلُوهَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ سَبَبًا لِانْقِلَابِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ مَعَ كَوْنِهِ سَبَبًا فِي الْحَقِيقَةِ لِتَبَايُهِهِ عَلَى الدِّينِ. وَإِيرَادُ الْمَوْتِ بِكَلِمَةِ (إِنْ) مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ

البَّتَّة؛ لِتَنْزِيلِ الْمُخَاطَبِينَ مَنْزِلَةَ الْمُرْتَدِّينَ فِيهِ؛ لِمَا ذُكِرَ مِنْ اسْتِعْظَامِهِمْ إِيَّاهُ، وَهَكَذَا الْحَالُ فِي سَائِرِ الْمَوَارِدِ، فَإِنَّ كَلِمَةَ (إِنْ) فِي كَلَامِ اللَّهِ لَا تَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهَا قَطُّ ضَرُورَةٌ عِلْمُهُ تَعَالَى بِالْوُقُوعِ أَوْ اللَّائِقُوعِ، بَلْ تُحْمَلُ عَلَى اعْتِبَارِ حَالِ السَّمَاعِ أَوْ أَمْرٍ آخَرَ يُنَاسِبُ الْمَقَامَ. وَتَقْدِيرُ تَقْدِيرِ الْمَوْتِ مَعَ أَنَّ تَقْدِيرَ الْقَتْلِ هُوَ الَّذِي ثَارَ مِنْهُ الْفِتْنَةُ وَعَظُمَ فِيهِ الْمِخْنَةُ؛ لِمَا أَنَّ الْمَوْتَ فِي شَرَفِ الْوُقُوعِ، فَزَجُرَ النَّاسُ عَنِ الْإِنْقِلَابِ عِنْدَهُ وَحَمَلَهُمْ عَلَى التَّثَبُّتِ هُنَاكَ أَهْمٌ؛ وَلِأَنَّ الْوَصْفَ الْجَامِعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّسُلِ . عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . هُوَ: الْخُلُوءُ بِالْمَوْتِ دُونَ الْقَتْلِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أَيَّ كَيْفَ تَرْتَدُّونَ وَتَنْزُكُونَ دِينَهُ إِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ مَعَ عِلْمِكُمْ أَنَّ الرُّسُلَ تَحُلُو وَيَتَمَسَّكُ أَتْبَاعُهُمْ بِدِينِهِمْ وَإِنْ فُقِدُوا بِمَوْتِ أَوْ قَتْلِ؟! . وَقِيلَ: الْإِنْكَارُ؛ لِجَعْلِهِمْ حُلُوءَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ سَبَبًا لِإِنْقِلَابِهِمْ بِمَوْتِهِ أَوْ قَتْلِهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْقَتْلُ مَعَ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ؛ لِكُونِهِ مُجَوِّزًا عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ. وَقَالَ صَدِّيقُ خَانَ: ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أَيَّ تَرْجِعُونَ إِلَى دِينِكُمُ الْأَوَّلِ. يَقَالُ لِكُلِّ مَنْ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ: نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ وَرَجَعَ وَرَاءَهُ. وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَوْتَهُ ﷺ أَوْ قَتْلَهُ لَا يُوْجِبُ ضَعْفًا فِي دِينِهِ وَلَا الرَّجُوعَ عَنْهُ بِدَلِيلِ مَوْتِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُمْ ثَبَتُوا عَلَى دِينِ أَنْبِيَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فَلَا يَنْبَغِي مِنْكُمْ الْإِنْقِلَابُ وَالْإِرْتِدَادُ حِينَئِذٍ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدٌ مَبْلَغٌ لَا مَعْبُودَ، وَقَدْ بَلَغَكُمْ وَالْمَعْبُودَ بَاقٍ فَلَا وَجْهَ لِرَجُوعِكُمْ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ وَلَوْ مَاتَ مِنْ بَلَغِكُمْ إِيَّاهُ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: الْأَعْقَابُ: جَمْعُ عَقَبٍ، وَهُوَ مُؤَخَّرَةُ الرَّجُلِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "وَيْلٌ لِّلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَقَالَ الْعَنِيَمِيُّ: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾: أَيَّ بَغِيرِ فَعَلٍ بِشَرٍ. ﴿أَوْ قُتِلَ﴾: أَيَّ بِفَعَلٍ بِشَرٍ. ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أَيَّ رَجَعْتُمْ إِلَى الْوَرَاءِ. وَالْأَعْقَابُ: جَمْعُ عَقَبٍ وَهُوَ الْعَرَقُوبُ. وَالْمُنْقَلَبُ عَلَى عَقْبِيهِ يَكُونُ مَاشِيًا عَلَى غَيْرِ هَدًى كَالَّذِي يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الْمَلِكُ: ٢٢]، وَالْإِنْقِلَابُ عَلَى الْعَقْبَيْنِ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ؛ لِأَنَّ الْإِنْقِلَابَ عَلَى الْعَقَبِ يَمْشِي الْإِنْسَانُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ الْهَيْئَةِ الْمَعْتَادَةِ. عَلَى أَنَّهُ

يحمل أن يكون المراد بالانقلاب على العقب: أي أنه يسقط على قفاه ولا يستطيع أن يتقدم أو يستقيم.

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾: قال مكِّي: أي من يرتد عن دينه. ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ﴾ ارتداده. وفي لفظ الاستفهام: تقديم وتأخير، وذلك أنهم إنما وجَّحوا وعودوا على الانقلاب على العقبين، فهم لم ينكروا موت محمد ﷺ، فيقع عليه لفظ الاستفهام الذي يدل على التوبيخ، ولا أنكر عليهم ذلك، إنما أنكر عليهم انقلابهم، فحق الاستفهام الذي للتوبيخ: أن يقع على ما أنكر عليهم وهو انقلابهم، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] لم يستفهم عن الموت، وإنما استفهم عن خلودهم بعد موت محمد ﷺ؟ أيكون أم لا؟ فحق الاستفهام: أن يقع عليهم، فيكون: أفهم الخالدون إن ميت؟ وكذلك هذا حقه. أتقبلون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل؟ ففيه اتساع معروف في كلام العرب مشهور قد علم معناه. والأصل في ذلك: أن كل استفهام دخل على حرف الجزاء، فالاستفهام في غير موضعه وحقه، وموضعه: أن يكون قبل جواب الشرط داخلاً على الجواب، فهذا تقديره حيث وقع. وقال ابن الجوزي: أي لَنْ يُنْقَصَ اللَّهُ شَيْئًا بِرُجُوعِهِ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ. وقال القرطبي: بَلْ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيُعْرِضُهَا لِلْعِقَابِ بِسَبَبِ الْمُخَالَفَةِ، وَاللَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ؛ لِغِنَاؤِهِ. وقال أبو حيان: أَيُّ مَنْ رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ، أَوْ ارْتَدَّ فَأَرَا عَنِ الْقِتَالِ وَعَنْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَمْرِ الْجِهَادِ عَلَى التَّفْسِيرَيْنِ السَّابِقَيْنِ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ هِيَ عَامَّةٌ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ انْقَلَبَ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَلْحَقُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَضَارُّ الْعَبْدِ. وَلَمْ تَفْعَ رَدَّةٌ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ. وقال الشوكاني: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾: أي بإدباره عَنِ الْقِتَالِ أَوْ بِارْتِدَادِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ. ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ مِنَ الضَّرَرِ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ. وقال ابن عاشور: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾: أي شَيْئًا مِنَ الضَّرَرِ، وَلَوْ قَلِيلًا؛ لِأَنَّ الْإِرْتِدَادَ عَنِ الدِّينِ

إِبْطَالُ لِمَا فِيهِ صَلَاحُ النَّاسِ، فَاَلْمُرْتُدُّ يَضُرُّ بِنَفْسِهِ وَبِالنَّاسِ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الشَّاكِرَ الثَّابِتَ عَلَى الْإِيمَانِ يُجَازَى بِالشُّكْرِ؛ لِأَنَّهُ سَعَى فِي صَلَاحِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّلَاحَ وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ: الْعِتَابُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنَ الْإِضْطِرَابِ، وَالثَّنَاءُ عَلَى الَّذِينَ ثَبَتُوا وَوَعَّظُوا النَّاسَ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ وُقُوعِ الْإِرْتِدَادِ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ، وَقَدْ وَقَعَ مَا حَدَّرَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ إِذْ ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَظَنُّوا اتِّبَاعَ الرَّسُولِ مَقْصُورًا عَلَى حَيَاتِهِ، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْآيَةُ فِيهَا إِنْبَاءٌ بِالْمُسْتَقْبَلِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: هُنَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ﴾، فَعَدَلَ مِنْ جُمْلَةِ الْخُطَابِ إِلَى الْعُمُومِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: (وَإِنْ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَلَنْ تَرْضَوْا اللَّهَ شَيْئًا)؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ عَامًّا شَامِلًا، فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ﴾: (مَنْ) شَرْطِيَّةٌ تَعَمُّ كُلَّ مَنْقَلِبٍ عَلَى عَقْبِهِ، وَالْفِعْلُ هُنَا بَعْدَهَا مَجْزُومٌ، فَعَلُ الشَّرْطِ. أَمَّا جَوَابُ الشَّرْطِ فَهُوَ: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، وَ﴿شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ، وَالنَّكَرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعَمُّ، يَعْنِي: الَّذِي يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ وَيَرْتَدُّ عَنِ الْإِيمَانِ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْتَفِعَ بِطَاعَةِ الطَّائِعِينَ، وَلَنْ يَتَضَرَّرَ بِمَعْصِيَةِ الْعَاصِينَ.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: أَيُّ وَسَيُثِيبُ الشَّاكِرِينَ، وَفِيهِمْ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، قَالَهُ عَلِيٌّ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: "كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَمِيرَ الشَّاكِرِينَ". الثَّانِي: أَنَّهُمُ الشَّاكِرُونَ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ. الثَّالِثُ: أَيُّ الثَّابِتُونَ عَلَى الدِّينِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَجَاهَدُوا وَاسْتَشْهَدُوا. وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، فَهُوَ اتِّصَالٌ وَعَدٌ بِوَعِيدٍ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَعَدٌ عَظِيمٌ بِالْجَزَاءِ. وَجَاءَ بِ(السِّينِ) الَّتِي هِيَ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ: قَرِينَةُ التَّفْسِيرِ فِي الْإِسْتِقْبَالِ، أَيُّ لَا يَتَأَخَّرُ جَزَاءُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَنْهُمْ. وَالشَّاكِرُونَ: هُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى دِينِهِ، وَصَدَقُوا اللَّهَ فِيمَا وَعَدُوهُ، وَثَبَتُوا، شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكْفُرُوا، كَأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ، وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَالْأَنْصَارِيِّ الَّذِي كَانَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ثَبَتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَالشَّاكِرُونَ: لَفْظٌ

عامٌ يَنْدَرِجُ فِيهِ كُلُّ شَاكِرٍ فِعْلاً وَقَوْلًا. وظاهرُ هذا الجزاء: أَنَّهُ في الآخِرَةِ. وقيل: في الدُّنْيَا بِالرِّزْقِ وَالتَّمَكُّينِ في الأَرْضِ. وَفَسَّرُوا الشَّاكِرِينَ هُنَا: بِالثَّابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ، وَفُسِّرَ أَيْضًا بِالطَّائِعِينَ. وقال الشوكاني: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: أَيِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَقَاتَلُوا وَاسْتَشْهَدُوا؛ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالإِسْلَامِ. وَمَنْ امْتَثَلَ مَا أُمِرَ بِهِ فَقَدْ شَكَرَ النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ. وقال الألوسي: أَيِ سَيُثِيبُ الثَّابِتِينَ عَلَى دِينِ الإِسْلَامِ. وَوَضَعَ الشَّاكِرِينَ مَوْضِعَ الثَّابِتِينَ؛ لِأَنَّ الثَّبَاتَ عَنْ ذَلِكَ نَاشِئٌ عَنْ تَيَقُّنِ حَقِّيَّتِهِ، وَذَلِكَ شُكْرٌ لَهُ، وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى كُفْرَانِ الْمُتَقَلِّبِينَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الطَّائِعُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَإِظْهَارُ الإِسْمِ الْجَلِيلِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ؛ لِلإِعْلَانِ بِمَزِيدِ الإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِ جَزَائِهِمْ. وَاتِّصَالُ هَذَا بِمَا قَبْلَهُ اتِّصَالُ الْوَعْدِ بِالْوَعِيدِ. وقال القاسمي: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: أَيِ بِالنَّصْرِ وَالْعَلَبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ فِي الآخِرَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَنْقَلِبُوا، بَلْ قَامُوا بِطَاعَتِهِ، وَقَاتَلُوا عَلَى دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا. وَسَمَّاهُمْ شَّاكِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ شَكَرُوا نِعْمَةَ الإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ أَجَلُ نِعْمَةٍ وَأَعَزُّ مَعْرُوفٍ. وقال العثيمين: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: (السَّيْنُ) لِلتَّنْفِيسِ، وَهِيَ تَحَوُّلُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ مِنْ كَوْنِهِ صَالِحًا لِلْحَالِ وَالاسْتِقْبَالِ إِلَى كَوْنِهِ لِلْآسِقْبَالِ، وَ(سَوْفَ) مِثْلُهَا إِلَّا أَنَّ سَوْفَ تَدَلُّ عَلَى الْمُهْلَةِ، وَ(السَّيْنُ) تَدَلُّ عَلَى الْفَوْرِيَّةِ. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: أَيِ سَيَكْفِيهِمْ. وَالشَّاكِرُونَ: هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِشُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ. وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الشُّكْرَ هُوَ: الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ. فَالاعْتِرَافُ بِالْقَلْبِ: أَنَّ النِّعْمَ مِنَ اللَّهِ شُكْرٌ. وَالثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِهَا بِاللِّسَانِ شُكْرٌ. وَالْقِيَامُ بِالطَّاعَةِ بِمَا يَنْاسِبُ تِلْكَ النِّعْمَةَ شُكْرٌ. فَشُكْرُ الْعِلْمِ مِثْلًا: الْعَمَلُ بِهِ وَنَشْرُهُ، وَشُكْرُ الْمَالِ: صَرْفُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَشُكْرُ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ: اسْتِعْمَالُ الْبَدَنِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَهَلَمْ جَزًّا. وَاعْلَمْ أَنَّ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ عُمُومًا وَخُصُوصًا مِنْ وَجْهَيْنِ، أَيِ أَنَّ أَحَدَهُمَا أَعَمُّ مِنَ الْآخَرِ مِنْ وَجْهِ، فَباعْتِبَارِ أَنَّ الْحَمْدَ يَكُونُ لِكَمَالِ الْحَمْدِ وَلِإِنْعَامِ الْحَمْدِ يَكُونُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ، وَباعْتِبَارِ أَنَّ الْحَمْدَ يَكُونُ بِاللِّسَانِ يَكُونُ أَخْصَرَ

من الشكر، والشكر باعتبار كونه متعلّقاً بالقلب، واللسان، والجوارح أعمّ من الحمد، وباعتبار أنه في مقابلة نعمة أخصّ من الحمد، وبهذا التقرير نعرف أنه ليس بين الحمد وبين الشكر ترادف، بل هما متباينان، يتفقان فيما إذا حمد الله على نعمته كما لو أكل أو شرب، فقال: الحمد لله، فهذا يعتبر شكرًا وحمدًا، ويختلفان فيما إذا حمد الله على كماله فهذا لا يكون هذا من باب الشكر، وإذا شكر الله بجوارحه فليس هذا من باب الحمد. قال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: يبيّن الله هذا المجل في قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾: [الأنعام: ١٦٠]، وفي الحديث: "أن الله يضاعف الحسنة إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف" رواه مسلم.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: في كَيْفِيَّةِ تَعَلُّقِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا وَجُوهٌ:
 الأوّل: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَرْجَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَاللَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَكَانَ قَتْلُهُ مِثْلَ مَوْتِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ الْمَعْيَنِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَوْ مَاتَ فِي دَارِهِ لَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى فُسَادِ دِينِهِ، فَكَذَا إِذَا قُتِلَ وَجَبَ أَنْ لَا يُؤَثَّرَ ذَلِكَ فِي فُسَادِ دِينِهِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ إِبْطَالُ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ لِضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّهُ لَمَّا قُتِلَ مُحَمَّدٌ فَارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذْيَانِ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: تَحْرِيطُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجِهَادِ بِإِعْلَامِهِمْ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْدَفِعُ الْقَدَرُ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَمُوتُ قَبْلَ الْأَجَلِ، وَإِذَا جَاءَ الْأَجَلُ لَا يَنْدَفِعُ الْمَوْتُ بِشَيْءٍ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوْفِ.

الثالث: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: حَفِظَ اللَّهُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَتَخْلِيصَهُ مِنْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْمَخَوِّفَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ مَا بَقِيَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ إِلَّا وَقَدْ حَصَلَ فِيهَا، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ حَافِظًا وَنَاصِرًا مَا ضَرَّهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَفِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَهُ فَصَّرُوا فِي الذَّبِّ عَنْهُ. الرابع: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَيْسَ فِي إِزْجَافٍ مَنْ أَرْجَفَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ مَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ فِيهِ أَوْ يُعِينُ فِي تَقْوِيَةِ الْكُفْرِ، بَلْ يُبْقِيهِ اللَّهُ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. الخامس: أَنَّ الْمُقْصُودَ مِنْهُ الْجَوَابُ عَمَّا قَالَهُ الْمُنَافِقُونَ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا رَجَعُوا وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ قَالُوا: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْمَوْتَ وَالْقَتْلَ كِلَاهُمَا لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَحُضُورِ الْأَجَلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

● تفسير الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: قال السمرقندي: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: أي في موتها كتاباً مؤجلاً في اللوح، فلا يسبق أجله. وقال الزجاج: أي كتب كتاباً ذا أجل، وهو الوقت المعلوم، وذكر الكتاب على معنى التأكيد، كقوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: [النساء: ٢٤]، أي أَنَّ المحرمات مفروضة عليكم، على معنى التأكيد. وقال مكِّي: لا تموت نفس إلا بإذن الله، وليس هو نهي للنفس؛ لأن ذلك ليس هو في يديها، وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، أي كونوا مسلمين حتى يصادفكم الموت عليه، وليس هو نهي عن شيء؛ لأن ذلك ليس إليهم، ليس الموت في أيديهم، وله نظائر كثيرة ليس معناها النهي عن المذكور، إنما معناها النفي، كأنه قال: لا تفارق الإسلام حتى يأتيكم الموت، وأنتم عليه كذلك. هذا معنى لا تموت نفس إلا بإذن الله، أخبرهم الله في هذه الآية أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وغيره لا يموت إلا بإذن الله، وإذا أتى أجله. وقال البغوي: قَالَ الْأَخْفَشُ: (الَلَامُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَفْسٍ مَنُقُولَةً، تَقْدِيرُهُ: وَمَا كَانَتْ نَفْسٌ لَتَمُوتَ.﴾ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. وَقِيلَ: أَيُّ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَقِيلَ: أَيُّ إِلَّا بِأَمْرِهِ. ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: أي كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ نَفْسٍ

أَجَلًا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ وَتَأْخِيرِهِ. وَنُصِبَ (الْكِتَابُ) عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيْ كَتَبَ كِتَابًا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ النُّفُوسِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَمُوتُ بِأَجَلٍ مَكْتُوبٍ مَحْتُومٍ وَاحِدٍ عِنْدَ اللَّهِ، أَيْ فَالْجُبْنَ لَا يَزِيدُ فِيهِ، وَالشَّجَاعَةَ وَالْإِقْدَامَ لَا تَنْقُصُ مِنْهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْوِيَةُ النُّفُوسِ لِلْجِهَادِ، قَالَ ابْنُ فُورَكٍ: وَفِيهَا تَسْلِيَةُ مَا فِي مَوْتِ النَّبِيِّ . عَلَيْهِ السَّلَامُ .. وَالْعِبَارَةُ بِقَوْلِهِ: (وَمَا كَانَ) قَدْ تَجَيَّءُ فِيمَا هُوَ مُمَكِّنٌ قَرِيبٌ، نَحْوُ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" رواه الشيخان، وَقَدْ تَقَعَّ فِي الْمِمْتَنِعِ عَقْلًا نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِئُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، فَهِيَ عِبَارَةٌ لَا صِيعَةً لَهَا وَلَا تَتَضَمَّنُ نَهْيًا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَإِنَّمَا يُفْهَمُ قَدْرُ مَعْنَاهَا مِنْ قَرَأَنِ الْكَلَامِ الَّذِي تَجَيَّءُ الْعِبَارَةُ فِيهِ. وَ(نَفْسٍ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اسْمُ الْجِنْسِ. وَ(الْإِذْنُ): التَّمَكُّنُ مِنَ الشَّيْءِ مَعَ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ الْمَأْدُونِ فِيهِ، فَإِنْ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُ فَهوَ الْأَمْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَابًا﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ. وَ﴿مُؤَجَّلًا﴾ صِفَةٌ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: الْمَعْنَى أَنَّ مَوْتَ الْأَنْفُسِ مُحَالٌ أَنْ تَكُونَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، فَأَخْرَجَهُ مَخْرَجَ فِعْلٍ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقْدُمَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ تَمَثُّلًا؛ وَلَئِنْ مَلَكَ الْمَوْتُ هُوَ الْمَوْكَلُ بِذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبِضَ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ. وَهُوَ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تَحْرِيبُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ، وَتَشْجِيعُهُمْ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ، بِإِعْلَامِهِمْ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَمُوتُ قَبْلَ بُلُوغِ أَجَلِهِ، وَإِنْ خَاضَ الْمِهَالِكَ وَافْتَتَحَ الْمَعَارِكَ. وَالثَّانِي: ذِكْرُ مَا صَنَعَ اللَّهُ بِرَسُولِهِ عِنْدَ غَلَبَةِ الْعَدُوِّ، وَالتِّفَافِهِمْ عَلَيْهِ، وَإِسْلَامِ قَوْمِهِ لَهُ نُهْزَةً لِلْمُحْتَلِسِينَ مِنَ الْحِفْظِ وَالْكِلاَةِ وَتَأْخُرِ الْأَجَلِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: فِي الْإِذْنِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الْأَمْرُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْإِذْنُ نَفْسُهُ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. قَالَ الرَّجَّاجُ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَمَا كَانَتْ نَفْسٌ لَتَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ تَوْكِيدٌ، وَالْمَعْنَى: كَتَبَ اللَّهُ ذَلِكَ كِتَابًا مُؤَجَّلًا، أَيْ كِتَابًا ذَا أَجَلٍ. وَالْأَجَلُ: الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ، وَمِثْلُهُ فِي التَّوَكُّيدِ ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؛

لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٢] دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَفْرُوضٌ، فَأَكَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النَّمْل: ٨٨]؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النَّمْل: ٨٨] دَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَلَقُ اللَّهِ، فَأَكَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾. وَقَالَ الرَّازِيُّ: اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ الْإِذْنِ عَلَى أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْإِذْنُ هُوَ: الْأَمْرُ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ مَلَكَ الْمَوْتِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ فَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِهَذَا الْأَمْرِ. الثَّانِي: أَنَّ الْمَرَادَ مِنْ هَذَا الْإِذْنِ: مَا هُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التَّحْلِيل: ٤٠]، وَالْمَرَادُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ: إِنَّمَا هُوَ التَّكْوِينُ وَالتَّخْلِيقُ وَالْإِبْجَادُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذْنُ الْمَرَادُ: أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِمَا أَمَّاها اللَّهُ. الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ الْإِذْنُ هُوَ: التَّخْلِيَةُ وَالْإِطْلَاقُ وَتَرْكُ الْمَنْعِ بِالْقَهْرِ وَالْإِجْبَارِ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]، أَيُّ بِتَخْلِيَتِهِ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ بِالْقَهْرِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِتَخْلِيِ اللَّهِ بَيْنَ الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ. الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ الْإِذْنُ بِمَعْنَى: الْعِلْمِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَلِمَ اللَّهُ مَوْتَهَا فِيهِ، وَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَزِمَ الْمَوْتُ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النَّحْل: ٦١]. الْخَامِسُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِذْنُ: هُوَ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَخْدُثُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَيُجْعَلُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، كَأَنَّهُ فِعْلٌ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: هَذَا حَصْرٌ عَلَى الْجِهَادِ، وَإِعْلَامٌ أَنَّ الْمَوْتَ لَا بَدَ مِنْهُ وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَقْتُولٍ أَوْ غَيْرِ مَقْتُولٍ مَيِّتٌ إِذَا بَلَغَ أَجَلَهُ الْمَكْتُوبَ لَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى ﴿مُؤَجَّلًا﴾: أَيُّ إِلَى أَجَلٍ. وَمَعْنَى ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيُّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَابًا﴾: نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيُّ كَتَبَ اللَّهُ كِتَابًا مُؤَجَّلًا. وَأَجَلَ الْمَوْتِ هُوَ: الْوَقْتُ الَّذِي فِي مَعْلُومِهِ سُبْحَانَهُ، أَنَّ رُوحَ الْحَيِّ تُفَارِقُ جَسَدَهُ، وَمَتَى قُتِلَ الْعَبْدُ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ أَجَلُهُ. وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: لَوْ لَمْ يُقْتَلَ لَعَاشَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾: قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. وقال أبو حيان: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾: قَوْلُ الْعَرَبِ: (مَا كَانَ لِزَيْدٍ أَنْ يَفْعَلَ)، مَعْنَاهُ انْتِفَاءُ الْفِعْلِ عَنْ زَيْدٍ وَامْتِنَاعُهُ. فَتَارَةً يَكُونُ الْامْتِنَاعُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ؛ لِكَوْنِهِ مُتَمَتِّعًا عَقْلًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِئُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]. وَتَارَةً؛ لِكَوْنِهِ مُتَمَتِّعًا عَادَةً، نَحْوُ: (مَا كَانَ لِزَيْدٍ أَنْ يَطِيرَ). وَتَارَةً؛ لِكَوْنِهِ مُتَمَتِّعًا شَرْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٢]. وَتَارَةً؛ لِكَوْنِهِ مُتَمَتِّعًا أَدَبًا، كَقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ: "مَا كَانَ لِأَبْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" رواه الشيخان، وَيُفْهَمُ هَذَا مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَفْسٍ﴾: الْمُرَادُ الْجِنْسُ لَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ. وَمَعْنَى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيُّ بَتَمَكِينِهِ وَتَسْوِيعِهِ ذَلِكَ، وَالِإِذْنُ هُوَ: تَمَكِينُ مَنْ الشَّيْءِ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ، فَإِنْ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ قَوْلٌ فَيَكُونُ أَمْرًا. وَالْمَعْنَى: إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِلْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِالْقَبْضِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجُبْنَاءِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِفْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: هَذَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ يَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الْجِهَادِ وَالْإِعْلَامَ بِأَنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ. وَمَعْنَى ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيُّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ فَشَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْإِرْجَافِ بِقَتْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّ الْمَوْتَ بِالْقِتَالِ أَوْ بَعِيْرِهِ مَنُوطٌ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى النَّفْسِ مَعَ كَوْنِهَا غَيْرَ مُخْتَارَةٍ لَهُ؛ لِإِلَازِمِ بَيِّنَتِهِ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَمَا

كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ: اسْتِثْنَاءٌ سَيِّقٌ لِلْحَضِّ عَلَى الْجِهَادِ وَاللُّومِ عَلَى تَرْكِهِ حَشِيَّةُ الْقَتْلِ مَعَ قَطْعِ عُذْرِ الْمُنْهَزِمِينَ حَشِيَّةُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَسْلِيَّةً عَمَّا لَحِقَ النَّاسَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ، وَإِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . كَعَبْرَةٍ لَا يَمُوتُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ بِتَرْكِ دِينِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ. والمِرَادُ بِالنَّفْسِ: الْجِنْسُ، وَتَحْصِيصُهَا بِالنَّبِيِّ كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَالْمَوْتُ هُنَا أَعْمٌ مِنَ الْمَوْتِ حَتْفِ الْأَنْفِ وَالْمَوْتِ بِالْقَتْلِ. وَ﴿كَانَ﴾ نَاقِصَةٌ، اسْمُهَا: ﴿أَنْ تَمُوتَ﴾. وَ﴿لِنَفْسٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَبْرًا لَهَا. وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفْرَغٌ مِنْ أَعْمِ الْأَسْبَابِ. وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ الْمَوْتُ حَاصِلًا لِنَفْسٍ مِنَ النَّفُوسِ مُطْلَقًا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ. ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: ﴿كِتَابًا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِعَامِلِهِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ. وَالْمَعْنَى: كُتِبَ ذَلِكَ الْمَوْتُ الْمَأْدُونُ فِيهِ كِتَابًا. ﴿مُؤَجَّلًا﴾: أَيُّ مُوقَّتًا يَوْفَتِ مَعْلُومٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ. وَقِيلَ: ﴿مُؤَجَّلًا﴾: أَيُّ حُكْمًا لَازِمًا مُبَرَّمًا، وَهُوَ صِفَةٌ ﴿كِتَابًا﴾، وَلَا يَضُرُّ التَّوْصِيفُ بِكَوْنِ الْمَصْدَرِ مُؤَكَّدًا؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَعْلُومٌ مِمَّا سَبَقَ، وَلَيْسَ كُلُّ وَصْفٍ يَخْرُجُ عَنِ التَّأَكِيدِ، وَلَكِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَفَاءِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَصْدَرَ لَوْصِفِهِ مُبَيَّنًا لِلنَّوْعِ، وَهُوَ أَوَّلَى مِنْ جَعْلِهِ مُؤَكَّدًا، وَجُعِلَ ﴿مُؤَجَّلًا﴾ حَالًا مِنَ الْمَوْتِ لَا صِفَةً لَهُ لِيُبْعَدَ ذَلِكَ غَايَةَ الْبُعْدِ فَتَدَبَّرَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيُّ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ. ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، أَيُّ كَتَبَ لِكُلِّ نَفْسٍ عُمْرَهَا كِتَابًا مُوقَّتًا يَوْفَتِ مَعْلُومٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، (الْوَاوُ) اعْتِرَاضِيَّةٌ. فَإِنْ كَانَ مِنْ تَتِمَّةِ الْإِنْكَارِ عَلَى هَلْعِهِمْ عِنْدَ ظَرِّ مَوْتِ الرَّسُولِ، فَلِمَقْصُودُ عُمُومِ الْأَنْفُسِ لَا خُصُوصُ نَفْسِ الرَّسُولِ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .، وَتَكُونُ الْآيَةُ لَوْماً لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى ذُهُولِهِمْ عَنْ حِفْظِ اللَّهِ رِسُولَهُ مِنْ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ، وَمِنْ أَنْ يُخْتَرَمَ عُمْرُهُ قَبْلَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ. وَإِنْ كَانَ هَذَا إِنْكَارًا مُسْتَأْنَفًا عَلَى الَّذِينَ فَرَعُوا عِنْدَ الْهَرِيمَةِ وَخَافُوا الْمَوْتَ، فَالْعُمُومُ فِي النَّفْسِ مَقْصُودًا مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ الْخَوْفُ

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلًا. وَجِيءَ فِي هَذَا الْحُكْمِ بِصِيغَةِ الْجُحُودِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي انْتِفَاءِ أَنْ يَكُونَ مَوْتُ قَبْلَ الْأَجَلِ، فَالْجُمْلَةُ عَلَى هَذَا مُعْتَزِضَةٌ، وَ(الْوَاوُ) اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ تُلْقَى فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا مُدَاوَةُ النَّفُوسِ مِنْ عَاهَاتِ ذَمِيمَةٍ، وَإِلَّا فَإِنَّ انْتِهَاءَ الْأَجَلِ مُنَوِّطٌ بِعِلْمِ اللَّهِ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ وَقْتَهُ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِحِفْظِ حَيَاتِهِ، إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ الْجِهَادِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَهِيَ أَنَّ الْمَوْتَ بِالْأَجَلِ، وَالْمَرَادُ بِإِذْنِ اللَّهِ: تَقْدِيرُهُ وَقْتِ الْمَوْتِ، وَوَضْعُهُ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى بُلُوغِ ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَقْدَرِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ مَرَّةً بِ(كُنْ)، وَمَرَّةً بِ(يَقْدَرُ مَقْدُورٌ)، وَمَرَّةً بِ(بِالْقَلَمِ)، وَمَرَّةً بِ(بِالْكِتَابِ). وَالْكِتَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ اسْمًا بِمَعْنَى: الشَّيْءِ الْمَكْتُوبِ، فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الْإِذْنِ، أَوْ مِنَ الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وَمُؤَجَّلًا حَالًا ثَانِيَةً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿كِتَابًا﴾ مَصْدَرٌ كَاتَبَ الْمُسْتَعْمَلُ فِي كُتُبٍ؛ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مُؤَجَّلًا﴾ صِفَةٌ لَهُ، وَهُوَ بَدَلٌ مِنْ فِعْلِهِ الْمَحْدُوفِ، وَالتَّقْدِيرُ: كَتَبَ كِتَابًا مُؤَجَّلًا، أَيْ مُؤَقَّتًا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيْ يَمْتَنِعُ غَايَةُ الْامْتِنَاعِ لِأَيِّ نَفْسٍ مِنَ الْأَنْفُسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، مَهْمَا حَاوَلَ النَّاسُ أَنْ يَمِيتُوا أَحَدًا بِدُونِ إِذْنِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. وَإِذَا جَاءَتْ (مَا كَانَ) فَإِنَّهَا لِلْمَمْتَنِعِ إِمَّا شَرْعًا أَوْ قَدْرًا، فَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أَيْ مَا كَانَ قَدْرًا لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَفْسٍ﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعَمُّ كُلَّ نَفْسٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَغَيْرِ الْآدَمِيِّينَ، لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ نَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَمُوتَ﴾: الْمَوْتُ هُوَ: مَفَارِقَةُ الْحَيَاةِ، وَيَحْصُلُ هَذَا بِانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَدِ انْفِصَالًا تَامًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّوحَ تَتَّصِلُ بِالْبَدَنِ اتِّصَالًا تَامًا، وَتَنْفَصِلُ مِنْهُ انْفِصَالًا نَاقِصًا، وَتَنْفَصِلُ مِنْهُ انْفِصَالًا تَامًا؛ فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَقْطَعُ فَالْإِتِّصَالُ تَامًا، وَإِذَا كَانَ نَائِمًا فَهُوَ انْفِصَالُ نَاقِصٍ، وَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ فَهُوَ انْفِصَالُ تَامٍ، لَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ عَوْدًا لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ

الذي عليه في الدنيا؛ لأن حياة البرزخ تخالف حياة الدنيا، فالإنسان في قبره تعاد إليه روحه ويجلس ويخاطب ويتكلم ويفهم، ولكن ليست هذه الحياة كحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت كحياة الدنيا لهلك فوراً؛ لأنه مغمور بالتراب الذي فوقه، وربما يكون غرقاً في ماء أو محترقاً في نار. وقوله: ﴿أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: (إِذْنٌ) هنا يراد بها الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فالإذن الشرعي: ما قضى به شرعاً وأذن فيه شرعاً، وهو تحت المشيئة قد يقع وقد لا يقع، فمثلاً: يقول الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾: [الشورى: ٢١]، الإذن هنا شرعي وليس بكوني؛ لأن الله قد أذن به كوناً لكنه لم يأذن به شرعاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾: [يونس: ٥٩]، الإذن هنا إذن شرعي، أمّا في مثل هذه الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فهو إذن كوني، يعني لا يمكن أن تموت إلا إذا أذن الله بذلك كوناً. وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي بقضائه وقدره. ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾: هذه مصدر مؤكد للجملة التي قبله، أي أنّ الموت مكتوب كتاباً مؤجلاً محدداً بحدّ معلوم لا يتجاوزوه ولا يقصر عنه، هذا الكتاب يكتب في عدّة كتب، يكتب في ليلة القدر بأنه سيموت في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية من الشهر الفلاني، وهذه كتابة سنوية، ويكتب أيضاً إذا كان الإنسان في بطن أمه حين يبعث إليه الملك ويؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. ويكتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فهذه كتب لا تتغير. و﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾: أي لا يزيد ولا ينقص.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: قال السمرقندي: قال الكلبي: يعني من يرد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه. ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: يعني أعطاه الله ما يحب، وما له في الآخرة من نصيب. وقال مكّي: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: أي من يرد بعمله أعراض الدنيا دون ما عند الله يعطه ما قسم الله منها يرزق أيام حياته، ولا حظ له في الآخرة. وقال الماوردي: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ثلاثة أقاويل:

أَحَدُهَا: مَنْ أَرَادَ بِجَهَادِهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا، أَيْ مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ
 الْبَصْرِيِّينَ. الثَّانِي: مَنْ عَمِلَ لِلدُّنْيَا لَمْ نُحَرِّمُهُ مَا قَسَمْنَا لَهُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ حَظٍّ فِي الْآخِرَةِ،
 وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ. الثَّالِثُ: مَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الدُّنْيَا بِالنُّهُوضِ لَهَا بِعَمَلِ النَّوَافِلِ مَعَ
 مُوَافَقَةِ الْكِبَائِرِ جُوزِي عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَنْتَ الْكِتَابِيَّةُ فِي قَوْلِهِ:
 ﴿مِنْهَا﴾، . وَهِيَ فِي الْمَعْنَى رَاجِعَةٌ إِلَى الثَّوَابِ ؛ لِأَنَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا، هُوَ: الدُّنْيَا، وَثَوَابُ
 الْآخِرَةِ، هُوَ: الْآخِرَةُ. فَرَجُوعُ الْكِتَابِيَّةِ إِلَيْهَا، كَرَجُوعِهَا إِلَى الثَّوَابِ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿وَمَنْ
 يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: فَإِنْ قِيلَ: لِمَ نَرَى مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، فَلَا يُؤْتَى؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ:
 لَا يَمْنَعُ عَنْهُ مَا قَدَرَ لَهُ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا بِسَبَبِ كَفَرِهِ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: يَعْنِي: مَنْ يُرِدُ بِطَاعَتِهِ الدُّنْيَا وَيَعْمَلُ لَهَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا مَا يَكُونُ جَزَاءً لِعَمَلِهِ،
 يُرِيدُ نُؤْتِيهِ مِنْهَا مَا نَشَاءُ بِمَا قَدَرْنَا لَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا
 نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾: [الإسراء: ١٨]، نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ يَوْمَ أُحُدٍ طَلَبًا لِلْغَنِيمَةِ.
 وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: أَيْ مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا، أُعْطِيَ
 مِنْهَا قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، وَمَنْ قَصَدَ الْآخِرَةَ بِعَمَلِهِ، أُعْطِيَ مِنْهَا. وَقَالَ الْمُقَاتِلُ: عَنِ الْبَلَاءِ
 مَنْ ثَبَتَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَنْ طَلَبَ الْغَنِيمَةَ. وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُحْكَمٌ،
 وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى نَسْخِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]،
 وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ مُحْكَمٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْتَى أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَمَشِيتَتِهِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: أَيْ مَا نَشَاءُ، وَمَا قَدَرْنَا لَهُ. وَلَمْ يَقُلْ: (مَا يَشَاءُ هُوَ). وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ:
 ﴿وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: يَعْنِي الْغَنِيمَةَ. نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ طَلَبًا
 لِلْغَنِيمَةِ. وَقِيلَ: هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ. وَالْمَعْنَى: نُؤْتِيهِ مِنْهَا مَا قُسِمَ
 لَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾
 [الاسراء: ١٨]. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَدْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ،
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَمَنْ يُرِدُ﴾: أَيْ بِعَمَلِهِ. ﴿ثَوَابَ

الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بِنُونِ الْعِظَمَةِ عَلَى طَرِيقِ الْإِلْتِفَاتِ. ﴿مِنْهَا﴾: أَيُّ مِنْ ثَوَابِهَا مَا نَشَاءُ أَنْ نُؤْتِيَهُ إِيَّاهُ. وقال الشوكاني: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾: أَيُّ بِعَمَلِهِ. ﴿ثَوَابِ الدُّنْيَا﴾: كَالْغَنِيمَةِ وَنَحْوِهَا، وَاللَّفْظُ يَعُمُّ كُلَّ مَا يُسَمَّى ثَوَابِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ خَاصًّا نُؤْتِيهِ مِنْهَا، أَيُّ مِنْ ثَوَابِهَا عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ. وقال القاسمي: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾: أَيُّ بِعَمَلِهِ. ﴿ثَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: أَيُّ مَا نَشَاءُ أَنْ نُؤْتِيَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، وَهُوَ تَعْرِضٌ بِمَنْ حَضَرَ لِطَلَبِ الْغَنَائِمِ. وَاَعْلَمْ أَنَّ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَ سِيَاقُهَا فِي الْجِهَادِ، وَلَكِنَّهَا عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْتَرَ فِي جَلْبِ الثَّوَابِ أَوْ الْعِقَابِ هُوَ النَّيَاتُ وَالِدَّوَاعِي، لَا ظَوَاهِرُ الْأَعْمَالِ. وقال ابن عاشور: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ عَطَفَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُعْتَرِضَةِ، أَيُّ مَنْ يُرِدُ الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، كَالَّذِي يُفَضِّلُ الْحَيَاةَ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ كَالَّذِينَ اسْتَعْجَلُوا لِلْغَنِيمَةِ فَتَسَبَّبُوا فِي الْهَرَمَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ: أَنَّ مَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُطُّوْظَهَا يُحْرَمُ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَحُطُّوْظَهَا، فَإِنَّ الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ إِرَادَةَ خَيْرِ الدُّنْيَا مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ حَسَنٌ، وَهَلْ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ إِلَّا لِإِصْلَاحِ الدُّنْيَا وَالْإِعْدَادِ لِحَيَاةِ الْآخِرَةِ الْأَبَدِيَّةِ الْكَامِلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، أَيُّ الْغَنِيمَةِ أَوْ الشَّهَادَةِ، وَغَيْرُ هَذَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ كَثِيرٌ. وقال العثيمين: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: أَيُّ مَنْ يَرِدُ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِيهِ مِنْهَا، وَ﴿نُؤْتِيهِ﴾: أَيُّ نَعِطُهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ نَعِطِيهِ كُلَّ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَرِيدُ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لَا يَحْصُلُ لَهُ وَإِنَّمَا يُؤْتَى مِنْهَا، مَثَلًا مَنْ يَرِيدُ الْقُصُورَ وَالْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ وَالزَّوْجَاتِ وَالْمَرَكَبَ الْوَثِيرَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَمَنْ يَرِدُ هَذَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ مِنْهَا؛ لِأَنَّ مَنْ يَرِدُ هَذَا لَا يَدَّ أَنْ يَسْعَى لَهُ. فَإِذَا كَانَ لَا يَدَّ أَنْ يَسْعَى لَهُ فَالْغَالِبُ أَنَّ السَّعْيَ التَّامَّ يَحْصُلُ بِهِ الْمَوْجِبُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾، فَقَدَّرَ اللَّهُ الْأَسْبَابَ لِحَصُولِ مَا أَرَادَهُ مِنَ الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ وَاضِحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ لَا يُؤْتِيهِ كُلَّ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا يُؤْتِي مِنْهَا، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ

يكون عائداً إلى ما أَرادَه، بمعنى: أنّ الله لا يعطيه كل ما يريد. ويحتمل أن يكون عائداً إلى الدنيا من حيث هي على سبيل العموم فيعطيه الله كلّ ما أَراد، وعلى كلّ تقدير فهذه الآية مقيدة بآية الإسراء، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعنى الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، ولم يقل: عَجَّلْنَا له ما يريد، قال: ﴿مَا نَشَاءُ﴾، وهذا يؤيدُه الواقع فإنّ كثيراً من الناس يريدون الدنيا ويسعون لها بأيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأعينهم ولكن لا يحصّلونها؛ لأن الله قيّد هذا العموم في سورة الإسراء بقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾: لا ما يشاء، فقيّد المعجل، والمعجل له، ﴿مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾: هنا هذا الإطلاق مقيد بذلك.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾: قال مكّي: أي ما عند الله من الكرامة. وقال السمعاني: فإن قيل: وهل يُؤتى ثواب الآخرة بمجرّد الإرادة؟ قيل معناه: ومن يرد بالعمل، وهذا كما يُقال: فلان يُريد الجنة، أي يعمل للجنة. وقال البغوي: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾: أي أراد بعمله الآخرة. وقال القرطبي: أي نُؤْتِيهِ جزاء عمله، على ما وصف الله من تَضَعِيفِ الْحَسَنَاتِ لِمَنْ يَشَاءُ. وقيل: المراد بهذا: عبّد الله بُنْ جَبْرِ وَمَنْ لَرِمَ الْمَرْكَزَ مَعَهُ حَتَّى قُتِلُوا. وقال ابن كثير: أي مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وقال أبو السعود: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾: أي بِعَمَلِهِ. ﴿ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾: أي مِنْ ثَوَابِهَا مَا نَشَاءُ مِنَ الْأَضْعَافِ حَسَبَ مَا جَرَى بِهِ الْوَعْدُ الْكَرِيمُ. وقال الشوكاني: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾: أي بِعَمَلِهِ. ﴿ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾: وهو الْجَنَّةُ ﴿نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾: أي مِنْ ثَوَابِهَا، وَنُضَاعِفُ لَهُ الْحَسَنَاتِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً. وقال العثيمين: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾: ولا نعطيه الآخرة كلّها؛ لأن الآخرة درجات يختلف فيها الناس، ولا يمكن أن يعطى الإنسان جميع درجات الناس ولكن يعطى من الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿نُوَدِّهِ مِنْهَا﴾، ولكنّها تختلف عن عطية الدنيا، كما قال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) ﴿[الأعلى]﴾، عطية الآخرة ليست كعطية الدنيا بل هي

أعظم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: قال مكِّي: أي سنثيب من أطاعني وقبل أمري؛ لأن اتباع أمر الله والعمل بطاعته من أعظم الشكر. وقال الواحدي: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: قيل: إنه تكرير؛ للتأكيد الذي يُوجِبُ تمكين المعنى في النفس؛ لأنه قد قال في الآية الأولى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، وقال محمد بن إسحاق: فيه إشارة إلى أن مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ، أُعْطِيَ ثَوَابَهَا، وَلَمْ يُحْرَمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُعْطَاهُ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا، مِمَّا قُسِمَ لَهُ. وقال البغوي: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: أي الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ. وقال القرطبي: أي نُؤْتِيهِمُ الثَّوَابَ الْأَبَدِيَّ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى تَرْكِ الانْهْزَامِ، فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبْتَاءِ مَزِيدِ الْآخِرَةِ. وقيل: أي مِنَ الرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ أَنَّ الشَّاكِرَ يُحْرَمُ مَا قُسِمَ لَهُ مِمَّا يَنَالُهُ الْكَافِرُ. وقال ابن كثير: أي سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ. وقال التعالبي: قال ابن فورك: في قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ إشارة إلى أنه يَنْعَمُهُمْ بِنِعَمِ الدُّنْيَا، لَا أَنَّهُمْ يَقْصُرُونَ عَلَى الْآخِرَةِ. وقال أبو السعود: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ الثَّابِتِينَ عَلَيْهِ الصَّارِفِينَ لِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى وَالْقُدْرِ إِلَى مَا خُلِقَتْ هِيَ لِأَجَلِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا يَلْبُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ صَارِفٌ أَصْلًا، وَالْمَرَادُ بِهِمْ: إِمَّا الْمَجَاهِدُونَ الْمُعْهُودُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِمَّا جَنْسُ الشَّاكِرِينَ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا. وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ وَوَعْدٌ بِالْمَزِيدِ عَلَيْهِ. وَفِي تَصْدِيرِهَا بِالسِّينِ وَإِنْهَامِ الْجَزَاءِ مِنَ التَّأْكِيدِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِ الْجَزَاءِ وَكَوْنِهِ بِحَيْثُ يَقْصُرُ عَنْهُ الْبَيَانُ مَا لَا يَخْفَى. وَقَالَ الشُّوكَايُ: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: أي بِإِمْتِثَالِ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ كَالْقِتَالِ، وَنَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، كَالْفِرَارِ وَقَبُولِ الْإِرْجَافِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: الْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، وَوَعْدٌ بِالْمَزِيدِ عَلَيْهِ. وَفِي تَصْدِيرِهَا بِ(السِّينِ)، وَإِنْهَامِ الْجَزَاءِ مِنَ التَّأْكِيدِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِ الْجَزَاءِ وَكَوْنِهِ بِحَيْثُ يَضِيقُ عَنْهُ نِطَاقُ الْبَيَانِ مَا لَا يَخْفَى، وَبِذَلِكَ جَبْرُ اتِّحَادِ

الْعِبَادَتَيْنِ فِي شَأْنِ الْفَرَقِ لِدِي عَيْنَيْنِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى كَثْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى قَدْرِ الشُّكْرِ، قَلَّةٌ وَكَثْرَةٌ وَحُسْنًا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: جُمْلَةٌ: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ تَذْيِيلٌ يَعْطُمُ الشَّاكِرِينَ مِمَّنْ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ، وَيَعْطُمُ الْجَزَاءَ كُلُّ بِحْسَبِهِ، أَيْ يَجْزِي الشَّاكِرِينَ جَزَاءَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَوْ جَزَاءَ الدُّنْيَا فَقَطً. وَقَالَ الْعَثِيمِيُّ: دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ عَلَى أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَهُوَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ بِفَضْلِهِ الْوَاسِعِ. مِنْ أَتَى بِحَسَنَةٍ أُعْطِيَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَتَأَمَّلْ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ: يَتَطَهَّرُ الْإِنْسَانُ فِي بَيْتِهِ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ فَتَكْفُرُ عَنْهُ سَيِّئَاتُهُ مَعَ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنَ الْمَاءِ، فَإِذَا تَشَهَّدَ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بَعْدَ التَّطَهُّرِ يَرِيدُ الْمَسْجِدَ لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً. هَذَا أَيْضًا ثَوَابٌ كَثِيرٌ، كُلَّ خَطْوَةٍ لَكَ فِيهَا فَائِدَتَانِ: الْأُولَى رَفْعُ الدَّرَجَةِ، وَالثَّانِيَةِ حَطُّ الْخَطِيئَةِ، ثَوَابٌ كَثِيرٌ عَظِيمٌ فِي عَمَلٍ قَلِيلٍ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَصَلِّيَ عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مَصَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، دَعَاءٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سَخَرَهُمُ اللَّهُ، فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَهُوَ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦):
- سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: صَاحَ الشَّيْطَانُ يَوْمَ أُحُدٍ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَانْهَزَمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ، كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْمِغْفَرِ تُزْهَرَانِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ اسْكُتْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ...﴾.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنَّ الله من تمام تأديبه قال للمُنْهَزِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ: إِنَّ لَكُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَاتَّبَاعِهِمْ أُسْوَةً حَسَنَةً، فَلَمَّا كَانَتْ طَرِيقُهُ اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ الصَّبْرَ عَلَى الْجِهَادِ وَتَرْكَ الْفِرَارِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ هَذَا الْفِرَارُ وَالْإِهْزَامُ.

وقال أبو حيان: لَمَّا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَعَتَبَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ مَا حَذَرَ مِنْهُمْ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، أَحْبَرَهُمْ بِأَنَّ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ قَتَلَتْ أَنْبِيَاءَهُمْ كَثِيرُونَ، أَوْ قُتِلَ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَلْحَقْهُمْ مَا لَحِقَكُمْ مِنَ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ، وَلَا ثَنَاهُمْ عَنِ الْقِتَالِ فَجَعَلَهُمْ يَقْتُلُ أَنْبِيَاءَهُمْ.

● تفسير الآية:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونًا كَثِيرًا﴾: قال مكِّي: قال ابن زيد: هذا عتاب من الله للصحابة حين صاح إليهم الشيطان يوم أُحُدٍ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فارجعوا إلى عشائركم يؤمنوكم. وقال الواحدي: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾: اجتمعوا على أَنَّ معنى (كَأَيْنٍ): كم، وتأويلها: التكاثر لعدد الأنبياء الذين هذه صفتهم. و(الكاف): في (كَأَيْنٍ) كافُ التَّشْبِيهِ، دخلت على (أَيٍّ)، التي هي الاستفهام، كما دخلت على (ذَا) مِن (كَذَا)، و(أَنَّ) مِن (كَأَنَّ)، ولا معنى للتشبيه فيه، كما أنه لا معنى للتشبيه في (كَذَا)؛ لأنك تقول: (لي عليه كَذَا وَكَذَا): معناه: لي عليه عددٌ مَّا. فلا معنى للتشبيه. إلا أنها زيادة لازمة، لا يجوز حذفها. وقال البغوي: ﴿رِثْيُونًا كَثِيرًا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: أَيُّ جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الرِّثْيُونُ: الْأُلُوفُ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: الرِّثْيَةُ الْوَاحِدَةُ: عَشْرَةُ آلَافٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الرِّثْيَةُ الْوَاحِدَةُ: أَلْفٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: فَقَهَاءُ عُلَمَاءٍ. وَقِيلَ: الرِّثْيُونُ: الْوَلَاةُ، وَالرِّثْيُونُ: الرِّعْيَةُ. وَقِيلَ: مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ، وَهُمْ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الرَّبَّ. وقال القرطبي: ﴿وَكَايْنٍ﴾ بِمَعْنَى وَكَمْ، قَالَ الْحَلِيلُ وَسَيَّوِيهِ: هِيَ (أَيُّ) دَخَلَتْ عَلَيْهَا (كَافُ) التَّشْبِيهِ وَبُنِيَتْ مَعَهَا، فَصَارَ فِي الْكَلَامِ مَعْنَى وَكَمْ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: تَشْجِيعُ

الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ بِالْإِقْتِدَاءِ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ خِيَارِ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، أَيْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قُتِلَ
 مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قُتِلُوا فَمَا ارْتَدَّ أُمَّهُمْ. وَ(الرَّبِّيُونَ): الْجَمَاعَاتُ الْكَثِيرَةُ،
 عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ، وَعِكْرِمَةَ، وَاحِدُهُمْ (رَبِّي) بِضَمِّ (الرَّاءِ) وَكُسْرِهَا، مَنْسُوبٌ
 إِلَى (الرَّبَّةِ) بِكَسْرِ (الرَّاءِ) أَيْضًا وَضَمِّهَا، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:
 (الرَّبِّيُونَ): الْأُلُوفُ الْكَثِيرَةُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: (الرَّبِّيُونَ): الْأَتْبَاعُ. وَالْأَوَّلُ أَعْرَفُ فِي اللُّغَةِ،
 وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْخِرْقَةِ الَّتِي تُجْمَعُ فِيهَا الْقِدَاحُ: (رَبَّةٌ، وَرَبَّةٌ). وَ(الرَّبَابُ): قَبَائِلُ تَجَمَّعَتْ. وَقَالَ
 أَبَانُ بْنُ ثَعْلَبٍ: (الرَّبِّيُّ): عَشْرَةُ آلَافٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ الصُّبُرُ. وَقَالَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ، وَالسُّدِّيُّ: الْجُمُعُ الْكَثِيرُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: الرَّبِّيُّ: عَابِدُ
 الرَّبِّ، وَكُسِرَ الرَّاءُ مِنْ تَغْيِيرِ النَّسَبِ، كَمَا قَالُوا: أُمْسِي فِي النَّسَبَةِ إِلَى أُمْسٍ، قَالَهُ
 الْأَخْفَشُ. أَوْ الْجَمَاعَةُ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ. أَوْ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، ثُمَّ جُمِعَ
 بِ(الْوَاوِ، وَالنُّونِ)، قَالَهُ الرَّجَّاجُ. أَوْ الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ، قَالَهُ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ. وَرَبِّيُونَ
 مَنْسُوبٌ إِلَيْهَا. قَالَ قُطْرُبٌ: جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى قَوْلِ يُونُسَ. وَقِيلَ: وَزَرَاءُ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَالَ
 الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَكَايْنٌ﴾ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ سَبَقَ تَوْبِيحًا لِلْمُنْهَرَمِينَ أَيْضًا حَيْثُ لَمْ يَسْتَنْوِ بِسَنَنِ
 الرَّبَّائِيَيْنِ الْمُجَاهِدِينَ مَعَ الرُّسُلِ. عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.، مَعَ أَنَّهُمْ أَوَّلَى بِذَلِكَ حَيْثُ كَانُوا
 خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَقِيلَ: إِنَّهَا بَسِيطَةٌ وَضِعَتْ كَذَلِكَ
 ابْتِدَاءً، وَالنُّونُ أَصْلِيَّةٌ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُ، وَعَلَيْهِه فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ مُوَافِقٌ لِلرَّسْمِ.
 وَقِيلَ - وَهُوَ الْمَشْهُورُ -: إِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ (أَيِّ) الْمَوْنَةِ وَ(كَافٍ) التَّشْبِيهِ، وَاخْتَلَفَ فِي (أَيِّ)
 هَذِهِ، فَقِيلَ: هِيَ (أَيُّ) الَّتِي فِي قَوْلِهِمْ: أَيُّ الرِّجَالِ، وَقَالَ ابْنُ حَيَّانٍ: إِنَّهَا مَصْدَرٌ أَوْيَ يَأْوِي
 إِذَا انْضَمَّ وَاجْتَمَعَ، وَأَصْلُهُ أَوْيَ فَاجْتَمَعَتْ (الْوَاوُ، وَالْيَاءُ) وَسَبِقَتْ إِخْدَاهُمَا بِالسُّكُونِ
 فَقُلِّبَتْ وَادْغَمَتْ مِثْلَ (طَيٍّ، وَشَيٍّ)، وَحَدَّثَ فِيهَا بَعْدَ التَّرْكِيبِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ الْمَفْهُومِ مِنْ
 كَمٍّ كَمَا حَدَّثَ فِي كَذَا بَعْدَ التَّرْكِيبِ مَعْنَى آخَرَ، فَ(كَمٍّ، وَكَأَيْنٍ) بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَقَالَ صَدِيقُ
 خَانَ: ﴿وَكَايْنٌ﴾: قَالَ الْخَلِيلُ، وَسَيُوبِيهِ: هِيَ (أَيُّ) الِاسْتِفْهَامِيَّةُ وَ(كَافٍ) التَّشْبِيهِ،

بمعنى: (كَمْ) التكرير، وهي كناية عن عدد مبهم، و﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ تمييز لها. وقال العثيمين: (وَكَأَيِّنْ): الصحيح أنَّها كلمة غير مركبة، يعني بسيطة. البسيطة عند النحويين يعنون بها غير المركبة. وقال بعضهم: إنها مركبة من (كَاف) التشبيه (وَأَي) الاستفهامية، ولكن الصحيح خلاف ذلك، الصحيح: أنَّها كلمة بسيطة نطق بها العرب هكذا، كما نطقوا بـ(كَمْ)، وأنَّ معنى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾: كَمْ من نبي. فهي إذاً للتكثير، وهي مبنية على سكون (النون). أمَّا محلُّها من الإعراب: فهي مبتدأ، والجملة التي بعدها خبرها. وقوله: ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ جار ومجرور مميِّز لـ(كَأَيِّنْ)؛ لأنَّ (كَأَيِّنْ) من الألفاظ المبهمة، والألفاظ المبهمة تحتاج إلى تمييز، من ذلك مثلاً: أَلْفَاظُ الْعِدَدِ، أَلْفَاظُ الْعِدَدِ من الأشياء المبهمة، قولك مثلاً: عندي عشرون، فكلمة عشرون مبهمة تحتاج إلى تمييز، فنقول: عشرون رجلاً، عشرون كتاباً، عشرون بيتاً، عشرون سيارة، وما أشبه ذلك، وتمييز كلمة (كَأَيِّنْ) يأتي بعدها مجروراً بـ(مِنْ). وقوله: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾: كلمة (قَاتَلَ) يختلف المفسرون فيها، فبعضهم وقف عليها، وقال في قراءته: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ﴾، ثم استأنف، فقال: ﴿مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾، وتكون جملة: ﴿مَعَهُ رِبِّيُونَ﴾ جملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر، (رِبِّيُونَ) مبتدأ، و(مَعَهُ) خبر مقدَّم، والجملة في موضع نصب على الحال من الضمير في (قَاتَلَ)، يعني: قاتل، والحال أنَّ معه رِبِّيِينَ كثير. وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ جملة مستقلة يوقف عليها، ثم يستأنف فيقال: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾: يعني: وكأين من نبيٍّ وُجد وأُرسِلَ وُبُعِثَ وأُيِّدَ بالآيات واتَّبعه ناس، فقتل معه وفي صحبته رِبِّيُونَ كثير، وعلى هذا القول تكون (رِبِّيُونَ) فاعل على قراءة (قَاتَلَ)، ويكون النبيُّ سالماً على هذا التقدير، أمَّا على الأوَّل فيكون مقتولاً. وقوله: ﴿مَعَهُ رِبِّيُونَ﴾: (مَعَهُ): ظرف، وهي خبر مقدَّم، و﴿رِبِّيُونَ﴾ مبتدأ مؤخَّر على تقدير أنَّ الضمير في قاتل يعود على النبيِّ، لكن فيه وجه آخر يقول: إنَّ (رِبِّيُونَ) فاعل قاتل؛ وبناء على هذا يختلف الإعراب، فتكون (مَعَهُ) ظرف مكان متعلِّق بقاتل، ويكون (رِبِّيُونَ) فاعلاً على قراءة (قَاتَلَ)، وعلى

هذا التقدير يكون القتال واقعاً على الرّبيّين وليس على النّبيّ، ويختلف الحكم بالنسبة للصّحابة، فإذا كان (قَاتِلَ) فيه ضمير يعود على (نبيّ) صار فيه تسلية للصّحابة، أي أنّ الأنبياء قد قتلوا قبل مُحمّد وقاتلوا. وعلى الاحتمال الثاني أنّ (رَبِّيَّونَ) فاعل يكون فيه إشارة إلى أنّ الصّحابة لم يكن الابتلاء بالقتال خاصّاً فيهم، بل هو سابق في الأمم المتقدّمين، فيكون المراد من الآية شيئاً من التوبيخ واللوم للصّحابة الذين جزعوا لما أصابهم في أحد؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ إلى آخره. هذا من حيث تركيب الجملة، أمّا من حيث الأفراد، فقوله: ﴿مَنْ نَبِيٍّ﴾: المراد بالنّبيّ: من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، ولكن ليس في القرآن لفظ نبيّ إلّا ويراد به الرسول، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: ١٦٣]، ونوح من المعلوم أنّه من الرسل، بل هو من أولي العزم من الرسل. على كلّ حال: النّبيّ عند أهل العلم: من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه؛ ولهذا سُمّي رسولاً من الرسالة. وقد أشكل على بعض الناس، فقالوا: كيف يُوحى إليه بالشرع ولا يؤمر بالتبليغ؟ ولكن هذا في الحقيقة ليس محلّ إشكال؛ لأنه يمكن الجواب عنه: بأنه أوحى إليه بالشرع؛ ليتعبد به، ويكون هذا من باب التذكير له إذا كان نبياً بعد الرسل، ومن باب البيان له إذا كان نبياً لم يسبق بالرسل. مثال الثاني: آدم - عليه السلام -، فآدم نبيّ ولم يسبق بالرسل. ومثال الأوّل: ما وجد من أنبياء بني إسرائيل الذين لهم أتباع ولم يؤمروا بالتبليغ، فيكون إنباء الله لهم من باب التفضّل عليهم بذكر الشريعة السابقة وإحيائها وإن كانوا لم يلزموا بأن يبلغوا الناس، وبهذا يزول الإشكال. فيمكن أنّ الله ينبيّ أحداً ولا يأمره ولا يكلفه بالإبلاغ. وقوله: ﴿قَاتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾: المقاتلة مفاعلة تقتضي وجود مدافعة بالقتل من الجانبين؛ وهي أعمّ من القتل؛ ولهذا قد تجوز المقاتلة ولا يجوز القتل، فلو وجدنا أهل قرية لا يؤذّنون مثلاً، فإنه يجب قتالهم ولكن لا يجوز قتلهم، يعني أنّنا إذا قدرنا على المعين لا نقتله، ولكن نقاتلهم

حَتَّى يُوَدِّنُوا. مَثَلًا لَوْ وَجَدْنَا قَرْيَةً لَا يَصْلَوْنَ الْعِيدَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا قِتَالَهُمْ حَتَّى يَصِلُوا الْعِيدَ وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ، فَالْقِتْلُ أَخْصَّ مِنَ الْقِتَالِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَجُوزَ الْقِتَالُ لِقَوْمٍ وَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: الرَّجُلُ الَّذِي يَرِيدُ الْمُرُورَ بَيْنَ يَدَيْكَ أَوْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سِتْرَتِكَ فَتَدَافِعُهُ فَيَأْبَى، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنْ أَبَى فَلْيَقَاتِلْهُ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتُلَهُ. وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَقْتُلَهُ لَجَازَ لِهَذَا الْمُصْلِي أَنْ يَضْرِبَ هَذَا الَّذِي أَرَادَ الْمُرُورَ فِي مَكَانٍ مُمِيتٍ وَيَسْقُطُ مَيِّتًا، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِجَائِزٍ، وَإِنَّمَا يَقَاتِلُهُ مَقَاتِلَةً دِفَاعًا، فَإِنْ انْدَفَعَ كَفَّ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾: قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الرَّبِّيِّينَ نِسْبَةً إِلَى الرَّبِّ وَلَكِنْ كَسَرَتْ (الرَاءَ)؛ لِأَنَّهَا تَغَيَّرَتْ عِنْدَ النِّسْبِ، وَكَمْ مِنْ حَرَكَةٍ تَغَيَّرَتْ عِنْدَ النِّسْبِ، مَثَلًا بَنُو أُمَيَّةَ، نَقُولُ فِيهِمْ: الْأُمَوِيُّينَ، تَخْتَلِفُ الْحَرَكَةُ عِنْدَ وَجُودِ النِّسْبَةِ، فَالرَّبِّيُّونَ أَصْلُهَا: رَبِّيُّونَ مِنَ الرَّبِّ، أَوْ مِنَ التَّرْبِيَةِ، وَهِيَ مَفْتُوحَةٌ (الرَاءَ)، وَلَكِنَّهَا لَمَّا تَحَوَّلَتْ إِلَى نِسْبَةٍ فَكَسَرَتْ (الرَاءَ)، وَعَلَى هَذَا (الرَّبِّيُّونَ): هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِعِبَادَةِ الرَّبِّ فَتَالُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ تَرْبِيَةً خَاصَّةً، وَنَظِيرُ ذَلِكَ: قَوْلُ الْعُلَمَاءِ: هَذَا عَالَمٌ رَبَائِيٌّ نِسْبَةً إِلَى الرَّبِّ وَالتَّرْبِيَةِ. وَقِيلَ: إِنَّهَا مُضَافَةٌ إِلَى رَبَّةٍ بِالْكَسْرِ، يَعْنِي مَنْسُوبَةٌ إِلَى (رَبَّةٍ)، وَهِيَ الطَّائِفَةُ، فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾: أَيُّ طَوَائِفَ كَثِيرُونَ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَاللَّهُ يَبَيِّنُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَاتَلُوا وَمَعَهُمْ رَبِّيُّونَ كَثِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُّونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَثِيرٌ﴾: صِفَةٌ لِرَبِّيُّونَ، وَهِيَ لَا تَقْتَضِي الْأَكْثَرَ، مَثَلًا: إِذَا كَانَ عِنْدَنَا مِائَةٌ وَسَلِمَ مِنْهُمْ خَمْسُونَ نَقُولُ: هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ. سَلِمَ مِنْهُمْ عَشْرُونَ نَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ، سَلِمَ مِنْهُمْ سِتُونَ نَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ، لَكِنْ مَا قَبْلَ الْخَمْسِينَ لَا نَقُولُ فِيهَا: أَكْثَرَ، وَإِنَّمَا نَقُولُ أَكْثَرَ فِيمَا تَجَاوَزَ النِّصْفَ. الْمَهَمُّ أَنَّ (كَثِيرًا) هُنَا يَعْنِي طَوَائِفَ كَثِيرَةً قَاتَلُوا.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: جَمَعَ بَيْنَ (الْوَهْنِ، وَالضَّعْفِ)؛ لِأَنَّ (الْوَهْنَ): انْكَسَارُ الْحَدِّ بِالْخَوْفِ. وَ(الضَّعْفُ): نُقْصَانُ الْقُوَّةِ. أَيُّ: لَمْ يَهِنُوا بِالْخَوْفِ، وَلَا ضَعُفُوا بِنُقْصَانِ الْقُوَّةِ. هَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي إِسْحَاقَ: مَا

جَبُنُوا عَنْ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَمَا فَتَرُوا. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ الاستِكَانَةُ: الخُضُوعُ. وَهُوَ أَنْ يَسْكُنَ لِصَاحِبِهِ؛ لِيَفْعَلَ بِهِ مَا يَرِيدُ، أَيْ وَمَا خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾: أَيْ فَمَا جَبُنُوا. ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ عَنِ الْجِهَادِ بِمَا نَالَهُمْ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاحِ وَقَتْلِ الْأَصْحَابِ. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: وَمَا اسْتَسْلَمُوا، وَمَا خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: وَمَا ذَلُّوا. وَقَالَ عَطَاءٌ: وَمَا تَضَرَّعُوا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: وَمَا جَبُنُوا، وَلَكِنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَى أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَطَاعَةِ نَبِيِّهِمْ، وَجِهَادِ عَدُوِّهِمْ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الضَّعْفُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْعَجْزُ، قَالَهُ قَتَادَةُ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَالِاسْتِكَانَةُ: الْخُشُوعُ، وَالذُّلُّ، وَمِنْهُ أَخَذَ الْمُسْكِينُ. وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: فَمَا وَهَنُوا بِالْخَوْفِ، وَمَا ضَعُفُوا بِنُقْصَانِ الْقُوَّةِ، وَلَا اسْتِكَانُوا بِالْخُضُوعِ. الثَّانِي: فَمَا وَهَنُوا لِقِتْلِ نَبِيِّهِمْ، وَلَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَلَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَهَنُوا﴾: أَيْ ضَعُفُوا، وَالْوَهْنُ: انْكِسَارُ الْجِدِّ بِالْخَوْفِ. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أَيْ عَنْ عَدُوِّهِمْ. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: أَيْ لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي الْجِهَادِ. وَالِاسْتِكَانَةُ: الدَّلَّةُ وَالْخُضُوعُ، وَأَصْلُهَا: (اسْتَكْنُوا) عَلَى افْتَعَلُوا، فَأُشْبِعَتْ فَتَحَةً (الْكَافِ) فَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا (أَلِفٌ). وَمَنْ جَعَلَهَا مِنَ الْكُونِ فَهِيَ اسْتَفْعَلُوا، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهَ بِمَعْنَى الْآيَةِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أَيْ وَمَا ضَعُفُوا عَنِ الْجِهَادِ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمْ. وَقِيلَ: مَا ضَعُفَ يَقِينُهُمْ، وَلَا انْخَلَّتْ عَزِيمَتُهُمْ. وَأَصْلُ الضَّعْفِ: نُقْصَانُ الْقُوَّةِ، ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: مَا قَعَدُوا عَنِ الْجِهَادِ فِي دِينِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَا ذَلُّوا. وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا تَضَرَّعُوا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَا اسْتَسْلَمُوا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَا جَبُنُوا. وَقَالَ الْمُفَضَّلُ: مَا خَشَعُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: مَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ دِينَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُمْ حَتَّى لَحِقُوا بِرَبِّهِمْ. وَكُلُّ هَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾: عَطَفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قَاتِلُوا﴾ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: عَدَمُ الْوَهْنِ الْمَتَوَقَّعِ مِنَ الْقِتَالِ كَمَا فِي قَوْلِكَ: (وَعَظَّمْتُ فَلَمْ يَتَّعِظْ وَصِحْتُ بِهِ فَلَمْ يَنْزَجِرْ)، فَإِنَّ

الإتيانَ بِالشَّيْءِ بَعْدَ وُرُودِ مَا يُوجِبُ الإِقْلَاعَ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ اسْتِمْرَاراً عَلَيْهِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ
 لَكِنَّهُ بِحَسَبِ الْحَقِيقَةِ صُنِعَ جَدِيدٌ مُصَحَّحٌ لِدُخُولِ الْفَاءِ الْمَرْبُوبَةِ لَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ، أَيْ فَمَا
 فَتَرَوْا وَمَا انْكَسَرَتْ هِمَّتُهُمْ. ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ﴾: أَيْ فِي أَثْنَاءِ الْقِتَالِ، وَهُوَ عِلَّةٌ لِلْمَنْفِيِّ دُونَ
 النَّفْيِ، نَعَمْ يُشْعِرُ بِعِلَّتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَإِنَّ كَوْنَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِهِ عَزَّ وَجَلَّ
 بِمَا يَقْوِي قُلُوبَهُمْ وَيُزِيلُ وَهَنَهُمْ. وَ(مَا) مَوْضُوعَةٌ أَوْ مَوْضُوفَةٌ، فَإِنْ جُعِلَ الضَّمِيرَانِ لِحَمِيعِ
 الرِّبِّيِّينَ فَهِيَ عِبَارَةٌ عَمَّا عَدَا الْقَتْلَ مِنَ الْجِرَاحِ وَسَائِرِ الْمِكَارِهِ الْمُعْتَرِيَةِ لِلْكَلِّ، وَإِنْ جُعِلَا
 لِلْبَعْضِ الْبَاقِينَ بَعْدَ مَا قُتِلَ الْآخَرُونَ كَمَا هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَقَامِ تَوَيْخِ الْمُنْخَذِلِينَ بَعْدَ مَا
 اسْتُشْهِدَ الشُّهَدَاءُ، فَهِيَ عِبَارَةٌ عَمَّا ذُكِرَ مَعَ مَا اغْتَرَاهُمْ مِنْ قَتْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ
 وَالْحُزْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أَيْ عَنِ الْعَدُوِّ. وَقِيلَ: عَنِ الْجِهَادِ. وَقِيلَ: فِي الدِّينِ.
 وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أَيْ مَا فَتَرَوْا عَنِ الْجِهَادِ، قَالَه الرَّجَاجُ. وَقِيلَ: مَا عَرَاهُمْ
 ضَعْفٌ فِي الدِّينِ بِأَنْ تَغَيَّرَ اعْتِقَادُهُمْ لِعَدَمِ النَّصْرِ. ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾: أَيْ مَا ارْتَدُّوا عَنْ
 بَصِيرَتِهِمْ وَلَا عَنْ دِينِهِمْ، قَالَه قَتَادَةُ. وَقِيلَ: مَا خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ. وَقَالَ صَدِّيقُ خَانَ: ﴿فَمَا
 وَهَنُوا﴾: الْوَهْنُ: انْكَسَارُ الْجَسَدِ بِالْخَوْفِ، وَهْنُ الشَّيْءِ يَهِنُ وَهْنًا كَوَعْدِ يَعْدُ، وَوَهْنُ يَوْهِنُ
 كَوَجَلِ يَوْجَلُ: ضَعْفٌ، أَيْ مَا جَبَنُوا عَنِ الْجِهَادِ. ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ﴾: أَيْ نَاهِمٌ. ﴿فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ﴾: أَيْ مِنْ أَلَمِ الْجُرُوحِ، وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْحَابِ، وَالْقُرُوحِ. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أَيْ عَنِ
 عَدُوِّهِمْ بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى جِهَادِهِمْ؛ لِأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَإِقَامَةِ
 دِينِهِ وَنَصْرَةِ نَبِيِّهِ، فَكَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَنْ تَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ. ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾: أَيْ
 لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي الْجِهَادِ، وَالْإِسْتِكَانَةُ: الذَّلَّةُ وَالْخُضُوعُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخُشُوعُ. وَقَالَ
 الْعِثِمِيُّ: ﴿فَمَا وَهَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أَيْ مَا جَبَنُوا مِنْ أَجْلِ مَا أَصَابَهُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، بَلِ لَمْ يَزِدْهُمْ مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا؛ لِأَنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ
 الْإِيمَانِ مَا يَدْفَعُهُمْ إِلَى مَا يَصِيبُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا
 اعْتَدِيَ عَلَيْهِ احْتَمَى أَوْ حَمِيَ وَزَادَ إِقْدَامًا، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ مَا جَبَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ

الله. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي في طريقه وشريعته؛ لأنهم مؤمنون بأن كل ما أصابهم فهو على خير. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: أي ما ضعفت عزيمتهم حتى لو قتل الكثير منهم، فإنها لا تضعف عزيمتهم خلافاً لمن كان عنده جبن فإنه تضعف عزيمته إذا قُتل أحد من قومه. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: من الاستكانة، وهي الذل، أي ما ذلّوا لعدوهم، مع أنه قُتل منهم كثير، لكن كانوا على عزة؛ لأن الذي يعلم أن من قتل من قومه في سبيل الله لا يهتم؛ إذ إنه مؤمن بأنه لو قتل هو لكان مقتولاً في سبيل الله، فلا يذل لأعداء الله.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾: قال أبو حيان: أي الصابرين على قتال عدوهم. قاله الجُمهُور. أو على دينهم وقاتل الكفار. والظاهر: العُموم لكل صابر على ما أصابه من قتل في سبيل الله، أو جرح، أو بلاء، أو أذى يناله بقول أو فعل، أو مُصيبة في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو ما يجري مجرى ذلك. وقال أبو السعود: أي الصابرين على مُقاساة الشدائد ومُعانة المكاره في سبيل الله، فيَنصُرهم ويُعَظّم قَدْرهم. والمراد بالصَّابِرِينَ: إمّا المَعْهُودُونَ، والإظهار في موضع الإضمار؛ لِثَناءِ عَلَيْهِم بِحُسْنِ الصَّبْرِ والإشعارِ بِعِلَّةِ الحُكْمِ، وإمّا الجِنْسُ وهم داخلُونَ فِيهِ دُخُولاً أَوَّلِيّاً، والجُمْلَةُ تَذِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا. وقال الألويسي: أي الصابرين على مُقاساة الشدائد ومُعانة المكاره في سبيله فيَنصُرهم ويُعَظّم قَدْرهم. والمراد بالصَّابِرِينَ: إمّا الرِّيَئُونَ، والإظهار في موضع الإضمار؛ لِلتَّصْرِيحِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِم بِالصَّبْرِ الَّذِي هو ملاك الأمرِ مَعَ الإشعارِ بِعِلَّةِ الحُكْمِ، وإمّا ما يَعْمُهم وَغَيْرهم وهم داخلُونَ فِي ذَلِكَ دُخُولاً أَوَّلِيّاً. والجُمْلَةُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ تَذِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا. وقال العثيمين: أي يحب الصابرين الذين يصبرون على كل ما يجب عليه الصبر. والصبر ثلاثة أقسام: الأول: صبر على طاعة الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه على الطاعة ولا يضجر منها ولا يدعها. الثاني: صبر عن معصية الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه عن المعصية فلا يقدم عليها. الثالث: صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخط بما يقضيه الله عليه من الأشياء المؤلمة.

• قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾:

• مناسبة الآية:

قال أبو حيان: لما ذكر الله ما كانوا عليه من الجلد والصبر وعدم الوهن والاستكانة للعدو، وذلك كله من الأفعال النفسانية التي يظهر أثرها على الجوارح، ذكر ما كانوا عليه من الإنابة والاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء.

وقال البقاعي: لما أثنى الله على فعلهم، أتبعه قَوْلُهُمْ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ...﴾.

وقال الألوسي: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ...﴾ كالتتميم والمبالغة في صلابتهم في الدين وعدم تطرق الوهن والضعف إليهم بالكلفة، وهو معطوف على ما قبله. وقيل: كلام مبين لمحاسنهم القولية إثر بيان محاسنهم الفعلية.

• تفسير الآية:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: قال السمرقندي: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي هي دون الكبائر. ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾: أي العظام من الذنوب. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: أي عند القتال. ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: معناه: هلا قتلتم كما قالوا، وقاتلتم كما قاتلوا. وقال مكّي: حكى الله للمؤمنين قول الربيبين الذين ذكرهم؛ ليتأسوا بهم، فأخبرهم أنهم لم يعتصموا إلا بالصبر ومجاهدة عدوهم، ومسألة ربهم المغفرة والنصرة على عدوهم. ومعنى: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾: أي خطايانا وظلمنا لأنفسنا. وقال الضحّاك: هي الكبائر، وسألوه المغفرة فيها. وقال البغوي: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾: أي وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي الصغائر. ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾: أي الكبائر. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: كي لا نزل. ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: يقول: فهلا فعلتم وفعلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ. وقال ابن عطية: هذه الآية في ذكر

الرَّيِّينَ، أَيُّ هَذَا كَانَ قَوْلُهُمْ، لَا مَا قَالَهُ بَعْضُكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، مِنْ قَوْلٍ مَنْ قَالَ: نَأْخُذُ أَمَانًا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ، وَمِنْ قَوْلٍ مَنْ قَالَ: نَرْجِعُ إِلَى دِينِنَا الْأَوَّلِ، وَمِنْ قَوْلٍ مَنْ فَرَّ، فَلَا شَكَّ أَنَّ قَوْلَهُ مُنَاسِبٌ لِفِعْلِهِ وَلَوْ بَعْضَ الْمُنَاسَبَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا افْتَضَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ مِنَ الْأَقْوَالِ. وَاسْتَغْفَارُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَمْدُوحِينَ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ يَنْحُو إِلَى أَنَّهُمْ رَأَوْا مَا نَزَلَ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ بِذُنُوبٍ مِنَ الْبَشَرِ، كَمَا نَزَلَتْ قِصَّةُ أَحَدٍ بِعَصِيَانٍ مِنْ عَصَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ عِبَارَتَانِ عَنْ مَعْنَى قَرِيبٍ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، جَاءَ ذَلِكَ لِلتَّأْكِيدِ وَلِتُعْلَمَ مَنَاجِي الذُّنُوبِ، وَكَذَلِكَ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الذُّنُوبُ عَامٌّ، وَالْإِسْرَافُ فِي الْأَمْرِ أُرِيدَ بِهِ: الْكِبَائِرُ خَاصَّةً. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَجْرِيَ مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنْ مَعْنَى الْإِسْتِغْفَارِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: اجْعَلْنَا دَائِبِينَ عَلَى طَاعَتِكَ وَالْإِيمَانِ بِكَ، وَتَثْبِيتُ الْقَدَمِ عَلَى هَذَا اسْتِعَارَةً، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي مَعْنَى مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فَيُرَادُ ثُبُوتُ الْقَدَمِ حَقِيقَةً فِي مَوَاقِفِ الْحَرْبِ. قَالَ ابْنُ فُورَكٍ: فِي هَذَا الدُّعَاءِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ أَفْعَالَ الْعَبْدِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَسْعَ أَنْ يُدْعَى فِيهِمَا لَا يَفْعَلُهُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾: يَعْنِي الرَّيِّينَ. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾: أَيُّ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُمْ غَيْرَ الْإِسْتِغْفَارِ. وَالْإِسْرَافُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ. وَقِيلَ: أُرِيدَ بِالذُّنُوبِ الصَّغَائِرِ، وَبِالْإِسْرَافِ الْكِبَائِرِ. ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ عَلَى الْقِتَالِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ: ثَبَّتْنَا عَلَى دِينِكَ، فَإِنَّ الثَّابِتَ عَلَى دِينِهِ ثَابِتٌ فِي حَرْبِهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: قَدَّمَ طَلَبَ الْإِسْتِغْفَارِ عَلَى طَلَبِ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ وَالنُّصْرَةِ؛ لِيَكُونَ طَلَبُهُمْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَنْ زَكَاةٍ وَطَهَارَةٍ، فَيَكُونُ طَلَبُهُمُ التَّثْبِيتَ بِتَقْدِيمِ الْإِسْتِغْفَارِ حَرِيًّا بِالْإِجَابَةِ. وَذُنُوبُنَا وَإِسْرَافُنَا مُتَقَارِبَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، فَجَاءَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ. وَقِيلَ: الذُّنُوبُ: مَا دُونَ الْكِبَائِرِ. وَالْإِسْرَافُ: الْكِبَائِرُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الذُّنُوبُ: هِيَ الْخَطَايَا. وَإِسْرَافُنَا: أَيُّ تَفْرِيطُنَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الذُّنُوبُ عَامٌّ. وَالْإِسْرَافُ فِي الْأَمْرِ: الْكِبَائِرُ خَاصَّةً. وَالْأَقْدَامُ هُنَا قِيلَ: حَقِيقَةً، دَعَا بِتَثْبِيتِ

الأقدام في مَوَاطِي الحَرْبِ ولِقَاءِ العَدُوِّ كَيْ لَا تَزُلَّ. وقيل: المعنى: شَجَّ قُلُوبُنَا عَلَى لِقَاءِ العَدُوِّ. وقيل: ثَبَّتْ قُلُوبُنَا عَلَى دِينِكَ. والأحسن: حَمَلُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مَظَاهِرِهَا. وَثُبُوتُ الْقَدَمِ فِي الْحَرْبِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ ثُبُوتِ صَاحِبِهَا فِي الدِّينِ. وقيل: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فِي الْمِخَالَفَةِ، ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ فِي الْهَزِيمَةِ، ﴿وَوَثِّبْتَ أَقْدَامَنَا﴾ بِالمَصَابِرَةِ، ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بِالمِجَاهَدَةِ. قَالَ ابْنُ فُورَكٍ: فِي هَذَا الدُّعَاءِ رَدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ أَفْعَالَ الْعَبْدِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَسْغُ أَنْ يُدْعَى فِيمَا لَمْ يَفْعَلْهُ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الدُّعَاءِ عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ، وَأَنْ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُعَيَّن. وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَدْعِيَّةٌ أَعْقَبَ اللَّهُ بِالْإِجَابَةِ فِيهَا. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذِكْرِ الرَّبِّينِ، أَيِ هَذَا كَانَ قَوْلُهُمْ، لَا مَا قَالَهُ بَعْضُكُمْ، يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اقْتَضَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ مِنَ الْأَقْوَالِ، قُلْتُ: وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ تَرْجِّحُ الْقَوْلَ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ الرَّبِّينِ؛ إِذْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ إِنَّمَا تَصُدِّرُ مِنْ عُلَمَاءِ عَارِفِينَ بِاللَّهِ. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾: أَيِ قَوْلِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا هَذَا الْقَوْلُ. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾: اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ، أَيِ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ رَبَّائِيُونَ أَوْ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: قِيلَ: هِيَ الصَّغَائِرُ. ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ فِي أَمْرِنَا قِيلَ: هِيَ الْكِبَائِرُ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ الدُّنُوبَ نَعْمُ كُلِّ مَا يُسَمَّى ذَنْبًا مِنْ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ. وَالْإِسْرَافُ: مَا فِيهِ مُجَاوِزَةٌ لِلْحَدِّ، فَهُوَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، قَالُوا ذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِمْ رَبَّائِيَيْنَ هَضْمًا لَأَنْفُسِهِمْ. ﴿وَوَثِّبْتَ أَقْدَامَنَا﴾: أَيِ فِي مَوَاطِنِ الْقِتَالِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: الظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِمَا عِنْدَهُ أَوْ حَالٍ مِنْهُ، وَإِنَّمَا أَضَافُوا ذَلِكَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ هَضْمًا لَأَنْفُسِهِمْ وَاسْتِثْقَالًا لَهُمْ وَإِسْنَادًا لِمَا أَصَابَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُرَادَ بِتِلْكَ الدُّنُوبِ وَذَلِكَ الْإِسْرَافِ مَا كَانَ ذَنْبًا وَإِسْرَافًا عَلَى الْحَقِيقَةِ لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَحَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُفْرِيَيْنِ. وَقِيلَ: أَرَادُوا مِنْ طَلَبِ الْمَغْفَرَةِ طَلَبَ قَبُولِ أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ، وَفِيهِ مَا لَا

يَخْفَى. وَقَدَّمُوا الدُّعَاءَ بِالْمَغْفِرَةِ عَلَى مَا هُوَ الْأَهَمُّ بِحَسَبِ الْحَالِ مِنَ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾: أَيُّ عِنْدَ جِهَادِ أَعْدَائِكَ بِتَقْوِيَةِ قُلُوبِنَا وَإِمْدَادِنَا بِالْمَدَدِ الرُّوحَانِيِّ مِنْ عِنْدِكَ، ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ تَقْرِيبًا لَهُ إِلَى حَيِّزِ الْقَبُولِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ الْمُقْرُونَ بِالْخُضُوعِ الصَّادِرَ عَنْ زَكَاةٍ وَطَهَارَةٍ أَقْرَبُ إِلَى الْإِسْتِجَابَةِ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ: الْمُرَادُ مِنَ ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾: أَيُّ تَبَّتْنَا عَلَى دِينِكَ الْحَقِّ، فَيَكُونُ تَقْدِيمُ طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ عَلَى هَذَا التَّثْبِيتِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ التَّحْلِيلَةِ عَلَى التَّحْلِيلَةِ، وَتَقْدِيمُهُمَا عَلَى طَلَبِ النُّصْرَةِ لِمَا تَقَدَّمَ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْعُفْرَانَ أَوَّلًا لِيَسْتَحِقُّوا طَلَبَ النَّصْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِتَرْجُحِهِمْ بِطَهَارَتِهِمْ عَنِ الذُّنُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُحَاطُونَ بِالذُّنُوبِ، وَفِي طَلَبِهِمُ النَّصْرَ مَعَ كَثَرَتِهِمُ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا مَا سَبَقَ إِبْدَانُ بِأَتَمِّهِمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى كَثَرَتِهِمْ وَلَا يُعَوِّلُونَ عَلَيْهَا، بَلْ يُسْنِدُونَ ثَبَاتَ أَقْدَامِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ النَّصْرَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ. وَفِي الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا هَذَا دُونَ مَا فِيهِ شَائِبَةٌ جَزَعٍ وَخَوَرٍ وَتَزَلُّلٍ مِنَ التَّعْرِضِ بِالْمُنْهَزَمِينَ مَا لَا يَخْفَى. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾: أَيُّ هَؤُلَاءِ الرِّبَّائِيِّينَ، مِثْلَ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ، وَلَا الْمُعْجِبِينَ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: "لَمَّا عَلِمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا يُدَالُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَسْتَنْزِلُهُمْ وَيَهْزِمُهُمْ بِهَا، وَأَنَّهَا نَوْعَانِ: تَقْصِيرٌ فِي حَقِّ، أَوْ تَجَاوُزٌ لِحَدِّ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَنْوُطٌ بِالطَّاعَةِ، قَالُوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ أَقْدَامُهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَثْبِيتِ أَقْدَامِ أَنْفُسِهِمْ وَنَصْرِهَا عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَسَأَلُوهُ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بِيَدِهِ دُوعَهُمْ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ أَقْدَامُهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ، لَمْ يَتَبَيَّنُوا وَلَمْ يَنْتَصِرُوا، فَوَقَّوْا الْمَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا: مَقَامَ الْمُفْتَضَى، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَالْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَمَقَامَ إِزَالَةِ الْمَانِعِ مِنَ النُّصْرَةِ، وَهُوَ الذُّنُوبُ وَالْإِسْرَافُ" انْتَهَى. قَالَ الْقَاضِي: وَهَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ فِي كَيْفِيَّةِ الطَّلَبِ بِالْأَدْعِيَةِ عِنْدَ النَّوَائِبِ وَالْمِحَنِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْجِهَادِ أَوْ غَيْرِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: صِغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾: قَصْرٌ إِضَافِيٌّ؛ لِرَدِّ اعْتِقَادِ مَنْ قَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ قَالُوا أَقْوَالَ تُنْبِئُ عَنِ الْجَزَعِ، أَوْ الْهَلَعِ، أَوْ الشَّلَكِ فِي النَّصْرِ، أَوْ الْإِسْتِسْلَامِ

لِلْكَفَّارِ. وَفِي هَذَا الْقَصْرِ تَعْرِضُ بِالَّذِينَ جَزَعُوا مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ الْمُبَاقِينَ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: لَوْ كَلَّمْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَأْخُذُ لَنَا أَمَانًا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ. وَقَدِّمَ خَبْرُ كَانَ عَلَى اسْمِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؛ لِأَنَّهُ خَبْرٌ عَنْ مُبْتَدَأِ مَحْصُورٍ؛ لِأَنَّهُ الْمُقْصُودُ: حَصْرُ أَقْوَاهُمْ حِينَئِذٍ فِي مَقَالَةٍ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فَالْقَصْرُ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ لِقَوْلِهِمُ الصَّادِرِ مِنْهُمْ، حِينَ حُصُولِ مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْقَيْدُ مُلَاحَظٌ مِنَ الْمَقَامِ، فَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ مُقَيَّدٌ بِزَمَانٍ خَاصٍّ، تَقْيِيدًا مَنْطُوقًا بِهِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مِنْ تَوْجِيهِ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ فِي الْآيَةِ: بِأَنَّ الْمَصْدَرَ الْمُنْسَبَكُ الْمَقُولُ أَعْرَفُ مِنَ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ؛ لِدَلَالَةِ الْمَقُولِ عَلَى النَّسَبَةِ وَزَمَانِ الْحَدَثِ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي بَابِ (كَانَ) فِي غَيْرِ صَيَغِ الْقَصْرِ، وَأَمَّا فِي الْحَصْرِ فَمُتَعَيِّنٌ تَقْدِيمُ الْمَحْصُورِ. وَالْمَرَادُ مِنَ الذُّنُوبِ: جَمِيعُهَا، وَعَطَفَ عَلَيْهِ بَعْضَ الذُّنُوبِ وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ هُنَا بِالْإِسْرَافِ فِي الْأَمْرِ، وَالْإِسْرَافُ هُوَ: الْإِفْرَاطُ وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ، فَلَعَلَّهُ أُريدَ بِهِ الْكِبَائِرُ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا نُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ، وَعَلَيْهِ فَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: (أَمَرْنَا)، أَيْ دِينَنَا وَتَكْلِيفُنَا، فَيَكُونُ عَطْفٌ خَاصٌّ؛ لِلِإِلَهْتِمَامِ بِطَلَبِ غُفْرَانِهِ، وَمَحْضُ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ لِبَقِيَّةِ الذُّنُوبِ وَهِيَ الصَّغَائِرُ. وَيَجُوزُ عِنْدِي: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالْإِسْرَافِ فِي الْأَمْرِ: التَّقْصِيرُ فِي شَأْنِهِمْ وَنِظَامِهِمْ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَهْبَةِ الْقِتَالِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، أَوْ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَهَذَا الظَّاهِرُ مِنْ كَلِمَةِ أَمْرٍ، بِأَنْ يَكُونُوا شَكُّوا أَنْ يَكُونَ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ فِي الْحَرْبِ مَعَ عَدُوِّهِمْ نَاشِئًا عَنْ سَبَبَيْنِ: بَاطِنٍ، وَظَاهِرٍ، فَالْبَاطِنُ هُوَ: غَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الذُّنُوبِ. وَالظَّاهِرُ هُوَ: تَقْصِيرُهُمْ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَالْحَذَرِ، وَهَذَا أَوَّلَى مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾: يَعْنِي عِنْدَ حَدُوثِ الْقَتْلِ. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْبَاقِينَ مِنْهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُوا؛ لِأَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولُوا هَذَا. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾: يَعْنِي: يَا رَبَّنَا، فَهُوَ مَنَادٌ حَذَفَتْ مِنْهُ (يَا) النِّدَاءُ؛ تَخْفِيفًا وَتَيَمُّنًا بِالْبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللَّهِ، فَحَذَفَ (يَا) النِّدَاءَ هُنَا لَهُ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: لِلتَّخْفِيفِ. الثَّانِي: التَّيَمُّنَ بِالْبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللَّهِ. وَنَادَاوُا اللَّهَ عِنْدَ الدَّعَاءِ بِاسْمِ الرُّبُوبِيَّةِ؛

لأن الربوبية هي التي فيها التصرف، وإجابة الدعاء من باب الربوبية، فتوسلوا باسم الله الذي يناسب ما يطلبون وهو إجابة الدعاء. ﴿اغْفِرْ﴾: يعني استر وتجاوز؛ لأنه مأخوذ من المغفر وهو ما يقي به المقاتل رأسه من السهام، في المغفر الستر والوقاية؛ ولهذا لو أن الله هتك ستر المذنب لم تكن مغفرة تامة، ولو عذبه به وأخفاه عن الناس لم تكن مغفرة تامة، فإذا ستره وعفا عنه صارت المغفرة تامة. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: أصل مادة (الذال، والنون، والباء) تدور حول معانٍ متعددة منها: النصيب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩]: أي نصيبًا. ومنه سُمِّيَ ذنوب الماء، أي الدلو؛ لأنه شيء مقدّر من الماء. ويطلق الذنب على: الإثم؛ لأنه نصيب العامل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]. ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: الإسراف: مجاوزة الحدّ. ومجاوزة الحدّ هي إمّا في غلو، وإمّا في تقصير، أمّا مجاوزة الحدّ في الغلو فظاهر، وأمّا في التقصير؛ فلأن المطلوب من المكلف ألا يتعدى حدود الله تجاوزا ولا يقربها أيضًا، فإذا كان الإنسان فاعلاً للمحرّم فهو مسرف؛ لأنه تجاوز حدّ العبوديّة؛ إذ مقتضى العبوديّة أن يكون محتنباً لما حرّم الله. وإذا فرط في الواجب كان مسرفاً أيضًا فيما تقتضيه العبوديّة؛ لأن مقتضى العبوديّة: أن يكون قائماً بالواجب، فالإنسان قد يسرف في الواجب، وفي المحرّم، وفي المباح أيضًا، كما لو أسرف في الإنفاق على نفسه وعلى أهله فإنه داخل في الإسراف. وقوله: ﴿فِي أَمْرِنَا﴾: المراد بالأمر هنا: الشأن، أي في شأننا، وهو مفرد مضاف فيعمّ جميع الأمور. ﴿وَوَثِّبْتُ أَقْدَامَنَا﴾: أي عند ملاقة الأعداء، وعند حلول الشبهات، وعند ورود الشهوات، والإنسان محتاج إلى أن يثبتته الله في مواطن القتال؛ إذ لو لم يثبتته الله لفرّ. ومحتاج إلى أن يثبتته الله عند الشبهات؛ إذ لو لم يثبتته الله لزاغ، ومحتاج إلى أن يثبتته الله عند الشهوات؛ إذ لو لم يثبتته الله هلك. وكثير من الناس ينزلقون عند وجود الشبهات فتجده ذا يقين، ولكنّه إذا وردت عليه أدنى شبهة تأثر؛ لأنه لم يثبت. كثير من الناس أيضًا يكون عنده علم

ويقين، وليس عنده شكّ ولكن الشهوة قد تغلبه فلا يثبت. فالمطلوب: تثبيت الأقدام في كلّ موضع يمكن أن تزل فيه، فيدخل في ذلك كما قلت تثبيت الأقدام عند القتال كما هو سياق الآيات، وتثبيت الأقدام عند الشبهات، وتثبيت الأقدام عند الشهوات. ﴿وَأَنْصُرْنَا﴾: يعني اجعل النصر لنا، وهو الغلبة. ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: يعني الكافرين بالله، فيدخل في ذلك أن ينصرك الله على نفسك؛ لأن نفسك إن لم ينصرك الله عليها فإنها تأمرك بالسوء، فإذا لم ينصرك الله عليها أهلكتك، وإذا نصرك الله عليها وجعل الغلبة للنفس المطمئنة سلمت منها. ويدخل في النصر على القوم الكافرين: النصر على الشيطان، فإنّ الشيطان كافر، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. ويدخل في ذلك: النصر على كفار الإنس، وذلك حين قتالهم فإنّ الإنسان إذا لم ينصره الله عليهم فإنه لا ناصر له.

● قال الله تعالى: ﴿فَاتَّهَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨):

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّ الله تعالى لما شرح طريقة الرّبيّين في الصّبر، وطريقتهم في الدّعاء ذكر أيضاً ما ضمن لهم في مقابلة ذلك في الدّنيا والآخرة، تعالى فقال: ﴿فَاتَّهَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ..﴾.

● تفسير الآية:

﴿فَاتَّهَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: قال مكّي: المعنى: فأعطى الله المؤمنين الرّبيّين ثواب الدنيا، أي النصر على عدوّهم، والظفر، والغنيمة. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: أي خير جزاء الآخرة، وهو الرضوان من الله. وقال ابن عطية: ثواب الدّنيا في هذه الآية: الظهور على عدوّهم، قاله ابن إسحاق، وفتادة وغيرهما، وقال ابن جرير:

الظفر والغنيمه، وفَسَّرَ بِهَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ. قَالَ النَّقَاشُ: لَيْسَ إِلَّا الظَّفَرُ
وَالْعَلْبَةُ فَقَطْ؛ لِأَنَّ الْغَنِيمَةَ لَمْ تُحَلَّ إِلَّا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ: وَهَذَا اعْتِرَاضٌ
صَحِيحٌ. ﴿وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: الْجَنَّةُ بِلا خِلَافٍ. وَعَبَّرَ بِلَفْظَةِ ﴿حُسْنٍ﴾؛ زِيَادَةً فِي
التَّرْغِيبِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ النَّصْرُ،
قَالَهُ قَتَادَةُ. الثَّانِي: الْغَنِيمَةُ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: النَّصْرُ
وَالْغَنِيمَةُ. ﴿وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الْجَنَّةُ. الثَّانِي: الْأَجْرُ
وَالْمَغْفِرَةُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُ تَعَالَى أَعْطَاهُمُ الْأَمْرَيْنِ، أَمَّا ثَوَابُ
الدُّنْيَا فَهُوَ النَّصْرُ، وَالْغَنِيمَةُ، وَقَهْرُ الْعَدُوِّ، وَالتَّنَائُ الْجَمِيلُ، وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِنُورِ الْإِيمَانِ،
وَزَوَالُ ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ، وَكَفَارَةُ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ. وَأَمَّا ثَوَابُ الْآخِرَةِ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ هُوَ
الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَاللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ السُّرُورِ وَالتَّعْظِيمِ، وَذَلِكَ غَيْرُ حَاصِلٍ فِي الْحَالِ،
فَيَكُونُ الْمَرَادُ: أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ لَهُمْ بِحُصُولِهَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَقَامَ حُكْمَ اللَّهِ بِذَلِكَ مَقَامَ نَفْسِ
الْحُصُولِ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ فِي وَعْدِ اللَّهِ وَالظُّلْمَ فِي عَدْلِهِ مُحَالٌ، أَوْ يُحْمَلُ قَوْلُهُ: ﴿فَاتَاهُمُ﴾
عَلَى أَنَّهُ سَيُؤْتِيهِمْ عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النَّحْلُ: ١]، أَيْ سَيَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ. قَالَ
الْقَاضِي: وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْتَصَةً بِالشُّهَدَاءِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُمْ
أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَيَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الرَّبِّيِّينَ أَيْضًا كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فِي حَالِ
إِنْزَالِ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ قَدْ آتَاهُمْ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ السَّمَاءِ. وَخَصَّ تَعَالَى ثَوَابَ
الْآخِرَةِ بِالْحُسْنِ؛ تَنْبِيْهُهَا عَلَى جَلَالَةِ ثَوَابِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ كُلَّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ،
فَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ حَسَنٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ فَاَنْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ حُسْنُهُ، وَلَمْ يَصِفْ ثَوَابَ
الدُّنْيَا بِذَلِكَ؛ لِقِلَّتِهَا وَامْتِزَاجِهَا بِالْمُضَارِّ، وَكَوْنِهَا مُنْقَطِعَةً زَائِلَةً. قَالَ الْقَقَالُ: يُحْتَمَلُ أَنْ
يَكُونَ الْحُسْنُ هُوَ الْحَسَنُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَةُ: ٨٣]، أَيْ حَسَنًا،
وَالْعَرَضُ مِنْهُ: الْمِبَالَعَةُ، كَأَنَّ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الْحَسَنَةَ؛ لِكَوْنِهَا عَظِيمَةً فِي الْحُسْنِ صَارَتْ نَفْسَ
الْحُسْنِ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ جَوْدٌ وَكَرَمٌ، إِذَا كَانَ فِي غَايَةِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ. وَقَالَ فِيمَا تَقَدَّمَ:

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، فَذَكَرَ لَفْظَةَ (مِنْ) الدَّالَّةَ عَلَى التَّبَعِيصِ، وَقَالَ هُنَا: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ (مِنْ)، وَالْفَرْقُ: أَنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ إِنَّمَا اشْتَغَلُوا بِالْعِبُودِيَّةِ لِطَلَبِ الثَّوَابِ، فَكَانَتْ مَرَبِّتُهُمْ فِي الْعِبُودِيَّةِ نَازِلَةً، وَأَمَّا الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا الذَّنْبَ وَالْقُصُورَ، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، وَلَمْ يَرَوْا التَّذْيِيرَ وَالتَّنْصِرَةَ وَالْإِعَانَةَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فَكَانَ مَقَامُ هَؤُلَاءِ فِي الْعِبُودِيَّةِ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ، فَلَا جَرَمَ أُولَئِكَ فَازُوا بِبَعْضِ الثَّوَابِ، وَهَؤُلَاءِ فَازُوا بِالْكُلِّ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾: أَيِ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ كَمَا تُؤْذَنُ بِهِ (الْفَاءُ). ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: أَيِ النَّصْرِ، وَالْغَنِيمَةِ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْفَتْحُ وَالظُّهُورُ وَالتَّمَكُّنُ وَالتَّصَرُّ عَلَى عَدُوِّهِمْ. قِيلَ: وَتَسْمِيَةُ ذَلِكَ ثَوَابًا؛ لِأَنَّهُ مُتَرَتَّبٌ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَفِيهِ إِجْلَالٌ لَهُمْ وَتَعْظِيمٌ. وَاسْتَشْكَلَ تَفْسِيرُ ابْنِ جُرَيْجٍ: بِأَنَّ الْعَنَائِمَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بَلْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ إِذَا غَنِمُوا مَا لَا جَاءَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحَدَتْهُ فَكَيْفَ تَكُونُ الْغَنِيمَةُ ثَوَابًا دُنْيَوِيًّا وَلَمْ يَصِلْ لِلْغَانِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ؟! وَأُجِيبَ: بِأَنَّ الْمَالَ الَّذِي تَأْخُذُهُ النَّارُ غَيْرُ الْحَيَوَانِ، وَأَمَّا الْحَيَوَانُ فَكَانَ يَبْقَى لِلْغَانِمِينَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ . عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .، فَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الثَّوَابُ الدُّنْيَوِيُّ. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: أَيِ وَثَوَابِ الْآخِرَةِ الْحَسَنَ، وَهُوَ عِنْدَ ابْنِ جُرَيْجٍ: رِضْوَانُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ. وَعِنْدَ قَتَادَةَ: هِيَ الْجَنَّةُ. وَتَخْصِيصُ الْحَسَنِ بِهَذَا الثَّوَابِ؛ لِلْإِيذَانِ بِفَضْلِهِ وَمَزِيدِهِ وَأَنَّهُ الْمُعْتَدُّ بِهِ عِنْدَهُ تَعَالَى، وَلَعَلَّ تَقْدِيمَ ثَوَابِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ مُرَاعَاةً لِلتَّرْتِيبِ الْوُقُوعِيِّ، أَوْ لِأَنَّهُ أَنْسَبُ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الدُّعَاءِ بِالنَّصْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: أَيِ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَفَهْرُ الْعَدُوِّ، وَالثَّنَاءُ الْجَمِيلُ، وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَكَفَارَةُ السَّيِّئَاتِ. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: أَيِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ. وَتَخْصِيصُ وَصْفِ الْحُسَنِ بِثَوَابِ الْآخِرَةِ؛ لِلْإِيذَانِ بِفَضْلِهِ وَمَزِيدِهِ، وَأَنَّهُ الْمُعْتَدُّ بِهِ عِنْدَهُ تَعَالَى، بِخِلَافِ الدُّنْيَا؛ لِقِلَّتِهَا

وامتزاجها بالمضار، وكونها منقطعة زائلة. وقال ابن عاشور: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ إِعْلَامٌ بِتَعْجِيلِ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِمْ لِحُصُولِ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَثَوَابُ الدُّنْيَا هُوَ: الْفَتْحُ وَالْغَنِيمَةُ. وَثَوَابُ الْآخِرَةِ هُوَ: مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ عَاقِبَةِ الْآخِرَةِ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾؛ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وقال العثيمين: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: لم يقل: ثواب الآخرة، بل قال: حسن؛ لأن ثواب الآخرة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وليس ثواب مكافأة فقط، إذ لو كان ثواب مكافأة فقط لكان الحسنة بمثلها، لكنه ثواب حُسن وفضل. هذا وجه. والوجه الثاني: أنه لم يعبر عن ثواب الدنيا بالحسن؛ لأن الدنيا مهما كانت فهي دار شقاء وعناء وكدر، لا يمكن أن يخلو صفوها من كدر؛ ولهذا لم يقل: حسن ثواب الدنيا؛ إذ إنه إن كان حسناً فهو حسن نسبي وإلا ففيه حسن لا شك، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، لكنه أمر نسبي حتى المنعمون بالنعمة تجدهم أحياناً يأتيهم ما ينغص عليهم هذه النعمة. وقوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: يعني يوم القيامة، وذلك برفعة الدرجات في جنات النعيم، والنجاة من دركات الجحيم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: قال مكِّي: أثنى عليهم أنهم محسنون وأن الله يحبهم. وقال الرازي: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: فِيهِ دَقِيقَةٌ لَطِيفَةٌ: وَهِيَ أَنَّ هَؤُلَاءِ اعْتَرَفُوا بِكَوْنِهِمْ مُسِيئِينَ حَيْثُ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، فَلَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ مُحْسِنِينَ. وقال أبو حيان: قَدْ فَسَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِحْسَانَ بِأَنَّهُ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ..". متفق عليه. وَفَسَّرَهُ الْمُفَسِّرُونَ هُنَا بِأَحَدِ قَوْلَيْنِ: وَهُوَ مَنْ أَحْسَنَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فِي لُزُومِ طَاعَتِهِ، أَوْ مَنْ ثَبَتَ فِي الْقِتَالِ مَعَ نَبِيِّهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَغْلِبَ. وقال أبو السعود: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ مَبْدَأُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ. وَ(اللَّامُ) إمَّا لِلْعَهْدِ، وَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ؛ إِذَا نَأَى بَيْنَ مَا حُكِيَ عَنْهُمْ

مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ، وَإِمَّا لِلْجِنْسِ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَفِيهِ عَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ
 تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْصِيلِ مَا حُكِيَ مِنَ الْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا حُكِيَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ. وَقَالَ
 السَّعْدِيُّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: أَيِ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ وَمَعَامَلَةِ الْخَلْقِ، وَمِنْ الْإِحْسَانِ:
 أَنْ يَفْعَلَ عِنْدَ جِهَادِ الْأَعْدَاءِ، كَفَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَجُمْلَةُ ﴿وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تَذْيِيلٌ، أَيْ يُحِبُّ كُلَّ مُحْسِنٍ. وَمَوْقِعُ التَّذْيِيلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَحَدِّثَ
 عَنْهُمْ هُمْ مِنَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا، فَ(الْأَمْ) لِلْجِنْسِ الْمَفِيدِ مَعْنَى الْإِسْتِغْرَاقِ، وَهَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ
 الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ (ال) الْجِنْسِيَّةَ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى جَمْعٍ أَبْطَلَتْ مِنْهُ مَعْنَى الْجُمُعِيَّةِ، وَأَنَّ
 الْإِسْتِغْرَاقَ الْمَفَادَ مِنْ (ال) إِذَا كَانَ مَدْخُولُهَا مُفْرَدًا وَجُمْلَةً سَوَاءً. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: يَعْنِي أَنَّهُمْ هُمْ مُحْسِنُونَ فَأَحَبَّهُمُ اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ مَقْتَضَى مُحَبَّتِهِ لَهُمْ هَذَا
 الثَّوَابُ الْحَاصِلُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُحِبُّ﴾: الْحُبُّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ
 حَقِيقَةٌ، فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ حَقِيقَةً، وَلَيْسَتْ مُحَبَّتُهُ بِمَعْنَى الثَّوَابِ أَوْ الْجَزَاءِ كَمَا قَالَ بَعْضُ
 أَهْلِ التَّحْرِيفِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَشْمَلُ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالْمُحْسِنِينَ إِلَى
 عِبَادَةِ اللَّهِ، أَمَّا الْمُحْسِنُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَقَدْ بَيَّنَّ الرَّسُولُ ﷺ كَيْفَ يَكُونُ الْإِحْسَانُ: فَقَالَ
 حِينَ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ الْإِحْسَانِ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ
 تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، يَعْنِي أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ طَلِبًا مَعَ الْيَقِينِ التَّامِّ، فَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ
 الدَّرَجَةِ فَلَا أَقْلَ مِنَ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ هَرْبًا، تَعْبُدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاكَ فَتَهْرَبُ مِنْ
 عِقَابِهِ بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، فَالْإِحْسَانُ حَقِيقَةٌ يَشِيرُ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى أَنَّهُ نَوْعَانِ: إِحْسَانُ
 بِطَلَبٍ، وَإِحْسَانُ بِهَرَبٍ. الْأَوَّلُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَتَطْلُبُهُ طَلِبَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.
 وَالثَّانِي: كَأَنَّهُ يَرَاكَ فَتَخَافُهُ وَتَحْشَاهُ وَتَعْظُمُهُ، وَالْأَوَّلُ أَكْمَلُ مِنَ الثَّانِي. هَذَا هُوَ الْقَوْلُ
 الرَّاجِحُ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ مَرْتَبَةٌ وَاحِدَةٌ، وَأَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ لَمْ
 تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، فَالْجُمْلَتَانِ قَرِيبَتَانِ مِنَ التَّرَادُفِ، وَالصَّوَابُ مَا

قلناه أولاً، وإذا كان يحبّ المحسنين، فإنه يترتب على محبة الله أشياء كثيرة، منها ما يكون في الدنيا ومنها ما يكون في الآخرة، فما يكون في الدنيا فإنّ الله إذا أحبّ الإنسان سدّد أعماله وخطواته وأقواله وأفعاله، هذا من فوائد محبة الله. ومن فوائد محبة الله: تيسير فعل الطاعة وترك المعصية، وذلك لأن الإنسان إذا أحبّ شيئاً طلب الوصول إليه، فإذا كان يحبّ المال طلب الوصول إلى المال بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، وإذا أحبّ شخصاً طلب الوصول إليه بمصاحبته ومصادقته، وإذا أحبّ أيّ شيء فإنه يطلب الوصول إليه، فإذا أحبّ الله العبد أحبّه العبد فطلب الوصول إليه. ومن فوائد محبة الله للعبد: أنّ الله يلقي في قلوب العباد محبته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. وفي الحديث: "إنّ الله إذا أحب عبداً نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إنّ الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض" رواه البخاري.

● قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩):

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّ هذه الآية من تمام الكلام الأوّل، وذلك لأنّ الكفار لما أُرْجِفُوا أنّ النبي ﷺ قد قُتِلَ، ودعا المنافقونَ بعضَ ضَعْفَةِ المسلمينَ إلى الكفر، منعَ الله المسلمينَ بهذه الآية عن الالتفاتِ إلى كلام أولئك المنافقين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

وقال القرطبي: لما أمر الله بالإقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء، حذّر طاعة الكافرين. وقال البقاعي: لما أمر الله بطاعته الموجبة للنصر والأجر وحتّم بمحبته للمحسنين، حذّر من طاعة الكافرين المُقْتَضِيَةِ لِلْخِذْلَانِ؛ رَغْبَةً فِي مُوَالَاتِهِمْ وَمُنَاصَرَتِهِمْ.

وقال الألوسي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شُرُوعٌ فِي زَجْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ الْكُفَّارِ بَيَانٍ مَضَارِّهَا إِثْرَ تَرْغِيْبِهِمْ فِي الْإِقْتِدَاءِ بِأَنْصَارِ الْأَنْبِيَاءِ . عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . بَيَانٍ فَضَائِلِهِ .

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾: قال مكِّي: هذه الآية تحذير من الله للمؤمنين أن يطيعوا المنافقين والكافرين بمحمد . صلى الله عليه وسلم . في أمر، أو يقبلوا منهم نصيحة، وأعلمهم أنهم إن قبلوا منهم ردوهم كافرين مثلهم، فيخسرون دنياهم وآخرتهم. وقال ابن الجوزي: في المراد بـ(الَّذِينَ كَفَرُوا) هنا أقوال: أحدها: أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُقَاتِلٍ. الثَّانِي: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. قَالُوا وَكَانُوا قَدْ أَمَرُوا الْمُسْلِمِينَ بِالرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ. وَمَعْنَى ﴿يَرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾: يَصْرِفُوكُمْ إِلَى الشَّرِّكَ. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾: أَي بِالْعُقُوبَةِ. وقال الرازي: ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: المراد أَبُو سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ كَبِيرَ الْقَوْمِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، قَالَ السُّدِّيُّ: المراد: أَبُو سُفْيَانَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَجَرَةَ الْفِتَنِ. وقال آخَرُونَ: المراد: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَاتِّبَاعُهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَلْقُوا الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ الضَّعَفَةِ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ مَا وَقَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ كَسَائِرِ النَّاسِ، يَوْمٌ لَهُ وَيَوْمٌ عَلَيْهِ، فَارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ. وقال آخَرُونَ: المراد: الْيَهُودُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانُوا يُلْقُونَ الشُّبُهَةَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ وَقُوعِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ. وَالْأَقْرَبُ: أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ كُلَّ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ، وَحُصُوصُ السَّبَبِ لَا يَمْنَعُ مِنْ عُمُومِ اللَّفْظِ. قَوْلُهُ: ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى طَاعَتِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّخْصِصِ، فَقِيلَ: إِنَّ تَطِيعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوكُمْ بِهِ يَوْمَ أَحُدٍ مِنْ تَرْكِ الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: إِنَّ تَطِيعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَكُمْ مِنَ الضَّلَالِ. وَقِيلَ: فِي الْمَشُورَةِ. وَقِيلَ: فِي تَرْكِ الْمَحَارَبَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ كَانُوا

عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا» [آل عمران: ١٥٦]. ﴿يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾: يَعْنِي يُرْذُوكُمْ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ قَبُولَ قَوْلِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْكُفْرِ كُفْرٌ. ﴿فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ﴾: اعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّفْظَ لَمَّا كَانَ عَامًّا وَجَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ حُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا حُسْرَانُ الدُّنْيَا؛ فَلِأَنَّ أَشَقَّ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْعُقَلَاءِ فِي الدُّنْيَا الْإِنْتِقَادُ لِلْعَدُوِّ وَالتَّذَلُّلُ لَهُ وَإِظْهَارُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَأَمَّا حُسْرَانُ الْآخِرَةِ فَالْحِرْمَانُ عَنِ الثَّوَابِ الْمُؤَبَّدِ وَالْوُقُوعُ فِي الْعِقَابِ الْمَحْدَلِّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يَعْنِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ: أَبَا سُفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ وَقِيلَ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. وَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْهَزِيمَةِ: ارْجِعُوا إِلَى دِينِ آبَائِكُمْ. ﴿يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾: أَيَّ إِلَى الْكُفْرِ. ﴿فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ﴾: أَيَّ فَتَرْجِعُوا مَغْبُورِينَ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يُحَذِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ وَالتَّنْبِيهِ؛ لِإِظْهَارِ الْإِعْتِنَاءِ بِمَا فِي حَيْزِهِ. وَوَصَفُهُمْ بِالْإِيمَانِ؛ لِتَذَكِيرِهِمْ بِحَالِ يُنَافِي تِلْكَ الطَّاعَةَ فَيَكُونُ الرَّجْرَجُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ. وَالْمِرَادُ مِنَ (الَّذِينَ كَفَرُوا): إِمَّا الْمُنَافِقُونَ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ - كَمَا رَوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْهَزِيمَةِ: ارْجِعُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ وَادْخُلُوا فِي دِينِهِمْ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ قَصْدًا إِلَى مَزِيدِ التَّنْفِيرِ عَنْهُمْ وَالتَّحْذِيرِ عَنْ طَاعَتِهِمْ. وَإِمَّا أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ، وَحِينَئِذٍ فَالْمِرَادُ بِإِطَاعَتِهِمْ: الْإِسْتِكَانَةُ لَهُمْ وَطَلَبُ الْأَمَانِ مِنْهُمْ، وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ السُّدِّيُّ. وَإِمَّا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَالْمِرَادُ حِينَئِذٍ: لَا تَنْتَصِحُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى دِينِكُمْ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ بِشَيْءٍ فِي ذَلِكَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَحَكَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُلْقَوْنَ إِلَيْهِمُ الشُّبُهَةَ فِي الدِّينِ وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا حَقًّا لَمَا غُلِبَ، وَلَمَّا أَصَابَهُ وَأَصْحَابُهُ مَا أَصَابَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ يَوْمًا عَلَيْهِ وَيَوْمًا لَهُ، فَفُتُّوا عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا سَائِرُ الْكُفَّارِ، وَذَهَبَ إِلَى جَوَازِ ذَلِكَ: بَعْضُ الْمُبْتَاحِينَ. وَأُتِيَ بِ(إِنْ)؛ لِلْإِيزَانِ بِأَنَّ الْإِطَاعَةَ بَعِيدَةُ الْوُقُوعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ثَمَرَةُ الْآيَةِ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أَنْ لَا يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ الْكُفَّارِ، وَلَا يُطِيعُوهُمْ، وَلَا يَقْبَلُوا مَشُورَتَهُمْ؛ خَشْيَةً أَنْ يَسْتَنْزِلُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. وقال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ استئناف ابتدائي؛ لِلانْتِقَالِ مِنَ التَّوْبِيخِ وَاللَّوْمِ وَالْعِتَابِ إِلَى التَّحذِيرِ؛ لِيَتَوَسَّلَ مِنْهُ إِلَى مُعَاوَدَةِ التَّسْلِيَةِ عَلَى مَا حَصَلَ مِنَ الْهَزِيمَةِ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ، مِنَ الْحَقَائِقِ الْحُكْمِيَّةِ وَالْمَوَاعِظِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْعِبَرِ التَّارِيخِيَّةِ مَا لَا يُحْصِيهِ مُرِيدُ إِحْصَائِهِ. وَالطَّاعَةُ تُطْلَقُ عَلَى: امْتِثَالِ أَمْرِ الْأَمْرِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَعَلَى الدُّخُولِ تَحْتَ حُكْمِ الْغَالِبِ، فَيُقَالُ: طَاعَتْ قَبِيلُهُ كَذَا، وَطَوَعَ الْجَيْشُ بِلَادَ كَذَا. (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) شَائِعٌ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ أَنْ يُرَادَ بِهِ: الْمُشْرِكُونَ، وَاللَّفْظُ صَالِحٌ بِالْوَضْعِ لِكُلِّ كَافِرٍ مِنْ مُشْرِكٍ وَكِنَانِيٍّ، مُظْهِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ. وَالرَّدُّ عَلَى الْأَعْقَابِ: الْإِرْتِدَادُ، وَالْإِنْقِلَابُ: الرَّجُوعُ، فَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ أَرَادَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: تَحذِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ يُخَامِرَهُمْ خَاطِرُ الدُّخُولِ فِي صُلْحِ الْمُشْرِكِينَ وَأَمَانِهِمْ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِظْهَارَ الضَّعْفِ أَمَامَهُمْ، وَالْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا مَالُوا إِلَيْهِمْ اسْتَدْرَجُوهُمْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، بِإِظْهَارِ عَدَمِ كَرَاهِيَّةِ دِينِهِمْ الْمَخَالِفِ لَهُمْ، حَتَّى يَرْذُلُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى مِلَّتِهِمْ، فَالرَّدُّ عَلَى الْأَعْقَابِ عَلَى هَذَا يَحْصُلُ بِالْإِخَارَةِ وَالْمَالِ. وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ تَكُونُ الْآيَةُ مُشِيرَةً إِلَى تَسْفِيهِ رَأْيِي مَنْ قَالَ: لَوْ كَلَّمْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَأْخُذُ لَنَا أَمَانًا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانُمْ﴾. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ مِنَ الطَّاعَةِ: طَاعَةُ الْقَوْلِ وَالْإِشَارَةِ، أَيْ الْإِمْتِثَالُ، وَذَلِكَ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا مَا قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ. وَمَعْنَى الرَّدِّ عَلَى الْأَعْقَابِ فِي هَذَا الْوَجْهِ أَنَّهُ يَحْصُلُ مُبَاشَرَةً فِي حَالِ طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُمْ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: صَدَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ بِالنِّدَاءِ، وَالتَّصْدِيرَ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى الْعَنَاءِ بِمَا سَيُوجَّهُ لِلْمَخَاطَبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَفِيدُ التَّنْبِيهَ، وَلَا يَنْبَغُ الْإِنْسَانُ إِلَّا لشيءٍ مَهْتَمٌّ بِهِ. فَإِذَا وَجَّهَ اللَّهُ الْخُطَابَ، أَوْ إِذَا صَدَّرَ الْخُطَابَ بِالنِّدَاءِ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْعَنَاءِ بِهِ لِأَهْمِيَّتِهِ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى الْعِبَادِ بِاسْمِ الْإِيمَانِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَالْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ: أَوَّلًا: الْإِغْرَاءُ وَالتَّشْجِيعُ عَلَى قَبُولِ

ما يلقي؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على قبول ما أمره الله به وعلى ترك ما نهي الله عنه؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا قال الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه". ويفيد أيضًا فائدة ثانية، وهي: أن قبول المذكور من مقتضيات الإيمان، كما أنك لو وجهت إلى شخص كريم وقلت له: يا أيها الكريم، أعط الفقير وأعن المحتاج، فهو يدلّ على أن إعطاء الفقير وإعانة المحتاج من مقتضى كرمه، إذاً قبول ما يأتي بعد هذا الخطاب يكون من مقتضى الإيمان. الفائدة الثالثة أو الغرض الثالث: أن عدم قبوله نقص في الإيمان؛ لأنه إذا وجّه الخطاب إلى إنسان بلفظ الإيمان ولكن لم يمثل فهذا نقص في إيمانه؛ لأن ما يأتي بعد النداء بـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) إما مأمور به، أو منهي عنه، أو مخبر به، فترك المأمور به نقص في الإيمان، والوقوع في المحذور نقص في الإيمان، والتكذيب بالخبر نقص في الإيمان. استمع إلى هذا الخبر من الله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: (إِنْ) هنا شرطية، وفعل الشرط ﴿تُطِيعُوا﴾: مجزوم بحذف النون، و(الواو) فاعل؛ لأنه من الأفعال الخمسة. أما جواب الشرط فهو قوله: ﴿يُرَدُّوكُمْ﴾ وهو مجزوم بحذف النون والواو فاعل. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: مجزوم بحذف النون، وإذا هناك أمر موجّه من الكفار إلى المؤمنين؛ لأن الطاعة تقابل الأمر، أو نهي موجّه من الكافرين إلى المؤمنين يأمرهم بالفحشاء وينهونهم عن المعروف، فإن أطمعهم في ذلك فالجواب: يرُدُّوكم على أعقابكم. وقوله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عامة تشمل اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة الذين ليس لهم دين ولا يتعبّدون بشيء، أيّ واحد من الكفرة إذا أمرك بشيء فأطعته فإنه يرّدك على أعقابك فتقلب خاسرًا. وقوله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي فيما يتعبّد به الله، أما في المسائل الأخرى كمسائل الصناعة مثلاً فإنه لا يدخل في الآية بلا شك، فلو أن مهندسًا من الكفار أمرك أن تصنع كذا لتكون النتيجة كذا فإنه لا يدخل في الآية، إنما يقصد به ما يكون على سبيل التعبّد، كأن يأمرك بالفحشاء مثل شرب الخمر والسرقة وسوء الأخلاق، أو

ينهاك عن المعروف؛ ينهاك عن الصلاة، أو ينهاك عن الإخلاص لله وما أشبه ذلك. ﴿أَعْقَابِكُمْ﴾: الأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخرة القدم، ويقال له: العرقوب. يعني: يجعلونكم تمشون على الخلف، ومعلوم أنّ الذي يمشي على الخلف سوف يقع في الحفر ويطأ الشوك والحصى، وهذا قريب من قوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المالك: ٢٢]. ﴿فَتَنَقَّلُوا﴾: الانقلاب يقتضي التحول من حال إلى حال؛ ولهذا يقال: انقلب في فراشه من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر. إذاً هناك تحول من حال إلى أخرى إذا أطعنا هؤلاء الكفار. وقوله: ﴿خَاسِرِينَ﴾: هذه حال من (الواو) في قوله: ﴿فَتَنَقَّلُوا﴾، أي تكونوا في خسارة بعد أن كنتم في ربح؛ لأن الإيمان ربح. ﴿فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ﴾؛ لأنكم تحولتم من الإسلام إلى الكفر، وفي آية أخرى سبقت قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، فهنا قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهناك قال: ﴿فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ لأن الذين أوتوا الكتاب بعضهم فيه خير، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وأما الكفار فكل الكافرين يريدون منا أن نكفر، وأن نقلب على أعقابنا خاسرين.

● قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾:

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: ولما كان التقدير: فلا تطيعوهم، إثم ليسوا صالحين للولاية مطلقاً ما دُمتم مؤمنين، عطف عليه قوله: ﴿بَلِ اللَّهِ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: قال مكّي: أي بل الله وليكم ينقذكم من طاعة الكافرين التي تردكم فأطيعوه ولا تستنصروا بغيره فهو خير من استنصرتكم به. وقال ابن

الجوزي: أي وليكم ينصركم عليهم، فاستغنوا عن موالاة الكفار. وقال الرازي: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: المعنى: أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبيكم وهذا جهل؛ لأنهم عاجزون متحيزون، والعاقِل يطلب النصرة من الله؛ لأنه هو الذي ينصركم على العدو ويدفع عنكم كيده، ثم بين أنه خير الناصرين، ولو لم يكن المراد بقوله: ﴿مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ النصرة، لم يصح أن يتبعه بهذا القول، وإنما كان تعالى خير الناصرين لوجه: الأول: أنه تعالى هو القادر على نصرتك في كل ما تريد، والعالم الذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرعك، والكريم الذي لا يبخل في جوده، ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في كل هذه الوجوه: الثاني: أنه ينصرك في الدنيا والآخرة، وغيره ليس كذلك. الثالث: أنه ينصرك قبل سؤالك ومعرفتك بالحاجة، كما قال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] وغيره ليس كذلك. واعلم أن قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون من جنس سائر الناصرين وهو منزه عن ذلك، لكنه ورد الكلام على حسب تعارفهم كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرؤم: ٢٧]. وقال القرطبي: أي متولي نصركم وحفظكم إن أطعتموه. وقال الثعالبي: هذا تثبيت لهم. وقال البقاعي: ﴿بَلِ اللَّهِ﴾: أي الملك الأعظم. ﴿مَوْلَاكُمْ﴾: مخبراً بأنه ناصرهم، وأن نصرة لا يساويه نصر أحد سواه بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: أي لأن من نصرة سبب له جميع أسباب النصر، وأزال عنه كل أسباب الخذلان؛ فمنع غيره من إذلاله. وقال أبو حيان: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ (بل): لتترك الكلام الأول من غير إبطال وأخذ في كلام غيره. والمعنى: ليس الكفار أولياء في شيء، بل الله مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: لما ذكر أنه مولاكم، أي ناصرهم ذكر أنه خير ناصر لا يحتاج معه إلى نصرة أحد، ولا ولايته. وفي هذا دلالة على أن من قاتل لنصر دين الله لا يؤخذ ولا يغلب؛ لأن الله مولاؤه. وقال أبو السعود: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾: إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصرهم لا غيره

فَأَطِيعُوهُ وَاسْتَعْنُوا بِهِ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ. ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فَخُصُّهُ بِالطَّاعَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ. وقال الشوكاني: قَوْلُهُ: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ إِضْرَابٌ عَنْ مَفْهُومِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى، أَيْ إِنَّ تَطِيعُوا الْكَافِرِينَ يَخْذُلُوكُمْ وَلَا يَنْصُرُوكُمْ، بَلِ اللَّهِ نَاصِرُكُمْ لَا غَيْرُهُ. وقال الألوسي: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ الْقَوِيُّ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَالنَّاصِرُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَصَّ بِالطَّاعَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ. وَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا. وقال العثيمين: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾: (بل) هنا للإضراب الإبطائي، لكنّه إبطال شيءٍ مقدّر؛ لأن طاعتنا للكفار تكون لرجاء أو خوف، يعني نحن لو أطعنا الكفار فإمّا أن نطيعهم رجاء، وإمّا أن نطيعهم خوفاً، رجاء أن ينصرونا أو يمدّونا بالمال وما أشبه ذلك، أو خوفاً من أن يسطوا علينا وأن يحاربونا ويقاتلونا. هنا حسن الإضراب تماماً، فقال: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾: يعني لا تطيعوهم وتتولّوهم فإنّ لكم من هو خير من ولايتهم وهو الله؛ ولهذا يعتبر هذا الإضراب إضراباً إبطائياً لشيءٍ مقدّر ﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أجل أن يكونوا لكم أولياء فإنهم سوف ﴿يَزِيدُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَاسِرِينَ﴾، ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ إذا كان الله مولانا فإنه لا يهملنا أحد من الخلق ما دما نؤمن بأن الله هو مولانا بما معنا من الأوصاف التي نستحقّ بها الولاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولن يهملونا أبداً مهما كانوا من القوّة، ومهما كانوا من الصناعة، ومهما كانوا من المال؛ لأن معنا الله وهو الذي يقول للشيء: كن فيكون، ولكن الله يأمرنا أن نقاتل بأيدينا، فإذا أعتينا القدرة مع القيام بما يجب حينئذ جاءنا نصر من الله لا قبل للبشر به، وهذه حقيقة يجب أن نفهمها. نحن مأمورون بأن نعدّ العدة وأن نقاتل، لكن إذا جاءنا من لا طاقة لنا به حينئذ يأتي نصر من الله ليس لنا به طاقة ولا لغيرنا، وله شواهد في التاريخ، فموسى عليه السلام . لما خرج من مصر وكان فرعون قد جمع له جميع أهل المدائن، كلّ المدن جميعهم من أجل القضاء على موسى وقومه وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]؛ ليخفف شأنهم عند قومه حتى يستعدوا ويهملوا بالقضاء عليهم، ووصلوا إلى البحر، وليس للإنسان

طاقة بالبحر؛ ولهذا قال قوم موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ لأن البحر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم فكيف ينجون منهم؟ قال: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأمره سبحانه أن يضرب البحر فضربه مرة واحدة بعصا تحمل باليد، فانفلق اثني عشر طريقًا يبسًا بلحظة، هذه الأرض الرطبة التي هي وحل وطن صارت بلحظة يبسًا، وها هو الماء السيل صار كل فرق منه كالطود العظيم كالجبل، جبال واقفة ليست سيالة، فمن كان الله مولاه فهو منصور؛ ولهذا قال هنا: لا تراءوا الكافرين ولا تطيعوهم استجلاً للناصر أو خوفاً منهم؛ لأن لكم ولياً أعظم منهم وهو الله. و﴿خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: يعني خير من ينصر، بل هو أعظم الناصرين وأقدرهم وأقواهم عز وجل.

- قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾:
- سبب نزول الآية: قال السمعاني: سبب نزول الآية: أن الهزيمة لما وقعت على المسلمين يوم أحد، ووقع القتل فيهم، تشاور المشركون فيما بينهم، وأجمعوا على أن يعودوا للقتال، فيستأصلوا محمدًا وأصحابه، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فمروا على وجوههم لا يلبون على شيء حتى بلغوا مكة، فذلك قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.
- مناسبة الآية لما قبلها: قال الرازي: اعلم أن هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره، فإنه تعالى ذكر وجوهاً كثيرة في الترغيب في الجهاد وعدم المبالاة بالكفار، ومن جملتها ما ذكر في هذه الآية، أنه تعالى يلقي الخوف في قلوب الكفار، ولا شك أن ذلك مما يوجب استيلاء المسلمين عليهم.

• تفسير الآية:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: قال السمرقندي: معنى الآية: سنلقي الهيبة في قلوب المشركين، وذلك بعد هزيمة المؤمنين،

قذف الله في قلوب الذين كفروا الرعب، فانهزموا إلى مكة. ويقال: حين صعد خالد بن الوليد الجبل، قصد رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله فرجع خالد منهزماً. ويقال: عني به يوم الأحزاب، ألقى في قلوبهم الرعب فانهزموا. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: يعني بأنهم أشركوا بالله. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: يعني كتاباً فيه عذر وحجة لهم بالشرك. وقال الواحدي: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: قال المفسرون: هذا وعد من الله للمؤمنين، بخذلان أعدائهم بالرعب. والإلقاء: أصله في الأعيان، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ﴿فَأَلْقُوا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، ويُسْتَعْمَلُ في غير الأعيان توسعاً، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]، ويقال: ألقى عليه مسألة. ومثل الإلقاء في أنه يُسْتَعْمَلُ في الأعيان حقيقة، وفي غير الأعيان توسعاً: (القذف)، و(الرجم)، و(الرمي)، يقال: (رماه بالزنا)؛ قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦]، أي بالزنا. وهذا اتساع؛ لأن هذا ليس بعين، وكذلك: (القذف). وقوله تعالى: ﴿الرُّعْبَ﴾ بمعنى: الروع. يقال: (رَعْبَتُهُ رَعْبًا، وَرُعْبًا) لغتان، فهو (مرعوب)، و(رعيب). ويجوز أن يكون (الرعب) مصدرًا، و(الرعب) اسم منه، وهو: الخوف الذي يحصل في القلب. (رَعْبْتُ الشَّيْءَ، أَرَعْبُهُ رَعْبًا). و(سَيْلٌ رَاعِبٌ): يملأ الأودية والأنهار، ثم قالوا: (رَعْبَتُهُ فَارْتَعَبَ)، أي أفرغته ففرغ، كأنك قلت: ملأت قلبه فرغًا. ومعنى الآية: يملأ قلوبهم فرغًا. وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: (ما) ليست بموصولة؛ لأنها للمصدر، أي بإشراكهم بالله. و(الباء) في ﴿بِاللَّهِ﴾، من صلة معنى الإشراك، لا لفظه؛ لأن لفظ الإشراك لا يقتضي (الباء). قال الأزهري: إِنَّمَا دَخَلَتْ (الباء) في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]؛ لأن معناه: لا تعدل به غيره، فتجعله شريكاً له، وذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾، أي بما عدلوا بالله، ومن عدل بالله شيئاً من خلقه، فهو كافر. وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: أي حجة، وبياناً. و(السُّلْطَانُ) معناه: الحجة في قول أكثر المفسرين وأهل اللغة. قال الزجاج: واشتقاق (السُّلْطَانِ) من (السَّليط)، وهو ما

يُضَاءُ به السِّرَاجُ. وقيل للأمرء: سلاطين؛ لأنهم الذين يُقَامُ بهم الحُجُجُ والحُقُوقُ. وقال في موضع آخر: السُّلْطَانُ في اللغة: الحُجَّةُ. وإِنَّمَا قيل للخليفة والأمير: (سُلْطَان)؛ لأن معناه: أنه ذو الحُجَّةِ. والعَرَبُ تُؤَنِّثُ (السلطان) وتُذَكِّرُ، فتقول: (قَضَتْ بِهِ عَلَيْكَ السُّلْطَانُ)، و(أَمَرْتُكَ السُّلْطَانُ)، أي قَضَتْ بِهِ عَلَيْكَ الحُجَّةُ، وَقَضَتْ بِهِ عَلَيْكَ حُجَّةُ الْوَالِي. وَمَنْ قَالَ: (قَضَى بِهِ عَلَيْكَ السُّلْطَانُ) ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى: (صَاحِبُ السُّلْطَانِ)، أي صاحب الحُجَّةِ. وجائزٌ أَنْ يَذْهَبَ بِ(السُّلْطَانِ) إِلَى مَعْنَى: الاحتجاج والبرهان. قال ابن السِّكِّيتِ: السُّلْطَانُ: مُؤَنَّثَةٌ، يُقَالُ: (قَضَتْ بِهِ عَلَيْهِمُ السُّلْطَانُ)، وقد (أَمَتَهُ السُّلْطَانُ). قال الأزهريُّ: وَرَبَّمَا ذُكِّرَ (السُّلْطَانُ)؛ لِأَن لَفْظَهُ مُذَكَّرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. وقال اللَّيْثُ: السُّلْطَانُ: الْقُدْرَةُ. يُقَالُ: (جَعَلْتُ لِفُلَانٍ سُلْطَانًا عَلَى كَذَا)، و(النُّونُ) فِيهِ زِيَادَةٌ؛ لِأَن أَصْلَ بِنَائِهِ مِنْ (التَّسْلِيْطِ)، وَعَلَى هَذَا: (سُلْطَانُ الْمَلِكِ): قُوَّتُهُ وَقُدْرَتُهُ. وَالسُّلْطَانُ: الْبُرْهَانُ؛ لِقُوَّتِهِ عَلَى دَفْعِ الْبَاطِلِ. وَالتَّسْلِيْطُ عَلَى الشَّيْءِ: التَّقْوِيَةُ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: سُلْطَانٌ كُلُّ شَيْءٍ: حَدَّثَهُ. مِنَ اللَّسَانِ السَّلِيْطِ الْحَدِيدِ. وَ(السَّلَاطَةُ)، بِمَعْنَى: الْحِدَّةِ. هَذَا كَلَامُ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي مَعْنَى (السلطان) واشتقاقه. قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ حُجَّةً وَلَا بَيَانًا فِي عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَالْإِشْرَاقُ بِهِ، فَهَمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ الْأَوْثَانَ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الْإِلْقَاءُ: الْقَذْفُ. وَالرُّعْبُ: الْخَوْفُ. وَالسُّلْطَانُ هَاهُنَا: الْحُجَّةُ فِي قَوْلِ الْجَمَاعَةِ. وَالْمَأْوَى: الْمَكَانُ الَّذِي يُؤْوَى إِلَيْهِ. وَالْمَتَوَى: الْمَقَامُ، وَالتَّوَى: الْإِقَامَةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالظَّالِمُونَ هَاهُنَا: الْكَافِرُونَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ هَلْ هُوَ مُحْتَصٌّ بِيَوْمٍ أَحَدٍ، أَوْ هُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ؟ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ مُحْتَصٌّ بِهَذَا الْيَوْمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جَمِيعَ الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنَّمَا وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، ثُمَّ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ ذَكَرُوا فِي كَيْفِيَّةِ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَزَمُوهُمْ أَوْقَعَ اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَتَرَكُوهُمْ وَقَرُّوا مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، حَتَّى رَوِيَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ

صَعِدَ الْجَبَلَ، وَقَالَ: أَيُّنَ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ؟، وَأَيُّنَ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ؟، وَأَيُّنَ ابْنَ الْخَطَّابِ؟، فَأَجَابَهُ عُمَرُ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا كَلِمَاتٌ، وَمَا تَجَاسَرَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ وَالذَّهَابِ إِلَيْهِمْ. الثَّانِي: أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ قَالُوا: مَا صَنَعْنَا شَيْئًا، فَتَلْنَا الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَرَكْنَاهُمْ وَنَحْنُ قَاهِرُونَ، ارْجِعُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ بِالْكَلْبَةِ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ أَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ غَيْرُ مُحْتَصٍ بِيَوْمٍ أَحَدٍ، بَلْ هُوَ عَامٌّ. قَالَ الْقَفَّالُ: كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَتْ لَكُمْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ فِي يَوْمٍ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَيُلْقِي الرُّعْبَ مِنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَقْهَرَ الْكُفَّارَ، وَيُظْهِرَ دِينَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ. وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ دِينَ الْإِسْلَامِ قَاهِرًا لِحَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالْمَلَلِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" رواه الشيخان. والرُّعْبُ: الْخَوْفُ الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ، وَأَصْلُ الرُّعْبِ: الْمَلَأُ، يُقَالُ: سَيْلٌ رَاعِبٌ إِذَا مَلَأَ الْأَوْدِيَةَ وَالْأَنْهَارَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْفَزَعُ رُعْبًا؛ لِأَنَّهُ يَمَلَأُ الْقَلْبَ خَوْفًا. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يَفْتَضِي وَفُوعَ الرُّعْبِ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، فَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى إِجْرَاءِ هَذَا الْعُمُومِ عَلَى ظَاهِرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ يُخَالِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ ضَرْبٌ مِنَ الرُّعْبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِمَّا فِي الْحَرْبِ، وَإِمَّا عِنْدَ الْمَحَاجَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لَا يَفْتَضِي وَفُوعَ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ، إِنَّمَا يَفْتَضِي وَفُوعَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَذَهَبَ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِأُولَئِكَ الْكُفَّارِ. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: اعْلَمْ أَنَّ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّهِ. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: السُّلْطَانُ هَاهُنَا هُوَ: الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ، وَفِي اسْتِثْقَائِهِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: قَالَ الرَّجَاجُ: إِنَّهُ مِنَ السَّلِيطِ وَهُوَ الَّذِي يُضَاءُ بِهِ السِّرَاجُ، وَقِيلَ لِلْأَمْرَاءِ سَلَاطِينُ؛ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ بِهِمْ يَتَوَصَّلُ النَّاسُ إِلَى تَحْصِيلِ الْحُقُوقِ. الثَّانِي: أَنَّ السُّلْطَانَ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْحُجَّةُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْأَمِيرِ: سُلْطَانٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ ذُو الْحُجَّةِ. الثَّالِثُ: قَالَ اللَّيْثُ: السُّلْطَانُ الْقُدْرَةُ؛ لِأَنَّ

أَصْلَ بِنَائِهِ مِنَ التَّسْلِيطِ، وَعَلَى هَذَا سُلْطَانُ الْمَلِكِ: قُوَّتُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَيُسَمَّى الْبُرْهَانُ سُلْطَانًا لِقُوَّتِهِ عَلَى دَفْعِ الْبَاطِلِ. الرَّابِعُ: قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: سُلْطَانُ كُلِّ شَيْءٍ حَدَّتُهُ، وَهُوَ مَأْخُودٌ مِنَ اللِّسَانِ السَّلِيطِ، وَالسَّلَاطَةُ بِمَعْنَى الْحِدَّةِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: أَيِ سَمَمًا لِقُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ خَوْفًا وَفَزَعًا. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ تَعْلِيلٌ، أَيِ كَانَ سَبَبُ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ: إِشْرَاكَهُمْ، وَ(مَا) لِلْمَصْدَرِ. وَيُقَالُ: أَشْرَكَ بِهِ، أَيِ عَدَلَ بِهِ غَيْرَهُ؛ لِيَجْعَلَهُ شَرِيكًا. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: أَيِ حُجَّةً وَبَيَانًا، وَعُذْرًا وَبُرْهَانًا، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلْوَالِي: سُلْطَانٌ؛ لِأَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ مَأْخُودٌ مِنَ السَّلِيطِ وَهُوَ مَا يُضَاءُ بِهِ السَّرَاجُ، وَهُوَ ذَهْنُ السِّمْسِمِ، فَالسُّلْطَانُ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ وَقَمْعِ الْبَاطِلِ. وَقِيلَ: السَّلِيطُ: الْحَدِيدُ. وَالسَّلَاطَةُ: الْحِدَّةُ. وَالسَّلَاطَةُ مِنَ التَّسْلِيطِ وَهُوَ: الْقَهْرُ، وَالسُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ، فَالتُّونُ زَائِدَةٌ. فَأَصْلُ السُّلْطَانِ: الْقُوَّةُ، فَإِنَّهُ يُقَهَّرُ بِهَا كَمَا يُقَهَّرُ بِالسُّلْطَانِ. وَالسَّلِيطَةُ: الْمَرْأَةُ الصَّحَابَةُ. وَالسَّلِيطُ: الرَّجُلُ الْفَصِيحُ اللَّسَانِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُ لَمْ تَثْبِتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَلَلِ، وَلَمْ يَدُلْ عَقْلٌ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: أَيِ هَوْلًا الْكُفَّارِ، وَإِنْ كَانُوا ظَاهِرِينَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّا نَحْذُهُمْ بِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ. وَآتَى بِ(السَّيْنِ) الْقَرِيْبَةَ الْإِسْتِقْبَالَ، وَكَذَا وَقَعَ. أَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَانْهَزَمُوا إِلَى مَكَّةَ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَهُمْ إِذْ ذَاكَ الْقُوَّةُ وَالْعَلْبَةُ. وَقِيلَ: ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالُوا: مَا صَنَعْنَا شَيْئًا، فَتَلْنَا مِنْهُمْ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمْ وَنَحْنُ قَاهِرُونَ، ازْجِعُوا فَاسْتَأْصِلُوهُمْ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ أَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَمْسَكُوا. وَالْإِلْقَاءُ حَقِيقَةُ فِي الْأَجْرَامِ، وَاسْتَعِيرَ هُنَا لِلْجَعْلِ، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَخَصَّنَاتِ﴾ [النور: ٤]. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا: (الْبَاءُ) لِلْسَبَبِ. وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، أَيِ سَبَبُ إِشْرَاكَهُمْ بِاللَّهِ آلِهَةً لَمْ يُنَزَّلْ بِإِشْرَاكِهَا حُجَّةٌ وَلَا بُرْهَانًا. وَتَسْلِيطُ النَّفْيِ عَلَى الْإِنْزَالِ وَالْمَقْصُودُ: نَفْيُ السُّلْطَانِ، أَيِ آلِهَةٍ لَا سُلْطَانَ فِي إِشْرَاكِهَا فَيُنْزَلُ. وَالْمَرَادُ: نَفْيُ السُّلْطَانِ وَالتَّنْزِيلُ مَعًا. وَكَانَ الْإِشْرَاكُ

بِاللَّهِ سَبَبًا لِلْإِلْقَاءِ الرَّعْبِ؛ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ وَيُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ، إِذْ لَمْ تَتَعَلَّقْ آمَالُهُمْ بِالْآخِرَةِ وَلَا بِثَوَابٍ فِيهَا وَلَا بِعِقَابٍ، فَصَارَ اعْتِقَادُهُمْ ذَلِكَ مُؤَثِّرًا فِي الرَّغْبَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا قَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ؛ إِذْ لَا بُرْهَانَ مَعَ الْمُقَلِّدِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: الرَّعْبُ بِالضَّمِّ: الْإِسْمُ، وَأَصْلُهُ: الْمَلَأُ، يُقَالُ: سَيَلَّ رَاعِبٌ، أَيُّ يَمَلَأُ الْوَادِيَّ، وَرَعَبْتُ الْحَوْضَ: مَلَأْتُهُ، فَالْمَعْنَى: سَنَمَلَأُ قُلُوبَ الْكَافِرِينَ رُعْبًا، أَيُّ خَوْفًا وَفَزَعًا. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿سُنْطَلْقِي﴾. وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: أَيُّ مَا لَمْ يُنَزَّلِ اللَّهُ بِجَعْلِهِ شَرِيكًا لَهُ حُجَّةً وَبَيَانًا وَبُرْهَانًا. وَالتَّقْيُّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْقَيْدِ وَالْمَقِيدِ، أَيُّ لَا حُجَّةَ وَلَا إِنْزَالَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ لَمْ يَتَّبَثْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَلَلِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنْطَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ كَالْبَيَانِ لِمَا قَبْلُ. وَعَبَّرَ بِنُونِ الْعِظَمَةِ عَلَى طَرِيقِ الْإِتْفَاتِ جَرِيًّا عَلَى سُنَنِ الْكِبْرِيَاءِ؛ لِتَرْيِيَةِ الْمَهَابَةِ. وَ(السَّيْنُ) لِتَأْكِيدِ الْإِلْقَاءِ. وَ(الرَّعْبُ) بِسُكُونِ الْعَيْنِ: الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ، أَيُّ سَنَقْذِفُ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَالْمِرَادُ مِنَ الْمُضْوَئِ: أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: أَيُّ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ بِالذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُسْتَجْمِعِ لْجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ؛ وَلِإِشْعَارِ هَذَا الْإِسْمِ بِالْعِظَمَةِ الْمُنَافِيَةِ لِلشَّرِكَةِ أَتَى بِهِ. وَالْجَارُّ الْأَوَّلُ مُتَعَلِّقٌ بِ(سُنْطَلْقِي) دُونَ (الرَّعْبِ)، وَلَا يَمْنَعُ مِنَ ذَلِكَ تَعَلُّقُ (فِي) بِهِ؛ لِاخْتِلَافِ الْمَعْنَى، وَالتَّانِي مُتَعَلِّقٌ بِمَا عِنْدَهُ، وَكَانَ الْإِشْرَاكَ سَبَبًا لِلْإِلْقَاءِ الرَّعْبِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مُوجِبَاتِ خِذْلَانِهِمْ وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ وَكِلَاهُمَا مِنْ دَوَاعِي الرَّعْبِ. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾: أَيُّ بِإِشْرَاكِهِ. وَقِيلَ: بِعِبَادَتِهِ. وَ(مَا) نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، أَوْ مَوْصُولَةٌ اسْمِيَّةٌ وَلَيْسَتْ مَصْدَرِيَّةً. ﴿سُلْطَانًا﴾: أَيُّ حُجَّةً، وَالْإِتْيَانُ بِهَا؛ لِلإِشَارَةِ بِأَنَّ الْمُتَبَعِ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ هُوَ الْبُرْهَانُ السَّمَائِيُّ دُونَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الْبَاطِلَةِ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ بِهَا يُتَّقَوَّى عَلَى الْخُصْمِ، وَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ، وَ(الثُّونُ) زَائِدَةٌ، وَقِيلَ: أَصْلِيَّةٌ، وَذَكَرَ عَدَمَ إِنْزَالِ الْحُجَّةِ مَعَ اسْتِحَالَةِ مُحَقِّقِهَا مِنْ بَابِ انْتِفَاءِ الْمُقَيَّدِ لِانْتِفَاءِ قَيْدِهِ اللَّازِمِ، أَيُّ لَا حُجَّةَ حَتَّى

يُنْزِلُهَا. وقال صديق خان: ﴿سُنْطَقِي﴾ بنون العظمة، وهو النفات عن الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾، وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه تعالى. ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: قَدَمُ المَجْرورِ عَلَى المَفْعُولِ به اهتماماً بذكر المحلّ قبل ذكر الحال. وقال القاسمي: ﴿سُنْطَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: أَي الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْهُجُومِ عَلَيْكُمْ وَالْإِفْدَامِ عَلَى حَرَمِكُمْ. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ﴾: أَي بِكَوْنِهِ إِلَهًا، أَوْ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِهِ، أَوْ مُسْتَحِقًّا لِلْعِبَادَةِ. ﴿سُلْطَانًا﴾: أَي حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ يَنْبَغِي عَلَيْهَا الْإِعْتِقَادَاتُ. لَطَائِفُ: الْأُولَى: أَفَادَتْ الْآيَةُ أَنَّ ذَلِكَ الرُّعْبَ بِسَبَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَعَلَى قَدْرِ الشِّرْكِ يَكُونُ الرُّعْبُ. قَالَ الْقَاشَانِيُّ: "جُعِلَ إلقاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ مُسَبَّبًا عَنْ شِرْكِهِمْ لِأَنَّ الشَّجَاعَةَ وَسَائِرَ الْفَضَائِلِ اعْتِدَالَاتٌ فِي قُوَى النَّفْسِ لِتَنْوَرِهَا بِنُورِ التَّوْحِيدِ، فَلَا تَكُونُ تَامَةً إِلَّا لِلْمُوحِّدِ الْمُوقِنِ فِي تَوْحِيدِهِ. وَأَمَّا الْمِشْرُكُ فَلَا تَهَّ مَحْجُوبٌ عَنْ مَنِيْعِ الْقُدْرَةِ بِمَا أَشْرَكَ بِاللَّهِ مِنَ الْمَوْجُودِ الْمَشُوبِ بِالْعَدَمِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ بِحَسَبِ نَفْسِهِ قُوَّةٌ، وَلَمْ يُنْزَلْ إِلَهُ بِوُجُودِهِ حُجَّةً، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْعَجْزُ وَالْجُبْنُ وَجَمِيعُ الرِّذَائِلِ". وَقَالَ الْقَقَالُ: "كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَتْ لَكُمْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ فِي يَوْمٍ أُحَدِّدُ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَيُلْقِي الرُّعْبَ مِنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، حَتَّى يَقْهَرَ الْكُفَّارَ، وَيُظْهَرَ دِينُكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ، حَتَّى صَارَ دِينُ الْإِسْلَامِ قَاهِرًا لَجَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالْمَلَلِ" انتهى. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ". الثَّانِيَةُ: فِي ذِكْرِ عَدَمِ تَنْزِيلِ الْحُجَّةِ. مَعَ اسْتِحَالَةِ تَحْقِيقِهَا فِي نَفْسِهَا. إِشْعَارٌ بِنَفْيِهَا وَنَفْيِ نُزُولِهَا جَمِيعًا؛ لِأَنَّ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا لَا سُلْطَانَ لَهُ. انتهى كلام القاسمي. وقال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿سُنْطَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ رُجُوعٌ إِلَى تَسْلِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَطْمِينِهِمْ، وَوَعْدِهِمْ بِالنَّصْرِ عَلَى

العدو. والإلقاء حقيقته: رمي شيء على الأرض، ﴿فَأَلْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، أو في الماء ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، ويُطْلَقُ عَلَى الْإِفْضَاءِ بِالْكَلَامِ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]، وعلى حُصُولِ الشَّيْءِ فِي النَّفْسِ كَأَنَّمُلَقِيًا أَلْقَاهُ، أَيُّ مِنْ غَيْرِ سَبَقَ تَهَيُّؤُهُ وَأَلْقَيْنَا الْعَدَاوَةَ وَالْبُعْضَاءَ وَهُوَ هُنَا: الْجَعْلُ وَالتَّكْوِينُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]. والرُّعْبُ: الْفَزَعُ مِنْ شِدَّةِ خَوْفٍ. وَ(الباءُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ لِلْعُوضِ، وَتُسَمَّى (باءُ) الْمُقَابَلَةِ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: هَذِهِ بَيْنَكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وَهَذَا جَزَاءُ دُنْيَوِيٍّ رَبَّنُهُ اللَّهُ عَلَى الْإِشْرَاقِ بِهِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى أَنْ رَبَّنَا عَلَى الْأُمُورِ الْحَبِيثَةِ آثَارًا حَبِيثَةً، فَإِنَّ الشِّرْكَ لَمَّا كَانَ اعْتِقَادَ تَأْثِيرٍ مِنْ لَا تَأْثِيرَ لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادُ يَرْتَكِزُ فِي نُفُوسٍ مُعْتَقِدِيهِ عَلَى غَيْرِ دَلِيلٍ، كَانَ مِنْ شَأْنِ مُعْتَقِدِهِ أَنْ يَكُونَ مُضْطَرَبَ النَّفْسِ مُتَحَرِّيًا فِي الْعَاقِبَةِ فِي تَعَلُّبِ بَعْضِ الْأَهْلَةِ عَلَى بَعْضٍ، فَيَكُونُ لِكُلِّ قَوْمٍ صَنَمٌ هُمْ أَحْصَوْهُ بِهِ، وَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِعَبِيدِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مِثْلُ مَا لَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْغَيْرَةِ، فَلَا تَزَالُ آلِهَتُهُمْ فِي مُغَالَبَةٍ وَمُنَافَرَةٍ، كَمَا لَا يَزَالُ أَتْبَاعُهُمْ كَذَلِكَ، وَالَّذِينَ حَالَهُمْ كَمَا وَصَفْنَا لَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ فِي التَّقَةِ بِالنَّصْرِ فِي حُرُوبِهِمْ؛ إِذْ هُمْ لَا يَدْرُونَ هَلِ الرِّبْحُ مَعَ آلِهَتِهِمْ أَمْ مَعَ أَضْدَادِهَا، وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ صِلَةٌ أُجْرِيَتْ عَلَى الْمَشْرِكِ بِهِ لَيْسَ الْقَصْدُ بِهَا تَعْرِيفُ الشُّرَكَاءِ، وَلَكِنْ قُصِدَ بِهَا الْإِيْمَاءُ إِلَى أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الْإِقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ؛ إِذْ هُمْ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ فِيمَا أَشْرَكُوا وَاعْتَقَدُوا، فَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ مُتَزَلِّزَةٌ؛ إِذْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الشُّرَكَاءَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ سُلْطَانٌ. فَإِنْ قُلْتُ: مَا ذَكَرْتُهُ يَفْتَضِي أَنَّ الشِّرْكَ سَبَبٌ فِي الْإِقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ، فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الرُّعْبُ نَازِلًا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْوَفْعَةِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿سَنُلْقِي﴾: أَيُّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، قُلْتُ: هُوَ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَسْتَكِرُّ فِي النَّفُوسِ حَتَّى يَدْعُو دَاعِي ظُهُورِهَا، فَالرُّعْبُ وَالشَّجَاعَةُ صِفَتَانِ لَا تَظْهَرَانِ إِلَّا عِنْدَ الْقِتَالِ، وَتَقْوِيَانِ وَتَضْعُفَانِ، فَالشَّجَاعُ تَزِيدُ شَجَاعَتُهُ بِتَكَرُّرِ الْإِنْتِصَارِ، وَقَدْ يَنْزَوِي

قَلِيلًا إِذَا انْهَزَمَ ثُمَّ تَعُوذُ لَهُ صِفَتُهُ سَرْعَى، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنْطَقِي﴾: أَيِ إِنْقَاءِ إِعَادَةِ الصِّفَةِ إِلَى النَّفْسِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ (السَّيْنِ) فِيهِ لِمُجَرَّدِ التَّكْيِيدِ أَيِ أَثْبَتْنَا وَنُتْقِي، وَيَنْدَفِعُ الْإِشْكَالُ. وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ؛ لِأَنَّهُ يَتَسَلَّطُ عَلَى النَّفْسِ، وَنُفْيِ تَنْزِيلُهُ وَأُرِيدَ نَفْيُ وَجُودِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِنَزَلَ أَيِ لِأَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْتُمِ النَّاسَ الْإِرْشَادَ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ اعْتِقَادٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، فَالتَّنْزِيلُ إِمَّا بِمَعْنَى الْوَحْيِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى نَصَبِ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِمْ: نَزَلَتِ الْحِكْمَةُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ وَعُقُولِ الْفُرْسِ وَأَيْدِي الصِّينِ، وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ لَا يَعْدُو هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُعْلَمَ بِالْوَحْيِ، أَوْ بِالْأَمَارَاتِ، كَانَ نَفْيِ تَنْزِيلِ السُّلْطَانِ عَلَى الْإِشْرَاقِ كِنَايَةً عَنْ نَفْيِ السُّلْطَانِ نَفْسِهِ. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿سُنْطَقِي﴾: الْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ. وَعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ تَعَالَى بِفِعْلِ يَقْتَضِي الْجَمْعَ مَرِيدًا بِذَلِكَ التَّعْظِيمِ، (أَيِ سُنْطَقِي نَحْنُ)، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ بِهِ إِلَّا ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَيْسَ مُتَعَدِّدًا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ أَحَدٌ بِخِلَافِ غَيْرِهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِشَخْصٍ: سَنَأْتِيكَ يَحْتَمِلُ أَنَّكَ أَرَدْتَ التَّعْظِيمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّكَ أَرَدْتَ الْجَمْعَ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ الْجَمْعُ الَّذِي هُوَ التَّعَدُّدُ، وَإِنَّمَا يَرَادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فَاللَّهُ هُوَ الْمَلْقِي لَكِنَّهُ يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَعَالَى أَحْيَانًا بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ، وَأَحْيَانًا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّهُ عَظِيمٌ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ لِمَا لَهُ مِنَ الْجُنُودِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، فَيَكُونُ هَذَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ ذُو عَظَمَةٍ وَسُلْطَانٍ وَجُنُودٍ تَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا. وَقَوْلُهُ: ﴿سُنْطَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: (السَّيْنِ) تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ وَتَفِيدُ أَمْرَيْنِ: الْقَرَبَ، وَالتَّحْقِيقَ. وَهِيَ تَفِيدُ التَّحْقِيقَ مِنْ وَجْهِ، وَتَفِيدُ الْقَرَبَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، بِخِلَافِ (سَوْفَ) فَإِنَّهَا تَفِيدُ التَّحْقِيقَ، وَتَفِيدُ الْإِمْهَالَ؛ وَلِهَذَا تَكُونُ (سَوْفَ) لِلتَّسْوِيفِ، وَ(السَّيْنِ) لِلتَّنْفِيسِ، أَيِ الْقَرَبِ. ﴿الرُّعْبَ﴾: الرُّعْبُ أَشَدُّ الْخَوْفِ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ اللَّهُ أَنَّهُ يَلْقِي الرُّعْبَ فِي الْقَلْبِ؛

لأن القلب إذا دخله الرعب فإنه لا يمكن أن يثبت البدن، ولو ثبت البدن أو حاول الإنسان الثبات فإن قلبه من شدة الرعب سوف يحمله عن الأرض حملاً ويفرّ ولا يمكن أن يبقى؛ ولهذا نجد بني النضير لما ألقى الله في قلوبهم الرعب ماذا صنعوا؟ الواحد منهم ينجو بنفسه، حتى إنهم كانوا من شدة خوفهم يحملون الأمتعة ويكسرون البيوت، يعني لا يقلعون الأبواب بتؤدة وطمأنينة من شدة الرعب الذي أصابهم. والرعب أقوى سلاح يكون على العدو، فإذا ألقى الله الرعب في قلوب العدو؛ فإنه لن يبقى. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: (الباء) هنا للسببية، أي بسبب شركهم بالله. و(مَا) يسميها العلماء: مصدرية، أي بشركهم، وعلامة (مَا) المصدرية أن يصح تحويل ما بعدها إلى مصدر. و﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾: أي بشركهم بالله، وحيث جعلوا الله تعالى شركاء، ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مع الله إنما جعلوهم شركاء في العبادة لا في الربوبية؛ ولهذا كان شرك العرب شركاً في الألوهية لا في الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ (٨٥) ﴿[المؤمنون]، فهم يقرّون بأن الله هو الخالق، وأن ما في الكون ملكه، لا ينكرون هذا، لكنهم يشركون في العبادة، فيعبدون مع الله غيره، ومع ذلك يدعون أنهم يعبدون هذه الأصنام؛ لتكون شفعاء لهم عند الله، فهم يقرّون أيضاً أنها دون مرتبة الله، لكن يعبدونها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] أي يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. يقول: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: (مَا) تحتل أن تكون اسماً موصولاً، أي الذي لم ينزل به سلطاناً. وتحتل أن تكون نكرة موصوفة، أي شيئاً لم ينزل به سلطاناً، والمعنى لا يختلف على التقديرين. وقوله: ﴿سُلْطَانًا﴾: أي حجة وبرهاناً. وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: القيد هنا لبيان الواقع، وليس للاحتراز، أي أنّ واقع هؤلاء الشركاء: أنه لا

سلطان لشركهم ولا دليل، وليس المعنى: أنهم يشركون ما لم ينزل به ولو أشركوا ما نزل به لكانوا على صواب، لا؛ لأنه لا يمكن أن يأتي سلطان أي حجة على أن الله له شركاء. فإذا قال قائل: ما الفائدة من ذكره هذا الوصف الذي يبين الواقع؟ قلنا: الفائدة في ذلك: إقامة الحجة على أنه ليس لهم دليل في إشراكهم به؛ لأنهم بنوا على غير سلطان وعلى غير حجة، إذا كان كذلك فالغرض من هذا: التنفير عن هذا الإشراك، عكس ذلك أن يأتي وصف لبيان الواقع من أجل الحث والإغراء على لزوم الحكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فإن الرسول ﷺ لا يدعو الخلق إلى ما يميتهم، وإنما يدعوهم إلى ما يحييهم. فالقيد إذاً لبيان الواقع، ولكن جيء به للحث والإغراء على إجابة دعوته، كما أن القيد الذي في الآية هذه: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ لبيان بطلان هذا الإشراك وأنه ليس له دليل. قال: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. واعلم أن السلطان ما كان له سلطة، فالدليل يسمى سلطاناً، والأمير على القوم يسمى سلطاناً، وولاية الرجل على أهله سلطان، وهكذا كل من كانت له سلطة فإنه يسمى سلطاناً. قد يكون السلطان بمعنى القدرة على الشيء، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، أي بقدرة، ولا قدرة لكم على نفوذ أقطار السموات والأرض.

﴿وَمَاوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾: قال السمرقندي: أي مصيرهم إلى النار في الآخرة. ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾: يعني أن مَثْوًى المشركين النار. وقال الواحدي: ﴿وَمَاوَاهُمُ النَّارُ﴾: أي مرجعهم ومصيرهم. ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾: المَثْوَى: المكان الذي يُقيم به؛ من قولهم: (ثَوًى، يَثْوِي، ثَوَاءً). ويقال للمقتول: (ثَوًى)؛ لإقامته حيث قُتل. وجمع المَثْوَى: مَثَاوِي. وقال ابن الجوزي: اعلم أنه تعالى بيّن أن أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا هو وَقُوعُ الْخَوْفِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَبَيّنَ أحوالهم في الآخرة، وهي أَنَّ مَاوَاهُمْ وَمَسْكَنُهُمُ النَّارُ. ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾: المَثْوَى: المكان الذي يَكُونُ مَقَرَّ الْإِنْسَانِ

ومأواه، من قَوْلِهِمْ: ثَوَى يَتَوَى ثَوًى، وَجَمْعُ الْمُتَوَى مَتَاوَى. وقال القرطبي: ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ مَصِيرِهِمْ وَمَرْجِعِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أُولَئِهِمُ النَّارُ﴾، ثُمَّ ذَمَّهُ فَقَالَ: ﴿وَبِئْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾. وَالْمَتَوَى: الْمَكَانُ الَّذِي يُقَامُ فِيهِ، يُقَالُ: ثَوَى يَتَوَى ثَوَاءً. وَالْمَأْوَى: كُلُّ مَكَانٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ شَيْءٌ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا. وقال أبو حيان: ﴿وَمَا أُولَئِهِمُ النَّارُ﴾: أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَرْجِعَهُمْ إِلَى النَّارِ، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَرْغُوبُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ مُعَذَّبُونَ، بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ، فَهُوَ جَالِبٌ لَهُمُ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿وَبِئْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾: بَالِغٌ فِي ذَمِّ مَتَوَاهِم. وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيْ وَبِئْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ النَّارُ. وَجَعَلَ النَّارَ مَأْوَاهُمْ وَمَتَوَاهُمْ. وَبَدَأَ بِالْمَأْوَى وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الثَّوَاءُ؛ لِأَنَّ الثَّوَاءَ دَالٌّ عَلَى الْإِقَامَةِ، فَجَعَلَهَا مَأْوًى وَمَتَوًى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّارُ مَتَوَى لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٢]. وَنَبَّهَ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ النَّارَ وَهُوَ الظُّلْمُ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ؛ إِذْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ. كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقال البقاعي: ﴿وَبِئْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾: أَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ؛ لِلتَّعْمِيمِ وَتَعْلِيْقِ الْحُكْمِ بِالْوَصْفِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَمَا أُولَئِهِمُ﴾: أَيْ مَا يَأْوُونَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿النَّارُ﴾: لَا مَأْوَى لَهُمْ غَيْرُهَا. ﴿وَبِئْسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾: أَيْ مَتَوَاهُمْ. وَإِنَّمَا وُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ؛ لِلتَّغْلِيظِ وَالتَّعْلِيلِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ فِي إِشْرَاكِهِمْ ظَالِمُونَ وَاضِعُونَ لِلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. وَالْمَتَوَى: مَكَانُ الْإِقَامَةِ، عَلَى وَزْنِ مَفْعَلٍ، مَنْ ثَوَيْتُ، وَلَا مُمَّةَ يَاءً. وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيْ بِئْسَ مَتَوَاهُمُ النَّارُ، وَلَمْ يُعَبَّرْ بِالْمَأْوَى؛ لِلإِذْنِ بِالْحُلُودِ؛ إِذِ الْإِقَامَةُ مَأْخُودَةٌ فِي الْمَتَوَى دُونَهُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: الْمَتَوَى: الْمَقَرُّ وَالْمَأْوَى وَالْمَقَامُ، مَنْ ثَوَى يَتَوَى. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿وَمَا أُولَئِهِمُ النَّارُ﴾: ذَكَرَ عِقَابَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. وَالْمَأْوَى مَفْعَلٌ مِنْ أَوَى إِلَى كَذَا إِذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَالْمَتَوَى مَفْعَلٌ مِنْ ثَوَى إِذَا أَقَامَ، فَالنَّارُ مَصِيرُهُمْ وَمَقَرُّهُمْ وَالْمَرَادُ: الْمَشْرُكُونَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَمَا أُولَئِهِمُ النَّارُ﴾: أَيْ مَرْجِعُهُمُ النَّارَ، فَهُمْ مَغْلُوبُونَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَفِي الدُّنْيَا يَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ فَلَا يَقْرَوْنَ وَلَا يَسْتَقَرُّونَ، وَفِي الْآخِرَةِ مَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَالنَّارُ هِيَ

الدار التي أعدّها الله لأعدائه يعذبهم بها، وهي موجودة الآن عرضت على النبيّ في صلاة الكسوف حتى إنه تأخّر مخافة أن يصيبه من وهجها، ورأى فيها من يعذب. قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾: (بئس): فعل جامد؛ لإنشاء الذم، ويقابله (نعم)، وهذا الفعل يحتاج إلى فاعل وإلى مخصص فاعله مثنوى، والمخصص محذوف والتقدير: هي أو النار. والمثنوى: المستقرّ الذي يثوي إليه الإنسان ويستقرّ فيه، كالمسكن مثلاً.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْكَبُوا مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٢):

• سبب نزول الآية:

قال الواحدي: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وأصحابه إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم بأحد، قال ناسٌ من أصحابه: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا، وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾. وقال بعضهم: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ كَبْشًا، فَصَدَقَ رُؤْيَاهُ بِقَتْلِ طَلْحَةَ بْنِ عَثْمَانَ، صَاحِبِ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَتْلِ تِسْعَةِ نَفَرٍ بَعْدَهُ عَلَى اللُّوَاءِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، يريد: تصديق رؤيا رسول الله ﷺ.

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال ابن عاشور: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وَهَذَا عَوْدٌ إِلَى التَّسْلِيَةِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَإِظْهَارٌ لِاسْتِمْرَارِ عِنَايَةِ اللَّهِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَرَمَزَ إِلَى الثِّقَةِ بِوَعْدِهِمْ بِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، وَتَبْيِينَ لِسَبَبِ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ تَطْمِينًا لَهُمْ بِذِكْرِ نَظِيرِهِ وَمُثَالِهِ السَّابِقِ.

● تفسير الآية:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾: قال البغوي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: أي بالنصر والظفر، وذلك أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْإِبْتِدَاءِ. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾: وذلك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ أَحَدًا خَلْفَ ظَهْرِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِينَةَ، وَهُوَ جَبَلٌ عَنْ يَسَارِهِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الرُّمَاءَ، وَأَمَرَ عَلَيْهِم (عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ)، وَقَالَ لَهُمْ: احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرَكُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقَاتِلُ فَلَا تَنْصُرُونَا، وَأَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فَأَخَذُوا فِي الْقِتَالِ فَجَعَلَ الرُّمَاءُ يَرِشُّونَ حَيْلَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبْلِ وَالْمُسْلِمُونَ يَضْرِبُونَهُم بِالسُّيُوفِ، حَتَّى وَلَّوْا هَارِبِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، أَيْ تَقْتُلُونَهُمْ قِتْلًا ذَرِيعًا بِقَضَاءِ اللَّهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحُسُّ: هُوَ الْإِسْتِصَالُ بِالْقَتْلِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: جَاءَتِ الْمِخَاطَبَةُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِجَمْعِ ضَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي عَاتَبَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا لَمْ يَقَعْ فِيهَا جَمِيعُهُمْ؛ وَلِذَلِكَ وَجُوهٌ مِنَ الْفَصَاحَةِ، مِنْهَا: وَعَظُ الْجَمِيعِ وَرَجْرُجُهُ؛ إِذْ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ مُعَدُّ أَنْ يَفْعَلَ إِنْ لَمْ يُزَجَرْ. وَمِنْهَا: السَّتْرُ وَالْإِبْقَاءُ عَلَى مَنْ فَعَلَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾: ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَيْ بِأَمْرِهِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَيْ بِعِلْمِهِ، قَالَهُ الرَّجَّاجُ. الثَّلَاثُ: أَيْ بِقَضَائِهِ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾: مَعْنَاهُ: تَقْتُلُونَهُمْ وَتَسْتَأْصِلُونَهُمْ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الْحُسُّ: الْإِسْتِصَالُ بِالْقَتْلِ، يُقَالُ: جَرَادٌ مُحْسُوسٌ إِذَا قَتَلَهُ الْبَرْدُ. وَالْبَرْدُ مُحْسَسَةٌ لِلنَّبْتِ: أَيْ مَحْرَقَةٌ لَهُ ذَاهِبَةٌ بِهِ. وَسَنَةٌ حَسُوسٌ: أَيْ جَذْبَةٌ تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ، فَمَعْنَى حَسَّهْ: أَذْهَبَ حِسَّهُ بِالْقَتْلِ. ﴿بِإِذْنِهِ﴾: أَيْ بِعِلْمِهِ، أَوْ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ...﴾: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ لِأَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ، فَلَمَّا وَاجَهُوهُمْ كَانَ الظَّفَرُ وَالنَّصْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْإِسْلَامِ، فَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ عِصْيَانِ الرُّمَاءِ وَفَشَلِ بَعْضِ الْمُقَاتِلَةِ،

تَأَخَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي كَانَ مَشْرُوطًا بِالنَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: أَيِ أَوَّلِ النَّهَارِ. ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾: أَيِ تَقْتُلُونَهُمْ. ﴿بِإِذْنِهِ﴾: أَيِ بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ. وقال الثعالبي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: جاء الخطاب لجميع المؤمنين، وإن كانت الأمور التي عاتبهم سبحانه عليها لم يقع فيها جميعهم؛ ولذلك وجوه من الفصاحة، منها: وعظ الجميع، وزجره؛ إذ مَنْ لم يفعل مُعَدُّ أَنْ يفعل إن لم يزجر. ومنها: السَّتْرُ والإبقاء على من فعل، وكان النبي ﷺ قد وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ النَّصْرَ يَوْمَئِذٍ عَلَى خَيْرِ اللَّهِ إِنْ صَبَرُوا وَجَدُوا، فَصَدَقَهُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَافَّ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَرَتَّبَ الرِّمَاءَ، وَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْحَرْبِ، وَأَبْلَى حِمْرَةَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبُو دُجَانَةَ، وَعَلِيٌّ، وَعَاصِمُ بْنُ أَبِي الْأَفْلَحِ، وَغَيْرُهُمْ، وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، وَالْحَسُّ: الْقَتْلُ الدَّرِيعُ، يُقَالُ: حَسَّهُمْ إِذَا اسْتَأْصَلَهُمْ قَتْلًا، وَحَسَّ الْبَرْدُ النَّبَاتَ. وقال البقاعي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: أَيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾. ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: أَيِ تَقْتُلُونَهُمْ، بَعْضُهُم بِالْفِعْلِ، وَالْبَاقِينَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي هَيَّأَهَا لَكُمْ، فَإِنَّ (الْحَسَّ) بِالْفَتْحِ: الْقَتْلُ وَالِاسْتِئْصَالُ، قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ. وقال الألوسي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: المرادُ بِهَذَا الْوَعْدِ: مَا وَعَدَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنَ النَّصْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ إِيَّاهُ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَيْثُ قَالَ لِلرُّمَاءِ: "لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ فَلَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا ثَبَّتُمْ مَكَانَكُمْ" رواه البخاري. والقَوْلُ بِأَنَّ الْمَرَادَ: مَا وَعَدَهُ جَلَّ شَأْنُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لَيْسَ بِشَيْءٍ كَمَا لَا يَخْفَى. وقال القاسمي: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾: أَيِ تَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا كَثِيرًا، مِنْ (حَسَّه) إِذَا أَبْطَلَ حِسَّه. ﴿بِإِذْنِهِ﴾: أَيِ بِتَيْسِيرِهِ وَتَوْفِيقِهِ. وقال ابن عاشور: صَدَقَ الْوَعْدُ: تَحْقِيقُهُ وَالْوَفَاءُ بِهِ، لِأَنَّ مَعْنَى الصِّدْقِ مُطَابَقَةُ الْحَبَرِ لِلْوَاقِعِ. وَالْوَعْدُ هُنَا وَعْدُ النَّصْرِ الْوَاقِعِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧] أَوْ بِخَيْرٍ خَاصٍّ فِي يَوْمٍ أُحُدٍ. وقال العثيمين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

الأول: القَسَمُ المقدّر؛ لأنّ التقدير: (والله لقد). الثاني: (اللام). الثالث: (قَدْ). ﴿صَدَقَكُمْ﴾: أي أنجزه لكم. وقوله: ﴿وَعَدَهُ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي صدقكم الله في وعده، يقال: صدقه، ويقال: صدّقه، وبينهما فرق، فإذا قيل: صدّقه يعني أخبره بالصدق، وإذا قال: صدّقه أي قال: إنّ ما أخبرت به صدق، فالتصديق من المخاطب للمتكلّم، والصدق من المتكلّم للمخاطب، فمعنى قوله: ﴿صَدَقَكُمْ اللهُ وَعَدَهُ﴾: أي أنجز لكم الوعد فصار ما أخبركم به صدقاً. ﴿وَعَدَهُ﴾: أي ما وعدكم به من النصر، ثم بيّن موضع هذا الصدق فقال: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: (إِذْ) هنا ظرف متعلّق بصدق، أي صدقكم وعده حين حسستموهم بإذنه. وقوله: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ مضارع عبّر به عن شيء ماضٍ على تقدير حكاية الحال؛ لأنّ القاعدة: أن يعبّر عن الماضي بصيغة الماضي، فيقال: قال زيد، لكنه عبّر هنا عن الماضي بصيغة الحاضر لحكاية الحال؛ لتقريب تصوّر الماضي في الذهن؛ لأنّ الماضي قد انقضى فرمّا يكون الإنسان ناسياً له، فإذا صيغ بصيغة المضارع صار الماضي كأنّه حاضر، وهذا ما يعبّر عنه النحويون بحكاية الحال، حكاية الحال الماضي كأنّها الآن واقعة؛ من أجل أن يكون ذلك أقرب لحضورها في الذهن. وقوله: ﴿تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: الحسن: القتل أو أشدّ القتل. ﴿تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: أي تقتلونهم أشدّ قتلة بإذن الله الكويّ والشرعيّ. بإذنه الكويّ؛ لأنه قد وقع، وكلّ شيء قد وقع فإنّ الله قد أذن به كوناً. وبإذنه الشرعيّ؛ لأنّ الله قد شرع لنا أن نقاتل الكفار، فيكون قتلنا لهم مأذوناً فيه شرعاً، إذاً في هذه الآية اجتمع الإذنان: الكويّ والشرعيّ. وقوله: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: أي تقتلونهم بإذنه، هذا نصر. فإن قال قائل: وهل قُتل أحدٌ من الكفار يوم أُحد؟ فالجواب: نعم، قُتل منهم أكثر من تسعة رجال وانهزموا حتى رُئي النساء ينطلقن يصعدن في الجبل مذعورات كاشفات الرؤوس حاسرات السيقان؛ لأنّهن قد هربن حيث أيقنّ بالأسر وكانت الغلبة والعزّة في أوّل النهار للمسلمين.

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: قال
الواحدي: الآية عند الفراء على التقديم والتأخير؛ لأنه يذهب إلى أن الفشل مُؤَخَّرٌ بعد
التنازع، والمعنى عنده: (حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتُمْ فُشِلْتُمْ)، فقدم المؤخر وأخر
المقدم، كقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَقِّعٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وغيره يقول: الفشل في
موضعه، غَيْرُ مَنْوِيٍّ به التأخير، والتنازع والعصيان كانا بعد الفشل. وقال الرازي: لقائل
أَنْ يَقُولَ: ظاهرُ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ بِمَنْزِلَةِ الشَّرْطِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجَوَابِ فَأَيْنَ
جَوَابُهُ؟ اعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ هَاهُنَا طَرِيقَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَرْطٍ، بَلِ الْمَعْنَى: وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ، أَيِ قَدْ نَصَرَكُم إِلَى أَنْ كَانَ مِنْكُمُ الْفَشَلُ وَالتَّنَازُعُ؛ لِأَنَّهُ
تَعَالَى كَانَ إِنَّمَا وَعَدَهُم بِالنُّصْرَةِ بِشَرْطِ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ، فَلَمَّا فَشَلُوا وَعَصَوْا
انْتَهَى النَّصْرُ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ كَلِمَةُ (حَتَّى) غَايَةً بِمَعْنَى (إِلَى)، فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ:
(حَتَّى إِذَا) (إِلَى أَنْ)، أَوْ (إِلَى حِينَ). الطَّرِيقُ الثَّانِي: أَنْ يُسَاعِدَ عَلَى أَنْ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا
فَشِلْتُمْ﴾ شَرْطٌ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا فِي الْجَوَابِ عَلَى وَجْهِهِ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ
الْبَصْرِيِّينَ: أَنَّ جَوَابَهُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ
بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مَنَعَكُمُ اللَّهُ نَصْرَهُ، وَإِنَّمَا حَسَنَ حَذْفُ هَذَا الْجَوَابِ؛ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ:
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ عَلَيْهِ، وَنَظَائِرُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ
أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] وَالتَّقْدِيرُ:
فافْعَلْ، ثُمَّ أُسْقِطَ هَذَا الْجَوَابُ؛ لِدَلَالَةِ هَذَا الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ
آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزُّمَرِ: ٩] وَالتَّقْدِيرُ: أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ كَمَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ؟ الْوَجْهُ الثَّانِي:
وَهُوَ مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ وَاخْتِيَارُ الْفَرَّاءِ: أَنَّ جَوَابَهُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ (وَالْوَاوُ) زَائِدَةٌ
كَمَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ... (١٠٤)﴾ [الصَّافَّاتِ]، وَالْمَعْنَى
نَادَيْنَاهُ، كَذَا هَاهُنَا: الْفَشَلُ وَالتَّنَازُعُ صَارَ مُوجِبًا لِلْعَصِيَانِ، فَكَانَ التَّقْدِيرُ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ عَصَيْتُمْ، (وَالْوَاوُ) زَائِدَةٌ، وَبَعْضُ مَنْ نَصَرَ هَذَا الْقَوْلَ زَعَمَ أَنَّ مِنْ

مَذْهَبِ الْعَرَبِ إِذْ خَالَ (الواو) فِي جَوَابِ (حَتَّى إِذَا) بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الرُّم: ٧١]، وَالتَّقْدِيرُ: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا. فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ (فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ) مَعْصِيَةٌ، فَلَوْ جَعَلْنَا الْفَشْلَ وَالتَّنَارُعَ عِلَّةً لِلْمَعْصِيَةِ لَزِمَ كَوْنُ الشَّيْءِ عِلَّةً لِنَفْسِهِ وَذَلِكَ فَاسِدٌ. قُلْنَا: الْمَرَادُ مِنَ الْعِصْيَانِ هَاهُنَا: خُرُوجُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفَشْلَ وَالتَّنَارُعَ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ خُرُوجَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَلَمْ يَلْزَمْ تَعْلِيلُ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصَرَيْنِ إِنَّمَا لَمْ يَقْبَلُوا هَذَا الْجَوَابَ؛ لِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ جَعْلُ (الواو) زَائِدَةً. الْوَجْهُ الثَّلَاثُ فِي الْجَوَابِ: أَنْ يُقَالَ: تَقْدِيرُ الْآيَةِ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، صِرْتُمْ فَرِيقَيْنِ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ. فَالْجَوَابُ: هُوَ قَوْلُهُ: صِرْتُمْ فَرِيقَيْنِ، إِلَّا أَنَّهُ أُسْقِطَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يُفِيدُ فَايِدَتَهُ وَيُؤَدِّي مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (مَنْ) لِلتَّبْعِيضِ فَهِيَ تُفِيدُ هَذَا الْإِنْقِسَامَ، وَهَذَا احْتِمَالٌ حَظَرَ بِبَالِي. الْوَجْهُ الرَّابِعُ: قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: جَوَابُ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَكَذَا وَكَذَا صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ وَكَلِمَةُ (ثُمَّ) هَاهُنَا كَالسَّاقِطَةِ، وَهَذَا الْوَجْهُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ. وَاللَّهُ ذَكَرَ هُنَا أُمُورًا ثَلَاثَةً: أَوَّلُهَا: الْفَشْلُ، وَهُوَ: الضَّعْفُ، وَقِيلَ: الْفَشْلُ هُوَ: الْجُبْنُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الْأَنْفَالِ: ٤٦] أَيْ فَتَضَعُفُوا؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فَتَجَبُّنَا. ثَانِيهَا: التَّنَارُعُ فِي الْأَمْرِ، وَفِيهِ بَحْثَانِ: الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: الْمَرَادُ مِنَ التَّنَارُعِ: أَنَّهُ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. أَمَرَ الرُّمَّةَ بِأَنْ لَا يَبْرَحُوا عَنْ مَكَانِهِمْ أَلْبَتَّةَ، وَجَعَلَ أَمِيرَهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، فَلَمَّا ظَهَرَ الْمُشْرِكُونَ أَقْبَلَ الرُّمَّةَ عَلَيْهِمْ بِالرَّمْيِ الْكَثِيرِ حَتَّى انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، ثُمَّ إِنَّ الرُّمَّةَ رَأَوْا نِسَاءَ الْمُشْرِكِينَ صَعَدْنَ الْجَبَلَ وَكَشَفْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ بِحَيْثُ بَدَتْ خَلَاخِيلُهُنَّ، فَقَالُوا: الْغَنِيْمَةُ الْغَنِيْمَةُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهْدَ الرَّسُولِ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَبْرَحَ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَذَهَبُوا إِلَى طَلَبِ الْغَنِيْمَةِ، وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ مَعَ طَائِفَةٍ قَلِيلَةٍ دُونَ الْعَشْرَةِ إِلَى أَنْ قَتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ. فَهَذَا هُوَ

التَّنازُعُ. البَحْثُ الثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَمْرَ هَاهُنَا بِمَعْنَى: الشَّأْنِ وَالْقِصَّةِ، أَيْ تَنَازَعْتُمْ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشَّأْنِ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي يُضَادُّهُ النَّهْيُ. وَالْمَعْنَى: وَتَنَازَعْتُمْ فِيهَا أَمْرُكُمْ الرَّسُولُ بِهِ مِنْ مُلَازِمَةِ ذَلِكَ الْمَكَانِ. ثَالِثُهَا: وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، وَالْمُرَادُ: عَصَيْتُمْ بِتَرْكِ مُلَازِمَةِ ذَلِكَ الْمَكَانِ. بَقِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ سُؤَالَاتٌ: الْأَوَّلُ: لِمَ قَدَّمَ ذِكْرَ الْفَشْلِ عَلَى ذِكْرِ التَّنازُعِ وَالْمَعْصِيَةِ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا رَأَوْا هَزِيمَةَ الْكُفَّارِ وَطَمِعُوا فِي الْغَنِيمَةِ فَشَلُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ الثَّبَاتِ طَمَعًا فِي الْغَنِيمَةِ، ثُمَّ تَنَازَعُوا بِطَرِيقِ الْقَوْلِ فِي أَنَّا: هَلْ نَذْهَبُ لِطَلَبِ الْغَنِيمَةِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ اشْتَعَلُوا بِطَلَبِ الْغَنِيمَةِ. السُّؤَالُ الثَّانِي: لَمَّا كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ بِمُفَارَقَةِ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ خَاصَّةً بِالْبَعْضِ فَلِمَ جَاءَ هَذَا الْعِتَابُ بِاللَّفْظِ الْعَامِّ؟ وَالْجَوَابُ: هَذَا اللَّفْظُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ الْمُخَصِّصُ بَعْدَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. السُّؤَالُ الثَّلَاثُ: مَا الْفَائِدَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. وَالْجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ الْمُقْصُودَ مِنْهُ التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا شَاهَدُوا أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُمْ بِإِنْجَازِ الْوَعْدِ كَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَلَمَّا أَقْدَمُوا عَلَيْهَا لَا جَرَمَ سَلَبَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ الْإِكْرَامَ وَأَذَاقَهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: أَيُّ جُبُنْتُمْ وَضَعْتُمْ. يُقَالُ: فَشِلَ يَفْشِلُ فَهُوَ فَشِلٌّ وَفَشْلٌ. وَجَوَابُ ﴿حَتَّى﴾ مَحْذُوفٌ، أَيُّ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ امْتَحِنْتُمْ. وَمِثْلُ هَذَا جَائِزٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ [الانعام: ٣٥] فَافْعَلْ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: جَوَابُ ﴿حَتَّى﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾، وَ(الْوَاوُ) مُفَحَّمَةٌ زَائِدَةٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٤) وَنَادَيْنَاهُ.. (١٠٥)﴾ [الصافات]، أَيُّ نَادَيْنَاهُ. وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ يُجَوِّزُ إِفْحَامُ (الْوَاوُ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: أَيُّ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ عَصَيْتُمْ. وَعَلَى هَذَا فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيُّ حَتَّى إِذَا تَنَازَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَفَشِلْتُمْ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، وَ(ثُمَّ) زَائِدَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ. وَجَوَّزَ الْأَخْفَشُ: أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا

ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴿[التوبة: ١١٨] . وَقِيلَ: (حَتَّى) هُنَا بِمَعْنَى (إِلَى)، وَحِينَئِذٍ لَا جَوَابَ لَهُ، أَيْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ، أَيْ كَانَ ذَلِكَ الْوَعْدُ بِشَرْطِ الثَّبَاتِ. وَمَعْنَى ﴿تَنَارَعْتُمْ﴾: اخْتَلَفْتُمْ، يَعْنِي الرِّمَاءَ حِينَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَلْحَقُ الْعَنَائِمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نَثْبُتُ فِي مَكَانِنَا الَّذِي أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالثُّبُوتِ فِيهِ. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: أَيْ خَالَفْتُمْ أَمْرَ الرَّسُولِ فِي الثُّبُوتِ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: يَعْنِي مِنَ الْغَلَبَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، وَذَلِكَ حِينَ صُرِعَ صَاحِبُ لِيَاءِ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: التَّنَارُعُ: هُوَ التَّجَادُبُ فِي الْأَمْرِ. وَهَذَا التَّنَارُعُ صَدَرَ مِنَ الرِّمَاءِ. وَقِيلَ: هُوَ مَا صَدَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ حِينَ صَبَحَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَشْلُ: الْجُبْنُ. ﴿وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾: كَمَا وَقَعَ لِلرِّمَاءِ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: وَهُوَ الظَّفَرُ مِنْهُمْ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (حَتَّى) غَايَةً، كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ. وَالْأَظْهَرُ الْأَقْوَى: أَنَّ (إِذَا) عَلَى بَابِهَا تَحْتَاجُ إِلَى الْجَوَابِ، وَمَذْهَبُ الْخَلِيلِ، وَسَيَوِيَّةٍ، وَفُرْسَانَ الصَّنَاعَةِ: أَنَّ الْجَوَابَ مَحذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى، تَقْدِيرُهُ: انْهَزِمْتُمْ، وَنَحْوَهُ. وَالْفَشْلُ: اسْتَشْعَارُ الْعَجْزِ، وَتَرْكُ الْجِدِّ. وَالتَّنَارُعُ: هُوَ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ الرِّمَاءِ. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: عِبَارَةٌ عَنْ ذَهَابِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الرِّمَاءِ، وَتَأَمَّلْ مَا يُوْجِبُهُ الرُّكُوءُ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الضَّرَرِ، وَإِذَا كَانَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ عَلَى رِفْعَتِهِمْ وَعَظِيمِ مَنَزَلَتِهِمْ، حَصَلَ لَهُمْ بِسَبَبِهَا مَا حَصَلَ مِنَ الْفَشْلِ وَالْهَزِيمَةِ، فَكَيْفَ بِأَمْثَالِنَا، وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ وَنَبِيُّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا بِمَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ. وَاعْلَمْ أَيْضًا: أَنَّ تَيْسِيرَ أَسْبَابِ الدُّنْيَا مَعَ إِعْرَاضِكَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِكَ، لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ الْفَلَاحِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: يَعْنِي هَزِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهُ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرُ إِلَى حَدَمِ هَنْدِ بِنْتِ عَتَبَةَ وَصَوَاحِبِهَا مَشْمَرَاتٍ هَوَارِبَ، مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلًا، وَلَا كَثِيرًا إِذْ مَالَتِ الرِّمَاءُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ

عنه، يريدون النَّهْبَ، وَخَلَّوْا ظَهْرَنَا لِلْحَيْلِ، فَأَوْتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وَصَرَخَ صَارِخٌ إِلَّا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ. وَقَالَ الْبَقَاعِيُّ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: أَيِ ضَعُفْتُمْ وَتَرَاخَيْتُمْ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغَنِيمَةِ خِلَافَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْهِمَمُ الْعَوَالِي. ﴿وَتَنَارَعْتُمْ﴾: أَيِ بِالِاخْتِلَافِ، وَأَصْلُهُ مِنْ (نَزَعَ بَعْضٌ شَيْئًا مِنْ يَدِ بَعْضٍ). ﴿فِي الْأَمْرِ﴾: أَيِ أَمْرِ الثَّغْرِ الْمَأْمُورِ بِحِفْظِهِ. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: أَيِ وَقَعَ الْعَصِيَانُ بَيْنَكُمْ بِتَضْيِيعِ الثَّغْرِ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: أَيِ مِنْ حَسَبِهِمْ بِالشُّيُوفِ وَهَزِيمَتِهِمْ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: أَيِ ضَعُفْتُمْ وَتَرَاخَيْتُمْ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغَنِيمَةِ. ﴿وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أَيِ فِي الْإِقَامَةِ بِالْمَرْكَزِ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ: أَيِ قَوْمُ الْغَنِيمَةِ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْظُرُونَ؟ فَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟! قَالُوا: إِنَّا وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنَصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ .. وَ(الْأَمْرُ) إِمَّا بِمَعْنَى: الشَّأْنُ وَالْقِصَّةُ، وَإِمَّا الَّذِي يُضَادُّهُ (النَّهْيُ)، أَيِ فِيهِمْ أُمِرْتُمْ بِهِ مِنْ عَدَمِ الْبَرَاكِ. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾: أَيِ أَمَرَ الرَّسُولِ أَنْ لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا، فَلَا تُعِينُونَا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: أَيِ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَانْهَازِ الْعَدُوِّ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: "لَقِينَا الْمَشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاءِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ الْبَرَاءُ: فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ..". وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: (حَتَّى) حَزَفُ انْتِهَاءٍ وَغَايَةٍ، يُفِيدُ أَنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا غَايَةٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، فَاذْكُرْ: إِذْ تَقْتُلُوهُمْ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ، وَاسْتَمَرَّ قَتْلُكُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى حُصُولِ الْفَشْلِ لَكُمْ وَالتَّنَارُعِ بَيْنَكُمْ. وَ(حَتَّى) هُنَا جَارَةٌ وَ(إِذَا) مَجْرُورٌ بِهَا. وَ(إِذَا) اسْمُ زَمَانٍ، وَهُوَ فِي الْغَالِبِ لِلزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ وَقَدْ يُخْرِجُ عَنْهُ إِلَى الزَّمَانِ مُطْلَقًا كَمَا هُنَا، وَلَعَلَّ نُكْتَةَ ذَلِكَ: أَنَّهُ أُريدَ اسْتِحْضَارُ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ تَبَعًا لِقَوْلِهِ مُحْسُوهُمْ. وَ(إِذَا) هُنَا

مُجَرَّدَةٌ عَنْ مَعْنَى الشَّرْطِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا صَارَتْ لِلْمُضِيِّ انْسَلَخَتْ عَنِ الصَّلَاحِيَةِ لِلشَّرْطِيَّةِ؛ إِذِ الشَّرْطُ لَا يَكُونُ مَاضِيًّا إِلَّا بِتَأْوِيلٍ؛ لِذَلِكَ فَهِيَ غَيْرُ مُتَحَاجَةٍ لِجَوَابٍ فَلَا فَائِدَةَ فِي تَكْلُفِ تَقْدِيرِهِ: (انْقَسَمْتُمْ)، وَلَا إِلَى جَعْلِ الْكَلَامِ بَعْدَهَا دَلِيلًا عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ إِلَى آخِرِهَا. وَالْفَشْلُ: الْوَهْنُ وَالْإِعْيَاءُ. وَالتَّنَازُعُ: التَّخَالُفُ. وَالْمِرَادُ بِالْعِصْيَانِ هُنَا: عِصْيَانُ أَمْرِ الرَّسُولِ. وَقَدْ رُتِبَتِ الْفِعَالُ الثَّلَاثَةُ فِي الْآيَةِ عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِهَا فِي الْحُصُولِ؛ إِذْ كَانَ الْفَشْلُ، وَهُوَ ضَجْرُ بَعْضِ الرُّمَةِ مِنْ مُلَازِمَةِ مَوْقِفِهِمْ؛ لِلطَّمَعِ فِي الْغَنِيمَةِ، قَدْ حَصَلَ أَوَّلًا، فَنَشَأَ عَنْهُ التَّنَازُعُ بَيْنَهُمْ فِي مُلَازِمَةِ الْمَوْقِفِ فِي اللَّحَاقِ بِالْجَيْشِ لِلْغَنِيمَةِ، وَنَشَأَ عَنِ التَّنَازُعِ تَصْمِيمُ مُعْظَمِهِمْ عَلَى مُفَارَقَةِ الْمَوْقِفِ الَّذِي أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. بِمُلَازِمَتِهِ وَعَدَمِ الْإِنْصِرَافِ مِنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي تَرْتِيبِ الْأَخْبَارِ فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ مَا لَمْ يَفْتَضِ الْحَالُ الْعُدُولَ عَنْهُ. وَالتَّعْرِيفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ عَوَظٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ فِي أَمْرِكُمْ، أَيْ شَأْنِكُمْ. وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي: أَنَّ يَكُونُ مَعْنَى مَا تُحِبُّونَ هُوَ: الْغَنِيمَةُ، فَإِنَّ الْمَالَ مُحْبُوبٌ، فَيَكُونُ الْمَجْزُورُ يَتَنَازَعُهُ كُلُّ مَنْ (فَشِلْتُمْ، وَتَنَازَعْتُمْ، وَعَصَيْتُمْ). وَعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الْغَنِيمَةِ بِاسْمِهَا إِلَى الْمَوْصُولِ؛ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُمْ عَجَلُوا فِي طَلَبِ الْمَالِ الْمُحْبُوبِ. وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا تَمْهِيدٌ لِسَاطِ الْمَعْدِرَةِ؛ إِذْ كَانَ فَشْلُهُمْ وَتَنَازُعُهُمْ وَعِصْيَانُهُمْ عَنْ سَبَبٍ مِنْ أَغْرَاضِ الْحَرْبِ وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ جُبْنٍ، وَلَا عَنْ ضَعْفِ إِيْمَانٍ، أَوْ قَصْدِ خِذْلَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَكُلُّهُ تَمْهِيدٌ لِمَا يَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾. وَقَالَ الْعِثْمِينِ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ﴾: (حَتَّى): قِيلَ: إِنَّهَا ابْتِدَائِيَّةٌ. وَقِيلَ: إِنَّهَا لِلْغَايَةِ. فَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ (حَتَّى) لِلْغَايَةِ: أَيْ صَدَقْتُمْ وَعَدَهُ إِذْ تَحَسَّوْهُمْ بِإِذْنِهِ إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ (إِذَا) غَيْرَ شَرْطِيَّةٍ، حَتَّى وَقْتُ فَشْلِكُمْ، هَذَا وَجْهٌ كَوْنِ (حَتَّى) لِلْغَايَةِ. ﴿إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: أَيْ حَتَّى حِينَ فَشِلْتُمْ، أَيْ أَنَّ صِدْقَ الْوَعْدِ وَالْحَسَّ اسْتَمَرَ إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ (حَتَّى) ابْتِدَائِيَّةٌ، فَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ،

وتكون (إذا) على هذا الوجه شرطية، وجوابها يُذكر إن شاء الله. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: الفشل معناه: الجُبْنُ والخَوَرُ، أي حتى إذا جبنتم وخرتم وعجزتم عن الانتصار. ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: المنازعة: المخاصمة والاختلاف. وقوله: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾، هل المراد بالأمر الشأن، أو المراد بالأمر واحد الأوامر؟ على القول الأول يكون الأمر: واحد الأمور. وعلى الثاني يكون الأمر: واحد الأوامر. ومعنى ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أي في الشأن على القول الأول، أو في الأمر، أي أمر الرسول . عليه الصلاة والسلام . على القول الثاني، ويكون الخطاب موجَّهاً إلى الرماة، إذاً: يكون الأمر هنا واحد الأوامر، أي تنازعتم في أمر الرسول ﷺ، فمنكم من قال: نبقي؛ امتثالاً لأمره، ومنكم من نزل؛ اغتناماً لكسب الغنيمة. والمعنيان متلازمان؛ لأنه لما اختلفوا في أمر الرسول تنازعوا في شأنهم أي في أمرهم. ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: أي عصيتم الرسول لكن لم يذكر المفعول به؛ كراهة لذكره، حيث إنه يكون أشدَّ وقعاً وتوبيخاً، وكأن الله أراد أن يورِّثهم بطريق لئِن، قال: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، ولم يقل: عصيتم الرسول؛ لأن هذا أهون ممَّا لو صرَّح به. وقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ﴾: ﴿أَرَاكُمْ﴾: يعني من بعد ما أراكم رؤيا عَيْنٍ ما تحبُّون من النصر وهزيمة أعدائكم، وجواب الشرط على الوجه الثاني في ﴿إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ قال بعضهم: إنَّ جواب الشرط ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾، والتقدير: حتى إذا فشلتم تنازعتم في الأمر وعصيتم، وعلى هذا الوجه تكون (الواو) زائدة. وقال بعضهم: جواب الشرط ﴿عَصَيْتُمْ﴾ والتقدير: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون. وعلى هذا الوجه تكون (الواو) زائدة أيضاً. وقال بعضهم: جواب الشرط محذوف تقديره: انقسمتم قسمين: منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة. وقال بعضهم: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون فاتكم النصر. وقال بعضهم: الجواب محذوف قطعاً، والقول بأن (الواو) زائدة في ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ وأنه جواب الشرط، أو

في ﴿عَصَيْتُمْ﴾ وأنه جواب الشرط قول ضعيف؛ لأن الحرف هنا حرف جاء لمعنى يفوت بفواته ما جاء من أجله، فالجواب إذاً محذوف، وفائدة حذفه: أن يذهب ذهن كل مذهب في تقديره، وكل شيء يقدر جواباً لـ (إذا) لا ينافي المقدّر الآخر، فإنه صالح، وعلى هذا ممكن أن نقول: (وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم ما تحبون، أو فاتكم النصر، أو خذلتم، أو انقسمتم إلى قسمين)، كل هذه الاحتمالات صحيحة ولا تتنافى، فقد فاتهم النصر، وانقسموا إلى قسمين، وخذلوا، وهذا من بلاغة القرآن؛ فالحذف من أجل أن يكون أشمل للمعنى وأكثر.

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: قال القرطبي: يَعْنِي الْغَنِيمَةَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا شَعَرْنَا أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَعَرَضَهَا حَتَّى كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: هُمُ الَّذِينَ ثَبَتُوا فِي مَرْكَزِهِمْ، وَلَمْ يُخَالِفُوا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ ﷺ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَحَمَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ عَلَيْهِ، وَكَانَا يَوْمَئِذٍ كَافِرَيْنِ فَقَتَلُوهُ مَعَ مَنْ بَقِيَ. وَالْعِتَابُ مَعَ مَنْ انْهَزَمَ لَا مَعَ مَنْ ثَبَتَ، فَإِنَّ مَنْ ثَبَتَ فَازَ بِالثَّوَابِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ إِذَا حَلَّ بِقَوْمٍ عُقُوبَةٌ غَامَّةٌ فَأَهْلُ الصَّلَاحِ وَالصَّبِيَّانِ يَهْلِكُونَ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ مَا حَلَّ بِهِمْ عُقُوبَةٌ، بَلْ هُوَ سَبَبُ الْمَثُوبَةِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: هُمُ الَّذِينَ رَغَبُوا فِي الْمَعْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَرَمَةَ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: يَعْنِي بِهِمُ الَّذِينَ حَرَصُوا عَلَى الْغَنِيمَةِ، وَكَانَ الْمَالُ هَمَّهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَ فِيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: إِخْبَارٌ عَنْ ثُبُوتِ مَنْ ثَبَتَ مِنَ الرُّمَاءِ، مَعَ ابْنِ جُبَيْرٍ امْتِثَالًا لِلأَمْرِ حَتَّى قُتِلُوا، وَيدخل في هذا أنسُ بْنُ النَّضْرِ، وَكُلُّ مَنْ جَدَّ وَلَمْ يَضْطَرْبْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: أَيُّ قَدْ أَغْضَى عَنْ مَعَايِهَا الَّتِي أَجْلَاهَا فَنَؤُهَا. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: هُمُ الثَّابِتُونَ فِي مَرَائِزِهِمْ لَمْ يُعْرِجُوا عَلَى الدُّنْيَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: أَيُّ الْغَنِيمَةِ، فَتَرَكَ الْمَرْكَزَ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فَثَبَتَ

فيه، وهم الَّذِينَ نَالُوا شَرَفَ الشَّهَادَةِ، ومنهم أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ الْأَسَدُ الْمُقْدَامُ، الْقَائِلُ وَقْتَنَدُ:
"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: الْمُسْلِمِينَ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ،
فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ، فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ!
فَمَضَى فُقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَخْتُهُ بِشَامَةٍ أَوْ بِنَانِهِ، وَبِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ
وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِسَهْمٍ" رواه البخاري. وقال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ تَفْصِيلٌ لِمَا تَنَازَعْتُمْ، وَتَبْيِينٌ لِمَا عَصَيْتُمْ، وَتَخْصِصٌ لَهُ بِأَنَّ
الْعَاصِينَ بَعْضُ الْمَخَاطِبِينَ الْمُتَنَازِعِينَ؛ إِذِ الَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ لَيْسُوا بِعَاصِينَ؛ وَلِذَلِكَ
أُحْرِثَ هَاتِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى بَعْدِ الْفَعْلَيْنِ، وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُعَقَّبَ بِهَا قَوْلُهُ: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ
فِي الْأَمْرِ﴾، وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِلْجُمْلَةِ مَا أَغْنَى عَنْ ذِكْرِ ثَلَاثِ جُمَلٍ، وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ وَجُوهِ
الِإِعْجَازِ، وَالْقَرِينَةُ وَاضِحَةٌ. وَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: إِرَادَةُ نِعْمَةِ الدُّنْيَا
وَحَيْرِهَا، وَهِيَ الْعَنِيمَةُ؛ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ الْعَنِيمَةَ لَمْ يَحْرُصْ عَلَى ثَوَابِ الْإِمْتِثَالِ لِأَمْرِ الرَّسُولِ
بِدُونِ تَأْوِيلٍ، وَلَيْسَ هُوَ مُفَرِّطًا فِي الْآخِرَةِ مُطْلَقًا، وَلَا حَاسِبًا تَحْصِيلَ خَيْرِ الدُّنْيَا فِي فِعْلِهِ
ذَلِكَ مُفِيئًا عَلَيْهِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْفِعْلِ، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْقَرِيقَ الَّذِينَ أَرَادُوا ثَوَابَ الدُّنْيَا قَدْ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِيمَانِ حِينَئِذٍ؛ إِذْ لَيْسَ الْحِرْصُ عَلَى تَحْصِيلِ
فَائِدَةِ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ فِعْلِ مِنَ الْأَفْعَالِ، مَعَ عَدَمِ الْحِرْصِ عَلَى تَحْصِيلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ مِنْ ذَلِكَ
الْفِعْلِ بِدَالٍ عَلَى اسْتِخْفَافٍ بِالْآخِرَةِ، وَإِنْكَارٍ لَهَا، كَمَا هُوَ بَيِّنٌ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ:
مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا فَقَطْ. وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ مُخَالَفَةً مَنْ خَالَفَ أَمْرَ الرَّسُولِ عِصْيَانًا، مَعَ أَنَّ
تِلْكَ الْمُخَالَفَةَ كَانَتْ عَنِ اجْتِهَادٍ لَا عَنِ اسْتِخْفَافٍ؛ إِذْ كَانُوا قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَمَرَنَا
بِالْثَّبَاتِ هُنَا لِحِمَايَةِ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا نَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فَمَا لَنَا وَلِلْوُقُوفِ هُنَا حَتَّى
تَقُوتَنَا الْغَنَائِمُ، فَكَانُوا مُتَأَوِّلِينَ، فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هُنَا عِصْيَانًا؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ اجْتِهَادٍ،
فَإِنَّ شَأْنَ الْحَرْبِ الطَّاعَةَ لِلْقَائِدِ مِنْ دُونِ تَأْوِيلٍ، أَوْ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ كَانَ بَعِيدًا فَلَمْ يُعْذَرُوا فِيهِ،
أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ تَأْوِيلًا لِإِرْضَاءِ حُبِّ الْمَالِ، فَلَمْ يَكُنْ مُكَافَأًا لِذَلِيلِ وَجُوبِ طَاعَةِ الرَّسُولِ.

وقال العثيمين: ﴿مَنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: (مِنْ) هنا تبعيضية، أي بعضهم يريد الدنيا، وبعضكم الآخر يريد الآخرة، فالذين نزلوا لجمع الغنائم ظاهر عليهم أنهم يريدون الدنيا، والذين ثبتوا ظاهر عليهم أنهم يريدون الآخرة.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: قال الواحدي: أي بالهزيمة، على معنى: صَرَفَ وجوهكم عنهم. وقال عطاء: يريد: صرف حدكم عنهم. وهذا صريح في أَنَّ المعصية مخلوقة لله، حيث أضاف انهمازهم وتوليهم إلى نفسه، فقال: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، ولم يقل: (انصرفتُمْ). وقوله تعالى: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي لِيُخْتَبِرَكُمْ بِمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّبَرَةِ وَالْهَزِيمَةِ، فَيَتَبَيَّنَ الصَّابِرُ مِنَ الْجَازِعِ، وَالْمُخْلِصُ مِنَ الْمُنَافِقِ. وقال ابن الجوزي: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي ردكم عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِقَتْلِكُمْ وَهَزِيمَتِكُمْ. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي لِيُخْتَبِرَكُمْ، فَيَبْيُنَ الصَّابِرُ مِنَ الْجَازِعِ. وقال القرطبي: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَيْهِمْ رَدَّكُمْ عَنْهُمْ بِالْإِهْزَامِ. وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي لَمْ يُكَلِّفْكُمْ طَلَبَهُمْ. وقال أبو حيان: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي جَعَلَكُمْ تَنْصَرِفُونَ. وَقِيلَ: أي لَمْ تَتِمَّادِ الْكُفْرَةُ عَلَيْكُمْ فَيَسْتَأْصِلُوكُمْ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَمْ يُكَلِّفْكُمْ طَلَبَهُمْ عَقِيبَ انْصِرَافِهِمْ. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي لِيُمْتَحِنَ صَبْرُكُمْ عَلَى الْمَصَائِبِ وَثَبَاتُكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: أي لِيُنْزَلَ بِكُمْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّمَحِيصِ. وقال ابن كثير: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ثُمَّ أَدَاهُمْ عَلَيْكُمْ لِيُخْتَبِرَكُمْ وَيُمْتَحِنَكُمْ. وقال البقاعي: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي لِأَنْدَاشِكُمْ لِإِنْيَاغِهِمْ إِلَيْكُمْ مِنْ وَرَائِكُمْ. وَعَظْفُهُ بِ(ثُمَّ) لِاسْتِبْعَادِهِمْ لِلْهَزِيمَةِ بَعْدَمَا رَأَوْا مِنَ النُّصْرَةِ.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي يَفْعَلُ فِي ذَلِكَ فِعْلَ مَنْ يُرِيدُ الْإِخْتِبَارَ فِي ثَبَاتِكُمْ عَلَى الدِّينِ فِي حَالِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ. وقال القاسمي: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي كَفَّكُمْ عَنْهُمْ حَتَّى حَالَتْ الْحَالُ، وَدَالَتْ الدَّوْلَةُ. وَفِيهِ مِنَ اللَّطْفِ بِالْمُسْلِمِينَ مَا لَا يَخْفَى. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي لِيَجْعَلَ ذَلِكَ الصَّرْفَ مِحْنَةً عَلَيْكُمْ؛ لِتَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، وَتَرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَتَسْتَغْفِرُوهُ فِيمَا خَالَفْتُمْ فِيهِ أَمْرَهُ، وَمِلْتُمْ إِلَى الْعَنِيمَةِ. وقال ابن عاشور: وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾؛

لِيُدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الصَّرْفَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ، كَمَا كَانَ الْقَتْلُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنَّ حِكْمَتَهُ
الْإِبْتِلَاءُ؛ لِيُظْهَرَ لِلرَّسُولِ وَلِلنَّاسِ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِهِ؛ وَلَأَنَّ فِي الْإِبْتِلَاءِ أَسْرَارًا
عَظِيمَةً فِي الْمَحَاسِبَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ أَجْمَلَ هَذَا الْإِبْتِلَاءُ هُنَا وَسَيُبَيِّنُهُ. وَقَالَ
الْعِثْمِينَ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: أي بعد أن صدقكم الله وعده بِحَسَبِهِمْ، أي
بقتلهم، صرفكم عنهم، يعني: بعد أن فشلتُم وتنازعتُم في الأمر، وعصيتُم صرفكم عنهم،
وتأمل قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾، فَإِنَّ الصَّرْفَ يَقْتَضِي إِقْبَالًا شَدِيدًا يُعَانِي فِيهِ الْمُقْبِلُ حَتَّى
يَصْرِفَ، كَمَا تَقُولُ: صَرَفْتُ الدَّابَّةَ عَنِ الْعَلْفِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَفِيدُ بَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا
مُقْبِلِينَ جَدًّا عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ لَكِنْ صَرَفُوا عَنْهُمْ مَعَ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ؛
لَأَنَّهُ كَانَ لَهُمُ النَّصْرُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، لَكِنْ صَرَفُوا عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي لِيُخْتَبِرَكُمْ،
وَالْإِبْتِلَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْإِخْتِبَارُ وَالْإِمْتِحَانُ، وَيَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَيَكُونُ فِي الشَّرِّ، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، الشَّرُّ يُتْلَى بِهِ الْإِنْسَانُ لِيَصْبِرَ، وَالْخَيْرُ
يُتْلَى بِهِ لِيَشْكُرَ، فَكُلُهُ إِبْتِلَاءٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ
أَيْضًا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتٍ: الْأَوَّلُ: الْقَسَمُ الْمُقَدَّرُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ: وَاللَّهُ لَقَدْ. الثَّانِي:
(اللام). الثَّالِثُ: (قَدْ)، وَإِنَّمَا أَكَّدَتِ الْجُمْلَةُ هُنَا وَالْجُمْلَةُ هُنَاكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ
اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَتْبَادَرُ مِنَ الْوَقَائِعِ خِلَافَ ذَلِكَ، فَمَثَلًا فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى: ﴿وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قَدْ يَتْبَادَرُ مِنْ كَوْنِ الْهَزِيمَةِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ
يَصْدَقْهُمْ وَعْدَهُ، فَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، هَذَا
النَّصْرُ. وَالثَّانِيَةُ لَمَّا ابْتَلَوْا بِهَذِهِ الْبُلُوى قَدْ يَتْبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ بَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَعَاقِبُهُمْ عَلَى
مَعْصِيَتِهِمْ وَتَنَازُعِهِمْ وَجَنَبَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، فَكَانَ التَّأْكِيدُ هُنَا وَفِي أَوَّلِ الْآيَةِ
فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْبَلَاغَةِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي التَّأْكِيدَ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَيِ ذَنْبِكُمْ، حَيْثُ عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَيْثُ
أَخْزَمْتُمْ، فَلَمْ يُؤَاخِذْكُمْ بِذَنْبِكُمْ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، فَلَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ

بعد المعصية والمخالفة، نظيره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]. وقال ابن الجوزي: في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: قولان: أحدهما: أي عفا عن عُقُوبَتِكُمْ، قاله ابن عباس. الثاني: أي عفا عن استئصالكم، قاله الحسن. وكان يقول: هؤلاء مع رسول الله في سبيل الله غَضَابُ اللَّهِ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُهُوا عَنْ شَيْءٍ فَضَيَعُوهُ، فَمَا تَرَكُوا حَتَّى عُمُوا بِهَذَا الْغَمِّ، وَالْفَاسِقُ الْيَوْمَ يَتَجَرَّمُ كُلَّ كَبِيرَةٍ، وَيَرْكَبُ كُلَّ دَاهِيَةٍ، وَيَزْعُمُ أَنْ لَا بَأْسَ عَلَيْهِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُ. وقال الرازي: ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ يَفْتَضِي تَقَدُّمَ ذَنْبٍ مِنْهُمْ. قال القاضي: إِنْ كَانَ ذَلِكَ الذَّنْبُ مِنَ الصَّغَائِرِ صَحَّ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الْكِبَائِرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِضْمَارِ تَوْبَتِهِمْ؛ لِقِيَامِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الذَّنْبَ لَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ كَبِيرَةً؛ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا صَرِيحَ نَصِّ الرَّسُولِ، وَصَارَتْ تِلْكَ الْمَخَالَفَةُ سَبَبًا لِإِهْزَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَتْلِ جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنْ أَكَابِرِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْكِبَائِرِ، وَأَيْضًا: ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ ذُنْبُهُ﴾ [الأنفال: ١٦] يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ كَبِيرَةً، ثُمَّ إِنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى عَفَا عَنْهُمْ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ غَيْرُ مَذْكُورَةٍ، فَصَارَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ يَعْفُو عَنْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ، لِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ كَانَ مِنَ الْكِبَائِرِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى سَمَّاهُمْ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذَا يَفْتَضِي أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ بِخِلَافِ. وقال القرطبي: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: أَيُّ لَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمَخَالَفَةِ. وَالْخِطَابُ، قِيلَ: هُوَ لِلْجَمِيعِ. وَقِيلَ: هُوَ لِلرُّمَّةِ الَّذِينَ خَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَاحْتَارَهُ النَّحَاسُ. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]. وقال ابن جزي: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ إعلَامُ أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ، لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُمْ، فَمَعْنَاهُ: لَقَدْ أَبْقَى عَلَيْكُمْ. وقيل: هو عفو عن الذنب. وقال أبو حيان: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: قِيلَ: عَنْ عُقُوبَتِكُمْ عَلَى فِرَاكِكُمْ، وَلَمْ يُؤْخِذْكُمْ بِهِ. وَقِيلَ: بِرَدِّ الْعَدُوِّ عَنْكُمْ. وَقِيلَ:

بِتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْعُودِ إِلَى قِتَالِهِمْ مِنْ فُورِكُمْ. وَقِيلَ: بِتَرْكِ الْإِسْتِصَالِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ. فَمَعْنَى عَفَا عَنْكُمْ: أَبْقَى عَلَيْكُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: أَيُّ غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -؛ لِكَثْرَةِ عَدَدِ الْعُدُوِّ وَعُدْدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدْدِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ قَالَ: لَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ، وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، رَوَاهُمَا ابْنُ جُرَيْجٍ. وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: أَيُّ تَفَضَّلَا عَلَيْكُمْ لِإِيْمَانِكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: بِمَحْضِ التَّفَضُّلِ، أَوْ لِمَا عَلِمَ مِنْ عَظِيمِ نَدَمِكُمْ عَلَى الْمُخَالَفَةِ. قِيلَ: وَالْمَرَادُ بِذَلِكَ: الْعَفْوُ عَنِ الذَّنْبِ، وَهُوَ عَامٌّ لِسَائِرِ الْمُنْصَرِفِينَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ عَفَا عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: أَيُّ تَفَضَّلَا عَلَيْكُمْ؛ لِإِيْمَانِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَعَقَّبَ الْمَلَامَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تَسْكِينًا لِحَوَاطِرِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ تَلَطُّفٌ مَعَهُمْ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي تَفْرِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ تَقْدِيمُ الْعَفْوِ عَلَى الْمَلَامِ فِي مَلَامِ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فَتِلْكَ رُتْبَةٌ أَشْرَفُ مِنْ رُتْبَةِ تَعْقِيبِ الْمَلَامِ بِذِكْرِ الْعَفْوِ، وَفِيهِ أَيْضًا دَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ؛ إِذْ عَجَّلَ لَهُمُ الْإِعْلَامَ بِالْعَفْوِ؛ لِكَيْلَا تَطِيرَ نُفُوسُهُمْ رَهْبَةً وَخَوْفًا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: الْعَفْوُ: بِمَعْنَى التَّجَاوُزِ، وَيَكُونُ لِلْإِنْسَانِ مَحْمُودًا وَيَكُونُ مَذْمُومًا، فَإِذَا كَانَ مَعَ الْقُدْرَةِ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَيَكُونُ مَذْمُومًا إِذَا كَانَ مَصْدَرُهُ الْعَجْزُ، فَلَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّهُ هَذَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ وَعَدَمِ أَخْذِهِ لِنَفْسِهِ بِالْحَقِّ. أَمَّا عَفَا اللَّهُ فَهُوَ بَلَا شَكٍّ كَائِنٌ مَعَ الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يِعَاقِبَ لَكِنَّهُ يَعْفو سُبْحَانَهُ مَعَ الْقُدْرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ وَقَعَتْ مِنْهُمْ الْمُخَالَفَةُ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِذْ عَفَا عَنْهُمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: إِذْ لَمْ يُقْتَلُوا جَمِيعًا، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾: أَيِّ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا نُصِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْطِنٍ كَمَا نُصِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: وَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾. يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْحَسُّ: الْقَتْلُ. ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ..﴾، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الرُّمَاءَ. وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَهُمْ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ قَالَ: "اخْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا" رواه أحمد، وصححه الألباني، فَلَمَّا غَنِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبَاحُوا عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ انْكَفَتِ الرُّمَاءُ جَمِيعًا فَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْتَهَبُونَ، وَقَدْ التَقَتِ صُفُوفُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهُمْ هَكَذَا. وَشَبَّكَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ. وَالتَّبَسُّوا، فَلَمَّا أَخْلَى الرُّمَاءُ تِلْكَ الْحِلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا دَخَلَتِ الْحَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالتَّبَسُّوا، وَقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ نَحْوَ الْجَبَلِ، وَلَمْ يَنْلُغُوا حَيْثُ يَقُولُ النَّاسُ: الْغَارَ، إِنَّمَا كَانُوا تَحْتَ الْمِهْرَاسِ، وَصَاحَ الشَّيْطَانُ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَلَمْ يُشَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشْكُ أَنَّهُ قُتِلَ حَتَّى طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ، نَعْرِفُهُ بِتَكْفُّهِ إِذَا مَشَى. قَالَ: فَفَرَحْنَا حَتَّى كَأَنَّا لَمْ يُصِيبْنَا مَا أَصَابَنَا. قَالَ: فَرَّقِي نَحُونَا وَهُوَ يَقُولُ: "اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ" رواه مسلم. وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عَرَفْتُهُ بِعَيْنِيهِ مِنْ تَحْتِ الْمِغْفَرِ تَزْهَرَانِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! أَبْشِرُوا، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْبَلَ، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ اسْكُتَ. وَقَالَ النُسَافِيُّ: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيِّ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، أَوْ هُوَ مُتَّفَضِّلٌ عَلَيْهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، سَوَاءً أُدِيلَ هُمْ، أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ الْإِبْتِلَاءَ رَحْمَةٌ، كَمَا أَنَّ النُّصْرَةَ رَحْمَةٌ. وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: ﴿وَاللَّهُ﴾: الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ. ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيِّ

كافّة، وهو من الإظهار في موضع الإضمار؛ للتعميم وتعليق الحكم بالوصف. وقال الألويسي: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾: تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وفيه إيدان بأن ذلك العفو ولو كان بعد التوبة بطريق التفضل لا الوجوب، أي شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو في جميع الأحوال أدل لهم أو أدل عليهم، إذ الابتلاء أيضًا رحمة. والتنوين للتفخيم، والمراد بالمؤمنين: إما المخاطبون، والإظهار في مقام الإضمار؛ للتشريف والإشعار بعلة الحكم. وإما الجنس ويدخلون فيه دُخولًا أوليًا. ولعلّ التعميم هنا وفيما قبله أولى من التخصيص، وتخصيص الفضل بالعفو أولى من تخصيصه بعدم الاستئصال كما زعمه البعض. وقال القاسمي: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾: أي في الأحوال كلّها، إما بالنصرة، وإما بالابتلاء، فإنّ الابتلاء فضل ولطف خفي؛ ليمتروا بالصبر على الشدائد والثبات في المواطن، ويتمكنوا في اليقين، ويجعلوه ملكة لهم، ويتحققوا أنّ الله لا يعجز ما يقوم حتى يعجزوا ما بأنفسهم، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها، ولا يذهلوا على الحق؛ ويكون عفوبه عاجلة للبعض، فيتخلصوا عن ذنوبهم، وينالوا درجة الشهادة، فيلقوا الله ظاهرين. أفاده القاشاني.. لطائف الأولى: (إذا) في قوله تعالى: ﴿حتى إذا فشيئتم﴾ إما شرط، أو لا. وعلى الأول فجوابها: إما محذوف، أو مذكور. فتقديره على كونه محذوفًا: حتى إذا فشيئتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، منعكم الله نصره. لدلالة صدر الآية عليه. أو صرتم فريقين؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿منكم من يريد﴾ إلخ يفيد فائدته ويؤدّي معناه، وعلى كونه مذكورًا فهو إما: ﴿وعصيتهم﴾ (الواو) صلة، وحكي هذا عن الكوفيين والقراء. قالوا: ونظيره قوله تعالى: ﴿فلما أسلما وتلّه للجبین (١٠٣) ونادينا أن يا إبراهيم (١٠٤)﴾ [الصفات]، والمعنى: نادينا. وبعض من نصر هذا الوجه زعم أنّ من مذهب العرب إدخال (الواو) في جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧٣]، أي فتحت. وأجابوا عما أورد عليهم من لزوم تعليل الشيء بنفسه. إذ الفصل والتنازع معصية فكيف يكونان

عِلَّةٌ لَهَا : بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعِصْيَانِ خُرُوجَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفَشَلَ وَالتَّنَازُعَ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ خُرُوجَهُمْ عَنْهُ، فَلَا لُزُومَ. وَإِمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ وَكَلِمَةُ (تُمْ) صِلَةٌ. قَالَهُ أَبُو مُسْلِمٍ .. وَعَلَى الثَّانِي: أَعْنِي: كَوْنَهَا لَيْسَتْ شَرْطًا، فَهِيَ اسْمٌ، وَ(حَتَّى) حَرْفٌ جَرٍّ بِمَعْنَى (إِلَى)، مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صَدَقَكُمْ﴾ بِاعْتِبَارِ تَضَمُّنِهِ لِمَعْنَى النَّصْرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ إِلَى وَقْتِ فَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ. الثَّانِيَةُ: فَائِدَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا شَاهَدُوا أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُهُمْ بِإِنجَازِ الْوَعْدِ، كَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَلَمَّا أَقْدَمُوا عَلَيْهَا سَلُّوا ذَلِكَ الْإِكْرَامَ. الثَّالِثَةُ: ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: أَنَّهُ تَعَالَى عَفَا عَنْهُمْ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ تُذَكَّرْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ يَعْفُو عَنْ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ. الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ الْكِبِيرَةِ مُؤْمِنٌ، فَإِنَّ الذَّنْبَ فِي الْآيَةِ كَانَ كَبِيرَةً. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَفِي تَذْيِيلِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تَأْكِيدٌ مَا افْتِضَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾. وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ عَفُوٌّ لِأَجْلِ التَّأْوِيلِ. فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَفْوًا بَعْدَمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنَ النَّدَمِ وَالتَّوْبَةِ؛ وَلِأَجْلِ هَذَا الْإِحْتِمَالِ لَمْ تَكُنِ الْآيَةُ صَالِحَةً لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَرِلَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَسْلُبُ الْإِيمَانَ. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾: أَيُّ صَاحِبِ فَضْلٍ. ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ؛ وَلِذَلِكَ عَفَا عَنْكُمْ، وَهَذَا فِي الْجُمْلَةِ إِظْهَارٌ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ؛ إِذْ مَقْتَضَى السِّيَاقُ أَنْ يَقُولَ: (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَيْكُمْ). وَالْإِظْهَارُ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ فِيهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ: الْفَائِدَةُ الْأُولَى: التَّسْجِيلُ عَلَى مَحَلِّ الْإِضْمَارِ أَوْ عَلَى مَرْجِعِ الضَّمِيرِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْوَصْفِ، يَعْنِي إِثْبَاتُ هَذَا الْوَصْفِ لِمَرْجِعِ الضَّمِيرِ، مَثَلًا: (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَيْكُمْ) إِذَا قَالَ: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَدَلَ (عَلَيْكُمْ) أَفَادَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ. الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْعُمُومُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَيْكُمْ) اخْتَصَّ الْفَضْلُ بِمَرْجِعِ الضَّمِيرِ، وَإِذَا قَالَ: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تَشْمَلُهُمْ وَغَيْرُهُمْ. الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِلَّةُ الْحُكْمِ.

الحكم: كون الله ذو فضل، والعلّة - وهي الإيمان - في هذه الآية، وهي تختلف باختلاف السياق، هذه فائدة الإظهار في موضع الإضمار هنا. وهنا مناسبة لفظيّة في الإظهار، وهي تناسب رؤوس الآيات؛ لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) لم تتناسب مع ما بعدها ومع ما قبلها.

● قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَّبِكُمْ غَمًّا بَغَمٍ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣):

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: في تعلّق الآية بما قبلها وجوه: أحدها: كأنّه قال: (وعفا عنكم إذ تُصْعِدُونَ)؛ لأنّ عفوه عنهم لا بُدَّ وأن يتعلّق بأمرٍ افتقره، وذلك الأمر هو ما بيّنه بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾. وثانيها: التّقدير: (ثمّ صرفكم عنهم إذ تُصْعِدُونَ). وثالثها: التّقدير: (ليبتليكم إذ تُصْعِدُونَ).

وقال البقاعي: لما ذكر علّة الصّرف والعفو عنه صوّره، فقال: ﴿إِذْ﴾، أي صرفكم وعفا عنكم حين ﴿تُصْعِدُونَ﴾.

● تفسير الآية:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾: قال ابن الجوزي: للمفسّرين في معنى الآية قولان: أحدهما: أنّه صُعودهم في الجبل، قاله ابن عبّاسٍ ومجاهد. الثّاني: أنّه الإبعاد في الهزيمة، قاله قتادة، وابن قتيبة. وقوله تعالى: ﴿على أحدٍ﴾ عامٌّ، وقد روي عن ابن عبّاسٍ أنّه أريد به النّبيّ ﷺ قال: والنّبيّ ﷺ يُناديهم من خلفهم: "إليّ عباد الله، أنا رسول الله" رواه أحمد، وصحّحه الألباني. وقال الرازي: قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّه مُتعلّق بما قبله، وعلى هذا التّقدير ففيه وجوه: أحدها: كأنّه قال: وعفا عنكم إذ

تُصْعِدُونَ؛ لِأَنَّ عَفْوَهُ عَنْهُمْ لَا بُدَّ وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَمْرِ اقْتَرَفُوهُ، وَذَلِكَ الْأَمْرُ هُوَ مَا بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، والمرادُ بِهِ: مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَالْأَخْذِ فِي الْوَادِي كَالْمُنْهَزِمِينَ لَا يَلُوءُونَ عَلَى أَحَدٍ. وثانيها: التَّقْدِيرُ: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ إِذْ تُصْعِدُونَ. وثالثها: التَّقْدِيرُ: لِيَبْتَلِيَكُمْ إِذْ تُصْعِدُونَ. والقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِمَا قَبْلَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: اذْكُرْ إِذْ تُصْعِدُونَ. وقال القرطبي: (إِذْ) مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: أَصْعَدْتُ إِذَا مَضَيْتُ حِيَالَ وَجْهِكَ، وَصَعِدْتُ إِذَا ارْتَقَيْتُ فِي جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ. فَأَلِصْعَادُ: السَّيْرُ فِي مُسْتَوٍ مِنَ الْأَرْضِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ. وَالصُّعُودُ: الِارْتِفَاعُ عَلَى الْجِبَالِ وَالسُّطُوحِ وَالسَّلَالِيمِ وَالذَّرَجِ. فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صُعُودُهُمْ فِي الْجَبَلِ بَعْدَ إِصْعَادِهِمْ فِي الْوَادِي. قَالَ قَتَادَةُ، وَالزَّبْيَعُ: أَصْعَدُوا يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْوَادِي. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَعِدُوا فِي أُحُدٍ فِرَارًا. قَالَ الثَّقَفِيُّ، وَالْمُبَرِّدُ: أَصْعَدَ إِذَا أَبْعَدَ فِي الذَّهَابِ وَأَمْعَنَ فِيهِ، فَكَأَنَّ الْإِصْعَادَ إِبْعَادًا فِي الْأَرْضِ كِإِبْعَادِ الِارْتِفَاعِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْإِصْعَادُ: الْإِبْتِدَاءُ فِي السَّفَرِ، وَالْإِنْحِدَارُ الرَّجُوعُ مِنْهُ، يُقَالُ: أَصْعَدْنَا مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مَكَّةَ وَإِلَى حُرَّاسَانَ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ إِذَا خَرَجْنَا إِلَيْهَا وَأَخَذْنَا فِي السَّفَرِ، وَأَنْحَدَرْنَا إِذَا رَجَعْنَا. وَقَالَ الْمُفَضَّلُ: صَعِدَ وَأَصْعَدَ وَصَعَدَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَمَعْنَى ﴿تَلُوءُونَ﴾: تُعْرِجُونَ وَتُقِيمُونَ، أَيْ لَا يَلْتَفِتُ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ هَرَبًا، فَإِنَّ الْمُعْرِجَ عَلَى الشَّيْءِ يَلُوءِي إِلَيْهِ عُنُقَهُ أَوْ عِنَانَ دَابَّتِهِ. ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾: يُرِيدُ مُحَمَّدًا ﷺ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ. وقال الثعالبي: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: مَنْ أَصْعَدَ، ومعناه: ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَالصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، فَ(أَصْعَدَ) معناه: دَخَلَ فِي الصَّعِيدِ، كَمَا أَنَّ (أَصْبَحَ): أَيْ دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلُوءُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ مبالغة في صفة الانهزام. وفي قوله تعالى: ﴿فِي أَحْرَاكُمْ﴾ مدح للنبي ﷺ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ مَوْقِفُ الْأَبْطَالِ فِي أَعْقَابِ النَّاسِ. وقال الألويسي: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ(صَرَفَكُمْ) أَوْ بِ(يَبْتَلِيَكُمْ)، وَتَعَلُّقُهُ بِ(عَفَا) كَمَا قَالَ الطَّبْرَسِيُّ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَمِثْلُهُ تَعَلُّقُهُ كَمَا قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ بِ(عَصَيْتُمْ)، أَوْ (تَنَارَعْتُمْ) أَوْ (فَشِلْتُمْ). وقيل: مُتَعَلِّقٌ بِمَقْدَرِ كَ(اذْكُرْ)، وَاسْتَشْكَلُ بِأَنَّهُ يَصِيرُ الْمَعْنَى: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ

تُصْعِدُونَ ﴿ وفيه خطابان بِدُونِ عَطْفٍ، فالصَّوَابُ: اذْكُرُوا. وَأُجِيبَ بِأَنَّ المراد بِ(اذْكُرْ) جِنْسُ هَذَا الْفِعْلِ فَيُقَدَّرُ (اذْكُرُوا) لَا (اذْكُرْ)، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ، وَأَجَابَ الشَّهَابُ: بِأَنَّ (اذْكُرْ) مُتَضَمِّنٌ لِمَعْنَى الْقَوْلِ، وَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ حِينَ يُصْعِدُونَ إِلْحَ، وَمِثْلُهُ لَا مَنَعَ فِيهِ، كَمَا تَقُولُ لِرَيْدٍ: أَتَقُولُ كَذَا، فَإِنَّ الْخِطَابَ الْمُحْكَمِيَّ مَقْصُودُ لَفْظِهِ فَلَا يُنَافِي الْقَاعِدَةَ الْمَذْكُورَةَ وَهُمْ عَفَلُوا عَنْهُ فَتَأَمَّلْ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا خِلَافُ الظَّاهِرِ أَيْضًا. ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾: أَيُّ لَا تُقِيمُونَ عَلَى أَحَدٍ وَلَا تُعْرِجُونَ، وَهُوَ مِنْ لَوَى بِمَعْنَى: عَطَفَ. وَكَثِيرًا مَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى: وَقَفَ وَانْتَظَرَ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُتَنَظِّرِ أَنْ يَلْوِيَ عُنُقَهُ، وَفُسِّرَ أَيْضًا بِ(لَا تَرْجِعُونَ)، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، وَذَكَرَ الطَّبْرَسِيُّ: أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَا يُذَكَّرُ إِلَّا فِي النَّفْيِ، فَلَا يُقَالُ: لَوَيْتُ عَلَى كَذَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، أَوْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، أَوْ بِمُقَدَّرٍ. وَالْإِصْعَادُ: الْإِبْعَادُ فِي الْأَرْضِ، أَيُّ تَبْعُدُونَ فِي الْفِرَارِ. ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: أَيُّ لَا تَعْطِفُونَ بِالْوُفُوفِ. ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾: أَيُّ مِنْ قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، مِنَ الدَّهْشِ وَالرَّوْعَةِ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: (إِذْ): هَذِهِ ظَرْفٌ، وَالظَرْفُ لَا يَدُلُّهُ مِنْ مُتَعَلِّقٍ، وَمُتَعَلِّقٌ (إِذْ) عَلَى أَرْجَحِ الْأَقْوَالِ مُحذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: (اذْكُرُوا إِذْ تَصْعِدُونَ) هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهَا، حَتَّى تَكُونَ هَذِهِ الْحَالُ دَائِمًا عَلَى أَذْهَانِكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بَضَمٌ (التَّاءُ)، وَهِيَ غَيْرُ (تَصْعِدُونَ) بَفَتْحِهَا؛ لِأَنَّ الصُّعُودَ: الرُّقْيَ إِلَى أَعْلَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أَمَّا الْإِصْعَادُ فَهُوَ: السَّيْرُ هَرَبًا فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ، يُقَالُ: (أَصْعَدَ): أَيُّ ذَهَبَ هَارِبًا أَوْ مُسْرِعًا فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ لِلصَّحَابَةِ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَعَدَ الْجَبَلَ، لَكِنِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أَيُّ تَهْرَبُونَ سَرْعًا فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ؛ لِأَنَّ أَصْعَدَ مَاخُذٌ مِنَ الصَّعِيدِ، وَ(الصَّعِيدُ): وَجْهُ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]. ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾: أَيُّ لَا تَعْكُفُونَ أَوْ تَلْتَفِتُونَ إِلَى أَحَدٍ، وَلَمْ يَقُلْ:

لم تلتفتوا؛ لأن (الليّ) أبلغ، و(الليّ) هو: الانعطاف على الشيء، هم لا يلبون على أحد هرباً أو خوفاً من قتل الكفار إيّاهم، وتصور المشهد كيف كان، حوالي سبعمائة نفر من خيار المؤمنين يهربون لا يبقى مع الرسول ﷺ. إلا نفر قليل.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: قال البغوي: أي في آخركم ومن وراءكم يقول: "إيّ عباد الله، فأنا رسول الله، من يكره فله الجنة" رواه أحمد، وصححه الألباني. وقال القرطبي: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي في آخركم، يُقال: جاء فلان في آخر الناس وأخرة الناس وأخرى الناس وأخريات الناس. وفي البخاري: عن البراء بن عازب قال: "جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد عبد الله ابن جُبَيْرٍ، وأقبلوا مُنْهَزِمِينَ، فذَكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ. وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا". قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ: (أي عباد الله ارجعوا). وكان دعاءه تَغْيِيرًا لِلْمُنْكَرِ، وَمُحَالٌ أَنْ يَرَى. عَلَيْهِ السَّلَامُ. الْمُنْكَرُ وَهُوَ الْإِهْزَامُ ثُمَّ لَا يَنْهَى عَنْهُ. قُلْتُ: هَذَا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْإِهْزَامُ مَعْصِيَةً وَلَيْسَ كَذَلِكَ. وقال الشوكاني: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي في الطائفة المتأخرة منكم، يُقال: جاء فلان في آخر الناس، وأخرة الناس، وأخرى الناس، وأخريات الناس. وقال القاسمي: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي ساقيتكم وجماعتكم الأخرى، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرّة عليهم. وأنتم مُذْبِرُونَ وهو ثابت في مكانه في نحر العدو في نفرٍ يسيرٍ وثوقاً بوعده الله ومراقبته له. قال السدي: لَمَّا اشْتَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ، فَهَزَمُوهُمْ، دَخَلَ بَعْضُهُم الْمَدِينَةَ، وَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْجَبَلِ فَوْقَ الصَّخْرَةِ فَقَامُوا عَلَيْهَا. فَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ: "إيّ عباد الله، إيّ عباد الله" رواه أحمد، وصححه الألباني، فَذَكَرَ اللَّهُ صُعُودَهُمْ إِلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ ذَكَرَ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ..﴾. وقال العثيمين: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي الرسول في أخريات القوم، وهو الذي يلي الأعداء في الآخر، يدعوكم: (يا عباد الله، كروا، ارجعوا)، ولكن لشدة الأمر لا يلبون على أحد، وهذه قضية عظيمة،

ولكن الله قد عفا عنهم ولم يؤاخذهم بما جرى. ﴿أُخْرَاكُمْ﴾: يعني الآخر منكم؛ لأن من عادة النبي أن يكون في أخريات القوم، ليس كالمملوك يأخذون الصدر، بل هو كالراعي يكون في الآخر يتفقد الرعيّة، فقد يحتاجه أحد عندما يتخلف بعيره أو فرسه، فيساعده.

﴿فَأَتْبِكُمْ غَمًّا بَعْمَ لِكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ﴾: قال البغوي:

﴿فَأَتَابَكُمْ﴾: أي فَجَارَكُمْ. جَعَلَ الْإِثَابَةَ بِمَعْنَى: الْعِقَابِ وَأَصْلُهَا فِي الْحَسَنَاتِ؛ لِأَنَّهُ وَضَعَهَا مَوْضِعَ الثَّوَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جَعَلَ الْبَشَارَةَ فِي الْعَذَابِ. وَمَعْنَاهُ: جَعَلَ مَكَانَ الثَّوَابِ الَّذِي كُنْتُمْ تَرْجُونَ. وقال ابن الجوزي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَمًّا بَعْمَ﴾ فِي هَذِهِ (الْبَاءِ) أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَتَاهَا بِمَعْنَى: (مَعَ). وَالثَّانِي: بِمَعْنَى: (بَعْدُ). وَالثَّلَاثُ: بِمَعْنَى: (عَلَى)، فَعَلَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَقْوَالِ يَتَعَلَّقُ الْعَمَانُ بِالصَّحَابَةِ. وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَرَادِ بِهَذَيْنِ الْعَمَيْنِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ: مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ. وَالْغَمُّ الثَّانِي: إِشْرَافُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بِخَيْلِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُقَاتِلٌ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ: فِرَارُهُمُ الْأَوَّلَ، وَالْغَمُّ الثَّانِي: فِرَارُهُمْ حِينَ سَمِعُوا أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ: مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَأَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، وَالْغَمُّ الثَّانِي: حِينَ سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَالْقَوْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ: مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَالْفَتْحِ، وَالْغَمُّ الثَّانِي: إِشْرَافُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَيْهِمْ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَالْقَوْلُ الْخَامِسُ: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ: إِشْرَافُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَيْهِمْ، وَالْغَمُّ الثَّانِي: إِشْرَافُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَيْهِمْ، ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ. الْقَوْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ (الْبَاءَ) بِمَعْنَى: الْجَزَاءِ، فَتَقْدِيرُهُ: غَمَّكُمْ كَمَا غَمَّمْتُمْ غَيْرَكُمْ، فَيَكُونُ أَحَدُ الْعَمَيْنِ لِلصَّحَابَةِ، وَهُوَ أَحَدُ غُمُومِهِمُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَنِ الْمُفَسِّرِينَ، وَيَكُونُ الْغَمُّ الَّذِي جُوزُوا لِأَجْلِهِ لِعَيْرِهِمْ. وَفِي الْمَرَادِ بِعَيْرِهِمْ: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ غُمُومَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَهُ الْحَسَنُ. الثَّانِي: أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ غُمُوهُ حَيْثُ خَالَفُوهُ، فَجُوزُوا عَلَى ذَلِكَ، بِأَنَّ غُمُوهُ بِمَا أَصَابَهُمْ، قَالَهُ الرَّجَّاحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلًا تَحْزِنُوا﴾ فِي (لَا) قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ (لَا) بَاقِيَةٌ عَلَى أَصْلِهَا، وَمَعْنَاهَا

النَّفْيِ، فَعَلَى هَذَا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: فَأَتَابَكُمْ غَمًّا أَنْسَاكُمْ الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَمَا أَصَابَكُمْ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُتِلَ، نَسُوا مَا أَصَابَهُمْ وَمَا فَاتَهُمْ. الثَّانِي: أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، فَمَعْنَى الْكَلَامِ: عَفَا عَنْكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَأَصَابَكُمْ؛ لِأَنَّ عَفْوَهُ يُذْهِبُ كُلَّ غَمٍّ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ (لَا) صِلَةٌ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ: لِكَيْ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَأَصَابَكُمْ عُقُوبَةً لَكُمْ فِي خِلَافِكُمْ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَتَّقُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]، أَيْ لِيَعْلَمَ. هَذَا قَوْلُ الْمُفَضَّلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالَّذِي فَاتَهُمْ: الْغَنِيمَةُ، وَالَّذِي أَصَابَهُمْ: الْقَتْلُ وَالْهَزِيمَةُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾: لَفْظُ الثَّوَابِ لَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْأَغْلَبِ إِلَّا فِي الْخَيْرِ، وَيَجُوزُ أَيْضًا اسْتِعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ؛ لِأَنَّهُ مَاخُذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، أَيْ رَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَالْمَرْأَةُ تُسَمَّى ثَبِيًّا؛ لِأَنَّ الْوَاطِئَ عَائِدٌ إِلَيْهَا، وَأَصْلُ الثَّوَابِ: كُلُّ مَا يَعُودُ إِلَى الْفَاعِلِ مِنْ جَزَاءٍ فِعْلُهُ سَوَاءٌ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، إِلَّا أَنَّهُ بِحَسَبِ الْعُرْفِ احْتِصَصَ لَفْظُ الثَّوَابِ بِالْخَيْرِ، فَإِنْ حَمَلْنَا لَفْظَ الثَّوَابِ هَاهُنَا عَلَى أَصْلِ اللَّغَةِ اسْتَقَامَ الْكَلَامُ، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى الْعُرْفِ كَانَ ذَلِكَ وَارِدًا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، كَمَا يُقَالُ: حَيْثُكَ الضَّرْبُ، وَعِتَابُكَ السَّيْفُ، أَيْ جَعَلَ الْعَمَّ مَكَانَ مَا يَرْجُونَ مِنَ الثَّوَابِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وَ(الْبَاءُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (الْمَعَاوِضَةِ)، كَمَا يُقَالُ: هَذَا بِهَذَا، أَيْ هَذَا عَوَاضٌ عَنْ ذَلِكَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (مَعَ)، وَالتَّقْدِيرُ: أَتَابَهُمْ غَمًّا مَعَ غَمٍّ. أَمَّا عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ فَفِيهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ الرَّجَّاحِ: أَنْكُمْ لَمَّا أَدَقْتُمُ الرَّسُولَ غَمًّا بِسَبَبِ أَنْ عَصَيْتُمْ أَمْرَهُ، فَاللَّهُ أَذَاقَكُمْ هَذَا الْعَمَّ، وَهُوَ الْعَمُّ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِسَبَبِ الْإِهْزَامِ وَقَتْلِ الْأَحْبَابِ، وَالْمَعْنَى: جَازَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْعَمِّ بِهَذَا الْعَمِّ. الثَّانِي: قَالَ الْحَسَنُ: يُرِيدُ غَمَّ يَوْمٍ أُحُدٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِغَمِّ يَوْمٍ بَدْرٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ: أَنْ لَا يَبْقَى فِي قُلُوبِكُمُ التِّفَاتُ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَا تَفْرَحُوا بِإِقْبَالِهَا وَلَا تَحْزَنُوا بِإِدْبَارِهَا، وَهُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى

ما فاتكم ﴿[الحديد: ٢٣] في واقعة أحد، ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] في
 واقعة بدر، الثالث: يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿فأتاكم﴾ يعود للرسل، والمعنى:
 أن الصحابة لما رأوا أن النبي ﷺ شجَّ وجهه وكسرت ربايعيته وقُتل عمه، اعتَمُوا لأجله،
 والرسل لما رأى أنهم عصوا رَّهم لطلب الغنيمَة ثمَّ بقوا محرومين من الغنيمَة، وقُتل
 أقاربهم اعتَمَ لأجلهم، فكان المراد من قوله: ﴿فأتاكم غمًا بغم﴾ هو هذا، أما على
 التقدير الثاني وهو أن تكون (الباء) في قوله: ﴿غمًا بغم﴾ بمعنى (مع)، أي غمًا مع غم،
 أو غمًا على غم، فهذا جائز؛ لأنَّ حُرُوفَ الجَرِّ يُقامُ بعضها مقامَ بعض، تقول: ما زلتُ
 به حتى فعل، وما زلتُ معه حتى فعل، وتقول: نزلتُ ببني فلان، وعلى بني فلان. وقال
 القرطبي: ﴿فأتاكم غمًا بغم﴾: الغم في اللغة: التَّعطية. غممتُ الشيء: عطَّيته. ويومُ
 غمٍّ وليلة غمَّة إذا كانا مُظلمين. ومنه غمُّ الهلال إذا لم يُر، وغمَّني الأمرُ يعُمُّني. ﴿لكيلا
 تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾: (اللام) مُتعلِّقة بقوله:
 ﴿ولقد عفا عنكم﴾. وقيل: هي مُتعلِّقة بقوله: ﴿فأتاكم غمًا بغم﴾، أي كان هذا الغمُّ
 بعد الغمِّ لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمَة، ولا ما أصابكم من الهزيمة. والأول
 أحسن. و﴿غمًا﴾ في قوله: ﴿ما أصابكم﴾ في موضعٍ خفِض. وقيل: (لا) صلة، أي
 لكي تحزنوا على ما فاتكم، وما أصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم رسول الله ﷺ. وهو
 مثلُ قوله: ﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ [الأعراف: ١٢]، أي أن تسجد. وقوله
 ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: ٢٩]، أي ليَعلم، وهذا قولُ المُفضِّل. وقيل: أرادَ
 بقوله ﴿فأتاكم غمًا بغم﴾: أي تَوَالَتْ عَلَيْكُمُ الْعُمُومُ؛ لكيلا تشغلوا بعد هذا بالغنائم.
 وقال القاسمي: لفظُ الثَّوابِ لا يُستعملُ في الأغلبِ إلَّا في الخير، ويجوز أيضًا استعمالُه في
 الشرِّ؛ لأنَّه مأخوذٌ من قولهم: تاب إليه عقله، أي رجع إليه. قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا
 البيتَ مثابةً للناس﴾ [البقرة: ١٢٥]، والمرأة تُسمَّى ثيبًا؛ لأنَّ الواطئَ عائِدٌ إليها. وأصلُ
 الثَّوابِ: كُلُّ ما يعودُ إلى الفاعلِ من جزاءِ فعله، سواءً كان خيرًا أو شرًّا، إلَّا أنَّه يحسبُ

العُزْفُ اخْتَصَرَ لَفْظُ الثَّوَابِ بِالْحَيِّزِ. فَإِنْ حَمَلْنَا لَفْظَ الثَّوَابِ هَهُنَا عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ اسْتَقَامَ
 الْكَلَامُ، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُفْتَضَى الْعُزْفِ كَانَ ذَلِكَ وَارِدًا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، كَمَا يُقَالُ:
 تَحْيَيْتُهُ الصَّرْبُ وَعِتَابُهُ السَّيْفُ، أَيْ جَعَلَ الْغَمَّ مَكَانَ مَا يَرْجُونَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [الأنشقاق: ٢٤]. وقال العثيمين: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾:
 (أَثَابَكُمْ): الفاعل هو الله، ومعنى ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: أي أعطاكم. و﴿غَمًّا﴾: هو الثواب
 الذي أعطاهم الله، فهو المفعول الثاني لأثابكم. والثواب: هو المجازاة على العمل إن خيرًا
 فخير، وإن شرًّا فشر، حتى الإثابة على الشرّ تسمى ثوابًا، قال تعالى: ﴿هَلْ تُؤْتُونَ الْكُفَّارَ
 مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦]، لكن إذا قرن الثواب بالعقاب صار العقاب: الجزاء
 على السيئات، وصار الثواب: الجزاء على الحسنات، وأمثال هذا في اللغة كثير، تكون
 الكلمة لها معنى إذا أفردت، ولها معنى إذا قرنت بغيرها. وقوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾:
 (غَمًّا): مفعول ثانٍ لأثابكم. (بِغَمٍّ): (الباء) هنا، قيل: إنها للمصاحبة. وقيل: إنها
 للمبادلة. وقيل: إنها بمعنى (على)، ولكل وجه نظر، فأما الذين قالوا للمصاحبة، فقالوا:
 إِنَّ مَعْنَاهَا: أَثَابَكُمْ غَمًّا مَصْحُوبًا بِغَمٍّ، يعني مقترنًا به لم يفصل بينهما فاصل، غموم
 متتابعة. والذين قالوا: إنها بمعنى (على)، يقولون: إِنَّ مَعْنَاهَا: أَصَابَكُمْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ، ولا
 يلزم أن تكون متتابعة. والذين قالوا: إنها للبدل والعوض، يقولون: إِنَّ مَعْنَاهَا أَصَابَكُمْ
 غَمًّا (بِغَمٍّ) بدلًا عن الغم الذي حصل منكم. وإذا تأملنا، وجدنا أَنَّ الآية الكريمة تحتل
 كلَّ المعاني الثلاثة كما سيتبين إن شاء الله من تفسير الغمِّ ما هو؟ والقاعدة في التفسير:
 (أَنَّ الآية إذا كانت تحتل أكثر من معنى وليس بينهما منافاة، فإنَّها تحمل على ما تحتمله
 من المعاني)؛ لأن هذا من بلاغة القرآن. فما هي الغموم التي أصابتهم؟ نحن نعلم أَنَّ
 المسلمين في أحد أصيبوا بمصائب عظيمة: أولًا: كان النصر لهم في أول النهار، ثم كان
 عليهم في آخر النهار، وهذا لا شك أنه يحدث غمًّا عظيمًا؛ لأنه بعد أن تفرح النفوس
 بالنصر ثم تنتكس يكون هذا أشدَّ عليها مما لو كانت الانتكاسة لم تسبق بنصر. ثانيًا:

قُتِلَ مِنْهُمْ شُهَدَاءٌ مِنْ شُجْعَانِهِمْ مِثْلَ حَمْزَةِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يُقْتَلُ فِي أَعْضَادِهِمْ. ثَالِثًا: تَأَخَّرَ ثَلَاثُ الْجِيَشِ تَقْرِيبًا مِنْ أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ الَّذِينَ انْخَذَلَ بِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْمَنَافِقِ. رَابِعًا: أُشِيعَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُتِلَ، كَيْفَ تَكُونُ نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أُشِيعَ أَنَّ إِمَامَهُمْ وَقَائِدَهُمْ قَدْ قُتِلَ؟. خَامِسًا: أَنَّ الرَّسُولَ أَصِيبَ يَوْمَ أَحَدٍ، فَكَسَرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَشَجَّ وَجْهُهُ، وَأَصَابَهُ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ مَا لَمْ يَصْبِهِ مِنْ قَبْلُ، فَالْغَمُومُ كَثِيرَةٌ. وَهَذِهِ الْغَمُومُ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ (الْبَاءَ) بَدَلِيَّةٌ يَكُونُ مَعْنَاهَا: أَنْكُمْ أَصَابَكُمْ غَمٌّ بِسَبَبِ مَا أَصَابَتْكُمْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ مِنَ الْغَمِّ؛ لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي جَعَلَهُمُ النَّبِيُّ فِيهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَحْزَنُ الرَّسُولُ، ذَلِكَ الْقَائِدُ الَّذِي رَتَّبَ الْجِيَشَ وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ لَا يَدْعُوا الْمَكَانَ مَهْمَا كَانَ الْأَمْرُ ثُمَّ خَالَفُوهُ، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ وَاجِبَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ أَمْرَهُ شَرَعٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ. وَالثَّانِي: مِنْ وَجْهَةٍ أَنَّهُ قَائِدٌ وَوَلِيٌّ أَمْرٍ، وَمُخَالَفَةُ الْقَائِدِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا تَعْتَبَرُ شَدِيدَةً فِي نَفْسِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ حَصَلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ غَمٌّ أَصَابَهُمُ اللَّهُ بَغْمُومٍ. أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ (الْبَاءَ) لِلْمَصَاحِبَةِ، فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهَا غَمُومٌ مُتَلَاخِقَةٌ فِي غَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا كَوْنُهُ غَمًّا عَلَى غَمٍّ فَكَذَلِكَ أَيْضًا، كُلَّمَا فَاتَ غَمٌّ أَتَى غَمٌّ آخَرٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾: (اللام) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَالْمَعْلَلُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: أَيِ أَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ كَيْفَ ذَلِكَ؟ لِأَنَّ الْغَمَّ الْأَكْبَرَ يَنْسِي الْغَمَّ الْأَصْغَرَ، فَمِثْلًا: إِذَا فَاتَهُمُ النَّصْرُ فَهَذَا غَمٌّ بِلَا شَكٍّ، لَكِنْ إِذَا قُتِلَ نَبِيُّهُمْ هَذَا أَشَدُّ غَمًّا، فَلَمَّا أُشِيعَ أَنَّهُ قُتِلَ نَسُوا الْغَمَّ الْأَوَّلَ وَلَمْ يَحْزَنُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصِيبُوا بِغَمٍّ أَكْبَرَ. فَإِذَا جَاءَ الْفَرَجُ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَقِيَ زَالَتِ الْغَشَاوَةُ كُلُّهَا، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ لَطْفِ اللَّهِ بِهِمْ أَنَّهُ يَصِيبُهُمْ بِمَصَائِبٍ تَنْسِيهِمُ الْمَصَائِبَ الْأُولَى، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَنْفَرُجُ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَنَايَتِهِ بِالصَّحَابَةِ وَالنَّبِيِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾: يَعْنِي مِنَ النَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ. ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْخِذْلَانِ وَفَقْدِ الْغَنِيمَةِ، فَهَذِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ. وَنَصَبُ الْفِعْلِ (تَحْزَنُوا) فِي قَوْلِهِ:

﴿لَكَيْلًا تَحْزُنُوا﴾ هل هو بـ(كي)، أم باللام؟ يقولون: إذا ذكرت (اللام)، و(كي) فالنصب بـ(كي)، وإذا ذكرت (كي) وحدها، أو (اللام) وحدها فالكوفيون يقولون: الحرف هو الناصب، والبصريون يقولون: الناصب (أنْ مضمرة)، يعني إذا اجتماعا صار النصب (بكي) مباشرة.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: قال القرطبي: فِيهِ مَعْنَى التَّحْذِيرِ وَالْوَعِيدِ. وقال أبو حيان: هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَقْتَضِي تَهْدِيدًا. وَحَصَّ الْعَمَلُ هُنَا وَإِنْ كَانَ تَعَالَى خَيْرًا بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالنِّيَّاتِ؛ تَنْبِيْهَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ تَوَلِيَةِ الْأَذْبَارِ وَالْمِبَالَعَةِ فِي الْفِرَارِ، وَهِيَ أَعْمَالٌ تُخْشَى عَاقِبَتُهَا وَعِقَابُهَا. وقال الألوسي: أَيُّ عِلِيمٍ بِأَعْمَالِكُمْ وَمَا قَصَدْتُمْ بِهَا، وَفِي الْمَقْصِدِ الْأَسْنَى: الْخَيْرُ: بِمَعْنَى: الْعِلِيمِ، لَكِنَّ الْعِلْمَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْخَفَايَا الْبَاطِنَةِ سُمِّيَ خَبْرَةً، وَسُمِّيَ صَاحِبُهَا خَيْرًا. وَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الطَّاعَةِ، وَتَرْهِيْبٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وقال القاسمي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ خَيْرًا وَشَرًّا، قَادِرٌ عَلَى مُجَازَاتِكُمْ. وَفِيهِ أَعْظَمُ زَاجِرٍ عَنْ الْأَقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وقال العثيمين: ﴿خَيْرٌ﴾: مأخوذ من الخبر، وهو العلم ببواطن الأمور، ومنه سُمِّيَ الزَّارِعُ خَيْرًا؛ لِأَنَّهُ يَدْفِنُ الْحَبَّ وَيُخْفِيهِ. فالأصل: أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْخَفَاءِ، فَالْخَبِيرُ هُوَ الْعِلِيمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، وَالْعِلِيمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ عِلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى. ﴿بِمَا﴾: أَيُّ بِالَّذِي تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مِنْ فِعْلِ وَقَوْلٍ وَوَسُوسَةٍ فِي النَّفُوسِ، لَكِنْ هُنَا قَالَ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَبَرَةِ هُنَا: مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْحِسَابِ، فَهِيَ جُمْلَةُ خَبَرِيَّةٍ تَفِيدُ التَّهْدِيدَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَحَاسِبُ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ، أَمَّا حَدِيثُ النَّفْسِ فَلَا يَحَاسِبُ عَلَيْهِ، وَلَوْ حَدَّثَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِفِعْلِ الْمَعَاصِي أَوْ تَرَكَ الْوَاجِبَاتِ ثُمَّ لَمْ يَنْقُذْ فَإِنَّهُ لَا يَحَاسِبُ.

- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾:

- مناسبة الآية التي قبلها:

قال الرازي: في كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ وَجْهَانِ:

الأوّل: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَهَذَا النَّصْرُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِإِزَالَةِ الْخَوْفِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أزالَ الْخَوْفَ عَنْهُمْ لِيَصِيرَ ذَلِكَ كَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يُنَجِّزُ وَعْدَهُ فِي نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ.

الثاني: أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا، فَلَمَّا عَصَى بَعْضُهُمْ سَلَطَ الْخَوْفَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ أزالَ ذَلِكَ الْخَوْفَ عَنْ قُلُوبِ مَنْ كَانَ صَادِقًا فِي إِيْمَانِهِ مُسْتَقِرًّا عَلَى دِينِهِ بِحَيْثُ غَلَبَ النُّعَاسُ عَلَيْهِ.

- تفسير الآية:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾: قال مكّي: (النعاس) بدل من (أمنة). ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله. و(أمنة) مصدر في الأصل. وقيل: هو اسم فاعل. أخبرهم الله أنه جعلهم طائفتين طائفة أمنة حتى نعست، وطائفة أهتمتها نفسها حين ظنت بالله غير الحق، أي ساء ظنّها بالله. وسبب ذلك فيما ذكر السدي: أنّ المشركين انصرفوا من أحد بعدما كان منهم، فتخوّف المسلمون أن ينزل المشركون المدينة، فبعث النبي ﷺ رجلاً وقال له: انظر، فإن رأيتهم قعوداً على أثقابهم، وجنبوا خيلهم، فإنّ القوم ينزلون المدينة، فاتقوا الله، واصبروا، ووطّئهم على القتال، وإن رأيتهم

سِرَاعاً عِجَالاً، فليس ينزلون المدينة، فلمّا أبصرهم الرسول سراعاً عِجَالاً نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلمّا رأى المؤمنون ذلك أمنوا وناموا، وبقي أناس من المنافقين يظنون أنّ القوم يأتوهم فطار عنهم النوم، ولم يركنوا إلى قول النبي ﷺ وما أخبرهم به: أنهم لا ينزلون المدينة. وقال الماوردي: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةٌ نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾: وسبب ذلك: أنّ المشركين يوم أُحُدٍ تَوَعَّدُوا الْمُؤْمِنِينَ بِالرُّجُوعِ، فَكَانَ مَن أَخَذَتْهُ الْأَمْنَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُتَأَهِّبِينَ لِلْقِتَالِ، وَهُمْ أَبُو طَلْحَةَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَغَيْرُهُمْ فَنَامُوا حَتَّى أَخَذَتْهُمُ الْأَمْنَةُ. وقال السمعاني: قيل: الأمن والأمنة بمعنى واحد. وقيل: يكون مع زوال سبب الخوف، فأما هَا هُنَا فَقَالَ: ﴿أَمْنَةٌ نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾. قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: نعاساً أمانة. وقيل: هو على نظمه مُسْتَقِيم. ومعنى الآية: أنّ الله أَرَادَ تَمِيزَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَأَوْقَعَ النُّعَاسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْنَةً هُمْ، حَتَّى أَمِنُوا، وَلَمْ يُوقِعْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فَبَقُوا عَلَى الْخَوْفِ. قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَوْقَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا النُّعَاسَ وَنَحْنُ تَحْتَ الْحَجَرِ. وقيل: أوقع النعاس عليهم حتى كان ينسقط السيوف من أيديهم، وكذلك عبد الرحمن بن عوف، والزبير أخبرا عن ذلك النعاس، كما أخبر أبو طَلْحَةَ. وَعَنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أَوْقَعَ اللَّهُ النُّعَاسَ عَلَيْنَا سَمِعْنَا مَعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَا هُنَا، وَكُنْتُ كَأَنِّي فِي النَّوْمِ أَسْمَعُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾: يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ. وقال ابن الجوزي: قَالَ الْعُلَمَاءُ: النُّعَاسُ: أَخَفُّ النَّوْمِ. وَفِي وَجْهِ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِمُ بِالنُّعَاسِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَمِنَهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ حَتَّى نَامُوا، فَلَمِنَتُهُ بِزَوَالِ الْخَوْفِ؛ لِأَنَّ الْخَائِفَ لَا يَنَامُ. وَالثَّانِي: فَوَّاهُمْ بِالِاسْتِرَاحَةِ عَلَى الْقِتَالِ. وقال الرازي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُعَاسًا﴾ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ أَمْنَةٍ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْنَةٌ﴾ وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْهُ مُقَدَّمَةً عَلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ رَاكِبًا رَجُلًا. وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ بِمَعْنَى نَعَسْتُمْ أَمْنَةً. وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمُخَاطَبِينَ بِمَعْنَى ذَوِي أَمْنَةٍ. وقال القرطبي:

الْأَمْنَةُ وَالْأَمْنُ سَوَاءٌ. وَقِيلَ: الْأَمْنَةُ إِنَّمَا تَكُونُ مَعَ أَسْبَابِ الْخَوْفِ، وَالْأَمْنُ مَعَ عَدَمِهِ. وَقَدْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ هَذِهِ الْعُمُومِ فِي يَوْمٍ أُحْدٍ بِالنُّعَاسِ حَتَّى نَامَ أَكْثَرُهُمْ، وَإِنَّمَا يَنْعَسُ مَنْ يَأْمَنُ وَالْخَائِفُ لَا يَنَامُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: "عَشِينَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحْدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخْذُهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخْذُهُ". وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَابَكُمْ﴾. وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا. ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾: أَيِ الْغَمِّ الْمَذْكُورِ. وَالتَّصْرِيحُ بِتَأْخُرِ الْإِنْزَالِ عَنْهُ مَعَ دِلَالَةٍ (ثُمَّ) عَلَيْهِ وَعَلَى تَرَاخِيهِ عَنْهُ؛ لِرِيزَادَةِ الْبَيَانِ؛ وَتَذْكِيرِ عِظَمِ النِّعْمَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: الْأَمْنَةُ وَالْأَمْنُ سَوَاءٌ. وَقِيلَ: الْأَمْنَةُ إِنَّمَا تَكُونُ مَعَ أَسْبَابِ الْخَوْفِ، وَالْأَمْنُ مَعَ عَدَمِهِ، وَهِيَ مَنْصُوبَةٌ بِ(أَنْزَلَ). وَ(نُعَاسًا) بَدَلٌ مِنْهَا، أَوْ عَطْفٌ بَيَانٍ، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ، وَأَمَّا مَا قِيلَ: مِنْ أَنَّ أَمْنَةً حَالٌ مِنْ (نُعَاسًا) مُقَدِّمَةٌ عَلَيْهِ، أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَخَاطِبِينَ، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ، فَبَعِيدٌ. وَمَعْنَى أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ: حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ، أَهَمَّنِيَ الْأَمْرُ أَفْلَقْنِي. وَ(الْوَاوُ) فِي قَوْلِهِ: (وَطَائِفَةٌ) لِلْحَالِ. وَجَازَ الْإِبْتِدَاءُ بِالتَّكْرَرِ؛ لِاعْتِمَادِهَا عَلَى (وَ) الْحَالِ. وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: أَيِ صَارَتْ هَمَّهُمْ، لَا هَمَّ لَهُمْ غَيْرُهَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿فَأَنَابَكُمْ﴾. وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا. وَالْمَعْنَى ثُمَّ وَهَبَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ الَّذِي اعْتَرَاكُمْ. وَالتَّصْرِيحُ بِتَأْخُرِ الْإِنْزَالِ عَنْهُ مَعَ دِلَالَةٍ ثُمَّ عَلَيْهِ وَعَلَى تَرَاخِيهِ عَنْهُ؛ لِرِيزَادَةِ الْبَيَانِ، وَتَذْكِيرِ عِظَمِ الْمُنَّةِ. ﴿أَمْنَةً﴾: قِيلَ: هَذِهِ عَادَةُ اللَّهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، جَعَلَ النُّعَاسَ فِي الْحَرْبِ عَلَامَةً لِلظَّفَرِ. وَ﴿أَمْنَةً﴾: مَصْدَرٌ كَالْمُنْعَةِ، وَهُوَ مَفْعُولُ (أَنْزَلَ)، أَيِ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَمْنًا. ﴿نُعَاسًا﴾: بَدَلٌ اشْتِمَالٍ مِنْهَا. وَقِيلَ: عَطْفٌ بَيَانٍ. وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ ﴿نُعَاسًا﴾ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، وَ(أَمْنَةً) حَالٌ مِنْهُ، وَالْمَرَادُ: ذَا أَمْنَةٍ، وَلَا يَضُرُّ كَوْنُهَا مِنَ التَّكْرَرِ؛ لِتَقْدِيمِهَا. أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَخَاطِبِينَ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيِ ذَوِي أَمْنَةٍ. أَوْ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ (أَمِنْ) كَ(بَارٍ، وَبَرَّةٍ). وَقِيلَ: إِنَّ أَمْنَةً مَفْعُولٌ لَهُ لِ(نُعَاسًا)، وَاعْتَرَضَ بِأَنَّهُ

يَلْزِمُ عَلَى ظَاهِرِهِ تَقْدِيمُ مَعْمُولِ الْمَصْدَرِ عَلَيْهِ، وَإِنْ التَّرَمَّ تَقْدِيرُ فِعْلٍ، أَيْ نَعَسْتُمْ أَمَنَةً، وَرُدَّ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْفِعْلِ مَوْقِعٌ حَسَنٌ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ ل(أَنْزَلَ). وَاعْتَرِضَ بِأَنَّهُ فَاسِدٌ؛ لِاخْتِلَافِ شَرْطِهِ وَهُوَ اتِّحَادُ الْفَاعِلِ؛ إِذْ فَاعِلُ أَنْزَلَ هُوَ اللَّهُ، وَفَاعِلُ الْأَمَنَةِ هُوَ الْمَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، وَرُدَّ بِأَنَّ الْأَمَنَةَ كَمَا يَكُونُ مَصْدَرًا لِمَنْ وَقَعَ بِهِ الْأَمْنُ يَكُونُ مَصْدَرًا لِمَنْ أَوْقَعَهُ، وَالْمَرَادُ هُنَا الثَّانِي، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ النَّعَاسَ؛ لِيُؤَمِّنَكُمْ بِهِ، وَحِينَئِذٍ لَا شُبْهَةَ فِي اتِّحَادِ الْفَاعِلِ. وَتَقْدِيمُ الظَّرْفَيْنِ عَلَى الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ؛ لِلِاعْتِنَاءِ بِشَأْنِ الْمَقْدَمِ، وَالتَّشْوِيقِ إِلَى الْمُؤَخَّرِ. وَتَخْصِصِ الْخَوْفِ مِنْ بَيْنِ فُتُونِ الْغَمِّ بِالْإِزَالَةِ؛ لِأَنَّهُ الْمِهْمُ عَنْدهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرْتِيبِ بِمَهْلَةٍ. ﴿أَنْزَلَ﴾: أَيِ اللَّهِ. ﴿مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾: كُلِّ الْغُمُومِ السَّابِقَةِ، فَالْمَرَادُ بِالْغَمِّ هُنَا: جِنْسُ الْغَمِّ، فَشَمِلَ الْغَمَّ بَعْدَ الْغَمِّ. ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: (أَمَنَةً) يَجُوزُ فِي إِعْرَابِهَا وَجْهَانِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا لِأَجَلِهِ. الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ ل(أَنْزَلَ)، فَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ يَكُونُ (نُعَاسًا) مَفْعُولُ (أَنْزَلَ)، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ (نُعَاسًا) بَدَلًا أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ مِنْ (أَمَنَةً). وَ(أَمَنَةً) بِمَعْنَى أَمْنٍ، يَعْنِي أَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا. وَ(أَمَنَةً) وَ (أَمْنٍ) بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ (الْأَمْنِ) وَبَيْنَ (الْأَمَنَةِ)، وَهُوَ: أَنَّ (الْأَمَنَةَ) أَمْنٌ مُؤَقَّتٌ يَكُونُ بَعْدَهُ خَوْفٌ كَمَا فِي الْآيَةِ. وَ(الْأَمْنِ) يَكُونُ أَمْنًا مُطَرِّدًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] أَيِ فِي الْجَنَّةِ. وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ مَصْدَرٌ، وَالْمَصْدَرُ مُطْلَقٌ يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، أَمَّا ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ فَإِنَّ فِيهَا (أَل) الدَّالَّةَ عَلَى الْكَمَالِ وَالِاسْتِغْرَاقِ، لَكِنْ لَوْ قُلْتُ: أَمِنْ أَمْنًا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ دَائِمٌ، أَوْ أَمَنَةً لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ دَائِمٌ، فَالظَّاهِرُ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ: أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا؛ لِهَذَا فَسَّرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: أَمَنَةً يَعْنِي أَمْنًا. فَمَا الْمَرَادُ بِهَذَا الْأَمْنِ؟ قَالَ: ﴿نُعَاسًا﴾، وَالنُّعَاسُ: مَقْدَمَةُ النَّوْمِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْخَائِفَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْعَسَ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ مُضْطَرَبٌ، لَكِنَّ الْأَمْنَ الْمَطْمَئِنَّ يَنْعَسُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾، أَيِ يَصِيبُ طَائِفَةً، وَالْغَشْيَانِ فِي الْأَصْلِ: التَّغْطِيَةُ،

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لكن قد يراد به مجرد الإصابة، وقد يراد به مع الإصابة أنه شملهم جميعًا. ﴿يُغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين.

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: قال الماوردي: أي من الخوف وهم من المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، ومن معهما، أخذهم الخوف فلم يناموا لسوء الظن. وقال القرطبي: يعني المنافقين. أي حملتهم على الهمة. والهم: ما هممت به، يقال: أهمني الشيء أي كان من همي. وأمر مهم: شديد. وأهمني الأمر: أقلقني. وهمني: أذاني. والواو في قوله تعالى: (وطائفة) (واو) الحال بمعنى (إذ)، أي إذ طائفة يظنون أن أمر محمد ﷺ باطل، وأنه لا ينصر. وقال العنمين: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: يعني فلم يغشهم النعاس لماذا؟ لأن أنفسهم قد أهمتهم، وأوقعتهم في الهمة، وهم من شدة قلقهم يقولون: لا ندري ما يكون، والذي هكذا حاله لا يأتيه النوم ولا يقربه النعاس؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وطوى ذكر ترك عدم النعاس؛ لأنه يعلم من حار منهم فإنه لا يمكن أن ينعس إذا كانت قد أهمتهم أنفسهم.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: قال ابن الجوزي: فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدًا وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. الثاني: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك، عن ابن عباس. الثالث: أنهم ظنوا أن محمدًا قد قُتل، قاله مقاتل. الرابع: ظنوا أن أمر النبي ﷺ مضمحل، قاله الزجاج. وقال الثعالبي: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: ذهب الجمهور إلى أن المراد: مدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام، وهذا كقوله سبحانه: ﴿حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: [الفتح: ٢٦]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد في هذه الآية: ظن الفرقة الجاهلية، وهم أبو سفيان ومن معه، قال قتادة، وابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي ابن سلول: قتل بنو الحزرج، فقال: وهل لنا من الأمر من شيء، يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء،

لسمع مَنْ رأينا، فلم يُخْرِجْ، فلم يُقْتَلْ أَحَدٌ مِنَّا. وقال الألوسي: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾: قال ابنُ الحَاجِبِ: (غَيْرَ الْحَقِّ، وَظَنَّ) مَصْدَرَانِ، أَحَدُهُمَا لِلتَّشْبِيهِ، وَالْآخَرُ تَأْكِيدٌ لِعَيْزِهِ، أَيْ يَقُولُونَ غَيْرَ الْحَقِّ. وَمَفْعُولَا ﴿يُظُنُّونَ﴾ مَحْذُوفَانِ، أَيْ يُظُنُّونَ أَنَّ إِخْلَافَ وَعْدِهِ سُبْحَانَهُ حَاصِلٌ. وَأَبُو الْبَقَاءِ يَجْعَلُ ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مَفْعُولًا أَوَّلًا، أَيْ أَمْرًا غَيْرَ الْحَقِّ، وَ﴿بِاللَّهِ﴾ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي. ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ. وَإِضَافَةُ (ظَنَّ) إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ، قِيلَ: إِمَّا مِنْ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى مَصْدَرِ صِفَتِهِ، وَمَعْنَاهَا الْإِخْتِصَاصُ بِالْجَاهِلِيَّةِ، كَرَجُلٍ صِدْقٍ، وَحَاتِمِ الْجُودِ، فَهِيَ عَلَى مَعْنَى (اللام)، أَيْ الْمُخْتَصَّصَ بِالصِّدْقِ وَالْجُودِ، فَ(الياءُ) مَصْدَرِيَّةٌ، وَ(التَّاءُ) لِلتَّأْنِيثِ اللَّازِمِ لَهُ، وَإِمَّا مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ ظَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ، أَيْ الشِّرْكَ وَالْجَهْلَ بِاللَّهِ، وَهِيَ اخْتِصَاصِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ أَيْضًا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: جُمْلَةُ ﴿يُظُنُّونَ...﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبَرًا ثَانِيًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَائِفَةٌ﴾، وَالْخَبَرُ الْأَوَّلُ جُمْلَةُ: ﴿قَدْ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: يَعْنِي وَطَائِفَةٌ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَكَذَلِكَ يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿يُظُنُّونَ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿أَهْمَتَهُمْ﴾، يَعْنِي أَهْمَتَهُمْ حَالُ كَوْنِهِمْ يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، يَعْنِي يُظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا غَيْرَ ظَنِّ الْحَقِّ، فَمَا هُوَ هَذَا الظَّنُّ؟ يُظُنُّونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، يَقُولُونَ مِثْلًا: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ وَظَنَّهُمْ مِثْلًا أَنَّ الرِّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُتِلَ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ لَا نَصْرَ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَهُ، وَأَنَّ الدَّوْلَةَ سَتَكُونُ لِلْكَافِرِينَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا ظَنٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْجَهْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فَبَدَأَ بِبَطْلَانِ هَذَا الظَّنِّ أَوَّلًا، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ جَهْلٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: أَيْ ظَنَّ أَهْلَ الْجَهْلِ؛ لِأَنَّ مِنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَظُنَّ بِهِ هَذَا الظَّنَّ، أَنَّ اللَّهَ يَدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، لَا يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ. قَالَ: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ

مِنْ شَيْءٍ: ﴿يَقُولُونَ﴾ يصح أن تكون خبراً ثانياً أو ثالثاً لـ ﴿طَائِفَةٌ﴾، ويصح أن تكون حالاً من (الواو) في ﴿يَظُنُّونَ﴾، يظنون حال كونهم قائلين.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾: قال الواحدي: أي ما لنا، استفهام يتضمّن الجحد. قال الحسن: يقولون: أُخْرِجْنَا كُرْهًا، ولو كان الأمر إلينا ما خَرَجْنَا. وقال الأكثرون: أي ليس لنا مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ شَيْءٌ كما وعدنا، بل هو للمشركين، يقولون ذلك على جهة التكذيب. وقال ابن الجوزي: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾: لَفْظُهُ لَفْظُ الْإِسْتِفْهَامِ، وَمَعْنَاهُ: الْجَحْدُ، تَقْدِيرُهُ: مَا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ. قَالَ الْحَسَنُ: قَالُوا لَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا مَا خَرَجْنَا، وَإِنَّمَا أُخْرِجْنَا كُرْهًا. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: النَّصْرُ وَالظَّفَرُ، قَالُوا: إِنَّمَا النَّصْرُ لِلْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾: أَيُّ مَا لَنَا شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ، أَيُّ مِنْ أَمْرِ الْخُرُوجِ، وَإِنَّمَا خَرَجْنَا كُرْهًا، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَيُّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ: هَلْ لَنَا مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَالظَّفَرِ نَصِيبٌ، أَيُّ لَيْسَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ مُحَمَّدًا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ يَقُولُ الْحَاضِرُونَ مِنْهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى صُورَةِ الْإِسْتِشَادِ: هَلْ لَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ بِالنَّصْرِ شَيْءٌ، وَاخْتَارَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿يَقُولُونَ﴾: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي قُلُوبِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، يَعْنِي يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟. وَالْأَصْلُ فِي الْقَوْلِ إِذَا أُطْلِقَ فَهُوَ: قَوْلُ اللِّسَانِ، وَإِذَا كَانَ قَوْلُ النَفْسِ فَلَا بَدَّ أَنْ يَقِيدَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، فَإِذَا تَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَادِرٌ مِنْهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ. إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ الْقَوْلَ إِذَا أُطْلِقَ فَهُوَ قَوْلُ اللِّسَانِ فَكَيْفَ تَجِيبُونَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]؟ يُقَالُ: هَذَا مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ؛ وَلِيَقَابَلَ قَوْلُ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ. ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ﴿هَلْ﴾ هُنَا

للاستفهام، لكن المراد من الاستفهام هنا: الإنكار، كأنهم يقولون: هل نحن روجعنا، هل أخذت مشورتنا، أو أنهم ينفون فيكون الاستفهام للنفي يعني يقول: ليس لنا من الأمر من شيء، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: هذا يؤيد أنّ ﴿هَلْ﴾ بمعنى الإنكار، أي أنهم ينكرون أنهم لم يرجع إليهم بشيء، فسياق الآية يدل على هذا، وأن هؤلاء أخذوا على القيادة في هذه الغزوة أنها لم تراجعهم. وقالوا: هل لنا من الأمر من شيء؟ فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ويؤيد هذا أيضاً قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، يعني لو كان لنا من الأمر شيء ما حصلت هذه الهزيمة إلى آخر الآيات. فالظاهر: أنّ الاستفهام هنا ليس للنفي كما ذهب إليه بعض المفسرين، ولكن معناه: الإنكار على القيادة أنها لم تراجعهم في هذا الأمر. والأمر هنا: واحد الأمور وليس واحد الأوامر، يعني لم يوجه إلينا من أمر الحرب شيء، فكأنهم يريدون أن يتصلوا بما حصل، ويقولون: ما روجعنا ولا رجع إلينا ولا أخذ رأينا.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: قال الواحدي: أي النصّر بيد الله. وقال عطاء، عن ابن عباس: يريد القضاء والقدر، والنصرة والشهادة. وقال القرطبي: أي أنّ الأمر أجمع لله، فهو توكيد، وهو بمعنى أجمع في الإحاطة والعموم، وأجمع لا يكون إلا توكيداً. وقيل: هو نعت للأمر. وقال الأخفش: بدل، أي النصّر بيد الله ينصّر من يشاء ويخذل من يشاء. وقال الثعالبي: قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ اعتراض أثناء الكلام فصيح، ومضمّنه الرد عليهم. وقال الألوسي: ﴿قُلْ﴾: أي يا محمد. ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: أي إنّ الشأن والعلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، فينصّر رسوله وأصحابه، ويخذل أعداءه ويفهرهم. وكفى بكون العلبة لله عن كونها لأوليائه؛ لكونهم من الله بمكان، أو أنّ القضاء أو التدبير له تعالى مخصوص به لا يشاركه فيه غيره، فيفعل ما يشاء، ويجري الأمور حسبما جرى به القلم في سابق القضاء، وعلى هذا لا كناية في الكلام، وجاء مؤكداً؛ لما أنّ الكلام الذي وقع هو في مقابلته كذلك. وقال السعدي: الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر

الشرعيّ، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر لأوليائه، وإن جرى عليهم ما جرى. وقال العثيمين: أي الأمر لله كلّهُ هو الذي يتصرّف في عبادته كما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة، سواء كان هذا الأمر كونيّاً، وهو الذي يقول الله له: كن فيكون، أو شرعيّاً، وهو الأمر الموجّه للعباد افعلوا أو لا تفعلوا، كلّهُ لله، كما أنّ الحكم كلّهُ لله.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: قال ابن الجوزي: في الذي أخفوه: ثلاثة أقوال: أحدها: أنّه قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا فِي بُيُوتِنَا مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. الثاني: أنّه إسرارُهُم الكُفْرَ، والشكَّ في أمرِ الله. الثالث: النَّدَمُ عَلَى حُضُورِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِأُحْدٍ. وقال القرطبي: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: أي من الشرك والكُفْرِ والتَّكْذِيبِ. ﴿مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: أي ما لا يُظْهِرُونَ لَكَ. وقال الثعالبي: وقوله سبحانه: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: أخبر تعالى عنهم على الجملة دُونَ تَعْيِينِ، وهذه كانت سُنَّتُهُ في المنافقين، لا إله إلا هو. وقال العثيمين: أي يضمرون في نفوسهم ما لا يبدونه للرسول ﷺ، ولكن الله يعلمه.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: قال الماوردي: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّا أُخْرِجْنَا كَرْهًا وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا مَا خَرَجْنَا، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ. الثَّانِي: أَي لَيْسَ لَنَا مِنَ الظَّفَرِ شَيْءٌ، كَمَا وَعَدْنَا، عَلَى جِهَةِ التَّكْذِيبِ لِذَلِكَ. وقال الواحدي: قال المفسرون: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَوْ كَانَ لَنَا عَقْلٌ، لَمْ نَخْرُجْ مَعَ مُحَمَّدٍ لِقِتَالِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَمَّا قُتِلَ رُؤُسَاؤُنَا. وَهَذَا مِنْهُمْ تَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ حِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْرُجُوا لَمْ يُقْتَلُوا. وقال القرطبي: ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: أَي مَا قُتِلَ عَشَائِرُنَا. فَقِيلَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا لَوْ كَانَ لَنَا عَقْلٌ مَا خَرَجْنَا إِلَى قِتَالِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَمَّا قُتِلَ رُؤُسَاؤُنَا. وقال الثعالبي: هي مقالة سُمِعَتْ مِنْ مُعْتَبِرِ بْنِ قُشَيْرٍ الْمَعْمُوسِ عَلَيْهِ بِالنِّفَاقِ.

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: قال الماوردي: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يَعْنِي لَوْ تَخَلَّفْتُمْ لَخَرَجَ مِنْكُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَتَخَلَّفُوا بِتَخَلُّفِكُمْ. الثَّانِي: لَوْ تَخَلَّفْتُمْ لَخَرَجَ مِنْكُمْ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُعُودُهُمْ. وقال

الواحدى: يعني لو تَخَلَّفْتُمْ عن القتال لَخَرَجَ مِنْكُمْ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ، ولم يكن لِيُنْجِيَهُمْ قُعودهم. ومعنى (بَرَزَ): صار إلى (بَرَزَ)؛ وهو المكان المنكشف. والمضاجع: جمعُ المَضْجَعِ، وهو الموضع الذي يَضْجَعُ عليه الإنسان. ومنه قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال: (أَضْجَعْتُ فُلَانًا): إذا وَضَعْتَ جَنْبَهُ بالأرض. و(ضَجَعَ)، فهو يَضْجَعُ بِنَفْسِهِ. ويريد بـ﴿المضاجع﴾ ههنا: مَصَارِعَهُم للقتل، أي حيث يَسْقُطُونَ هناك قتلى. وقال ابن الجوزي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: أي لَوْ تَخَلَّفْتُمْ لَخَرَجَ مِنْكُمْ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، وَلَمْ يُنْجِهِ الْقُعُودُ. والمضاجع: المصارعُ بِالْقَتْلِ. قَالَ الرَّجَّاحُ: وَمَعْنَى (بَرَزُوا): صَارُوا إِلَى بَرَزٍ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُنْكَشَفُ. وقال القرطبي: ﴿لَبَرَزَ﴾: أي لَخَرَجَ. ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾: أي فُرِضَ. ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾: يعني في اللوح المحفوظ. وَقِيلَ: أي فُرِضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْقَتْلِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ. ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: أي مَصَارِعِهِمْ. وقال السعدي: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظانِّ القتلى. ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بدّ أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة. وقال العثيمين: يعني قل يا محمد لهؤلاء أنّ اختفاءكم وبقاءكم في بيوتكم لا يمنع أن تبرزوا إلى مضاجعكم حيث كتب عليكم القتلى. ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾: كتب عليهم القتلى كتابة قدرية لا كتابة شرعية، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: [الأنبياء: ١٠٥] هذه كتابة قدرية. أمّا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾: [البقرة: ١٨٣] فهي كتابة شرعية بمعنى فُرِضَ. وقوله: ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: أي مكان الاضطجاع الذي يدفنون فيه؛ لأن الميت يضطجع في قبره. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: قال الماوردي: فِيهِ تَأْوِيلَانِ: أَحَدُهُمَا: أي لِيُعَامِلَكُم مُعَامَلَةَ الْمَبْتَلَى الْمُخْتَبَرِ. الثَّانِي: أي لِيَبْتَلِيَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ، فَأَضَافَ الْإِبْتِلَاءَ

إِلَيْهِ؛ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ. وقال الواحدي: قال الكسائي وغيره: وَلَيَبْتَلِي الله ما في صدوركم، فَعَلَ ما فَعَلَ يَوْمَ أُحُدٍ. فَحُذِفَ واختُصِرَ؛ لِبَيَانِ المعنى. ومعنى ﴿لَيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم. وقال أبو إسحاق: أي: لِيُخْتَبَرَ ما في صدوركم؛ لِيَعْلَمَهُ مُشَاهَدَةً كما يعلمه غيبًا؛ لأن المجازاة تَقَعُ على ما عِلْمُهُ مُشَاهَدَةً. وقيل: لِيَبْتَلِي أولياء الله ما في صدوركم. إلا أنه أَضِيفَ الابتلاءُ إلى الله؛ تفخيما لشأنهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾. وقال ابن الجوزي: أي لِيُخْتَبَرَهُ بِأَعْمَالِكُمْ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عِلْمُهُ غَيْبًا، فَيَعْلَمُهُ شَهَادَةً. وقال القرطبي: ﴿وَلَيَبْتَلِي﴾: (الواو) مقحمة، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الانعام: ٧٥]، أي لِيَكُونَنَّ، وَحُذِفَ الْفِعْلُ الَّذِي مَعَ لَامٍ كَي. وَالتَّقْدِيرُ: فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَالْحَرْبَ وَلَمْ يَنْصُرْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ؛ لِيُخْتَبَرَ صَبْرُكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ إِنْ تُبْنُوا وَأَخْلَصْتُمْ. وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿وَلَيَبْتَلِي﴾: لِيُعَامِلَكُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبَرِ. وَقِيلَ: لِيَقَعَ مِنْكُمْ مُشَاهَدَةٌ مَا عِلْمُهُ غَيْبًا. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالتَّقْدِيرُ: لِيَبْتَلِي أولياء الله. وقال الألوسي: أي لِيُخْتَبَرَ الله ما في صُدُورِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ عِلْمُهُ غَيْبًا وَيُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَهُ شَهَادَةً؛ لِتَقَعَ الْمَجَازَةُ عَلَيْهِ، قَالَهُ الرَّجَّاحُ، أَوْ لِيُعَامِلَكُمْ مُعَامَلَةَ الْمُتَلَى الْمُتَحَنِّ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَهُوَ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَ(اللام) لِلتَّعْلِيلِ. وَإِنَّمَا جُعِلَ الْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ الْمُعْتَدُّ بِهِمْ؛ وَلِأَنَّ إِظْهَارَ حَالِهِمْ مُظْهَرٌ لِعَيْرِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّهُ هُمْ وَلِلْمُنَافِقِينَ، أي لِيَبْتَلِي ما في سرائركم مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالتَّنَاقُصِ. وَقِيلَ: لِلْمُنَافِقِينَ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ سَوْقَ الْآيَةِ لَهُمْ وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي لِيُخْلَصَ ما فِيهَا مِنَ الْإِعْتِقَادِ مِنَ الْوَسْوَاسِ يُرْجَحُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا اعْتِقَادَ لَهُمْ لِيُمَحِّصَ مِنَ الْوَسْوَاسِ وَيُخْلَصَ مِنْهَا، وَلَعَلَّ الْقَائِلِينَ بِكَوْنِ الْخِطَابِ لِلْمُنَافِقِينَ فَقَطْ أَوْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يُفَسِّرُونَ التَّمَحِيصَ بِالْكَشْفِ وَالتَّمْيِيزِ، أي لِيَكْشَفَ ما في قُلُوبِكُمْ مِنْ مُخْفِيَاتِ الْأُمُورِ أَوْ النِّفَاقِ وَيُمَيِّزَهَا، إِلَّا أَنَّ حَمْلَ التَّمَحِيصِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَجْعَلُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ كَالْتَّأَكِيدِ لِمَا قَبْلَهَا. وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْقُلُوبِ هُنَا كَمَا قِيلَ؛ لِأَنَّ التَّمَحِيصَ مُتَعَلِّقٌ بِالْإِعْتِقَادِ عَلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَقَدْ شَاعَ

اسْتِعْمَالُ الْقَلْبِ مَعَ ذَلِكَ، فَيُقَالُ: اعْتَقَدَ بِقَلْبِهِ، وَلَا تَكَاذُ تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: اعْتَقَدَ
 بِصَدْرِهِ، أَوْ آمَنَ بِصَدْرِهِ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]،
 وَلَيْسَ فِيهِ كَتَبَ فِي صُدُورِهِمُ الْإِيمَانَ، نَعَمْ يُذَكِّرُ الصَّدْرُ مَعَ الْإِسْلَامِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ السَّادَاتِ: الْقَلْبُ
 مَقَرُّ الْإِيمَانِ، وَالصَّدْرُ مَحَلُّ الْإِسْلَامِ، وَالْفُؤَادُ مَشْرِقُ الْمِشَاهِدَةِ، وَاللُّبُّ مَقَامُ التَّوْحِيدِ
 الْحَقِيقِيِّ، وَلَعَلَّ الْآيَةَ عَلَى هَذَا تُؤَوَّلُ إِلَى قَوْلِنَا: لِيَبْتَلِيَ إِسْلَامَكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ إِيْمَانَكُمْ، وَهُمَا
 يُقَالُ: عَبَّرَ بِذَلِكَ مَعَ التَّعْبِيرِ فِيمَا قَبْلُ بِالصَّدُورِ لِلتَّفَنُّنِ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجَمْعَيْنِ
 وَاحِدًا. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيُّ يَخْتَبِرُ مَا فِيهَا مِنْ نِفَاقٍ وَإِيْمَانٍ، وَضَعَفَ إِيْمَانُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ:
 ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: (الواو) حرف عطف، و(اللام): لام التعليل؛ ولهذا يجب
 كسرها ولا يجوز أن تُسَكَّنَ، يَعْنِي لَا يَجُوزُ أَنْ تَقْرَأَ (وَلِيَبْتَلِيَ) بَلْ يَجِبُ أَنْ تَقُولَ (وَلِيَبْتَلِيَ)؛
 لِأَنَّ (لَامَ) التَّعْلِيلِ مَكْسُورَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِخِلَافِ (لَامِ) الْأَمْرِ، فَإِنَّ (لَامَ) الْأَمْرِ تُسَكَّنُ إِذَا
 وَقَعَتْ بَعْدَ حَرْفِ الْعُطْفِ (الواو، والفاء، وثم)، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا
 نُدُورَهُمْ﴾: [الحج: ٢٩]، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾: [يونس: ٥٨]، أَمَّا
 (لَامُ) التَّعْلِيلِ فَإِنَّهَا مَكْسُورَةٌ دَائِمًا وَلَوْ بَعْدَ (الواو، أو ثم، أو الفاء). يَقُولُ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ
 اللَّهُ﴾: (الواو) حرف عطف فأَيْنَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ؟ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ مَقْدَرٌ،
 وَالتَّقْدِيرُ: فَعَلَ مَا فَعَلَ؛ لِيَبْتَلِيَ لَكُمْ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ عَصْيَانِكُمْ وَلِيَبْتَلِيَ، فَالْمَقْدَرُ الْآنَ عَلَّةٌ
 وَمَعْلُولٌ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَصِحَّ عُطْفُ الْعَلَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْعَلَّةِ الَّتِي حُذِفَتْ مَعَ مَعْلُولِهَا. وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: أَيُّ يَخْتَبِرُ وَيَمْتَحِنُ، وَ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ هِيَ الْقُلُوبُ؛
 لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].
 ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: لِلتَّمَحِصِ ثَلَاثَ مَعَانٍ: التَّطْهِيرُ،
 وَالْكَشْفُ، وَالْإِبْتِلَاءُ، وَهَذَا كُلُّهَا مُحْتَمَلَةٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا
 فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أَيُّ يُظْهِرُهَا مِنَ الشَّلَكِ وَالْإِزْتِيَابِ، بِمَا يُرِيكُمْ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِهِ فِي إِقَاءِ

الْأَمَنَةِ، وَصَرَفِ الْعَدُوِّ، وإعلانِ سَرَائِرِ المنافقين. وهذا التَّمْحِصُ خاصٌّ للمؤمنين؛ فابن عباس قال: يريد يُمَحِّصُ قلوب أوليائه من الخطأ. وقال الكلبي: يُبَيِّنُ ما في قلوبكم. يعني: أنَّ المؤمن يُظْهِرُ الرِّضَا بِقَدْرِ اللَّهِ، والمنافق يُظْهِرُ مِثْلَ ما أَظْهَرَ مُعْتَبِ بن قُشَيْرٍ وأصحابه. فَعَلَ اللَّهُ ما فَعَلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ لِيُبَيِّنَ ما في قلوب الفريقين. وَيَحْتَمِلُ التَّمْحِصُ ههنا معنى الابتلاء، غير أنَّ القولين الْأَوَّلَيْنِ أجود؛ لِرِيَاضَةِ الْفَائِدَةِ، فَإِنَّ الْإِبْتِلَاءَ قد ذُكِرَ في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾. وقال ابن الجوزي: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ﴾: قَالَ قَتَادَةُ: أَرَادَ لِيُظْهِرَها مِنَ الشَّكِّ وَالْإِزْتِيَابِ بِما يُرِيكم مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِهِ مِنَ الْأَمَنَةِ، وإظهارِ سَرَائِرِ الْمُنَافِقِينَ. وَهَذَا التَّمْحِصُ خاصٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَرَادَ بِالتَّمْحِصِ إِبَانَةَ ما في الْقُلُوبِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ خِطَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ. وقال الثعالبي: (اللام) في قوله: (وليبتلي) متعلقة بفعلٍ متأخِّرٍ، تقديره: وليبتلي وليمحِّص فعل هذه الأمور الواقعة. والابتلاء هنا: الاختبار. وقال الشوكاني: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما في صُدُورِكُمْ﴾ عِلَّةٌ لِفِعْلِ مُقَدَّرٍ قَبْلَها مَعْطُوفَةٌ عَلَى عِلَلٍ لَهُ أُخْرَى مَطْوِيَّةٌ؛ لِلإِذْنِ بِكَثْرَتِها، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَعَلَّ ما فَعَلَ لِمَصَالِحِ حِمَّةٍ، وَلِيَبْتَلِيَ إلخ. وقيل: إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى عِلَّةٍ مَطْوِيَّةٍ لِ(بَرَزَ)، والمعنى: لِيَمْتَحِنَ ما في صُدُورِكُمْ مِنَ الْإِحْلَاصِ، وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ مِنَ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ. وقال السعدي: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ﴾: أي من وسواس الشيطان، وما تأثَّرَ عنها من الصفات غير الحميدة. وقال العثيمين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ معطوفة على ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾، والتَّمْحِصُ بمعنى التَّخْلِيسِ، مُحْصَهُ: أي خَلَّصَهُ، يَخْلُصُ ما في قُلُوبِكُمْ مِنْ كُلِّ ما يَكُونُ فيها مِنْ إِرَادَاتٍ سَيِّئَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أو فيه شيء من التَّسَخُّطِ عَلَى الْقَدَرِ أو غير ذلك ممَّا يَفْسِدُ ما في القلب. وقوله: ﴿ما في قُلُوبِكُمْ﴾: إذا قال قائل: ذُكِرْتُمْ أَنَّ ما في الصُّدُورِ هي القلوب، وأنَّ التَّمْحِصَ أيضًا للقلوب، فكيف كان ذلك؟ نقول: كان ذلك؛ لأنَّ الْإِبْتِلَاءَ غير التَّمْحِصِ، الْإِبْتِلَاءُ: اخْتِبَارٌ، والتَّمْحِصُ: تَنْقِيَةٌ؛ ولهذا اختلف

التعبير فقال: ﴿وَلْيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل: ما في صدوركم بل قال: ﴿وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الأذى الذي يضرّكم في دينكم؛ لأن كراهة ما وقع أو إرادة ما لا ينبغي إرادته أين تكون؟ تكون في القلب؛ ولهذا كان التمحّص على ما في القلب أو كان التمحّص لما في القلب لا للقلب نفسه، والابتلاء للقلب نفسه، ويبتلي ما في صدوركم ويمحّص ما في القلوب، أي ينقي، فاختلف المورد. المورد في الأوّل: القلب، وفي الثاني: ما في القلب.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: قال الواحدي: (ذات الصدور) تحتل معنيين: أحدهما: أنها هي: الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه، وعينه. يقال: (فهمت ذات كلامك)، كما يقال: (نفس كلامك). فيكون المعنى: والله عليم بالصدور. والثاني: أنّ (ذات الصدور): الأشياء التي في الصدور، وهي الأسرار والضمائر، وهي ذات الصدور؛ لأنها فيها، تحلّها وتصاحبها وصاحب الشيء: ذوّه، وصاحبه: ذاته. وقال ابن الجوزي: قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي بما فيها. وقال ابن الأنباري: معناه: عليم بحقيقة ما في الصدور من المضمرات، فتأنيث ذات بمعنى الحقيقة، كما تقول العرب: لقيته ذات يوم، فيؤنثون؛ لأن مقصدهم: لقيته مرّة في يوم. وقال القرطبي: أي ما فيها من خيرٍ وشرٍ. وقيل: ذات الصدور هي الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه. وقال الألوسي: أي بما في القلوب التي في الصدور من الضمائر الخفية، ووصفت بذلك؛ لأنها لتمكّنها من الصدور جعلت كأَنَّها مالكة لها، فذات بمعنى صاحبة لا بمعنى ذات الشيء ونفسه. وفي الآية وعدٌ ووعدٌ، أو أحدهما فقط على الخلاف في الخطاب، وفيها تنبيه على أنّ الله غنيّ عن الابتلاء، وإنّما يُبرز صورة الابتلاء لحكم يعلمها كثر من المؤمنين أو إظهار حال المنافقين. واختار الصدور ههنا؛ لأنّ الابتلاء الغنيّ عنه سبحانه كان متعلّقاً بما فيها، والتّمحيص على المعنى الأوّل: تصفية وتطهير، وليس ذلك ممّا تُشعر به هذه الجملة بأنّه سبحانه غنيّ عنه، وإنّما فعله لحكمة، نعم إذا أُريد به الكشف والتّمييز يصحّ أن يقال: إنّ هذه الجملة

مُشْعَرَةٌ بِأَنَّهُ تَعَالَى غَيْبٌ أَيْضًا. وقال السعدي: أي بما فيها وما أكتته، فافتضى علمه وحكمته أن قدّر من الأسباب ما به تظهر محبّات الصدور وسرائر الأمور. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: الجملة هذه استثنائية؛ لبيان إحاطة علم الله بما في القلب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوهُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧)﴾ [ق]. وفائدة ختم الآية بها: أنه لما بين أن الله قدّر ما قدّر لهاتين الحكمتين الابتلاء والتمحيص، بين أنه بعد ذلك سيعلم ماذا يكون في القلب بعد هذا الابتلاء وهذا التمهيص.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال ابن عاشور: أن الله تعالى بعد أن بيّن لهم مرتبة حقّ اليقين بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبيّن لهم أنه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلّهم، فلم يتفطنوا إلى السبب، والتبس عليهم بالمقارن، ومن شأن هذا الضلال أن يحول بين المحطّي وبين تدارك خطئه ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض من العلم الصحيح، وتزكية النفوس، وتحبيب الله ورسوله للمؤمنين، وتعظيمه عندهم، وتنفيرهم من الشيطان، والأفعال الدميمة، ومعصية الرسول، وتسفيه أخلام المشركين والمنافقين.

• تفسير الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: قال الماوردي: فيهم تأويلان: أحدهما: هم كل من وليّ الدبر من المشركين بأحدٍ وهذا قول عمر، وقنادة، والربيع. الثاني: أنهم من هرب إلى المدينة وقت الهجرة، وهذا قول السدي. ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا

كَسَبُوا: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَحَبَّتُهُمْ لِلْغَنِيمَةِ وَحِرْصُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ. الثَّانِي: اسْتَدَّهَمَ بِذِكْرِ خَطَايَا سَلَفَتْ لَهُمْ، وَكَرِهُوا الْقَتْلَ قَبْلَ إِخْلَاصِ التَّوْبَةِ مِنْهَا وَالخُرُوجِ مِنَ الْمَظْلَمَةِ فِيهَا، وَهَذَا قَوْلُ الرَّجَّاجِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: الْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَتَوَلَّيَهُمْ: فِرَارُهُمْ مِنَ الْعَدُوِّ. وَالْجَمْعَانِ: جَمْعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ يَوْمُ أُحُدٍ. ﴿اسْتَزَلَّهُمْ﴾: طَلَبَ زِلَلَهُمْ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: هُوَ كَمَا تَقُولُ: اسْتَعْجَلْتُ فُلَانًا، أَيْ: طَلَبْتُ عَجَلَتَهُ، وَاسْتَعْمَلْتُهُ: طَلَبْتُ عَمَلَهُ. وَالَّذِي كَسَبُوا: يُرِيدُ بِهِ الذُّنُوبَ. وَفِي سَبَبِ فِرَارِهِمْ يَوْمَئِذٍ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَتَرَحَّصُوا فِي الْفِرَارِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آخَرِينَ. الثَّانِي: أَنَّ الشَّيْطَانَ أَذْكَرَهُمْ خَطَايَاهُمْ، فَكَرِهُوا لِقَاءَ اللَّهِ إِلَّا عَلَى حَالٍ يَرْضَوْنَهَا، قَالَهُ الرَّجَّاجُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا: كُلُّ مَنْ وَلَّى الدُّبْرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَهُ عُمَرُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ. أَوْ كُلُّ مَنْ قَرَّبَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَقَتَ الْهَزِيمَةِ، قَالَهُ الشُّدِّيُّ. أَوْ رِجَالُ بَاعِيَاهُمْ، قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، مِنْهُمْ: عَتَبَةُ بْنُ عُثْمَانَ الزُّرْقِيُّ، وَأَخُوهُ سَعْدٌ وَغَيْرُهُمَا، بَلَّغُوا الْجَلْعَ جَبَلًا بِنَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الْأَعْوَصَ، فَأَقَامُوا بِهِ ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿يَبْعُضُ مَا كَسَبُوا﴾: أَيْ يَبْعُضُ ذُنُوبِهِمْ السَّالِفَةِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: هُمَا جَمْعُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَمْعُ أَبِي سُفْيَانَ. ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾: أَيْ طَلَبَ مِنْهُمْ الزَّلَلَ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ. ﴿يَبْعُضُ مَا كَسَبُوا﴾: أَيْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، يَعْنِي إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا كَانَ السَّبَبُ فِي تَوَلِّيهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَافْتَرَفُوا ذُنُوبًا فَمُنِعُوا مِنَ التَّائِيدِ وَتَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ حَتَّى تَوَلَّوْا، وَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ الزَّلَلُ هُوَ التَّوَلَّى بَلِ الذُّنُوبُ الْمُفْضِيَةُ إِلَيْهِ. وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ الزَّلَلُ الَّذِي أَوْقَعَهُمُ الشَّيْطَانُ فِيهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ هُوَ التَّوَلَّى نَفْسَهُ، وَحِينَئِذٍ يُرَادُ يَبْعُضُ مَا كَسَبُوا: إِمَّا الذُّنُوبَ السَّابِقَةَ، وَمَعْنَى السَّبَبِيَّةِ انْجِرَافُهَا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الذَّنْبَ يَجْرُ الذَّنْبُ كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تَجْرُ الطَّاعَةَ، وَإِمَّا قَبُولُ مَا زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْهَزِيمَةِ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ الْحَسَنِ، وَإِمَّا

مُخَالَفَةُ أَمْرِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِالنَّبَاتِ فِي الْمَرْكَزِ، فَجَرَّهَمَ ذَلِكَ إِلَى الْهَزِيمَةِ، وَإِنَّمَا
الذُّنُوبُ السَّابِقَةُ لَا بِطَرِيقِ الْإِنْجَارِ بَلْ لِكِرَاهَةِ الْجِهَادِ مَعَهَا، فَقَدْ قَالَ الرَّجَّاجُ: إِنَّ
الشَّيْطَانَ ذَكَرَهُمْ خَطَايَا لَهُمْ كَرِهُوا لِقَاءَ اللَّهِ مَعَهَا، فَأَخْرَجُوا الْجِهَادَ وَتَوَلَّوْا حَتَّى يُصْلِحُوا
أَمْرَهُمْ وَيُجَاهِدُوا عَلَى حَالٍ مَرْضِيَّةٍ. وقال ابن عاشور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
الْجَمْعَانِ﴾: اسْتِنَافٌ؛ لِيَبَيِّنَ سَبَبَ الْهَزِيمَةِ الْخَفِيِّ، وَهِيَ اسْتِزْلَالُ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُمْ، وَأَرَادَ
بِ﴿يَوْمِ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: يَوْمٌ أُخِذَ. وَ﴿اسْتَزَلَّهُمْ﴾ بِمَعْنَى أَزَلَّهُمْ، أَيْ جَعَلَهُمْ زَالِينَ، وَالزَّلَلُ
مُسْتَعَارٌ لِفِعْلِ الْخَطِيئَةِ، وَ(السَّيْنُ، وَالتَّاءُ) فِيهِ لِلتَّأَكِيدِ، مِثْلُ: (اسْتَفَادَ، وَاسْتَبَشَرَ،
وَاسْتَنْشَقَ)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَعْنَى اللَّهُ﴾ [التَّغَابُنُ: ٦]، وَقَوْلُهُ: أَبِي وَاسْتَكْبَرَ. وَلَا
يَحْسُنُ حَمْلُ (السَّيْنِ، وَالتَّاءِ) عَلَى مَعْنَى الطَّلَبِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ لَوْهُمْ عَلَى وَقُوعِهِمْ فِي
مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ، فَهُوَ زَلَلٌ وَقَعَ. وَالْمَرَادُ بِالزَّلَلِ: الْإِهْزَامُ، وَإِطْلَاقُ الزَّلَلِ عَلَيْهِ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ
كَإِطْلَاقِ ثَبَاتِ الْقَدَمِ عَلَى ضِدِّهِ وَهُوَ النَّصْرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَبَّتْ أُقْدَامَنَا﴾. وَ(الْبَاءُ) فِي
قَوْلِهِ: ﴿يَبْغُضُ مَا كَسَبُوا﴾ لِلْسَّبَبِيَّةِ. وَأُرِيدَ يَبْغُضُ مَا كَسَبُوا: مُفَارَقَةُ مَوْقِفِهِمْ، وَعِصْيَانُ
أَمْرِ الرَّسُولِ، وَالتَّنَازُعُ، وَالتَّعْجِيلُ إِلَى الْغَنِيمَةِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ كَانَ مِنْ آثَارِ
الشَّيْطَانِ، وَمَا هُمْ فِيهِ يَبْغُضُ مَا كَسَبُوا مِنْ صَنِيعِهِمْ، وَالْمَقْصِدُ مِنْ هَذَا: إِلْقَاءُ تَبَعَةِ ذَلِكَ
الْإِهْزَامِ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ، وَإِبْطَالُ مَا عَرَّضَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ رَمِي تَبَعَتِهِ عَلَى أَمْرِ الرَّسُولِ .
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . بِالْخُرُوجِ، وَتَحْرِيزِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ. وَذَلِكَ شَأْنٌ ضِعَافِ
الْعُقُولِ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِمْ مُقَارَنُ الْفِعْلِ بِسَبَبِهِ؛ وَلِأَجْلِ تَخْلِصِ الْأَفْكَارِ مِنْ هَذَا الْعَلَطِ
الْخَفِيِّ وَضَعَ أَهْلُ الْمَنْطِقِ بَابَ الْقَضِيَّةِ اللَّزُومِيَّةِ وَالْقَضِيَّةِ الْإِتِّفَاقِيَّةِ. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: الْجَمْعَانِ:
مِثْنِ جَمْعٍ، وَالْمَرَادُ بِهِمْ: جَمْعُ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَمْعُ الْكُفَّارِ، الْمُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ الرَّسُولِ، وَالْكَفَّارِ
بِقِيَادَةِ أَبِي سَفْيَانَ. يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾: تَوَلَّوْا: يَعْنِي أَدْبَرُوا وَهَرَبُوا، وَهُمْ أَكْثَرُ
الْجَيْشِ. ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: أَيِ تَلَاقَوْا وَجْهًا لَوَجْهِهِ. ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا﴾: اسْتَزَلَّ: فِي الْأَصْلِ طَلَبُ الزَّلَّةِ، يَعْنِي إِنَّمَا صَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْلُبَ

زَلَّتْهُمْ، وقيل: استزل بمعنى: أزل، يعني إنما أزلهم. والمراد بـ(أزل): أي أوقعهم في الزلل، والزلل هو الخطأ والانحراف عن الصواب. والشيطان: اسم جنس، ولكل إنسان شيطان قرين له يأمره بالشر وينهاه عن الخير، والشيطان هنا يقولون: إنه مشتق من شَطَنَ إذا بَعُدَ؛ لبعده عن رحمة الله؛ ومن أجل ذلك كان منصرفاً كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾: [الحجر: ١٧]. وقال بعضهم: إن الشيطان من شَاطَ، ولو كان كذلك لكان غير منصرف إذا قصد به العَلَمُ؛ لأنه إذا كان من شاط صارت (النون، والألف) زائدتين، وإذا كانت زائدتين في عِلْمٍ أو في وَصْفٍ امتنع من الصرف. ﴿يَبْعُضُ مَا كَسَبُوا﴾: (الباء) هنا للسببية، أي ببعض الذي كسبه. وما هو الذي يكون سبباً لإغواء الشيطان من المكاسب؟ هو المعاصي، أي أنّ لديهم ذنوباً كانت سابقة، ثم إنّ الشيطان استزلهم بها، أي أوقعهم في الزلل لسبب هذه الذنوب؛ لأن الذنوب تكون سبباً للذنوب الأخرى؛ ولهذا قال بعض السلف: إنّ من علامة قبول الحسنة: الحسنة بعدها، ومن علامة ردّها: السيئة بعدها. فالإنسان إذا أذنب ذنباً فإنه إن لم يتب فإن الشيطان يوقعه في ذنب آخر، وهكذا حتى يصبح قد أحاطت به خطيئته؛ ولهذا قال العلماء: إنّ المعاصي بريد الكفر، يعني تنتقل بالإنسان مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى قمة المعاصي وهي الكفر. ثم قال الله لما بيّن خطأهم وأنهم هم السبب في هذا الخطأ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: قال الماوردي: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلَمَ عَنْهُمْ إِذْ لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ زَيْدٍ. الثَّانِي: عَفَرَ لَهُمُ الْخَطِيئَةَ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أَخْلَصُوا التَّوْبَةَ. وقال ابن عطية: ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِعَفْوِهِ عَنْهُمْ، فَتَأَوَّلَهُ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى حَطِّ التَّبِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ تَأَوَّلَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فِي حَدِيثِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْخِيَارِ، وَكَذَلِكَ تَأَوَّلَهُ ابْنُ عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ مَعَ الرَّجُلِ الْعِرَاقِيِّ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُمْ، وَالْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ بِإِجْمَاعٍ فِيمَا عَلِمْتُ، وَعَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِي الْمَوْبَقَاتِ مَعَ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَغَيْرِهَا. وقال أبو

حيّان: الجُمهُورُ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْعَفْوِ هُنَا هُوَ: حَطُّ التَّعَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَعْنَى عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ لَمْ يُعَاقِبْهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: لِتَوْبَتِهِمْ وَاعْتِدَارِهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَعَادَ سُبْحَانَهُ ذِكْرَ الْعَفْوِ؛ تَأْكِيدًا لِطَمَعِ الْمَذْنِبِينَ فِيهِ؛ وَمَنْعًا لَهُمْ عَنِ الْيَأْسِ؛ وَتَحْسِينًا لِلظُّنُونِ بِإِتِّمِ وَجْهِهِ، وَقَدْ يُقَالُ: هَذَا تَأْسِيسٌ لَا تَأْكِيدٌ فَتَدَكَّرُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أَيُّ بِالْإِعْتِدَارِ وَالنَّدَمِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِرَارَ لَمْ يَكُنْ عَنْ نِفَاقٍ، وَلَا شَكٍّ أَنَّهُ كَانَ عَارِضًا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَعَادَتْ شَجَاعَةُ الْإِيمَانِ وَثَبَاتُهُ إِلَى مَرْكَزِهَا وَنَصَابِهَا. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: هَذِهِ كَالَّتِي سَبَقَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، فَكَرَّرَ اللَّهُ الْعَفْوَ مَرَّتَيْنِ. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أَيُّ عَنِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا، وَالْعَفْوُ: تَرَكَ الْمُواخِذَةَ عَلَى الذَّنْبِ، وَيَكُونُ فِي الْغَالِبِ فِي تَرَكَ الْوَاجِبَاتِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَمَّنْ تَرَكَ الْوَاجِبَ، وَالْمَغْفِرَةُ وَتَكُونُ فِيمَنْ فَعَلَ الْحَرَّمَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: قَالَ أَبُو حَيَّانَ: أَيُّ عَفُورُ الذُّنُوبِ حَلِيمٌ لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ. وَجَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كَالْتَّعْلِيلِ لِعَفْوِهِ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا يَوْمَ أُحُدٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، وَاسِعُ الْحِلْمِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَحْلُمُ عَنْ خَلْقِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ. ﴿حَلِيمٌ﴾ لَا يُعَاجِلُ بِعُقُوبَةِ الْمَذْنِبِ لِيَتُوبَ. وَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا عَلَى سَبِيلِ التَّحْقِيقِ. وَفِي إِظْهَارِ الْجَلَالَةِ: تَرْبِيَةٌ لِلْمَهَابَةِ، وَتَأْكِيدٌ لِلتَّعْلِيلِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾: أَيُّ لِلذُّنُوبِ صَغَائِرِهَا وَكِبَائِرِهَا. ﴿حَلِيمٌ﴾: أَيُّ لَا يُعَاجِلُ بِعُقُوبَةِ الْمَذْنِبِ. وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كَالْتَّعْلِيلِ لِلْعَفْوِ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَوَلِّينَ وَكَانُوا أَكْثَرَ الْقَوْمِ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: الْغَفُورُ: مَنْ أَسْمَاءُ اللَّهُ، وَالْحَلِيمُ مَنْ أَسْمَاءُ سُبْحَانَهُ، وَالْغَفُورُ: مَعْنَاهُ ذُو الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ سِتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا مِنَ الْمَغْفَرِ وَهُوَ مَا يَلْبَسُ عَلَى الرَّأْسِ؛ لِيَتَّقِيَ بِهِ السَّهَامَ، وَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ السِّتْرِ وَالْوَقَايَةِ، أَمَّا الْحِلْمُ فَهُوَ: التَّأْنِي وَغَدَمُ السَّرْعَةِ، فَالْحَلِيمُ مَعْنَاهَا: الْمَمْهَلُ لِلْعِبَادِ، الْمُتَأَنِّي فِي عَقُوبَتِهِمْ.

• قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، وَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، وَكَانَ قَوْلًا بَاطِلًا وَاعْتِقَادًا فَاسِدًا، نَحَى تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاسِدَةِ وَالْإِعْتِقَادِ السَّيِّئِ.

• تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قال السمرقندي: يعني منافقي أهل الكتاب. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أي من المنافقين. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: يعني إذا ساروا في الأرض تجاراً مسافرين، فماتوا في سفرهم. ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾: يعني خرجوا في الغزو فقتلوا. قال القتبي: غُزًى: جمع غاز، مثل صائم وصوم، ونائم ونوم. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾: أي بالمدينة. ﴿مَا مَاتُوا﴾: أي في سفرهم. ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾: أي في الغزو. وقال ابن عطية: نَحَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْكَوْنِ مِثْلَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي هَذَا الْمَعْتَقَدِ الْفَاسِدِ، الَّذِي هُوَ أَنَّ مَنْ سَافَرَ فِي تِجَارَةٍ وَنَحْوِهَا وَمَنْ قَاتَلَ فَقُتِلَ لَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ لَعَاشَ وَلَمْ يَمُتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي عَرَّضَ فِيهِ نَفْسَهُ لِلْسَفَرِ أَوْ لِلْقِتَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: هي أُخُوَّةُ نَسَبٍ؛ لِأَنَّ قَتْلَى أَحَدٍ كَانُوا مِنَ الْأَنْصَارِ، أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْخُرَجِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، وَصَرَّحَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ. فِيمَا ذَكَرَ السُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا. عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْمُنَافِقِ وَأَصْحَابُهُ. وَقِيلَ: بَلْ قَالَهَا جَمِيعُ الْمُنَافِقِينَ. وَدَخَلَتْ ﴿إِذَا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَهِيَ حَرْفٌ اسْتِثْنَاءٍ مِنْ حَيْثُ ﴿الَّذِينَ﴾ اسْمٌ فِيهِ إِهْجَاءٌ يَعُمُّ مَنْ قَالَ فِي الْمَاضِي وَمَنْ يَقُولُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ حَيْثُ هَذِهِ النَّازِلَةُ تُتَصَوَّرُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ، وَيَطْرُدُ النَّهْيُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا،

فَوَضِعَتْ ﴿إِذَا﴾؛ لِنَدُلَّ عَلَى اطِّرَادِ الْأَمْرِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ، وَهَذِهِ فَائِدَةٌ وَضَعَ الْمُسْتَقْبَلِ مَوْضِعَ الْمَاضِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] إِلَى نَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ، كَمَا أَنَّ فَائِدَةَ وَضَعِهِمُ الْمَاضِي مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثُبُوتِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ صِيعَةَ الْمَاضِي مُتَحَقِّقَةُ الْوُقُوعِ. وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ: الْإِبْعَادُ فِي السَّيْرِ، وَمِنْهُ: ضَرْبَ الدَّهْرِ ضَرْبَانُهُ. إِذَا بَعُدَتْ الْمَدَّةُ. وَضَرْبُ الْأَرْضِ: هُوَ الذَّهَابُ فِيهَا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ خَاصَّةً بِسُقُوطِ (فِي)، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ: السَّيْرُ فِي التِّجَارَةِ؛ وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: بَلْ هُوَ السَّيْرُ فِي جَمِيعِ طَاعَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ يَعُمُّ الْقَوْلَيْنِ. وَ(غَزَى): جَمَعَ غَازٍ، وَزَنَّهُ فَعَّلَ بِضَمِّ (الفاء) وَشَدَّ (العَيْنِ) الْمَفْتُوحَةِ، كَشَاهِدٍ وَشَهِدٍ، وَقَائِلٍ وَقَوْلٍ. قَالَ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ: لَا يَدْخُلُ (غَزَى) الْجُرَّ وَلَا الرَّفْعُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أَيُّ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ فِي النِّفَاقِ. وَقِيلَ: إِخْوَانُهُمْ فِي النَّسَبِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (إِذَا ضَرَبُوا)؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ شَأْنَهُمْ هَذَا أَبَدًا، تَقُولُ: فُلَانٌ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا ضَرَبَ صَبَرَ. وَ(إِذَا) لِمَا يُسْتَقْبَلُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَحْكَمْ لَهُ بِهَذَا الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا لَمَّا قَدْ حَبَرَ مِنْهُ فِيمَا مَضَى. قَالَ الْمَقْسُورُونَ: وَمَعْنَى ﴿ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: سَارُوا وَسَافَرُوا. وَ﴿غَزَى﴾ جَمَعَ غَازِي. وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، فَمَاتُوا، أَوْ غَزَوْا، فَقُتِلُوا. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: يَعْنِي فِي النِّفَاقِ، أَوْ فِي النَّسَبِ فِي السَّرَايَا الَّتِي بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَثْرِ مَعُونَةٍ. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾: فَتَنَهِی الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ هُوَ لِمَا مَضَى، أَيُّ إِذَا ضَرَبُوا؛ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَعْنَى الشَّرْطِ مِنْ حَيْثُ كَانَ (الَّذِينَ) بِهِمَا غَيْرُ مُوقَّتٍ، فَوَقَعَ (إِذَا) مَوْقَعٌ (إِذَا) كَمَا يَقَعُ الْمَاضِي فِي الْجَزَاءِ مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ. وَمَعْنَى ﴿ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: سَافَرُوا فِيهَا وَسَارُوا لِتِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا فَمَاتُوا. ﴿أَوْ كَانُوا غَزَى﴾: أَيُّ غَزَاةً فَقُتِلُوا. وَالْغَزَى جَمْعٌ مَنْقُوصٌ لَا يَتَغَيَّرُ لَفْظُهَا فِي رَفْعٍ وَخَفْضٍ، وَاحِدُهُمْ: غَازٍ، كَرَاعٍ

وَرَكْعٍ، وَصَائِمٍ وَصَوْمٍ، وَنَائِمٍ وَنَوْمٍ، وَشَاهِدٍ وَشَهَدٍ، وَغَائِبٍ وَغَيْبٍ. وَيَجُوزُ فِي الْجَمْعِ: غَزَاةٌ، مِثْلُ قُضَاةٍ، وَغَزَاءٌ بِالْمَدِّ مِثْلُ ضُرَابٍ وَصُومٍ. وَيُقَالُ: غَزَى: جَمَعَ الْغَزَاةَ. وَالْمَغْزِيَةُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي غَزَا زَوْجُهَا. وَأَتَانُ مُغْزِيَةٍ: مُتَأَخِّرَةُ النَّتَاجِ ثُمَّ تُنْتَجُ. وَأَغْزَتِ النَّاقَةُ: إِذَا عَسَرَ لِقَاحُهَا. وَالْعَزْوُ: قَصْدُ الشَّيْءِ. وَالْمَغْزَى: الْمَقْصِدُ. وَيُقَالُ فِي النَّسَبِ إِلَى الْغَزْوِ: غَزَوِي. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أَيِ الْمُنَافِقِينَ. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: هِيَ أُخُوَّةُ الْقَرَابَةِ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْمَقْتُولِينَ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَرْبَعَةً. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أَيِ سَافَرُوا. وَإِنَّمَا قَالَ: (إِذَا) الَّتِي لِلْإِسْتِقْبَالِ مَعَ قَالُوا؛ لِأَنَّهُ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ. ﴿أَوْ كَانُوا غُزَى﴾: جَمَعَ غَارَ، وَزَنَهُ فَعَلَ بِضَمٍّ (الْفَاءُ) وَتَشْدِيدِ (الْعَيْنِ). ﴿أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾: اعْتِقَادُ مِنْهُمْ فَاسِدٌ؛ لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ إِخْوَانَهُمْ لَوْ كَانُوا عِنْدَهُمْ لَمْ يَمُوتُوا وَلَمْ يَقْتُلُوا، وَهَذَا قَوْلٌ مِنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ وَالْأَجَلِ الْمُحْتَمِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: اللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لَامُ السَّبَبِ، أَيْ لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ، وَلَيْسَتْ لَامُ التَّبْلِيغِ، نَحْوُ: قُلْتُ لَكَ. وَالْأُخُوَّةُ هُنَا أُخُوَّةُ النَّسَبِ؛ إِذْ كَانَ قَتْلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ. وَقِيلَ: حَمْسَةٌ. وَيَكُونُ الْقَائِلُونَ مُنَافِقِي الْأَنْصَارِ، جَمَعَهُمْ أَبٌ قَرِيبٌ أَوْ بَعِيدٌ. أَوْ أُخُوَّةُ الْمُعْتَقِدِ وَالتَّالِفِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وَ(إِذَا) ظَرْفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ. وَ(قَالُوا) مَاضٍ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَرَّدَهُ عَنِ الْإِسْتِقْبَالِ وَجَعَلَهُ لِمُطَلَقِ الْوَقْتِ بِمَعْنَى حِينَ، فَأَعْمَلَ فِيهِ (قَالَ). وَيُمَكِّنُ إِقْرَارُ (إِذَا) عَلَى مَا اسْتَقَرَّ لَهَا مِنَ الْإِسْتِقْبَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مُضَافٌ مُسْتَقْبَلٌ مُحْدُوفٌ، وَهُوَ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ، غَايَةُ مَا فِيهِ أَنَّا نَقْدِرُهُ مُسْتَقْبَلًا حَتَّى يَعْمَلَ فِي الظَّرْفِ الْمُسْتَقْبَلِ، لَكِنْ يَكُونُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَانُوا﴾ عَائِدًا عَلَى ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾ لَفْظًا، وَعَلَى غَيْرِهِمْ مَعْنَى، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وَقَوْلُ الْعَرَبِ: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ. الْمَعْنَى: مِنْ مُعَمَّرٍ آخَرَ، وَنِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ، فَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَى مُعَمَّرٍ وَدِرْهَمٍ لَفْظًا لَا

مَعْنَى. كَذَلِكَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْ كَانُوا﴾ يَعُودُ عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَفْظًا. وَالْمَعْنَى: لَوْ كَانَ إِخْوَانُنَا الْآخَرُونَ. وَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ: وَقَالُوا مَخَافَةَ هَلَاكِ إِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى: لَوْ كَانَ إِخْوَانُنَا الْآخَرُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ مَوْتُهُمْ وَقَتْلُهُمْ عِنْدَنَا، أَيْ مُقِيمِينَ لَمْ يُسَافِرُوا، مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ تَثْبِيْطًا لِإِخْوَانِهِمُ الْبَاقِينَ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَعَنِ الْعَزْوِ، وَإِيهَامًا لَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ إِخْوَانَهُمُ الْآخَرِينَ الَّذِينَ سَبَقَ مَوْتُهُمْ وَقَتْلُهُمْ بِالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَزْوِ، وَيَكُونُ الْعَامِلُ فِي (إِذَا) هَلَاكًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ يَنْحَلُّ بِأَنْ وَالْمُضَارِعِ، أَيْ مَخَافَةَ أَنْ يَهْلِكَ إِخْوَانُهُمُ الْبَاقُونَ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، أَوْ كَانُوا غُرًا. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى؛ إِذْ عَرَضُوا لِلْأَحْيَاءِ بِالْإِقَامَةِ؛ لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ. قَالُوا: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (وَقَالُوا) فِي مَعْنَى (وَيَقُولُونَ)، وَتَعْمَلُ فِي (إِذَا)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (إِذَا) بِمَعْنَى (إِذْ)، فَيَبْتَقَى (وَقَالُوا) عَلَى مُضِيِّهِ. وَفِي الْكَلَامِ إِذْ ذَاكَ حَذَفَ تَقْدِيرُهُ: إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ فَمَاتُوا، أَوْ كَانُوا غُرًا فَقُتِلُوا. قَالَ الرَّازِيُّ: وَذَكَرَ الْعَزْوُ بَعْدَ الضَّرْبِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْعَزْوِ مَا لَا يَكُونُ ضَرْبًا؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ الْإِبْعَادُ، وَالْجِهَادُ قَدْ يَكُونُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ؛ فَلِذَلِكَ أَفْرَدَ الْعَزْوَ عَنِ الضَّرْبِ. انْتَهَى. يَعْنِي أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَحُصُوصًا فَتَغَايَرَا، فَصَحَّ إِفْرَادُهُ، إِذْ لَمْ يَنْدَرْجِ مِنْ جِهَةِ تَحْتَهُ. وَقِيلَ: لَا يُفْهَمُ الْعَزْوُ مِنَ الضَّرْبِ، وَإِنَّمَا قُدِّمَ؛ لِكَثْرَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: نَهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْقَاسِدِ، الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَفِي الْحُرُوبِ: لَوْ كَانُوا تَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ. فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أَيْ عَنْ إِخْوَانِهِمْ. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أَيْ سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوِهَا. ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾: أَيْ فِي الْعَزْوِ. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾: أَيْ فِي الْبَلَدِ. ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾: أَيْ مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ وَلَا قُتِلُوا فِي الْعَزْوِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الْخُطَابُ أَوْ النِّدَاءُ مُوجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفَائِدَةُ تَوْجِيهِ النِّدَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا

الخطاب: أولاً: الحثّ والإغراء على قبول ما يوجّه إليهم وامتناله؛ لأن وصف الإيمان يزيد الإنسان قوة وشجاعة، كما لو قلت لشخص: يا أيها الرجل افعل كذا وكذا، أي لرجولتك افعل، وهذا سيعطيه قوّة واندفاعاً في قبول ما توجّه إليه. الفائدة الثانية: أنّ ما يأتي بعدها من مقتضيات الإيمان. الفائدة الثالثة: أنّ مخالفة ذلك نقص في الإيمان؛ لأنه إذا كان قبوله والإتيان به من مقتضيات الإيمان، كان مخالفته من نواقص الإيمان. أمّا بدء الخطاب بالنداء فإنه يفيد التنبيه والعناية بما يذكر؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرעהها سمعك، فإمّا خير تؤمر به، وإمّا شرّ تنهى عنه". والإيمان شرعاً: هو الإقرار المتضمّن للقبول والإذعان. فالإقرار المجرد لا يسمى شرعاً إيماناً، بل لا بدّ من قبول وإذعان. القبول ضدّ الرفض، والإذعان ضدّ الاستكبار. ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعني مثل الذين كفروا. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: هذا لا شكّ أنه من جملة كفرهم؛ لأنه دالّ على ضعف الإيمان. وقوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: قال بعض المفسّرين: إخوانهم في النسب، وقال بعض المفسّرين: إخوانهم في الكفر، والثاني أقرب، أي قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: (اللام) هل هي للتعدية، أي تعدية القول أم لها معنى آخر؟ نقول: إنّ لها معنى آخر، وليس لتعدية القول؛ لأن إخوانهم قد ماتوا وقتلوا، فلا يمكن أن يوجّه القول لهم، لكنّها بمعنى (في)، أي قالوا في إخوانهم. أو بمعنى (عن)، أي قالوا عن إخوانهم. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى﴾: في هذه الآية إشكال وهو أنّ قوله: ﴿قَالُوا﴾ ماضٍ، وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ مستقبل، ويجاب عنه: بأنّ بعض العلماء قال: إنّ ﴿إِذَا﴾ هنا لا يراد بها الاستقبال، وأنها سلبت الدلالة على المستقبل، وأنّ المراد بها مجرّد الظرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] هل معناه كان في الأزل ثم لم يكن الله غفوراً رحيمًا؟ لا، سلبت الدلالة على الزمان، لذلك سلبت (إذا) الدلالة على المستقبل، وصار المراد بهذا مجرّد الزمان فقط. و﴿غُزًى﴾: جمع غازٍ، على وزن فُعْل. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾: يعني لو لم

يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا، فقولوه: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ هذا فيه ما يسمّى عند البلاغيين لقاً ونشراً مرتّباً، ﴿مَا مَاتُوا﴾ مقابل ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾، ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ مقابل ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾. و﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ قبل ﴿كَانُوا غُزًى﴾، إذاً فهو مرتّب، فلو كانوا عندنا ولم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا. يقول هؤلاء: لو أنهم لم يسافروا ما ماتوا، ولو أنهم لم يغزوا ما قتلوا.

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: قال السمرقندي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾: أي ذلك الظن. ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: ويقال: جعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم؛ لأنه ظهر نفاقهم. وقال الضحاك: أي ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين؛ لأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في أشجار الجنان حيث شاءت، وأرواح قتلى المنافقين في حواصل طير سود تسرح في الجحيم. وقال ابن عطية: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾: قال مجاهد: معناه: يُخْزِئُهُمْ قَوْلُهُ وَلَا يَنْفَعُهُمْ. قال القاضي أبو محمد: رَحِمَهُ اللَّهُ: فالإشارة بـ(ذَلِكَ) إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة؛ لأنّ الذي يَتَقَنَّ أن كلّ موتٍ وقتلٍ فباجلٍ سابقٍ، يجدُ بردَ اليأسِ والتسليمِ لله على قلبه، والذي يَعْتَقِدُ أنّ حَمِيمَهُ لَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ لَمْ يَمُتْ يَتَحَسَّرُ وَيَتَلَهَّفُ. وعلى هذا التأويل مَشَى الْمَيِّتُ وَالْمَيِّتُونَ، وهو أَظْهَرُ ما في الآية. وقال قوم: الإشارة بـ(ذَلِكَ) إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكونُ خلافهم لهم حَسْرَةً في قُلُوبِهِمْ. وقال قوم: الإشارة بـ(ذَلِكَ) إلى نفسِ نَهْيِ اللَّهِ عَنِ الْكُفْرِ مِثْلَ الْكَافِرِينَ في هذا المعتقد؛ لأنهم إذا رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَسَمَهُمْ بِمَعْتَقِدٍ وَأَمَرَ بِخِلَافِهِمْ كَانَ ذَلِكَ حَسْرَةً في قُلُوبِهِمْ. وَيُحْتَمَلُ عِنْدِي: أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى النَّهْيِ وَالْإِنْتِهَاءِ مَعًا، فَتَأْمَلُهُ. والحسرة: التلهف على الشيء والغم به. وقال القرطبي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يعني ظَنَّهُمْ وَقَوْلَهُمْ. وَ(الَلَامُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا﴾، أي لِيَجْعَلَ ظَنَّهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْرُجُوا مَا قُتِلُوا. ﴿حَسْرَةً﴾: أي نَدَامَةً. والحسرة: الإهتمام على فائتٍ لَمْ يُقَدَّرْ بِلَوْغِهِ. وقيل: (الَلَامُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ. وَالْمَعْنَى: لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الْقَوْلَ. ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ لِأَنََّّهُمْ ظَهَرَ نِفَاقُهُمْ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، فَكَانَ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ. وَقِيلَ: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَزَنِ وَالنَّدَامَةِ، وَلِمَا فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النِّعَمِ وَالْكَرَامَةِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لِيَجْعَلَ﴾: مُتَعَلِّقٌ بِ(قَالُوا)، أَيَّ قَالُوا ذَلِكَ فَكَانَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، ف(اللام) لام الصيرورة؛ لبيان العاقبة. ﴿ذَلِكَ﴾: إشارَةٌ إِلَى قَوْلِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدَ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمُ الْحَسْرَةَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتَيَقَّنُ بِالْقَدَرِ وَالْأَجَلِ تَذَهَبُ عَنْهُ الْحَسْرَةُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿لِيَجْعَلَ﴾: اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ (اللام)، فَقِيلَ: هِيَ لَامُ كَيْ. وَقِيلَ: لَامُ الصِّيْرُورَةِ. وَالَّذِي يَفْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنْ (قَالُوا)، وَأَنَّ (اللام) لِلصِّيْرُورَةِ، وَالْمَعْنَى: أَتَمُّ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ قَاصِدِينَ التَّشْبِيْطِ عَنِ الْجِهَادِ وَالْإِبْعَادِ فِي الْأَرْضِ، سَوَاءً كَانُوا مُعْتَقِدِينَ صِحَّتَهَا أَوْ لَمْ يَكُونُوا مُعْتَقِدِيهَا؛ إِذْ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ قَائِلٌ بِأَجَلٍ وَاحِدٍ، فَخَابَ هَذَا الْقَصْدُ، وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَوْلَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، أَيَّ عَمَّا عَلَى مَا فَاتَهُمْ، إِذْ لَمْ يَنْبَلُغُوا مَقْصِدَهُمْ مِنَ التَّشْبِيْطِ عَنِ الْجِهَادِ. وَظَاهِرُ جَعَلَ الْحَسْرَةَ وَحُصُولَهَا: أَنَّهُ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يُلْحَقُهُمْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ بُلُوغِ مَقْصِدِهِمْ. وَقِيلَ: الْجَعْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَزَنِ وَالنَّدَامَةِ، وَلِمَا فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النِّعَمِ وَالْكَرَامَةِ. وَأَسْنَدَ الْجَعْلُ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْعَمَلَ وَالْحَسْرَةَ فِي قُلُوبِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْفَاسِدِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيَّ خَلَقَ هَذَا الْإِعْتِقَادَ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ لِيَزْدَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتِهِمْ وَقَتْلِهِمْ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: أَيَّ لِيَجْعَلَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي قَالُوهُ. وَهُوَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا. حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ. وَحَسْرَةٌ: يَعْنِي تَحَسُّرًا وَنَدَمًا يَسْتَحْسِرُ بِهِ الْقَلْبُ وَلَا يَنْبَسِطُ وَلَا يَفْرَحُ، وَإِلَّا فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَغْنِي شَيْئًا. ﴿لِيَجْعَلَ﴾: (اللام) هل هي للتعليل أو للعاقبة؟ يقال: إِنَّمَا لِلْعَاقِبَةِ، يَعْنِي يَقَالُ هَذَا الْقَوْلَ لِيَجْعَلَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ. وَ(اللام) الداخلة على الفعل في مثل هذا التركيب، تَكُونُ إِمَّا لِلْعَاقِبَةِ، وَإِمَّا لِلتَّعْلِيلِ، وَإِمَّا زَائِدَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

الرَّجْسِ ﴿[الأحزاب: ٣٣] هذه زائدة، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨] (اللام) زائدة، ودليل هذا: أنه في الآية الثانية قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ [التوبة: ٣٢]. و(اللام) في قوله: ﴿فَالْتَفِطْهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] للعاقبة، ولو ظنوا أنه يكون عدوًّا وحزنًا لقتلوه. وهذه الآية ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أيضًا للعاقبة؛ لأنهم لو ظنوا أن هذا حسرة وأنه لا فائدة منه إلا التحسر والندم وتكرار المصيبة ما قالوا هذا، ولكنَّ الواقع أنه يكون حسرة في قلوبهم وإلا فإنه لا يغنى شيئًا.

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: قال السمرقندي: أي يحيي في السفر ويميت في الحضر، ويحيي في الحضر ويميت في السفر. ويقال: والله يحيي قلوب المؤمنين ويميت قلوب الكافرين، يحيي قلوب المؤمنين بالنصرة والخروج إلى الغزو، ويميت قلوب المنافقين بالتخلف وظنَّ السوء. وقال الضحَّاك: يعني يحيي من أحيى من نطفة بقدرته، ويميت من أَمَاتَ بعزَّته وسلطانته. وقال ابن عطية: أَخْبَرَ تَعَالَى حَبْرًا جَزَمًا أَنَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ بِقَضَاءِ حَتْمٍ، لَا كَمَا يَعْتَقِدُ هَؤُلَاءِ. وقال ابن الجوزي: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: أَي لَيْسَ تَحَرُّزُ الْإِنْسَانِ يَمْنَعُهُ مِنْ أَجْلِهِ. وقال القرطبي: أَي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى الْقِتَالِ، وَيُمِيتُ مَنْ أَقَامَ فِي أَهْلِهِ. وقال ابن جُزَيٍّ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: رَدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ واعتقادهم. وقال ابن كثير: أَي بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرِ أَحَدٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. وقال العثيمين: الإحياء والإماتة بيد الله، أي إذا قَدَّرَ اللهُ إماتة شخص على سبب من الأسباب يَسَّرَ له هذا السبب، وصار هو نفسه يفعل ذلك السبب.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: قال أبو حيان: قَالَ الرَّاعِبُ: عَلَّقَ ذَلِكَ بِالْبَصَرِ لَا بِالسَّمْعِ، وَإِنْ كَانَ الصَّادِرُ مِنْهُمْ قَوْلًا مَسْمُوعًا لَا فَعَلًا مَرْتَبًا، لَمَا كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنَ الْكَافِرِ قَصْدًا مِنْهُمْ إِلَى عَمَلٍ يُحَاوِلُونَهُ، فَحَصَّ الْبَصَرُ بِذَلِكَ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ يَقُولُ شَيْئًا وَهُوَ يَقْصِدُ فَعَلًا يُحَاوِلُهُ: أَنَا أَرَى مَا تَفْعَلُهُ. وقال ابن كثير: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أَي وَعِلْمُهُ

وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. وقال الثعالبي: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: توكيدٌ للنهي في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾، ووعيدٌ لمن خالفه، ووعدٌ لمن امتثله. وقال العنيمين: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعني ومن جملة ما هو بصير به عملهم. والبصير هنا يحتمل بصر الرؤية، ويحتمل بصر العلم، يحتمل المعنيين جميعاً، فهو سبحانه بصير بما نعمل بمعنى: عليم، وهذا بصر العلم، وبصير بما نعمل بمعنى: راءٍ لما نعمل، وهذا بصر الرؤية. فإذا قال قائل: هل تثبتون لله بصر الرؤية؟ قلنا: نعم، قال النبي ﷺ في ربه سبحانه: "حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" رواه مسلم. هذا لإثبات البصر لله، أمّا بصر العلم فواضح وكثير، إذًا في هذه الآية إثبات إحاطة علم الله بكلِّ ما نعمل؛ لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. و(مَا) هنا اسم موصول، واسم الموصول يفيد العموم ولو كان واحدًا. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]. ف(الذي) اسم مفرد وعاد عليه الإشارة والضمير جمعًا؛ لأنه عام، فإنَّ اسم الموصول وإن كان لفظه لفظ المفرد يكون للعموم، فالقاعدة: (أَنَّ كُلَّ اسم موصول فهو للعموم).

• قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنِ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا نَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ الدَّائِرِ عَلَى تَمَيُّ الْمِحَالِ مِنْ دَوَامِ الْبَقَاءِ وَكَرَاهَةِ الْمَوْتِ، بَيَّنَّ لَهُمْ ثَمَرَةَ فَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْجِهَادِ بِالْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُبْعَدًا لَهُمْ مِمَّا قَالِ الْمُنَافِقُونَ، مُوجِبًا لِتَسْلِيمِ الْأَمْرِ لِلْخَالِقِ، بَلْ مُحِبِّبًا فِيهِ وَدَاعِيًا إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

تفسير الآية:

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: قال مكِّي: هذا خطاب للمؤمنين خاصة؛ لأنهم إن ماتوا في سبيل الله أو قتلوا فإنهم يصيرون إلى مغفرة ورحمة، وذلك خير مما يجمع المنافقون. وقال ابن اسحاق: معناها: إنَّ الموت كائن لا بدَّ منه، فموت في سبيل الله خير لو علموا وأيقنوا. وتأويل الكلام: ليغفرَ الله لكم وليرحمكم. وقال الواحدي: قال ابن عباس: هذه الآية ردُّ على المنافقين حيث اختاروا الدنيا على الآخرة، وتركوا الجهاد؛ محبةً للدنيا. و(اللام) في قوله: ﴿لَيْنَ﴾ لام القسم، بتقدير: (والله لئن قُتِلْتُمْ في سبيل الله أيها المؤمنون). ﴿أَوْ مِتُّمْ﴾: يريد في سبيل الله، كقوله في الأحزاب: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ (٣٥)﴾ يعني: فُرُوجَهُمْ. وقال ابن عطية: (اللام) في قوله: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ﴾ هي المؤدنة بمجيء القسم، و(اللام) في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةً﴾ هي المتلقة للقسم، والتقدير: والله لمغفرة. وترتَّب الموت قبل القتل في قوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾؛ مراعاةً لرتبة الضرب في الأرض والغزو، فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر، وهو الضرب، وقدم القتل في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ﴾؛ لأنَّه ابتداء إخبار، فقدم الأشرف الأهم. والمعنى: أو مِتُّمْ في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثمَّ قَدَّمَ الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾؛ لأنَّها آية وعظ بالآخرة والحشر، وآية تزهد في الدنيا والحياة. والموت المذكور فيها هو موت على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقدم لعمومه وأنَّه الأغلب في الناس من القتل. وقال ابن الجوزي: (اللام) في قوله: ﴿لَيْنَ﴾ لام القسم، تقديره: والله لئن قُتِلْتُمْ في الجهاد. ﴿أَوْ مِتُّمْ﴾: أي في إقامتكم. ﴿لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي خيرٌ مما يجمع غيركم مما تركوا الجهاد لجمعه. قال ابن عباس: خيرٌ مما يجمع المنافقون في الدنيا. وقال الرازي: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: اعلم أنَّ هذا هو الجواب الثاني عن شبهة المنافقين. وتقريره: أنَّ هذا الموت لا بُدَّ واقع ولا يحصى للإنسان من أن يُقتل أو يموت،

فَإِذَا وَقَعَ هَذَا الْمَوْتُ أَوْ الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي طَلَبِ رِضْوَانِهِ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا الَّتِي لَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ بِهَا بَعْدَ الْمَوْتِ الْبَتَّةِ، وَهَذَا جَوَابٌ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْقُوَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى الْجِهَادِ أَعْرَضَ قَلْبُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخِرَةِ، فَإِذَا مَاتَ فَكَأَنَّهُ تَخَلَّصَ عَنِ الْعَدُوِّ وَوَصَلَ إِلَى الْمَحْبُوبِ، وَإِذَا جَلَسَ فِي بَيْتِهِ خَائِفًا مِنَ الْمَوْتِ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ الدُّنْيَا، فَإِذَا مَاتَ فَكَأَنَّهُ حُجِبَ عَنِ الْمَعْشُوقِ وَأُلْقِيَ فِي دَارِ الْغُرْبَةِ، وَلَا شَكَّ فِي كَمَالِ سَعَادَةِ الْأَوَّلِ، وَكَمَالِ شَقَاوَةِ الثَّانِي. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: جَوَابُ الْجَزَاءِ مَحْذُوفٌ، اسْتُعْنِيَ عَنْهُ بِجَوَابِ الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾، وَكَانَ الْإِسْتِعْنَاءُ بِجَوَابِ الْقَسَمِ أَوْلَى؛ لِأَنَّ لَهُ صَدَرَ الْكَلَامِ، وَمَعْنَاهُ لِيَغْفِرَنَّ لَكُمْ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا تَكْذِيبُ الْكُفَّارِ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فِي سَفَرٍ وَعَزَّو لَوْ كَانَ أَقَامَ مَا مَاتَ وَمَا قُتِلَ، وَهِيَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِلتَّخَاذُلِ عَنِ الْعَزْوِ، وَأَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّهُ إِنْ تَمَّ مَا يَحْذَرُونَهُ مِنَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْمَوْتِ فِيهِ، فَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَنَافِعِهَا لَوْ لَمْ يَهْلِكُوا بِالْقَتْلِ أَوْ الْمَوْتِ، وَأكَّدَ ذَلِكَ بِالْقَسَمِ؛ لِأَنَّ (اللَّامَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْنَ﴾ هِيَ الْمُوَطِّئَةُ لِلْقَسَمِ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ هُوَ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾، وَكَانَ نَكِيرَةً؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ أَيْسَرَ جُزْءٍ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ كَافٍ فِي فَوْزِ الْمُؤْمِنِ. وَجَازَ الْإِبْتِدَاءُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ وَصَفُ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، وَعَظَفَ عَلَيْهِ نَكِيرَةً، وَمُسَوِّغُ الْإِبْتِدَاءِ بِهَا؛ كَوْنُهَا عَظُمَتْ عَلَى مَا يَسُوغُ بِهِ الْإِبْتِدَاءُ. أَوْ كَوْنُهَا مَوْصُوفَةً فِي الْمَعْنَى، إِذِ التَّقْدِيرُ: وَرَحْمَةٌ مِنْهُ. وَتَمَّ صِفَةُ أُخْرَى مَحْذُوفَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا وَتَقْدِيرُهَا: وَرَحْمَةٌ لَكُمْ. وَ﴿خَيْرٌ﴾ هُنَا عَلَى بَابِهَا مِنْ كَوْنِهَا أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبَةً حُمْرَاءُ. وَارْتِفَاعُ ﴿خَيْرٍ﴾ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ

وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلَهُ إِلَى نَيْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَامِهَا الْفَانِي. وقال الشوكاني: الْمُقْصُودُ فِي الْآيَةِ: بَيَانُ مَزِيَّةِ الْقَتْلِ أَوْ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَزِيَادَةِ تَأْثِيرِهَا فِي اسْتِجْلَابِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. وقال الألوسي: هَذَا تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجِهَادِ، وَأَنَّهُ مِمَّا يَحِبُّ أَنْ يَتَنَافَسَ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ، وَفِيهِ تَغْزِيَةٌ لَهُمْ وَتَسْلِيَةٌ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِثْرُ إِبْطَالِ مَا عَسَى أَنْ يُثَبِّطَهُمْ عَنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ. وَ(الْأَوَّلَى) هِيَ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَالثَّانِيَةُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ. وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ؛ لِدَلَالَةِ جَوَابِ الْقَسَمِ عَلَيْهِ وَوَفَائِهِ بِمَعْنَاهُ. وَقَدَّمَ الْقَتْلَ عَلَى الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ، فَتَرْتَّبُ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ عَلَيْهِ أَقْوَى. وَمَغْفِرَةٌ مُبْتَدَأٌ، وَ(مِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لَهَا، وَوُصِفَتْ بِذَلِكَ إِظْهَارًا لِلِلَاغِنَاءِ بِهَا وَرَمَزًا إِلَى تَحَقُّقِ وَقُوعِهَا، وَذَهَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ إِلَى تَقْدِيرِ صِفَةٍ أُخْرَى: أَيْ لَمَغْفِرَةٍ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَحُذِفَتْ صِفَةُ رَحْمَةٍ لِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَيْهَا. وَثُبُوتُ أَصْلِ الْحَيَرِيَّةِ لِمَا يَجْمَعُهُ الْكُفَّارُ كَمَا يَقْتَضِيهِ أَفْعَالُ التَّفْضِيلِ، إِمَّا بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ الَّذِي يُعَدُّ خَيْرًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِمَّا أَنَّ ذَلِكَ وَارِدٌ عَلَى حَسَبِ قَوْلِهِمْ وَمُعْتَقَدِهِمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَمْوَالَ خَيْرٌ، وَجَوَزَ فِي (مَا) أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً، أَوْ نَكِرَةً مَوْصُوفَةً وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ، أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ وَيَكُونُ الْمَفْعُولُ حَيِّثُ مَحْذُوفًا، أَيْ مِنْ جَمْعِهِمُ الْمَالُ. وقال العثيمين: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُتِلْتُمْ﴾: الْخَطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أَيْ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَعَمٌّ مِنْ ذَلِكَ بِمَعْنَى قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ، أَوْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، أَوْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ، كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْجَامِعَ بَيْنَهَا أَنَّ هَذَا قَتْلٌ وَهُوَ يَدَافِعُ عَنْ دِينِ اللَّهِ. ﴿أَوْ مِتُّمْ﴾: الْمَعْنَى: مِتُّمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ مَنْ مَاتَ فِي الْجِهَادِ؟ أَوْ مِتُّمْ مَطْلَقًا؟ الظَّاهِرُ الثَّانِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَوْ أَرَادَ الْأَوَّلَ لَقَالَ: (وَلَوْ أَنَّ قَتَلْتُمْ أَوْ مِتُّمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فَلَمَّا أُخِّرَ (مِتُّمْ) عَنِ الْقَيْدِ عَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ

العلماء قاعدة، وهي: (أنَّ كلَّ قيد بشرط أو صفة أو استثناء أو غيره، إذا تعقَّب جملاً . أي صار في آخرها . فهو عائد على الكلِّ، وإن توسَّط عاد على ما سبق فقط دون ما تأخَّر عنه، إلا ما دلَّ عليه الدليل)، وعلى هذا نطبق قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [النور]، هذه الآية فيها قيد بالاستثناء تعقَّب الجمل الثلاث، فهل يعود إلى الثلاث؟ نقول: أمَّا الأولى فلا يعود إليها بالإجماع، وأمَّا الثالثة فيعود إليها بالإجماع، وأمَّا الوسطى ففيه خلاف. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾: الجملة الأولى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، والثانية ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، والثالثة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الاستثناء لا يعود إلى الأولى بالاتفاق، فلو تاب القاذف، فإنَّ حقَّ المقدوف لا يسقط، ويجلد القاذف ثمانين جلدة. ولو تاب القاذف زال عنه وصف الفسق بالاتفاق. وإذا تاب القاذف فهل تقبل شهادته أم لا؟ في هذا خلاف، فمنهم من قال: تقبل، ومنهم من قال: لا تقبل. ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾: أي لكم من الله مغفرة ورحمة. والفرق بين المغفرة والرحمة: أنَّ المغفرة بها زوال المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب، أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم وتنجون من مرهوبكم. والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه. والرحمة تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه. وفي قوله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ إضافة المغفرة إلى الله تدلُّ على عظمة هذه المغفرة، وذلك لأنَّ الشيء يعظم بحسب ما يضاف إليه؛ فلهذا قال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾، أي ابتداءها منه، فهو الذي يبتدئها عزَّ وجل ويتفضَّل بها.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: واعلم أنه سبحانه وتعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالحشر إلى مغفرة الله، وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدرجات فرغبتهم هاهنا بالحشر إلى الله.

• تفسير الآية:

﴿وَلَيْنَ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: قال مكّي: هذا الأمر خطاب للمؤمنين والمشرّكين، أعلمهم الله أنّ مصير الجميع إليه، فيجازي كلّ صنف بعمله. وقال الواحديّ: قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتُّم﴾: قال المفسّرون: يريد مقيمين عن الجهاد. ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾: يريد مجاهدين. ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: يعني في الحالين. وهذا تهديد بالحشر، وتحذير من القيامة. و(اللام) في قوله: ﴿لَيْنَ﴾ خلف من القسم. والثانية جواب، على معنى: والله إن متم، أو قتلتم لتحشرون إلى الله. قال أبو عبيد: وتقول في الكلام: (لئن أحسنت إليّ لأحسننّ إليك) بالنون، فإذا حُلّت بينهما بالصفة، قلت: (لئن أحسنت إليّ، لإليك أحسن) بغير نون، كما في الآية؛ لأنّ (اللام) قد تحوّلت إلى الصفة. وقال السمعاني: ﴿وَلَيْنَ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: يعني كيفما خرجتُم من الدنيا، فحشركم إلى الله تعالى. وقال ابن الجوزيّ: ﴿وَلَيْنَ مُتُّم﴾: أي في إقامتكم. ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾: أي في جهادكم. ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: وهذا تخويف من القيامة. والحشر: الجمع مع سوق. وقال أبو حيان: ﴿وَلَيْنَ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: هذا خطاب عامّ للمؤمن والكافر أعلم فيه أنّ مصير الجميع إليه، فيجازي كلًّا بعمله، هكذا قال بعضهم. وكأنّه لما رأى الموت والقتل أطلقا ولم يقيدا بذكر سبيل الله كما قيّد في الآية، فهم أنّ ذلك عامّ. والظاهر: أنّه خطاب للمؤمنين كالخطاب السابق. وتضمّنت الآية تحقير أمر الدنيا والحِرص على الشهادة، وأنّ مصير العالم كلّهم إلى الله، فلموافاة على الشهادة أمثل بالمراءى ليحرّر ثوابها ويحده وقت الحشر. وقدّم الموت هنا على القتل؛ لأنّها آية وعظ بالآخرة والحشر، ونزّهه

في الدنيا والحياة، والموت فيها مُطْلَقٌ لَمْ يُقَيَّدْ بِشَيْءٍ. وقال الثعالبي: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمَ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: قَدَّمَ الموتَ هنا؛ لأنها آية وعِظٌ بِالْآخِرَةِ وَالْحَشْرِ، وآيَةُ تَرْهِيدٍ فِي الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ، وَفِي الْآيَةِ تَحْقِيرٌ لِأَمْرِ الدُّنْيَا، وَحِصْنٌ عَلَى طَلَبِ الشَّهَادَةِ. وَالْمَعْنَى: إِذَا كَانَ الْحَشْرُ لَا بُدَّ فِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ، فَالْمَضِيُّ إِلَيْهِ فِي حَالِ شَهَادَةٍ أَوْ فِي حَالِ الشُّوْكَاتِي: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمَ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾: أَيَّ عَلَى أَيِّ وَجْهِ حَسَبَ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ. ﴿لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِ(الْلامِ) الْمُوَطَّئَةِ سَادُّ مَسَدِّ جَوَابِ الشَّرْطِ، أَيُّ إِلَى الرَّبِّ الْوَاسِعِ الْمَغْفِرَةِ تُحْشَرُونَ لَا إِلَى غَيْرِهِ كَمَا يُفِيدُهُ تَقْدِيمُ الظَّرْفِ عَلَى الْفِعْلِ مَعَ مَا فِي تَخْصِيصِ اسْمِ اللَّهِ بِالذِّكْرِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ اللَّطْفِ وَالْقَهْرِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: الْمَعْنَى: أَنَّكُمْ بِأَيِّ سَبَبٍ اتَّفَقَ هَلَاكُكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ فَيَجْزِي كُلاًَّ مِنْكُمْ كَمَا يَسْتَحِقُّ، فَيُجَازِي الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَلَيْسَ غَيْرُهُ يُرْجَى مِنْهُ ثَوَابٌ أَوْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ دَفْعُ عِقَابٍ، فَاتَّبِعُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ وَيَجُزِّ لَكُمْ رِضَاهُ مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَلَا تَزَكُّنُوا إِلَى الدُّنْيَا. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: الْمَعْنَى: إِنَّ مُتِّمَ أَيُّهَا النَّاسُ أَوْ قَتَلْتُمْ فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَى اللَّهِ مَهْمَا طَالَتْ بِكُمْ الْأَيَّامُ أَوْ قَصُرَتْ فَالْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ سَوْفَ يَبْقَى مُطْمَئِنًّا، إِذْ إِنَّ مَنْ كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا، بَلْ إِنَّهُ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا فَإِنَّهُ يَسْتَبْشِرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ مَهْمَا طَالَتْ بِالْإِنْسَانِ الْحَيَاةُ، وَعَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانَ مَوْتُهُ.

• قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾:

• مناسبة الآية بما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا فَرَّغَ مِنْ وَعْظِ الصَّحَابَةِ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . أَتْبَعَهُ تَحْيِيْبَ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ مِنَ الرِّفْقِ وَاللِّينِ مَعَ مَا سَبَّبَ الْغَضَبَ الْمَوْجِبَ لِلْعُنْفِ .

• تفسير الآية:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: قال الماوردي: يَعْنِي فَبِرَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ، وما صَلَّةٌ دَخَلَتْ لِحُسْنِ النَّظْمِ. وقال الواحدي: أَكْثَرُ النُّحَوِيِّينَ عَلَى أَنَّ (مَا) ههنا صَلَّةٌ، لا تمنع (الباء) من عَمَلِهَا فيما عملت فيه، وهي مع كونها صَلَّةً، تُخَدِّثُ معنى التأكيد وحُسْنِ النَّظْمِ. وهي كثيرةٌ في القرآن، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، و﴿جُنْدٌ مَا﴾ [ص: ١١]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، و﴿بِمَا خَطَايَاهُمْ﴾ [نوح: ٢٥]، والعرب قد تزيد في الكلام ما يُسْتَعْنَى عنه للتأكيد: كقوله: (أنت فعلت كذا وكذا، يا هذا) فأدخلوا (يا هذا)؛ للتأكيد؛ إذ كانت (أنت) دالًّا على الخطاب. وكذلك قولهم: (لَمَّا أَنْ زارني عبد الله، زُرْتُهُ)، معناه: لَمَّا زارني، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]، أراد: فَلَمَّا جَاءَ. فأكد ب(أَنْ)، وكذلك قولهم: يا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ، أكد الكلام ب(تَيْم) الثاني. هذا قول أكثر أهل التأويل. وقال بعضهم: يجوز أن تكون (مَا) هاهنا استفهامًا للتعجب، تقديره: (فَبِأَيِّ رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ؟!)، أي سَهَلْتَ لَهُمْ أَخْلَاقُكَ، وكثر احتمالك. وقوله تعالى: ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾: (لَانَ، يَلِينُ، لِينًا)، و(لِينًا) بالفتح: إِذَا رَقَّ، وَحَسُنَ خُلُقُهُ وَانْقَادَ. وقال البغوي: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: أَي سَهَلْتَ لَهُمْ أَخْلَاقُكَ، وَكَثَّرْتَ اخْتِمَالَكَ، وَلَمْ تُسْرِعْ إِلَيْهِمْ فِيمَا كَانَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ. وقال ابن الجوزي: قَالَ الْفَرَّاءُ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ، وَالزَّجَّاجُ: (مَا) هَاهُنَا صَلَّةٌ، وَمِثْلُهُ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]،

قَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: دُحُولُ (مَا) هَاهُنَا يُجَدِّثُ تَوْكِيدًا. وَفِي مَن تَتَعَلَّقُ بِهِ هَذِهِ الرَّحْمَةُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالنَّبِيِّ ﷺ. الثَّانِي: أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُؤْمِنِينَ. قَالَ قَتَادَةُ: وَمَعْنَى ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾: لِأَنَّ جَانِبَكَ، وَحُسْنَ خُلُقِكَ، وَكَثْرَ احْتِمَالِكَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: اللَّيْنُ وَالرِّفْقُ إِنَّمَا يَجُوزُ إِذَا لَمْ يُفْضَ إِلَى إِهْمَالِ حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ، فَأَمَّا إِذَا أَدَّى إِلَى ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣]، وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي إِقَامَةِ حَدِّ الزِّنَا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النُّور: ٢]. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿فِيمَا﴾: صِلَةٌ فِيهَا مَعْنَى التَّأْكِيدِ، أَيْ فِرْحَمَةٍ، كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. وَلَيْسَتْ بِزَائِدَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا سَبِيحَتُهُ مَعْنَى الزِّيَادَةِ مِنْ حَيْثُ زَالَ عَمَلُهَا. قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: ﴿فِيمَا﴾: نَكْرَةٌ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ بِالْبَاءِ. (وَرَحْمَةٌ) بَدَلٌ مِنْهَا. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. لَمَّا رَفَقَ بِمَنْ تَوَلَّى يَوْمَ أُحُدٍ وَلَمْ يُعَقِّفْهُمْ بَيْنَ الرَّبِّ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ إِيَّاهُ. وَقِيلَ: ﴿فِيمَا﴾: اسْتَفْهَامٌ. وَالْمَعْنَى: فَبِأَيِّ رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ، فَهُوَ تَعَجُّبٌ. وَفِيهِ بُعْدٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ (فِيمَ) بِغَيْرِ أَلْفٍ. ﴿لَنْتَ﴾: مِنْ لَانَ يَلِينُ لَيْنًا وَلَيَانًا بِالْفَتْحِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾: مُتَعَلِّقُ الرَّحْمَةِ: الْمُؤْمِنُونَ. فَالْمَعْنَى: فِرْحَمَةٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَنْتَ لَهُمْ، فَتَكُونُ الرَّحْمَةُ امْتِنَانًا بِهَا عَلَيْهِمْ، أَيْ دَمِئْتَ أَخْلَاقَكَ وَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ بَعْدَ مَا خَالَفُوا أَمْرَكَ وَعَصَوْكَ، وَذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. وَقِيلَ: مُتَعَلِّقُ الرَّحْمَةِ الْمُخَاطَبُ، أَيْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ جَعَلَكَ لَيِّنَ الْجَانِبِ مُوَطَّأَ الْأَكْنَافِ، فَرَحَّمْتَهُمْ وَلَنْتَ لَهُمْ، وَلَمْ تُؤَاخِذْهُمْ بِالْعِصْيَانِ وَالْفِرَارِ وَإِفْرَادِكَ لِلْأَعْدَاءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ امْتِنَانًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقُ الرَّحْمَةِ: النَّبِيُّ ﷺ، بِأَنْ جَعَلَهُ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، وَبَعَثَهُ بِتَنْمِيمِ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَالْمُؤْمِنِينَ، بِأَنْ لَيِّنَهُ لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا رَسُولَهُ ﷺ، مُمْتَنًّا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبَهُ عَلَى أُمَّتِهِ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ، التَّارِكِينَ لِرِجْرِهِ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾: أَيْ أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَكَ

هُمْ لَنَا لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَحِمِّمْ. قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ هُمْ﴾: يَقُولُ: فَرَحْمَةٍ
 مِنَ اللَّهِ لَنْتَ هُمْ. وَ(مَا) صِلَةٌ، وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ
 مِثْلَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٥٥، الْمَائِدَة: ١٣]، وَبِالنَّكِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾
 [الْمُؤْمِنُونَ: ٤٠] وَهَكَذَا هَاهُنَا قَالَ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ هُمْ﴾، أَيُّ: بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ.
 وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا خُلِقَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
 رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]. وَقَالَ الْأَلُوسِي: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ هُمْ﴾: هَذَا
 خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وَ(الْفَاءُ) لِتَرْتِيبِ مَضْمُونِ الْكَلَامِ عَلَى مَا يُنْبِئُ عَنْهُ
 السِّيَاقُ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْفَارِسِينَ الْمَلَامَةَ وَالتَّعْنِيفَ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمُقْتَضَى الْجَبَلَةِ
 الْبَشَرِيَّةِ حَيْثُ صَدَرُوا عَنْهُ وَحِيَاضُ الْأَهْوَالِ مُتْرَعَةً، وَشَمَّرُوا لِلْهَزِيمَةِ وَالْحَرْبِ قَائِمَةً عَلَى
 سَاقٍ، أَوْ مِنْ سَعَةِ فُضَاءٍ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَ(الْبَاءُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْتَ﴾.
 وَالتَّقْدِيمُ؛ لِلْقَصْرِ، وَ(مَا) مَزِيدَةٌ؛ لِلتَّأْكِيدِ، وَعَلَيْهِ أَجَلُهُ الْمَقْسَرِينَ، وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ قَتَادَةَ،
 وَحَكَى الزَّجَّاجُ الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ وَفِيهِ نَظَرٌ، فَقَدْ قَالَ الْأَخْفَشُ وَغَيْرُهُ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَكِرَةً
 بِمَعْنَى شَيْءٍ، (وَرَحْمَةٍ) بَدَلٌ مِنْهَا، وَجُوزَ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لَهَا، وَقِيلَ: إِنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ
 لِلتَّعَجُّبِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَبِأَيِّ رَحْمَةٍ لَنْتَ هُمْ. وَالتَّنْوِينُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَحْمَةٍ﴾ عَلَى كُلِّ
 تَقْدِيرٍ لِلتَّفْخِيمِ. (وَمِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لَهَا، أَيْ ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ كَائِنَةٍ
 مِنَ اللَّهِ كُنْتَ لِيِنَّ الْجَانِبِ هُمْ وَلَمْ تُعْنَفْهُمْ. وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ: رِبْطُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى
 جَاشِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وَتَخْصِيصِهِ لَهُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَجُعِلَ الرَّفْقُ وَلِيْنُ الْجَانِبِ
 مُسَبِّبًا عَنْ رِبْطِ الْجَاشِ؛ لِأَنَّ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ كَانَ كَامِلَ الشَّجَاعَةِ. قِيلَ:
 وَأَفَادَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ فَائِدَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: مَا يَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ .. وَالثَّانِيَةُ: مَا يَدُلُّ عَلَى رَفْقِهِ فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّكْمِيلِ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَاتَانِ
 الصِّفَتَانِ يَوْمَ أُحُدٍ، حَيْثُ ثَبَتَ حَتَّى كَرَّرَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ مَعَ أَنَّهُ عَرَاهُ مَا عَرَاهُ، ثُمَّ مَا زَجَرَهُمْ

ولا عَنَّفَهُمْ عَلَى الْفِرَارِ، بَلْ آسَاهُمْ فِي الْعَمِّ. وقال القاسمي: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾: أَيُّ لِلَّذِينَ تَوَلَّوْا عَنْكَ حِينَ عَادُوا إِلَيْكَ بَعْدَ الْإِهْزَامِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ عُمُومًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. و(مَا) مَزِيدَةٌ لِلتَّوَكُّيدِ أَوْ نَكِيرَةٌ. و(رَحْمَةً) بَدَلٌ مِنْهَا مُبَيِّنٌ لِإِبْهَامِهَا. وَالتَّنْوِينُ لِلتَّفْخِيمِ، أَيُّ مَا لَنْتَ هَذَا اللَّيْنَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ، مَعَ مَا سَبَّبَ فِعْلَهُمْ مِنَ الْغَضَبِ الْمَوْجِبِ لِلْغَنَفِ وَالسَّطْوَةِ، لَا سِيَّمَا مَعَ اعْتِرَاضٍ مِّنْ اعْتَرَضَ عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ إِلَّا بِسَبَبِ رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ. وقال ابن عاشور: ﴿فِيمَا﴾: (الفاء) لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّابِقُ الَّذِي حُكِيَ فِيهِ مُخَالَفَةُ طَوَائِفِ لَأَمْرِ الرَّسُولِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمُنَافِقِينَ، وَمَا حُكِيَ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ عَنْهُمْ فِيمَا صَنَعُوا. و(الباء) لِلْمُصَاحَبَةِ، أَيُّ لَنْتَ مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ إِذْ كَانَ لِيْنُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِيْنًا لَا تَقْرِيطَ مَعَهُ لِشَيْءٍ مِّنْ مَّصَالِحِهِمْ، وَلَا مُجَارَاةً لَهُمْ فِي التَّسَاهُلِ فِي أَمْرِ الدِّينِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ حَقِيقًا بِاسْمِ الرَّحْمَةِ. وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ مُفِيدٌ لِلْحَضَرِ الْإِضَافِيِّ، أَيُّ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَا بَعِيرَ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَهَذَا الْقَصْرُ مُفِيدٌ التَّعْرِضَ بِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مُسْتَوْجِبَةً الْغِلَظِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَانَ خُلُقَ رَسُولِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، لِحِكْمَةٍ عَلَّمَهَا اللَّهُ فِي سِيَاسَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَزِيدَتْ (مَا) بَعْدَ (بَاءِ) الْجَرِّ؛ لِلتَّأْكِيدِ الْجُمْلَةِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقَصْرِ، فَتَعَيَّنَ بَرِيَادَةُ كَوْنِ التَّقْدِيمِ لِلْحَضَرِ، لَا لِمُجَرَّدِ الْإِهْتِمَامِ. وقال العثيمين: ﴿فِيمَا﴾: (الفاء) عاطفة، و(الباء) حرف جرّ، و(مَا) زائدة، وَلَكِنَّهَا زَائِدَةٌ لَفْظًا وَمَعْنَى، أَيُّ تَفِيدُ زِيَادَةَ الْمَعْنَى، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ نَقُولَ: زَائِدَةٌ، أَوْ أَنَّ نَقُولَ عَنْ أَيِّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ: أَنَّهُ زَائِدٌ، قَالُوا: لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا زِيَادَةَ فِيهِ. وَلَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِنَا: زَائِدَةٌ، أَيُّ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ لَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: ﴿فِيمَا رَحْمَةً﴾: إِذَا جَعَلْنَا (مَا) زَائِدَةً تَكُونُ رَحْمَةً مَجْرُورَةً بِ(الباءِ)، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، أَيُّ فَبِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، أَيُّ عَنْ قَلِيلٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾: الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ ﴿لَنْتَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ﴾: (لَوْ)

هذه شرطية، وفعل الشرط: ﴿كُنْتَ﴾، وجوابه: ﴿لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. يقول الله مخاطباً نبيه ﷺ ومبيناً نعمته عليه وعلى أمته: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: أي فبسبب رحمة الله لك ولأمتك. ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾: أي كنت ليناً لهم، ليناً في مقالك، ليناً في جلوسك، ليناً في مقابلتك، في كل أحوالك، فالرسول . عليه الصلاة والسلام . من أسهل الناس خلقاً وأكرمهم نزلًا، وقد قال الله عنه وكفى به قولاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: [القلم: ٤]. وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أسند الرحمة إلى الله؛ لأنه المتفضل بها؛ ولأن إسنادهما إليه يفيد عظمتها وأنها رحمة عظيمة. وقوله: ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾: الضمير يعود على الصحابة رضي الله عنهم وعلى من بعدهم أيضاً؛ لأن التشريع الذي يقع في عهد الصحابة تشريع لهم وللأمة إلى يوم القيامة، وكونه رحمة له واضح، وكذلك كونه رحمة لهم واضح أيضاً؛ من أجل أن يألفوه وأن يستأنسوا به وتسهل معاملته إليهم؛ ولهذا كان النبي لا يخير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: قال الماوردي: الفَظُّ: الجاني. والغليظُ القلبُ: القاسي. وَجَمَعَ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدًا؛ لِلتَّأْكِيدِ. وقال الواحدي: الفَظُّ: الغليظ الجانب، السَّيِّءُ الْخُلُقِ. يقال: (فَظِظْتُ، تَفْظُ، فَظَاطَةٌ، وَفَظَاطًا)، فَأَنْتَ (فَظٌّ)، وَأَصْلُهُ. (فَظِظْتُ)؛ كَقَوْلِكَ: (حَذَرْتُ) مِنْ: (حَذَرْتُ). و(فَرَّقْتُ) مِنْ: (فَرَّقْتُ). إِلَّا أَنَّ مَا كَانَ مِنَ الْمَضَاعِفِ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ يُدْغَمُ، نَحْوُ: (رَجُلٌ صَبٌّ)، وَأَصْلُهُ: (صَبَبٌ). قال الكلبي: ولو كنت فظًّا في القول، غليظ القلب في الفعل. ﴿لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي: لَتَفَرَّقُوا وَنَفَرُوا مِنْكَ كَمَا تَتَطَايَرُ شَطَايَا الشَّيْءِ الْمَتَكَسِّرِ. وَالْفَضُّ: الْكَسْرُ وَالتَّفْرِيقُ. يقال: (فَضَضْتُ الْقَوْمَ، فَانْقَضُوا). ومنه يقال: (لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكً). قال الزجاج: المعنى: إِنَّ لَيْنَكَ لَهُمْ، يُوجِبُ دَخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّكَ تَأْتِيهِمْ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، مَعَ لَيْنٍ وَخُلُقٍ عَظِيمٍ. وقال البغوي: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾: يعني جافيًا، سيِّء الخُلُقِ، قَلِيلَ الْإِحْتِمَالِ. ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾: قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَظًّا فِي الْقَوْلِ، غَلِيظَ

الْقَلْبِ فِي الْفِعْلِ. ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أَي لَنَفَرُوا وَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، يُقَالُ: فَضَضْتُهُمْ فَانْفَضُوا أَي فَرَّقْتُهُمْ فَتَفَرَّقُوا. وقال ابن الجوزي: قَالَ الرَّجَّاجُ: الْفَضُّ: الْغَلِيظُ الْجَانِبِ، السَّيِّئُ الْخُلُقِ. وَأَمَّا الْغَلِيظُ الْقَلْبِ، فَقِيلَ: هُوَ الْقَاسِي الْقَلْبِ، فَيَكُونُ ذِكْرُ الْفَضَاظَةِ وَالْغَلِظِ. وَإِنْ كَانَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ. تَوْكِيدًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَضُّ فِي الْقَوْلِ، وَالْغَلِيظُ الْقَلْبِ فِي الْفِعْلِ. ﴿لَا نَفْضُوا﴾: أَي تَفَرَّقُوا، وَتَقُولُ فَضَضْتُ عَنِ الْكِتَابِ حَتْمَهُ: إِذَا فَرَّقْتَهُ عَنْهُ. وقال القرطبي: الْفَضُّ: الْغَلِيظُ الْجَانِبِ. فَظِطَّتْ تَفِطُّ فَضَاظَةً وَفُضَاظًا فَأَنْتَ فَضٌّ، وَالْأُنْثَى فَظَّةٌ، وَالْجَمْعُ أَفْضَاظٌ. وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ. عَلَيْهِ السَّلَامُ. لَيْسَ بِفَضٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَحَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ. وَغَلِظَ الْقَلْبُ عِبَارَةٌ عَنْ بَحْثِهِمُ الْوَجْهَ، وَقَلَّةِ الْإِنْفَعَالِ فِي الرَّغَائِبِ، وَقَلَّةِ الْإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ. وَمَعْنَى ﴿لَا نَفْضُوا﴾: لَتَفَرَّقُوا، فَضَضْتُهُمْ فَانْفَضُوا، أَي فَرَّقْتُهُمْ فَتَفَرَّقُوا، وَأَصْلُ الْفَضِّ الْكُسْرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكًا. وَالْمَعْنَى: يَا مُحَمَّدُ لَوْ لَا رِفْعُكَ لَمَنَعَهُمُ الْإِحْتِشَامُ وَالْهَيْبَةُ مِنَ الْقُرْبِ مِنْكَ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ. وقال أبو حيان: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَةَ اللَّيْنِ هِيَ الْمَحَبَّةُ وَالْإِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ. وَأَنَّ خِلَافَهَا مِنَ الْجَفْوَةِ وَالْحُسُونَةِ مُؤَدِّي إِلَى التَّفَرُّقِ، وَالْمَعْنَى: لَوْ شَافَهُتُهُمْ بِالْمَلَامَةِ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْمِخَالَفَةِ وَالْفِرَارِ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِكَ هَيْبَةً مِنْكَ وَحَيَاءً، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَتَفَرُّقِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَضَعْفِ مَادَّتِهِ، وَإِطْمَاعًا لِلْعَدُوِّ وَاللَّيْنِ وَالرِّفْقِ، فَيَكُونُ فِيمَا لَمْ يُفْضِ إِلَى إِهْمَالِ حَقِّهِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ. وقال ابن كثير: الْفَضُّ: الْغَلِيظُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا: غَلِيظُ الْكَلَامِ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾، أَي لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِي الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَا نَفْضُوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَأَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيْفًا لِقُلُوبِهِمْ. وقال الشوكاني: الْمَعْنَى: لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَرَفُّقُ بِهِمْ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِكَ هَيْبَةً لَكَ وَاحْتِشَامًا مِنْكَ بِسَبَبِ مَا كَانَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ. وقال الألوسي: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾: أَي حَشِشَ الْجَانِبِ، شَرَسَ الْأَخْلَاقِ، جَافِيًا فِي الْمَعَاشِرَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا. ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾: أَي قَاسِيَهُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: ﴿فُظًّا﴾ فِي الْأَقْوَالِ، ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ فِي الْأَفْعَالِ. وَذَكَرَ

بَعْضُهُمْ: أَنَّ الْفَظَّ: سَيِّئُ الْخُلُقِ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَعَلِيظُ الْقَلْبِ: السَّيِّئُ فِي الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ، وَالثَّانِي سَبَبٌ لِلأَوَّلِ، وَقُدِّمَ الْمَسَبَّبُ؛ لِظُهُورِهِ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي يُطْلَعُ عَلَيْهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمَرَادُ لَوْ كُنْتَ عَلَى خِلَافِ تَيْنِكَ الصِّفَتَيْنِ الْمَعْبُورَ عَنْهُمَا بِالرَّحْمَةِ وَهُوَ التَّهَوُّرُ الْمِشَارُ إِلَيْهِ بِالْفِظَاطَةِ وَسُوءُ الْأَخْلَاقِ الْمُرْمُوزِ إِلَيْهِ بِغَلِظِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ قِسَاوَةَ الْقَلْبِ وَعَدَمَ تَأَثُّرِهِ يَتَّبِعُهَا كُلُّ صِفَةٍ دَمِيمَةٍ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، أَيْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِظَ الْقَلْبِ فَلَمْ تَلْنِ لَهُمْ وَأَغْلَظْتَ عَلَيْهِمْ ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، أَيْ لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ وَنَفَرُوا مِنْكَ وَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيْكَ وَتَرَدَّوْا فِي مُهَاجِرَةِ الرَّدَى وَلَمْ يَنْتَظِمِ أَمْرٌ مَا بُعِثَتْ بِهِ مِنْ هِدَايَتِهِمْ وَإِزْشَادِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾: أَيْ سَيِّئُ الْخُلُقِ خَشِنَ الْكَلَامِ. ﴿غَلِظَ الْقَلْبِ﴾: أَيْ قَاسِيَهُ وَشَدِيدَهُ، تُعَامِلُهُمْ بِالْعُنْفِ وَالْجَفَاءِ. ﴿لَانْفَضُّوا﴾: أَيْ تَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾، فَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيْكَ فَلَا تَتِمُّ دَعْوَتُكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ سَهْلًا سَمَحًا طَلَقًا لَيِّنًا لَطِيفًا بَارًّا رَؤُوفًا رَحِيمًا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَالْإِنْفِضَاضُ: التَّفَرُّقُ. وَ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾: أَيْ مِنْ جِهَتِكَ وَإِزَائِكَ، يُقَالُ: حَوْلُهُ وَحَوَالِيهِ وَحَوْلِيَّتُهُ وَحَوَالِيَّتُهُ وَبِحِوَالِيَّتِهِ. وَالضَّمِيرُ لِلَّذِينَ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، أَيْ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَ الشَّدَّةَ، وَالْكَلَامُ تَمْثِيلٌ: شَبَّهَتْ هَيْئَةُ الثُّغُورِ مِنْهُ وَكَرَاهِيَةُ الدُّخُولِ فِي دِينِهِ بِالْإِنْفِضَاضِ مِنْ حَوْلِهِ أَيْ الْفِرَارِ عَنْهُ مُتَفَرِّقِينَ، وَهُوَ يُؤْذَنُ بِأَنَّهُمْ حَوْلَهُ أَيْ مُتَّبِعُونَ لَهُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: الْفَظُّ: الْجَانِي الشَّدِيدُ فِي مَقَالِهِ الَّذِي يَصْعَرُ خَدَّهُ لِلنَّاسِ، جَافِيًّا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ عَنِيفًا شَدِيدًا لَا يَلِينُ، وَالْغَلِظُ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ، تَجِدُ قَلْبَهُ قَاسِيًّا لَا يَرْحَمُ، وَلَا يُنْزِلُ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَحْوَالِ الْمُقْتَرَنَةِ بِالْأَفْعَالِ، فَأَحْيَانًا تَكُونُ هُنَاكَ أَحْوَالٌ تَقْتَرِنُ بِفِعْلِ الشَّخْصِ يَعْذِرُ بِفِعْلِهِ مِنْ أَجْلِهَا، فَتَجِدُ غَلِظَ الْقَلْبِ يَعَامِلُ النَّاسَ مُعَامَلَةً وَاحِدَةً لَا يَنْظُرُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى ظُرُوفِهِمْ، وَإِنَّمَا تَجِدُهُ غَلِظَ الْقَلْبِ قَاسِيًّا لَا يَلِينُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا يَبْدُرُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ فِي مُعَامَلَةِ الصِّغَارِ، تَجِدُهُ فِي مُعَامَلَةِ الصِّغَارِ عَنِيفًا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَدَبُهُ كَأَدَبِ الْكَبِيرِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خَطَأٌ

عظيم، وهذا من غلط القلب. وانفضوا: أي تفرقوا وخرجوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، أي تفرقوا إليها وخرجوا. وقال: ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾، ولم يقل: منك؛ لأن من حولك أبلغ من قوله منك، يعني انفضوا وبعثوا حتى لا يقربوا إلى مكان قريب منك، أي يبعدون حتى عما قارب مكانك.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: قال الماوردي: وفي أمره بالمشاورة أربعة أقاويل: أحدها: أنه أمره بمشاورةهم في الحرب؛ ليستقر له الرأي الصحيح فيه، قال الحسن: ما شاور قوم قط إلا هتوا لأرشد أمورهم. الثاني: أنه أمره بمشاورةهم؛ تأليفا لهم وتطييبا لأنفسهم، وهذا قول قتادة، والربيع. الثالث: أنه أمره بمشاورةهم؛ لما علم فيها من الفضل؛ ولتناسي أمتته بذلك بعده ﷺ، وهذا قول الضحاك. الرابع: أنه أمره بمشاورةهم ليستقر به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنيا، وهذا قول سفيان. وقال الواحدي: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: أي ما فعلوا يوم أخذ حتى أشفعك فيهم. وقال الكلبي: فاعف عنهم أي الشيء يكون منهم. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أي من ذلك الذنب. وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يقال: (شاور مشاورة)، و(شوارا)، و(مشورة)، و(مشورة)، و (القوم شورى). وهي مصدر، سمي القوم بها، كقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧]. قال أصحاب المعاني: هذه عامة في اللفظ، خاصة في المعنى؛ لأن المعنى: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله أمر ووحي وعهد، يدل عليه قراءة ابن عباس: (وشاورهم في بعض الأمر). وقال الكلبي: إنما أمر بالمشاورة معهم في لقاء العدو والحرب ومكايدها، فالأمر عنده بالمشاورة خاص في الحرب. وروى عمرو بن دينار، عن ابن عباس، أنه قال: الذي أمر النبي ﷺ، بمشاورته في هذه الآية: أبو بكر وعمر. رضي الله عنهما.، وقال قتادة، والربيع، ومقاتل: إنما أمر بالمشاورة مع استغنائه بوحي الله وجزالة رأيه؛ تطييبا لنفوس القوم، ورفعاً من أقدارهم؛ إذ كانت العرب إذا لم يُشاوروا في الأمر شق عليهم. قال الشافعي: وهذا كقوله ﷺ: "والثيب تُستأمر" رواه الشيخان، ولو

أكرهها الأب على التّكاح جازَ لكنّها تُستأمر؛ تطيبا لنفسيها. وقال الحسن، وسفيان بن عُيينة: إنما ذلك؛ ليقتدي به غيره في المشاورة، ويصير سنة. وقال ابن الجوزي: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: أي تجاوز عن هفواتهم، وسلّ الله المغفرة لذنوبهم. ﴿وشاورهم في الأمر﴾: من فوائد المشاورة: أنّ المشاور إذا لم ينجح أمره، علّم أنّ امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه. ومنها: أنّه قد يعزم على أمر، فيبين له الصّواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح. قال عليّ. رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمّنك من الندم. وقال بعض الحكماء: ما استنبط الصّواب بمثل المشاورة، ولا حصنت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر. واعلم أنّه إنّما أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه فيما لم يأت به فيه وحي، وعمّم بالذكر، والمقصود أرباب الفضل والتّجارب منهم. وفي الذي أمر بمشاورتهم فيه قولان. حكاهما القاضي أبو يعلى: أحدهما: أنّه أمر الدنيا خاصّة. الثاني: أمر الدين والدنيا، وهو أصح. وقال القرطبي: قال العلماء: أمر الله نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنّه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصّته عليهم من تبعه، فلمّا صاروا في هذه الدّرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعه أيضًا، فإذا صاروا في هذه الدّرجة صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور. قال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شقّ عليهم، فأمر الله، نبيه أن يشاورهم في الأمر، فإنّ ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يأت فيه وحي، روي ذلك عن الحسن البصري، والضّحّاك قالا: ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنّما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل؛ ولتقتدي به أمته من بعده. وقال ابن خُوَيز منداذ: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، وجوه الناس فيما يتعلّق بالمصالح، ووجوه الكتّاب والوزراء

وَالْعَمَلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَعِمَارَتِهَا. وَكَانَ يُقَالُ: مَا نَدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ. وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَذَلِكَ فِيمَا كَانَ خَاصًّا بِهِ مِنْ تَبَعَةٍ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَبِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ فِيمَا هُوَ مُحْتَصٌ بِحَقِّ اللَّهِ وَبِمُشَاوَرَتِهِمْ. وَفِيهَا قَوَائِدُ: تَطْيِيبُ نَفُوسِهِمْ، وَالرَّفْعُ مِنْ مِقْدَارِهِمْ بِصَفَاءِ قَلْبِهِ لَهُمْ، حَيْثُ أَهْلَهُمْ لِلْمُشَاوَرَةِ، وَجَعَلَهُمْ خَوَاصَّ بَعْدَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ، وَتَشْرِيعُ الْمِشَاوَرَةِ لِمَنْ بَعْدَهُ، وَالِاسْتِظْهَارُ بِرَأْيِهِمْ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ؛ فَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَاحْتِبَارُ عُقُولِهِمْ فَيُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَاجْتِهَادُهُمْ فِيمَا فِيهِ وَجْهُ الصَّلَاحِ. وَإِذَا لَمْ يُشَاوِرْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَصَلَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: أَمْرٌ لَهُ بِالْعَفْوِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: سَلِّ الْعَفْوَ عَنْهُمْ لِأَعْفَوْ عَنْهُمْ، وَالْمَعْفُو عَنْهُ وَالْمُسْتَوْلُ الْإِسْتِغْفَارُ لِأَجَلِهِ: قِيلَ: فِرَائِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرْكُ إِجَابَتِهِ، وَزَوَالُ الرُّمَةِ عَنْ مَرَكَزِهِمْ. وَقِيلَ: مَا يُبْدُونَ مِنْ هَفَوَاتِهِمْ وَالْإِسْتِغْفَارِ مِنَ السَّقَطَاتِ الَّتِي لَا يَعْتَقِدُونَهَا، كَمُنَادَاتِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: أَيُّ فَاغْفُ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكَ مِنَ الْحُقُوقِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ فِيمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ، أَيُّ الَّذِي يَرِدُ عَلَيْكَ، أَيُّ أَمْرٍ كَانَ مِمَّا يُشَاوَرُ فِي مِثْلِهِ، أَوْ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ خَاصَّةً كَمَا يُفِيدُهُ السِّيَاقُ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَطْيِيبِ خَوَاطِرِهِمْ وَاسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِمْ، وَلِتَعْرِيفِ الْأُمَّةِ بِمَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَأْتَفَ مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدَكَ. وَالْمَرَادُ هُنَا: الْمِشَاوَرَةُ فِي غَيْرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَرِدُ الشَّرْعُ بِهَا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، أَيُّ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَاغْفُ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِكَ. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: اللَّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِهِ؛ إِمَامًا لِلشَّفَقَةِ، وَإِكْمَالًا لِلتَّرَبُّيَةِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: أَيُّ فِيمَا فَرَطُوا فِي حَقِّكَ كَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: إِمَامًا لِلشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أَيُّ أَمْرِ الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ؛ تَوَدُّدًا إِلَيْهِمْ؛ وَتَطْيِيبًا لِنَفُوسِهِمْ؛ وَاسْتِظْهَارًا بِأَرَائِهِمْ؛ وَتَمْهِيدًا لِسُنَّةِ الْمِشَاوَرَةِ فِي الْأُمَّةِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: هَذَا تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، أَيُّ فَاغْفُ عَنْهُمْ إِذَا قَصَرُوا فِي حَقِّكَ. وَالْعَفْوُ: هُوَ التَّسَامُحُ وَعَدَمُ الْمُواخَاذَةِ. ﴿وَاسْتَغْفِرْ

هَمْ: في حقّ الله إذا قصّروا فيه، فالصحابّة قد يقصّرون في حقّ الرسول . عليه الصلاة والسلام .، وقد يقصّرون في حقّ الله، أمّا في حقّ الرسول، فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، وما أكثر ما يحصل من جفافة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلى رسول الله ﷺ، ولكنّه يصبر ويتحمّل ويعفو عنهم، حتى أحياناً يأتيه من زوجاته ما يأتيه ممّا يحصل بسبب الغيرة بين النساء وهو يعفو عنهن. والضمير في قوله: ﴿وَشَاوَرَهُمْ﴾ يعود على الصحابة، أي شاور أصحابك في الأمر. والمشورة: هي استطلاع الرأي بحيث يعرض الشيء على المستشار؛ ليستطلع الرأي وينظر ما رأيّه فيه. والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يؤدّي الأمانة على الوجه الذي يرى أنه أصلح لمستشيريه. وقوله: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾: كلمة الأمر: المراد بها: واحد الأمور، لا واحد الأوامر؛ لأن الأوامر لا يستشير فيها أحداً، الأوامر يؤمر بها شرعاً، لكن في الأمر أي في الشأن وهو مفرد محلى ب(ال)، فهل (ال) هذه للعموم؟ أي شاورهم في كلّ أمر أو هو عام أريد به الخاص؟ أي شاورهم في الأمر الذي يكون مشتركاً أو مشتبهاً عليك وجهه؟ الجواب: الثاني بلا شك؛ لأنه لا يمكن أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمره الله بأن يشاورهم في كل شيء، إنما يشاورهم في الأمر العام المشترك بدليل قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي أمرهم الذي يجمعهم جميعاً شورى بينهم، أمّا الأمر الخاصّ فإنه تطلب الاستشارة عند اشتباه الأمر فيستشير فيها. إذاً ﴿شَاوَرَهُمْ﴾: استطلع رأيهم. ﴿فِي الْأَمْرِ﴾: أي في الأمر المشترك أو في الأمر الخاصّ إذا اشتبه عليك.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى اللَّهِ﴾: قال مكّي: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: أي إذا ثبت الرأي على أمر، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فيه، وامض فيه. وقال الواحدي: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: أي على ما تريد إمضاءً. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، لا على المشاورة. ومعنى التَّوَكَّلِ: تفويض الأمر إلى الله؛ لِلتَّقَةِ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ. وقال ابن الجوزي: قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الْعَزْمُ: عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَى الشَّيْءِ وَيُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ. وقال القرطبي: قَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا عَزَمَ عَلَى أَمْرٍ أَنْ

يَمْضِي فِيهِ وَيَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، لَا عَلَى مُشَاوَرَتِهِمْ. وَالْعَزْمُ: هُوَ الْأَمْرُ الْمُرَوَّى الْمُنْفَعُ، وَلَيْسَ رُكُوبُ الرَّأْيِ دُونَ رَوِيَّةٍ عَزْمًا. وَالتَّوَكُّلُ: الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ مَعَ إِظْهَارِ الْعَجْزِ، وَالْإِسْمُ التُّكْلَانُ. وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: التَّوَكُّلُ: هُوَ الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ فِي تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ أَوْ حِفْظِهَا بَعْدَ حَصُولِهَا، وَفِي دَفْعِ الْمَضَرَّاتِ وَرَفْعِهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ؛ لَوْجَهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وَالْآخَرُ: الضَّمَانُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فَجَعَلَهُ شَرْطًا فِي الْإِيمَانِ، وَالظَّاهِرُ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فَإِنَّ الْأَمْرَ مَحْمُولٌ عَلَى الْوَجُوبِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ إِذَا عَقَّدْتَ قَلْبَكَ عَلَى أَمْرٍ بَعْدَ الْإِسْتِشَارَةِ فَاجْعَلْ تَفْوِضَكَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالْأَصْلَحِ لَكَ، وَالْأَرْشَدِ لِأَمْرِكَ، لَا يَعْلَمُهُ مَنْ أَشَارَ عَلَيْكَ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى الْمِشَاوَرَةِ وَتَحْمِيرِ الرَّأْيِ وَتَنْقِيحِهِ، وَالْفِكْرِ فِيهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ مَطْلُوبٌ شَرْعًا خِلَافًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنْ تَرْكِ الْمِشْوَرَةِ، وَمِنْ الْإِسْتِئْذَانِ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِي عَاقِبَةٍ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: أَيُّ إِذَا عَقَّدْتَ قَلْبَكَ عَلَى الْفِعْلِ وَإِمْضَائِهِ بَعْدَ الْمِشَاوَرَةِ كَمَا تُؤْذَنُ بِهِ (الِفَاءُ)، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أَيُّ فَاعْتَمِدْ عَلَيْهِ وَثِقْ بِهِ وَفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ الْأَعْلَمُ بِمَا هُوَ الْأَصْلَحُ. وَأَصْلُ التَّوَكُّلِ: إِظْهَارُ الْعَجْزِ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْغَيْرِ وَالْإِكْتِفَاءُ بِهِ فِي فِعْلٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَهُوَ عِنْدَنَا عَلَى اللَّهِ لَا يُنَافِي مُرَاعَاةَ الْأَسْبَابِ، بَلْ يَكُونُ بِمُرَاعَاةِهَا مَعَ تَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ تَعَالَى شَأْنُهُ، وَحَدِيثُ: "قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أُرْسِلْ نَاقِي وَأَتَوَكَّلْ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" يُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ، رَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ، وَحَسَنَهُ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوط. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْعَزْمُ: هُوَ تَصْمِيمُ الرَّأْيِ عَلَى الْفِعْلِ. وَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ عَزَمْتَ؛ لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَيْهِ التَّفْرِيعُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَشَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فَالْتَّفَادِيرُ: فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى الْأَمْرِ. وَقَدْ ظَهَرَ مِنَ التَّفْرِيعِ أَنَّ الْمُرَادَ: فَإِذَا عَزَمْتَ بَعْدَ

الشورى، أي تَبَيَّنَ لَكَ وَجْهُ السَّدَادِ فِيمَا يَجِبُ أَنْ تَسْلُكَهُ فَعَزَمْتَ عَلَى تَنْفِيذِهِ سِوَاهُ كَانَ عَلَى وَفْقِ بَعْضِ آرَاءِ أَهْلِ الشُّورى أَمْ كَانَ رَأْيًا آخَرَ لَاحَ لِلرَّسُولِ سَدَادُهُ فَقَدْ يُخْرَجُ مِنْ آرَاءِ أَهْلِ الشُّورى رَأْيِي، وَفِي الْمَثَلِ: (مَا بَيْنَ الرَّائِيَيْنِ رَأْيِي). وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: التَّوَكَّلْ حَقِيقَتُهُ الْإِعْتِمَادُ. فَالتَّوَكَّلْ أَنْفِعَالٌ فَلْيُثَبِّتْ عَقْلِيَّيَّ يَتَوَجَّهْ بِهِ الْفَاعِلُ إِلَى اللَّهِ رَاجِيًا الْإِعَانَةَ وَمُسْتَعِيدًا مِنَ الْخَيْبَةِ وَالْعَوَاقِقِ، وَرُبَّمَا رَافَقَهُ قَوْلُ لِسَانِيَّ وَهُوَ الدُّعَاءُ بِذَلِكَ. وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى جَوَابِ إِذَا، وَفَرَعٌ عَنْهُ، وَالتَّقْدِيرُ: فَإِذَا عَزَمْتَ فَبَادِرْ وَلَا تَتَأَخَّرْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ لِلتَّأَخُّرِ آفَاتٍ، وَالتَّرَدُّدُ يُضَيِّعُ الْأَوْقَاتَ، وَلَوْ كَانَ التَّوَكُّلُ هُوَ جَوَابُ إِذَا لَمَا كَانَ لِلشُّورى فَائِدَةٌ؛ لِأَنَّ الشُّورى كَمَا عَلِمْتَ لِقَصْدِ اسْتِظْهَارِ أَنْفَعِ الْوَسَائِلِ لِحُصُولِ الْفِعْلِ الْمَرْغُوبِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ وَأَقْرَبِهِ، فَإِنَّ الْقَصْدَ مِنْهَا الْعَمَلُ بِمَا يَتَضَيِّحُ مِنْهَا، وَلَوْ كَانَ الْمَرَادُ حُصُولَ التَّوَكُّلِ مِنْ أَوَّلِ حُطُورِ الْخَاطِرِ، لَمَا كَانَ لِلْأَمْرِ بِالشُّورى مِنْ فَائِدَةٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَوْضَحَ آيَةً فِي الْإِشْرَادِ إِلَى مَعْنَى التَّوَكُّلِ الَّذِي حَرَفَ الْقَاصِرُونَ وَمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مَعْنَاهُ، فَأَفْسَدُوا هَذَا الدِّينَ مِنْ مَبْنَاهُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أَيِ صَمَّمْتَ عَلَى الْفِعْلِ، هَلْ بَعْدَ الْمَشُورَةِ أَوْ قَبْلَ الْمَشُورَةِ؟ الظَّاهِرُ بَعْدَ الْمَشُورَةِ؛ لِأَنَّ (الفاء) تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا مَفْرَعٌ عَلَى مَا قَبْلُهَا، أَيِ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ بَعْدَ الْإِشْرَادِ وَاسْتِطْلَاعِ الرَّأْيِ فَلَا تَعْتَمِدُ عَلَى مَشُورَتِهِمْ بَلْ اعْتَمِدْ عَلَى اللَّهِ، فَهَذَا أَمْرٌ بِالْأَسْبَابِ وَالْإِعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ، الْأَسْبَابُ هِيَ الْمَشُورَةُ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ هُوَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَمَا مَعْنَى التَّوَكُّلِ؟ مَعْنَى التَّوَكُّلِ: هُوَ الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ، وَشُعُورِ النَّفْسِ بِأَنَّهَا مَحْتَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: قَالَ مَكِّي: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَفُوضُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: الْغَرَضُ مِنْهُ: تَرْغِيبُ الْمَكَلَّفِينَ فِي الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: حَثَّ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ؛ إِذْ أَحْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَالْمَرْءُ سَاعٍ فِيمَا يُحْصِلُ لَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: هَذِهِ

غاية في الرفعة، وشرف المنزلة، وقد جاءت آثار صحيحة في فضل التوكل وعظيم منزلة المتوكلين، ففي صحيح مسلم، عن عمران بن حصين رضي الله عنه: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: مَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْفُونَ، وَلَا يَسْتَرْفُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَهْمٍ يَتَوَكَّلُونَ" رواه الشيخان. وقال الألويسي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: عَلَيْهِ الْوَاقِعِينَ بِهِ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَحَبَّةُ. وَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ. وَقَدْ رُوِيَ فِي الْآيَةِ حُسْنُ التَّرْتِيبِ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَرَ أَوَّلًا بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَى هَذَا الْمَقَامِ أَمَرَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لِتَنَزَّاحِ عَنْهُمْ التَّبَعَاتِ، فَلَمَّا صَارُوا إِلَى هُنَا أَمَرَ بِأَنْ يُشَاوِرَهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذْ صَارُوا خَالِصِينَ مِنْ التَّبَعَاتِ مُصَفَّيْنِ مِنْهُمَا، ثُمَّ أَمَرَ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ السَّنْدُ الْأَقْوَمُ وَالْمَلْجَأُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَا تُؤَثِّرُ الْأَسْبَابُ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَنْقُضِي الْحَاجُ إِلَّا عِنْدَ بَابِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ عِلَامَةٌ صَدَقَ الْإِيمَانُ، وَفِيهِ مُلَاحَظَةُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاعْتِقَادُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَعَدَمُ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ، وَهَذَا أَدَبٌ عَظِيمٌ مَعَ الْخَالِقِ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ فَلِذَلِكَ أَحَبَّهُ اللَّهُ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: لَمَّا أَمَرَهُ بِالتَّوَكُّلِ بَيْنَ الثَّمَرَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ هَذَا التَّوَكُّلِ، وَهِيَ هُنَا: مَحَبَّةُ اللَّهِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ.

● قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: وَلَمَّا أَمَرَهُ بِمُشَاوَرَتِهِمْ وَبِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، أَوْضَحَ أَنَّ مَا صَدَرَ مِنَ النَّصْرِ أَوْ الْخِذْلَانِ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ لِمَا يَشَاءُ.

● تفسير الآية:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: قال مكي: هذا خطاب للمؤمنين أنّ الله إن نصرهم لم يغلبهم أحد، وإن خذلهم لم ينصرهم أحد، فجميع الأمور إليه ترجع سبحانه. ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: (الهاء) في قوله: ﴿مَنْ بَعْدِهِ﴾ تعود على الله. وقيل: تعود على الخذلان؛ لدلالة يخذلهم عليه. وقال الواحدي: الخذلان: القعود عن النصرة وقت الحاجة إليها، والإسلام للهلكة. يقال: (خَذَلَ، يَخْذُلُ، خِذْلَانًا، وَخِذْلًا). ويقال للبقرة والطبقة، إذا تخلفت مع ولدها في المرعى، وتركت صواحباتها: (خَذُول). قال محمد بن إسحاق بن يسار: أي: إِنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكَ مِنَ النَّاسِ، وَلَنْ يَضُرَّكَ خِذْلَانُ مَنْ خَذَلَكَ، وَإِنْ يَخْذُلَكَ فَلَنْ يَنْصُرَكَ النَّاسُ، أي: لا تترك أمري للناس، وارضض الناس لأمرى. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: (مَنْ) ههنا تقرير للنفي، أي لا يَنْصُرُكُمْ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ سبحانه. وإنما تضمن حرف الاستفهام معنى النفي؛ لأن جوابه يجب أن يكون بالنفي، فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه، وكان أبلغ لتقرير المخاطب فيه، بما لا يتهاى له إنكاره. وقال ابن عطية: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: أي فالزُوموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها. والخذل: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الطباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذ تركتها أمها، وهذا على النسب أي: ذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ تقدير جوابه: (لا من)، والضمير في (بعده) يَحْتَمِلُ العُودَةَ عَلَى الْمُكْتَوَبَةِ، وَيَحْتَمِلُ العُودَةَ عَلَى الْخِذْلِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾. وقال البغوي: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ﴾: أي يُعِينْكُمْ اللَّهُ وَيَمْنَعْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مثل يَوْمَ بَدْرٍ، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يَتْرُكْكُمْ فَلَمْ يَنْصُرْكُمْ كَمَا كَانَ بِأَحَدٍ. والخذلان: القعود عن النصرة والإسلام للهلكة. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي من بعد خذلانه. وقال الرازي: قيل المقصود من الآية: التَّزْغِيبُ فِي الطَّاعَةِ، وَالتَّحْذِيرُ عَنِ

الْمُعْصِيَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ مَنْ اتَّقَى مَعَاصِيَ اللَّهِ نَصَرَهُ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٢٥]، ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ، فَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ هَاتَيْنِ الْمَقَدِّمَتَيْنِ: أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَقَدْ فَازَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يَفُوزُ بِسَعَادَةٍ لَا شَقَاوَةَ مَعَهَا وَبِعِزٍّ لَا ذُلَّ مَعَهُ، وَيَصِيرُ غَالِبًا لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ، وَأَمَّا مَنْ أَتَى بِالْمَعْصِيَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَحْذُلُهُ، وَمَنْ حَذَلَهُ اللَّهُ فَقَدْ وَقَعَ فِي شَقَاوَةٍ لَا سَعَادَةَ مَعَهَا، وَذُلٌّ لَا عِزَّ مَعَهُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: أَيُّ عَلَيْهِ تَوَكَّلُوا، فَإِنَّهُ إِنْ يُعِينَكُمْ وَيَمْنَعُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ لَنْ تُغْلِبُوا. ﴿وَإِنْ يَحْذِلْكُمْ﴾: أَيُّ يَتْرُكْكُمْ مِنْ مُعُونَتِهِ. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: أَيُّ لَا يَنْصُرْكُمْ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ، أَيُّ مِنْ بَعْدِ خِذْلَانِهِ إِيَّاكُمْ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ يَحْذِلْكُمْ﴾. وَالْخِذْلَانُ: تَرْكُ الْعَوْنِ. وَالْمَحْذُولُ: الْمَتْرُوكُ لَا يُعْبَأُ بِهِ. وَخَذَلَتِ الْوَحْشِيَّةُ: أَقَامَتْ عَلَى وَلَدِهَا فِي الْمَرْعَى وَتَرَكَتْ صَوَاحِبَاتَهَا، فَهِيَ خَذُولٌ. وَقِيلَ: هَذَا مِنَ الْمَقْلُوبِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَحْذُولَةُ إِذَا تُرِكَتْ. وَتَخَذَلَتْ رِجْلَاهُ: إِذَا ضَعُفَتَا. قَالَ: وَخَذُولُ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ كَسَحٍ. وَرَجُلٌ خَذَلٌ: لِلَّذِي لَا يَزَالُ يَخْذِلُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: هَذَا النِّفَاتُ؛ إِذْ هُوَ خُرُوجٌ مِنْ غَيْبَةٍ إِلَى الْخِطَابِ. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ؛ لِتَأْكِيدِ التَّوَكُّلِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ. وَالْخِذْلَانُ: تَرْكُ الْعَوْنِ، أَيُّ وَإِنْ يَتْرُكِ اللَّهُ عَوْنَكُمْ. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: هَذَا الْإِسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْخِذْلَانِ الْمَذْلُولِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَحْذِلْكُمْ﴾، أَوْ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ سَيِّمَتْ بِطَرِيقِ تَلْوِينِ الْخِطَابِ؛ تَشْرِيفًا لِلْمُؤْمِنِينَ لِإِجَابِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالتَّرَغِيبِ فِي طَاعَتِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا النُّصْرَةَ، وَالتَّحْذِيرِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْخِذْلَانَ. ﴿وَإِنْ يَحْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾: اسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيِّ مُفِيدٌ لِإِتْفَاءِ النَّاصِرِ عَلَى نَحْوِ انْتِفَاءِ الْغَالِبِ، وَقِيلَ: وَجَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ فِي الْأَوَّلِ صَرِيحَ النَّفْيِ، وَلَمْ يَجِئْ فِي الثَّانِي كَذَلِكَ؛ تَلَطُّفًا بِالْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ صَرَّحَ لَهُمْ بِعَدَمِ

الغلبة، ولم يُصرَّحَ بِأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ مُفِيدًا لَهُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿إِنْ
 يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ﴾: كَمَا نَصَرَكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾: كَمَا فَعَلَ يَوْمَ
 أُحُدٍ. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾: اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ مُفِيدٌ لِإِنْتِفَاءِ النَّاصِرِ ذَاتًا
 وَصِفَةً وَبِطَرِيقِ الْمِبَالَعَةِ. وَهَذَا تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَتَرْغِيبٌ فِي الطَّاعَةِ، وَفِيمَا
 يَسْتَحِقُّونَ بِهِ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ وَالتَّأْيِيدَ. وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَمِمَّا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الْعُقُوبَةَ
 بِالْخِذْلَانِ. وَقَالَ الْعَنِيْمِيْنَ: ﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ جُمْلَةُ شَرْطِيَّةٍ،
 فَعَلَ الشَّرْطُ فِيهَا مُضَارِعٌ مُجْزُومٌ ﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ﴾، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِيهَا جُمْلَةُ اسْمِيَّةٍ مُصَدَّرَةٌ
 بِ(لَا)، وَاقْتَرَنْتَ بِ(الْفَاءِ)؛ لِأَنَّهَا جُمْلَةُ اسْمِيَّةٍ. ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ
 بَعْدِهِ﴾: أَيْضًا الْجُمْلَةُ هَذِهِ جُمْلَةُ شَرْطِيَّةٍ، فَعَلَ الشَّرْطُ فِيهَا فَعْلٌ مُضَارِعٌ مُجْزُومٌ، وَجَوَابُ
 الشَّرْطِ فِيهَا جُمْلَةُ اسْتَفْهَامِيَّةٍ مُرْتَبِطَةٌ بِ(الْفَاءِ) وَجَوَابًا؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ اسْمِيَّةً. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ ذَا
 الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾، فِيهَا (مَنْ، وَذَا، وَالَّذِي)، فَهَلْ (ذَا) الَّتِي بَعْدَ (مَنْ) اسْمٌ
 مُوَصُولٌ أَوْ مُلْغَاةٌ؟ الْجَوَابُ: أَنَّهَا مُلْغَاةٌ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَهَا اسْمٌ مُوَصُولٌ. وَ(ذَا) الَّتِي بَعْدَ (مَنْ)
 تَكُونُ اسْمًا مُوَصُولًا بِشَرْطٍ أَلَّا يَأْتِيَ بَعْدَهَا اسْمٌ مُوَصُولٌ، فَإِنْ أَتَى بَعْدَهَا اسْمٌ مُوَصُولٌ
 تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ مُلْغَاةً. وَقَالَ بَعْضُ النَحْوِيِّينَ: لَا يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ مُلْغَاةً، وَيَكُونُ الْاسْمُ
 الْمَوْصُولُ الثَّانِي تَوْكِيدًا لِلْاسْمِ الْمَوْصُولِ الْأَوَّلِ، كَأَنَّهُ يُقَالُ: مَنْ الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ.
 ﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: يَعْنِي إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ نَصْرَكُمْ فَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَكُمْ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا
 قُلْتُ: إِنْ يُقَدَّرَ اللَّهُ نَصْرَكُمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ النَّصْرَ بِالْفِعْلِ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا غَالِبَ
 لَكُمْ﴾ فَائِدَةٌ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ قَدْ حَصَلَ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَعْنَى: ﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ﴾: أَيِ إِنْ
 يُقَدَّرَ نَصْرَكُمْ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: "وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ" رَوَاهُ
 التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ مَا أَصَابَكَ، أَيِ مَا قُدِّرَ
 أَنْ يُصِيبَكَ؛ لِأَنَّ مَا أَصَابَكَ بِالْفِعْلِ قَدْ حَصَلَ، فَلَا يَسْتَقِيمُ قَوْلُهُ: "لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ".
 وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ: أَنَّ الْحَدِيثَ عَلَى ظَاهِرِهِ: "أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ"، يَعْنِي أَنَّ

الأمر لا يمكن أن يقع على خلاف الواقع، فما أصابك لم يكن ليخطئك أبداً فلا حاجة إلى الندم. هنا يقول: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، و(لا) هذه نافية للجنس، والنافية للجنس نصٌّ في العموم؛ لأن النفي قد يكون للعموم نصّاً وقد يكون للعموم ظاهراً، والفرق بين النصّ والظاهر: أن النصّ لا يحتمل التخصيص، والظاهر يحتمل أن يكون عامّاً أريد به الخصوص. قال أهل العلم في النحو: و(لا) النافية نصٌّ في العموم، كما أنّ (من) الزائدة إذا جاءت بعد النفي، صار النفي نصّاً في العموم، كما لو قلت: (ما في الدار من رجلٍ) هذه نصٌّ في العموم، كقولك: (لا رجلٍ في الدار). الحاصل: أنّ قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ عامٌّ، يعني: لا أحد يغلبكم مهما كانت قوّته ومهما كان عدده، وإنما قال الله ذلك؛ من أجل أن نعلّق النصر بالله لا بغيره. و﴿يُخْذِلْكُمْ﴾ مقابل ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾، فالخذلان ضدّ النصر، وهذه من القواعد التي تُفيدك في تفسير القرآن، أنّ الكلمة قد يظهر معناها بما قرُنَ معها من الضدّ. لو قال قائل: في قوله تعالى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ما معنى ثُبَات؟ الجواب: فُرَادى؛ لمقابلتها لقوله: ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾. قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ﴾: أي إن يُقدِّر لكم الخذلان، وهو عدم النصر ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ويمكن أيضاً أن نستدلّ على معنى الخذلان بقوله: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، (فَمَنْ): استفهام جاء بمعنى النفي؛ لأنه مُشْرَب بمعنى التّحدّي، يعني كأن الله يقول: نتحدّاكم إذا أراد الله خذلانكم أن ينصركم أحدٌ من بعده، حتى لو اجتمعت قوى الأرض كلّها على أن تنصركم، والله لم ينصركم فإنه لا يمكن أن تنتصروا، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟ الجواب: لا أحد.

وقال البغوي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: قيل: التَّوَكَّلُ أَنْ لَا تَعْصِيَ اللَّهَ مِنْ أَجْلِ رِزْقِكَ. وقيل: أَنْ لَا تَطْلُبَ لِنَفْسِكَ نَاصِراً غَيْرَ اللَّهِ وَلَا لِرِزْقِكَ حَازِناً غَيْرَهُ وَلَا لِعَمَلِكَ شَاهِداً غَيْرَهُ. وقال أبو حيان: التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ مِنْ فُرُوضِ الْإِيمَانِ، وَلَكِنَّهُ يَقْتَرِنُ بِالتَّشْمِيرِ فِي الطَّاعَةِ وَالْجَزَامَةِ بِغَايَةِ الْجُهْدِ، وَمُعَاوَاةِ أَسْبَابِ التَّحَرُّزِ، وَلَيْسَ الْإِلْقَاءُ بِالْيَدِ وَالْإِهْمَالُ لِمَا

يَجِبُ مُرَاعَاتُهُ بِتَوَكُّلٍ. وقال الشوكاني: وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ لَا غَالِبَ لَهُ، وَمَنْ حَذَلَهُ لَا نَاصِرَ لَهُ، فَوَضَّ أُمُورَهُ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَشْتَغَلْ بغيرِهِ. وَتَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْزُورِ عَلَى الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لإِفَادَةِ قَصْرِهِ عَلَيْهِ. وقال السعدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: تقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي على الله توكلوا لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار. وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. وقال العثيمين: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: جار ومجرور مقدّم على عامله وهو قوله: ﴿يَتَوَكَّلْ﴾، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، أي على الله لا غيره. ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾: (الفاء) هنا قال النحويون: إنها زائدة؛ لتحسين اللفظ، ولا يمكن أن تكون عاطفة؛ لأن (الواو) في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ تُغني عنها؛ ولهذا لو قيل: (وعلى الله ليتوكل) صحّ، فهي زائدة؛ لتحسين اللفظ، ووجه كونها لتحسين اللفظ: أنّ اللفظ لو جاء (وعلى الله ليتوكل المؤمنون) لم يكن بذاك بلاغة، فإذا قيل: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾: أي فليعتمد، ولكن التوكل على الله ليس كالتوكل على الآدمي، التوكل على الله فيه إنابة وخضوع وذل وتفويض واعتماد تامّ على الله، بخلاف ما إذا توكل الإنسان على شخص وكيل له، فإنه لا شكّ يعتمد عليه فيما وكله فيه، لكن لا يجد من قلبه أنه مفوّض تفويضاً تاماً، فالتوكل على الله عبادة؛ فلهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾، يعني وحده فليتوكل المؤمنون، أي المؤمنون به. والإيمان بالله إذا أُطلق شمل جميع ما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيّنها الرسول ﷺ في قوله لجبريل . عليه الصلاة والسلام .: "الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره" رواه البخاري ومسلم.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلْ مِمْسَا غَلٍّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١):

- سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها سبعة أقوال:

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعن النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

الثاني: أن رجلاً غل من غنائم يوم حنين، فنزلت الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

الثالث: أن قوماً من أشرف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضاً.

الرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائعاً، فغنم النبي ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

الخامس: أن قوماً غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

السادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، فقال لهم النبي ﷺ: "ألم أعهد إليكم ألا تَبْرَحُوا؟! أَظُنُّنْتُمْ أَنَا نَعْلُ؟! فنزلت هذه الآية"، قاله ابن السائب، ومقاتل.

السابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرطبي، وابن إسحاق. وذكر بعض المفسرين أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيب دينهم وأهليهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فنزلت هذه الآية.

- مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما بالغ في الحث على الجهاد أتبعه بذكر أحكام الجهاد، ومن جملة المنع من الغلول.

وقال أبو حيان: ومُناسِبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَضَمَّنَتْ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ الْعَنَائِمِ فِي الْجِهَادِ، وَهِيَ مِنَ الْمَعَاصِي الْمَتَوَعَّدِ عَلَيْهَا بِالنَّارِ.

وقال البقاعي: وَلَمَّا كَانَ الْعُلُولُ مِنْ أَعْظَمِ مُوجِبَاتِ الْخِذْلَانِ، وَالتَّزَاهُ عَنْهُ مِنْ أَعْظَمِ مُوجِبَاتِ النَّصْرِ، كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ تَعْقِيبَ هَذِهِ الْآيَةِ بِآيَةِ الْعُلُولِ.

وقال ابن عاشور: الْأَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ عُطِفَ عَلَى مَجْمُوعِ الْكَلَامِ عَطْفُ الْغَرَضِ عَلَى الْغَرَضِ. وَمَوْقِعُهُ عَقِبَ جُمْلَةٍ ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾؛ لِأَنَّهَا أَفَادَتْ أَنَّ النَّصَرَ يَبْدُ اللَّهُ وَالْخِذْلَ بِيَدِهِ، يَسْتَلْزِمُ التَّحْرِيزَ عَلَى طَلَبِ مَرْضَاتِهِ؛ لِيَكُونَ لَطِيفًا بِمَنْ يُرْضُونَهُ. وَإِذْ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ النَّصَائِحُ وَالْمَوَاعِظُ مُوجَّهَةً إِلَيْهِمْ؛ لِيَعْمَلُوا بِهَا فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ، نُبِّهُوا إِلَى شَيْءٍ يَسْتَحِفُّ بِهِ الْجَيْشُ فِي الْغَزَوَاتِ، وَهُوَ الْعُلُولُ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُرْضِي اللَّهَ فَيَخْذَرُوهُ وَيَكُونُوا بِمَا هُوَ أَدْعَى لِعِصَابِ اللَّهِ أَشَدَّ حَذَرًا فَهَذِهِ مُنَاسِبَةُ التَّحْذِيرِ مِنَ الْعُلُولِ، وَيُعْصِدُ ذَلِكَ: أَنَّ سَبَبَ هَزِيمَتِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ تَعَجُّلُهُمْ إِلَى اخْتِذِ الْعَنَائِمِ.

● تفسير الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾: قال الواحدي: أَيُّ أَنْ يَخُونَ فِيكُمْ الْغَنِيمَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ. أَوْ أَنْ يَخُونَ بِأَنْ يَعْطِيَ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ. فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى تَخْيِصِ النَّبِيِّ ﷺ هَهُنَا، وَغَيْرُهُ يَسَاوِيهِ فِي أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ؟. قُلْنَا: (أَنَّ) مَعَ الْمُسْتَقْبَلِ، تَكُونُ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: (مَا كَانَ لِنَبِيِّ الْعُلُولِ)، أَرَادَ: مَا غَلَّ نَبِيٌّ. يَنْفِي عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْعُلُولَ، لَا أَنَّهُ يَنْهَاهُمْ بِهَذَا اللَّفْظِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: (الْلَامُ) فِيهِ مَنْقُولَةٌ، مَعْنَاهُ: مَا كَانَ نَبِيٌّ لِيَغُلَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، أَيُّ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَتَّخِذَ وَلَدًا، عَلَى نَفْيِ الْإِتِّخَاذِ، كَذَلِكَ الْآيَةُ عَلَى نَفْيِ الْعُلُولِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾: قَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ أَنْ يَخَانَ مِنْهُ، أَيُّ لَا تَخُونُوهُ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنْ يَنْسَبَ إِلَى الْعُلُولِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنْ يَلْقَى غِلًّا. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿يَغُلَّ﴾: أَيُّ يَخُونُ. وَفِي هَذِهِ الْخَبَرِ

قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: خِيَانَةُ الْمَالِ عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ. الثَّانِي: خِيَانَةُ الْوَحْيِ عَلَى قَوْلِ الْقُرْطُبِيِّ،
وَابْنِ إِسْحَاقَ. وَقِيلَ: (الْلَامُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَبِيِّ﴾ مَنقُولَةٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَمَا كَانَ النَّبِيُّ
لِيُعْلَلْ، وَمِثْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مَرْيَمَ: ٣٦]، أَيْ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَتَّخِذَ وَلَدًا.
وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْأَطْفِ التَّعْرِيزِ؛ إِذْ قَدْ ثَبَتَتْ بَرَاءَةُ سَاحَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْغُلُولِ، فَدَلَّ
عَلَى أَنَّ الْغُلُولَ فِي غَيْرِهِ، وَمِثْلُهُ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
[سَبَأَ: ٢٥]، وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ السُّدِّيِّ نَحْوُ هَذَا. وَقَالَ الرَّازِيُّ: الْغُلُولُ: هُوَ الْخِيَانَةُ، وَأَصْلُهُ
أَخَذُ الشَّيْءِ فِي الْخُفْيَةِ، يُقَالُ: أَغْلَى الْجَارِزُ وَالسَّالِحُ إِذَا أَبْقَى فِي الْجِلْدِ شَيْئًا مِنَ اللَّحْمِ
عَلَى طَرِيقِ الْخِيَانَةِ. وَالْغُلُّ: الْحِفْدُ الْكَامِنُ فِي الصَّدْرِ. وَالْغِلَالَةُ: التَّوْبُ الَّذِي يُلْبَسُ تَحْتَ
النِّيَابِ. وَالْعَلَلُ: الْمَاءُ الَّذِي يَجْرِي فِي أَصُولِ الشَّجَرَةِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَبْرٌ بِالشُّجَارِ. وَتَعَلَّلَ
الشَّيْءُ إِذَا تَحَلَّلَ وَخَفِيَ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾: أَيْ وَمَا صَحَّ لِنَبِيِّ مِنَ
الْأَنْبِيَاءِ وَلَا اسْتِقَامَ لَهُ. ﴿أَنْ يَعْْلَلَّ﴾: أَيْ يَحُونُ فِي الْمَغْنَمِ، فَإِنَّ التُّبُوَّةَ تُنَافِيهِ مُنَافَاةً بَيِّنَةً، أَوْ
الْمَغْنَى: مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُعْطِيَ قَوْمًا مِنَ الْعَسْكَرِ وَمَنْعَ آخَرِينَ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقْسَمَ بَيْنَ الْكُلِّ
بِالسَّوِيَّةِ. وَعَبَّرَ عَنْ حِرْمَانِ بَعْضِ الْعَزَا بِالْغُلُولِ تَغْلِيظًا. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾
أَنْ يَعْْلَلَّ: الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ نَفَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْْلَلْ، وَغُلُولُ النَّبِيِّ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: غُلُولُ
الْمَالِ، وَغُلُولُ الْعِلْمِ، فَغُلُولُ الْعِلْمِ: كَتَمُهُ، وَغُلُولُ الْمَالِ: إِخْفَاؤُهُ وَأَخْذُهُ، وَكُلُّ هَذَا مُنْتَفٍ
عَنِ النَّبِيِّ شَرْعًا، وَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ قَدَرًا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ قَدَرًا فِيمَا نَعْلَمُ، فَالنَّبِيُّ لَا يُمْكِنُ
أَنْ يَكْتُمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ. ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾ أَنْ
يَعْْلَلَّ: إِذَا جَاءَ (مَا كَانَ) فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ مَعْنَاهَا نَفْيٌ مُحَقَّقٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٣٣]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٧٩]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٥]، وَالشَّوَاهِدُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَدَلَّتِ الْآيَةُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ .

عليهم الصلاة والسلام . لا يمكن أن يَعْلُوا؛ لأن (نبي) نكرة، و(ما) نافية، والنكرة في سياق النفي تُفيد العموم.

﴿وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قال السمعاني: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ﴾: أي ومن يخن. ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قيل: يأتي ما غلَّ بعينه يوم القيامة. وقال ابن الجوزي: وفي إثباته بما غلَّ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يأتي بما غلَّه، يحمله يوم القيامة. الثاني: أنه يأتي حاملاً إثم ما غلَّ. الثالث: أنه يرُدُّ عوض ما غلَّ من حسناته. وقال ابن جُزَيٍّ: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾: وعيد لمن غلَّ بأن يسوق يوم القيامة على رقبته الشيء الذي غلَّ. وقال أبو السعود: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أي يأت بالذي غلَّ بعينه يحمله على عنقه يوم القيامة. وقال العثيمين: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ﴾: هنا عموم؛ لأنه لم يقل: (من يعلل من الأنبياء، لو فرض أن يعلل). قال: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ﴾: يعني من أتباع الأنبياء. ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يأت به يوم القيامة حاملاً له أمام الناس. وهل يأتي بنفس الذي غلَّ، أم يأتي بالعقاب المرتب عليه؟ نقول: إن ظاهر الآية يدل على أنه يأتي بنفس الذي غلَّ، إن كانت شاة أو بعيراً أو أي شيء يغله يأتي به يوم القيامة، وكذا لو غلَّ ثياباً أتى بها يوم القيامة، لكن هل يأتي بها مكتسباً بها؟ الجواب: لا، بل يأتي بها حاملاً لها وهو عارٍ، البعير الذي غلَّه وركبه، يأتي به يوم القيامة حاملاً له؛ تعذيباً له.

﴿ثُمَّ تُؤَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: قال ابن الجوزي: أي تُعطى جزاء ما كسبت. وقال أبو السعود: أي: تُعطى وافيّاً جزاء ما كسبت خيراً أو شراً، كثيراً أو يسيراً. ووضع المكسوب موضع جزائه؛ تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كمّاً وكيفاً كأنهما شيء واحد. وفي إسناد التوفية إلى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند إثباته بما غلَّه يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلعهِ، والمبالغة في بيان فظاعة حال الغال ما لا يخفى، فإنه حيثُ وُيِّ كل كاسب جزاء ما كسبه ولم يُنقص منه شيء وإن كان جُرمُهُ في غاية القلّة والحقارة فلأن لا يُنقص

مِنْ جَزَاءِ الْغَالِ شَيْءٌ وَجُزْمُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَائِمِ أَظْهَرَ وَأَجْلَى. ﴿وَهُمْ﴾: أَيُّ كُلِّ النَّاسِ
 الْمَذْلُولِ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ نَفْسٍ. ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: بِزِيَادَةِ عِقَابٍ أَوْ بِنَقْصِ ثَوَابٍ. وَقَالَ
 الْأَلُوسِيُّ: ﴿ثُمَّ تُؤَوَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: أَيُّ تُعْطَى كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةً جَزَاءً مَا عَمِلَتْ
 مِنْ حَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تَامًّا وَافِيًّا، فَفِي الْكَلَامِ مُضَافٌ مَحْذُوفٌ أَوْ أَنَّهُ أُقِيمَ الْمَكْسُوبُ مَقَامَ
 جَزَائِهِ، وَفِي تَعْلِيلِ التَّوْفِيَةِ بِكُلِّ مَكْسُوبٍ مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ حَالِ الْغَالِ عِنْدَ إِثْبَانِهِ بِمَا
 عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِ الْيَوْمِ وَالْمِبَالِغَةِ فِي بَيَانِ فَظَاعَةِ حَالِ الْغَالِ مَا
 لَا يَخْفَى، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كُلُّ كَاسِبٍ مَجْزِيًّا بِعَمَلِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ جُزْمُهُ فِي
 غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ، فَالْغَالُ مَعَ عِظَمِ جُزْمِهِ بِذَلِكَ أَوَّلَى، وَهَذَا سَبَبُ الْعُدُولِ عَمَّا يَفْتَضِيهِ
 الظَّاهِرُ مِنْ نَحْوِ ﴿ثُمَّ يُؤَوَّى مَا كَسَبَ﴾؛ لِأَنَّهُ اللَّائِقُ بِمَا قَبْلَهُ. وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: ثُمَّ
 تُؤَوَّى مِنْهُ كُلُّ نَفْسٍ لَهَا حَقٌّ فِي تِلْكَ الْغَنِيمَةِ مَا كَسَبَتْ مِنْ نُقْصَانٍ حَقِّهَا مِنْ غُلَّةٍ فَحِينَئِذٍ
 يَكُونُ النِّظْمُ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، وَكَلِمَةُ (ثُمَّ) لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ حَمَلِهِ مَا عَلَّ وَبَيْنَ جَزَائِهِ، أَوْ
 لِلتَّرَاخِي الزَّمَانِيِّ أَيْ بَعْدَ حَمَلِهِ مَا عَلَّ بِمُدَّةٍ مَدِيدَةٍ، وَجَعَلَهُ مُنْتَظَرًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ مُقْتَضِحًا
 حَامِلًا مَا عَلَّهُ تُؤَوَّى مِنْهُ كُلُّ نَفْسٍ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِحْتِمَالِ مِمَّا يُصَانُ عَنْهُ كَلَامُ
 الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ، فَالْحَقُّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْهُ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ الْمُبْتَضِعُ لِنُكْتَةِ الْعُدُولِ،
 وَأَمْرٌ (ثُمَّ) عَلَيْهِ ظَاهِرٌ سَوَاءٌ جُعِلَتْ لِلتَّرَاخِي الزَّمَانِيِّ، أَوِ التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ:
 ﴿ثُمَّ تُؤَوَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: وَإِنَّمَا عَمَمَ الْحُكْمَ، وَلَمْ يَقُلْ: ثُمَّ يُؤَوَّى مَا كَسَبَ؛ لِيَكُونَ
 كَالْبُرْهَانِ عَلَى الْمَقْصُودِ، وَالْمِبَالِغَةِ فِيهِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كُلُّ كَاسِبٍ مَجْزِيًّا بِعَمَلِهِ، فَالْغَالُ، مَعَ
 عِظَمِ جُزْمِهِ بِذَلِكَ أَوَّلَى. ﴿وَهُمْ﴾: أَيُّ النَّاسِ الْمَذْلُولُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾. ﴿لَا
 يُظْلَمُونَ﴾: لَا يُنْقُصُ ثَوَابُ مُطِيعِهِمْ، وَلَا يُزَادُ فِي عِقَابِ عَاصِيهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ:
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تُؤَوَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ تَنْبِيْهُ عَلَى الْعُقُوبَةِ بَعْدَ التَّفْضِيحِ؛ إِذْ قَدْ عَلِمَ
 أَنَّ الْكَلَامَ السَّابِقَ مَسْئُوقٌ مَسَاقُ النَّهْيِ. وَجِيءَ بِ(ثُمَّ)؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى طَوْلِ مُهْلَةِ التَّفْضِيحِ،
 وَمِنْ جُمْلَةِ النُّفُوسِ الَّتِي تُؤَوَّى مَا كَسَبَتْ نَفْسُ مَنْ يَغْلُلُ، فَقَدْ دَخَلَ فِي الْعُمُومِ. وَجُمْلَةُ

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها، وهي تُوفَّى ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾. وقال العثيمين: ﴿ثُمَّ﴾: أي بعد أن يُبعث الناس يوم القيامة ويأتي كل إنسان بما غلَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ. و﴿تُوفَّى﴾: من التوفية، يُقال: وفَّاه حقه أي أعطاه إياه. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: يشمل حتى الرسل، والمرسل إليهم ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، كلُّ يُعطى ما كسب. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: يحتمل أن يكون المراد بالعموم هنا: كل من كان مكلفاً؛ لأن غير المكلف لا يُعاقب؛ لأنه مرفوع عنه القلم، وقد يُقال: إنه يشمل حتى غير المكلف؛ لأن التوفية لا يلزم منها عقوبة، فقد يوفَّى حقه بالأجر، ومعلوم أنَّ غير المكلف يؤجر، ويكتب له ولا يُكتب عليه. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حال من قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، ومعناها العموم. ﴿وَهُمْ﴾: أي الأنفس. ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي لا يُنقصون من الحسنات، ولا يُزادون في السيئات؛ لأن الظلم في الأصل هو النقص، كما قال الله تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي لم تنقص، وهو يشمل. أي الظلم. شيئين: الأول: الزيادة في السيئات. والثاني: النقص من الحسنات. وكلاهما ممتنع في حق الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما انتفى الظلم عن الله؛ لكمال عدله، لا لعجزه عن الظلم، هو قادرٌ على أن يظلم عز وجل، ولكنه لكمال عدله لا يظلم، ولدينا قاعدة في العقيدة وهي: (أنَّ جميع الصفات التي نفاها الله عن نفسه لا يُراد بها مجرد النفي، وإنما يُراد بها إثبات كمال الضد). فمثلاً: الظلم ضده: العدل، فإذا نفى الله عن نفسه الظلم، فالمراد بذلك: أنه لكمال عدله لا يظلم، وإنما قلنا ذلك؛ لأن النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبداً؛ إذ إنَّ النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً. وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] يعني من تعب، فالمراد به: إثبات القوة، يعني: وما مَسَّنَا من لغوب؛ لكمال قوتنا، وهلمَّ جرّاً. قال

العلماء: النفي قد يكون للعجز عن الشيء، وقد يكون لعدم قابلية الشيء، فإذا قلت: (إنّ جدارنا لا يظلم) هذا لعدم القابلية؛ لأن الجدار لا يقبل الظلم، ولا العدل. وإذا قلنا عن رجل ضعيف يضربه الناس ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه، نقول: (هذا الرجل لا يظلم) هذا ذم. أمّا صفات الله إذا وجدت فيها النفي فهي مدح، فإذا وجدت نفي الظلم؛ فلكمال العدل، وإذا وجدت نفي اللغوب؛ فلكمال القوّة، وإذا وجدت نفي العي: ﴿وَلَمْ يَغِي بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ فلكمال القوّة أيضاً، وإذا وجدت نفي الغفلة: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ فلكمال العلم والمراقبة، وهكذا.

● قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّ الله لما قال: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أتبعه بتفصيل هذه الجملة، وبَيَّنَّ أنّ جزاء المطيعين ما هو، وجزاء المسيئين ما هو، فقال: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: قال مكّي: معناها: أفمن ترك الغلول، فاتّبع رضوان الله بذلك كمن غلّ فرجع بسخط من الله على غلوله، قال معناه الضحاك. وقيل: الآية عامّة في كلّ من عمل خيراً، ومن عمل شراً. وقال السمعاني: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: يعني ترك الغلول. ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: يعني بالغلول. وقيل: معناه: أفمن اتّبع رضوان الله بموافقة الرّسول، كمن باء بسخط من الله بمخالفة الرّسول ﷺ. وقال ابن عطية: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: توقيف على تباين المنزلتين وإفتراق الحالتين. والرضوان: مصدر من الرضى.

والمعنى: اتَّبِعُوا الطَّاعَةَ الْكَفِيلَةَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ، ففي الكلام حذف مُضَافٍ. و﴿بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: مَعْنَاهُ: مَضَى مُتَحَمِّلًا لَهُ. وَالسَّخَطُ: صِفَةُ فِعْلٍ، وَقَدْ تَتَرَدَّدُ مَتَى لِحِطِّ فِيهَا مَعْنَى الْإِرَادَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُشِيرَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَلْ وَاتَّقَى فَلَهُ الرِّضْوَانُ، وَإِلَى أَنَّ مَنْ غَلَّ وَعَصَى فَلَهُ السَّخَطُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ مُشِيرَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ اسْتَشْهَدَ بِأُحْدٍ فَلَهُ الرِّضْوَانُ، وَإِلَى الْمُنَافِقِينَ الرَّاجِعِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَهُمُ السَّخَطُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: لِلْمُفَسِّرِينَ فِيهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فِي تَرْكِ الْغُلُولِ، ﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فِي فِعْلِ الْغُلُولِ، وَهُوَ قَوْلُ الْكَلْبِيِّ وَالضَّحَّاكِ. الثَّانِي: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، ﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ بِالْكَفْرِ بِهِ وَالِاسْتِغَالِ بِمَعْصِيَتِهِ. الثَّلَاثُ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ، ﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ. الرَّابِعُ: قَالَ الرَّجَّاجُ: لَمَّا حَمَلَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ إِلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَفَعَلَهُ بَعْضُهُمْ وَتَرَكَهُ آخَرُونَ. فَقَالَ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ امْتَثَلُوا أَمْرَهُ، ﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا قَوْلَهُ، وَقَالَ الْقَاضِي: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ صَحِيحٌ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ قَصْرُ اللَّفْظِ عَلَيْهِ، وَأَقْصَى مَا فِي الْبَابِ: أَنَّ الْآيَةَ نَارِلَةٌ فِي وَاقِعَةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ عُمُومَ اللَّفْظِ لَا يَبْطُلُ لِأَجْلِ خُصُوصِ السَّبَبِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَمَاوَاهُ جَهَنَّمَ﴾: أَيُّ مَثْوَاهُ النَّارِ إِنْ لَمْ يَتَبَّ، أَوْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: أَيُّ الْمَرْجِعِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَاوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: هَذَا الْإِسْتِفْهَامُ مَعْنَاهُ النَّفْيُ، أَيُّ لَيْسَ مَنْ اتَّبَعَ رِضَا اللَّهَ فَامْتَثَلَ أَوْامِرَهُ وَاجْتَنَبَ مَنَاهِيهِ كَمَن عَصَاهُ فَبَاءَ بِسَخَطِهِ، وَهَذَا مِنَ الْإِسْتِعَارَةِ الْبَدِيعِيَّةِ، جَعَلَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ كَالَّذِيلِ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مَنْ يَهْتَدِي بِهِ، وَجَعَلَ الْعَاصِيَ كَالشَّخْصِ الَّذِي أُمِرَ بِأَنْ يَتَّبَعَ شَيْئًا عَنِ اتِّبَاعِهِ وَرَجَعَ مَصْحُوبًا بِمَا يُخَالِفُ الْإِتِّبَاعَ. وَفِي الْآيَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى حَذْفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: أَفَمَنِ اتَّبَعَ مَا يُقُولُ بِهِ إِلَى رِضَا اللَّهِ عَنْهُ، فَبَاءَ بِرِضَاهُ كَمَن لَمْ يَتَّبِعْ ذَلِكَ فَبَاءَ

بِسَخَطِهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْجُمْهُورُ: أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فَلَمْ يَعْلُ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ حِينَ غَلَّ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ يَوْمَ أُحُدٍ، كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ بِتَخْلُفِهِ وَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ أَيْضًا: رِضْوَانُ اللَّهِ الْجِهَادُ، وَالسُّخْطُ الْفِرَارُ. وَقِيلَ: رِضَا اللَّهِ طَاعَتُهُ، وَسُخْطُهُ عِقَابُهُ. وَقِيلَ: سُخْطُهُ مَعْصِيَتُهُ، قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ. ﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ﴾: أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ فَمَكَانُهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ هُوَ جَهَنَّمَ، وَأَفْهَمَ هَذَا أَنَّ مُقَابِلَهُ هُوَ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ مَا أَوَاهُ الْجَنَّةُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ لَا يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِيمَا شَرَعَهُ، فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَأُجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَالْزِمَ بِهِ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ، وَمَا أَوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمَ وَبِقَسِّ الْمَصِيرِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا نَظَائِرٌ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرَّعْدُ: ١٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾ [الْقَصص: ٦١]. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أَيُّ سَعَى فِي تَحْصِيلِهِ وَانْتَحَى نَحْوَهُ حَيْثُمَا كَانَ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ كَالنَّبِيِّ وَمَنْ يَسِيرُ بِسِيرَتِهِ. ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾: أَيُّ رَجَعَ. ﴿بِسَخَطٍ﴾ عَظِيمٍ لَا يُقَادِرُ قَدْرُهُ كَائِنْ. ﴿مَنْ﴾ اللَّهُ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِ كَالْغَالِ وَمَنْ يَدِينُ بِدِينِهِ. وَالْمَرَادُ: تَأْكِيدُ نَفْيِ الْعُلُولِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَتَقْرِيرُهُ بِتَحْقِيقِ الْمَيَانَةِ الْكُلِّيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَالِ، حَيْثُ وَصِفَ كُلُّ مَنِهْمَا بِمَا وَصِفَ بِهِ الْآخَرُ فَقُبِلَ رِضْوَانُهُ تَعَالَى بِسَخَطِهِ وَالِاتِّبَاعُ بِالْبُؤَى. وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْهَمَزَةِ وَالْفَاءِ؛ لِتَوْجِيهِ الْإِنْكَارِ إِلَى تَرْتُّبِ تَوَهُمِ الْمِمَّاثَلَةِ بَيْنَهُمَا وَالْحُكْمِ بِهَا عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ حَالِ الْغَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَبْعَدَ ظُهُورِ حَالِهِ يَكُونُ مَنْ تَرَقَّى إِلَى أَعْلَى عِلِّيَّيْنِ كَمَنْ تَرَدَّى إِلَى أَسْفَلِ سَافِلَيْنِ. وَإِظْهَارُ الْإِسْمِ الْجَلِيلِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ؛ لِإِدْخَالِ الرُّوعَةِ وَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ. ﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ﴾: إِمَّا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسْووقٌ؛ لِبَيَانِ مَالِ أَمْرِ مَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ تَعَالَى، وَإِمَّا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَاءَ بِسَخَطٍ﴾ عَطْفَ الصِّلَةِ الْإِسْمِيَّةِ عَلَى الْفِعْلِيَّةِ وَأَيًّا مَا كَانَ

فَلَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ. ﴿وَبُنُسَ الْمَصِيرِ﴾: اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ، وَالْمَحْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ،
أَيُّ وَبُنُسَ الْمَصِيرِ جَهَنَّمُ. وَقَالَ الشُّوكَايُ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ
اللَّهِ﴾: الْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، أَيُّ لَيْسَ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِي أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ فَعَمِلَ بِأَمْرِهِ
وَاجْتَنَبَ نَهْيَهُ كَمَنْ بَاءَ، أَيُّ رَجَعَ بِسَخَطٍ عَظِيمٍ كَائِنٍ مِنَ اللَّهِ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِ لِمَا أَمَرَ بِهِ
وَنَهَى عَنْهُ. وَيَدْخُلُ تَحْتَ ذَلِكَ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ بِتَرْكِ الْعُلُولِ وَاجْتِنَابِهِ وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ
مِنَ اللَّهِ بِسَبَبِ إِقْدَامِهِ عَلَى الْعُلُولِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أَيُّ سَعَى
فِي تَحْصِيلِهِ وَانْتَحَى نَحْوَهُ، كَمَنْ بَاءَ، أَيُّ رَجَعَ. ﴿بِسَخَطٍ﴾: أَيُّ غَضَبٍ عَظِيمٍ جَدًّا.
وَالجَارُ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ قَبْلَهُ، وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ حَالًا فَيَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ، أَيُّ رَجَعَ مُصَاحِبًا
لِسَخَطٍ. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: أَيُّ كَائِنٍ مِنْهُ تَعَالَى. ﴿وَمَاوَاهُ جَهَنَّمُ﴾: أَيُّ مَصِيرُهُ ذَلِكَ. وَفِي
الْجُمْلَةِ اخْتِمَالَانِ: الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً مَسْوُوقَةً لِيَبَانَ حَالُ مَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ، وَيُفْهَمُ
مِنْ مُقَابِلِهِ: أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرِّضْوَانَ كَانَ مَأْوَاهُ الْجَنَّةُ، وَلَمْ يُذَكَّرْ ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ أُبْلَغَ فِي الزَّجْرِ.
وَقِيلَ: لَمْ يُذَكَّرْ مَعَ الرِّضْوَانِ الْجَنَّةُ؛ لِأَنَّ رِضْوَانَ اللَّهِ أَكْبَرُ وَهُوَ مُسْتَلَزِمٌ لِكُلِّ نَعِيمٍ، وَكَوْنُ
السَّخَطِ مُسْتَلَزِمًا لِكُلِّ عِقَابٍ، فَيَقْتَضِي أَنْ تُذَكَّرَ مَعَهُ جَهَنَّمُ فِي حَيِّزِ الْمَنْعِ لِسَبْقِ الْجَمَالِ
الْجَلَالِ فَافْهَمُ، وَالثَّانِي: أَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ الْمَوْصُولِ فَتَكُونُ مَعْطُوفَةً عَلَى ﴿بَاءَ بِسَخَطٍ﴾
عَطْفَ الصِّلَةِ الْإِسْمِيَّةِ عَلَى الصِّلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَعَلَى كِلَا الْإِحْتِمَالَيْنِ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ.
﴿وَبُنُسَ الْمَصِيرِ﴾: إِمَّا تَذْيِيلٌ أَوْ اعْتِرَاضٌ أَوْ مَعْطُوفٌ عَلَى الصِّلَةِ بِتَقْدِيرٍ، وَيُقَالُ: فِي
حَقِّهِمْ ذَلِكَ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْمَحْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيُّ جَهَنَّمُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿أَفَمَنْ
اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: (الهمزة) هُنَا لِلْإِسْتِفْهَامِ وَيَلِيهَا حَرْفُ عَطْفٍ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّهُ
إِذَا جَاءَتْ هَمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ وَبَعْدَهَا حَرْفُ عَطْفٍ فَإِنَّ لِعُلَمَاءِ النُّحُوِّ فِي ذَلِكَ رَأْيَيْنِ: الرَّأْيَ
الْأَوَّلُ: أَنَّ (الهمزة) دَاخِلَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ مَقْدَرَةٍ تَنَاسَبَ الْمَقَامِ، وَ(الفاء) عَاطِفَةٌ عَلَى تِلْكَ
الْجُمْلَةِ. الرَّأْيَ الثَّانِي: أَنَّ (الهمزة) دَاخِلَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمَوْجُودَةِ وَلَمْ يَحْذَفْ شَيْءٌ، وَلَكِنَّهَا
مَقْدَمَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا؛ لِأَنَّ لَهَا الصَّدَارَةَ، وَأَنَّ (الفاء) فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ﴾ مَحَلُّهَا فِي

الأصل قبل (الهمزة)، والتعديل (فأمن أتبع)، ولكن لما كان الاستفهام له الصدارة قُدمت على حرف العطف، وهذا الرأي أسهل، ووجه سهولته: أنه لا يحتاج إلى تكلف تقدير المحذوف؛ لأنه أحياناً يصعب عليك أن تقدّر المحذوف، وربما تقدّر محذوفاً ويُقدّر غيرك غيره. إذاً نعتمد: أنّ (الهمزة) للاستفهام، وأنّ (الفاء) عاطفة على ما قبلها. ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: (من) هنا اسم استفهام أو اسم موصول، التقدير (أفالذي اتَّبَعَ). إذاً هي اسم موصول؛ لئلا نجعل أداة الاستفهام داخلة على اسم استفهام أو على جملة استفهامية. ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أي يتبع ما يُرضي الله، فكلّ ما يُرضي الله يقوم به. ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أي كالذي باء، أي رجع بسخطٍ من الله، والسخط ضدّ الرضوان، فمن هو الذي يتعرّض للرضوان؟ ومن هو الذي يتعرض للسخط؟ المطيع يتعرض للرضوان، والعاصي يتعرض للسخط. ﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ﴾: (الواو) يحتمل أن تكون للاستئناف، ويكون المراد بها الإخبار عن مآل هذا الذي باء بسخطٍ من الله، ويُحتمل أن تكون عاطفة على جملة صلة الموصول، وهي (باء)، أي كمن باء كمن مأواه جهنم. ﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ﴾: أي مرجعه، يأوي إليه إيواءً لا مغادرة بعده. وجهنم: اسمٌ من أسماء النار. وسمّيت بهذا الاسم المشتق من الجُهمّة، وهي تتضمّن السواد واللبس؛ لأنّ جهنم سوداء عميقة بعيدة العمق. وقيل: إنّ جهنم لفظ معرّب من (كهنام) فارسية ثم عرّبت إلى (جهنم). وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: (بئس) كلمة إنشائية؛ لإفادة الذم، و(نعم) كلمة إنشائية؛ لإفادة المدح، و (بئس، ونعم) يحتاجان إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص، فهنا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، ﴿الْمَصِيرُ﴾ فاعل، والمخصوص محذوفٌ تقديره: (وبئس المصير هي)، أي جهنم، أو (وبئس المصير مصيره)، فيجوز الوجهان.

• قال الله تعالى: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٣):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: وَلَمَّا أَفْهَمَ الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ سَوَى بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُمْ مُتَمَايِزُونَ، صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ...﴾.

• تفسير الآية:

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: قال الواحدي: الآيةُ تحتلُّ ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون المراد: دَرَجَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ جَمِيعًا. والمعنى: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ذَوُو دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ، وَالْكَافِرِينَ ذَوُو دَرَجَةٍ خَسِيسَةٍ. وهذا الوجه مروي عن ابن عباس، قال: يعني أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ، وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ، مُخْتَلِفُوا الْمَنَازِلَ عِنْدَ اللَّهِ، فَلِمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ الْكَرَامَةُ وَالثَّوَابُ، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ مِنَ الْمَهَانَةِ وَالْعَذَابِ. وهذا قول الكلبي أيضا، فإنه قال: هم درجات، بعضهم أشدَّ عذابًا مِنْ بعضٍ، وكلُّ في عذابٍ وَهَوَانٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ بعضهم أَفْضَلُ مِنْ بعضٍ، وكلُّ في فَضْلٍ وَكَرَامَةٍ. الوجه الثاني: أن تكون الآيةُ خَاصَّةً فِي الْمُؤْمِنِينَ، يريد: أَنَّ بعضهم أرفع درجة عند الله مِنْ بعضٍ. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: يريد: أصحاب النبي ﷺ بعضهم أَفْضَلُ مِنْ بعضٍ، وهذا أيضا اختيارُ الفراء، قال: يقول: هم في الفضل مختلفون، بعضهم أرفع من بعض. الوجه الثالث: أن تكون الآيةُ خَاصَّةً فِي الْكَافِرِينَ. وهذا قول الحسن، يقول: بعض أهل النار أشدَّ عذابًا مِنْ بعضٍ، ألا تَرَاهُ يَقُولُ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه تحريضٌ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ؛ لِأَن ثَوَابَهُ لَا يَضِيعُ إِذَا عَمِلَهُ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْعَمَلِ بِمَعْصِيَتِهِ؛ لِأَن جَزَاءَهُ لَا يَفُوتُ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهِ. فهو تهديد ووعيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَتَبَشِيرٌ وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وقال القرطبي: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أَي لَيْسَ مِنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ مِنْهُ. قيل: هُم دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ، أَي هُم مُخْتَلِفُوا الْمَنَازِلَ عِنْدَ اللَّهِ، فَلِمَنْ ابْتَغَى رِضْوَانَهُ الْكَرَامَةُ وَالثَّوَابُ الْعَظِيمُ، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ

مِنْهُ الْمَهَانَةُ وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ. وَمَعْنَى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أَيُّ ذَوُو دَرَجَاتٍ، أَوْ عَلَى
 دَرَجَاتٍ، أَوْ فِي دَرَجَاتٍ، أَوْ هُمْ دَرَجَاتٌ. وَأَهْلُ النَّارِ أَيْضًا ذَوُو دَرَجَاتٍ، فَالْمُؤْمِنُ
 وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الدَّرَجَةِ، ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ يَخْتَلِفُونَ أَيْضًا، فَبَعْضُهُمْ أَرْفَعُ دَرَجَةً مِنْ
 بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ. وَالْدَّرَجَةُ: الرُّتْبَةُ، وَمِنْهُ الدَّرَجُ؛ لِأَنَّهُ يُطَوَّى رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ. وَالْأَشْهُرُ
 فِي مَنَازِلِ جَهَنَّمَ: دَرَكَاتٌ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾
 [النساء: ١٤٥]، فَلِمَنْ لَمْ يَغْلُ دَرَجَاتٌ فِي الْجَنَّةِ، وَلِمَنْ غَلَّ دَرَكَاتٌ فِي النَّارِ. قَالَ أَبُو
 عُبَيْدَةَ: جَهَنَّمُ أَذْرَاكُ، أَيُّ مَنَازِلُ، يُقَالُ لِكُلِّ مَنْزِلٍ مِنْهَا: دَرَكٌ وَدَرَكٌ. وَالدَّرَكُ إِلَى أَسْفَلِ،
 وَالدَّرَجُ إِلَى أَعْلَى. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ
 بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي: أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَالْكَسَائِيُّ: مَنَازِلُ،
 يَعْنِي: مُتَفَاوِثُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ
 دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: أَيُّ
 وَسَيُوفِيهِمْ إِيَّاهَا، لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا وَلَا يَرِيذُهُمْ شَرًّا، بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ:
 ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: قَوْلُهُ: ﴿هُمْ﴾: يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ وَعَلَى
 مَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هُنَا يَشْكُلُ عَلَيْنَا أَنَّهُ أَعَادَ الضَّمِيرَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ (هُمْ) مَعَ
 أَنَّ (مَنْ) وَصَلَتْهَا بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ (أَفَمَنْ اتَّبَعَ... كَمَنْ بَاءَ). وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْاسْمَ
 الْمَوْصُولَ يُفِيدُ الْعُمُومَ، فَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ
 بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]؟ لَمْ يَقُلْ: (هُوَ الْمُتَّقِي)، بَلْ قَالَ: ﴿هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾، فَأَعَادَ الضَّمِيرَ
 عَلَى مَعْنَى اسْمِ الْمَوْصُولِ وَهُوَ الْجَمْعُ. قَالَ: ﴿هُمْ﴾: أَيُّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ
 بَاءُوا بِسَخَطِ اللَّهِ. ﴿دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أَيُّ مَنَازِلِ عِنْدَ اللَّهِ، يَخْتَلِفُونَ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ
 اتَّبَعَ لِرِضَا اللَّهِ كَانَ أَرْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكُلٌّ مِنْ كَانَ أَبْعَدَ مِنْ اللَّهِ كَانَ أَنْزَلَ، فَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ
 دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، أَيُّ فِي الْمَرَاتِبِ، وَمِيزَانُ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ اتَّبَعَ لِرِضَا اللَّهِ

كان أرفع درجات عند الله، والعكس بالعكس. والدرجات إذا جاءت عامة دخل فيها المؤمن وغير المؤمن، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، أما إذا حُصِّت بأهل النار، فإنه يقال: دركات، كما قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿بَصِيرٌ﴾: اسم فاعل، يجوز أن يكون من الإبصار بالعين، ويجوز أن يكون من الإبصار بالعلم، فيكون ﴿بَصِيرٌ﴾ بمعنى: عليم، أو ﴿بَصِيرٌ﴾ بمعنى: راء. وهل لله بصيرٌ؟. الجواب: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" رواه مسلم. وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: أي بالذي يعملونه من ظاهر وباطن، وخير وشر.

• قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أن في وجه النظم وجوها: الأول: أنه تعالى لما بيّن خطأ من نسبته إلى العلول والخيانة أكد ذلك بهذه الآية، وذلك لأن هذا الرسول وُلِدَ في بلدِهِم ونشأ فيما بينَهُم، ولم يظهر منه طول عُمرِهِ إلا الصِدْق والأمانة والدعوة إلى الله والإعراض عن الدنيا، فكيف يليق بمن هذا حاله الخيانة. الوجه الثاني: أنه لما بيّن خطأهم في نسبته إلى الخيانة والعلول قال: لا أقنع بذلك، ولا أكتفي في حقه بأن أبين براءته عن الخيانة والعلول، ولكي أقول: إنَّ وجوده فيكم من أعظم نعمتي عليكم فإنه يُزَكِّيكم عن الطريق الباطلة، ويُعَلِّمُكم العلوم النافعة لكم في دُنياكم وفي دينكم، فأني عاقلٍ يحظرُ بباله أن ينسب مثل هذا الإنسان إلى الخيانة.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّهُ مِنْكُمْ وَمِنْ أَهْلِ بَلَدِكُمْ وَمِنْ أَقَارِبِكُمْ، وَأَنْتُمْ أَرْبَابُ الْخُمُولِ وَالِدَّائَةِ، فَإِذَا شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَخَصَّهُ بِمَزَايَا الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مِنْ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ، حَصَلَ لَكُمْ شَرَفٌ عَظِيمٌ بِسَبَبِ كَوْنِهِ فِيكُمْ، فَطَعْنُكُمْ فِيهِ وَاجْتِهَادُكُمْ فِي نِسْبَةِ الْقَبَائِحِ إِلَيْهِ عَلَى خِلَافِ الْعَقْلِ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي الشَّرَفِ وَالْمُنَقَبَةِ بِحَيْثُ يَمُنُّ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَجَبَ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يُعِينَهُ بِأَفْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَوَجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحَارِبُوا أَعْدَاءَهُ وَأَنْ تَكُونُوا مَعَهُ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَالسَّيْفِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ الْعَوْدُ إِلَى تَرْغِيبِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ.

وقال أبو حيان: مُنَاسَبَةٌ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْقَرِيبَيْنِ: قَرِيقَ الرِّضْوَانِ، وَقَرِيقَ السُّخْطِ، وَأَتَمَّ دَرَجَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ مُجْمَلًا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ، فَصَلَ أَحْوَالَهُمْ وَبَدَأَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَذَكَرَ مَا أَمْتَنَ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنْ بَعَثِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ تَالِيًا لِآيَاتِ اللَّهِ، وَمُبَيِّنًا لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى، وَمُطَهِّرًا لَهُمْ مِنْ أَرْجَاسِ الشَّرِّكَ، وَمُنْقِذًا لَهُمْ مِنْ غَمْرَةِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِيهَا. وَسَلَّاهُمْ عَمَّا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْقَتْلِ وَالْجُرْحِ لِمَا أَنَاهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَيْمَةِ. ثُمَّ فَصَلَ حَالَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ السُّخْطِ بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ تَعَالَى.

وقال ابن عاشور: الْآيَةُ اسْتِنْفَاتٌ لِتَذَكِيرِ رِجَالِ يَوْمِ أُحُدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. وَمُنَاسَبَةٌ ذِكْرِهِ هُنَا: أَنَّ فِيهِ مِنَ التَّسْلِيَةِ عَلَى مُصِيبَةِ الْهَزِيمَةِ حِطًّا عَظِيمًا؛ إِذْ قَدْ شَاعَ تَصْبِيرُ الْمُخْزُونِ وَتَعَزُّيْتُهُ بِتَذَكِيرِهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، وَلَهُ مَزِيدُ ارْتِبَاطٍ بِقَوْلِهِ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ آيُ هَذَا الْعَرَضِ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ نَاشِئًا بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، مُتَّفِقَةً فِي مَوَاقِعِهَا بِحَسَبِ مَا سَمَحَتْ بِهِ فُرْصُ الْفَرَاغِ مِنْ غَرَضٍ وَالشُّرُوعِ فِي غَيْرِهِ فَمَا تَجَدَّدَ طَرَادَ الْكَلَامِ يَغْدُو طَلْقًا فِي حَلَبَةِ الْاسْتِطْرَادِ إِلَّا وَتَجَدَّدَ لَهُ رَوَاحًا إِلَى مُنْبَعِثِهِ.

● تفسير الآية:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: قال السمرقندي: يعني من أصلهم ونسبهم من العرب، يعرفون نسبه. ويقال: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: يعني من جنسهم

من بني آدم، ولم يجعله من الملائكة. وإنما خاطب بذلك المؤمنين خاصة؛ لأن المؤمنين هم الذين صدّقوه، فكأنه منهم. وقد كانت له فضيلة في ثلاثة أشياء: أحدها: أنه كان من نسب شريف؛ لأنهم اتفقوا أنّ العرب أفضل، ثم من العرب قريش، ثم من قريش بنو هاشم، فجعله من بني هاشم. الثاني: إنه كان أميناً فيهم قبل الوحي. الثالث: أنه كان أميّاً؛ لكي لا يرتاب فيه الافتعال. وقال الماوردي: في وجه المنة بذلك ثلاثة أقاويل: أحدها: ليكون ذلك شرفاً لهم. الثاني: ليسهل عليهم تعلّم الحكمة منه؛ لأنه ليسانهم. الثالث: ليظهر لهم علم أحواله من الصدق والأمانة والعفة والطهارة. وقال الواحدي: للمنّ في كلام العرب معانٍ: أحدها: الذي يسقط من السماء، وقد مرّ ذكره في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]. الثاني: المنّ: الاعتداد بالصيّعة، وهو أن تمنّ بما أعطيت، وذلك في قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. الثالث: المنّ: القطع، ومنه قوله: ﴿أَجْزٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، أي غير مقطوع. الرابع: المنّ: الإعطاء والإنعام، والإحسان إلى من لا تستثيه، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]. الخامس: المنّ في صفة الله معناه: المعطي ابتداءً، فمعنى قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أنعم عليهم، وأحسن إليهم إذ بعث فيهم رسولاً. واختلفوا في المراد بـ(المؤمنين) هنا، فقال بعضهم: هذا خاص في العرب؛ لأن النبي ﷺ، كان من العرب، ولم يكن حي من أحياء العرب، إلّا وقد ولدته، وله فيهم نسب، غير بني تغلب؛ لأنهم كانوا نصارى، فطهره الله منهم؛ لأنهم ثبتوا على النصرانية، وعلى هذا دلّ كلام ابن عباس في رواية عطاء، فإنه قال: يعنى المهاجرين والأنصار. وعلى هذا التفسير، معنى قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي من نسبهم. قال ابن عباس: يريد: نسبه نسبهم، هو من ولد إسماعيل. وبه قال الكلبي. ومعنى (المنة) على هذا التفسير: أنه بعث واحداً منهم؛ ليكون ذلك شرفاً لهم، ففيه إنعام من وجهين: أحدهما: أنه أنقذهم به من النار، وهداهم. والثاني: أن جعله منهم. ودليل

هذا التأويل، قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال آخرون: أراد بالمؤمنين هنا: المؤمنين كلهم، وعلى هذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي إنه واحد منهم، يعرفونه، ويعرفون نسبته، ليس بملك، ولا أحد من غير بني آدم. ومعنى المنّة على هذا القول: أنه منّ على المؤمنين بإرساله واحداً منهم، عرف أمره، وحبر صدقه وأمانته، فكان تناول الحجة والبرهان سهلاً من قبله. وهذا القول اختيار الزجاج؛ لأنه قال: لو كانت المنّة فيه أنه من العرب لكان العجم لا منّة عليهم فيه، ولكن المنّة فيه: أنه قد حبر أمره، وشأنه، وعلم صدقه، بعد أن علموا أنه كان واحداً منهم، وإذا كان واحداً منهم، كان أيسر عليهم معرفته أحواله من الصديق والأمانة. وعلى هذا التفسير: خصّ المؤمنون بالذكر، وإن كان جميع المكلفين في هذا سواء؛ لأن المنّة على المؤمن في هذا أعظم منها على الكافر؛ لانتفاع المؤمن ببعثته، فصار كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو كان منذراً لجميع البشر، ولكن لما كان المؤمن يخشى الساعة دون الكافرين، وكان للمؤمن الانتفاع بإنذاره، أضيف إليه. وقال السمعاوي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أنعم، والمنّة: النعمة، والمنّ: القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]، أي غير مقطوع، وسميت النعمة منّة؛ لأنها مقطوعة عن المحن والشدائد. وقال ابن عطية: (اللام) في (لقد) لام القسم. و(من) في هذه الآية معناه: تطول وتفضل، وقد يقال: (من) بمعنى: كدّر معروفه بالذكر، فهي لفظة مشتركة. وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: معناه: في الجنس واللسان والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة؛ إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، فبعث رسول الله ﷺ في نسب قومه، وكذلك الرسل. قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ من قبل أمهاته إلا بني تغلب لنصرانيّهم. وقال ابن الجوزي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أنعم عليهم. و﴿أَنْفُسِهِمْ﴾: جماعتهم.

وقيل: نسبهم. وفي وجه الامتنان عليهم بكونه من أنفسهم أربعة أقوال: أحدها: لكونه
 معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس، وقنادة. الثاني: لكونهم قد حبروا أمره، وعلموا
 صدقه، قاله الزجاج. الثالث: ليسهل عليهم التعلم منه، لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو
 سليمان الدمشقي. الرابع: لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم، قاله المازدي. وهل هذه
 الآية خاصة أم عامة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها خاصة للعرب، روي عن عائشة
 والجمهور. الثاني: أنها عامة لسائر المؤمنين، فيكون المعنى أنه ليس بمالك، ولا من غير بني
 آدم، وهذا اختيار الزجاج. وقال الرازي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أنعم عليهم
 وأحسن إليهم ببعثه هذا الرسول، وبعثته ﷺ إحساناً إلى كل العالمين، وذلك لأن وجه
 الإحسان في بعثته كونه داعياً لهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله ويوصلهم إلى ثواب الله،
 وهذا عام في حق العالمين؛ لأنه مبعوث إلى كل العالمين، كما قال تعالى: ﴿وما
 أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ: ٢٨]، إلا أنه لما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام؛
 فلهذا التأويل حصّ تعالى هذه المنّة بالمؤمنين، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾
 [البقرة: ٢] مع أنه هدى لكل، كما قال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا
 أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [التازعات: ٤٥]، واعلم أن بعثة الرسول إحساناً من الله إلى
 الخلق ثم إنه لما كان الانتفاع بالرسول أكثر كان وجه الإنعام في بعثة الرسل أكثر، وبعثة
 محمد ﷺ كانت مشتملة على الأمرين: أحدهما: المنافع الحاصلة من أصل البعثة. الثاني:
 المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودة في غيره. أما المنفعة
 بسبب أصل البعثة فهي التي ذكرها الله في قوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وأما المنافع الحاصلة بسبب ما كان
 في محمد ﷺ من الصفات، فأمر ذكرها الله في هذه الآية أولها: قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.
 واعلم أن وجه الانتفاع بهذا من وجوه: الأول: أنه عليه السلام. ولد في بلدهم، ونشأ
 فيما بينهم، وهم كانوا عارفين بأحواله مطّلعين على جميع أفعاله وأقواله، فما شاهدوا منه

مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ إِلَّا الصِّدْقَ وَالْعَفَافَ، وَعَدَمَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الدُّنْيَا وَالْبُعْدِ عَنِ
 الْكَذِبِ، وَالْمُلَازِمَةَ عَلَى الصِّدْقِ، وَمَنْ عَرَفَ مِنْ أَحْوَالِهِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمْرِ إِلَى آخِرِهِ مُلَازِمَتَهُ
 الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ، ثُمَّ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ الَّتِي يَكُونُ الْكَذِبُ
 فِي مِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى أَقْبَحَ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ، يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّ كُلِّ أَحَدٍ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي هَذِهِ
 الدَّعْوَى. الثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَلِمْذَ لِأَحَدٍ وَلَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا وَلَمْ يُمَارِسْ دَرْسًا وَلَا
 تَكَرَّرًا، وَأَنَّهُ إِلَى تَمَامِ الْأَرْبَعِينَ لَمْ يَنْطِقِ الْبَتَّةَ بِحَدِيثِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ
 ادَّعَى الرِّسَالَةَ وَظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ إِنَّهُ
 يَذْكُرُ قِصَصَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ مَوْجُودًا فِي كُتُبِهِمْ،
 فَكُلُّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ عَلِمَ أَنَّ هَذَا لَا يَتَأْتَى إِلَّا بِالْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ وَالْإِلْهَامِ الْإِلَهِيِّ.
 الثَّلَاثُ: أَنَّهُ بَعْدَ ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ وَالْأَزْوَاجَ لِيَتَرَكَ هَذِهِ الدَّعْوَى
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ قَنَعَ بِالْفَقْرِ وَصَبَرَ عَلَى الْمَشَقَّةِ، وَلَمَّا عَلَا أَمْرُهُ وَعَظُمَ
 شَأْنُهُ وَأَخَذَ الْبِلَادَ وَعَظُمَتِ الْعَنَائِمُ لَمْ يُغَيِّرْ طَرِيقَهُ فِي الْبُعْدِ عَنِ الدُّنْيَا وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ،
 وَالْكَاذِبِ إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى الْكَذِبِ لِيَجِدَ الدُّنْيَا، فَإِذَا وَجَدَهَا تَمَتَّعَ بِهَا وَتَوَسَّعَ فِيهَا، فَلَمَّا لَمْ
 يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ صَادِقًا. الرَّابِعُ: أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا
 تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبُوَّةِ وَإِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَشَرْحُ الْعِبَادَاتِ وَتَقْرِيرُ الطَّاعَاتِ،
 وَمَعْلُومٌ أَنَّ كِمَالَ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَعْرِفَ الْحَقَّ لِذَاتِهِ، وَالْخَيْرَ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ، وَلَمَّا كَانَ
 كِتَابُهُ لَيْسَ إِلَّا فِي تَقْرِيرِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ عَلِمَ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُهُ. الْخَامِسُ: أَنَّ
 قَبْلَ مَحْيَاهُ كَانَ دِينُ الْعَرَبِ أَزْدَلُ الْأَدْيَانِ وَهُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَأَخْلَافُهُمْ أَزْدَلُ الْأَخْلَاقِ
 وَهُوَ الْغَارَةُ وَالنَّهْبُ وَالْقَتْلُ وَأَكْلُ الْأَطْعِمَةِ الرَّدِيئَةِ. ثُمَّ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ نَقَلَهُمُ اللَّهُ
 بِرَكَّةٍ مُقَدَّمَةٍ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الدَّرَجَاتِ إِلَى أَنْ صَارُوا أَفْضَلَ الْأُمَمِ فِي
 الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ فِيهِ أَعْظَمَ الْمِنَّةِ. فِيهِ
 وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْمِنَّةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ صَارَ شَرَفًا لِلْعَرَبِ وَفَخْرًا لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ

لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿[الزخرف: ٤٤]، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِفْتِخَارَ بِإِبْرَاهِيمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . كَانَ مُشْتَرَكًا فِيهِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْعَرَبِ، ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا يَفْتَخِرُونَ بِمُوسَى وَعِيسَى . عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَبِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَمَا كَانَ لِلْعَرَبِ مَا يُقَابِلُ ذَلِكَ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا . عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ صَارَ شَرَفُ الْعَرَبِ بِذَلِكَ زَائِدًا عَلَى شَرَفِ جَمِيعِ الْأُمَمِ، فَهَذَا هُوَ وَجْهُ الْفَائِدَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقال القرطبي: الْمَعْنَى فِي الْمِنَّةِ فِيهِ أَقْوَالٌ: مِنْهَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَيُّ بَشَرٍ مِثْلُهُمْ، فَلَمَّا أَظْهَرَ الْبَرَاهِينَ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقِيلَ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَيُّ مِنْهُمْ، فَشَرُّوا بِهِ ﷺ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْمِنَّةُ. وَقِيلَ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ لِيَعْرِفُوا حَالَهُ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ، وَإِذَا كَانَ مَحَلُّهُ فِيهِمْ هَذَا كَانُوا أَحَقَّ بِأَنْ يُقَاتِلُوا عَنْهُ وَلَا يَنْهَزُوا دُونَهُ. ثُمَّ قِيلَ: لَفْظُ الْمُؤْمِنِينَ عَامٌّ وَمَعْنَاهُ خَاصٌّ فِي الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ حَيٌّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا وَقَدْ وَلَدَهُ ﷺ، وَلَهُمْ فِيهِ نَسَبٌ، إِلَّا بَنِي تَغْلِبَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا نَصَارَى فَطَهَّرَهُ اللَّهُ مِنْ دَنَسِ النَّصْرَانِيَّةِ. وَبَيَّانُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قَالَتْ: هَذِهِ لِلْعَرَبِ خَاصَّةٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ. وَمَعْنَى ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَبَشَرٌ وَمِثْلُهُمْ، وَإِنَّمَا امْتَنَّا عَنْهُمْ بِالْوَحْيِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَبِّهُونَ بِهِ، فَالْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ أَعْظَمُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَيُّ مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتِمَّ كُنُوتُ مَنْ مُحَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَجُحَالَتِهِ وَالْإِنْتِفَاعَ بِهِ. وَقَالَ الثَّعَالِيُّ: (اللام) فِي (لَقَدْ) لَامُ الْقِسْمِ، وَ(مَنْ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَعْنَاهُ: تَطَوَّلَ وَتَفَضَّلَ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ يُقَالُ: (مَنْ) بِمَعْنَى كَدَّرَ مَعْرُوفُهُ بِالذِّكْرِ، فَهِيَ لَفْظَةٌ مُشْتَرَكَةٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَيُّ فِي الْجِنْسِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمُجَاوِرَةِ. فَكَوْنُهُ مِنَ الْجِنْسِ يُوجِبُ الْأَنْسَ بِهِ. وَكَوْنُهُ بِلِسَانِهِمْ يُوجِبُ حُسْنَ التَّفْهِيمِ. وَكَوْنُهُ جَارًا وَرَبِيًّا يُوجِبُ التَّصَدِيقَ وَالطَّمَأْنِينَةَ؛ إِذْ قَدْ خَبَرُوهُ وَعَرَفُوا صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ. وَقَالَ

الألوسي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾: أي أَنْعَمَ وَتَفَضَّلَ، وَأَصْلُ الْمَنْ: الْقَطْعُ. وَتُسمِيَتِ النِّعْمَةُ مَنَّةً؛ لِأَنَّهُ يُقَطَّعُ بِهَا عَنِ الْبَلِيَّةِ، وَكَذَا الْإِعْتِدَادُ بِالصَّنِيعَةِ مَنًّا لِأَنَّهُ قَطَّعَ هَا عَنْ وُجُوبِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا. وَالْجُمْلَةُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أي وَاللَّهِ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ. ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي مِنْ قَوْمِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مِنَ الْعَرَبِ مُطْلَقًا، أَوْ مِنَ الْإِنْسِ. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾: أي بَيْنَهُمْ. ﴿رَسُولًا﴾: عَظِيمَ الْقَدْرِ جَلِيلَ الشَّانِ. ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي مِنْ نَسَبِهِمْ، أَوْ مِنْ جِنْسِهِمْ عَرَبِيًّا مِثْلَهُمْ، أَوْ مِنْ بَنِي آدَمَ لَا مِلَكًا وَلَا جِنِّيًّا، وَ(إِذْ) ظَرْفٌ لِمَنْ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْوَقْتِ، لَكِنْ وَقَعَ فِي مَعْرِضِ التَّغْلِيلِ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ مُعْظَمُ الْمُحَقِّقِينَ، وَالْجَارُّ إِمَّا مُتَعَلِّقٌ (بِبَعْثِ)، أَوْ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِرَسُولًا. وَالْإِمْتِنَانُ بِذَلِكَ إِمَّا لِحُصُولِ الْإِنْسِ بِكَوْنِهِ مِنَ الْإِنْسِ فَيَسْهُلُ التَّلَقِّي مِنْهُ وَتَزُولُ الْوَحْشَةُ وَالنَّفَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ، وَإِمَّا لِيَفْهَمُوا كَلَامَهُ بِسُهُولَةٍ وَيَفْتَحِرُوا عَلَى سَائِرِ أَصْنَافِ نَوْعِ بَنِي آدَمَ، وَإِمَّا لِيَفْهَمُوا وَيَفْتَحِرُوا وَيَكُونُوا وَاقِفِينَ عَلَى أَحْوَالِهِ فِي الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى تَصَدِيقِهِ وَالْوُثُوقِ بِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وَتَحْصِيصُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِمْتِنَانِ مَعَ عُمُومِ نِعْمَةِ الْبَعْثَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ لِمَزِيدِ انْتِفَاعِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ فِيهِمْ بِهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال القاسمي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾: أي أَنْعَمَ. ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي مِنْ جِنْسِهِمْ، عَرَبِيًّا مِثْلَهُمْ؛ لِيَتِمَّ كُنُوزُ مِنْ مُحَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَتُجَالَسَتِهِ، وَالْإِنْتِفَاعُ بِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَذَا الْإِنْعَامِ إِلَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ حُصُّوا بِالذِّكْرِ، وَإِلَّا فَبَعَثْتُهُ ﷺ إِحْسَانًا إِلَى الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال السعدي: هذه المنة التي امتنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، أَكْبَرُ النِّعَمِ، بَلْ أَصْلُهَا، وَهِيَ الْإِمْتِنَانُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَنْقَذَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَصَمَهُمْ بِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ، يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ، وَحَالَهُ، وَلِسَانَهُ، مِنْ قَوْمِهِمْ وَقَبِيلَتِهِمْ، نَاصِحًا لَهُمْ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ، يَعْلَمُهُمْ أَلْفَاظَهَا وَمَعَانِيَهَا. وقال ابن عاشور: المُنُّ هُنَا: إِسْدَاءُ الْمُنَّةِ أَيِ النِّعْمَةِ، وَلَيْسَ هُوَ تَعْدَادُ النِّعْمَةِ،

على المنعم عليه مثل الذي في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وإن كان ذكر هذا المنِّ مآلاً بالمعنى الآخر، والكلُّ محمودٌ من الله؛ لأنَّ المنِّ إنما كان مذمومًا؛ لما فيه من إبداء التَّطاوُلِ على المنعم عليه، وطول الله لئس بمَجْحُودٍ. والمرادُ بـ(المؤمنين) هنا: المؤمنون يومئذٍ، وهم الذين كانوا مع النَّبيِّ ﷺ، بقرينة السياق، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي أُمَّتِهِمُ الْعَرَبِيَّةَ. و(إِذْ) ظرفٌ لِ(مَنْ)؛ لأنَّ الإِنْعَامَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ حَصَلَ أَوْقَاتَ الْبَعْثِ. ومعنى ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي المماثلةُ لهم في الأشياء التي تكونُ المماثلةُ فيها سببًا لقُوَّةِ التَّوَاضُّعِ، وهي هنا: التَّسَبُّ، واللُّعَّةُ، والوَطَنُ. والعَرَبُ تقول: فلانٌ من بني فلانٍ من أنْفُسِهِمْ، أي من صَمِيمِهِمْ لئس انتسابُهُ إِلَيْهِمْ بولاءٍ أو لصقٍ، وكأنَّ هذا وجهُ إطلاقِ النَّفْسِ عَلَيْهِ التي هي في معنى المماثلةِ، فَكَوْنُهُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمْ أي كَوْنُهُ عَرَبِيًّا يُوجِبُ أَنْسَهُمْ بِهِ وَالرُّكُونَ إِلَيْهِ وَعَدَمَ الْإِسْتِيحَاشِ مِنْهُ، وَكَوْنُهُ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ يَجْعَلُهُمْ سَرِيعِينَ إِلَى فَهْمٍ مَا يَحْيِي بِهِ، وَكَوْنُهُ جَارًا لَهُمْ وَرَبِيًّا فِيهِمْ يُعَجِّلُ لَهُمُ التَّصَدِيقَ بِرِسَالَتِهِ؛ إِذْ يَكُونُونَ قَدْ حَبَرُوا أَمْرَهُ، وَعَلِمُوا فَضْلَهُ، وشاهدوا اسْتِقَامَتَهُ وَمُعْجَزَاتِهِ. وَيُجَوِّزُ أَنْ يَشْمَلَ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ، وَيُرَادُ بِكَوْنِهِ ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أَنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْبَشَرِ. وقال العثيمين: (لَقَدْ): كَلِمَا وَجَدْتَ فِي الْقُرْآنِ (لَقَدْ) فَإِنَّمَا جُمْلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ، وَهِيَ: (الْقِسْمُ الْمَقْدَرُ، وَاللَّامُ، وَقَدْ). وتقدير الكلام: (والله لقد منَّ الله على المؤمنين). فإن قال قائل: القسم إنما يُقالُ للشاكِّ أو المنكر، فلماذا أقسم الله في هذه الآية على أنه ما منَّ على المؤمنين ببعث محمد ﷺ، مع كون الأمر ظاهرًا، ولم يقل: لقد منَّ الله على الناس، بل قال: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يعرفون أنَّ ذلك مِنَّةٌ؟ فالجواب: أنَّ الداعي للقسم ليس هو الإنكار أو الشكُّ من المخاطب، بل قد يكون الداعي للقسم أهمية المقسم عليه، وإن لم يكن هناك شكٌّ، وهذه الآية من هذا النوع، فالمقصود بذلك بيان أهمية هذه المنَّة العظيمة التي لا يُعادِلُهَا شَيْءٌ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]، فأكد مع أنَّ

الموت محقق، ولكن يُقال: لما كان بعض الناس غافلاً كأنه لن يموت، أُكِّد. ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: على المؤمنين خاصة دون غيرهم؛ لأن الكفار لم يعرفوا هذه المنّة ولم يرفعوا بها رأساً، ولم يروا في مخالفتها بأساً، فتركوها وأعرضوا عنها، وحرموا خيرها، أمّا المؤمنون فهم الذين تبَيَّنَت لهم هذه المنّة واستمسكوا بها. وقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ﴾: هذه إمّا أن تكون ظرفاً لـ (مَنْ)، وإمّا أن تكون للتعليل، أي لأنه بعث، وكلاهما لا يتنافيان، فهي بيان لحل المنّة، وهي البعثة، وهي كذلك تعليل للمنّة. وقوله: ﴿بَعَثَ﴾: أصل البعث: الإنشاء، وسمّيت الرسالة بعثاً؛ لأنها إخراج للناس من حالٍ إلى حال، فكأنهم بُعثوا خلقاً جديداً، وأنشئوا خلقاً جديداً. وقوله تعالى: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾: (في): للظرفيّة؛ لأن النبي ﷺ بُعث في سِطّة المؤمنين، وكان هو أشرف من بُعث فيهم نسباً. وقوله: ﴿رَسُولًا﴾: أي مُرسلاً من عند الله. وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي من جنسهم. وفي سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]؛ لأنّ النبي . صلى الله عليه وسلم . من الأميّين، وأمّا عامّة الناس فليس منهم، ولكن من أنفسهم، أي من جنسهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ومعنى: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي من جنسهم، ولا شك أنّ كونه من جنسنا أتمّ في النعمة؛ لأنه لو كان من الملائكة ما أَلَفَهُ الناس، ولا ركنوا إليه، وربما لا يقبلون منه، فإذا كان من جنسهم يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينام كما ينامون، ويكون معهم في أسواقهم وفي بيوتهم، كان ذلك أبلغ في المنّة.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: قال السمرقندي: أي يعرض عليهم القرآن. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يعني يأخذ منهم الزكاة؛ ليطهر أموالهم. ويقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يعني يطهرهم من الذنوب والشرك. ويقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يأمرهم بكلمة الإخلاص، وهي قول: (لا إله إلا الله). ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: يعني القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أي الفقه وبيان الحلال والحرام. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أي وقد كانوا من قَبْلُ مجيء مُحمَّد ﷺ لفي خطأ بيّن.

وقال الماوردي: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أنه يشهد لهم بأهم أركيائه في الدين. الثاني: أن يدعوهم إلى ما يكونون به أركيائه. الثالث: أنه يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها، وهو قول الفراء. وقال السمعاني: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يشهد بتزكية سائر الأمم، ويجعلهم أركيائه. وقيل: يطهرهم من الذنوب. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: يعني القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: قال ابن عباس: الفقه والشرائع. وقال غيره: الحكمة: السنة. وقال الرازي: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: إشارة إلى كونه مبلّغاً لذلك الوحي من عند الله إلى الخلق. وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: إشارة إلى تكميل القوة النظرية بحصول المعارف الإلهية. ﴿وَالكِتَابَ﴾: إشارة إلى معرفة التأويل، وبعبارة أخرى ﴿الكتاب﴾ إشارة إلى ظواهر الشريعة. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ إشارة إلى محاسن الشريعة وأسرارها وعلاها ومنافعها. وقال القرطبي: ﴿يَتْلُوا﴾ في موضع نصب نعت لرسول، ومعناه يقرأ، والتلاوة القراءة. وقال ابن كثير: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: يعني القرآن. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتركو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: يعني القرآن والسنة. وقال الألوسي: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كان فيهم من دنس الجاهلية أو من خباثت الاعتقادات الفاسدة كالاعتقادات التي كان عليها مشركو العرب وأهل الكتابين، أو يشهد بأهم أركيائه في الدين، أو يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها، قاله الفراء. وقال القاسمي: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: يعني القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: أي القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أي السنة. وقال السعدي: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي من الشرك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ المراد به: الآيات الكونية، أو المراد

بالكتاب هنا الكتابة، فيكون قد امتنّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ. ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾: أي السنّة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين. وقال ابن عاشور: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: أي يقرأ عليهم القرآن. وسُمِّيَتْ جُمْلُ القرآن آيات؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ مِنْ حَيْثُ بَلَاغَةُ اللَّفْظِ وَكَمَالِ الْمَعْنَى، فَكَانُوا صَالِحِينَ لِفَهْمِ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لِرُجْمَانٍ. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: التَّزْكِيَةُ: التَّطْهِيرُ، أي يُطَهِّرُ الثُّفُوسَ بِهَدْيِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: تَعْلِيمُ الْكِتَابِ: هُوَ تَبْيِينُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ وَأَمْرُهُمْ بِحِفْظِ أَلْفَاظِهِ؛ لِتَكُونَ مَعَانِيهِ حَاضِرَةً عِنْدَهُمْ. ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾: الْمَرَادُ بِالْحِكْمَةِ هُنَا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَتُقْنِينِ الْأَحْكَامِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَانِعٌ الْأَنْفُسِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَاخْتِلَالِ النَّظَامِ، وَذَلِكَ مِنْ مَعْنَى الْحِكْمَةِ. وَعَطِفُ الْحِكْمَةِ عَلَى الْكِتَابِ عَطْفُ الْأَخْصِ مِنْ وَجْهِ عَلَى الْأَعَمِّ مِنْ وَجْهِ. وقال العثيمين: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: هذه الجملة صفة ثانية لـ(رسول): أي رسولا من أنفسهم تاليا عليهم آياته. والتلاوة هنا تشمل: (التلاوة لفظا، والتلاوة معنى، والتلاوة حكما)، فالتلاوة لفظاً: أن يقرأ الكتاب بينهم. والتلاوة معنى: أن يُعَلِّمَهُمْ مَعَانِيهِ. والتلاوة حُكماً: أن يعمل بأحكامه. عليه الصلاة والسلام.. ولا شك أنّ هذه الثلاثة كلّها تحتملها كلمة (يَتْلُو)، فهو. عليه الصلاة والسلام. يتلوه لفظاً، ويتلوه معنى. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ويتلوه عليهم كذلك حُكماً. قالت عائشة: "كان النبي ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ" رواه الشيخان، يعني: يطبقه. ﴿آيَاتِهِ﴾: هل هي الآيات الكونية أو الشرعية؟ الظاهر: المراد آياته الشرعية، وهي الوحي الذي أنزله على رسوله ﷺ. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يُطَهِّرُهُمْ حَسّاً وَمَعْنَى. أمّا الطهارة حِسّاً: فقد أمرهم

بالوضوء عند الصلاة، وأمرهم بالغسل من الجنابة، وأمرهم بإزالة النجاسة، بل حثَّ على
 النظافة عمومًا. وأمَّا التزكية معنًى، فهي: أنه طَهَّر قلوبهم من الشرك والشك والنفاق وسوء
 الأخلاق، وهذَّب أخلاقهم حتى زكت نفوسهم وأخلاقهم. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ﴾: ليست تكرارًا مع قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾؛ لأنَّ الأوَّل تلاوة، والثاني
 تعليم، والتعليم أخصُّ من التلاوة؛ لأنَّ الإنسان إذا تلا عندك القرآن لا يُعَدُّ معلِّمًا لك
 يُعَلِّمُكَ، إنما يكون معلِّمًا إذا أقرأكَ آيَاتِهِ وَلَقِّنَكَ إِيَّاهُ، فالنَّبِيُّ كان يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ، والتعليم
 هنا شامل لتعليم اللفظ، وتعليم المعنى، وتعليم الحُكْم، أي العمل به. وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾:
 أي القرآن، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوب، فهو فِعَالٌ بمعنى مفعول، وقد تكرر علينا كثيرًا: أنَّ
 فِعَالٌ تأتي بمعنى مفعول، ومن أمثلته: فِرَاشٌ بمعنى مفروش، وغِرَاسٌ بمعنى مغروس، وبناء
 بمعنى مبني؛ فالقرآن كتاب، يعني مكتوب، كُتِبَ في اللوح المحفوظ، وفي الكتب التي
 بأيدي السفرة، والكتب التي بأيدينا. قال بعض أهل العلم: إنَّ المراد بالكتاب هنا:
 الكتابة؛ لأنَّ العرب كانوا أُمِّيِّينَ، فلمَّا نزل هذا الكتاب العظيم تعلَّموا الكتاب، فصاروا
 يكتبونه للرسول ﷺ، ثم صاروا يكتبون بعض الأحاديث، ثم انتشرت الكتابة فيهم.
 ومعلوم أنَّ من جملة الفداء الذي أخذ من أسرى بدر أن يُعَلِّمُوا صبيان أهل المدينة
 القراءة والكتابة، وأَيَّدَ هذا القائل قوله بأنَّ تعليمهم الكتاب مستفاد من قوله: ﴿يَتْلُو
 عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، ولكن في هذا نظر وإنَّ كُنَّا لا نمنع أن يكون المراد بالكتاب هنا: الكتابة
 والقرآن جميعًا؛ لأنَّ القاعدة عندنا في التفسير: (أنه متى احتملت الكلمة معنيين فأكثر،
 ولا منافاة بينهما، فإنَّ الواجب حملها عليهما)؛ لأنَّ كتاب الله واسع المعنى، فعلى هذا
 يكون المراد بالكتاب: القرآن، والكتابة. وقوله: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: قال بعض العلماء: أي
 السنَّة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وقيل:
 المراد بالحكمة: أنه علَّمهم كيف يضعون الأشياء مواضعها؛ لأنَّ الشريعة الإسلامية تُعلِّمُ
 الإنسان كيف يضع الشيء في موضعه. وأيضًا علَّمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع؛

لأن الشرع أحكام وحكم، فالأحكام ظاهرة. والحكم: هي الأسرار والمعاني التي تُنط بها هذه الأحكام، والإنسان إذا عرف هذه الحكم والأسرار، تبين له أنّ الشريعة ليست هواء ولا لعباً، وأنّ الشريعة ذات معاني سامية، لا يدركها إلا من فتح الله عليه. ويمكن أن نقول: إنّ الحكمة تشمل هذا وهذا، أي علّمهم السنّة، وعلّمهم وضع الأشياء مواضعها، وأسرار الشريعة وحكمها؛ ليزدادوا بصيرة في دين الله.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: قال الواحدي: قيل: معناه: وقد كانوا. وقيل: معناه: وما كانوا من قبله، أي من قبل محمد ﷺ. إلا في ضلال مبين. ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقال ابن عطية: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: ذكر حالتهم الأولى من الضلال؛ ليظهر الفرق بتجاور الضدين. وقال الرازي: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: بين تعالى ما تتكامل به هذه النعمة، وهو أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين؛ لأنّ النعمة إذا وردت بعد المحنة كان توقّعها أعظم، فإذا كان وجه النعمة العلم والإعلام، ووردا عقيب الجهل والذهاب عن الدين، كان أعظم، ونظيره قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]. وقال القرطبي: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾: أي ولقد كانوا من قبل محمد. وقيل: (إن) بمعنى (ما)، و(اللام) في الخبر بمعنى (إلا)، أي وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين. ومثله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي وما كنتم من قبله إلا من الضالين. وقال ابن كثير: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾: أي من قبل هذا الرسول. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد. وقال القاسمي: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾: أي من قبل بعثته ﷺ وتركته. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أي ظاهر من عبادة الأوثان، وأكل الحباث، وعُدوان بعضهم على بعض، وسواها. وقال السعدي: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أي لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه ولو ناقض ذلك عقول العالمين. وقال ابن عاشور: وُصِفَ الضَّالُّ بِالْمُبِينِ؛ لِأَنَّهُ

لِشِدَّتِهِ لَا يَلْتَبِسُ عَلَى أَحَدٍ بِشَائِبَةِ هُدًى، أَوْ شُبْهَةٍ، فَكَانَ حَالُهُ مُبَيَّنًا كَوْنُهُ ضَلَالًا. والمرادُ بِهِ: ضَلَالُ الشِّرْكِ، والجَهَالَةِ، والتَّقَاتِلِ، وأحكامِ الجاهليَّةِ. وقال العثيمين: (إِنْ) تأتي في اللغة العربيَّة لعدَّة معانٍ، والسياق هو الذي يعيِّن المعنى. فتأتي (إِنْ) شرطيةً، ومثالها: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧]، وتأتي (إِنْ) نافية، وعلامة (إِنْ) النافية: أَنْ تأتي بعدها (إِلَّا)، مثاله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سَبَأ: ٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وتأتي مخففة من الثقيلة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: هذه (إِنْ) المخففة من الثقيلة، وأصلها (وَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ)، وعلامة (إِنْ) المخففة من الثقيلة: أَنْ تأتي (اللام) في خبرها، فإذا أتت بعدها (اللام) فهي المخففة من الثقيلة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي﴾، والتي في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: (إِنْ) المخففة من الثقيلة، وعلامتها: أَنْ تأتي (اللام) في خبرها أو في اسمها إِنْ تأخَّر، بمعنى أَنْ تأتي بعدها (اللام). وأين اسمها؟ قيل: إنه محذوف مقدَّر باسم ظاهر، والتقدير: (وَإِنَّ الشَّأْنَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). وقال بعضهم: بل هو محذوف مقدَّر بضمير مناسب. وهذا هو الصحيح، فإذا كان الخبر جمعا كان الضمير المقدَّر جمعا، وعلى هذا يكون التقدير هنا: (إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، فيقدَّر ضمير الشَّأْنَ بما يناسب المقام. ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾: الضمير يعود على المؤمنين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أي من قبل بعث هذا الرسول ﷺ. وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: نقول (مِنْ) حرف جرٍّ، و (قَبْلُ) هنا غير مجرورة، بل هي مبنية، والمبني لا تظهر عليه علامة الإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، ولم يقل: (من حيث) وهنا قال: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ولم يقل: (من قبل)، ولكن في بعض الأحيان يُجَرُّ (قبل)، فيقال: (من قبلهم)، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وإنما بُنِيَ على الضمِّ إذا حُذِفَ المضاف إليه وتُويَّ معناه،

هذا كلام النحويين. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: (في) للظرفية، يعني أَنَّ الضلال محيط بهم، كإحاطة الظرف بمظروفه. ﴿مُبِينٍ﴾: بمعنى بَيِّن.

• قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَيْنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ طَعَنُوا فِي الرَّسُولِ ﷺ بِأَن نَسَبُوهُ إِلَى الْعُلُولِ وَالْحِيَانَةِ، حَكَى عَنْهُمْ شُبُهَةً أُخْرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: لَوْ كَانَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَا أَنْهَزَمَ عَسْكَرُهُ مِنَ الْكُفَّارِ فِي يَوْمِ أُحُدٍ: وهو المرادُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَيْنَا هَذَا﴾، وَأَجَابَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَيْنَا هَذَا الْإِهْزَامُ إِنَّمَا حَصَلَ بِشُؤْمِ عَصِيَانِكُمْ، فَهَذَا بَيَانٌ وَجْهِ النَّظْمِ.

• تفسير الآية:

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَيْنَا هَذَا﴾: قال الواحدي: (الواو) في ﴿أَوَلَمْآ﴾ لِعَطْفِ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ. ودخل (ألف) الاستفهام على (واو) النَّسَقِ؛ لِأَنَّ لَهُ صَدْرَ الْكَلَامِ. قال الزجاج: ومثله من الكلام: قول القائل: (تَكَلَّمَ فُلَانٌ بِكَذَا وَكَذَا)، فيقول مجيباً له: (أَوْ هُوَ مِمَّنْ يَقُولُ ذَلِكَ؟). والمعنى: أَوْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ. وقال ابن الجوزي: ﴿أَوَلَمْآ﴾: قَالَ الرَّجَّاجُ: هَذِهِ (واو) النَّسَقِ دَخَلَتْ عَلَيْهَا أَلِفُ الْإِسْتِفْهَامِ فَبَقِيَتْ مَفْتُوحَةً عَلَى هَيْئَتِهَا قَبْلَ دُخُولِهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ: تَكَلَّمَ فُلَانٌ بِكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ الْمَجِيبُ لَهُ: أَوْ هُوَ مِمَّنْ يَقُولُ ذَلِكَ؟. فَأَمَّا (المُصِيبَةُ) فَمَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا قَدْ أَصَابُوا مِثْلَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، لِأَنَّهُمْ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، فَقَتَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَالْجَمَاعَةِ، إِلَّا أَنَّ الرَّجَّاجَ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِثْلَهَا، وَيَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَهَا، فَجَعَلَ الْمِثْلَيْنِ فِي الْيَوْمَيْنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيْنَا﴾

هَذَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: الْمَرَادُ مِنْهَا وَاقِعُهُ أُحُدٍ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾: قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ: أَنَّ مَعْنَاهُ: قَدْ أَصَبْتُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعِينَ، وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ. الثَّانِي: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ هَزَمُوا الْكُفَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَزَمُوهُمْ أَيْضًا فِي الْأَوَّلِ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ لَمَّا عَصَوْا هَزَمَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَاهْتَزَامَ الْمُشْرِكِينَ حَصَلَ مَرَّتَيْنِ، وَاهْتَزَامَ الْمُسْلِمِينَ حَصَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَهَذَا اخْتِيَارُ الرَّجَّاحِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿أَنَّى هَذَا﴾: جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى أَهْمَا مَعْمُولَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْتُمْ﴾، قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ لِمَا أَصَابَهُمْ، وَالْمَعْنَى: كَيْفَ أَصَابَنَا هَذَا وَنَحْنُ نُقَاتِلُ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَقَدْ وَعَدْنَا بِالنَّصْرِ وَإِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ؟ فَاسْتَفْهَمُوا عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ عَنْ ذَلِكَ. وَ﴿أَنَّى﴾ سُؤَالٌ عَنِ الْحَالِ هُنَا، وَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ هُنَا بِمَعْنَى: أَيْنَ أَوْ مَتَى؛ لِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ لَمْ يَقَعْ عَنِ الْمَكَانِ وَلَا عَنِ الزَّمَانِ هُنَا، إِنَّمَا الْإِسْتِفْهَامُ وَقَعَ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي افْتَضَتْ لَهُمْ ذَلِكَ، سَأَلُوا عَنْهَا عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: (الْأَلْفُ) لِلِاسْتِفْهَامِ بِقَصْدِ التَّفْرِيعِ. وَ(الْوَاوُ) لِلْعَطْفِ. وَالْمُصِيبَةُ: الْعَلَبَةُ وَالْقَتْلُ الَّذِي أُصِيبُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ. ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾: يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ. وَقَدْ كَانُوا قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ، فَكَانَ مَجْمُوعُ الْقَتْلَى وَالْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلِي الْقَتْلَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَالْمَعْنَى: أَحِينَ مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ نِصْفُ مَا أَصَابَكُمْ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ جَزَعْتُمْ وَقُلْتُمْ مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا؟ وَقَدْ وَعَدْنَا بِالنَّصْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّى هَذَا﴾: أَيُّ مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا الْإِهْزَامُ وَالْقَتْلُ وَنَحْنُ نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ مَسْووقٌ؛ لِإِبْطَالِ بَعْضِ مَا نَشَأَ مِنَ الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ إِثْرَ إِبْطَالِ بَعْضٍ آخَرَ. وَ(الْهَمْزَةُ) لِلتَّفْرِيعِ وَالتَّفْرِيرِ. وَ(الْوَاوُ) عَاطِفَةٌ لِمَدْحُهَا عَلَى مَخْذُوفِ قَبْلِهَا.

و(لَمَّا) ظَرْفٌ بِمَعْنَى: حِينَ مُضَافَةٌ إِلَى مَا بَعْدَهَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الشَّرْطِ. ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾: قِيلَ: الْمَرَادُ بِالْمِثْلَيْنِ: الْمِثْلَانِ فِي الْهَزِيمَةِ لَا فِي عَدَدِ الْقَتْلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ هَزَمُوا الْكُفَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَزَمُوهُمْ أَيْضًا يَوْمَ أُحُدٍ أَوَّلَ الْأَمْرِ. ﴿قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا﴾: جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مُقَدِّمَةٌ الْخَبَرِ، وَالْمَعْنَى: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ لَا كَيْفَ هَذَا؛ لِذِلَالَةِ الْجَوَابِ مَفْعُولِ الْقَوْلِ. وَقِيلَ: (أَنِّي) مَنْصُوبَةٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ. لِأَصَابَنَا. الْمَقْدَرُ، وَ(هَذَا) فَاعِلٌ لَهُ. وَالْجُمْلَةُ مَقُولٌ قُلْتُمْ. وَتَوْسِيطُ الظَّرْفِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (الْهَمْزَةِ) مَعَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ إِنْكَارُهُ وَالْمَعْطُوفُ بِ(الْوَاوِ) حَقِيقَةٌ؛ لِتَأْكِيدِ التَّكْبِيرِ وَتَشْدِيدِ التَّفْرِيعِ، فَإِنَّ فِعْلَ الْقَبِيحِ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ أَقْبَحُ، وَالْإِنْكَارُ عَلَى فَاعِلِهِ أَذْخَلُ، وَالْمَعْنَى: أَحِينَ نَالَكُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ نِصْفُ مَا قَدْ نَالَهُمْ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ رَجَعْتُمْ وَقُلْتُمْ: مِنْ أَيْنَ هَذَا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ نُقَاتِلُ غَضَبًا لِلَّهِ وَفِينَا رَسُولُهُ، وَهَؤُلَاءِ مُشْرِكُونَ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، أَوْ قَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿أَوَّلَمَّا﴾ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ: (الْهَمْزَةُ) لِلتَّفْرِيعِ وَالتَّفْرِيرِ. وَ(الْوَاوِ) عَاطِفَةٌ لِلْجُمْلَةِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ قِصَّةِ أُحُدٍ، أَوْ عَلَى مَحْذُوفٍ مِثْلُ: أَفَعَلْتُمْ: كَذَا وَقُلْتُمْ. وَ(لَمَّا) ظَرْفُهُ الْمُضَافُ إِلَى أَصَابَتْكُمْ، أَيْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ، وَهِيَ قَتْلُ سَبْعِينَ مِنْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ نِلْتُمْ ضِعْفَيْهَا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ مِنْهُمْ وَأَسْرَ سَبْعِينَ. ﴿قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا﴾: أَيْ مِنْ أَيْنَ هَذَا أَصَابَنَا وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟! وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿أَوَّلَمَّا﴾: (الْهَمْزَةُ) هُنَا تَلَاهَا حَرْفُ عَطْفٍ، وَ(الْهَمْزَةُ) إِذَا وَلِيَهَا حَرْفُ عَطْفٍ، فَلْعُلَمَاءُ النُّحُو فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْعَطْفَ عَلَى شَيْءٍ مُقَدَّرٍ يَنَاسِبُ الْمَقَامَ. الثَّانِي: أَنَّ الْعَطْفَ عَلَى مَا سَبَقَ. وَعَلَى هَذَا الْوَجْهَ تَكُونُ (الْهَمْزَةُ) مُقَدِّمَةً عَنْ مَوْضِعِهَا، وَمَوْضِعُهَا بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ، وَهَذَا أَسْهَلُ عَلَى الْمَعْرَبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْلُفِ الْمَقْدَّرِ، وَأَحْيَانًا قَدْ يَصْعَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقْدَرَ شَيْئًا مُنَاسِبًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَّا﴾: شَرْطِيَّةٌ، وَدَلِيلُ كَوْنِهَا شَرْطِيَّةً أَنَّهَا تَحَمَّلَتْ فِعْلَ الشَّرْطِ وَجَوَابَهُ، فِعْلَ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾، وَجَوَابُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا﴾. ﴿وَلَمَّا﴾ تَأْتِي عَلَى عِدَّةِ وَجُوهِ: فَتَأْتِي بِمَعْنَى (إِلَّا)، وَتَأْتِي بِمَعْنَى (حِينَ)، وَتَأْتِي بِمَعْنَى (لَمْ)، وَتَأْتِي

شرطيّة، ففي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بمعنى: (إلا)، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوْا عَذَابٍ﴾ [ص: ٨] بمعنى: (لم)، وإن كان بين (لم، ولما) فروق، لكن هنا بمعنى (لم) النافية. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس: ٩٨] قال بعض العلماء: (لما) هنا بمعنى: حين. فهذه وجوه أربعة. وقوله: ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾: ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾: يعني حَلَّتْ بكم مصيبة قد أصبتم مثلها، أي حلَّ بكم مثلاًها. وهذه المصيبة: هي ما حلَّ بهم في أُحُد، فإنه قُتل منهم سبعون رجلاً، وعلى رأسهم: حمزة بن عبد المطلب ﷺ. وقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾: يشير إلى ما حصل في يوم بدر، حيث قُتل سبعون رجلاً من المشركين، وأُسِرَ منهم سبعون رجلاً، فسبعون مع سبعين ضعفان؛ ولهذا قال: ﴿أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾، وأما قول من قال: إنّ في الآية إشارة إلى موقعة الأحزاب، وأنّ النصر سيكون للمسلمين فإنّه غير صحيح، أولاً: لأنه خلاف الظاهر، حيث قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾، وهذا فعل ماضٍ، ولم يقل: قد تصيبون. والشيء الثاني: أنهم في غزوة الأحزاب لم يصيبوا مثليها في الواقع؛ لأن غزوة الأحزاب لم يحصل فيها إلا قتل يسير جدّاً، وانتصارهم في الأحزاب كان بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود. فإن قال قائل: كيف قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ مع أنّ المقتول سبعون، والمأسور سبعون، والأسر ليس كالقتل؟. قلنا: إنّ الأسر يحصل به من الإذلال مثل ما يحصل بالقتل، وربما يكون أكثر؛ لأن المقتول يقتل ويستريح، ولكن المأسور يستدلّ؛ ولهذا يخير الإمام في المأسورين بين أربعة أمور: الأوّل: الفداء بمال أو بأسير مسلم. الثاني: الرّق. الثالث: القتل. الرابع: المنّ بدون شيء، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَحْنَتُمْوَهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فالحاصل: أنّ الأسر في الإذلال كالقتل إن لم يكن أشدّ منه. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: ﴿قُلْتُمْ﴾ جواب (لما)، أي إذا أصابتكم مصيبة قلتم: كيف أصابنا هذا؟! وكيف تأتينا الهزيمة ونحن جنود الله، ومع رسول الله؟ وقوله: ﴿أَنَّى هَذَا﴾:

﴿أَيُّ﴾ هذه استفهامية، وتأتي شرطية، ففي قولك: (أَيُّ تَقَم أقم) هذه شرطية. وفي مثل هذه الآية استفهامية، وهذا الاستفهام للتعجب، ولا أظن أن يكون للإنكار؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لا ينكرون من قدر الله شيئاً، ولكنهم يتعجبون: كيف يصيبنا هذا، ونحن جند الله، ومع رسول الله؟!.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: قال السمرقندي: قال الضحّاك: يعني بذنوبكم التي سلفت منكم قبل القتال، يعني إنّ في ذلك تطهيراً لما سلف من ذنوبكم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال ابن الجوزي: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنّ معناه: بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ، قاله عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. وقال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "جاء جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَرِهَ مَا صَنَعَ قَوْمُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، وَقَدْ أَمَرَكَ أَنْ تُخَيِّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يَضْرِبُوا أَعْنَاقَ الْأَسَارَى، وَبَيْنَ أَنْ يَأْخُذُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ عُذَّتُهُمْ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، فَقَالُوا: عَشَائِرُنَا وَإِخْوَانُنَا، بَلْ نَأْخُذُ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، وَيَسْتَشْهَدُ مِنَّا عُذَّتُهُمْ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ عَدَدُ أَسَارَى بِدْرٍ"، فعلى هذا يكون المعنى: قُلْ هُوَ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ، واختيارِكُمُ الْقَتْلَ لِأَنْفُسِكُمْ. الثاني: أنّه جرى ذَلِكَ بِمَعْصِيَةِ الرُّمَاءِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرْكِهِمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قاله ابْنُ عَبَّاسٍ، ومقاتل. الثالث: أنّه بِمُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّهُ أَمَرَهُمُ بِالْتَّحَصُّنِ فِيهَا، فَقَالُوا: بَلْ نَخْرُجُ، قاله قَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ. وقال الرازي: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَيُّ أَنْكُمْ إِنَّمَا وَقَعْتُمْ فِي هَذِهِ الْمَصِيبَةِ بِشُؤْمِ مَعْصِيَتِكُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَصَوْا الرَّسُولَ فِي أُمُورٍ: أَوَّلُهَا: أَنَّ الرَّسُولَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: الْمَصْلَحَةُ فِي أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ بَلْ نَبْقَى هَهُنَا، وَهُمْ أَبَوْا إِلَّا الْخُرُوجَ، فَلَمَّا خَالَفُوهُ تَوَجَّهَ إِلَى أُحُدٍ. وثانيها: ما حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ فَشْلِهِمْ. وثالثها: ما وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمِنَازَعَةِ. ورابعها: أَنَّهُمْ فَارَقُوا الْمَكَانَ وَفَرَّقُوا الْجَمْعَ. وخامسها: اشْتَغَالُهُمْ بِطَلَبِ الْغَنِيمَةِ. وقال أبو حَيَّان: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: الإِضْمَارُ فِي

(هُوَ) راجِعٌ إلى المصيبة على المعنى، لا على اللفظ. وقال الشوكاني: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَمَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ بِأَنْ يُجِيبَ عَنْ سُؤْلِهِمْ بِهَذَا الْجَوَابِ، أَيِ هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ عَنْهُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَةِ الرُّمَّةِ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ مِنْ لُزُومِ الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ لَهُمْ، وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهِمْ لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وقيل: إِنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: خُرُوجُهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَيُرْذُهُ أَنْ الْوَعْدَ بِالنَّصْرِ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ. وقيل: هُوَ اخْتِيَارُهُمُ الْفِدَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى الْقَتْلِ. وقال الألوسي: ﴿قُلْ﴾: أَيِ يَا مُحَمَّدُ فِي جَوَابِ سُؤْلِهِمُ الْفَاسِدِ. ﴿هُوَ﴾: أَيِ هَذَا الَّذِي أَصَابَكُمْ كَائِنٌ. ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَيِ أَنَّهَا السَّبَبُ لَهُ. وقال القاسمي: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَيِ مِمَّا افْتَرَقَتْهُ أَنْفُسُكُمْ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ بِتَرْكِ الْمَرْكَزِ، فَإِنَّ الْوَعْدَ كَانَ مَشْرُوطًا بِالنَّبَاتِ وَالْمَطَاوَعَةِ. وقال العثيمين: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: هُنَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ أَنْ يَقُولَ، وَلَمْ يَقُلْ: (هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)، بَلْ أَمَرَ نَبِيَّهَ أَنْ يَبْلَغَهُمْ. وَهَذَا الْأَمْرُ لِلتَّبْلِيغِ الْخَاصِّ، وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ قَدْ أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْلَغَهُ جَمِيعًا لِلنَّاسِ، وَلَكِنْ تَوْجَدُ بَعْضُ الْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي يُؤْمَرُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِيَبْلُغَهَا تَبْلِيغًا خَاصًّا، أَيِ قُلْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنَّى هَذَا﴾: ﴿هُوَ﴾: أَيِ مَا أَصَابَكُمْ. ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: أَيِ مِنْكُمْ. وَ﴿مِنْ﴾ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَيِ فَأَنْتُمْ السَّبَبُ. وَالسَّبَبُ الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا: هُوَ مَا حَصَلَ مِنَ النِّزَاعِ وَالْمَعْصِيَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَبْقُوا فِي الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ لَهُمْ، سَوَاءَ كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْكَافِرِينَ، وَلَكِنَّهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَمَّا رَأَوْا الْمُشْرِكِينَ قَدْ اهُزَمُوا، وَرَأَوْا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَدَأُوا يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ، ظَنُّوا أَنَّ الْحَرْبَ انْتَهَتْ، فَزَلُّوا مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَحَصَلَ مَا حَصَلَ، فَإِنَّ الْفَرَسَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا رَأَوْا الثَّغْرَ الَّذِي يَحْمِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ خَالِيًا، كَرُّوا مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتَلَطُوا بِهِمْ، وَحَصَلَ مَا أَرَادَ اللَّهُ. هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: يَعْنِي مِنَ النَّصْرِ مَعَ طَاعَتِكُمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَتَرْكِ النَّصْرِ مَعَ مُخَالَفَتِكُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَرِيدُ عَلَى نَصْرِكُمْ، وَعَلَى اتِّخَاذِ

الشهداء منكم، وتعجيل أوليائه إلى الجنة، قديرٌ. وقال ابن الجوزي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال مقاتل: مِنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ. وقال أبو حيان: أي قادرٌ عَلَى النَّصْرِ، وَعَلَى مَنْعِهِ، وَعَلَى أَنْ يُصِيبَ بِكُمْ تَارَةً، وَيُصِيبَ مِنْكُمْ أُخْرَى. وَنَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ كَانَ لَوْهَنٍ فِي دِينِهِمْ، لَا لِضَعْفٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هُوَ قَادِرٌ عَلَى دِفَاعِهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وقال الألوسي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: وَمِنْ جُمْلَتِهِ النَّصْرُ عِنْدَ الْمَوَافَقَةِ، وَالْحِذْلَانُ عِنْدَ الْمَخَالَفَةِ، وَحَيْثُ خَالَفْتُمْ أَصَابَكُمْ سُبْحَانُهُ بِمَا أَصَابَكُمْ، وَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا دَاخِلٌ تَحْتَ الْأَمْرِ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ مِنْهَا تَطْيِيبُ أَنْفُسِهِمْ وَمَزْجُ مَرَارَةِ التَّقْرِيعِ بِحَلَاوَةِ الْوَعْدِ أَيْ أَنَّهُ سُبْحَانُهُ قَادِرٌ عَلَى نُصْرَتِكُمْ بَعْدُ لِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَاعْتِنَاءٌ بِشَأْنِ التَّطْيِيبِ وَإِرْشَادًا لَهُمْ إِلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ فِيمَا سَأَلُوا عَنْهُ، وَبَيَانًا لِبَعْضِ مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمِ. وقال العثيمين: حَتَّمُ الْآيَةِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُنَاسِبَةِ، فَهُوَ قَدِيرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤]؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَأَمَاتَهُمْ، أَوْ خَسَفَ بِهِمْ، أَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ صَوَاعِقَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ﴾ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) [مُحَمَّد]. وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامَّةٌ تشمل كلَّ شيءٍ، تشمل ما كَانَ مَوْجُودًا، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهِ، وَمَا كَانَ مَعْدُومًا، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِهِ، وَلَا اسْتِثْنَاءَ فِي هَذَا الْعَمُومِ. وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: (وخصَّ العقل ذاته فليس عليه بقادر)، فهذا تخصيصٌ في غير محله، أَوَّلًا: لِأَنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ تَدَخُّلٌ فِي صِفَاتِ اللَّهِ. وَثَانِيًا: نَقُولُ: مَا تَرِيدُ بِقَوْلِكَ: (وخصَّ العقل ذاته؟)، هَلْ تَرِيدُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْزِلَ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ؟ أَمْ مَاذَا تَرِيدُ؟ إِنْ أَرَدْتَ هَذَا، فَهَذَا خَطَأٌ، فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ

يفعل، على أن يستوي على العرش، على أن ينزل إلى السماء الدنيا، على أن يأتي للفصل بين عبادته، كما صحَّ بذلك النقل. أم تريد بقولك: (خصَّ العقل ذاته)، أنه لا يقدر على أن يفعل بنفسه ما لا يليق به؛ كالموت مثلاً؟ إن أردت ذلك؟ فهذا خطأ منك أيضاً، وذلك لأن القدرة إنما تتعلَّق بالممكنات، أما المستحيلات فهي مستحيلة غير واقعة، هل يمكن أن نقول: إنَّ الشيء يكون متحرِّكاً ساكناً في آن واحد؟ لا يمكن؛ لأن هذا لا تتعلَّق به القدرة أصلاً، والله لا يمكن أن يتَّصف بالنقص، والله المثل الأعلى، فكونك تفرض أن الله تعالى يمكن أن يتَّصف بالنقص، ولكنه غير قادر عليه، فهذا خطأ عظيم. فنقول: هذا أصلاً غير وارد على القدرة، كما قال السفاريني: "بقدره تعلقت بممكن". فالشيء المستحيل مستحيل، لا تتعلَّق به القدرة أصلاً؛ لأنه إذا كان الشيء ساكناً لا يمكن أن يكون متحرِّكاً، وإذا كان متحرِّكاً لا يمكن أن يكون ساكناً، والله قادر على كلِّ شيء، لكن إذا قدَّر أن يجعله متحرِّكاً صار غير ساكن، وإذا قدَّر أن يكون ساكناً صار غير متحرِّك، فهذا أصلاً لا يرد على العقل، فإذاً نقول: إنَّ الله على كلِّ شيء قدير عموماً مطلقاً لا استثناء فيه.

• قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦):

• مناسبة الآية لما قبلها: قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهَا أَصَابَتْهُمْ بِذَنبِهِمْ وَمِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا أَصَابَتْهُمْ لَوْجِهِ آخَرٍ، وَهُوَ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ عَنِ الْمُنَافِقِ.

• تفسير الآية:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ﴾: قال مكِّي: هذا خطاب للمؤمنين. والمعني: الذي أصابكم أيها المؤمنون من القتل والجرح يوم أحد فبإذن الله، أي بقدره

وقضائه. وقيل: أي بعلمه. ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي ليظهر إيمان المؤمنين من نفاق المنافقين في قلة الصبر. وتحقيق معناها: أنه قد دار عليهم ما أصابهم يوم أحد؛ ليميز المؤمن من المنافق. وقال الواحدي: دَخَلَتْ (الفاء) في قوله: ﴿فَبَاذِنِ اللَّهَ﴾؛ لأن خبر (مَا) التي بمعنى (الذي)، يشبه جواب الجزاء مِنْ جهة أنه مُعَلَّقٌ بالفعل الذي في الصِّلَةِ كَتَعْلُقِهِ بالفعل الذي في الشَّرْطِ. ومعنى قوله: ﴿فَبَاذِنِ اللَّهَ﴾: قيل: بعلم الله. وقال ابن عباس: يريد: بقضاء الله. وهذا أولى؛ لأن الآية تَسْلِيَةٌ للمؤمنين مما أصابهم، ولا تَقَعُ التَّسْلِيَةُ إذا كان واقِعًا بِعِلْمِهِ، وإنما تَقَعُ إذا كان واقِعًا بقضاء الله وقدره، فحينئذٍ يرضون بما قضى عليهم. وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الكائنات كُلَّهَا تَقَعُ على ما قضاه الله في الأَزَلِّ. وقال ابن عطية: الخِطَابُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ. و(الْجَمْعَانِ): هُمَا عَسْكَرُ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَسْكَرُ قُرَيْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ. وَدَخَلَتْ (الفاء) في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَاذِنِ اللَّهَ﴾ رَابِطَةٌ مُشَدَّدَةٌ، وَذَلِكَ لِلإِبْهَامِ الَّذِي فِي (مَا) فَاشْتَبَهَ الْكَلَامُ الشَّرْطَ، وَهَذَا كَمَا قَالَ سِيبَوَيْهِ: (الَّذِي قَامَ فَلَهُ دِرْهَمَانِ)، فَيَحْسُنُ دُخُولُ (الفاء) إِذَا كَانَ الْقِيَامُ سَبَبَ الْإِعْطَاءِ، وَكَذَلِكَ تَرْتِيبُ هَذِهِ الْآيَةِ، فَاِلْمَعْنَى: وَمَا أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي أَصَابَ، لَكِنْ قَدَّمَ الْأَهَمَّ فِي نُفُوسِهِمْ وَالْأَقْرَبَ إِلَى حِسِّهِمْ. وَالْإِذْنُ: التَّمَكُّيْنُ مِنَ الشَّيْءِ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾ مَعْنَاهُ: لِيَكُونَ الْعِلْمُ مَعَ وُجُودِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، أَيْ مُسَاوِقِينَ لِلْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ. وقال ابن الجوزي: الْجَمْعَانِ: النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَأَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ مَا أَصَابَهُمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَاذِنِ اللَّهَ﴾: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَمْرُهُ. الثَّانِي: قَضَاؤُهُ. رُويَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الثَّالِثُ: عِلْمُهُ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيْ لِيُظْهَرَ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ بِثُبُوتِهِمْ عَلَى مَا نَالَهُمْ، وَيُظْهَرَ نِفَاقُ الْمُنَافِقِينَ بِقَسَلِهِمْ وَقِلَّةِ صَبْرِهِمْ. وقال الرازي: ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: الْمُرَادُ بِهِ يَوْمُ أُحُدٍ. وَفِي الْمُرَادِ بِالْجَمْعَيْنِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ. الثَّانِي: جَمْعُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ أَبِي سُفْيَانَ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَاذِنِ اللَّهَ﴾ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ إِذْنَ اللَّهِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحْلِيلَةِ

وَتَرَكِ الْمَدَافِعَةَ، اسْتَعَارَ الْإِذْنَ لِتَحْلِيَةِ الْكُفَّارِ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْهُمْ لِيَبْتَلِيَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِذْنَ فِي الشَّيْءِ لَا يَدْفَعُ الْمَادُّونَ عَنْ مُرَادِهِ، فَلَمَّا كَانَ تَرَكِ الْمَدَافِعَةَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِذْنِ أُطْلِقَ عَلَى تَرَكِ الْمَدَافِعَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ. الْوَجْهُ الثَّانِي: ﴿فَيَاذِنْ اللَّهُ﴾: أَيِ يَعْلَمِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣]، أَيِ إِعْلَامٌ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وَكُلُّ ذَلِكَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ. الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّ الْمَرَادَ مِنَ الْإِذْنِ: الْأَمْرُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالْمُحَارَبَةِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ الْمُحَارَبَةُ مُؤَدِّيَةً إِلَى ذَلِكَ الْإِخْزَامِ، صَحَّ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ أَنْ يُقَالَ حَصَلَ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ. الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ الْمُنْقُولُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْمَرَادَ مِنَ الْإِذْنِ قَضَاءُ اللَّهِ بِذَلِكَ وَحُكْمُهُ بِهِ، وَهَذَا أَوَّلِي؛ لِأَنَّ الْآيَةَ تَسْلِيَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَصَابَهُمْ، وَالتَّسْلِيَةُ إِذَا تَحَصَّلَ إِذَا قِيلَ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَحِينَئِذٍ يَرْضَوْنَ بِمَا قَضَى اللَّهُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانِ فَيَاذِنْ اللَّهُ﴾: فُسِّرَ الْإِذْنَ هُنَا بِالْعِلْمِ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِهِ. قَالَه الرَّجَّاجُ. أَوْ بِتَمَكُّينِ اللَّهِ وَتَحْلِيَّتِهِ بَيْنَ الْجُمُعَيْنِ. قَالَه الْقَفَّالُ. أَوْ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ، أَوْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيِ وَلِيَعْلَمَ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ الْمَعْنَى: وَلِيُمَيِّزَ أَعْيَانَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْيَانِ الْمُنَافِقِينَ. وَقِيلَ: لِيَكُونَ الْعِلْمُ مَعَ وُجُودِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مُسَاوِقًا لِلْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ. وَقِيلَ: لِيُظْهِرَ إِيْمَانَ هَؤُلَاءِ وَنِفَاقَ هَؤُلَاءِ. وَقَالُوا: تَتَعَلَّقُ الْآيَةُ بِمَحْذُوفٍ، أَيِ وَلَكَذَا فَعَلَ ذَلِكَ. وَالَّذِي يَظْهَرُ: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَاذِنْ اللَّهُ﴾ عَطَفَ السَّبَبُ عَلَى السَّبَبِ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ (الْبَاءِ، وَاللَّامِ)، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ (الْبَاءُ) مِنْ قَوْلِهِ: فَهُوَ كَائِنٌ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانِ فَيَاذِنْ اللَّهُ﴾: أَيِ فِرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَدُوِّكُمْ، وَقَتْلُهُمْ لَجَمَاعَةٍ مِنْكُمْ، وَجِرَاحَتُهُمْ لِآخَرِينَ، كَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَتُوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾: رُجُوعٌ إِلَى خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ

إِثْرَ خِطَابِهِ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . بِسِرِّ يَفْتَضِيهِ، وَإِرْشَادَ لَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ فِيمَا سَأَلُوا عَنْهُ، وَبَيَانًا لِبَعْضِ مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْمَصَالِحِ، وَدَفْعًا لِمَا عَسَى أَنْ يُتَوَهَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنْ اسْتِقْلَالِهِمْ فِي وُقُوعِ الْحَادِثَةِ. وَالْعُدُولُ عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى مَا ذَكَرَ؛ لِلتَّهْوِيلِ وَزِيَادَةِ التَّفْرِيرِ بَيَانٍ وَفَتْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾، أَيِ جَمْعِكُمْ وَجَمْعِ الْمُشْرِكِينَ. ﴿فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾: أَيُّ فَهُوَ كَائِنٌ بِقَضَائِهِ وَتَخْلِيَّتِهِ الْكُفَّارَ، سُمِّيَ ذَلِكَ إِذْنًا؛ لِكُونِهَا مِنْ لَوَازِمِهِ. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾ عَطْفَ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ. وَالْمِرَادُ بِالْعِلْمِ: التَّمْيِيزُ وَالْإِظْهَارُ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾: (مَا) هَذِهِ شَرْطِيَّةٌ، وَدَلِيلٌ أَنَّهَا شَرْطِيَّةٌ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي الْجُمْلَةِ فِعْلَ شَرْطٍ وَجَوَابِهِ. فِعْلَ الشَّرْطِ قَوْلُهُ: ﴿أَصَابَكُمْ﴾، وَجَوَابُهُ قَوْلُهُ: ﴿فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾، وَقَرْنَ بِ(الْفَاءِ)؛ لِأَنَّهُ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: فَهُوَ يَاذَنْ اللَّهَ. قَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: يَعْنِي بِالتَّقَاءِ الْجَمْعَيْنِ: التَّقَاؤُهُمَا يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ، وَصَارَتِ النِّهَايَةُ أَنْ هَزَمَ الْمُسْلِمُونَ وَاسْتَشْهَدَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَهَذِهِ تَعْتَبَرُ نَكْبَةً أَمَامَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ سَيَكُونُ لَهُمْ فِي هَذَا الْحَالِ سَيْطَرَةٌ وَعُلُوٌّ وَاسْتِكْبَارٌ كَمَا وَقَعَ؛ فَإِنْ أَبَا سَفِيَانٌ قَالَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: (أَعْلَى هَبْلٍ) فَافْتَخَرُ بَعْلُو صَنْمِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ. وَهَذَا الَّذِي حَصَلَ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ يَقُولُ اللَّهُ فِيهِ: ﴿فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾: يَاذَنْ اللَّهَ الْقَدْرِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي قَدَرَهُ. وَإِذْنُ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: إِذْنٌ شَرْعِيٌّ، وَإِذْنٌ كَوْنِيٌّ. فَمَا تَعَلَّقَ بِالتَّكْوِينِ وَالْخَلْقِ فَهُوَ إِذْنٌ كَوْنِيٌّ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وَمَا تَعَلَّقَ بِالشَّرْعِ فَهُوَ إِذْنٌ شَرْعِيٌّ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أَيِ إِذْنٍ شَرْعِيٍّ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟ فَالْجَوَابُ: أَوَّلًا: أَنَّ الْإِذْنَ الشَّرْعِيَّ يَكُونُ فِيمَا يَحِبُّهُ اللَّهُ، وَالْإِذْنَ الْكَوْنِيَّ يَكُونُ فِيمَا يَحِبُّهُ وَمَا لَا يَحِبُّهُ. ثَانِيًا: أَنَّ الْإِذْنَ الْكَوْنِيَّ يَقَعُ فِيهِ الْمَأْذُونُ بِهِ، وَالْإِذْنَ الشَّرْعِيَّ قَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا

يقع. وقوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي فهو كائن بإذن الله. و(الباء) للسببية؛ ولذلك صحَّ أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾: (اللام) للتعليل، ولا يجوز أن تسكَّن (اللام)، فتقول: ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾؛ لأن التي تسكَّن بعد حروف العطف هي (لام الأمر)، أما (لام التعليل) فهي مكسورة دائما. وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني الذين صدقوا الله في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم: إنه بقدر الله، ورضوا به، وتابوا إلى الله من أسبابه، وهي المعاصي والتنازع. والعلم هنا: علم ظهور، وليس علم إدراك، أي وليعلمه بعد ظهوره، أمّا علمه قبل ظهوره فهو ثابت لله؛ لأن الله علم كلَّ شيء إلى يوم القيامة. وأيضا هذا العلم علم يترتب عليه الثواب، أمّا علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب، ولا يترتب عليه العقاب. هذان فرقان. والفرق الثالث: أنَّ هذا العلم علم بالشيء بعد أن يقع، فهو علم بأنه وقع، وأمّا العلم الأزليّ فهو علم بأنه سيقع، وهناك فرق بين العلم بأنه وقع، وبين العلم بأنه سيقع. هذه ثلاثة أوجه، وإلا فإن كثيرا من الناس يقول: كيف ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ أليس الله قد علمهم من قبل؟. فنقول: بلى علمهم؛ لكن العلم يختلف من هذه الوجوه الثلاثة.

- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَتَبْعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها: قال البقاعي: وَلَمَّا كَانَ تَعْلِيْقُ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ عَلَى حَدِّثِهِ أَتَمَّ وَآكَدَ مِنْ تَعْلِيْقِهِ بِهِ مَعَ غَيْرِهِ، أَعَادَ الْعَامِلَ لِذَلِكَ؛ وَإِشْعَارًا بِأَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ أَسْفَلُ رُتْبَةٍ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.
- تفسير الآية: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾: قال الماوردي: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾: يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَأَصْحَابَهُ. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: يَعْنِي جَاهِدُوا. ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يَعْنِي تَكْثِيرَ السَّوَادِ وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلُوا وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ وَابْنِ جُرَيْجٍ. الثَّانِي: مَعْنَاهُ رَابَطُوا عَلَى الْحَيْلِ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيِّ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾: أَي لِيُظْهَرَ نِفَاقُ الْمُنَافِقِينَ بِفَشْلِهِمْ، وَقِلَّةُ صَبْرِهِمْ عَلَى مَا يَنْزِلُ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَافِقُوا﴾. يُقَالُ: نَافِقُ الرَّجُلُ فَهُوَ مُنَافِقٌ إِذَا أَظْهَرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ، وَأَضْمَرَ خِلَافَهَا. وَالنِّفَاقُ: اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ. وَاخْتَلَفُوا فِي اسْتِقَاقِهِ: قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُقَالُ: (نَافِقُ الْيَرْبُوعِ)، وَ(نَفَقَ)، وَ(نَافِقَاءُ الْيَرْبُوعِ): أَحَدُ جُحْرَيْهِ. وَلَهُ جُحْرٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ: (الْقَاصِعَاءُ)، فَإِذَا طُلِبَ مِنَ النَافِقَاءِ، خَرَجَ مِنْ (الْقَاصِعَاءِ)، وَإِذَا طُلِبَ مِنَ (الْقَاصِعَاءِ)، خَرَجَ مِنَ (النَافِقَاءِ)، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: مُنَافِقٌ؛ لِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عِلَاقَةً وَخَرَجَ سِرًّا. وَحَكَى ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْمُنَافِقَ مِنَ (النَّفَقِ)، وَهُوَ: السَّرْبُ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَتَسَتَّرُ بِالْإِسْلَامِ، كَمَا يَتَسَتَّرُ الرَّجُلُ فِي السَّرْبِ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ مَا خُذَ مِنَ (النَافِقَاءِ)، عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ: أَنَّ (النَافِقَاءَ) جُحْرٌ يَخْفَرُهُ الْيَرْبُوعُ مِنْ دَاخِلِ الْأَرْضِ، فَإِذَا بَلَغَ إِلَى جِلْدَةِ الْأَرْضِ رَقَّقَ التُّرَابَ وَلَمْ يُنَمِّ الْحَفَرَ، حَتَّى إِذَا رَأَاهُ رَيْبٌ، دَفَعَ التُّرَابَ بِرَأْسِهِ، فَخَرَجَ. فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: مُنَافِقٌ؛ لِأَنَّهُ يُضْمَرُ غَيْرَ مَا يُظْهَرُ، بِمَنْزِلَةِ (النَافِقَاءِ) ظَاهِرُهُ غَيْرُ بَيِّنٍ، وَبَاطِنُهُ مُحْفُورٌ فِي الْأَرْضِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: النِّفَاقُ: لَفْظٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ تَعْرِفُهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ نَافَقُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ. قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: "خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَهُمْ أَلْفُ رَجُلٍ، وَالْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ، فَرَجَعَ عَنْهُ ابْنُ أَبِي فِي ثَلَاثِمِائَةٍ". فَأَمَّا الْقِتَالُ: فَمُبَاشَرَةُ الْحَرْبِ. وَفِي الْمُرَادِ بِالدَّفْعِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ التَّكْثِيرُ بِالْعَدَدِ. رَوَاهُ مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَعِكْرَمَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ جُرَيْجٍ. الثَّانِي: أَنَّ مَعْنَاهُ: ادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَحَرَمِكُمْ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ بِمَعْنَى الْقِتَالِ أَيْضًا، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي

مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾، فَقَالَ السُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمَا: كَثُرُوا سَوَادَنَا وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا مَعَنَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَفْعًا وَقَمْعًا لِلْعَدُوِّ، فَإِنَّ السَّوَادَ إِذَا كَثُرَ حَصَلَ دَفْعُ الْعَدُوِّ. وَقَالَ أَبُو عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ: مَعْنَى ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾: رَابِطُوا، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ، وَلَا مُحَالَةَ أَنَّ الْمُرَابِطَ مُدَافِعٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا مَكَانُ الْمُرَابِطِينَ فِي الثُّغُورِ لَجَاءَهَا الْعَدُوُّ. وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو لَهُمْ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْعَاءٌ إِلَى الْقِتَالِ حِمِيَّةً؛ لِأَنَّهُ اسْتَدْعَاهُمْ إِلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى ذَلِكَ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْوَجْهَ الَّذِي يَخْشَمُهُمْ وَيَبْعَثُ الْأَنْفَةَ أَيْ أَوْ قَاتِلُوا دِفَاعًا عَنِ الْحُوْزَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ قُرْمَانَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا قَاتَلْتُ إِلَّا عَنْ أَحْسَابِ قَوْمِي، وَأَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ الْأَنْصَارِ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا رَأَى قُرَيْشًا قَدْ أَرْسَلَتِ الظُّهْرَ فِي زُرُوعِ قَنَاةٍ: أَتُرْعَى زُرُوعُ بَنِي قَيْلَةَ وَلَمَّا نُضَارِبُ؟ وَالْمَعْنَى: إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾: الْقَائِلُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَقِيلَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ حَرَامِ الْأَنْصَارِيِّ. قَالَ السُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْفَرَاءُ: مَعْنَاهُ: كَثُرُوا السَّوَادَ وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا فَتَدْفَعُونَ الْقَوْمَ بِالتَّكْثِيرِ. وَقَالَ أَبُو عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ مَعْنَاهُ: رَابِطُوا، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الْمُرَابِطَ فِي الثُّغُورِ دَافِعٌ لِلْعَدُوِّ؛ إِذْ لَوْلَاهُ لَطَرَقَهَا. وَقِيلَ: الْقِتَالُ بِالْأَنْفُسِ، وَالدَّفْعُ بِالْأَمْوَالِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَوْ ادْفَعُوا حِمِيَّةً؛ لِأَنَّهُ لَمَّا دَعَاهُمْ أَوَّلًا إِلَى أَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَدَ عَزَائِمَهُمْ مُنْحَلَّةً عَنْ ذَلِكَ، إِذْ لَا بَاعِثَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِنِفَاقِهِمْ، فَاسْتَدْعَى مِنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ الْحُوْزَةِ، فَتَبَّهَ عَلَى مَا يُقَاتِلُ لِأَجْلِهِ: إِمَّا لِإِعْلَاءِ الدِّينِ، أَوْ لِحِمَى الدِّمَارِ. وَ(أَوْ) عَلَى بَاهِهَا مِنْ أَهَّا لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ. وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (الْوَاوِ)، فَطَلَبَ مِنْهُمْ الشَّيْئَيْنِ: الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالدَّفْعُ عَنِ الْحَرِيمِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ. فَكُفَّارُ قُرَيْشٍ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ فِي الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ. فَسَمَّ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ فِيهِ بَيْنَ أَنْ يُقَاتِلُوا لِلْآخِرَةِ، أَوْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. حَكَى

اللَّهُ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ فِي هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿نَافِقُوا﴾، فَيَكُونُ مِنَ الصَّلَاةِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافِقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾: يَعْنِي بِذَلِكَ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي النَّبْتِ سُلُوفَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي كَثَرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: ادْفَعُوا بِالْدُّعَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: رَابَطُوا. وَقَالَ أَبُو السَّوْدِ: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافِقُوا﴾: عَطَفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ مِثْلِهِ. وَإِعَادَةُ الْفِعْلِ؛ لِتَشْرِيفِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْزِيهِهِمْ عَنِ الْإِنْتِظَامِ فِي قَرْنِ الْمُنَافِقِينَ؛ وَلِلْإِيْدَانِ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْعِلْمِ بِحَسَبِ التَّعَلُّقِ بِالْفَرِيقَيْنِ، فَإِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى نَهْجِ تَعَلُّقِهِ السَّابِقِ وَبِالْمُنَافِقِينَ عَلَى وَجْهِ جَدِيدٍ وَهُوَ السِّرُّ فِي إِيرَادِ الْأَوَّلِينَ بِصِغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ الْمُنْبَتَّةِ عَنِ الْاسْتِمْرَارِ وَالْآخِرِينَ بِمَوْصُولٍ صَلَاتُهُ فِعْلٌ دَالٌّ عَلَى الْخُذُوثِ، وَالْمَعْنَى: وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَئِذٍ فَهُوَ كَائِنٌ؛ لِتَمْيِيزِ الثَّابِتِينَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ أَظْهَرُوا النِّفَاقَ. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: عَطَفَ عَلَى ﴿نَافِقُوا﴾ دَاخِلٌ مَعَهُ فِي حَيِّزِ الصَّلَاةِ أَوْ كَلَامٍ مُبْتَدَأٍ. وَتَرَكُ الْعَطْفَ بَيْنَ ﴿تَعَالَوْا﴾ وَ﴿قَاتِلُوا﴾؛ لِمَا أَنَّ الْمُقْصُودَ بِهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الثَّانِي وَذِكْرُ الْأَوَّلِ تَوْطِئَةٌ لَهُ وَتَرْغِيبٌ فِيهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّظَاهَرِ وَالتَّعَاوُنِ. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافِقُوا﴾ عَطَفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ. قِيلَ: أَعَادَ الْفِعْلَ؛ لِقَصْدِ تَشْرِيفِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ الْمُسْتَنْدُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْمُنَافِقِينَ وَاحِدًا. وَالْمَرَادُ بِالْعِلْمِ هُنَا: التَّمْيِيزُ وَالْإِظْهَارُ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى ثَابِتٌ قَبْلَ ذَلِكَ. وَالْمَرَادُ بِالْمُنَافِقِينَ هُنَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ. قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿نَافِقُوا﴾، أَيْ لِيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ نَافِقُوا وَالَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ. وَقِيلَ: هُوَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ، أَيْ قِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ ادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَأَبَوْا جَمِيعَ

ذَلِكَ وَقَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ وَقَاتِلْنَا مَعَكُمْ، وَلَكِنَّهُ لَا قِتَالَ هُنَالِكَ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَوْ كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى الْقِتَالِ وَنُحْسِنُهُ لَا تَبْعُنَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا نُحْسِنُهُ. وَعَبَّرَ عَنِ نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِتَالِ بِنَفْيِ الْعِلْمِ بِهِ؛ لِكَوْنِهَا مُسْتَلْزِمَةً لَهُ، وَفِيهِ بُعْدٌ لَا مُلْحِجٌ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَوْ نَعْلَمُ مَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ، وَلَكِنْ مَا أَنْتُمْ بِصَدَدِهِ لَيْسَ بِقِتَالٍ، وَلَكِنَّهُ إِقَاءٌ بِالنَّفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛ لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ مِنَّا وَمِنْكُمْ عَلَى دَفْعِ مَا وَرَدَ مِنَ الْجَيْشِ بِالْبُرُوزِ إِلَيْهِمْ وَالخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ بُعْدٌ دُونَ بُعْدِ مَا قَبْلَهُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾: يَعْنِي يَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا، فَيُمَيِّزُ هَذَا مِنْ هَذَا. وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِالْوَصْفِ، وَأَمَّا فِي الْمُنَافِقِينَ فَقَالَ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فَأَتَى بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النِّفَاقَ طَائِرٌ عَلَيْهِمْ؛ فَلِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانَ آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٣]؛ وَهَذَا أَتَى بِالْفِعْلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ، وَأَيْضًا لِيُنَاسِبَ قَوْلَهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾. وَالنِّفَاقُ فِي الْأَصْلِ: هُوَ إِظْهَارُ خِلَافِ الْوَاقِعِ. ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾: مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَإِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي كَانَ مِنَ الْمَعَارِضِينَ لِلخُرُوجِ إِلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ بِمَشُورَةِ الصَّحَابَةِ، وَلَا سِيَّمَا الَّذِينَ لَمْ يَدْرِكُوا بَدْرًا، وَأَكَّدُوا عَلَيْهِ الْمَشُورَةَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى أَحَدٍ، فَخَرَجَ النَّاسُ مُؤْمِنِينَ وَمُنَافِقِينَ، وَفِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ اخْتَلَفَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنَحْوِ ثَلَاثِ الْجُنْدِ، وَلِحَقِّهِمْ مِنْ لِحَقِّهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُوْخَوْنَهُمْ وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالرَّجُوعِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾: يَعْنِي فِيمَا قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ دِفَاعٍ عَنِ أَوْطَانِكُمْ. فَالْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِتَالٌ يُعْتَبَرُ جِهَادًا، يَثَابُ عَلَيْهِ الْمُقَاتِلُ ثَوَابُ الْمَجَاهِدِ، وَقِتَالُ الدِّفَاعِ بِحَسَبِ نِيَّةِ الْمُقَاتِلِ. وَجُمْلَةُ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: إِمَّا أَنَّهَا مُعْطَوْفَةٌ عَلَى ﴿نَافَقُوا﴾، أَوْ أَنَّهَا جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ عَلَى تَقْدِيرِ (قَدْ)، أَيْ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ مَعْنَاهُ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّ الْيَوْمَ يَجْرِي قِتَالٌ مَا أَسْلَمْنَاكُمْ، ذَكَرَهُ ابْنُ

إِسْحَاقَ. الثَّانِي: لَوْ كُنَّا نُحْسِنُ الْقِتَالَ لَا تَبْعَانَا. الثَّلَاثُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنَّ هُنَاكَ قِتَالًا وَلَيْسَ بِقِتَالٍ، ذَكَرَهُمَا الْمَاوَرِدِيُّ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾: إِنَّمَا لَمْ تَرِدْ بِ(الفاء)؛ لِأَنَّهُ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ افْتِضَاهُ دُعَاؤُهُمْ إِلَى الْقِتَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا قَالُوا؟ فَقِيلَ: قَالُوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾، وَنَعْلَمُ هُنَا فِي مَعْنَى عَلِمْنَا؛ لِأَنَّ لَوْ مِنْ الْقَرَائِنِ الَّتِي تُخْلِصُ الْمَضَارِعَ لِمَعْنَى الْمَاضِي إِذَا كَانَتْ حَرْفًا لَمَّا كَانَ سَيَقَعُ لَوْفُوعٌ غَيْرُهُ، فَإِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى إِنْ الشَّرْطِيَّةِ تُخْلِصُ الْمَضَارِعَ لِمَعْنَى الْإِسْتِقْبَالِ. وَمَضْمُونُ هَذَا الْجَوَابِ أَنَّهُمْ عَلَّمُوا الْإِتِّبَاعَ عَلَى تَقْدِيرِ وُجُودِ عِلْمِ الْقِتَالِ، وَعِلْمُهُمْ لِلْقِتَالِ مُنْتَفٍ، فَاِنْتَفَى الْإِتِّبَاعُ، وَإِخْبَارُهُمْ بِإِنْتِفَاءِ عِلْمِ الْقِتَالِ مِنْهُمْ إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَكَاذِبَةِ وَالْمَكَاذِبَةِ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّخْطِئَةِ لَهُمْ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّ ذَلِكَ قِتَالٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ رَمْيُ النَّفْسِ فِي التَّهْلُكَةِ؛ إِذْ لَا مُقَاوَمَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ الْكُفَّارِ لِكَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ رَأْيَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي كَانَ فِي الْإِقَامَةِ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا ظَهْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ يَسْتَصِوْبُ الْخُرُوجَ كَمَا مَرَّ ذِكْرُهُ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ قِتَالًا. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿قَالُوا﴾: اسْتِثْنَاءٌ وَقَعَ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا صَنَعُوا حِينَ خُيِّرُوا بَيْنَ الْحَصَلَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ؟ فَقِيلَ: قَالُوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾: أَيُّ لَوْ نُحْسِنُ قِتَالًا وَنَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا قَالُوهُ دَعْلًا وَاسْتِهْزَاءً. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِتَالِ بِنَفْيِ الْعِلْمِ بِهِ؛ لِمَا أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ مُسْتَلَزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهَا أَوْ لَوْ نَعْلَمُ مَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى قِتَالًا لَا تَبْعَانَا وَلَكِنْ مَا أَنْتُمْ بِصَدْدِهِ لَيْسَ بِقِتَالٍ أَصْلًا وَإِنَّمَا هُوَ إِلْقَاءُ النَّفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَفِي جَعْلِهِمُ التَّالِيَّ مُجَرَّدَ الْإِتِّبَاعِ دُونَ الْقِتَالِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ بِالِدَّعْوَةِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ تَشْيِيطِهِمْ عَنِ الْقِتَالِ حَيْثُ لَا تَرْضَى نُفُوسُهُمْ بِجَعْلِهِ تَالِيًا لِمُقَدِّمِ مُسْتَحِيلِ الْوُقُوعِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: (لَوْ) فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ تَكُونُ شَرْطِيَّةً. وَمَرَادُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَقُولَةِ: تَبْرِيرِ رَجْوَعِهِمْ مِنَ الْجَيْشِ، فَهَمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ مَعَكُمْ، لَكِنْ مَا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالًا، وَهَذِهِ قَوْلُهُ

رجل مخدول جبان، والإنسان الشجاع هو الذي يقول: نعم نأتي لنقاتل أو ندفع، ثم إن حصل قتال فنحن مستعدون، وإن لم يحصل رجعنا من حيث جئنا.

﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: قال الماوردي: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ﴾: أي إلى الكفر؛ لِأَنَّهُمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ صَارُوا بِمَا فَعَلُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْكَفْرِ مِنَ الْإِيمَانِ. وقال ابن الجوزي: ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: أي إلى الإيمان، وَإِنَّمَا قَالَ: يَوْمَئِذٍ، لِأَنَّهُمْ فِيمَا قَبْلُ لَمْ يَظْهَرُوا مِثْلَ مَا أَظْهَرُوا، فَكَانُوا بِظَاهِرِ حَالِهِمْ قَبْلُ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ. وقال القرطبي: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: أي بَيَّنُّوا حَالَهُمْ، وَهَتَكُوا أَسْتَارَهُمْ، وَكَشَفُوا عَنْ نَفَاقِهِمْ لِمَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَصَارُوا أَقْرَبَ إِلَى الْكَفْرِ فِي ظَاهِرِ الْحَالِ، وَإِنْ كَانُوا كَافِرِينَ عَلَى التَّحْقِيقِ. وقال أبو حيان: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: وَجْهُ الْأَقْرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ الزِّيَادَةُ فِي الْقُرْبِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهَرُونَ الْإِيمَانَ، وَلَمْ تَكُنْ تَظْهَرُ لَهُمْ أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَفْرِ، فَلَمَّا اخْتَدَلُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالُوا مَا قَالُوا زَادُوا قُرْبًا لِلْكَفْرِ، وَتَبَاعَدُوا عَنِ الْإِيمَانِ. وقيل: هو على حذف مضاف، أي هم لأهل الكفر أقرب نُصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ تَقْضِيلَهُمْ سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِخْذَالِ تَقْوِيَةً لِلْمُشْرِكِينَ. و﴿أَقْرَبُ﴾ هُنَا أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، وَهِيَ مِنَ الْقُرْبِ الْمَقَابِلِ لِلْبُعْدِ. وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا حَكَى التَّقَاشُ: إِلَى أَنَّ أَقْرَبَ لَيْسَ هُوَ هُنَا الْمَقَابِلُ لِلْأَبْعَدِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْقُرْبِ بِفَتْحِ (القاف، والراء) وهو المَطْلَبُ، وَالْقَارِبُ طَالِبُ الْمَاءِ، وَلَيْلَةُ الْقُرْبِ لَيْلَةُ الْوَدَادِ، فَاللَّفْظَةُ بِمَعْنَى الطَّلَبِ. وَيَتَعَيَّنُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ التَّعْدِيَةُ بِ(اللام)، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُعْدَى بِ(إلى) وَلَا بِ(من) الَّتِي لَا تَصْحَبُ كُلَّ أَفْعَلٍ التَّفْضِيلِ، وَصَارَ نَظِيرُ: (زَيْدٌ أَقْرَبُ لِعَمْرٍو مِنْ بَكْرٍ). وَكَثُرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ تَضَمَّنَتْ النَّصَّ عَلَى كُفْرِهِمْ. قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿أَقْرَبُ﴾، فَهُوَ الْيَقِينُ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِائَةٌ أَلْفٍ أَوْ يَبْرِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، فَالزِّيَادَةُ لَا شَكَّ فِيهَا، وَالْمَكْلَفُ لَا يَنْفَكُ عَنِ الْكَفْرِ أَوْ الْإِيمَانِ. فَلَمَّا دَلَّتْ عَلَى الْأَقْرَبِيَّةِ مِنَ الْكَفْرِ لَزِمَ

حُصُولُ الْكُفْرِ. وقال ابن كثير: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَنَقَّلَ بِهِ الْأَحْوَالُ، فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. وقال أبو السعود: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: الضَّمِيرُ مُبْتَدَأٌ، وَ(أَقْرَبُ) حَبْرَةٌ، وَ(الْإِيمَانُ) فِي (لِلْكَفْرِ، وَلِلْإِيمَانِ) مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ وَكَذَا (يَوْمَئِذٍ، وَمِنْهُمْ)، وَعَدَمُ جَوَازِ تَعَلُّقِ حَرْفَيْنِ مُتَّحِدَيْنِ لَفْظًا وَمَعْنَى بِعَامِلٍ وَاحِدٍ بِلَا عَطْفٍ أَوْ بَدَلِيَّةٍ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا عَدَا أَفْعَالِ التَّفْضِيلِ مِنَ الْعَوَامِلِ؛ لِاتِّحَادِ حَيْثِيَّةِ عَمَلِهَا، وَأَمَّا أَفْعَالُ التَّفْضِيلِ فَحَيْثُ دَلَّ عَلَى أَصْلِ الْفِعْلِ وَزِيَادَتِهِ جَرَى مَجْرَى عَامِلَيْنِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قُرْبُهُم لِلْكَفْرِ زَائِدَةٌ عَلَى قُرْبِهِم لِلْإِيمَانِ. وَقِيلَ: تَعَلُّقُ الْجَارَيْنِ بِهِ؛ لِشَبَهِهِمَا بِالظَّرْفَيْنِ، أَيْ هُم لِلْكَفْرِ يَوْمَ إِذْ قَالُوا مَا قَالُوا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِيمَانِ وَمَا ظَهَرَتْ مِنْهُمْ أَمَارَةٌ مُؤَدِّنَةٌ بِكُفْرِهِمْ، فَلَمَّا اخْتَدَلُوا عَنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالُوا مَا قَالُوا تَبَاعَدُوا بِذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ الْمُطْنُونِ بِهِمْ وَافْتَرَبُوا مِنَ الْكُفْرِ. وَقِيلَ: هُم لِأَهْلِ الْكُفْرِ أَقْرَبُ نُصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ تَقْلِيلَ سَوَادِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِخْذَالِ تَقْوِيَّةٌ لِلْمُشْرِكِينَ. وقال الشوكاني: أَيْ هُم فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي اخْتَدَلُوا فِيهِ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ بَيَّنُّوا حَالَهُمْ وَهَتَكُوا أَسْتَارَهُمْ وَكَشَفُوا عَنْ نِفَاقِهِمْ إِذْ ذَاكَ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لِأَهْلِ الْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ نُصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ. وقال العثيمين: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أَيْ فِي هَذَا الْوَقْتِ، أَوْ فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي انصرفوا فيه، وانخدلوا عن المسلمين، هم للکفر أقرب منهم للإيمان، وإن كان فيهم شيء من الإيمان، ولعلّ هذا في بعضهم، لكن هم للکفر أقرب.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: قال الماوردي: يَعْنِي مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِهِ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: التَّأَكِيدُ. الثَّانِي: أَنَّهُ زُبْمًا نُسِبَ الْقَوْلُ إِلَى السَّائِكَةِ بِجَازٍ إِذْ كَانَ بِهِ رَاضِيًا. وقال الواحدي: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: قال المفسرون: يَعْنِي

بإظهار الإيمان وإضمار الكفر. وقال بعضهم: يعني قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾، ولو عَلِمُوا ما اتَّبَعُوهم. وَذَكَرُ الْأَفْوَاهِ ههنا زيادة للتوكيد؛ لأن القول قد يضاف إلى الإنسان إذا كَتَبَ أو أشار به، فأَعْلَمَ اللهُ أَنهم يقولون بألسنتهم؛ لِيُفَرِّقَ بين قول اللسان وقول الكتابة. وقال ابن الجوزي: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: فيه وجهان ذَكَرَهُمَا الماوردي: أَحَدُهُما: يَنْطِقُونَ بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا الْكُفْرُ. الثَّانِي: يَقُولُونَ: نَحْنُ أَنْصَارٌ، وَهم أَعْدَاءُ. وَذَكَرَ فِي الَّذِي يَكْتُمُونَ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُما: أَنَّهُ النِّفَاقُ. وَالثَّانِي: الْعَدَاوَةُ. وَقَالَ القرطبي: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أَيَّ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، وَأَضْمَرُوا الْكُفْرَ. وَذَكَرُ الْأَفْوَاهِ تَأْكِيدٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال أبو حيان: أَيُّ يُظْهِرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا يَحْقِيقُونَ بِهِ دِمَاءَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ أَهْلِيَهُمْ مِنَ السَّيِّئِ، وَأَمْوَالَهُمْ مِنَ النَّهْبِ. وَلَيْسَ مَا يُظْهِرُونَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ، بَلْ هُوَ لَا يَتَجَاوَزُ أَفْوَاهَهُمْ وَخَارِجَ الْحُرُوفِ مِنْهَا، وَلَمْ تَعِ قُلُوبُهُمْ مِنْهُ شَيْئًا. وَذَكَرُ الْأَفْوَاهِ مَعَ الْقُلُوبِ تَصْوِيرٌ لِنِفَاقِهِمْ، وَأَنَّ إِيْمَانَهُمْ مَوْجُودٌ فِي أَفْوَاهِهِمْ، مَعْدُومٌ فِي قُلُوبِهِمْ، بِخِلَافِ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مُوَاطَاةٍ عَقْدِ قُلُوبِهِمْ لِلْفِطْرِ أَلْسِنَتِهِمْ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: "قَوْلُهُ: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تَوْكِيدٌ" انتهى. وَلَا يَظْهَرُ أَنَّهُ تَوْكِيدٌ؛ إِذِ الْقَوْلُ يَنْطَلِقُ عَلَى اللَّسَانِ وَالتَّنْفَاسِ، فَهُوَ مُحْصَصٌ لِأَحَدِ الْإِنْطِلَاقَيْنِ، إِلَّا إِنْ قُلْنَا: إِنَّ إِنْطِلَاقَهُ عَلَى التَّنْفَاسِ مَجَازٌ، فَيَكُونُ إِذْ ذَاكَ تَوْكِيدًا لِحَقِيقَةِ الْقَوْلِ. وَقَالَ ابن كثير: يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾، فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرَّفُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أُصِيبَ مِنْ سَرَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مَحَالَةَ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُقَرَّرَةٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا. وَذَكَرُ الْأَفْوَاهِ وَالْقُلُوبِ تَصْوِيرٌ لِنِفَاقِهِمْ وَتَوْضِيحٌ لِمُخَالَفَةِ ظَاهِرِهِمْ لِبَاطِنِهِمْ، وَ(مَا) عِبَارَةٌ عَنِ الْقَوْلِ، وَالْمِرَادُ بِهِ: إِمَّا نَفْسُ الْكَلَامِ الظَّاهِرِ فِي اللَّسَانِ تَارَةً وَفِي الْقَلْبِ أُخْرَى، فَالْمُنْبَتُّ وَالْمَنْفِيُّ مُتَّحِدَانِ ذَاتًا وَإِنْ

اختلفا مظهرًا، وإما القول الملقوط فقط فلم يفي حينئذ منشؤه الذي لا ينفك عنه القول أصلاً، وإما عبّر عنه به إبانة؛ لما بينهما من شدة الاتصال، أي يتفوهون بقول لا وجود له أو لمنشئه في قلوبهم أصلاً من الأباطيل التي من جملتها ما حكى عنهم آنفاً، فإنهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيء منهما: أحدهما: عدم العلم بالقتال. والآخر: الاتباع على تقدير العلم به، وقد كذبوا فيهما كذباً بيناً حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مُصِرِّين مع ذلك على الانحذار عازمين على الارتداد. وقال الشوكاني: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جملة مستأنفة مقررّة لمضمون ما تقدّمها، أي أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وذكر الأفواه للتأكيد، مثل قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال العثيمين: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يعني كما أنهم يأتون إلى النبي ﷺ، ويقولون: نشهد أنك لرسول الله، ويذكرون الله فيقولون: لا إله إلا الله، ويحضرون بعض الصلوات على أنهم مسلمون، فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فالذي في قلوبهم الكفر، والذي في أفواههم الإسلام.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: قال أبو حيان: أي من الكفر وعداوة الدين. وقال: ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنّ علمه تعالى بهم علم إحاطة بتفاصيل ما يكتُمونه وكيفياته، ونحن نعلم بعض ذلك علماً مجملاً. وتضمنت هذه الجملة التوعّد الشديد لهم؛ إذ المعنى: ترتّب الجزاء على علمه تعالى بما يكتُمون. وقال أبو السعود: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشرّ والفساد إثر بيان خلوها عما يوافقها. وصيغة التفضيل؛ لما أنّ بعض ما يكتُمونه من أحكام النفاق ودَمّ المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال، وأنّ تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الإلهي. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: يعني هو أعلم من غيره بما يكتُم هؤلاء؛ ولهذا أبدى الله ما يكتُمونه، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ خلاف بين

المفسرين، فمنهم من قال: إِنَّ ﴿أَعْلَمَ﴾ بمعنى علم، عالم بما يكتُمون؛ خوفاً من أن تقع المفاضلة بين علم المخلوق وعلم الخالق؛ لأنك إذا جئت بـ(أَفْعَل) التفضيل فإن مقتضى ذلك أن يكون بين المفضَّل والمفضَّل عليه اشتراك في الأصل، ولكن المفضَّل زاد على المفضَّل عليه؛ ولهذا تجدهم في مثل هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ يفسِّرون (أَعْلَمُ) بـ(عَالِم)، أي والله عالم بما يكتُمون. وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: أي بما يخفون في نفوسهم من الكفر، وأما ما يظهرون من الإسلام فهو معروف للمسلمين وغير المسلمين. والله عالم بما يكتُمون. ولكن هذا القول ضعيف. أولاً: لأنهم صرفوا اللفظ عن ظاهره؛ لأن اللفظ باسم التفضيل، والمعنى الذي أثبتوه باسم الفاعل، وبينهما فرق، ولا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره إلا بدليل. والثاني: أنهم إذا قالوا: عالم، لم يمنع المشاركة على وجه المماثلة؛ لأنه يقال: فلان عالم وفلان عالم، لكن إذا قيل: فلان أعلم من فلان، امتنعت المشاركة على وجه المماثلة؛ لظهور التفضيل، فهم الآن فروا من شيء ووقعوا في شر منه، ففروا من أن يطلقوا (أَعْلَمُ) على الله؛ لأنها تقتضي اشتراك المفضَّل والمفضَّل عليه في أصل المعنى، لكن وقعوا في معنى لا يمنع المشاركة على وجه المماثلة، وهذا شر. إذاً نقول: إِنَّ (أَعْلَمُ) اسم تفضيل على ظاهرها، ولا يستلزم ذلك شيئاً مما ينزه الله عنه، ونحن نعلم أن هناك اشتراكاً في العلم بين الخالق والمخلوق، لكن يمتاز الخالق بما يختص به، والمخلوق بما يختص به، فمثلاً الله يعلم أن هذا عمود من الحديد، والإنسان يعلم، لكن علم الله أشد إحاطة من علم الإنسان وأسبق، وهو علم لا يزول، فعلم الإنسان ليس كإحاطة علم الله، وليس أزلياً، وليس أبدياً، فيختص الخالق بعلمه والمخلوق بعلمه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

• قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أن الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾ وصفهم الله بأنهم كما قعدوا واحتجوا ليعودهم، فكذلك تبطوا غيرهم واحتجوا لذلك، فحكى الله عنهم أنهم قالوا لإخوانهم إن الخارجين لو أطاعونا ما قُتلوا، فحَوْفُوا مَنْ مُرَادُهُ مُوَافَقَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي مُحَارَبَةِ الْكُفَّارِ بِالْقَتْلِ لَمَّا عَرَفُوا مَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَتْلِ؛ لِأَنَّ الْمَعْلُومَ مِنَ الطَّبَاعِ مَحَبَّةُ الْحَيَاةِ، فَكَانَ وَقُوعُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي الْقُلُوبِ يَجْرِي مَجْرَى مَا يُورِدُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْوَسْوَاسِ.

وقال البقاعي: لَمَّا حَكَى عَنْهُمْ مَا لَا يَقُولُهُ ذُو إِيمَانٍ، أَتْبَعَهُ مَا لَا يَتَحَيَّلُهُ ذُو مُرُوءَةٍ وَلَا عِرْفَانٍ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

• تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾: قال مكِّي: أي وليعلم الله الذين نافقوا، وقالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين. ﴿وَقَعَدُوا﴾: أي قالوا ذلك وهم قعود عن الحرب مع النبي . عليه السلام .. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾: أي لو تأخروا معنا ما قتلوا هناك.

وقال ابن الجوزي: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ.

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: فِي إِخْوَانِهِمْ: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي التَّفَاقُقِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الثَّانِي: إِخْوَانُهُمْ فِي النَّسَبِ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَى: قَالُوا لِإِخْوَانِهِمُ الْمُنَافِقِينَ: لَوْ أَطَاعَنَا الَّذِينَ قَتَلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ مَا قُتِلُوا. وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ الْمَعْنَى: قَالُوا عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا بِأُحُدٍ: لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَعَدُوا﴾: يَعْني الْقَائِلِينَ قَعَدُوا عَنِ الْجِهَادِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: فِي مَحَلِّ ﴿الَّذِينَ﴾: وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: النَّصَبُ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾. وَثَانِيهَا: الرَّفْعُ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ

الضَّمِيرِ فِي ﴿يَكْتُمُونَ﴾. وَثَالِثُهَا: الرَّفْعُ عَلَى خَبَرِ الْإِبْتِدَاءِ بِتَقْدِيرِ: (هُمُ الَّذِينَ). وَرَابِعُهَا: أَنْ يَكُونَ نَصَبًا عَلَى الدَّمِّ. ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: قَالَ الْمَفْسِرُونَ: الْمَرَادُ بِ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ. وَقَالَ الْأَصَمُّ: هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي حَرَجَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجِهَادِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ فَهُوَ وَقَعَ فِي مَنْ قَدْ تَخَلَّفَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا﴾، أَيْ فِي الْقُعُودِ، ﴿مَا قُتِلُوا﴾، فَهُوَ كَلَامٌ مُتَأَخَّرٌ عَنِ الْجِهَادِ قَالَهُ لِمَنْ حَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ وَلِمَنْ هُوَ قَوِيُّ النِّيَّةِ فِي ذَلِكَ؛ لِيَجْعَلَهُ شُبْهَةً فِيمَا بَعْدَهُ صَارِفًا لَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ. ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أَيْ قَالُوا لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْمَرَادِ مِنْ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ، الْأُخُوَّةُ فِي النَّسَبِ، أَوْ الْأُخُوَّةُ بِسَبَبِ الْمِشَارَكَةِ فِي الدَّارِ، أَوْ فِي عَدَاوَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: مَعْنَاهُ لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ الْمَقْتُولُونَ مِنَ الْخَرْجِ، وَهُمْ إِخُوَّةُ نَسَبٍ وَمُجَاوِرَةٍ، لَا إِخُوَّةُ الدِّينِ، أَيْ قَالُوا لِهَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ: لَوْ قَعَدُوا، أَيْ بِالْمَدِينَةِ مَا قُتِلُوا. وَقِيلَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ لِإِخْوَانِهِمْ، أَيْ لِأَشْكَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: لَوْ أَطَاعُونَا، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا، لَمَا قُتِلُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يُرِيدُ فِي أَلَّا يَخْرُجُوا إِلَى قُرَيْشٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَعَدُوا﴾: أَيْ قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ وَقَعَدُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: هَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وَفُسِّرَ الْإِخْوَانُ هُنَا بِمَا فُسِّرَ بِهِ هُنَاكَ. وَتَحْتَمِلُ (لَا) الْجَرِّ مَا احْتَمَلَتْهُ فِي تِلْكَ. وَجَوَّزُوا فِي إِعْرَابِ الَّذِينَ وَجُوهًا: الرَّفْعُ عَلَى النَّعْتِ لِلَّذِينَ نَافَقُوا، أَوْ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَخْذُوفٍ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنَ (الْوَاوِ) فِي يَكْتُمُونَ، وَالنَّصْبُ عَلَى الدَّمِّ، أَيْ أَدُمُ الَّذِينَ، وَالْجَرُّ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي بِأَفْوَاهِهِمْ أَوْ فِي قُلُوبِهِمْ. وَالْجُمْلَةُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَعَدُوا﴾ حَالِيَّةٌ، أَيْ وَقَدْ قَعَدُوا. وَوُقُوعُ الْمَاضِي حَالًا فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ مَصْحُوبًا بِ(قَدْ)، أَوْ بِ(الْوَاوِ)، أَوْ بِهِمَا، أَوْ دُونَهُمَا ثَابِتٌ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ بِالسَّمَاعِ. وَمُتَعَلِّقُ الطَّاعَةِ: هُوَ تَرْكُ الْخُرُوجِ. وَالْقُعُودُ كَمَا قَعَدُوا هُمْ، وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِالْأَجَلَيْنِ، أَيْ لَوْ وَافَقُونَا فِي التَّخَلُّفِ وَالْقُعُودِ مَا قُتِلُوا،

كَمَا لَمْ نُقْتَلْ نَحْنُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾: أَيْ لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ. وَقَالَ الثَّعَالِيُّ: ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلَ مِنْ ﴿الَّذِينَ﴾ الْمُتَقَدِّمِ. ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أَيْ لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ، أَوْ فِي شَأْنِ إِخْوَانِهِمُ الْمَقْتُولِينَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لِإِخْوَانِهِمُ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْمَنَافِقِينَ، وَبِكَوْنِ الضَّمِيرِ فِي ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ لِلْمَقْتُولِينَ. ﴿وَقَعَدُوا﴾: جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، مُعْتَرِضَةٌ أَثْنَاءَ الْكَلَامِ. وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾: يَرِيدُونَ فِي الْأَوَّلِ يَخْرُجُوا. وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أَيْ هُمْ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ، عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ (وَإِ) يَكْتُمُونَ، أَوْ مَنْصُوبًا عَلَى الذَّمِّ، أَوْ وَضْعًا لِ(الَّذِينَ نَافَقُوا). وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، أَوْ صِفَةٌ لَهُ، إِذَا كَانَ مَضْمُونُ صِلَتِهِ أَشْهَرَ عِنْدَ السَّامِعِينَ؛ إِذْ لَعَلَّهُمْ عَرَفُوا مِنْ قَبْلِ يَقُولِهِمْ فِيمَا تَقَدَّمَ: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، فَذَكَرَ هُنَا وَضْعًا لَهُمْ؛ لِيَتَمَيَّزُوا كِمَالِ تَمْيِيزِ. وَ(اللَّامُ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لِلتَّغْلِيلِ، وَلَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ. وَالْمُرَادُ بِالْإِخْوَانِ هُنَا: عَيْنُ الْمُرَادِ هُنَاكَ، وَهُمْ الْخَزَرَجِيُّ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُمْ مِنْ جِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَجُمْلَةُ ﴿وَقَعَدُوا﴾ حَالٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَمَعْنَى ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾: أَيْ امْتَثَلُوا إِشَارَتَنَا فِي عَدَمِ الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ، وَفَعَلُوا كَمَا فَعَلْنَا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾: ﴿الَّذِينَ﴾ هُنَا بَدَلَ مِنْ ﴿الَّذِينَ﴾ السَّابِقَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، أَوْ صِفَةٌ، وَكَوْنُهَا صِفَةٌ أُولَى، بَلْ هُوَ الْمُتَعَيِّنُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَدَلَ يَكُونُ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْحُكْمِ دُونَ الْمُبْدَلِ مِنْهُ، فَإِذَا قُلْتُ: (أَكْرَمَ زَيْدًا عَمْرًا)، عَمْرًا بَدَلَ مِنْ زَيْدٍ، فَالَّذِي يُكْرَمُ عَمْرُو. وَإِذَا قُلْتُ: (كُلِّ الرِّغِيفِ ثُلُثَهُ)، يَأْكُلُ الثَّلَثَ، فَلَوْ أَكَلَ النِّصْفَ لِأَكَلَ السِّدْسَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَإِذَا قَالَ: أَنْتَ قُلْتَ لِي: (كُلِّ الرِّغِيفِ)، قُلْتُ: لَكِنِّي أَبَدَلْتُ وَقُلْتُ: (ثُلُثَهُ)، فَالسِّدْسُ الَّذِي أَكَلْتَهُ زَائِدٌ فَتَكُونُ آثَمًا، وَلِصَاحِبِ الرِّغِيفِ أَنْ يَطَالِبَكَ بِقِيَمَةِ السِّدْسِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ الْبَدَلَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْحُكْمِ، وَعَلَى هَذَا فَيَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ (الَّذِينَ) الثَّانِيَةَ صِفَةً لِ(الَّذِينَ) الْأُولَى، وَاسْمُ

الموصول يصح أن يكون صفة؛ لأنه بصلته يكون بمعنى المشتق. وقوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أي إخوانهم ظاهراً، هذا هو الصحيح. وقال بعضهم: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النسب. والمعنى الأول أصح؛ لأنهم لا يخاطبون إخوانهم في النسب فقط بل يخاطبون كل من استشهد في غزوة أحد، وليس كل من استشهد أحاً لواحد من المنافقين، فيكون المراد بإخوانهم: أي ظاهراً؛ لأن المنافقين مع المؤمنين كأهم مؤمنون؛ ولهذا لما استئذن النبي في قتلهم، قال: "لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" رواه الشيخان، إذاً فهم ظاهراً إخوان وأصحاب؛ فلهذا نقول في ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: الصواب: لإخوانهم ظاهراً؛ لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر. وقوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾: أي قعدوا عن القتال، والله يسمي المتخلفين عن القتال قعوداً، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]. والجملة في قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾ في محل نصب على الحال بتقديم (قد)، أي (وقد قعدوا)، وهذا أولى من أن نجعل الجملة معطوفة على الصلة، يعني (قالوا وقعدوا)؛ لأن قولهم حال كونهم قعوداً أشد، فهم جمعوا بين أمرين، بين السوء في القول والسوء في الفعل. حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾: أي لو أطاعوهم بعدم الخروج؛ لأن المنافقين أشاروا بعدم الخروج ولكن النبي والصادقين من المؤمنين أبوا إلا أن يخرجوا، وفي أثناء الطريق انخدل عبد الله بن أبي ومن معه بثلاث العسكر فتخلفوا؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: قال مكِّي: قال الله لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي في قولكم: إن إخوانكم لو قعدوا عنكم ما قتلوا، أي ادفعوا عن أنفسكم الموت، وهذا أقرب؛ لأن من قدر أن يدفع الموت عن غيره فهو إلى دفعه عن نفسه أقرب. قال قتادة: نزلت في عدو الله: عبد الله بن أبي بن سلول، قال ذلك فيمن قتل مع النبي بأحد من قرابته وأهل

معرفته. وقال الماوردي: في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قولان: أحدهما: يعني في خبركم أنهم لو أطاعوا ما قُتلوا. الثاني: معناه: إن كنتم مُحَقِّقِينَ في تَبْطِيطِكُمْ عَنِ الْجِهَادِ فِرَارًا مِنَ الْقَتْلِ. وقال ابن الجوزي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَادْرُءُوا﴾: أي فادفعوا. ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْقَدَرِ. وقال الرازي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: يعني إن كنتم صَادِقِينَ في كَوْنِكُمْ مُشْتَغِلِينَ بِالْحَذَرِ عَنِ الْمَكَارِهِ، وَالْوُصُولِ إِلَى الْمَطَالِبِ. وقال القرطبي: ﴿قُلْ فَادْرُءُوا﴾: أي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنْ صَدَقْتُمْ فَادْفَعُوا الْمَوْتَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ. وَالذَّرْءُ الدَّفْعُ. بَيَّنَّ هَذَا أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَدَرِ، وَأَنَّ الْمَقْتُولَ يُقْتَلُ بِأَجَلِهِ، وَمَا عَلَّمَ اللَّهُ وَأَخْبَرَ بِهِ كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ. وَقِيلَ: مَاتَ يَوْمَ قَيْلٍ هَذَا سَبْعُونَ مُنَافِقًا. وقال أبو حيان: ﴿قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: الْقَتْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ سَبِيلٌ إِلَى دَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ بِفِعْلِ اخْتِيَارِيٍّ فَادْفَعُوا عَنْهَا الْمَوْتَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ فِي دَعْوَاكُمْ. وَالذَّرْءُ: الدَّفْعُ. وَالْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ التَّحْيِيلَ وَالتَّحَرُّزَ يُنْجِي مِنَ الْمَوْتِ، فَجِدُّوا أَنْتُمْ فِي دَفْعِهِ، وَلَنْ تَجِدُّوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُمْ بَعْضُ أَسْبَابِ الْمَوْتِ. وَهَبَ أَنْتُمْ عَلَى زَعْمِكُمْ دَفْعُكُمْ بِالْقُعُودِ هَذَا السَّبَبَ الْخَاصَّ، فَادْفَعُوا سَائِرَ أَسْبَابِ الْمَوْتِ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ لَكُمْ أَلْبَتَّةَ. وقال ابن كثير: ﴿قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَيِ إِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي أَنْتُمْ لَا تَمُوتُوا، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالَ مُجَاهِدٌ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: "نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سُلُوفٍ". وقال ابن عاشور: ﴿قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَيِ ادْرُءُوهُ عِنْدَ حُلُولِهِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بَعِيْرَهُ، أَيِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّ سَبَبَ مَوْتِ إِخْوَانِكُمْ هُوَ عَصِيَانُ أَمْرِكُمْ. وقال العثيمين: ﴿قُلْ﴾: أي يا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ. ﴿فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

﴿فَادْرَأُوا﴾: بمعنى ادفعوا، يعني لما تخلفتم هل أنتم نجوتم من الموت؟. الجواب: لا. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا من باب التحدي، يعني إن كنتم صادقين في أن من تخلف لا يموت فادفعوا عن أنفسكم الفوت، والجواب: أنهم لا يستطيعون ذلك. وفي ختم هذا التحدي ﴿فَادْرَأُوا﴾ قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لكذبهم في قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾: يعني هم لو تخلفوا فالموت سيأتيهم.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾ (١٦٩):

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: اختلفوا في سبب نزولها على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الشهداء بعد استشهادهم سألوا الله أن يُخبر إخوانهم بمصيرهم، قاله ابن عباس. الثاني: أن رجلاً قال: يا ليتنا نعلم ما لقي إخواننا الذين استشهدوا، فنزلت، قاله مقاتل. الثالث: أن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور، تحسروا، وقالوا: نحن في النعمة والسرور، وأبائنا، وأبنائنا، وإخواننا، في القبور، فنزلت هذه الآية، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قال ابن الجوزي: واختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في شهداء أحد، روى ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: "لما أُصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ، تردُّ أثمار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديلٍ من ذهبٍ مُعلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم ومشرَبهم، وحسن مَقِيلهم، قالوا: ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يُنكَلُوا عن الحرب، قال الله تعالى: أنا أُبلِّغهم عنكم، فأنزل الله هذه الآية" وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي الضحى.

التَّانِي: أَهْمَا نَزَلَتْ فِي شَهْدَاءِ بَدْرٍ لَمَّا أَفْضَوْا إِلَى كَرَامَةِ اللَّهِ وَقَالُوا: رَبُّنَا أَعْلَمُ إِخْوَانَنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ.

الثَّالِثُ: أَهْمَا نَزَلَتْ فِي شَهْدَاءِ بَيْرِ مَعُونَةَ. رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ أَشْيَاخٍ لَهُ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ الْمُنْدِرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ، فَلَمَّا نَزَلُوا بِبَيْرِ مَعُونَةَ، خَرَجَ حَرَامٌ بْنُ مِلْحَانَ إِلَى عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ بِكِتَابِ رَسُولٍ، فَلَمْ يَنْظُرْ فِيهِ عَامِرٌ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ كَسْرِ الْبَيْتِ بِرُمَحٍ، فَضَرَبَ بِهِ فِي جَنْبِ حَرَامٍ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَقَتَلَ سَائِرَ أَصْحَابِهِ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿بَلِّغُوا قَوْمَنَا عَنَّا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ﴾، ثُمَّ رُفِعَتْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الشوكاني: لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ مَا جَرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ امْتِحَانًا؛ لِيَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالكَاذِبُ مِنَ الصَّادِقِ، بَيَّنَّ هَاهُنَا أَنَّ مَنْ لَمْ يَنْهَزِمَ وَقُتِلَ فَلَهُ هَذِهِ الْكَرَامَةُ وَالنِّعْمَةُ، وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ، لَا مِمَّا يُخَافُ وَيُحْذَرُ.

وقال القاسمي: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسْئُوقٌ لِبَيَانِ أَنَّ الْقَتْلَ الَّذِي يَحْذَرُونَهُ وَيُحْذَرُونَ النَّاسَ مِنْهُ، لَيْسَ مِمَّا يُحْذَرُ، بَلْ هُوَ مِنْ أَجْلِ الْمَطَالِبِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ، إِثْرَ بَيَانِ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يُجْدِي وَلَا يُعْنِي.

● تفسير الآية:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: قال الواحدي: اختلفوا في كيفية حياة الشهداء: فالأصح ما ذكرنا عن النبي ﷺ: "أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجَوافِ طَيْرٍ خَضِرٍ.. أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَأَنَّهُمْ يُرْزَقُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ. وقال جماعة من أهل العلم: معنى قوله: ﴿أَحْيَاءٌ﴾: أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ أُحْضِرَتْ دَارَ السَّلَامِ، وَأَرْوَاحُ غَيْرِهِمْ لَا تَشْهَدُهَا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ. وقال آخرون: لَا

تحبسهم أمواتاً في الدين والإيمان، بل هم أحياء، كما قال تعالى: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وهذا الوجه اختيار أبي إسحاق. وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء من المؤمنين الذين باتوا على الوضوء. وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: فيه وجهان: أحدهما: بحيث لا يملك لهم أحد نفعا ولا ضرا، إلا الله. الثاني: هم أحياء عند ربهم، أي في علمه بعملهم، كما تقول: (هذا عند الشافعي كذا)، أي في علمه وقوله. وقل: معنى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أنهم أحياء في دار كرامته، فمعنى (عند): معنى القرب والإكرام، بحضور دار السلام. وقال ابن عطية: أخبر الله في هذه الآية عن الشهداء: أنهم في الجنة يُرْزَقُونَ، هذا موضع الفائدة، ولا محالة أنهم مأثوا، وأن أجسادهم في الثراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفُضِّلُوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم. فقوله تعالى: ﴿بَلْ أحيَاءُ﴾ مُقَدِّمَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ إذ لا يُرْزَقُ إلا حي، وهذا كما تقول لمن دم رجلا: (بل هو رجل فاضل)، فتجيء باسم الجنس الذي تركب عليه الوصف بالفضل. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: عند كرامة ربهم؛ لأن (عند) تقتضي غاية القرب؛ ولذلك لم تُصَغَّرْ، قاله سيبويه، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: "أرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خضرٍ تردُّ أمهار الجنة وتأكل من ثمارها" أخرجه الطبراني، وصححه الألباني. وقال أبو السعود: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾: كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسْئُوقٌ لبيان أن القتل الذي يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يُحَذَّرُ بل هو من أجل المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون إثر بيان أن الحذر لا يجدي ولا يغني. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب. ﴿بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: المراد بالعندية: التقرب والرُفَى. وفي التَّعَرُّضِ لِعُنوانِ الربوبية المنيعة عن التَّريية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم: مزيد تكرمهم. ﴿يُرْزَقُونَ﴾: أي من الجنة. وقال السعدي: هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من

فضله وإحسانه، وفي ضمنها: تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾: أي في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله. ﴿أَمْوَاتًا﴾: أي لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بَلْ﴾: قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: في دار كرامته. ولفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم. ﴿يُزَكُّونَ﴾: أي من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم. وقال ابن عاشور: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: الخطابُ يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ تَعْلِيمًا لَهُ؛ وَلِيُعَلِّمَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي عَدَمِ إِرَادَةِ مُحَاطَبِ مُعَيَّنٍ. وَالْحُسْبَانُ: الظَّنُّ فَهُوَ نَهْيٌ عَنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ وَبِالْآخَرِ يَكُونُ نَهْيًا عَنْ الْجَدْمِ بِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ لِلإِضْرَابِ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾؛ فَلِذَلِكَ كَانَ مَا بَعْدَهَا جُمْلَةً غَيْرُ مُفْرَدٍ؛ لِأَنَّهَا أَضْرَبَتْ عَنْ حُكْمِ الْجُمْلَةِ وَلَمْ تُضْرَبْ عَنْ مُفْرَدٍ مِنَ الْجُمْلَةِ، فَالْوَجْهُ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا أَنْ تَكُونَ اسْمِيَّةً مِنَ الْمُبْتَدَأِ الْمَحْذُوفِ وَالْخَبَرِ الظَّاهِرِ، فَالتَّقْدِيرُ: بَلْ هُمْ أَحْيَاءُ؛ وَلِذَلِكَ قَرَأَهُ السَّبْعَةُ بِالرَّفْعِ، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ فِعْلِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: بَلْ أَحْسَبْتُمْ أَحْيَاءَ، وَأَنْكَرَهَا أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ. وَقَدْ أَثْبَتَ الْقُرْآنُ لِلْمُجَاهِدِينَ مَوْتًا ظَاهِرًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُتِلُوا﴾، وَنَفَى عَنْهُمْ الْمَوْتَ الْحَقِيقِيَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُزَكُّونَ﴾، فَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَمْوَاتَ الْأَجْسَامِ فَهُمْ أَحْيَاءُ الْأَرْوَاحِ، حَيَاةً زَائِدَةً عَلَى حَقِيقَةِ بَقَاءِ الْأَرْوَاحِ، غَيْرَ مُضْمَحَلَّةٍ، بَلْ هِيَ حَيَاةٌ بِمَعْنَى تَحْقُوقِ آثَارِ الْحَيَاةِ لِأَرْوَاحِهِمْ مِنْ حُصُولِ اللَّذَاتِ وَالْمَذَرَكَاتِ السَّارَةِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَمَسَرَّتِهِمْ بِإِخْوَانِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ حَيَاتَهُمْ خَاصَّةٌ بِهِمْ، لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَاةُ الْمَتَعَارَفَةُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، أَغْنَى حَيَاةَ الْأَجْسَامِ وَجَرَيَانَ الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ، وَنَبْضَاتِ الْقَلْبِ، وَلَا هِيَ حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ الثَّابِتَةُ لِأَرْوَاحِ جَمِيعِ

النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الرِّزْقُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُلَائِمًا لِحَيَاةِ الْأَرْوَاحِ وَهُوَ رِزْقُ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ. فَإِنْ عَلَّقْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحْيَاءُ﴾ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ، فَلَا مُرَّ ظَاهِرُ، وَإِنْ عَلَّقْنَاهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ فَكَذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ لَمَّا كَانَ الرِّزْقُ النَّاشِئُ عَنْهَا كَائِنًا عِنْدَ اللَّهِ، كَانَتْ حَيَاةً غَيْرَ مَادِّيَّةٍ وَلَا دُنْيَوِيَّةٍ، وَحِينَئِذٍ فَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ؛ لِإِلَهْتِمَامِ بِكَيُونَةِ هَذَا الرِّزْقِ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: الْخَطَابُ هُنَا إِمَّا لِلرَّسُولِ ﷺ أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْحَحُ تَوْجِيهَ الْخَطَابِ إِلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ لِكُلِّ مَنْ يَصْحَحُ تَوْجِيهَ الْخَطَابِ إِلَيْهِ دَخَلَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ وَغَيْرُهُ، وَإِنْ كَانَ خُطَابًا لِلنَّبِيِّ دَخَلَ فِيهِ غَيْرُهُ بِالتَّبَعِ، فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ قَصْدًا أَوَّلِيًّا بِهَذَا الْخَطَابِ: النَّبِيِّ، وَغَيْرِهِ تَبَعًا لَهُ، أَمَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْخَطَابَ مُوجَّهَ لِكُلِّ مَنْ يَصْحَحُ تَوْجِيهَ الْخَطَابِ إِلَيْهِ فَهُوَ عَامٌّ، يَعْنِي: (فَلَا تَحْسَبَنَّ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ) هَذَا عَلَى الثَّانِي، أَوْ (لَا تَحْسَبَنَّ أَيُّهَا النَّبِيُّ)، هَذَا عَلَى الْأَوَّلِ. وَالْحَسْبَانِ هُنَا بِمَعْنَى: الظَّرْفِ، أَيْ لَا تَنْظُرَنَّ أَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا. وَقَوْلُهُ: ﴿فُقُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَشْمَلُ مَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ وَمَنْ قُتِلَ حِرْزَةً لِلْعَدُوِّ، كَمَا لَوْ ارْتَدَّ السَّهْمُ عَلَى حَامِلِهِ فَقَتَلَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مَقْتُولًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بَيَّنَّهَا الرَّسُولُ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .، بِأَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَذَلِكَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، وَفِي لَفْظٍ: يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ. إِذَا مَا الْمُرَادُ بِالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟. الْجَوَابُ: هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، لَا شَجَاعَةً وَلَا حِمِيَّةً وَلَا رِيَاءً. وَالشَّجَاعَةُ مَعْنَاهَا: الْإِنْسَانُ تَحْمِلُهُ شَجَاعَتُهُ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ؛ لِأَنَّ الشَّجَاعَ يُحِبُّ الْقِتَالَ، وَكَذَا مَنْ قَاتَلَ حِمِيَّةً وَطَنِيَّةً أَوْ قَوْمِيَّةً فَلَيْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ قَاتَلَ لِأَجْلِ الدِّفَاعِ عَنِ الدِّيَارِ فَقَطْ، فَقِتَالُهُ مَسَاوٍ لِقِتَالِ الْكَافِرِ، حَتَّى الْكَفَّارُ يُقَاتِلُونَ دِفَاعًا عَنِ بِلَادِهِمْ، لَكِنْ مَنْ قَاتَلَ دِفَاعًا عَنِ بِلَدِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ بِلَدٌ إِسْلَامِيَّةٌ؛ لِيَحْمِيَ الْإِسْلَامَ فِي هَذَا الْقِتَالِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ إِذَا وَجَّهْنَا جُنْدَنَا لِلدِّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ أَنْ نَقُولَ: لَاحْظُوا

أنكم تُدافعون عن وطنكم باعتباره وطنًا إسلاميًا لا لمجرد الوطنية. الثالث: من قاتل رياءً ليرى أنه رجل يُقاتل في سبيل الله، هذا ليس في سبيل الله، وكذا من قاتل لمجرد طاعة أمير فقط، فليس في سبيل الله. فالرسول ﷺ سئل عن ثلاثة ولم يُجب عن كل واحدة بعينها، بل أجاب بكلمة جامعة مانعة، لأجل أن تشمل حتى النيات الأخرى سوى هذه الثلاث: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" رواه الشيخان. وهؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله هل هم أهل بدر، أو أهل أحد، أو هو عام؟. الجواب: أنه عام، لكن أول من يدخل فيه الشهداء في بدر وفي أحد. وقوله: ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾: أي طريقه، وقد يطلق ويُضاف أحياناً إلى المؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥]، فهو يُضاف إلى الله باعتبارين: باعتبار أنه واضعه، فالله هو الذي شرع هذا الطريق، وباعتبار أنه موصلٌ إليه، أي أنّ هذا الطريق موصل إلى الله. ويُضاف إلى المؤمنين باعتبار واحد، وهو أنهم هم الذين سلكوه. هنا المضاف إلى الله باعتبار أنّ الله هو الذي شرع هذا الدين، وأنّ هذا الدين موصل إليه. ﴿أَمْوَاتًا﴾: هذا مفعول ثانٍ لـ (تَحَسَّبَ)؛ لأن (حَسِبَ) تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف (كسا - وأعطى) فإنهما تنصبان مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر. يقول: ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾: المعروف: أنه إذا قُتل مات، فكيف يقال: إنهم أحياء؟ المراد: أي لا تحسبن أنهم إذا ماتوا انتهوا، بل هم إذا ماتوا انتقلوا إلى حياة أخرى أفضل ممّا فارقوه، فيكون المعنى: لا تحسبهم ماتوا وانتهوا، ليس الأمر كذلك بل هم أحياء ماتوا ميتة الدنيا، لكنهم هم أحياء حياة أخرى تتميز عن الحياة الدنيا، وهي خير وأفضل. وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: (عِنْدَ): تُفيد القرب من الله، وهو كذلك، فإنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، فهذه عندية خاصة يمتاز فيها بالقرب من الله، فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾: المراد بذلك: حياة أرواحهم، أمّا أبدانهم فقد ماتت بلا شك لكن أرواحهم حيّة حياة برزخية؛ ولهذا قال:

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وليست الحياة المطلقة التي هي كالحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت الحياة الدنيا لم يصيروا قُتِلُوا في سبيل الله بل كانوا باقين، ولما صحَّ أن يُدْفَنُوا، وهم فارقوا الدنيا ودُفِنُوا، ولكنَّهم أحياء عند الله حياة لا تُشبه حياة الدنيا. وقوله: ﴿يُزْرَقُونَ﴾: أي يُعْطُونَ؛ لأن الرزق في اللغة العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ﴾ [النساء: ٨]، أي أعطوهم، يعني يعطون من رزق الله في الجنة حيث شاءوا، ولكن هذا العطاء ناقص بالنسبة للعطاء الأكمل الذي يكون بعد البعث؛ لأن العطاء قبل القيامة عطاء للبدن وعطاء للروح، وكلاهما ناقص بالنسبة لما بعده. فهو عطاء للبدن؛ لأنه في القبر يُفسح له مدَّ البصر، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها، لكنَّه لا يتمتَّع التمتع الكامل، كذلك الأرواح لا تتمتَّع التمتع الكامل في وجودها في الجنة، إنما يكون التمتع الكامل بعد البعث حين تلتقي الأرواح بالأجساد اللقاء الذي لا مفارقة بعده؛ لأنه إذا التقت الأرواح في البعث فلا مفارقة، تبقى أبد الأبدین، وحينئذٍ يحصل كمال النعيم.

- قال الله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠):
- مناسبة الآية للتي قبلها:

لا زال السياق في ذكر شيء من إكرام الله للشهداء في سبيله. قال الشوكاني: وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿يُزْرَقُونَ﴾، وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ.

- تفسير الآية:

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: قال الواحدي: الاستبشار: السرور بالبشارة يُبَشِّرُ بها. وأصل

الاستفعال: طَلَبُ الفعل. فالمستبشر بمنزلة الذي طَلَبَ الشُّرُورَ فوجده بالبشارة. وفي هذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يفرحون بإخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء، يقولون: إخواننا يُقْتَلُونَ كما قُتِلْنَا، فَيُصِيبُونَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ مَا أَصَبْنَا. وهذا قول: الحسن، وابن جريج، وقتادة، واختيار الفراء. الثاني: يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم في الفضل؛ لأنهم لم يُقْتَلُوا في سبيل الله، إلا أن لهم فضلاً عظيماً بتصديقهم النبي ﷺ، وإيمانهم بالله، عِلِمُوا ذلك بإعلام الله إياهم، أن أولئك الإخوان الذين حَلَفُوهم في الدنيا، هم مرحومون عند الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالشهداء يفرحون بذلك ويستبشرون. وهذا القول، اختيار أبي إسحاق. الثالث: ما قاله السُّدِّي: وهو أن الشهيد يؤتى بكتاب فيه ذِكْرٌ مَنْ يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيقال: يَقْدَمُ عليك فلانٌ يومَ كذا، وفلانٌ يومَ كذا، فَيَسْتَبْشِرُ بهم حين يقدمون عليه، كما يستبشر أهلُ الغائب بقدومه في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: موضع (أن): خفض؛ لأن المعنى: (بأن لا خوف عليهم). هذا قول الخليل، والكسائي، والزجاج. ويجوز أن يكون نصباً، على أنه لَمَّا حُذِفَ الجارُّ نُصِبَ بالفعل، كما قال: (أمرتك الخير)، أي بالخير، وهذا هو القياس. وقال ابن الجوزي: ﴿فَرِحِينَ﴾: قال ابنُ قُتَيْبَةَ: الفَرْحُ: المِسْرَةُ. فَأَمَّا الَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ، فَمَا نَالُوا مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ، وَالْإِسْتِبْشَارُ: الشُّرُورُ بِالْبِشَارَةِ. ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: إخوانهم مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وفي سَبَبِ اسْتِبْشَارِهِمْ بِهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ اللَّهَ مَا أَخْبَرَ بِكَرَامَةِ الشُّهَدَاءِ، أَخْبَرَ الشُّهَدَاءَ بِأَنِّي قَدْ أُنْزِلْتُ عَلَى نَبِيِّكُمْ، وَأَخْبَرْتُهُ بِأَمْرِكُمْ، فَاسْتَبْشَرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ إِخْوَانَهُمْ سَيَحْرِصُونَ عَلَى الشَّهَادَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. الثَّانِي: يَسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يَرْجُونَ لَهُمُ الشَّهَادَةَ، يَقُولُونَ: إِنْ قُتِلُوا نَالُوا مَا نَلْنَا مِنَ الْفَضْلِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. الثَّالِثُ: أَنَّ الشَّهِيدَ يُؤْتَى بِكِتَابٍ فِيهِ ذِكْرٌ مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَهْلِهِ، وَفِيهِ يُقَدَّمُ عَلَيْكَ فَلَانٌ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَيَسْتَبْشِرُ بِقُدُومِهِ، كَمَا يَسْتَبْشِرُ أَهْلُ الْغَائِبِ، بِهِ هَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ. وَ(الهاء، والميم) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تَعُودُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ. قَالَ

الْقَرَاءُ: مَعْنَاهُ: يَسْتَبْشِرُونَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ، وَلَا حُزْنَ. وَفِي مَاذَا يَرْتَفِعُ الْخَوْفُ، وَالْحُزْنُ عَنْهُمْ؟ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فَيَمْنُ حَلْفُوهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا حَلَفُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ. الثَّانِي: لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا فَرَحًا بِالْآخِرَةِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿فَرِحِينَ﴾: نَصَبَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُزْزَقُونَ﴾. وَهُوَ مِنَ الْفَرَحِ بِمَعْنَى السُّرُورِ. وَالْفَضْلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ النَّعِيمُ الْمَذْكُورُ. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الْمَعْنَى: لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ فَضْلٌ. وَأَصْلُهُ مِنَ الْبَشَرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَرِحَ ظَهَرَ أَثَرُ السُّرُورِ فِي وَجْهِهِ. قِيلَ: إِنَّ الْإِشَارَةَ بِالِاسْتِبْشَارِ لِلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ إِلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ يُقْتُلُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا ثَوَابَ اللَّهِ وَقَعَ الْيَقِينُ بِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يُثِيبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُمْ فَرِحُوا لِأَنفُسِهِمْ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، مُسْتَبْشِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الرَّجَاجُ وَابْنُ فُورَكٍ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أَيُّ مَسْرُورِينَ بِمَا أُعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ قُرْبِهِ، وَدُخُولِ جَنَّتِهِ، وَزَرْقَهُمْ فِيهَا، إِلَى سَائِرِ مَا أَكْرَمَهُمْ بِهِ. وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ: ﴿فَرِحِينَ﴾، وَبَيْنَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فِي قِصَّةِ قَارُونَ؛ لِأَنَّ ذَاكَ بِالْمَلَاذِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهَذَا بِالْمَلَاذِ الْآخِرَوِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وَجَاءَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وَ(مِنْ) هُنَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِلْسَّبَبِ، أَيُّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مُتَسَبِّبٌ عَنْ فَضْلِهِ، فَتَتَعَلَّقُ (الْبَاءُ) بِقَوْلِهِ: ﴿آتَاهُمْ﴾. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، فَتَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَحْدُوفِ الْعَائِدِ عَلَى (مَا)، أَيُّ بِمَا آتَاهُمُوهُ اللَّهُ كَائِنًا مِنْ فَضْلِهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، فَتَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿آتَاهُمْ﴾. وَجَوَّزُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرِحِينَ﴾ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُزْزَقُونَ﴾، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَحْيَاءٍ﴾، وَأَنْ يَكُونَ صِفَةً لِقَوْلِهِ: ﴿أَحْيَاءٍ﴾ إِذَا نُصِبَ. وَمَعْنَى: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أَيُّ

قَدْ بَقُوا بَعْدَهُمْ وَهُمْ قَدْ تَقَدَّمُوهُمْ، إِذَا كَانَ الْمَعْنَى ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ الشُّهَدَاءُ، وَإِنْ
 كَانَ الْمَعْنَى بِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَعْنَى ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أَيْ لَمْ يُدْرِكُوا فَضْلَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ.
 ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: هُمْ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ يَحْصُلُ لَهُمْ
 الْبُشْرَى بِإِنْتِفَاءِ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الشَّهَادَةِ، فَهُمْ
 فَرِحُونَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ، مُسْتَبْشِرُونَ بِمَا يَحْصُلُ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَه الرَّجَّاجُ، وَابْنُ فُورَكٍ،
 وَغَيْرُهُمَا. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَالرَّبِيعُ، وَغَيْرُهُمْ: هُمُ الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ يَأْتُوهُمْ بَعْدُ مِنْ
 إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَرَكُوهُمْ يُجَاهِدُونَ فَيَسْتَشْهِدُونَ، فَرِحُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَلِمَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ
 مِنَ الشُّهَدَاءِ، إِذْ يَصِيرُونَ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ الشُّهَدَاءُ
 الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعِبْطَةِ،
 وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا
 يَخَافُونَ بِمَا أَمَامَهُمْ وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:
 ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: أَيْ وَيُسِرُونَ بِالْحَقِ مَنْ خَلْفَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ عَلَى مَا مَضَوْا عَلَيْهِ مِنْ
 جِهَادِهِمْ؛ لِيُشْرِكُوهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَاهُمْ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ اشْتِمَالٍ مُبَيَّنٍّ لِكَوْنِ
 اسْتِبْشَارِهِمْ بِحَالِ إِخْوَانِهِمْ لَا بِذَوَاتِهِمْ. وَ(أَنْ) هِيَ الْمَحَقَّةُ مِنْ (أَنَّ)، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّانِ
 الْمَحْذُوفِ، وَخَبَرُهَا الْجُمْلَةُ الْمَنْفِيَّةُ، أَيْ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ حَالِ إِخْوَانِهِمْ
 الَّذِينَ تَرَكُوهُمْ وَهُوَ أَنَّهُمْ عِنْدَ قَتْلِهِمْ يَفُوزُونَ بِحَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ لَا يُكَدِّرُهَا خَوْفٌ وَفُجَعٌ مَحْذُورٌ وَلَا
 حُزْنٌ فَوَاتٍ مَطْلُوبٌ، أَوْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَتْلِ، فَإِنَّهُ عَيْنُ الْحَيَاةِ الَّتِي يَجِبُ
 أَنْ يُرْعَبَ فِيهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ تُخَافَ وَتُحْذَرُ، أَيْ لَا يَغْتَرِبُهُمْ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ لَا أَنَّهُ يَغْتَرِبُهُمْ
 ذَلِكَ لَكِنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ، وَالْمَرَادُ: بَيَانُ دَوَامِ انْتِفَاءِ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ، لَا بَيَانُ انْتِفَاءِ
 دَوَامِهِمَا كَمَا يُوهَّمُهُ كَوْنُ الْخَبَرِ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ مُضَارِعًا، فَإِنَّ النَّفْيَ وَإِنْ دَخَلَ عَلَى نَفْسِ
 الْمِضَارِعِ يُفِيدُ الدَّوَامَ وَالِاسْتِمْرَارَ بِحَسَبِ الْمَقَامِ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَرِحِينَ﴾ حَالٌ مِنَ

الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ﴾. وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ. والمرادُ ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: أي ما ساقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَرَامَةِ بِالشَّهَادَةِ، وما صارُوا فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ، وما يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أي مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا إِذْ ذَاكَ. فالمرادُ بِاللَّحُوقِ هُنَا: أَنَّهُمْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْقَتْلِ وَالشَّهَادَةِ، بَلْ سَيَلْحَقُونَ بِهِمْ مِنْ بَعْدُ. وقيل: المرادُ: لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْفَضْلِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ فَضْلٍ فِي الْجُمْلَةِ. و(الواو) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ عَاطِفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ﴾، أَي يُرْزَقُونَ وَيَسْتَبْشِرُونَ. وقيل: المرادُ بِ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾ هُنَا: جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ الشُّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَانَتُوا ثَوَابَ اللَّهِ وَحَصَلَ لَهُمُ الْيَقِينُ بِحَقِّيَّةِ دِينِ الْإِسْلَامِ اسْتَبْشَرُوا بِذَلِكَ لَجَمِيعِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ هُمْ أَحْيَاءٌ لَمْ يَمُوتُوا وَهَذَا أَقْوَى؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَوْسَعُ وَفَائِدَتُهُ أَكْثَرُ، وَاللَّفْظُ يَحْتَمِلُهُ بَلْ هُوَ الظَّاهِرُ، وَبِهِ قَالَ الرَّجَاجُ وَابْنُ فُورَكٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾، أَي يَسْتَبْشِرُونَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الْحَاصِلَةِ لِإِخْوَانِهِمْ مِنْ أَنَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا حُزْنٌ، وَ(أَنْ) هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ الْمَحْذُوفُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَرَحِينَ﴾: جُوزَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ﴾، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَحْيَاءٌ﴾، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ، وَأَنْ يَكُونَ نَصْبًا عَلَى الْمَذْحِ. ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: بَعْدَ انْتِقَالِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا آتَاهُمُ﴾، وَ(مِنْ) إِمَّا لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَوْ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَحْذُوفِ الْعَائِدِ عَلَى الْمَوْضُولِ، وَ(مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، وَالتَّقْدِيرُ بِمَا آتَاهُمُوهُ حَالٌ كَوْنِهِ كَائِنًا بَعْضُ فَضْلِهِ. والمرادُ بِهَذَا الْمُؤْتَى: ضَرْبُ النِّعَمِ الَّتِي يَنَالُهَا الشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ بَعْدَ الشَّهَادَةِ، أَوْ نَفْسُ الْفَوْزِ بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: أَي يُسْرُونَ بِالْبِشَارَةِ، وَأَصْلُ الْإِسْتِيشَارِ: طَلَبُ الْبِشَارَةِ، وَهُوَ الْحَبْرُ السَّارُّ، إِلَّا أَنَّ الْمَعْنَى هُنَا عَلَى السُّرُورِ اسْتِعْمَالًا لِلْفَظِّ فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ، وَهُوَ اسْتِئْنَاءٌ، أَوْ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَحِينَ لِتَأْوِيلِهِ﴾ (يَفْرَحُونَ)، وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ

في ﴿فَرِحِينَ﴾، أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ فِي ﴿آتَاهُمْ﴾، وَإِنَّمَا اخْتِيجَ إِلَى تَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ عِنْدَ
 جَعْلِهَا حَالًا؛ لِأَنَّ الْمِضَارِعَ الْمُثَبَّتَ إِذَا كَانَ حَالًا لَا يَقْتَرِنُ بِ(الواو). ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ﴾: أَيِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا بَعْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَلْحَقُوا بِهِمْ. ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: بَدَلٌ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ اشْتِمَالٍ مُبَيَّنٍّ لِكَوْنِ اسْتِبْشَارِهِمْ بِحَالِ إِخْوَانِهِمْ
 لَا بِذَوَاتِهِمْ، أَيِ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ حَالِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَرَكُوهُمْ أَحْيَاءَ،
 وَهُوَ أَتَمُّ عِنْدَ قَتْلِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَفُوزُونَ كَمَا فَازُوا، وَيَحُوزُونَ مِنَ النَّعِيمِ كَمَا حَازُوا، وَإِلَى
 هَذَا ذَهَبَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَقَتَادَةُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيِ لِفَلَا، أَوْ بِأَنْ لَا وَهُوَ
 مَعْمُولٌ لـ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَاقِعٌ مَوْقَعُ الْمَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ، أَيِ يَسْتَبْشِرُونَ بِقُدُومِ إِخْوَانِهِمْ
 الْبَاقِينَ بَعْدَهُمْ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ إِنْ لَحَّ، فَالِاسْتِبْشَارُ حِينَئِذٍ لَيْسَ بِالْأَحْوَالِ. وَقَالَ
 الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: يَعْنِي بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ
 وَالْإِحْسَانِ الَّذِينَ لَا يَعْتَمُّ فِيهِ بِسَلْبِهِ. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾: أَيِ إِخْوَانِهِمُ الْمُجَاهِدِينَ
 الَّذِينَ: ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، أَيِ لَمْ يُقْتَلُوا فَيَلْحَقُوا بِهِمْ. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لَمْ
 يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ بَقُوا مِنْ بَعْدِهِمْ وَهُمْ قَدْ تَقَدَّمُوهُمْ. أَوْ مَعْنَى: ﴿لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ﴾، أَيِ لَمْ يُدْرِكُوا فَضْلَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ. ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: بَدَلٌ مِنَ
 الَّذِينَ، بَدَلٌ اشْتِمَالٍ مُبَيَّنٍّ أَنَّ اسْتِبْشَارَهُمْ بِحَالِ إِخْوَانِهِمْ لَا بِذَوَاتِهِمْ، وَالْمَعْنَى: وَيَسْتَبْشِرُونَ
 بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حَالِ مَنْ تَرَكُوا خَلْفَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ آمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
 بِشَرِّهِمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَهُمْ مُسْتَبْشِرُونَ بِهِ. وَفِي ذَلِكَ حَالُ الشُّهَدَاءِ وَاسْتِبْشَارُهُمْ بِمَنْ خَلَفَهُمْ
 بَعَثَ لِلْبَاقِينَ بَعْدَهُمْ عَلَى الْجِدِّ فِي الْجُهْدِ، وَالرَّغْبَةِ فِي نَيْلِ مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ:
 ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أَيِ مَغْتَبِطِينَ بِذَلِكَ، قَدْ قَرَّتْ بِهِ عِيُونُهُمْ، وَفَرِحَتْ بِهِ
 نَفُوسُهُمْ، وَذَلِكَ لِحُسْنِهِ وَكَثْرَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَكَمَالِ اللَّذَّةِ فِي الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ الْمُنْعَصِ،
 فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُمْ بَيْنَ نَعِيمِ الْبَدَنِ بِالرِّزْقِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِالْفَرَحِ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ،
 فَتَمَّ لَهُمُ النَّعِيمُ وَالسَّرُورُ، وَجَعَلُوا ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أَيِ

يبيّر بعضهم بعضا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا. ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: أي يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم، المستلزم كمال السرور. وقال العثيمين: الفرح ضدّ الحزن، وهو قريب من معنى السرور، والمعنى: أنهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله. وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ منصوبة على الحال. ولكن هل هي حال من الضمير المستتر في قوله: ﴿أَحْيَاءُ﴾ أي حال كونهم فرحين، أو حال من الظرف ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي من متعلّق الظرف، أو حال من نائب الفاعل في ﴿يُزْرَقُونَ﴾؟ كلّ هذا جائز، والمعنى لا يختلف فيه اختلافاً كثيراً. وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: أي بالذي أعطاهم من فضله ولم يُبَيِّنْه سببانه، بل أتى به مجملاً؛ لأنه ذكر مفصّلاً في آيات أخرى بعد دخول الجنة يوم القيامة. و﴿آتَاهُمُ﴾: بمعنى أعطاهم. وقوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: الفضل: في اللغة: الزيادة، والمراد بالفضل هنا: ما تفضّل الله به عليهم من النعيم الذي لم يكن يخطر على بالهم. وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: (الواو) هنا حرف عطف، وهل هي معطوفة على قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ من باب عطف الفعل على الاسم، أو معطوفة على قوله: ﴿يُزْرَقُونَ﴾؟ نقول: يحتمل هذا وهذا، ولا يختلف المعنى كثيراً. قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي يبشّر بعضهم بعضا بما سيذكر، فمعنى استبشر: أي بشّر غيره، أو دخلت عليه البشرى بفعل غيره. وقوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يعني بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ولم يُقْتَلُوا حتى الآن في سبيل الله. ﴿أَلَا خَوْفٌ﴾: (أن) المصدرية أدغمت ب(لا)، والقاعدة الأخيرة في الكتابة: أن تكتب (أن) فتكون (أن لا)، لكن القاعدة القديمة: أن لا تكتب، وهنا لم تكتب ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وأصل الكلمة: (أن لا)، و(أن) هنا بدل من قوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، وكأنّه قال: (بأن لا خوف عليهم)، ونوع البدل هنا: بدل اشتمال؛ لأنّ الخوف ليس بعض الإنسان، وإنما يشتمل عليه الإنسان، أي لا خوف عليهم فيما يستقبل من أمرهم، ولا هم يحزنون على ما قضى من أمرهم؛ لأنّ الأصل: أنّ الخوف للمستقبل، والحزن للماضي.

- قال الله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١):

- مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ كَمَا يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ، فَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِمَا رُزِقُوا مِنَ النَّعِيمِ.

وقال البقاعي: لَمَّا ذَكَرَ سُورَهُمْ بِمَا نَالُوهُ؛ ذَكَرَ سُورَهُمْ بِمَا عَلِمُوهُ لِمَنْ هُوَ عَلَى دِينِهِمْ، فَقَالَ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

- تفسير الآية:

قال السمرقندي: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أي بجنة من الله. ويقال: بمغفرة من الله.

﴿وَفَضْلٍ﴾: يعني: الكرامات في الجنة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي ويستبشرون بأن الله لا يضيع ثواب المؤمنين الموحدين. وقال مكِّي: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: أي يفرحون لما عاينوه من وفاء الوعد، وعظيم الثواب. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أَنَّ اللَّهَ لَا يضيع أجر المؤمنين، أي لا يطل جزاء أعمالهم.

وقال السمعاني: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: قيل: أَرَادَ بِالنِّعْمَةِ: قدر الكفاية، وبالفضل: ما زاد على الكفاية، وَمَعْنَاهُ: لَا يَضِيقُ عَلَيْهِمْ، بل يُوسِعُ فِي الْعَطَاءِ. وقيل: ذكر الفضل تأكيداً للنعمة. وقال ابن الجوزي: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: قَالَ مُقَاتِلٌ: أَيُّ بِرَحْمَةٍ، وَرِزْقٍ. وقال القرطبي: أَيُّ بِجَنَّةٍ مِنَ اللَّهِ. وَيُقَالُ: بِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ.

﴿وَفَضْلٍ﴾: هَذَا لِرِيَادَةِ الْبَيَانِ. وَالْفَضْلُ دَاخِلٌ فِي النِّعْمَةِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّسَاعِهَا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ كَنَعَمِ الدُّنْيَا. وَقِيلَ: جَاءَ الْفَضْلُ بَعْدَ النِّعْمَةِ عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَي وَيَسْتَبْشِرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. وقال أبو حيان: الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لَيْسَ بِتَأْكِيدٍ لِلأَوَّلِ، بَلْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِمْ أَنْفُسِهِمْ، لَا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، فَقَدْ اخْتَلَفَ مُتَعَلِّقُ الْفَعْلَيْنِ، فَلَا تَأْكِيدَ؛ لِأَنَّ هَذَا

المستبشر به هو هم، وهو: نعمة الله عليهم وفضله. وفي التنكير دلالة على بعض غير معين، وإشارة إلى إتمام المراد تعظيماً لأمره وتنبهها على صعوبة إدراكه، كما جاء: "فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُن سَمِعَتْ، ولا حَظَرَ على قلبِ بشرٍ" رواه الشيخان. والظاهر تبأين النعمة والفضل؛ للتعطف، ويناسب شرُّهُما أن ينزل على قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى هي النعمة، والزيادة هي الفضل؛ لقرينة قوله: ﴿أَحْسِنُوا﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقال الزجاج: النعمة هي الجزاء، والفضل زائدٌ عليه قدر الجزاء. وقيل: النعمة قدر الكفاية، والفضل المضاعف عليها مع مضاعفة الشُّرور بها واللذة. وقيل: الفضل داخلٌ في النعمة دلالة على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ليست الجملة هنا اعتراضاً؛ لأنها لم تدخل بين شيئين أحدهما يتعلّق بالآخر، وإنما جاءت لاستئناف أخبار. قال أبو علي: "يستبشرون بتوفير ذلك عليهم، ووصوله إليهم؛ لأنه إذا لم يضعه وصل إليهم ولم ينحسوه. ولا يصح الاستبشار بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ لأن الاستبشار إنما يكون بما لم يتقدّم به علم، وقد علموا قبل موتهم أن الله لا يضيع أجر المؤمنين، فهم يستبشرون بأن الله ما أضاع أجورهم حتى اختصهم بالشهادة ومنحهم أتم النعمة، وحتّم لهم بالنجاة والفوز، وقد كانوا يخشون على إيمانهم، ويخافون سوء الخاتمة المحيطة للأعمال، فلما رأوا ما للمؤمنين عند الله من السعادة وما اختصهم به من حسن الخاتمة التي تصحّ معها الأجور وتضاعف الأعمال، استبشروا؛ لأنهم كانوا على وجلٍ من ذلك" انتهى كلامه. وفيه تطويلٌ شبيه بالخطابة. قيل: ويجوز أن يكون الاستبشار لمن خلفوه بعدهم من المؤمنين لما عاينوا منزلته عند الله. وقال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وكلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقال أبو السعود: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: كُرِّرَ لِبَيَانِ أَنَّ الْإِسْتِبْشَارَ الْمَذْكُورَ لَيْسَ بِمَجْرَدِ عَدَمِ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ، بَلْ بِهِ وَبِمَا يُقَارِنُهُ مِنْ نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا وَهِيَ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: الْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ: إِمَّا الشُّهَدَاءَ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ؛ لِإِلْيَازِ بَسْمُومِ رُتْبَةِ الْإِيمَانِ وَكَوْنِهِ مَنَاطًا لِمَا نَالُوهُ مِنَ السَّعَادَةِ، وَإِمَّا كَافَّةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنَ الشُّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ، ذُكِرَتْ تَوْفِيقُهُ أَجُورِهِمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَعُدَّتْ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَسْتَبْشِرُ بِهِ الشُّهَدَاءُ بِحُكْمِ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ. وَقَالَ الشُّوَكَايُ: كُرِّرَ قَوْلُهُ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لِتَأْكِيدِ الْأَوَّلِ؛ وَلِبَيَانِ أَنَّ الْإِسْتِبْشَارَ لَيْسَ لِمَجْرَدِ عَدَمِ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ، بَلْ بِهِ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالتَّعْمَةُ: مَا يُنْعَمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ. وَالْفَضْلُ: مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: النِّعْمَةُ: الثَّوَابُ. وَالْفَضْلُ الرَّائِدُ. وَقِيلَ: النِّعْمَةُ الْجَنَّةُ. وَالْفَضْلُ دَاخِلٌ فِي النِّعْمَةِ ذَكَرَ بَعْدَهَا؛ لِتَأْكِيدِهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِبْشَارَ الْأَوَّلَ مُتَعَلِّقٌ بِحَالِ إِخْوَانِهِمْ، وَالْإِسْتِبْشَارَ الثَّانِي بِحَالِ أَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مُكْرَّرٌ؛ لِلتَّأْكِيدِ؛ وَلِيَتَعَلَّقَ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ بَيَانًا وَتَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ: غَمٌّ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ بِمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنَ السُّوءِ. وَالْحُزْنَ: غَمٌّ يَلْحَقُهُ مِنْ فَوَاتٍ نَافِعٍ أَوْ حُصُولِ ضَارٍّ. فَمَنْ كَانَ مُتَقَلِّبًا فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ فَلَا يَحْزَنُ أَبَدًا، وَمَنْ جُعِلَتْ أَعْمَالُهُ مَشْكُورَةً غَيْرَ مُضِيعَةٍ فَلَا يَخَافُ الْعَاقِبَةَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيَانُ ذَلِكَ النَّفْيِ بِمَجْرَدِ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ضَمٍّ مَا بَعْدَهُ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: الْإِسْتِبْشَارُ الْأَوَّلُ بِدَفْعِ الْمَضَارِّ؛ وَلِذَا قُدِّمَ، وَالثَّانِي بِوُجُودِ الْمَسَارِّ. أَوِ الْأَوَّلُ لِإِخْوَانِهِمْ، وَالثَّانِي لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ أَعْرَبَ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بَدَلًا مِنَ الْأَوَّلِ؛ وَلِذَا لَمْ تَدْخُلْ (وَأُو) الْعَطْفِ عَلَيْهِ، وَ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِنِعْمَةٍ مُؤَكَّدَةٍ لِمَا أَفَادَهُ التَّنْكِيرُ مِنَ الْفَخَامَةِ الدَّائِيَّةِ بِالْفَخَامَةِ الْإِضَافِيَّةِ. وَجُمِعَ الْفَضْلُ وَالتَّعْمَةُ مَعَ أَنَّهُمَا كَثِيرًا مَا يُعْبَرُ بِهِمَا عَنْ مَعْنَى وَاحِدٍ، إِمَّا لِلتَّأْكِيدِ، وَإِمَّا لِلإِيْذَانِ بِأَنَّ مَا خَصَّهِمْ بِهِ سُبْحَانَهُ لَيْسَ نِعْمَةً عَلَى قَدْرِ الْكِفَايَةِ

مِنْ غَيْرِ مُضَاعَفَةِ سُرُورٍ وَلَذَّةٍ، بَلْ زَائِدٌ عَلَيْهَا مُضَاعَفٌ فِيهَا ذَلِكَ. وَعَطَفَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَضْلٍ﴾، أَوْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿نِعْمَةٍ﴾، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ مَضْمُونٌ مَا بَعْدَهَا دَاخِلٌ فِي الْمُسْتَبَشِّرِ بِهِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿يَسْتَبَشِّرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: أَيِ يَهْنِئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بِأَعْظَمِ مَهْنَأٍ بِهِ، وَهُوَ نِعْمَةٌ رَحِمَهُمْ، وَفَضْلُهُ، وَإِحْسَانُهُ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بَلْ يَنْمِيهِ وَيَشْكُرُهُ، وَيَزِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ، مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ سَعِيهِمْ. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ: إِثْبَاتُ نَعِيمِ الْبَرَزَخِ، وَأَنَّ الشَّهَدَاءَ فِي أَعْلَى مَكَانٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَفِيهِ تَلَاقِي أَرْوَاحِ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَزِيَارَةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَبَشِيرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿يَسْتَبَشِّرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: الْجُمْلَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٌ تُبَيِّنُ اسْتِبْشَارًا آخَرَ سَبَبُهُ غَيْرُ السَّبَبِ الْأَوَّلِ. الْأَوَّلُ سَبَبُهُ: أَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ إِخْوَانًا لَهُمْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ. وَالسَّبَبُ الثَّانِي لِلْإِسْتِبْشَارِ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ. وَهَذَا قَالَ: ﴿يَسْتَبَشِّرُونَ﴾، وَقَبْلُ بَقِيلٍ قَالَ: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ﴾، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَهَمَّ فَرَحُونَ بِمَا حَصَلَ، وَيَسْتَبَشِّرُونَ بِالَّذِي سَيَحْصِلُ، فَهَمَّ فَرَحُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مَغْتَبِطُونَ بِهِ مَسْرُورُونَ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَسْتَبَشِّرُونَ بِفَضْلِ زَائِدٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، وَمَنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمَلُونَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ بُشِّرُوا بِالْخُلُودِ الَّذِي لَا مَوْتَ بَعْدَهُ، وَيَسْتَبَشِّرُونَ أَيْضًا بِمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَمَا زَالُوا يَذْكُرُونَهُ؛ لِأَنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾، أَيِ وَبِ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَيِ لَا يَتْرَكُهُ هَمَلًا وَسَدًى، بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يُثَبِّتَهُمْ عَلَيْهِ.

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾:
- سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِي سَبَبِ نُزُولِهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: "أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا انْصَرَفُوا يَوْمَ أُحُدٍ، نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ لِاتِّبَاعِهِمْ، ثُمَّ خَرَجَ بِمَنْ انْتَدَبَ مَعَهُ، فَلَقِيَ أَبُو

سُفْيَانَ قَوْمًا، فَقَالَ: إِنَّ لَقَيْتُمْ مُحَمَّدًا، فَأَخْبِرُوهُ أَيَّ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، فَلَقِيَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: لَقِينَاهُ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، وَنَرَاكَ فِي قَلَّةٍ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَطْلُبَهُ، فَسَبَقَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَدَخَلَ مَكَّةَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْجُمْهُورِ.

الثَّانِي: "أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ لَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ عَنْ أَحَدٍ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَوْعِدُ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ مَوْسِمٌ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ، ثُمَّ أَلْقَى اللَّهَ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ، فَبَدَأَ لَهُ الرُّجُوعُ، فَلَفِيَ نَعِيمَ بْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ وَعَدْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ أَنْ نَلْتَقِيَ بِمَوْسِمِ بَدْرِ الصُّغْرَى، وَهَذَا عَامٌ جَدْبٍ، لَا يَصْلُحُ لَنَا، فَتَبَّطَهُمْ عَنَّا، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّا فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، فَلَقِيَهُمْ فَخَوَّفَهُمْ، فَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، حَتَّى أَقَامُوا بِبَدْرِ يَنْتَظِرُونَ أَبَا سُفْيَانَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾. وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرَمَةَ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا دَمَّ الْمُنَافِقِينَ بِرُجُوعِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصِيبَهُمْ قَرْحٌ؛ وَمَدَحَ أَحْوَالَ الشُّهَدَاءِ؛ تَرْغِيئًا فِي الشَّهَادَةِ؛ وَأَحْوَالَ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِمْ؛ تَرْغِيئًا فِي النَّسَجِ عَلَى مَنَوَالِهِمْ، وَخَتَمَ بِتَعْلِيْقِ السَّعَادَةِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ، أَخَذَ يَذْكُرُ مَا أُمِّرَ لَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ مِنَ الْمِبَادَرَةِ إِلَى الْجَابَةِ إِلَى مَا يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ﷺ؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى التَّحْلُفِ عَنْ أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ عُدْرِ إِلَّا صَرِيحُ النَّفَاقِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا...﴾.

● تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: قال مكِّي: المعنى: وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله من بعد ما أصابه الجرح والألم. وعنى بهذا: من خرج مع رسول الله ﷺ فِي طَلَبِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْحَابِهِ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ غَزْوَةِ أَحَدٍ وَبَعْدَمَا نَالَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجَرَحِ. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: معناه: للذين أحسنوا، فداموا على الطاعة، وأداء الفرائض، واتقوا المحارم حتى لحقوا بالله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقال

الواحدي: ومحل ﴿الَّذِينَ﴾: خَفَضُ، على النعت للمؤمنين. قال الزجاج: والأحسن أن يكون في موضع رَفْعٍ، على الابتداء، ويكون خبر الابتداء ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ على آخر الآية. و﴿اسْتَجَابُوا﴾ بمعنى: أجابوا. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: أي بطاعة رسول الله، وإجابته إلى ما دعاهم إليه، وَاتَّقُوا معصيته ومخالفته. وقال ابن الجوزي: الاستجابة: الإجابة. وفي المراد النبي ﷺ وَخُرُوجُهُ وَنَدْبُ النَّاسِ لِلْخُرُوجِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: لِيُزْهَبَ الْعَدُوُّ بِاتِّبَاعِهِمْ. الثَّانِي: لِمَوْعِدِ أَبِي سُفْيَانَ. الثَّالِثُ: لِأَنَّهُ بَلَغَهُ عَنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا: أَصَبْتُمْ شَوْكَتَهُمْ، ثُمَّ تَرَكْتُمُوهُمْ. وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي الْقَرْحِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: أَيِ أَحْسَنُوا بِطَاعَةِ الرَّسُولِ، وَاتَّقُوا مُخَالَفَتَهُ. وقال أبو حيان: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: وَلَمَّا لَمْ تَيَمَّ اسْتِجَابَةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ إِلَّا بِاسْتِجَابَتِهِ لِلرَّسُولِ، جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. قِيلَ: وَالِاسْتِجَابَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ، فَإِنَّهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، وَلِلرَّسُولِ بِتَلْقَى الرِّسَالَةِ مِنْهُ وَالنَّصِيحَةِ لَهُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا اسْتِجَابَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ إِجَابَتُهُمْ لَهُ حِينَ انْتَدَبَهُمْ لِاتِّبَاعِ الْكُفَّارِ عَلَى مَا نُقِلَ فِي سَبَبِ التُّزُولِ. وَالْإِحْسَانُ هُنَا مَا هُوَ زَائِدٌ عَلَى الْإِيمَانِ مِنَ الْإِتِّصَافِ بِمَا يُسْتَحَبُّ مَعَ الْإِتِّصَافِ بِمَا يَجِبُ. وقال البقاعي: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾: أَيِ أَوْجَدُوا الْإِجَابَةَ فِي الْجِهَادِ إِيجَادًا مُؤَكَّدًا مُحَقَّقًا ثَابِتًا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ خَالِصِ الْإِيمَانِ. ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: أَيِ لَا لِعَرَضٍ مَعْنٍ وَلَا غَيْرِهِ، ثُمَّ عَظَّمَ صِدْقَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾. وَلَمَّا كَانَ تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ بِالْأَوْصَافِ حَامِلًا عَلَى التَّحْلِي بِهَا عِنْدَ الْمَدْحِ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، وَعَبَّرَ بِمَا يَصْلُحُ لِلْبَيَانِ وَالْبَعْضِ؛ لِيَدُومَ رَغْبَتُهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ، فَقَالَ: ﴿مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾. وقال أبو السعود: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: صِفَةُ مَادِحَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا مُخَصَّصَةٌ أَوْ نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ أَوْ رُفِعَ عَلَى الْإِتِّدَاءِ، وَالْحَبَرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ بِجُمْلَتِهِ. وَ﴿مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ: الْمَدْحُ وَالتَّعْلِيلُ لَا التَّقْيِيدُ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَجِيبِينَ كُلَّهُمْ مُحْسِنُونَ وَمُتَّقُونَ.

وقال العثيمين: ﴿الَّذِينَ﴾: يحتمل أن تكون بدلاً مما سبق، أو نعتاً، ويحتمل أن تكون مبتدأ، فعلى الثاني يكون خبرها جملة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. ومعنى: ﴿أَسْتَجَابُوا﴾: أي أجابوا وانقادوا لله والرسول حينما دعاهم النبي . عليه الصلاة والسلام . إلى الغزوة مرة أخرى بعد أخذ لَمَّا قيل: إِنَّ المشركين أرادوا الكَرَّةَ على المسلمين لَمَّا علموا بالجراح التي أصابت المسلمين والوهن والضعف، وقفوا في حمراء الأسد، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على مُحَمَّدٍ وأصحابه؟ فأمر النبي من معه أن يستعدوا للقتال فاستجابوا لله والرسول مع ما أصابهم من الجراح والتعب النفسي والتعب البدني، فقد جرح النبي ﷺ وكُسرت ربايعيته، وحصل ما حصل من الأمور التي قد لا نشعر بها الآن ونحن نصورها بأفكارنا، لكن لو كنّا نشاهدها عين اليقين لكان الأمر فظيماً جدّاً، فهؤلاء الذين أصابهم القرَح هم الذين استجابوا لله وللرسول. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: أي بالاتباع. ﴿وَاتَّقُوا﴾: أي بترك المخالفة. ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي كثير واسع. وقال أبو بكر الجزائري: استجابوا: أي أجابوا الدعوة وقبلوا الأمر. والقرح: أي ألم الجراحات. وأحسنوا: أي أعمالهم وأقوالهم أتوا بها وفق الشرع وأحسنوا إلى غيرهم. واتَّقوا: أي اتَّقوا ربَّهم فلم يشركوا به ولم يعصوه فيما أمرهم به أو نهاهم عنه. و﴿الَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ يريد في أحد. واستجابوا: أي لبَّوا نداء الرسول ﷺ وخرجوا معه في ملاحقة أبي سفيان. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي ولكل من أحسن واتقى أجر عظيم، ألا وهو الجنة.

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾:
- مناسبة الآية التي قبلها: لا زال السياق في مدح الرسول وأصحابه. قال البغوي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾: وَحَلُّ (الَّذِينَ) حَفْظٌ مَرْدُودٌ عَلَى (الَّذِينَ) الْأَوَّلِ.

● تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قال مكِّي: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: أي قد أعدوا للقائكم فاحضروهم. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: أي زاد التخويف تطريقاً لله عز وجل، ولوعده سبحانه، ولم يشنهم ذلك عن وجههم الذي خرجوا فيه مع رسول الله ﷺ حتى صاروا إلى موضع ردّهم منه رسول الله ﷺ، وقالوا عند التخويف لصحة صدقهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: أي كافينا الله، ونعم القيم الحافظ والناصر الله. يقال: حسبه إذا كفاه. وقال الماوردي: أمّا الناس في الموضعين وإن كان يلفظ الجمع فهو واحد؛ لأنّه تقدير الكلام: جاء القول من قبل الناس. و﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾: هم المسلمون. واختلّفوا في الوقت الذي أراد أبو سفيان أن يجمع لهم هذا الجمع على قولين: أحدهما: بعد رجوعه على أحد سنة ثلاث حتى أوقع الله في قلوب المشركين الرعب كفوا، وهذا قول ابن عباس، وابن إسحاق، وقتادة. الثاني: أن ذلك في بدر الصغرى سنة أربع بعد أحد سنة، وهذا قول مجاهد. وقال ابن الجوزي: في المراد بالناس هنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ركب لقيهم أبو سفيان، فضمن لهم ضماناً لتخويف النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس، وابن إسحاق. الثاني: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي، قاله مجاهد، وعكرمة، ومقاتل. الثالث: أنهم المنافقون، لما رأوا النبي ﷺ يتجهّز، نهوا المسلمين عن الخروج، وقالوا: إن أتيتهم في ديارهم، لم يرجع منكم أحد، هذا قول السدي. قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: يعني أبا سفيان وأصحابه. قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: قال الزجاج: زادهم ذلك التخويف ثبوتاً في دينهم، وإقامة على نصرته نبيهم، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: أي هو الذي يكفيننا أمرهم. فأما (الوكيل)، فقال الفراء: الوكيل: الكافي، واختاره ابن القاسم. وقال ابن قتيبة: هو الكفيل، قال: ووكيل الرجل في ماله: هو الذي كفله له، وقام به. وقال الخطابي: الوكيل: الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم، وحقيقته: أنّه الذي يستقل بالأمر المؤكول إليه. وحكى

ابن الأنباري: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: الْوَكِيلُ: الرَّبُّ. وقال الرازي: فِي مَحَلِّ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ﴾: وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ الرَّجَّاحِ: أَنَّهُ رُفِعَ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ...﴾. الثَّانِي: أَنَّ يَكُونُ مَحَلُّهُ هُوَ الْحِفْظُ عَلَى النَّعْتِ لِلْمُؤْمِنِينَ. الثَّالِثُ: أَنَّ يَكُونُ نَصْبًا عَلَى الْمَدْحِ. وقال القرطبي: اختلف فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، فَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَمُقَاتِلٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْكَلْبِيُّ: هُوَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ. وَاللَّفْظُ عَامٌّ وَمَعْنَاهُ خَاصٌّ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ. وقال السُّدِّيُّ: هُوَ أَعْرَابِيٌّ جُعِلَ لَهُ جُعْلٌ عَلَى ذَلِكَ. وقال ابن إسحاق وجماعة: يريد الناس رَكِبَ عَبْدُ الْقَيْسِ، مَرُّوا بِأَبِي سُفْيَانَ فَدَسَّهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَتَّبِعُوهُمْ. وَقِيلَ: النَّاسُ هُنَا الْمُنَافِقُونَ، قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا تَجَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِلْمَسِيرِ إِلَى بَدْرِ الصُّغْرَى لِمِيعَادِ أَبِي سُفْيَانَ أَتَاهُمُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: نَحْنُ أَصْحَابُكُمْ الَّذِينَ نَهَيْنَاكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ وَعَصَيْتُمُونَا، وَقَدْ قَاتَلُوكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَظَفَرُوا، فَإِنْ أَتَيْتُمُوهُمْ فِي دِيَارِهِمْ فَلَا يَرْجِعُ مِنْكُمْ أَحَدٌ. فَقَالُوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ: دَخَلَ نَاسٌ مِنْ هَذِيلٍ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالُوا: قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ جُمُوعًا كَثِيرَةً فَاحْشَوْهُمْ، أَيْ فَخَافُوهُمْ وَاحْذَرُوهُمْ، فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِمْ. فَالنَّاسُ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عَلَى بَابِهِ مِنَ الْجَمْعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: أَيْ فَزَادَهُمْ قَوْلُ النَّاسِ إِيمَانًا، أَيْ تَصَدِيقًا وَيَقِينًا فِي دِينِهِمْ، وَإِقَامَةً عَلَى نُصْرَتِهِمْ، وَقُوَّةً وَجَرَاءَةً وَاسْتِعْدَادًا، فَرِيَادَةً الْإِيمَانَ عَلَى هَذَا هِيَ فِي الْأَعْمَالِ. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: أَيْ كَافِينَا اللَّهُ. وَحَسْبُ مَاخُودٌ مِنَ الْإِحْسَابِ، وَهُوَ الْكِفَايَةُ. وقال ابن جُزَيٍّ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، وهي التي قالها إبراهيم . عليه السلام . حين أُلقي في النار، ومعنى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: كافينا وحده، فلا نخاف غيره، ومعنى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: ثناء على الله، وأنه خير من يتوكل العبد عليه ويلجأ إليه. وقال ابن كثير: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: أَيْ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ

بِالْجُمُوعِ، وَخَوْفُهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، فَمَا اكْتَرَثُوا لِذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وقال الشوكاني: المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، وجاز إطلاق لفظ الناس عليه؛ لكونه من جنسهم. وقيل: المراد بالناس: ركب عبد القيس الذين مروا بأبي سفيان. وقيل: هم المنافقون. والمراد بقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: أبو سفيان وأصحابه. والضمير في قوله: ﴿فَزَادَهُمْ﴾ راجع إلى القول المدلول عليه بـ ﴿قَالَ﴾، أو إلى المقول، وهو: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، أو إلى القائل، والمعنى: أنهم لم يفسلوا لما سمعوا ذلك ولا التفثوا إليه، بل أحلصوا لله وازدادوا طمأنينةً ويتقيناً. وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: حسب مصدر حسبته، أي كفاه، وهو بمعنى الفاعل، أي تحسب بمعنى: كاف. وقال السعدي: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: أي هموا باستئصالكم؛ تخويفا لهم وترهيبا، فلم يزددهم ذلك إلا إيمانا بالله واتكالا عليه. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: أي: كافينا كل ما أهمنا. ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: أي المفوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم. وقال العثيمين: القائل: رجل جاء إلى النبي ﷺ، وقال: إن أبا سفيان قد جمع لك يريد الكرة عليك. ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾: أي احذروهم، اتقوهم، وما أشبه ذلك. ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: وذلك أن المؤمن عند المصائب يزداد إيمانا، ومن أمثلة ذلك أنه لما أحاط الأحزاب بالمدينة قال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فازدادوا إيمانا، هنا أيضا لما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم زادهم إيمانا بالله واعتمادا عليه وتوكلا عليه. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: ﴿حَسْبُنَا﴾: يعني كافينا الله ﷻ، وهذه الجملة: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فيها مبتدأ وخبر، لكن الخبر فيها مقدم، والتقدير: (اللَّهُ حَسْبُنَا)، ويجوز أن يكون ﴿حَسْبُنَا﴾ مبتدأ، ولفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ خبر، لكن المعروف أن المحكوم عليه هو المبتدأ، والمحكوم به هو الخبر، وعلى هذا فيكون ﴿حَسْبُنَا﴾ خبر مقدم، ولفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: أي كافينا، ولو جمع لنا الناس فإننا لا نخشاهم إنما نخشى الله. ﴿وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾: ﴿نِعَمَ﴾: فعل إنشاء يقصد به المدح، وفاعله لا بد أن يكون مُحلَّى بـ(ال)، أو مضاف إلى محلَّى بـ(ال)، مثل: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، فهذه مضافة إلى محلَّى بـ(ال)، وهنا ﴿وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾: الفاعل فيها محلَّى بـ(ال)، وهي تحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص، والغالب أنَّ المخصوص يكون محذوفًا، والتقدير في هذه الآية: (ونعم الوكيل هو). و﴿الْوَكِيلُ﴾ ليس المراد به: المتوكل عن غيره، ولكنَّ المراد به: المدافع عن غيره؛ لأنَّ الله لا يتوكل عن أحد، بل بيده الأمر كله.

• قال الله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال ابن عاشور: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ..﴾ تَعْقِيبٌ لِلْإِخْبَارِ عَنْ ثَبَاتِ إِيْمَانِهِمْ وَقَوْلِهِمْ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾.

• تفسير الآية:

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: قال الواحدي: وذلك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خرج في أصحابه حتى وافوا بدرَ الصُّغْرَى، وهي ماءٌ لِيَنِي كِنَانَةَ، وكانت موضع سُوقٍ لَهُمْ، يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهَا فِي كُلِّ عَامٍ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، فلم يَلْقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وأصحابه أحدًا من المشركين، ووافقوا السُّوقَ، وكانت معهم نفقاتٌ وتجارَات، فباعُوا واشتَرَوْا أَدَمًا وَزَبِيئًا، وربحوا وأصابوا للدرهم درهْمَيْنِ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، فذلك قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا..﴾، أي وخرجوا فانقلبوا، فحذف الخروج؛ لأنَّ الانقلابَ يَدُلُّ عليه، كقوله تعالى: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي فَضْرَبَهُ فَانْفَلَقَ. وقال البغوي: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾: أي فأنصرفُوا. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: أي بِعَافِيَةٍ لَّمْ يَلْقُوا عَدُوًّا. ﴿وَفَضْلٍ﴾: أي تِجَارَةً وَرَبْحًا وَهُوَ

مَا أَصَابُوا فِي السُّوقِ. ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾: أَي لَمْ يُصِْبَهُمْ أَذًى وَلَا مَكْرُوهٌ. ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ أَنََّّهُمْ قَالُوا: هَلْ يَكُونُ هَذَا غَزْوًا؟ فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الْعَزْوِ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الْإِنْقِلَابُ: الرَّجُوعُ. وَفِي النِّعْمَةِ، ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا الْأَجْرُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. الثَّانِي: الْعَافِيَةُ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. الثَّلَاثُ: الْإِيمَانُ وَالنَّصْرُ، قَالَهُ الرَّجَّاجُ. وَفِي الْفَضْلِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: رِيحُ التِّجَارَةِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَهَذَا قَوْلٌ مَنْ يَرَى أَنَّهُمْ خَرَجُوا لِمَوْعِدِ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ الرَّهْرِيُّ: "لَمَّا اسْتَفْتَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ لِمَوْعِدِ أَبِي سُفْيَانَ بِيَدْرٍ، خَرَجُوا بِبَضَائِعَ لَهُمْ، وَقَالُوا: إِنْ لَقِينَا أَبَا سُفْيَانَ، فَهُوَ الَّذِي خَرَجْنَا إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ نَلْقَهُ ابْتِغَاءَ بَضَائِعِنَا، وَكَانَتْ بَدْرٌ مَتَجِرًا يُوَافِي كُلَّ عَامٍ، فَانْطَلَقُوا فَقَضَوْا حَوَائِجَهُمْ، وَأَخْلَفَ أَبُو سُفْيَانَ الْمَوْعِدَ". الثَّانِي: أَنَّهُمْ أَصَابُوا سَرِيَّةً بِالصَّفْرَاءِ، فَرَزَقُوا مِنْهَا، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ الثَّوَابُ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يُؤْذِهِمْ أَحَدٌ. ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أَي فِي طَلَبِ الْقَوْمِ. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾: أَي ذُو مَنِّ يَدْفَعُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ، وَالْمَعْنَى: وَخَرَجُوا فَانْقَلَبُوا، فَحَذَفَ الْخُرُوجَ؛ لِأَنَّ الْإِنْقِلَابَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَضْرَبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْقَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أَي فَضْرَبَ فَانْقَلَقَ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: النِّعْمَةُ هَهُنَا: الْعَافِيَةُ. وَالْفَضْلُ: التِّجَارَةُ. وَقِيلَ: النِّعْمَةُ: مَنَافِعُ الدُّنْيَا. وَالْفَضْلُ: ثَوَابُ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾: أَي لَمْ يُصِْبَهُمْ قَتْلٌ وَلَا جِرَاحٌ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ. ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: فِي طَاعَةِ رَسُولِهِ. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْفِيقِ فِيمَا فَعَلُوا. وَفِي ذَلِكَ إِقَاءُ الْحَسْرَةِ فِي قُلُوبِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهُمْ، وَإِظْهَارُ لِحَظِّ رَأْيِهِمْ حَيْثُ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِمَّا فَازَ بِهِ هَؤُلَاءِ، وَوَيَّ أَنَّهُمْ قَالُوا: هَلْ يَكُونُ هَذَا غَزْوًا، فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الْعَزْوِ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ عَلَمَاؤُنَا: لَمَّا فَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَاعْتَمَدُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ، أَعْطَاهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ: النِّعْمَةُ، وَالْفَضْلُ، وَصَرَفَ

السوء، وَاتَّبَعَ الرِّضَا. وقال ابن كثير: أَي لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ وَرَدَ عَنْهُمْ
بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ مِمَّا
أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النِّعْمَةُ: أَنَّهُمْ سَلِمُوا. وَالْفَضْلُ: أَنَّ عَيْرًا مَرَّتْ، وَكَانَ
فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَبِحَ فِيهَا مَالًا فَقَسَّمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ. وقال
البقاعي: وَلَمَّا كَانَ اعْتِمَادُهُمْ عَلَى اللَّهِ سَبَبًا لِفَلَاحِهِمْ قَالَ: ﴿فَانْقَلِبُوا﴾: أَي فَكَانَ ذَلِكَ
سَبَبًا لِأَنَّهُمْ انْقَلَبُوا، أَي مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبُوا فِيهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾: وَعَظَمَهَا
بِإِضَافَتِهَا إِلَى الْإِسْمِ الْأَعْظَمِ، فَقَالَ: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: أَي الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ. ﴿وَفَضْلٍ﴾:
أَي مِنَ الدُّنْيَا مَا طَابَ لَهُمْ مِنْ طَيِّبِ الثَّنَاءِ، بِصِدْقِ الْوَعْدِ، وَمَضَاءِ الْعَزْمِ، وَعَظِيمِ الْفَنَاءِ،
وَالْجُرْأَةِ إِلَى مَا نَالُوهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾: أَي مِنَ الْعَدُوِّ الَّذِي
خَوَّفُوهُ وَلَا غَيْرِهِ. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾: أَي مَعَ ذَلِكَ، بِطَاعَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَايَةِ جَهْدِهِمْ.
﴿رِضْوَانِ اللَّهِ﴾: أَي الَّذِي لَهُ الْجَلَالُ وَالْجَمَالُ، فَحَازُوا أَعْظَمَ فَضْلِهِ. ﴿وَاللَّهُ﴾: أَي الَّذِي
لَا كُفُوَ لَهُ. ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: أَي فِي الدَّارَيْنِ، عَلَى مَنْ يُرْضِيهِ، فَسَنَنْظُرُونَ فَوْقَ مَا
تَوَقَّلُونَ، فَلْيُبَشِّرِ الْمَحِيبُ، وَيَعْتَمَّ وَيَحْزَنِ الْمُتَحَلِّفُ؛ وَلِعَظَمِ الْأَمْرِ كَرَّرَ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ كَثِيرًا.
وقال الألوسي: ﴿فَانْقَلِبُوا﴾: عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، أَي فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ
وَرَجَعُوا بِنِعْمَةٍ. و﴿بِنِعْمَةٍ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي (انْقَلِبُوا)، وَجَوِّزَ أَنْ يَكُونَ
مَفْعُولًا بِهِ. و(الباء) عَلَى الْأَوَّلِ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعَلَى الثَّانِي لِلْمُصَاحَبَةِ. وَالتَّنْوِينُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ
لِلتَّفَخِيمِ، أَي بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: صِفَةٌ لِنِعْمَةٍ مُؤَكَّدَةٌ لِفَخَامَتِهَا،
وَالْمِرَادُ مِنْهَا: السَّلَامَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، أَوْ الثَّبَاتُ عَلَى الْإِيمَانِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَمَا قَالَ الرَّجَاجُ، أَوْ إِذْلَاهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ عَلَى بُعْدٍ كَمَا قِيلَ، أَوْ
مَجْمُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى مَا نَقُولُ. ﴿وَفَضْلٍ﴾: هُوَ الرِّبْحُ فِي التِّجَارَةِ، فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "أَنَّ عَيْرًا مَرَّتْ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَبِحَ مَالًا فَقَسَّمَهُ
بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَذَلِكَ الْفَضْلُ". وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ السُّدِّيِّ، قَالَ: "أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حِينَ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الصُّغْرَى بِبَدْرِ أَصْحَابِهِ دَرَاهِمَ ابْتِغَاءً بِهَا فِي الْمَوْسِمِ فَأَصَابُوا تِجَارَةً". وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الْفَضْلُ: مَا أَصَابُوا مِنَ التِّجَارَةِ وَالْأَجْرِ. ﴿لَمْ يَمَسَّ سُهُمْ سُوءٌ﴾: أَي لَمْ يُصِْبْهُمْ قَتْلٌ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ السُّدِّيِّ، أَوْ لَمْ يُؤْذِهِمْ أَحَدٌ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ الْحَبَرِ. وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ (انْقَلَبُوا)، أَوْ مِنَ الْمُسْتَكِنِ فِي (بِنِعْمَةٍ) إِذَا كَانَ حَالًا. وَالْمَعْنَى: فَانْقَلَبُوا مُنْعَمِينَ، مُبَرِّئِينَ مِنَ السُّوءِ. وَالْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ إِذَا كَانَ فِعْلُهَا مُضَارِعًا مَنْفِيًّا بِ(لَمْ)، وَفِيهَا ضَمِيرُ ذِي الْحَالِ جَارٌ فِيهَا دُخُولُ (الْوَاوِ) وَعَدَمُهُ. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾: عَطْفٌ عَلَى (انْقَلَبُوا). وَقِيلَ: حَالٌ مِنْ ضَمِيرِهِ، بِتَقْدِيرِ (قَدْ)، أَي وَقَدْ اتَّبَعُوا فِي كُلِّ مَا أُوتُوا، أَوْ فِي الْخُرُوجِ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ ﴿رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ كُلِّ خَيْرٍ. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: حَيْثُ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِمَا تَفَضَّلَ. وَفِيمَا تَقَدَّمَ مَعَ تَذْيِيلِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْإِسْمِ الْكَرِيمِ الْجَامِعِ، وَإِسْنَادِ ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَوَصْفِ الْفَضْلِ بِالْعِظَمِ: إِذَانُ بَأَنَّ الْمُتَخَلِّفِينَ قَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَمْرًا عَظِيمًا لَا يُكْتَنُهُ كُنْهُهُ، وَهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَتَحَسَّرُوا عَلَيْهِ تَحَسُّرًا لَيْسَ بَعْدَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ..﴾ تَعْقِيبٌ لِمَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ فِعْلُ ﴿فَانْقَلَبُوا﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْقِلَابَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ خَرَجُوا لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ الَّذِي بَلَغَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَمَعُوا لَهُمْ وَلَمْ يَعْبُتُوا بِتَخْوِيفِ الشَّيْطَانِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَخَرَجُوا فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ. وَ(الْبَاءُ) لِلْمَلَابَسَةِ، أَيِ مُلَابَسَةِ لِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ مِنَ اللَّهِ. فَالْنِّعْمَةُ: هِيَ مَا أَخَذُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ. وَالْفَضْلُ: فَضْلُ الْجِهَادِ. وَمَعْنَى ﴿لَمْ يَمَسَّ سُهُمْ سُوءٌ﴾: أَي لَمْ يَلَاقُوا حَرْبًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾: أَي انْقَلَبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَخَرَجُوا بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِقَاتِ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَجْمَعُونَ عَلَى الْكَرَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أَي أَنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا بَلَّغُوا مَا بَلَّغُوا مِنَ الطَّرِيقِ، بَلَّغُوا حِمَاءَ الْأَسَدِ، وَجَدُوا الْمُشْرِكِينَ قَدْ ذَهَبُوا، صَرَفَهُمُ اللَّهُ وَقَالُوا: نَرْجِعُ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ. يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾: يَعْنِي عَائِدِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى حِمَاءِ الْأَسَدِ. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

أي أنهم سلموا من ملاقاته العدو ولم يحصل حرب؛ لأن العدو مضى في سبيله ولم يرجع. ﴿وَفُضِّلَ﴾: فسرت بأن المراد به: فضل الجهاد، وأن الله كتب لهم بهذا الخروج أجر غزوة كاملة، فسلموا من الحرب ونالوا ثواب المجاهدين. ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾: أي لم يصبهم ما يسوؤهم، لا من جهة عدوهم ولا من جهة أحوالهم، بل كانوا على أحسن ما يرام ذهاباً ورجوعاً. ومعنى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أي اتبعوا ما يرضي الله، وذلك بالاستجابة لله ورسوله، فإن الاستجابة لله ورسوله سبب رضاء الله. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: أي صاحب فضل عظيم على العباد في الدنيا والآخرة، ومنه: أن تفضل على هؤلاء بأن انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: ولما جازهم سبحانه على أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسلامة، والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال، وتنزه عن كل نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال، ورعبتهم فيما لديه؛ لتوليهم إياه، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أن المخوف لهم من كيده ضعيف، وأمره هين خفيف، وإله سخي، وهو الشيطان، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل، وبُعدهم عن السوء، بأن وليهم الله، وعدوهم الشيطان، فقال التفاتاً إليهم بزيادة في تنشيطهم، أو تشجيعهم وتشيتهم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ..﴾.

• تفسير الآية:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: قال السمعاني: الشيطان: كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، والمراد بالشيطان ها هنا: نعيم بن مسعود. وقيل: هو الشيطان المعروف،

فَإِنَّهُ وَسُوسُ إِلَيْهِمْ أَنْ لَا تَخْرُجُوا لَدَلِكِ الْوَعْدِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾: قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: تَقْدِيرُهُ: يَخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَائَهُ، أَيُّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَهُمْ الْكُفَّارُ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: مَعْنَاهُ: يَخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: مُقْتَضَى (إِنَّمَا) فِي اللَّغَةِ: الْحَصْرُ، هَذَا مَنْزِعُ الْمُتَكَلِّمِ بِهَا مِنَ الْعَرَبِ. ثُمَّ إِذَا نُظِرَ عَقْلًا. وَهَذَا هُوَ نَظَرُ الْأَصُولِيِّينَ. فَهِيَ تَصْلُحُ لِلْحَصْرِ وَلِلتَّأَكِيدِ الَّذِي يُسْتَعَارُ لَهُ لَفْظُ الْحَصْرِ، وَهِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَاصِرَةٌ. وَالْإِشَارَةُ بِ﴿ذَلِكُمْ﴾ إِلَى جَمِيعِ مَا جَرَى مِنْ أَحْبَارِ الرِّكْبِ الْعَبْدِيِّينَ، عَنْ رِسَالَةِ أَبِي سُفْيَانَ، وَمِنْ تَحْمِيلِ أَبِي سُفْيَانَ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَمِنْ جَزَعٍ مَنْ جَزَعٍ مِنْ ذَلِكَ الْخَبَرِ مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُتَرَدِّدٍ. وَ﴿ذَلِكُمْ﴾ فِي الْإِعْرَابِ ابْتِدَاءٌ، وَ﴿الشَّيْطَانُ﴾ مُبْتَدَأٌ آخَرُ، وَ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ خَبَرٌ عَنِ الشَّيْطَانِ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْإِبْتِدَاءِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا الْإِعْرَابُ خَيْرٌ فِي تَنَاسُقِ الْمَعْنَى مِنْ أَنْ يَكُونَ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خَبَرَ ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ فِي الْمَعْنَى اسْتِعَارَةً بَعِيدَةً. وَ﴿يُخَوِّفُ﴾ فِعْلٌ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، لَكِنْ يَجُوزُ الْإِفْتِصَارُ عَلَى أَحَدِهِمَا؛ إِذِ الْآخَرُ مَفْهُومٌ مِنْ بَنِيَّةِ هَذَا الْفِعْلِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (خَوَّفْتُ زَيْدًا)، فَمَعْلُومٌ ضَرُورَةً أَنَّكَ خَوَّفْتَهُ شَيْئًا حَقُّهُ أَنْ يُخَافَ. وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾: فَقَالَ قَوْمٌ الْمَعْنَى: يُخَوِّفُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَائَهُ الَّذِينَ هُمْ كُفَّارٌ قُرَيْشِيٌّ، فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْمَعْنَى يُخَوِّفُ الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَهُمْ أَوْلِيَائُهُ، فَإِذَا لَا يَعْمَلُ فِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَخَوُّفُهُ؛ إِذْ لَسْتُمْ بِأَوْلِيَائِهِ. وَالْمَعْنَى: يُخَوِّفُهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَحُذِفَ هُنَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي وَاقْتَصِرَ عَلَى الْأَوَّلِ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِ الشَّيْطَانِ، حَقَّرَ اللَّهُ شَأْنَهُمْ وَقَوَّى نَفْسَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِخَوْفِهِ هُوَ تَعَالَى وَامْتِنَالِ أَمْرِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ، ثُمَّ قَرَّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كَمَا تَقُولُ: (إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَافْعَلْ كَذَا). وَقَالَ الرَّازِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾: ذَكَرَ الْمَفْسِّرُونَ فِيهِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ: الْأَوَّلُ: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ)، فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي وَحُذِفَ الْجَارُ، وَمِثَالُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، أَيْ

فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ. وَمِثَالُ حَذْفِ الْجَارِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢]، مَعْنَاهُ: لِيُنذِرَكُمْ بِبَأْسٍ، وَمِثَالُهُ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، أَي لِيُنذِرَكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ، وَهَذَا قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَالزَّجَّاجِ، وَأَبِي عَلِيٍّ. قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: قِرَاءَةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ (يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَاءِهِ). الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ: خَوَّفْتُ زَيْدًا عَمْرًا، وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ: (يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ)، فَحَذَفَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ، كَمَا تَقُولُ: (أَعْطَيْتُ الْأَمْوَالَ)، أَي (أَعْطَيْتُ الْقَوْمَ الْأَمْوَالَ)، قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَهَذَا أَوَّلَى مِنْ ادِّعَاءِ جَارٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾: أَي لِيُنذِرَكُمْ بَأْسًا، وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: أَي لِيُنذِرَكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ. وَالتَّخْوِيفُ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ جَرٍّ، تَقُولُ: (خَافَ زَيْدٌ الْقِتَالَ)، وَ(خَوَّفْتُهُ الْقِتَالَ)، وَهَذَا الْوَجْهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ (يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ). الْقَوْلُ الثَّلَاثُ: أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُنَافِقِينَ؛ لِيَقْعُدُوا عَنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْمَعْنَى: الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ وَيُؤَثِّرُونَ أَمْرَهُ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَخَافُونَهُ إِذَا خَوَّفَهُمْ وَلَا يَنْقَادُونَ لِأَمْرِهِ وَمُرَادِهِ مِنْهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ، وَالسُّدِّيِّ، فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَحْذُوفَانِ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِيهِ مَحْذُوفٌ وَاحِدٌ، وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ لَا حَذْفَ فِيهِ. وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ: فَهُمْ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَفَّارُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: الْكِنَايَةُ فِي الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ عَائِدَةٌ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَفِي الْقَوْلِ الثَّلَاثِ عَائِدَةٌ إِلَى (النَّاسِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: فَتَقَعُدُوا عَنِ الْقِتَالِ وَتَجَبُّنَا. ﴿وَحَافُونَ﴾: أَي فَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِي وَسَارِعُوا إِلَى مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: يَعْنِي أَنَّ الْإِيمَانَ يَفْتَضِي أَنْ تُؤَثِّرُوا خَوْفَ اللَّهِ عَلَى خَوْفِ النَّاسِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: (مَا): هِيَ الْكَافَّةُ لِ(إِنَّ) عَنِ الْعَمَلِ. وَهِيَ الَّتِي يَزْعُمُ مُعْظَمُ أَهْلِ أَصُولِ الْفِقْهِ أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ مَوْصُولَةً أَفَادَتْ مَعَ (أَنَّ) الْحَصَرَ. وَ﴿ذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الرُّكْبِ الْمَبْطُطِ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالشَّيْطَانِ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، أَوْ أَبُو سُفْيَانَ. فَعَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَكُونُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَعْيَانٍ. وَقِيلَ: ﴿ذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى جَمِيعِ مَا جَرَى مِنْ

أَخْبَارِ الرُّكْبِ الْعَبْدِيِّينَ عَنْ رِسَالَةِ أَبِي سُفْيَانَ، وَتَحْمِيلِ أَبِي سُفْيَانَ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَجَزَعَ مَنْ جَزَعَ مِنْهُ مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُتَرَدِّدٍ. فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْإِشَارَةُ إِلَى مَعَانٍ، وَلَا بُدَّ إِذْ ذَاكَ مِنْ تَقْدِيرٍ مُضَافٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (إِنَّمَا ذَلِكَم فِعْلُ الشَّيْطَانِ)، وَقَدَرَهُ الرَّخْشَرِيُّ: قَوْلُ الشَّيْطَانِ، أَيْ قَوْلُ إِبْلِيسَ. فَتَكُونُ الْإِشَارَةُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ إِلَى الْقَوْلِ السَّابِقِ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاحْشَوْهُمْ. وَعَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا فَالْحَبْرُ عَنِ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ ﴿ذَلِكَم﴾ بِالشَّيْطَانِ هُوَ مَجَازٌ؛ لِأَنَّ الْأَعْيَانَ لَيْسَتْ مِنْ نَفْسِ الشَّيْطَانِ، وَلَا مَا جَرَى مِنْ قَوْلٍ فَقَطُّ أَوْ مِنْ قَوْلٍ. وَمَا انْضَمَّ إِلَيْهِ مِمَّا صَدَرَ مِنَ الْعَدُوِّ مِنْ تَخْوِيفٍ، وَمَا صَدَرَ مِنْ جَزَعٍ لَيْسَ نَفْسَ قَوْلِ الشَّيْطَانِ وَلَا فِعْلِهِ، وَإِنَّمَا نُسِبَ إِلَيْهِ وَأُضِيفَ؛ لِأَنَّهُ نَاشِئٌ عَنْ وَسْوَستِهِ وَإِغْوَائِهِ وَإِلْقَائِهِ. وَالتَّشْدِيدُ فِي ﴿يُخَوِّفُ﴾ لِلنَّقْلِ، كَانَ قَبْلَهُ يَتَعَدَّى لِوَاحِدٍ، فَلَمَّا ضَعُفَ صَارَ يَتَعَدَّى لِاثْنَيْنِ، وَهُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَجُوزُ حَذْفُ مَفْعُولَيْهَا، وَأَحَدُهَا اقْتِصَارٌ أَوْ اخْتِصَارٌ، أَوْ هُنَا تَعَدَّى إِلَى وَاحِدٍ، وَالْآخِرُ مَحْذُوفٌ. فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُ، وَيَكُونَ التَّقْدِيرُ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: أَيْ شَرَّ أَوْلِيَائِهِ فِي هَذَا الْوَجْهِ؛ لِأَنَّ الدَّوَاتَ لَا تَخَافُ، وَيَكُونُ الْمَحْوُوفُونَ إِذْ ذَاكَ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَحْذُوفُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي، أَيْ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ شَرَّ الْكُفَّارِ، وَيَكُونُ ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ فِي هَذَا الْوَجْهِ هُمْ: الْمَنَافِقُونَ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ الْمَتَحَلِّفُونَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَيْ أَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى تَخْوِيفُهُ الْمَنَافِقِينَ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ تَخْوِيفُهُ. وَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ يَكُونُ ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾: هُمْ الْكُفَّارِ: أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ إِذْ ظَهَرَ فِيهَا أَنَّ الْمَحْذُوفَ هُوَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ. وَقَرَأَ أَبُو النَّخَعِيِّ: (يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ)، فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (الباءُ) زَائِدَةً مِثْلَهَا فِي: (يَقْرَأَنَّ بِالسُّورِ)، وَيَكُونُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي هُوَ بِأَوْلِيَائِهِ، أَيْ أَوْلِيَاءَهُ، كَقِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (الباءُ) لِلْسَّبَبِ، وَيَكُونُ مَفْعُولُ يُخَوِّفُ الثَّانِي مَحْذُوفًا، أَيْ يُخَوِّفُكُمْ الشَّرَّ بِأَوْلِيَائِهِ، فَيَكُونُونَ آلَةً لِلتَّخْوِيفِ. وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ الْمُعَرِّبِينَ قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ عَلَى أَنَّ التَّقْدِيرَ: بِ(أَوْلِيَائِهِ)، فَيَكُونُ إِذْ ذَاكَ قَدْ حَذَفَ

مَفْعُولًا ﴿يُخَوِّفُ﴾؛ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَى الْحَذَفِ، وَالتَّقْدِيرُ: (يُخَوِّفُكُمْ الشَّرُّ بِأَوْلِيَائِهِ)، وَهَذَا بَعِيدٌ. وَالْأَحْسَنُ فِي الْإِعْرَابِ: أَنْ يَكُونَ ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمْ﴾: مُبْتَدَأً، وَ﴿الشَّيْطَانُ﴾: حَبْرُهُ. وَ﴿يُخَوِّفُ﴾: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ حَالٌ مَحْيٍ الْمَفْرَدَ مَنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ مَكَانَهَا، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ تُيُوثُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، وَنَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا بَعْطِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. وَأَجَازَ أَبُو الْبَقَاءِ: أَنْ يَكُونَ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بَدَلًا، أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ، وَيَكُونَ ﴿يُخَوِّفُ﴾ حَبْرًا عَنْ ﴿ذَلِكُمْ﴾. وَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ حَبْرُ ﴿ذَلِكُمْ﴾، بِمَعْنَى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الْمَبْطُطُ هُوَ الشَّيْطَانُ، وَ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ بَيَانٌ لَتَنْبِيْطِهِ، أَوْ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صِفَةٌ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ، وَ﴿يُخَوِّفُ﴾ الْحَبْرُ. وَالْمُرَادُ بِالشَّيْطَانِ هُنَا نُعِيمٌ، أَوْ أَبُو سُفْيَانَ. انْتَهَى كَلَامُهُ. فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ الْجُمْلَةُ لَا مَوْضِعَ لَهَا مِنْ الْإِعْرَابِ. وَإِنَّمَا قَالَ: وَالْمُرَادُ بِالشَّيْطَانِ: نُعِيمٌ، أَوْ أَبُو سُفْيَانَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ صِفَةً، وَالْمُرَادُ بِهِ إِبْلِيسُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُريدَ بِهِ إِبْلِيسُ كَانَ إِذْ ذَاكَ عَلَمًا بِالْعَلْبَةِ؛ إِذْ أَصْلُهُ صِفَةٌ كَالْعَيُوقِ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى إِبْلِيسَ، كَمَا غَلَبَ الْعَيُوقُ عَلَى النَّجْمِ الَّذِي يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَيُّ فَإِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَالْجُودُوا إِلَيَّ، فَأَنَا كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: أَيُّ قَوْلُ الشَّيْطَانِ. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: ﴿يُخَوِّفُ﴾: أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ بِقَوْلِهِ. ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾: أَيُّ الْكُفَّارِ، وَحِينَئِذٍ ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ ثَانِي مَفْعُولِي يُخَوِّفُ، وَالْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ، أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، كَمَا قُرِئَ كَذَلِكَ. وَقِيلَ: لَا حَذَفَ فِيهِ، وَالْمَعْنَى: يُخَوِّفُ مَنْ يَتَّبِعُهُ، فَأَمَّا مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلَا يَخَافُهُ. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: أَيُّ فَلَا تَخَافُوا أَوْلِيَاءَهُ. ﴿وَخَافُونَ﴾: أَيُّ فِي مُحَالَفَةِ أَمْرِي وَرَسُولِي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَيُّ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي إِثَارَ خَوْفِ اللَّهِ عَلَى خَوْفِ غَيْرِهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمْ﴾: الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَبْطُطِ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ. وَالخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بِمَعْنَى إِبْلِيسَ؛ لِأَنَّهُ عَلَّمَ لَهُ بِالْعَلْبَةِ حَبْرَهُ عَلَى

التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُبَيَّنَّةٌ لِشَيْطَانِهِ، أَوْ حَالٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ [النمل: ٥٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إِنْ كَانَ الْخِطَابُ لِلْمُتَخَلِّفِينَ فَلَا مُرَّ فِيهِ وَاضِحٌ، وَإِنْ كَانَ لِلْخَارِجِينَ كَانَ مُسَاقًا لِلْأَهَابِ وَالتَّهْيِيجِ لَهُمْ؛ لِتَحَقُّقِ إِيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لِلْجَمِيعِ فَفِيهِ تَغْلِيظٌ. وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْجَزَاءُ مَحْذُوفٌ. وَقِيلَ: إِنْ كَانَ الْخِطَابُ فِيمَا تَقَدَّمَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُلُوصِ لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَى الْجَزَاءِ؛ لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى التَّغْلِيلِ، وَإِنْ كَانَ لِلْآخَرِينَ افْتَقَرَ إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَخَافُونِي وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِي؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ يَفْتَضِي أَنْ تُؤَثِّرُوا خَوْفَ اللَّهِ عَلَى خَوْفِ النَّاسِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَيِ فَلَا تَخَافُوا الْمَشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ نَوَاصِيَهُمْ بِيَدِ اللَّهِ، لَا يَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِقُدْرِهِ، بَلْ خَافُوا اللَّهَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ الْخَائِفِينَ مِنْهُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَجُوبُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيْمَانِ، فَعَلَى قَدْرِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ. وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ: مَا حَجَزَ الْعَبْدَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. وَقَالَ الْعَثِيمِيُّ: ﴿إِنَّمَا﴾: أَدَاةُ حَصَرٍ، وَالْحَصَرُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ: إِثْبَاتُ الْحُكْمِ لِلْمَحْصُورِ فِيهِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهُ. إِذَا فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ نَفْيِ وَإِثْبَاتِ، وَلَهُ طَرَقٌ مِنْهَا: ﴿إِنَّمَا﴾. وَمِنْهَا: تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ. وَمِنْهَا: النَفْيُ وَالْإِثْبَاتُ، مِثْلُ: (لَا قَائِمَ إِلَّا زَيْدٌ). وَمِنْهَا: إِذَا كَانَتْ الْجُمْلَةُ اسْمِيَّةً مَعْرِفًا طَرَفَاهَا. ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: يَعْنِي مَا الشَّيْطَانُ إِلَّا مَخَوْفٌ لِأَوْلِيَائِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمُ﴾ تَضَمَّنَ إِشَارَةً، أَيِ مِشَارًا إِلَيْهِ وَمَخَاطَبًا، فَالْإِشَارَةُ: (ذَا)، وَالْمَخَاطَبُ: (الْكَافُ). وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ رَاعَى فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ الْمِشَارَ إِلَيْهِ وَهُوَ الشَّيْطَانُ وَاحِدٌ، وَرَاعَى فِي (الْكَافِ) الْجَمَاعَةَ الْمَخَاطَبِينَ. ﴿الشَّيْطَانُ﴾: يَجُوزُ فِي إِعْرَابِهَا وَجْهَانِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ خَيْرًا لِلْمُبْتَدَأِ (ذَا). الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بَدَلًا مِنَ الْمُبْتَدَأِ (ذَا) أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ عَلَيْهِ. فَعَلَى الْأَوَّلِ: تَكُونُ جُمْلَةً: ﴿يُخَوِّفُ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ. وَعَلَى الثَّانِي: تَكُونُ خَيْرَ الْمُبْتَدَأِ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَالشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيََاءَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُخَوِّفُ﴾ تَنْصِبُ مَفْعُولِينَ بِالتَّحْوِيلِ؛

فالمفعول الأول محذوف، وتقديره: (يخوفكم)، (وأولياءه) هي المفعول الثاني، إذاً المعنى: أنّ الشيطان يخوف الناس من أوليائه، أي يعظمهم في صدوركم حتى تخافوهم وتتركوا الجهاد وتتركوا الدعوة؛ لأنكم تخافون منهم بسبب تخويف الشيطان. وأولياء الشيطان: هم كلّ مجرم، وفاسق، وملحد، وكافر، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: أي لا يؤثر فيكم تخويفه فتخافوا منهم، فيؤثروا عليكم بهذا في ترك الجهاد. ﴿وَحَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فلا تتأثروا بهم وجاهدوا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: (إن) شرطية، ولعلماء العربية في مثل هذه الجملة وجهان: الوجه الأول: أنها جملة شرطية لا تحتاج إلى جواب؛ لأنه مفهوم ممّا سبق، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله. الوجه الثاني: أنها تحتاج إلى جواب، وأنّ جوابها محذوف معلوم ممّا سبق، أي فلا تخافوهم إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾:
- سبب نزول الآية: قال السمرقندي: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي بِهِ الْمُنَافِقِينَ وَرُؤَسَاءَ الْيَهُودِ، كَتَمُوا صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكِتَابِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ. وَيُقَالُ: إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ حَقًّا لَاتَّبَعُوهُ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ. وقال القرطبي: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا خَوْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَاعْتَمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ فِيهِمْ.
- مناسبة الآية للتي قبلها: قال أبو حيان: لَمَّا هَمَّى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ خَوْفِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَأَمَرَهُمْ بِخَوْفِهِ وَخَدَهُ تَعَالَى، هَمَّى رَسُولُهُ عَنِ الْحَزَنِ لِمُسَارَعَةِ مَنْ سَارَعَ فِي الْكُفْرِ.

وقال البقاعي: لَمَّا مَدَحَ اللهُ الْمَسَارِعِينَ فِي طَاعَتِهِ، وَحَتَمَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْخَوْفِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، أَعَقَّبَهُ بِدَمِّ الْمَسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْحُزْنِ مِنْ أَجْلِهِمْ.

● تفسير الآية:

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: قال الواحدي: معنى مسارعتهم في الكفر: مُظَاهَرَتُهُمُ الْكُفَّارَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وتأويله: يُسَارِعُونَ فِي نُصْرَةِ الْكُفْرِ. فإذا قيل: معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: لا تحزن لِكُفْرِهِمْ. والحزن على كفر الكافر، ومعصية العاصي، طاعة، فكيف نهي عنه؟ قيل: إنما نهي عنه النبي ﷺ؛ لأنه كان يُفْرِطُ وَيُسْرِفُ فِي الْحُزْنِ عَلَى كُفْرِ قَوْمِهِ، حتى كان يؤدي ذلك إلى أن يضرب به، فنهى عن الإسراف فيه؛ ألا ترى إلى قول الله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال ابن عطية: المسارعة في الكفر: هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والجِدُّ في ذَلِكَ. وقال ابن الجوزي: فِي الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أحدها: أَنَّهُمْ الْمُنَافِقُونَ، وَرُؤَسَاءُ الْيَهُودِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثاني: أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. الثالث: أَنَّهُمْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ. الرابع: أَنَّهُمْ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ. وقيل: مَعْنَى مُسَارِعَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ: مُظَاهَرَتُهُمْ لِلْكُفَّارِ، وَنَصْرُهُمْ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ لَا يُحْزِنُهُ الْمَسَارَعَةُ فِي الْكُفْرِ؟ فالجواب: لَا يَحْزُنُكَ فِعْلُهُمْ، فَإِنَّكَ مَنْصُورٌ عَلَيْهِمْ. وقال القرطبي: مُسَارِعَتُهُمْ فِي الْكُفْرِ: الْمُظَاهَرَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالْحُزْنُ عَلَى كُفْرِ الْكَافِرِ طَاعَةٌ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُفْرِطُ فِي الْحُزْنِ عَلَى كُفْرِ قَوْمِهِ، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقال ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ كَانَ يُحْزِنُهُ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشِّتَاقِ، فَقَالَ تَعَالَى: وَلَا يُحْزِنُكَ ذَلِكَ. وقال الثعالبي: المسارعة في الكفر: هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله، والجِدُّ في

ذلك، وسَلَّى الله نبيّه . عليه السلام . بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهرين إذ كلهم مسارعٌ. وقال الألوسي: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: خطابٌ لِلنَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. والمراد من الموصُول ﴿الَّذِينَ﴾: إمّا المنافقون المتخلفون، وإليه ذهب مجاهدٌ، وابنُ إسحاق. وإمّا قومٌ من العرب ارتدوا عن الإسلام؛ لمقاربة عبدة الأوثان، وإليه ذهب أبو عليّ الجبائي. وإمّا سائر الكفار، وإليه ذهب الحسن. وإمّا المنافقون وطائفة من اليهود حسبما عُرِّن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾، وإليه ذهب بعضهم. ومعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: يَفْعُونَ فِيهِ سَرِيعًا؛ لغاية حرصهم عليه، وشدة رغبتهم فيه. ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بـ(في) دون (إلى) الشائع تعديتها بها، كما في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وأوثر ذلك، قيل: للإشعار باستقراءهم في الكفر، ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، كما في قوله سبحانه في حق المؤمنين: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]. وأمّا إثناز كلمة (إلى) في آيتها؛ فلأن المغفرة والجنة مُنتهى المسارعة وغايتها. وقال ابن عاشور: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: أي يتوغلون فيه ويُعجلون إلى إظهاره وتأْييده والعمل به عند سُنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس الناس. وقال العثيمين: ﴿يُسَارِعُونَ﴾: أي يدخلون فيه بسرعة. وذلك أنه من المعلوم أنّ المسارعة تتعدى بـ(إلى) كما في قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وهنا جاءت (في) مكان (إلى)، وهذا من باب التضمن، وقد اختلف علماء النحو في مثل هذا التركيب إذا عُدي الفعل بغير الحرف المعتاد هل التجوّز بحرف الجرّ أو بالفعل الذي تعدّى بحرف الجرّ؟ على قولين: القول الأول: أنّ التجوّز في حرف الجرّ يعني أن نقدر حرفاً مناسباً للفعل، فنقول: (في) بمعنى (إلى). القول الثاني: أنّ التجوّز في الفعل بمعنى أن نضمن الفعل معنى يتعدّى بـ(في). والفرق بين القولين: أنه على القول الأول:

تُحوّل معنى الحرف الموجود إلى الحرف المناسب للفعل. وعلى القول الثاني: تُحوّل الفعل إلى المعنى المناسب للحرف، وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، المعروف أنّ (يشرب) تتعدّى بـ(من) وهنا تعدّت بـ(الباء)، فقال بعض النحويّين: (الباء) هنا بمعنى (من)، والتقدير: (يشرب منها عباد الله). وقال بعض العلماء: يشرب: بمعنى يروى، ومعلوم أنّ الرّيّ يستلزم الشرب، فيكون يشرب دالة على معنى الشرب بالزوم وعلى الرّي، ويكون هذا أبلغ ممّا لو قلنا: (يشرب منها)؛ لأنّ الإنسان قد يشرب ولا يروى، وهذا الأخير هو مذهب نحلة البصرة، أي أنهم يحوّلون الفعل إلى معنى مناسب للحرف؛ ليكون الفعل دالاً على معناه اللفظي، وعلى معناه التضميني، أو المعنى اللزومي. وعليه فيكون معنى الآية: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: أي يدخلون في الكفر مسرعين. وهذا المعنى الثاني أولى وأدقّ وأعمق، فإذا فسّرنا: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بقول: (يدخلون فيه بسرعة) تضمّن المسارعة والدخول في الشيء. وقوله تعالى: ﴿فِي الْكُفْرِ﴾: أصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه الكُفْرَى، وهو وعاء طلع النخل. أمّا في الاصطلاح: فالكفر: جحد ما جاء به النبي ﷺ، أو جحد بعضه، أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه، مثل الصلاة، فتركها كفر وإن لم يحد وجوبها.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: قال الواحدي: يعني: أنّ عائِدَ الوَبَالِ في ذلك عليهم، لا على غيرهم. وقال عطاء: يريد: لن يضرّوا أولياء الله شيئاً. وقال ابن عطية: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: حَبَرٌ في ضَمْنِهِ وَعِيدٌ لَهُمْ، أي إنّما يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ. وقال ابن الجوزي: في قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: لَن يُنْقِصُوا اللَّهَ شَيْئًا بِكُفْرِهِمْ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ، ومُقاتِلٌ. الثَّانِي: لَن يَضُرُّوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ شَيْئًا، قاله عطاء. وقال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ وَتَكْمِيلٌ لِلتَّسْلِيَةِ بِتَحْقِيقِ نَفْيِ ضَرَرِهِمْ أَبَدًا، أي لَن يَضُرُّوا بِذَلِكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْبَتَّةَ، وتَعْلِيلٌ نَفْيِ الضَّرَرِ بِهِ تَعَالَى؛ لِتَشْرِيفِهِمْ وَالْإِيذَانِ بِأَنَّ مُضَارَّتَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُضَارَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وفيه مَزِيدٌ مُبَالِغَةٍ فِي التَّسْلِيَةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿شَيْئًا﴾ فِي حَبْرِ النَّصَبِ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، أَيْ شَيْئًا مِنَ الضَّرَرِ. وَالتَّنْكِيرُ؛ لِتَأْكِيدِ مَا فِيهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ. وَقِيلَ: عَلَى نَزْعِ الْجَارِ، أَيْ بِشَيْءٍ مَا أَصْلًا. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَنْ يَنْقُصُوا بِذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ تَعَالَى وَسُلْطَانِهِ شَيْئًا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: هَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ أَنْ يُحْزَنَهُ تَسَارُعُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ بِعِلَّةٍ يُوقِنُ بِهَا الرَّسُولُ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .. وَمَوْقِعُ (إِنَّ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ: إِفَادَةُ التَّعْلِيلِ، وَ(إِنَّ) تُغْنِي عَنْهُ (فَاءُ) التَّسْبُوبِ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: الْجُمْلَةُ هُنَا مَحَلُّهَا مِمَّا قَبْلُهَا: تَعْلِيلٌ، أَيْ مَهْمَا سَارَعُوا فِي الْكُفْرِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: أَيْ لَنْ يُلْحِقُوا الضَّرَرَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يُنَالَ بِضَرَرٍ، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: "يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضُرُّونِي" رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿شَيْئًا﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، وَالنَّكْرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَفِيدُ الْعُمُومَ، أَيْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ أَيْ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: "يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْ سَكَمَ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا" رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ﴾: قَالَ الْمَوَارِدِيُّ: فِي إِرَادَتِهِ لِذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أَقْوَابِلَ: أَحَدُهَا: أَنْ يَحْكُمَ بِذَلِكَ. الثَّانِي: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ سَيُرِيدُ فِي الْآخِرَةِ أَنْ يَجْزِمَهُمْ ثَوَابَهُمْ؛ لِإِحْبَاطِ إِيْمَانِهِمْ بِكُفْرِهِمْ. الثَّالِثُ: يُرِيدُ أَنْ يُحْبِطَ أَعْمَالَهُمْ بِمَا اسْتَحَقُّوهُ مِنْ دُنُوبِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: يَعْنِي نَصِيبًا فِي الْجَنَّةِ. وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ، وَبَيَانٌ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِإِرَادَةِ اللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: الْحِزْبُ إِذَا لَمْ يُقَيَّدْ فَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِزْظٍ عَظِيمٍ﴾ [فَصَلَتْ: ٣٥]. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْجَنَّةِ. وَهُوَ نَصٌّ فِي أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِإِرَادَةِ اللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ﴾: أَيْ حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ

هَمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ: ﴿خَبْرٌ فِي ضَمْنِهِ وَعَيْدٌ لَهُمْ، أَيْ وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ. وَالْحَظُّ إِذَا أَطْلُقَ، فَإِنَّمَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُبَيَّنٌّ لِسِرِّ ابْتِلَائِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِهْمَاكِ فِي الْكُفْرِ. وَفِي ذِكْرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْإِيذَانِ بِكَمَالِ حُلُوصِ الدَّاعِي إِلَى حِرْمَانِهِمْ وَتَعْذِيْبِهِمْ حَيْثُ تَعَلَّقَتْ بِهِمَا إِرَادَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ مَا لَا يَخْفَى. وَصِيعَةُ الْإِسْتِقْبَالِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى دَوَامِ الْإِرَادَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا، أَيْ يُرِيدُ اللَّهُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ حَظًّا مِنَ الثَّوَابِ؛ وَلِذَلِكَ تَرَكَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصَمُونَ إِلَى أَنْ يَهْلِكُوا عَلَى الْكُفْرِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾: اسْتِثْنَاءٌ لِبَيَانِ الْمَوْجِبِ لِمُسَارَعَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَمْ يُسَارِعُوا فِي الْكُفْرِ مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؟ فَأُجِيبَ: بِأَنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا مِمَّا مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾: اسْتِثْنَاءٌ لِبَيَانِ جَزَائِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ السَّلَامَةَ مِنْ كَيْدِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ خَذَلَهُمْ وَسَلَبَهُمُ التَّوْفِيقَ فَكَانُوا مُسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ. وَالْحَظُّ: النَّصِيبُ مِنْ شَيْءٍ نَافِعٍ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾: أَيْ يَرِيدُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ: أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا، أَيْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ. وَالْإِرَادَةُ هُنَا: إِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ، أَيْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَهَكَذَا كُلُّ كَافِرٍ لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ، وَالْمُؤْمِنُ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: قَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَهُمْ﴾ مَعَ ذَلِكَ الْحِرْمَانِ الْكُلِّيِّ. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ. قِيلَ: لَمَّا دَلَّتِ الْمُسَارَعَةُ فِي الشَّيْءِ عَلَى عِظَمِ شَأْنِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ عِنْدَ الْمُسَارِعِ، وَصِفَ عَذَابُهُ بِالْعِظَمِ؛ رِعَايَةً لِلْمُنَاسَبَةِ وَتَنْبِيْهُهَا عَلَى حَقَارَةِ مَا سَارَعُوا فِيهِ وَخَسَاسَتِهِ فِي نَفْسِهِ. وَالْجُمْلَةُ إِمَّا مُبْتَدَأَةٌ مُبَيَّنَّةٌ لِحُظِّهِمْ مِنَ الْعِقَابِ إِثْرَ بَيَانِ أَنْ لَا شَيْءَ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَإِمَّا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي هَمْ، أَيْ يُرِيدُ اللَّهُ حِرْمَانَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ مُعَدًّا لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: أَيْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي

الكفر عقوبة ذو عظمة. وعظمة كل شيء بحسبه، فقد يكون مدحا وقد يكون ذمًا، ففي مقام المدح تكون العظمة مدحًا، وفي مقام الذم تكون العظمة ذمًا، فقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] كلمة (عظيم) هنا من باب الذم، وقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] من باب المدح، وفي هذا الموضع نقول: إن العقوبة لا شك أنها مكروهة عند الإنسان، فهي بالنسبة لفعل الله عدل، وبالنسبة للمخلوق المعذب قبح وذم.

● قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧):

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: ولما كان قبول نُعيم، وركب عبد القيس لذلك الجعل الذي هو من أسباب الكفر، شَرى الكفر بالإيمان، عَقِبَ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ...﴾. وقال العثيمين: هذه الآية صلتها بما قبلها: أنها كالتوكيد لها.

● تفسير الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: قال مكِّي: هذا أيضاً في المنافقين الذين تقدّم ذكرهم لما استبدلوا الكفر بعد الإيمان صاروا بمنزلة من باع شيئاً بشيء، ثم كرّر نفي الضرر عن نفسه تعالى بكفرهم؛ للتأكيد. وقال السمعاني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: أي استبدلوا. وكلّ شراء استبدال، وليس كلّ استبدال شراء. ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: أي لن ينقصوا الله شيئاً. وقال ابن عطية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾: أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا مُتَمَكِّينَ من قبول هذا وهذا، فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أخذ وحصل؛ إذ كانوا مُمَكِّنِينَ منه. وقال ابن الجوزي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: قال مجاهد: المنافقون آمنوا ثم كفروا.

وقال الرازي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: اعْلَمْ أَنَّ لَوْ حَمَلْنَا آيَةَ الْأُولَى عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ، وَحَمَلْنَا هَذِهِ آيَةَ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ لَا يَبْعُدُ أَيْضًا حَمْلُ آيَةِ الْأُولَى عَلَى الْمُرْتَدِّينَ، وَحَمْلُ هَذِهِ آيَةِ عَلَى الْيَهُودِ، وَمَعْنَى اشْتِرَاءِ الْكُفْرِ بِالْإِيمَانِ مِنْهُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَلَمَّا بُعِثَ كَفَرُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُمْ أَعْطَوْا الْإِيمَانَ وَأَخَذُوا الْكُفْرَ بَدَلًا عَنْهُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُشْتَرِي مِنْ إعْطَاءِ شَيْءٍ وَأَخَذِ غَيْرِهِ بَدَلًا عَنْهُ، وَلَا يَبْعُدُ أَيْضًا حَمْلُ هَذِهِ آيَةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مَتَى كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، فَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ كَفَرُوا وَتَرَكُوا الْإِيمَانَ، فَكَانَ ذَلِكَ كَأَنَّهُمْ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي آيَةِ الْأُولَى: ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ آيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، وَالْفَائِدَةُ فِي هَذَا التَّكْرَارِ أُمُورٌ: أَحَدُهَا: أَنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ أَوَّلًا، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْاضْطِرَابِ وَضَعْفِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الثَّبَاتِ، وَمِثْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ لَا خَوْفَ مِنْهُ وَلَا هَيْبَةَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ عَلَى إلْحَاقِ الضَّرَرِ بِالْغَيْرِ. وَثَانِيهَا: أَنَّ أَمْرَ الدِّينِ أَهَمُّ الْأُمُورِ وَأَعْظَمُهَا، وَمِثْلُ هَذَا مِمَّا لَا يُقَدِّمُ الْإِنْسَانُ فِيهِ عَلَى الْفِعْلِ أَوْ عَلَى التَّرَكِّ إِلَّا بَعْدَ إِمْعَانِ النَّظَرِ وَكَثْرَةِ الْفِكْرِ، وَهَؤُلَاءِ يُقَدِّمُونَ عَلَى الْفِعْلِ أَوْ عَلَى التَّرَكِّ فِي مِثْلِ هَذَا الْمِهْمِ الْعَظِيمِ بِأَهْوَنِ الْأَسْبَابِ وَأَضْعَفِ الْمَوْجِبَاتِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ عَقْلِهِمْ وَشِدَّةِ حِمَاقَتِهِمْ، فَأَمْتَالُ هَؤُلَاءِ لَا يَلْتَفِتُ الْعَاقِلُ إِلَيْهِمْ. وَثَالِثُهَا: أَنَّ أَكْثَرَهُمْ إِنَّمَا يُبَارِزُونَكَ فِي الدِّينِ، لَا بِنَاءً عَلَى الشُّبُهَاتِ، بَلْ بِنَاءً عَلَى الْحَسَدِ وَالْمِنَازَعَةِ فِي مَنْصِبِ الدُّنْيَا، وَمَنْ كَانَ عَقْلُهُ هَذَا الْقَدْرَ، وَهُوَ أَنَّهُ يَبِيعُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الدُّنْيَا السَّعَادَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْآخِرَةِ كَانَ فِي غَايَةِ الْحِمَاقَةِ، وَمِثْلُهُ لَا يَقْدِرُ فِي إلْحَاقِ الضَّرَرِ بِالْغَيْرِ، فَهَذَا هُوَ الْفَائِدَةُ فِي إِعَادَةِ هَذِهِ آيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: كُرِّرَ لِلتَّأْكِيدِ. وَقِيلَ: أَيُّ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ: اسْتَبْدَالَ الْإِيمَانَ

بِالْكُفْرِ وَبَيْعُهُ بِهِ، فَلَا يَخَافُ جَانِبَهُ وَلَا تَدْبِيرَهُ. وَانْتَصَبَ ﴿شَيْئًا﴾؛ لِوُقُوعِهِ مَوْقِعَ الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ ضَرًّا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا. وَيَجُوزُ انْتِصَابُهُ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ (الْبَاءِ)، كَأَنَّهُ قَالَ: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ بِشَيْءٍ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هَذَا عَامٌّ فِي الْكُفَارِ كُلِّهِمْ. وَقَوْلُهُ قَبْلُ: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ كَانَ عَامًّا، فَكَرَّرَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّوَكِيدِ وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالْمُنَافِقِينَ أَوْ الْمُرْتَدِّينَ أَوْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَيَكُونُ لَيْسَ تَكْرِيرًا عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ، بَلْ حُكْمٌ عَلَى الْعَامِّ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا. وَيَنْدَرِجُ فِيهِ ذَلِكَ الْخَاصُّ أَيْضًا، فَيَكُونُ الْحُكْمُ فِي حَقِّهِمْ عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ، وَيَكُونُ قَدْ جُمِعَ لِلْخَاصِّ الْعَذَابُ بِنَوْعَيْهِ مِنَ الْعَظَمِ وَالْأَلَمِ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي حَقِّهِمْ فِي الْعَذَابِ. وَجَعَلَ ذَلِكَ اشْتِرَاءً مِنْ حَيْثُ تَمَكُّنُهُمْ مِنْ قَبُولِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَاتَّزَوْا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: أَيِ اسْتَبَدَّلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: مَعْنَاهُ كَالأَوَّلِ، وَهُوَ لِلتَّأْكِيدِ لِمَا تَقَدَّمَ. وَقِيلَ: إِنَّ الْأَوَّلَ خَاصٌّ بِالْمُنَافِقِينَ، وَالثَّانِي يَغُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ. وَالأَوَّلُ أَوَّلِي. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: أَيِ أَحَدُوا الْكُفْرَ بَدَلًا مِنَ الْإِيمَانِ رَغْبَةً فِيمَا أَحَدُوا، وَإِعْرَاضًا عَمَّا تَرَكُوا؛ وَلِهَذَا وَضَعَ ﴿اشْتَرَوْا﴾ مَوْضِعَ (بَدَّلُوا) فَإِنَّ الْأَوَّلَ أَظْهَرَ فِي الرَّغْبَةِ، وَأَدُلُّ عَلَى سُوءِ الْإِخْتِيَارِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فِيهِ تَعْرِيضٌ ظَاهِرٌ؛ بِاقْتِصَارِ الضَّرَرِ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْمُؤْصُولِ هُنَا مَا أُريدَ مِنْهُ هُنَاكَ، وَالتَّكْرِيرُ؛ لِتَقْرِيرِ الْحُكْمِ وَتَأْكِيدِهِ بَيَانِ عِلَّتِهِ، بِتَغْيِيرِ عُنْوَانِ الْمُضَوِّعِ فَإِنَّ مَا دُكِرَ فِي حَيْزِ الصِّلَةِ؛ لِكَوْنِهِ عِلْمًا فِي الْخُسْرَانِ الْكُلِّيِّ. وَالْحِزْمَانُ الْأَبَدِيُّ صَرِيحٌ فِي لُحُوقِ ضَرَرِهِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَعَدَمُ تَعَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِمْ أَصْلًا، وَدَالٌّ عَلَى كَمَالِ سَخَافَةِ غُفُولِهِمْ، وَرَكَكَةِ آرَائِهِمْ، فَكَيْفَ يَتَأَتَّى مِنْهُمْ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَى قُوَّةِ الْحَزْمِ وَرِزَانَةِ الرَّأْيِ وَرِصَانَةِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُضَارَةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ تَكْفَّلَ سُبْحَانَهُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ؟. وَجُوزَ أَنْ يُرَادَ بِالْمُؤْصُولِ هُنَا عَامٌّ، وَيُرَادَ بِهِ هُنَاكَ خَاصٌّ، وَهُوَ مَا عَدَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ فِيهِ، وَالْجُمْلَةُ مُقَرَّرَةٌ

لَمْضُمُونَ مَا قَبَلَهَا؛ تَقْرِيرُ الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ لِمَا أُنْدَرَجَ تَحْتَهَا مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْأَحْكَامِ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أَيُّ مُؤْمٌ. وَالْجُمْلَةُ مُبْتَدَأَةٌ مُبَيَّنَّةٌ لِكَمَالِ فِطْرَةِ عَذَابِهِمْ بِذِكْرِ غَايَةِ إِيلَامِهِ بَعْدَ ذِكْرِ نَهَايَةِ عِظَمِهِ، أَوْ مُقَرَّرَةٌ لِلضَّرَرِ الَّذِي آذَنَتْ بِهِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى. قِيلَ: لَمَّا جَرَتْ الْعَادَةُ بِاغْتِبَاطِ الْمُشْتَرِي بِمَا اشْتَرَاهُ، وَشُرُورِهِ بِتَحْصِيلِهِ عِنْدَ كَوْنِ الصَّفَقَةِ رَاجِحَةً، وَتَأَلُّمِهِ عِنْدَ كَوْنِهَا خَاسِرَةً، وَصِفَ عَذَابُهُمْ بِالْإِيلَامِ؛ مُرَاعَاةً لِذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: تَكَرَّرَ الْجُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ قُصِدَ بِهِ مَعَ التَّأْكِيدِ، إِفَادَةُ هَذَا الْخَبَرِ اسْتِقْلَالًا؛ لِإِلَهْتِمَامِهِ بِهِ بَعْدَ أَنْ ذُكِرَ عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيلِ لِتَسْلِيَةِ الرَّسُولِ. وَفِي اخْتِلَافِ الصِّلَتَيْنِ: إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ مَضْمُونَ كُلِّ صِلَةٍ مِنْهُمَا هُوَ سَبَبُ الْخَبَرِ الثَّابِتِ لِمَوْصُولِهَا، وَتَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ ﴿إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ الْمُتَقَدِّمُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ﴾: أَيُّ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْكُفْرَ لَيْسَ سِلْعَةً يَبَاعُ وَيَشْتَرَى، فَالْإِشْتِرَاءُ هُنَا بِمَعْنَى الْإِخْتِيَارِ وَتَرْكِ الطَّرْفِ الْآخَرِ. فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هُمُ لَمْ يُؤْمِنُوا؟ قُلْنَا: لَكِنْ اخْتَارَهُمُ الْكُفْرَ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ التَّوْحِيدُ فَهَمُ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِيْمَانِ وَقَدْ سَبَقَ مَعْنَى الْكُفْرِ. أَمَّا الْإِيْمَانُ فَإِنَّهُ فِي اللُّغَةِ: قِيلَ: أَيُّ التَّصَدِيقِ، وَاسْتَدَلُّوا لَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُفُ: ١٧]. وَقِيلَ: أَيُّ الْإِقْرَارِ، وَالْإِقْرَارُ أَخَصُّ مِنَ التَّصَدِيقِ، وَاسْتَدَلَّ هَؤُلَاءُ بِأَنَّ الْكَلِمَةَ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ فَلَا بَدَّ أَنْ تَتَعَدَّى بِمَا تَتَعَدَّى بِهِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِيْمَانَ لَا يَتَعَدَّى كَمَا يَتَعَدَّى التَّصَدِيقُ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: صَدَّقْتَهُ وَلَا تَقُولُ: آمَنْتَهُ. إِذَا فَلَيْسَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدًا، فَمَعْنَى الْإِيْمَانِ: الْإِقْرَارُ، هَذَا فِي اللُّغَةِ. أَمَّا فِي الشَّرْعِ: فَهُوَ الْإِقْرَارُ الْمُسْتَلْزَمُ لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَلَيْسَ بِمَجْرَدِ الْإِقْرَارِ إِيْمَانًا، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَقْبَلَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَيَذْعَنَ لَهُ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَبُو طَالِبٍ مُؤْمِنًا مَعَ أَنَّهُ مَقَرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يَذْعَنْ لَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْإِيْمَانُ: أَيُّ الْإِقْرَارِ الْمُسْتَلْزَمُ لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الْإِيْمَانَ شَامِلٌ لِلْإِعْتِقَادِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ، وَعَمَلِ الْجَوَارِحِ وَعَمَلِ الْقَلْبِ، أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ كُلِّهَا

من الإيمان. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هنا قال: إنه أليم، وهناك قال: إنه عظيم، فيجتمع في عذابهم: العظيم والأليم، وأليم هنا بمعنى: مؤلم، وليس بمعنى شديد، فهو بمعنى اسم الفاعل من الرباعي: ألمه يؤلمه إيلاًماً فهو مؤلم.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا كَانَ مِمَّا اشْتَرِي بِهِ الْكُفْرُ رُجُوعُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ أَحَدِ الَّذِينَ كَانَ سَبَبًا لِلْإِثْمَاءِ لَهُمْ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: قال السمرقندي: أي لا يظن الكفار أنّ الذي نُملي لهم ونمهلهم خير لهم. ويقال: ما نعطيه من المال والولد لا يظننّ أنّ ذلك خير لهم في الآخرة. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِنَّمَا تُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي نعطى لهم المال والولد، يهانون به من العذاب. ويقال: ﴿إِنَّمَا تُثَمِّلِي لَهُمْ﴾: أي بما أصابوا من الظفر يوم أحد لم يكن ذلك خيراً لأنفسهم، وإنما كان؛ ليزدادوا عقوبة. ويقال: ﴿إِنَّمَا تُثَمِّلِي لَهُمْ﴾: أي نؤخر العذاب عنهم؛ ليزدادوا إثماً، أي جرأة على المعاصي. وإنما كان ذلك مجازة لكفرهم وخبت نياتهم. وَرُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: "ما من برٍّ وفاجر إلا والموت خير له؛ لأنه إن كان برّاً فقد قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وإن كان فاجراً فقد قال: ﴿إِنَّمَا تُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. [آل عمران: ١٧٨]". وقال مكّي: قيل: إنّ الآية مخصوصة أريد بها قوم بأعيانهم علم الله منهم أنهم لا يسلمون أبداً، وليست في كلّ كافر؛ إذ قد يكون الإيماء له ممّا

يدخله في الإيمان، فيكون أحسن له، وهو الصحيح في المعاني. و﴿الَّذِينَ﴾ رَفَعُ بَأْنَهُ فاعل (يَحْسِبُ)، وإذا كان ﴿الَّذِينَ﴾ فاعلاً اقتضى (يَحْسِبُ) مفعولين؛ لأنَّه يتعدى إلى مفعولين، أو إلى مفعولٍ يَسُدُّ مَسَدَ مفعولين، وذلك إذا جرى ذِكْرُ الحديثِ والمُحَدِّث عنه، نحو: (حَسِبْتُ أَنَّ زَيْدًا مُنْطَلِقًا)، و(حَسِبْتُ أَنَّ يَوْمَ عَمْرُو)، فجرى فيما تَعَدَّى إِلَيْهِ (حَسِبْتُ) الحديث، وهو الانطلاق والقيام. والمُحَدِّث عنه، وهو زيدٌ أو عَمْرُو. فقام المفعول الواحدُ مقامَ المفعولين. وفي قوله: ﴿أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ قد سَدَّ مَسَدَ المفعولين الَّذِينَ يفتضيهما ﴿يَحْسِبَنَّ﴾. وقوله: ﴿أَنَّمَا﴾: (مَا) تحمل وجهين: أحدهما: أَنَّ يَكُونُ بمعنى (الذي)، فيكون التقدير: لا يحسبنَّ الذين كفروا أَنَّ الذي نمليه خيرٌ لأنفسهم، وَحَذَفَ (الهَاءَ) مِنْ ﴿تُمْلِي﴾؛ لأنه يجوز حذفُ الهاءِ مِنْ صِلَةِ (الذي)، كقولك: (الذي رأيْتُ زَيْدًا). الوجه الآخر: أَنَّ يَكُونُ (مَا) بمنزلة الإملاء، فيكون مصدرًا، وإذا كان مصدرًا لم تقتضِ راجعًا إليها. ومعنى ﴿تُمْلِي﴾ في اللغة: نُطِيلُ، وَنُؤَخِّرُ. والإملاء: الإمهال والتأخير. واشتقاقه من (المِلْوَةُ)، وهي: المِدَّةُ من الزمان. يقال: (مِلْوَةٌ مِنْ الدَّهْرِ)، و(مِلْوَةٌ، وَمِلْوَةٌ، وَمِلَاوَةٌ، وَمِلَاوَةٌ). ومنه قولُ العَرَبِ: (البَسَ جَدِيدًا، وَتَمَلَّ حَبِيبًا): أي لَتَطُلْ أَيَّامُكَ مَعَهُ. وقال الأصمعيّ: (أَمْلَى عَلَيْهِ الزَّمَانُ): أي طَالَ عَلَيْهِ. و(أَمْلَى لَهُ): أي طَوَّلَ لَهُ، وَأَمْهَلَهُ. قال أبو عبيدة: ومنه: (المَلَأَ): الأرض الواسعة الطويلة. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ﴾: يريد تماديهم في معاصي الله. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾: قال ابن الأنباري: قال جماعة من أهل العلم: أنزل الله هذه الآية في قوم يعاندون الحقَّ سَبَقَ في علمه أنهم لا يؤمنون، فقال: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ بمعاندتهم الحقَّ، وَخِلَافِهِمُ الرِّسُولَ. وقد قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتَ الله يُعْطِي عَلَى المعاصي، فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللَّهِ لِحَلْقِهِ"، ثم تلا هذه الآية. رواه أحمد، وصحَّحه الألباني. قال الزَّجَّاج: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ، أَعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا. وقال السمعاني: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي لَا يَظُنُّنَّ. ﴿أَنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

لأنفسهم: الإملاء: إطالة العمر. والإمهال: التأخير، ويُقال لليل والنهار: ملوان. ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾: أي إِنَّمَا نطيل عمرهم ليزدادوا إِثْمًا. وقال ابن عطية: مُلِّي: مَعْنَاهُ: نُمَلِّهُلُ ونَمُدُّ في العُمُر، والمِلاوَةُ: المِدَّةُ مِنَ الدَّهْرِ، والملوان اللَّيْلُ والنَّهَارُ، وتَقُولُ: مَلَاكَ اللهُ النِّعْمَةَ أَي: مَنَحَهَا عُمُرًا طَوِيلًا. وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: الرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ كَوْنَنَا ظَاهِرِينَ مُؤْمِلِينَ أَصَحَّةً، دَلِيلٌ عَلَى رِضَى اللهِ بِحَالِنَا وَاسْتِقَامَةِ طَرِيقَتِنَا عِنْدَهُ، فَأَخْبَرَ اللهُ أَنَّ ذَلِكَ التَّأخِيرَ وَالْإِمهَالَ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءٌ وَاسْتِدْرَاجٌ، لِيَكْتَسِبُوا الْآثَامَ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: وَصَفُ الْعَذَابِ بِالْمِهِينِ مَعْنَاهُ: التَّخْشِيسُ لَهُمْ، فَقَدْ يُعَذَّبُ مَنْ لَا يُهَانُ، وَذَلِكَ إِذَا اعْتَقَدْتَ إِقَالَهُ عَثَرَتِهِ يَوْمًا مَا. وقال ابن الجوزي: احْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَنَافِقِينَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: فِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، قَالَهُ عَطَاءٌ. الثَّالِثُ: فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. الرَّابِعُ: فِي كُلِّ كَافِرٍ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وقال القرطبي: الإملاء: طُولُ الْعُمُرِ وَرَعْدُ الْعَيْشِ. وَالْمَعْنَى: لَا يَحْسَبَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخَوِّفُونَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، وَإِنَّمَا يَطُولُ أَعْمَارُهُمْ لِيَعْمَلُوا بِالْمَعَاصِي، لَا لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ. وَيُقَالُ: ﴿أَتَمَّا نُمَلِّي لَهُمْ﴾: أَي بِمَا أَصَابُوا مِنَ الظَّفَرِ يَوْمَ أُحُدٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ؛ لِيُزَادُوا عُقُوبَةً. وقال أبو حيان: وَصَفَ تَعَالَى عَذَابَهُ فِي مَقَاطِعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ: بِ(عَظِيمٍ، وَأَلِيمٍ، وَمُهِينٍ)، وَلِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مُنَاسَبَةٌ تَقْتَضِي حَتْمَ الْآيَةِ بِهَا: أَمَّا الْأُولَى: فَإِنَّ الْمُسَارَعَةَ فِي الشَّيْءِ وَالْمُبَادَرَةَ فِي تَحْصِيلِهِ وَالتَّحَلِّيَ بِهِ يَقْتَضِي جَلَالَهَ مَا سُورِعَ فِيهِ، وَأَنَّهُ مِنَ النَّفَاسَةِ وَالْعِظَمِ بِحَيْثُ يَتَسَابَقُ فِيهِ، فَحُتِمَتِ الْآيَةُ بِعِظَمِ الثَّوَابِ وَهُوَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى الْمُسَارَعَةِ فِي الْكُفْرِ إِشْعَارًا بِخَسَاسَةِ مَا سَابَقُوا فِيهِ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِيهَا اشْتِرَاءَ الْكُفْرِ بِالْإِيمَانِ، وَمِنْ عَادَةِ الْمُشْتَرِيِ الْإِغْتِبَاطُ بِمَا اشْتَرَاهُ وَالشُّرُورُ بِهِ وَالْفَرَحُ، فَحُتِمَتِ الْآيَةُ؛ لِأَنَّ صَفَقَتَهُ خَسِرَتْ بِأَلَمِ الْعَذَابِ، كَمَا يَجِدُهُ الْمُشْتَرِي الْمَغْبُونُ فِي تِجَارَتِهِ. وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْإِمْلَاءَ وَهُوَ الْإِمْتِنَاعُ بِالْمَالِ وَالْبَيْنِ وَالصَّحَّةِ، وَكَانَ هَذَا الْإِمْتِنَاعُ سَبَبًا لِلتَّعَزُّزِ وَالتَّمَتُّعِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، فَحُتِمَتِ الْآيَةُ

بإهانة العذاب لهم، وأنَّ ذلك الإملاء المنتَج عنه في الدنيا التَّعَزُّزُ والاستِطالة مآله في الآخرة إلى إهانتهم بالعذاب الذي يُهيئُ الجابرة. وقال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ...﴾. والفعل مُسنَدٌ إلى الموصول. و(أَنَّ) بما في حيزها سادة مسدَّة مفعوليه عند سيوئيه؛ لِتَمَامِ المقصودِ بها، وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدأ والخبر، أو مسدَّة أحدهما والآخر مخذوفٌ عند الأخفش، و(مَا) مصدرية، أو موصولةٌ خذِفَ عائِدها ووصلها في الكتابة لِاتِّبَاعِ الإمام، أي لا يحسبن الكافرون أنَّ إملاءنا لهم، أو أنَّ ما نُثَمِّلِيه لهم خَيْرٌ لأنفسهم، أو لا يحسبن الكافرون خيريَّةً إملاءنا لهم، أو خيريَّةً ما نُثَمِّلِيه لهم ثابتة، أو واقعة ومآله نهيههم عن السُّرُورِ بظاهرِ إملائه تعالى لهم بناءً على حُسنِ خيريَّته لهم وتحسينهم ببيان أنَّه شرٌّ بَحَثٌ وضررٌ محضٌ، كما أنَّ مآل المعطوفِ عليه نهْيُ الرُّسُولِ ﷺ عن الحزن بظاهرِ حالِ الكفرة بناءً على توهم الضررِ من قبلهم وتسلية. عليه السلام. ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية. والمراد بالموصول إمَّا جنسُ الكفرة، فيندرج تحت حكمه الكلِّيُّ أحكامُ المعهودين اندراجاً أولياً، وإمَّا المعهودون خاصة، فإثثارُ الإظهارِ على الإضمار؛ لِرِعايةِ المقارنة الدائمة بين الصلَّة وبين الإملاء الذي هو عبارة عن إهمالهم وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلاً، فإنَّ المقارنَ له دائماً إمَّا هو الكُفرُ المستمرُّ لا المسارعة المذكورة ولا الإشتراء المذكور، فإنَّهما من الأحوال المتجددة المنقضية في تضاعيف الكُفرِ المستمرِّ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾: استئنافٌ مبينٌ لحكمة الإملاء. و(مَا) كافة. و(اللام) لامُ الإرادة، ﴿وَهُمْ﴾: أي في الآخرة. ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: لَمَّا تَصَمَّنَ الإملاء التمتع بطيَّبات الدنيا وزينتها وذلك بما يستدعي التعزُّز والتَّجَبُّر. ووصف عذابهم بالإهانة؛ لِيَكُونَ جزاؤهم جزاءً وفاقاً. والجُمْلَةُ إمَّا مُبتدأةٌ مُبينَّةٌ لِحالهم في الآخرة إثرَ بيانِ حالهم في الدنيا، وإمَّا حالٌ من (الواو)، أي لِيَزْدَادُوا إِثْمًا مُعدَّةً لهم عذابٌ مُهِينٌ. وقال القاسمي: لطائف: في (مَا) من قوله: ﴿إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ﴾: وجهان: أن تكون مصدرية،

أَوْ مَوْصُولَةً، حُذِفَ عَائِدُهَا. أَيِ إِمْلَاؤُنَا لَهُمْ، أَوْ الَّذِي تُمْلِيهِ لَهُمْ. الثَّانِيَةُ: كَانَ حَقُّ (مَا) فِي قِيَاسِ عِلْمِ الْخَطِّ أَنْ تُكْتَبَ مَفْصُولَةً، وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ فِي مُصْحَفِ الْإِمَامِ مُتَّصِلَةً، فَلَا يُخَالَفُ، وَتُبِعَ سُنَّةُ الْإِمَامِ فِي خَطِّ الْمَصَاحِفِ. الثَّالِثَةُ: (مَا) الثَّانِيَةُ فِي: ﴿إِنَّمَا تُمْلَى﴾ إِنْخِ مُتَّصِلَةً؛ لِأَنَّهَا كَافَّةٌ. الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُهِينٌ﴾ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَهُوَ أَنَّه لَمَّا تَصَمَّنَ الْإِمْلَاءُ التَّمَتُّعَ بِطَيِّبَاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَذَلِكَ بِمَا يَسْتَدْعِي التَّعَزُّرَ وَالتَّجَبُّرَ، وَصَفَ عَذَابُهُمْ بِالْإِهَانَةِ؛ لِيَكُونَ جَزَاؤُهُمْ جَزَاءً وَفَاقًا. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيِ وَلَا يَظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَنَابَذُوا دِينَهُ، وَحَارَبُوا رَسُولَهُ، أَنْ تَرَكَنَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَعَدَمَ اسْتِثْنَاءَنَا لَهُمْ، وَإِمْلَاءُنَا لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ، وَمَحَبَّةٌ مِنَّا لَهُمْ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِشَرِّ يَرِيدُهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَزِيَادَةُ عَذَابٍ وَعَقُوبَةٍ إِلَى عَذَابِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، فَاللَّهُ يَمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى يَزِدَّادَ طُغْيَانَهُ، وَيَتَرَادَفَ كُفْرَانَهُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْإِمْلَاءُ: الْإِمْهَالُ فِي الْحَيَاةِ، وَالْمِرَادُ بِهِ هُنَا تَأْخِيرُ حَيَاتِهِمْ، وَعَدَمُ اسْتِثْنَائِهِمْ فِي الْحَرْبِ، حَيْثُ فَرِحُوا بِالنَّصْرِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَبِأَنَّ قَتْلَى الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلَاهُمْ. وَيُجَوِّزُ أَنْ يُرَادَ بِالْإِمْلَاءِ: التَّحْلِيَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْمَالِهِمْ فِي كَيْدِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرْبِهِمْ وَعَدَمُ الْأُخْذِ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِالْهَرِيمَةِ وَالْقَتْلِ كَمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، يُقَالُ: أَمْلَى لِفَرَسِهِ إِذَا أَرْخَى لَهُ الطَّوْلَ فِي الْمَرْعَى، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْمَلُوِّ بِ(الْوَاوِ) وَهُوَ سَيْرُ الْبَعِيرِ الشَّدِيدِ، ثُمَّ قَالُوا: أَمْلَيْتُ لِلْبَعِيرِ وَالْفَرَسِ إِذَا وَسَّعْتُ لَهُ فِي الْقَيْدِ؛ لِأَنَّهُ يَتِمَكَّنُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَبَبِ وَالرَّكْضِ، فَشُبِّهَ فِعْلُهُ بِشِدَّةِ السَّيْرِ، وَقَالُوا: أَمْلَيْتُ لِرَبْدٍ فِي عَيْهِ، أَيِ تَرَكْتُهُ: عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَأَمْلَى اللَّهُ لِفُلَانٍ: أَخَّرَ عِقَابَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وَاسْتُعِيرَ التَّمْلِي لَطَوِيلِ الْمَدَّةِ؛ تَشْبِيْهًُا لِلْمَعْقُولِ بِالْمُحْسُوسِ، فَقَالُوا: مَلَأَكَ اللَّهُ حَبِيْبَكَ تَمْلِيَةً، أَيِ أَطَالَ عُمرَكَ مَعَهُ. وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ﴾: (أَنَّ) أُحْتُ إِنَّ الْمَكْسُورَةَ الْهَمْزَةَ، وَ(مَا) مَوْصُولَةٌ وَلَيْسَتْ زَائِدَةً، وَقَدْ كُتِبَتْ فِي الْمَصْحَفِ كَلِمَةً وَاحِدَةً كَمَا تُكْتَبُ إِنَّمَا الْمَرْكَبَةُ مِنْ (إِنَّ) أُحْتُ أَنْ وَ(مَا) الزَّائِدَةُ

الكافّة، الّتي هي حَرْفُ حَصْرٍ بِمَعْنَى (مَا، وَإِلَّا)، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ تُكْتَبَ مَفْصُولَةً، وَهُوَ اصطِلَاحٌ حَدَثَ بَعْدَ كِتَابَةِ الْمُصَاحِفِ لَمْ يَكُنْ مُطَرِّدًا فِي الرَّسْمِ الْقَدِيمِ، عَلَى هَذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَاتُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ. وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمَّا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ هِيَ (أَمَّا) أُحْتُ (أَمَّا) الْمَكْسُورَةُ وَأَمَّا مُرَكَّبَةٌ مِنْ (أَنْ، وَمَا) الْكَافَّةِ الزَّائِدَةِ وَأَمَّا طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الْقَصْرِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ، وَأَنَّ الْمَعْنَى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا انْهِصَارَ إِمهَالِنَا لَهُمْ فِي أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا فَرَحُوا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْقَتْلِ وَبِالْبَقَاءِ بِقَيْدِ الْحَيَاةِ قَدْ أَضْمَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ اعْتِقَادَ أَنَّ بَقَاءَهُمْ مَا هُوَ إِلَّا خَيْرٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسُبُونَ الْقَتْلَ شَرًّا لَهُمْ؛ إِذْ لَا يُؤْمِنُونَ بِخِزَاءِ الشَّهَادَةِ فِي الْآخِرَةِ لِكُفْرِهِمْ بِالْبَعْثِ. فَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ فِي ظَنِّهِمْ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ رِسْمُهُمْ كَلِمَةً (أَمَّا) الْمُفْتُوحَةِ الْهَمْزَةِ فِي الْمُصْحَفِ جَارِيًا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ اصطِلَاحُ الرَّسْمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ هُوَ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَيَكُونُ سَادًّا مَسَدًّا الْمَفْعُولَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمَبْدَلَ مِنْهُ صَارَ كَالْمُتْرُوكِ، وَسَلِكْتَ طَرِيقَهُ الْإِبْدَالِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ التَّفْصِيلِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ الظَّنِّ بِالْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ يَسْتَدْعِي تَشَوُّفَ السَّامِعِ لِلْجِهَةِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا الظَّنُّ، وَهِيَ مَدْلُولُ الْمَفْعُولِ الثَّانِي، فَإِذَا سَمِعَ مَا يَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ بَعْدَ ذَلِكَ تَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ فَضَلَ تَمَكَّنَ وَزَادَ تَقَرُّبًا. وَقَوْلُهُ ﴿أَمَّا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا﴾: اسْتِنَافٌ وَقَعَ مَوْقِعَ التَّغْلِيلِ لِلنَّهْيِ عَنْ حُسْبَانِ الْإِمْلَاءِ خَيْرًا، أَيُّ مَا هُوَ بِخَيْرٍ لِأَنَّهُمْ يَزِدَادُونَ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ إِثْمًا. وَ(إِنَّمَا) هَذِهِ كَلِمَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ (إِنَّ) حَرْفُ التَّوَكِيدِ وَ(مَا) الزَّائِدَةُ الْكَافَّةُ وَهِيَ أَدَاءُ حَصْرٍ، أَيُّ مَا تُمْلِي لَهُمْ إِلَّا لِيَزِدَادُوا إِثْمًا، أَيُّ فَيَكُونُ أَخَذَهُمْ بِهِ أَشَدَّ. فَهُوَ قَصْرٌ قَلْبٍ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُمْلِي لَهُمْ وَيُؤَخِّرُهُمْ وَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ فَيَزِدَادُونَ إِثْمًا فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ، فَيَشْتَدُّ عِقَابُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ لَا يَكُونُ الْإِمْلَاءُ لَهُمْ خَيْرًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أَي لَا يَظُنُّ. ﴿أَمَّا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾: أَي نَمْلَهُمْ عَنِ الْأَخْذِ بِالْعُقُوبَةِ. ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: هُنَا يَقَعُ تَسَاوُلُ: لِمَاذَا كَانَتْ ﴿خَيْرٌ﴾ بِالرَّفْعِ، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿تُمْلِي﴾، وَالْفِعْلُ الْمَضَارِعُ يَنْصَبُ الْمَفْعُولَ بِهِ؟

والجواب: أن يقال: (مَا) اسم موصول، وليس حرف حصر، فتكون اسم (أَنَّ) وعليه يكون التقدير (أَنَّ الذي غلبي لهم خيرٌ) وإن كانت في المصحف مرسومة متصلة (بِأَنَّ) وصورتها صورة الحصر، ولكن هذا لا يمنع أن تكون اسمًا موصولًا؛ لأن العلماء اتَّبَعُوا في رسم المصحف الرسم العثماني، وإلا فهي على القاعدة الإملائية الموجودة الآن تكتب (أَنَّ) وحدها، و(مَا) وحدها. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي هُمْ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر. أي نملهم. ﴿لِيَزِدُوا إِثْمًا﴾: (اللام) للتعليل باعتبار فعل الله، يعني أنه عز وجل يملئ من أجل زيادة الإثم، وللعاقبة باعتبار حال المشركين أو الكافرين؛ لأنهم لم يكفروا لأجل أن يزدادوا إثماً، ولكن كفرهم كان سبباً في زيادة الإثم. وقوله: ﴿لِيَزِدُوا إِثْمًا﴾: أي إلى إثمهم؛ لأن الرجل إذا كفر عشرة أيام وزاد يوماً زاد كفرًا، وإذا زاد عشرة أيام أخرى زاد أكثر، فهم لا يستفيدون من دنياهم وإنما يزدادون فيها كفرًا. ﴿وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي مهين مُذِلٌّ من الإهانة، وذلك لأنهم إنما كفروا استكبارًا وعلوًا، فعوقبوا بعذاب يُذِلُّهم ويهينهم.

● قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٧٩)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: مُنَاسَبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَالَعَ فِي التَّخْرِيطِ عَلَى بَذْلِ الْأَرْوَاحِ فِي الْجِهَادِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، شَرَعَ فِي التَّخْرِيطِ هُنَا عَلَى بَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، وَبَيَّنَّ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ لِمَنْ يَبْخُلُ.

● تفسير الآية:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: قال الواحدي: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾: فاعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾، والمفعول الأول محذوف؛ لدلالة اللفظ

عليه، معناه: لا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخُلُونَ بما آتاهم الله مِنْ فَضْلِهِ الْبُخْلَ خَيْرًا لَهُمْ. فدلَّ ﴿يَبْخُلُونَ﴾ على البخل، فَحُذِفَ، كَقَوْلِهِمْ: (مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ)، أي كان الكذب شَرًّا لَهُ. وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: ﴿هُوَ﴾: ضمير فَضْلٍ، وهو الذي يُسَمِّيهِ الكوفيون: عمادًا، وذلك أَنَّ تَقَدَّمَ ﴿يَبْخُلُونَ﴾ بمنزلة تَقَدَّمَ (البُخْلُ)، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخُلُونَ الْبُخْلَ هو خَيْرًا لَهُمْ. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾: قال الحسن: لأنهم نالوا به عَذَابَ الله. وقال ابن الجوزي: اِخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَهْمَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ يَبْخُلُونَ أَنْ يُؤَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وهو قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَمُجَاهِدٍ فِي رِوَايَةِ السُّدِّيِّ فِي آخَرِينَ. الثَّانِي: أَهْمَا فِي الْأَخْبَارِ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَتُبُّوهُ، رَوَاهُ عَطِيَّةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَاخْتَارَهُ الرَّجَاجُ. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: لَا يَحْسَبَنَّ الْبَاخِلُونَ الْبُخْلَ هو خَيْرًا لَهُمْ، فَانْتَفَى بِذِكْرِ ﴿يَبْخُلُونَ﴾ مِنَ الْبُخْلِ، كَمَا تَقُولُ: قَدِيمٌ فُلَانٌ، فَسُرَرْتُ بِهِ، أَيْ: سُرَرْتُ بِقُدُومِهِ. وَالَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ عَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: الْبُخْلُ بِالزَّكَاةِ: هو المَالُ، وَعَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: الْبُخْلُ بِذِكْرِ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ هو الْعِلْمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ) إِنْشَارَةٌ إِلَى الْبُخْلِ وَلَيْسَ مَذْكُورًا، وَلَكِنَّهُ مَذْلُومٌ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (يَبْخُلُونَ). وقال القرطبي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ. قَالَ الْخَلِيلُ، وَسَيِّبَوْنِي، وَالْفَرَّاءُ: الْمَعْنَى: الْبُخْلُ خَيْرًا لَهُمْ، أَيْ لَا يَحْسَبَنَّ الْبَاخِلُونَ الْبُخْلَ خَيْرًا لَهُمْ. وَإِنَّمَا حُذِفَ؛ لِذِلَالَةِ يَبْخُلُونَ عَلَى الْبُخْلِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: مَنْ صَدَقَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، أَيْ كَانَ الصَّدَقُ خَيْرًا لَهُ. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾: ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ، أَيْ الْبُخْلُ شَرٌّ لَهُمْ. وقال ابن كثير: أَيْ لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالُ يَنْفَعُهُ، بَلْ هُوَ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ. وَوَيْمَا كَانَ. فِي دُنْيَاهُ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شَجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ رَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ. يَعْنِي بِشَدَقِيهِ. يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ"، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ "رواه البخاري. وقال الألويسي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ

مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ هُمْ: إيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله إياه من فضله؛ للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله سبحانه. والمعنى: أي لا يحسبن الذين يبخلون بأنفاق أو زكاة ما آتاهم الله من فضله هو صفة حسنة، أو خيراً لهم من الإنفاق. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ عَظِيمٌ هُمْ﴾، والتنصيص على ذلك مع علمه مما تقدم للمبالغة. وقال السعدي: أي ولا يظنّ الذين يبخلون، أي يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنّوا به على عباد الله، وضنّوا أنّه خير لهم، بل هو شرّ لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم. وقال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ هُمْ﴾ تأكيد لنفي كون البخل خيراً. وقال العثيمين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: أي لا يظنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله. والبخل هو المنع مع شح؛ ولهذا عدّي بـ (الباء)، ولم يقل: (يبخلون ما آتاهم)، بل قال: ﴿يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ﴾، أي يمنعونه مع شح، يعني: يشحّون به. وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾: أي بما أعطاهم الله من فضله، وفيه إشارة إلى أنّ هذا البخل في غير موضعه؛ لأنهم بخلوا بشيء ليس من كسبهم، ولا من كدهم، وهذا من الحق البالغ؛ إذ إنّ الأمر يقتضي أنّ الذي أعطاك إذا أمرك أن تصرفه في شيء، أن تصرفه فيه كما أمرك؛ لأنه فضله. وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي من خيره؛ لأن الفضل في الأصل هو الزيادة، فالإنسان قد يعمل عملاً يؤمل أن يكسب فيه ألفاً، فيكسب ألفين أو أكثر من فضل الله. قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ هُمْ﴾: ﴿خَيْرٌ﴾: مفعول ثانٍ لـ (يحسب)، والمفعول الأوّل محذوف تقديره: (بخلهم)، يعني: (ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم خيراً). وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ هُمْ﴾: ﴿خَيْرٌ﴾ هنا اسم تفضيل، فلا بدّ فيه من مفضّل، ومفضّل عليه، فالمفضّل عليه هو: البخل، هو خير لهم من العطاء. يعني لا يظنّوا أنّ البخل خيرٌ لهم من العطاء، فهم يظنّون أنّ البخل أفضل لهم من العطاء، وهذا الظنّ خطأ؛ لأن النبي ﷺ قال: "ما نقصت صدقة من مال" رواه مسلم. وكم من

إنسان يزداد ماله بالصدقة، ولا تنقص الصدقة مالا مع الاحتساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، ومعنى ﴿يُخْلِفُهُ﴾: أي يأتي بخلفه. يقول الله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: أي شرّ لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شرّ، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم، حيث يظنون أنهم إذا أنفقوا ضاق عليهم الرزق، فيقول القائل منهم: أنا عندي ألف، إذا أنفقتُ منه مائة نقص، وصار تسعمائة، فيظنون أنّ هذا شرّ، فيقول الله: إنّ المنع هو الشرّ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: أي شرّ من العطاء، فالعطاء خير، والمنع شرّ. وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إضراب إبطائي، وقد يأتي الإضراب في القرآن انتقالياً، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] فالثاني لا يبطل الأول بل يؤكد.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قال الواحدي: أكثر المفسرين على أنّ معناه: يُجْعَلُ ما بَخَلَ به مِنَ الْمَالِ حَيَّةً، يُطَوَّقُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عُنُقِهِ، تَنْهَشُهُ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ. وقال ابن الجوزي: وقال ابن الجوزي: وفي معنى تطويقهم به أربعة أقوال: أحدها: أنّه يُجْعَلُ كَالْحَيَّةِ يُطَوَّقُ بِهَا الْإِنْسَانُ، رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا مَثَلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ يَفْرُ مِنْهُ، وَهُوَ يَتَّبَعُهُ حَتَّى يُطَوَّقَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾" رواه البخاري، وهذا مَذْهَبُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمُقَاتِلٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ يُجْعَلُ طَوْقاً مِنْ نَارٍ، رَوَاهُ مَنْصُورٌ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ. الثَّالِثُ: أَنَّ مَعْنَى تَطْوِيقِهِمْ بِهِ: تَكْلِيفُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِهِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ. الرَّابِعُ: أَنَّ مَعْنَاهُ: يَلْزَمُ أَعْنَاقَهُمْ إِيَّاهُ، قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ. وقال القرطبي: وَالسِّينُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سِينُ الْوَعِيدِ، أَيْ سَوْفَ يُطَوَّقُونَ، قَالَهُ الْمُبَرِّدُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ [التوبة: ٣٤]، ذَهَبَ إِلَى هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو وَائِلٍ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، قَالُوا: وَمَعْنَى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا

بَحَلُّوا بِهِ: هُوَ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبَيَّتَانِ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ . أَي شَدَقِيهِ . ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ" رواه البخاري. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَبُخْلِهِمْ بَيَّانٍ مَا عَلِمُوهُ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَمَعْنَى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحَلُّوا بِهِ﴾: عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: سَيَحْمِلُونَ عِقَابَ مَا بَحَلُّوا بِهِ، فَهُوَ مِنَ الطَّاقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤] وَلَيْسَ مِنَ التَّطَوُّيقِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ: مَعْنَى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحَلُّوا بِهِ﴾: سَيُجْعَلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ طَوْقٌ مِنَ النَّارِ، وَهَذَا يَجْرِي مَعَ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ. وَقِيلَ: أَيُّ يُلْزَمُونَ أَعْمَالَهُمْ كَمَا يُلْزَمُ الطَّوْقُ الْعُنُقَ، يُقَالُ: طَوْقٌ فَلَانٌ عَمَلُهُ طَوْقُ الْحَمَامَةِ، أَيُّ الْأُرِمِ عَمَلُهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الاسراء: ١٣]. والبخل في اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه. فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخل؛ لِأَنَّهُ لَا يُدْمُ بِذَلِكَ. وَاحْتِلَفَ فِي الْبُخْلِ وَالشُّحِّ، هَلْ هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ أَوْ بِمَعْنَيْنِ؟. فَقِيلَ: الْبُخْلُ: الْإِمْتِنَاعُ مِنْ إِخْرَاجِ مَا حَصَلَ عِنْدَكَ. وَالشُّحُّ: الْحِرْصُ عَلَى تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ. وَقِيلَ: إِنَّ الشُّحَّ هُوَ الْبُخْلُ مَعَ حِرْصٍ. وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ". وقال الألويسي: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحَلُّوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: بَيَانٌ لِكَيْفِيَّةِ شَرِّتِهِ لَهُمْ. وَ(السَّيْنُ) مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ. وقال السعدي: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحَلُّوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أَي يجعل ما بخلوا به طوقا في أعناقهم، يعذبون به. فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم. وقال العثيمين: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَحَلُّوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: (السَّيْنُ) يقول علماء النحو: إنها للتنفيس، وتنفيد التحقيق. والتنفيس معناه: حصول الشيء عن قُرْبٍ، والتحقيق واضح، يعني: أَنَّ كَلِمَةَ

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ أبلغ في التحقيق من كلمة (يطَوَّقُونَ)؛ لأن (السَّيْن) تُفيد التحقيق وتُفيد أيضًا التنفيس، فنفيد ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: أنَّ هؤلاء سوف يُعاقبون هذه العقوبة حتمًا وعن قُرْبٍ، ومن أين أخذنا الحتمية؟. الجواب: من (السَّيْن) الدالة على تحقق وقوع العذاب، وأخذنا القُرْبَ؛ لأن التنفيس الذي تدلُّ عليه (السَّيْن) معناه: القُرْب، فإذا قال قائل: إنَّ تحقُّقه معلوم، ولكن كيف يكون قريبًا؟ قلنا: إنَّ يوم القيامة قريب، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فيوم القيامة وإن كان بعيدًا في نظر الناس، لكنَّه في الحقيقة قريب، وانظر إلى الأيام كيف تنطوي بسرعة حتى تنتهي؛ لتعرف أنَّ يوم القيامة وإن بُعد أمدُّه فهو في الحقيقة قريب. وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أي سيُجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم. والطوق معروف مثل طوق القميص يحيط بالعنق، وقد بين النبي ﷺ كيف يكون هذا التطويق، فقال: "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَفْرَعُ لَهُ زَبَيْتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ زِمَامَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكُ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾" رواه البخاري. قال العلماء: الشجاع الأقرع هو: الذكر من الحيات. والأقرع: كثير السُّم؛ لأن رأسه من كثرة سمِّه قد تمزَّق شعره، فهو أقرع. "له زبيتان": أي غدتان تُشبهان الزبيب، قد امتلأتا من السُّم. "فيأخذ بلهزمته": أي شذقيه. "ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك": يقول ذلك توبيخًا له، فيزداد بذلك حسرة. هذا هو تفسير الآية الكريمة كما فسَّرها النبي . عليه الصلاة والسلام .. وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ﴾: يُعَبِّرُ الله عن الجزاء بالعمل نفسه، وهو كثير في القرآن مثل: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهنا ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكأنه هو العمل نفسه؛ فلهذا يُعَبِّرُ الله عن الجزاء بالعمل كثيرًا. ويوم القيامة: هو يوم يبعث الناس، وسمِّي يوم القيامة لوجوه ثلاثة: الأول: لأنه يوم يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ

أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴿[المطففين]. الثاني: لأنه يقام فيه القسط، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. الثالث: لأنه يُقام فيه الأشهاد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قال الواحدي: يعني أنه يُفنى أهلها، وتبقى الأملاك والأموال، ولا مالك لها إلا الله. فجرى هذا مجرى الوراثَةِ؛ إذ كَانَ الخلق قبل ذلك يَدْعُونَ المَلِكَ، فَلَمَّا مَاتُوا عنها، ولم يُخْلَفُوا أحداً، كَانَ هو الوارث لها جلّ وعزّ. قال أبو إسحاق: حُوطِبَ القَوْمُ بِمَا يَعْقِلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَا رَجَعَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِيرَاثًا إِذَا كَانَ مَلِكًا لَهُ. وتأويله: بَطْلَانُ مُلْكٍ جَمِيعِ المَالِكِينَ، إِلَّا مُلْكُ اللَّهِ، فيصير كالْمِيرَاثِ. قال ابن الأنباري: والعرب تقول: (وَرِثَ فُلَانٌ عِلْمَ فُلَانٍ): إِذَا تَفَرَّدَ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَشَارِكًا فِيهِ. وقد قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]، فَذَهَبَ إِلَى وَرَاثَتِهِ عِلْمُهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ دَاوُدُ مَشَارِكًا فِيهِ، أَوْ غَالِبًا عَلَيْهِ. وقال ابن الجوزي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَمُوتُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، وَيُبْقَى رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ الرَّجَّاحُ: حُوطِبَ الْقَوْمُ بِمَا يَعْقِلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَا رَجَعَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِيرَاثًا إِذَا كَانَ مَلِكًا لَهُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: مَعْنَى الْمِيرَاثِ: انْفِرَادُ الرَّجُلِ بِمَا كَانَ لَا يَنْفَرِدُ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ الْخَلْقُ، وَانْفَرَدَ عَزَّ وَجَلَّ، صَارَ ذَلِكَ لَهُ وَرَاثَةً. وقال القرطبي: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَحَبَرَ تَعَالَى بِبَقَائِهِ وَدَوَامِ مُلْكِهِ. وَأَنَّهُ فِي الْأَبَدِ كَهُوَ فِي الْأَزَلِ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، فَيَرِثُ الْأَرْضَ بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ وَزَوَالِ أَمْلَاكِهِمْ، فَتَبْقَى الْأَمْوَالُ وَالْأَمْوَالُ لَا مُدْعَى فِيهَا، فَجَرَى هَذَا مَجْرَى الْوَرَاثَةِ فِي عَادَةِ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ هَذَا بِمِيرَاثٍ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الْوَارِثَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي يَرِثُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ مَلِكُهُ مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَكَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَمَا فِيهَا، وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهَا لَهُ، وَإِنَّ الْأَمْوَالَ كَانَتْ عَارِيَةً عِنْدَ أَرْبَابِهَا، فَإِذَا مَاتُوا رُدَّتِ الْعَارِيَةُ إِلَى صَاحِبِهَا الَّذِي كَانَتْ لَهُ فِي الْأَصْلِ، وَنُظِيرُ

هَذِهِ الْآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ بِأَنْ يُنْفِقُوا وَلَا يَبْخُلُوا قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا وَيَتْرَكُوا ذَلِكَ مِيراثًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَنْفَعَهُمْ إِلَّا مَا أَنْفَقُوا. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَيُّ فَاَنْفَقُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ، فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَيُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا لِأَحَدٍ غَيْرِهِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَيُّ هُوَ تَعَالَى مَالِكُ الْمَلِكِ، وَتَرَدَّدَ جَمِيعُ الْأَمْلاكِ إِلَى مَالِكِهَا، وَيَنْقَلِبُ الْعِبَادُ مِنَ الدُّنْيَا مَا مَعَهُمْ دَرَاهِمٌ وَلَا دِينَارٌ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَالِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: (لِلَّهِ): اللَّامُ هَذِهِ لِلْإِخْتِصَاصِ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَتَقْدِيمُهُ يَفِيدُ الْحَصْرَ، أَيُّ أَنَّهُ لَهُ وَحْدَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ. وَالْمِيرَاثُ: انْتِقَالُ الْمَالِ مِنْ سَابِقٍ إِلَى لَاحِقٍ، كَانْتِقَالُهُ مِنَ الْمَيِّتِ إِلَى الْحَيِّ. فَالَّذِي يَرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيَبْقَى بَعْدَهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَلَا يَتَحَوَّلُ مِيرَاثُهَا إِلَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ. وَمُنَاسِبَةُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ لِمَا قَبْلُهَا وَاضِحَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَبْخُلُ بِمَالِهِ إِنَّمَا يَبْخُلُ بِهِ؛ لِيَبْقَى لَهُ، فَبَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ، لَا بَدَّ أَنْ يَمُوتَ وَيُورِثَهُ وَرِثَتُهُ، ثُمَّ يَمُوتُونَ وَيُورِثُهُمْ وَرِثَتُهُمْ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْإِرْثُ إِلَى اللَّهِ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ بِنْيَاتِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أَيُّ مِنَ الْمَنْعِ وَالْبُخْلِ. ﴿خَبِيرٌ﴾: فَيُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَإِظْهَارُ الْأَسْمِ الْجَلِيلِ؛ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ. وَالِاتِّفَاتُ إِلَى الْخِطَابِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعِيدِ؛ لِأَنَّ تَهْدِيدَ الْعَظِيمِ بِالْمُؤَاجَهَةِ أَشَدُّ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: وَتَأْمَلُ كَيْفَ ذَكَرَ السَّبَبَ الْإِبْتِدَائِيَّ وَالسَّبَبَ الْغَائِيَّ الْمَوْجِبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ لَا يَبْخُلَ الْعَبْدُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ. أَخْبَرُ أَوَّلًا: أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ وَفِي يَدِهِ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ، لَيْسَ مَلِكًا لِلْعَبْدِ، بَلْ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانُهُ، لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، فَمَنْعَهُ لِذَلِكَ مَنَعَ لِفَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ؛ وَلِأَنَّ إِحْسَانَهُ مُوجِبٌ لِلْإِحْسَانِ إِلَى عَبِيدِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

إِلَيْكَ ﴿[القصص: ٧٧]، فمن تحقّق أنّ ما بيده فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات. ثم ذكر ثانياً: أنّ هذا الذي بيد العباد كلّها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك. ثم ذكر ثالثاً: السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها . ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشرّ . لم يتخلّف من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب. وقال العثيمين: حَتَّمُ الآية هذه بهذا الاسم وهو الخبير واضح المناسبة؛ لأن هؤلاء الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطلّع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده ملايين ولا يعلم الناس عنه، وييخل بركاتها ولا يُعلّم عنه، فبيّن الله أنه خبير بعملهم، والغالب أنّ من منع الحقّ في ماله سُئِلَ على هلكته في الباطل، يعني فتح له أبواباً من الباطل يصرف فيها ماله، فيكون مانعاً لما يجب، واقعاً فيما يحرم؛ ولهذا هدّدهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾:
- سبب نزول الآية:

قال السمعاني: قيل: سَبَبُ نَزُولِ الآية: "أنه لما نزل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قَالَتِ الْيَهُودُ: إِنَّ اللَّهَ يَسْتَقْرِضُ مِنَّا أَمْوَالَنَا، فَإِذَا هُوَ فَقِيرٌ، وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، فَنَزَلَتِ الآية. وقيل: أنه عَلَيْهِ . الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . لَمَّا اسْتَعَانَ يَهُودُ بَنِي قَيْنِقَاعَ فِي الْحَرْبِ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ إِذَا حَيْثُ يَسْتَعِينُ بِنَا فِي نَصْرَةِ دِينِهِ، وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، فَنَزَلَتِ الآية. وقال ابن الجوزي: فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: "أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . دَخَلَ بَيْتَ مَدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَوَجَدَهُمْ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اسْمُهُ فِنْحَاصُ، فَقَالَ أَبُو

بَكْرٍ: اتَّقِ اللَّهَ وَأَسْلِمْ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لِفَقِيرٍ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا عَنَّا مَا اسْتَفْرَضَ مِنَّا، فَعَضِبَ أَبُو بَكْرٍ وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا لَضَرَبْتُ عَنْقَكَ، فَذَهَبَ فِنْحَاصٌ يَشْكُو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَخْبَرَهُ أَبُو بَكْرٍ بِمَا قَالَ، فَجَحَدَ فِنْحَاصٌ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلٌ.

الثَّانِي: "أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قَالَتْ الْيَهُودُ: إِنَّمَا يَسْتَفْرِضُ الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ فِي كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ اللَّهُ لَمَّا أَمَرَ الْمَكْلُفِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِبَذْلِ النَّفْسِ وَبَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَبَالَعٍ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ، شَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حِكَايَةِ شُبُهَاتِ الْقَوْمِ فِي الطَّعْنِ فِي نُبُوَّتِهِ ﷺ.

الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّ أُمَّةَ مُوسَى . عَلَيْهِ السَّلَامُ . كَانُوا إِذَا أَرَادُوا التَّقَرُّبَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى اللَّهِ، فَكَانَتْ بَحْيٌ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحْرِقُهَا، فَالْنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُمْ بَذْلَ الْأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَهُ: لَوْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمَا طَلَبْتَ الْأَمْوَالَ لِهَذَا الْعَرَضِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِفَقِيرٍ حَتَّى يَحْتَاجَ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِ إِلَى أَمْوَالِنَا، بَلْ لَوْ كُنْتَ نَبِيًّا لَكُنْتَ تَطْلُبُ أَمْوَالَنَا لِأَجْلِ أَنْ تَحْيِيَهَا نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحْرِقُهَا، فَلَمَّا لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَسْتَ نَبِيًّا.

وقال ابن عاشور: اسْتِثْنَانُ جُمْلَةٍ ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ الْبُخْلِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوهُ فِي مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرْغِيبِ فِي الصَّدَقَاتِ.

● تفسير الآية:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾: قال ابن الجوزي: فِي الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ فِنْحَاصُ بْنُ عَارُورَةَ الْيَهُودِي، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: أَنَّهُ حَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ

مِنَ الْيَهُودِ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ النَّبَاشُ بْنُ عَمْرِو الْيَهُودِيِّ، ذَكَرَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: مَعْنَى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾: أَنَّهُ لَمْ يُخَفَ عَلَيْهِ تَعَالَى مَقَالَتَهُمْ. وَمَقَالَتُهُمْ هَذِهِ إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الاسْتِهْزَاءِ بِمَا نَزَلَ مِنْ طَلَبِ الْإِقْرَاضِ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْجَدَلِ وَالْإِلْزَامِ؛ لِأَنَّ مَنْ طَلَبَ الْإِقْرَاضَ كَانَ فَقِيرًا، وَإِمَّا عَلَى الْإِعْتِقَادِ. وَلَا يُسْتَبَعَدُ ذَلِكَ مِنْ عُقُولِهِمْ؛ إِذْ قَدْ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَأَيًّا مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَمَرُّدِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْمِبَالِغَةِ فِيهِ، حَيْثُ نَسَبُوا الْمَوْجِدَ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ الصَّرْفَ إِلَى الْوُجُودِ الْغَيِّ بِذَاتِهِ عَمَّا أَوْجَدَهُ الْوَصْفَ الدَّالَّ عَلَى الْإِفْتِقَارِ لِبَعْضِ مَا أَوْجَدَهُ، وَنَسَبُوا الْعَكْسَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ. وَجَاءَتِ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةً بِ(اللام) مُؤَدِّنَةً بِعِلْمِهِ بِمَقَالَتِهِمْ وَمُؤَكَّدَةً لَهُ. وَحَيْثُ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ مَا نَسَبُوا، أَكَّدُوا الْجُمْلَةَ بِ(أَنَّ) عَلَى سَبِيلِ الْمِبَالِغَةِ. وَحَيْثُ نَسَبُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ مَا نَسَبُوا لَمْ يُؤَكَّدُوا، بَلْ أُخْرِجُوا الْجُمْلَةُ مَخْرَجَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ، كَأَنَّ الْغَيَّ وَصِفَ لَهُمْ لَا يُمْكِنُ فِيهِ نِزَاعٌ، فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُؤَكَّدَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾: تَخْصِصُ هَذَا الْقَوْلِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لَجَمِيعِ الْمَسْمُوعَاتِ كِنَايَةً تَلْوِيحِيَّةً عَنِ الْوَعِيدِ؛ لِأَنَّ السَّمَاعَ لَا زِمَ الْعِلْمِ بِالْمَسْمُوعِ، وَهُوَ لَا زِمَ الْوَعِيدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَهُوَ سَمَاعٌ ظُهُورٌ وَتَهْدِيدٌ لَا سَمَاعٌ قَبُولٍ وَرِضًا. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالسَّمَاعِ؛ لِلْإِيزَانِ بِأَنَّهُ مِنَ الشَّنَاعَةِ وَالسَّمَاخَةِ بِحَيْثُ لَا يَرْضَى قَائِلُهُ بِأَنْ يَسْمَعَهُ سَامِعٌ؛ وَلِهَذَا أَنْكَرُوهُ؛ وَلِكُونَ إِنْكَارَهُمُ الْقَوْلَ بِمَنْزِلَةِ إِنْكَارِ السَّمْعِ أَكَّدَهُ تَعَالَى بِالتَّأْكِيدِ الْقَسَمِيِّ، وَفِيهِ أَيْضًا مِنَ التَّشْدِيدِ فِي التَّهْدِيدِ، وَالْمِبَالِغَةِ فِي الْوَعِيدِ مَا لَا يَخْفَى. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ تَهْدِيدٌ، وَهُوَ يُؤَدِّنُ بِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ جَرَاءٌ عَظِيمَةٌ، وَإِنْ كَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا التَّعْرِيضَ بِطُلَانِ كَلَامِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُمْ أَتَوْا بِهَاتِهِ الْعِبَارَةِ بِدُونِ مُحَاشَاةٍ؛ وَلِأَنَّ الْإِسْتِخْفَافَ بِالرَّسُولِ وَقُرْآنِهِ إِثْمٌ عَظِيمٌ وَكُفْرٌ عَلَى كُفْرٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ الْمِسْتَعْمَلُ فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ، وَهُوَ التَّهْدِيدُ عَلَى كَلَامٍ فَاحِشٍ؛ إِذْ قَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ،

فَلَيْسَ الْمُقْصُودُ إِعْلَامُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ ذَلِكَ، بَلْ لَزِمَهُ، وَهُوَ مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾. وقال العثيمين: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾: أَكَّدَ اللَّهُ هَذَا الْخَبَرَ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ: الْأَوَّلُ: الْقَسَمُ الْمَقْدَّرُ؛ لِأَنَّ (اللام) هُنَا وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ. وَالثَّانِي: (قَدْ). وَالثَّالِثُ: (اللام) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾، وَإِنَّمَا أَكَّدَهُ اللَّهُ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَهْدِيدِ هَؤُلَاءِ، وَأَمَّا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَجَرَّدِ مَا يُخْبِرُنَا عَنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُؤَكَّدٌ، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ تَهْدِيدِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الشَّنِيعَةُ. وَ ﴿سَمِعَ﴾ هُنَا بِمَعْنَى: أَدْرَكَ هَذَا الْقَوْلَ جَلَّ وَعَلَا، أَيْ سَمِعَهُ سَمَاعًا، وَلَا نَقُولُ بِأَذُنِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبِتْ لِنَفْسِهِ ذَلِكَ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنَ السَّمَاعِ الْأُذُنَ، بِخِلَافِ قَوْلِنَا: (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ). فنقول: بِذَاتِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى نَفْسِهِ، أَمَّا هُنَا فَلَا نَقُولُ: سَمِعَ بِأَذُنِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنَ السَّمَاعِ ثُبُوتُ الْأُذُنِ، فَهِيَ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، أَيْ تُخْبِرُ عَمَّا فَعَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، أَوْ عَمَّا قَالُوا عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا أُذُنٌ، وَالْجُلُودُ وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ تَشْهَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَا عَمِلَ، وَهِيَ لَيْسَ لَهَا آذَانٌ، إِذَا لَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ لَهُ أُذُنٌ بِنَاءً عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَثْبَتَ لَهُ السَّمْعَ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَسْتُمْ أَثْبِتُمْ لِلَّهِ عَيْنًا؟ نَقُولُ: بَلَى. وَلَكِنْ كَيْفَ أَثْبِتْنَا؟ أَهْوَ مِنْ طَرِيقٍ أَنَّهُ يَرَى أَوْ مِنْ طَرِيقٍ أَنَّهُ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ عَيْنَيْنِ؟ الْجَوَابُ: الثَّانِي، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ عَيْنَيْنِ مَا جَازَ لَنَا أَنْ نَثْبِتَ الْعَيْنَ؛ وَلِهَذَا نَحْنُ نَوْمِنُ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ، وَلَكِنْ لَا نَقُولُ: بِاللِّسَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَثْبِتْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْكَلَامِ ثُبُوتُ اللِّسَانِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْأَرْضَ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، وَالْجُلُودُ تَشْهَدُ، وَيَقُولُ صَاحِبُ الْجِلْدِ لَجِلْدِهِ: لَمْ شَهِدْتَ عَلَيَّ؟ فَتَقُولُ: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فَصَلَتْ: ٢١] وَلَا تَقُولُ: لِي لِسَانٌ وَشَفَتَانِ. ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾: هُمْ أَنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُسَمَّى (فِنْحَاصَ)، وَلَكِنَّ اللَّهَ فِي كِتَابِهِ لَا يَذْكُرُ شَيْئًا خَاصًّا إِلَّا لِسَبَبٍ، لَا بَدَّ مِنْ تَعْيِينِ الشَّخْصِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ أَحَدًا بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا رَجُلًا مُؤْمِنًا وَرَجُلًا

كافراً فقط. الرجل المؤمن (زيد بن حارثة)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والرجل الكافر من هذه الأمة (أبو لهب)، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]؛ لأن الوصف أكثر فائدة؛ لوجهين: الأول: أنه قد تتغير حال المعين، يكون بالأول فاسقاً مارداً كافراً، ثم يسلم ويتوب الله عليه، فإذا تاب ولم يذكر اسمه في القرآن كان أحسن مما لو ذكر، فإنه لو ذكر اسمه؛ لبقى العار عليه ولو تاب. الثاني: أنه أعم؛ لأن تعليق الحكم بالوصف أعم من تعليقه بالشخص؛ ولهذا إذا عُلق الحكم بالشخص احتمل الخصوصية، وإذا قلنا بعموم الحكم المعلق بالشخص فإنه ليس عمومًا شموليًا، ولكنه عمومٌ تمثيلي، يعني بالقياس، إذا ينبغي لنا في مثل هذه الأمور أن لا نعين الشخص بعينه، فإذا أردنا مثلاً أن نتكلم على صحيفة خبيثة، فالأولى ألا نعينها، بل نقول: قالت بعض الصحف، وإذا ذكرنا الكلام عُرف. أولاً: لأن الصحيفة قد تتغير، والثاني: أنه إذا حصرنا وعيننا فقد يفهم السامع أنه لا يوجد سوى هذه الصحيفة، ولكن إذا عممنا وجعلنا الحكم معلقاً بالوصف شمل غيرها، وصار هذا أنفع، وهذه مسألة دلّ عليها القرآن وكذلك السنة تدلّ عليها، فإن الرسول ﷺ لا يقول: ما بال فلان يقول كذا؟ بل كان يقول: ما بال أقوام، وذلك من أجل الفائدتين اللتين أشرنا إليهما. ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾: هؤلاء هم اليهود، وسبب قولهم هذا: أن الله قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فرحت اليهود بهذا وجاءت إلى النبي ﷺ، وقالت: يا محمد، إن ربك قد افتقر؛ لأنه يطلب القرض منّا، ولم يعلم هؤلاء البلهاء إن كانوا صادقين فيما ادّعوا وهم كاذبون في هذا، لكن تنزلاً معهم نقول: إن الله جعل الإنفاق في سبيله له بمنزلة القرض؛ إشعاراً للمنفق بأنه سوف يجازى عليه، كما أن المقرض يجب عليه أن يوفي مقرضه، فهكذا جعل الله العمل له بمنزلة القرض؛ تفضلاً منه وإحساناً للعباد، واليهود لا يُستغربُ منهم أن يصفوا الله بمثل هذا، فهم قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، فوصفوه بالبخل سبحانه،

وهم قالوا: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ تَعَبَ وَاسْتَرَحَ يَوْمَ السَّبْتِ؛ ولهذا يجعلون يوم السبت هو يوم الراحة عندهم، وهم كاذبون في هذا، قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾: ليتهم اقتصروا على هذا القول . مع كونه من أعظم المناكر . لكنهم قالوا: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، فجعلوا أنفسهم أكمل من الله، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: قال ابن الجوزي: وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: سَنَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: سَنَأْمُرُ الْحَفَظَةَ بِكِتَابَتِهِ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وقال القرطبي: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أَيُّ سُنُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: أَيُّ سَنَكْتُبُهُ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ، أَيُّ نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ بِإِثْبَاتِ قَوْلِهِمْ حَتَّى يَفْرُدُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يُؤْتَوْنَهَا، حَتَّى يَكُونَ أَوْكَدَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وَقِيلَ: مَقْصُودُ الْكِتَابَةِ: الْحِفْظُ، أَيُّ سَنَحْفَظُ مَا قَالُوا؛ لِنُجَازِيهِمْ. ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أَيُّ وَنَكْتُبُ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَيُّ رِضَاهُمْ بِالْقَتْلِ. وَالْمُرَادُ قَتْلُ أَسْلَافِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، لَكِنْ لَمَّا رَضُوا بِذَلِكَ صَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِمْ. وقال أبو حيان: وَقِيلَ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أَيُّ فِي الْقُرْآنِ، حَتَّى يَعْلَمَ الْقَوْمُ شِدَّةَ تَعَنُّتِهِمْ وَحَسَدِهِمْ فِي الطَّعْنِ عَلَيْهِ ﷺ. وَذَهَبَ قَوْمٌ: إِلَى أَنَّ الْكِتَابَةَ مَجَازٌ، وَمَعْنَاهَا: الْإِحْصَاءُ لِلشَّيْءِ وَضَبْطُهُ وَعَدَمُ إِهْمَالِهِ وَكَيْفُونَتِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ شَيْئًا مَحْفُوظًا لَا يُنْسَى، كَمَا يُثْبِتُ الْمَكْتُوبُ. وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى ﴿سَنَكْتُبُ﴾: سَنُوجِبُ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءَ مَا قَالُوهُ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وَجَاءَ سَنَكْتُبُ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ لَفْظِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّهُ تَضَمَّنَ الْمَجَازَةَ عَلَى مَا قَالُوهُ. وَفِيهِ مِنَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ مَا لَا يَخْفَى. وَالظَّاهِرُ إِجْرَاءُ الْكِتَابَةِ عَلَى أَنَّهَا حَقِيقَةٌ، قَالَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَنَّهَا تُكْتُبُ الْأَعْمَالُ فِي صُحُفٍ، وَأَنَّ تِلْكَ الصُّحُفَ هِيَ الَّتِي تُوزَنُ، وَيُحَدِّثُ اللَّهُ فِيهَا الْحَقَّةَ وَالنَّقْلَ بِحَسَبِ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَالَ

أبو السعد: المعنى: أَنَّهُ لَمْ يَخَفَ عَلَيْهِ تَعَالَى وَأَعَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ كُفَاهُ. وَالتَّعْيِيرُ عَنْهُ بِالسَّمَاعِ؛ لِلْإِذَانِ بِأَنَّهُ مِنَ الشَّنَاعَةِ وَالسَّمَاجَةِ بِحَيْثُ لَا يَرْضَى قَائِلُهُ بِأَنْ يَسْمَعَهُ سَامِعٌ. وَالتَّوَكُّيدُ الْقَسَمِيُّ؛ لِلتَّشْدِيدِ فِي التَّهْدِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعِيدِ. وَقَالَ أَبُو السَّعْدِ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أَيَّ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوهُ مِنَ الْعَظِيمَةِ الشَّنْعَاءِ فِي صَحَائِفِ الْحَقْظَةِ، أَوْ سَنَحَفَظُهُ وَنُثَبِّتُهُ فِي عِلْمِنَا لَا نَنْسَاهُ وَلَا نُهْمِلُهُ كَمَا يَثْبُتُ الْمَكْتُوبُ. وَ(السَّيْنُ) لِلتَّأْكِيدِ، أَيَّ لَنْ يَفُوتَنَا أَبَدًا تَذْوِينُهُ وَإِثْبَاتُهُ؛ لِكَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَالْهَوْلِ، كَيْفَ لَا؟ وَهُوَ كُفْرٌ بِاللَّهِ وَاسْتِهْزَاءٌ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالرُّسُولِ الْكَرِيمِ؛ وَلِذَلِكَ عُطِفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأنْبِيَاءَ﴾؛ إِذَا نَا بِأَنَّهُمَا فِي الْعِظَمِ أَخَوَانِ؛ وَتَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَوَّلِ جَرِيْمَةٍ ارْتَكَبُوهَا، بَلْ لَهُمْ فِيهِ سَوَابِقُ وَأَنَّ مَنْ اجْتَرَأَ عَلَى قَتْلِ الْأنْبِيَاءِ لَمْ يُسْتَبْعَدْ مِنْهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الْعِظَائِمِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾: إِضَافَةُ الْكِتَابَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَن جُنُودَهُ يَكْتُبُونَ ذَلِكَ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالْدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانْفِطَارَ]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى وَهِيَ أَصْرَحُ: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزَّخْرَفُ: ٨٠]، إِذَا الْكِتَابَةُ هُنَا كِتَابَةُ اللَّهِ بِمَلَائِكَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ بِأَمْرِهِ وَهُمْ جُنْدُهُ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِدُ: فَعَلْتُ كَذَا، وَالْفَاعِلُ الْجُنُودُ، فَالْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ يَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ مُضِيفًا إِيَّاهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَ بِأَمْرِهِ وَسُلْطَتِهِ، إِذَا ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أَيَّ بِمَلَائِكَتِنَا، وَاللَّهُ أَحْيَانًا يُضِيفُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ مَرِيدًا بِهِ الْمَلَائِكَةُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الْوَاقِعَةُ]، أَقْرَبُ إِلَيْهِ بِالْمَلَائِكَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَرِيبَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، لَكِنَّا لَا نَبْصُرُهُ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، الرَّاجِحُ فِيهَا: أَنَّ الْمَرَادَ: أَقْرَبُ إِلَيْهِ بِمَلَائِكَتِنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ

تيمية في مواضع من كلامه، منها كلامه في شرح حديث النزول وهو مشهور ومتداول. يقول تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: هل هو مجرد الاطلاع عليه أو للمجازاة؟ الجواب: للمجازاة، بدليل ما يأتي في آخر الآية.

﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: قال ابن الجوزي: أي ونكثت ذلك. فإن قيل: هذا القائل لم يقتل نبياً قط؟، فالجواب: أنه رضي بفعل متقدميه لذلك. وقال الرازي: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: الفائدة في ضم أنهم قتلوا الأنبياء إلى أنهم وصفوا الله تعالى بالفقر: هي بيان أن جهل هؤلاء ليس مخصوصاً بهذا الوقت، بل هم منذ كانوا، مُصِرُّونَ عَلَى الْجَهَالَاتِ وَالْحَمَاقَاتِ. وقال القرطبي: أي ونكتب قتلهم الأنبياء، أي رضاهم بالقتل. والمراد قتل أسلافهم الأنبياء، لكن لما رضوا بذلك صححت الإضافة إليهم. وقال أبو حيان: ونسب إليهم قتلهم الأنبياء وإن كان من فعل آبائهم؛ لما كانوا راضين به. وقد سموا أيضاً رسول الله ﷺ وهما يقتله، ودل هذا القول وهذا الفعل على جميع الأقوال والأفعال الفبيحة التي صدرت منهم؛ إذ القول في هذه الآية أشنع الأقوال في الله تعالى، والقتل أشنع الأفعال التي فعلوها مع أنبياء الله. وتشريك القتل مع هذا القول يدل على أنهما يُسَبِّبانِ في استحقاق العقاب. ولما كان الصادرُ منهم قولاً وفِعْلاً، ناسب أن يكون الجزاء قولاً وفِعْلاً، فتضمن القول والفعل. وقال أبو السعود: المراد بقتلهم الأنبياء: رضاهم بفعل أسلافهم. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿قَتْلُهُمْ﴾، أي كائناً بغير حق في اعتقادهم أيضاً كما هو في نفس الأمر. وقال ابن عاشور: عطف قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ زيادة في مذمتهم بذكر مساوي أسلافهم؛ لأن الذين قتلوا الأنبياء هم غير الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، بل هم من أسلافهم، فذكر هنا؛ ليدل على أن هذه شئنة قديمة فيهم، وهي الاجترار على الله ورسله. واتحاد الضمائر مع اختلاف المعاد طريقة عربية في المحامد والمذام التي تُنَاطُ بِالْقَبَائِلِ. وقال العثيمين: ذكر قتل الأنبياء بغير حق مع أنهم لم يقولوا: إنا قتلنا الأنبياء،

لكن؛ ليبين أنّ هؤلاء اعتدوا على حقّ الله وعلى حقّ رسله وأنبيائه، فقتلوا الأنبياء بغير حقّ، وهو شامل لقتل الأنبياء والرسل؛ لأنّ كلّ رسول نبيّ. قاعدة، وهي: (أنّ الأنبياء المذكورين في القرآن رسلٌ، فما نجد نبيّاً ذُكر في القرآن إلا وهو رسول، والدليل على ذلك من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وقوله: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا قيد كاشف وليس احترازيّ، يعني أنّ قتلهم للأنبياء دائماً بغير حقّ، وليس المعنى: أنّ الأنبياء ينقسم قتلهم إلى قتلٍ بحقّ وقتلٍ بغير حقّ، فكلّ قتلٍ للأنبياء إنما هو بغير حقّ، ومع ذلك لا يقتلون النبيّ لشخصه، وإنما يقتلونه لما جاء به من الحقّ، أي أنهم يقتلونهم؛ لكونهم أنبياء. ففي هذا القيد فائدتان: الأولى: بيان الواقع، فهي صفة كاشفة. والثانية: المبالغة في التشنيع عليهم، فإنهم يقتلونهم بغير حقّ.

﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: قال ابن الجوزي: قال الزّجاج: ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: عَذَابٌ مُحْرِقٌ، أيّ عَذَابٌ بِالنَّارِ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ النَّارِ. وقال القرطبي: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أيّ يُقَالُ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، أَوْ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ عِنْدَ الْحِسَابِ هَذَا. ثُمَّ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَوْلَانِ. وَالْحَرِيقُ: اسْمٌ لِلْمُلْتَهَبَةِ مِنَ النَّارِ، وَالنَّارُ تَشْمَلُ الْمُلْتَهَبَةَ وَغَيْرَ الْمُلْتَهَبَةِ. وقال أبو حيّان: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: وفي الجمعِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ اعْظُمَ انْتِقَامٌ، وَيُقَالُ لِلْمُنْتَقِمِ مِنْهُ: أَحْسَرٌ وَدُقٌّ. وقال أبو السعود: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أيّ وَنَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بَعْدَ الْكِتَابَةِ بِأَنْ نَقُولَ لَهُمْ: دُوقُوا الْعَذَابَ الْمُحْرِقَ كَمَا أَدَقْتُمُ الْمُسْلِمِينَ الْعُصَصَ، وَفِيهِ مِنَ الْمِبَالِغَاتِ مَا لَا يَخْفَى. وقال الشوكاني: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: مَعْطُوفٌ عَلَى سَنَكْتُبُ، أيّ نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بَعْدَ الْكِتَابَةِ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي نَقُولُهُ لَهُمْ فِي النَّارِ، أَوْ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ عِنْدَ الْحِسَابِ. وَالْحَرِيقُ: اسْمٌ لِلنَّارِ الْمُلْتَهَبَةِ. وإِطْلَاقُ الذَّوْقِ عَلَى إِحْسَاسِ الْعَذَابِ فِيهِ مُبَالِغَةٌ بَلِيغَةٌ. وقال العثيمين: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: ذلك يوم القيامة، أو في القبر

أيضاً، والقول هنا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ يقصد به: الإهانة والإذلال، وإلا فإنهم سيدوقون عذاب الحريق، قيل لهم ذلك أم لم يُقل، فهو حق. ومن هذا الباب قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. يقال له: وهو يعذب في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ إهانة له، أي أنّ عزك وكرمك لم ينفعك.

- قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: أنّ الله تعالى لما ذكّر الوعيد الشّدِيدَ، ذكّر سببَهُ، فقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أيّ هذا العذاب المحرّق جزاءً فِعْلِكُمْ حَيْثُ وَصَفْتُمْ اللَّهَ وَأَقْدَمْتُمْ عَلَى قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، فَيَكُونُ هَذَا الْعِقَابُ عَذْلًا لَا جَوْرًا.

- تفسير الآية:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾: قال الواحدي: أي ذلك العذاب بما سلف من الإجماع. وأضيف التقديم إلى أيديهم. وهو لهم في الحقيقة؛ لِيَكُونَ أدلّ على تَوَلَّى الفِعْلِ؛ لأنه قد يُضافُ الفِعْلُ إلى الإنسان على أنه أَمَرَ به، وَدَعَا إليه، نحو قوله: ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، فإذا ذُكِرَتِ اليد دَلَّ على تَوَلَّى الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]. وقال ابن عطية: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾: تَوَيْحٌ وَتَوْقِيفٌ دَاخِلٌ فِيْمَا يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِمُعَاصِرِي النَّبِيِّ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. يَوْمَ تُزُولُ الْآيَةُ. وَنَسَبَ هَذَا التَّقْدِيمَ إِلَى الْيَدِ؛ إِذْ هِيَ الْكَاسِبَةُ لِلْأَعْمَالِ فِي غَالِبِ أَمْرِ الْإِنْسَانِ، فَأُضِيفَ كُلُّ كَسْبٍ إِلَيْهَا. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ يَفْعَلُ هَذَا بِعَدْلِ مِنْهُ فِيهِمْ وَوَضَعَ الشَّيْءَ مَوْضِعَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَبِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وَجَمَعَ "عَبْدًا" فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عَبِيدٍ؛ لِأَنَّهُ مَكَانُ تَشْفِيقٍ وَنَجِيَّةٍ مِنْ ظُلْمٍ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِمَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ. وَحَصَّ الْأَيْدِي بِالذِّكْرِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى تَوَلَّى الفِعْلِ وَمُبَاشَرَتِهِ،

إِذْ قَدْ يُضَافُ الْفِعْلُ إِلَى الْإِنْسَانِ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]. وقال أبو حيان: جاء لَفْظُ ﴿ظَلَامٍ﴾ الْمَوْضُوعُ لِلتَّكْثِيرِ، وَهَذَا تَكْثِيرٌ بِسَبَبِ الْمُتَعَلِّقِ. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ (فِعَالًا) قَدْ يَجِيءُ لَا يُرَادُّ بِهِ الْكَثْرَةُ. وَقِيلَ: إِذَا نَفَى الظُّلْمَ الْكَثِيرَ اتَّبَعَ الْقَلِيلَ ضَرُورَةً؛ لِأَنَّ الَّذِي يَظْلِمُ إِنَّمَا يَظْلِمُ لِإِنْتِفَاعِهِ بِالظُّلْمِ، فَإِذَا تَرَكَ الْكَثِيرَ مَعَ زِيَادَةِ نَفْعِهِ فِي حَقِّ مَنْ يَحُوزُ عَلَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ كَانَ لِلظُّلْمِ الْقَلِيلِ الْمُنْفَعَةِ أَتْرُكُ. وَقَالَ الْقَاضِي: "الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِمْ: لَوْ كَانَ ظَالِمًا لَكَانَ عَظِيمًا، فَنَفَاهُ عَلَى حَدِّ عِظَمِهِ لَوْ كَانَ ثَابِتًا". وَالْعَبِيدُ: جَمْعُ عَبْدٍ، كَالْكَلِيبِ. وَقَدْ جَاءَ اسْمُ الْجَمْعِ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ نَحْوِ الضَّيْفَيْنِ وَغَيْرِهِ مِنْ جَمْعِ التَّكْسِيرِ، جَوَّازَ الْإِخْبَارِ عَنْهُ إِخْبَارُ الْوَاحِدِ كَأَسْمَاءِ الْجُمُوعِ، وَنَاسَبَ لَفْظُ هَذَا الْجَمْعِ دُونَ لَفْظِ الْعِبَادِ؛ لِمُنَاسَبَةِ الْفَوَاصِلِ الَّتِي قَبْلَهُ مِمَّا جَاءَتْ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ، كَمَا نَاسَبَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ، وَكَمَا نَاسَبَ لَفْظُ الْعِبَادِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿ذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْعَذَابِ الْمَذْكُورِ وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ شَأْنِهِ وَبُعْدِ مَنْزِلَتِهِ فِي الْهَوْلِ وَالْفَظَاعَةِ، وَهُوَ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ﴾: أَيُّ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفْتُمُوهُ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالتَّقْوُوهِ بِمِثْلِ تِلْكَ الْعَظِيمَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَاصِي. وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْأَنْفُسِ بِالْأَيْدِي؛ لِمَا أَنَّ عَامَّةَ أَفَاعِيلِهَا تُزَاوِلُ يَهْنَ. وَحَلُّ (أَنَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ. وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا، أَيُّ وَالْأَمْرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِمُعَذِّبٍ لِعَبِيدِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِنَفْيِ الظُّلْمِ مَعَ أَنَّ تَغْذِيَّتَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ لَيْسَ بِظُلْمٍ عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ قَاعِدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ ظُلْمًا بِالْعَاقِبَةِ؛ لِيَبَانَ كِمَالُ نِزَاهَتِهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِتَصَوُّيرِهِ بِصُورَةٍ مَا يَسْتَحِيلُ صُدُورُهُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الظُّلْمِ كَمَا يُعَبَّرُ عَنْ تَرْكِ الْإِثَابَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ بِإِضَاعَتِهَا مَعَ أَنَّ الْأَعْمَالَ غَيْرُ مُوجِبَةٍ لِلثَّوَابِ حَتَّى يُلْزَمَ مِنْ تَحْلُفِهِ عَنْهَا ضَيَاعُهَا.

وصيغةُ المبالغة؛ لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر من التعذيب بِعَيْرِ ذَنْبٍ في صورةِ المبالغةِ في الظُّلم، وقيل: هي لرعايةِ جَمْعِيَّةِ الْعَبِيدِ مِنْ قَوْلِهِمْ: "فُلَانٌ ظَلَمَ لِعَبْدِهِ، وظَلَامٌ لِعَبِيدِهِ" على أَنَّهَا لِلْمُبَالَغَةِ كَمَا لَا كَيْفًا. وقال الألوسي: ﴿ذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى العذابِ المحققِ المنزَّلِ مَنْزِلَةً المحسوسِ المشاهد؛ ولِلإِشَارَةِ إِلَى عِظَمِ شَأْنِهِ، وَبُعْدِ مَنْزِلَتِهِ فِي الْهَوْلِ وَالْفُظَاعَةِ أَتَى بِاسْمِ الْإِشَارَةِ مَقْرُونًا بِ(اللام، والكاف). ﴿بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ﴾: أَي بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ الَّتِي قَدَّمْتُمُوهَا، كَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ. وَالْمَرَادُ مِنَ الْأَيْدِي: الْأَنْفُسُ، وَالتَّعْيِيرُ بِهَا عَنْهَا مِنْ قَبِيلِ التَّعْيِيرِ عَنِ الْكُلِّ بِالْجُزْءِ الَّذِي مَدَّارُ جُلِّ الْعَمَلِ عَلَيْهِ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: عَطْفٌ عَلَى مَا قَدَّمْتَ، فَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ (بَاءِ) السَّبَبِيَّةِ، وَسَبَبِيَّتُهُ لِلْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ نَفْيَ الظُّلْمِ يَسْتَلْزِمُ الْعَدْلَ الْمُفْتَضِي إِثَابَةَ الْمُحْسِنِ، وَمُعَاقَبَةَ الْمُسِيءِ. وقال العثيمين: هذا من تمام قوله: ﴿وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أَي يَقَالُ لَهُمْ زِيَادَةً فِي التَّوْبِيخِ وَالنَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ: (ذَلِكَ)، أَي مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّوْبِيخِ، وَهَذَا قَالَ: (ذَلِكَ) مَعَ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ جَمَاعَةٍ وَأَتَى بِ(كَافِ) الْخِطَابِ الْمَفْرَدَةِ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ بِحَسَبِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ، وَ(كَافِ) الْخِطَابِ بِحَسَبِ الْمَخَاطَبِ عَلَى اللُّغَةِ الْفَصْحَى، أَوْ هِيَ بَفَتْحِ (الكَافِ) مَفْرَدَةٌ لِلْمَذْكَرِ، وَبِكَسْرِهَا مَفْرَدَةٌ لِلْمُؤَنَّثِ، أَوْ هِيَ بَفَتْحِ (الكَافِ) الْمَطْلُوقَةِ، وَكُلُّهَا لُغَاتٌ، لَكِنْ الْأَكْثَرُ: أَنَّهَا بِحَسَبِ الْمَخَاطَبِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ﴾: أَي بِسَبَبِ، فَ(الْبَاءِ) هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ. وَ(مَا) اسْمُ مَوْصُولٍ بِمَعْنَى الَّذِي، أَي بِالَّذِي، وَقَوْلُهُ: ﴿قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ﴾: أَي فِي الدُّنْيَا. وَالْمَرَادُ بِالْأَيْدِي هُنَا: أَنْفُسُهُمْ، لَكِنْ أُضِيفَ الْعَمَلُ أَوْ الْمَقْدَّمُ بِالْأَيْدِي؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْأَيْدِي هِيَ مَحَلُّ الْبَطْشِ وَالْعَمَلِ، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ وَأَلَسْتَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، فَكُلُّهَا عَمِلَتْ بِالشَّرْكِ. قَالَ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾ هُنَا بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ﴾، أَي وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ﴾: ﴿ظَلَامٌ﴾ عَلَى صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ، وَلَكِنَّهَا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ عَلَى صِيغَةِ النِّسْبَةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ صِيغَةَ الْمُبَالَغَةِ تَدُلُّ

على الكثرة، وصيغة النسبة تشمل الكثرة والقلة، فهل المراد هنا صيغة المبالغة أم النسبة؟
 المراد: صيغة النسبة؛ لأننا لو قلنا: إنّ المراد بذلك صيغة المبالغة لكان المنفي كثرة الظلم،
 مع أنّ الله لا يظلم مثقال ذرة، وعلى هذا فنقول: ﴿ظَلَامٌ﴾ هنا نسبة، أي ليس بذي
 ظلم، كما نقول: فلان ليس نجاراً، يعني: ليس بذي نجارة، أي ليس منسوباً إلى النجارين.
 وقوله تعالى: ﴿لِلْعَبِيدِ﴾: العبيد: جمع عبد. وعبد: اسم مفرد، وهو من أكثر المفردات
 جموعاً، وله جموعٌ متعدّدة كثيرة، مثل: (شيخ) اسم مفرد له جموع كثيرة تصل إلى عشرة
 جموع. و(العبيد) هنا: المراد بهم: العبيد كوناً. فهو لا يظلم أحداً من العبيد كوناً، وإنما
 قلنا: كوناً؛ لندفع أنّ المراد بذلك العبيد شرعاً، وهم المتعبّدون لله، فالعبودية في هذه الآية
 هي العبوديّة العامّة والشاملة للكافر والمؤمن، فالله لا يظلم كافراً، ولا يظلم مؤمناً، بل
 يُجازي كلّ إنسان بعمله.

• قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّ هذه هي الشبهة الثانية للكفار في الطعن في نبوته ﷺ، وتقريرها
 أنهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾،
 وأنت يا محمد ما فعلت ذلك، فوجب أن لا تكون من الأنبياء، فهذا بيان وجه التّظلم.

• تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: قال
 الواحدي: قال أبو إسحاق: هذا من نعت (العبيد). ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء على
 معنى: هم الذين قالوا. ويجوز أن يكون بدلا من ﴿الَّذِينَ﴾ الأول. قال السدي: إنّ الله

أَمَرَ بني إسرائيلَ في التوراة: مَنْ جَاءَكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَلَا تُصَدِّقُوهُ حَتَّى يَأْتِيَكُم بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، حَتَّى يَأْتِيَكُم الْمَسِيحُ وَمُحَمَّدٌ، فَإِذَا أَتَيْتُكُمْ، فَأَمِنُوا بِمَا، فَإِنَّمَا يَأْتِيَانِ بِغَيْرِ قُرْبَانٍ. وقوله تعالى: ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: القُرْبَان: البِرُّ الذي تتَقَرَّبُ به إلى الله. وأصلُهُ المَصْدَرُ، مِنْ قَوْلِكَ: قَرَّبْتُ قُرْبَانًا، كَالْكُفْرَانِ وَالرُّجْحَانِ، وَالْحُسْرَانِ، ثُمَّ يُسَمَّى بِهِ نَفْسُ الْمُتَقَرِّبِ بِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ، لَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: "يَا كَعْبُ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ" رواه أحمد، أَيُّ بِهَا يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ، وَيُسْتَشْفَعُ فِي الْحَاجَةِ لَدَيْهِ. قَالَ عَطَاءٌ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُونَ لِلَّهِ، فَيَأْخُذُونَ الثَّرُوبَ وَأَطْيَابَ اللَّحْمِ، يَضَعُونَهَا فِي وَسْطِ بَيْتٍ، وَالسَّقْفُ مَكْشُوفٌ، فَيَقُومُ النَّبِيُّ فِي الْبَيْتِ، وَيُنَاجِي رَبَّهُ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ خَارِجُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ، فَتَنْزِلُ نَارٌ بِيضَاءُ لَهَا دَوِيُّ وَخَفِيفٌ، وَلَا دُخَانٌ لَهَا، فَتَأْكُلُ ذَلِكَ الْقُرْبَانَ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ صِفَةٌ رَاجِعَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾. قَالَ الرَّجَاجُ: ﴿الَّذِينَ﴾ صِفَةٌ لِلْعَبِيدِ، وَهَذَا مُفْسِدٌ لِلْمَعْنَى وَالرَّصْفِ. وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ قَالَتْهَا أَحْبَابُ يَهُودَ؛ مُدَافِعَةٌ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، أَيْ أَنَّكَ لَا تَأْتِي بِنَارٍ فَتَنْخُلُ قَدْ عَهِدَ إِلَيْنَا إِلَّا نُؤْمِنُ لَكَ. وَ﴿عَهِدٌ﴾ مَعْنَاهُ: أَمْرٌ. وَالْعَهْدُ: أَحْصُ مِنَ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَا يَتَطَاوَلُ أَمْرُهُ وَيَبْقَى فِي غَايِرِ الزَّمَانِ، وَتَعَدَّى (آمَنَ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِ(الْلامِ، وَالْبَاءِ) فِي ضَمَنِ ذَلِكَ. وَ﴿قُرْبَانٌ﴾ مَصْدَرٌ سُمِّيَ بِهِ الشَّيْءُ الَّذِي يُقَرَّبُ كَالرَّهْنِ. وَكَانَ أَمْرُ الْقُرْبَانِ حُكْمًا قَدِيمًا فِي الْأَنْبِيَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّ ابْنَ آدَمَ قَرَّبَا قُرْبَانًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا مَعْرِفَةَ قَبُولِ اللَّهِ لِصَدَقَةٍ إِنْسَانٍ أَوْ عَمَلِهِ أَوْ صِدْقِ قَوْلِهِ، قَرَّبَ قُرْبَانًا شَاءَ أَوْ بَقَرَةً ذَبِيحَةً أَوْ بَعْضَ ذَلِكَ، وَجَعَلَهُ فِي مَكَانٍ لِلْهَوَاءِ وَانْتَظَرَ بِهِ سَاعَةً، فَتَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحْرِقُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، فَهَذِهِ عَلَامَةُ الْقَبُولِ، وَإِذَا لَمْ تَنْزِلِ النَّارُ فَلَيْسَ ذَلِكَ الْعَمَلُ بِمَقْبُولٍ، ثُمَّ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَكَانَتْ هَذِهِ النَّارُ أَيْضًا تَنْزِلُ لِأَمْوَالِ الْعَنَائِمِ فَتَحْرِقُهَا، حَتَّى أُحِلَّتِ الْعَنَائِمُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وَحُبَيِّ بْنِ أَلْطَبِ،

وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا، أَيُّ أَمْرًا فِي التَّوْرَةِ: ﴿أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾، أَيُّ لَا نُصَدِّقَ رَسُولًا يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولٌ، ﴿حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَالْقُرْبَانُ: مَا تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَبْحٍ وَغَيْرِهِ. وَإِنَّمَا طَلَبُوا الْقُرْبَانَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَكَانَ نُزُولُ النَّارِ عَلَامَةً الْقَبُولِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ يَتَصَدَّقُ، فَإِذَا قُبِلَتْ مِنْهُ، نَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَكَلَتْهُ، وَكَانَتْ نَارًا لَهَا دَوِيٌّ، وَحَفِيفٌ. وَقَالَ عَطَاءٌ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُونَ لِلَّهِ، فَيَأْخُذُونَ أَطْيَبَ اللَّحْمِ، فَيَضَعُونَهَا فِي وَسْطِ الْبَيْتِ تَحْتَ السَّمَاءِ، فَيَقُومُ النَّبِيُّ فِي الْبَيْتِ، وَيُنَاجِي رَبَّهُ، فَتَنْزِلُ نَارٌ، فَتَأْخُذُ ذَلِكَ الْقُرْبَانَ، فَيَخْرِجُ النَّبِيُّ سَاجِدًا، فَيُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ مَا يَشَاءُ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا﴾: فِي مَحَلِّ ﴿الَّذِينَ﴾ وَجُودٌ: أَحَدُهَا: قَالَ الرَّجَّاجُ: الْجُرُّ، وَهَذَا نَعْتُ الْعَبِيدِ، وَالتَّقْدِيرُ: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا كَذَا وَكَذَا). وَثَانِيهَا: أَنَّ التَّقْدِيرَ: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، وَقَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا). وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ رَفْعًا بِالِابْتِدَاءِ وَالتَّقْدِيرُ: (هُمُ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ). وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى بَيِّنَ بَهْدِهِ الدَّلَائِلِ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ هَذِهِ الْمُعْجَزَةَ لَا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِزْشَادِ، بَلْ عَلَى سَبِيلِ التَّعْنُتِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَسْلَافَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ طَلَبُوا هَذَا الْمُعْجَزَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِثْلَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى وَيَحْيَى. عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَهُمْ أَظْهَرُوا هَذَا الْمُعْجَزَ، ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ سَعَوْا فِي قَتْلِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا عِيسَى. عَلَيْهِ السَّلَامُ. أَيْضًا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ إِنَّمَا طَلَبُوا هَذَا الْمُعْجَزَ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى سَبِيلِ التَّعْنُتِ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا سَعَوْا فِي قَتْلِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ الْمَتَأَخِّرِينَ رَاضُونَ بِأَفْعَالِ أَوْلِيكَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَمُصَوِّبُونَ لَهُمْ فِي كُلِّ مَا فَعَلُوهُ، وَهَذَا يَقْتَضِي كَوْنَ هَؤُلَاءِ فِي طَلَبِ هَذَا الْمُعْجَزِ مِنْ مُحَمَّدٍ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. مُتَعَتِّتِينَ. وَقَالَ النَّسْفِيُّ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ فِي مَوْضِعِ جَرٍّ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾، أَوْ نَصْبٍ بِإِضْمَارِ أَغْنِي، أَوْ رَفْعٍ بِإِضْمَارِ هَمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا﴾: أَمَرْنَا فِي التَّوْرَةِ، وَأَوْصَانَا. ﴿أَلَا نُؤْمِنُ﴾: بِالْأَلَا نُؤْمِنُ. ﴿لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: أَيُّ يُقَرَّبُ

قُرْبَانًا فَتَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهُ، فَإِنْ جِئْتَنَا بِهِ صَدَقْنَاكَ. وَهَذِهِ دَعْوَى بَاطِلَةٍ، وَافْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ أَكْلَ النَّارِ الْقُرْبَانَ سَبَبُ الْإِيمَانِ لِلرَّسُولِ الْآتِي بِهِ؛ لِكَوْنِهِ مُعْجَزَةً، فَهُوَ إِذَا وَسَائِرُ الْمُعْجَزَاتِ سَوَاءٌ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾: نُصِيبُ أَوْ رُفِعَ عَلَى الدَّمِّ. وَهُمْ: كَعَبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَمَالِكُ بْنُ صَيْفِيٍّ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ، وَفِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ، وَوَهْبُ بْنُ يَهُودَا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا﴾: أَيُّ أَمَرْنَا فِي التَّوْرَةِ وَأَوْصَانَا. ﴿أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: كَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ كَانَ يُقَرَّبُ بِالْقُرْبَانِ فَيَقُومُ النَّبِيُّ فَيَدْعُو فَتَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهُ، أَيُّ تُحِيلُهُ إِلَى طَبْعِهَا بِالْإِحْرَاقِ، وَهَذَا مِنْ مُفْتَرِيَاتِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ فَإِنَّ أَكْلَ النَّارِ الْقُرْبَانَ لَمْ يُوجِبِ الْإِيمَانَ إِلَّا لِكَوْنِهِ مُعْجَزَةً فَهُوَ وَسَائِرُ الْمُعْجَزَاتِ سَوَاءٌ، وَلَمَّا كَانَ مُحْصَلُ كَلَامِهِمُ الْبَاطِلُ أَنَّ عَدَمَ إِيْمَانِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِعَدَمِ إِيْتَانِهِ بِمَا قَالُوا، وَلَوْ تَحَقَّقَ الْإِيْتَانُ بِهِ لَتَحَقَّقَ الْإِيمَانُ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: هَذَا أَيْضًا مِنْ كَذِبِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ، أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا﴾: أَيُّ أَوْصَانَا وَصِيَّةً مُوْتَقَّةً بِالْعَهْدِ. يُقَالُ: عَهْدٌ إِلَيْهِ: أَيُّ أَوْصَى إِلَيْهِ وَصِيَّةً مُوْتَقَّةً بِالْعَهْدِ، وَمِنْهُ الْعَهْدُ بِالْوِلَايَةِ، أَيُّ وِلَايَةِ الْحَاكِمِ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ، فَإِنَّهُ يُوصَى بِالْحُكْمِ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ، مِثْلَ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ إِلَى عُمَرَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .. ﴿أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: هَكَذَا قَالُوا، وَهَذَا مِنْ كَذِبِهِمْ. ﴿أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ﴾: أَيُّ لِرَسُولٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾: وَذَلِكَ بِأَنْ تُقَرَّبَ قُرْبَانًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ بَهَائِمٍ أَوْ لَحْمٍ أَوْ ثِيَابٍ، ثُمَّ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُ هَذَا الْقُرْبَانَ، يَعْنِي أَنَّهُمْ حَصَرُوا الْآيَاتِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا مِنَ الرَّسُولِ، بِأَنْ يَأْتِيَ بِنَارٍ تَأْكُلُ هَذَا الْقُرْبَانَ، وَكَانُوا فِيهَا سَبَقٌ إِذَا غَنَمُوا غَنَائِمَ مِنَ الْكُفَّارِ جَمْعُوهَا، ثُمَّ نَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْهَا حَتَّى أُحِلَّتِ الْغَنَائِمُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ إِلَّا إِذَا أَتَانَا بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَطْ، وَهِيَ: أَنَّا إِذَا قَرَّبْنَا قُرْبَانًا أَكَلَتْهُ النَّارُ.

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَحُوطِبَ بِهَذَا الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْرُونَ مَجْرَى أَسْلَافِهِمْ؛ لِرِضَاهُمْ بِمَذَاهِبِهِمْ،

وكوهم على طريقتهم. وقال السمعاني: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالدلالات والمعجزات. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: يعني من الإتيان بقرآن تأكله النار. وقال الرازي: واعلم أنه تعالى لم يقل: (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالَّذِي قُلْتُمْ)، بل قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾، والفائدة: أَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ وَقَفَ التَّصْدِيقَ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى ظُهُورِ الْقُرْآنِ الَّذِي تَأْكُلُهُ النَّارُ، فَلَوْ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمَتَقَدِّمِينَ أَتَوْا بِهَذَا الْقُرْآنِ، لَمْ يَلْزَمْ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ وَجُوبُ الاعْتِرَافِ بِنُبُوَّتِهِمْ؛ لِاحْتِمَالِ أَنَّ الْإِثْبَانَ بِهَذَا الْقُرْآنِ شَرْطٌ لِلنُّبُوَّةِ لَا مُوجِبٌ لَهَا، وَالشَّرْطُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عِنْدَ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَشْرُوطِ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ عِنْدَ وُجُودِهِ وُجُودُ الْمَشْرُوطِ، فَتَبَتَ أَنَّهُ لَوْ اكْتَفَى بِهَذَا الْقَدْرِ لَمَا كَانَ الْإِلْزَامُ وَارِدًا، أَمَّا لَمَّا قَالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ كَانَ الْإِلْزَامُ وَارِدًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَتَوْا بِالْبَيِّنَاتِ فَقَدْ أَتَوْا بِالْمُوجِبِ لِلتَّصْدِيقِ؛ وَلَمَّا أَتَوْا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَقَدْ أَتَوْا بِالشَّرْطِ، وَعِنْدَ الْإِثْبَانِ بِهِمَا كَانَ الْإِفْرَاقُ بِالنُّبُوَّةِ وَاجِبًا، فَتَبَتَ أَنَّهُ لَوْلَا قَوْلُهُ: ﴿جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لَمْ يَكُنِ الْإِلْزَامُ وَارِدًا عَلَى الْقَوْمِ. وقال النسفي: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: المعجزات سوى القرآن. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي بالقرآن. يعني: قَدْ جَاءَ أَسْلَافُكُمْ الَّذِينَ أَنْتُمْ عَلَى مِلَّتِهِمْ، وَرَاضُونَ بِفِعْلِهِمْ. ﴿فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: أي إِنْ كَانَ امْتِنَاعُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ لِأَجْلِ هَذَا، فَلَمْ تَتُومِنُوا بِالَّذِينَ أَتَوْا بِهِ؟ وَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ؟! ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: فِي قَوْلِكُمْ: إِنَّمَا نُؤَخِّرُ الْإِيمَانَ لِهَذَا. وقال ابن كثير: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقَرَابِينَ الْمُتَقَبِّلَةَ. ﴿فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: أي فَلَمْ قَابَلْتُمُوهُمْ بِالْكَذِبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ. وقال أبو السعود: رُدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾: أي تَبَكَيْتُمْ لَهُمْ وَإِظْهَارًا لِكَذِبِهِمْ. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: كَثِيرَةُ الْعَدَدِ كَبِيرَةُ الْمِقْدَارِ. ﴿مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي الْمَعْجَزَاتِ الْوَاضِحَةِ. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي بِعَيْنِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي تَأْكُلُهُ النَّارُ. ﴿فَلَمْ

قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾: فيما يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُكُمْ مِنْ أَنْكُمْ تُؤْمِنُونَ لِرَسُولٍ يَأْتِيَكُمْ بِمَا
افْتَرَحْتُمُوهُ، فَإِنَّ زَكْرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا
قُلْتُمْ مَعَ مُعْجَزَاتٍ أُخَرَ فَمَا لَكُمْ لَمْ تُؤْمِنُوا لَهُمْ حَتَّىٰ اجْتَرَأْتُمْ عَلَىٰ قَتْلِهِمْ. وقال العثميين:
﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي﴾: أي قد جاءكم رسلٌ بأكثر مما تدعون الآن.
﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالآيات البينات التي تُبَيِّنُ صدق رسالتهم. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي
بالقربان الذي تأكله النار. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: أي ومع ذلك كذبتُمُوهم وقتلتُمُوهم. فإن
قال قائل: لماذا عدل الله عن المطالبة بصدق ما ادَّعوه؟ قلنا: هذا من باب موافقة
الخصم، يعني على فرض أنَّ الأمر كما قلتم فقد اعتديتُم حتى فيما جيء به من
مطلوبكم، فاعتديتُم على الرسل. وهنا فائدة، وهي: أنَّ من ادَّعى دعوةً فإننا نُعامله
بمراتب: المرتبة الأولى: صحَّة ما قال. المرتبة الثانية: مخالفته لما قال. فهنا لم يُطالبهم الله
بصحَّة ما قالوا من باب موافقة الخصم، وقلنا من باب موافقة الخصم أحسن من قولنا
من باب التنزُّل؛ لأن الذي معنا قرآن، وإن قلنا: تنزَّل فإنه بناء على العبارة المعروفة عند
العلماء. والمعنى: أن يقول: هب أنَّ الأمر كما قلتم وأنه عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول
حتى يأتيكم بقربانٍ تأكله النار، فقد جاءكم رسولٌ بقربانٍ تأكله النار ومع ذلك قتلتموه،
إذاً فطلبكم هذه الآية المعينة ليس عن صدق؛ لأنها قد جاءكم ومع ذلك فقد كذبتُم
الرسل وقتلتُمُوهم، فهنا عدل عن المطالبة بصحَّة الدعوى، من باب موافقة الخصم، أي
أنكم لا تريدون أن تُصدِّقوا الرسل، وإنما تريدون تكذيبهم. وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي الآيات البينات الدالة على رسالتهم وصدقهم. ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾:
يعني والذي قلتم دون البينات التي جاؤوا بها، بدليل أنه قدَّم قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فدلَّ
هذا على أنَّ ما قالوه وإن كان آية، لكنَّه دون البينات التي جاؤوا بها؛ لأنهم جاؤوا بأعظم
من هذا، فمثلاً موسى . عليه السلام . جاء ببينة أعظم من ذلك: كان يلقي العصا
فتكون حيَّة، ويحملها فتكون عصا، وكان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء لکن من غير

عيب أو من غير برص، كذلك عيسى . عليه السلام . كان يخرج الأموات من القبور أحياء، أو يقف على الميت قبل أن يدفن فيحيا بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيه فيكون طيراً. أيهما أعظم: هذا أم أن تنزل من السماء نار تأكل القربان؟ الجواب: الأولى أعظم؛ ولهذا قدّمها. ﴿فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ﴾: (القاء): عاطف، و (لم): (اللام) حرف جرّ، و(ما) استفهاميّة، ومن قواعد الإملاء: أنّ (ما) الاستفهاميّة إن دخل عليها حرف جرّ فإنها تحذف ألفها مثل: (عَمَ - بَمَ - لَمْ). ﴿فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي في أنكم تقبلون الرسل إذا جاؤوا بهذه الآية. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: الجملة شرطية، وهل تحتاج إلى جواب أم لا؟ ذهب بعض العلماء إلى أنها لا تحتاج إلى جواب؛ لأن المعنى مفهوم بدونه، والجواب إنما يؤتى به ليتّمم المعنى. وقال بعضهم: بل جوابها محذوف دلّ عليه ما قبله، وعلى هذا الرأي يكون التقدير: (إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم)، وإلى القول الأوّل ذهب ابن القيم.

● قال الله تعالى: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَلَكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾:

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال أبو السعود: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ...﴾ شُرُوعٌ فِي نَسْلِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِثْرَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مَا يُخْزِيهِ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. مِنْ مَقَالَاتِ الْكُفَرَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ.

● تفسير الآية:

﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: قال مكّي: هذه تعزية للنبي ﷺ: أنه إن كذّبه من أرسل إليه فقد كذّب رسل من قبله جاؤوا إلى أممهم بالآيات والزبر. وهو جمع زبور، وهو الكتاب، وكلّ كتاب زبور، بمعنى مزبور، أي: مكتوب، يقال: زبرت: إذا كتبت. ﴿وَأَلَكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: التوراة والإنجيل. وقال الواحدي: قال ابن عباس، والحسن،

والضحّاك، وابن جريج: هذه الآية تعزية للنبي ﷺ، في تكذيب اليهود إياه، وجواب لقائل يقول: لو كان ما جاء به حقاً لصدّق به من أتاه من العقلاء، وبيان أنهم إن كذبوه، فالتكذيب عادة للأمم، وسائر الرسل قد كذبوا كما كذب. ﴿جاءوا بالبينات﴾: أي بالمعجزات. ﴿والزُّبُرُ﴾: أي كُتِبَ المزاجِر. وقوله تعالى: ﴿والزُّبُرُ﴾: جمع زُبُور. والزُّبُور: الكتاب، بمعنى: المزبور، أي المكتوب. يقال: (زَبَرْتُ الكتابَ)، أي: كتبتَه. وكلُّ كتابٍ زُبُورٌ. وقال الزجاج: الزُّبُور: كلُّ كتابٍ ذي حِكْمَةٍ. وعلى هذا، يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ معنى الزُّبُورِ، مِنَ (الزُّبُرِ)، الذي هو: الرَّجَر. يقال: (زَبَرْتُ الرجلَ، أَزْبَرُهُ زَبْرًا): إذا زَجَرْتَهُ مِنَ الباطل. وسمي الكتاب زُبُورًا؛ لما فيه من الزُّبَر عن خلاف الحق. وبه سُمِّي زُبُور داود؛ لكثرة ما فيه من المزاجِر، والمواعظ. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أي الهادي إلى الحق. و﴿الْمُنِيرِ﴾ من قولك: (أَنْزَرْتُ الشيءَ، أُنِيرُهُ، إِنْارَةً)، أي بَيَّنَّتُهُ، وأوضحته، وفي الحديث: "فَرَضَ عمرُ بن الخطاب لِلجَدِّ، ثم أنارها زيدُ ابن ثابت"، أي أوضحها. ويقال: (نَارَ الشيءُ وَأَنَارَ، وَنَوَّرَ، وَاسْتَنَارَ) بمعنى واحد. كما يقال: (أَبَانَ الشيءُ، وَبَيَّنَّ، وَتَبَيَّنَّ، وَاسْتَبَانَ) بمعنى واحد. وعلى ما ذكرنا؛ (أَنَارَ) يكون واقِعًا ومُطَاوِعًا. وقال السمعاني: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَي فَرَقَ بَيْنَ الزُّبُرِ وَالْكِتَابِ؟ وَقَدْ قَالَ: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؟. قِيلَ: الْكِتَابُ: اسْمٌ لِمَا كُتِبَ، وَضَمَّ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ فِيهِ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الْكُتُبِ (وَهُوَ) الضَّمُّ، وَأَمَّا الزُّبُرُ: مَأْخُوذٌ مِنَ الزُّبُرِ وَهُوَ الرَّجَرُ، فَالزُّبُورُ: كِتَابٌ فِيهِ مَزَاجِرٌ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: مَعْنَاهُ: لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ كَذَّبَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الزُّبُرُ: جَمْعُ زُبُورٍ، وَالزُّبُورُ: كُلُّ كِتَابٍ ذِي حِكْمَةٍ. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: يَعْنِي بِهِ الْكُتُبُ النَّبِيَّةُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فِي قَوْلِكَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمُتَقَدِّمِينَ جَاءُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي تَأْكُلُهُ النَّارُ فَكَذَّبُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ: نُوحٌ، وَهُودٌ، وَصَالِحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَشُعَيْبٌ، وَغَيْرُهُمْ. الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ: إِنْ كَذَّبُوكَ فِي أَصْلِ النُّبُوَّةِ

والشريعة فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، وَلَعَلَّ هَذَا الْوَجْهَ أَوْجَهُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُخَصِّصْ؛ وَلِأَنَّ تَكْذِيبَهُمْ فِي أَصْلِ النُّبُوَّةِ أَعْظَمُ؛ وَلِأَنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهُ التَّكْذِيبُ فِي ذَلِكَ الْحِجَاجِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: تَسْلِيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَيَانُ أَنَّ هَذَا التَّكْذِيبَ لَيْسَ أَمْرًا مُخْتَصًّا بِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، بَلْ شَأْنُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ تَكْذِيبُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالطَّعْنُ فِيهِمْ، مَعَ أَنَّ حَالَهُمْ فِي ظُهُورِ الْمُعْجَزَاتِ عَلَيْهِمْ وَفِي نُزُولِ الْكُتُبِ إِلَيْهِمْ كَحَالِكَ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَى مَا نَالَهُمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْأُمَمِ وَاحْتَمَلُوا إِيْذَاءَهُمْ فِي جَنْبِ تَأْذِيَةِ الرِّسَالَةِ، فَكُنْ مُتَأَسِّيًا بِهِمْ سَالِكًا مِثْلَ طَرِيقَتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ تَسْلِيَةً لِأَنَّ الْمَصِيبَةَ إِذَا عَمَّتْ طَابَتْ وَحَقَّتْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أَيُّ لَا يُوهِنُكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَكَ أُسْوَةٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ. ﴿وَالزُّبُرِ﴾: هِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَقَّاهُ مِنَ السَّمَاءِ، كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أَيُّ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: شُرُوعٌ فِي تَسْلِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِتْرَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مَا يُحْزِنُهُ مِنْ مَقَالَاتِ الْكُفَرَةِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ. ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: تَعْلِيلٌ لِحَوَابِ الشَّرْطِ، أَيُّ فَتَسَلَّ فَقَدْ كُذِّبَ إِلْحَ. وَ(مِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿كُذِّبَ﴾، أَوْ بِمَحْذُوفٍ صِفَةً لِ﴿رُسُلٍ﴾، أَيُّ كَائِنَةٌ مِنْ قَبْلِكَ. ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أَيُّ الْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ صِفَةً لِ﴿رُسُلٍ﴾. ﴿وَالزُّبُرِ﴾: هُوَ جَمْعُ زُبُورٍ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمَقْصُورُ عَلَى الْحِكْمِ مِنْ زَبْرَتِهِ إِذَا حَسَنَتُهُ. وَقِيلَ: زُبُرُ الْمَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ مِنْ زَبْرَتِهِ إِذَا زَجَرَتُهُ. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: قِيلَ: أَيُّ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَالْكِتَابُ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ مَا يَتَضَمَّنُ الشَّرَائِعَ وَالْأَحْكَامَ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ مُتَعَاظِفَيْنِ فِي عَامَّةِ الْمَوَاقِعِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: أَيُّ بَعْدَ بُطْلَانِ عُذْرِهِمُ الْمَذْكُورِ. ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾: أَيُّ فَلَا تَحْزَنْ، وَتَسَلَّ، فَقَدْ كُذِّبَ ﴿رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾: جَمْعُ زُبُورٍ، أَيُّ الْكُتُبِ الْمُوَحَّاةِ مِنْهُ تَعَالَى. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أَيُّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ. وَالزَّبُورُ وَالْكِتَابُ:

واحدٌ في الأصل، وإنما ذُكِرَا؛ لِاخْتِلَافِ الوُصْفَيْنِ. فالزُّبُورُ فِيهِ حِكْمٌ زَاجِرَةٌ، وَالكِتَابُ الْمُنِيرُ
 هُوَ الْمُسْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ. وقال السَّعْدِيُّ: ثُمَّ سَلَّى اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ
 كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: أي هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله،
 وتكذيب رسل الله وليس تكذيبهم لرسل الله، عن قصور ما أتوا به، أو عدم تبين حُجَّة،
 بل قد ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي الحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ، والبراهين النقليَّةِ، ﴿وَالزُّبُرُ﴾: أي الكتب
 المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
 لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضا للأخبار
 الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك
 أمرهم، ولا يهمنك شأنهم. وقال ابن عاشور: ثُمَّ سَلَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ
 فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، والمذكورُ بَعْدَ (الفاءِ) دَلِيلُ الْجَوَابِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ، وَالتَّقْدِيرُ:
 فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَلَا عَجَبَ، أَوْ فَلَا تَحْزَنَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ فِي الْأُمَمِ مَعَ الرُّسُلِ مِثْلِكَ،
 وَلَيْسَ ذَلِكَ لِنَقْصٍ فِيهَا جِئْتَ بِهِ. وَ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الدَّلَائِلُ عَلَى الصِّدْقِ. ﴿وَالزُّبُرُ﴾: جَمْعُ
 زُبُورٍ، وَهُوَ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِثْلَ رُسُولٍ، أَيْ مَرْبُورٍ بِمَعْنَى: مَحْطُوطٍ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَا حُودٌ
 مِنْ زَبَرٍ إِذَا زَجَرَ أَوْ حَبَسَ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ يُقْصَدُ لِلْحُكْمِ. وَأُرِيدَ بِالزُّبُرِ: كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَالرُّسُلِ، مِمَّا يَتَضَمَّنُ مَوَاعِظَ وَتَذَكِيرًا مِثْلَ كِتَابِ دَاوُدَ وَالْإِنْجِيلِ. وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ: إِنْ
 كَانَ التَّعْرِيفُ لِلْجَنْسِ فَهُوَ كُتُبُ الشَّرَائِعِ مِثْلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِنْ كَانَ لِلْعَهْدِ فَهُوَ
 التَّوْرَةُ، وَوَصَفُهُ بِالْمُنِيرِ مَجَازٌ بِمَعْنَى الْمُنِيرِ لِلْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى
 وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَالْعَطْفُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى التَّوْزِيعِ، فَبَعْضُ الرُّسُلِ جَاءَ بِالزُّبُرِ،
 وَبَعْضُهُمْ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، وَكُلُّهُمْ جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: الْخُطَابُ
 لِلرُّسُولِ ﷺ، وَالْفَاعِلُ قَرِيشٌ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، وَكُلٌّ مِنْ كَذَّبَ الرسل. ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ
 مِنْ قَبْلِكَ﴾: ﴿فَقَدْ﴾: (الفاء): واقعة في جواب الشرط؛ لأنه مقرون بقد. قال هنا:
 ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]،

فلماذا جاء التذكير والتأنيث؟ نقول: لأن رسل جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه ثبوت (التاء) وحذفها. وقوله: ﴿رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: الرسول كما مرَّ علينا كثيراً هو الذي أوحى إليه بالشرع وأمر بالتبليغ. وجملة: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يجوز أن تكون صفة للرسل، ويجوز أن تكون حالا، أمّا جواز أن تكون صفة فظاهر؛ لأن (رسل) منكر، فالذي يأتي بعده يكون صفة، وأمّا جواز كونه حالا مع أن الذي قبلها نكرة؛ فلأن هذه النكرة وُصفت، وإذا وُصفت النكرة جاز وقوع الحال منها؛ لأنها إذا وُصفت تخصّصت. ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: البينات: هي الآيات البينات الشرعية والكونية. فالآيات الشرعية: هي الكتب التي جاءوا بها. والآيات الكونية: هي ما يُسمّى بالمعجزات الحسية. ﴿وَالزُّبُرِ﴾: جمع زبور، والمراد به: ما اشتمل على المواعظ والزواجر؛ ولهذا كان الزبور الذي أوتيّه داود أكثره مواعظ وزواجر. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: الكتاب: بمعنى المكتوب، والمنير: بمعنى المنير للظلمات. وهذا العطف الذي في قوله: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ هذا من باب عطف الصفة على الصفة الأخرى؛ لأن الزبور تتضمن الكتاب المنير، وعطف الصفات بعضها على بعض موجود في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾ [الأعلى]، فقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ هذا من باب عطف الصفات، وقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أيضاً من باب عطف الصفات، فالتغاير تغاير صفة وليس تغاير ذات.

- قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾:
- سبب نزول الآية: قال ابن عباس: "لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السَّجْدَةِ: ١١]، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا نَزَلَ فِي بَنِي آدَمَ، فَأَيْنَ ذِكْرُ الْمَوْتِ فِي الْجِنِّ، وَالطَّيْرِ، وَالْأَنْعَامِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال القرطبي: لَمَّا أَخْبَرَ جَلَّ وَتَعَالَى عَنِ الْبَاخِلِينَ وَكُفْرِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُبْلَوْنَ...﴾، بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ بِمَا يَنْقُضِي وَلَا يَدُومُ، فَإِنَّ أَمَدَ الدُّنْيَا قَرِيبٌ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمُ الْجَزَاءِ.

وقال أبو بكر الجزائري: ما زال السياق في تعزية الرسول ﷺ وأصحابه، لقد جاء في الآية السابقة تسلية الرسول ﷺ عما آلمه من تكذيب اليهود والمشركين له، وفي هذه الآية أعظم تسلية وعزاء؛ إذ أخبر تعالى فيها بأنَّ كلَّ نفس مهما علت أو سفلت ذائقة الموت لا محالة، وإنَّ الدنيا ليست دار جزاء وإنما هي دار كسب وعمل.

● تفسير الآية:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: قال مكِّي: الآية تهديد ووعيد لهؤلاء المفترين. وقال السمعاني: حَقِيقَةُ الذَّوْقِ: هُوَ الْإِحْسَاسُ بِالشَّيْءِ، فَلَمَّا كَانَ يَحْسُ بِالْمَوْتِ، سَمَّاهُ ذَوْقًا. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا يَخْفِي أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تَمُوتُ، فَأَيْشِ الْفَائِدَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؟ قيل: أَرَادَ بِهِ التَّرْهِيدَ بِالدُّنْيَا، يَعْنِي: أَنَّ النَّفْسَ إِلَى الْفَنَاءِ، فَتَزْهَدُوا بِالدُّنْيَا. وقال البغوي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: مَنْقُوسَةٌ. وقال ابن عطية: هَذَا خَبَرٌ وَاعِظٌ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَأَمْتِهِ عَنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَعَدُّ فِي الْآخِرَةِ، فَبِالْفِكْرَةِ فِي الْمَوْتِ يَهْوُونَ أَمْرَ الْكُفَّارِ وَتَكْذِيبُهُمْ. والمعنى: كُلُّ نَفْسٍ مَخْلُوقَةٌ حَيَّةٌ. وَالذَّوْقُ هُنَا: اسْتِعَارَةٌ. وقال ابن الجوزي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ تَهْدِيدٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِالْمَصِيرِ، وَتَرْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا، وَتَنْبِيْهُ عَلَى اغْتِنَامِ الْأَجَلِ. وقال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: تَأْكِيدُ تَسْلِيَةِ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَالْمِبَالَعَةُ فِي إِزَالَةِ الْحُزْنِ مِنْ قَلْبِهِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ عَاقِبَةَ الْكُلِّ الْمَوْتُ، وَهَذِهِ الْعُمُومُ وَالْأَحْزَانُ تَذْهَبُ وَتَزُولُ وَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْهَا، وَالْحُزْنُ مَتَى كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَلْتَفِتِ الْعَاقِلُ إِلَيْهِ. الثَّانِي: أَنَّ بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ دَارٌ يَتَمَيَّزُ فِيهَا الْمُحْسِنُ عَنِ الْمُسِيءِ، وَيَتَوَقَّفُ عَلَى عَمَلٍ كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَلِيْقُ بِهِ مِنْ

الجزاء، وكلُّ واحدٍ من هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ فِي إِزَالَةِ الْحُزْنِ وَالْغَمِّ عَنْ قُلُوبِ الْعُقَلَاءِ. وقال النسفي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مُبْتَدَأٌ. والخبر: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وجاز الابتداء بالنكرة؛ لما فيه من العموم. والمعنى: لا يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ، فَمَرْجِعُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فَأُجَازِيهِمْ عَلَى التَّكْذِيبِ، وَأُجَازِيكَ عَلَى الصَّبْرِ. وقال ابن كثير: يُخْبِرُ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَامًّا يَعْهُمُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعَزِيَّةٌ لِّجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ، فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ وَفَرَعَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وَجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ وَانْتَهَتْ الْبَرِيَّةُ أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ وَجَازَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا، كَثِيرَهَا وَقَلِيلَهَا، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا، فَلَا يَظْلُمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وقال القاسمي: فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَعَزِيَّةٌ لِّجَمِيعِ النَّاسِ، وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ لِلْمُصَدِّقِ وَالْمُكَذِّبِ. وقال السعدي: هذه الآية الكريمة فيها الترهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغرر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر. وقال العثيمين: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: ﴿كُلُّ﴾: من صيغ العموم. و(النفوس) قد يراد بها: الروح، وقد يراد بها البدن بالروح، وكلاهما صحيح، فالموت يذوقه البدن وتذوقه الروح. وقوله: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: أي ذائقة طعمه، أي لا بد أن تموت، ولكن الله عبَّرَ بالذوق؛ لأنه أبلغ في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حقّ اليقين، وقد قسَّم العلماء اليقين إلى ثلاث درجات: (علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين)، فعلم اليقين بالخبر اليقين. وعين اليقين بالمشاهدة، وحقّ اليقين بالذوق. فإن قال قائل: هذه تقاحة وقد أخفاها في كيس، والقائل صدوق، فهذا نسبيه: علم اليقين، فإذا كشفها فهو عين اليقين، فإذا أكلها المخبر فهو حقّ اليقين؛ ولهذا عبَّرَ بالذائقة؛ لأن الموت حقّ لا بد لكلِّ حيٍّ من موت، إلا الحي القيوم. قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: هل المراد من بني آدم، ومن الجنّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ، بحيث نقول: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَمُوتُونَ؟ الجواب: لا. كلٌّ أَحَدٍ يَمُوتُ،

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، ذكر العلماء أنه يستثنى من هذا من لا يموت ممن خلَقوا للبقاء كالولدان الذين في الجنة، والحدور اللآتي في الجنة، فإنهم خلَقوا للبقاء فلا يموتون، أما الملائكة وجميع الخلق فإنهم يموتون.

﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ﴾: قال البغوي: تُوقَفُونَ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: إِنَّ خَيْرَ فَحَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وقال ابن عطية: ﴿وَإِنَّمَا﴾: حاصِرةٌ على التَّوْفِيَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى الْكَمَالِ؛ لِأَنَّ مَنْ قُضِيَ لَهُ بِالْجَنَّةِ فَهُوَ مَا لَمْ يَدْخُلْهَا غَيْرُ مُوقِفٍ. وَخَصَّ تَعَالَى ذِكْرَ الْأَجُورِ؛ لِشَرَفِهَا وَإِشَارَةً إِلَى مَعْرِفَتِهِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَلَا مُحَالَةً أَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقَعُ فِيهِ الْأَجُورُ وَتَوَفِيَةُ الْعِقَابِ. وقال ابن الجوزي: وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بِشَارَةً لِلْمُحْسِنِينَ، وَتَهْدِيدٌ لِلْمُسِيئِينَ. وقال الرازي: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ تَمَامَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَكْلَفِ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَى الْمَكْلَفِ فِي الدُّنْيَا فَهِيَ مُكَدَّرَةٌ بِالْعُمُومِ وَالثَّمُومِ وَبِخَوْفِ الْإِنْقِطَاعِ وَالزَّوَالِ، وَالْأَجْرُ التَّامُّ وَالثَّوَابُ الْكَامِلُ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى الْمَكْلَفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ يَحْصُلُ السُّرُورُ بِلا غَمٍّ، وَالْأَمْنُ بِلا خَوْفٍ، وَاللَّذَّةُ بِلا أَلَمٍ، وَالسَّعَادَةُ بِلا خَوْفِ الْإِنْقِطَاعِ. وقال القرطبي: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: فَأَجْرُ الْمُؤْمِنِ ثَوَابٌ، وَأَجْرُ الْكَافِرِ عِقَابٌ، وَلَمْ يَعْتَدَ بِالنِّعَمَةِ وَالْبَلِيَّةِ فِي الدُّنْيَا أَجْرًا وَجَزَاءً؛ لِأَنَّهَا عَرَصَةُ الْفَنَاءِ. وقال النسفي: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أَيُّ تُعْطَوْنَ ثَوَابَ أَعْمَالِكُمْ عَلَى الْكَمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ الْجَزَاءِ. وقال أبو حيان: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: لَفْظُ التَّوْفِيَةِ يَدُلُّ عَلَى التَّكْمِيلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَا قَبْلَهُ مِنْ كَوْنِ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ، هُوَ بَعْضُ الْأَجُورِ. وَمَا لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ أَوْ النَّارَ فَهُوَ غَيْرُ مُوقِفٍ. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ: أَنَّ الْأَجُورَ هِيَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ فِي الْإِسْتِعْمَالِ أَنَّ الْأَجْرَ هُوَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى عَمَلِ الطَّاعَةِ. وقال أبو السعود:

﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ﴾: أَي تُعْطَوْنَ أَجْزِيَّةَ أَعْمَالِكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أَي يَوْمَ قِيَامِكُمْ مِنَ الْقُبُورِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ﴾: أَي تُعْطَوْنَ أَجْزِيَّةَ أَعْمَالِكُمْ وَافِيَةً تَامَةً. وَفِي لَفْظِ التَّوْفِيَةِ: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَعْضَ أَجُورِهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تَصِلُ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَالطَّبْرَانِيِّ فِي الْأَوْسَطِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: "الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ". قَالَ الشُّوكَانِيُّ: فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ.. وَقِيلَ: النُّكْتَةُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ الْجَزَاءُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أَي تُعْطَوْنَ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ وَافِيًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى نَعِيمِ الْبَرَزِخِ وَعَذَابِهِ، وَأَنَّ الْعَامِلِينَ يَجْزُونَ فِيهِ بَعْضُ الْجَزَاءِ مِمَّا عَمَلُوهُ، وَيَقْدَمُ لَهُمْ أَمُودَجٌ مِمَّا أَسْلَفُوهُ، يَفْهَمُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أَي تَوْفِيَةِ الْأَعْمَالِ التَّامَةِ إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ فَيَكُونُ فِي الْبَرَزِخِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: هَذِهِ حَصْرٌ، يَعْنِي لَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُرَادُ بِالتَّوْفِيَةِ هُنَا: تَوْفِيَةِ الْكَمَالِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَوْفَى أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَيُدَّخَرُ لَهُ أَيْضًا زِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَالْكَافِرُ أَيْضًا يَوْفَى أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا، مِثْلَ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّهُ يُطْعَمُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُ خَلَاقٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ قَدْ يُشْعَرُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ هُنَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، فَيَشْمَلُ الْقِيَامَةَ الصَّغْرَى الَّتِي تَكُونُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ مِنْ ذَوَاتِ النَفُوسِ.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾: قَالَ مَكِّي: أَي نَجَا. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: أَي ظَفَرَ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ فَقَدْ فَازَ﴾: الْفَوْزُ: مَعْنَاهُ: الظَّفَرُ بِالْخَيْرِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الشَّرِّ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِالْفَوْزِ لِمَنْ أُبْعِدَ مِنَ النَّارِ، فَنَجَا مِنْ شَرِّهَا، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَظَفَرَ بِنَعِيمِهَا؟ قَالَ الرَّجَّاجُ: يَقَالُ لِكُلِّ مَنْ نَجَا مِنْ هَلَكَةٍ، وَلَقِيَ مَا يَغْتَبِطُ بِهِ:

فَازَ. فَتَأْوِيلُ ﴿فَازَ﴾: تَبَاعَدَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَلَقِيَ مَا يُحِبُّ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ﴾: نُحِيَ وَأُزِيلَ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: ظَفَرَ بِالنَّجَاةِ وَنَجَا مِنَ الْخَوْفِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿زُحِرَ﴾: مَعْنَاهُ: أُبْعِدَ، وَالْمَكَانُ الزُّحْرُ: الْبَعِيدُ. وَ﴿فَازَ﴾ مَعْنَاهُ: نَجَا مِنْ خَطَرِهِ وَخَوْفِهِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ﴾: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: نُحِيَ وَأُبْعِدَ. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾: قَالَ الرَّجَّاحُ: تَأْوِيلُ فَازَ: تَبَاعَدَ عَنِ الْمَكْرُوهِ، وَلَقِيَ مَا يُحِبُّ، يُقَالُ لِمَنْ نَجَا مِنْ هَلَكَةٍ، وَلِمَنْ لَقِيَ مَا يَغْتَبِطُ بِهِ: قَدْ فَازَ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾: أَيُّ أُبْعِدَ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: أَيُّ ظَفَرَ بِمَا يَرْجُو، وَنَجَا مِمَّا يَخَافُ. وَقَالَ النَّسْفِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ﴾: أَيُّ بَعُدَ، وَالزُّحْرَةُ: الْإِبْعَادُ. ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: أَيُّ ظَفَرَ بِالْخَيْرِ. وَقِيلَ: فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْفَوْزُ الْمَطْلُوقُ. وَقِيلَ: الْفَوْزُ: نَيْلُ الْمَحْبُوبِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْمَكْرُوهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: عَلَّقَ الْفَوْزَ. وَهُوَ نَيْلُ الْحَظِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الشَّرِّ. عَلَى التَّنْحِيَةِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَنْجُ عَنِ النَّارِ بَلَّ أَدْخِلَهَا. وَإِنْ كَانَ سَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ. لَمْ يَقْرَ كَمَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ. وَمَنْ نُحِيَ عَنْهَا وَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ كَأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، لَمْ يَقْرَ أَيْضًا. وَقِيلَ: فَازَ: مَعْنَاهُ: نَجَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: سَبَقَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: غَنِمَ. وَالزُّحْرَةُ: التَّنْحِيَةُ وَالْإِبْعَادُ، تَكْرِيرُ الرَّحِّ وَهُوَ الْجَذْبُ بِعَجَلَةٍ، وَيُقَالُ: مَكَانٌ زُحِرَ أَيُّ بَعِيدٌ. وَالْفَوْزُ: النَّجَاةُ مِمَّا يُخْذَرُ وَالظَّفَرُ بِمَا يُؤْمَلُ، وَسُمِّيَتْ الْأَرْضُ الْقَفَرُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْهَلَاكِ فِيهَا مَفَازَةٌ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ، لِأَنَّ مَنْ قَطَعَهَا فَازَ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: أَيُّ مَنْ جَنَّبَ النَّارَ وَنَجَا مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفَوْزِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾: أَيُّ بَعُدَ عَنْهَا يَوْمئِذٍ وَنُحِيَ. وَالزُّحْرَةُ فِي الْأَصْلِ: تَكْرِيرُ الرَّحِّ وَهُوَ الْجَذْبُ بِعَجَلَةٍ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: بِالنَّجَاةِ وَنَيْلِ الْمَرَادِ. وَالْفَوْزُ: الظَّفَرُ بِالْبُعْيَةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾: أَيُّ بَعُدَ يَوْمئِذٍ عَنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَأَصْلُ الزُّحْرَةِ: تَكْرِيرُ الرَّحِّ، وَهُوَ الْجَذْبُ بِعَجَلَةٍ، وَقَدْ أُريدَ هُنَا الْمَعْنَى اللَّازِمُ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾

فَقَدْ فَازَ: ﴿: أَي سَعِدَ وَنَجَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَأَصْلُ الْفَوْزِ: الظَّفَرُ بِالْبُعْيَةِ. وَبَعْضُ النَّاسِ قَدَّرَ لَهُ هُنَا مُتَعَلِّقًا: أَي فَازَ بِالنَّجَاةِ وَنِيلِ الْمَرَادِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ حُذِفَ لِلْعُمُومِ أَي بِكُلِّ مَا يُرِيدُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ﴾: أَي أُبْعِدَ. ﴿عَنِ النَّارِ﴾: الَّتِي هِيَ مَجْمَعُ الْآفَاتِ وَالشُّرُورِ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾: الْجَامِعَةُ لِلذَّاتِ وَالشُّرُورِ. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾: أَي حَصَلَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْبُعْيَةِ، أَعْنِي: النَّجَاةَ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ وَالْعَذَابِ السَّרْمَدِ، وَنِيلِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَالنَّعِيمِ الْمُحَلَّدِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ﴾: أَي أَخْرَجَ. ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ فَقَدْ فَازَ: أَي حَصَلَ لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَالْوَصُولُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَمَفْهُومُ الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَزْحَرْ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْزَ، بَلْ قَدْ شَقِيَ الشَّقَاءَ الْأَبَدِيَّ، وَابْتَلِيَ بِالْعَذَابِ السَّرْمَدِيِّ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿زُحِرَ﴾: أَي دُفِعَ بِيْطَاءً، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّارَ مُحْفُوفَةٌ بِالشَّهَوَاتِ، وَالشَّهَوَاتُ تَمِيلُ إِلَيْهَا النَّفُوسُ، فَلَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ يَنْصَرِفُ عَنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ إِلَّا بِزَحْرَةٍ؛ لِأَنَّهُ يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِقُوَّةٍ؛ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زُحِرَ عَنْ النَّارِ﴾: أَي دُفِعَ عَنْهَا بِمَشَقَّةٍ وَشَدَّةٍ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: لِأَنَّهُ نَجَا مِنَ الْمَرْهُوبِ وَحَصَلَ عَلَى الْمَطْلُوبِ.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: قَالَ مَكِّي: أَي لَذَّتْهَا وَشَهَوَتْهَا إِلَّا مَتَاعٌ مَتَعْتَكُمُوهَا. وَ﴿الْغُرُورُ﴾: الْخَدَاعُ الْمُضْمَحَلُّ. وَهُوَ مُصَدَّرٌ: غَرَّه. فَإِنْ فَتَحْتَ (الْغَيْنَ) فَهُوَ صِفَةُ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّهُ يَعُزُّ ابْنَ آدَمَ حَتَّى يُوَفِّقَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: يَرِيدُ: الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ، تَعُزُّ الْإِنْسَانَ بِمَا تُثْنِيهِ مِنْ طَوْلِ الْبَقَاءِ، وَسَيَنْقَطِعُ عَنْ قَرِيبٍ. فَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ؛ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعُزُّ بِبَدَلِ الْحُبُوبِ، وَالتَّخْيِيلِ إِلَيْكَ أَنَّهُ يَدُومُ. وَالْمَتَاعُ: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَيُسْتَمْتَعُ. وَأَضَافَهُ إِلَى الْغُرُورِ؛ لِأَنَّهُ يَعُزُّ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾؛ لِأَنَّهَا تَغُرُّ الْإِنْسَانَ، وَهِيَ إِلَى انْقِطَاعٍ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: يَعْنِي مَنَفَعَةً وَمُتْعَةً كَالْفَأْسِ وَالْقَدْرِ وَالْقَصْعَةِ ثُمَّ تَزُولُ وَلَا تَبْقَى. وَقَالَ الْحَسَنُ: كَحُضْرَةِ النَّبَاتِ

وَلَعِبِ الْبَنَاتِ لَا حَاصِلَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكَةٌ يُوشِكُ أَنْ تَضْمَحِلَّ بِأَهْلِهَا فَخُذُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَالْعُرُورُ: الْبَاطِلُ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿الْعُرُورُ﴾: الْخَدْعُ وَالتَّرْجِيهُ بِالْبَاطِلِ. وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَكُلُّ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ فَهِيَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ تَخْدَعُ الْمَرْءَ وَتُغَيِّرُ الْأَبَاطِيلَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾: يُرِيدُ أَنْ الْعَيْشَ فِيهَا يَغُرُّ الْإِنْسَانَ بِمَا يُغَيِّرُهُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ، وَسَيَنْقَطِعُ عَنْ قَرِيبٍ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ مَتَاعُ الْعُرُورِ لِمَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ، فَأَمَّا مَنْ يَشْتَغِلُ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ، فَهِيَ لَهُ مَتَاعٌ بَلَغٌ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾: أَيُّ تَعَرُّ الْمُؤْمِنِ وَتَخْدَعُهُ فَيُظَنُّ طُولَ الْبَقَاءِ وَهِيَ فَانِيَةٌ. وَالْمَتَاعُ مَا يَتِمَتُّعُ بِهِ وَيُنْتَفَعُ، كَالْفَأْسِ وَالْقَدْرِ وَالْقَصْعَةِ ثُمَّ يَزُولُ وَلَا يَبْقَى مِلْكُهُ، قَالَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ. قَالَ الْحَسَنُ: كَحُضْرَةِ النَّبَاتِ، وَلَعِبِ الْبَنَاتِ لَا حَاصِلَ لَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ تُوشِكُ أَنْ تَضْمَحِلَّ بِأَهْلِهَا، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا اسْتَطَاعَ. وَ﴿الْعُرُورُ﴾: يَفْتَحُ الْعَيْنَ: الشَّيْطَانُ، يَغُرُّ النَّاسَ بِالتَّمْنِيَةِ وَالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ. قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: "الْعُرُورُ: مَا رَأَيْتَ لَهُ ظَاهِرًا نُجْبُهُ، وَفِيهِ بَاطِنٌ مَكْرُوهٌ أَوْ مَجْهُولٌ. وَالشَّيْطَانُ غُرُورٌ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى مَحَابِّ النَّفْسِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَسُوءُ. قَالَ: وَمِنْ هَذَا بَيْعُ الْغَرَرِ، وَهُوَ مَا كَانَ لَهُ ظَاهِرٌ يَبِيعُ بِغَرٍّ وَبَاطِنٌ مَجْهُولٌ". وَقَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾: شَبَّهَ الدُّنْيَا بِالْمَتَاعِ الَّذِي يُدَلَّسُ بِهِ عَلَى الْمُسْتَامِ وَيُغَرُّ، حَتَّى يَشْتَرِيَهُ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَهُ فَسَادُهُ وَرَدَائُهُ. وَالشَّيْطَانُ: هُوَ الْمَدْلِسُ الْعُرُورُ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: إِنَّمَا هَذَا لِمَنْ آثَرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَأَمَّا مَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ فَإِنَّهَا مَتَاعٌ بَلَغٌ، وَعَنِ الْحَسَنِ: كَحُضْرَةِ النَّبَاتِ، وَلَعِبِ الْبَنَاتِ، لَا حَاصِلَ لَهَا. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا تَصْغِيرٌ لِشَأْنِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرٌ لِأَمْرِهَا، وَأَمَّا دَنِيَّةٌ فَانِيَةٌ قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أَيُّ لَدَائِهَا وَزَخَارِفِهَا. ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾: شَبَّهَتْ بِالْمَتَاعِ الَّذِي يُدَلَّسُ بِهِ عَلَى الْمُسْتَامِ وَيُغَرُّ حَتَّى يَشْتَرِيَهُ، وَهَذَا لِمَنْ آثَرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَأَمَّا مَنْ طَلَبَ بِهَا الْآخِرَةَ فَهِيَ لَهُ مَتَاعٌ بَلَغٌ. وَالْعُرُورُ: إِمَّا

مَصْدَرٌ، أَوْ جَمْعُ غَارٍ. وقال القاسمي: ﴿وما الحياة الدنيا﴾: أي لذاتها. ﴿إلا متاع الغرور﴾: المتاع: ما يُتَمَتَّعُ ويُتَنَفَّعُ بِهِ، والغُرُورُ: بِضَمِّ (الْعَيْنِ) مَصْدَرٌ غَرَّه، أي خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا وُصِفَ عَيْشُ الدُّنْيَا بِذَلِكَ؛ لِمَا تُثْنِيهِ لَذَائِهَا مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ، وَأَمَلِ الدَّوَامِ، فَتَخْدَعُهُ ثُمَّ تَصْرَعُهُ. وقال العثيمين: ﴿وما الحياة الدنيا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: (مَا) هذه نافية، ولم تعمل عمل (لَيْسَ)؛ لِأَنَّ النفي انتقض، وإذا انتقض النفي بطل عمله. وقوله: ﴿الحياة الدنيا﴾: وصف هذه بالدنيا؛ لوجهين: الوجه الأول: لدنوها زمناً، والوجه الثاني: لدنوها قدرًا. أمّا دنوها زمناً فظاهر؛ لأنها قبل الآخرة، وأمّا دنوها قدرًا فقد جاء في الحديث: "الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها" رواه البخاري. وقوله: ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: أي إلا متعة تغرّ صاحبها وتخدعه.

• قال الله تعالى: ﴿تُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦):

• سبب نزول الآية:

قال الواحدي: قال عكرمة، ومقاتل، والكلبي، وابن جريج: بعث رسول الله أبا بكر الصديق إلى فنحاص، يستمده، فقال فنحاص: قد احتاج رُبُّكُمْ إلى أن يُمدَّه؟ فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف، وقد كان رسول الله قال له حين بعثه: لا تفتتن عليّ بشيء حتى ترجع، فتذكر أبو بكر ذلك، فكفّ عن الضرب، ونزلت هذه الآية.

وقال ابن الجوزي: في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَعَثِيَ الْمَجْلِسَ عُجَاجَةُ الدَّابَّةِ، فَحَمَرَ ابْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، وَقَالَ: لَا تُعَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي: إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَقَالَ

ابْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَنَّا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْيَهُودُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ "رَوَاهُ عُروَةُ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ كَانُوا يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ أَشَدَّ الْأَذَى، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَه كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمَا نَزَلَتْ فِيمَا جَرَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَبَيْنَ فَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُمَا نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ، وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَه أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَاخْتَارَهُ مُقَاتِلٌ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَفَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ.

الخَامِسُ: أَنَّهُمَا نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، كَانَ يُحَرِّضُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي شِعْرِهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ الزُّهْرِيِّ.

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا سَلَّى الرَّسُولَ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ زَادَ فِي تَسْلِيَّتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْكُفَّارَ بَعْدَ أَنْ آذَوْا الرَّسُولَ وَالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَسَيُؤْذَوْنَهُمْ أَيْضًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ يُمْكِنُهُمْ، مِنْ الْإِيذَاءِ بِالنَّفْسِ وَالْإِيذَاءِ بِالْمَالِ.

● تفسير الآية:

﴿تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: قال مكي: أي لتختبرن بالمصائب في أموالكم، وأنفسكم وهو موت الأقارب والعشائر. وقال الواحدي: (اللام) لام القسم. و(النون) دخلت مؤكدة، وضُمَّت (الواو)؛ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ (النون)، ولم تكسر؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنها (واو) جمع، فحركت بما كان يجب لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الضَّمِّ. ومثله: ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ﴾ [البقرة: ١٦]. ومعنى ﴿تَتَّبَلُّونَ﴾: لَتُحْتَبَرَنَّ. ولا يجوز في وصف الله الاختبار؛ لأنه طلب المعرفة، لِيُعْرَفَ الْحَيُّ مِنَ الرَّدِيِّ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ فِي وَصْفِ اللَّهِ: أَنَّهُ يُعَامِلُ الْعَبْدَ مُعَامَلَةً الْمُحْتَبَرِ. واختلفوا في معنى هذا الابتلاء: فقال ابن عباس في رواية عطاء: الخطاب

للمهاجرين أَخَذَ المشركون أموالهم، وباعوا رباعهم، وعذبوهم. وقال الحسن: يعنى: بالفرائض التي أوجبها في الأموال، وعلى الأنفس، كالصوم، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد. وقال مقاتل: يعنى: بالحوائج، والخسران في الأموال، والأمراض في الأنفس. قال: ونزلت الآية في النبي ﷺ، وأبي بكر رضي الله عنه. وقال السمعاني: ﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾: أي لَتَحْتَبِرَنَّ. وقيل: أي لَتَصَائِرَنَّ. ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: أي في أموالكم بالإنفاق، و في أنفسكم بالجهاد. وقيل: في أموالكم وأنفسكم بالمصائب والأمراض. وقال بعض أصحاب الخواطر: في أموالكم بالمنع عن الحق، وفي أنفسكم باتباع الهوى. وقال ابن الجوزي: قال الزجاج: معنى ﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾: لَتَحْتَبِرَنَّ، أي توفّع عليكم المحن، فيعلم المؤمن حقاً من غيره. و(النون) دخلت مؤكدة مع (لام) القسم، وضمت (الواو) لسكونها، وسكون (النون). وفي البلوى في الأموال قولان: أحدهما: ذهابها ونقصانها. الثاني: ما فرض فيها من الحقوق. وفي البلوى في الأنفس أربعة أقوال: أحدها: المصائب، والقتل. الثاني: ما فرض من العبادات. الثالث: الأمراض. الرابع: المصيبة بالأقارب، والعشائر. وقال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم، وباعوا رباعهم، وعذبوهم. وقال القرطبي: ﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾ في أموالكم وأنفسكم: هذا الخطاب للنبي ﷺ وأُمَّتِهِ. والمعنى: لَتَحْتَبِرَنَّ وَلَتَمْتَحِنَنَّ في أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع. والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب. وبدأ بذكر الأموال؛ لكثرة المصائب بها. وقال ابن كثير: أي لا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، إِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ. وقال الشوكاني: ﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾ في أموالكم وأنفسكم: هذا الخطاب للنبي ﷺ وأُمَّتِهِ؛ تسليّة لهم عما سيلقونهُ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْفَسَقَةِ؛ لِيُوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ. وهذه الجملة جواب قسم محذوف دلّت عليه (اللام) الموطئة. وقال العثيمين: ﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾: هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: (لام) التوكيد، و(اللام)، والقسم المقدّر؛ لأن (اللام) هذه موطأة

للقسم، أي (والله لتبلون). والابتلاء: الاختبار، والله سبحانه أحياناً يختبر بخير، وأحياناً يختبر بِشَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان . عليه السلام .: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وذلك أَنَّ الإنسان دائر بين حالين إما شيء يسرّ به ويفرح به، فهذا وظيفته الشكر، وإما شيء يسوؤه ويجزئه فهذا وظيفته الصبر؛ ولهذا قال النبي . عليه الصلاة والسلام .: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" رواه مسلم. ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾: إِمَّا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ، كالجوائح، وإِمَّا مِنْ قَبْلِ المخلوقين، كتسلّط المشركين على أموال المسلمين، وكلّ ذلك من البلاء الذي يتلى الله به العباد. وقوله: ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾: يشمل أيضا البلوى المتصلة والمنفصلة، البلوى المتصلة: ما يحصل على الإنسان من بلوى من الله في بدنه، مثل: المرض والعجز وما أشبه ذلك. والبلوى المنفصلة: ما تكون في الأولاد؛ لأن الأولاد من أنفسنا، يتلى الإنسان في ولده، أو في أهله، أو في زوجته، أو في غير ذلك، وهذا أيضًا من الابتلاء، ثم إنّ الابتلاء الذي يكون إِمَّا مِنْ اللَّهِ وإِمَّا مِنْ المخلوق، فيتلى الإنسان في نفسه من المخلوقين يؤذونه أحياناً بالضرب، وأحياناً بالقول، وأحياناً بالقتل، كما قتلوا الأنبياء بغير حقّ.

﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾: قال مكّي: الذين أوتوا الكتاب هنا: هم اليهود. والذين أشركوا هنا: هم النصارى، وأمّا اليهود فسمعوا منهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم: ﴿عَزِيزُ أَيْدِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] في أشباه لهذا، وأمّا النصارى، فقولهم: ﴿الْمَسِيحُ أَيْدِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقيل: إنها نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو النبي ﷺ، ويشبّب بنساء المسلمين، ذكر ذلك الزهري. وقيل: المعنى: أنه أخبرهم بأنه قد فرض عليهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وفرض عليهم الزكاة فذلك ابتداءه إياهم. وقال

السمعيّ: ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: قَالَ الزُّهْرِيُّ: هَذَا فِي كَعْب بن الأَشْرَف، كَانَ يَهْجُو النَّبِيَّ وَيَسْمَعُ الْمُسْلِمِينَ هُجَاه. وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ الْيَهُودِ: (عَزِيز ابن الله)، وَقَوْلُ النَّصَارَى: (الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ). وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَالُوا: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ). وَقَالَ الشُّوَكَايَ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هُم سَائِرُ الطَّوَائِفِ الْكُفْرِيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ. ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾: مِنَ الطَّغْنِ فِي دِينِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ﴾: فَعَلَ مُضَارِعَ مُتَّصِلٍ بِ(نُونِ) التَّوَكِيدِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مَرْفُوعًا، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ إِذَا اتَّصَلَ بِنُونِ التَّوَكِيدِ يَبْنَى عَلَى الْفَتْحِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِتِّصَالَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا، وَهَذِهِ مُتَّصِلَةٌ لَفْظًا لَا تَقْدِيرًا؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهَا (لَتَسْمَعُونَ)، فَهِنَا (وَإِوَاوُ) وَنُونِ) مُحذُوفَتَانِ. ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: هُم الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هُم الْوَثْنِيُّونَ كَقَرِيشٍ وَغَيْرِهِمْ، تَسْمَعَنَّ مِنْهُمْ أَذَى كَثِيرًا بِالْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسْمَعُ، مِثْلُ أَنْ يَعِيرُوكُمْ أَوْ يَسُبُّوا دِينَكُمْ، أَوْ يَسُبُّوا نَبِيَّكُمْ، وَقَدْ قَالُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَقَالُوا: إِنَّهُ مَجْنُونٌ: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصَّافَاتِ: ٣٦]، وَقَالُوا: إِنَّهُ كَاهِنٌ، وَوَصَفُوهُ بِكُلِّ عَيْبٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا يُوْذِي الْمُؤْمِنِينَ، وَيُوْذِي النَّبِيَّ ﷺ، وَلَكِنْ وَظِيفْتَنَا نَحْوُ هَذَا الْأَمْرِ الصَّبْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾: يَعْنِي وَأَذَى قَلِيلًا، لَكِنْ الْأَذَى الْكَثِيرُ أَشَدَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَذَى الْقَلِيلِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ فِيهِ، وَتَأْمَلْ (وَلْتَسْمَعَنَّ أَذَى)، وَلَمْ يَقُلْ: (ضَرًّا)؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي نَسْمَعُ يُوْذِينَا، وَلَكِنْ لَا يَضُرُّنَا. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَيُّ تَصْبِرُوا عَلَى الْأَذَى الَّذِي يَنَالُكُمْ مِنْهُمْ، كَتَرَكِ الْمَفَاضَةَ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ السَّيْفِ. ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ. وَمَعْنَى الْعَزْمِ: تَوْطِئُ النَّفْسَ عَلَى الْأَمْرِ. وَمَعْنَى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أَيُّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْزَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ؛ لظُهُورِ رُشْدِهِ، وَمَوْضِعِ

الحظ فيه، فيجب التمسك به. ومعنى قول ابن عباس: (من حقيقة الإيمان): أي مما عَزَمْتُمْ عليه من الأمر، وهو الإيمان والتصديق لوعْدِ الله بالنصرة. وقال السمعاني: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾: يعني على الأذى. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: يعني من مخالفة الرسول. ﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي من حقائق الأمور وشدائدها. وقال ابن الجوزي: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾: أي على الأذى. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أي الله بمُجَانِبَةِ معاصيه. ﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي ما يَعْرِضُ عَلَيْهِ؛ لظهور رُشْدِهِ. والجمهور على إحكام هذه الآية، وقد ذهب قوم إلى أنَّ الصَّبْرَ المذكورَ منسوخٌ بآية السيف. وقال الرازي: لِلآيَةِ تَأْوِيلَانِ: الأول: أنَّ المراد منه: أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالمَصَابِرَةِ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَالْمَصَابِرَةِ عَلَى تَحْمُلِ الْأَذَى وَتَرْكِ الْمَعَارِضَةِ وَالْمُقَابَلَةِ، وَإِنَّمَا أُوجِبَ اللَّهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى دُخُولِ الْمُخَالَفِ فِي الدِّينِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجنات: ١٤]، وَالْمَرَادُ بِهَذَا الْعُفْرَانِ: الصَّبْرُ وَتَرْكُ الْإِنْتِقَامِ، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وَقَالَ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. الْوَجْهُ الثَّانِي فِي التَّأْوِيلِ: أَنَّ يَكُونُ الْمَرَادُ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى: الصَّبْرُ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ وَمُنَابَذَتِهِمُ وَالْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرُوا بِالصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الْجِهَادِ، وَالْجُرْيِ عَلَى نَهْجِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْيَهُودِ وَالْإِتِّقَاءِ عَنِ الْمِدَاهَنَةِ مَعَ الْكُفَّارِ وَالسُّكُوتِ عَنْ إظهارِ الْإِنْكَارِ. وَالصَّبْرُ: عِبَارَةٌ عَنِ اخْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ. وَالتَّقْوَى: عِبَارَةٌ عَنِ الْإِحْتِرَازِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي. فَقَدَّمَ ذِكْرَ الصَّبْرِ ثُمَّ ذَكَرَ عَقِبَهُ التَّقْوَى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى الصَّبْرِ؛ لِأَجْلِ أَنَّهُ يُرِيدُ الْإِتِّقَاءَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي. وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّ الْمَرَادَ مِنَ الصَّبْرِ: هُوَ أَنَّ مُقَابَلَةَ الْإِسَاءَةِ بِالْإِسَاءَةِ تُفْضِي إِلَى ازْدِيَادِ الْإِسَاءَةِ، فَأَمَرَ بِالصَّبْرِ؛ تَقْلِيلًا لِمَضَارِّ الدُّنْيَا، وَأَمَرَ بِالتَّقْوَى؛ تَقْلِيلًا لِمَضَارِّ الْآخِرَةِ، فَكَانَتِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ جَامِعَةً لِأَدَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي

مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ الَّذِي لَا شَكَّ فِي ظُهُورِ الرُّشْدِ فِيهِ، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ، فَتَأْخُذُ نَفْسُهُ لَا مُحَالَةَ بِهِ، وَالْعَزْمُ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْحَزْمِ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ الرَّجُلِ: (عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا)، أَيْ أَلْزَمْتُهُ إِيَّاكَ لَا مُحَالَةَ عَلَى وَجْهِ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ التَّرَخُّصُ فِي تَرْكِهِ، فَمَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ حَمِيدِ الْعَاقِبَةِ مَعْرُوفًا بِالرُّشْدِ وَالصَّوَابِ فَهُوَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ لِعَاقِلٍ أَنْ يَتَرَخَّصَ فِي تَرْكِهِ. وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عَزِمَ عَلَيْكُمْ فِيهِ أَيْ أُلْزِمْتُمْ الْأَخْذَ بِهِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾: أَيْ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أَيْ مَعْرُومَاتُهَا، أَيْ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعَزِمُوا عَلَيْهِ؛ لِكَوْنِهِ عَزْمَةً مِنْ عَزَمَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامَ بِهَا، يُقَالُ عَزَمَ الْأَمْرَ، أَيْ شَدَّهُ وَأَصْلَحَهُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أَيْ مِنْ مَعْرُومَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ، أَيْ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ كَمَالِ الْمَرْيَةِ وَالشَّرَفِ، أَوْ مِمَّا عَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ وَبَالَغَ فِيهِ. يَعْنِي: أَنَّ ذَلِكَ عَزْمَةٌ مِنْ عَزَمَاتِ اللَّهِ، لَا بُدَّ أَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ثَمَرَةُ الْآيَةِ: وَجُوبُ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْجِهَادَ لَا يَسْقُطُ مَعَ سَمَاعِ مَا يُؤْذِي. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: أَيْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا سَمِعْتُمْ، وَعَلَى مَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. وَالصَّبْرُ بِمَعْنَى: الْحَبْسُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (قَتَلَ صَبْرًا) أَيْ حَبَسًا، يُوقَفُ وَيَحْبَسُ وَيُقْتَلُ. وَالصَّبْرُ فِي الشَّرْعِ: حَبْسُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ عَمَّا يَغْضِبُ اللَّهَ. وَالصَّبْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْلَى الْأَقْسَامِ. وَصَبْرٌ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَهُوَ دُونَهُ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ، وَهُوَ دُونَ الْاِثْنَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ؛ لِأَنَّ الْاِثْنَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ: صَبْرٌ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ، وَالثَّالِثُ صَبْرٌ عَلَى قَدَرِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى قَدَرِ اللَّهِ يَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَمِنَ النَّاطِقِ وَالْبَهِيمِ، لَكِنِ الصَّبْرُ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمُؤْمِنِ، ثُمَّ الصَّبْرُ عَلَى الْمَأْمُورِ أَعْلَى مِنَ الصَّبْرِ عَنِ الْمَحْظُورِ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ عَنِ الْمَحْظُورِ كَفٌّ فَقَطْ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَأْمُورِ فَعْلٌ، فَهُوَ إِيجَادٌ وَعَمَلٌ، فَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْكُلْفَةِ بِخِلَافِ الصَّبْرِ عَنِ فَعْلِ الْمَحْظُورِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا مَجَرَّدَ كَفٍّ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا

بالنسبة للنفس أشدّ من الصبر على فعل المأمور، فيسهل على بعض الناس مثلاً أن يصلي، لكن يصعب عليه أن يدع ما حرم الله عليه من الأمور التي تحته نفسه إليها حتّى. صبر الصائم على الصيام من الأوّل، وصبره على ألمه الذي يحصل بالجوع والعطش من الثالث، وصبره عمّا حرم عليه بالصوم من الثاني؛ ولهذا يسمّى شهر رمضان شهر الصبر؛ لأن جميع أنواع الصبر الثلاثة تحصل للصائم، ففي الصيام صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على الأقدار. ومن الأمثلة: صبر يوسف على إلقاء إخوته إياه في البئر من الثالث، وصبره عن إجابة امرأة العزيز من الثاني، وصبره على الدعوة إلى الله وهو في السجن من الأوّل. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أي تتقوا الله بأن لا تتجاوزوا أو تعتدوا على غيركم، وذلك لأن النفس مجبولة على محبة الانتقام من الغير، فربما إذا سمعت أذى أن تأخذ أكثر من نصيبها. ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي من معزومات الأمور، فعزم هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي من الأمور المعزومة التي تحتاج إلى عزم وإلى همّة وإلى مكابدة؛ لأنها شاقّة على النفس، والعزم في الأمور من الصفات الحميدة التي وصف بها الكُمل من الخلق، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالعزم لا شك أنه خلق عالٍ يهبه الله لمن يشاء، فإذا كان الإنسان عنده عزم في أموره فهذا هو الموفق، أمّا الإنسان الذي ليس عنده عزم فتجده دائماً في ملل، وفي كسل، وفي تهاون، فإنّ هذا لا شكّ خاسر، فالإنسان العازم في أموره هو الرابع دنيا ودينا.

- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾:
- مناسبة الآية لما قبلها: قال الرازي: اعلم أنّ في كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ وَجْهَيْنِ: الأوّل: أنّه تعالى لما حكى عن اليهود شُبُهًا طاعنَةً في نُبوّة مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وأجاب عنه أنّبَعُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عَلَى أُمَّةٍ مُوسَى وَعِيسَى.

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.، أَنْ يَشْرَحُوا مَا فِي هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ دِينِهِ وَصِدْقِ نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَالْمِرَادُ مِنْهُ التَّعَجُّبُ مِنْ حَالِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ إِيْرَادُ الطَّعْنِ فِي نُبُوتِهِ وَدِينِهِ مَعَ أَنَّ كُتُبَكُمْ نَاطِقَةٌ وَدَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ ذِكْرُ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ نُبُوتِهِ وَدِينِهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أُوجِبَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ اخْتِمَالُ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ إِذَائِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُمُونَ مَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوتِهِ، فَكَانُوا يُحْرِفُونَهَا وَيَذْكُرُونَ لَهَا تَأْوِيلَاتٍ فَاسِدَةً، فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ تِلْكَ الْجُمْلَةِ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ.

وقال القرطبي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: هَذَا مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ الْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ أَمَرُوا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبَيَانُ أَمْرِهِ، فَكَتَمُوا نَعْتَهُ.

● تفسير الآية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: قال السمرقندي: يعني: أخذ عليهم الميثاق حين أخذ ذرية آدم من ظهورهم. ويقال: أخذ عليهم الميثاق بالوحي في كتب الأنبياء. ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾: يعني: نعت محمد ﷺ وصفته ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: عنهم. وقال الواحدي: قال ابن عباس، والسدي، والكلبي، والمفسرون: نزلت في يهود المدينة، أخذ الله ميثاقهم في التوراة، لِيُبَيِّنَنَّ شَأْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَعْتَهُ، وَمُبْعَثِهِ، وَلَا يُخْفُونَهُ، فَتَبَدَّوْا الْمِيثَاقَ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ. ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل: (ولا تكتُمَنَّه) كما قال: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾؛ لأنه في معنى الحال، لا في معنى الاستقبال المعطوف على ما قبله. كأن المعنى: لَتُبَيِّنَنَّ للناس غيرَ كَاتِمِينَ. و(الهَاءُ) في قوله: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾ يعود على محمد ﷺ، في قول أكثر المفسرين. فهو عائدٌ على معلوم، ليس بمذكور. وفي قول الحسن، وقتادة: يعود على الكتاب، في قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ويدخلُ فيه بيانُ أمرِ النبي ﷺ؛ لأنه في الكتاب. قال الحسن: هذا ميثاق الله على علماء أهل الكتاب، أن يُبَيِّنُوا للناس ما في كتابهم، وفيه ذكر رسول الله ﷺ، والإسلام، فَتَبَدَّوْهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. وقال

قتادة، والقرطبي: كل من أوتي علم شيء من كتب الله، فقد أخذ ميثاقه: أن يبني للناس ولا يكتمه. وقال الواحدي: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: قال ابن عباس: يريد ألقوا ذلك الميثاق خلف ظهورهم. وقال أهل المعاني: تركوا العمل به، وقد كانوا يقرأونه، فصاروا بترك العمل به كأنهم قد ألقوه وراء ظهورهم. قال الزجاج: يقال للذي يطرح الشيء لا يعبأ به: قد جعلت هذا الأمر بظهر. ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: يعني ما كان يأخذونه من سفلتهم من الماكل التي كانوا يصيبنها منهم برياستهم في العلم. وقوله تعالى: ﴿فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: قال ابن عباس: يريد قبح شراؤهم وخسروا. وقال ابن الجوزي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن جبير، والسدي، ومقاتل. فعلى هذا، الكتاب: التوراة. الثاني: أنهم اليهود، والنصارى، والكتاب: التوراة والإنجيل. الثالث: أنهم جميع العلماء، فيكون الكتاب اسم جنس. ﴿لِيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ لَا تَكْتُمُونَهُ﴾: في (هاء) الكناية في (لتبيننه، وتكتمونه) قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي محمد ﷺ، وهذا قول من قال: هم اليهود. الثاني: أنها ترجع إلى الكتاب، قاله الحسن، وقتادة، وهو أصح؛ لأن الكتاب أقرب المذكورين؛ ولأن من ضرورة تبينهم ما فيه إظهار صفة محمد ﷺ، وهذا قول من ذهب إلى أنه عام في كل كتاب. وقال علي بن أبي طالب: رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ قال الزجاج: أي رموا به، يقال: للذي يطرح الشيء ولا يعبأ به: قد جعلت هذا الأمر بظهر. وفي (هاء) ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الميثاق. الثاني: إلى الكتاب. قوله تعالى: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ يعني: استبدلوا بما أخذ الله عليهم القيام به، ووعدهم عليه الجنة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضا يسيرا من الدنيا. وقال القرطبي: الآية توبيخ لليهود، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم. قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئا فليعلمه، وإياكم وكنمان العلم فإنه هلكة. وقال محمد بن كعب: لا يحل

لِعَالَمٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ. ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ﴾: تَرْجِعُ إِلَى أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْ لَمْ يَجِرْ لَهُ ذِكْرٌ. وَقِيلَ: تَرْجِعُ إِلَى الْكِتَابِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ بَيَانُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّهُ فِي الْكِتَابِ. وَقَالَ: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (تَكْتُمْنَهُ)؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْحَالِ، أَيْ لَتَبَيِّنَنَّ غَيْرَ كَاتِمِينَ. ﴿فَنَبِّدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مُبَالَغَةٌ فِي الْإِطْرَاحِ، وَمِنْهُ: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]. وقال ابن كثير: هَذَا تَوْبِيحٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ لِيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ، فَكْتُمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالدُّنُونِ الطَّافِيَةِ، وَالْحُظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ، فَبُسَّتِ الصَّفْقَةُ صَفْقَتُهُمْ، وَبُسَّتِ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ. وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيُسْلِكَ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ، الدَّالِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طَرِيقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ" رواه الخمسة إلا النسائي، وصححه الألباني. وقال الثعالبي: الآية توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك حَبَّرَ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، قَالَ جَمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عِلْمُهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَعُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ دَاخِلُونَ فِي هَذَا الْمِثَاقِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: "مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ" رواه الخمسة إلا النسائي، وصححه الألباني. والضميرُ في: (لَتَبَيِّنَنَّ، وَلَا تَكْتُمُونَهُ): عَائِدٌ عَلَى الْكِتَابِ. وَالتَّبْدُّ: الطَّرْحُ. وَأُظْهِرَ الْأَقْوَالُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، وَهُمْ الْمَغْنِيُّونَ، ثُمَّ كُلِّ كَاتِمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَأْخُذُ بِحُظِّهِ مِنْ هَذِهِ الْمِدْمَةِ. وَقَالَ الشوكاني: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي أُمِرُوا بِبَيَانِهِ وَنُفُوسُهُ عَنْ كِتْمَانِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أَيْ حَقِيرًا يَسِيرًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَأَعْرَاضِهَا. ﴿فَبُسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾: (مَا) نَكْرَةٌ مَنْصُوبَةٌ مُفَسَّرَةٌ لِفَاعِلٍ بِنَسْ،

و(يَشْتَرُونَ) صِفَةً، وَالْمَحْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيِ بِنَسْ شَيْئًا يَشْتَرُونَهُ بِذَلِكَ التَّمَنِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: الْمُرَادُ بِهِمْ إِمَّا أَخْبَارُ الْيَهُودِ خَاصَّةً، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ جُبَيْرٍ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ، وَإِمَّا مَا يَشْمَلُهُمْ وَأَخْبَارُ النَّصَارَى، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ عُلْقَمَةَ. وَإِنَّمَا ذُكِرُوا بِعُتْوَانِ إِيْتَاءِ الْكِتَابِ؛ مُبَالَغَةً فِي تَقْيِيحِ حَالِهِمْ، وَقِيلَ: رَمَزًا إِلَى أَنَّ أَخَذَ الْمِيثَاقِ كَانَ فِي كِتَابِهِمُ الَّذِي أُوتُوهُ. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾: جَوَابُ مِيثَاقٍ؛ لَتَضْمِينِهِ مَعْنَى الْقَسَمِ. وَالضَّمِيرُ لِلْكِتَابِ، أَيِ بِاللَّهِ لَتُظْهِرَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا أَمْرُ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.، وَهُوَ الْمُقْصُودُ بِالْحِكَايَةِ. وَظَاهِرُ كَلَامِ السُّدِّيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الضَّمِيرَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ. عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .. ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: عَطْفٌ عَلَى الْجَوَابِ. وَإِنَّمَا لَمْ يُؤَكَّدْ بِالنُّونِ؛ لِكَوْنِهِ مَنْفِيًّا. وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: اكْتِفَاءً بِالتَّوَكُّيدِ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ. وَجَوَزَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ، إِمَّا عَلَى إِضْمَارِ مُبْتَدَأٍ بَعْدَ (الْوَاوِ)، أَيِ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتُمُونَهُ، وَإِمَّا عَلَى رَأْيٍ مَنْ يُجَوِّزُ دُخُولَ (الْوَاوِ) عَلَى الْمُضَارِعِ الْمُنْفِيِّ عِنْدَ وَقُوعِهِ حَالًا، أَيِ لَتُظْهِرُنَّ غَيْرَ كَاتِمِينَ. وَالنَّهْيُ عَنِ الْكِتْمَانِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْبَيَانِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِجْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهِ. كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ.، أَوْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَيَانِ الْمَأْمُورِ بِهِ ذِكْرُ الْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِنُبُوءَتِهِ ﷺ، وَبِالْكِتْمَانِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ إلْغَاءُ التَّأْوِيلَاتِ الزَّائِعَةِ وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ كَمَا قِيلَ. ﴿فَنَبِّدُوهُ﴾: أَيِ طَرَحُوا مَا أَخَذَ مِنْهُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: وَلَمْ يُرَاعَوْهُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ أَصْلًا، فَإِنَّ النَّبْدَ وَرَاءَ الظَّهْرِ تَمْثِيلٌ وَاسْتِعَارَةٌ لِتَرْكِ الْإِعْتِدَادِ وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ، وَعَكْسُهُ جَعْلُ الشَّيْءِ نُصْبَ الْعَيْنِ وَمُقَابَلَهَا. ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾: أَيِ بِالْكِتَابِ الَّذِي أُمِرُوا بِبَيَانِهِ وَنُهَا عَنْ كِتْمَانِهِ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلْعَهْدِ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى. وَالْمَعْنَى: أَخَذُوا بَدَلَهُ. ﴿ثُمَّ قَلِيلًا﴾: مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَأَعْرَاضِهَا الْفَاسِدَةِ. ﴿فَيَبْسُ مَا يَشْتَرُونَ﴾: أَيِ بِنَسْ شَيْئًا يَشْتَرُونَهُ ذَلِكَ التَّمَنِ، فَ(مَا) نَكْرَةٌ مَنْصُوبَةٌ مُفَسِّرَةٌ لِفَاعِلِ بِنَسْ، وَجُمْلَةٌ (يَشْتَرُونَهُ) صِفَتُهُ، وَالْمَحْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ. وَقِيلَ: (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ فَاعِلٌ (بِنَسْ)،

والمختصّون مَحذُوفٌ، أيّ بِنَسْ شِرَاؤُهُمْ هَذَا الشِّرَاءَ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ بِهِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. وقال العثيمين: (إذْ): ظرف لما مضى، وتأتي في القرآن كثيراً محذوفة العامل، ويقدره العلماء بقولهم: (اذكر إذ)، أي واذكر إذ أخذ الله، يعني اذكر هذا للناس مبيّناً ما حصل. وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾: الميثاق: هو العهد الثقيل. وسمّي العهد الثقيل ميثاقاً من الوثاق، وهو الحبل الذي يشدّ به الإنسان ويربط، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخَّنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، يعني الحبل الذي تربطونهم به، وتأسروهم به، فالميثاق: بمعنى العهد الثقيل. وسمّي العهد الثقيل ميثاقاً؛ لأنه كالرباط للمعاهد. وقوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: المراد بهم اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم العهد والميثاق، بما أعطاهم من الكتاب أن يبينوه للناس؛ ولهذا قال: ﴿لَتُبَيِّنَهُ﴾: (اللام) موطأة للقسم، أي أخذ عليهم عهداً بهذا. ﴿لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: المعنى: لتبينه بياناً لا كتمان فيه. والكتمان نوعان: إمّا إخفاء لبعض الآيات كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وإمّا تحريف للآيات إلى معانٍ أخرى، فإنّ هذا يعدُّ كتماناً؛ لأن الذي يحرف الآيات إلى معانٍ أخرى لم يبين الآيات على ما هي عليه بل كتم المعنى الحقيقي المراد إلى معنى آخر. ومن ذلك مثلاً: أنّ النصارى قالوا: إنّ مُحَمَّدَ بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - ليس هو الذي بَشَّرَ به عيسى - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن الذي بَشَّرَ به عيسى اسمه أحمد، وهذا اسمه مُحَمَّدٌ، وهذا كتمان، كتمان معنى. فإن قال قائل: هل يشعر العالم بهذا الميثاق وأنه جرى بينه وبين الله صفقة عهد؟ الجواب: أنه لا يشعر به، لكن إيتاء الله العلم له يعتبر ميثاقاً، فالله لم يهبه هذا العلم إلا من أجل أن يبينه وإن كان الإنسان لا يستحضر أنه جرى بينه وبين الله عهد. قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: نبذوه: أي طرحوا الميثاق، ومع ذلك لم يطرحوه بين أيديهم بل طرحوه وراء ظهورهم، وهو كناية عن شدة إعراضهم عما آتاهم الله من الكتاب حيث نبذوه نبذاً ولم ينبذونه أمامهم بل وراء ظهورهم، فيكون هذا أشد في كراهية

ما أنزل الله وفي الاستكبار عنه والإعراض عنه. ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي استبدلوا به ثمنًا قليلًا، أي بهذا العهد والميثاق ثمنًا قليلًا، وما هو الثمن القليل الذي اشتروه؟ هو إبقاء رئاستهم وجاههم وسلطانهم على قومهم؛ لأن هؤلاء الأحرار والقسيسين لو تبعوا محمدًا زالت رئاستهم ووجاهتهم وصاروا كعامّة الناس، فقالوا: نكذب محمدًا ونبقى على ما كنّا عليه من الرئاسة والجاه والتقديم، إذّا ما هو المبيع، وما هو الثمن؟ المبيع: العهد. والثمن: الجاه والرئاسة وما أشبه ذلك. ووصف الله هذا بأنه قليل؛ لأن جميع ما في الدنيا قليل، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]، فهذا الذي استبدلوه هو ثمن قليل زهيد لا يدوم للإنسان، ولا يدوم للإنسان له، بل لا بدّ من زواله، إمّا زوال الإنسان، وإمّا زوال الثمن الذي اشتراه. قوله: ﴿فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: (بئس): فعل ماضٍ جامد، جامد يعني لا يتصرّف، والنحويون يسمّون الفعل الذي لا يتصرّف جامدًا؛ لأنه باقٍ على حالٍ واحدة، والمتصرّف يسمّونه متصرّفًا؛ لأنه يشبه المائع الذي يسيل ويسيح، لكن هذا جامد لا يتصرّف. وكلمتا (بئس، ونعم) وما أشبههما تحتاجان إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص بالذمّ أو بالمدح، فقوله: ﴿فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ هذا هو الفاعل، والمخصوص محذوف، والتقدير: فبئس ما يشترون هذا الثمن، أو هذا الشراء.

- قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨):
- سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها ثمانية أقوال: أخذها: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، سَأَلَ الْيَهُودَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَنَّمُوهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، وَأَرَوْهُ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِهِ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".

التَّانِي: "أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَرَحُوا بِمَا يُصِيبُونَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحَبُّوا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّهُمْ عُلَمَاءُ"، وَهَذَا الْقَوْلُ، وَالَّذِي قَبْلَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثَّالِثُ: "أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: نَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَتَمُوا ذِكْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

الرَّابِعُ: "أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كَتَبَتْ إِلَى يَهُودِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ، وَمَنْ بَلَغَهُمْ كُتَابُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا: أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِنَبِيٍّ، فَاجْتَمَعَتْ كُلِّمَتُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ، وَقَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، هَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ.

الخَامِسُ: "أَنَّ يَهُودَ حَيْبَرَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالُوا: نَحْنُ عَلَى رَأْيِكُمْ، وَنَحْنُ لَكُمْ رَدَّءٌ، وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِضَلَالَتِهِمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَحْمَدَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، قَالَهُ قَتَادَةُ.

السَّادِسُ: "أَنَّ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ جَهَّزُوا جَيْشًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّحْعِيُّ.

السَّابِعُ: "أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ فَذَكَرُوا لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِأَشْيَاءَ قَدْ عَرَفُوهَا، فَحَمَدُوهُمْ، وَأَبْطَنُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، ذَكَرَهُ الرَّجَّاجُ.

الثَّامِنُ: "أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَحَلَّفُونَ عَنِ الْعَزْوِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، قَالَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ.

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَّى كَثِيرًا﴾، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَنْوَاعِ هَذَا الْأَذَى أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُبْثِ وَالتَّلْبِيسِ عَلَى ضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى

والصِّدْقِ والدِّيَانَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَأَذَى بِمُشَاهَدَةِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالمَصَابِرَةِ عَلَيْهَا، وَبَيَّنَّ مَا لَهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ.

● تفسير الآية:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: قال ابن الجوزي: فِي الَّذِي أَتَوْا ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ كِتْمَانُهُمْ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ. الثَّانِي: تَبْدِيلُهُمُ التَّوْرَةَ. الثَّالِثُ: إِثَارَتُهُمُ الْفَانِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى الثَّوَابِ. الرَّابِعُ: إِضْلَالُهُمُ النَّاسَ. الْخَامِسُ: اجْتِمَاعُهُمْ عَلَى تَكْذِيبِ النَّبِيِّ. السَّادِسُ: نِفَاقُهُمْ بِإِظْهَارِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ضِدَّهُ. السَّابِعُ: اتِّفَاقُهُمْ عَلَى مُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مِّنْ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ. الثَّامِنُ: تَخَلُّفُهُمْ فِي الْعَزَوَاتِ، وَهَذَا قَوْلٌ مِّنْ قَالَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ سِتَّةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا عَلَى إِجَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنْ شَيْءٍ سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَمَا أَجَابُوهُ. الثَّانِي: أَحَبُّوا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: هُمْ عُلَمَاءٌ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ. الثَّالِثُ: أَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الرَّابِعُ: أَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا عَلَى قَوْلِهِمْ: نَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَيْسُوا عَلَيْهِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. الْخَامِسُ: أَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا عَلَى قَوْلِهِمْ: إِنَّا رَاضُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مِّنْ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ. السَّادِسُ: أَهَمُّ كَانُوا يَخْلُقُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، إِذَا نَصَرُوا: إِنَّا قَدْ سَرَرْنَا بِنَصْرِكُمْ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ، قَالَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَهُوَ قَوْلٌ مِّنْ قَالَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنَّمَا كُرِّرَتْ ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾؛ لِطُولِ الْقِصَّةِ، وَالْعَرَبُ تُعِيدُ إِذَا طَالَتِ الْقِصَّةُ؛ إِعْلَامًا أَنَّ الَّذِي يُجْرَى مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ، وَتَوَكِيدًا لَهُ، فَتَقُولُ: لَا تَظُنُّ زَيْدًا إِذَا جَاءَ وَكَلَّمَكَ بِكَذَا وَكَذَا، فَلَا تَظُنَّنَّهُ صَادِقًا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَقَازَةٍ﴾: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ: أَيُّ بِمَنْجَاةٍ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تَزْيِينَ الْإِنْسَانَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ وَحُبَّهُ الْمَدْحَ عَلَيْهِ مِنْهُيٌّ عَنْهُ وَمَذْمُومٌ شَرْعًا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وَفِي الْحَدِيثِ: "الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَلَابِسٌ ثَوْبِي زُورٍ" رَوَاهُ

مسلم. وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَنَاسَبَ وَصْفُهُ بِالْإِيمِ؛ لِأَجْلِ فَرَحِهِمْ وَحُبَّتِهِمُ الْمُحَمَّدَةَ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلُوا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: خِطَابٌ لِرَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ يَصْلُحُ لِلخِطَابِ، أَيْ لَا تَظُنَّنَّ. ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: أَيْ بِمَا فَعَلُوا. ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾: أَيْ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النَّاسُ. وَقِيلَ: الْمُسْلِمُونَ. وَقِيلَ: رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا أَخْرَجَهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ فَحَكَمُوا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَحَرَّفُوا الْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَفَرَحُوا بِذَلِكَ وَأَحْبَبُوا ﴿أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْهُ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . سَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ فَحَرَجُوا وَقَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ وَفَرَحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانٍ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ". وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: "أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِكِتْمَانِهِمْ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كُتَابُهُمْ، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ بِأَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ ."، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَوْصُولُ عِبَارَةً عَنِ الْمَذْكُورِينَ سَابِقًا الَّذِينَ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، وَقَدْ وُضِعَ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ، وَسَيَقَتِ الْجُمْلَةُ؛ لِبَيَانِ مَا يَسْتَنْبِغُ أَعْمَالَهُمُ الْمُحْكِمَةَ مِنَ الْعَذَابِ إِثْرَ بَيَانِ قَبَاحَتِهَا، وَفِي ذَلِكَ مِنَ التَّسْلِيَةِ أَيْضًا مَا لَا يَخْفَى، وَقَدْ أَدْمَجَ فِيهَا بَيَانُ بَعْضِ آخَرَ مِنْ شَتَائِعِهِمْ وَفَضَائِحِهِمْ وَهُوَ إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْقَبِيحِ وَفَرَحُهُمْ بِذَلِكَ وَحُبَّتُهُمْ؛ لِأَنَّ يُوصَفُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ، وَأَخْرَجَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ مَخْرَجَ الْمَعْلُومِ؛ إِذَا نَا بِشَهْرَةِ اتِّصَافِهِمْ بِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَوْصُولَ عِبَارَةً عَنْ أَنَاسٍ مُنَافِقِينَ وَهُمْ طَائِفَةٌ مَعَهُودُونَ مِنَ الْمَذْكُورِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَأَيَّدَ ذَلِكَ بِمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .: "أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِلَى الْعَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْعَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا وَأَحْبَبُوا

۵۳۸

بِحُزْمَةٍ ذَلِكَ حَتَّى عَدَّه الْبَعْضُ مِنَ الْكَبَائِرِ؟! فَلْيُفْهَمْ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَاَلْمَوْصُولُ مَفْعُولٌ أَوَّلُ (لِتَحْسَبَنَّ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لَهُ، وَالْعَرَبُ . كَمَا قَالَ الرَّجَّاحُ . إِذَا أَطَالَتِ الْقِصَّةُ تُعِيدُ حَسِبْتَ وَمَا أَشْبَهَهَا إِعْلَامًا بِأَنَّ الَّذِي جَرَى مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ وَتَوْكِيدٌ لَهُ، فَتَقُولُ: لَا تَظُنَّنَّ زَيْدًا إِذَا جَاءَكَ وَكَلَّمَكَ بِكَذَا وَكَذَا فَلَا تَظُنَّهُ صَادِقًا فَيُفِيدُ لَا تَظُنَّنَّ تَوْكِيدًا وَتَوْضِيحًا، وَ(الْفَاءُ) زَائِدَةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ: (فَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي)، وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾: أَيُّ مُتَلَسِّسِينَ بِنَجَاةٍ مِنْهُ عَلَى أَنَّ الْمَفَازَةَ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ بِمَعْنَى الْفَوْزِ، وَ(التَّاءُ) لَيْسَتْ لِلْوَحْدَةِ لِبِنَاءِ الْمَصْدَرِ عَلَيْهِ، وَ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ، وَجَوَزَ أَنْ تَكُونَ الْمَفَازَةُ اسْمَ مَكَانٍ، أَيِّ مَحَلٍّ فَوْزٍ وَنَجَاةٍ، وَأَنْ يُسْتَعَارَ مِنَ الْمَفَازَةِ لِلْقَفْرِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مِنَ الْعَذَابِ صِفَةً لَهُ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْمَكَانِ لَا يَعْمَلُ وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ خَاصًّا أَيْ مُنْجِيَةٍ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾، وَتَقْدِيرُهُ عَامًّا، أَيْ بِمَفَازَةٍ كَائِنَةٍ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْمَفَازَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْعَذَابِ، وَاعْتَرِضَ بِأَنَّ تَقْدِيرَهُ خَاصًّا مَعَ كَوْنِهِ خِلَافَ الْأَصْلِ تَعَسَّفٌ مُسْتَعْنَى عَنْهُ. وَتَصْدِيرُ الْوَعِيدِ بِنَهْيِهِمْ عَنِ الْحُسْبَانِ الْمَذْكُورِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى بُطْلَانِ آرَائِهِمُ الرِّكْبَكَةِ، وَقَطْعِ أَطْمَاعِهِمُ الْفَارِغَةِ حَيْثُ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْجُونَ بِمَا صَنَعُوا مِنَ عَذَابِ الْآخِرَةِ كَمَا نَجَّوْا بِهِ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَعَلَيْهِ كَانَ مَبْنَى فَرَحِهِمْ، وَأَمَّا نَهْيُهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَلِلتَّعْرِيزِ بِحُسْبَانِهِمُ الْمَذْكُورِ، لَا لِاحْتِمَالِ وَقُوعِ الْحُسْبَانِ مِنْ جِهَتِهِ ﷺ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ تَعْلِيلَ التَّصْدِيرِ بِمَا ذَكَرَ عَلَى تَقْدِيرِ إِجْرَاءِ الْمَوْصُولِ عَلَى عُمُومِهِ عَلَى مَا مَرَّ غَيْرُ ظَاهِرٍ إِلَّا أَنْ يُقَالَ بِالتَّغْلِيْبِ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بَيَانٌ لِثُبُوتِ فَرْدٍ مِنَ الْعَذَابِ لَا غَايَةَ لَهُ فِي الْمَدَّةِ وَالشَّدَّةِ إِثَرٌ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِ نَجَاتِهِمْ مِنْ مُطْلَقِ الْعَذَابِ، وَيُلَوِّحُ بِذَلِكَ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ، وَالتَّنْكِيرُ التَّفْخِيمِيُّ، وَالْوَصْفُ. وَجَوَزَ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِشَارَةً إِلَى الْعَذَابِ الْأُخْرَوِيِّ، وَيُحْمَلُ نَفْيُ النِّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ فِيمَا تَقَدَّمَ عَلَى نَفْيِ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ، وَهُوَ كَوْنُهُمْ مَذْمُومِينَ مَرْدُودِينَ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ لِبَاسَ الزُّورِ لَا يَبْقَى وَيَتَكَشَّفُ حَالُ صَاحِبِهِ وَيَفْتَضِّحُ. وَقَالَ الْعَنِيْمِينَ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: الْخُطَابُ

موجهًا إِمَّا للنبي ﷺ، وإِمَّا لكلٍّ من يصحّ أن يتوجّه إليه الخطاب، والمعنى الثاني أعم وأشمل، يعني: لا تحسبن أيها المخاطب. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: ﴿الَّذِينَ﴾: محلّها من الإعراب أنها مفعول أول لـ ﴿تَحْسَبْنَ﴾، والمفعول الثاني إمّا أن نقول: إنه محذوف قبل الجملة: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ﴾، ويكون المعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ناجين، ثم فرّع عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾، ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ﴾ جملة مؤكدة لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبْنَ﴾، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿بِمَقَازَةٍ﴾ هو المفعول الثاني، والقول الأوّل أقرب، أي لا تسحبّنهم ناجين، فلا تحسبنهم بمقازة. وقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: أي يفرحون فرحٍ أشدّ وبطريقٍ ومنّةٍ على الله وعلى رسول الله ﷺ. ﴿بِمَا أَتَوْا﴾: أي بما أتوا من الأعمال التي يتقربون بها إلى الله على زعمهم. وقوله: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾: أي يحبّون أنّ الناس يمدوهم على شيء لم يفعلوه، مثل: أن يتظاهروا للناس بالصلاح من أجل أن يثني الناس عليهم ولو لم يفعلوا الصلاح، مثل ما فعل أهل الكتاب كنتموا صفة النبي ﷺ ولم يبيّنوها؛ فقالوا: الآن غلبنا مُحمّدًا حين قلنا: إنه ليس هو المبشّر به، ففرحوا بما أتوا وأحبّوا أن يمدوا بما لم يفعلوا، كذلك المنافقون يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يمدوا بما لم يفعلوا، فأما المسلم إذا فرح بما أنعم الله عليه من العمل وأحبّ أن يُحمد بما يفعل لا رياء ولكن من طبيعة البشر أنه يحب أن يحمده الناس، فإنّ هذا لا يدخل في هذه الآية، فالذي يدخل في الآية صنفان: الصنف الأوّل: أهل الكتاب الذين فرحوا بما أتوا من كتمان صفة النبي وعدم الإيمان به، ويحبّون أن يمدوا بما لم يفعلوا حيث يتظاهرون للناس بأنه لو جاء الرسول الذي بشّر به عيسى لآمنّا به. والصنف الثاني: المنافقون، فإنّ المنافقين يفرحون بما أتوا ويقولون: نحن أسلمنا أمام مُحمّد وأصحابه وهم على العكس من ذلك، ويحبّون أن يمدوا بما لم يفعلوا من الإخلاص والمحبة لله ورسوله واتباع رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾: المقازة: مكان الفوز، أي لا تحسبنهم بمكان يفوزون به وينجون به

من العذاب، بل هم منغمسون في العذاب. ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جملة استئنافية. لما بين أنهم ليسوا بمفازة من العذاب وليسوا ناجين أكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وأليم: بمعنى مؤلم، فهي فعيل بمعنى مفعول، وفعيل بمعنى مفعول تأتي في اللغة العربية كثيراً.

• قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال السمرقندي: يقال: هذا معطوف على أول الكلام أنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء؛ لأنه على كل شيء قدير.

وقال السمعاني: ذكر هذا ردّاً لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قال الواحدي: أي بملك تدبيرهما، وتصريفهما على ما يشاء. وهذا تكذيب للذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقال القرطبي: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وتكذيب لهم. وقيل: المعنى: لا تظن الفرحين ينجون من العذاب، فإن لله على كل شيء، وهم في قبضة القدير، فيكون معطوفاً على، الكلام الأول، أي إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء. وقال أبو حيان: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ذكر تعالى أنهم من جملة ما ملك، وأنه قادر عليهم، فهم مملوكون مقهورون مقدور عليهم، فليسوا بناجين من العذاب. وقال ابن كثير: أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نعمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه. وقال أبو السعود: ﴿وَلِلَّهِ﴾: أي له خاصة. ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما بينهما كيفما يشاء ويريد إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة،

تَعْذِيبًا وَإِثَابَةً، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِعِزِّهِ شَائِبَةٌ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، فَالْجُمْلَةُ مُقَرَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تَقْرِيرٌ لِاخْتِصَاصِ مُلْكِ الْعَالَمِ الْجُمْهُانِيِّ الْمَعْبَرِ عَنْهُ بِفُطْرَتِهِ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى قَادِرًا عَلَى الْكُلِّ بِحَيْثُ لَا يَشِدُّ مِنْ مَلَكُوتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَسْتَدْعِي كَوْنَ مَا سِوَاهُ كَائِنًا مَا كَانَ مَقْدُورًا لَهُ، وَمِنْ ضَرُورَتِهِ اخْتِصَاصُ الْقُدْرَةِ بِهِ تَعَالَى وَاسْتِحَالَةُ أَنْ يُشَارِكُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمِشَارَكَةِ فِي مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِيهِ تَقْرِيرُهُ لِمَا مَرَّ مِنْ ثُبُوتِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ لَهُمْ وَعَدَمِ نَجَاتِهِمْ مِنْهُ أَثَرِ تَقْرِيرِ. وَإِظْهَارُ الْإِسْمِ الْجَلِيلِ فِي مَوْقِعِ الْإِضْمَارِ؛ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَالْإِشْعَارِ بِمَنَاطِ الْحُكْمِ، فَإِنَّ شُمُولَ الْقُدْرَةِ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَحْكَامِ الْأُلُوهِيَّةِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِاسْتِقْلَالِ كُلِّ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ بِالتَّقْرِيرِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: تَقْرِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ، حَيْثُ أَفَادَ أَنَّ لِلَّهِ وَحْدَهُ السُّلْطَانَ الْقَاهِرَ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ إِيجَادًا وَإِعْدَامًا، إِحْيَاءً وَإِمَاتَةً، تَعْذِيبًا وَإِثَابَةً، وَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ فَهُوَ مَالِكٌ أَمْرِهِمْ لَا رَادَّ لَهُ عَمَّا أَرَادَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تَقْرِيرٌ لِأَثَرِ تَقْرِيرِ. وَإِظْهَارُ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ؛ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ مَعَ الْإِشْعَارِ بِمَنَاطِ الْحُكْمِ، فَإِنَّ شُمُولَ الْقُدْرَةِ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَحْكَامِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّمْزِ إِلَى اسْتِقْلَالِ كُلِّ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ بِالتَّقْرِيرِ. وَقِيلَ: بِمَجْمُوعِ الْجُمْلَتَيْنِ مَسْئُوقٌ لِرَدِّ قَوْلِ الْيَهُودِ السَّابِقِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وَضَعَفَ بِالْبُعْدِ، وَلَوْ قِيلَ: وَفِيهِ رَدٌّ لِهَانَ الْأَمْرِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تَذْيِيلٌ بِوَعِيدٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَكْتُمُونَ مِنْ خَلَائِقِهِمْ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَلِلَّهِ﴾: الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ. ﴿مُلْكُ﴾: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: جُمْلَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ. قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَيُّ مَلِكِ الْأَعْيَانِ، وَمَلِكِ التَّصَرُّفِ، فَهُوَ مَالِكٌ لِأَعْيَانِهَا، وَهُوَ مَالِكٌ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (٢٣) [سبأ]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: يعني على سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾: يعني على سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُ﴾: أي ما لله، ﴿مِنْهُمْ﴾: أي من هؤلاء الآلهة التي تدعوها، ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾: أي من معين، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾: أي لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه. هذه الآيات يقولون: إنها قَطَّعت علائق المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان؛ لأنه يقول: هذه الأصنام هل لها ملك مستقل في السموات والأرض؟ هل شاركت الله؟ هل أعانته؟ هل تنفع شفاعتها بدون إذنه؟ الجواب بالنفي، وعلى هذا فلا تنفعهم عبادة هذه الأصنام. وقوله تعالى: ﴿السَّمَوَاتِ﴾: يعني السبع. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: للجنس، فتشمل الأرضين السبع. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: القدرة: هي التمكن من الفعل بلا عجز، فالتمكن من الفعل بلا عجز يسمى قدرة، والتمكن من الفعل بلا ضعف يسمى قوة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، فقابل الضعف بالقوة، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فقابل القدرة بقوله: ﴿لِيُعْجِزَهُ﴾: أي بالعجز، فالقدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: عام في كل شيء، فما من موجود إلا والله قادر على إعدامه، وما من معدوم إلا والله قادر على إيجاده، وما من موجود إلا والله قادر على تغييره وتحويله من شيء إلى آخر، إذاً هو على كل شيء قدير، وهو قادر على أفعاله يفعل ما يشاء، وهو قادر على ذاته. يقولون: إنّ ذات الله إذا قصدت أنّ الله قادر على إعدامها مثلاً، فإن هذا لا تتعلّق به القدرة أصلاً؛ لأنه من المستحيل، ولكن مع ذلك فإنّ من الأدب أن نقول: إنّ الله على كل شيء قدير ونسكت ولا نفصل؛ لأن الآيات التي جاءت بهذا عامّة، ولا تقل: إنّ الله لا يقدر على الشيء المستحيل؛ لأن المستحيل أصلاً لا يتعلّق به الفعل، يعني مثلاً: السكون والحركة

هل يمكن أن يجتمعا؟ لا يمكن؛ لأنه إن تحرك لم يكن ساكنًا، وإن سكن لم يكن متحركًا، إذاً الله قادر على أن يجعل الساكن متحركًا، والمتحرك ساكنًا، فإذا قال قائل: هل يمكن أن يجعل الله المتحرك ساكنًا؟ الجواب: نعم يحول المتحرك إلى ساكن أو يجعل الساكن متحركًا، لكن أن يجعل الشيء متحركًا وساكناً في آنٍ واحد فهذا لا يمكن أصلاً؛ لأنه مادام متحركًا فيساوي عدم سكون، ومادام ساكنًا فيساوي عدم حركة، فبمجرد ما يتحرك انتفى عنه السكون، وبمجرد ما يسكن انتفت عنه الحركة.

● قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩)﴾:

● سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: "أَنَّ قُرَيْشًا قَالُوا لِلْيَهُودِ: مَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ مُوسَى؟ قَالُوا: عَصَاهُ وَيَدُهُ الْبَيْضَاءُ، وَقَالُوا لِلنَّصَارَى: مَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ عِيسَى؟ قَالُوا: كَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى، فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالُوا: ادْعُ رَبَّنَا يَجْعَلْ لَنَا صُفًّا ذَهَبًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ" رواه ابن جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثاني: "أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، فَنَزَلَتْ" رواه أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثالث: "أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاهْكُم إِلَهًا وَاحِدًا...﴾ [البقرة: ١٦٣]، قَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ سَوَّى بَيْنَ أَهْلَيْنَا، اثْنَا بآيَةٍ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ" قاله أَبُو الضُّحَى مُسْلِمٌ بْنُ صُبَيْحٍ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان: مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا وَاضِحَةٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَكَرَ قُدْرَتَهُ، ذَكَرَ أَنَّ فِي خَلْقِهِمَا دَلَالَاتٍ وَاضِحَةً لِذَوِي الْعُقُولِ.

وقال البقاعي: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ هَذَا الْمَلِكَ الْعَظِيمَ، وَخَتَمَ بِشُمُولِ الْقُدْرَةِ، ذَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهِ الْمَوْجِبِ لِلتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصِدُ الْأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ الْمَوْجِبِ لِلْمَفَازَةِ مِنَ الْعَذَابِ.

● تفسير الآية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ...﴾: قال مكِّي: معنى الآية: أنها تنبيه لخلق أولي العقول على قدرة الله وإحكامه لما خلق من السماوات والأرض، وما دبّر فيهما من المعاش واختلاف الليل والنهار، وأنّ ذلك علامات ظاهرات لأولي العقول، فكيف ينسب إلى من كان بهذه الصفة فقر أو نقص. وقال ابن كثير: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَي هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبَ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتَ وَبَحَارٍ، وَجِبَالٍ وَفَقَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَحَيَوَانٍ وَمَعَادِنَ وَمَنَافِعَ، مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْخَوَاصِّ. ﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أَي تَعَاقُبُهُمَا وَتَقَارُضُهُمَا الطُّولَ وَالْقِصَرَ، فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أَي الْعُقُولِ التَّامَّةِ الذَّكِيَّةِ الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وقال أبو السعود: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾: جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً سَيِّقَتْ لِتَقْرِيرِ مَا سَبَقَ مِنْ اخْتِصَاصِهِ تَعَالَى بِالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، صُدِّرَتْ بِكَلِمَةِ التَّأْكِيدِ؛ اعْتِنَاءً بِتَحْقِيقِ مَضْمُونِهَا، أَيْ فِي إِنْشَائِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَحَارُ فِي فَهْمِ أَجْلَاهَا الْعُقُولُ. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ذَاتًا وَصِفَةً. ﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أَي فِي تَعَاقُبِهِمَا فِي وَجْهِ الْأَرْضِ وَكَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا خَلْقَةً لِالْآخِرِ بِحَسَبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا التَّابِعِينَ لِحَرَكَاتِ السَّمَاوَاتِ وَسُكُونِ الْأَرْضِ، أَوْ فِي تَفَاوُثِهِمَا بِازْدِيَادِ كُلِّ مِنْهُمَا بِانْتِقَاصِ الْآخِرِ وَانْتِقَاصِهِ بِازْدِيَادِهِ بِإِخْتِلَافِ حَالِ الشَّمْسِ

بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا قُرْبًا وَبُعْدًا بِحَسَبِ الْأَزْمَنَةِ، أَوْ فِي اخْتِلَافِهِمَا وَتَفَاوُثِهِمَا بِحَسَبِ الْأَمْكَنَةِ إِمَّا فِي الطُّولِ وَالْقَصَرِ، فَإِنَّ الْبِلَادَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ أَيَّامُهَا الصِّيفِيَّةُ أَطْوَلُ وَلَيَالِيهَا الصِّيفِيَّةُ أَقْصَرُ مِنْ أَيَّامِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ مِنْهُ وَلَيَالِيهَا، وَإِمَّا فِي أَنْفُسِهَا فَإِنَّ كُرْبَةَ الْأَرْضِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ لَيْلًا وَفِي مُقَابِلِهِ نَهَارًا وَفِي بَعْضِهَا صَبَاحًا وَفِي بَعْضِهَا ظَهْرًا أَوْ عَصْرًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ. وَتَقْدِيمُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ إِمَّا لِأَنَّهُ الْأَصْلُ، فَإِنَّ غُرَرَ الشُّهُورِ تَظْهَرُ فِي اللَّيَالِي، وَإِمَّا لِتَقْدِيمِهِ فِي الْخَلْفِيَّةِ حَسَبَمَا يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّهُ هُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾: أَيُّ نَزِيلُهُ مِنْهُ فَيُخْلَفُهُ. ﴿لَايَاتٍ﴾: اسْمُ (إِنَّ) دَخَلَتْهُ (الْلَامُ)؛ لِتَأْخُرَ عَنْ خَبَرِهَا. وَالتَّنْكِيزُ لِلتَّفْخِيمِ كَمَا وَكَيْفًا، أَيُّ لآيَاتٍ كَثِيرَةً عَظِيمَةً لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا دَالَّةٌ عَلَى تَعَاجِبِ شُئُونِهِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا مَا مَرَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ بِهِ سُبْحَانَهُ. وَعَدَمُ التَّعَرُّضِ لِمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ الْفُلْكِ وَالْمَطَرِ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ؛ لِمَا أَنَّ الْمُقْصُودَ هَهُنَا بَيَانُ اسْتِبْدَادِهِ تَعَالَى بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْمَلِكِ وَالْقُدْرَةِ فَكَتُفِيَ بِمُعْظَمِ الشَّوَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، وَأَمَّا هُنَاكَ فَقَدْ قُصِدَ فِي ضَمَنِ بَيَانِ اخْتِصَاصِهِ تَعَالَى بِالْأُلُوْهِيَّةِ بَيَانُ اتِّصَافِهِ تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ فَتُظَمَّتْ دَلَائِلُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ فِي سِلْكِ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فَإِنَّ مَا فَصَّلَ هُنَاكَ مِنْ آيَاتِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى كَمَا أَنَّ آيَاتِ أُلُوْهِيَّتِهِ وَوَحْدَتِهِ. ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾: أَيُّ لِدَوِي الْعُقُولِ الْمَجْلُوءَةِ الْخَالِصَةِ عَنْ شَوَائِبِ الْحِسِّ وَالْوَهْمِ الْمُتَجَرِّدِينَ عَنِ الْعَلَائِقِ النَّفْسَانِيَّةِ الْمُتَخَلِّصِينَ مِنَ الْعَوَائِقِ الظَّلْمَانِيَّةِ، الْمُتَأَمِّلِينَ فِي أَحْوَالِ الْحَقَائِقِ وَأَحْكَامِ النُّعُوتِ، الْمَر_اقِبِينَ فِي أَطْوَارِ الْمَلِكِ وَأَسْرَارِ الْمَلَكُوتِ، الْمُتَفَكِّرِينَ فِي بَدَائِعِ صَنَائِعِ الْمَلِكِ الْخَلَاقِ، الْمُتَدَبِّرِينَ فِي رَوَائِعِ حِكْمِهِ الْمَوْدَعَةِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ، النَّاطِرِينَ إِلَى الْعَالَمِ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ وَالشُّهُودِ، الْمُتَفَحِّصِينَ عَنْ حَقِيقَةِ سِرِّ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، الْمُتَابِرِينَ عَلَى مُرَاقَبَتِهِ وَذِكْرِهِ غَيْرَ مُلْتَفِتِينَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مِرْآةٌ لِمُشَاهَدَةِ جَمَالِهِ وَآلَةٌ لِمُلاحَظَةِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا ظَهَرَ فِي مَظَاهِرِ الْإِبْدَاعِ وَخَضَرَ مَحَاضِرِ التَّكْوِينِ وَالْإِخْتِرَاعِ سَبِيلٌ سَوِيٌّ إِلَى عَالَمِ التَّوْحِيدِ وَدَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى الصَّنَاعِ

المجيد ناطقٌ بآياتِ قدرته. وقال الشوكاني: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾: هذه جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ؛ لِتَقْرِيرِ اخْتِصَاصِهِ سُبْحَانَهُ بِمَا ذَكَرَهُ فِيهَا. والمرادُ ذاتُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وصِفَاتُهَا. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أي تَعَاثُفِهِمَا، وَكَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَخْلُفُ الْآخَرَ، وَكَوْنِ زِيَادَةِ أَحَدِهِمَا فِي نَقْصَانِ الْآخَرِ، وَتَفَاوُثِهِمَا طَوْلًا وَقَصَرًا وَحَرًّا وَبَرْدًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ. ﴿لَايَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي دَلَالَاتٍ وَاضِحَةٍ وَبَرَاهِينٍ بَيِّنَةٍ تَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ. والمرادُ بِأُولِي الْأَلْبَابِ: أَهْلُ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْخَالِصَةِ عَنْ شَوَائِبِ النَّقْصِ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ التَّفَكُّيرِ فِيمَا قَصَّه اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَكْفِي الْعَاقِلَ وَيُوصِلُهُ إِلَى الْإِيمَانِ الَّذِي لَا تُزَلُّ لَهُ الشُّبُهَةُ وَلَا تَدْفَعُهُ التَّشْكِيكَاتُ. وقال الألوسي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ وَإِقَامَةٌ دَلِيلٍ عَلَيْهِ؛ وَلِذَا لَمْ يَعْطِفْ. وَأَتَى بِكَلِمَةِ (إِنَّ)؛ اعْتِنَاءً بِتَحَقُّقِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ، أَيْ إِنَّ فِي إِيجَادِهِمَا وَإِنْشَائِهِمَا عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْبَدَائِعِ. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أي تَعَاثُفُهَا وَحِجْيُ كُلِّ مِنْهُمَا خَلْفَ الْآخَرِ بِحَسَبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا. ﴿لَايَاتٍ﴾: أي دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَةِ اللَّهِ وَكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُوَ اسْمُ (إِنَّ)، وَقَدْ دَخَلَهُ (الْلَامُ)؛ لِتَأْخُرِهِ عَنْ حَبَرِهَا. وَ(التَّنْوِينُ) فِيهِ لِلتَّفْخِيمِ كَمَا وَكِنْفًا، أَيْ آيَاتٍ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ. وَجَمْعُ الْقَلَّةِ هُنَا قَائِمٌ مَقَامَ جَمْعِ الْكَثَرَةِ. قِيلَ: وَفِي ذَلِكَ رَمْزٌ إِلَى أَنَّ الْآيَاتِ الظَّاهِرَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرَةً فِي نَفْسِهَا إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ فِي جَنْبِ مَا خَفِيَ مِنْهَا فِي خَزَائِنِ الْعِلْمِ وَمَكَامِنِ الْغَيْبِ وَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ. ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ الْخَالِصَةِ عَنْ شَوَائِبِ الْحَسِّ وَالْوَهْمِ. وقال القاسمي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَيْ فِي إِيجَادِهِمَا عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُدْهِشَةِ، تِلْكَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمَشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبِ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتِ بِحَارٍ، وَجِبَالٍ وَقَفَارٍ وَأَشْجَارٍ، وَنَبَاتٍ وَزُرُوعٍ، وَثَمَارٍ وَحَيَوَانٍ، وَمَعَادِنَ وَمَنَافِعَ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْحَوَاصِ. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أَيْ فِي تَعَاثُفِهِمَا، وَكَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا خِلْفَةً لِلْآخَرِ، بِحَسَبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا، أَوْ فِي تَفَاوُثِهِمَا

بِازْدِيَادِ كُلِّ مِنْهُمَا بِانْتِقَاصِ الْآخَرِ، وَانْتِقَاصِهِ بِازْدِيَادِهِ. ﴿لَايَاتِ﴾: أَي لَدَلَّةً وَاضِحَةً عَلَى الصَّانِعِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَبَاهِرِ حِكْمَتِهِ. وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّفْخِيمِ كَمَا وَكَيْفًا، أَي كَثْرَةً عَظِيمَةً. ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾: أَي لِدَوَى الْعُقُولِ الْمَجْلُوءَةِ بِالتَّزْكِيَةِ وَالتَّصْفِيَةِ بِمُلَازِمَةِ الذِّكْرِ دَائِمًا. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِ(إِنَّ)، وَفِيهَا اخْتِلَافٌ فِي تَرْتِيبِ الْجُزْأَيْنِ، أَعْنِي: "جُزْأَيِ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ"، وَهُوَ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ هَذَا الْخَبَرِ، ثُمَّ إِنَّ فِيهَا مُؤَكَّدًا آخَرَ غَيْرَ (إِنَّ)، وَهُوَ (اللام) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَايَاتِ﴾. وَالْخَلْقُ: هُوَ الْإِبْتِدَاعُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبْقٍ. وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٌ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجَه: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: مِنْ جِهَةِ الْكِبَرِ وَالسَّعَةِ. الْوَجْهَ الثَّانِي: مَا فِيهِمَا مِنَ الْحَسَنِ وَالْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وَالَّذِي يَطَّلِعُ عَلَى مَا صَوَّرَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ يَتَبَيَّنُ لَهُ عَظَمَةُ اللَّهِ فِي هَذَا الْخَلْقِ. الْوَجْهَ الثَّلَاثُ: فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ مِنْ جِهَةِ إِتْقَانِهَا وَعَدَمِ تَخْلُخْلِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك]. الْوَجْهَ الرَّابِعُ: فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِمَّا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهِمَا مِنَ الْمَوَادِّ الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَشْكَالِ وَالْمَنَافِعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: ٤]، يَعْنِي مُتَجَاوِرَاتٌ بَعْضُهَا إِلَى جِوَارِ بَعْضٍ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْاِخْتِلَافِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، فِيهِمَا أَيْضًا مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ لِلْخَلْقِ، فَالشَّمْسُ فِيهَا خَيْرٌ عَظِيمٌ، وَالْقَمَرُ كَذَلِكَ، وَالْأَشْجَارُ وَغَيْرُهَا كُلُّهَا فِيهَا خَيْرَاتٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَأَنْتَ تَرَى النَخِيلَ عَلَى أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، وَتَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَيَفْضُلُ اللَّهُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْحِجْمِ وَاللَّوْنِ وَالْمَذَاقِ وَالْإِدْخَارِ، وَهِيَ جِنْسٌ وَاحِدٌ لَكِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ جَلَسَ يَتَدَبَّرُ وَيَتَأَمَّلُ وَيَكْتُبُ كُلَّ مَا يَعْبُرُ عَلَى خَاطِرِهِ لَجُمِعَ آيَاتُ كَثِيرَةٍ فِي هَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ الْغَالِبُ: وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ

السموات مجموعة والأرض مفردة، ولم يأت في القرآن الكريم التصريح بعدد الأرض، بخلاف السماء فقد جاء التصريح بأنها سبع سموات، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، أمّا الأرضون فجاءت مشاراً إليها بأنها سبع؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أي في العدد لا في الكيفية ولا في الماهية، وجاءت السنة صريحة في هذا في قول النبي . عليه الصلاة والسلام .: "من اقتطع شبراً من الأرض طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين" رواه مسلم. وقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أيضاً هذا فيه آيات، اختلاف الليل والنهار على أيّ وجه من الاختلاف يراد؟ الجواب: أنه يراد اختلافهما من وجوه شتى: أولاً: من جهة أنّ الليل ظلمة والنهار نور، وهذا من آيات الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص]. ثانياً: اختلافهما من جهة الطول والقصر، أحياناً يطول الليل، وأحياناً يطول النهار، وأحياناً يتساويان. ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا. ثالثاً: اختلافهما حرّاً وبرداً، أحياناً يكون هذا حارّاً وهذا بارداً، وأحياناً يتساويان. رابعاً: اختلافهما في الرخاء والشدّة، أحياناً تمرّ بك الأيام رخاء، وأحياناً تمرّ بك الأيام شدّة. خامساً: اختلافهما في العزّ والذلّ والنصر والخذلان. ينصر أحياناً أقواماً ويخذل هؤلاء الأقوام في آنٍ آخر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولو تأمل الإنسان لوجد أكثر ممّا ذكرنا من اختلاف الليل والنهار. وقوله: ﴿لَا يَأْتِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: آيات: جمع؛ لأنها متنوّعة ومتعدّدة ولكنّها لا يفهمها ولا يتّخذها آيات إلا أولو الألباب؛ ولهذا

قال: ﴿لَا يَاتِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي لأصحاب العقول. وسمي العقل لبًّا؛ لأنه خالص الإنسان، كما أنّ اللب خالص الحبة، فالإنسان بعقله. والعقل ليس هو الذكاء كما قد يتبادر بأذهان كثير من الناس، ولكن العقل هو: الرشد في التصرف، فكُلُّما كان الإنسان أشدَّ رشدًا وتصرفًا كان أعقل، وليس كُلُّما كان أذكى فهو أعقل؛ لأنه قد يكون من الأذكياء من هو أبعد الناس عن العقل؛ ولهذا يمكن أن نقول لصناديد الكفرة الممتلئين ذكاءً نقول: إنهم غير عقلاء وإن كانوا أذكياء، قال الله لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] مع أنهم عندهم ذكاء، فأصحاب الألبياب: هم الذين يعرفون ما في هذه الأشياء الأربعة من الآيات العظيمة، خلق السموات، خلق الأرض، اختلاف الليل، اختلاف النهار.

- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّهُ تعالى لَمَّا ذَكَرَ دَلَائِلَ الْإِلَهِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهُوَ مَا يَتَّصِلُ بِتَقْرِيرِ الرُّبُوبِيَّةِ ذَكَرَ بَعْدَهَا مَا يَتَّصِلُ بِالْعُبُودِيَّةِ.

- تفسير الآية:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾: قال الواحدي: رُوي عن عليّ، وابن عباس، وقتادة: أنهم قالوا: يعني أنهم يُصَلُّون على هذه الأحوال: قِيَمًا، فإن لم يستطيعوا فقُعُودًا، فإن لم يستطيعوا فعَلَى جُنُوبِهِمْ. وهذا اختيار الزّجاج، قال: يصلّون في جميع هذه الأحوال، على قَدَرِ إمكانيهم، في صحّتهم وسَقَمِهِمْ. وقال آخرون: يريد: أنهم يذكرون الله على كلِّ حال. وجاز أن يعطف بـ(عَلَى) على قوله: ﴿قِيَمًا﴾، و﴿وَقُعُودًا﴾؛ لأن معناه يُنْبِئ عن حالٍ مِنْ أحوال تَصَرُّفِ الإنسان، كما تقول: (أنا أصيرُ إلى زيدٍ ماشيًا، وعلى الخيل)،

المعنى: ماشيًا وراكبًا. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ليكون ذلك أزيد في بصيرتهم؛ لأن فكرهم يُريهم عِظَمَ شأْنهما، فيكون تعظيمهم لله على حسب ما يقفون عليه من آثار حكمته. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: أي ويقولون: ربَّنَا ما خلقت هذا. والإشارة بـ﴿هَذَا﴾ راجعة إلى الخلق. و﴿خَلَقْتَ﴾ يدل على الخلق. وقوله تعالى: ﴿بَاطِلًا﴾: أي خلقته دليلًا على حكمتك، وكَمَالِ قُدْرَتِكَ. ومعنى الباطل: الزائل، الزاهب، الذي لا يَثْبُت. وَلَمَّا كَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقًا مُتَقَنَّا، وَصُنْعًا مُحْكَمًا دَالًّا عَلَى قُدْرَةِ الصَّانِعِ لَمْ يَكُنْ بَاطِلًا. وكثير من المفسرين يذهبون إلى أَنَّ المعنى: (ما خلقتهما لغير شيء)؛ لأنه خلقهما لِيَبْلُوَ الْعِبَادَ بينهما بالأمر والنهي، فيشيب المطيع، ويعاقب العاصي. وانتصب قوله تعالى: ﴿بَاطِلًا﴾ على أنه نَعْتُ مصدرٍ محذوفٍ، أي خَلَقًا بَاطِلًا. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أي تنزيهاً لك، ببراءتك عما لا يجوز في وصفك. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: أي قد اعترفنا بوحدايتك، وصدّقنا أَنَّ لك جَنَّةً وَنَارًا، فقنا عذاب النار. وقال البغوي: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وَمَا أَبْدَعَ فِيهِمَا؛ لِيَدُلَّهُمْ ذَلِكَ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَيَعْرِفُوا أَنَّ هَا صَانِعًا قَادِرًا مُدَبِّرًا حَكِيمًا. قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: الْفِكْرَةُ تُذْهِبُ الْعَقْلَةَ وَتُحْدِثُ لِلْقَلْبِ الْحَشْيَةَ كَمَا يُحْدِثُ الْمَاءُ لِلزَّرْعِ النَّبَاتَ، وَمَا جُلِيَتْ الْقُلُوبُ بِمِثْلِ الْأَحْزَانِ وَلَا اسْتَنَارَتْ بِمِثْلِ الْفِكْرَةِ. ﴿رَبَّنَا﴾: أَي وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا. ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾: رَدُّهُ إِلَى الْخَلْقِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ هَذِهِ. ﴿بَاطِلًا﴾: أَي عَبَثًا وَهَزْلًا بَلْ خَلَقْتَهُ لِأَمْرِ عَظِيمٍ. وَانْتَصَبَ الْبَاطِلُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيِ بِالْبَاطِلِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿الَّذِينَ﴾ فِي مَوْضِعِ خَفَضِ صِفَةٍ ﴿لِأُولَى الْأَبَابِ﴾، وَهَذَا وَصْفٌ ظَاهِرُهُ اسْتِعْمَالُ التَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَنَحْوِهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَأَنْ يَخْصُرَ الْقَلْبُ اللِّسَانَ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ وُجُوهِ الْعِبَادَاتِ. وَابْنُ آدَمَ مُنْتَقِلٌ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ الْهَيْئَاتِ لَا يَخْلُو فِي غَالِبِ أَمْرِهِ مِنْهَا فَكَأَنَّهَا تَخْصُرُ زَمَنَهُ. وَذَهَبَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، أَيِ لَا يُضَيِّعُونَهَا، فَفِي حَالِ الْعُذْرِ يُصَلُّونَهَا قُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ. وَحَسَنَ عَطْفُ قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قِيَامًا وَقُعودًا﴾؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى مُضْطَجِعِينَ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي هِيَ ذِكْرُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ أَوْ الصَّلَاةِ فَرَضُهَا وَمَنْدُوبُهَا بِعِبَادَةٍ أُخْرَى عَظِيمَةٍ، وَهِيَ الْفِكْرَةُ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَالْعِبَرِ الَّتِي بَثَّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا﴾ مَعْنَاهُ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا عَلَى الْبِدَاءِ. ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: يُرِيدُ لِعِبَرٍ غَايَةٍ مَنْصُوبَةٍ بَلْ خَلَقْتَهُ وَخَلَقْتَ الْبَشَرَ؛ لِيُنْظَرَ فِيهِ فَتَوْحَدَ وَتُعْبَدَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ نَعَمْتُهُ وَمَنْ ضَلَّ عَنْ ذَلِكَ عَذَّبْتُهُ لِكُفْرِهِ وَقَوْلِهِ عَلَيْكَ مَا لَا يَلِيقُ بِكَ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي تُعْطِيهِ قُوَّةُ اللَّفْظِ حَسَنٌ قَوْلُهُمْ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أَيْ تَنْزِيهًا لَكَ عَمَّا يَقُولُ الْمُطِلُّونَ. وَحَسَنٌ قَوْلُهُمْ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إِذْ نَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ الْمُنْزَهُونَ لَكَ الْمَوْحِدُونَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعودًا﴾: فِي هَذَا الذِّكْرِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الذِّكْرُ فِي الصَّلَاةِ، يُصَلِّي قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَى جَنْبٍ، هَذَا قَوْلُ عَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَفَتَادَةَ. الثَّانِي: أَنَّهُ الذِّكْرُ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ الْخَوْفُ، فَاِلْمَعْنَى: يَخَافُونَ اللَّهَ قِيَامًا فِي تَصَرُّفِهِمْ، وَقُعودًا فِي دَعَتِهِمْ، وَعَلَى جُنُوبِهِمْ فِي مَنَامِهِمْ. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: التَّفَكُّرُ: تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَكَعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ، خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ، وَالْقَلْبُ سَاهٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا﴾ قَالَ الرَّجَّاحُ: مَعْنَاهُ: يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، أَيْ خَلَقْتَهُ دَلِيلًا عَلَيْكَ، وَعَلَى صِدْقِ مَا أَتَتْ بِهِ أَنْبِيَائُكَ. وَمَعْنَى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: بَرَاءَةٌ لَكَ مِنَ السُّوءِ، وَتَنْزِيهًا لَكَ أَنْ تَكُونَ خَلَقْتَهُمَا بَاطِلًا. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فَقَدْ صَدَقْنَا أَنَّ لَكَ جَنَّةً وَنَارًا. وَقَالَ الرَّازِيُّ: أَصْنَافُ الْعُبُودِيَّةِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: التَّصَدِيقُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إِمَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ اللِّسَانِ، وَقَوْلُهُ: ﴿قِيَامًا وَقُعودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ إِمَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِمَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ وَالرُّوحِ، وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ إِلَّا هَذَا الْمَجْمُوعُ، فَإِذَا كَانَ اللِّسَانُ

مُسْتَعْرِقًا فِي الذِّكْرِ، وَالْأَرْكَانُ فِي الشُّكْرِ، وَالْجِنَانُ فِي الْفِكْرِ، كَانَ هَذَا الْعَبْدُ مُسْتَعْرِقًا بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿يَذْكُرُونَ﴾: هُوَ إِمَّا ذِكْرٌ بِاللِّسَانِ، وَإِمَّا الصَّلَاةَ فَرْضُهَا وَنَفْلُهَا. وَذَكَرَ تَعَالَى ثَلَاثَ هَيْئَاتٍ لَا يَخْلُو ابْنُ آدَمَ مِنْهَا فِي غَالِبِ أَمْرِهِ، فَكَأَنَّهَا تَحْصُرُ زَمَانَهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ عَائِشَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ" أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: عَطَفَ تَعَالَى عِبَادَةَ أُخْرَى عَلَى إِحْدَاهُمَا بِعِبَادَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ التَّفَكُّرُ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ وَالْعَبْرَ الَّذِي بَثَّ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَزِيدَ بَصَائِرِهِمْ. وَقِيلَ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ عَطَفَ عَلَى الْحَالِ. وَقِيلَ: يَكُونُ مُنْقَطِعًا، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ. وَالْفِكْرَةُ: تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ: تَفَكَّرَ، وَرَجُلٌ فَكِيرٌ كَثِيرُ الْفِكْرِ. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: أَيُّ يَقُولُونَ: مَا خَلَقْتَهُ عَبَثًا وَهَزَلًا، بَلْ خَلَقْتَهُ دَلِيلًا عَلَى قُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ. وَالْبَاطِلُ: الزَّائِلُ الدَّاهِبُ. وَ﴿بَاطِلًا﴾ نُصِبَ؛ لِأَنَّهُ نَعْتُ مَصْدَرٍ مَخْذُوفٍ، أَيُّ خَلَقًا بَاطِلًا. وَقِيلَ: انْتَصَبَ عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ، أَيُّ مَا خَلَقْتَهَا لِلْبَاطِلِ. وَقِيلَ: عَلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَيَكُونُ خَلَقَ بِمَعْنَى جَعَلَ. ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أَسْنَدَ النَّحَّاسُ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، قَالَ: "سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَعْنَى (سُبْحَانَ اللَّهِ)، فَقَالَ: تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ السُّوءِ". ﴿وَقَفْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: أَيُّ أَجْرْنَا مِنْ عَذَابِهَا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَعَلَى الظَّاهِرِ مِنْ تَفْسِيرِ الذِّكْرِ فَتَقْدِيمُ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ فِيهِ أَحْفُ عَلَى الْإِنْسَانِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى حَالَةِ الْقُعُودِ، وَالذِّكْرُ فِيهِ أَشَقُّ مِنْهُ فِي حَالَةِ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقْعُدُ غَالِبًا إِلَّا لِشُغْلٍ يَشْتَغِلُ بِهِ مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى هَيْئَةِ الْإِضْطِجَاعِ، وَالذِّكْرُ فِيهَا أَشَقُّ مِنْهُ فِي هَيْئَةِ الْقُعُودِ؛ لِأَنَّ الْإِضْطِجَاعَ هُوَ هَيْئَةُ اسْتِرَاحَةٍ وَفَرَاغٍ عَنِ الشُّوَاعِلِ. وَيُمْكِنُ فِي هَذِهِ الْهَيْئَاتِ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيمُ لِمَا هُوَ أَقْصَرُ زَمَانًا، فَبُدِيَ بِالْقِيَامِ؛ لِأَنَّهَا هَيْئَةُ زَمَانُهَا فِي الْغَالِبِ أَقْصَرُ مِنْ زَمَانِ الْقُعُودِ، ثُمَّ بِالْقُعُودِ إِذْ زَمَانُهُ أَطْوَلُ، وَبِالْإِضْطِجَاعِ إِذْ زَمَانُهُ أَطْوَلُ مِنْ زَمَانِ الْقُعُودِ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّيْلَ جَمِيعُهُ هُوَ زَمَانُ الْإِضْطِجَاعِ، وَهُوَ مُقَابِلُ لَزَمَانِ الْقُعُودِ وَالْقِيَامِ، وَهُوَ النَّهَارُ؟. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الذِّكْرُ يُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ، فَالْهَيْئَاتُ جَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ التَّنْذِيرِ، فَمَنْ

قَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ لَا يُصَلِّي قَاعِدًا، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى الْقُعُودِ لَا يُصَلِّي مُضْطَجِعًا. وَأَمَّا إِذَا كَانَ يُرَادُ بِهِ صَلَاةُ النَّفْلِ فَالْهَيْئَاتُ عَلَى سَبِيلِ الْأَفْضَلِيَّةِ؛ إِذِ الْأَفْضَلُ التَّنَقُّلُ قَائِمًا ثُمَّ قَاعِدًا ثُمَّ مُضْطَجِعًا. وَأَبْعَدُ فِي التَّفْسِيرِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا بِأَوَامِرِهِ، وَقُعُودًا عَنْ زَوَاجِرِهِ، وَعَلَى جُنُوبِهِمْ أَيْ تَحَابُّهُمْ مُخَالَفَةً أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾: الْمُؤْصُولُ إِمَّا مُؤْصُولٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ مَجْرُورٌ عَلَى أَنَّهُ نَعَتْ كَاشِفٌ لَهُ بِمَا فِي حَيِّزِ الصَّلَاةِ، وَإِمَّا مَفْصُولٌ عَنْهُ مَرْفُوعٌ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ، أَوْ مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ حَبْرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ. وَقِيلَ: هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْحَبْرُ هُوَ الْقَوْلُ الْمَقْدَّرُ قَبْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا﴾، وَفِيهِ مِنْ تَفْكِيكِ النَّظْمِ الْجَلِيلِ مَا لَا يَخْفَى. وَأَيًّا مَا كَانَ فَقَدْ أُشِيرَ بِمَا فِي حَيِّزِ صَلَاتِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ لَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ تَعَالَى فِي عَامَّةِ أَوْقَاتِهِمْ؛ لِأَطْمِئْنَانِ قُلُوبِهِمْ بِذِكْرِهِ وَاسْتِعْرَاقِ سَرَائِرِهِمْ فِي مُرَاقَبَتِهِ؛ لِمَا أَيْقَنُوا بِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فَائِضٌ مِنْهُ وَعَائِدٌ إِلَيْهِ فَلَا يُشَاهِدُونَ حَالًا مِنْ الْأَحْوَالِ فِي أَنْفُسِهِمْ. وَإِلَيْهِ أُشِيرَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾. وَلَا فِي الْآفَاقِ. وَإِلَيْهِ أُشِيرَ بِمَا بَعْدَهُ. إِلَّا وَهْمٌ يُعَايِنُونَ فِي ذَلِكَ شَأْنًا مِنْ شُئُونِهِ تَعَالَى، فَالْمُرَادُ بِهِ ذِكْرُهُ تَعَالَى مُطْلَقًا سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ أَوْ مِنْ حَيْثُ الصِّفَاتُ وَالْأَفْعَالُ وَسَوَاءً قَارَنَهُ الذِّكْرُ اللَّسَانِيُّ أَوْ لَا. وَالْقِيَامُ وَالْقُعُودُ جَمْعُ قَائِمٍ وَقَاعِدٍ، كَنِيَامٍ وَرُقُودٍ جَمْعُ نَائِمٍ وَرَاقِدٍ، وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يَذْكُرُونَ﴾، أَيْ يَذْكُرُونَهُ قَائِمِينَ وَقَاعِدِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ مَعْطُوفٍ عَلَى الْحَالَيْنِ، أَيْ وَكَائِنِينَ عَلَى جُنُوبِهِمْ، أَيْ مُضْطَجِعِينَ، وَالْمُرَادُ: تَعْمِيمُ الذِّكْرِ لِلْأَوْقَاتِ كَمَا مَرَّ. وَتَخْصِيصُ الْأَحْوَالِ الْمَذْكُورَةِ بِالذِّكْرِ لَيْسَ لِتَخْصِيصِ الذِّكْرِ بِهَا بَلْ لِأَنَّهَا الْأَحْوَالُ الْمَعْهُودَةُ الَّتِي لَا يَخْلُو عَنْهَا الْإِنْسَانُ غَالِيًا. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: عَطْفٌ عَلَى ﴿يَذْكُرُونَ﴾ مُنْتَظَمٌ مَعَهُ فِي حَيِّزِ الصَّلَاةِ، فَلَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ. وَقِيلَ: مَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْأَحْوَالِ السَّابِقَةِ وَلَيْسَ بِظَاهِرٍ، وَهُوَ بَيَانٌ لِتَفَكُّرِهِمْ فِي أَعْمَالِهِ سُبْحَانَهُ إِثْرَ بَيَانِ تَفَكُّرِهِمْ فِي ذَاتِهِ تَعَالَى عَلَى الْإِطْلَاقِ

وإشارةً إلى نتيجه التي يُؤدّي إليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرُّسل وآيات الكتب فكما أنّها آيات تشريعية هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووُجوب طاعته، كذلك المخلوقات آيات تكوينية مُرشدة لهم إلى ذلك فالأولى مُنبّهات لهم على الثانية ودواعٍ إلى الاستشهاد بها كهذه الآية الكريمة ونحوها ممّا ورد في مواضع غير محصورة من التنزيل، والثانية مؤيّدات للأولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقيّة مكنونها، فإنّ من تأمل في تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتّصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرُّسل والكتب من الوجوب الذاتي والوحدّة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بأنّ من قدر على إنشائه بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدر وحكم بأنّ ذلك ليس إلّا لحكمة باهرة هي جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المئوط بأعمالهم، أي علومهم واعتقاداتهم التابعة لأنظارتهم فيما نُصب لهم من الحجج والدلائل والأمارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرّعة على ذلك، فإنّ العمل غير مُختصّ بعمل الجوارح بل مُتناول للعمل القلبي بل هو أشرف أفرادهِ؛ لما أنّ لكلٍّ من القلب والقالب عملاً خاصاً به ومن قضيّة كون الأوّل أشرف من الثاني كون عمليه أيضاً أشرف من عمليه، كيف لا؟ والخلق مصدّر على حاله، أي يتفكّرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات. وقيل: بمعنى المخلوق على أنّ الإضافة بمعنى "في"، أي يتفكّرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الخلول فيهما أو على أنّها بَيَانِيَّةٌ. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: كَلِمَةٌ ﴿هَذَا﴾ إشارةً إلى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مُتَضَمِّنَةً لِضَرْبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. والتذكير لما أنّهما باعتبار تعلّق الخلق بهما في معنى المخلوق. و﴿بَاطِلًا﴾: إمّا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مُؤَكَّدٍ مُحْدُوفٍ، أو حالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ بِهِ، أي ما خَلَقْتَ هَذَا الْمَخْلُوقَ الْبَدِيعَ الْعَظِيمَ الشَّانِ عَبَثًا عَارِيًّا عَنِ الْحِكْمَةِ خَالِيًا عَنِ الْمَصْلَحَةِ كَمَا يُنْبِئُ

عَنْهُ أَوْضَاعُ الْغَافِلِينَ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْرِضِينَ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهِ بَلْ مُنْتَظَمًا لِحَكْمٍ جَلِيلَةٍ وَمَصَالِحٍ عَظِيمَةٍ مِنْ جُمْلَتِهَا أَنْ يَكُونَ مَدَارًا لِمَعَايِشِ الْعِبَادِ وَمَنَارًا يُرْشِدُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ حَسَبَمَا أَفْصَحَتْ عَنْهُ الرُّسُلُ وَالْكِتَابُ الْإِلَهِيَّةُ. وَالْجُمْلَةُ بِتَمَامِهَا فِي حَيِّزِ النَّصَبِ بِقَوْلٍ مُقَدَّرٍ هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ الْمَوْصُولِ نَعْتًا لِ﴿أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُبَيَّنٌ لِنَتِيجَةِ التَّفَكُّرِ وَمَذْلُولِ الْآيَاتِ نَاشِئٌ مِمَّا سَبَقَ فَإِنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ تَخْصِيصِ الْآيَاتِ الْمِنْصُوبَةِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ بِأُولَى الْأَلْبَابِ، ثُمَّ وَصَفِهِمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَحَالِّ تِلْكَ الْآيَاتِ تَبْقَى مُتَرَقِّبَةً لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنْ آثَارِهَا وَأَحْكَامِهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ عِنْدَ تَفَكُّرِهِمْ فِي ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّتِيجَةِ؟ فَقِيلَ: يَقُولُونَ: كَيْتَ وَكَيْتَ مِمَّا يُنبِئُ عَنْ وَفْوهِمْ عَلَى سِرِّ الْخَلْقِ الْمُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ صِدْقِ الرُّسُلِ وَحَقِّيَّةِ الْكِتَابِ النَّاطِقَةِ بِتَفْصِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي وَفَّقَتْ عَلَيْهِ هَذَا، وَأَمَّا جَعْلُهُ حَالًا مِنَ الْمُسْتَكِنِّ فِي الْفِعْلِ كَمَا أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَمِمَّا لَا يُسَاعِدُهُ جَزَالَةُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ؛ لِمَا أَنَّ مَا فِي حَيِّزِ الصِّلَةِ وَمَا هُوَ قَيْدٌ لَهُ حَقُّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَبَادِي الْحُكْمِ الَّذِي أُجْرِيَ عَلَى الْمَوْصُولِ وَدَوَاعِي ثُبُوتِهِ لَهُ، كَذِكْرِهِمْ اللَّهَ فِي عَامَّةِ أَوْقَاتِهِمْ وَتَفَكُّرِهِمْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُمَا مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى اجْتِلَاءِ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ مَبَادِي الْإِسْتِدْلَالِ الْمَذْكُورِ بَلْ مِنْ نَتَائِجِهِ الْمَتَرَبِّتَةِ عَلَيْهِ فَاعْتِبَارُهُ قَيْدًا لِمَا فِي حَيِّزِ الصِّلَةِ مِمَّا لَا يَلِيْقُ بِشَأْنِ التَّنْزِيلِ الْجَلِيلِ نَعَمْ، هُوَ حَالٌ مِنْ ذَلِكَ، عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ الْمَوْصُولِ مَرْفُوعًا، أَوْ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَدْحِ، أَوْ مَرْفُوعًا عَلَى أَنَّهُ حَبْرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْدُوفٍ؛ إِذْ لَا اشْتِبَاهَ فِي أَنَّ قَوْلَهُمْ: ذَلِكَ مِنْ مَبَادِي مَدْحِهِمْ وَمَحَاسِنِ مَنَاقِبِهِمْ. وَفِي إِبْرَارِ هَذَا الْقَوْلِ فِي مَعْرِضِ الْحَالِ دُونَ الْخَبَرِ إِشْعَارٌ بِمُقَارَنَتِهِ لِتَفَكُّرِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَلَعُّثٍ وَتَرَدُّدٍ فِي ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أَيُّ تَنْزِيهِهَا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا خَلْقُ مَا لَا حِكْمَةَ فِيهِ، اعْتِرَاضٌ مُؤَكَّدٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ وَمُهِدٌّ لِمَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ سِرِّ خَلْقِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْغَايَةِ الْحَمِيدَةِ

والقيام بما تقتضيه من الأعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعي الاستعادة مما يحقق بالمخلين بذلك من وجهين: أحدهما: الوقوف على تحقق العذاب، ف(الفاء) لترتيب الدعاء على ما ذكر. الثاني: الاستعداد لقبول الدعاء، ف(الفاء) لترتيب المدعو، أعني الوقاية على ذلك، كأنه قيل: وإذ قد عرفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزَّهناك عما لا ينبغي فقنا عذاب النار الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك. وقال الشوكاني: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾: الموصول نعت لأولي الألباب. وقيل: هو مَفْصُولٌ عَنْهُ حَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أو منصوبٌ على المدح. والمراد بالذكر هنا: ذكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها. وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة، أي لا يضيئونها في حال من الأحوال، فيصلونها قيامًا مع عدم العذر، وقعودًا وعلى جنوبهم مع العذر. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾. وقيل: إنه معطوفٌ على الحال، أعني ﴿قيامًا وقعودًا﴾. وقيل: إنه منقطعٌ عن الأول، والمعنى: أنهم يتفكرون في بدیع صنعيهما وإنفايهما مع عظم أجرامها، فإن هذا الفكر إذا كان صادقًا أوصلهم إلى الإيمان بالله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: هو على تقدير القول، أي يقولون: ما خَلَقْتَ هَذَا عَبَثًا وَهْوًا، بل خَلَقْتَهُ دَلِيلًا عَلَى حِكْمَتِكَ وَقُدْرَتِكَ. والباطل: الزائل الداهب، وهو منصوبٌ على أنه صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي خَلَقًا بَاطِلًا. وقيل: هو منصوبٌ بنزع الخافض. وقيل: هو مفعول ثانٍ. وخلق بمعنى: جعل، أو منصوبٌ على الحال. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى السموات والأرض، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق. قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أي تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خَلْقُكَ لهذه المخلوقات باطلاً. ﴿فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: (الفاء) لترتيب هذا الدعاء على ما قبله. وقال القاسمي: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾ الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم: أي فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر في تصفية الباطن. فالمراد: تعميم الذكر للأوقات، وعدم الغفلة عنه

تعالى. وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر، ليس لتخصيص الذكر بها، بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي في إنشائهما بهذه الأجرام العظام، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليذّهم ذلك على كمال قُدرة الصانع سبحانه وتعالى، فيعلموا أنّ هُما خالقاً قادراً مُدبراً حكيماً؛ لأنّ عظم آثاره وأفعاله تدلّ على عظم خالقها تعالى. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾: أي ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً، عارياً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل مُنتظماً لحكم جليّة، ومصالح عظيمة، من جملة: أنّ يكون دلالة على معرفتك، ووجوب طاعتك، واجتناب معصيتك، وأن يكون مداراً لمعايش العباد، ومنازاً يُرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد. وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أي تنزيهاً لك من العبث، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: قال السُّيوطي: فيه استخبار هذا الذكر عند النظر إلى السماء. ذكره التَّوَوُّيُّ في (الأذكار). انتهى. وفيه تعلُّم العباد كيفية الدعاء، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولاً، كما دلّ عليه قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ثم بعد الثناء يأتي الدعاء، كما دلّ عليه قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وقال السعدي: ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿قِيماً وَقُعوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي ليستدلوا بها على المقصود منها، ودلّ هذا على أنّ التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات؛ لننال بذلك النجاة من النار، ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما

قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم. وقال العثيمين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾: هذه صفة مبيّنة، وعليه فإنّ لنا أن نجعلها "عطف بيان"، ولنا أن نجعلها "صفة مبيّنة لحالها". ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: يعني يذكرون الله على كلّ حال قِيَامًا، وهي أعلى ما يكون الجسد عليه، وقُعُودًا، وهي مرتبة بين القيام والاضطجاع، والثالثة: على جنوبهم. يذكرون الله بالتأمّل في هذه المخلوقات، كلّما رأوا شيئًا استدلّوا به على كمال حكمة الله وقدرته وعلمه، وهذا ذكر. يذكرون الله بالسنتهم بالتهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك. يذكرون الله بجوارحهم بالقيام والقعود والركوع والسجود في الصلاة وبالطواف بالبيت، وبالوقوف بمزدلفة، وبالوقوف بعرفة. وبالوقوف بمنى لرمي الجمار. كلّ عبادة تتعبّد لله بها هي عبادة فعلية وهي من ذكر الله؛ لأنك تريد بها وجه الله. وبذلك تكون ذاكرًا له. وقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: يذكرون الله على جنوبهم بالقلوب والجوارح؛ لقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: "صلّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب" رواه البخاري. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: التفكّر: هو إعمال الفكر، وذلك بأن يفكّر في خلق السموات والأرض، لأيّ شيء خلقت؟! وكيف خلقت؟! وكيف رفعت السماء؟! وكيف سطحت الأرض؟! وما أشبه ذلك، فهم يعملون أفكارهم، ثم يتفكّرون هل هذه السموات والأرض خلقت نفسها أم كانت مخلوقة؟ يستنتجون بهذا التفكير أنّ السموات والأرض كانتا غير مخلوقتين؛ لأنهم بالتفكير يطلعون على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: هذه الجملة مقول لقول محذوف. يعني: (يقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً). يعني: بعد أن يتفكّروا في خلق السموات والأرض تحصل لهم هذه النتيجة المباركة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾. وقوله: ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ هذه نافية. وقوله: ﴿بَاطِلًا﴾ حال لازمة لو حذفت لفسد الكلام. وعلى هذا فتكون لازمة، والقاعدة في الحال اللازمة: هي التي لو حذفت لفسد الكلام؛ لأنه لو حذفت ﴿بَاطِلًا﴾ لكان اللفظ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

هَذَا ﴿ مع أنه خلق، وكم من جملة حاليّة، أو مفرد حال صار لا بدّ منه في الكلام، وتسمّى هذه: "حال لازمة". وقوله: ﴿بَاطِلًا﴾: حال من ﴿هَذَا﴾، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي خلقًا باطلاً. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: يعني يا ربّنا، فهو منادى منصوب بـ(ياء) النداء المحذوفة. ﴿سُبْحَانَكَ﴾: سبحان اسم مصدر منصوب على المفعوليّة المطلقة، وعامله محذوف، والتقدير من حيث المعنى: نسبحك تسبيحك، أي ننزهك تنزيهك اللائق بك. وأصل التسبيح: التنزيه والإبعاد عن السوء، ومنه قولهم: (تسبح فلان)، يعني بُعد ونزل في الماء يسبح. وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أي تنزيهاً لك أن تخلق هذه السموات والأرض باطلاً، وقد بيّن الله في آيات أخرى أنّ من ظنّ أنّ الله خلق شيئاً باطلاً فقد أخذ بظنّ الكفار، والدليل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]؛ ولهذا قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: (الفاء) هذه مفرّعة للجملة الثانية عن الأولى، و(ق) فعل أمر مكون من حرف واحد؛ لأنه فعل ناقص، وأوله حرف علّة، والفعل الثلاثي الناقص الذي أوله حرف علّة يكون عند الأمر أو الجزم على حرف واحد، فتقول: (ق) مأخوذ من (وقى)، و(ع) من (وعى)، و(د) من (الدية من (ودى)، ولها أمثلة كثيرة ذكرها الخصري رحمه الله في حاشيته على شرح "ابن عقيل على الألفيّة". ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: (قنا) مأخوذ من الوقاية، أي قنا عذاب النار بما تشاء، إمّا بعدم إدخالنا فيها، يعني أن لا ندخلها أصلاً، أو بإخراجنا منها بالشفاعة؛ لأن المؤمن الفاسق يستحقّ دخول النار على فسقه ثم بعد ذلك يخرج منها، وقد يعفو الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

- قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢):

- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ أَتَبَعُوا ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ ذَلِكَ الْعِقَابِ وَشِدَّتِهِ وَهُوَ الْخِزْيُ.

وقال العثيمين: هذه الآية كالتعليل للدعاء السابق: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ لأن من أدخلته النار فقد أخزيت.

- تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: قال الواحدي: الإخزاء في اللغة يَرُدُّ عَلَى مَعَانٍ يَقْرُبُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. قال الزجاج: (أخزى الله العدو) أي أبعدَهُ. وقال غيره: الْخِزْيُ: الْهَوَانُ، وَ(أَخْزَاهُ اللَّهُ): أَي: أَهَانَهُ. وقال شمر: أخزيت: فضحته. وفي القرآن: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]. وقال المفضل في قوله تعالى: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: أي أهلكته. وقال ابن الأنباري: معنى الْخِزْيِ في اللغة: الهلاك بَتَلْفٍ أَوْ انْقِطَاعِ حُجَّةٍ، أَوْ بوقوعٍ في بلاء، يقال: (خَزِي، يَخْزِي، خِزْيًا): إِذَا هَلَكَ، وَ(خَزِي، يَخْزِي، خِزْيَةً): إِذَا اسْتَحْيَا. وتعلقت الوَعِيدَةُ بهذه الآية، وقالوا: قد أخبر الله: أنه لا يُخْزِي النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، فوجب أن كل مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾. والجواب عن هذا، من وجوه: أحدها: ما رَوَى قتادة، عن أنسٍ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، قال: إِنَّكَ مَنْ تُخَلَّدُ فِي النَّارِ. وقال الثوري: بَلَغَنِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هِيَ خَاصَّةٌ فِي قَوْمٍ لَا يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا. ورُوي هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا عَنْ قَتَادَةَ نَفْسِهِ، فَمَذْهَبُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ: أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ فِيمَنْ يَدْخُلُهَا لِلْخُلُودِ فِيهَا، يَدُلُّ عَلَيْهِ آخِرُ الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يريد: الْكُفَّارَ. الثاني: أَنَّ الْمُدْخَلَ فِي النَّارِ مَخْزِيٌّ فِي حَالِ دُخُولِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ أَنْ يُخْرَجَ

منها، فإنَّ الدخول لا يقع إلَّا بخزيٍّ في ذلك الوقت. وهذا مذهب جابر بن عبد الله، واختيار ابن الأنباري، يُدُلُّ عليه ما روي عن عَمْرُو بن دينار، أنه قال: قَدِمَ علينا جابر في عُمْرَةٍ، فسألته عن هذه الآية، فقال: وما أخزاه حين أحرقه بالنار! إنَّ دون ذا حَزْيًا. قال ابن الأنباري: وَحَمَلُ الآية على العموم أولى من نقلها إلى خصوصٍ لا دليل عليه. والجواب الثالث: ما قال أهلُ المعاني، وهو: أنَّ الإخزاءَ يحتملُ معنيين: أحدهما: الإهانة والإهلاك والإبعاد، كما ذكرنا. وهذا للكفار، والثاني: الإخجال، يقال: (حَزِي حَزَايَةً): إذا استحيا، و (أخزاه غَيْرُهُ): إذا عَمِلَ بِهِ عَمَلًا يُخْجِلُهُ، ويستحيي منه. فعلى هذا، خِزْيُ المؤمنين: الحياءُ مِنْ سَائِرِ أهلِ الإيمان، بدخول النار إلى أن يخرجوا منها، وخِزْيُ الكافرين: الهلاكُ بالخلود فيها. وقال ابن عطية: قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ استِجَارَةٌ واستِعَاذَةٌ، أي فَلَ تَفْعَلْ بِنَا ذَلِكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْمَلُ عَمَلَهَا. والخِزْيُ: الفَضِيحَةُ المِخْجَلَةُ الهَادِمَةُ لِقَدْرِ المَرْءِ، خِزْيُ الرَّجُلِ يَخْزِي خِزْيًا إذا افْتُضِحَ، وخِزَايَةٌ إذا اسْتَحْيَى، الفِعْلُ وَاحِدٌ والمَصْدَرُ مُخْتَلِفٌ. وقال أنسُ بْنُ مَالِكٍ، والحَسَنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ، وابنُ جُرَيْجٍ، وَغَيْرُهُمْ: هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ وَالْإِيمَانِ فَلَيْسَ بِمَخْزِيٍّ. وقال جَابِرُ بْنُ وَغَيْرُهُ: كُلُّ مَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مَخْزِيٌّ وَإِنْ خَرَجَ مِنْهَا، وَإِنْ فِي دُونَ ذَلِكَ لَحْزِيًّا. قَالَ القَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ: أَمَا إِنَّهُ خِزْيٌ دُونَ خِزْيٍ، وَلَيْسَ خِزْيٌ مَن يَخْرُجُ مِنْهَا بِفَضِيحَةٍ هَادِمَةٍ لِقَدْرِهِ، وَأَمَّا الخِزْيُ النَّامُ لِلْكَفَّارِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ هُوَ مِنْ قَوْلِ الدَّاعِينَ، وَبِذَلِكَ يَتَسَبَّحُ وَصْفُ الْآيَةِ. وقال ابن الجوزي: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: قَالَ الزَّجَّاجُ: المَخْزِي فِي اللُّغَةِ: المَذَلُّ المَحْقُورُ بِأَمْرِ قَدْ لَزِمَهُ وَبِحُجَّةٍ. يُقَالُ: أَخْزَيْتُهُ: أَي أَلْزَمْتُهُ حُجَّةً أَذَلَّتْهُ مَعَهَا. وَفِيمَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ هَذَا الخِزْيُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ يَدْخُلُهَا مُخَلَّدًا، قَالَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَابْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ دَاخِلٍ إِلَيْهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِيٌّ عَنْ جَابِرٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٢﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: أَيُّ أَذْلَلْتَهُ وَأَهْنَتْهُ. وَقَالَ الْمُفَضَّلُ: أَيُّ أَهْلَكْتَهُ. وَقِيلَ: فَضَحَّتْهُ وَأَبْعَدَتْهُ، يُقَالُ: أَخْزَاهُ اللَّهُ: أَبْعَدَهُ وَمَقَّتَهُ. وَالْإِسْمُ الْحَزْيُ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: حَزِي يَحْزِي حَزِيًّا إِذَا وَقَعَ فِي بَلِيَّةٍ. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: أَيُّ الْكُفَّارِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: هُوَ مِنْ قَوْلِ الدَّاعِي. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الظَّالِمُونَ هُنَا هُمُ الْكَافِرُونَ، وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وَيُنَاسِبُ هَذَا التَّفْسِيرَ أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهُ فِيمَنْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ النَّاصِرِ إِمَّا يَمْنَعُ أَوْ شَفَاعَةً مُخْتَصَّةً بِالْكَفَّارِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَاللَّهُ نَاصِرُهُ وَالرَّسُولُ ﷺ شَافِعُهُ، وَبَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ يَشْفَعُ لِبَعْضٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: أَيُّ أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَا مُجِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ. وَقَالَ الثَّعَالِيُّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: أَيُّ فَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ بِنَا. وَالْحَزْيُ: الْفُضِيحَةُ الْمُحْجَلَةُ الْهَادِمَةُ لِقَدْرِ الْمَرْءِ. قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَغَيْرُهُمْ: هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، وَأَمَّا مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ وَالْأَمَانِ، فَلَيْسَ بِمُخْزَى، أَيْ وَمَا أَصَابَهُ مِنْ عَذَابٍ، إِنَّمَا هُوَ تَمَحِيصٌ لَذُنُوبِهِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: مُبَالَعَةٌ فِي اسْتِدْعَاءِ الْوَقَايَةِ مِنَ النَّارِ، وَبَيَانٌ لِسَبَبِهِ. وَصُدِّرَتِ الْجُمْلَةُ بِالْبَدَاءِ مُبَالَعَةً فِي التَّضَرُّعِ إِلَى مُعَوِّدِ الْإِحْسَانِ كَمَا يُشْعِرُ بِهِ لَفْظُ الرَّبِّ. وَالتَّأْكِيدُ بِأَنَّ الْإِظْهَارَ كَمَالُ الْيَقِينِ بِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ وَالْإِيدَانِ بِشِدَّةِ الْخَوْفِ. وَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ؛ لِلتَّهْوِيلِ. وَذُكِرَ الْإِذْخَالُ فِي مَوَارِدِ الْعَذَابِ؛ لِتَعْيِينِ كَيْفِيَّتِهِ وَتَبْيِينِ غَايَةِ فَطَاعَتِهِ وَالْإِخْرَاءِ. كَمَا قَالَ الْوَاحِدِيُّ. جَاءَ لِمَعَانٍ مُتَقَارِبَةٍ، فَعَنِ الرَّجَاحِ يُقَالُ: أَخْزَى اللَّهُ الْعَدُوَّ: أَيُّ أَبْعَدَهُ. وَقِيلَ: أَهَانَهُ. وَقِيلَ: فَضَحَهُ. وَقِيلَ: أَهْلَكَهُ، وَنُقِلَ هَذَا عَنِ الْمُفَضَّلِ. وَقِيلَ:

أَحَلَّهُ مَحَلًّا وَأَوْقَفَهُ مَوْقِفًا يَسْتَحْيِي مِنْهُ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: الْحَزِي فِي اللَّعَةِ: الْهَلَاكُ بِتَلْفٍ أَوْ بِانْقِطَاعِ حُجَّةٍ أَوْ بِوُقُوعٍ فِي بَلَاءٍ، وَالْمِرَادُ فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ خِزْيًا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: أَي لَيْسَ لِكُلِّ مِنْهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُ وَيُخَلِّصُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ. وَالْجُمْلَةُ تَذِيلٌ لِإِظْهَارِ فُضَاءَةِ حَالِهِمْ، وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِلِاسْتِدْعَاءِ. وَوَضَعَ الظَّالِمِينَ مَوْضِعَ ضَمِيرِ الْمُدْخِلِينَ؛ لِذَمِّهِمْ وَالِإِشْعَارِ بِتَغْلِيلِ دُخُولِهِمُ النَّارَ بِظُلْمِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: قَوْلُهُمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ مَسْئُوقٌ مَسَاقُ التَّغْلِيلِ لِسُؤَالِ الْوَقَايَةِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تُؤْذَنُ بِهِ إِنَّ الْمُسْتَعْمَلَةَ لِإِرَادَةِ الْإِهْتِمَامِ إِذْ لَا مَقَامَ لِلتَّأْكِيدِ هُنَا. وَالْحَزِي مَصْدَرٌ حَزِي يَحْزِي بِمَعْنَى ذَلَّ وَهَانَ بِمَرَأَى مِنَ النَّاسِ، وَأَخْزَاهُ أَذَلَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَوَجْهُ تَغْلِيلِ طَلَبِ الْوَقَايَةِ مِنَ النَّارِ بِأَنَّ دُخُولَهَا خِزْيٌ بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى مُوجِبَةِ ذَلِكَ الطَّلَبِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿عَذَابُ النَّارِ﴾: أَنَّ النَّارَ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِيهَا قَهْرٌ لِلْمُعَذَّبِ وَإِهَانَةٌ عَلَنِيَّةٌ، وَذَلِكَ مَعْنَى مُسْتَقَرٍّ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿وَلَا تُخْزِينِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وَذَلِكَ لِظُهُورِ وَجْهِ الرِّبْطِ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، أَي مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: هَذِهِ الْآيَةُ كَالْتَّغْلِيلِ لِلدَّعَاءِ السَّابِقِ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ أَدْخَلْتَهُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ. ﴿رَبَّنَا﴾: هَذِهِ مَنَادَى حَذَفَتْ مِنْهَا (يَاءُ) النِّدَاءِ، وَالتَّقْدِيرُ: (يَا رَبَّنَا). ﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ﴾: (إِنَّ) وَاسْمُهَا فِي (إِنَّكَ)، وَالْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ: ﴿مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرِ (إِنَّ). ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ. الْخَبَرُ مُقَدَّمٌ، وَ(الْأَنْصَارُ) مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وَهُوَ مُجْرُورٌ بِ(مِنْ) الزَّائِدَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ أَنْصَارٌ). ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: (مَنْ) تَشْمَلُ الْعَصَاةَ وَالْكَفَارَ؛ فَالْعَصَاةُ مُسْتَحَقُّونَ لِدُخُولِ النَّارِ، وَإِذَا أُدْخِلُوا النَّارَ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَظْلُومِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ لَذَلِكَ، وَالْكَفَارُ مُسْتَحَقُّونَ لِدُخُولِهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْيِيدِ وَالتَّخْلِيدِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ إِذَا أُدْخِلَ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَمَامَ الْعَالَمِ، أَي فَضَحَهُ وَهَتَكَ سِرَّهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: هُنَا إِظْهَارٌ فِي مَوْضِعِ

الإضمار، فإن مقتضى السياق أن يقول: (وما لهم من أنصار)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار؛ لثلاث فوائد: الفائدة الأولى: أن هؤلاء الذين يدخلون النار مستحقون لهذا الوصف، أي وصفهم بالظلم. الفائدة الثانية: العموم؛ أن كل ظالم حتى وإن لم يدخل النار إذا أراد الله أن يعاقبه فإنه لن يجد من ينصره. الفائدة الثالثة: إثبات العلة في الحكم، فلو قال: (وما لهم من أنصار) لم يتبين لنا أن السبب؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، فإذا وصفهم بهذا فكأنه بيّن الحكم بعلة. وقوله: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾: يعني من أعوان؛ لأن الناصر بمعنى المعين. وسواء كان العون في دفع العذاب عنهم أو في تخليصهم منه، فلا أحد ينصرهم عند إدخالهم فيمنعهم، ولا أحد ينصرهم إذا سقطوا فيها فيخرجهم. قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

• قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ قَامَنَا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٩٣):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: وَلَمَّا ابْتَهَلُوا بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي الْإِنجَاءِ مِنَ النَّارِ، تَوَسَّلُوا بِذِكْرِ مُسَارَعَتِهِمْ إِلَى إجابة الداعي بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا...﴾.

• تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا...﴾: قال مكِّي: المعنى: يقولون ربنا إنا سمعنا، والمنادي القرآن. وقال محمد بن كعب: هو القرآن، وليس كلهم لقي نبي الله ﷺ، وكلهم بلغ إليه القرآن. وقال ابن جريج: المنادي سيدنا محمد ﷺ، فالمعنى: سمعنا نداء مناد، المنادي غير مسموع وإنما المسموع نداؤه. وقال قتادة: سمعوا دعوة الله فأجابوها. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: أي في عددهم، وفي زمرة. وقيل: المعنى: وتوفنا أبراراً مع الأبرار. والأبرار: جمع برّ، وهو فعل ككتف أكتاف، وهم الذين برّوا الله بطاعتهم إياه وخدمتهم له ﷻ. وقيل: واحد هم برّار

على فاعل كصاحب وأصحاب. وقال الواحدي: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: المنادي: مُحَمَّد ﷺ، في قول ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن زيد، والأكثرين. وقيل: عين المُنَادِي: القرآن، حِكَايَةً عن مؤمني الإنس، كما حكى عن مؤمني الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وهذا قول القُرْظِيِّ، قال: لأنه ليس كلُّ أحدٍ لَقِيَ النبي ﷺ. والذين قالوا: إنه النبي، قالوا: إنَّ من سَمِعَ القرآنَ، فكأنَّه رأى النبيَّ وأدركه وسمع منه؛ لأن القرآن معجزته، لم يأت به غيره، فهو دليل عليه، وكلَّ مَنْ بَلَغَهُ القرآنُ، فقد أُنْذِرَهُ رسول الله ﷺ. ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، أي سمعنا منادياً للإيمان ينادي. وقيل: (اللام) بمعنى: (إلى)، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ومثله كثير. وهذا قول أكثر النحويين. وقيل: هي (لام) أَجَلَ. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّرَ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: معنى التكفير في اللغة: التغطية. و(رجلٌ مُكَفِّرٌ بالسلاح)، أي مُعْطَى. والكُفْرُ منه أيضاً. ومعنى ﴿كَفَّرَ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾، أي غَطَّهَا عَنَّا حَتَّى لَا نَرَاهَا، كما تقول: (اغفر لي خطيئتي). والغَفْرُ في اللغة: السَّتْرُ. وَجَمَعَ بين غُفْرَانِ الذنوب، وتكفير السيئات؛ لأنَّ غُفْرَانَ الذنوبِ تَفْضُلُهُ وَرَحْمَتُهُ، وتكفير السيئات بالطاعات، كما تقول في الأشياء الموجبة للكفارة، فإنها إذا كُفِّرَتْ، صارت مُكَفَّرَةً بتلك الطاعة التي هي كفارة لها، كالصوم في الظَّهَارِ، وإعتاق الرِّقَبَةِ في القتل الخطأ، والإطعام في الحِنْثِ. فالمغفرة بفضله من غير سبب، والتكفير، بسبب طاعة. والسيئات جَمْعُ: سَيِّئَةٍ. قال الليث: يقال: (سَاءَ الشَّيْءُ، يَسُوءُ)، فهو (سَيِّئٌ) إذا قُبِحَ. وقال أبو زيد: (السَّيِّءُ، والسَّيِّئَةُ)، عَمَلَانِ قَبِيحَانِ. يصير (السَّيِّئُ) نَعْتًا لِلذَّكْرِ مِنَ الْأَفْعَالِ، و(السَّيِّئَةُ) لِلْأُنْثَى، وَمِنْ هَذَا يُقَالُ: (سَوَّأْتُ عَلَى فُلَانٍ فَعْلَهُ)، أي قَبَحْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَبَّئْتُ بِمَا صَنَعَ. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: قال ابن عباس: يريد مع الأنبياء، والمعنى: تَوَفَّنَا فِي جُمْلَتِهِمْ، وَكُلُّ

مَنْ أَخَذَ فِي جُمْلَةِ قَوْمٍ صَارَ مَعَهُمْ؛ فَلذَلِكَ قَالَ: ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾. وقال السمعاني: أكثر
 المُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُنَادِي: هُوَ الرَّسُولُ. وَقِيلَ: هُوَ الْقُرْآنُ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ؛
 لِأَنَّهُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرِ الرَّسُولَ وَلَمْ يَسْمَعْهُ. ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رِئَا ذُنُوبَنَا﴾: أَيُّ كِبَائِرُنَا.
 ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: أَيُّ صَغَائِرُنَا. وَقِيلَ: الذُّنُوبُ: الْمَعَاصِي. وَالسَّيِّئَاتُ: التَّقْصِيرُ فِي
 الطَّاعَاتِ. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: الْبِرُّ: الْمُطِيعُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِي الْمُنَادِي قَوْلَانِ:
 أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: أَنَّهُ
 الْقُرْآنُ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنَادِي
 لِلْإِيمَانِ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَعْنَاهُ يُنَادِي إِلَى الْإِيمَانِ، وَمِثْلُهُ: ﴿الَّذِي هَدَانَا هَذَا﴾
 [الأعراف: ٤٣]، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، يُرِيدُ: هَدَانَا إِلَى هَذَا، وَأَوْحَى
 إِلَيْهَا، قَالَهُ الْقَرَاءُ. الثَّانِي: بِأَنَّهُ مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ: وَالْمَعْنَى: سَمِعْنَا مُنَادِيًا لِلْإِيمَانِ يُنَادِي: قَالَهُ أَبُو
 عُبَيْدَةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: قَالَ مُقَاتِلٌ: امْحُ عَنَّا حُطَايَانَا. وَقَالَ غَيْرُهُ:
 عَطَّهَا عَنَّا. وَقِيلَ: إِنَّمَا جَمَعَ بَيْنَ عُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّ الْعُفْرَانَ بِمُجَرَّدِ
 الْفَضْلِ، وَالتَّكْفِيرَ بِفِعْلِ الْحَيْرِ. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ الْأَنْبِيَاءُ
 وَالصَّالِحُونَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: فِي قَوْلِهِ: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّامَ بِمَعْنَى
 (إِلَى)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
 يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]،
 وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وَيُقَالُ: دَعَاهُ لِكَذَا وَإِلَى
 كَذَا، وَنَدَبَهُ لَهُ وَإِلَيْهِ، وَنَادَاهُ لَهُ وَإِلَيْهِ، وَهَدَاهُ لِلطَّرِيقِ وَإِلَيْهِ. وَالسَّبَبُ فِي إِقَامَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ
 مِنْ هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ مَقَامَ الْأُخْرَى: أَنَّ مَعْنَى انْتِهَاءِ الْغَايَةِ وَمَعْنَى الْإِحْتِصَاصِ حَاصِلَانِ
 جَمِيعًا. الثَّانِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هَذَا عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، أَيُّ سَمِعْنَا مُنَادِيًا لِلْإِيمَانِ يُنَادِي
 بِأَنَّ آمَنُوا، كَمَا يُقَالُ: (جَاءَنَا مُنَادِي الْأَمِيرِ يُنَادِي بِكَذَا وَكَذَا). الثَّالِثُ: أَنَّ هَذِهِ (اللَّامَ)
 لَا مَ الْأَجَلَ، وَالْمَعْنَى: سَمِعْنَا مُنَادِيًا كَانَ نِدَاؤُهُ لِيُؤْمِنَ النَّاسُ، أَيُّ كَانَ الْمُنَادِي يُنَادِي هَذَا

الْعَرْضِ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، أَيُّ لَتَوْمَنْ النَّاسُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا وَجُوهًا: أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَرَادَ بِهَمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا أُعِيدَ ذَلِكَ لِلتَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ الْإِلْحَاحَ فِي الدُّعَاءِ وَالْمِهَالَعَةَ فِيهِ مَنُذُوبٌ. وَثَانِيهَا: الْمَرَادُ بِالْأَوَّلِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَبِالثَّانِي الْمِيسْتَأْنَفُ. وَثَالِثُهَا: أَنْ يُرِيدَ بِالْغُفْرَانِ مَا يَزُولُ بِالتَّوْبَةِ، وَبِالْكُفْرَانِ مَا تُكَفِّرُهُ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ. وَرَابِعُهَا: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالْأَوَّلِ مَا أَتَى بِهِ الْإِنْسَانُ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ مَعْصِيَةً وَذَنْبًا، وَبِالثَّانِي مَا أَتَى بِهِ الْإِنْسَانُ مَعَ جَهْلِهِ بِكَوْنِهِ مَعْصِيَةً وَذَنْبًا. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: أَيُّ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ. ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾: أَيُّ يَقُولُ: ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، ﴿فَآمَنَّا﴾: أَيُّ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ. ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أَيُّ بِإِيمَانِنَا وَاتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، أَيُّ اسْتُرْهَا. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: أَيُّ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: أَيُّ أَلْحَقْنَا بِالصَّالِحِينَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: عَلَى مَعْنَى الْقَوْلِ. وَفِي تَصْدِيرِ مُقَدِّمَةِ الدُّعَاءِ بِالتَّوْبَةِ: إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ وَعَدَمِ غَفْلَتِهِمْ عَنْهُ مَعَ إِظْهَارِ كَمَالِ الضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى مُعَوِّدِ الْإِحْسَانِ وَالْإِفْضَالِ. وَفِي التَّأْكِيدِ: إِبْذَانٌ بِصُدُورِ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِوُفُورِ الرَّغْبَةِ وَمَزِيدِ الْعِنَايَةِ وَكَمَالِ النَّشَاطِ. وَالْمَرَادُ بِالْمُنَادِي: رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَهُوَ الْمُرَوِّى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ جُرَيْجٍ، وَاخْتَارَهُ الْجُبَّائِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ، وَهُوَ الْمَحْكِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَاخْتَارَهُ الطَّبْرِيُّ مُعَلِّلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ يَسْمَعُ كُلُّ وَاحِدٍ النَّبِيَّ وَلَا يَرَاهُ، وَالْقُرْآنُ ظَاهِرٌ بَاقٍ عَلَى مَمَرِ الْأَيَّامِ وَالذُّهُورِ يَسْمَعُهُ مَنْ أَدْرَكَ عَصَرَ نُزُولِهِ وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ. وَلِأَهْلِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنْ يَقُولُوا: مَنْ بَلَغَهُ بَعَثَهُ الرَّسُولُ وَدَعَوْتُهُ جَارَ لَهُ أَنْ يَقُولَ: سَمِعْنَا مُنَادِيًا وَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّجَوُّزِ، وَأَيْضًا الْمَرَادُ بِالتَّوْبَةِ الدُّعَاءُ، وَنَسَبَتْهُ إِلَيْهِ أَشْهُرُ وَأَظْهَرُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَدَاعِيَا

إلى الله. والتَّنَوُّينُ في المنادي للتَّفْخِيمِ، وإِثَارُهُ عَلَى الدَّاعِي؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى كَمَالِ اعْتِنَائِهِ بِشَأْنِ الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِهَا إِلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيذَانِ بِرَفْعِ الصَّوْتِ. وفي إِطْلَاقِ الْمُنَادِي أَوَّلًا حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مُنَادِيًا﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا دُعِيَ لَهُ، ثُمَّ قَوْلُهُ عَزَّ شَأْنُهُ بَعْدَ: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّعْظِيمِ لِشَأْنِ الْمُنَادِي وَالْمُنَادَى لَهُ، وَلَوْ قِيلَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ: (مُنَادِيًا لِلْإِيمَانِ) لَمْ يَكُنْ يَهْدِيهِ الْمَثَابَةَ. وَحَذَفُ الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ لِلْمُنَادِي؛ إِيْذَانًا بِالْعُمُومِ، أَيْ يُنَادِي كُلَّ وَاحِدٍ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ. وفي إِطْلَاقِ الْإِيمَانِ ثُمَّ تَقْيِيدِهِ: تَفْخِيمٌ لِشَأْنِهِ. (فَأَمَّا) عَطْفٌ عَلَى (سَمِعْنَا)، وَالْعَطْفُ بِ(الفاءِ) مُؤْذِنٌ بِتَعْجِيلِ الْقَبُولِ وَتَسَبُّبِ الْإِيمَانِ عَنِ السَّمَاعِ مِنْ غَيْرِ مُهْلَةٍ، وَالْمَعْنَى فَأَمَّا بِرَبَّنَا لَمَّا دُعِينَا إِلَى ذَلِكَ. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾: مُرْتَبٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ تَعَالَى وَالْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ (الفاءُ)، أَيْ فَاسْتُرْنَا. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: أَيْ كَبَائِرِنَا. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: أَيْ صَغَائِرِنَا. وَقِيلَ: الْمِرَادُ مِنَ الذُّنُوبِ: مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَعَاصِي. وَمِنَ السَّيِّئَاتِ: مَا تَأَخَّرَ مِنْهَا. وَقِيلَ: الْأَوَّلُ: مَا أَتَى بِهِ الْإِنْسَانُ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ مَعْصِيَةً، وَالثَّانِي: مَا أَتَى بِهِ مِنَ الْجَهْلِ بِذَلِكَ. وَالْأَوَّلُ هُوَ التَّفْسِيرُ الْمَأْثُورُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وفي ذِكْرِ (لَنَا، وَعَنَّا): إِيْمَاءٌ إِلَى وَفُورِ الرَّغْبَةِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: أَيْ مَخْصُوصِينَ بِالْإِنْخِرَاطِ فِي سِلْكِهِمْ وَالْعَدِّ مِنْ زُمْرَتِهِمْ. وَلَا مَجَالَ لِكَوْنِ الْمَعِيَةِ زَمَانِيَّةً؛ إِذْ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ قَبْلُ، وَمَنْ يَمُوتُ بَعْدُ. وفي طَلَبِهِمُ التَّوْفِيَّ وَإِسْنَادِهِمْ لَهُ إِلَى اللَّهِ: إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ يُجِبُونَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَالْأَبْرَارُ: جَمْعُ بَرٍّ كَأَرْبَابٍ جَمَعَ رَبٍّ. وَقِيلَ: جَمْعُ بَارٍّ كَأَصْحَابٍ جَمَعَ صَاحِبٍ، وَضَعِفَ بِأَنَّ فَاعِلًا لَا يُجْمَعُ عَلَى أَفْعَالٍ، وَأَصْحَابٌ جَمَعَ صَحْبٍ بِالسُّكُونِ، أَوْ صَحْبٍ بِالْكَسْرِ مُحَقَّفُ صَاحِبٍ بِحَذْفِ الْأَلِفِ. وَبَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَثْبَتَهُ وَجَعَلَهُ نَادِرًا، وَنُكْتُتُهُ قَوْلُهُمْ مَعَ (الْأَبْرَارِ) ذَوْنَ أَبْرَارٍ: التَّدْلُّلُ، وَأَنَّ الْمِرَادَ: لَسْنَا بِأَبْرَارٍ فَاسْلِكْنَا مَعَهُمْ وَاجْعَلْنَا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ. وقال القاسمي: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: حِكَايَةٌ لِدُعَاءٍ آخَرَ لَهُمْ. وَتَصْدِيرُ مُقَدِّمَةِ الدُّعَاءِ بِالنِّدَاءِ؛ لِإِظْهَارِ كَمَالِ الضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ. وَالتَّأَكِيدُ؛ لِلإِيْذَانِ بِصُدُورِ الْمَقَالِ عَنْهُمْ بِوُفُورِ الرَّغْبَةِ،

وكمال النشاط. والمراد بالمنادي: الرسول ﷺ. والتَّنْوِينُ للتفخيم، وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]. وفي وصفه ﷺ (بالمنادي) دلالة على كمال اعتنايه بِشَأْنِ الدَّعْوَى وَتَبْلِيغِهَا إِلَى الدَّائِنِ وَالْقَاصِي؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيدَانِ بِرَفْعِ الصَّوْتِ. ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: أَيُّ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ (المنادي، ويُنادي) ؟ قُلْتَ: ذِكْرُ النَّدَاءِ مُطْلَقًا ثُمَّ مُقَيَّدًا بِالْإِيمَانِ؛ تَفْخِيمًا لِشَأْنِ الْمُنَادِي؛ لِأَنَّهُ لَا مُنَادِيَّ أَعْظَمَ مِنْ مُنَادٍ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: مَرَرْتُ بِهَادٍ يَهْدِي لِلْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَادِي إِذَا أُطْلِقَ، ذَهَبَ الْوَهْمُ إِلَى مُنَادٍ لِلْحَرْبِ، أَوْ لِإِطْفَاءِ النَّارِ، أَوْ لِإِغَاثَةِ الْمَكْرُوبِ، أَوْ لِكِفَايَةِ بَعْضِ النَّوَازِلِ، أَوْ لِبَعْضِ الْمَنَافِعِ، وَكَذَلِكَ الْهَادِي قَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَهْدِي لِلطَّرِيقِ، وَيَهْدِي لِسَدَادِ الرَّأْيِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا قُلْتَ: يُنَادِي لِلْإِيمَانِ، وَيَهْدِي لِلْإِسْلَامِ، فَقَدْ رَفَعْتَ مِنْ شَأْنِ الْمُنَادِي وَالْهَادِي، وَفَحَّمْتَهُ، وَيُقَالُ: دَعَا لِكَذَا وَإِلَى كَذَا، وَنَدَبَهُ لَهُ وَإِلَيْهِ، وَنَادَاهُ لَهُ وَإِلَيْهِ، وَنَحْوُهُ: هَدَاهُ لِلطَّرِيقِ وَإِلَيْهِ. وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى انْتِهَاءِ الْغَايَةِ، وَمَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ وَقَعَانِ جَمِيعًا. أَفَادَهُ الرَّخْمَشَرِيُّ .. ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾: أَيُّ فَا مَتَثَلْنَا أَمْرَهُ، وَأَجَبْنَا نِدَاءَهُ. وَ(أَنْ) إِمَّا تَفْسِيرِيَّةٌ، أَيُّ آمِنُوا، أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ بِأَنْ آمِنُوا. ﴿رَبَّنَا﴾: تَكْرِيرٌ لِلتَّضَرُّعِ، وَإِظْهَارٌ لِكَمَالِ الْخُضُوعِ. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: أَيُّ اسْتَرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِهَا، وَأَذْهَبْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا بِتَبْدِيلِهَا حَسَنَاتٍ. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: أَيُّ مَعْدُودِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ حَتَّى نَكُونَ فِي دَرَجَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْأَبْرَارُ: جَمْعُ بَارٍّ أَوْ بَرٍّ، وَهُوَ كَثِيرُ الْبِرِّ (بِالْكَسْرِ)، أَيُّ الطَّاعَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: أَرَادُوا بِهِ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ. وَالْمُنَادِي: الَّذِي يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْكَلَامِ. وَالنِّدَاءُ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْكَلَامِ رَفْعًا قَوِيًّا؛ لِأَجْلِ الْإِسْمَاعِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّدَاءِ بِكَسْرِ (النُّونِ) وَبِضْمِّهَا، وَهُوَ الصَّوْتُ الْمُرْتَفِعُ، يُقَالُ: هُوَ أُنْدَى صَوْتًا أَيْ أَرْفَعُ، فَأَصْلُ النَّدَاءِ الْجَهْرُ بِالصَّوْتِ وَالصِّيَاحُ بِهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ دُعَاءُ الشَّخْصِ شَخْصًا لِيُقْبَلَ إِلَيْهِ نِدَاءً؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرْفَعَ الصَّوْتَ بِهِ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ حُرُوفًا مَمْدُودَةً مِثْلَ: (يَا، وَآ، وَأَيَا، وَهَيَا).

ومنه سُمِّيَ الأذانُ نداءً، وأُطلقَ هنا على المبالغة في الإسماع والدعوة وإن لم يكن في ذلك رفع صوت، ويُطلقُ النداء على طلب الإقبال بالذات أو بالفهم بخروف معلومة، كقوله تعالى ﴿ونادينه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا﴾ [الصفات]، ويجوز أن يكون هو المراد هنا؛ لأنَّ النِّيءَ يدعو النَّاسَ بنحو: (يا أيُّها النَّاسُ)، (ويا بني فلان)، (ويا أُمَّة مُحَمَّدٍ)، ونحو ذلك. و(اللام) لامُ العلة، أي لأجل الإيمان بالله. و(أن) في ﴿أن آمنوا﴾ تفسيريَّة؛ لما في فعلٍ يُنادي من معنى القول دون حُرُوفه. وجاءوا بِ(فاء) التَّعْقِيبِ في (فآمنّا)؛ للدلالة على المبادرة والسَّبقِ إلى الإيمان، وذلك دليلُ سلامة فطرَتهم من الخطأ والمكابرة، وقد تَوَسَّموا أن تكون مبادرتهم لإجابة دعوة الإسلام مشكورةً عند الله؛ فلذلك فرَّعوا عليه قولهم: ﴿فاغفر لنا ذُنُوبنا﴾؛ لأنَّهم لما بذلوا كُلَّ ما في وسعهم من اتباع الدين كانوا حقيقيين بترجِّي المغفرة. والعَفْرُ والتَّكْفِيرُ مُتقاربان في المادَّة المشتقَّين منها إلا أنَّه شاع العَفْرُ والعُفْرانُ في العَفْوِ عَنِ الذَّنْبِ والتَّكْفِيرِ في تَعْوِضِ الذَّنْبِ بِعَوْضٍ، فكأنَّ العَوْضَ كَفَرَ الذَّنْبَ أي سَتَرَهُ، ومنه سُمِّيَتْ كَفَّارَةُ الإفطارِ في رَمَضانَ، وكَفَّارَةُ الحِنثِ في اليمِينِ، إلا أنَّهم أرادوا بالذُّنُوبِ ما كانَ قاصِراً على ذَوَاتِهِمْ؛ ولذلك طَلَبُوا مَغْفِرَتَهُ، وأرادوا مِنَ السَّيِّئَاتِ ما كانَ فِيهِ حَقُّ النَّاسِ؛ فلذلك سَأَلُوا تَكْفِيرَها عَنْهُمْ. وقيل: هو مُجَرَّدُ تَأْكِيدٍ، وهو حَسَنٌ. وقيل: أرادوا مِنَ الذُّنُوبِ الكَبائِرِ، وَمِنَ السَّيِّئَاتِ الصَّغائِرِ؛ لأنَّ اجْتِنَابَ الكَبائِرِ يُكَفِّرُ الصَّغائِرَ؛ بناءً على أنَّ الذَّنْبَ أدلُّ على الإثمِّ مِنَ السَّيِّئَةِ. وسألوا الوَفاءَ مَعَ الأَبْرارِ، أي أن يَمُوتُوا على حالَةِ البرِّ، بأن يُلَازِمَهُمُ البرُّ إلى المِماتِ وأن لا يَرْتَدُّوا على أَدبارِهِمْ، فإذا ماتوا كَذَلِكَ ماتوا مِنْ جُمْلَةِ الأَبْرارِ، فالمَعِيَّةُ هنا مَعِيَّةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ، وهي المِشارَكَةُ في الحالَةِ الكامِلَةِ، والمَعِيَّةُ مَعَ الأَبْرارِ أبلَغُ في الاتِّصافِ بالدَّلالَةِ؛ لأنَّه بَرٌّ يُرْجى دَوامُهُ وتَرايُدُهُ لكَوْنِ صاحِبِهِ ضَمْنُ جَمْعٍ يَرِيدُونَهُ إقبالاً على البرِّ بِلِسانِ المُقالِ وَلِسانِ الحالِ. وقال العثيمين: ﴿رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا﴾: منادى حذف منها (ياء) النداء. وجملَةٌ ﴿يُنَادِي لِلإيمانِ﴾ صفة لقوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ لكن فائدتها: أنها بيَّنت ماذا ينادي له، وذلك

أَنَّ المُنَادِي قد ينادي لكذا ولكذا، فبيّنت ماذا ينادي له، فهي إذاً صفة لقوله: ﴿مُنَادِيًا﴾. وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾: ﴿أَنْ﴾ هذه تفسيريّة؛ لأنها جاءت بعد جملة تتضمّن معنى القول دون حروفه، وكلّ (أَنْ) تقع بعد جملة تتضمّن معنى القول دون حروفه فإنّها تسمّى تفسيريّة، فهي بمعنى (أي)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، أي اصنع الفلك. وقوله: ﴿رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: (الفاء) هذه عاطفة، ولكنّها تفيد السببيّة؛ لأنها عطفت جملة على جملة. وقوله: ﴿سَيِّئَاتِنَا﴾: بالكسر مع أنّه مفعول به؛ لأنها جمع مؤنث سالم. وقوله: ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ ظرف، ولكن هنا المراد بالمعيّة: المعية الحكميّة لا الزمنيّة؛ لأنّ ميّات الأبرار تختلف. يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: قالوا ذلك تحدّثاً بنعمة الله على ما أنعم به من إرسال هذا المُنَادِي. وقولهم: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: المُنَادِي أصله: المصوّت؛ لأنّ النداء هو رفع الصوت، ولكن المراد به مُحمّد ﷺ، وسماعهم له يقع على وجهين: أحدهما: أن يسمعوا صوته مباشرة بدون واسطة. والثاني: أن يسمعوا من ورثته ما جاء به، وهم العلماء، وكلّ هذا داخل في الآية؛ يعني السماع المباشر الذي سمعوه من صوته، والسماع غير المباشر الذي سمعوه بالواسطة من ورثته وهم العلماء. وقوله: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: قد يقول قائل: إنّ المتوقع أن يقال: إلى الإيمان، فيقال: إليه، ولكنّه أتى بـ(اللام)؛ لأنها ألصق من (إلى)؛ إذ إنّ (إلى) تفيد الغاية، والغاية لا بدّ لها من مغيّ، والمغيّ طرف فهو مؤمن بالبعد. أمّا (لِلْإِيمَانِ) فهي للإلصاق، فتكون ألصق من (إلى). وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾: هذا بيان للإيمان الذي دعا إليه الرسول . عليه الصلاة والسلام . ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَنَّا﴾: الإيمان بالله: هو الإقرار المتضمّن للقبول والإذعان وليس مجرّد الإقرار، ولو كان الإيمان مجرّد الإقرار لكان أبو طالب مؤمناً؛ لأنه مقرّ، ولكنّه لا يكون إيماناً حتى يتضمّن القبول والإذعان، يعني الانقياد، فأما إذا لم يقبل أو قبل ولم يذعن فإنه ليس بمؤمن. وقوله هنا: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ قد يقول قائل: هل الإيمان يقتصر

على ركن واحد؟ وهو الإيمان بالله. فالجواب: أنَّ من آمن بالله آمن بكلِّ ما أخبر الله به ومنه بقيّة الأصول الستّة: (ملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره)، فعلى هذا يكون الإيمان بالله متضمّنًا للإيمان بقيّة أركان الإيمان، ويكون ذكرها أحيانًا مفصّلة من باب التفصيل والبيان وليس من باب التخصيص، فإنّ الإيمان بالله يتضمّن هذا كلّهُ. ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾: يعني أقررنا بذلك مع الانقياد والقبول والإذعان. ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا﴾: أي بسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا. والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، وإنما نقول: إنها ستر وتجاوز؛ لأنها مأخوذة من (المَغْفَر)، وهو ما يلبس على الرأس من الحديد الذي يقي السهام، ومعلوم أنّ المَغْفَر فيه ستر وفيه وقاية، فمن قال من العلماء: المغفرة: هي الستر، فإن تفسيره لها ناقص، لا بدّ أن يقال: الستر مع الوقاية. وقوله: ﴿فَاعْفُ رَنَا دُنُوبَنَا﴾: الذنوب: هي المعاصي، وأصلها: النصيب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا دُنُوبًا مِثْلَ دُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩]، أي نصيبًا مثل نصيب أصحابهم، ولكنها خصّت بالنصيب من الآثام. وقوله: ﴿فَاعْفُ رَنَا دُنُوبَنَا وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: السيئات طلبوا تكفيرها، والذنوب طلبوا مغفرتها؛ لأن السيئات: هي الصغائر، وهي تكفّر بالأعمال الصالحة، بالطاعات، ولا يمكن أن تكفّر بالطاعات إلا بعد أن تكون الطاعات على الوجه الأكمل؛ لأن الطاعات إذا نقصت لم تقو على تكفير السيئات؛ إذ إنّ الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلا إبراء الذمّة، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون تامة بقدر المستطاع؛ ولهذا قالوا: ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ بما نفعله من الأعمال الصالحة. ثم اعلم أنّ تكفير السيئات قد يكون معيّنًا من قبل الشرع، أي ما يكفّر به قد يكون معيّنًا من قبل الشرع مثل كفارة الظهار، وكفارة القتل، وكفارة الجماع في نهار رمضان، فهذا مقيد بالشرع، وقد يكون عامًا كتكفير السيئات عمومًا بالصلاة، وبالوضوء، وبالجمعة إلى الجمعة، وبرمضان إلى رمضان، وبالعمرة إلى العمرة، فالتكفير إمّا مقيد وإمّا مطلق عام. وهناك فرق بين الكبائر والصغائر، فإنّ الكبيرة

أحسن ما قيل فيها: هي ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت العقوبة دنيوية أو دينية في الدنيا أو في الآخرة، هذا أحسن ما قيل فيها، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام . رحمه الله .. وقال بعضهم: إنَّ الكبيرة ما رتب عليه حدّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة، أو لعنة، أو غضب، أو نفي إيمان، أو تبرؤ منه، وصاروا يعدّون مثل هذا. فإذا قلنا: ما رتب عليه عقوبة خاصة صار أشمل، ومن المعلوم أنَّ الكبائر بعضها أهون من بعض أو أعظم من بعض؛ لقول النبي . عليه الصلاة والسلام . في حديث أبي بكر: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر..". رواه الشيخان. وهم طلبوا من الله تكفير الكبائر والصغائر؛ لأن الكبائر لا تكفّر، وإنما تحتاج إلى مغفرة من الله، إمّا مجرد فضل منه سبحانه وتعالى، وإمّا بعمل أسباب كالاستغفار والتوبة حتى ترفع حكم هذه الكبائر. ﴿وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرارِ﴾: توفنا: يعني اقبضنا إليك. والتوفية: بمعنى القبض، ومنه قولهم: توفّي فلان حقّه، أي قبضه وافيًا. وقولهم: ﴿مَعَ الْأَبْرارِ﴾: المعية هنا ليست معية زمنية؛ لتعدّد اجتماع وفاة الأبرار في آنٍ واحد، لكنّها معية حكمية ومصاحبة حكمية، يعني: أن نكون معهم، أي في جملتهم ولو كنّا بعدهم. والأبرار: جمع برّ، والبرّ هو: كثير الخيرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وأهل الحقّ والأعمال الصالحة لا شكّ أنّهم مكثّرون لفعل الخيرات، وعليه فإنّهم أبرار. فإن قال قائل: هل في هذا الدعاء جواز الدعاء بالموت؟ الجواب: ليس كذلك، فمعلوم أنّ الله لن يتوفّاهم إلا إذا جاء أجلهم، وليس فيها أنّهم يتمنّون تقديم الوفاة، وهذا نظير قول يوسف . عليه الصلاة والسلام .: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ليس المعنى: أنه يسأل الله أن يتوفّاه الآن، بل أن يتوفّاه على الإسلام متى جاء أجله، وكذلك قول مريم: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣] ليس معناه أنها تمنّت الموت بل تمنّت أن هذا لم يقع، يعني معناه نقول: يا ليتني متّ وأنا ما رأيته.

● قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾:

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حِكَايَةٌ لِدُعَاءٍ آخَرَ لَهُمْ مَسْبُوقٍ بِمَا قَبْلَهُ مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ؛ لِتَأْخُرَ التَّحْلِيلَةُ عَنِ التَّحْلِيلَةِ.

وقال السعدي: لَمَّا ذَكَرُوا تَوْفِيقَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ لِلْإِيمَانِ، وَتَوَسَّلَهُمْ بِهِ إِلَى تَمَامِ النِّعْمَةِ، سَأَلُوهُ الثَّوَابَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ يَنْجِزَ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنَ النِّصْرِ، وَالظُّهْرِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وقال ابن عاشور: وَلَمَّا سَأَلُوا الْمُثُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَرَقَّوْا فِي السُّؤَالِ إِلَى طَلَبِ تَحْقِيقِ الْمُثُوبَةِ، فَقَالُوا ﴿وَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

● تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾: قال مكِّي: أي يقولون ربنا آتنا ما وعدتنا على لسان رسلك، وهو الجنة، وهذا سؤال وطلب، ومعناه: الخبر؛ لأن الله منجز وعده من غير سؤال، ومعناه: وتوفنا مع الأبرار لتؤتينا ما وعدتنا؛ لأنهم قد علموا أن الله لا يخلف الميعاد، ولكنه خبر. وقيل: إنه خرج منهم على طريق الطلب أن يجعلهم ممن يؤتيه ما وعده من الكرامة. وقيل: إنهم سألوا الله أن يؤتيهم ما وعدهم على لسان الرسول ﷺ من النصر على أعدائهم. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾: أي لا تذلنا. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: أي أنك قد وعدت من آمن بك ووحدك: الجنة في الآخرة والنصر في الدنيا على أعدائك. وقال الماوردي: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ فَمَا مَعْنَى هَذَا الدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ؟ فَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَجَوِبَةٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُقْصُودَ بِهِ مَعَ الْعِلْمِ بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ: الْخُضُوعُ لَهُ بِالْدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ. الثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ. الثَّالِثُ: مَعْنَاهُ اجْعَلْنَا مِمَّنْ وَعَدْتَهُ ثَوَابَكَ. الرَّابِعُ: يَعْنِي عَجَلَ إِلَيْنَا إِنْجَازَ وَعْدِكَ وَتَقْدِيمَ نَصْرِكَ. وقال السمعاني: ﴿رَبَّنَا

وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ: ﴿أَيَّ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ.﴾ وَلَا تَحْزَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَيَّ لَا تَفْضَحْنَا، وَلَا تُهْلِكْنَا.﴾ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ: ﴿وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْحِ لَهُ؛ لِأَنَّا عَلَى الْقَطْعِ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ.﴾ وقال ابن الجوزي: ﴿رَبَّنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا:﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنُونَ: الْجَنَّةَ. ﴿عَلَى رُسُلِكَ:﴾ أَيَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ. وقال أبو حيان: الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ عَلَى رُسُلِهِ، فَفَسَّرَ هَذَا الْمُوعُودَ بِهِ: بِالْجَنَّةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: الْمُوعُودُ بِهِ: النَّصْرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ. وَقِيلَ: اسْتَغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ، كَاسْتَغْفَارِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَاسْتَغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ. وقال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ تَعْلِيلٌ لِتَحْقِيقِ مَا نَظَّمُوا فِي سِلْكِ الدُّعَاءِ، وَهَذِهِ الدَّعَوَاتُ وَمَا فِي تَضَاعِيْفِهَا مِنْ كَمَالِ الضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ لَيْسَتْ لِحَوْفِهِمْ مِنْ إِخْلَافِ الْمِيعَادِ، بَلْ لِحَوْفِهِمْ مِنْ أَنْ لَا يَكُونُوا مِنْ جُمْلَةِ الْمُوعُودِينَ بِتَغْيِيرِ الْحَالِ وَسُوءِ الْخَاتِمَةِ وَالْمَالِ، فَمَرَّجَعُهَا إِلَى الدُّعَاءِ بِالتَّثْبِيتِ، أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّعَبُّدِ وَالْحُشُوعِ. وَالْمِيعَادُ: الْوَعْدُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ. وقال الشوكاني: ﴿رَبَّنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ:﴾ هَذَا دُعَاءٌ آخَرُ. وَالْمُوعُودُ بِهِ عَلَى أَلْسِنِ الرُّسُلِ هُوَ الثَّوَابُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ طَاعَتِهِ، فَقِي الْكَلَامَ حَذَفَ وَهُوَ لَفْظُ الْأَلْسِنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وَقِيلَ: الْمَحْذُوفُ التَّصْدِيقُ، أَيَّ مَا وَعَدْتَنَا عَلَى تَصْدِيقِ رُسُلِكَ. وَقِيلَ: مَا وَعَدْتَنَا مُنَزَّلًا عَلَى رُسُلِكَ، أَوْ مَحْمُولًا عَلَى رُسُلِكَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَصُدُورُ هَذَا الدُّعَاءِ مِنْهُمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَلْسِنِ رُسُلِهِ كَائِنْ لَا مُحَالَةَ، إِمَّا لِقَصْدِ التَّعْجِيلِ أَوْ لِلْحُضُوعِ بِالدُّعَاءِ؛ لِكُونِهِ مُحِّحَ الْعِبَادَةِ. وَفِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَخَافُوا خُلْفَ الْوَعْدِ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى الدُّعَاءِ هُوَ مَا ذَكَرْنَا. وقال ابن عاشور: وَالْمُوعُودُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ أَوْ عَلَى التَّصْدِيقِ بِهِمْ: الْأَظْهَرُ: أَنَّهُ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَثَوَابُ الدُّنْيَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ..﴾ [النور: ٥٥]، وَقَوْلِهِ:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
[الأنبياء: ١٠٥]. والمراد بالرُّسُلِ في قَوْلِهِ: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: حُصُوصُ مُحَمَّدٍ ﷺ، أُطْلِقَ عَلَيْهِ وَصْفُ (رُسُلٍ)؛ تَعْظِيمًا لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]. فَإِنْ قُلْتُ: إِذَا كَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمْ ذَلِكَ وَبِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ فَمَا فَائِدَةُ سُؤْلِهِمْ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِمْ؟ قُلْتُ: لَهُ وَجُوهٌ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ لِيَكُونَ حُصُولُهُ أَمَارَةً عَلَى حُصُولِ قَبُولِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِمَا سَأَلُوهُ فَقَدْ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ آتِينَ بِمَا يُبَلِّغُهُمْ تِلْكَ الْمُرْتَبَةَ وَيَحْشَوْنَ لَعَلَّهُمْ قَدْ خَلَطُوا أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ بِمَا يُبْطِلُهَا، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي حِجْيِ (الوَاوِ) فِي قَوْلِهِمْ: ﴿وَاتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ دُونَ (الفَاءِ)؛ إِذْ جَعَلُوهُ دَعْوَةً مُسْتَقِلَّةً؛ لِيَتَحَقَّقَ وَيَتَحَقَّقَ سَبَبُهَا، وَلَمْ يَجْعَلُوهَا نَتِيجَةً فِعْلٍ مَقْطُوعٍ بِحُصُولِهِ، وَيَدُلُّ لِصِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ بَعْدُ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا هُنَا عَدَمَ إِضَاعَةِ أَعْمَالِهِمْ. الثَّانِي: قَالَ فِي الْكَشَافِ: أَرَادُوا طَلَبَ التَّوْفِيقِ إِلَى أَسْبَابِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، فَالْكَلَامُ مُسْتَعْمَلٌ كِنَايَةً عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ مِنَ التَّوْفِيقِ لِلْأَعْمَالِ الْمُوعُودِ عَلَيْهَا. الثَّالِثُ: قَالَ فِيهِ مَا حَاصِلُهُ: أَنَّ يَكُونَ هَذَا مِنْ بَابِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ حَتَّى لَا يَظْهَرُوا بِمَظْهَرِ الْمُسْتَحَقِّ لِتَحْصِيلِ الْمُوعُودِ بِهِ تَذَلُّلاً، أَيْ كَسْوَالِ الرُّسُلِ . عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . الْمُغْفِرَةَ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ. الرَّابِعُ: أَجَابَ الْقَرَّائِيُّ: بِأَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ حُصُولَهُ مَشْرُوطٌ بِالْوَفَاءِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَقَدْ يُؤَيِّدُ هَذَا بِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا قَبْلَهُ قَوْلَهُمْ: ﴿وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، لَكِنَّ هَذَا الْجَوَابَ يَقْتَضِي قَصْرَ الْمُوعُودِ بِهِ عَلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَأَعَادُوا سُؤَالَ النِّجَاةِ مِنْ خِزْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِشِدَّتِهِ عَلَيْهِمْ. الْخَامِسُ: أَنَّ الْمُوعُودَ الَّذِي سَأَلُوهُ هُوَ النَّصْرَ عَلَى الْعَدُوِّ خَاصَّةً، فَالدُّعَاءُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَاتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ مَقْصُودٌ مِنْهُ تَعْجِيلُ ذَلِكَ لَهُمْ، يَعْنِي أَنَّ الْوَعْدَ كَانَ لِمَجْمُوعِ الْأُمَّةِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ إِذَا دَعَا بِهَذَا فَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ يَجْعَلُهُ اللَّهُ مِمَّنْ يَرَى مِصْدَاقَ وَعْدِ اللَّهِ حَشِيَّةً أَنْ يَقُومَهُمْ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: انْظُرْ إِلَى التَّكَرُّارِ

في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأنهم يتلذذون بهذا التعبير أن يكون الله ربحم، وإذا كان الله ربحم فهم عبيده، وتلذذ الإنسان بعبوديته لله دليل على كمال إيمانه؛ لأنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أكمل إيماناً؛ ولهذا يكررون ﴿رَبَّنَا﴾ تلذذاً بهذا الاسم الكريم. وقوله: ﴿وَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾. ﴿آتِنَا﴾: بمعنى أعطنا، بخلاف ﴿أْتِنَا﴾: بمعنى جئنا، ﴿آت﴾: بمعنى أعط، وأتى بمعنى جاء. والمصدر من آتى: إيتاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]. أما المصدر من أتى فهو إتيان. يقول: ﴿وَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾: (مَا): هذه موصولة ومحلها من الإعراب: مفعول ثانٍ لـ (آت)؛ لأن (آت) تنصب مفعولين وهي من أخوات أعطى، بمعنى ليس أصلهما من المبتدأ والخبر، فالذي ينصب مفعولين ينظر فيه: إن كان أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات ظنّ، وإن لم يكن أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات أعطى وكسا، وهذه من أخوات أعطى وكسا. قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾: أي عهدت به إلينا من الثواب الجزيل على أعمالنا، وقوله: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: تحتل معنيين: أحدهما: على الإيمان برسلك. الثاني: على أيدي رسلك. فعبر بالرسل عن أيدي الرسل؛ لأن الذين وعدوهم هم الرسل أنفسهم، وعدوا المؤمنين بما وعدهم الله به، ووعدوا المخالفين بما توعدهم الله به. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿تُخْزِنَا﴾: أي تفضحنا وتذلنا يوم القيامة، أي يوم يقوم الناس من قبورهم لله. وسمي هذا اليوم يوم القيامة؛ لأمر ثلاثة: الأول: أنه يقوم الناس فيه من قبورهم لله. الثاني: أنه يقام فيه العدل. الثالث: أنه يقوم فيه الأشهاد. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: تعليل لسؤالهم، يعني: سألناك يا ربنا أن تعطينا هذا؛ لأنك لا تخلف الميعاد، وإنما انتفى عنه إخلاف الوعد؛ لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الوعد، إما أن يكون لكذب الواعد، كميعاد أهل النفاق، وإما أن يكون لعجز الواعد، أي أنه يفي لكنه عاجز، والله قد انتفى في حقّه الأمران، أعني الكذب والعجز، فهو لكمال صدقه وكمال قدرته لا يخلف الميعاد، وهذه الصفة من الصفات السلبية، والسلب بمعنى النفي. وقد قررنا أن

الصفات السلبية يراد بها شيان: الأول: انتفاء الصفة التي نفيت. الثاني: إثبات كمال ضدها، يعني: انتفى عنه هذا؛ لكمال ضده، هذا هو المعنى. فإذا قلت: فلان لا يكذب، فالمعنى أنه كامل الصدق لا يوجد في كلامه كذب؛ ولهذا نقول: إنّ الصفات المنفية عن الله سبحانه لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يراد بها إثبات كمال الضد.

● قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾:

● سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: روي عن أم سلمة أنها قالت: "يا رسول الله، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فنزلت هذه الآية".

● مناسبة الآية لما قبلها:

بعدما ذكر الله دعاءهم له بين استجابته لهم. قال القرطبي: قال الحسن: ما زالوا يقولون: رَبَّنَا رَبَّنَا حَتَّى اسْتَجَابَ لَهُمْ.

● تفسير الآية:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾: قال السمرقندي: يعني ثواب عمل عامل في طاعتي. ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي﴾: يعني رجلاً أو امرأة. ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: قال الكلبي: أي بعضكم أولياء بعض في الدين. وقال الضحاك: يعني يشبه بعضكم بعضاً في الطاعة. ويقال: بعضكم على إثر بعض. ويقال: بعضكم على دين بعض. وقال مكّي: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾: المعنى: فأجابهم ربهم. ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾: عمل خيراً. ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي﴾: أي ذكراً كان أو أنثى. قال الكوفيون:

دخلت ﴿مِنْ﴾ هاهنا على التفسير لقوله ﴿مِنْكُمْ﴾: أي منكم من الذكور والإناث، قال: وليست من هاهنا يجوز حذفها؛ لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا بها، وإنما يجوز حذفها إذا كانت تأكيداً للجحد. وقال بعض البصريين: دخلت ﴿مِنْ﴾ هاهنا كما دخلت في قولك: (قد كان من حديث فلان كذا)، قال: وحرف النفي قد تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَيُّ لَأُضِيعُ﴾ قد دخلت للتأكيد، والأحسن: أن تكون من للتفسير كما تقدّم. ومعنى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: أن بعضكم في النصر والمذلة والجزاء من بعض، أي حكم الجميع الذكر والأنثى سواء. وقال البغوي: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ﴾: أي بآي. ﴿لَا أُضِيعُ﴾: لا أُحِطُ. ﴿عَمَلٍ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: قَالَ الْكَلْبِيُّ: فِي الدِّينِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمُؤَالَاةِ. وَقِيلَ: كُلُّكُمْ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: رِجَالُكُمْ شَكْلُ نِسَائِكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ شَكْلُ رِجَالِكُمْ فِي الطَّاعَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال ابن عطية: ﴿اسْتَجَابَ﴾: اسْتَفْعَلَ، بِمَعْنَى أَجَابَ، فَلَيْسَ اسْتَفْعَلَ عَلَى بَابِهِ مِنْ طَلَبِ الشَّيْءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنَّ) مُفَسَّرَةً، وَمُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (أَيُّ). وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ دَكْرٍ﴾ تَبْيِينُ لِحْنِ الْعَامِلِ، وَقَالَ قَوْمٌ: ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ؛ لِتَقْدُمِ النَّفْيِ مِنَ الْكَلَامِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: يَعْنِي فِي الْأَجْرِ وَتَقَبُّلِ الْعَمَلِ، أَيْ إِنَّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ فِي ذَلِكَ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: اسْتَجَابَ: بِمَعْنَى أَجَابَ. وَالْمَعْنَى: أَجَابَهُمْ بِأَنْ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى. وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فِي الدِّينِ، وَالنُّصْرَةِ وَالْمُؤَالَاةِ. الثَّانِي: حُكْمُ جَمِيعِكُمْ فِي الثَّوَابِ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الذُّكُورَ مِنَ الْإِنَاثِ، وَالْإِنَاثُ مِنَ الذُّكُورِ. الثَّالِثُ: كُلُّكُمْ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: اسْتَجَابَ: أَيُّ أَجَابَ، وَيُعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِ(الْلامِ). ﴿أُضِيعُ﴾ مِنْ أَضَاعَ. وَمَعْنَى ذَلِكَ: لَا أَتْرُكُ جَزَاءَ عَامِلٍ مِنْكُمْ. وَ﴿مِنْكُمْ﴾ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ، أَيْ كَائِنٍ مِنْكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ دَكْرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: قِيلَ: (مِنْ)

تَبَيَّنَ لِحَنِسِ الْعَامِلِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: الَّذِي هُوَ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى. وَ(مِنْ) قِيلَ: زَائِدَةٌ؛ لِتَقْدُمِ النَّفْيِ فِي الْكَلَامِ. وَقِيلَ: (مِنْ) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الصَّمِيرِ الَّذِي فِي الْعَامِلِ فِي ﴿مِنْكُمْ﴾، أَيْ عَامِلٍ كَائِنٍ مِنْكُمْ كَائِنًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ لَمَّا سَأَلُوا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَقَبَ ذَلِكَ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّ لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْإِجَابَةِ، أَيْ قَالَ لَهُمْ مُحِيًّا لَهُمْ: أَنَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلُ عَامِلٍ لَدَيْهِ، بَلْ يُؤَيِّ كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى. وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أَيْ جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءً. وَقَالَ الشُّوَكَايَ: الْإِسْتِجَابَةُ بِمَعْنَى الْإِجَابَةِ. وَقِيلَ: الْإِجَابَةُ عَامَّةٌ، وَالْإِسْتِجَابَةُ خَاصَّةٌ بِإِعْطَاءِ الْمُسْتَوْجِبِ. وَهَذَا الْفِعْلُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِ(اللَّامِ)، يُقَالُ: اسْتَجَابَهُ، وَاسْتَجَابَ لَهُ. وَ(الْفَاءُ) لِلْعُطْفِ. وَقِيلَ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَيْ: دَعَا بِهَذِهِ الْأَدْعِيَةِ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ. وَقِيلَ: عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾. وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِجَابَةَ وَمَا بَعْدَهَا فِي جُمْلَةٍ مَا لَهُمْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَسَنَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْهُ، إِذْ مَنْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ فَقَدْ رُفِعَتْ دَرَجَتُهُ. ﴿أَيُّ لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾: أَيْ بِأَيِّ. وَالْمُرَادُ بِالْإِضَاعَةِ: تَرْكُ الْإِثَابَةِ. ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: (مِنْ) بَيَانِيَّةٌ وَمُؤَكِّدَةٌ لِمَا تَقْتَضِيهِ التَّكْرَرُ الْوَاقِعَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ مِنَ الْعُمُومِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: الْإِسْتِجَابَةُ: الْإِجَابَةُ. وَنُقِلَ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّ الْإِجَابَةَ تُطْلَقُ عَلَى الْجَوَابِ وَلَوْ بِالرَّدِّ، وَالْإِسْتِجَابَةُ الْجَوَابُ بِحُصُولِ الْمُرَادِ؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ (السَّيْنِ) تَدُلُّ عَلَيْهِ؛ إِذْ هُوَ لَطَلَبُ الْجَوَابِ، وَالْمَطْلُوبُ مَا يُوَافِقُ الْمُرَادَ لَا مَا يُخَالِفُهُ، وَتَتَعَدَّى بِ(اللَّامِ) وَهُوَ الشَّائِعُ، وَقَدْ تَتَعَدَّى بِنَفْسِهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ: (وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُحِيبٌ). وَهَذَا كَمَا قَالَ الشَّهَابُ وَغَيْرُهُ: فِي التَّعْدِيَةِ إِلَى الدَّاعِي، وَأَمَّا إِلَى الدُّعَاءِ فَشَائِعٌ بِدُونِ (اللَّامِ)، مِثْلُ: اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ؛ وَهَذَا قِيلَ: إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ لَمْ يَسْتَجِبْ دُعَاءَهُ، وَ(الْفَاءُ) لِلْعُطْفِ،

وما بَعْدَهُ مَعْطُوفٌ إِمَّا عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَقْدَّرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، وَلَا ضَيَّرَ فِي اخْتِلَافِهِمَا صِيغَةً؛ لِمَا أَنَّ صِيغَةَ الْمُسْتَقْبَلِ هُنَاكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ الْمُنَاسِبِ لِمَقَامِ الدُّعَاءِ، وَصِيغَةُ الْمَاضِي هُنَا لِلإِيدَانِ بِتَحْقِيقِ الْإِسْتِجَابَةِ وَتَقَرُّرِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى مُقَدَّرٍ يَنْسَاقُ إِلَيْهِ الدَّهْنُ أَيْ دَعَا بِهَذِهِ الْأَدْعِيَةِ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ إِيحَ. وَإِنْ قُدِّرَ ذَلِكَ الْقَوْلُ الْمَقْدَّرُ حَالًا فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ بِاعْتِبَارِ مُقَارَنَتِهِ لِمَا وَقَعَ حَالًا مِنْ فَاعِلِهِ أَعْنِي قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رَبَّنَا..﴾ إِيحَ، فَإِنَّ الْإِسْتِجَابَةَ مُتَرَتِّبَةً عَلَى دَعَوَاتِهِمْ لَا عَلَى مُجَرَّدِ تَفَكُّرِهِمْ، وَحَيْثُ كَانَتْ مِنْ أَوْصَافِهِمْ الْجَمِيلَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِالْآخِرَةِ اسْتَحَقَّتِ الْإِنْتِظَامَ فِي سِلْكِ مُحَاسِنِهِمْ الْمَعْدُودَةِ فِي أَثْنَاءِ مَدْحِهِمْ. ﴿أَيُّ لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾: أَيُّ بِأَيِّ، عَلَى أَنَّ (الْبَاءَ) لِلْسَّبَبِيَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٌ مِنْهُمْ، أَيْ سُنَّتُهُ السُّبِّيَّةُ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَجُعِلَ التَّكْلُمُ فِي (أَيُّ) وَالْخِطَابُ فِي (مِنْكُمْ) مِنْ بَابِ الْإِلْتِفَاتِ، وَالنُّكْتَةُ الْخَاصَّةُ فِيهِ: إِظْهَارُ كَمَالِ الْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِ الْإِسْتِجَابَةِ، وَتَشْرِيفُ الدَّاعِينَ بِشَرَفِ الْخِطَابِ، وَالتَّعَرُّضُ لِبَيَانِ السَّبَبِ؛ لِتَأْكِيدِ الْإِسْتِجَابَةِ، وَالْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَدَارَهَا أَعْمَالُهُمُ الَّتِي قَدَّمُوهَا عَلَى الدُّعَاءِ لَا مُجَرَّدَ الدُّعَاءِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: إِنَّهَا صِلَةٌ لِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالًا إِمَّا مِنْ فَاعِلٍ (اسْتَجَابَ)، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْزُورِ فِي (هُمْ)، وَالتَّقْدِيرُ: مُحَاطَبًا لَهُمْ بِأَيِّ، أَوْ مُحَاطَبِينَ بِأَيِّ إِيحَ. وَقِيلَ: إِنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِاسْتِجَابٍ؛ لِأَنَّ فِيهَا مَعْنَى الْقَوْلِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَ(مِنْ): إِمَّا ابْتِدَائِيَّةٌ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ مِنْ أَصْلٍ بَعْضٍ، أَوْ بِدُونِهِ؛ لِأَنَّ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى وَالْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ، وَإِمَّا اتِّصَالِيَّةٌ، وَالْإِتِّصَالُ إِمَّا بِحَسَبِ اتِّحَادِ الْأَصْلِ، أَوْ الْمُرَادُ بِهِ الْإِتِّصَالُ فِي الْإِخْتِلَاطِ أَوْ التَّعَاوُنِ، أَوْ الْإِتِّحَادُ فِي الدِّينِ حَتَّى كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْآخَرِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ. وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُعْزِضَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِسَبَبِ انْتِظَامِ النَّسَاءِ فِي سِلْكِ الدُّخُولِ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْوَعْدِ، وَجُوزَ أَنْ تَكُونَ حَالًا أَوْ صِفَةً. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ

رَبُّهُمْ أَيُّ: ﴿لَا أَضِيعُ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى﴾: بَيَانٌ لِ(عَامِلٍ)،
وَتَأْكِيدٌ لِعُمُومِهِ. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أَيُّ الذَّكَرِ مِنَ الْأُنْثَى وَالْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ، كُلُّكُمْ
بَنُو آدَمَ. وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ مُبَيِّنَةٌ سَبَبَ شَرِكَةِ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ، فِيمَا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ
الْعَامِلِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾: دَلَّتِ (الفَاءُ) عَلَى سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ بِحُصُولِ
الْمَطْلُوبِ، وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ مُنَاجَاةَ الْعَبْدِ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الدُّعَاءِ قَابِلٌ لِلْإِجَابَةِ.
وَاسْتَجَابَ: بِمَعْنَى أَجَابَ عِنْدَ جُمُهورِ أئِمَّةِ اللُّغَةِ، فَ(السَّيْنُ، وَالتَّاءُ) لِلتَّأْكِيدِ، مِثْلُ: اسْتَوْفَدَ
وَاسْتَحْلَصَ. وَعَنِ الْفَرَّاءِ، وَعَلِيِّ بْنِ عِيسَى الرَّبْعِيِّ: أَنَّ اسْتَجَابَ أَخْصُ مِنْ أَجَابَ؛ لِأَنَّ
اسْتَجَابَ يُقَالُ لِمَنْ قَبِلَ مَا دُعِيَ إِلَيْهِ، وَأَجَابَ أَعْمُ، فَيُقَالُ لِمَنْ أَجَابَ بِالْقَبُولِ وَبِالرَّدِّ.
وَقَالَ الرَّاعِبُ: الْاسْتِجَابَةُ: هِيَ التَّحَرِّيُّ لِلْجَوَابِ وَالتَّهَيُّؤُ لَهُ، لَكِنْ عَبَّرَ بِهِ عَنِ الْإِجَابَةِ
لِقِلَّةِ انْفِكَاحِهَا مِنْهَا. وَيُقَالُ: اسْتَجَابَ لَهُ وَاسْتَجَابَهُ، فَعَدِّي فِي الْآيَةِ بِ(اللامِ)، كَمَا قَالُوا:
(حَمَدَ لَهُ وَشَكَرَ لَهُ)، وَيُعَدَّى بِنَفْسِهِ أَيْضًا مِثْلُهُمَا. وَتَعْبِيرُهُمْ فِي دُعَائِهِمْ بِوَصْفِ رَبِّنا دُونَ
اسْمِ الْجَلَالَةِ؛ لِمَا فِي وَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الشَّقَقَةِ بِالْمَرْئُوبِ، وَحُبَّةِ الْخَيْرِ لَهُ،
وَمِنْ الْإِعْتِرَافِ بِأَتَمِّ عِبَادَتِهِ؛ وَلِتَتَأْتِيَ الْإِضَافَةُ الْمُفِيدَةُ التَّشْرِيفَ وَالْقُرْبَ؛ وَلِرَدِّ حُسْنِ
دُعَائِهِمْ بِمِثْلِهِ بِقَوْلِهِمْ: (رَبَّنَا، رَبَّنَا). وَمَعْنَى نَفْيِ إِضَاعَةِ عَمَلِهِمْ: نَفْيُ الْإِغَاءِ الْجَزَاءِ عَنْهُ، جَعْلُهُ
كَالضَّائِعِ غَيْرِ الْحَاصِلِ فِي يَدِ صَاحِبِهِ. فَنَفْيُ إِضَاعَةِ الْعَمَلِ: وَعَدُّ بِالْإِعْتِدَادِ بِعَمَلِهِمْ
وَحُسْبَانِهِ لَهُمْ، فَقَدْ تَضَمَّنَتْ الْاسْتِجَابَةُ تَحْقِيقَ عَدَمِ إِضَاعَةِ الْعَمَلِ؛ تَطْمِينًا لِقُلُوبِهِمْ مِنْ
وَجَلِّ عَدَمِ الْقَبُولِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَاتَّنا مَا وَعَدْتنا عَلَى
رُسُلِكَ﴾: تَحْقِيقَ قَبُولِ أَعْمَالِهِمْ وَالْإِسْتِعَادَةَ مِنَ الْحَبْطِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى﴾ بَيَانٌ
لِعَامِلٍ وَوَجْهُ الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا الْبَيَانِ هُنَا أَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي اتَّنا بِهَا أَكْبَرُهَا الْإِيمَانُ، ثُمَّ
الهِجْرَةُ، ثُمَّ الْجِهَادُ؛ وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ أَكْثَرَ تَكَرُّراً خِيفَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ النِّسَاءَ لَا حَظَّ لَهُنَّ
فِي تَحْقِيقِ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَدَفَعَ هَذَا بِأَنَّ لِلنِّسَاءِ حَظَّهُنَّ فِي ذَلِكَ
فَهُنَّ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ يُسَاوِينَ الرِّجَالَ، وَهُنَّ هُنَّ حَظُّهُنَّ فِي ثَوَابِ الْجِهَادِ؛ لِأَنَّهُنَّ يَقْمُنَ

على المرضى ويُداوِينِ الكَلَمَى، وَيَسْقِينِ الْجَيْشَ، وَذَلِكَ عَمَلٌ عَظِيمٌ بِهِ اسْتِبْقَاءُ نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ لَا يُقْصَرُ عَنِ الْقِتَالِ الَّذِي بِهِ إِنْثَافُ نُفُوسِ عَدُوِّ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: (مِنْ) فِيهِ اتِّصَالِيَّةٌ، أَيْ بَعْضُ الْمُسْتَجَابِ لَهُمْ مُتَّصِلٌ بِبَعْضٍ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ بِمَعْنَى: أَنَّ شَأْنَهُمْ وَاحِدٌ وَأَمْرُهُمْ سَوَاءٌ. قَالَ تَعَالَى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٦٧] إلخ. وَقَوْلُهُمْ: (هُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ). وَقَدْ حَمَلَهَا جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ نِسَاءَكُمْ وَرِجَالَكُمْ يَجْمَعُهُمْ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَعَلَى هَذَا فَمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ التَّغْلِيلِ لِلتَّعْظِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ﴾، أَيْ لِأَنَّ شَأْنَكُمْ وَاحِدٌ. وَكُلُّ قَائِمٍ بِمَا لَوْ لَمْ يَقُمْ بِهِ لَضَاعَتْ مَصْلَحَتُهُ الْآخَرُ، فَلَا جَزَمَ أَنَّ كَانُوا سَوَاءً فِي تَحْقِيقِ وَعْدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَعْمَالُهُمْ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]. وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي: أَنَّ لَيْسَ هَذَا تَغْلِيلًا لِمَضْمُونِ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ﴾، بَلْ هُوَ بَيَانٌ لِلتَّسَاوِي فِي الْأَخْبَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِضَمَائِرِ الْمُخَاطَبِينَ، أَيْ أَنْتُمْ فِي عِنَايَتِي بِأَعْمَالِكُمْ سَوَاءً، وَهُوَ قَضَاءٌ لِحَقِّ مَا لَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَتَسَاوِينَ فِيهَا؛ لِيَكُونَ تَمْهِيدًا لِسَاطِ تَمْيِيزِ الْمُهَاجِرِينَ بِفَضْلِ الْهِجْرَةِ الْآتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، الْآيَاتِ. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾: استجاب: بِمَعْنَى أَجَابَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وَقَالَ: ﴿رَبُّهُمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (اللَّهُ)؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا﴾، فَالْمَوْقِعُ هُنَا يَقْتَضِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَهِيَ هُنَا رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ؛ لِأَنَّ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ، وَقَدْ اجْتَمَعَ الْقَسَمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) ﴿[الأعراف]. وَمَقْتَضَى الرُّبُوبِيَّةَ الْعَامَّةَ: مُطْلَقَ التَّصَرُّفِ، وَمَقْتَضَى الرُّبُوبِيَّةَ الْخَاصَّةَ: النُّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ وَاللُّطْفَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي عِنَايَةً خَاصَّةً. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أُضِيعُ﴾: هَذَا بَيَانُ الْمُسْتَجَابِ. فَمَا الَّذِي اسْتَجَابَ لَهُمْ؟ قَالَ: ﴿أَيْ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: ﴿لَا

أُضِيعُ: يعني لا أهدره بل أحسبه. وقوله: ﴿عَمَلٌ عَامِلٌ﴾: ﴿عَمَلٌ﴾ هنا مضاف، فيقتضي العموم، أي عمل قلّ أو كثير، فإنّ الله لا يضيّعه، وهذا كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، وكقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقوله: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾: هذه بيان لـ ﴿عَامِلٌ﴾، (من) هنا بيانيّة، بيان للعامل، يعني سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، ثم قال: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: يعني في الدعاء واستجابته، أمّا في المناصرة فقد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، لكن في باب العمل والاستجابة له والثواب بعضهم من بعض فرق بين الذكر والأنثى.

﴿قَالِذِينَ هَاجَرُوا﴾: قال السمرقندي: أي من مكّة إلى المدينة. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: يعني أنّ أهل مكّة أخرجوا مؤمنهم من مكّة. ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أي عُذِّبُوا في طاعتي. ﴿وَقَاتَلُوا﴾: أي مع رسول الله ﷺ المشركين. ﴿وَقُتِلُوا﴾: أي قتلهم المشركون. ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي لأحسون عنهم ذنوبهم. ﴿وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار. ﴿ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: يعني أنّ الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله. وقال الزجاج: إنما صار نصباً؛ لأنه مصدر مؤكّد، معناه: لأدخلنهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، ولأثيبنهم ثواباً. وروي عن الفراء أنه قال: إنما صار نصباً على التفسير. قال مكّي: ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي لأحسون عنهم، ولأسترها عليهم. ﴿ثَوَاباً﴾: مصدر؛ لأنه كما قال: ﴿وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقال البغوي: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أي في طاعتي وديني، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكّة. ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾: يُريد أنّهم قاتلوا العدو، ثم أنّهم قُتلوا. وقال ابن عطية: (اللام) في قوله: ﴿لَا كُفِّرَنَّ﴾ لامُ القسم. و﴿ثَوَاباً﴾ مصدر مؤكّد، مثلُ قوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. وقال القرطبي: ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي

لَأَسْتُرَنَهَا عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا أُوَيِّجُهُمْ بِهَا وَلَا أَعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا. ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ عِنْدَ الْبَصَرَيْنِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى ﴿لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: لَا يُبَيِّنُهُمْ ثَوَابًا. قَالَ الْكِسَائِيُّ: انْتَصَبَ عَلَى الْقَطْعِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: عَلَى التَّفْسِيرِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ، ذَكَرَ مَنْ عَمِلَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا أَنْ لَا يَضِيْعَ عَمَلُهُ، وَأَنْ لَا يُتْرَكَ جَزَاؤُهُ، فَذَكَرَ أَوَّلًا الْهَجْرَةَ، وَهِيَ الْخُرُوجُ مِنَ الْوَطَنِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ إِقَامَتَهُ دِينَهُ فِيهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُمَكِّنُ ذَلِكَ فِيهِ، وَهَذَا مِنْ أَصْعَبِ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ إِذْ هُوَ مُفَارَقَةُ الْمَكَانِ الَّذِي رَبَا فِيهِ وَنَشَأَ مَعَ أَهْلِهِ وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَ الْإِخْرَاجَ مِنَ الدِّيَارِ: وَهُوَ أَهْمُ أُلْجِئُوا وَاضْطُرُّوا إِلَى ذَلِكَ، وَفِيهِ إِلْزَامُ الذَّنْبِ لِلْكَفَّارِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ إِنَّمَا أَخْرَجَهُمْ سُوءُ عَشْرَةِ الْكُفَّارِ وَقَبِيحُ أَفْعَالِهِمْ مَعَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. ثُمَّ ذَكَرَ الْإِذَايَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى: فِي دِينِ اللَّهِ. وَبَدَأَ أَوَّلًا بِالْخَاصِّ وَهِيَ الْهَجْرَةُ، وَكَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَحَى بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهُوَ الْإِخْرَاجُ مِنَ الدِّيَارِ. فَقَدْ يَخْرُجُ إِلَى الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَوْ إِلَى غَيْرِهَا كَخُرُوجِ مَنْ خَرَجَ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَكَخُرُوجِ أَبِي جَنْدَلٍ إِذْ لَمْ يُتْرَكَ يُقِيمُ بِالْمَدِينَةِ. وَآتَى ثَالِثًا بِذِكْرِ الْإِذَايَةِ وَهِيَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِإِخْرَاجٍ مِنَ الدِّيَارِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَارْتَقَى بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ السَّيِّئَةِ إِلَى رُتْبَةِ جِهَادٍ مَنْ أَخْرَجَهُ وَمُقَاوَمَتِهِ وَاسْتِشْهَادِهِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَجَمَعَ بَيْنَ رُتَبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ مِنْ تَنْقِصِ أَحْوَالِهِ فِي الْحَيَاةِ لِأَجْلِ دِينِ اللَّهِ بِالْمُهَاجَرَةِ، وَإِخْرَاجِهِ مِنْ دَارِهِ وَإِذَايَتِهِ فِي اللَّهِ، وَمَالِهِ أَخِيرًا إِلَى إِفْنَائِهِ بِالْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَالظَّاهِرُ: الْإِخْبَارُ عَنْ مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا بِالْخَبَرِ الَّذِي بَعْدُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ عَطْفِ الصَّلَاتِ. وَالْمَعْنَى: اخْتِلَافُ الْمَوْصُولِ لَا اتِّحَادُهُ، فَكَانَتْهُ قِيلَ: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا، وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا وَالَّذِينَ أُوْذُوا، وَالَّذِينَ قَاتَلُوا، وَالَّذِينَ قُتِلُوا، وَيَكُونُ الْخَبَرُ عَنْ كُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: أَيَّ تَرَكُوا دَارَ الشِّرْكِ وَأَتُوا

إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْأَحْلَانَ وَالْإِخْوَانَ وَالْجِيرَانَ. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: أَيُّ ضَائِقِهِمُ الْمُشْرِكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى الْجَوُّهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أَيُّ إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الْمُمْتَحِنَةِ: ١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [الْبُرُوجِ: ٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾: هَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُعْقَرِ جَوَادَهُ، وَيَعْقَرِ وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ. ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أَيُّ تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ، مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطِي إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ ضَرْبُ تَفْصِيلٍ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْعَمَلِ، وَتَعْدَادُ لِبَعْضِ أَحْسَنِ أَفْرَادِهِ مَعَ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ. وَأَصْلُ الْمُهَاجِرَةِ مِنَ الْمُهَاجَرَةِ وَهُوَ التَّرُكُّ، وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْمُهَاجَرَةِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ أَيْ تَرَكَ الْأَوَّلَى لِلثَّانِيَةِ مُطْلَقًا، أَوْ لِلَّذِينَ عَلَى مَا هُوَ الشَّائِعُ فِي اسْتِعْمَالِ الشَّرْعِ، وَالْمُتَبَادُرُ فِي الْآيَةِ هُوَ هَذَا الْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ عَطْفٌ تَفْسِيرٌ مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُهَاجَرَةَ كَانَتْ عَنْ قَسْرٍ وَاضْطِرَارٍ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ آذَوْهُمْ وَظَلَمُوهُمْ حَتَّى اضْطَرُّوا إِلَى الْخُرُوجِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ هَاجَرُوا الشِّرْكَ وَتَرَكُوهُ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ ﴿وَأُخْرِجُوا﴾ إِخْلَاقًا تَأْسِيسًا. ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أَيُّ بِسَبَبِ طَاعَتِي وَعِبَادَتِي وَدِينِي وَذَلِكَ سَبِيلُ اللَّهِ. ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ وَاللَّهِ لَا كُفْرَ. ﴿وَلَا دُخْلَ لَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى مَا عَبَّرَ عَنْهُ الدَّاعُونَ فِيمَا قَبْلُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، أَوْ رَمَزَ إِلَى مَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ. ﴿ثَوَابًا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ لَا تُبَيِّنُهُمْ

بِذَلِكَ، فَوَضَعَ ثَوَابًا مَوْضِعَ الْإِثَابَةِ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَصْلِ اسْمًا لِمَا يُثَابُ بِهِ كَالْعَطَاءِ لِمَا يُعْطَى. وَقِيلَ: إِنَّهُ تَمَيِّزٌ أَوْ حَالٌ مِنْ جَنَاتٍ لِيُوصَفَهَا، أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْمُفْعُولِ أَيْ مُثَابًا بِهَا أَوْ مُثَابِينَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ بَدَلٌ مِنْ جَنَاتٍ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْقَطْعِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ صِفَةٌ لِثَوَابٍ، وَهُوَ وَصْفٌ مُؤَكَّدٌ؛ لِأَنَّ الثَّوَابَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى، لَكِنَّهُ صَرَّحَ بِهِ؛ تَعْظِيمًا لِلثَّوَابِ وَتَفْخِيمًا لِسَانِهِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: مُبْتَدَأٌ، وَهُوَ تَفْصِيلٌ لِعَمَلِ الْعَامِلِ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّفْخِيمِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَالَّذِينَ عَمِلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالَ السُّنِّيَّةَ وَهِيَ الْمَهَاجِرَةُ عَنْ أَوْطَانِهِمْ فَارِينَ إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ مِنْ دَارِ الْفِتْنَةِ. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: أَيْ الَّتِي وُلِدُوا فِيهَا وَنَشَأُوا. ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أَيْ مِنْ أَجْلِهِ وَبِسَبَبِهِ، يُرِيدُ سَبِيلَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ مُتَنَاوِلٌ لِكُلِّ أَدَى نَاهَمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾: أَيْ غَزَوْا الْمُشْرِكِينَ وَاسْتُشْهِدُوا. ﴿لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: جُمْلَةٌ قَسَمِيَّةٌ، خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ الْمُضَوَّلُ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِوَعْدِ مَا سَأَلَهُ الدَّاعُونَ بِخُصُوصِهِ، بَعْدَ مَا وَعَدَ ذَلِكَ عُمُومًا. ﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أَيْ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا الْأَنْهَارُ، مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَكَّدِ لِمَا قَبْلَهُ، فَإِنَّ تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ وَإِدْخَالَ الْجَنَّةِ، فِي مَعْنَى الْإِثَابَةِ. وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ تَعَالَى؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا. كَمَا قِيلَ: (إِنْ يُعَاقَبَ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطَ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي). قَالَ ابْنُ عَاشُورَ: وَقَوْلُهُ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تَفْرِيعٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ وَهُوَ مِنْ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ؛ لِلإِهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْخَاصِّ، وَاشْتِمَالِ عَلَى بَيَانِ مَا تَفَاضَلُوا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ، وَهُوَ الْمِهْجَرَةُ الَّتِي فَازَ بِهَا الْمُهَاجِرُونَ. وَالْمَهَاجِرَةُ: هِيَ تَرْكُ الْمَوْطِنِ بِقَصْدِ اسْتِيطَانِ غَيْرِهِ، وَالْمِفَاعَلَةُ فِيهَا لِلتَّقْوِيَةِ، كَأَنَّهُ هَجَرَ قَوْمَهُ وَهَجَرُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجْرِصُوا عَلَى بَقَائِهِ، وَهَذَا أَصْلُ الْمَهَاجِرَةِ أَنْ تَكُونَ لِمُنَافَرَةٍ وَنَحْوِهَا، وَهِيَ تَصَدَّقُ بِهَجَرَةِ الَّذِينَ هَاجَرُوا

إلى بلاد الحبشة وبهجرة الذين هاجروا إلى المدينة. وعُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ على قوله: ﴿هاجروا﴾؛ لِتَحْقِيقِ مَعْنَى الْمِفَاعَلَةِ فِي هَاجَرَ، أَيُّ هَاجَرُوا مُهَاجِرَةً لَزَهُمْ إِلَيْهَا قَوْمُهُمْ، سَوَاءٌ كَانَ الْإِخْرَاجُ بِصَرِيحِ الْقَوْلِ أَمْ بِالْإِلْجَاءِ، مِنْ جِهَةِ سُوءِ الْمَعَامَلَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: أَيُّ أَصَابَهُمُ الْأَذَى، وَهُوَ مَكْرُوهٌ قَلِيلٌ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَفُهُمَ مِنْهُ: أَنَّ مَنْ أَصَابَهُمُ الضَّرُّ أَوَّلَى بِالثَّوَابِ وَأَوْفَى. وَهَذِهِ حَالَةٌ تَصَدَّقُ بِالَّذِينَ أُودُوا قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَبَعْدَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا وَقْتِلُوا﴾: جَمَعَ بَيْنَهُمَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْقِسْمَيْنِ ثَوَابًا. وَهَذِهِ حَالَةٌ تَصَدَّقُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فَاسْتَشْهَدُوا أَوْ بَقُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مُؤَكَّدٌ بِ(لَا) الْقَسَمِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقْتِلُوا﴾: هَذِهِ خَمْسَةُ أَوْصَافٍ: ﴿هاجروا﴾: يَعْنِي هَجَرُوا بِلَادَهُمْ وَخَرَجُوا مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: إِمَّا مُبَاشَرَةً بِأَنْ طَرَدُوا مِنَ الْبِلَادِ، أَوْ بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا؛ لِأَنَّ الْإِخْرَاجَ مِنَ الْبِلَادِ، وَالْأَوَّلُ أَشَدُّ؛ لِأَنَّ الثَّانِي يُمْكِنُهُ أَنْ يَصْبِرَ وَيَتَحَمَّلَ وَلَا يَخْرُجَ، يَخْتَفِي أحيانًا وَيَهْرَبُ أحيانًا، وَيَبْقَى فِي بَلَدِهِ، لَكِنِ الطَّرْدُ بِأَنْ يُمْسِكَ وَيُطْرَدَ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: يَعْنِي مِنْ دِيَارِهِمُ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا سَوَاءٌ بِأَجْرَةٍ أَوْ بِغَيْرِ أَجْرَةٍ، فَإِنَّ الدَّارَ الْمُسْتَأْجَرَةَ مِثْلًا تَسْمَى دَارَ الْإِنْسَانِ. ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: مَعَ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا حَصْلَ لَهُمْ أَذِيَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَيُّ فِي دِينِ اللَّهِ، "كَمَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ حِينَ كَانَ سَاجِدًا تَحْتَ الْكَعْبَةِ، فَذَهَبَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَتَوْا بِسِلَاحِ الْجَزُورِ وَوَضَعُوهُ عَلَى ظَهْرِهِ" رَوَاهُ مُسْلِمٌ، هَذَا إِيْذَاءٌ وَلَمْ يَضُرَّهُ وَلَكِنَّهُ أَذِيَّةٌ لَهُ، وَفَعَلَ أَيْضًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْأَذَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِالسَّيْرِ. ﴿وَقَاتِلُوا وَقْتِلُوا﴾: ﴿قَاتِلُوا﴾: يَعْنِي الْجِهَادَ، هُمْ قَاتِلُوا الْكُفَّارَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿قَاتِلُوا﴾: فَهَذَا يَعْنِي الِاسْتِشْهَادَ، قَتْلَهُمُ الْكُفَّارَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ﴾: الْجُمْلَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، وَلَكِنَّهَا جُمْلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ: (اللام، والقسم، ونون التوكيد). ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أَيُّ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ

من هذه الأشياء من هجرة، وإخراج من ديار، والإيذاء في سبيل الله، والمقاتلة في سبيل الله والقتل. ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: الفرق بين مغفرة الذنوب وتكفير السيئات عند الجمع بينهما: أنَّ المغفرة في الكبائر، والتكفير في الصغائر، تكفرها الأعمال الصالحة، وتكفرها المصائب. ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي صغائر ذنوبهم، ويجوز أن يراد بالسيئات هنا ما هو أعم؛ لأنها لم تقرر بالذنوب حتى نقول: كل واحدة لها معنى، وهذا له نظائر كثيرة؛ تجد بعض الكلمات يكون لها معنى وحدها ولها معنى إذا اقترنت بغيرها. ﴿وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ﴾: الجملة أيضاً فيها تأكيد بـ(اللام، والقسم، والنون)، وهي معطوفة على قوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾، فمحلها الرفع على أنها خبر المبتدأ كالأولى. ﴿وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ﴿جَنَّاتٍ﴾ بالجمع، وأحياناً يقال: بالإنفراد، فإذا كانت بالإنفراد فالمراد بها: مطلق الجنس. وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها: أنواع الجنات، وفي القرآن في سورة الرحمن أنَّ أنواع الجنات أربع، وربما يكون هناك أنواع أخرى لا نعلم بها. المهم أنَّ الجمع باعتبار الأنواع، والإنفراد باعتبار الجنس. فما هذه الجنات؟ أصل الجنة: البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجنَّ مَنْ فيه، أي يستره، والمادة هذه "ج، ن" كلها دالة على الستر والخفاء، ومنه الجنة للمقاتل يأخذها يستتر بها عن السهام، ومنها الجنان يعني القلب؛ لاختفائه، ومنه الجنة، أي الجن؛ لاستتارهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: الجريان معروف، والأنهار جمع نهر، وجمعت؛ لأنها أربعة أنواع مذكورة في سورة محمد: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى (١٥)﴾، وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، ولا تحتاج إلى حفر ولا إلى إقامة جدر. وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي من تحت الأشجار الساترة والقصور، فهي أنهار مطردة، لكنها لا تؤذي؛ لأنها تنقاد لأمر مالِكها، إذا أمر هذا النهر أن ينصرف يمينا أو شمالاً فعل بأمر الله، وإذا أمره أن يقف وقف. وقوله: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: في نصب ﴿ثَوَابًا﴾ ثلاثة أوجه: الأول: أنه نصب على

المصدرية، فيكون مصدرًا مؤكّدًا لعامل محذوف؛ لأن معنى الجملة قبله يقتضيه، والتقدير: (لأثبتهم إثابة أو تثويًا)، فوضع ثوابًا موضع أحد هذين المصدرين؛ لأن الثواب في الأصل اسم لما يثاب به، كالعطاء اسم لما يعطى، ثم قد يقعان في موقع مصدر، وهو نظير قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾، و﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ في كونهما مؤكّدين. الثاني: أن يكون منصوبًا على الحال من جنّات، أي مثابًا بها، وجاز ذلك وإن كانت نكرة؛ لتخصصها بصفة. الثالث: أنه حال من الضمير المفعول به، أي حال كونه مثابًا، يعني مع الحال أو مصدر، لكنّه مصدر غريب، يكون العامل فيه (لأكفرنّ، ولأدخلنّ) على اعتبار أنّ التكفير والإدخال ثواب، وفي النفس من هذا شيء، فالظاهر أنه مصدر لعامل محذوف. وقوله: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: الثواب يطلق على العطاء الذي يعطاه الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤْتَوْنَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦]، أي هل أعطي؟ ويطلق على الإثابة التي هي فعل المثيب. والأصل الأوّل، أنّ الثواب اسم لما يثاب به، كالعطاء اسم لما يعطى، وقد يراد به الإثابة. وقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: العندية هنا تقتضي تعظيم هذا الثواب؛ لأن الثواب من العظيم يكون عظيمًا، كقول النبي ﷺ في الدعاء الذي علمه أبا بكر: "اغفر لي مغفرة من عندك وارحمي" رواه الشيخان.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: قال السمرقندي: أي حسن الجزاء وهو الجنة. ويقال: حسن المرجع في الآخرة خير من الدنيا. وقال القرطبي: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: أي حُسْنُ الْجَزَاءِ، وَهُوَ مَا يَرْجِعُ عَلَى الْعَامِلِ مِنْ جَزَاءٍ عَمَلِهِ، مِنْ ثَابٍ يَثُوبُ. وقال ابن كثير: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: أي عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا. وقال الألوسي: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: الجملة هذه مؤكّدة لما سبق، أي أنّ الله يثيبهم الثواب الحسن؛ لأن هذا هو الذي عند الله؛ ولهذا يجازي المحسن بحسنه عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

• قال الله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَّاكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾:

• أسباب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: اختلفوا فيمن نزلت على قولين.

القول الأول: أنها نزلت في اليهود، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: «أن النبي ﷺ، أراد أن يستسلف من بعضهم شعيراً، فأبى إلا على رهن، فقال النبي ﷺ: "لو أعطاني لأوفيتُهُ، إني لأمين في السماء أمين في الأرض" فنزلت»، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

القول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب كانوا في رخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا الجهد، وأعداء الله فيما ترون، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل.

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: أعلم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في نهاية الفقر والشدّة، والكفار كانوا في النعم، ذكر الله في هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدّة، فقال: ﴿لَا يَغْرَنَّاكَ...﴾.

• تفسير الآية:

﴿لَا يَغْرَنَّاكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: قال السمرقندي: أي لا يحزنك يا محمد ذهاب الكفار ومجيئهم في تجارتهم ومكاسبهم في الأرض. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين، ومعناه: لا يغرنكم تجارات الكفار وتصرفهم في أموالهم في البلاد؛ لأن الكفار كانوا في رخاء وعيش، وكانت لهم رحلة الشتاء والصيف، وكان المؤمنون في ضيق وشدّة. وقال ابن الجوزي: ﴿لَا يَغْرَنَّاكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: قال قتادة: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره. وقال غيره: إنما خاطبه تأديباً، وتحذيراً، وإن كان لا يعتز. وفي معنى "تقلبهم" ثلاثه أقوال: أحدها: تصرفهم في التجارات، قاله ابن عباس، والفرأ، وابن قتيبة، والرجاج. الثاني: تقلب ليلهم ونهارهم، وما يجري عليهم من النعم، قاله عكرمة، ومقاتل.

الثالث: تَقْلُبُهُمْ غَيْرَ مَا حُودِّينَ بِذُنُوبِهِمْ، ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ. وقال القرطبي: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: قِيلَ: الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ الْأُمَّةُ. وَقِيلَ: لِلْجَمِيعِ. أَيْ لَا يَغُرَّتْكُمْ سَلَامَتُهُمْ بِتَقْلُبِهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ. وقال الثعالبي: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: نُزِلَتْ: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْزِلَةً: (لَا تَظُنَّ) أَنَّ حَالِ الْكُفَّارِ حَسَنَةٌ. وَالخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ. وَالتَقْلُبُ: التَّصَرُّفُ فِي التَّجَارَاتِ، وَالْأَرْبَاحِ، وَالْحُرُوبِ، وَسَائِرِ الْأُمُورِ. وقال الشوكاني: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: هَذَا خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالْمُرَادُ تَثْبِيئُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦]، وَخِطَابٌ لِكُلِّ أَحَدٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِقُبْحِ حَالِ الْكُفَّارِ بَعْدَ ذِكْرِ حُسْنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَعْنَى: لَا يَغُرَّتْكَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ تَقْلُبِهِمْ فِي الْبِلَادِ بِالْأَسْفَارِ لِلتَّجَارَةِ الَّتِي يَتَوَسَّعُونَ بِهَا فِي مَعَاشِهِمْ. وقال العثيمين: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: الْخِطَابُ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى خِطَابَهُ. وَالْقَاعِدَةُ فِي التَّفْسِيرِ: (أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ لَكِنْ لَا يَتَنَاقِضَانِ حَمَلَتْ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا، وَإِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ أَحَدَهُمَا أَعَمَّ حَمَلَتْ عَلَى الْأَعْمِ؛ لِأَنَّ الْأَخْصَّ يَدْخُلُ فِي الْأَعَمِّ وَلَا عَكْسَ)، فَهُنَا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْخِطَابَ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ أَخْرَجْنَا عَنْهُ بَقِيَّةَ الْأُمَّةِ، وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْخِطَابَ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى خِطَابَهُ صَارَ شَامِلًا لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِغَيْرِهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْخِطَابُ هُنَا عَامًّا، يَعْنِي لَا يَغُرَّتْكَ أَيُّهَا الرَّائِي الَّذِي تَرَى تَقْلُبَ الْكُفَّارِ فِي الْبِلَادِ، لَا يَغُرَّتْكَ هَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: التَقْلُبُ يَعْنِي التَّرَدُّدَ، أَيْ تَرَدَّدَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَتَقْلِبَهُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرَ، وَتَقْلِبَهُمْ فِي التَّجَارَاتِ وَفِي أَنْوَاعِ الصَّنَاعَاتِ وَفِي غَيْرِهَا مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَهَذَا لَا يَغُرُّكَ، وَوَجْهُ الْغُرُورِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُ: هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَغْتَرَّ بِهَذَا الَّذِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ، فَيَصْنَعُ مِثْلَ صَنِيعِهِمْ، أَوْ يَظُنُّ أَنَّ إِعْطَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ هَذَا الشَّيْءَ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْكُرُ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْكَرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ مِنَ التَقْلُبِ فِي الْبِلَادِ. وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ وَجْهُ

الغرور من وجهين: الوجه الأول: ظنَّ أنَّ ما هم عليه حقٌّ؛ لأنه يقول: لو كان باطلاً ما مكَّتهم الله من هذا التقلُّب. الوجه الثاني: أن يفعل مثل فعلهم. والحقيقة أن هذا لا يغر المؤمن؛ لأن الله قال في كتابه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ويقول تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم]، فلا تغترّ، هذا ليس إلا زيادة حسرة فيما عليهم. وقوله: ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: البلاد: جمع، والمفرد بلد، ويجمع البلد أيضاً على بلدان، وكيف التقلُّب في البلاد؟ الجواب: يذهبون من هذا البلد إلى هذا البلد يتنقلون ويحملون تجارتهم في أمن وطمأنينة يتاجرون ويربحون، فيغترّ الإنسان بذلك.

● قال الله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾:

● مناسبة الآية للتي قبلها:

لما حذر الله المسلمين من الاغترار بما أنعم الله به على الكافرين بيّن قلّته بالنسبة لما عند الله من النعيم للمسلمين، وبيّن مصير الكافرين يوم القيامة.

● تفسير الآية:

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: وقال مكّي: أي كسبهم وربحهم متاع قليل، أي متعة يتمتّعون بها قليلاً. وقال القرطبي: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: أي تقلُّبُهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ. وَالْمَتَاعُ: مَا يُعْجَلُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ. وَسَمَاءٌ قَلِيلًا؛ لِأَنَّهُ فَانٍ، وَكُلُّ فَانٍ وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا فَهُوَ قَلِيلٌ. ﴿وَيُبْسَ الْمِهَادُ﴾: أي يَبْسَ مَا مَهَدُوا لِأَنفُسِهِمْ بِكُفْرِهِمْ، وَمَا مَهَدَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّارِ. وقال الألوسي: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: حَبْرٌ مُبْنَدٌ مَخْذُوفٌ، أي هو، يَعْنِي: تَقَلُّبُهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ. وَقُلْتُهُ إِذَا بِاعْتِبَارِ قَصْرِ مُدَّتِهِ، أَوْ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ. وَقِيلَ: إِنَّ وَصْفَ ذَلِكَ الْمَتَاعِ بِالْقِلَّةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مُؤَنَةِ السَّعْيِ وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ فَضْلًا عَمَّا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارِ

التَّوَابِ، وَلَا يَخْفَى بُعْدُهُ. ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ﴾: أي مَصِيرُهُمُ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَقَرُّونَ فِيهِ بَعْدَ انْتِقَالِهِمْ مِنَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَتَقَلَّبُونَ فِيهَا. ﴿جَهَنَّمَ﴾: الَّتِي لَا يُوصَفُ عَذَابُهَا. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: أي بِئْسَ مَا مَهَّدُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَفَرَّشُوا جَهَنَّمَ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى تِلْكَ الدَّارِ بِمَا جَنَّتْهُ أَنْفُسُهُمْ وَكَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: أي هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ؛ لِقِصَرِ مُدَّتِهِ، وَكَوْنِهِ بُلْعَةً فَانِيَةً، وَنِعْمَةً زَائِلَةً، فَلَا قَدَرٌ لَهُ فِي جَنْبِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾: أي مَصِيرُهُمُ الَّذِي إِلَيْهِ يَأْوُونَ. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: أي الْفَرَّاشُ هِيَ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو متاع، أي تَقْلِبُهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ. وَالمَتَاعُ: مَا تَقُومُ بِهِ الْمَتْعَةُ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَتْعَةً نَفْسِيَّةً، أَوْ مَتْعَةً جَسَدِيَّةً، وَكُلَّ مَتْعَةٍ أُضِفَتْ إِلَى الدُّنْيَا أَوْ إِلَى الْكُفَّارِ فَهِيَ مَتْعَةٌ جَسَدِيَّةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٢]، وَالمَتَاعُ: مَا تَحْصُلُ بِهِ الْمَتْعَةُ، وَالمَتْعَةُ نَوْعَانِ: الْأَوَّلَى: مَتْعَةٌ قَلْبِيَّةٌ رُوحِيَّةٌ، وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، يَتَمَتَّعُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَبِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ. الثَّانِيَّةُ: مَتْعَةٌ جَسَدِيَّةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَالبَهَائِمُ، وَهِيَ مَا يَحْصُلُ لِلْجَسَدِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: فَهُوَ قَلِيلٌ فِي زَمْنِهِ، قَلِيلٌ فِي كَمِّيَّتِهِ، قَلِيلٌ فِي كَيْفِيَّتِهِ، قَلِيلٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَالزَّمَنُ قَلِيلٌ مُحْدُودٌ وَهُوَ عَمَرُ الْإِنْسَانِ، ذَلِكَ الْعَمَرُ الْمَجْهُولُ الَّذِي لَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ مَتَى يَنْتَهِي. قَلِيلٌ أَيْضًا فِي الْكَمِّيَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، قَلِيلٌ فِي الْكَيْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْرُمُ التَّمَتُّعُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَمْرٍ تَعْتَرِيهِ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِهَا، قَدْ يَحْرُمُ بِفَقْدِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: يَعْنِي ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمَتَاعِ الْقَلِيلِ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ. وَأَتَى بِ(ثُمَّ) وَإِنْ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى التَّرَاخِي؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ مَهْمَا طَالَتْ بِهِمُ الْمُدَّةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ مَأْلَهُمْ هَذَا الْمَالُ الْحَبِيثُ. وَالمَأْوَى: بِمَعْنَى: مَا يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، فَهُوَ اسْمُ مَكَانٍ، أَيْ الْمَصِيرُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ جَهَنَّمَ. وَجَهَنَّمَ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ. وَسَمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ التَّجَهُّمِ، أَوْ مِنَ الْجُهْمَةِ وَهِيَ السَّوَادُ. وَقِيلَ:

إنه اسم أعجمي وأصله (كهنام)، لكن عُرب إلى جهنم، وهو اسم من أسماء النار فهو غير مشتق، وأياً كان فهو اسم من أسماء النار. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: بئس: فعل من أفعال الذم له فاعل وله مخصص، فالفاعل هو (المهاد)، والمخصص محذوف والتقدير: وبئس المهاد هي، وإنما احتاج النحويون إلى هذا التقدير؛ لأن المهاد غير النار، والذم للنار، فكان لا بد من ذكر مخصص بالذم غير فاعل الفعل، والمخصص بالذم هو الضمير المحذوف، أي وبئس المهاد هي، هذا ما قدره النحاة. والمهاد: ما يكون مهذاً للإنسان، أي مقرّاً له، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا: ٦] أي مقرّاً تستقرون فيه.

• قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد بالنزول.

• تفسير الآية:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: وقال مكّي: أي عملوا بطاعته لهم بساتين. ﴿نُزُلًا﴾: منصوب على التفسير. وقيل: هو في موضع إنزال؛ لأن الكلام يدل على أنزلتموها. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي ما عنده من كرامة والرضوان خير للأبرار. وقال القرطبي: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: استندراكٌ بعد كلامٍ تقدّم فيه معنى التّقي؛ لأنّ معنى ما تقدّم: ليس لهم في تقليبهم في البلاد كبير الانتفاع، لكن المتّقون هم الانتفاع الكبير والخلد الدائم. فموضع (لكن) رفع بالابتداء. ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ﴿نُزُلًا﴾ مثل ﴿ثَوَابًا﴾ عند البصريين. وعند الكسائي يكون مصدراً. وقال الفراء: هو مفسّر. والنزل: ما يهبط للنزول، والنزول الضيف. والجمع: الأنزال. وحظّ نزول: مجتمّع. والنزل أيضاً: الرّبع، يُقال: طعّام النّزل والنّزل. وقال أبو

حَيَّان: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لَمَّا تَضَمَّنَ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ ذَلِكَ التَّقَلُّبَ وَالتَّصَرُّفَ فِي الْبِلَادِ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَأَتَمَّهُمْ يَأْوُونَ بَعْدَ إِلَى جَهَنَّمَ، فَدَلَّ عَلَى قِلَّةِ مَا مُتَّعُوا بِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُنْقَضٌ بِانْقِضَاءِ حَيَاتِهِمْ، وَدَلَّ عَلَى اسْتِقْرَارِهِمْ فِي النَّارِ، اسْتَدْرَكَ بِ(لَكِنَّ) الْإِحْبَارَ عَنِ الْمُتَّقِينَ بِمُقَابِلِ مَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا: مَكَانُ اسْتِقْرَارٍ وَهِيَ الْجَنَّاتُ، وَالثَّانِي: ذِكْرُ الْخُلُودِ فِيهَا وَهُوَ الْإِقَامَةُ دَائِمًا وَالتَّمَتُّعُ بِنَعِيمِهَا سَرْمَدًا. فَقَابَلَ جَهَنَّمَ بِالْجَنَّاتِ، وَقَابَلَ قِلَّةَ مَتَاعِهِمْ بِالْخُلُودِ الَّذِي هُوَ الدِّيمُومَةُ فِي النَّعِيمِ، فَوَقَعَتْ (لَكِنَّ) هُنَا أَحْسَنَ مَوْقِعٍ؛ لِأَنَّهُ آلَ مَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ إِلَى تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ وَإِلَى تَنْعِيمِ الْمُتَّقِينَ، فَهِيَ وَقَعَةُ بَيْنَ الضَّادَيْنِ. ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ النَّزْلُ مَا يُعَدُّ لِلنَّازِلِ مِنَ الضِّيَافَةِ وَالْقَرَى. وَيَجُوزُ تَسْكِينُ زَايِهِ، وَبِهِ قَرَأَ الْحَسَنُ، وَالتَّحْعِي، وَمُسْلَمَةُ بْنُ مُحَارِبٍ، وَالْأَعْمَشُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّزْلُ الثَّوَابُ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: النَّزْلُ: مَا يُهَيَّأُ لِلنَّزِيلِ، وَالتَّزِيلُ الضَّيْفُ. وَقِيلَ: النَّزْلُ: الرِّزْقُ وَمَا يُتَعَدَّى بِهِ. وَمِنْهُ: ﴿فَنُزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٣]، أَيْ فَعِذَاؤُهُ. وَيُقَالُ: أَقَمْتُ لِلْقَوْمِ نُزْلَهُمْ، أَيْ مَا يَصْلُحُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْغِذَاءِ، وَجَمْعُهُ أَنْزَالٌ. وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: الْأَنْزَالُ الَّتِي سُوِّيَتْ، وَنُزِلَ عَلَيْهَا. وَمَعْنَى ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: أَيْ لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ. وَسَمَّاهُ نُزْلًا؛ لِأَنَّهُ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ تَكَالِيفُ السَّعْيِ وَالْكَسْبِ، فَهُوَ شَيْءٌ مُهَيَّأٌ يُهَيَّأُ لَهُمْ لَا تَعَبَ عَلَيْهِمْ فِي تَحْصِيلِهِ هُنَاكَ، وَلَا مَشَقَّةَ، كَالطَّعَامِ الْمُهَيَّأِ لِلضَّيْفِ لَمْ يَتَعَبَ فِي تَحْصِيلِهِ، وَلَا فِي تَسْوِيَّتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ. وَانْتِصَابُ (نُزُلًا)، قَالُوا: إِمَّا عَلَى الْحَالِ مِنْ (جَنَّاتٍ)؛ لِتَحْصُصِهَا بِالْوَصْفِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا الْعَامِلُ فِي (لَهُمْ)، وَإِمَّا بِإِضْمَارِ فِعْلٍ، أَيْ جَعَلَهَا نُزْلًا، وَإِمَّا عَلَى الْمَصْدَرِ الْمُؤَكَّدِ، فَقَدَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ: تَكْرِمَةً، وَقَدَرَهُ الرَّخْشَرِيُّ: رِزْقًا أَوْ عَطَاءً. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: انْتَصَبَ عَلَى التَّفْسِيرِ، كَمَا تَقُولُ: هُوَ لَكَ هِبَةٌ وَصَدَقَةٌ. وَهَذَا الْقَوْلُ رَاجِعٌ إِلَى الْحَالِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: (لَكِنَّ) لِاسْتِدْرَاكِ عِنْدَ النُّحَاةِ وَهُوَ رَفَعَ تَوَهُّمٍ نَاشِئٍ مِنَ السَّابِقِ، وَعِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي لِقَصْرِ الْقَلْبِ وَرَدِّ اعْتِقَادِ الْمُخَاطَبِ، وَتَوَجُّيهِ الْآيَةِ عَلَى الْأَوَّلِ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَ

الْكُفَّارَ بِقَلَّةٍ نَفَعَتْ قَلْبُهُمْ فِي التِّجَارَةِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي الْبِلَادِ لِأَجْلِهَا جَازَ أَنْ يَتَوَهَّمُوا مُتَوَهَّمُ أَنْ
 التِّجَارَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُفْتَضِيَةٌ لِذَلِكَ فَاسْتُذِرَكَ أَنَّ الْمُتَقِينَ وَإِنْ أَخَذُوا فِي التِّجَارَةِ لَا
 يَضُرُّهُمْ ذَلِكَ وَأَنَّ لَهُمْ مَا وَعَدُوا بِهِ، أَوْ يُقَالُ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا جَعَلَ تَمَتُّعَ الْمُتَقَلِّبِينَ قَلِيلًا مَعَ
 سِعَةِ حَالِهِمْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَرَالُونَ فِي الْجُهْدِ وَالْجُوعِ فِي مَتَاعٍ فِي كَمَالِ
 الْقِلَّةِ فُدِّعَ بِأَنَّهُ تَمَتُّعُهُمْ لِلِاتِّقَاءِ وَلِلْاجْتِنَابِ عَنِ الدُّنْيَا، وَلَا تَمَتُّعٌ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَهُ؛ لِأَنَّهُ
 وَسِيلَةٌ إِلَى نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ أَبَدِيَّةٍ هِيَ الْخُلُودُ فِي الْجَنَّاتِ، وَعَلَى الثَّانِي رَدٌّ لِاعْتِقَادِ الْكَفَرَةِ أَنَّهُمْ
 مُتَمَتِّعُونَ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ، وَعَلَّلَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ جَعَلَ التَّقْوَى فِي
 حَبْرِ الصَّلَةِ بِالشَّعَارِ بِكَوْنِ الْخِصَالِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ بَابِ التَّقْوَى، وَالْمُرَادُ بِهَا الْإِتِّقَاءُ عَنِ
 الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي. وَالْمَوْصُولُ مُبْتَدَأٌ وَالظَّرْفُ حَبْرُهُ، وَ(جَنَّاتٌ) مُرْتَفِعٌ بِهِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ
 لِاعْتِمَادِهِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ أَوْ مُرْتَفِعٌ بِالِابْتِدَاءِ، وَالظَّرْفُ حَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ حَبْرُ الْمُبْتَدَأِ،
 وَ(خَالِدِينَ) حَالٌ مُقَدَّرَةٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي (هُمْ) أَوْ مِنْ (جَنَّاتٍ)؛ لِتَخْصِيصِهَا
 بِجُمْلَةِ الصِّفَةِ، وَالْعَامِلُ: مَا فِي الظَّرْفِ مِنْ مَعْنَى الْإِسْتِقْرَارِ. ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: (النُّزْلُ)
 بِضَمَّتَيْنِ، وَكَذَا النُّزْلُ بِضَمٍّ فَسُكُونٍ: مَا يُعَدُّ لِلضَّيْفِ أَوَّلَ نُزُولِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَصِلَةٍ.
 وَيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الزَّادِ مُطْلَقًا، وَيَكُونُ جَمْعًا بِمَعْنَى النَّازِلِينَ. وَقَدْ جَوَّزَ ذَلِكَ أَبُو عَلِيٍّ فِي
 الْآيَةِ، وَكَذَا يُجَوَّزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا. قِيلَ: وَأَصْلُ مَعْنَى النُّزْلِ مُفْرَدًا: الْفَضْلُ وَالرِّبْعُ فِي
 الطَّعَامِ، وَيُسْتَعَارُ لِلْحَاصِلِ عَنِ الشَّيْءِ. وَنَصَبُهُ هُنَا إِمَّا عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنْ (جَنَّاتٍ)؛
 لِتَخْصِيصِهَا بِالْوَصْفِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي الظَّرْفِ مِنْ مَعْنَى الْإِسْتِقْرَارِ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَا
 يُعَدُّ لِحَاجَةٍ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ حِينِيذٍ نَفْسَهَا (نُزُلًا) مِنْ بَابِ التَّجَوُّزِ، أَوْ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ إِلَى ذَاتِ
 نُزْلٍ، وَإِمَّا عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي (خَالِدِينَ) إِنْ كَانَ جَمْعًا، وَإِمَّا عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ
 مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ إِنْ كَانَ مَصْدَرًا، وَهُوَ حِينِيذٌ بِمَعْنَى النُّزُولِ، أَيْ نَزْلُهَا نُزُلًا، وَجَوَّزَ
 عَلَى تَقْدِيرِ مَصْدَرِيَّةٍ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي (فِيهَا)
 أَيْ مَنْزُولَةً، وَالظَّرْفُ صِفَةٌ (نُزُلًا) إِنْ لَمْ يَجْعَلْهُ جَمْعًا، وَإِنْ جَعَلْتَهُ جَمْعًا فَفِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ الْمَحْذُوفِ؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ (نُزُلًا) إِيَّاهَا. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ حَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَيْ بِفَضْلِهِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: هَذَا بَيَانٌ لِكَمَالِ حُسْنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ، غِبُّ بَيَانٍ وَتَكْرِيرٍ لَهُ إِنَّهُ تَقْرِيرٌ، مَعَ زِيَادَةِ حُلُودِهِمْ فِي الْجَنَّاتِ؛ لِيَتِمَّ بِذَلِكَ سُورُوتُهُمْ، وَيَتَكَمَّلَ بِهِ سُوءُ حَالِ الْكَافِرَةِ. وَالنُّزْلُ: الْمُنْزِلُ، وَمَا هُوَ لِلنَّزِيلِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: مَا وَجْهٌ مَجِيءُ الاستدراك هنا؛ لِأَنَّ الاستدراكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَتَوَقَّعُ دَخُولُهُ فِيمَا سَبَقَ، كَقَوْلِكَ: (قَامَ الْقَوْمُ لَكِنْ فَلَانٌ لَمْ يَقُمْ) مِمَّنْ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ قَائِمٌ، فَهِنَا ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: مَا وَجْهُ الاستدراك؟ وَجْهُ الاستدراك: أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَوْ حَصَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ مَا حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ الْكَافَرِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، يَعْنِي قَدْ يَحْصُلُ تَقَلُّبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبِلَادِ كَتَقَلُّبِ الْكَافَرِ، فَهَلْ يَكُونُ مَأْوَى الْمُتَّقِينَ كَمَا يَكُونُ الْكَافِرِينَ؟ الْجَوَابُ: لَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾، فَالاستدراك هنا مِنْ أَلْفَافٍ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ الظَّانَّ أَنَّ اللَّهَ لَوْ مَكَّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَقَلَّبُوا فِي الْبِلَادِ تَقَلُّبَ الْكَافَرِ لَفَاتَهُمْ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَنْ يَفُوتَهُمْ، فَقَالَ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾. وَالتَّقْوَى: اتِّخَاذُ مَا يَقِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. وَقَالَ: ﴿اتَّقُوا رَبَّهُمْ﴾: وَلَمْ يَقُلْ: (اتَّقُوا اللَّهَ): إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ لَهُمْ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ، أَعَانَهُمْ فِيهَا عَلَى التَّقْوَى، وَوَقَّعَهُمْ لَهَا. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: جَنَّاتٌ: جَمْعُ جَنَّةٍ، وَأَصْلُهَا: الْبَسْتَانُ الْكَثِيرُ الْأَشْجَارِ، سَمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُجْنَى مِنْ كَانَ فِيهِ، أَيْ يَسْتَرُهُ، وَلَكِنَّا لَا نَفْسِرُ جَنَّاتٍ، أَوْ جَنَّةٍ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ، وَالَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا جَنَّةَ الْخُلْدِ، بِهَذَا التَّفْسِيرِ عِنْدَ الْعَامَّةِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ فَسَّرْتَهَا هَذَا التَّفْسِيرَ عِنْدَهُمْ؛ لَنَزَلَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ نَزُولًا كَثِيرًا. بَلْ نَقُولُ - وَهُوَ الْمُرَادُ -: الْجَنَّةُ هِيَ: الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَ(الْجِيمُ، وَالنُّونُ) نَجِدُ أَنَّهَا كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِتَارِ، فَتَقُولُ: الْجَنَّةُ فِي الْأَصْلِ:

البستان الكثير الأشجار، ولنا أن نقول: الجنة في الأصل هي هذا المعنى، لكن نقلت شرعاً إلى الدار التي أعدّها الله للمتّقين كما نقلت الصلاة والزكاة والحجّ والعمرة إلى معناها الشرعيّ. قوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ يدلّ على علوّ قصورها وأشجارها، وأنّ الأنهار أربعة، وأنها تجري بلا حدود وبلا شق ساق، بل تجري حيث شاء صاحبها، يقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: الخلود: هو البقاء، أي باقون فيها أبداً كما قال الله في آيات أخرى متعدّدة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: نزلاً: هذه منصوبة على الحال، أي حال كون هذه الجنات نزلاً. فإذا قال قائل: كيف تكون حالاً وصاحبها نكرة؛ لأنّ (جنّات) نكرة والحال لا تأتي من النكرة، بل لا بد أن يكون صاحبها معرفة؟ فالجواب: أنّ نقول: وإن كان صاحبها نكرة إلا أنه خصّص بالنعته: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والنكرة المخصّصة تأتي منها الحال كما تأتي من المعرفة. والنزل: اسم جامد وليس بمشتقّ، فإن قيل: إنّ الحال لا يكون جامداً بل لا بد أن يكون مشتقاً. فالجواب: قد تأتي الحال جامدة، لكنّها مؤولة بالمشتقّ، يعني أنهم مكرمين بهذا النزل. والنزل: اسم لأوّل ما يقدّم للضيف من الطعام، ومعلوم أنّ أوّل يوم للضيف يقدّم له أطيب وأحسن شيء، فجعل الله هذه الجنّة كلّها نزلاً لا يختلف آخرها عن أوّلها، بخلاف نُزُل الضيافة في الدنيا، فإنه يكون أوّل يوم من أطيب ما يكون ثم يقلّ في اليوم الثاني وهكذا. وقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: أي أنّ هذا النزل ليس من فلان أو فلان، بل من عند أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وهو الله، والنزل من الأكبر يكون عظيماً وكرماً وكثيراً.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾: قال القرطبي: أي ممّا يتقلّب به الكفّار في الدُّنيا. وقال ابن جرّير: ﴿لِلْأَبْرَارِ﴾: جمع بارّ وبرّ، ومعناه: العاملون بالبرّ، وهي غاية التقوى والعمل الصالح، قال بعضهم: الأبرار: هم الذين لا يؤذون أحداً. وقال أبو حيّان: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾: ظاهره حواله الصلّة على ما تقدّم من قوله: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. والمعنى: أنّ الذي أعدّه الله للأبرار في الآخرة خيرٌ لهم، فيحتمل أن يكون المفضل عليه

بِالنِّسْبَةِ لِلْأَبْرَارِ، أَيِ خَيْرٍ لَهُمْ مِمَّا فِيهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ مَسْعُودٍ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ، أَيِ خَيْرٍ لَهُمْ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ. وَقِيلَ: (خَيْرٌ) هُنَا لَيْسَتْ لِلتَّفْضِيلِ، كَمَا أَتَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وَالْأَظْهَرُ مَا قَدَّمْنَاهُ. وَ﴿لِلْأَبْرَارِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ(خَيْرٍ)، وَالْأَبْرَارُ: هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ. وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ لِلْأَبْرَارِ خَيْرٌ لَهُمْ، وَهَذَا دُھُولٌ عَنْ قَاعِدَةِ الْعَرَبِيَّةِ: مِنْ أَنَّ الْمَجْرُورَ إِذَا كَانَ يَتَعَلَّقُ بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الظَّرْفُ الْوَاقِعُ صَلَةً لِلْمَوْصُولِ، فَيَكُونُ الْمَجْرُورُ دَاخِلًا فِي حَيْزِ الصِّلَةِ، وَلَا يُجْبَرُ عَنِ الْمَوْصُولِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِيفَائِهِ صَلَتَهُ وَمُتَعَلِّقَاتِهَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾: أَيِ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْمَتَاعِ الْقَلِيلِ الزَّائِلِ. وَالتَّعْيِيرُ عَنْهُمْ بِالْأَبْرَارِ؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الصِّفَاتِ الْمَعْدُودَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، كَمَا أَتَى مِنْ قِبَلِ التَّقْوَى. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾: الْأَبْرَارُ: جَمْعُ بَرٍّ، وَالْبَرُّ: كَثِيرُ الْخَيْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، أَيِ كَثِيرِ الْخَيْرَاتِ، فَالْأَبْرَارُ: جَمْعُ بَرٍّ، وَهُمْ كَثِيرُو الْخَيْرَاتِ، وَذَلِكَ بِفَعْلِهِمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرَكَهُمْ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

• قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾:

• سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: اخْتَلَفُوا فِيْمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مَاتَ صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ قَائِلٌ: يُصَلِّي عَلَى هَذَا الْعِلْجِ النَّصْرَانِيّ، وَهُوَ فِي أَرْضِهِ؟! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، هَذَا قَوْلُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ.

الثاني: أُنْزِلَتْ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، رَوَى هَذَا الْمَعْنَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ.

الثالث: نزلت في عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَصْحَابِهِ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَمُقَاتِلٌ.
الرابع: نزلت في أَرْبَعِينَ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ، وَثَلَاثِينَ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَثَمَانِيَةً مِنَ الرُّومِ كَانُوا عَلَى دِينِ عِيسَى، فَأَمَّنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، قَالَهُ عَطَاءٌ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ مِنْ قَبْلُ، بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى النَّارِ بَيِّنٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَانَ دَاخِلًا فِي صِفَةِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُمْ بِصِفَاتٍ: أَوَّلُهَا: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ. وَثَانِيهَا: الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَثَالِثُهَا: الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .. وَرَابِعُهَا: كَوْنُهُمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ (يُؤْمِنُ)؛ لِأَنَّ (مَنْ يُؤْمِنُ) فِي مَعْنَى الْجَمْعِ. وَخَامِسُهَا: أَنَّهُمْ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِمَّنْ كَانَ يَكْتُمُ أَمْرَ الرَّسُولِ وَصِحَّةَ نُبُوَّتِهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَانْتِصَابُ ﴿خَاشِعِينَ﴾ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿يُؤْمِنُ﴾، وَكَذَلِكَ ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ هُوَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ. وَقِيلَ: حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿إِلَيْهِمْ﴾، وَالْعَامِلُ فِيهَا ﴿أُنْزِلَ﴾. وَقِيلَ: حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾، وَهُمَا قَوْلَانِ ضَعِيفَانِ. وَمَنْ جَعَلَ (مَنْ) نَكْرَةً مَوْصُوفَةً، يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ ﴿خَاشِعِينَ﴾ وَ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ صِفَتَيْنِ لِلنَّكْرَةِ. وَجُمِعَ ﴿خَاشِعِينَ﴾ عَلَى مَعْنَى (مَنْ) كَمَا جُمِعَ فِي ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾. وَحُمِلَ أَوَّلًا عَلَى اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُ﴾، فَأُفْرِدَ، وَإِذَا اجْتَمَعَ الْحَمْلَانِ، فَالْأَوَّلَى أَنْ يُبْدَأَ بِالْحَمْلِ

عَلَى اللَّفْظِ. وَأَتَى فِي الْآيَةِ بِلَفْظِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ دُونَ آمَنَ، وَإِنْ كَانَ إِيمَانٌ مِّنْ نَزَلَ فِيهِمْ قَدْ وَقَعَ إِشَارَةً إِلَى الدِّيْمُومَةِ وَالِاسْتِمْرَارِ. وَوَصَفَهُم بِالْحُشُوعِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ وَالْحُضُوعُ الْمُنَابِي لِلتَّعَاطُفِ وَالِاسْتِكْبَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ حُشَعِينَ لِلَّهِ﴾: يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، مَعَ مَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّهُمْ حَاشِعُونَ لِلَّهِ، أَيُّ مُطِيعُونَ لَهُ حَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أَيُّ لَا يَكْتُمُونَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَكَرَ صِفَتَهُ وَنَعْتَهُ وَمَبْعَثَهُ وَصِفَةَ أُمَّتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ خَيْرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَصَفُوهُمْ، سَوَاءً كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ سَيَقْتُ لِبَيَانِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَيْسَ كُلُّهُمْ كَمَنْ حُكِيَتْ هَنَاتُهُمْ مِنْ نَبَذِ الْمِيثَاقِ وَتَحْرِيفِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ مَنَاقِبُ جَلِيلَةٌ. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ (لَا) الْإِبْتِدَاءَ عَلَى اسْمِ (إِنَّ) لِفَصْلِ الظَّرْفِ بَيْنَهُمَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: أَيُّ مِنَ الْقُرْآنِ. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: أَيُّ مِنَ الْكِتَابَيْنِ. وَتَأْخِيرُ إِيْمَانِهِمَا بِمَا عَنْ إِيْمَانِهِمَا بِالْقُرْآنِ فِي الذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ فِي الْوُجُودِ؛ لِمَا أَنَّهُ عِيَارٌ وَمُهِمِّنٌ عَلَيْهِمَا، فَإِنَّ إِيْمَانَهُمَا بِمَا إِنَّمَا يُعْتَبَرُ بِتَبَعِيَّةِ إِيْمَانِهِمَا بِهِ؛ إِذْ لَا عِبْرَةَ بِأَحْكَامِهِمَا الْمُنْسُوخَةِ وَمَا لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا إِنَّمَا يُعْتَبَرُ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُهُ بِالْقُرْآنِ؛ وَلِتَعْلُقِ مَا بَعْدَهُ بِهِمَا. وَالْمُرَادُ بِإِيْمَانِهِمَا بِهِمَا: إِيْمَانُهُمَا مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا كُتْمٍ كَمَا هُوَ دَيْدُنُ الْمُحَرِّفِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ. ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ ﴿يُؤْمِنُ﴾، وَالْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: تَصْرِيحٌ بِمُخَالَفَتِهِمْ لِلْمُحَرِّفِينَ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ كَمَا قَبْلَهُ وَنَظْمُهَا فِي سِلْكِ مُحَاسِنِهِمْ لَيْسَ مِنْ حَيْثُ عَدَمُ الْإِشْتِرَاءِ فَقَطْ بَلْ لِتَضَمُّنِ ذَلِكَ لِإِظْهَارِ مَا فِي الْكِتَابَيْنِ مِنْ شَوَاهِدِ ثُبُوتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ سَيَقْتُ لِبَيَانِ أَنَّ

بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ حَظُّ مِنَ الدِّينِ، وَلَيْسُوا كَسَائِرِهِمْ فِي فَضَائِحِهِمُ الَّتِي حَكَاهَا اللَّهُ عَنْهُمْ فِيمَا سَبَقَ وَفِيمَا سَيَأْتِي، فَإِنَّ هَذَا الْبَعْضَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ حَالَ كَوْنِهِمْ ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ﴾، أَيْ يَسْتَبْدِلُونَ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، بِالتَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ كَمَا يَفْعَلُهُ سَائِرُهُمْ بَلْ يَحْكُونَ كُتُبَ اللَّهِ كَمَا هِيَ . وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ سَبَقَتْ لِيَبَانَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَيْسَ كُلُّهُمْ كَمَنْ حُكِيََتْ هَنَاتُهُمْ مِنْ نَبَذِ الْمِيثَاقِ، وَتَخْرِيفِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. بَلْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَعَ مَا هُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ، وَأَتَمَّ خَاشِعُونَ لِلَّهِ، أَيْ مُطِيعُونَ لَهُ، خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَصَفَوْتُهُمْ، سَوَاءٌ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ غُطِفَ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ اسْتِكْمَالًا لِذِكْرِ الْفَرْقِ فِي تَلَقِّي الْإِسْلَامِ، فَهَؤُلَاءِ فَرِيقُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَمْ يُظْهِرُوا إِيْمَانَهُمْ لِحُؤُوفِ قَوْمِهِمْ مِثْلَ النَّجَاشِيِّ أَصْحَمَةَ، وَأَتَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَتَمِّ لَا يُخْرِفُونَ الدِّينَ، وَالْآيَةُ مُؤَدِّنَةٌ بِأَتَمِّ لَمْ يَكُونُوا مَعْرُوفِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَتَمِّ لَوْ عَرَفُوا بِالْإِيمَانِ لَمَا كَانَ مِنْ فَائِدَةٍ فِي وَصْفِهِمْ بِأَتَمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَذَا الصَّنْفُ بَعَكْسِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ. وَأَكَّدَ الْحَبَرُ بِ(إِنَّ، وَبِلَامِ الْإِبْتِدَاءِ) لِلرَّدِّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ لَمَّا صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ: انْظُرُوا إِلَيْهِ يُصَلِّي عَلَى نَصْرَانِي لَيْسَ عَلَى دِينِهِ وَلَمْ يَرَهُ قَطُّ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَعْضِ أَصْحَابِهِ أَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَلَعَلَّ وَفَاةَ النَّجَاشِيِّ حَصَلَتْ قَبْلَ غَزْوَةِ أُحُدٍ. وَقِيلَ: أُرِيدَ بِهِمْ هُنَا مَنْ أَظْهَرَ إِيْمَانَهُ وَتَصَدَّقَهُ مِنَ الْيَهُودِ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَمُخَبِّرِيقٍ، وَكَذَا مَنْ آمَنَ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ أَيْ

الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَرَسُولُ اللَّهِ بِمَكَّةَ إِنَّ صَحَّ خَبَرُ إِسْلَامِهِمْ. وقال العثيمين: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: في الآية مؤكّدان: (إِنَّ، واللام). وأهل لكتاب: هم اليهود والنصارى. ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: أي للذي يؤمن بالله وما أنزل إليكم. وهؤلاء كثير في النصارى؛ لأن من آمن منهم كثير بمحمد ﷺ، أمّا في اليهود فلم يبلغوا العشرة الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حال حياته. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: أي يؤمنوا بعموم رسالة النبي ﷺ وأنه مرسل إليهم كما أنه مرسل إلى العرب. ﴿خَاشِعِينَ﴾: يحتمل أن تكون حالاً من (مَنْ) في قوله: ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ﴾؛ وبناء على ذلك يكون مراداً بها المعنى؛ لأن (مَنْ) لفظها مفرد ومعناها الجمع؛ لأن اسم الموصول وإن كان مفرداً يصحّ للعموم مع أن (مَنْ) من الأسماء الموصولة للمفرد وللجماعة. وتحتل أن تكون حالاً من فاعل (يُؤْمِنُ)، أي لمن يؤمن حال كونه خاشعاً، والمعنى لا يتغيّر. والخشوع هو: الدّل، أي متذللاً لله. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي لا يأخذون ويطلبون بآيات الله ثمناً قليلاً، فالشراء هنا بمعنى: الأخذ؛ لأنه ليس هناك عقد بيع وشراء، لكن لما كان المشتري يأخذ السلعة طالباً لها حريضاً عليها صار الذين يأخذون الحياة الدنيا بالآخرة بمنزلة المشتريين؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهي الدنيا أو بما لها أو بجاهها أو بغير ذلك، وفيه إشارة إلى أنّ من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من يبقى على رئاسته وعلى جاهه وماله ليكفر بالرسول. ووصف الله ذلك بأنه قليل؛ لأنه بالنسبة لما في الآخرة ليس بشيء.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: قال أبو حيان: أي ثواب إيمانهم، وهذا الأجر مُضاعف مرتين بنص الحديث: "ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْأُمَّةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحَسِّنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحَسِّنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتَقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنٌ أَهْلُ الْكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ" رواه الشيخان. يُضاعف لهم الثواب بما تضاعف منهم من الأسباب. و﴿عِنْدَ﴾ ظرف في موضع الحال، والعامل فيه العامل في ﴿لَهُمْ﴾،

وَمَعْنَى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أَي فِي الْجَنَّةِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿أُولَئِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ اتَّصَفَهُمْ بِمَا عُدَّ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْحَمِيدَةِ وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ رُتَبَتِهِمْ وَبُعْدِ مَنْزِلَتِهِمْ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ، وَهُوَ مُبْتَدَأُ حَبْرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿أَجْرُهُمْ﴾: أَيِ الْمُحْتَصُصُ بِهِمُ الْمُوعُودُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِيكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ مُرْتَفِعٌ بِالظَّرْفِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ أَوْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَالظَّرْفُ حَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ حَبْرٌ لـ ﴿أُولَئِكَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنْ أَجْرُهُمْ، وَالْمَرَادُ بِهِ: التَّشْرِيفُ كَالصِّفَةِ. وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إِلَى هَذِهِ الطَّائِفَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ اتَّصَفَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: أَيِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ ذَلِكَ الْأَجْرِ بِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَجِيَءٌ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمِشَارَ إِلَيْهِمْ بِهِ أَحْرِيَاءٌ بِمَا سَيَرِدُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ لِأَجْلِ مَا تَقَدَّمَ اسْمُ الْإِشَارَةِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: أَيِ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَدَلُوا عَنِ الدُّنْيَا وَلَمْ يَأْخُذُوا بِدَلٍّ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أَجْرٌ: أَيِ ثَوَابٍ. وَإِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِهِ، فَإِنَّ الشَّيْءَ مِنَ الْعَظِيمِ عَظِيمٌ، وَمِنَ الْكَرِيمِ كَثِيرٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ بَاقٍ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ يَبْقَى؛ وَلِهَذَا يَخْلُدُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا أَبَدًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: قَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَيِ لَا يُؤَخِّرُ الْجَزَاءَ عَمَّنْ اسْتَحَقَّهُ؛ لِطُولِ الْحِسَابِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ، كَمَا يَتَأَخَّرُ لَذَلِكَ الْحَقُوقُ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: قِيلَ مَعْنَاهُ: سَرِيعٌ إِتْيَانِ بَيَّومِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ، فَالْحِسَابُ إِذَا سَرِيعٌ، إِذْ كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: سَرِيعُ الْحِسَابِ: أَيِ إِحْصَاءِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَجُورِهِمْ وَآثَامِهِمْ؛ إِذْ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي عَمَلِهِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عَدٍّ وَرَوِيَّةٍ وَنَظَرٍ، كَمَا يَحْتَاجُ الْبَشَرُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: فِي مَعْنَى سُرْعَةِ الْحِسَابِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَلْتُهُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ قُرْبَ مَحِيئِهِ،

قال مُقاتِلٌ: الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ مَا لِلْمُحَاسِبِ وَمَا عَلَيْهِ قَبْلَ حِسَابِهِ، كَانَ سَرِيعَ الْحِسَابِ لِذَلِكَ. الرَّابِعُ: أَنَّ الْمَعْنَى: وَاللَّهُ سَرِيعُ الْمَجَازَةِ، ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ وَالَّذِي قَبْلَهُ الرَّجَّاجُ. الْخَامِسُ: أَنَّهُ لَا يَخْتِاجُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ كَالْعَاجِزِينَ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. وقال الرازي: الْفَائِدَةُ فِي كَوْنِهِ سَرِيعَ الْحِسَابِ: كَوْنُهُ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، فَيَعْلَمُ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وقال أبو حَيَّان: أَيُّ سَرِيعِ الْإِثْنَانِ يَزُومُ الْقِيَامَةَ وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ أَجْرَهُمْ قَرِيبٌ إِنْثَانُهُ أَوْ سَرِيعَ حِسَابُهُ لِنُقُودِ عِلْمِهِ، فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا لِكُلِّ عَامِلٍ مِنَ الْأَجْرِ. وقال أبو السَّعُودِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ لِنُقُودِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ عَامِلٍ مِنَ الْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى تَأْمُلٍ، وَالْمَرَادُ بَيَانُ سُرْعَةِ وَصُولِ الْأَجْرِ الْمُوعُودِ إِلَيْهِمْ. وقال ابن عاشور: وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إِلَى أَنَّهُ يُبَادِرُ لَهُمْ بِأَجْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَيَجْعَلُهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقال العثيمين: السَّيْرَةُ: عَدَمُ التَّبَاطُؤِ فِي الشَّيْءِ، فَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ الدُّنْيَا قَلِيلَةٌ وَفَانِيَةٌ وَسَرِيعَةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ ثُمَّ تَنْقُضِي بِسَرْعَةٍ، فَالْيَوْمُ الْجُمُعَةُ مِثْلًا، أَوْ السَّبْتُ أَوْ الْأَحَدُ أَوْ أَحَدُ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مَا تَأْخُذُ إِلَّا شَيْئًا قَلِيلًا حَتَّى يَصِلَ الْإِنْسَانُ إِلَى نَهَائِهِ وَيَمُوتَ، فَيَجِدُ الْحِسَابَ أَمَامَهُ، فَهَذِهِ سَرْعَةٌ، وَالسَّرْعَةُ الثَّانِيَّةُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَحْسَبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا فِي نِصْفِ يَوْمٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وَالْقِيلُولَةُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ، وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّهَ يَحْسَبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي نِصْفِ يَوْمٍ حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقِيلُ فِي مَنْزِلِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ.

• قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠):

• مناسبة الآية لما قبلها: قال الرازي: اعْلَمَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنْ عُلُومِ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، أَمَّا الْأَصُولُ فَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبُوَّةِ

والمعاد، وأما الفروعُ ففِيما يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ والأَحْكَامِ نَحْوُ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِهِمَا، خَتَمَ
هَذِهِ السُّورَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدَابِ.

وقال أبو السعود: إثر ما بُيِّنَ فِي تَضَاعِيفِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ فُنُونِ الْحِكَمِ والأَحْكَامِ
خُتِمَتْ بِمَا يُوجِبُ الْمَحَافَظَةَ عَلَيْهَا.

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: قال
السمرقندي: أي تفوزون وتأمنون النار وتنجون منها. ويقال: أصل الفلاح: البقاء
بالنعمة. ويقال: الفلاح: أن يبلغ الإنسان نهاية ما يؤمل. وقال الواحدي: قال الحسن:
اصبروا على دينكم فلا تدعوه لشدّة. وهذا اختيار الزجاج. وقال زيد بن أسلم: أي على
الجهاد، وهو اختيار ابن الأنباري. وقال الفراء: ﴿اصْبِرُوا﴾ مع نبيكم. ﴿وَصَابِرُوا﴾
عدوكم، فلا يكوننّ أصبر منكم. ﴿وَرَابِطُوا﴾: أي أقيموا على جهاد عدوكم بالحرب
والحجّة، قاله الزجاج. وأصله عند أهل اللغة: من (مُرَابِطَةِ الْحَيْلِ)، وهو ارتباطها بإيذاء
العدوّ في بعض الثُّغُور. قال ابن قتيبة: أصل (المُرَابِطَةِ، وَالرِّبَاطِ): أن يَرِطَ هؤلاء خيولهم
في الثَّغْرِ، وَيَرِطَ الكفار خيولهم، كلٌّ يُعِدُّ لِصَاحِبِهِ، ثم سُمِّيَ المَقَامُ بِالثُّغُورِ (رِبَاطًا)؛ لوجود
هذا المعنى. وكلام ابن عباس في رواية عطاء يَدُلُّ على هذه الجملة، فإنه قال في قوله
تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾: يريد عدوّي وعدوكم حتى يرجع عن دينه إلى دينكم. وهذا اللفظ
يتضمّن معنى ملازمة الجهاد. وهذا قول أكثر أهل التفسير. وقال أبو سلمة بن عبد
الرحمن: معنى ﴿وَرَابِطُوا﴾: انتظروا الصلاة بعد الصلاة. واحتجّ بقوله ﷺ في حديث أبي
هريرة، حيث ذكر انتظار الصلاة بعد الصلاة قال: (فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)، ثلاث مرّات. وأصل
هذا من الرِّبْط، وهو الشَّدُّ. ويقال لِكُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى أَمْرٍ: (رَبَطَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ، وَرَبَطَ نَفْسَهُ
عَلَيْهِ). وقال أبو عبيدة، وابنُ الأنباري: معنى ﴿وَرَابِطُوا﴾: أي اثبتوا، وداوموا. وقال
البغوي: قَالَ الْحَسَنُ: اصْبِرُوا عَلَى دِينِكُمْ وَلَا تَدْعُوهُ لَشِدَّةٍ وَلَا رَحَاءٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: اصْبِرُوا

عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: عَلَى أَمْرِ اللَّهِ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ:
 عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِ اللَّهِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: عَلَى الْجِهَادِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: عَلَى الْبَلَاءِ.
 ﴿وَصَابِرُوا﴾: يَعْنِي: الْكُفَّارَ. ﴿وَرَابِطُوا﴾: يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، أَيُّ دَاوُمُوا
 وَاتَّبِعُوا، وَالرَّيْطُ: الشَّدُّ، وَأَصْلُ الرِّبَاطِ: أَنْ يَرْبِطَ هَؤُلَاءِ حُيُوهُمْ، وَهَؤُلَاءِ حُيُوهُمْ، ثُمَّ قِيلَ:
 لِكُلِّ مُقِيمٍ فِي ثَغَرٍ يَدْفَعُ عَمَّنْ وَرَاءَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرْكَبٌ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ﴾: قَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ اللِّسَانِ: اصْبِرُوا عَلَى التَّعْمَاءِ، وَصَابِرُوا عَلَى الْبُأْسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ، وَرَابِطُوا فِي دَارِ الْأَعْدَاءِ، وَاتَّقُوا إِلَهَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فِي دَارِ
 الْبَقَاءِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:
 نَزَلَتْ فِي انْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ يَوْمُئِذٍ غَزْوٌ يُرَابِطُ. وَفِي الَّذِي أَمَرُوا بِالصَّبْرِ
 عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: الْبَلَاءُ وَالْجِهَادُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: الدِّينُ، قَالَهُ الْحَسَنُ،
 وَالْقُرْطُبِيُّ، وَالرَّجَّاجُ. الثَّلَاثُ: الْمَصَائِبُ، رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا. الرَّابِعُ: الْفَرَائِضُ، قَالَهُ
 سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. الْخَامِسُ: طَاعَةُ اللَّهِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَفِي الَّذِي أَمَرُوا بِمُصَابَرَتِهِ قَوْلَانِ:
 أَحَدُهُمَا: الْعَدُوُّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْجُمْهُورُ. الثَّانِي: الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ: قَالَهُ عَطَاءُ،
 وَالْقُرْطُبِيُّ. وَفِيمَا أَمَرُوا بِالْمُرَابَطَةِ عَلَيْهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: الْجِهَادُ لِلْأَعْدَاءِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ،
 وَالْحَسَنُ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَأَصْلُ الْمُرَابَطَةِ وَالرِّبَاطِ: أَنْ يَرْبِطَ هَؤُلَاءِ حُيُوهُمْ، وَهَؤُلَاءِ حُيُوهُمْ
 فِي الثَّغَرِ، كُلُّ يَعِدُ لِصَاحِبِهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ الصَّلَاةُ، أَمَرُوا بِالْمُرَابَطَةِ عَلَيْهَا، قَالَهُ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا..﴾: حَتَمَ تَعَالَى السُّورَةَ بِمَا
 تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَاشِرَةُ مِنَ الْوَصَاةِ الَّتِي جَمَعَتِ الطُّهُورَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالْفُوزَ
 بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ، فَحُضَّ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَاتِ وَعَنِ الشَّهَوَاتِ، وَالصَّبْرُ الْحُسْنُ، وَأَمَرَ
 بِالْمُصَابَرَةِ، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُصَابَرَةُ الْأَعْدَاءِ، قَالَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: عَلَى
 الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. وَقِيلَ: إِدَامَةُ مُخَالَفَةِ النَّفْسِ عَنْ شَهَوَاتِهَا فَهِيَ تَدْعُو وَهُوَ يَنْزِعُ. وَقَالَ
 عَطَاءُ، وَالْقُرْطُبِيُّ: صَابِرُوا الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدْتُمْ أَيُّ لَا تَيَاسُوا وَانْتَظِرُوا الْفَرَجَ، وَاخْتَارَ هَذَا

الْقَوْلَ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ. ﴿وَرَابِطُوا﴾: قَالَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ: رَابَطُوا أَعْدَائَكُمْ بِالْخَيْلِ، أَيْ ارْتَبَطُوهَا كَمَا يَرْتَبِطُهَا أَعْدَاءُكُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وَالْمُرَابِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: هُوَ الَّذِي يَشْخَصُ إِلَى ثَعْرِ مَنْ الثُّغُورِ لِيُرَابِطَ فِيهِ مُدَّةً مَا. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أَيْ لَمْ تَتَوَمَّرُوا بِالْجِهَادِ مِنْ غَيْرِ تَقْوَى. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لِتَكُونُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنَ الْفَلَاحِ. وَقِيلَ: لَعَلَّ بِمَعْنَى لِكَيْ. وَالْفَلَاحُ: الْبَقَاءُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمَرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لَضَرَاءٍ وَلَا لَشِدَّةٍ وَلَا لِرِخَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِينَهُمْ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ. وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالتَّوْبَاتِ. وَقِيلَ: انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، قَالَه مُجَاهِدٌ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أَيْ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾: أَيْ احْبِسُوا نَفُوسَكُمْ عَنِ الْجَزَعِ بِمَا يَنَالُهَا. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْأَمْرَ بِمَا يَعْمُ أَقْسَامُ الصَّبْرِ الثَّلَاثَةِ الْمَتَفَاوِتَةِ فِي الدَّرَجَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْخَبَرِ، وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصِيبَةِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. ﴿وَصَابِرُوا﴾: أَيْ اصْبِرُوا عَلَى شِدَائِدِ الْحَرْبِ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ صَبْرًا أَكْثَرَ مِنْ صَبْرِهِمْ. وَذَكَرَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ الْعَامِّ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ، فَيَكُونُ أَفْضَلَ، فَالْعَطْفُ كَعَطْفِ جَبْرِيلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَهَذَا وَإِنْ آلَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ إِلَّا أَنَّهُ أَبْلَغُ مِنْهُ. ﴿وَرَابِطُوا﴾: أَيْ أَقِيمُوا فِي الثُّغُورِ رَابِطِينَ حُيُولَكُمْ فِيهَا حَابِسِينَ لَهَا مُتَرَصِّدِينَ لِلْغَزْوِ مُسْتَعِدِّينَ لَهُ بِالْغَيْنِ فِي ذَلِكَ الْمَنْلِغِ الْأَوْفَى أَكْثَرَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، وَالْمُرَابِطَةُ أَيْضًا نَوْعٌ مِنَ الصَّبْرِ، فَالْعَطْفُ هُنَا كَالْعَطْفِ السَّابِقِ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فِي مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَيَنْدَرِجُ فِيهِ جَمِيعُ مَا مَرَّ أَنْدِرَاجًا أَوَّلِيًّا. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أَيْ لِكَيْ تَنْفُزُوا وَتَقُوزُوا بَيْنَ الْمُنِيَّةِ وَدَرْكِ الْبُعْغَةِ وَالْوُضُولِ إِلَى النُّجْحِ فِي الطَّلَبَةِ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْفَلَاحِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾: أي على مشاقِّ الطَّاعَاتِ وما يَمَسُّكُمْ مِنَ المَكَارِهِ والشَّدَائِدِ. ﴿وصابِرُوا﴾: أي غَالِبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى شَدَائِدِ الجِهَادِ، لَا تَكُونُوا أَقَلَّ صَبْرًا مِنْهُمْ وَثَبَاتًا. والمَصَابِرَةُ: بَابٌ مِنَ الصَّبْرِ. ذُكِرَ بَعْدَ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَحِبُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ، تَخْصِيصًا، لِشِدَّتِهِ وَصُعُوبَتِهِ. ﴿ورَابِطُوا﴾: أي أَقِيمُوا عَلَى مُرَابَطَةِ الْعَزْوِ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ بِالْتَرَصُّدِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِحَرْبِهِمْ، وَارْتِبَاطِ الْخَيْلِ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي فِيمَا عَلَيْكُمْ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي تَفُوزُونَ بِمَا يُغْتَبَطُ بِهِ. وَ(لَعَلَّ) لِتَغْيِيبِ الْمَالِ؛ لِئَلَّا يَتَكَبَّلُوا عَلَى الْأَمَالِ. وقال العثيمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إِنَّ اللَّهَ إِذَا صَدَّرَ الْخُطَابَ بِهَذَا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْعَنَاءِ بِهِ. وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ صَدَّرَهُ النِّدَاءَ الَّذِي يَفِيدُ تَنْبِيهِ الْمَخَاطَبِ، ثُمَّ إِذَا كَانَ النِّدَاءُ بِوصفِ الْإِيمَانِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَاهُ مَا صَدَّرَ الْخُطَابَ لِمَنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ بِلَفْظِ الْإِيمَانِ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِإِيمَانِكُمْ افْعَلُوا كَذَا وَكَذَا)، أَوْ: (لِإِيمَانِكُمْ لَا تَفْعَلُوا كَذَا وَكَذَا)، هَذَا أَوَّلًا. وَثَانِيًا: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَخَالَفَةَ ذَلِكَ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِيمَانِ، أَوْ مِنْ نَوَاقِصِ الْإِيمَانِ، إِنْ كَانَ الشَّيْءُ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، مِثْلَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فَإِنَّ مَخَالَفَتَهُ مِنْ نَوَاقِصِ الْإِيمَانِ. وَإِنْ كَانَ فِي فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ، فَإِنَّ مَخَالَفَتَهُ مِنْ نَوَاقِصِ الْإِيمَانِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] لَوْ لَمْ يَتَفَسَّحِ الْإِنْسَانُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ كَافِرٌ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ مُخَالَفٌ لِلأَمْرِ، وَإِيمَانُهُ نَاقِصٌ؛ لِأَنَّهُ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ حَيْثُ وَجَّهَ اللَّهُ لَهُ هَذَا الأَمْرُ بِوصفِ الْإِيمَانِ. ثَالِثًا: أَنَّهُ يَفِيدُ الْإِغْرَاءَ، يَعْنِي: إِغْرَاءَ الْإِنْسَانِ وَحَثَّهُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا وَجَّهَ إِلَيْهِ مِنَ الأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَصَفَ بِوصفٍ فَإِنَّهُ يَغْرِيهِ هَذَا الوصفُ، فَإِذَا قِيلَ لِشَخْصٍ: يَا أَيُّهَا الْكَرِيمُ جُدْ عَلَى هَذَا، فَمَعْنَاهُ: أَنْكَ تَغْرِيهِ وَأَنْهُ لَكَرَمِهِ لَا بَدَّ أَنْ يَجُودَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قِيلَ لِلْمُتَنَبِّي حِينَ أَحْجَمَ فِي مَجَالِ الْقِتَالِ: أَلَسْتَ الْقَائِلَ: وَذَلِكَ لِأَنَّ الوصفَ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَفْخَرُ بِهِ إِذَا لَمْ يَطْبِقْهُ فَعَلًا فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ، فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا

الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا). وقوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا﴾: أي على كلِّ ما يحتاج إلى صبر، ومعلوم أنَّ الذي يحتاج إلى الصبر هو الذي يخالف هوى النفس، فالذي يخالف هواك هو الذي يحتاج إلى الصبر؛ لأنه يشقّ عليك تحمله، فطاعة الله ثقيلة على النفوس فاصبر عليها، والمعاصي ثقيل تركها على النفوس فاصبر على الترك، والآلام والمصائب التي تصيب الإنسان ثقيلة على النفس فاصبر عليها. فالمصائب التي تصيب الإنسان هي بنفسها مكفّرة للذنوب، فإذا احتسب الإنسان أجرها على الله وانتظر بذلك ثواب الله كانت مع التكفير زيادة حسنات، والإنسان في الدنيا لا بدّ أن يبتلى، لم تبق الدنيا لأحد زاهية مطلقاً أبداً، وهذه من حكمة الله يبتلي الإنسان بالنعم ويبتليه بالمصائب، قال الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فعلى الإنسان أن يصبر على كلِّ ما يخالف هواه، والصبر ثقيل على النفس متعب لها، ولكنّ الإنسان ينظر إذا صبر إلى ما أمامه، فإنّ النتيجة خير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وفي المثل: (من صبر ظفر)، وهذا شيء مجرب دائماً، ولا سيما إذا قرن صبره باحتساب الأجر على الله، فإنه يكون في ذلك الثواب والعاقبة الحميدة. و﴿وَصَابِرُوا﴾: المصابرة تكون من اثنين؛ ولهذا جاءت على وزن فاعل، كقاتل وجاهد، فصابر أيضاً لا بدّ من شخص آخر يضادّك فصابره. الصبر الأوّل: لا أحد يضادّك في الشيء إنما هو شيء بينك وبين نفسك تصبر. الصبر الثاني: إنسان يضادّك ويشرك ويعتدي عليك فصابره، بمعنى غالبه بالصبر، وهذا يكون في ملاقات الأعداء، فالعدوّ يصابرك وأنت تصابره، ولكنّ الله قد سلّا عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، أنت إذا جُرحت تتألم وهو إذا جرح يتألم بلا شكّ، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فرق عظيم، فالذي يرجو من الله هذا الثواب على ما حصل له يهون عليه هذا الشيء، حتى إنه أحياناً لا يشعر به من شدّة احتسابه الأجر على الله. إذاً

الصبر: حبس النفس مع غير مصابر، وتكون على ما لا يلائم الإنسان وما يشقّ عليه. والمصابرة: مع شخص مضادّ يصابرك ويصبر عليك على معاندتك وعلى مضادّتك فأنت تصبر، وقد قال الله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. أمّا قوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾: المراقبة: أخصّ المصابرة، يعني رابطوا على الطاعات، ومن ذلك ما بيّنه النبيّ - عليه الصلاة والسلام - حيث قال: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد" رواه مسلم، إسباغ الوضوء على المكاره: يعني في أيام البرودة، فإنّ الإنسان إذا أسبغ الوضوء، يعني أتمّه وأكمله دلّ هذا على إيمانه بالله وعلى شدّة تصديقه ورجائه لثواب الله. ثم قال ﷺ: "كثرة الخطا إلى المساجد"، فإن الإنسان إذا ذهب إلى المسجد البعيد الذي يحتاج إلى كثرة الخطا دلّ هذا على مرابطته في الخير ومثابرته عليه، وعلى صدق الإيمان في قلبه؛ ولهذا يذهب إلى المسجد ولو كان بعيداً، ويتردّد إليه على الأقلّ في اليوم واللييلة خمس مرّات، هذا أيضاً يدلّ على المراقبة على الخير. ومن المراقبة: المراقبة في الثغور، لكنّها غير موجودة في عهد النبيّ - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه في عهد النبيّ لم توجد مراقبة، يخرج النبيّ إلى العدو ويغزو ويرجع، لكن بعد ذلك لما فتحت الفتوحات وانتشر الإسلام في أقطار الأرض بعد ذلك صارت المراقبة، واحتاج المسلمون إلى مراقبة؛ ولهذا قال النبيّ - عليه الصلاة والسلام -: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة إلى الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط ثلاثاً" رواه مسلم؛ لأن الرباط على الحدود الإسلامية غير موجود في عهد الرسول، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: هذا أمر بتقوى الله. والمراد بالتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وعطفها على ما سبق إمّا أن يقال: من باب عطف العام على الخاص. وإمّا أن يقال: إنّ ما سبق أوامر والتقوى للنواهي، كما نقول في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، إنّ البرّ: فعل الخير، والتقوى: اجتناب الشرّ، وإذا ذكرت التقوى وحدها شملت فعل الخير وترك الشرّ. والمعنيان لا يتنافيان؛ فهذه الأوصاف أو

الأوامر الأربعة: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كلّها تشتمل على شيء واحد وهو فعل الأوامر واجتناب النواهي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لعلّ: هنا للتعليل وليست للرجاء؛ لأن كلام الله ليس فيه رجاء، فإنه على كل شيء قدير، ولا يصعب عليه شيء ولا يعسره شيء، لكنّها للتعليل، أي لأجل أن تفلحوا. والفلاح: كلمة جامعة للفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفلاح: أن يفوز الإنسان بمطلوبه، وأن ينجو من مرهوبه، ولا شك أن كلّ واحد من الخلق يتميّ هذا.

تمّ بحمد الله وفضله تفسير سورة آل عمران

● تفسير سورة النساء:

● ملحوظة: جاء في كتاب التفسير الميسر لنخبة من العلماء: "سميت هذه السورة بهذا

الاسم؛ لكثرة ما ورد فيها من الأحكام المتعلقة بالنساء أكثر مما ورد في غيرها".

● قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾:

● مناسبة السورة للتي قبلها:

قال أبو حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أحوال المشركين

والمنافقين وأهل الكتاب والمؤمنين أولي الأبواب، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَيُّ لَا أُضِيعَ عَمَلَ

عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] على المجازاة، وأخبر أن بعضهم من بعض في أصل

التوالد، نبه تعالى في أول هذه السورة على إيجاد الأصل، وتفرع العالم الإنساني منه؛

ليبحث على التوافق والتواء والتعاطف وعدم الاختلاف؛ ولينبه بذلك على أن أصل

الجنس الإنساني كان عابداً لله مفرداً بالتوحيد والتفوى، طائعا له، فكذلك ينبغي أن

تكون فروعه التي نشأت منه.

● تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: قال السمرقندي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي

الناس عامة. وقد يكون الناس خاصة وعامة، يعني خاصة لأهل مكة، وفي هذا الموضع

عام لجميع الناس. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: يعني اخشوا ربكم. ويقال: أي أطيعوا ربكم، احذروا

المعاصي؛ لكي تنجوا من عقوبة ربكم. وقيل: أي وحدوا ربكم ولا تشركوا به شيئا. ثم دلّ

على وحدانية نفسه بصنيعه، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: يعني آدم. عليه

السلام. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: يعني خلق من نفس آدم زوجها حواء، وذلك أن الله لما

خلق آدم وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم، فكان آدم بين النائم واليقظان، فخلق من ضلع من أضلاعه اليسرى حواء، فلما استيقظ قيل له: من هذه يا آدم؟ قال امرأة؛ لأنها خلقت من المرء، فقيل: ما اسمها؟ قال: حواء؛ لأنها خلقت من حي. وقد قيل: إنما سميت حواء؛ لأنه كان على شفيتها حوة. وقيل: لأن لوها كان يضرب إلى السمرة فسميت حواء من قولك: أحوى، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوًى﴾ [الأعلى: ٥].

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: يعني خلق من آدم وحواء، ونشر منهما رجالا كثيرا ونساء. قال مقاتل: أي خلق منهما ألف ذرية من الناس. وقال مكِّي: معنى الآية: أن الله تَبَّه خلقه على قدرته وأمرهم بتقواه. والنفس هنا: آدم ﷺ. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: قال مجاهد: خلق حواء عن قصيري آدم وهو نائم، استيقظ فقال "أنا" بالنبطية: امرأة. وقال السُّدِّي: "أُسْكِنَ آدم الجنة فكان يمشي فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة، قال: ولم تُخلَقِي؟ قالت: لتسكن إلي". وعن ابن عباس أنه قال: "إن الله خلق آدم ﷺ بيده في جنات عدن، فرأى آدم ﷺ كلَّ شيء يشبه بعضه بعضاً، ولم ير في الجنة شيئاً يشبهه، وأحب أن يكون معه من يشبهه؛ ليأنس به، وأحب الله أن يؤنسه بزوجه؛ ليكون منهما النسل، فأسبته الله، والجنة لا نوم فيها، ولا نعاس ولا سبات، فخلق حواء من ضلع من أضلاعه وهي: القصيري، فلما ذهب عنه السُّبَات رأى من يأنس به ويشبهه، فسمي إنساناً حيث أنس، فقال لها: ما أنت؟ قالت: أنا، وأنا بالسرانية: أنثى، وقيل: معناه: امرأة". ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا﴾: أي نشر من آدم وحواء خلقاً كثيراً. وقال الماوردي: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: يعني آدم، وفي ذلك نعمة عليكم؛ لأنه أقرب إلى التعاطف بينكم. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: يعني حواء، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن: خلقت من ضلع آدم، وقيل: الأيسر؛ ولذلك قيل للمرأة: ضلع أعوج. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: روي عن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها

عَلَيْهِ: "خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ فَهَمُّهَا فِي الرَّجُلِ، وَخُلِقَ الرَّجُلُ مِنَ التُّرَابِ فَهَمُّهُ فِي التُّرَابِ". وقال السمعاني: ﴿يَا أَيُّهَا﴾: (يَا) للدعاء، و(أَي) للإشارة، و(هَا) للتنبيه. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: بَدَأَ السُّورَةَ بالوعظ والتحذير، فَقَالَ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. وَأَرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةَ آدَمَ . صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَاحِدَةٍ﴾ عَلَى التَّأْنِيثِ؛ لِأَجْلِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مُؤَنَّثَةً. ﴿وَخُلِقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يَعْنِي: حَوَاءَ، وَسَمِيَتْ حَوَاءَ؛ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ حَيٍّ، وَفِي الْحَبَرِ الْمَعْرُوفِ "أَنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعِ أَعْوَجَ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَقِيمَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا عَلَى اعْوَجَاجٍ" رواه الشيخان. وَقِيلَ: إِنْ حَوَاءَ خُلِقَتْ مِنَ التُّرَابِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَخُلِقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: مَعْنَاهُ: وَخُلِقَ مِنْ جَنْسِهَا زَوْجَهَا، يَعْنِي: التُّرَابِ. وَالْأَصَحُّ الْأَوَّلُ. وَفِي الْحَبَرِ: "أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ أَلْقَى عَلَيْهِ النَّوْمَ، ثُمَّ أَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، وَخَلَقَ مِنْهُ حَوَاءَ، فَجَلَسَتْ بَجَنْبِهِ، فَلَمَّا انْتَبَهَ رَأَاهَا جَالِسَةً بَجَنْبِهِ" رواه الترمذي، وصححه ابن منده. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يُوْذِهِ أَخَذَ الضِّلْعَ شَيْئًا، وَلَوْ آذَاهُ لَمَا عَطَفَ رَجُلٌ عَلَى امْرَأَةٍ أَبَدًا. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: ذَكَرَ هَذَا كُلَّهُ؛ لِبَيَانِ الْقُدْرَةِ، وَإِظْهَارِ الْمِنَّةِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: (يَا) حَرْفُ نِدَاءٍ. و(أَيُّ) مُنَادِيٌّ مُفْرَدٌ. و(هَا) تَنْبِيْهُ. و(النَّاسُ) نَعَتْ ل(أَيُّ)، أَوْ صِلَةٌ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَحْفَشِيِّ. و(الرَّبُّ): الْمَالِكُ. وَفِي الْآيَةِ تَنْبِيْهُ عَلَى الصَّانِعِ وَعَلَى افْتِتَاحِ الْوُجُودِ، وَفِيهَا حَضْرٌ عَلَى التَّوَاصُلِ لِحُرْمَةِ هَذَا النَّسَبِ وَإِنْ بَعُدَ. وَقَالَ: ﴿وَاحِدَةٍ﴾: عَلَى تَأْنِيثِ لَفْظِ النَّفْسِ. وَالْخَلْقُ فِي الْآيَةِ: بِمَعْنَى الْإِخْتِرَاعِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿زَوْجَهَا﴾: حَوَاءَ. وَالزَّوْجُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: امْرَأَةُ الرَّجُلِ، وَيُقَالُ: زَوْجَةٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْهَا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَخَشًا فِي الْجَنَّةِ وَخَدَهُ، ثُمَّ نَامَ فَانْتَزَعَ اللَّهُ أَحَدَ أَضْلَاعِهِ الْقُصْبِيَّ مِنْ شِمَالِهِ، وَقِيلَ: مِنْ يَمِينِهِ، فَخَلَقَ مِنْهُ حَوَاءَ، وَيُعْضَدُ هَذَا الْقَوْلُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي قَوْلِهِ . عَلَيْهِ السَّلَامُ :. "إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرْتُهَا طَلَّقْتُهَا" رواه الشيخان. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ﴿مِنْهَا﴾: أَيِّ مِنَ

جِنْسِهَا، وَاللَّفْظُ يَتَنَاوَلُ الْمَعْنَيْنِ، أَوْ يَكُونُ لَحْمُهَا وَجَوَاهِرُهَا مِنْ ضِلْعِهِ، وَنَفْسُهَا مِنْ
 جِنْسِ نَفْسِهِ. ﴿وَبَتْ﴾: أَي نَشَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَالْفَرَّاشِ الْمَيْتُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، أَيِ
 الْمَيْتَشِيرِ. وَحَصْرُهُ ذُرِّيَّتُهَا إِلَى نَوْعَيْنِ: الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مُقْتَضٍ أَنَّ الْحَنَثَى لَيْسَ بِنَوْعٍ، وَأَنَّهُ
 وَإِنْ فَرَضْنَاهُ مُشْكِلاً الظَّاهِرَ عِنْدَنَا، فَلَهُ حَقِيقَةُ تَرُدُّهُ إِلَى أَحَدِ هَذَيْنِ النُّوعَيْنِ. وَفِي تَكَرُّرِ
 الْأَمْرِ بِالِاتِّقَاءِ تَأْكِيدٌ وَتَنْبِيهُ لِنُفُوسِ الْمَأْمُورِينَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا
 رَبَّكُمُ﴾: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ بِمَعْنَى: الطَّاعَةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: بِمَعْنَى: الْحَشْيَةِ، قَالَهُ
 مُقَاتِلٌ. ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: النَّفْسُ الْوَاحِدَةُ: آدَمُ. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾:
 (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ. وَقَالَ ابْنُ بَجْرٍ: مِنْهَا، أَيِ مِنْ جِنْسِهَا. وَاحْتَلَفُوا أَيُّ
 وَقْتٍ خُلِقَتْ لَهُ، عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمَا خُلِقَتْ بَعْدَ دُخُولِهِ الْجَنَّةِ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ،
 وَابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: قَبْلَ دُخُولِهِ الْجَنَّةِ، قَالَهُ كَعْبُ الْأَخْبَارِ، وَوَهْبٌ، وَابْنُ إِسْحَاقَ.
 ﴿زَوْجَهَا﴾: حَوَاءُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَتْ مِنْهُمَا﴾: قَالَ الْفَرَّاءُ: بَتْ: نَشَرَ، وَمِنْ الْعَرَبِ
 مَنْ يَقُولُ: أَبَتْ اللَّهُ الْخَلْقَ، وَيَقُولُونَ: بَشْتُكَ مَا فِي نَفْسِي، وَابْتَشْتُكَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: ﴿يَا
 أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: فِيهِ مَسَائِلُ: الْمِسْأَلَةُ الْأُولَى: رَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ
 هَذَا الْخِطَابَ لِأَهْلِ مَكَّةَ. وَأَمَّا الْأُصُولِيُّونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ عَامٌّ
 لِجَمِيعِ الْمَكَلَّفِينَ، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ؛ لِوُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ لَفْظَ النَّاسِ جَمْعٌ دَخَلَهُ (الْأَلِفُ،
 وَاللَّامُ) فَيُفِيدُ الْإِسْتِعْرَاقَ. وَثَانِيهَا: أَنَّهُ تَعَالَى عَلَّلَ الْأَمْرَ بِالِاتِّقَاءِ بِكَوْنِهِ تَعَالَى خَالِقًا لَهُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ جَمِيعِ الْمَكَلَّفِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ آدَمَ. عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 خُلِقُوا بِأَسْرِهِمْ، وَإِذَا كَانَتِ الْعِلَّةُ عَامَّةً كَانَ الْحُكْمُ عَامًّا. وَثَالِثُهَا: أَنَّ التَّكْلِيفَ بِالتَّقْوَى
 غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِأَهْلِ مَكَّةَ، بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي حَقِّ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا كَانَ لَفْظُ النَّاسِ عَامًّا فِي
 الْكُلِّ، وَكَانَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى عَامًّا فِي الْكُلِّ، وَكَانَتْ عِلَّةُ هَذَا التَّكْلِيفِ، وَهِيَ كَوْنُهُمْ خُلِقُوا
 مِنْ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ عَامَّةً فِي حَقِّ الْكُلِّ، كَانَ الْقَوْلُ بِالتَّخْصِيسِ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ. وَحُجَّةُ
 ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ مُخْتَصٌّ بِالْعَرَبِ؛ لِأَنَّ

المناشدة بالله وبالرحم عادة مختصة بهم، فيقولون: أسألك بالله وبالرحم، وأنشدك الله
 والرحم، وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ مختصاً
 بالعرب، فكان أول الآية وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مختصاً بهم؛ لأن قوله في أول
 الآية: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ وردا
 متوجهين إلى مخاطب واحد. ويمكن أن يجاب عنه: بأنه ثبت في أصول الفقه أن
 خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها، فكان قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عاماً في
 الكل، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ خاصاً بالعرب. المسألة الثانية:
 أنه تعالى جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن: إحداهما: هذه السورة وهي السورة
 الرابعة من النصف الأول من القرآن. والثانية: سورة الحج، وهي أيضاً السورة الرابعة من
 النصف الثاني من القرآن، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على
 معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة
 الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل
 على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعل
 صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على
 المبدأ على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة. المسألة الثالثة: اعلم
 أنه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقيقته أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، وهذا مشعر بأن
 الأمر بالتقوى معلق بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، ولا بد من بيان المناسبة بين هذا
 الحكم وبين ذلك الوصف، فنقول: قولنا: إنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، مشتمل
 على قيدين: أحدهما: أنه تعالى خلقنا، والثاني: كيفية ذلك التخليق، وهو أنه تعالى إنما
 خلقنا من نفس واحدة، ولكل واحد من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى، أما القيد
 الأول: وهو أنه تعالى خلقنا، فلا شك أن هذا المعنى علة لأن يجب علينا الانقياد
 لتكاليف الله والخضوع لأوامره ونواهيه، وبيان ذلك من وجوه: الأول: أنه لما كان خالقاً

لَنَا وَمُوجِدًا لِدَوَاتِنَا وَصِفَاتِنَا فَنَحْنُ عَبِيدُهُ وَهُوَ مَوْلَى لَنَا، وَالرُّبُوبِيَّةُ تُوجِبُ نَفَاذَ أَوَامِرِهِ عَلَى عَبِيدِهِ، وَالْعُبُودِيَّةُ تُوجِبُ الْإِنْقِيَادَ لِلرَّبِّ وَالْمُوجِدِ وَالْخَالِقِ. الثَّانِي: أَنَّ الْإِيجَادَ غَايَةُ الْإِنْعَامِ وَنَهَايَةُ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّكَ كُنْتَ مَعْدُومًا فَأَوْجَدَكَ، وَمَيِّتًا فَأَحْيَاكَ، وَعَاجِزًا فَأَقْدَرَكَ، وَجَاهِلًا فَعَلَّمَكَ، فَلَمَّا كَانَتْ النِّعَمُ بِأَسْرِهَا مِنَ اللَّهِ وَجَبَ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُقَابِلَ تِلْكَ النِّعَمَ بِإِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ، وَتَرْكِ التَّمَرُّدِ وَالْعِنَادِ. الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ كَوْنُهُ مُوجِدًا وَخَالِقًا وَإِلَهًا وَرَبًّا لَنَا، وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَشْتَغَلَ بِعُبُودِيَّتِهِ وَأَنْ نَتَّقِيَ كُلَّ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ عَنْهُ. وَخُصُوصَ كَوْنِهِ خَالِقًا لَنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ يُوجِبُ عَلَيْنَا الطَّاعَةَ وَالْإِحْتِرَازَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ خَلْقَ جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ أَذِلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ، فَحِينَئِذٍ يَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لِتَكَالِيفِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَكَانَ ارْتِبَاطُ قَوْلِهِ: ﴿تَقُوا رَبَّكُمْ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْإِنْتِظَامِ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى ذَكَرَ عَقِيبَهُ الْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالنِّسَاءِ وَالضُّعْفَاءِ، وَكَوْنُ الْخَلْقِ بِأَسْرِهِمْ مَخْلُوقِينَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ لَهُ أَثَرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَقَارِبَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ نَوْعٌ مُوَاصَلَةٍ وَمُخَالَطَةٍ تُوجِبُ مَزِيدَ الْمَحَبَّةِ؛ وَلِذَلِكَ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَفْرَحُ بِمَدْحِ أَقَارِبِهِ وَأَسْلَافِهِ، وَيَحْزَنُ بِذَمِّهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا الْمَعْنَى: أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرِيزَادَةِ شَفَقَةِ الْخَلْقِ بَعْضِهِمْ عَلَى الْبَعْضِ. الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ النَّاسَ إِذَا عَرَفُوا كَوْنَ الْكُلِّ مِنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ تَرَكُّوا الْمَفَاخِرَةَ وَالتَّكَبُّرَ وَأَظْهَرُوا التَّوَاضُّعَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ. الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعَادِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُخْرِجَ مِنْ صُلْبِ شَخْصٍ وَاحِدٍ أَشْخَاصًا مُخْتَلِفِينَ، وَأَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَطْرَةٍ مِنَ النُّطْفَةِ شَخْصًا عَجِيبَ التَّرَكِيبِ لَطِيفَ الصُّورَةِ، فَكَيْفَ يُسْتَبَعَدُ إِحْيَاءُ الْأَمْوَاتِ وَبَعْثُهُمْ وَنَشُورُهُمْ، فَتَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى الْمَعَادِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. الْوَجْهُ الْخَامِسُ: قَالَ الْأَصَمُّ: الْفَائِدَةُ فِيهِ: أَنَّ الْعَقْلَ لَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى أَنَّ الْخَلْقَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِالَدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ

أُمِّيًّا مَا قَرَأَ كِتَابًا وَلَا تَلَمَّذَ لِأُسْتَاذٍ، فَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى كَانَ إِخْبَارًا عَنِ الْعَيْبِ فَكَانَ مُعْجَزًا، فَالْحَاصِلُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَعْرِفَةِ النُّبُوَّةِ. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ هُوَ: حَوَاءُ، وَفِي كَوْنِ حَوَاءَ مَخْلُوقَةً مِنْ آدَمَ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ: أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَلْقَى عَلَيْهِ النَّوْمَ، ثُمَّ خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ الْيُسْرَى، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ رَأَاهَا وَمَالَ إِلَيْهَا وَأَلْفَهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَخْلُوقَةً مِنْ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ. الْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أَيُّ مِنْ جِنْسِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قَالَ الْقَاضِي: وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى؛ لِكَيْ يَصِحَّ قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ حَوَاءُ مَخْلُوقَةً ابْتِدَاءً لَكَانَ النَّاسُ مَخْلُوقِينَ مِنْ نَفْسَيْنِ، لَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْهُ بِأَنَّ كَلِمَةَ (مِنْ) لَا ابْتِدَاءَ الْغَايَةَ، فَلَمَّا كَانَ ابْتِدَاءُ التَّخْلِيقِ وَالْإِبْدَاءِ وَقَعَ بِآدَمَ. عَلَيْهِ السَّلَامُ. صَحَّ أَنْ يُقَالَ: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَأَيْضًا فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ آدَمَ مِنَ التُّرَابِ كَانَ قَادِرًا أَيْضًا عَلَى خَلْقِ حَوَاءَ مِنَ التُّرَابِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي خَلْقِهَا مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدَمَ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ بِهَذَا الْإِسْمِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا؛ أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا وَطَيَّبَهَا وَخَبِثَهَا؛ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي وَلَدِهِ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالطَّيِّبُ وَالْخَبِيثُ، وَالْمَرْأَةُ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِحَوَاءَ؛ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدَمَ فَكَانَتْ مَخْلُوقَةً مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ، فَلَا جَزَمَ سُمِّيَتْ بِحَوَاءَ. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: لَمْ يَقُلِ اللَّهُ: (وَبَثَّ مِنْهُمَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءَ)؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ كَوْنَهُمَا مَبْنُوثَيْنِ عَنْ نَفْسَيْهِمَا وَذَلِكَ مُحَالٌ. فَإِنْ قِيلَ: لَمْ يَلَمْ يَقُلْ: (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً كَثِيرًا)؟ وَلَمْ خَصَّصَ وَصْفَ الْكَثَرَةِ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؟ قُلْنَا: السَّبَبُ فِيهِ أَنَّ شُهْرَةَ الرِّجَالِ أَتَمُّ، فَكَانَتْ كَثَرَتُهُمْ أَظْهَرَ، فَلَا جَزَمَ

حُصُّوا بِوَصْفِ الْكَثْرَةِ، وَهَذَا كَالْتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ اللَّائِقَ بِحَالِ الرِّجَالِ الْإِشْتِهَارُ وَالْخُرُوجُ
وَالْبُرُوزُ، وَاللَّائِقُ بِحَالِ النِّسَاءِ الْإِخْتِفَاءُ وَالْحُمُولُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: فِي الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى الصَّانِعِ. ﴿مَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: قَالَ:
﴿وَاحِدَةٍ﴾ عَلَى تَأْنِيثِ لَفْظِ النَّفْسِ. وَلَفْظُ النَّفْسِ يُؤَنَّثُ وَإِنْ عُنِيَ بِهِ مُذَكَّرٌ. وَيَجُوزُ فِي
الْكَلَامِ (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدٍ)، وَهَذَا عَلَى مُرَاعَاةِ الْمَعْنَى؛ إِذِ الْمُرَادُ بِالنَّفْسِ هُنَا: آدَمُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ. ﴿وَبَتْ﴾: مَعْنَاهُ: فَرَّقَ وَنَشَرَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَرَأَيْتُ مَبْنُوثَةً﴾ [الغاشية: ١٦]. وَ﴿مِنْهُمَا﴾: يَعْنِي آدَمَ وَحَوَاءَ. ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾:
حَصَرَ ذَرِيَّتَهُمَا فِي نَوْعَيْنِ، فَاقْتَضَى أَنَّ الْخُنْثَى لَيْسَ بِنَوْعٍ، لَكِنْ لَهُ حَقِيقَةٌ تَرُدُّهُ إِلَى هَذَيْنِ
النَّوْعَيْنِ وَهِيَ الْأَدَمِيَّةُ فَيَلْحَقُ بِأَحَدِهِمَا. وَقَالَ الْبِيضَاوِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: خِطَابٌ يَعُمُّ
بَنِي آدَمَ. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: هِيَ آدَمُ. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا﴾: عَطَفَ عَلَى خَلْقِكُمْ، أَيَّ خَلْقِكُمْ مِنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ وَخَلَقَ مِنْهُ أُمَّكُمْ حَوَاءَ مِنْ
ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ، أَوْ مَخْدُوفٍ تَقْدِيرُهُ: مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ خَلَقَهَا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَهُوَ
تَقْرِيرٌ لِحَلْقِهِمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ. ﴿وَبَتْ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: بَيَانٌ لِكَيْفِيَّةِ تَوْلَدِهِمْ
مِنْهُمَا، وَالْمَعْنَى: وَنَشَرَ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ وَالزَّوْجِ الْمَخْلُوقَةِ مِنْهَا بَيْنَ وَبَنَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَاكْتَفَى
بِوَصْفِ الرِّجَالِ بِالْكَثَرَةِ عَنْ وَصْفِ النِّسَاءِ بِهَا؛ إِذِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُنْ أَكْثَرُ. وَذَكَرَ
كَثِيرًا حَمَلًا عَلَى الْجَمْعِ. وَتَرْتِيبُ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ
عَلَى الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ الَّتِي مِنْ حَقِّهَا أَنْ تُخْشَى، وَالنِّعْمَةِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي تُوجِبُ طَاعَةَ مُوَلِّيِّهَا، أَوْ
لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ تَمْهِيدُ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى فِيمَا يَتَّصِلُ بِحُقُوقِ أَهْلِ مَنَزِلِهِ وَبَنِي جَنْسِهِ عَلَى مَا دَلَّتْ
عَلَيْهِ الْآيَاتُ الَّتِي بَعْدَهَا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَبَتْ مِنْهُمَا﴾: أَيَّ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ
وَزَوْجِهَا، أَيَّ نَشَرَ وَفَرَّقَ فِي الْوُجُودِ. وَيُقَالُ: أَبَتْ اللَّهُ الْخَلْقَ، رُبَاعِيًّا، وَبَتْ، ثَلَاثِيًّا، وَهُوَ
الْوَارِدُ فِي الْقُرْآنِ. ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: قِيلَ: نَكَرَ؛ لِمَا فِي التَّنْكِيرِ مِنَ الشُّيُوعِ، وَلَمْ
يَكْتَفِ بِالشُّيُوعِ حَتَّى صَرَّحَ بِالْكَثَرَةِ. وَقَدَّمَ الرِّجَالَ؛ لِفَضْلِهِمْ عَلَى النِّسَاءِ. وَخَصَّ

﴿رَجَالًا﴾ بِذِكْرِ الْوَصْفِ بِالْكَثْرَةِ، فَقِيلَ: حَدَفَ وَصَفَ الثَّانِي؛ لِدَلَالَةِ وَصْفِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَنِسَاءً كَثِيرَةً. وَقِيلَ: لَا يُقَدَّرُ الْوَصْفُ وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِيهِ صَحِيحًا؛ لِأَنَّهُ نَبَّهَ بِمُحْصَوِيَّةِ الرِّجَالِ بِوَصْفِ الْكَثْرَةِ، عَلَى أَنَّ اللَّائِقَ بِمَحَلِّهِمُ الْإِشْتِهَارُ وَالْخُرُوجُ وَالْبُرُوزُ، وَاللَّائِقُ بِمَحَلِّ النِّسَاءِ الْخُمُولُ وَالْإِخْتِفَاءُ. وَفِي تَنْوِيعِ مَا خَلَقَ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى رِجَالٍ وَنِسَاءٍ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الْخُنْثَى؛ إِذْ حَصَرَ مَا خَلَقَ فِي هَذَيْنِ التَّوَعَيْنِ، فَإِنْ وُجِدَ مَا ظَاهِرُهُ الْإِشْكَالُ فَلَا بُدَّ مِنْ صَيْرُورَتِهِ إِلَى هَذَيْنِ التَّوَعَيْنِ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: الْمُرَادُ بِالنَّاسِ هُنَا: الْمَوْجُودُونَ عِنْدَ الْخِطَابِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَيَدْخُلُ مَنْ سَيُوجَدُ؛ بِدَلِيلٍ خَارِجِيٍّ وَهُوَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِمَا كُتِبَ بِهِ الْمَوْجُودُونَ، أَوْ تَغْلِبُ الْمَوْجُودِينَ عَلَى مَنْ لَمْ يُوْجَدْ كَمَا غَلَبَ الذُّكُورُ عَلَى الْإِنَاثِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾؛ لِإِخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْمَذَكَّرِ. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: قِيلَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، أَيُّ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ خَلَقَهَا أَوَّلًا، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا. وَقِيلَ: مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿خَلَقَكُمْ﴾، فَيَكُونُ الْفِعْلُ الثَّانِي دَاخِلًا مَعَ الْأَوَّلِ فِي حَيْزِ الصِّلَةِ. وَالْمَعْنَى: وَخَلَقَ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ الَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ آدَمَ زَوْجَهَا وَهِيَ حَوَّاءُ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُمَا﴾ رَاجِعٌ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ الْمَعْبُورِ عَنْهَا بِالنَّفْسِ وَالزَّوْجِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَثِيرًا﴾ وَصَفٌ مُؤَكَّدٌ لِمَا تُفِيدُهُ صِبْغَةُ الْجَمْعِ؛ لِكَوْنِهَا مِنْ جُمُوعِ الْكَثَرَةِ. وَقِيلَ: هُوَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيُّ بَنَّا كَثِيرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنِسَاءً﴾: أَيُّ كَثِيرَةً، وَتَرَكَ التَّصْرِيحَ بِهِ؛ اسْتِعْنَاءً بِالْوَصْفِ الْأَوَّلِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: الْمَأْمُورُ بِهِ إِمَّا الْإِتِّقَاءُ بِحَيْثُ يَشْمَلُ مَا كَانَ بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَسَائِرِ الْقَبَائِحِ، وَيَتَنَاوَلُ رِعَايَةَ حُقُوقِ النَّاسِ كَمَا يَتَنَاوَلُ رِعَايَةَ حُقُوقِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْإِتِّقَاءُ فِي الْإِخْلَالِ بِمَا يَحِبُّ حِفْظُهُ مِنَ الْحُقُوقِ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُطَابِقٌ لِمَا فِي السُّورَةِ مِنْ رِعَايَةِ حَالِ الْأَيْتَامِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْعَدْلِ فِي النِّكَاحِ وَالْإِرْثِ وَنَحْوِ ذَلِكَ بِالْخُصُوصِ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُطَابِقُهَا مِنْ حَيْثُ الْعُمُومُ، وَفِي التَّعَرُّضِ لِعُنْوَانِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ الْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ مَا لَا يَخْفَى

مِنْ تَأْيِيدِ الْأَمْرِ وَتَأْكِيدِ إِيْجَابِ الْإِمْتِنَالِ، وَكَذَا فِي وَصْفِ الرَّبِّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ لِأَنَّ الْإِسْتِعْمَالَ جَارٍ عَلَى أَنَّ الْوَصْفَ الَّذِي عُلِّقَ بِهِ الْحُكْمُ
 عِلَّةٌ مُوجِبَةٌ لَهُ، أَوْ بَاعِثَةٌ عَلَيْهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَا هُنَا كَذَلِكَ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ يَدُلُّ
 عَلَى الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ أَوْ النِّعْمَةِ الْجَسِيمَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَوَّلَ يُوجِبُ التَّقْوَى مُطْلَقًا حَدَرًا
 عَنِ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّ الثَّانِي يَدْعُو إِلَيْهَا وَفَاءً بِالشُّكْرِ الْوَاجِبِ، وَإِيْجَابِ الْخَلْقِ مِنْ
 أَصْلِ وَاحِدٍ لِلِاتِّقَاءِ عَلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي ظَاهِرٌ جَدًّا، وَفِي الْوَصْفِ الْمَذْكُورِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ
 الْمَخَاطِبِينَ عَالِمُونَ بِمَا ذُكِرَ مِمَّا يَسْتَدْعِي التَّحَلِّيَ بِالتَّقْوَى، وَفِيهِ كَمَالٌ تَوْبِيْخٍ لِمَنْ يَقُوْثُهُ
 ذَلِكَ. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾: أَيُّ نَشَرَ وَفَرَّقَ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ وَزَوَّجَهَا عَلَى وَجْهِ التَّنَاسُلِ
 وَالتَّوَالِدِ. ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: ﴿كَثِيرًا﴾: نَعَتْ لِقَوْلِهِ: ﴿رِجَالًا﴾ مُؤَكِّدٌ لِمَا أَفَادَهُ
 التَّنْكِيرُ، وَالْإِفْرَادُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى الْجَمْعِ، أَوْ الْعَدَدِ، أَوْ لِرِعَايَةِ صِبْغَةِ فَعِيلٍ. وَنَقَلَ أَبُو الْبَقَاءِ:
 أَنَّهُ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَخْدُوفٍ، أَيُّ بَثًّا كَثِيرًا؛ وَلِهَذَا أُفْرِدَ. وَلَيْسَ الْمِرَادُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الْبَالِغِينَ
 وَالبَالِغَاتِ، بَلِ الدُّكُورُ وَالْإِنَاثُ مُطْلَقًا تَجَوُّزًا، وَلَعَلَّ إِثَارَهُمَا عَلَى الدُّكُورِ وَالْإِنَاثِ؛ لِتَأْكِيدِ
 الْكَثْرَةِ، وَالْمِبَالِغَةِ فِيهَا بِتَرْشِيْحِ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمِثْنُوْثَةِ لِمَبْدِئِيَّةِ غَيْرِهِ. وَقِيلَ: ذَكَرَ الْكِبَارُ
 مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ الْمَكْلَفِيْنَ بِالتَّقْوَى، وَاكْتَفَى بِوَصْفِ الرِّجَالِ بِالْكَثْرَةِ عَنْ وَصْفِ
 النِّسَاءِ بِهَا؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُنْ أَكْثَرُ؛ إِذْ لِلرَّجُلِ أَنْ يَزِيدَ فِي عِصْمَتِهِ عَلَى
 وَاحِدَةٍ، بِخِلَافِ الْمَرْأَةِ، قَالَهُ الْخَطِيبُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: أَيُّ
 اخْشَوْهُ أَنْ تُخَالِفُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ أَوْ نَهَاكُمْ عَنْهُ. ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى اتِّصَافِهِ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ
 الْبَاهِرَةِ؛ لِتَأْيِيدِ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى وَتَأْكِيدِ إِيْجَابِ الْإِمْتِنَالِ بِهِ عَلَى طَرِيقِ التَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ
 بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: أَيُّ فَرَعَكُمْ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ، وَهُوَ نَفْسُ
 أَبِيكُمْ آدَمَ، وَخَلَقُهُ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَلَى هَذَا النَّمَطِ الْبَدِيعِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْ
 قَدَرَ عَلَى نَحْوِهِ كَانَ قَادِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ عِقَابُهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِمْ، فَالْتَّظَرُّ فِيهِ يُؤَدِّي
 إِلَى الْإِتِّقَاءِ مِنْ مُوْجِبَاتِ نِقْمَتِهِ، وَكَذَا جَعَلُهُ تَعَالَى إِيَّاهُمْ صِنَوَانًا مُفَرَّعَةً مِنْ أَرْوَمَةِ وَاحِدَةٍ

مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِحْتِرَازِ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمُرَاعَاةِ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ حُقُوقِ الْأُخُوَّةِ، كَمَا يُنبِئُ عَنْهُ مَا
 يَأْتِي مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَرِعَايَةِ حَالِ الْأَيْتَامِ، وَالْعَدْلِ فِي النِّكَاحِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.
 ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾: أَيُّ نَشَرَ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ وَزَوْجِهَا الْمَخْلُوقَةِ مِنْهَا بِطَرِيقِ التَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ.
 ﴿رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: أَيُّ كَثِيرَةً، وَتَرَكَ التَّصْرِيحَ بِهَا؛ لِلاِكْتِفَاءِ بِالْوَصْفِ الْمَذْكُورِ. وَقَالَ
 الْعَثِمِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: هَذِهِ جُمْلَةٌ نَدَائِيَّةٌ مُصَدَّرَةٌ بِ(يَا)، وَالْمَنَادَى: (أَيُّ)،
 وَهُوَ مُبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ، وَ(الهاء) لِلتَّنْبِيهِ، وَ(الناس): نَعْتٌ لـ(أَيُّ)، أَوْ عَطْفٌ
 بَيَانٍ، فَهِيَ مُبْنِيَّةٌ عَلَى الضَّمِّ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: وَجَّهَ اللَّهُ الْخُطَابَ لِلنَّاسِ،
 مَعَ أَنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَذَلِكَ لِبَيَانِ أَنَّ رَسُولَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَّةٌ لَجَمِيعِ النَّاسِ، وَ﴿النَّاسُ﴾:
 قِيلَ: إِنَّ أَصْلَهَا: أَنَسٌ، وَقَدْ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ؛ لِكثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا، كَمَا حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ
 مِنْ (شَرٌّ، وَخَيْرٌ)، وَأَصْلُهَا: أَشَرٌّ وَأَخِيرٌ، تَقُولُ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا، أَيْ أَخِيرٌ مِنْهُ، وَهَذَا
 شَرٌّ مِنْ هَذَا، أَيْ أَشَرٌّ مِنْهُ، لَكِنْ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا؛ لِكثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ. وَ﴿النَّاسُ﴾
 مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَنْسِ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ كَمَا يَقَالُ عَنْهُمْ: مَدَنِيُونَ بِالطَّبْعِ، يَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يَأْنَسَ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ أَحَدٌ تَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْخُلُوعُ إِلَّا لِسَبَبٍ خَارِجٍ عَمَّا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 النَّاسُ. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: التَّقْوَى مَأْخُودَةٌ مِنَ الْوَقَايَةِ، وَهِيَ أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ وَقَايَةً مِنْ
 عَذَابِ اللَّهِ، بِفَعْلٍ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. وَ(الرَّبُّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّكُمْ﴾: هُوَ الْخَالِقُ،
 الْمَالِكُ، الْمُدَبِّرُ، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةَ. وَخَالِقٌ، أَيْ مُوجِدٌ مِنَ الْعَدَمِ. وَمَالِكٌ:
 أَيْ لَا يَشْرِكُهُ أَحَدٌ فِي مُلْكِهِ. وَمُدَبِّرٌ: أَيْ لِلْأُمُورِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ. ﴿الَّذِي﴾
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ: ﴿الَّذِي﴾: صِفَةٌ لِلرَّبِّ، وَلَكِنَّهَا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ، وَمَعْنَى قَوْلِنَا:
 كَاشِفَةٌ: أَيْ مُوَضِّحَةٌ لِهَذِهِ الرِّبَوِيَّةِ أَوْ لِبَعْضِ مَعَانِيهَا، وَاحْتِرَازًا بِكَلِمَةٍ كَاشِفَةٍ عَنْ كَوْنِهَا
 مُقَيَّدَةً؛ لِأَنَّا لَوْ جَعَلْنَاهَا مُقَيَّدَةً، لَكَانَ هُنَاكَ رَبَّانٌ: رَبٌّ خَلَقَنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَرَبٌّ لَمْ
 يَخْلُقْنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ الَّذِي خَلَقَنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ رَبٌّ
 وَاحِدٌ، فَتَكُونُ الصِّفَةُ هُنَا صِفَةً كَاشِفَةً. وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أَيْ أَوْجَدَكُمْ. ﴿مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةً: هذه النفس هل يراد بها نفس بعينها، أو المراد بالنفس الجنس؟ الظاهر: أنَّ المراد بالنفس نفس بعينها، وهو آدم . عليه الصلاة والسلام . الذي هو أبو البشر، فقد خلقه الله من طين بيده الكريمة، وعلمه أسماء كل شيء يحتاج إليه؛ لأنه خلق من غير أن يكون هناك أحد يتعلم منه اللغة، فعلمه الله اللغات التي يحتاج إليها. وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أي خلق من هذه النفس زوجها، وقد جاء في الآثار أنها خلقت من ضلعه الأيمن، لكن ثبت في السنة أن المرأة خلقت من ضلع. وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: ولم يقل: زوجته؛ لأن اللغة الفصحى: أنَّ الزوج يطلق على الرجل والمرأة، وأصله ضدّ الوتر؛ لأن الزوجة إذا انضمت إلى زوجها صارت شافعة له بعد أن كان منفرداً؛ ولهذا يقال: الزوجة شريكة زوجها في الحياة؛ لأن بعضهما انضم إلى بعض. والمراد بها هنا: حواء. وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: بثّ: بمعنى نشر وأخرج. ﴿مِنْهُمَا﴾: أي من النفس وزوجها. ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: هذان القسمان لا يخرج عنهما بنو آدم، وما جاء في الخنثى فإنها: إمّا ذكر، وإمّا أنثى، أو مركّب منهما، لكنّه لا يخرج عن الذكورة والأنوثة. وقوله تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: ولم يقل: نساء كثيرات؛ لأن الكثرة في الرجال عزّ، بخلاف الكثرة في الإناث، وإن كان الواقع أنَّ النساء من بني آدم أكثر من الرجال، كما استنبط ذلك ابن تيمية من قول النبي ﷺ: "إنكنّ أكثر أهل النار" رواه مسلم، "وإنّ أهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون" رواه البخاري، فإذا كنّ أكثر أهل النار، وأهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون لزم من هذا أن يكنّ أكثر من الرجال، وهذا هو الواقع، لكن الكثرة في الرجال عزّ وفخر يفتخر الناس به، بخلاف النساء، فإنّ الكثرة منهنّ عالة وتعب وعناء.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾: قال مكّي: أي اتّقوا الله الذي إذا سأل بعضكم بعضاً سأل به وجعله وسيلة، يقول السائل: أسألك بالله، أنشدك بالله وشبهه، فكما تعظّمونه بألسنتكم، عظّموه بالطاعة فيما أمركم به ونهاكم عنه. وقال الضحّاك:

﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: أي تعاقدون به، وتعاهدون به. وقال ابن عباس: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ فتعاطفون به. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي اتقوا الأرحام. وقال الماوردي: معنى قوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: هو قَوْلُهُمْ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ. وَفِي الْأَرْحَامِ قَوْلُ آخَرٍ: أَنَّهُ أَرَادَ صَلُوحَهَا وَلَا تَقْطَعُوهَا، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ فَصَدَ بِأَوَّلِ السُّورَةِ حِينَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَنْ يَتَوَاصَلُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِخْوَةٌ وَإِنْ بَعُدُوا. وقال الواحدي: قال أكثر المفسرين: معنى ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها، قاله: قَتَادَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَالرَّبِيعُ، وَالْفَرَّاءُ، وَالزَّجَّاجُ. وعلى هذا التفسير انتصب الأرحام بالعطف على قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي اتقوا الله واتقوا الأرحام، أي اتقوا حقَّ الأرحام فَصَلُّوها وَلَا تَقْطَعُوهَا. ويجوز على هذا التفسير أن يكون منصوبًا بالإغراء، أي والأرحام فاحفظوها وصلوها، كقولك: (الأسد الأسد)، وهذا التفسير يدل على تحريم قطيعة الرحم، وبنى بوجوب صلتها. وقال السمعاني: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ: أي تسألون به، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الرَّجُلِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، وَنَشَدْتُكَ بِاللَّهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَاهَدُونَ بِهِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقُولَ: عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ، وَعَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: أي وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا. وقال ابن الجوزي: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: فيه ثلاثة أقوال: أَحَدُهَا: تَتَعَاطَفُونَ بِهِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: تَتَعَاقَدُونَ، وَتَتَعَاهدُونَ بِهِ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ. الثَّالِثُ: تَطْلُبُونَ حُقُوقَكُمْ بِهِ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. فَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: الْجُمُهُورُ عَلَى نَصْبِ الْمِيمِ، عَلَى مَعْنَى: وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، وَفَسَّرَهَا عَلَى هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ. وقال الرازي: قَالَ اللَّهُ أَوَّلًا: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَفِي هَذَا التَّكْرِيرِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: تَأْكِيدُ الْأَمْرِ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ لِلرَّجُلِ: (اعْمَلْ عَجَلًا)، فَيَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ قَوْلِكَ: (اعْمَلْ). الثَّانِي: أَنَّهُ أَمَرَ بِالتَّقْوَى فِي الْأَوَّلِ؛ لِمَكَانِ الْإِنْعَامِ بِالْخَلْقِ وَغَيْرِهِ، وَفِي الثَّانِي أَمَرَ بِالتَّقْوَى؛ لِمَكَانِ الْوُقُوعِ التَّسَاوُلِ بِهِ فِيمَا يَلْتَمِسُ الْبَعْضُ مِنَ الْبَعْضِ. الثَّالِثُ:

قَالَ أَوَّلًا: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وَقَالَ ثَانِيًا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَالرَّبُّ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى التَّرْبِيَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْإِلَهَ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى الْقَهْرِ وَالْهَيْبَةِ، فَأَمَرَهُم بِالتَّقْوَى؛ بِنَاءً عَلَى التَّرْغِيبِ، ثُمَّ أَعَادَ الْأَمْرَ بِهِ؛ بِنَاءً عَلَى التَّرْهِيبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ رَبَّكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ فَاتَّقِ مُحَالَفَتَهُ لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ عَظِيمُ السَّطْوَةِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: كَرَّرَ الْإِتِّقَاءَ تَأْكِيدًا وَتَنْبِيْهًا لِنُفُوسِ الْمَأْمُورِينَ. ﴿الَّذِي﴾: فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى النِّعَةِ. وَ﴿الْأَرْحَامَ﴾ مَعْطُوفٌ، أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَعْصُوهُ، وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهُمَا. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾: تَكَرُّرٌ لِلْأَمْرِ، وَتَذْكِيرٌ لِبَعْضِ آخَرٍ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِمْتِنَالِ بِهِ، فَإِنْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِاللَّهِ بِأَنْ يَقُولُوا: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ وَأَنْشُدُكَ اللَّهَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعْطَافِ يَفْتَضِي الْإِتِّقَاءَ مِنْ مُحَالَفَةِ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. وَتَعْلِيْقُ الْإِتِّقَاءِ بِالْإِسْمِ الْجَلِيلِ؛ لِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ وَالْمِبَالَعَةِ فِي الْحَمْلِ عَلَى الْإِمْتِنَالِ بِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَإِدْخَالِ الرُّوعَةِ؛ وَلَوْفُوعِ التَّسَاوُلِ بِهِ لَا بَعِيْرِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: قَالَ مَكِّي: أَيِ حَفِيزًا مُحْصِيًّا لأَعْمَالِكُمْ وَمَجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا. وَقَالَ الْمَوْرِدِيُّ: فِيهِ تَأْوِيلَانِ: أَحَدُهُمَا: حَفِيزًا، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ. الثَّانِي: عَلِيمًا، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَ﴿كَانَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَتْ لِتَحْدِيدِ الْمَاضِي فَقَطُّ، بَلِ الْمَعْنَى: كَانَ وَهُوَ يَكُونُ. وَالرَّقِيبُ: بِنَاءٌ لِاسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ رَقَبَ يَرْقُبُ إِذَا أَحَدَ النَّظَرَ بِالْبَصَرِ أَوْ بِالْبَصِيرَةِ إِلَى أَمْرٍ مَا؛ لِيَتَحَقَّقَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَيَقْتَرِنُ بِذَلِكَ حِفْظٌ وَمُشَاهَدَةٌ وَعِلْمٌ بِالْحَاصِلِ عَنِ الرَّقَبَةِ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ضَرْبٌ مِنَ الْوَعِيدِ، وَلَمْ يَقُلْ (لَكُمْ)؛ لِلاِشْتِرَاكِ الَّذِي كَانَ يَدْخُلُ مِنْ أَنَّهُ يَرْقُبُ لَهُمْ مَا يَصْنَعُ غَيْرُهُمْ. وَمِمَّا ذَكَرْنَاهُ قِيلَ لِلَّذِي يَرْقُبُ خُرُوجَ السَّهْمِ مِنْ رَبَابَةِ الضَّرِيْبِ فِي الْقِدَاحِ: رَقِيبٌ؛ لِأَنَّهُ يَرْقُبُ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: الرَّقِيبُ: الْحَافِظُ. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هُوَ الْحَافِظُ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ فِي نُعُوتِ الْآدَمِيِّينَ الْمُؤَكَّلِ بِحِفْظِ الشَّيْءِ، الْمُرْتَصِدِ لَهُ، الْمَتَحَرِّزُ عَنِ الْعَقْلَةِ فِيهِ، يُقَالُ مِنْهُ: رَقَبْتُ الشَّيْءَ أَرْقُبُهُ رَقَبَةً. وَقَالَ الرَّازِيُّ: حَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ بِمَا

يَكُونُ كَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ. وَالرَّقِيبُ: هُوَ الْمَرَقِبُ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَيْكَ جَمِيعَ أَفْعَالِكَ، وَمَنْ هَذَا صِفَتُهُ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُخَافَ وَيُرْجَى، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ حَذِرًا خَائِفًا فِيمَا يَأْتِي وَيَتْرُكُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أَيُّ حَفِيزًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ. ابْنُ زَيْدٍ: عَلِيمًا. وَقِيلَ: حَافِظًا، قِيلَ: بِمَعْنَى فَاعِلٍ. فَالرَّقِيبُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَالرَّقِيبُ: الْحَافِظُ وَالْمُنْتَظَرُ، تَقُولُ: رَقَبْتُ أَرْقُبُ رَقَبَةً وَرَقَبَانًا إِذَا انتَظَرْتَ. وَالْمَرْقَبُ: الْمَكَانُ الْعَالِي الْمَشْرِفُ، يَقِفُ عَلَيْهِ الرَّقِيبُ. وَالرَّقِيبُ: السَّهْمُ الثَّلَاثُ مِنَ السَّبْعَةِ الَّتِي لَهَا أَنْصِبَاءُ. وَيُقَالُ: إِنَّ الرَّقِيبَ ضَرَبٌ مِنَ الْحَيَاتِ، فَهُوَ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: الرَّقِيبُ: الْمَرَقِبُ، وَهِيَ صَيَغَةُ مُبَالَغَةٍ، يُقَالُ: رَقَبْتُ أَرْقُبُ رَقَبَةً وَرُقَبَانًا: إِذَا انتَظَرْتَ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أَيُّ حَفِيزًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، فَهُوَ مِنْ رَقَبَهُ بِمَعْنَى حَفِظَهُ، كَمَا قَالَهُ الرَّازِيُّ، وَقَدْ يُقَسَّرُ: بِالْمِطْلَعِ، وَمِنْهُ الْمَرْقَبُ لِلْمَكَانِ الْعَالِي الَّذِي يُشْرِفُ عَلَيْهِ؛ لِيُطَّلَعَ عَلَى مَا دُونَهُ، وَمِنْ هُنَا فَسَّرَهُ ابْنُ زَيْدٍ: بِالْعَالِمِ، وَعَلَى كُلِّ فَهْمٍ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ. وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ التَّغْلِيلِ لِلْأَمْرِ وَوُجُوبِ الْإِمْتِنَانِ. وَإِظْهَارِ الْأَسْمِ الْجَلِيلِ؛ لِتَأْكِيدِهِ، وَتَقْدِيمِ الْجَارِ؛ لِرِعَايَةِ الْقَوَاصِلِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أَيُّ مُرَاقِبًا لَجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، يَرَاهَا وَيَعْلَمُهَا فَلَا يَغُوبُ عَنْهُ مِنْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَتِهِ تَعَالَى، فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُرَاقِبَ أَحْوَالَ نَفْسِهِ، وَيَأْخُذَ حَذَرَهُ مِنْ أَنْ يَنْتَهَزَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ فُرْصَةً فَيَهْلِكَ عَلَى غَفْلَةٍ. وَقَالَ الْعَنِيْمِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: كَرَّرَ الْأَمْرَ بِتَقْوَاهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِمَا لَهَا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَفَّقَ لَتَقْوَى اللَّهِ صَلَحَتْ أُمُورُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: أَيُّ يَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهِ لِلْحِمَايَةِ، فَيَقُولُ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَنْقِذَنِي، أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ لَا تُؤْذِنِي، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَسْأَلُ، فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَسَاءَلُ بِهِ النَّاسُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: جَمْعُ رَحِمٍ، وَهُمْ الْقَرَابَةُ. لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِتَقْوَاهُ مَرَّتَيْنِ فِي الْآيَةِ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أَيُّ يَرَاقِبُكُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ، هَلْ اتَّقَيْتُمْ اللَّهَ

أم لم تتقوه؟ هل اتقيتم الأرحام وقمتم بواجبها أم لم تتقوها؟. وختم الآية بهذه الجملة يراد به: التهديد من المخالفة، كما لو قلت لأحد أبنائك: افعل كذا فأنا رقيب عليك، فهذا يعني أنك تهدده بأن لا يخالف، وأنه إن خالف فسيجد عقوبته.

• قال الله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ عَطْفَانَ كَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لِابْنِ أَخٍ لَهُ يَتِيمٌ، فَلَمَّا بَلَغَ طَلَبَ مَالَهُ، فَمَنَعَهُ، فَخَاصَمَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ"، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه لما افتتح السورة بذكر ما يدل على أنه يحب على العبد أن يكون متفادًا لتكاليف الله محترًا عن مساخطه، شرع بعد ذلك في شرح أقسام التكليف. وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه لما وصل الأرحام أتبع بالأيثار؛ لأنهم صاروا بحيث لا كافل لهم، ففارق حال من له رحم ماسة.

وقال ابن عاشور: مناسبتها عطف الأمر على ما قبله: أنه من فروع تقوى الله في حقوق الأرحام؛ لأن المتصرفين في أموال اليتامى في غالب الأحوال هم أهل قراباتهم، أو من فروع تقوى الله الذي يتساءلون به وبالأرحام فيجعلون للأرحام من الحظ ما جعلهم يفسمون بها كما يفسمون بالله، وشيء هذا شأنه حقيق بأن تراعى أواصره، وهم لم يرقبوا ذلك.

• تفسير الآية:

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾: قال ابن الجوزي: الخطاب للأولياء والأوصياء. ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه إبدال حقيقة، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أخذ الجيد، وإعطاء الرديء مكانه، قاله سعيد بن المسيب، والضحاك،

وَالنَّحْيُ، وَالزُّهْرِيُّ، وَالسُّدِّيُّ. قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ غَنَمِ الْيَتِيمِ، وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا الْمَهْزُولَةَ، وَيَأْخُذُ الدَّرَاهِمَ الْجِيَادَ، وَيَطْرَحُ مَكَانَهَا الزُّيُوفَ. الثَّانِي: أَنَّهُ الرِّبْحُ عَلَى الْيَتِيمِ، وَالْيَتِيمُ غَيْرٌ لَا عِلْمَ لَهُ، قَالَهُ عَطَاءٌ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ بِإِبْدَالِ حَقِيقَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ أَخَذَهُ مُسْتَهْلِكًا، ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ وَالصِّغَارَ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الْمِيرَاثَ الْأَكْبَرُ مِنَ الرِّجَالِ، فَنَصِيبُ الرَّجُلِ مِنَ الْمِيرَاثِ طَيِّبٌ، وَمَا أَخَذَهُ مِنْ حَقِّ الْيَتِيمِ حَبِثٌ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ بَدَلًا مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: ﴿وَأَثُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: الْيَتَامَى: جَمْعُ يَتِيمٍ وَيَتِيمَةٍ، وَالْيَتِيمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: مَنْ فَقَدَ الْأَبَ قَبْلَ الْبُلُوغِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا يُنْتَمِ بَعْدَ احْتِلَامٍ" رواه أبو داود، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَالْيَتَمُ فِي الْبَهِيمَةِ: فَقَدُ الْأُمِّ فِي حَالِ الصِّغَرِ، وَحُكِيَ: الْيَتِيمُ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هَذِهِ الْمُخَاطَبَةُ هِيَ لِمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ مِنَ الْعَرَبِ أَلَّا يَرِثَ الصَّغِيرُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَعَ الْكَبِيرِ، فَقِيلَ لَهُمْ: وَرَثَتِهِمْ أَمْوَالُهُمْ، وَلَا تَتَرَكُوا أَيُّهَا الْكِبَارُ حُطُوظَكُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَتَأْخُذُوا الْكُلَّ ظُلْمًا حَرَامًا حَبِثًا، فَيَجِيءُ فِعْلُكُمْ ذَلِكَ تَبَدُّلًا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هَذِهِ الْمُخَاطَبَةُ هِيَ لِأَوْصِيَاءِ الْيَتَامِ، وَالْمَعْنَى: إِذَا بَلَّغُوا وَأَوْسَسَ مِنْهُمْ الرُّشْدَ. وَسَمَّاهُمْ يَتَامَى وَهُمْ قَدْ بَلَّغُوا؛ اسْتِصْحَابًا لِلْحَالَةِ الْأُولَى الَّتِي قَدْ ثَبَّتَتْ لَهُمْ مِنَ الْيَتَمِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَأَثُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: وَأَرَادَ بِالْيَتَامَى الَّذِينَ كَانُوا أَيْتَامًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَلْقِي السَّحَرَةَ سَاحِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧]، وَلَا سِحَرَ مَعَ السُّجُودِ، فَكَذَلِكَ لَا يُنْتَمِ مَعَ الْبُلُوغِ، وَكَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (يَتِيمٌ أَبِي طَالِبٍ)؛ اسْتِصْحَابًا لِمَا كَانَ. (وَأَثُوا) أَيُّ أَعْطُوا. وَالْإِيْتَاءُ: الْإِعْطَاءُ. وَلِفُلَانٍ أَتَوْتُ، أَيُّ عَطَاءً. قَالَ أَبُو زَيْدٍ: أَتَوْتُ الرَّجُلَ أَتَوُهُ إِيْتَاوَةً، وَهِيَ الرِّشْوَةُ. وَالْيَتِيمُ: مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْخُلْمَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ. وَإِيْتَاءُ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ يَكُونُ بَوَجهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِجْرَاءُ الطَّعَامِ وَالْكِسْوَةِ مَا دَامَتِ الْوِلَايَةُ، إِذْ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا ذَلِكَ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْأَخْذَ الْكُلِّيَّ وَالْإِسْتِبْدَادَ كَالصَّغِيرِ وَالسَّفِيهِ الْكَبِيرِ. الثَّانِي: الْإِيْتَاءُ بِالْتَّمَكُّنِ وَإِسْلَامِ الْمَالِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِرْشَادِ، فَإِذَا تَحَقَّقَ الْوَلِيُّ رُشْدَهُ حَرَّمَ

عَلَيْهِ إِمْسَاكَ مَالِهِ عَنْهُ وَكَانَ عَاصِيًا. ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: أَيَّ لَا تَتَّبَدَّلُوا الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِالْهَرَبَةِ، وَلَا الدَّرْهَمَ الطَّيِّبَ بِالزَّيْفِ. وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِعَدَمِ الدِّينِ لَا يَتَحَرَّجُونَ عَنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، فَكَانُوا يَأْخُذُونَ الطَّيِّبَ وَالْجَيْدَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَيُبَدِّلُونَهُ بِالرَّذِيءِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَقُولُونَ: اسْمُ بِاسْمٍ وَرَأْسُ بِرَأْسٍ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. هَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَالزُّهْرِيِّ، وَالسُّدِّيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ حَبِثَةٌ وَتَدْعُوا الطَّيِّبَ وَهُوَ مَالُكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَبَازَانُ: لَا تَتَعَجَّلُوا أَكْلَ الْخَبِيثِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَدْعُوا أَنْتَظَارًا الرِّزْقَ الْحَلَالَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَيَأْخُذُ الْأَكْبَرُ الْمِيرَاثَ. قَالَ عَطَاءٌ: لَا تَرِبْحَ يَتِيمِكَ الَّذِي عِنْدَكَ وَهُوَ غَرٌّ صَغِيرٌ. وَهَذَا الْقَوْلَانِ خَارِجَانِ عَنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: تَبَدَّلَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ أَيَّ أَخَذَهُ مَكَانَهُ، وَمِنْهُ الْبَدَلُ. ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: ﴿إِنَّهُ﴾: أَيُّ الْأَكْلِ. ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: أَيُّ إِثْمًا كَبِيرًا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَغَيْرِهِمَا. يُقَالُ: حَابَ الرَّجُلُ يَحُوبُ حُوبًا إِذَا أَثَمَ، وَأَصْلُهُ: الرَّجْرُ لِلْإِبِلِ، فَسُمِّيَ الْإِثْمُ حُوبًا؛ لِأَنَّهُ يُرْجَرُ عَنْهُ وَبِهِ. وَيُقَالُ فِي الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ حَوْبَتِي)، أَيُّ إِثْمِي. وَالْحَوْبَةُ أَيْضًا: الْحَاجَةُ، وَمِنْهُ فِي الدُّعَاءِ: (إِلَيْكَ أَرْفَعُ حَوْبَتِي)، أَيُّ حَاجَتِي. وَالْحَوْبُ: الْوَحْشَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ. عَلَيْهِ السَّلَامُ. لِأَيُّ أَيُّوبَ: "إِنَّ طَلَّاقَ أُمِّ أَيُّوبَ لِحَوْبٍ". وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: خُطَابٌ لِلأَوْصِيَاءِ. وَقِيلَ: خُطَابٌ لِلْعَرَبِ الَّذِينَ لَا يُورَثُونَ الصَّغِيرَ مَعَ الْكَبِيرِ، أَمَرُوا أَنْ يُورَثُوهُمْ. وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْخُطَابَ لِلأَوْصِيَاءِ، فَالْمُرَادُ: أَنْ يُؤْتُوا الْيَتَامَى مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا يَأْكُلُونَ وَيَلْبَسُونَ فِي حَالِ صِغَرِهِمْ، فَيَكُونُ الْيَتِيمُ عَلَى هَذَا حَقِيقَةً. وَقِيلَ: الْمُرَادُ: دَفَعَ أَمْوَالَهُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا، فَيَكُونُ الْيَتِيمُ عَلَى هَذَا مَجَازًا؛ لِأَنَّ الْيَتِيمَ قَدْ كَبُرَ. ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: كَانَ بَعْضُهُمْ يَبَدِّلُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِالْمَهْزُولَةِ مِنْ مَالِهِ، وَالدَّرْهَمَ الطَّيِّبَ بِالزَّائِفِ، فَنَهَاَهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ وَهُوَ الْخَبِيثُ، وَتَدْعُوا مَا لَكُمْ وَهُوَ الطَّيِّبُ. ﴿وَلَا

تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ» المعنى: نهي أن يأكلوا أموال اليتامى مجموعة إلى أموالهم. وقيل: نهي عن خلط أموالهم بأموال اليتامى، ثم أباح ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وإنما تعدى الفعل بـ(إلى)؛ لأنه تضمن معنى الجمع والضم. وقيل: بمعنى مع ﴿خُوبًا﴾ أي ذنبًا. وقال الألوسي: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: شروع في تفصيل موارد الاتقاء على أتم وجه، وبدأ بما يتعلّق باليتامى؛ إظهارًا لكمال العناية بشأنهم، ولملابستهم بالأرحام؛ إذ الخطاب للأوصياء والأولياء، وكلّما تُفَوّض الوصاية لأجنبي. واليتيم من الإنسان: من مات أبوه، ومن سائر الحيوانات: فاقد الأم، من اليتيم: وهو الانفراد. وقال القاسمي: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: شروع في تفصيل موارد الاتقاء ومطابته بتكليف ما يقابلها أمرًا ونهيًا. وتقديم ما يتعلّق باليتامى؛ لإظهار كمال العناية بأمرهم؛ ولملابستهم بالأرحام؛ إذ الخطاب للأولياء والأوصياء، وكلّما تُفَوّض الوصاية إلى الأجنبي. واليتيم: من مات أبوه، من اليتيم، وهو الانفراد، ومنه الدرّة اليتيمة، والقياس الاشتقائي يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، وقد حصّه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. وفي الآية وجوه: الأول: أن يراد باليتامى: الكبار الذين أونس منهم الرشد مجازًا، باعتبار ما كان، أوثر لقرب العهد بالصغر، والإشارة إلى وجوب المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم حينئذ، حتّى كأن اسم اليتيم باقٍ بعد غير زائل. الثاني: أن يراد بهم الكبار حقيقة، واردة على أصل اللّغة. الثالث: أن يراد بهم الصغار، وبـ(الإيتاء): ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النّفقة والكسوة، لا دفعها إليهم، وفيه بُعد. الرابع: أن يراد بهم ما ذكر، وبـ(إيتائهم): الأموال أن لا يطمّع فيها الأولياء والأوصياء، ولاة السوء وقضاة، ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة حتّى تُؤتى اليتامى إذا بلغوا سائمة غير مخدوفة، فالتجور في الإيتاء حينئذ باستعماله في لازم معناه وهو تركها سائمة؛ لأنّها لا تُؤتى إلّا إذا كانت كذلك. قال الناصر في "الإتصاف": هذا الوجه قويٌّ بقوله بعد آيات: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿النساء: ٦﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى فِي الْحَضِّ عَلَى حِفْظِهَا لَهُمْ لِيُؤْتَوْهَا عِنْدَ بُلُوغِهِمْ وَرُشْدِهِمْ، وَالثَّانِيَّةُ فِي الْحَضِّ عَلَى الْإِيتَاءِ الْحَقِيقِيِّ عِنْدَ حُصُولِ الْبُلُوغِ وَالرُّشْدِ. وَيُقَوِّيه أَيْضًا قَوْلُهُ عَقِيبَ الْأُولَى: ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا﴾ إِنْجَ، فَهَذَا كُلُّهُ تَأْدِيبٌ لِلْوَصِيِّ مَا دَامَ الْمَالُ بِيَدِهِ وَالْيَتِيمُ فِي حِجْرِهِ. وَأَمَّا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مُؤَدَّى الْآيَتَيْنِ وَاحِدًا، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْإِيتَاءِ حَقِيقَةً، وَيُخْلَصُ عَنِ التَّكَرَّارِ بِأَنَّ الْأُولَى كَالْمَجْمَلَةِ وَالثَّانِيَّةُ كَالْمَبْنِيَّةِ لِشَرْطِ الْإِيتَاءِ: مِنَ الْبُلُوغِ وَإِنْسَانِ الرُّشْدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ﴾: أَيُّ وَلَا تَسْتَبَدِّلُوا الْحَرَامَ. وَهُوَ مَالُ الْيَتَامَى. بِالْحَلَالِ وَهُوَ مَالُكُمْ، وَمَا أُبِيحَ لَكُمْ مِنَ الْمَكَاسِبِ، وَرَزَقَ اللَّهُ الْمَيِّتُوثَ فِي الْأَرْضِ فَتَأْكُلُوهُ مَكَانَهُ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ آخَرَ كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ، أَيُّ لَا تَأْكُلُوهَا مَضْمُومَةً إِلَى أَمْوَالِكُمْ مَخْلُوطَةً بِهَا لِلتَّوَسُّعَةِ: ﴿إِنَّهُ﴾: أَيُّ الْأَكْلِ. ﴿كَانَ حُوبًا﴾: أَيُّ ذَنْبًا عَظِيمًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَبِيرًا﴾ مُبَالَغَةٌ فِي بَيَانِ عِظَمِ ذَنْبِ الْأَكْلِ الْمَذْكُورِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: هَذَا أَوَّلُ مَا أَوْصَى بِهِ مِنْ حَقُوقِ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ. وَهُمْ الْيَتَامَى الَّذِينَ فَقَدُوا آبَاءَهُم الْكَافِلِينَ لَهُمْ، وَهُمْ صَغَارُ ضَعْفٍ لَا يَقُومُونَ بِمَصَالِحِهِمْ. فَأَمَرَ الرُّؤُوفَ الرَّحِيمَ عِبَادَهُ أَنْ يَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يَقْرَبُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَنْ يُؤْتَوْهُمْ أَمْوَالَهُمْ إِذَا بَلَّغُوا وَرَشَدُوا، كَامِلَةً مَوْفُورَةً، وَأَنْ لَا ﴿تَتَّبَدَّلُوا الْحَيْثُ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ بَغَيْرِ حَقٍّ، ﴿بِالطَّيِّبِ﴾، وَهُوَ الْحَلَالُ الَّذِي مَا فِيهِ حَرَجٌ وَلَا تَبَعَةٌ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: أَيُّ مَعَ أَمْوَالِكُمْ، فَفِيهِ تَنْبِيهُ لِقَبْحِ أَكْلِ مَا لَهُمْ بِهَذِهِ الْحَالَةِ، الَّتِي قَدْ اسْتَغْنَى بِهَا الْإِنْسَانُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الرِّزْقِ فِي مَالِهِ، فَمَنْ تَجَرَّأَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، فَقَدْ أَتَى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾: أَيُّ إِثْمًا عَظِيمًا، وَوَزْرًا جَسِيمًا. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: ﴿وَأَتُوا﴾: بِمَعْنَى: أَعْطُوا. ﴿الْيَتَامَى﴾: جَمْعُ يَتِيمٍ، وَهُوَ مَا خُوذَ مِنَ الْيَتِيمِ، وَهُوَ الْإِنْفِرَادُ، وَالْمُرَادُ بِهِ اصْطِلَاحًا: مَنْ مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ لَمْ يَبْلُغْ، سِوَاكَانِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى. أَمَّا إِذَا بَلَغَ فَإِنَّهُ يَزُولُ يَتِمُّهُ بِحَسَبِ الْإِصْطِلَاحِ وَالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ؛ وَلِهَذَا جَاءَ

في الحديث: "لا يُنم بعد احتلام" رواه أبو داود، وصححه الألباني، أي بعد البلوغ؛ لأنه إذا بلغ استقلّ بنفسه. وقوله: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾: أي أموالهم التي لهم، سواء كانت عندكم بصفتكم أولياء، أو لم تكن عندكم، ولكن أخذتموها بغير حق، وقوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: أي فلا تخونوا منها شيئاً، ولا تكتموا منها شيئاً، ولا تفسدوها، بل أعطوها كما كانت، ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ أن نعطيهم المال وهم أيتام؛ لأن اليتيم لا يعطى ماله إلا إذا اختبر، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]. وهناك فرق بين الإيتاء وبين الدفع؛ لأن الدفع معناه: لا تعطه المال حتى يبلغ ويرشد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، وإما إيتاء المال، فالمراد أن نحفظ المال لهم بحيث نعطيهم إياه كاملاً عند وجوب الدفع. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: أي لا تأخذوا الخبيث بدلاً عن الطيب. والمعنى: أننا لا نعطيهم الخبيث من أموالنا ونأخذ بدله الطيب، وقيل: معناها: لا تأخذوا أموالهم وتستغنوا بها عن الطيب؛ لأن أخذ أموالهم حرام، والحرام خبيث. ففيها وجهان: الوجه الأول: أن لا تأخذوا الطيب من أموالهم وتعطوهم الخبيث، ومثاله: أن يكون لليтим غنم سمينة جيّدة، وعند وليه غنم هزيلة رديئة، فيأخذ من غنم اليتيم الطيب ويعطيه الرديء، فإنّ هذا حرام، أو يكون عنده بُرّ طيب نقّي، فيأخذه ويعطيه بُراً رديئاً مخلوطاً، وما أشبه ذلك. فيكون معنى الآية على هذا الوجه: لا تأخذوا الطيب وتعطوهم الخبيث. الوجه الثاني: لا تأخذوا من أموالهم شيئاً؛ لأن أموالهم حرام عليكم، والحرام خبيث، فيكون معنى الآية على هذا الوجه: لا تأخذوا أموالهم فتستغنوا بها عن الطيب الذي تكتسبونه بوجه حلال. وكلا الأمرين محرّم، سواء أخذ ماله بدون أن يعطيه عنه شيئاً، أو أخذ ماله الطيب وأعطاه عنه مالاً رديئاً. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: قال العلماء: إنّ (إلى) هنا بمعنى (مع)، أي لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم. وقيل: بل إنّ (إلى) هنا على

بإبها، ولكن قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾ ضمنت معنى (تضموا)، أي لا تضموا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوها، وهذا المعنى أصح؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر في القرآن كثير، وإتيان (إلى) بمعنى (مع) قليل، وحمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل، وهذا من قواعد التفسير؛ لأنها إذا كانت هي الكثيرة في القرآن صارت هي اصطلاح القرآن، وهي حقيقة القرآن. والفائدة من تخصيص ذكر الأكل فقط؛ لأنه أكثر ما يكون، وأعم ما يكون من الانتفاعات؛ ولأنه هو الذي ينتفع به البدن انتفاعاً مباشراً، فإنّ اللباس ينتفع به لكن من الخارج؛ ولهذا فإن الآيات كلّها تعبر في الغالب بالأكل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وما أشبه ذلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾: الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على الفعل المفهوم ممّا سبق المكون من شيئين: تبديل الخبر بالطيب، وأكل الأموال إلى أموالنا، وقوله: ﴿إِنَّهُ﴾: أي هذا الفعل. وقوله: ﴿كَانَ﴾: أي كان عند الله. ﴿حُبًّا﴾: أي إثماً أو ذنباً. ﴿كَبِيرًا﴾: الكبير ضد الصغير؛ لأن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، فهذا من الذنب الكبير. وقد قال بعض العلماء: إنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وهذا خطأ عظيم؛ لأن قوله: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ ليس هو الأكل الذي نهى الله عنه هنا حتى نقول: إنّ بين الآيتين تعارضاً، فالله يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، أي لا تخلطوها لأجل أن تأكلوها، أمّا إذا خلطتها للإصلاح أو لمصلحة، فإنّ هذا لا بأس به، لكن بعض العلماء - عفا الله عنا وعنهم - إذا عجزوا عن الجمع بين النصّين قالوا: إنّ هذا منسوخ، وأقول: إذا عجزوا؛ لأنه قد لا يكون بين النصّين تعارض، فقد يكون كلّ نصّ محمولاً على معنى، وهذه مسألة خطيرة جدّاً؛ لأن معنى النسخ إنكار المنسوخ، وعدم جعله حكماً شرعياً؛ ولهذا لا يجوز ادّعاء النسخ مع إمكان الجمع.

• قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ

أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: اختلفوا في تنزيلها، وتأويلها على ستة أقوال:

أحدها: أنَّ القوم كانوا يتزوّجون عدداً كثيراً من النساء في الجاهليّة، ولا يتحرّجون من ترك العدل بينهنّ، وكانوا يتحرّجون في شأن اليتامى، فقيّل لهم: هذه الآية: احدّروا من ترك العدل بين النساء، كما تحدّرون من تركه في اليتامى، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وقتادة، والسديّ، ومقاتل.

الثاني: أنَّ أولياء اليتامى كانوا يتزوّجون النساء بأموال اليتامى، فلما كثّر النساء، مالوا على أموال اليتامى، فقصّروا على الأربع حفظاً لأموال اليتامى. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة.

الثالث: أنَّ معناها: وإن خِفْتُمْ يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في صدقات اليتامى إذا نكحتموهنّ، فانكِحوا سواهنّ من العرائب اللواتي أحلّ الله لكم، وهذا المعنى مروى عن عائشة رضي الله عنها.

الرابع: أنَّ معناها: وإن خِفْتُمْ يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في نكاحهنّ، وحدّزتم سوء الصّحبة لهنّ، وقلة الرّغبة فيهنّ، فانكِحوا غيرهنّ، وهذا المعنى مروى عن عائشة والحسن.

الخامس: أنَّهم كانوا يتحرّجون من ولاية اليتامى، فأمرُوا بالتّحرّج من الزّنى أيضاً، ونُدبوا إلى النّكاح الحلال، وهذا المعنى مروى عن مجاهد.

السادس: أنَّهم تحرّجوا من نكاح اليتامى، كما تحرّجوا من أموالهم، فرخص الله لهم هذه الآية، وقصرهم على عددٍ يُمكنُ العدل فيه، فكأنّه قال: وإن خِفْتُمْ يا أولياء اليتامى أن لا

تَعْدِلُوا فِيهِنَّ، فَانْكِحُوهُنَّ، وَلَا تَزِيدُوا عَلَى أَرْبَعٍ لَتَعْدِلُوا، فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِيهِنَّ، فَوَاحِدَةً، وَهَذَا الْمَعْنَى مَرْوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ.

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الألوسي: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ شروعٌ في النهي عن مُنْكَرٍ آخَرَ كَانُوا يُيَاسِرُونَهُ مُتَعَلِّقٌ بِأَنْفُسِ الْيَتَامَى أَصَالَةً وَبِأَمْوَالِهِمْ تَبَعًا عَقِيبَ النَّهْيِ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَمْوَالِهِمْ خَاصَّةً، وتأخيرُهُ عَنْهُ؛ لِقَلَّةِ وَقُوعِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَمْوَالِ وَتُرُودِهِ مِنْهُ مِنْزِلَةً الْمَرْكَبِ مِنَ الْمَفْرَدِ.

● تفسير الآية:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾: قال ابن الجوزي: وفي معنى العدل في اليتامى قولان: أحدهما: أي في نكاح اليتامى. الثاني: أي في أموالهم. قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾: أي ما حلَّ لكم. ﴿مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾: قال الزجاج: هو بدلٌ من ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، ومعناه: اثنتين اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وإنما خاطب الله العرب بأفصح اللغات، وليس من شأن البلوغ أن يُعَبَّرَ في العدد عن التسعة باثنتين، وثلاث، وأربع؛ لِأَنَّ التَّسْعَةَ قَدْ وُضِعَتْ لِهَذَا الْعَدَدِ، فَيَكُونُ عَيْنًا فِي الْكَلَامِ. وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: هَذِهِ (الواو) مَعْنَاهَا: التَّفَرُّقُ، وَلَيْسَتْ جَامِعَةً، فَاَلْمَعْنَى: فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً، وَانْكِحُوا ثَلَاثَ فِي غَيْرِ الْحَالِ الْأَوَّلِ، وَانْكِحُوا رُبْعَ فِي غَيْرِ الْحَالَيْنِ. وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى: (الواو) هَاهُنَا: لِإِبَاحَةِ أَيِّ الْأَعْدَادِ شَاءَ، لَا لِلْجَمْعِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: إِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَتْ (مَا) لِلْأَدْمِيَّةِ وَإِنَّمَا أَصْلُهَا لِمَا لَا يَعْقِلُ، فَعَنْهُ أَجْوَبَةٌ خَمْسَةٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ (مَنْ) وَ (مَا) قَدْ يَتَعَاقَبَانِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، أَيْ وَمَنْ بَنَاهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]، فَ(مَا) هَاهُنَا لِمَنْ يَعْقِلُ

وَهُنَّ النِّسَاءُ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ مُبَيَّنًا لِمُبْهَمِهِ. الثَّانِي: قَالَ الْبَصْرِيُّونَ: (مَا) تَقَعُ لِلنُّعُوتِ كَمَا تَقَعُ لِمَا لَا يَعْقِلُ، يُقَالُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَيُقَالُ: ظَرِيفٌ وَكَرِيمٌ. فَالْمَعْنَى: فَانكِحُوا الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ، أَيْ الْحَلَالَ، وَمَا حَرَّمَهُ اللَّهُ فَلَيْسَ بِطَيِّبٍ. وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فَأَجَابَهُ مُوسَى عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلَ. الثَّالِثُ: حَكَى بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ (مَا) فِي هَذِهِ الْآيَةِ ظَرْفِيَّةٌ، أَيْ مَا دُمْتَ تَسْتَحْسِنُونَ النِّكَاحَ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَفِي هَذَا الْمَنْزِعِ ضَعْفٌ. جَوَابُ رَابِعٍ: قَالَ الْفَرَّاءُ: (مَا) هَاهُنَا مَصْدَرٌ. وَقَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا بَعِيدٌ جِدًّا، لَا يَصِحُّ فَانكِحُوا الطَّيِّبَةَ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: طَابَ الشَّيْءُ يَطِيبُ طَيِّبَةً وَطَاطِبًا. قَالَ عَلْقَمَةُ: كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومٌ. جَوَابُ خَامِسٍ: وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِ(مَا) هُنَا الْعَقْدُ، أَيْ فَانكِحُوا نِكَاحًا طَيِّبًا. وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا سَمِعُوا الرَّعْدَ قَالُوا: سُبْحَانَ مَا سَبَّحَ لَهُ الرَّعْدُ، أَيْ سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَ لَهُ الرَّعْدُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ: سُبْحَانَ مَا سَحَّرَ كُلَّ لَنَا، أَيْ مَنْ سَحَّرَ كُلَّ. وَاتَّفَقَ كُلُّ مَنْ يُعَايِنُ الْعُلُومَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ لَيْسَ لَهُ مَفْهُومٌ؛ إِذْ قَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَخَفِ الْقِسْطَ فِي الْيَتَامَى لَهُ أَنَّ يَنْكِحَ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ: اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا كَمَنْ خَافَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِمَنْ خَافَ ذَلِكَ، وَأَنَّ حُكْمَهَا أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُقَالُ نِسَاءً إِلَّا لِمَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ. وَوَاحِدُ النِّسَاءِ: نِسْوَةٌ، وَلَا وَاحِدَ لِنِسْوَةٍ مِنْ لَفْظِهِ، وَلَكِنْ يُقَالُ: امْرَأَةٌ. ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾: مَوْضِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ: نَصَبٌ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ (مَا)، وَهِيَ نَكْرَةٌ لَا تَنْصَرِفُ؛ لِأَنَّهَا مَعْدُولَةٌ وَصِفَةٌ، كَذَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: هِيَ مَعَارِفٌ؛ لِأَنَّهَا لَا يَدْخُلُهَا (الْأَلِفُ، وَاللَّامُ)، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ (عُمَرُ) فِي التَّعْرِيفِ، قَالَهُ الْكُوفِيُّ. وَخَطَأَ الرَّجَّاجُ هَذَا الْقَوْلَ. وَقِيلَ: لَمْ يَنْصَرَفْ؛ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، فَأَحَادُ مَعْدُولٌ عَنْ وَاحِدٍ وَاحِدٍ، وَمَثْنَى مَعْدُولَةٌ عَنْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَثُلَاثُ مَعْدُولَةٌ عَنْ ثَلَاثَةٍ ثَلَاثَةٍ، وَرُبَاعٌ عَنْ أَرْبَعَةٍ أَرْبَعَةٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ لَا يَدُلُّ عَلَى إِبَاحَةِ تِسْعٍ، كَمَا قَالَ مَنْ بَعْدَ فَهْمِهِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، وَأَعْرَضَ

عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَزَعَمَ أَنَّ (الْوَاو) جَامِعَةٌ، وَعَصَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَكَحَ تِسْعًا، وَجَمَعَ بَيْنَهُنَّ فِي عِصْمَتِهِ، وَالَّذِي صَارَ إِلَى هَذِهِ الْجَهَالَةِ، وَقَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ: الرَّافِضَةُ، وَبَعْضُ أَهْلِ الظَّاهِرِ، فَجَعَلُوا مِثْنَى مِثْلَ اثْنَيْنِ، وَكَذَلِكَ ثَلَاثَ وَرُبَاعَ، وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الظَّاهِرِ أَيْضًا إِلَى أَقْبَحَ مِنْهَا، فَقَالُوا بِإِبَاحَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ ثَمَانٍ عَشْرَةٍ؛ تَمَسُّكَ مِنْهُ بِأَنَّ الْعَدَلَ فِي تِلْكَ الصِّيَغَةِ يُفِيدُ التَّكْرَارَ وَ(الْوَاو) لِلْجَمْعِ، فَجَعَلَ (مِثْنَى) بِمَعْنَى: اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَكَذَلِكَ (ثَلَاثَ، وَرُبَاعَ). وَهَذَا كُلُّهُ جَهْلٌ بِاللِّسَانِ وَالسُّنَّةِ، وَمُخَالَفَةٌ لِجَمَاعِ الْأُمَّةِ؛ إِذْ لَمْ يُسْمَعْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ أَنَّهُ جَمَعَ فِي عِصْمَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ. وَأَخْرَجَ مَالِكٌ فِي مُوطَّأِهِ، وَالنَّسَائِيُّ وَالِدَارُفُطِيُّ فِي سُنَنِهِمَا: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَيَّلَانَ بْنِ أُمَيَّةَ التَّقْفِيَّ وَقَدْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ: اخْتَرْتُ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا وَفَارَقَ سَائِرَهُنَّ"، وَفِي كِتَابِ أَبِي دَاوُدَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: "أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانِ نِسْوَةٍ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا". وَأَمَّا مَا أُبَيِّحُ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ (الْوَاو) جَامِعَةٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، لَكِنَّ اللَّهَ خَاطَبَ الْعَرَبِ بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ، وَالْعَرَبُ لَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ: تِسْعَةً، وَتَقُولَ: اثْنَيْنِ وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً، وَكَذَلِكَ تَسْتَقْبِحُ مِمَّنْ يَقُولُ: أَعْطِ فَلَانًا أَرْبَعَةً سِتَّةً ثَمَانِيَةً، وَلَا يَقُولُ: ثَمَانِيَةَ عَشَرَ. وَإِنَّمَا (الْوَاو) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: بَدَلٌ، أَيْ انْكِحُوا ثَلَاثًا بَدَلًا مِنْ (مِثْنَى)، وَ(رُبَاعَ) بَدَلًا مِنْ ثَلَاثٍ؛ وَلِذَلِكَ عَطَفَ بِ(الْوَاوِ) وَلَمْ يَعْطِفْ بِ(أَو). وَلَوْ جَاءَ بِ(أَو) لَجَازَ أَلَّا يَكُونَ لِصَاحِبِ الْمِثْنَى ثَلَاثُ، وَلَا لِصَاحِبِ الثَّلَاثِ رُبَاعٌ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ (مِثْنَى) تَقْتَضِي اثْنَيْنِ، وَ(ثَلَاثَ) تَقْتَضِي ثَلَاثَةً، وَ(رُبَاعَ) تَقْتَضِي أَرْبَعَةً، فَتَحَكُّمُهَا لَا يُوَافِقُهُمْ أَهْلُ اللِّسَانِ عَلَيْهِ، وَجَهَالَةُ مِنْهُمْ. وَكَذَلِكَ جَهْلُ الْآخَرِينَ: بِأَنَّ (مِثْنَى) تَقْتَضِي اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَ(ثَلَاثَ) ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً، وَ(رُبَاعَ) أَرْبَعَةً أَرْبَعَةً، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَثَلَاثًا ثَلَاثًا، وَأَرْبَعًا أَرْبَعًا، حَصَرٌ لِلْعَدَدِ. وَ(مِثْنَى) وَثَلَاثُ، وَرُبَاعٌ بِخِلَافِهَا. فَفِي الْعَدَدِ الْمَعْدُولِ عِنْدَ الْعَرَبِ زِيَادَةٌ مَعْنَى لَيْسَتْ فِي الْأَصْلِ، وَكَذَلِكَ أَنَّهَا إِذَا قَالَتْ: جَاءَتِ الْخَيْلُ مِثْنَى، إِنَّمَا تَعْنِي بِذَلِكَ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ جَاءَتْ

مُزْدَوِجَةً. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَكَذَلِكَ مَعْدُولُ الْعَدَدِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِذَا قُلْتَ: جَاءَنِي قَوْمٌ مِثْلِي أَوْ ثَلَاثٌ أَوْ أَحَادٌ أَوْ عَشَارٌ، فَإِنَّمَا تُرِيدُ أَنَّهُمْ جَاءُوكَ وَاحِدًا وَاحِدًا، أَوْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً، أَوْ عَشْرَةً عَشْرَةً، وَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْأَصْلِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: جَاءَنِي قَوْمٌ ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً، أَوْ قَوْمٌ عَشْرَةً عَشْرَةً، فَقَدْ حَصَرْتَ عِدَّةَ الْقَوْمِ بِقَوْلِكَ ثَلَاثَةً وَعَشْرَةً. فَإِذَا قُلْتَ: جَاءُونِي رُبَاعٌ وَثَنَاءً، فَلَمْ تَحْصُرْ عِدَّتَهُمْ، وَإِنَّمَا تُرِيدُ أَنَّهُمْ جَاءُوكَ أَرْبَعَةً أَرْبَعَةً أَوْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَسَوَاءٌ كَثُرَ عَدْدُهُمْ أَوْ قَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَصَرْتَهُمْ كُلَّ صِغَةٍ عَلَى أَقَلِّ مَا تَقْتَضِيهِ بِزَعْمِهِ تَحْكُمُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلِي﴾: قِيلَ: (مَا) بِمَعْنَى (مَنْ)، وَهَذَا مَذْهَبُ مَنْ يُجَوِّزُ وَفُوعَ (مَا) عَلَى أَحَادِ الْعُقَلَاءِ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَرْجُوحٍ. وَقِيلَ: عَبَّرَ بِ(مَا) عَنِ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ إِنْثَاءَ الْعُقَلَاءِ لِنُقْصَانِ عُقُولِهِنَّ يَجْرِي بِجَرَى غَيْرِ الْعُقَلَاءِ. وَقِيلَ: (مَا) وَاقِعَةٌ عَلَى النَّوْعِ، أَيِ فَانْكُحُوا النَّوْعَ الَّذِي طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، وَهَذَا قَوْلُ أَصْحَابِنَا: أَنَّ (مَا) تَقَعُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِّنْ يَعْقِلُ. وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: (مَا) لِتَعْمِيمِ الْجِنْسِ عَلَى الْمِيَالَعَةِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي قَبْلَهُ. وَقِيلَ: (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَالْمَصْدَرُ مُقَدَّرٌ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، وَالْمَعْنَى: فَانْكُحُوا النِّكَاحَ الَّذِي طَابَ لَكُمْ. وَقِيلَ: (مَا) نَكْرَةً مَوْصُوفَةً، أَيِ فَانْكُحُوا جِنْسًا أَوْ عَدَدًا يَطِيبُ لَكُمْ. وَقِيلَ: (مَا) ظَرْفِيَّةٌ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيِ مُدَّةَ طِيبِ النِّكَاحِ لَكُمْ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ (مَا) مَفْعُولَةٌ بِقَوْلِهِ: فَانْكُحُوا، وَأَنَّ (مِنَ النِّسَاءِ) مَعْنَاهُ: مِنَ الْبَالِغَاتِ. وَ(مَنْ) فِيهِ إِمَّا لِبَيَانِ الْجِنْسِ؛ لِلإِبْهَامِ الَّذِي فِي (مَا) عَلَى مَذْهَبِ مَنْ يُثْبِتُ لَهَا هَذَا الْمَعْنَى، وَإِمَّا لِلتَّبَعِيضِ وَتَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ، أَيِ كَائِنًا مِنَ النِّسَاءِ، وَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ (مَا) مَصْدَرِيَّةً أَوْ ظَرْفِيَّةً فَمَفْعُولُ (فَانْكُحُوا) هُوَ (مِنَ النِّسَاءِ)، كَمَا تَقُولُ: أَكَلْتُ مِنَ الرِّغِيفِ، وَالتَّقْدِيرُ فِيهِ: شَيْئًا مِنَ الرِّغِيفِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولُ (فَانْكُحُوا) مِثْلِي؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَعْدُولَ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَلِي الْعَوَامِلَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْمُهْرَدَاتِ. وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ عَامًّا فِي الْأَعْدَادِ كُلِّهَا، خَصَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِثْلِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، فَظَاهِرُ هَذَا التَّخْصِصِ تَقْسِيمُ الْمُنْكُوحَاتِ إِلَى أَنْ

لَنَا أَنْ نَنْزَوِّجَ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَثَلَاثَةً ثَلَاثَةً، وَأَرْبَعَةً أَرْبَعَةً، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَنْزَوِّجَ خَمْسَةً خَمْسَةً، وَلَا مَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْدَادِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: أَيُّ إِذَا كَانَ تَحْتَ حِجْرِ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةٌ وَخَافَ أَلَّا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَلْيُعْدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُمْ كَثِيرٌ، وَلَمْ يُضَيَّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ. ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾: أَيُّ انكِحُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فَاطِرٍ: ١]، أَيُّ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَلَا يَنْفِي مَا عَدَا ذَلِكَ فِي الْمَلَائِكَةِ؛ لِدَلَالَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ قَصْرِ الرِّجَالِ عَلَى أَرْبَعٍ، فَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ امْتِنَانٍ وَإِبَاحَةٍ، فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجُمُعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ لَذَكَرَهُ. قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَقَدْ دَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُبَيِّنَةُ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ غَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ نِسْوَةٍ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّافِعِيُّ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، إِلَّا مَا حُكِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الشَّيْعَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْجُمُعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلَا حَصْرٍ. وَقَدْ يَتِمَسَّكُ بَعْضُهُمْ بِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَمْعِهِ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَأَمَّا إِحْدَى عَشْرَةَ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَفَاطِ الْبُخَارِيِّ. وَقَدْ عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَنَسٍ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ بِخَمْسِ عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَدَخَلَ مِنْهُنَّ بِثَلَاثِ عَشْرَةَ، وَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَمَاتَ عَنْ تِسْعٍ"، وَهَذَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ مِنْ خَصَائِصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: الْمُرَادُ مِنَ الْخَوْفِ: الْعِلْمُ. عَبَّرَ عَنْهُ بِذَلِكَ؛ إِذَا نَأَى بِكَوْنِ الْمَعْلُومِ مَخُوفًا مَخْذُورًا لَا مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ؛ لِأَنَّ الَّذِي عَلِقَ بِهِ الْجَوَابُ هُوَ الْعِلْمُ بِوُقُوعِ الْجَوْرِ الْمَخُوفِ لَا الْخَوْفُ مِنْهُ. وَالْإِقْسَاطُ: الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ، وَجَعَلَ بَعْضَ الْهَمَزَةِ فِيهِ لِلْإِزَالَةِ، فَأَصْلُ مَعْنَاهُ حِينَئِذٍ: إِزَالَةُ الْقُسُوطِ، أَيُّ الظُّلْمِ وَالْحَيْفِ. وَ(لَا) مَزِيدَةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَلَّا يَٰعَلَمُ﴾. وَقِيلَ:

هو بمعنى: أَقْسَطَ، فَإِنَّ الرَّجَالَ حَكَى أَنْ قَسَطَ بِلاَ هَمْزٍ تُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالَ أَقْسَطَ. واليَتَامَى: جَمْعُ يَتِيمَةٍ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قِيلَ: أَيَامِي وَالْأَصْلُ أَيَّامٌ، وَيَتَائِمٌ، وَهُوَ كَمَا يُقَالُ لِلذُّكُورِ يُقَالُ لِلْإِنَاثِ. ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: (مَا) مَوْصُولَةٌ أَوْ مَوْصُوفَةٌ وَمَا بَعْدَهَا صِلَتُهَا أَوْ صِفَتُهَا. وَأَوْتِرَتْ عَلَى (مَنْ) ذَهَابًا إِلَى الْوَصْفِ مِنَ الْبُكَرِ أَوْ الثَّيِّبِ مَثَلًا، وَمَا تَحْتَصُّ أَوْ تَغْلِبُ فِي غَيْرِ الْعُقَلَاءِ فِيمَا إِذَا أُريدَ الذَّاتُ، وَأَمَّا إِذَا أُريدَ الْوَصْفُ فَلَا كَمَا تَقُولُ: مَا زَيْدٌ؟ فِي الْإِسْتِفْهَامِ، أَيُّ أَفْضَلٍ أَمْ كَرِيمٌ؟ وَأَكْرَمٌ مَا شِئْتَ مِنَ الرِّجَالِ تَغْنِي الْكَرِيمَ أَوْ اللَّئِيمَ. وَحُكِيَ عَنِ الْفَرَاءِ: أَنَّهَا هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ، وَأَنَّ الْمَصْدَرَ الْمَقْدَرُ بِهَا وَبِالْفِعْلِ مُقَدَّرٌ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، أَيُّ أَنْكِحُوا الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ، وَهُوَ تَكْلُفٌ مُسْتَعْنَى عَنْهُ. وَقِيلَ: إِنَّ إِثَارَهَا عَلَى (مَنْ)؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْإِنَاثَ مِنَ الْعُقَلَاءِ يُجْرَيْنَ جَرَى غَيْرِ الْعُقَلَاءِ؛ لِمَا رُوِيَ فِي حَقِّهِنَّ أَنَّهُنَّ نَاقِصَاتُ عَقْلِ وَدِينٍ، وَفِيهِ أَنَّهُ مُخْلٌ بِمَقَامِ التَّرْغِيبِ فِيهِنَّ، وَ(مَنْ) بَيَّانِيَّةٌ، وَقِيلَ: تَبْعِيضِيَّةٌ، وَالْمَرَادُ: بِمَا طَابَ لَكُمْ مَا مَالَتْ لَهُ نُفُوسُكُمْ وَاسْتَطَابَتْهُ. وَقِيلَ: مَا حَلَّ لَكُمْ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: أَيُّ مَا لَا تُخْرَجُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابِلِ الْمَتَّحِّجِ مِنْهُ مِنَ الْيَتَامَى، وَلَا يَخْلُو عَنْ حُسْنٍ، وَكَيْفَمَا كَانَ فَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْأَجْنَبِيَّاتِ بِهَذَا الْعُنْوَانِ فِيهِ مِنَ الْمِبَالَعَةِ فِي الْإِسْتِمَالَةِ إِلَيْهِنَّ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِنَّ مَا لَا يَخْفَى، وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ: الْإِعْتِنَاءُ بِصَرْفِ الْمُخَاطَبِينَ عَنْ نِكَاحِ الْيَتَامَى عِنْدَ خَوْفِ عَدَمِ الْعَدْلِ؛ رِعَايَةً لِيُتِمَّهِنَّ وَجَبْرًا لِانْكِسَارِهِنَّ؛ وَلهَذَا الْإِعْتِنَاءُ أَوْثَرَ الْأَمْرِ بِنِكَاحِ الْأَجْنَبِيَّاتِ عَلَى النَّهْيِ عَنْ نِكَاحِهِنَّ مَعَ أَنَّهُ الْمُقْصُودُ بِالذَّاتِ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مَزِيدِ اللَّطْفِ فِي اسْتِنزَاهِهِمْ، فَإِنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْحِرْصِ عَلَى مَا مَنَعَتْ مِنْهُ، وَوَجْهُ النَّهْيِ الضَّمْنِي إِلَى النِّكَاحِ الْمُتَرَقَّبِ مَعَ أَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ: هُوَ النِّكَاحُ الْمُحَقَّقُ عَلَى مَا فَهَمَهُ الْبَعْضُ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَذَلَّ عَلَيْهِ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَتَكَحَّهَا، وَكَانَ لَهَا عَدُوٌّ، فَكَانَ يُمَسِّكُهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ...﴾"؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَسَارَعَةِ إِلَى دَفْعِ الشَّرِّ قَبْلَ وَقُوعِهِ، فَرُبَّ وَاقِعٍ لَا يُرْفَعُ، وَالْمِبَالَعَةُ فِي بَيَانِ حَالِ النِّكَاحِ

الْمَحَقَّقِ فَإِنَّ مَحْظُورِيَّةَ الْمُتَرَقَّبِ حَيْثُ كَانَ لِلْجَوْرِ الْمُتَرَقَّبِ فِيهِ فَمَحْظُورِيَّةُ الْمَحَقَّقِ مَعَ تَحْقِيقِ
 الْجَوْرِ فِيهِ أَوَّلَى. وقال القاسمي: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾: أي أن لا تعدلوا. ﴿فِي
 الْيَتَامَى﴾: أي يتامى النساء. وقال الزَّخَشَرِيُّ: وَيُقَالُ لِلْإِنَاثِ: الْيَتَامَى كَمَا يُقَالُ لِلذُّكُورِ،
 وَهُوَ جَمْعُ يَتِيمَةٍ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قِيلَ: أَيَامَى وَالْأَصْلُ أَيَائِمٌ وَيَتَائِمٌ. ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ مَا طَابَ
 لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: أي مَنْ طِبْنَ لِنُفُوسِكُمْ مِنْ جِهَةِ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ، أَوْ الْعَقْلِ، أَوْ
 الصَّلَاحِ مِنْهُنَّ. وقال العثيمين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: قال بعضهم:
 الْخَوْفُ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ، أَيْ وَإِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ لَا تَقْسِطُوا، وَاسْتَدَلَّ لَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]، فَإِنَّ
 مَعْنَى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: أَيْ فَمَنْ عَلِمَ. وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
 تُقْسِطُوا﴾: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْخَوْفَ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ، فَمَتَى خَافَ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَا يَقْسِطَ فِي
 الْيَتَامَى فَلْيَفْعَلْ مَا ذَكَرَ اللَّهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾: أَيْ أَنَّ لَا تَعْدِلُوا فِي الْيَتَامَى، وَهَنَّاكَ
 فَرْقَ بَيْنَ أَقْسَطَ وَقَسَطَ، فَقَسَطَ بِمَعْنَى: جَارٍ، وَأَقْسَطَ بِمَعْنَى: عَدْلٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وَقَالَ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾
 [الجن: ١٥]. إِذَا فَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾: أَيْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي الْيَتَامَى، وَالْيَتَامَى: جَمْعُ يَتِيمٍ،
 وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْيَتَامَى مِنَ النِّسَاءِ. وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا تَوَلَّى الْإِنْسَانُ عَلَى ابْنَةِ عَمِّهِ
 الْيَتِيمَةَ جَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَهِيَ كَارِهَةٌ، أَوْ يَتَزَوَّجَهَا بِدُونِ مَهْرٍ، أَوْ بِمَهْرٍ قَلِيلٍ، أَوْ
 يَتَزَوَّجَهَا وَهُوَ كَارِهٌ لَهَا، لَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَحَجَّرَهَا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، فَقَالَ
 اللَّهُ مُرْشِدًا عِبَادَهُ: إِنْ خِفْتُمْ عَدَمَ الْعَدْلِ فَالْبَابُ مَفْتُوحٌ، ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ
 النِّسَاءِ﴾، فَلَيْسَتْ النِّسَاءُ مَعْدُومَاتٌ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْيَتِيمَاتُ، بَلِ الْأَمْرُ وَاسِعٌ، فَاعْدِلُوا عَنْهُنَّ
 وَجُوبًا، فَإِذَا خَافَ أَلَّا يَعْدِلَ فِي الْيَتِيمَةِ وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْدِلَ عَنْهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، يَعْنِي أَتْرَكُوهُنَّ وَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ.
 وَ﴿مَا﴾ هُنَا فَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِ(مَنْ)، أَيْ فَانْكُحُوا مَنْ طَابَ، وَقَالُوا: لِأَنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ ذَوَاتِ

العقل، والعاقل يستخدم له (مَنْ)، وغير العاقل يستخدم له (مَا)، فقالوا: إِنَّ (مَا) هنا بمعنى (مَنْ)، ولكن هذا القول ضعيف، بل نقول: إذا كان الأمر يراد به الوصف، فالوصف ليس من العقلاء، فيؤتى بـ(مَا)، وهنا المرأة تطيب للرجل لوصفها؛ لأن اختيار المرأة لما قام بها من الأوصاف التي توجب اختيارها؛ ولهذا عبر بـ(مَا)، فالصحيح أَنَّ (مَا) هنا في موضعها، وليست بمعنى (مَنْ). وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾: أي ما حسن، ورأيتموه طيباً، وطابت به نفوسكم، ولا تكرهوا أنفسكم على نكاح من لا تريدون ومن لا تطيب لكم؛ لأن إكراه الإنسان نفسه على من لا تطيب له كإكراه الرجل نفسه على طعام لا يشتهي، وإذا أكره الإنسان نفسه على طعام لا يشتهي، فإنه لا يستسيغه أبداً. وبماذا تطيب النفس؟ جاء في الحديث: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها" رواه الشيخان، ومن المال: الوظيفة، فتنكح المرأة الآن لوظيفتها؛ لأن الوظيفة تحصيل للمال، إذا المرأة تطيب للرجل بأحد هذه الأوصاف الأربعة، وهذه أوصاف أغلبية، وإلا فقد تنكح المرأة لا لهذه الأوصاف، بل لأسباب أخرى، لكن هذا هو الغالب. و﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ النِّسَاءِ﴾ يسميها العلماء بيانية؛ لأنها جاءت بعد اسم مبهم وهو الاسم الموصول، فتكون مبيّنة لهذا المبهم، وكلّما جاءت (مَنْ) بعد أسماء الشرط أو الأسماء الموصولة فهي بيانية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وكذلك هنا. وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بيان لما في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، أي انكحوا الذي يطيب لكم من النساء، ويجوز أن يكون متعلّقا بـ﴿انكحوا﴾، أي انكحوا من النساء ما طاب لكم، لكن الأول أقرب. وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾: يقول النحويون: إنّ هذه الكلمات لا تنصرف، والمانع لها من الصرف الوصفية والعدد؛ لأن معنى ﴿مَثْنَى﴾: اثنتين اثنتين، ﴿وَتُلَاثَ﴾: ثلاثاً ثلاثاً، ﴿وَرُبَاعَ﴾: أربعاً أربعاً، فالمانع لها من الصرف الوصفية والعدد، وعلى هذا نقول: ﴿مَثْنَى﴾ حال من النساء، أي حال كونهن مثنى وثلاث ورباع، أي انكحوا على اثنتين اثنتين، أو على

ثلاث ثلاث، أو على أربع أربع، وليس المعنى: انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً، خلافاً لمن زعم ذلك، وقال: إنّ الآية تدلّ على جواز نكاح التسع؛ لأن اثنتين وثلاث: خمس، ورباع: أربع، فالجميع تسع، وهذا بعيد من هذا الأسلوب في اللغة العربيّة، فإنّ هذا الأسلوب للتقسيم، والمعنى: منكم من ينكح اثنتين اثنتين، ومنكم من ينكح ثلاثاً ثلاثاً، ومنكم من ينكح أربعاً أربعاً؛ لأن الخطاب في قوله: ﴿انكحوا﴾ خطاب للجماعة وليس لواحد، فإذا كان الخطاب للجماعة فإنّ المعنى: ينكح بعضكم اثنتين، وبعضكم ثلاثاً، وبعضكم أربعاً. ويدلّ لهذا الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ أنّ الرجل لا يتزوَّج أكثر من أربع، أمّا النبيّ فإنه مخصوص بخصائص متعدّدة في النكاح، منها: أنه يتزوَّج بأكثر من أربع. ومنها: أنه يتزوَّج بالهبة. ومنها: أنه لا يجب عليه القسم على أحد الأقوال. ومنها: أنه بعد أن خيرهنّ فاخترن الله ورسوله، حرم عليه أن يتزوَّج غيرهنّ إلى أن مات. ومنها: أنّ زوجاته لا يحلّ لأحد بعده أن يتزوجهنّ. وهذه الآية من حيث الدلالة كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١]، ولو أراد الله أن يبيّن لعباده حلّ النساء إلى التسع لقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو ستّاً إلى التسع، ولا يأتي بهذا الأسلوب المشتبه؛ لأن القرآن نزل تبياناً لكلّ شيء. وقوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ولم يذكر الواحدة؛ لأنّ المقام مقام تخيير، ومقام إعطاء النفس حظّها، فإذا خفت أن لا تقسط في اليتيمة فأمامك النساء كميّة وكيفيّة، فالكميّة من اثنتين فصاعداً، والكيفيّة قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، فالباب أمامك مفتوح فيما تريد من النساء كيفيّة وكميّة، ومعلوم أنّ الواحدة ليس فيها كميّة. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: قال ابن الجوزي: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَلِمْتُمْ. الثَّانِي: خَشِيتُمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى: أَرَادَ الْعَدْلَ فِي الْقِسْمِ بَيْنَهُنَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَاحِدَةً﴾: أَيُّ فَاِنْكَحُوا وَاحِدَةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: يَعْنِي السَّرَارِي. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: مَعْنَى الْآيَةِ: فَكَمَا

تَخَافُونَ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَ الْيَتَامَى إِذَا كَفَلْتُمُوهُمْ، فَخَافُوا أَيْضًا أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ إِذَا نَكَحْتُمُوهُنَّ، فَقَصَرَهُمْ عَلَى أَرْبَعٍ؛ لِيَقْدِرُوا عَلَى الْعَدْلِ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ، فَانْكَحُوا وَاحِدَةً، وَافْتَصِرُوا عَلَى مِلْكِ الْيَمِينِ. وقال القرطبي: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾: قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: أَيِ فِي الْمَيْلِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالْجَمَاعِ، وَالْعِشْرَةِ، وَالْقِسْمِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ الْأَرْبَعِ وَالثَّلَاثِ وَالْاِثْنَيْنِ، ﴿فَوَاحِدَةً﴾. فَمَنْعَ مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ. وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: يُرِيدُ الْإِمَاءَ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى ﴿فَوَاحِدَةً﴾، أَيْ إِنْ خَافَ إِلَّا يَعْدِلَ فِي وَاحِدَةٍ فَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَقَّ لِمَلِكِ الْيَمِينِ فِي الْوُطِيِّ وَلَا الْقِسْمِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا﴾ فِي الْقِسْمِ ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فَجَعَلَ مِلْكَ الْيَمِينِ كُلَّهُ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ، فَانْتَفَى بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلْإِمَاءِ حَقٌّ فِي الْوُطِيِّ أَوْ فِي الْقِسْمِ. إِلَّا أَنَّ مِلْكَ الْيَمِينِ فِي الْعَدْلِ قَائِمٌ بِوُجُوبِ حُسْنِ الْمَلَكََةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّقِيقِ. وَأَسْنَدَ تَعَالَى الْمِلْكَ إِلَى الْيَمِينِ؛ إِذْ هِيَ صِفَةُ مَدْحٍ، وَالْيَمِينُ مَخْصُوصَةٌ بِالْمَحَاسِنِ؛ لِتَمَكُّنِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهَا الْمُنْفَقَةُ؟ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ، وَهِيَ الْمُعَاهِدَةُ الْمُبَايَعَةُ، وَهِيَ سُمِّيَتْ الْأَيْمَةَ بِمِثْلِهَا، وَهِيَ الْمُتَلَفِّيَةُ لِرَايَاتِ الْمَجْدِ، كَمَا قَالَ: إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابُهُ بِالْيَمِينِ. وقال القاسمي: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا﴾: أَيْ بَيْنَ هَذِهِ الْأَعْدَادِ. ﴿فَوَاحِدَةً﴾: أَيْ فَاحْتَازُوهَا. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: أَيْ مِنَ الْإِمَاءِ بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ مِنْ مَرَاتِبِ الْعَدَدِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ فِيهِنَّ مِنَ الْحُقُوقِ مِثْلُ مَا يَلْزَمُ فِي الْحَرَائِرِ، وَلَا قِسْمٌ لَهُنَّ. وَ(أَوْ) لِلتَّسْوِيَةِ، أَيْ التَّخْيِيرِ، وَالْعَدَدُ يُؤْخَذُ مِنَ السِّيَاقِ، وَمُقَابَلَةُ الْوَاحِدَةِ. قَالَ الرَّحْمَنِيُّ: سَوَى فِي السُّهُولَةِ وَالْيُسْرِ بَيْنَ الْحَرَّةِ الْوَاحِدَةِ وَبَيْنَ الْإِمَاءِ مِنْ غَيْرِ حَصْرِ وَلَا تَوْقِيتِ عَدَدٍ، وَلَعَمْرِي إِنَّهُنَّ أَقَلُّ تَبَعَةً وَأَقْصَرُ شَعْبًا وَأَخَفُ مُؤَنَّةً مِنَ الْمَهَائِرِ، لَا عَلَيْكَ أَكْثَرَتْ مِنْهُنَّ أَمْ أَقَلَّتْ، عَدَلْتَ بَيْنَهُنَّ فِي الْقِسْمِ أَمْ لَمْ تَعْدِلْ، عَزَلْتَ عَنْهُنَّ أَمْ لَمْ تَعِزْلَ، انْتَهَى. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا: ﴿خِفْتُمْ﴾: أي خشيتم وتوقعتم أن لا تعدلوا، وقيل: المعنى: إن علمتم، والصواب أنها على المعنى الأول، أي خشيتم. ﴿فَوَاحِدَةً﴾: أي فانكحوا واحدة ولا تزيدوا عليها. وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: فما ملكت اليمين لا تنكح، وتوطأ بالملك ولا توطأ بالنكاح؛ ولهذا يحرم على الرجل أن يتزوج أمة؛ لأنها تحل له بعقد أقوى من النكاح وهو ملك اليمين، والأضعف لا يرد على الأقوى، بخلاف العكس، فإنه يرد الأقوى على الأضعف، فلو اشترى الرجل زوجته المملوكة لغيره انفسخ النكاح وحلت له بملك اليمين، أما لو كان عنده أمة، فإنه لا يمكن أن يتزوجها؛ لأنه ملكها بعقد أقوى من النكاح، فإن السيد يملك الرقبة والمنفعة، بخلاف الزوج فإنه لا يملك إلا المنفعة. إذاً لا يصح أن نقول: إن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَوَاحِدَةً﴾؛ لأنه يختل المعنى، بل المعنى: فانكحوا واحدة، أو استمتعوا بما ملكت أيمانكم، أو كلمة نحوها، فليست معطوفة على ما سبق إلا في باب عطف الجمل، فيقدر فعل مناسب لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾: قال ابن الجوزي: ﴿أَذْنَى﴾: أي أقرب. وفي معنى ﴿تَعُولُوا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تَمِيلُوا وَتَحُورُوا، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وإبراهيم، وقتادة، والسدي، ومقاتل، والقرأ. الثاني: أي تَضِلُّوا، قاله مجاهد. الثالث: أي تَكْثُرُ عِيَالُكُمْ، قاله ابن زيد، ورواه أبو سليمان الدمشقي في "تفسيره" عن الشافعي، وردّه الزجاج: فقال: جميع أهل اللغة يقولون: هذا القول خطأ؛ لأن الواحدة يعولها، وإباحة ملك اليمين أزيد في العيال من أربع. وقال القرطبي: ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾: أي ذلك أقرب إلى ألا تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ وَتَحُورُوا، عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما. يُقَالُ: عَالَ الرَّجُلُ يَعُولُ إِذَا جَارَ وَمَالَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: عَالَ السَّهْمُ عَنِ الْهَدَفِ: مَالَ عَنْهُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّهُ لِعَائِلُ الْكِيلِ وَالْوِزْنِ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: أَلَّا تَكْثُرَ عِيَالُكُمْ. وَرَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ أَنَّ (عَالَ) عَلَى سَبْعَةِ مَعَانٍ، يُقَالُ: عَالَ: أي مَالَ. الثَّانِي: أي زَادَ. الثَّالِثُ: أي جَارَ.

الرَّابِعُ: أَيِ افْتَقَرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً . أَيِ فَقْرًا . فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]. الْخَامِسُ: أَيِ أَثْقَلَ، حَكَاهُ ابْنُ دُرَيْدٍ. قَالَتِ الْخَنَسَاءُ: وَيَكْفِي
 الْعَشِيرَةَ مَا عَالَهَا. السَّادِسُ: أَيِ قَامَ بِمُتُونَةِ الْعِيَالِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ . عَلَيْهِ السَّلَامُ :: "وَابْدَأْ بِمَنْ
 تَعُولُ" رواه مسلم. السَّابِعُ: أَيِ غَلَبَ، وَمِنْهُ: عِيْلَ صَبْرُهُ، أَيِ غُلِبَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ:
 ﴿ذَلِكَ﴾: أَيِ الْإِقْتِصَارِ عَلَى وَاحِدَةٍ أَوْ عَلَى التَّسْرِي. ﴿أَدْنَى﴾: أَيِ أَقْرَبُ. ﴿أَلَا
 تَعُولُوا﴾: أَيِ مَنْ أَنْ لَا تَمِيلُوا وَلَا تَجُورُوا؛ لِإِنْتِفَائِهِ رَأْسًا بِإِنْتِفَائِ مَحَلِّهِ فِي الْأَوَّلِ، وَإِنْتِفَاءِ
 خَطَرِهِ فِي الثَّانِي بِخِلَافِ اخْتِيَارِ الْعَدَدِ فِي الْمَهَائِرِ، فَإِنَّ الْمِيلَ الْمَخْطُورَ مُتَوَقَّعٌ فِيهِ؛ لِتَحَقُّقِ
 الْمَحَلِّ وَالْخَطَرِ، هَذَا إِنْ قُدِّرَ ﴿تَعُولُوا﴾ مُضَارِعَ عَالٍ، بِمَعْنَى: جَارَ وَمَالَ عَنِ الْحَقِّ، وَهُوَ
 اخْتِيَارُ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾: ﴿ذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى
 نِكَاحِ الْوَاحِدَةِ عِنْدَ خَوْفِ عَدَمِ الْعَدْلِ، وَإِلَى أَنْ يَتَزَوَّجَ الْإِنْسَانُ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا
 عِنْدَ خَوْفِ عَدَمِ الْعَدْلِ فِي الْيَتَامَى، أَيِ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَمْرَيْنِ: نِكَاحِكُمْ مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعٍ
 إِذَا خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى، أَوْ نِكَاحِكُمْ وَاحِدَةً إِذَا خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا. ﴿أَدْنَى﴾:
 أَيِ أَقْرَبُ. ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: أَيِ أَلَّا تَجُورُوا، هَذَا هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ الْمُتَعَيَّنِ، وَأَمَّا مَا يَرَوَى عَنْ
 الشَّافِعِيِّ مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى: أَلَّا تَكْثُرَ عِيَالُكُمْ، فَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ جَدًّا؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ الْعِيَالِ مَرْغُوبَةٌ
 عِنْدَ اللَّهِ؛ وَلِأَنَّ الْعِيَالِ يَكْثُرُونَ إِذَا جَامَعَ الْإِنْسَانُ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَوَاحِدَةً
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مِائَةُ جَارِيَةٍ وَجَامِعٌ
 كُلِّ وَاحِدَةٍ، فَسَيَأْتِيهِ فِي السَّنَةِ مِائَةُ وَلَدٍ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ نَقُولُ: إِنَّ
 الْإِنْسَانَ إِنْ جَامَعَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ يَكُونُ أَدْنَى إِلَى عَدَمِ الْعِيَالِ؟.

- قال الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (٤):

- سبب نزول الآية:

قال الواحدي: قال الحضرمي: "إِنَّ نَاسًا كَانُوا يَتَأْتَمُونَ أَنْ يَرْجِعَ أَحَدُهُمْ فِي شَيْءٍ مِّمَّا سَاقَ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾. وقال ابن الجوزي: قَالَ مُقَاتِلٌ: "كَانَ الرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ بِلَا مَهْرٍ، فَيَقُولُ: أَرْتُكَ وَتَرَيْتَنِي، فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: نَعَمْ، فَتَنْزِلُ هَذِهِ الْآيَةُ".

- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا حُدِّثُوا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي مِنْ مَدْلُولِهِ الْمَحَاجَّةُ عَنْ كَثْرَةِ النِّسَاءِ، كَانَ رُبَّمَا تَعَلَّقَ بِهِ مَنْ يَبْخُلُ عَنْ بَعْضِ الْحُقُوقِ، فَأَتْبَعَهُ مَا يَنْفِي ذَلِكَ.

- تفسير الآية:

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾: قال الواحدي: الصَّدُقَاتُ: المهور، واحدها صدقة، وفيها لغات هذه أعلاها، وهي لغة أهل الحجاز، وذكرنا أَنَّ موضوع (ص د ق) على هذا الترتيب؛ للإكمال والصحة في قوله: ﴿لَا تُبْطَلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وعلى هذا الأصل سُمِّي المهر: صَدَاقًا، وَصَدَقَةً؛ لأنَّ عقد النكاح يتم ويكمل. وقال ابن الجوزي: اخْتَلَفُوا فِيمَنْ حُوطِبَ بِهَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْأَزْوَاجُ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّكَاحِيِّنَ قَدْ تَقَدَّمَ، وَهَذَا مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ. الثَّانِي: أَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ، ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا زَوَّجَ أَيْمَةً جَارَ صِدَاقُهَا دُوتُهَا، فَهِيَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، هَذَا قَوْلُ أَبِي صَالِحٍ، وَاخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ. الثَّانِي: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُعْطَى الرَّجُلُ أُخْتَهُ وَيَأْخُذُ أُخْتَهُ مَكَانَهَا مِنْ غَيْرِ مَهْرٍ، فَهِيَ عَنْ هَذَا بِهَذِهِ الْآيَةِ، رَوَاهُ أَبُو سُلَيْمَانَ التَّيْمِيُّ عَنْ بَعْضِ أَشْيَاخِهِ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَالصَّدُقَاتُ: المهور، وَأَحَدُهَا: صَدَقَةٌ. وقال الرازي: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾: قَالَ الْقَفَّالُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنَ

الإيتاء: المِناوَلَة، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: الْإِلْتِزَامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ [التوبة: ٢٩]، وَالْمَعْنَى: حَتَّى يَضْمَنُوهَا وَيَلْتَزِمُوهَا، فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْأَوَّلُ كَانَ الْمَرَادُ: أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِدَفْعِ الْمُهُورِ الَّتِي قَدْ سَمَّوْهَا هُنَّ، وَعَلَى التَّفْهِيمِ الثَّانِي كَانَ الْمَرَادُ: أَنَّ الْفُرُوجَ لَا تُسْتَبَاحُ إِلَّا بِعَوَضٍ يُلْزَمُ، سِوَاءِ سُمِّيَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يُسَمَّ، إِلَّا مَا خُصَّ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فِي الْمُوهُوبَةِ. ثُمَّ قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ جَامِعًا لِلْوَجْهَيْنِ مَعًا. انْتَهَى. وَفِي تَفْسِيرِ النَّحْلَةِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ فَرِيضَةٍ، وَإِنَّمَا فَسَّرُوا النَّحْلَةَ بِالْفَرِيضَةِ؛ لِأَنَّ النَّحْلَةَ فِي اللُّغَةِ مَعْنَاهَا: الدِّيَانَةُ وَالْمِلَّةُ وَالشَّرْعَةُ وَالْمَذْهَبُ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَنْتَحِلُ كَذَا إِذَا كَانَ يَتَدَيَّنُ بِهِ، وَنَحَلْتُهُ كَذَا أَيُّ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَاوُا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أَيُّ أَتَوْهُنَّ مُهُورَهُنَّ، فَإِنَّهَا نِحْلَةٌ أَيُّ شَرِيعَةٌ وَدِينٌ وَمَذْهَبٌ وَمَا هُوَ دِينٌ وَمَذْهَبٌ فَهُوَ فَرِيضَةٌ. الثَّانِي: قَالَ الْكَلْبِيُّ: نِحْلَةٌ: أَيُّ عَطِيَّةٌ وَهَبَةٌ، يُقَالُ: نَحَلْتُ فُلَانًا شَيْئًا أَنْحَلُهُ نِحْلَةً وَنَحْلًا، قَالَ الْقَفَّالُ: وَأَصْلُهُ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَى غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ، يُقَالُ: هَذَا شِعْرٌ مَنْحُولٌ، أَيُّ مُضَافٌ إِلَى غَيْرِ قَائِلِهِ، وَانْتَحَلْتُ كَذَا إِذَا ادَّعَيْتُهُ وَأَضَفْتُهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْمَهْرُ عَطِيَّةٌ مِمَّنْ؟ فِيهِ اِخْتِمَالَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَطِيَّةٌ مِنَ الزَّوْجِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الزَّوْجَ لَا يَمْلِكُ بَدْلَهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّ الْبُضْعَ فِي مِلْكِ الْمَرْأَةِ بَعْدَ النِّكَاحِ كَهُوَ قَبْلَهُ، فَالزَّوْجُ أَعْطَاهَا الْمَهْرَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا عَوَضًا يَمْلِكُهُ، فَكَانَ فِي مَعْنَى النَّحْلَةِ الَّتِي لَيْسَ بِإِزَائِهَا بَدَلٌ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الزَّوْجُ مِنْهَا بِعَقْدِ النِّكَاحِ هُوَ الْإِسْتِبَاحَةُ لَا الْمِلْكُ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مَنَافِعَ النِّكَاحِ مِنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ وَالتَّوَالِدِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ثُمَّ أَمَرَ الزَّوْجَ بِأَنْ يُؤْتِيَ الزَّوْجَةَ الْمَهْرَ، فَكَانَ ذَلِكَ عَطِيَّةً مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً. الْقَوْلُ الثَّالِثُ فِي تَفْسِيرِ النَّحْلَةِ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَعْنَى نِحْلَةٍ: أَيُّ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ؛ لِأَنَّ النَّحْلَةَ فِي اللُّغَةِ الْعَطِيَّةُ مِنْ غَيْرِ أَخَذِ عَوَضٍ، كَمَا يَنْحَلُ الرَّجُلُ لَوْلَدِهِ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، وَمَا أُعْطِيَ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ عَوَضٍ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طِيبِ النَّفْسِ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِإِعْطَاءِ مُهُورِ النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ مُطَالَبَةٍ مِنْهُنَّ وَلَا مُخَاصَمَةٍ؛ لِأَنَّ مَا يُؤْخَذُ بِالْمِحَاكَمَةِ لَا يُقَالُ لَهُ نِحْلَةٌ. انْتَهَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نِحْلَةً﴾: إِنَّ حَمَلْنَا النَّحْلَةَ

على الدِّيانَةِ ففي انتِصاها وجهان: أحدهما: أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ، والمعنى آتَوْهُنَّ مُهُورَهُنَّ دِيانَةً. الثاني: أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الصَّدَقَاتِ أَيَّ دِينًا مِنَ اللَّهِ شَرَعَهُ وَفَرَضَهُ. وأما إِنْ حَمَلْنَا النِّحْلَةَ عَلَى الْعَطِيَّةِ ففي انتِصاها أيضًا وجهان: أحدهما: أَنَّهُ نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النِّحْلَةَ وَالْإِيتَاءَ بِمَعْنَى الْإِعْطَاءِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَانْخَلَوْا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً أَيَّ أَعْطَوْهُنَّ مُهُورَهُنَّ عَنْ طِيبَةِ أَنْفُسِكُمْ. الثاني: أَنَّهُمَا نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، ثُمَّ فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى الْحَالِ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ، أَيَّ آتَوْهُنَّ صَدَقَاتِهِنَّ نَاحِلِينَ طِيبِي النُّفُوسِ بِالْإِعْطَاءِ. الثاني: عَلَى الْحَالِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، أَيَّ مَنَحُولَةً مُعْطَاةً عَنْ طِيبَةِ الْأَنْفُسِ.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾: قال الواحدي: وَحَدَّ النَّفْسُ؛ لأنَّ المراد به بيان موقع الفعل وتفسير له، وذلك يعرف بالواحد دون الجميع. ومثله: (عشرون درهما)، قال الفرَّاء: ولو جمعت كان صوابًا، كقوله تعالى: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]. وقال ابن الجوزي: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ﴾: يَعْنِي النِّسَاءَ الْمُنْكَوْحَاتِ. وفي ﴿لَكُمْ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَعْنِي الْأَزْوَاجَ. الثاني: الْأَوْلِيَاءُ. و(الهَاءُ) فِي ﴿مِنْهُ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الصَّدَاقِ، قَالَ الرَّجَّاجُ: وَ﴿مِنْهُ﴾ هَاهُنَا لِلْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، مَعْنَاهُ: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ وَثْنٌ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّوا الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ مَهْرٌ، فَيَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ الْمَهْرَ كُلَّهُ. وَ﴿نَفْسًا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ. فَاِلْمَعْنَى: فَإِنْ طَابَتْ أَنْفُسُهُنَّ لَكُمْ بِذَلِكَ، فَكُلُّوه هَنِيئًا مَرِيئًا، وَفِي (الْهَيَاءِ) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَا تُؤْمَنُ عَاقِبَتُهُ. الثاني: مَا أَعْقَبَ نَفْعًا وَشِفَاءً. الثالثُ: أَنَّهُ الَّذِي لَا يُنْعِصُهُ شَيْءٌ. وَأَمَّا (الْمَرِيءُ)، فَيُقَالُ: مَرِئُ الطَّعَامِ: إِذَا انْهَضَمَ، وَحَدَّثَتْ عَاقِبَتُهُ. وَقَالَ الرَّازِي: (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُ نَفْسًا﴾ لَيْسَ لِلتَّبْعِيضِ، بَلْ لِلتَّبْيِينِ، وَالْمَعْنَى: عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ مَهْرٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ طَابَتْ نَفْسُهَا عَنْ جَمِيعِ الْمَهْرِ حَلٌّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِالْكُلِّيَّةِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: فَإِنْ وَهَبَ لَكُمْ شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ عَنْ طِيبَةِ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ فِيهِ شَكَاسَةُ أَخْلَاقِكُمْ مَعَهُنَّ، أَوْ

سوء معاشرتكم معهنّ، فكلّوه وأنفقوه، وفي الآية دليل على ضيق المسلك في هذا الباب،
ووجوب الاختياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ﴾، ولم
يقُل: فَإِنْ وهَبْنَ أَوْ سَمَحْنَ؛ إعلامًا بأنّ المراعى هو تحايفي نفسها عن الموهوب طيبة. قوله:
﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: وصفٌ للمصدر، أي أكلًا هنيئًا مريئًا، أو حال من الضمير أي كلّوه
وهو هنيء مريء. وقال القرطبي: قيل: ﴿نَفْسًا﴾ منصوب على البيان. ولا يجيز سيبويه
ولا الكوفيون أن يتقدّم ما كان منصوبًا على البيان، وأجاز ذلك المازني وأبو العباس
المبرد إذا كان العامل فعلًا، وأنشد: وما كان نفسًا بالفراق تطيب...، وفي التنزيل:
﴿حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ١٢]، فعلى هذا يجوز: (شَحْمًا تَفْقَأَتْ، وَوَجْهًا
حَسَنَتْ). وقال أصحاب سيبويه: ﴿نَفْسًا﴾ هنا منصوبة بإضمار فعلٍ تقديره: (أعني
نفسًا)، وليست منصوبة على التمييز. واتفق الجميع على أنّه لا يجوز تقديم المميز إذا
كان العامل غير متصرفٍ كـ(عشرين درهمًا). ﴿فَكُلُوهُ﴾: ليس المقصود صورة الأكل،
وإنّما المراد به: الاستباحة بأيّ طريق كان، وهو المعنى بقوله في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾، وليس المراد نفس الأكل، إلّا أنّ الأكل لما كان
أوفى أنواع التمتع بالمال عبّر عن التصرفات بالأكل. ونظيره قوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ
مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ١٤]، يُعلم أنّ صورة البيع
غير مقصودة، وإنّما المقصود ما يشغله عن ذكر الله مثل النكاح وغيره، ولكن ذكر
البيع؛ لأنّه أهمّ ما يشتغل به عن ذكر الله. ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: منصوب على الحال من
(الهاء) في ﴿فَكُلُوهُ﴾. وقيل: نعتٌ لمصدرٍ مخدوفٍ، أي أكلًا هنيئًا بطيب الأنف.
هنا الطعام والشراب يهنئه، وما كان هنيئًا، ولقد هنؤ، والمصدر الهنؤ. وكلّ ما لم يأت
بمشقة ولا عناء فهو هنيء. وهني اسم فاعلٍ من هنؤ كظريفٍ من ظرف. وهني هنيئًا فهو
هنيءٌ على فعلٍ كزمنٍ. وهنأني الطعامَ ومزأني على الإنباع، فإذا لم يُذكر (هنأني) قلتُ:
أمرأني الطعامَ بالألف، أي انهضم. قال أبو علي: وهذا كما جاء في الحديث: "ارجعن

مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ" رواه ابن ماجه بسند ضعيف. فَقَلَّبُوا (الْأَوَّ) مِنْ (مَوْزُورَاتٍ) أَلْفًا؛ إِتْبَاعًا لِلْفِظِ مَأْجُورَاتٍ. وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: يُقَالُ: هَنِئٌ وَهَنَائِي وَمَرَّئِي وَأَمَّرَائِي وَلَا يُقَالُ: مَرَّئِي، حَكَاهُ الْهَرَوِيُّ. وَحَكَى الْفُشَيْرِيُّ أَنَّهُ يُقَالُ: هَنِئِي وَمَرَّئِي بِالْكَسْرِ يَهْنَأُنِي وَيَمَّرُّنِي، وَهُوَ قَلِيلٌ. وَقِيلَ: ﴿هَنِئًا﴾: أَيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ، وَ﴿مَرَّئًا﴾: أَيُّ لَا دَاءَ فِيهِ. وَقِيلَ: الْهَنِئُ: الطَّيِّبُ الْمَسَاغُ الَّذِي لَا يَنْغَصُهُ شَيْءٌ. وَقِيلَ: الْمَرِي: الْمُخْمُودُ الْعَاقِبَةُ، تَأْتِي الْهَضْمَ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يُؤْذِي. وَقِيلَ: لَا تَخَافُونَ فِي الدُّنْيَا بِهِ مُطَالَبَةً، وَلَا فِي الْآخِرَةِ تَبَعَةً. وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ: فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي تَحْلِيلِ ذَلِكَ مِنْهُنَّ لَمْ يَأْتِ هُوَ طَبِيبَةُ النَّفْسِ لَا مُجَرَّدَ مَا يَصْدُرُ مِنْهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا يَتَحَقَّقُ مَعَهَا طَبِيبَةُ النَّفْسِ، فَإِذَا ظَهَرَ مِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ طَبِيبَةِ نَفْسِهَا لَمْ يَحِلَّ لِلزَّوْجِ وَلَا لِلْوَلِيِّ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَلَفَّظَتْ بِالْهَبَةِ أَوْ النَّذْرِ أَوْ نَحْوِهِمَا، وَمَا أَقْوَى دَلَالَةَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عَدَمِ اعْتِبَارِ مَا يَصْدُرُ مِنَ النِّسَاءِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمَفِيدَةِ لِلتَّمْلِيكِ بِمُجَرَّدِهَا؛ لِنُقْصَانِ عُقُولِهِنَّ، وَضَعْفِ إِدْرَاكِهِنَّ، وَسُرْعَةِ انْخِدَاعِهِنَّ وَانْجِدَاهِنَّ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهُنَّ بِأَيْسَرِ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيْبٍ. قَوْلُهُ: ﴿هَنِئًا مَرَّئًا﴾ مَنْصُوبَانِ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيُّ أَكْثَرًا هَنِئًا مَرَّئًا، أَوْ قَائِمَانِ مَقَامَ الْمَصْدَرِ، أَوْ عَلَى الْحَالِ. يُقَالُ: هَنَاءُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ يُهْنِيهِ، وَمَرَّاهُ وَأَمْرَاهُ مِنَ الْهَنِئِ وَالْمَرِيِّ، وَالْفِعْلُ هَنَأَ وَمَرَأَ، أَيُّ أَتَى مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا غَيْظٍ. وَقِيلَ: هُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي لَا تَنْغِصَ فِيهِ. وَقِيلَ: هُوَ الْمُخْمُودُ الْعَاقِبَةُ الطَّيِّبُ الْهَضْمُ. وَقِيلَ: هُوَ مَا لَا إِثْمَ فِيهِ، وَالْمُقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ حَالٌ لَمْ يَخْلُصْ عَنِ الشَّوَائِبِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾: الضَّمِيرُ لِلصَّدَقَاتِ. وَتَذَكِيرُهُ؛ لِإِجْرَائِهِ بِمَجْرَى ذَلِكَ، أَيُّ فَإِنْ أَحْلَلَنْ لَكُمْ مِنَ الْمَهْرِ شَيْئًا بِطَبِيبَةِ نَفْسٍ جَلَبًا لِمَوَدَّتِكُمْ، لَا لِحَيَاءٍ عَرَضَ لَهُنَّ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ، وَلَا لِاضْطِرَّاهِنَّ إِلَى الْبَدْلِ مِنْ شُكَايَةِ أَخْلَاقِكُمْ وَسُوءِ مُعَاشَرَتِكُمْ. ﴿فَكُلُّوهُ﴾: أَيُّ فَخَذُوهُ وَتَصَرَّفُوا فِيهِ تَمَلُّكًا. وَتَخْصِيصُ الْأَكْلِ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مُعْظَمُ وُجُوهِ التَّصَرُّفَاتِ الْمَالِيَّةِ. ﴿هَنِئًا مَرَّئًا﴾: صِفَتَانِ مِنَ (هَنَأَ الطَّعَامَ وَمَرَّو) إِذَا كَانَ سَائِعًا لَا تَنْغِصَ فِيهِ. وَقِيلَ:

الْهَنِيءُ: ما أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ وَلَا تَبِعَةٍ، والمرِيءُ: حَمِيدُ الْمَعْبَةِ، وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ التَّحْلِيلِ وَالْمِبَالِغَةِ فِي الْإِبَاحَةِ وَإِزَالَةِ التَّبَعَةِ؛ لِأَنَّ هُنَّ كَالرِّجَالِ فِي التَّصَرُّفَاتِ وَالتَّبَرُّعَاتِ. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ طَبَنَ﴾: أي النساء، وقوله: ﴿نَفْسًا﴾: مصدر محوّل عن الفاعل، والمصدر المحوّل تارة يحوّل عن الفاعل كما في هذه الآية، وتارة يحوّل عن المفعول به، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، أي فَجَّرْنَا عِيُونَ الْأَرْضِ. و(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾: قيل: إنها تبعيضية. وقيل: إنها بيانية. فعلى الأوّل يكون المعنى: إن طبن لكم عن بعضه. وعلى الثاني يكون المعنى: إن طبن لكم عن كُله أو بعضه؛ لأن (مِنْ) بيان لمحلّ الحكم، بقطع النظر عن كونه كُله أو بعضه. وقوله: ﴿فَكُلُوهُ﴾: عبّر هنا بالأكل؛ لأنه أخصّ وجوه الانتفاع؛ إذ أنّ الأكل يغذي البدن، وينمو به البدن، بخلاف اللباس، والمساكين، والمراكب، فإنّ منفعتها خارجيّة، فاللباس كسوة خارجيّة، ولكن الأكل منفعة وكسوة داخلية؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩)﴾ [طه]، والتناسب بين الظمأ والضحى الذي هو حرارة الشمس واضح، وبين الجوع والعري واضح؛ لأن الشبع كسوة الباطن، فإنّ المعدة إذا لم يكن فيها شيء فإنها عارية، فإذا دخل الطعام فيها غطّاها وكساها، فهو كسوة باطنية. وقوله تعالى: ﴿هَنِيئًا﴾: أي حين الأكل. ﴿مَرِيئًا﴾: أي بعد الأكل. فالهنيء: سهل المساع. والمريء: محمود العاقبة.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)﴾:
- مناسبة الآية لما قبلها: قال القرطبي: لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ وَإِصْبَالُ الصَّدَقَاتِ إِلَى الرِّجَالِ، بَيَّنَّ أَنَّ السَّفِيهَ وَغَيْرَ الْبَالِغِ لَا يَجُوزُ دَفْعُ مَالِهِ إِلَيْهِ، فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى ثُبُوتِ الْوَصِيِّ وَالْوَلِيِّ وَالْكَفِيلِ لِلْيَتَامَى.

● تفسير الآية:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: قال الواحدي: فإن قيل: كيف أضاف الأموال إلى الأولياء ويراد بها على قول أموال السفهاء؟ قلنا: إنما أضاف إليهم؛ لأنها الجنس الذي جعله الله أموالاً للناس، فصار كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ردها إلى الجنس. قال أبو إسحاق: إنما قيل أموالكم؛ لأن معناها الشيء الذي به قوام أمركم، كما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥]، ولم يكن الرجل منهم يقتل نفسه، ولكن كان بعضهم يقتل بعضاً، أي تقتلون الجنس الذي هو جنسكم. وقال بعض النحويين: إذا اختلط المخاطب مع الغائب غلب المخاطب، لذلك أضاف الأموال إليهم وهي للسفهاء. وقال البغوي: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: هُوَ مَلَاكُ الْأَمْرِ وَمَا يَقُومُ بِهِ الْأَمْرُ، وَأَرَادَ هَاهُنَا: قِوَامَ عَيْشِكُمْ الذي تعيشون به. قَالَ الضَّحَّاكُ: بِهِ يُقَامُ الْحُجُّ، وَالْجِهَادُ، وَأَعْمَالُ الْبِرِّ، وَبِهِ فَكَأَنَّ الرِّقَابَ مِنَ النَّارِ. وقال ابن الجوزي: المراد بالسُّفَهَاءِ حَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمُ النِّسَاءُ، قَالَهُ ابْنُ عُمرَ. الثَّانِي: النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُقَاتِلٌ، وَالْفَرَّاءُ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ. وَعَنِ الْحَسَنِ، وَمُجَاهِدٍ كَالْقَوْلَيْنِ. الثَّلَاثُ: الْأَوْلَادُ، قَالَهُ أَبُو مَالِكٍ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ مَرْوِيَّةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرُويَ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: هُمُ الْأَوْلَادُ الصِّغَارُ. الرَّابِعُ: الْيَتَامَى، قَالَهُ عِكْرَمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي رِوَايَةٍ. قَالَ الرَّجَّاجُ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَهُمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ ذِكْرًا لِلْجِنْسِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمْوَالًا لِلنَّاسِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَضَافَهَا إِلَى الْوَلَاةِ؛ لِأَنَّهُمْ قِوَامُهَا. الْخَامِسُ: أَنَّ الْقَوْلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، وَالْمَرَادُ بِهِ كُلُّ سَفِيهِ يَسْتَحِقُّ الْحَجَرَ عَلَيْهِ، ذَكَرَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ. وَفِي قَوْلِهِ ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَمْوَالُ الْيَتَامَى. الثَّانِي: أَمْوَالُ السُّفَهَاءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: قِيَمًا

وَقَوَامًا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، تَقُولُ: هَذَا قَوَامُ أَمْرِكَ وَقِيَامُهُ، أَيُّ مَا يَقُومُ بِهِ أَمْرُكَ. وَذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ
 الْفَارِسِيُّ أَنَّ (قَوَامًا، وَقِيَامًا، وَقِيَمًا)، بِمَعْنَى: الْقَوَامُ الَّذِي يُقِيمُ الشَّأْنَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: إِنَّ
 قِيلَ: لَوْ كَانَ الْمَرَادُ بِالسُّفَهَاءِ النِّسَاءَ لَقَالَ: السُّفَاهِيَّةُ، أَوِ السُّفِيهَاتِ فِي جَمْعِ السُّفِيهِةِ نَحْوُ
 غَرَائِبَ وَغَرِيِبَاتٍ فِي جَمْعِ الْغَرِيْبَةِ. أَجَابَ الرَّجَاجُ: بِأَنَّ السُّفَهَاءَ فِي جَمْعِ السُّفِيهِةِ جَائِزٌ كَمَا
 أَنَّ الْفُقَرَاءَ فِي جَمْعِ الْفَقِيْرَةِ جَائِزٌ. السُّفَهَاءُ خِفَّةُ الْعَقْلِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْفَاسِقُ سَفِيْهًا لِأَنَّهُ لَا
 وَزْنَ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَيُسَمَّى النَّاقِصُ الْعَقْلُ سَفِيْهًا لِحِفَّةِ عَقْلِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ
 السُّفَهَاءُ فِي هَؤُلَاءِ صِفَةً دَمًّا، وَلَا يُفِيدُ مَعْنَى الْعِصْيَانِ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا سُمُّوا سُفَهَاءً؛ لِحِفَّةِ عُقُولِهِمْ
 وَنُقْصَانِ تَمْيِيزِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِحِفْظِ الْأَمْوَالِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ
 الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَعْمَدْ إِلَى مَالِكَ وَمَا حَوْلَكَ
 اللَّهُ، وَجَعَلَهُ مَعِيْشَةً، فَتُعْطِيَهُ امْرَأَتَكَ أَوْ بَنِيكَ، ثُمَّ تُنْظَرُ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَكِنْ أَمْسَكَ
 مَالَكَ وَأَصْلَحْهُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ رُجُوعٌ إِلَى
 بَيَانِ بَقِيَّةِ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَتَفْصِيلُ مَا أُجْمِلَ فِيهَا سَبَقَ مِنْ شَرْطِ إِيْتَائِهَا
 وَكَيْفِيَّتِهِ إِثْرَ بَيَانِ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَنْفُسِ أَعْنَى النِّكَاحِ، وَبَيَانِ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْمُتَعَلِّقَةِ
 بِالْأَجْنَبِيَّاتِ مِنْ حَيْثُ النَّفْسُ وَمِنْ حَيْثُ الْمَالُ اسْتِطْرَادًا؛ إِذِ الْخِطَابُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ
 عِكْرَمَةَ لِلْأَوْلِيَاءِ، وَصَرَّحَ هُوَ وَابْنُ جُبَيْرٍ بِأَنَّ الْمَرَادَ مِنَ ﴿السُّفَهَاءِ﴾ هُنَا: الْيَتَامَى، وَمِنْ
 ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ هُنَا: أَمْوَالُهُمْ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى ضَمِيرِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُخَاطَبِينَ؛ تَنْزِيلًا لِاخْتِصَاصِهَا
 بِأَصْحَابِهَا مَنْزِلَةً اخْتِصَاصِهَا بِهِمْ، فَكَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ عَيْنُ أَمْوَالِهِمْ؛ لِمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْإِتِّحَادِ
 الْجَنْسِيِّ وَالنِّسْبِيِّ؛ مُبَالَغَةً فِي حَمْلِهِمْ عَلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا
 تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦١]، فَإِنَّ الْمَرَادَ: لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِلَّا أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ
 نَوْعِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ؛ مُبَالَغَةً فِي الرَّجْرِ عَنِ الْقَتْلِ حَتَّى كَأَنَّ قَتْلَهُمْ قَتْلُ أَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ أُيِّدَ ذَلِكَ
 بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾، حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ جَعْلِهَا مَنَاطًا
 لِمَعَاشِ أَصْحَابِهَا بِجَعْلِهَا مَنَاطًا لِمَعَاشِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَفْعُولُ ﴿جَعَلَ﴾ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ وَهُوَ

ضَمِيرُ الْأَمْوَالِ، والمرادُ مِنَ الْقِيَامِ: مَا بِهِ الْقِيَامُ وَالتَّعْيِشُ. وَالتَّعْيِشُ بِذَلِكَ؛ زِيَادَةٌ فِي الْمِبَالِغَةِ وَهُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِ﴿جَعَلَ﴾، وَقَدْ جُوزَ أَنْ يَكُونَ الْمَحذُوفُ وَحْدَهُ مَفْعُولًا، وَهَذَا حَالًا مِنْهُ. وَقِيلَ: إِنَّمَا أُضِيفَتِ الْأَمْوَالُ إِلَى ضَمِيرِ الْأَوْلِيَاءِ نَظَرًا إِلَى كَوْنِهَا تَحْتَ وَلَايَتِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى ضَمِيرِهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِالْمَالِ جِنْسُهُ مِمَّا يَتَعَيَّشُ النَّاسُ بِهِ وَنِسْبَتُهُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ كَنِسْبَتِهِ إِلَى الْآخَرِ لِعُمُومِ النَّسْبَةِ، وَالْمَخْصُوصُ بِوَاحِدٍ دُونَ وَاحِدٍ شَخْصُ الْمَالِ فَجَازَ أَنْ يُنْسَبَ حَقِيقَةً إِلَى الْأَوْلِيَاءِ كَمَا يُنْسَبُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَيُؤَيَّدُ ذَلِكَ وَصْفُهُ بِمَا لَا يَخْتَصُّ بِمَالٍ دُونَ مَالٍ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾: أَي لَا تَعْطُوهُمْ. وَالسُّفَهَاءُ: جَمْعُ سَفِيهِ، وَهُوَ مَنْ لَا يَحْسَنُ التَّصَرُّفَ، إِمَّا لِصُغَرِ فِي سِنِّهِ، وَإِمَّا لِقُصُورِ فِي عَقْلِهِ وَرَشْدِهِ. وَالسَّفَهَ يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ، وَيَكُونُ فِي الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ فَهُوَ سَفِيهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْشَدِ النَّاسِ فِي تَصَرُّفِهِ فِي مَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: أَضَافَ الْأَمْوَالُ إِلَيْنَا، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الْخَاصَّةَ بِكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَضَيِّعُونَهَا بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، فَتَفُوتَ عَلَيْكُمْ وَتَفُوتَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بَلِ الْمَرَادُ بِذَلِكَ أَمْوَالُهُمْ، لَكِنَّهُ أَضَافَهَا إِلَيْنَا مِنْ أَجْلِ الْوَلَايَةِ، فَكَأَنَّنَا بَوْلَايَتِنَا عَلَى هَذَا الْمَالِ نَمْلِكُ هَذَا الْمَالِ. وَالْآيَةُ صَالِحَةٌ لِلْوَجْهَيْنِ، وَمِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ: (أَنَّ الْآيَةَ إِذَا كَانَتْ صَالِحَةً لِلْوَجْهَيْنِ لَا يَتَنَافَيَانِ، فَإِنَّمَا تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا). وَقَوْلُهُ: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: ﴿جَعَلَ﴾ هُنَا بِمَعْنَى صَيَّرَ، أَيِ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَنَا قِيَامًا، تَقُومُ بِهَا مَصَالِحُ دِينِنَا وَمَصَالِحُ دُنْيَانَا، فَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَّ بِالْمَالِ، وَكَمْ مِنْ ضَرُورَةٍ أَزِيلَتْ بِالْمَالِ، وَكَمْ مِنْ يَتِيمٍ جَبَرَ قَلْبُهُ بِالْمَالِ، فَالْأَمْوَالُ فِي الْحَقِيقَةِ قِيَامٌ لِلنَّاسِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ يَقْدِّمُ الْجِهَادَ بِالْمَالِ عَلَى الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ ضَرُورَةَ الْجِهَادِ بِالْمَالِ أَكْثَرُ مِنْ ضَرُورَتِهَا بِنَفْسٍ، حَتَّى إِنَّ الَّذِي يَجَاهِدُ بِنَفْسِهِ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَالِ، فَمَا الَّذِي يُوَصِّلُهُ إِلَى مِيدَانِ الْقِتَالِ إِلَّا الْأَمْوَالُ.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: قال البغوي: أَي أَطْعِمُوهُمْ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿فِيهَا﴾، ولم يقل: مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ: اجْعَلُوا لَهُمْ فِيهَا رِزْقًا فَإِنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللَّهِ الْعَطِيَّةُ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ، وَمِنَ الْعِبَادِ إِجْرَاءُ مُوقَّتٍ مَحْدُودٌ. ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾: لِمَنْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُ وَمُؤَنَّتُهُ. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: عِدَّةٌ جَمِيلَةٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ: إِذَا رَبَحْتَ أُعْطَيْتُكَ، وَإِنْ غَنِمْتَ جَعَلْتُ لَكَ حَظًّا. وَقِيلَ: هُوَ الدُّعَاءُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْكُمْ نَفَقَتُهُ، فَقُلْ لَهُ: عَافَاكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ. وَقِيلَ: أَي قَوْلًا لَبِنًا تَطِيبُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ. وقال ابن الجوزي: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾: أَي مِنْهَا. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: الْعِدَّةُ الْحَسَنَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٌ، وَمُجَاهِدٌ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: الرَّدُّ الْجَمِيلُ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ. الثَّلَاثُ: الدُّعَاءُ، كَقَوْلِكَ: عَافَاكَ اللَّهُ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. وقال الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَهَى عَنْ إِبْتِاءِ الْمَالِ السَّفِيَةِ أَمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾، وَمَعْنَاهُ: وَأَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: مِنْهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ أَمْرًا بِأَنْ يَجْعَلُوا بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ رِزْقًا لَهُمْ، بَلْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَكَانًا لِرِزْقِهِمْ بِأَنْ يَتَجَرَّوْا فِيهَا وَيُتَمَرَّوْهَا فَيَجْعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاحِ لَا مِنْ أَصُولِ الْأَمْوَالِ. وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾، وَالْمُرَادُ ظَاهِرٌ، وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَمَرَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ الْجَمِيلَ يُؤَثِّرُ فِي الْقَلْبِ فَيُزِيلُ السَّفَهَ، أَمَّا خِلَافُ الْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يَزِيدُ السَّفِيَةَ سَفَهًا وَنُقْصَانًا. وَالْمُفَسِّرُونَ ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِ الْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ وَجُوهًا: أَحَدُهَا: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَمُجَاهِدٌ: إِنَّهُ الْعِدَّةُ الْجَمِيلَةُ مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: إِذَا رَبَحْتُ فِي سُفْرَتِي هَذِهِ فَعَلْتُ بِكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَإِنْ غَنِمْتُ فِي غَزَاتِي أُعْطَيْتُكَ. وَثَانِيهَا: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِنَّهُ الدُّعَاءُ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، وَبِالْجُمْلَةِ كُلُّ مَا سَكَتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَأَحَبَّتَهُ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ فَهُوَ مَعْرُوفٌ وَكُلُّ مَا أَنْكَرْتَهُ وَكَرِهْتَهُ وَنَفَرْتَ مِنْهُ فَهُوَ مُنْكَرٌ. وَثَالِثُهَا: قَالَ الرَّجَّاجُ: الْمَعْنَى عَلِّمُوهُمْ مَعَ إِطْعَامِكُمْ وَكُسُوتِكُمْ إِيَّاهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. وَرَابِعُهَا: قَالَ

الْقَالَ: الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ: هُوَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ صَبِيًّا، فَالْوَلِيُّ يُعْرِفُهُ أَنَّ الْمَالَ مَالُهُ وَهُوَ خَازِنٌ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا زَالَ صِبَاهُ فَإِنَّهُ يَرُدُّ الْمَالَ إِلَيْهِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] مَعْنَاهُ: لَا تُعَاشِرْهُ بِالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِ كَمَا تُعَاشِرُ الْعَبِيدَ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، وَإِنْ كَانَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ سَفِيهًا وَعَظُهُ وَنَصَحُهُ وَحُثُّهُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَرَغْبُهُ فِي تَرْكِ التَّبَذِيرِ وَالْإِسْرَافِ، وَعَرَفَهُ أَنَّ عَاقِبَةَ التَّبَذِيرِ الْفَقْرُ وَالْإِخْتِيَاجُ إِلَى الْخَلْقِ إِلَى مَا يُشْبِهُ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْكَلَامِ، وَهَذَا الْوَجْهُ أَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ الْوُجُوهِ الَّتِي حَكَيْنَاهَا. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾: أَيُّ كُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَسْوَتِهِمْ وَمُؤْتَتِيهِمْ وَرِزْقِهِمْ. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي فِي الْبِرِّ وَالصِّلَةِ. انْتَهَى. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ انْتَضَمَتْ الْإِحْسَانَ إِلَى الْعَائِلَةِ، وَمَنْ تَحْتَ الْحَجَرِ بِالْفِعْلِ، مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الْكَسَاوَى وَالْإِنْفَاقِ، وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ، وَتَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾: أَيُّ أَعْطَوْهُمْ رِزْقًا. وَالرِّزْقُ: هُوَ الْعَطَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهَا﴾: أَيُّ فِي الْأَمْوَالِ، وَلَمْ يَقُلْ: (مِنْهَا)؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكْتَسِبَ الْوَلِيُّ بِمَالِ هَؤُلَاءِ السَّفَهَاءِ، حَتَّى يَكُونَ الرِّزْقُ فِيهَا لَا مِنْهَا، وَفَرَقَ بَيْنَ الرِّزْقِ فِيهَا وَالرِّزْقِ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَتَّجِرْ فِيهَا وَيَكْتَسِبْ صَارَ الْعَطَاءُ مِنْهَا، فَإِذَا قَدَّرْنَا أَنَّهَا مَائَةٌ رِيَالٍ فَأَعْطَاهُمْ نَفَقَةَ عَشْرَةِ رِيَالَاتٍ، فَإِنَّهَا تَقْصُ كَلَّمَا أَعْطَاهُمْ، لَكِنْ حِينَما قَالَ: ﴿فِيهَا﴾، فَإِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الرِّزْقَ يَكُونُ فِيهَا، فَيَكُونُ الْمَالُ أَوْسَعُ مِنَ الرِّزْقِ الْمَعْطَى، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَنْ يَتَّجِرَ فِيهَا ثُمَّ يَعْطِيهِمْ مِنَ الرِّبْحِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ﴾: أَيُّ أَعْطَوْهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا، أَمَّا الْكَسْوَةُ فَقَالَ: ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾: أَيُّ اكْسُوهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَمِصِّ وَالسَّرَاوِيلِ وَغَيْرِهَا، وَالْفَرَشَ وَالسَّكْنَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: أَيُّ حِينَ إِعْطَائِكُمْ إِيَّاهُمْ وَكَسْوَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، قُولُوا لَهُمْ: ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: أَيُّ قَوْلًا هَيِّئًا لِنَا، وَلَا تَشْمَخُوا بِأَنَافِكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْوَلَايَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، فَمَثَلًا: إِذَا جَاءَ السَّفِيهَ وَقَالَ: أَعْطِنِي، أَوْ اكْسِنِي، فَلَا تَقُلْ لَهُ قَوْلًا غَلِيظًا، كَأَن تَقُولَ:

لماذا قطعت ثيابك؟ وما أشبه ذلك من الكلمات النابية؛ لأن المال مالهم، وإن كان مالكم، فإنه لا ينبغي لكم أن تمنّوا بما أعطيتهم.

• قال الله تعالى: ﴿وَابْتَئِلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت في ثابت بن رفاعه، وفي عمه، وذلك أنّ رفاعه توفي وترك ابنه ثابتاً وهو صغير، فأتى عمّ ثابت إلى النبي ﷺ، فقال: إنّ ابن أخي يتيم في حجرِي، فما يحلّ لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله: ﴿وَابْتَئِلُوا الْيَتَامَىٰ...﴾.

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنّه تعالى لما أمر من قبل بدفع مال اليتيم إليه بقوله: ﴿وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ بيّن بهذه الآية متى يؤتيهم أموالهم، فذكر هذه الآية وشرط في دفع أموالهم إليهم شرطين: أحدهما: بلوغ النكاح. الثاني: إنباس الرشد.

وقال البقاعي: لما نهي عن ذلك البدل للفقهاء، أيتاماً كانوا أو غيرهم بيّن أنّه ليس دائماً، بل ما دام السقّة قائماً، فمست الحاجة إلى التعريف بمن يعطى ومن يمتنع وكيف يفعل عند الدفع؛ ولما كان السقّة أمراً باطناً لا يعرف إلا بالتصريف بدأ سبحانه بتعليم ما يتوصلون به إلى معرفته؛ فقال مصرّحاً بالإيتام؛ اهتماماً بأمرهم: ﴿وَابْتَئِلُوا الْيَتَامَىٰ﴾.

وقال الألوسي: ﴿وَابْتَئِلُوا الْيَتَامَىٰ﴾: شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم وبيان شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق، والنهي عنه عند كون أصحابها فقهاء.

وقيل: إِنَّ هَذَا رُجُوعٌ إِلَى بَيَانِ الْأَحْكَامِ الْمَتَعَلِّقَةِ بِأَمْوَالِ الْيَتَامَى لَا شُرُوعٌ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ مَا تَقَدَّمَ كَانَ مَذْكُورًا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِطْرَادِ.

● تفسير الآية:

﴿وَأَبْتَلُوا أَلْيَتَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: قال الواحدي: قال الحسن، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وابن زيد: اختبروهم في عقولهم وأديانهم. ومعنى هذا الابتلاء وكيفيته - على ما ذكره الفقهاء -: أن يُرَدَّ إليه الأمر في نفقته عند مراعاة الحلم، ويعطى شيئاً نزرّاً يتصرف فيه؛ ليعرف كيف تديره وتصرفه. وإن كانت جارية يُرَدَّ إليها ما يُرَدَّ إلى النساء من أمر البيت وتدير الغزل والقطن. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وابن زيد: يريد الخُلْم. وتقديره: حتى إذا بلغوا حال النكاح من الاحتلام. وقال آخرون: أي بلغوا مبلغ الرجال والنساء من القدرة على النكاح. قال ابن قتيبة: أي بلغوا أن ينكحوا النساء. ومعنى النكاح: هو إنزال الماء، فإذا أنزل الغلام أو الجارية فقد بلغ، سواء كان عن جماع أو احتلام. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾: قال ابن عباس: أي عرفتم. وقال عطاء عنه: أي رأيتم. وقال الفراء: أي وجدتم. وقال الزجاج: أي علمتم. وأصل الإيناس في اللغة: الإبصار، ومنه قوله تعالى: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ قال ابن عباس، والسُّدِّي: هو الصلاح في العقل وحفظ المال. وقال عطاء عنه: يريد صلاحاً ومعرفة وعقلاً. وقال الزجاج: معنى الرشد: أي الطريقة المستقيمة التي تثقون معها بأنهم يحفظون أموالهم. وقال الشافعي: الرشد: من يكون صالحاً في دينه، مصلحاً ماله، ولا يجوز دفع مال اليتيم إليه إلا بعد البلوغ وتبين العفاف وإصلاح المال منه. وأبو حنيفة وأصحابه اعتبروا صلاح المال، ولم يعتبروا صلاح الدين. وهذا الاختلاف يعود إلى الاختلاف في معنى الرشد، فمن جعل معنى الرشد: حفظ المال وإصلاحه يزيل الحجر عن اليتيم بالبلوغ وحفظ المال، دون

الصلاح في الدين، ومن جعل معنى الرشد صلاح الدين وحفظ المال اعتبرهما في زوال الحجر عن اليتيم، وهذا هو الأولى، فإن أهل اللغة قالوا في معنى الرشد: إنه إصابة الخير، والمفسد في دينه لا يكون مصيبًا للخير. وأيضًا فإن الرشد نقيض الغي، قال الله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والغي: هو الجهالة والبطالة والفساد. وقال ابن الجوزي: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾: الابتلاء: الاختبار. وبماذا يُختَبَرُونَ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ يُخْتَبَرُونَ فِي عُقُولِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَسُفْيَانُ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: يُخْتَبَرُونَ فِي عُقُولِهِمْ، وَدِينِهِمْ، قَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ كَالْقَوْلَيْنِ. الثَّالِثُ: فِي عُقُولِهِمْ، وَدِينِهِمْ، وَحِفْظِهِمْ أَمْوَالَهُمْ، ذَكَرَهُ النَّعَلِيُّ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى: وَهَذَا الْإِتِّلَاءُ قَبْلَ الْبُلُوغِ. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: أَيُّ بَلَغُوا أَنْ يَنْكِحُوا النِّسَاءَ. ﴿فَإِنْ أَنْسَتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: أَيُّ عَلِمْتُمْ، وَتَبَيَّنْتُمْ. وَأَصْلُ: أَنْسَتْ: أَبْصَرْتُ. وَفِي الرُّشْدِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: الصَّلَاحُ فِي الدِّينِ، وَحِفْظُ الْمَالِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ. الثَّانِي: الصَّلَاحُ فِي الْعَقْلِ، وَحِفْظُ الْمَالِ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْعَقْلُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالنَّحْعِيُّ. والرَّابِعُ: الْعَقْلُ، وَالصَّلَاحُ فِي الدِّينِ، رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّقَ رَفْعَ الْحَجَرِ عَنِ الْيَتَامَى بِأَمْرَيْنِ: بِالْبُلُوغِ وَالرُّشْدِ، وَأَمَرَ الْأَوْلِيَاءَ بِاخْتِبَارِهِمْ، فَإِذَا اسْتَبَاحُوا رُشْدَهُمْ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَسْلِيمُ أَمْوَالِهِمْ إِلَيْهِمْ. وَالْبُلُوغُ يَكُونُ بِأَحَدِ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، ثَلَاثَةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ: الْإِحْتِلَامُ، وَاسْتِكْمَالُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَالْإِبْطَاءُ، وَشَيْئَانِ يُخْتَصَّانِ بِالنِّسَاءِ: الْحَيْضُ، وَالْحَمْلُ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾: هَذَا خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَأْكُلُوهَا بَغَيْرِ حَقِّ. ﴿وَبَدَارًا﴾: تُبَادِرُونَ أَكْلَ الْمَالِ قَبْلَ بُلُوغِ الصَّبِيِّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى الْإِحْتِبَارِ، فَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَتَأَمَّلَ الْوَصِيُّ أَخْلَاقَ يَتِيمِهِ، وَيَسْتَمَعَ إِلَى أَغْرَاضِهِ، فَيَحْصُلُ لَهُ الْعِلْمُ بِنَجَابَتِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ وَضَبْطِ مَالِهِ وَالْإِهْمَالِ لِدَلِّكَ، فَإِذَا تَوَسَّسَ الْخَيْرَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا وَغَيْرُهُمْ: لَا بَأْسَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ يُبِيحُ لَهُ التَّصَرُّفَ فِيهِ، فَإِنْ نَمَّاهُ وَحَسَّنَ النَّظَرَ فِيهِ فَقَدْ

وَقَعَ الْإِخْتِبَارُ، وَوَجَبَ عَلَى الْوَصِيِّ تَسْلِيمُ جَمِيعِ مَالِهِ إِلَيْهِ، وَإِنْ أَسَاءَ النَّظَرُ فِيهِ وَجَبَ عَلَيْهِ
إِمْسَاكُ مَالِهِ عِنْدَهُ. وَلَيْسَ فِي الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ إِذَا اخْتَبَرَ الصَّبِيَّ فَوَجَدَهُ رَشِيدًا تَرْتَفِعُ
الْوِلَايَةُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُ مَالِهِ إِلَيْهِ وَإِطْلَاقُ يَدِهِ فِي التَّصَرُّفِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا
بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾. وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ: الصَّغِيرُ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ
عُلَامًا أَوْ جَارِيَةً، فَإِنْ كَانَ عُلَامًا رَدَّ النَّظَرُ إِلَيْهِ فِي نَفَقَةِ الدَّارِ شَهْرًا، أَوْ أَعْطَاهُ شَيْئًا نَزْرًا
يَتَصَرَّفُ فِيهِ، لِيَعْرِفَ كَيْفَ تَدْبِيرُهُ وَتَصَرُّفُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرَاعِيهِ؛ لِئَلَّا يُتْلَفَهُ، فَإِنْ أَتْلَفَهُ
فَلَا ضَمَانَ عَلَى الْوَصِيِّ، فَإِذَا رَأَاهُ مُتَوَحِّيًا سَلَّمَ إِلَيْهِ مَالَهُ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ جَارِيَةً رَدَّ
إِلَيْهَا مَا يُرَدُّ إِلَى رَبَّةِ الْبَيْتِ مِنْ تَدْبِيرِ بَيْتِهَا وَالنَّظَرِ فِيهِ، فِي الْإِسْتِغْرَالِ وَالْإِسْتِثْقَاءِ عَلَى
الْعَزَالَاتِ فِي دَفْعِ الْقُطْنِ وَأُجْرَتِهِ، وَاسْتِيفَاءِ الْعَزْلِ وَجُودَتِهِ، فَإِنْ رَأَاهَا رَشِيدَةً سَلَّمَ أَيْضًا
إِلَيْهَا مَا لَهَا وَأَشْهَدَ عَلَيْهَا، وَإِلَّا بَقِيََا تَحْتَ الْحَجَرِ حَتَّى يُؤْنَسَ رُشْدُهُمَا. وَقَالَ الْحَسَنُ،
وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: اخْتَبَرُوهُمْ فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَنَسَمِيَةِ أَمْوَالِهِمْ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا
أَنْ يَكْبُرُوا﴾: لَيْسَ يُرِيدُ أَنْ أَكُلَ مَا لَهُمْ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ جَائِزٍ، فَيَكُونَ لَهُ دَلِيلُ خِطَابٍ،
بَلِ الْمُرَادُ: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ فَإِنَّهُ إِسْرَافٌ. فَنَهَى اللَّهُ الْأَوْصِيَاءَ عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى
بِغَيْرِ الْوَاجِبِ الْمُبَاحِ لَهُمْ، عَلَى. وَالْإِسْرَافُ فِي اللَّعَةِ: الْإِفْرَاطُ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ. وَالسَّرْفُ:
الْخَطَأُ فِي الْإِنْفَاقِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: ظَاهِرُ الْآيَةِ
يَدُلُّ عَلَى اسْتِبْدَادِ الْوَصِيِّ بِالْإِسْرَافِ وَالْإِسْتِغْلَالِ بِهِ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى
السُّلْطَانِ وَيُثَبِّتَ عِنْدَهُ رُشْدَهُ، أَوْ يَكُونَ مِمَّنْ يَأْمَنُهُ الْحَاكِمُ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾
تَقْدِيرٌ مَحْدُوفٌ، وَهُوَ: بَلَغُوا حَدَّ النِّكَاحِ أَوْ وَقْتَهُ. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾: قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ: مَعْنَى آنَسْتُمْ: عَرَفْتُمْ. وَقَالَ عَطَاءٌ: أَيُّ رَأَيْتُمْ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: أَيُّ وَجَدْتُمْ. وَقَالَ
الرَّجَاجُ: أَيُّ عَلِمْتُمْ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ. وَنَكَرَ ﴿رُشْدًا﴾؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ نَوْعٌ مِنَ الرُّشْدِ،
وَطَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ مِنْ مَخِيلَتِهِ، وَلَا يُنْتَظَرُ بِهِ تَمَامُ الرُّشْدِ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ
يَكْبُرُوا﴾: تَقَدَّمَ أَنَّهُ يُعَبَّرُ بِالْأَكْلِ عَنِ الْأَخْذِ؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ أَكْظَمُ وَجْوهِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْمَأْخُودِ.

والإسرافُ: الإفراطُ في الإنفاق. والسرفُ: الخطأُ في مواضع الإنفاق. وانتصب ﴿إسرافاً وبادراً﴾ على أنَّهما مصدرانِ في موضعِ الحال، أي مُسرفين ومُبادرين. والبدارُ: مصدرُ بادرَ، وهو من بابِ المفاعلة التي تكونُ بينَ اثنين؛ لأنَّ اليتيمَ مُبادِرٌ إلى الكبرِ، والوليُّ مُبادِرٌ إلى أخذِ ماله، فكأنَّهما مُستَبقان. ويجوزُ أن يكونَ من واحدٍ. وأجيزُ أن ينتصبا على المفعولِ من أجله، أي لإسرافِكم ومُبادرتِكم. و﴿أن يكبروا﴾: مفعولٌ بالمصدر، أي كبركم. وقيل: التقديرُ: مخافةُ أن يكبروا، فيكونُ ﴿أن يكبروا﴾: مفعولاً من أجله، ومفعولٌ ﴿بادراً﴾ محذوفٌ. وقال ابن كثير: ﴿وابتلوا اليتامى﴾: قال ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، والسديُّ، ومقاتلُ بن حَيَّان: أي اختبروهم. ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾: قال مجاهدٌ: يعني الحُلُم. ﴿فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾: قال سعيدُ بن جبْرِ: يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباسٍ، والحسنِ البصريِّ، وغيرِ واحدٍ من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ العَلامُ مُصلحاً لدينه وماله، انقلك الحجزَ عنه، فیسلم إليه ماله الذي تحت يدِ وليه بطريقه. ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾: ينهى الله عن أكلِ أموالِ اليتامى من غيرِ حاجةٍ ضروريَّةٍ إسرافاً ومُبادرةً قبلَ بلوغِهِم. وقال أبو السعود: ﴿فإن أنستم﴾: أي شاهدتم وتبينتم. ﴿منهم رشداً﴾: أي اهتداءً إلى وجوه التصرفاتِ من غيرِ عجزٍ وتبذيرٍ. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ للاهتمامِ بالمقدمِ والتشويقِ إلى المؤخرِ، أو للاعتدادِ بمبدئيه له. والتَّنوينُ؛ للدلالةِ على كفايةِ رُشدٍ في الجملة. ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾: أي من غيرِ تأخيرٍ عن حدِّ البلوغِ. وفي إثارِ (الدفع) على (الإيتاء) الواردُ في أوَّلِ الأمرِ: إيدانٌ بتفاوتِهِما بحسبِ المعنى. وقال السعديُّ: ﴿وابتلوا اليتامى﴾: الابتلاء: هو الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيمِ المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً. فإن تبين

رَشَدَهُ وَصَلَاحَهُ فِي مَالِهِ وَبَلَغَ النِّكَاحَ ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾: أي مجاوزة للحدِّ الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرَّمه الله عليكم من أموالهم. ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾: أي ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ومنعوكم منها. وقال العثيمين: ﴿وَابْتَلُوا﴾: أي اختبروا. ﴿الْيَتَامَى﴾: جمع يتيم، وهو كلٌّ من مات أبوه قبل بلوغه، أي قبل بلوغ الطفل ذكرًا كان أو أنثى، لكن المرأة لا تختبر بالبيع والشراء؛ لأنها ليست من أهله، لكن تختبر بحاجات البيت فإذا عرف ضبطها لحاجات البيت فهي رشيدة. ﴿حَتَّى﴾: هنا ابتدائية، أي اختبروهم واستمروا في الاختبار. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾: ﴿إِذَا﴾: شرطية. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْسْتُمْ﴾: شرطية أيضًا، وقوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: جواب الشرط، فيكون هذا شرطًا في ضمن شرط آخر، وهو سائغ في اللغة العربية، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ شرط في ضمن شرط، وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْسْتُمْ﴾: أي أبصرتم، ومنه قوله: ﴿أَنْسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي أبصر. وقوله: ﴿رُشْدًا﴾: الرشد في كلِّ موضع بحسبه، ويجمع جميع معانيه كلمة واحدة، وهي: حسن التصرف، فإن كان في المال فبأن يبيع الإنسان ويشترى مرارًا ولا يُغَبِّنَ إلا بما جرت به العادة، وإن كان في التصرف للغير فأن يكون حسن الولاية، ومنه الرشد في ولاية النكاح، وهو أن يكون عالمًا بالكفء ومصالح النكاح. والمراد بقوله هنا: ﴿رُشْدًا﴾: أي تصرفًا صحيحًا في أموالهم. وقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: أي أعطوهم إياها، وأوصلوها إليهم، ولا تقولوا: ائتوا خذوا أموالكم، بل ادفعوها إليهم، وسيأتي أن الولي له الأجرة أو الأكل بالمعروف حسب ما تقتضيه حالهم. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾: أي أموالهم. ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾: ﴿إِسْرَافًا﴾: يجوز أن تكون مفعولًا مطلقًا، أي أكل إسراف، والإسراف هو: مجاوزة الحدِّ، وهو أيضًا في كلِّ

موضع بحسبه. وقوله: ﴿وَبَدَارًا﴾: أي مبادرة، فهي من بادر بمعنى استعجل الشيء. وقوله: ﴿أَنْ يَكْبُرُوا﴾: أي بداراً لكبرهم، يعني تبادروا كبرهم؛ لأنهم إذا كبروا زالت الولاية عليهم وصاروا راشدين، ربما يأكل بعض الأولياء أموالهم على وجه الإسراف، أو على وجه الاقتصاد ولكن يبادر؛ ولهذا لا يقول قائل: إن الكلمتين مترادفتان، بل نقول: إن الإسراف: مجاوزة الحد، فمثلاً: إذا كان يكفيه عشرة أخذ خمسة عشر. ﴿وَبَدَارًا﴾: أي أن يأكل بلا إسراف، لكنه يبادر بالأكل قبل أن يكبروا.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ﴾: قال ابن الجوزي: أي بماله عن مال اليتيم. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: في الأكل بالمعروف: أربعة أقوال: أحدها: أنه الأخذ على وجه القرض، وهذا مروي عن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وأبي العالية، وعبيدة، وأبي وائل، ومجاهد، ومقاتل. الثاني: الأكل بمقدار الحاجة من غير إسراف، وهذا مروي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وعطاء، والنخعي، وقتادة، والسدي. الثالث: أنه الأخذ بقدر الأجرة إذا عمل لليتيم عملاً، روي عن ابن عباس، وعائشة. الرابع: أنه الأخذ عند الضرورة، فإن أيسر قضاءه، وإن لم يؤسر، فهو في حل، وهذا قول الشعبي. واختلف العلماء هل هذه الآية محكمة أو منسوخة؟ على قولين: أحدهما: محكمة، وهو قول عمر، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وأبي العالية، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة في آخرين. وحكمها عندهم أن الغني ليس له أن يأكل من مال اليتيم شيئاً، فأما الفقير الذي لا يجد ما يكفيه، وتشغله رعايته مال اليتيم عن تحصيل الكفاية، فله أن يأخذ قدر كفايته بالمعروف من غير إسراف. وهل عليه الضمان إذا أيسر؟ فيه قولان لهم: أحدهما: أنه لا ضمان عليه، بل يكون كالأجرة له على عمله، وهو قول الحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وأحمد بن حنبل. الثاني: إذا أيسر وجب عليه القضاء، روي عن عمر وغيره، وعن ابن عباس أيضاً كالقولين. القول الثاني: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وهذا مروي عن ابن عباس، ولا يصح.

وقال القرطبي: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ﴾: بَيَّنَّ اللَّهُ مَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَأَمَرَ الْغَنِيَّ بِالْإِمْسَاكِ، وَأَبَاحَ لِلْوَصِيِّ الْفَقِيرَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ وَلِيِّهِ بِالْمَعْرُوفِ. وَالْعَقَّةُ: الْإِمْتِنَاعُ عَمَّا لَا يَحِلُّ وَلَا يَجِبُ فِعْلُهُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قَالَتْ: نَزَلَتْ فِي وَلِيِّ الْيَتِيمِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُصْلِحُهُ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا جَازَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: بِقَدْرِ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ: الْيَتِيمُ إِنْ كَانَ غَنِيًّا وَسَعَّ عَلَيْهِ وَأَعْفَى عَنْ مَالِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَنْفَقَ عَلَيْهِ بِقَدْرِهِ، قَالَهُ رِبِيعَةُ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ. وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ الْيَتِيمَ لَا يُخَاطَبُ بِالتَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ لِصِغَرِهِ وَلِسَفَهِهِ. وَقَالَ النِّسَابِيُّ: قَسَمَ اللَّهُ الْأَمْرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْوَصِيُّ غَنِيًّا، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيرًا، فَالْغَنِيُّ يَسْتَغْفِرُ مِنْ أَكْلِهَا، أَيْ يَحْتَرِزُ مِنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ. وَاسْتَعَفَّ أَبْلَغُ مَنْ عَفَى، كَأَنَّهُ طَالِبُ زِيَادَةِ الْعَقَّةِ، وَالْفَقِيرُ يَأْكُلُ قُوتًا مُقَدَّرًا مُحْتَاطًا فِي أَكْلِهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ: مَا سَدَّ الْجُوعَةَ، وَوَارَى الْعَوْرَةَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: ظَاهِرُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَقْسِيمٌ لِحَالِ الْوَصِيِّ عَلَى الْيَتِيمِ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِالِاسْتِغْفَافِ عَنْ مَالِهِ إِنْ كَانَ غَنِيًّا، وَاقْتِنَاعِهِ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْغَنَى، وَأَبَاحَ لَهُ الْأَكْلَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، بِحَيْثُ يَأْخُذُ قُوتًا مُحْتَاطًا فِي تَقْدِيرِهِ. وَظَاهِرُ هَذِهِ الْإِبَاحَةِ: أَنَّهُ لَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَرَتَّبُ فِي ذِمَّتِهِ مَا أَخَذَ مِمَّا يَسُدُّ جُوعَتَهُ بِمَا لَا يَكُونُ رَفِيعًا مِنَ الثِّيَابِ، وَلَا يَقْضِي إِذَا أَيْسَرَ، قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ، وَعَطَاءُ، وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْفُقَهَاءُ. وَقَالَ عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعُبَيْدَةُ، وَالشَّعْبِيُّ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَابْنُ جُبَيْرٍ: يَقْضِي إِذَا أَيْسَرَ، وَلَا يَسْتَلِفُ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ، وَبِهِ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالْحَسَنُ، وَالشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا يَأْكُلُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا شَرِبَ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَكَلَ مِنَ التَّمْرِ، بِمَا يَهْنَأُ الْجُرْبَاءَ وَيَلِيطُ الْحَوْضَ، وَيَجِدُ التَّمْرَ وَمَا أَشْبَهَهُ، فَأَمَّا أَعْيَانُ الْأَمْوَالِ وَأَصُولُهَا فَلَيْسَ لِلْوَلِيِّ أَخْذُهَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الْمَعْرُوفُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ أَجْرٌ بِقَدْرِ عَمَلِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَهَذِهِ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ. وَفَصَّلَ

الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ وَصِيٌّ أَبٍ فَلَهُ الْأَكْلُ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ وَصِيٌّ حَاكِمٍ فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْمَالِ بِوَجْهِهِ، وَأَجْرُهُ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ. وَفَصَّلَ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ، فَقَالُوا: إِنْ كَانَ وَصِيٌّ الْيَتِيمَ مُقِيمًا فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ مُسَافِرًا فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ، وَلَا يَفْتَنِي شَيْئًا. وَفَصَّلَ الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ مُضْطَرًّا بِحَالٍ مَنْ يَجُوزُ لَهُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ أَكَلَ بِقَدَرِ حَاجَتِهِ وَرَدَّ إِذَا وَجَدَ، وَإِلَّا فَلَا يَأْكُلُ لَا سَفَرًا وَلَا حَضَرًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ الْإِبَاحَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ: لَعَلَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ قَرْضًا وَلَا غَيْرَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالنَّحَّعِيُّ أَيْضًا: هَذَا الْأَمْرُ لَيْسَ مُتَعَلِّقًا بِمَالِ الْيَتِيمِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعَنِيَّ يَسْتَغْفِرُ بَغْنَاهُ، وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَيَأْكُلُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ، وَيَقُومُ عَلَى نَفْسِهِ بِمَالِهِ حَتَّى لَا يَخْتِاجَ إِلَى مَالِ يَتِيمِهِ، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ الْكِنَا الطَّبْرِيُّ. وَقِيلَ: إِنْ كَانَ مَالُ الْيَتِيمِ كَثِيرًا يَخْتِاجُ إِلَى قِيَامِ كَثِيرٍ عَلَيْهِ بِحَيْثُ يَشْغَلُ الْوَلِيَّ عَنْ مَصَالِحِ نَفْسِهِ وَمُهَمَّاتِهِ فُرِضَ لَهُ فِي مَالِ الْيَتِيمِ أَجْرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَشْغَلُهُ فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لَهُ شَرْبُ قَلِيلِ اللَّبَنِ، وَأَكْلُ قَلِيلِ الطَّعَامِ وَالسَّمَنِ، غَيْرَ مُضَرٍّ بِهِ وَلَا مُسْتَكْثَرٍ مِنْهُ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ وَالْمَسَاحَةُ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ رَبِيعَةُ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: هَذَا تَقْسِيمٌ لِحَالِ الْيَتِيمِ، لَا لِحَالِ الْوَصِيِّ، وَالْمَعْنَى: مَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَنِيًّا فَلْيَعِفَّ بِمَالِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فَقِيرًا فَلْيُقْرِ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِفْتِصَادِ. وَيَكُونُ مِنْ خِطَابِ الْعَيْنِ، وَيُرَادُّ بِهِ الْغَيْرُ، حُوطِبَ الْيَتَامَى بِالِاسْتِغْفَافِ وَالْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْمُرَادُّ: الْأَوْلِيَاءُ؛ لِأَنَّ الْيَتَامَى لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْخِطَابِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ: إِنْ كَانَ الْيَتِيمُ غَنِيًّا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِ نَفَقَةً مُتَعَقِّفٍ مُقْتَصِدٍ؛ لِئَلَّا يَذْهَبَ مَالُهُ بِالتَّوَسُّعِ فِي نَفَقَتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيُنْفِقْ عَلَيْهِ بِقَدَرِ مَالِهِ؛ لِئَلَّا يَذْهَبَ فَيَبْقَى كَلًّا مُضْعَفًا. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ﴾: أَيُّ مَنْ كَانَ فِي غُنْيَةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ فَلْيَسْتَغْفِرْ عَنْهُ، وَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ عَلَيْهِ كَالْمَيْتَةِ

وَالدَّم. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَي يَقْدِرْ قِيَامِهِ عَلَيْهِ. وقال العثيمين: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: أَي مَنْ كَانَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ غَنِيًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَالِ الْيَتِيمِ. ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: أَي فليَكْفَ عن الأكل. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: (اللام) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ لِلأَمْرِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ لِلإِبَاحَةِ. فإذا قَالَ قَائِلُ: مَا الَّذِي أَخْرَجَ (اللام) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ عَنِ الْأَمْرِ؟ فَالجواب: لِأَنَّهَا أَعْقَبَتْ النَّهْيَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، وَالأَمْرُ بَعْدَ النَّهْيِ إِمَّا لِلإِبَاحَةِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، أَوْ لِرَفْعِ الْحُظَرِ، وَهنا إِذَا رَفَعَ الْحُظَرَ فَهُوَ مُبَاحٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَي فليَأْكُلْ أَكْلًا بِالْمَعْرُوفِ، أَي بِمَا جَرَى بِهِ الْعَرَفُ، فَلَا يَأْكُلْ أَكْلَ الْأَغْنِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْ أَكْلَ مِثْلِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ: إِذَا كَانَ فَقِيرًا فَقَالَ: أَنَا سَاكِلٌ أَكْلَ الْأَغْنِيَاءِ؛ لِأَنِّي وَلِي عَلَيْهِ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ أَكْلَ الْفَقِيرِ لَيْسَ كَأَكْلِ الْغَنِيِّ. قلنا: هَذَا لَا يَجُوزُ، بَلْ كُلُّ بِالْمَعْرُوفِ.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى: هَذَا عَلَى طَرِيقِ الْإِحْتِيَاظِ لِلْيَتِيمِ، وَالْوَلِيِّ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، فَأَمَّا الْيَتِيمُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، كَانَ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ عَدَمَ الْقَبْضِ، وَأَمَّا الْوَلِيُّ، فَإِنْ تَطَهَّرَ أَمَانَتُهُ، وَيَسْقُطُ عَنْهُ الْيَمِينُ عِنْدَ إِنْكَارِ الْيَتِيمِ لِلدَّفْعِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِشْهَادِ؛ تَنْبِيْهَا عَلَى التَّحْصِينِ وَرَوَاةٍ لِلتَّهْمِ. وَهَذَا الْإِشْهَادُ مُسْتَحَبٌّ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ الْقَوْلَ قَوْلُ الْوَصِيِّ؛ لِأَنَّهُ أَمِينٌ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ فَرَضٌ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَلَيْسَ بِأَمِينٍ فَيُقْبَلُ قَوْلُهُ، كَالْوَكِيلِ إِذَا زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ رَدَّ مَا دُفِعَ إِلَيْهِ أَوْ الْمُوَدَّعِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمِينٌ لِلْأَبِ، وَمَتَى اتَّخَذَهُ الْأَبُ لَا يَقْبَلُ قَوْلَهُ عَلَى غَيْرِهِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِشْهَادِ؛ لِحَسْمِ مَادَّةِ النَّزَاعِ، وَسُوءِ الظَّنِّ بِهِمْ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الضَّمَانِ وَالْعُرْمِ عَلَى تَقْدِيرِ إِنْكَارِ الْيَتِيمِ، وَطَيَّبَ خَاطِرَ الْيَتِيمِ بِفَكِّ الْحَجَرِ عَنْهُ، وَانْتِظَامِهِ فِي سِلْكِ مَنْ يُعَامَلُ وَيُعَامَلُ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ إِذَا دَفَعَ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، وَهِيَ الْمَأْمُورُ بِدَفْعِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا

إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ». وقال عَمْرُو بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا الْإِشْهَادُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى دَفْعِ الْوَلِيِّ مَا اسْتَقْرَضَهُ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ حَالَةَ فَقْرِهِ إِذَا أَيْسَرَ. وقيل: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ الْقَضَاءِ عَلَى مَنْ أَكَلَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالْمَعْنَى: إِذَا أَفْرَضْتُمْ أَوْ أَكَلْتُمْ فَأَشْهَدُوا إِذَا غَرِمْتُمْ. وقيل: الْمَعْنَى إِذَا أَنْفَقْتُمْ شَيْئًا عَلَى الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَأَشْهَدُوا، حَتَّى لَوْ وَقَعَ خِلَافٌ أَمَكَنَّ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ، فَإِنَّ مَالًا فُبِضَ عَلَى وَجْهِ الْأَمَانَةِ بِإِشْهَادٍ لَا يُبْرَأُ مِنْهُ إِلَّا بِإِشْهَادٍ عَلَى دَفْعِهِ. وقال ابن كثير: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: يَغْنِي بَعْدَ بُلُوغِهِمُ الْخُلْمَ وَإِنْسَاسِ الرُّشْدِ مِنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ سَلَّمُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ. ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: هَذَا أَمْرُ اللَّهِ لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْأَيْتَامِ إِذَا بَلَغُوا الْخُلْمَ وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ؛ لِأَنَّ يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِنْكَارٌ لَمَا قَبَضَهُ وَتَسَلَّمَهُ. وقال أبو السَّعُودِ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: بَعْدَمَا رَاعَيْتُمُ الشَّرَاطِطَ الْمَذْكُورَةَ. وَتَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ عَنِ الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ؛ لِلِإِهْتِمَامِ بِهِ. ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: بِأَنَّهُمْ تَسَلَّمُوهَا وَقَبَضُوهَا وَبَرَأْتُمْ عَنْهَا ذِمَّتْكُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْعَدُ مِنَ التُّهْمَةِ، وَأَنْفَى لِلْخُصُومَةِ، وَأَدْخَلَ فِي الْأَمَانَةِ وَبَرَاءَةِ السَّاحَةِ. وقال العثيمين: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: أَي إِذَا بَلَغُوا وَرَشَدُوا. وقوله: ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: أَي أَشْهَدُوا أَنْكُمْ دَفَعْتُمُوهَا.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: قال ابن الجوزي: فِي مَعْنَى الْحَسِيبِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الشَّهِيدُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلٌ. الثَّانِي: أَنَّهُ الْكَافِي، مِنْ قَوْلِكَ: أَحْسَبْنِي هَذَا الشَّيْءَ، أَي كَفَانِي، وَاللَّهُ حَسِيبِي وَحَسِيبُكَ، أَي كَافِينَا، أَي يَكُونُ حُكْمًا بَيْنَنَا كَافِيًا. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ الْمُحَاسِبُ، فَيَكُونُ فِي مَذْهَبِ جَلِيسٍ، وَأَكِيلٍ، وَشَرِيبٍ، حَكَاهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، وَالْخَطَّابِيُّ. وقال أبو حَيَّانٍ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: أَي كَافِيًا فِي الشَّهَادَةِ عَلَيْكُمْ، وَمَعْنَاهُ: مُحَسِّبًا مِنْ أَحْسَبْنِي كَذَا، أَي كَفَانِي، قَالَهُ الْأَعْمَشُ، وَالطَّبْرِيُّ، فَيَكُونُ فَعِيلًا بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، أَوْ مُحَاسِبًا، أَوْ حَاسِبًا لِأَعْمَالِكُمْ يُجَازِيكُمْ بِهَا، فَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِيَّاكُمْ بِالْكَذِبِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ وَعِيدٌ لِلْجَاحِدِ الْحَقِّ. وقال ابن كثير: أَي وَكَفَى بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَشَهِيدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي حَالِ نَظَرِهِمْ لِلْأَيْتَامِ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِلْأَمْوَالِ هَلْ هِيَ كَامِلَةٌ مُوقَرَّةٌ، أَوْ

مَنْقُوصَةٌ مَبْخُوسَةٌ مُدْخَلَةٌ مُرَوَّجٌ حِسَابُهَا مُدَلَّسٌ أُمُورُهَا؟ اللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ. وقال العثيمين: ﴿وَكَفَى﴾: من الكفاية، أي أنه جلّ وعلا يكفي عن كلّ أحد، و(الباء) في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة؛ لتحسين اللفظ، وكلّ شيء في القرآن زائد إعراباً فهو زائد معنى، أي أنه جاء لفائدة ولا بدّ، وهي هنا لتحسين اللفظ، والأصل: (وكفى الله حسبياً)، والحسب: بمعنى الرقيب المحاسب، فهذه الآية ختمها الله بهذه الجملة؛ تهديداً لأولياء اليتامى من أن يتجرّؤوا على أكل أموالهم إسرافاً وبداراً أن يكبروا.

- قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧):
- سبب نزول الآية: قال ابن الجوزي: "أَنَّ أَوْسَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ تُوفِّيَ وَتَرَكَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ وَامْرَأَةً، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّهِ، فَأَحْذَا مَالَهُ، وَلَمْ يُعْطِيا امْرَأَتَهُ، وَلَا بَنَاتَهُ شَيْئًا، فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَكَتِ الْفَقْرَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ"، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: "كَانُوا لَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".
- مناسبة الآية لما قبلها: قال ابن عاشور: وَمُنَاسَبَةُ تَعْقِيبِ الْآيِ السَّابِقَةِ بِهَا: أَتَاهُمْ كَانُوا قَدْ اعْتَادُوا إِثَارَ الْأَقْوِيَاءِ وَالْأَشْدَاءِ بِالْأَمْوَالِ، وَحِرْمَانَ الضُّعَفَاءِ، وَإِبْقَاءَهُمْ عَالَةً عَلَى أَشْدَائِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا فِي مَقَادَتِهِمْ، فَكَانَ الْأَوْلِيَاءُ يَمْنَعُونَ عَنْ مُحَاجِرِهِمْ أَمْوَالَهُمْ، وَكَانَ أَكْبَرُ الْعَائِلَةِ يَحْرِمُ إِخْوَتَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ مَعَهُ فَكَانَ أَوْلَيْكَ لِضَعْفِهِمْ يَصْبِرُونَ عَلَى الْحِرْمَانِ، وَيَقْنَعُونَ الْعَائِلَةَ بِالْعَيْشِ فِي ظِلَالِ أَقَارِبِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ نَارَعُوهُمْ أَطْرَدُوهُمْ وَحَرَمُوهُمْ، فَصَارُوا عَالَةً عَلَى النَّاسِ.
- تفسير الآية:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: قال أبو حيان: المعنى بِالرِّجَالِ: الذُّكُورُ. وَبِالنِّسَاءِ: الْإِنَاثُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وَسُمِّيَ الْأَبُ وَالِدًا؛

لَأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُ، وَمِنَ الْوَالِدَةِ. وَالْأَقْرَبُونَ: هُمُ الْمَوَارِثُونَ مِنْ ذَوِي الْقَرَابَاتِ. وَقَدْ أَبْهَمَ فِي لَفْظِ الْأَقْرَبُونَ كَمَا أَبْهَمَ فِي النَّصِيبِ، وَعَيَّنَ الْوَارِثَ وَالْمُقْدَارَ فِي الْآيَاتِ بَعْدَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾: هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ الْآخِيرِ، أُعِيدَ مَعَهُ حَرْفُ الْجَرِّ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِنْهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى (مَا) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ الْآخِيرِ. وَاكْتَفَى بِذِكْرِهِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَهُوَ مُرَادٌ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى، وَلَمْ يُضْطَرَّ إِلَى ذِكْرِهِ لِأَنَّ الْبَدَلَ جَاءَ عَلَى سَبِيلِ التَّوَكِيدِ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا تَوْضِيحٌ أَنَّهُ أُريدَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ الْعُمُومُ فِي الْمَثْرُوكِ. وَهَذَا الْبَدَلُ فِيهِ ذِكْرُ نَوْعِي الْمَثْرُوكِ مِنَ الْقَلَّةِ أَوْ الْكَثْرَةِ. وَمَعْنَى ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: أَيُّ حَظًّا مَقْطُوعًا بِهِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَحْزُوهُ. وَقَالَ الْبِضَاوِيُّ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: يُرِيدُ بِهِمُ الْمَوَارِثِينَ بِالْقَرَابَةِ. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: بَدَلٌ مِمَّا تَرَكَ بِإِعَادَةِ الْعَامِلِ. ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: نُصِيبَ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١]، أَوْ حَالٌ؛ إِذِ الْمَعْنَى: ثَبَتَ لَهُمْ مَفْرُوضًا نَصِيبٌ، أَوْ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ، بِمَعْنَى: أَعْنِي نَصِيبًا مَقْطُوعًا وَاجِبًا لَهُمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَارِثَ لَوْ أَعْرَضَ عَنْ نَصِيبِهِ لَمْ يَسْقُطْ حَقُّهُ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ الْجَمِيعِ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ وَإِنْ تَفَاوَتْ بِحَسَبِ مَا فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ، بِمَا يُدْلِي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ، أَوْ زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وِلَاءٍ. وَقَالَ الشُّوكَاوِيُّ: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: أَفْرَدَ سُبْحَانَهُ ذِكْرَ النِّسَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ الرِّجَالِ، وَلَمْ يَقُلْ: (لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ نَصِيبٌ)؛ لِلإِذَانِ بِأَصَالَتِهِنَّ فِي هَذَا الْحُكْمِ، وَدَفَعَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ عَدَمِ تَوْرِيثِ النِّسَاءِ. وَفِي ذِكْرِ الْقَرَابَةِ بَيَانٌ لِعِلَّةِ الْمِيرَاثِ مَعَ التَّعْمِيمِ لِمَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ مُسَمًّى الْقَرَابَةِ مِنْ دُونِ تَخْصِيصٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بِإِعَادَةِ الْجَرِّ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْمَيِّدَلِ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿نَصِيبًا﴾ مُنْتَصِبٌ عَلَى الْحَالِ أَوْ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ أَوْ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ. وَقَدْ أَجْمَلَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ قَدَرَ النَّصِيبِ الْمَفْرُوضِ، ثُمَّ أَنْزَلَ قَوْلَهُ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، فَتَبَيَّنَ مِيرَاثُ كُلِّ فَرْدٍ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ:

﴿لِلرِّجَالِ﴾: أي الأولاد والأقرباء. ﴿نَصِيبٌ﴾: أي حظ. ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: أي المتوفون. ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾: أي المال. ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: أي مقطوعًا واجبًا لهم. وإيراد حكم النساء على الاستقلال دون الدرج في تضعيف أحكام الرجال. بأن يقال: للرجال والنساء إلح؛ للاعتناء بأمرهن، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين، والمبالغة في إبطال حكم الجاهليّة، فإنهم كانوا لا يؤثرون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرمح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة، وقد استدلّ بالآية على توريث ذوي الأرحام؛ لأنهم من الأقربين، وهو استدلالٌ وجيه، ولا حجة لمن حاول دفعه. وقال العثيمين: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: قوله: ﴿لِلرِّجَالِ﴾: خبر مقدم، و﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وكذلك قوله: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي وذلك مما قلّ منه، وقوله: ﴿نَصِيبًا﴾: حال من (ما) في قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ﴾، وقوله: ﴿مَفْرُوضًا﴾: صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾ وهو أولى، ويجوز أن تكون حالاً أخرى، وهو مرجوح. ونصيب: أي حظ، ولم يبيّنه هنا، لكن بيّنه في آيات تأتي، والإجمال ثم التفصيل من البلاغة التامة؛ لأن الشيء إذا أجمل بقيت النفوس تتطلع إلى تفصيله، فيأتي التفصيل والنفوس متطلّعة إليه، بخلاف ما لو جاء الشيء مفصّلاً مباشرة، فإنه قد يرد على نفس ليست متشوّقة إليه، فلا يرسخ في الذهن، ولا يصير له قوّة في القبول. وقوله: ﴿الْوَالِدَانِ﴾: أي الأم والأب، أمّا الأم فظاهر أنها والدّة، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأمّا الأب فكذلك، قال النبي ﷺ: "إنّ أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإنّ أولادكم من كسبكم" رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصحّحه الألباني، والولد لا بدّ له من والد، وكذلك جاء في الحديث: "لا يحلّ لواهب أن يرجع فيما وهبه، إلا الوالد فيما وهبه لابنه" رواه أبو داود، وصحّحه

الألبانيّ، فالوالد إذا يطلق على الأمّ والأب. وقال: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾، ولم يقل: والأقارب، والأقرب: اسم تفضيل، وذلك لأن الميراث لا يتناول جميع الأقارب، بل الأقرب فالأقرب، ويدلّ لذلك قول النبي ﷺ: "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر" رواه الشيخان، وهناك خمسة من الورثة لا يمكن أن يحجبوا، وهم الذين يتصلون بالميت مباشرة، وهم: (الأب، والأمّ، والابن، والبنت، وأحد الزوجين)، فهؤلاء لا يمكن أن يحجبوا؛ لأنهم يرثون من الميت مباشرة. ثم قال تعالى: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: إنما نصّ على نصيب النساء بهذه الصيغة المساوية لنصيب الرجال؛ تأكيداً لحقهنّ، وإلا فمن المعلوم أنّ نصيب النساء دون نصيب الرجال، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، لكنّه جاء بهذه الصيغة تأكيداً لنصيب النساء؛ لأنهم كانوا في الجاهليّة في أحكامهم الجائرة لا يورثون النساء، ويقولون: إنّما الميراث لمن حمل السلاح وخاض المعارك، وهم الرجال، وأمّا النساء فلا حقّ لهن في الميراث، ولا شكّ أنّ هذا حكم مبنيّ على الجور، ولو نظرنا ببدائى الرأي لقننا: إنّ النساء أحقّ بالميراث من الرجال؛ لأنهنّ أعجز وأضعف عن التكبّب من الرجال، لكن حكم الله أحسن الأحكام، فقد جعل لهن نصيباً وللرجال نصيباً، ولكن لكثرة المسؤوليّة على الرجال جعل للذكر مثل حظّ الأنثيين. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: أي لكلّ منهما نصيب من القليل أو الكثير، سواء خلف الميت أموالاً كثيرة، أو أموالاً قليلة، فلو خلف درهماً واحداً كان للرجال نصيب وللنساء نصيب، ولو خلف ملايين الملايين كان للرجال نصيب وللنساء نصيب، فلا يقال: إنه إذا قلّ المال فلا نصيب للنساء، أو إذا كثّر المال فلا نصيب للنساء، بل نقول: لا فرق بين القليل والكثير. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: هذه الجملة ينبغي الوقوف عليها؛ لأن ما بعدها وهو قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ لا يتعلّق بالفاعل في قوله تعالى: ﴿قَلَّ﴾، و﴿كَثُرَ﴾، بل هو متعلّق بمقدّر،

والمعنى: جعل هذا نصيباً مفروضاً، أو حال كونه نصيباً مفروضاً. وقوله: ﴿مَفْرُوضًا﴾: المراد أنه مُحْتَم، وليس المراد أنه مُقَدَّر؛ لأن ميراث الأولاد - إذا اجتمعوا بنين وبنات - ليس مقدراً، أي ليس بفريضة، بل هو تعصيب، ولكن المراد بالفرض هنا الحتم، كما تقول: فُرِضَت الصلوات الخمس، أي حُتِمَت وأُلْزِمَ بها.

● قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨):

● مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ الْمَفْرُوضَ أَتْبَعَهُ الْمِنْدُوبَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: قال الماوردي: فيها ثلاثة أقاويل: أحدها: أَلَمَّا ثَابَتَ الْحُكْمُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُمَا وَلِيَانِ، أَحَدُهُمَا يَرِثُ وَهُوَ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَرْزُقَهُمْ: أَيُّ يُعْطِيهِمْ، وَالْآخَرُ لَا يَرِثُ وَهُوَ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا، وَبِإثبات حُكْمِهَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَالزُّهْرِيُّ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَلَمَّا مَنَسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمَوَارِيثِ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالْفُقَهَاءُ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا وَصِيَّةُ الْمَيِّتِ الَّتِي وَصَّى بِهَا أَنْ تُفَرَّقَ فِيمَنْ ذَكَرَ وَفِيمَنْ حَضَرَ، وَهُوَ قَوْلُ عَائِشَةَ. فَيَكُونُ ثُبُوتُ حُكْمِهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ. وَاخْتَلَفَ مَنْ قَالَ: بِثُبُوتِ حُكْمِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فِي الْوَارِثِ إِذَا كَانَ صَغِيرًا هَلْ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّهِ إِخْرَاجُهَا مِنْ سَهْمِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: يَجِبُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدٍ، وَيَقُولُ الْوَلِيُّ لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا. الثَّانِي: أَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ فِي أَمْوَالِ الصِّغَارِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ عُبَيْدَةَ، وَالْحَسَنِ. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْوَرِثَةِ

وَأَوْلِيائِهِمْ أَنْ يَقُولُوا لِمَنْ حَضَرَ مِنْ أُولَى الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ قَوْلًا مَعْرُوفًا عِنْدَ
إِعْطَائِهِمُ الْمَالَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. الثَّانِي: خِطَابٌ لِلْآخَرِينَ أَنْ
يَقُولُوا لِلدَّافِعِينَ مِنَ الْوَرِثَةِ قَوْلًا مَعْرُوفًا، وَهُوَ الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالرِّزْقِ وَالْغِنَى. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: بَيَّنَّ
اللَّهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ شَيْئًا إِرْثًا وَحَضَرَ الْقِسْمَةَ، وَكَانَ مِنَ الْأَقَارِبِ أَوْ الْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ
الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ أَنْ يُكْرَمُوا وَلَا يُحْرَمُوا، إِنْ كَانَ الْمَالُ كَثِيرًا، وَالْإِعْتِدَارُ إِلَيْهِمْ إِنْ كَانَ عَقَارًا
أَوْ قَلِيلًا لَا يَقْبَلُ الرِّضْخَ. فَالْآيَةُ مُبَيِّنَةٌ اسْتِحْقَاقَ الْوَرِثَةِ لِنَصِيهِمُ، وَاسْتِحْبَابَ الْمُشَارَكَةِ
لِمَنْ لَا نَصِيبَ لَهُ مِمَّنْ حَضَرَهُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هَذَا الرِّضْخُ وَاجِبٌ عَلَى جِهَةِ الْقَرْضِ،
تُعْطَى الْوَرِثَةُ لِهَذِهِ الْأَصْنَافِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفُوسُهُمْ، كَالْمَاعُونِ وَالنَّوْبِ الْخَلْقِ وَمَا خَفَّ،
حَكَى هَذَا الْقَوْلُ ابْنُ عَطِيَّةٍ وَالْقُشَيْرِيُّ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ هَذَا عَلَى النَّدْبِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ
فَرَضًا لَكَانَ اسْتِحْقَاقًا فِي التَّرَكَةِ وَمُشَارَكَةً فِي الْمِيرَاثِ، لِأَحَدِ الْجِهَتَيْنِ مَعْلُومٌ وَلِلْآخَرِ
مَجْهُولٌ، وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلْحِكْمَةِ، وَسَبَبٌ لِلتَّنَازُعِ وَالتَّقَاطُعِ. وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنَّ
الْمُخَاطَبَ وَالْمُرَادَ فِي الْآيَةِ: الْمُحْتَضِرُونَ الَّذِينَ يَقْسِمُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْوَصِيَّةِ، لَا الْوَرِثَةَ.
وَرُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَابْنِ زَيْدٍ: فَإِذَا أَرَادَ الْمَرِيضُ أَنْ يُفَرِّقَ مَالَهُ
بِالْوَصَايَا وَحَضَرَهُ مَنْ لَا يَرِثُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَحْرِمَهُ، وَهَذَا يَنْتَزِلُ حَيْثُ كَانَتْ الْوَصِيَّةُ وَاجِبَةً،
وَلَمْ تَنْزِلْ آيَةُ الْمِيرَاثِ. وَالصَّحِيحُ: الْأَوَّلُ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: أَيِ
قِسْمَةِ التَّرَكَةِ. وَإِنَّمَا قُدِّمَتْ مَعَ كَوْنِهَا مَفْعُولًا؛ لِأَنَّهَا الْمُنْحَوْتُ عَنْهَا؛ وَلِأَنَّ فِي الْفَاعِلِ تَعَدُّدًا،
فَلَوْ رُوِيَ التَّرْتِيبُ يَفُوتُ تَجَاوُبُ أَطْرَافِ الْكَلَامِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ﴾: أَيِ قِسْمَةِ التَّرَكَةِ. ﴿أُولُو الْقُرْبَى﴾: أَيِ ذَوُو الْقَرَابَةِ مِمَّنْ لَا يَرِثُ، قَدَّمَ هُمْ؛ لِأَنَّ
إِعْطَاءَهُمْ صَدَقَةً وَصَلَةً. ﴿وَالْيَتَامَى﴾: أَيِ الضُّعَفَاءِ بِفَقْدِ الْآبَاءِ. ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾: أَيِ
الضُّعَفَاءِ بِفَقْدِ مَا يَكْفِيهِمْ مِنَ الْمَالِ. ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: أَيِ اعْطُوهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ شَيْئًا.
﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: أَيِ بَتْلُطِيفِ الْقَوْلِ لَهُمْ، وَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِمِثْلِ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.
وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: هَذَا أَمْرٌ بِعَطِيَّةٍ تُعْطَى مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُوَرَّثَةِ: أَمَرَ الْوَرِثَةَ أَنْ يُسْهِمُوا لِمَنْ

يَحْضُرُ الْقِسْمَةَ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ غَيْرِ الَّذِينَ لَهُمْ حَقٌّ فِي الْإِثْرِ، مِمَّنْ شَأْنُهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا
مَجَالِسَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْأَقْرَبَاءِ. وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ تَحْمُولٌ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ
الْعِلْمِ عَلَى النَّدْبِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ غَيْرُ الزَّكَاةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ لَمَّا قَالَ لَهُ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟: "لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَعَ" رواه الشيخان، وبهذا
قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ، وَجَعَلُوا الْمُخَاطَبَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾
الْوَرَثَةَ الْمَالِكِينَ أَمَرَ أَنْفُسِهِمْ، وَالْآيَةُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوحَةٍ. وَذَهَبَ فَرِيقٌ مِنْ
أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى حَمْلِ الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ عَلَى الْوُجُوبِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،
وَعِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَالزُّهْرِيِّ، وَعَطَاءٍ، وَالْحَسَنِ، وَالشَّعْبِيِّ: أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى الْوَرَثَةِ
الْمَالِكِينَ أَمَرَ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ الْمُخَاطَبُونَ بِقَوْلِهِ ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: وَأَبِي صَالِحٍ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فَرْضًا قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْهَارِثِ، ثُمَّ
نُسِخَ بِآيَةِ الْهَارِثِ، وَمَالَ هَذَا الْقَوْلُ إِلَى مُوَافَقَةِ قَوْلِ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
أَيْضًا، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ الْأَمْرَ مُوجَّهٌ إِلَى صَاحِبِ الْمَالِ فِي الْوَصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَقْرُوضَةً
قَبْلَ شَرْعِ الْمِيرَاثِ وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ فِي وَصِيَّتِهِ شَيْئًا لِمَنْ يَحْضُرُ وَصِيَّتَهُ مِنْ أَوْلَى الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ غَيْرِ الَّذِينَ أَوْصَى لَهُمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ نَسَخٌ تَبَعًا لِنَسْخِ الْوُجُوبِ الْوَصِيَّةِ،
وَهَذَا يَقْتَضِي تَأْوِيلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْقِسْمَةَ﴾ بِمَعْنَى تَعْيِينِ مَا لِكُلِّ مُوصًى لَهُ مِنْ مِقْدَارٍ.
وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الْآيَةَ فِي نَفْسِ الْمِيرَاثِ وَأَنَّ الْمُقْصُودَ مِنْهَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، قَالَ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ هُوَ الْمِيرَاثُ نَفْسُهُ. وَقَالَ
الْعِثْمِينِ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى﴾: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْقِسْمَةَ﴾: مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولُو﴾: فَاعِلٌ مُؤَخَّرٌ، وَرَفَعَ (بِالْوَاوِ)؛ لِأَنَّهُ مُلْحَقٌ بِجَمْعِ الْمَذْكُورِ السَّالِمِ،
وَحَذَفَتْ (النُّونَ) مِنْهُ؛ لِلْإِضَافَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْيَتَامَى﴾: مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ:
﴿أُولُو﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾: الْجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ
وَهُوَ ﴿إِذَا﴾، وَاقْتَرَنْتَ (الْفَاءُ) بِهَا؛ لِأَنَّهُا طَلِبِيَّةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: أَيِ

قسمة المال الموروث. ﴿أُولُو الْقُرْبَى﴾: أي أصحاب القرابة الذين لا يرثون؛ لأن الذين يرثون لهم نصيب من هذا المقسوم. والقربى هنا بمعنى: القرابة. ﴿وَالْيَتَامَى﴾: اليتامى: جمع يتيم، وهو من مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أو أنثى. ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾: المساكين: هم الفقراء، وسموا مساكين؛ لأن الفقر أسكنهم، فإنَّ الفقر يوجب الذلَّ، وأن لا يتكلم الإنسان؛ لأنه يشعر بأنه غير مسموع، وغير مقبول، فتجده ساكنًا لا يتكلم؛ لأنه لا يُسمع له، ولكن قد يكون هذا الفقير المسكين عند الله مسموعًا، قال عليه . الصلاة والسلام :- "رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره" رواه الشيخان، والشأن كلَّ الشأن أن تكون وجيهاً عند الله، وإذا كنت وجيهاً عند الله فستكون وجيهاً عند العباد، ولكن لا تطلب أن تكون وجيهاً عند الله؛ لتكون وجيهاً عند العباد، بل اطلب أن تكون وجيهاً عند الله؛ لتنال رضاه، وإذا رضي الله عنك أرضى عنك الناس. ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: أي أعطوهم؛ لأن الرزق بمعنى العطاء. وقال تعالى: ﴿مِنْهُ﴾: ولم يقل: (فيه)؛ لأن هؤلاء يعطون من رأس المال، ومن أصله، وأمّا أموال اليتامى فقال تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥]، وقد سبق أن ذكرنا أنه قال: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: "منها"؛ لأنهم يرزقون بعد الإبحار بها، فيعطون من الربح، وهو . أي ما سبق . إشارة إلى أنه ينبغي لولي اليتيم أن يتجر في ماله حتى يحصل على ما يرزقه فيه، أمّا هنا فقال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: أي من هذا المال الذي يقسم أمامهم، وهذا إحسان إليهم بالفعل. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: هذا إحسان إليهم بالقول، أي قولًا طيبًا تطيب به نفوسهم. ولنفرض أنّ المال كثير، وأنَّ كلَّ وارث سيحصل على مليون ريال مثلاً، فإذا أعطيت الفقير مائة ريال، فإن الحاضر ربما يقول: مائة من مليون! فقل له قولًا معروفًا تطيب به نفسه، حتى تجمع له بين الإحسان القوليّ والإحسان الفعليّ. وبالعكس من كان قلبه كالحجر، فإذا وجد اليتيم حوله قال له: ما الذي أتى بك؟ اذهب واطلب الرزق من الله! فهذا قلبه ليس ليّنًا لعباد الله، ولا راحمًا لهم، والإنسان يجب أن يقدر أنه لو كان هو بهذه

الحال ماذا سيفعل؟ إنه سوف يتشوّف إلى شيء من هذا المال، وسوف يرى أن من أشدّ الأشياء عليه أن يُصرف، ولا سيما إذا صُرف بقول منكر غير معروف.

• قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٩):

• سبب نزول الآية:

قال السمعاني: "إنَّ أصحابَ رَسُولِ اللهِ كَانَ الرجلُ مِنْهُمْ إِذَا حَضَرَ المَوْتَ، يَأْتُونَ إِلَيْهِ، وَيَقُولُونَ لَهُ: انْظُرْ لِنَفْسِكَ، وَأوصِي بِمَالِكَ، وَإِنَّ وَرَثَتَكَ لَا يَغْنُون عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَرُبَّمَا يَحْمِلُونَهُ عَلَى أَنْ يُوصِيَ بِجَمِيعِ المَالِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ".

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا أعَادَ الوَصِيَّةَ بِالْيَتَامَى مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَخَتَمَ بِالْأَمْرِ بِالإِنَانَةِ القَوْلَ، وَكَانَ لِلتَّصْوِيرِ فِي التَّأْثِيرِ فِي النَفْسِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ، أعَادَ الوَصِيَّةَ بِهِمْ؛ لِضَعْفِهِمْ، مُصَوِّرًا لِحَالِهِمْ، مُبَيِّنًا أَنَّ القَوْلَ المَعْرُوفَ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا حُلَّ فِيهِ، فَقَالَ تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ...﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال ابن الماوردي: فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقَاوِيلَ: أَحَدُهَا: أَنَّ مَعْنَاهُ: وَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يَخْضُرُونَ مَيِّتًا يُوصِي فِي مَالِهِ أَنْ يَأْمُرُوهُ بِتَقْرِيقِ مَالِهِ وَصِيَّةً فِيمَنْ لَا يَرِثُهُ، وَلَكِنْ لِيَأْمُرُوهُ أَنْ يُبْقِيَ مَالَهُ لَوَلَدِهِ، كَمَا لَوْ كَانَ هُوَ المَوْصِي لَا تَرَّ أَنْ يُبْقِيَ مَالَهُ لَوَلَدِهِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ. الثَّانِي: أَنَّ مَعْنَاهُ: وَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يَخْضُرُونَ المَيِّتَ وَهُوَ يُوصِي أَنْ يَنْهَوْهُ عَنِ الوَصِيَّةِ لِأَقْرَبَائِهِ، وَأَنْ يَأْمُرُوهُ بِإِمْسَاكِ مَالِهِ وَالتَّحْفُظِ بِهِ لَوَلَدِهِ، وَهُمْ لَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرَبَاءِ المَوْصِي لَا تَرَوْا أَنْ يُوصِيَ لَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ مِقْسَمٍ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ المَعْتَمِرِ. الثَّالِثُ: أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لَوَلَاةِ الأَيْتَامِ، أَنْ يَلُوْهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، كَمَا يُجِبُونَ أَنْ

يَكُونُ وُلَاةُ أَوْلَادِهِمُ الصِّغَارِ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ لَوْ مَاتُوا وَتَرَكُوا أَوْلَادَهُمْ يَتَامَى صِغَارًا، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الرَّابِعُ: أَنَّ مَنْ حَشِيَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكْفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْأَذَى بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي بَشِيرِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ﴿وَلْيَحْشَ﴾: جَزَمَ بِ(لَامِ) الْأَمْرِ. وَمَفْعُولُ (يَحْشَى) مَحْذُوفٌ؛ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَحُسْنِ حَذْفِهِ مِنْ حَيْثُ يَتَقَدَّرُ فِيهِ التَّخْوِيفُ بِاللَّهِ، وَالتَّخْوِيفُ بِالْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَيَنْظُرُ كُلُّ مُتَأَوِّلٍ بِحَسَبِ الْأَهَمِّ فِي نَفْسِهِ. ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: السَّدِيدُ: مَعْنَاهُ: الْمَصِيبُ لِلْحَقِّ. وَقَالَ الْبِضَاوِيُّ: فِي تَرْتِيبِ الْأَمْرِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْهُ وَالْعَلَّةُ فِيهِ، وَبَعَثَ عَلَى التَّرَحُّمِ وَأَنْ يُحِبَّ لِأَوْلَادٍ غَيْرِهِ مَا يُحِبُّ لِأَوْلَادِهِ وَتَهْدِيدٌ لِلْمُخَالَفِ بِحَالِ أَوْلَادِهِ. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: أَمَرَهُمُ بِالْتَّقْوَى الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْحَشْيَةِ بَعْدَ مَا أَمَرَهُمْ بِهَا؛ مُرَاعَاةً لِلْمَبْدَأِ وَالْمُنْتَهَى؛ إِذْ لَا يَنْفَعُ الْأَوَّلُ دُونَ الثَّانِي، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لِلْيَتَامَى مِثْلَ مَا يَقُولُونَ لِأَوْلَادِهِمْ بِالشَّفَقَةِ وَحُسْنِ الْأَدَبِ، أَوْ لِلْمَرِيضِ مَا يَصُدُّهُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْوَصِيَّةِ وَتَضْيِيعِ الْوَرَثَةِ، وَيُذَكِّرُهُ التَّوْبَةَ وَكَلِمَةَ الشَّهَادَةِ، أَوْ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ عَذْرًا جَمِيلًا وَوَعْدًا حَسَنًا، أَوْ أَنْ يَقُولُوا فِي الْوَصِيَّةِ مَا لَا يُؤَدِّي إِلَى مُجَاوَزَةِ الثُّلُثِ وَتَضْيِيعِ الْوَرَثَةِ. وَقَالَ النَّسْفِيُّ: الْقَوْلُ السَّدِيدُ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ: أَنْ يُكَلِّمُوهُمْ كَمَا يُكَلِّمُونَ أَوْلَادَهُمْ بِالْأَدَبِ الْحَسَنِ، وَالتَّرَحُّبِ، وَيَدْعُوهُمْ بِ: يَا بُنَيَّ، وَيَا وَلَدِي. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَلْيَحْشَ﴾ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا: انْظُرْ إِلَى حُسْنِ تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأَوَامِرِ حَيْثُ بَدَأَ أَوَّلًا بِالْحَشْيَةِ الَّتِي مَحَلُّهَا الْقَلْبُ، وَهِيَ الْإِخْتِرَازُ مِنَ الشَّيْءِ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ، وَهِيَ الْحَامِلَةُ عَلَى التَّقْوَى، ثُمَّ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ثَانِيًا وَهِيَ مُتَسَبِّبَةٌ عَنِ الْحَشْيَةِ؛ إِذْ هِيَ جَعَلُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ فِي وَقَايَةِ مِمَّا يَحْشَاهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ، وَهُوَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْفِعْلِ النَّاشِئِ عَنِ التَّقْوَى النَّاشِئَةِ عَنِ الْحَشْيَةِ. وَلَا يُرَادُ تَخْصِصُ الْقَوْلِ السَّدِيدِ فَقَطْ، بَلِ الْمَعْنَى عَلَى الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ السَّدِيدَيْنِ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ السَّدِيدِ؛

لِسُهُولَةٍ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْسَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقُلْ مَا يُسَلِّكُ هُوَ الْقَوْلُ السَّيِّدُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ لِلَّذِينَ يُفْرِقُونَ الْمَالَ: زِدْ فُلَانًا وَأَعْطِ فُلَانًا. وقيل: هو الأمرُ بِإخراجِ الثُّلثِ فَقَطْ. وقيل: هو تَلْقِينُ الْمُحْتَضِرِ الشَّهَادَةَ. وقيل: الصِّدْقُ فِي الشَّهَادَةِ. وقيل: المَوَافِقُ لِلْحَقِّ. وقيل: لِلْعَدْلِ. وقيل: لِلْقَصْدِ. وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ. وَالسَّدَادُ: الْإِسْتِوَاءُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَأَصْلُ السَّدِّ: إِزَالَةُ الْإِخْتِلَالِ. وَالسَّيِّدُ يُقَالُ فِي مَعْنَى الْفَاعِلِ، وَفِي مَعْنَى الْمَفْعُولِ. وَرَجُلٌ سَيِّدٌ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ، فَإِنَّهُ يُسَدِّدُ مِنْ قَبْلِ مَتَّبِعِهِ، وَيُسَدِّدُ لِتَابِعِهِ. وَقَالَ الْبِقَاعِيُّ: ﴿وَلِيَخْشَ﴾: أَيِ يُوقِعِ الْحَشْيَةَ عَلَى ذُرِّيَّةٍ غَيْرِهِمْ ﴿الَّذِينَ﴾، وَذَكَرَ لَهُمْ حَالًا هُوَ جَدِيرٌ بِإِيقَاعِ الْحَشْيَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَوْ تَرَكُوا﴾: أَيِ شَارَفُوا التَّرِكَ بِمَوْتٍ أَوْ هَرَمٍ، وَصَوَّرَ حَالَهُمْ وَحَقَّقَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أَيِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، أَوْ عَجَزِهِمُ الْعَجَزَ الَّذِي هُوَ كَمَوْتِهِمْ. ﴿ذُرِّيَّةً﴾: أَيِ أَوْلَادًا مِنْ ذُكُورٍ أَوْ إِنَاثٍ. ﴿ضِعَافًا﴾: أَيِ لِيَصْعَرَ أَوْ غَيْرِهِ. ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾: أَيِ جَوْرِ الْجَائِرِينَ. وَلَمَّا تَسَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ التَّصَوُّرِ فِي أَنْفُسِهِمْ خَوْفُهُمْ عَلَى ذُرِّيَّةٍ غَيْرِهِمْ كَمَا يَخَافُونَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ سَوَاءً كَانُوا أَوْصِيَاءَ أَوْ أَوْلِيَاءَ أَوْ أَجَانِبَ، وَكَانَ هَذَا الْخَوْفُ رُبَّمَا آدَاهُمْ فِي قَصْدِ نَفْعِهِمْ إِلَى جَوْرِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَمْرًا بِمَا يَحْفَظُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾. وَعَبَّرَ بِالْإِسْمِ الْأَعْظَمِ؛ إِرْشَادًا إِلَى اسْتِحْضَارِ جَمِيعِ عَظَمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ﴾: أَيِ فَلْيَعْدِلُوا فِي أَمْرِهِمْ؛ لِيَقْيِضَ اللَّهُ لَهُمْ مَنْ يَعْدِلُ فِي ذُرِّيَّتِهِمْ، وَإِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ مَنْ يَجُورُ عَلَيْهِمْ. ﴿وَلْيَقُولُوا﴾: أَيِ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ. ﴿قَوْلًا سَيِّدًا﴾: أَيِ عَدْلًا قَاصِدًا صَوَابًا؛ لِيَذُلَّ هَذَا الظَّاهِرُ عَلَى صِلَاحٍ مَا ائْتَمَرَهُ مِنَ الْبَاطِنِ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَيِّدًا﴾: مَوْعِظَةٌ لِكُلِّ مَنْ أَمَرَ أَوْ نُهِيَ أَوْ حُدِّرَ أَوْ رُعِبَ فِي الْآيِ السَّابِقَةِ، فِي شَأْنِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَأَمْوَالِ الضَّعَافِ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، فَابْتَدَأَتْ الْمَوْعِظَةُ بِالْأَمْرِ بِخَشْيَةِ اللَّهِ، أَيِ خَشْيَةِ عَذَابِهِ، ثُمَّ أَغْقَبَ بِإِثَارَةِ شَفَقَةِ الْآبَاءِ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ بِأَنْ يُنْزِلُوا أَنْفُسَهُمْ مَنَزِلَةَ الْمُورَثِينَ، الَّذِينَ اعْتَدَوْا هُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُنْزِلُوا ذُرِّيَّاتِهِمْ مَنَزِلَةَ

الذرية الذين أكلوا هم حقوقهم، وهذه الموعظة مبنية على قياس قول النبي ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" رواه الشيخان، وزاد إثارة الشفقة التنبيه على أن المعتدى عليهم خلق ضِعاف بقوله تعالى: ﴿ضِعَافًا﴾. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: فُرِعَ الأمر بالتقوى على الأمر بالخشية وإن كانا أمرين متقاربين؛ لأنَّ الأمر الأوَّلَ لما عُصِدَ بالحُجَّةِ اعتُبرَ كالحاصلِ فَصَحَّ التَّفْرِيعُ عَلَيْهِ، والمعنى: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِ النَّاسِ وَلْيَحْسِنُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ. وقال العثيمين: (اللام) في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ (لام) الأمر، والفعل مجزوم بها بحذف (الألف)، وأصلها (يخشى) بالألف المقصورة، وسكنت (لام) الأمر هنا؛ لأنها تسكن إذا وقعت بعد (الواو، والفاء، وثم)، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وكما في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، بخلاف (لام) التعليل، فإنها تكون مكسورة إذا وقعت بعد (الواو، أو ثم، أو الفاء)، مثل قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦]، فلا تُقرأ (وليتمتعوا) إلا إذا ثبت أن فيها قراءة بسكون (اللام)، فحينئذ تكون (اللام) لام الأمر، ولا تكون لام التعليل. ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: ﴿لَوْ﴾ هنا شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿تَرَكُوا﴾، وجوابه قوله: ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾، وقد خرجت الآية الكريمة هنا عن الأكثر في جواب ﴿لَوْ﴾، فإنَّ الأكثر في جوابها إذا كان مثبتا أن تقترن به (اللام)، فيقال: (لو جاء زيد لجاء عمرو)، ولكن (اللام) تحذف أحيانا في جواب ﴿لَوْ﴾ في الإثبات، ومنه هذه الآية، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، وفي نفس السياق قال في الزرع: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، أما إذا جاء جواب ﴿لَوْ﴾ منفيا (بما)، فالأفصح: أن لا تذكر (اللام)، فإذا قلت: (لو جاء زيد ما قلت شيئا)، فإنَّ هذا أفصح من أن تقول: (لو جاء زيد لما قلت شيئا)، لكن قد تقترن (اللام) (بما) النافية في جواب (لو)، وتكميلاً للفائدة: فإنَّ (لو) تأتي على أوجه: الأول: أن تكون شرطية. الثاني: أن

تكون مصدرية، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، أي ودّوا إدهانكم فيدهنون. و﴿لَوْ﴾ من أدوات الشرط غير الجازمة. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾: هذا أمر بالتقوى، وهو تأكيد للأمر بالخشية في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾. والخشية: أشدّ الخوف، ولا تكون إلا مع العلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فيقول: ليخش هؤلاء الذين لو تركوا من خلفهم ذرّة ضعافاً، ومفعول (يخشى) محذوف، أي ليخش هؤلاء أن يضيعوا أموال اليتامى ويأكلوها. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾: الذرّة: هم الأولاد من بنين وبنات، وأولاد البنين، وأولاد بني البنين، وأمّا أولاد البنات وأولاد بنات البنات وبني البنات، فإنهم لا يدخلون في الذرّة، هذا هو المشهور عند أهل العلم، فلو قال القائل: (هذا وقف على ذرّتي) لم يدخل أولاد البنات في هذا الوقف؛ لأن أولاد البنات ليسوا من الذرّة، فهم كالأولاد والبنين، لا يدخل فيهم أولاد البنات ولا بنو أولاد البنات. فإن قال قائل: هذا القول ينتقض بعيسى بن مريم، فإنّ الله جعله من ذرّة إبراهيم وهو ابن بنت؟ فيجواب عن ذلك: بأنه لا أب له، فأمه أبوه؛ ولهذا قال العلماء: إنّ ولد الزنا ترثه أمّه بالفرض والتعصيب؛ لأنها أمّ وأب؛ إذ لا أب له شرعاً. ﴿ضِعَافًا﴾: أي لا يستطيعون أن يتكسّبوا؛ لعدم رشدهم؛ ولصغر سنّهم، فكلّ واحد من الناس إذا حضرته الوفاة وله أولاد صغار، سوف يخاف عليهم، ويفكر ويقدر من يتولاهم بعده، ولكن المؤمن يقول كما قال عمر بن عبد العزيز حين قالوا له: ألا توصي لولدك؟ فقال: لا، إن كان ولدي صالحاً فالله يتولّى الصالحين، وإن كانت الأخرى، فلن أعينه على فساده. فالضعيف من الأولاد: هو الصغير، أو المجنون، أو السفیه الذي ليس لديه رشد، ولا يستطيع التصرف بنفسه. ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾: أي خافوا عليهم من الضياع وأكل أموالهم. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾: التقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا أجمع ما قيل في التقوى، وهذا إذا أطلقت التقوى وأفردت، أمّا إذا قيّدت، فإنها بحسب ما قيّدت به، مثل قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]،

وكذلك إذا قرنت بالبر صار معناها: اجتناب المعاصي، ومعنى البر: فعل الطاعات في الأوامر، أما إذا أطلقت فهي تشمل هذا وهذا. ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: القول السديد: هو ما سد موضعه، أي ما كان صواباً موافقاً للحكمة، فليس السداد أن تلين في القول ولا أن تشتد به، ولكن أن يكون قولك صواباً مطابقاً للحكمة، فقد يكون السداد بشدة القول، وقد يكون السداد بلين القول، وانظر إلى النبي كيف يشتد أحياناً بقوله، وكيف يلين أحياناً بقوله، وقوله ﷺ كله سداد، وكله سديد بلا شك، والحكمة تختلف باختلاف الأحوال، وباختلاف الأشخاص، وباختلاف موضوع الكلام، فلو أن رجلاً أراد أن يخطب في قوم أسرفوا على أنفسهم ووقعوا في المحارم، فإن السداد أن تكون الخطبة قوية، وبانفعال وبزجر شديد، وكأنه منذر قوم أو جيش يقول: صبحكم ومساكم، وإذا كان يخطب عند قوم ليسوا بهذه المثابة، ولا يرون الشدة في القول، بل ربما ينقروهم، فإنه في هذا الحال يلين لهم القول. وقد ورد ذكر القول السديد في غير هذه الآية، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، والنتيجة لتقوى الله والقول السديد هي قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ الدينية والدنيوية، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، أي ما أذنبتموه، فعلياً أن نأخذ بهذه التوجيهات الإلهية والأوامر فتقي الله ونقول قولاً سديداً.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتَيْمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها قولان: أحدهما، أن رجلاً من غطفان يقال له: مرتد بن زيد، ولي مال ابن أخيه، فأكله، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن حيان. الثاني: أن حنظلة بن الشمرذل ولي يتيماً، فأكل ماله، فنزلت هذه الآية.

● مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعي: لما طال التحذير في شأن اليتامى، وكان ذلك رُبَّمَا أَوْجَبَ النَّفَرَةَ مِنْ مُحَالِطَتِهِمْ رَأْسًا فَتَضَيُّعِ مَصَالِحِهِمْ، وَصَلَ بِذَلِكَ مَا بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِالظَّالِمِ فِي سِيَاقٍ مُوجِبٍ لِرِيَادَةِ التَّحْذِيرِ، فَقَالَ مُؤَكِّدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ..﴾.

● تفسير الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: قال ابن الجوزي: مَعْنَى الظُّلْمِ: أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَأَمَّا ذِكْرُ (الْبُطُونِ) فَلِلتَّوَكُّيدِ، كَمَا تَقُولُ: نَظَرْتُ بِعَيْنِي، وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي. وَفِي الْمَرَادِ بِأَكْلِهِمُ النَّارَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا، فَسَمِيَ الْأَكْلُ بِمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَصِرْ خُمْرًا﴾ [يُوسُفَ: ٣٦]. الثَّانِي: أَنَّهُ مِثْلُ، مَعْنَاهُ: يَأْكُلُونَ مَا يَصِيرُوْنَ بِهِ إِلَى النَّارِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٤٣]، أَيْ رَأَيْتُمْ أَسْبَابَهُ. ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾: أَيْ سَيُحْرَقُونَ بِالنَّارِ، وَيُشَوُّونَ. وَالسَّعِيرُ: النَّارُ الْمُسْتَعْرَةُ. وَاسْتِعَارَ النَّارَ تَوْقُفُهَا. وَقَدْ تَوَهَّمَ قَوْمٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالتَّفْسِيرِ وَفَقْهِهِ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ تَخَرَّجَ الْقَوْمُ عَنْ مُحَالِطَةِ الْيَتَامَى، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُحَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٢٠]، وَهَذَا غَلَطٌ، وَإِنَّمَا اِرْتَفَعَ عَنْهُمْ الْحَرَجُ بِشَرْطِ قَصْدِ الْإِصْلَاحِ، لَا عَلَى إِبَاحَةِ الظُّلْمِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: قَالَ الْجُمْهُورُ: إِنَّ الْمُرَادَ الْأَوْصِيَاءَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مَا لَمْ يَبَحْ لَهُمْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا لَا يُورِثُونَ النِّسَاءَ وَلَا الصِّغَارَ. وَسَمِيَ أَخْذُ الْمَالِ عَلَى كُلِّ وُجُوهِهِ أَكْلًا؛ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ هُوَ الْأَكْلُ وَبِهِ أَكْثَرُ إِتْلَافِ الْأَشْيَاءِ. وَحَصَّ الْبُطُونُ بِالذِّكْرِ؛ لِتَبْيِينِ نَقْصِهِمْ، وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ بِضِدِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ. وَسَمِيَ الْمَأْكُولَ نَارًا بِمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعَصِرُ خُمْرًا﴾، أَيْ عِنَبًا. وَقِيلَ: نَارًا: أَيْ حَرَامًا؛ لِأَنَّ الْحَرَامَ يُوجِبُ النَّارَ، فَسَمَّاهُ اللَّهُ بِاسْمِهِ. وَالصَّلَاءُ: هُوَ التَّسَحُّنُ بِقُرْبِ النَّارِ، أَوْ مُبَاشَرَتُهَا. وَالسَّعِيرُ: الْجَمْرُ الْمُشْتَعِلُ. وَهَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ، وَلَا حُجَّةَ فِيهَا لِمَنْ يُكَفِّرُ بِالذُّنُوبِ. وَالَّذِي يَعْتَقِدُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ: أَنَّ ذَلِكَ نَافِذٌ

عَلَى بَعْضِ الْعَصَاةِ، فَيُضَلَّى، ثُمَّ يَخْتَرِقُ وَيَمُوتُ، بِخِلَافِ أَهْلِ النَّارِ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ، فَكَأَنَّ هَذَا جَمْعٌ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ يَتَقَعُ الْخَبْرُ فِيهِمَا عَلَى خِلَافِ مَحَبَّرِهِ، سَاقِطٌ بِالْمَشِيئَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي كُلِّ مَا يَرُدُّ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فِيهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ، فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرُ ضَبَائِرٍ . جماعات في تفرقة .، فَبُتُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْنِهِمْ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ يَرَعَى بِالْبَادِيَةِ". وقال الألويسي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: اسْتِنَافٌ جِيءَ بِهِ لِتَقْرِيرِ مَا فُصِّلَ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي. و﴿ظُلْمًا﴾: إِمَّا حَالًا، أَيْ ظَالِمِينَ، أَوْ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ. وقيل: مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، أَيْ أَكَلَ ظُلْمٌ عَلَى مَعْنَى أَكَلًا عَلَى وَجْهِهِ. وقيل: عَلَى التَّمْيِيزِ. وَإِنَّمَا غُلِقَ الْوَعِيدُ عَلَى الْأَكْلِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَأْكُلُ مَالُ الْيَتِيمِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِحْقَاقِ كَالْأُجْرَةِ وَالْقَرْضِ مَثَلًا فَلَا يَكُونُ ظُلْمًا وَلَا الْإِكْلُ ظَالِمًا. وقيل: ذَكَرَ الظُّلْمَ؛ لِلتَّأْكِيدِ وَالْبَيَانِ؛ لِأَنَّ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ لَا يَكُونُ إِلَّا ظُلْمًا، وَمَنْ أَخَذَ مَالُ الْيَتِيمِ قَرْضًا أَوْ أُجْرَةً فَقَدْ أَكَلَ مَالَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْكُلْ مَالَ الْيَتِيمِ وَفِيهِ مَنَعٌ ظَاهِرٌ. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾: أَيْ مِلءَ بُطُونِهِمْ، وَشَاعَ هَذَا التَّعْبِيرُ فِي ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الظَّرْفِيَّةِ الْمُبَادَرُ مِنْهَا الْإِحَاطَةُ بِحَيْثُ لَا يُفَضَّلُ الظَّرْفُ عَنِ الْمَطْرُوفِ، فَيَكُونُ الْأَكْلُ فِي الْبَطْنِ مِلءَ الْبَطْنِ، وَفِي بَعْضِ الْبَطْنِ دُونَهُ. وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الْبُطُونِ؛ لِلتَّأْكِيدِ وَالْمِبَالَعَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وَالْقَوْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفَمِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وَالْقَلْبُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الصَّدْرِ، وَكَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وَالطَّيْرُ لَا يَطِيرُ إِلَّا بِجَنَاحٍ، فَقَدْ قَالُوا: إِنَّ الْغَرَضَ

مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ التَّأَكِيدُ والمِبالَغَةُ. وقال صَدِيقُ خَانَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ استئنافٌ جِيءَ به لتقرير ما فصل من الأوامر والنواهي يتضمن النهي عن ظلم الأيتام من الأولياء والأوصياء. و﴿ظُلْمًا﴾: أي حراماً بغير حق. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾: المراد بأكل النار: ما يكون سبباً للنار؛ تعبيراً بالمسبب عن السبب. وقال القاسمي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: أي على وجه الظلم مِنَ الْوَرَثَةِ، أَوْ أَوْلِيَاءِ السُّوءِ وَقَضَائِهِ، بِخِلَافِ أَكْلِ الْفَقِيرِ النَّاطِرِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ أَجْرَتِهِ. وقال العثيمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: جملة اسمية مبدوءة بـ(إِنَّ)، وخبر (إِنَّ) هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، أي ما يأكلون إلا نارا. ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾: أي يتلفونها، لكنّه عَبَّرَ بِالْأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ أَعَمُّ وَجْهَ الْإِنْتِفَاعِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَجْنِي الْإِنْسَانُ الْمَالَ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَإِلَّا فَغَيْرُ الْأَكْلِ مِثْلُهُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَشَدَّ، كَمَا لَوْ أَتْلَفَ هَذِهِ الْأَمْوَالُ بِإِحْرَاقٍ أَوْ إِغْرَاقٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَكْلِهَا. واليتيم: هو الذي مات أبوه ولم يبلغ. ﴿ظُلْمًا﴾: مصدر في موضع الحال، أي حال كونهم ظالمين لهم.

• قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾:

• سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: في سَبَبِ نَزُولِهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: "أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ مَرَضَ فَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَتَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

الثاني: "أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُتِلَ أَبُو هَاتَيْنِ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ اسْتَفَاءَ عَمَّهُمَا مَاهُمَا، فَنَزَلْتَ" رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا.

الثالث: "أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَخَا حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ مَاتَ، وَتَرَكَ امْرَأَةً، وَخَمْسَ بَنَاتٍ، فَأَخَذَ وَرَثَتُهُ مَالَهُ، وَلَمْ يُعْطُوا امْرَأَتَهُ، وَلَا بَنَاتَهُ شَيْئًا، فَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ، تَشْكُو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ" هَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان: الأول: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ الْحُكْمَ فِي مَالِ الْأَيْتَامِ، وَمَا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فِيهِ، بَيَّنَّ كَيْفَ يَمْلِكُ هَذَا الْيَتِيمُ الْمَالَ بِالْإِرْثِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بَيَانٍ جُمْلَةً أَحْكَامِ الْمِيرَاثِ. الثاني: أَنَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ حُكْمَ الْمِيرَاثِ بِالْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، فَذَكَرَ عَقِيبَ ذَلِكَ الْمَجْمَلَ، هَذَا الْمِفْصَلَ، فَقَالَ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

● تفسير الآية:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: قال الواحدي: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾: قال الزَّجَّاج: أي يفرض عليكم؛ لأن الوصية من الله فرض، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وهذا من الفرض المحكم علينا. وقوله تعالى: ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾: اسم الولد يقع على ولد الصلب، وعلى ولد الولد وإن سَقُلَ، ثم ثبتت على هذا ميراث ولد الولد بهذه الآية. قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: قال الكسائي: هذا بيان لما أوصى به وحكاية له؛ لأن الذي أوصاهم به هو هذا، ومثله قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩]، ثم ذكر ما وعدهم، فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ولهم مغفرة هو الذي وعدهم به. وقال البغوي: اعْلَمْ أَنَّ الْوَرَاثَةَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالذُّكُورَةِ وَالْقُوَّةِ، فَكَانُوا يُورِثُونَ الرِّجَالَ دُونَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ»، وَكَانَتْ أَيْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ بِالْمُحَالَفَةِ، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، ثُمَّ صَارَتِ الْوَرَاثَةُ بِالْهَجْرَةِ، قَالَ
 تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾
 [الأنفال: ٧٢]، فَتُسِيخَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَصَارَتِ الْوَرَاثَةُ بِأَحَدِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بِ(النَّسَبِ، أَوْ
 النِّكَاحِ، أَوْ الْوَلَاءِ). فَالْمَعْنَى بِالنَّسَبِ: أَنَّ الْقَرَابَةَ يَرِثُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى
 ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]. وَالْمَعْنَى بِالنِّكَاحِ: أَنَّ
 أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ يَرِثُ صَاحِبَهُ. وَالْمَعْنَى بِالْوَلَاءِ: أَنَّ الْمُعْتَقَ وَعَصْبَاتِهِ يَرِثُونَ الْمُعْتَقَ. وَإِذَا
 مَاتَ مَيِّتٌ وَلَهُ مَالٌ، فَيُبْدَأُ بِتَجْهِيزِهِ، ثُمَّ بِقَضَاءِ دُيُونِهِ، ثُمَّ بِإِنْفَاقِ وَصَايَاهُ، فَمَا فَضَلَ يُقَسَّمُ
 بَيْنَ الْوَرَثَةِ. ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾: أَيُّ يَعْهَدُ إِلَيْكُمْ وَيَفْرِضُ عَلَيْكُمْ فِي أَوْلَادِكُمْ،
 أَيُّ فِي أَمْرِ أَوْلَادِكُمْ إِذَا مِتُّمْ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ الرَّجَّاحُ:
 مَعْنَى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾: يَفْرِضُ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّ الْوَصِيَّةَ مِنْهُ فَرَضٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا ذَكَرَهُ بِلَفْظِ
 الْوَصِيَّةِ؛ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْوَصِيَّةَ تَزِيدُ عَلَى الْأَمْرِ، فَكَانَتْ أَكْثَرًا. الثَّانِي: أَنَّ فِي
 الْوَصِيَّةِ حَقًّا لِلْمُوصِي، فَدَلَّ عَلَى تَأْكِيدِ الْحَالِ بِإِضَافَتِهِ إِلَى حَقِّهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذِهِ
 الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتَمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ، وَهُوَ
 مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هِيَ كَالْتَفْسِيرِ
 لِذَلِكَ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾: شُرُوعٌ فِي تَفْصِيلِ أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ
 الْمُجْمَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا...﴾. وَالْمَعْنَى: يَأْمُرُكُمُ اللَّهُ وَيَعْهَدُ إِلَيْكُمْ فِي شَأْنِ
 مِيرَاثِ أَوْلَادِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ. ﴿لِلذَّكَرِ﴾: أَيُّ مِنْهُمْ. ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: أَيُّ نَصِيبُهُمَا
 اجْتِمَاعًا وَانْفِرَادًا. أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّهُ يُعَدُّ كُلُّ ذَكَرٍ بِأُنْثَيَيْنِ، فِي مِثْلِ ابْنٍ مَعَ بِنْتَيْنِ، وَابْنِ ابْنٍ
 مَعَ بِنْتِي ابْنٍ، وَهَكَذَا فِي السَّافِلِينَ، فَيُضَعْفُ نَصِيبُهُ وَيَأْخُذُ سَهْمَيْنِ، كَمَا أَنَّ لَهَا سَهْمَيْنِ.
 وَأَمَّا الثَّانِي: فَإِنَّ لَهُ الْكُلَّ وَهُوَ ضِعْفُ نَصِيبِ الْبِنْتِ الْوَاحِدَةِ؛ لِأَنَّهُ جُعِلَ لَهَا فِي
 حَالِ انْفِرَادِهَا النِّصْفُ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ لِلذَّكَرِ عِنْدَ انْفِرَادِهِ مِثْلَي نَصِيبِهَا عِنْدَ انْفِرَادِهَا،

وَذَلِكَ الْكَامِلُ، فَاَلْمَذْكُورُ هُنَا مِيرَاثُ الذَّكَرِ مُطْلَقًا، مُجْتَمِعًا مَعَ الْإِنَاثِ وَمُنْفَرِدًا، كَمَا حَقَّقَهُ صَاحِبُ "الْإِنْصَافِ". قَالَ السُّيُوطِيُّ: "اسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ مَنْ قَالَ بِدُخُولِ أَوْلَادِ الْإِنِّ فِي لَفْظِ (الأَوْلَادِ) لِلْإِجْمَاعِ عَلَى إِرْثِهِمْ، دُونَ أَوْلَادِ الْبَنَاتِ" انتهى. لَطَائِفُ: الْأَوَّلَى: وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي تَضْعِيفِ نَصِيبِ الذَّكَرِ: هُوَ اِحْتِيَاجُهُ إِلَى مُؤَنَّةِ النَّفَقَةِ وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسِبِ وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ، فَهُوَ إِلَى الْمَالِ أَحْوَجُ؛ وَلِأَنَّهُ لَوْ كُمِلَ نَصِيبُهَا مَعَ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ الْعَقْلِ، كَثِيرَةُ الشَّهْوَةِ لَأَتْلَفَتْهُ فِي الشَّهَوَاتِ إِسْرَافًا؛ وَلِأَنَّهَا قَدْ تُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهَا فَقَطُّ، وَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ وَزَوْجَتِهِ. اللَّطِيفَةُ الثَّانِيَّةُ: لَمْ يَقُلْ: لِلذَّكَرِ ضِعْفُ نَصِيبِ الْأُنْثَى؛ لِأَنَّ الضَّعْفَ يَصْدُقُ عَلَى الْمُثْلَيْنِ فَصَاعِدًا، فَلَا يَكُونُ نَصًّا، وَلَمْ يَقُلْ: لِلْأُنْثَيْنِ مِثْلُ حَظِّ الذَّكَرِ، وَلَا لِلْأُنْثَى نِصْفُ حَظِّ الذَّكَرِ؛ تَقْدِيمًا لِلذَّكَرِ بِإِظْهَارِ مَرْبِّتِهِ عَلَى الْأُنْثَى، وَلَمْ يَقُلْ: لِلذَّكَرِ مِثْلًا نَصِيبِ الْأُنْثَى؛ لِأَنَّ الْمُثْلَ فِي الْمَقْدَارِ لَا يَتَعَدَّدُ إِلَّا بِتَعَدُّدِ الْأَشْخَاصِ، وَلَمْ يُعْتَبَرْ هَهُنَا. اللَّطِيفَةُ الثَّالِثَةُ: إِينَارُ اسْمِي (الذَّكَرِ، وَالْأُنْثَى) عَلَى مَا ذَكَرَ أَوَّلًا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ لِلتَّنْصِيفِ عَلَى اسْتَوَاءِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ فِي الْإِسْتِحْقَاقِ، مِنْ غَيْرِ دَخْلِ لِلْبُلُوغِ وَالْكِبَرِ فِي ذَلِكَ أَصْلًا، كَمَا هُوَ زَعْمُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ كَانُوا لَا يُورِثُونَ الْأَطْفَالَ، كَالنِّسَاءِ. اللَّطِيفَةُ الرَّابِعَةُ: اسْتَنْبَطَ بَعْضُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ. اللَّطِيفَةُ الْخَامِسَةُ: وَصَفُ الْوَصِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوصِي بِهَا﴾ هُوَ التَّرْغِيبُ فِي الْوَصِيَّةِ وَالنَّدْبُ إِلَيْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ تَصْدِيرُ تَشْرِيعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمْ﴾؛ لِأَنَّ الْوَصَايَةَ هِيَ الْأَمْرُ بِمَا فِيهِ نَفْعُ الْمَأْمُورِ، وَفِيهِ اِهْتِمَامُ الْأَمْرِ؛ لِشِدَّةِ صِلَاكِهِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ مَا يَعْهَدُ بِهِ الْإِنْسَانُ، فِيمَا يَضَعُ بِأَنْبَائِهِ وَبِمَالِهِ وَبِذَاتِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَصِيَّةً. ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيْنِ﴾: جَعَلَ حَظَّ الْأُنْثَيْنِ هُوَ الْمَقْدَارُ الَّذِي يُقَدَّرُ بِهِ حَظُّ الذَّكَرِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَدَّمَ تَعْيِينُ حَظِّ الْأُنْثَيْنِ حَتَّى يُقَدَّرَ بِهِ، فَعَلِمَ أَنَّ الْمَرَادَ: تَضْعِيفُ حَظِّ الذَّكَرِ مِنَ الْأَوْلَادِ عَلَى حَظِّ الْأُنْثَى مِنْهُمْ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿يُوصِيكُمْ﴾: الْوَصِيَّةُ:

هي العهد بأمر هام عهد به إليك، وتكون بعد الموت. وأمّا ما قبل الموت فهي وكالة، وينبغي أن يُعلم أن المتصرّف في غير ماله له أوصاف بحسب الوظيفة التي هو قائم بها، فتارة نسّميه (وكيلاً)، وتارة نسّميه (وليّاً)، وتارة نسّميه (ناظراً)، وتارة نسّميه (وصيّاً)، فإذا كان يتولّى مال الغير بغير إذن منه، بل بإذن من الشرع، فإنه يسمّى (وليّاً)، كولي اليتيم. وإذا كان يتولّى مال الغير بعد موته، فإنه يسمّى (وصيّاً). وإذا كان يتولّى الوقف، فإنه يسمّى (ناظراً). وإذا كان يتولّى لحي، فإنه يسمّى (وكيلاً). وقوله: ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ متعلّق بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾، أي أنّ الوصيّة في الأولاد أنفسهم. والأولاد: جمع ولد، ويشمل الذكور والإناث، بدليل قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، فإذا اجتمع في الأولاد ذكور وإناث، فإنّا نعطي الذكر مثل حظّ الأنثيين، وتأمل كيف قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ دون أن يقول: للأنثى نصف الذكر؛ لأنّ الحظّ والنصيب فضل وزيادة، والنصف نقص؛ فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، ولم يقل: للأنثى نصف ما للذكر؛ لما في كلمة (نصف) من النقص، بخلاف حظّ الأنثيين، فإن فيه زيادة، فهو أحسن تعبيراً ممّا لو قال: للأنثى نصف ما للذكر.

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾: قال الواحدي: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾: يعني فإن كنّ المتروكات أو الوارثات، وذلك أنّ اسم الولد يطلق على الإناث والذكور، فلمّا فرض فريضة الذكور وأراد تبين حال الإناث كنّ عنهنّ بكناية جمع أسمائهنّ في الأولاد، وتقديره: الأولاد إن كنّ نساء فوت اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك. وأجمعت الأمة على أنّ للبنتين الثلثين، إلا ما روي عن ابن عباس أنه ذهب إلى ظاهر الآية، وقال: الثلثان فرض الثلاث من البنات؛ لأن الله قال: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾، فجعل الثلثين للنساء إذا زِدْنَ على اثنتين، وعنده أنّ فرض البنتين النصف كفرض الواحدة، وهذا غير مأخوذ به. وقال أكثر المفسّرين: إنّما أعطينا البنتين الثلثين بتأويل القرآن لا بنصّ فرض، وذلك أنّ الله جعل للبنات الواحدة النصف في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، وجعل للأخت الواحدة النصف أيضا في قوله: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، ثم جعل للأختين الثلثين، علمنا أنّ للبنتين الثلثين؛ قياسا على الأختين، كما أنّ للأخوات الثلثين بما نصّ في البنات في قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً..﴾. وقال البغوي: ﴿فَإِنْ كُنَّ﴾ يعني: المَمْرُوكَاتِ مِنَ الْأَوْلَادِ. ﴿نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾: أي ابنتين فصاعداً ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾. ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾: يعني البنت ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾. وقال ابن الجوزي: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾: في قوله: ﴿فَوْقَ﴾ قولان: أحدهما: أنّها زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٣]. الثاني: أنّهم بمعنى: الزيادة، قال القاضي أبو يعلى: إنّما نصّ على ما فوق الاثنتين والواحدة ولم ينصّ على الاثنتين؛ لأنّه لما جعل لكل واحدٍ مع الذكر الثلث، كان لها مع الأنثى الثلث أولى. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾: أي الأولاد، وهذا جائز، فيجوز في الضمير إذا اكتنفه مذكر ومؤنث أن تذكره باعتبار ما سبقه، إذا كان السابق مذكرا، وتوثّته باعتبار ما لحقه، فهنا قال: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾، فأثّث الضمير باعتبار ما لحقه، ولو كان في غير القرآن وقيل: (فإن كانوا نساء) جاز باعتبار ما سبقه، فالضمير في مثل هذا التركيب يجوز أن يعود على ما سبق، ويجوز أن يعود على ما لحق. وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾: فقيل: إنّها زائدة، وأنّ المعنى: فإن كنّ نساء اثنتين، وذلك لأنّ الثلثين تستحقّهُ الشتان فما فوق. وظاهر الآية الكريمة: أنّ الثنتين لا تستحقّان الثلثين؛ لأنه قال: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾، والحكم خلاف ذلك؛ فلهذا قال بعض العلماء: إنّها زائدة، ولكنّ الصحيح: أنّها ليست زائدة، بل هي مفيدة وأصلية؛ ليتبين أنّ ما فوق الثنتين لا ينحصر، فلو كنّ عشرة أو عشرين فإنّ الفرض لا يزيد بزيادتهنّ. ولنا في تقرير الثلثين للثنتين عدة أوجه: الوجه الأوّل: أنه قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، ومفهومه: أنّ ما زاد عن الواحدة فليس لها النصف، ولا نعلم فرضا للبنات سوى النصف أو الثلثين، فإذا لم يكن لها النصف بقي لها الثلثان؛

لأنه ليس هناك فرض بين النصف والثلثين. الوجه الثاني: أن الله جعل للأختين الثلثين في آخر السورة، فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، وصلة البنيتين بأبيهما أقوى من صلة الأختين بأخيهما، وعلى هذا فيكون للبنيتين الثلثان، كما أن للأختين الثلثين. الوجه الثالث . وإن كان خارجاً عن نطاق القرآن .: فعن جابر رضي الله عنه قَالَ: "جَاءَتِ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ فِي أَحَدٍ شَهِيدًا، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَا لَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا وَلَا يُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ: يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَمَّهُمَا، فَقَالَ: أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثُّلُثَيْنِ، وَأُمُّهُمَا الثُّمْنُ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ" رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الألباني، وعلى هذا فنقول: لقد بيّن الله في هذه الآية أنّ الأولاد إمّا أن يكونوا ذكوراً وإناثاً، وإمّا أن يكونوا إناثاً فقط، وبقي قسم ثالث: وهو أن يكونوا ذكوراً فقط. فأما إذا كانوا ذكوراً وإناثاً فقد بيّن الله الحكم، وهو أنّ للذكر مثل حظّ الأنثيين، وإذا كانوا إناثاً فقط فقد بيّن الله الحكم، وهو أنّ للواحدة النصف ولما زاد الثلثين، وسكت عن الأولاد الذكور فقط، فدلّ هذا على أنهم يرثون بلا تقدير؛ لأنه لو كان لهم مقدّر لبيّنه كما بين المقدّر للإناث، ولو كانوا يختلفون لبيّن ذلك، كما بيّن اختلاف الواحدة من البنات مع الثنتين فأكثر.

﴿وَلَا بَوِيهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾: قال البغوي: يَعْنِي لِأَبَوَيْ الْمَيِّتِ، كِنَايَةً عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾: أَرَادَ أَنَّ الْأَبَ وَالْأُمَّ يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا سُدُسُ الْمِيرَاثِ عِنْدَ وُجُودِ الْوَلَدِ أَوْ وَلَدِ الْإِبْنِ، وَالْأَبُّ يَكُونُ صَاحِبَ فَرْضٍ. وقال أبو حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الْفُرُوعَ وَمِقْدَارَ مَا يَرِثُونَ أَخَذَ فِي ذِكْرِ الْأَصُولِ وَمِقْدَارِ مَا يَرِثُونَ، فَذَكَرَ أَنَّ الْمَيِّتَ يَرِثُ مِنْهُ أَبَوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ

السُّدُسَ إِنْ كَانَ لِلْمَيِّتِ وَلَدٌ. وَأَبَوَاهُ هُمَا: أَبُوهُ وَأُمُّهُ. وَعَلَبَ لَفْظُ الْأَبِ فِي التَّنْيَةِ كَمَا قِيلَ: الْقَمَرَانِ، فَعَلَبَ الْقَمَرُ؛ لِتَذْكِيرِهِ عَلَى الشَّمْسِ، وَهِيَ تَنْيَةٌ لَا تُقَاسُ. وَشَمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَالوَاحِدَ وَالْجَمَاعَةَ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ: أَنَّ فَرَضَ الْأَبِ السُّدُسُ إِذَا كَانَ لِلْمَيِّتِ وَلَدٌ، أَيْ وَلَدٌ كَانَ، وَبَاقِي الْمَالِ لِلْوَلَدِ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى. وَالْحُكْمُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى أَخَذَ الْأَبُ السُّدُسَ فَرَضًا، وَالبَاقِي تَعْصِيًا. وَقَالَ الْعِثْمِينِ: ﴿وَلَا بَوَيْهَ﴾: أَيْ أَبَوِي الْمَيِّتِ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذَكَرٌ، لَكِنْ الْمَقَامُ يَقْتَضِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَكَ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتْرَكُ مَالَهُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا بَوَيْهَ﴾: يَعْنِي (الْأَبَ، وَالْأُمَّ)، مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ، وَهُوَ هُنَا مُلْحَقٌ بِالْمُتْنَى. وَقَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا بَوَيْهَ﴾ بِإِعَادَةِ الْعَامِلِ، وَالبَدَلُ لَهُ حُكْمُ الْمُبْدَلِ فِي الْإِعْرَابِ، لَكِنْ هُنَا نَسْتَعِينُ عَنِ التَّبَعِيَّةِ فِي الْإِعْرَابِ؛ لِأَنَّهُ أُعِيدَ الْعَامِلُ، أَيْ فَلَكَ لِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَبَوَيْنِ السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ابْنُهُمَا أَوْ بَنَتُهُمَا أَيْضًا. ﴿إِنْ كَانَ لَهُ﴾: أَيْ إِنْ كَانَ لِلْمَيِّتِ وَلَدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَدٌ﴾ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. وَمِيرَاثُ الْأَبَوَيْنِ مَعَ الْوَلَدِ: أُمَّا (الْأُمَّ): فَفَرَضَ وَلَيْسَ لَهَا تَعْصِيْبٌ إِطْلَاقًا، وَفَرَضَهَا السُّدُسُ مَعَ وَجُودِ الْوَلَدِ ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى. وَأُمَّا الْأَبَ: فَإِنْ كَانَ فِي الْأَوْلَادِ ذَكَورٌ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا السُّدُسُ فَرَضًا، وَإِنْ كَانَ الْوَرِثَةُ إِنَاثًا، فَلَهُ السُّدُسُ فَرَضًا، وَالبَاقِي تَعْصِيًا. وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ الَّذِي مَعَ الْأَبَوَيْنِ ذَكَورًا فَقَطْ، أَوْ إِنَاثًا فَقَطْ، أَوْ ذَكَورًا وَإِنَاثًا، فَإِنْ كَانُوا ذَكَورًا فَقَطْ؛ فَلَيْسَ لِلْأَبَوَيْنِ إِلَّا السُّدُسُ، وَإِنْ كَانُوا إِنَاثًا فَقَطْ، فَلَيْسَ لِلْأُمَّ إِلَّا السُّدُسُ، وَكَذَلِكَ الْأَبُ يَفْرَضُ لَهُ السُّدُسُ، وَإِنْ بَقِيَ شَيْءٌ أَخَذَهُ تَعْصِيًا، وَإِنْ كَانَ الْأَوْلَادُ ذَكَورًا وَإِنَاثًا فَلَيْسَ لِلْأَبِ إِلَّا السُّدُسُ كَ(الْأُمَّ)؛ لِأَنَّهُ لَا تَعْصِيْبَ لِلْأَبِ مَعَ وَجُودِ أَحَدٍ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأَبْنَاءَ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْلَى بِالتَّعْصِيْبِ مِنْهُ. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾: قَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ قَسِيمٌ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ﴾: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمَا انْفَرَدَا بِمِيرَاثِهِ، لَيْسَ مَعَهُمَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّهَامِ، لَا وَلَدٌ وَلَا غَيْرُهُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ﴾

حُكْمًا هُمَا بِجَمِيعِ الْمَالِ. فَإِذَا خُلِصَ لِلْأُمِّ الثُّلُثُ كَانَ الثَّانِي وَهُوَ الثُّلُثَانِ لِلْأَبِ، فَذَكَرُ الْقِسْمِ الْوَاحِدِ يَدُلُّ عَلَى الْآخِرِ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾: أَيِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ فَرع وَارث، لَا ابْن، وَلَا ابْن ابْن، وَلَا بِنْت، وَلَا بِنْت ابْن، وَهَذَا الشَّرْطُ الْأَوَّلُ. وَالشَّرْطُ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾. وَالْجَوَابُ: ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَالُ بَيْنَ شَخْصَيْنِ، وَفَرَضَ لِأَحَدِهِمَا، فَالْبَاقِي كُلُّهُ لِلْآخِرِ. فَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ هُنَا انْخَصَرَ الْإِرْثُ فِي الْأَبَوَيْنِ، ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، وَالْبَاقِي لِلْأَبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ وَأَعْطَى أُمَّهُ الثَّلْثَ، فَيَكُونُ الْبَاقِي لِلْأَبِ بِالضَّرُورَةِ، فَإِذَا هَلَكَ هَالِكٌ عَنْ (أُمٍّ، وَأَبٍ)، وَلَيْسَ مَعَهُمَا وَلَدٌ وَلَا غَيْرُهُ؛ لَا إِخْوَةٌ، وَلَا زَوْجٌ، وَلَا زَوْجَةٌ، فَلِلْأُمِّ الثَّلْثُ فَرَضًا، وَالْبَاقِي لِلْأَبِ تَعْصِيًا. وَهَذَا مَطْرَدٌ عَلَى قَاعِدَةِ الْفَرَائِضِ؛ لِأَنَّ قَاعِدَةَ الْفَرَائِضِ: "إِذَا كَانَ الْوَارِثَانِ ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ جَنْسٍ، وَفِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنْثِيَيْنِ"، فَمِثْلًا: (ابْنٌ، وَبِنْتٌ)، (أَخٌ شَقِيقٌ، وَأُخْتُ شَقِيقَةٍ)، (أَخٌ لِأَبٍ، وَأُخْتُ لِأَبٍ)، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنْثِيَيْنِ. وَهُنَا سَوْأَلٌ: إِذَا كَانَ مَعَ الْأَبَوَيْنِ زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ، فَهَلْ تَرِثُ الْأُمُّ الثَّلْثَ؟ الْجَوَابُ: نَقُولُ: إِنَّ آيَةَ الْكَرِيمَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا الثَّلْثُ؛ فَإِذَا هَلَكْتَ امْرَأَةٌ عَنْ (زَوْجٍ، وَأُمٍّ، وَأَبٍ)، فَلِلزَّوْجِ النِّصْفُ، وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ الْبَاقِي، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي. وَصَارَ لِلْأُمِّ ثُلُثُ الْبَاقِي؛ لِأَنَّ الْأُمَّ وَالْأَبَ وَرِثَا مَا بَقِيَ بَعْدَ الزَّوْجِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، فَكَأَنَّ الْأَبَوَيْنِ وَرِثَا نِصْفَ الْمَالِ الَّذِي هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ الزَّوْجِ، فَجَعَلَ الْبَاقِي بَعْدَ فَرَضِ الزَّوْجِ كَأَنَّهُ الْمَالُ كُلُّهُ، فَإِذَا جَعَلْنَاهُ كَأَنَّهُ الْمَالُ كُلُّهُ فَإِنَّ لِلْأُمِّ الثَّلْثَ، وَهَذَا وَاضِحٌ جَدًّا، وَمَعْلُومٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ: أَنَّ (الْأُمَّ، وَالْأَبَ) إِذَا وَرِثَا الْمَالُ كُلَّهُ، فَلِلْأُمِّ الثَّلْثَ، فَيَكُونُ لَهَا ثُلُثُ الْبَاقِي. وَهَذِهِ الْقِسْمَةُ لَيْسَتْ مُخَالَفَةً لِلنَّصِّ، بَلْ هِيَ مُوَافِقَةٌ لَهُ. مِثَالُ آخَرٍ: هَلَكَ رَجُلٌ عَنْ (زَوْجَةٍ، وَأُمٍّ، وَأَبٍ)، فَلِلزَّوْجَةِ الرُّبْعُ، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعٍ: لِلْأُمِّ ثُلُثُ الْبَاقِي، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ لَمَّا أَخَذَتْ نَصِيبَهَا صَارَ الْبَاقِي بَعْدَ فَرَضِهَا كَأَنَّهُ الْمَالُ كُلُّهُ، وَ(الْأُمُّ، وَالْأَبُ) إِذَا وَرِثَا الْمَالُ كُلَّهُ صَارَ لِلْأُمِّ الثَّلْثَ، وَعَلَى هَذَا: (فَالْأُمُّ)

ثلث الباقي بعد فرض الزوجة، والباقي لـ (لأب)، وهذا مقتضى النصّ القرآنيّ الذي معنا. وهاتان المسألتان وهما: (زوج، وأمّ، وأب)، و(زوجة، وأمّ وأب) تسمّيان: العمريتين، والغراوين؛ لأنّ أوّل من قضى بهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ إذ لم توجد هذه الصورة لا في عهد النبيّ ﷺ، ولا في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ووجدت في عهد عمر، فقضى بهما على هذا النحو قضاء موافقا للصواب بلا شكّ، وسمّيتا بالغراوين؛ لأنهما في الفرائض كالغرة في وجه الفرس؛ لظهورهما وبيانهما واشتاهارهما.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾: قال الواحديّ: أجمعت الأمة على أنّ الأخوين يحجبان الأمّ من الثلث إلى السدس كرجل مات عن أبوين وأخوين، كان للأمّ السدس، والباقي للأب. فالأخوان فما فوقهما يحجبان الأمّ عن الثلث إلى السدس. والأخ الواحد لا يحجب. وابن عباس رضي الله عنه يخالف في هذه المسألة: فلا تحجب الأمّ عن الثلث إلى السدس بأقلّ من ثلاثة إخوة، وقال لعثمان رضي الله عنه: بم صار الأخوان يرّدان الأمّ إلى السدس، وإنما قال الله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ والأخوان في لسان قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان: يا بنيّ إنّ قومك حجبوها بأخوين، ولا أستطيع نقض أمرٍ قد كان قبلي. قال علماء اللغة: قول ابن عباس: الأخوان في لسان قومك ليسا بإخوة غلط منه؛ لأنّ الأخوين جماعة كالإخوة، وذلك أنك إذا جمعت واحداً إلى واحد فهما جماعة، ويقال لهما: إخوة، وحكى سيبويه أنّ العرب تقول: قد وضعا رحلهما. يريدون: رحلي راحلتيهما. قال ابن الأنباريّ: التثنية عند العرب أوّل الجمع، ومشهور في كلامهم إيقاع الجمع على التثنية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وهو يريد داود وسليمان. عليهما السلام. ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] يريد قلبيكما، والعرب تقول: لطمت أوجه الرجلين، وضربت رؤسهما، وشققت بطونهما، فيجمعون في موضع التثنية. قال قتادة: وإنما حجب الإخوة الأمّ من غير أن يرثوا مع الأب؛ لمعونة الأب؛ لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم دون الأمّ. وقال البغويّ: ﴿فَإِنْ كَانَ

لَهُ إِخْوَةٌ: اثْنَانِ أَوْ أَكْثَرُ ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا. ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وَالْبَاقِي يَكُونُ لِلْأَبِ إِنْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ، وَالْإِخْوَةُ لَا مِيرَاثَ لَهُمْ مَعَ الْأَبِ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْجُبُونَ الْأُمَّ مِنَ الثَّلَاثِ إِلَى السُّدُسِ. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾: يعني حين إرث أبويه له. ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾: إذا ورث الرجل أبواه وكان له إخوة، ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾، سواء كانوا إخوة ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا، أَشْقَاءَ، أَوْ لِأَبٍ، أَوْ لِأُمٍّ. مثاله: هلك هالك عن (أم، وأب، وأخوين شقيقين)، فللأم السدس فرضا، والباقي للأب تعصيا. وقد فرضنا للأم السدس؛ لوجود جمع من الإخوة، ولم نفرض للأب السدس؛ لعدم الفرع الوارث، والإخوة يسقطون بإسقاط النبي ﷺ لهم حيث قال: "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر" رواه الشيخان. وصاحب الفرض في هذه المسألة هي الأم، وقد أعطيناها نصيبها، ثم بحثنا وقارنا بين الأب والإخوة فوجدنا أنَّ الأب أولى؛ لأن الميِّت بضعة منه، فقلنا: الباقي للأب. فإن قال قائل: كيف يحجب الإخوة وهم محجوبون؟ فنقول: نعم، يحجبون غيرهم وهم محجوبون؛ لأن حجبهم هنا لوجود المانع، فإن الذي منعهم من الإرث هو الأب لا لفوات الشرط، فهم من أهل الإرث، فليس فيهم مانع من موانع الإرث حتى نقول: إنَّ هؤلاء ليسوا مستحقين بالأصل من الميراث، بل نقول: إنَّهم مستحقون لولا وجود المانع؛ فلهذا حجبوا وهم محجوبون. والغريب في هذه المسألة: أنه لو كان الإخوة إخوة من أم فإنَّهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وهذه غريبة من غرائب العلم أن يكون المدلي حاجبًا لمن أدلى به، والعادة أنَّ الذي يحجب هو المدلى به، فالابن يحجب ابن الابن؛ لأن الابن مدلي بالابن، ومن أدلى بواسطة حجبه تلك الوساطة، وهنا الإخوة من الأم مدلون بالأم، ولم تحجبهم الأم، بل هم الذين حجبوا الأم، فهي على العكس، ولكن مسائل الفرائض كثير منها لا مجال للرأي فيها، ولا مدخل للاجتهاد فيها، كما قال تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾. وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على حكم ميراث الفروع والأصول، وقد بدأت بذكر الفروع قبل

الأصول، وكان المتوقع أن تبدأ بالأصول؛ لأنهم أحقّ بالبرّ من الفروع، لكن بدأت بالفروع؛ لأنهم بضعة من الميّت وجزء منه، والأصول بالعكس، فإنّ الميّت بضعة منهم، فكان الذي هو بضعة منه أولى، وهذه من الحكم العظيمة. أمّا الأزواج والحواشي، فقد ذكروا بعد هذه الآية مباشرة؛ لأن الآية الثانية الآتية خالصة لذوي الفروض، وليس فيها عصبه، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ...﴾ [النساء: ١٢]، وقد ذكر فيها الزوجان، والإخوة من الأمّ، وكلّهم أصحاب فروض؛ ولهذا قال تعالى فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [النساء: ١٣]، وهنا لم يقل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ لأن هذه الآية فيها تعصيب غير محدّد، والآية التي بعدها كلّها أصحاب فروض، والآية الثالثة في آخر السورة فيها فروض وفيها تعصيب؛ ولهذا قال فيها: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: قال الماوردي: قدّم الدّين والوصيّة على الميراث؛ لأنّ الدّين حقّ على الميّت، والوصيّة حقّ له، وهما مقدّمان على حقّ ورثته، ثمّ قدّم الدّين على الوصيّة وإن كان في التّلاوة مؤخّراً؛ لأنّ ما على الميّت من حقّ أولى أن يكون مقدّماً على ما له من حقّ. وقال البغوي: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: هذا إجماع؛ أنّ الدّين مقدّم على الوصيّة. ومعنى الآية: الجُمع لا التّرتيب، وبيّناً أنّ الميراث مؤخّر عن الدّين والوصيّة جميعاً، معناه: من بعد وصيّة إن كانت، أو دَيْنٍ إن كان، فالإرث مؤخّر عن كلّ واحدٍ منهما. وقال الثعالبي: قدّم الوصيّة في اللفظ؛ اهتماماً بها، وندباً إليها؛ إذ هي أقلّ لزوماً من الدّين، وأيضاً قدّمها؛ لأنّ الشرع قد حضّ عليها فلا بدّ منها، والدّين قد يكون وقد لا يكون، وأيضاً قدّمها؛ إذ هي حظّ مساكين وضعاف، وأخّر الدّين؛ لأنه حقّ غريم يطلبه بقوة، وله فيه مقال. وأجمع العلماء على أنّ الدّين مقدّم على الوصيّة، والإجماع على أنه لا يوصى بأكثر من الثلث، واستحبّ كثيرٌ منهم ألاّ يبلغ الثلث. وقال العثيمين: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: أي أنّ هذا الميراث الذي

قسمه الله إنما يكون ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، والوصية في الأصل: هي العهد بالشيء المهم، وهي اصطلاحاً: التبرع بالمال بعد الموت، أو الأمر بالتصرف بعد الموت، فهي إما بمال وإما بتصرف، فإذا أوصى رجل إلى شخص بالنظر على أولاده الصغار، فهذه وصية بتصرف، وإذا أوصى شخص بمائة درهم لفلان، فهذا تبرع بالمال بعد الموت، وهذا هو المراد بهذه الآية، وهو التبرع بالمال بعد الموت. وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ مطلق لم يقيّد، لكن دلت السنة على أنه لا تزيد الوصية على الثلث، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين عاده النبي ﷺ في مكة، فقال له سعد: "إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلاثي مالي؟ قال: لا. قال: فالشطر؟ قال: لا. قال: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" متفق عليه، قال ابن عباس: "لو أنّ الناس غضّوا من الثلث إلى الربع"، يعني: لكان أحسن؛ لأن النبي ﷺ قال: "والثلث كثير"، ولم يرخص في الثلث إلا في المراجعة الثالثة من سعد. ويذكر أنّ أبا بكر الصديق قال: "أرضى بما رضى الله لنفسه"، فأوصى بالخمس، واعتمد ذلك الفقهاء، فقالوا: ينبغي أن تكون الوصية بالخمس، ولكن لشح الناس اليوم صاروا لا يعرفون في الوصية إلا الثلث، فيندر جداً أن ترى شخصاً أوصى بخمس ماله، وينبغي لطلبة العلم أن يبينوا للناس، وأن يقولوا لهم: إنّ الوصية بالثلث رخصة جاءت بعد مراجعة، وما دون الثلث أفضل منه. وقد دلّ القرآن على أنّ الوصية لا تكون لوارث، وهذا هو الشرط الثاني في الوصية، فالشرط الأول: أن لا تزيد على الثلث. والشرط الثاني: أن لا تكون لوارث، ووجه الدلالة قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾، فجعل الوصية مستقلة عن الميراث، وقال في الآية التي تلي هذه لما ذكر الإرث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا (١٤)﴾، ولا شك أنّ من أوصى لأمه بالخمس وقد أعطاه الله السدس، فقد تعدّى

حدود الله، فإنّ فرض الله لها هو السدس، وهو زاد على ذلك الخمس، فصار ميراثها أكثر من الثلث، وهذا تعدّ لحدود الله. فالوصيّة التي تقدّم على الميراث هي الوصيّة الشرعيّة التي جمعت شرطين، وهما: ألا تزيد على الثلث، وألا تكون لوارث. وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾: في قوله: ﴿يُوصِي بِهَا﴾ دليل على أنه لا بدّ من ثبوت الوصيّة، وأن يكون الموصي أوصى بها عن طمأنينة وعن معرفة، فلو أوصى وهو في غمرات المرض، ولم يكن يتصوّر ما يقول، فإنّ الوصيّة لا تقبل، ولا عبرة بها؛ لأنه حقيقة لم يوص بها، وكذلك لو لم تثبت الوصيّة ببيّنة، فإنّها لا عبرة بها، إلا إذا صدّق الورثة بذلك وهم راشدون، فالحقّ لهم. وقوله: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾: الدين: كلّ ما ثبت في الذمّة فهو دين، فالأجرة دين، والقرض دين، وثن المبيع دين، والصدّاق على الزوج دين، وعوض الخلع على الزوج دين، وأرش الجراحات دين، فكلّ ما ثبت في الذمّة فهو دين، فيقدّم الدين على الميراث، فلو قدر أنّ الدين يستغرق جميع المال فلا شيء للورثة؛ لأن الله قال: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، وإذا قدر أنه يستغرق نصف المال صار الميراث نصف المال. وأيّهما يقدّم: الدين أم الوصية؟ الجواب: يقدّم الدين قبل الوصيّة، كما جاء عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: "أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قضى بالدين قبل الوصيّة" أخرجه البخاري معلقاً بصيغة التمريض، والمعنى يقتضيه؛ لأن الدين قضاؤه من باب الواجب، والوصيّة من باب التبرّع، بمعنى: أنّ المدين يجب عليه أن يقضي دينه، والوصيّة مستحبّة وليست بواجبة، والنظر الصحيح يقتضي تقديم الواجب. فإنّ قال قائل: إذا كان الأمر كذلك، فما الحكمة من تقديم الوصيّة على الدين في الآية؟ فنقول: الحكمة هي: أوّلاً: العناية بالوصيّة، والإشارة إلى أنّ الدين ينبغي للعاقل أن لا يحمله نفسه. ثانيًا: أنّ الدين له من يطالب به، فلو فرض أنّ الورثة سكتوا وقسموا التركة، فإن صاحب الدين لن يسكت، بل لا بدّ أن يطالب، لكن الوصيّة لو كتموها، ولم يعلم بها الموصى له، فليس هناك من يطالب بها؛ فلهذا قدمها ليهتم الورثة بها، لا ليقدموها على الدين، فالدين مقدّم، ثم الوصيّة، ثم

الميراث. وهنا سؤال: هل يجوز للأب المسلم أن يوصي لابنه الكافر؟ الجواب: نقول: الكافر لا يرث من المسلم، فما دام أنه لا يرث فيوصي له، ولكن في برّه تفصيل بيّنه الله في سورة الممتحنة، فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾، وهذا إحسان، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] وهذه المعاملة بالعدل، فما نُهي الإنسان أن يعامل الكافر بالعدل، أو بالفضل، بشرط ألا يكون ممن يقاتلوننا في الدين. وهنا سؤال آخر: إنسان له دين مؤجل، فهل تقسم تركته أو يقضى الدين المؤجل؟ نقول: إن وثّق الورثة برهن مُحرز، أو كفيل مليء، فالدين باقٍ على ما هو عليه لا يجل، وإن لم يوثّقوه حلّ الدين ووجب البيع.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: قال الواحدي: في هذا قولان: أحدهما: أنّ هذا فصل معترض بين ذكر الوراث وأنصبتهم، وبين قوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾، ولا تعلق لمعناه بمعنى الآية، ومعنى هذا الفصل في قول ابن عباس والكلبي: أنّ الله يُشَقِّعُ المؤمنين بعضهم في بعض، فأطوعكم الله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة من ولده رفع الله إليه ولده بمسألته؛ ليقرّ بذلك عينه، وإن كان الولد أرفع درجة من والديه، رفع الله إليه والديه، فقال الله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ لأن أحدهما لا يعرف منفعة صاحبه له في الجنة، وسبقه إلى منزلة عالية تكون سبباً لرفعه إليها. القول الثاني: أنّ هذا فصل معترض بينهما، ومعناه متعلق بمعنى الآية: يقول: لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً في الدنيا فتعطونه من الميراث ما يستحقّ، ولكن الله قد فرض الفرائض على ما هو عنده حكمة، ولو وكل إليكم لم تعلموا أيّهم أنفع لكم، فأفسدتم وضيّعتم وأعطيتهم من لا يستحقّ ومنعتم من يجب له الميراث، وهذا قول الزّجاج، وابن الأنباري، وجماعة من أهل المعاني، وإليه أشار ابن عباس في رواية عطاء. وقال البغوي: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾: يعنى الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم. ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: أي لا تعلمون أيّهم أنفع لكم في الدين والدنيا. وقال ابن الجوزي:

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ النَّفْعُ فِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْوَالِدَ إِذَا كَانَ أَرْفَعَ دَرَجَةً مِنْ وَلَدِهِ، رَفَعَ إِلَيْهِ وَلَدَهُ، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ شَفَاعَةُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ النَّفْعُ فِي الدُّنْيَا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. ثُمَّ فِي مَعْنَاهُ: قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَعْنَى: لَا تَدْرُونَ هَلْ مَوْتُ الْآبَاءِ أَقْرَبُ، فَيَنْتَفِعُ الْأَبْنَاءُ بِأَمْوَالِهِمْ، أَوْ مَوْتُ الْأَبْنَاءِ، فَيَنْتَفِعُ الْآبَاءُ بِأَمْوَالِهِمْ؟ قَالَهُ ابْنُ بَجْرٍ. الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الْآبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ يَتَفَاوَتُونَ فِي النَّفْعِ، حَتَّى لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَفْعًا، لِأَنَّ الْأَوْلَادَ يَنْتَفِعُونَ فِي صِغَرِهِمْ بِالْآبَاءِ، وَالْآبَاءُ يَنْتَفِعُونَ فِي كِبَرِهِمْ بِالْأَبْنَاءِ، ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى. وَقَالَ الرَّجَّاحُ: مَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ الْقَرَائِضَ عَلَى مَا هُوَ عِنْدَهُ حِكْمَةً، وَلَوْ وَكَلْ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ لَمْ تَعْلَمُوا أَيُّهُمْ أَنْفَعُ لَكُمْ، فَتَضْعُونَ الْأَمْوَالَ عَلَى غَيْرِ حِكْمَةٍ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: لَمَّا قَسَمَ سَبْحَانَهُ الْقِسْمَةَ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، قَطَعَ خَطَّ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى هَذِهِ الْقِسْمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. فُلُو قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الْآبَاءَ أَحَقُّ مِنَ الْأَبْنَاءِ؛ لِأَنَّ بَرَّهُمْ وَاجِبٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّ الْأَبْنَاءَ أَحَقُّ مِنَ الْآبَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ قُصَّرَ يَحْتَاجُونَ إِلَى رِعَايَةٍ فِي الْغَالِبِ، فَنَقُولُ: وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ حِكْمَةُ اللَّهِ، فَنَحْنُ لَا نَدْرِي: آبَاؤُنَا أَوْ أَبْنَاؤُنَا أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَنَا نَفْعًا، وَالْآيَةُ تَعَمُّ التَّفْصِيلَ بَيْنَ الْجِنْسِ وَالْجِنْسِ، وَبَيْنَ الْأَبْنَاءِ، فَهِيَ تَعَمُّ الْمَعْنِيِّينَ، فَلَا تَدْرُونَ هَلِ الْآبَاءُ أَنْفَعُ لَكُمْ أَوْ الْأَبْنَاءُ؟ وَلَا تَدْرُونَ هَلِ الْأَكْبَرُ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَنْفَعُ أَمْ الْأَصْغَرُ؟ وَهَلِ الْأَقْرَبُ مِنَ الْآبَاءِ أَنْفَعُ أَمْ الْأَعْلَى؟ وَكَثِيرٌ مَا يَكُونُ الْجَدُّ أَرْأَفَ وَأَرْحَمَ مِنَ الْأَبِّ بِأَحْفَادِهِ، وَكَثِيرٌ مَا يَكُونُ الْابْنُ الْأَصْغَرُ أَرْحَمَ مِنَ الْابْنِ الْأَكْبَرِ، فَنَحْنُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا نَدْرِي هَلِ الْآبَاءُ أَبَرُّ وَأَنْفَعُ لَنَا أَوْ الْأَبْنَاءُ، وَهَلِ الْأَبَرُّ مِنَ الْأَبْنَاءِ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْكَبِيرُ أَوْ الصَّغِيرُ أَوْ الْمُتَوَسِّطُ، وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْآبَاءِ لَا نَدْرِي، فَلَمَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُ؛ وَجِبَ أَنْ نَكِلَ الْأَمْرَ إِلَى عَالِمِهِ وَهُوَ اللَّهُ.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: قال الواحدي: منصوب على التوكيد من قوله: ﴿وَلَا بُؤْيُوهُ﴾، أي لهؤلاء الورثة ما ذكرنا مفروضاً، فقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مؤكدة لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾. وقال البغوي: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أَيَّ مَا قَدَّرَ مِنَ الْمَوَارِيثِ. وقال العثيمين: ﴿فَرِيضَةً﴾: مصدر عاملها محذوف، وقد يقال: إنها مصدر نائب عن عاملها، والتقدير على الأول: فرضنا ذلك فريضة، وعلى الثاني نجعل ﴿فَرِيضَةً﴾ هي نفسها العامل، ولا تحتاج إلى عامل ينصبها، فتكون تأكيداً لما سبق، ويسمى هذا: المصدر المؤكّد للجملة التي قبله، ولا يحتاج إلى عامل، قال ابن مالك: كأنت ابني حقاً. فكلمة (حقاً) ليس لها عامل، لكنّها تؤكّد الجملة التي سبقتها. وهذه أيضاً ليس لها عامل، لكن لما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا بُؤْيُوهُ﴾ وقسم وقدر، صار هذا المصدر مؤكّداً للجملة التي قبله. وقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾: الفرض في اللغة: الحزّ والقطع، يقال مثلاً: فرض اللحم: أي حزّه، وفرض العصا: قطعها، وفي الشرع: ما ألزم به الشارع، ولا فرق على القول الصحيح بين ما ثبت بدليل ظنيّ، وبين ما ثبت بدليل قطعيّ، وقد قال بعض العلماء: ما ثبت بدليل قطعيّ فهو فرض، وما ثبت بدليل ظنيّ فهو واجب، والصحيح: أنه لا فرق، فما دام أنه قد ثبت الإلزام به، فسّمه فرضاً أو سمّه واجباً. وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: أي صادرة منه لا من غيره، فلم يقم بفرضها ملكٌ مقرب ولا نبيّ مرسل، بل الله وحده هو الذي تولّى فرضها.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾: قال الواحدي: قال الحسن: كان عليماً بالأشياء قبل خلقها، حكيماً فيما يقدر. وقال عطاء: كان عليماً بخلقها قبل أن يخلقهم، حكيماً حيث فرض للصغار مع الكبار، ولم يخصّ الكبار بالميراث كما كانت العرب تفعل. وحكى الزجاج عن سيبويه، قال: كأنّ القوم شاهدوا علماً وحكمة ومغفرة وتفضلاً، ف قيل لهم: إنّ الله كان كذلك، أي لم يزل على ما شاهدتم. وقال الخليل: الخبر عن الله بمثل هذه الأشياء كالخبر بالاستقبال والحال؛ لأن صفات الله لا يجوز عليها الزوال والتقلّب. وقال

البغوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾: بِأُمُورِ الْعِبَادِ. ﴿حَكِيمًا﴾: بِنُصُبِ الْأَحْكَامِ. وقال ابن الجوزي: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾: أَيُّ بِمَا يُصْلِحُ خَلْقَهُ. ﴿حَكِيمًا﴾: أَيُّ فِيْمَا فَرَضَ. وَفِي مَعْنَى (كَانَ) هُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَيُّ كَانَ عَلِيمًا بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ خَلْقِهَا، حَكِيمًا فِيْمَا يُقَدِّرُ تَدْبِيرَهُ مِنْهَا، قَالَهُ الْحَسَنُ. الثَّانِي: أَيُّ لَمْ يَزَلْ. قَالَ سَيِّوِيَّةٌ: كَأَنَّ الْقَوْمَ شَاهَدُوا عِلْمًا وَحِكْمَةً، فَقِيلَ: هُمْ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ كَذَلِكَ، أَيُّ لَمْ يَزَلْ عَلَى مَا شَاهَدْتُمْ، لَيْسَ ذَلِكَ بِحَادِثٍ. الثَّالِثُ: أَنَّ لَفْظَةَ (كَانَ) فِي الْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ يَتَسَاوَى مَاضِيهَا وَمُسْتَقْبَلُهَا؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَهُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ. وقال العثيمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أَيُّ كَانَ عَلِيمًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ، وَبِمَقْدَارِ مَا يَسْتَحِقُّ، وَحَكِيمًا فِي وَضْعِ الْحَقِّ فِي أَهْلِهِ، كَمَا وَكَيْفًا، فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْعِلْمُ التَّامُّ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَبِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ تَتِمُّ الْأُمُورُ؛ لِأَنَّ تَخَلُّفَ الْأُمُورِ سَبَبُهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا الْجَهْلُ، وَإِمَّا السَّفَهَ، فَإِذَا وَجَدَ الْعِلْمُ ارْتِفَعَ الْجَهْلُ، وَإِذَا وَجَدَتِ الْحِكْمَةُ ارْتِفَعَ السَّفَهَ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ سَبْحَانَهُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ انْتَفَى أَيُّ اعْتِرَاضٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِضَ بِهِ عَلَى الْحُكْمِ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ الْجَاهِلَ يَتَخَبَّطُ فِي الْأَحْكَامِ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ حَسَنُ قَصْدٍ وَحَسَنُ إِرَادَةٍ، لَكُنَّه جَاهِلٌ، وَتَجِدُ الْعَالَمَ السَّافِيهَ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ حِكْمَةٌ تَرشده إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ يَتَخَبَّطُ وَيَتَعَسَّفُ، أَمَّا مَنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ فَإِنَّهُ كَامِلٌ الْحُكْمِ، وَأَحْكَامُهُ تَامَّةٌ، وَاللَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَالْعَلِيمُ وَالْحَكِيمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ. وَالْعِلْمُ: إِدْرَاكُ الْمَعْلُومِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: (إِدْرَاكُ الْمَعْلُومِ): مَنْ لَمْ يَدْرِكْ، فَهَذَا جَاهِلٌ جَهْلًا بَسِيطًا، وَخَرَجَ بِقَوْلِنَا: (عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ): مَنْ أَدْرَكَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَهَذَا جَاهِلٌ لَكِنْ جَهْلُهُ مَرْكَبٌ. وَالْجَهْلُ الْبَسِيطُ أَهْوَنُ مِنَ الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ، وَنَضْرِبُ لَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَمْثَلَةٍ: فَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَقِيلَ لَهُ: وَقَعَتْ فِي رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، فَهَذَا الْجَبِيبُ عَالِمٌ، وَلَوْ أُجِيبَ بِأَنَّهَا فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَهَذَا جَاهِلٌ جَهْلًا مَرْكَبًا، وَلَوْ أُجِيبَ بِ(لَا أَدْرِي) فَهَذَا جَاهِلٌ جَهْلًا بَسِيطًا، وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ. الْحَكِيمُ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْحُكْمِ وَالْحِكْمَةِ، فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ حَاكِمٌ، وَهُوَ مُحْكِمٌ، فَعَلِيهِ تَكُونُ (حَكِيمٌ) بِمَعْنَى فَاعِلٍ إِذَا

كانت من الحكم، ومعنى (مُحْكَم) إذا كانت من الحكمة، و(حكيم) يأتي بمعنى (مُحْكَم). وحكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كونيّ، وحكم شرعيّ. فقول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠] هذا حكم كونيّ؛ ولهذا لم يقل: (علّي) بل قال: (لي): أي يُقدّر لي ذلك، وقوله تعالى في سورة الممتحنة عندما ذكر أحكام النساء: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] هذا حكم شرعيّ. والفرق بينهما يقارب الفرق بين الإرادتين الكونيّة والشرعيّة: فما تعلّق بما يحبّه فأمر به، أو يكرهه فنهى عنه، فهذا شرعيّ، وما تعلّق بتقديره، سواء أحبّه أم لم يحبّه، فهو كونيّ، والحكم الكونيّ لا بدّ من وقوعه، والحكم الشرعيّ قد يُمتثل وقد لا يمتثل. أمّا على الوجه الثاني في "الحكيم": وهو المحكّم، فنقول: الحكمة: وضع الشيء في موضعه، وتتعلّق بالحكم الكونيّ والحكم الشرعيّ، ثم هي إمّا حكمة باعتبار الصورة المعيّنة، وإما حكمة باعتبار الغاية، فإذا ضربت اثنين في اثنين صارت أربعة، فالحكمة تتعلّق بالحكم الكونيّ على صورته المعيّنة وعلى غايته الحميدة، فمثلاً: الحكم الكونيّ إذا حكم الله على أناس بالفقر والمرض والزلازل وما أشبه ذلك، فهذا حكم متضمّن لحكمة، كونه وقع على هذا الوجه حكمة، والغاية منه حميدة، وهذه حكمة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وقد خلق الإنسان على هذه الصفة لحكمة، خلق قائماً منتصباً وغيره على العكس؛ لأن الإنسان له وظائف من قيام وركوع وسجود لا تتمّ إلا على خلقه على هذا الوجه؛ فلذلك خلقه الله قائماً منتصباً دون غيره من الحيوانات، فكونه على هذا الوجه حكمة، وكون الغاية من ذلك أداء الوظائف التي كلفه الله بها هذه حكمة أخرى، وهكذا في الشمس والقمر والجبال والأنهار وما أشبه ذلك. وفي الشرع أيضاً حكمة على الصورة المعيّنة وحكمة في الغاية، فكون الشرع جاء على هذا الوجه: الصلوات الخمس، وأوقاتها متفرّقة، وعددها كذا وكذا، هذا لا شكّ أنه مطابق للحكمة؛ ولهذا فإنّ الصلوات كلّها مقرونة بتغيّر

الشمس في الأفق، فالفجر عند إقبالها، والمغرب والعشاء عند إدبارها، والظهر والعصر عند توسّطها وميلها، فلا بدّ أن يكون هناك سبب، فهذه حكمة، والغاية من الصلاة حكمة أيضًا. إذًا فالحكمة تتعلّق بالحكم الكونيّ والشرعيّ على الصورة التي هو عليها، وعلى الغاية المقصودة منه، فتكون أربعًا: حكمة في الحكم الكونيّ باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الكونيّ باعتبار غايته، وحكمة في الحكم الشرعيّ باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الشرعيّ باعتبار الغاية المقصودة منه، وكلّ هذه المعاني الجليلة العظيمة يتضمّننها قوله: ﴿حَكِيمًا﴾، فأسماء الله في الحقيقة مملوءة من المعاني، وهي حُسْنَى كما وصفها الله عزّ وجلّ.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال أبو حيان: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِيرَاثَ الْقُرُوعِ مِنَ الْأُصُولِ، وَمِيرَاثَ الْأُصُولِ مِنَ الْقُرُوعِ، أَخَذَ فِي ذِكْرِ مِيرَاثِ الْمُتَّصِلِينَ بِالسَّبَبِ لَا بِالنَّسَبِ وَهُوَ لِلزَّوْجِيَّةِ هُنَا. وقال البقاعي: لَمَّا كَانَ الْإِرْثُ بِالمَصَاهِرَةِ أَوْضَعَفَ مِنَ الْإِرْثِ بِالقَرَابَةِ ذَكَرَهُ بَعْدَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْإِرْثِ بِقَرَابَةِ الْأُخُوَّةِ؛ تَعْرِيفًا بِالْإِهْتِمَامِ بِهِ؛ وَلِأَنَّهُ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَقَدَّمَ مِنْهُ الرَّجُلُ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ.

● تفسير الآية:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: قال ابن عطية: الخطاب هنا للرجال. والولد هاهنا: بنو الصلب، وبنو ذكورهم وإن سفلوا، ذكراً وإناثاً، واحداً فما زاد. منه أو من غيره. وهذا بإجماع من العلماء. وقال القاسمي: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾: أي من المال. ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: على نحو ما فصل. ﴿فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾: أي من المال، والباقي لباقي الورثة. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: أي من بعد استخراج وصيتهن وقضاء دينهن. وقال السعدي: ﴿وَلَكُمْ﴾: أي أيها الأزواج. ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ..﴾: يدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه: ولد الصلب، وولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً. وقال ابن عاشور: وأُعْقِبَتْ فَرِيضَةُ الْأَزْوَاجِ بِذِكْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ لِأَنَّ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهَّمُ أَنَّهِنَّ مَمْنُوعَاتٌ مِنَ الْإِيصَاءِ وَمِنَ التَّدَايُنِ كَمَا كَانَ الْحَالُ فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَأَمَّا ذِكْرُ تِلْكَ الْجُمْلَةِ عَقِبَ ذِكْرِ مِيرَاثِ النِّسَاءِ مِنْ رِجَالِهِنَّ فَجَرِيًّا عَلَى الْأُسْلُوبِ الْمَتَّبَعِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَهُوَ أَنَّ يُعَقَّبَ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْفَرَايِضِ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْتَحَقُّ إِلَّا بَعْدَ إِخْرَاجِ الْوَصِيَّةِ وَقَضَاءِ الدَّيْنِ. وقال العثيمين: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: هذا شرط عديمي، ووجه كونه شرطاً عديمياً: دخول النفي على مضمونه، والنفي عدم، فيشترط لإرث (الزوج) نصف ما تركت زوجته شرط عديمي، وهو أن لا يكون لها ولد. وقوله: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ يشمل الواحد والمتعدد، والذكر والأنثى؛ لأن كلمة ﴿وَلَدٌ﴾ بمعنى مولود، وهو صالح للذكر والأنثى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، فدل هذا على أن الأولاد والولد يشمل الذكور والإناث. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هذا تصريح بالمفهوم من

قوله: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَّ وَلَدٌ﴾، فمفهومه: إن كان هنَّ ولد فالحكم يختلف، بمعنى: أنه لا يكون لهم النصف وإنما يكون لهم الربع، كما قال تعالى: ﴿فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾. فإن قال قائل: ما الحكمة من أنه مع الأولاد يكون (للزوج) الربع، ومع عدمهم يكون له النصف؟ فنقول: لأنه إذا كان لها أولاد، فإن أولادها محتاجون إلى الإنفاق عليهم؛ فلذلك توفّر لهم من المال ثلاثة أرباع، بخلاف ما إذا لم يكن لها ولد. وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ يشمل الذكر والأنثى، والواحد والمتعدد، ومن كانوا من زوجها، ومن كانوا من غير زوجها، كما لو ماتت ولها أولاد من زوج سابق، فليس ل(زوجها) إلا الربع. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: يشترط للوصية التي تُقدّم على الإرث: أن تكون وصية مشروعة، وذلك بأن تكون من الثلث فأقل، وأن تكون لغير وارث، وأن تكون وصية تامة الشروط، فإن اختل شرط منها فبطلت فلا عبرة بها، فلو أوصت المرأة بشيء من مالها يصرف على أهل العزف والغناء، فالوصية باطلة لا عبرة بها؛ ولذلك فإن هناك قاعدة مهمّة: "أنّ الألفاظ الشرعيّة تُحمل على المعنى المعتبر شرعاً". وقوله: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾: (أو) هنا مانعة خلو، وليست مانعة انفراد، والفرق بينهما: أنّ (أو) التي هي مانعة الخلو تعني أنه يشترط ألا يخلو واحد من هذين الأمرين، وإن اجتمعا فهو أولى، والثانية التي تمنع الاشتراك هي التي يكون الحكم فيها لأحد الأمرين، فإذا قلت: أكرم زيدا أو عمرا، وأنا أريد أن تكرم أحدهما، فهذه مانعة اشتراك، وإذا قلت: أكرم زيدا أو عمرا، بمعنى أنني جعلت لك الخيار، فهذه يسمونها: مانعة خلو، بمعنى: أنه لا يخلو الحال من إكرام أحد الرجلين، وإكرام أحدهما من باب أولى، ف(أو) هنا مانعة خلو، بمعنى: أنه قد يجتمع الدين والوصية، وقد ينفرد أحدهما، فالإرث لا يكون إلا بعد الوصية والدين، ولكن الوصية تكون من الثلث فأقل، والدين قد يستغرق جميع المال، فإن استغرق الدين جميع المال فلا حقّ للورثة، فلو كان عليه ألف درهم وخلف ألف درهم، فهنا لا شيء للورثة؛ لأن الدين قد استغرق جميع التركة، ولو أوصت المرأة بألف وتركت ألفاً فقط، فإنها لا تنفذ الوصية؛

لأنها لا تملك الوصية إلا بالثلث فأقل. وفي هذه الآية قَدَمَ الله الوصية على الدين، وقد سبق في الآية الأولى كذلك، وقد بيّن العلماء الحكمة من هذا: بأن الوصية تبرّع، والدين واجب، فقدّمت الوصية؛ لجبر نقصها، بكونها تبرّعا على الواجب، هذا وجه. والوجه الثاني: أنّ الدين له من يطالب به، بخلاف الوصية فإنها تبرّع، ولو شاء الورثة أن يحدوها لحدوها، فقدّمت اهتماما بها واعتناءً بها.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾: قال ابن عطية: الولد هنا كما تقدّم. والثمن للزوجة أو للزوجات هنّ فيه مشتركات بإجماع. ويلحق العول فرض الزوج والزوجة، كما يلحق سائر الفرائض المسماة، إلا عند ابن عباس، فإنه قال: يُعطيان فرضهما بغير عول. وقال الشوكاني: هذا النصيب مع الولد، والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ويشارك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف في ذلك. وقال القاسمي: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾: أي من المال. ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾: ذكر أو أنثى، منهنّ أو من غيرهنّ. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾: على النحو الذي فصل. ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾: الكلام فيه كما تقدّم، وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنيهما ما لا يخفى. وفي الآية ما يدلّ على فضل الرجال على النساء؛ لأنه تعالى حيث ذكر الرجال في هذه الآية ذكرهم على سبيل المخاطبة، وحيث ذكر النساء ذكرهنّ على سبيل المغايبة، وأيضا خاطب الله الرجال في هذه الآية سبع مرّات، وذكر النساء فيها على سبيل العيبة أقلّ من ذلك، وهذا يدلّ على تفضيل الرجال على النساء، كما فضّلوا عليهنّ في النصيب. وقال العثيمين: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ...﴾: يقال في هذه الجملة: ما قيل في التي قبلها، والحكمة من أن الله فرق بين الرجال والنساء، فجعل للأنثى نصف ما للرجل؛ لأن هذه هي القاعدة في الفرائض: "أنّ الرجل والأنثى إذا كانا من جنس واحد فهما على التفريق، فيكون للرجل ضعف ما

للأنثى، إلا من ورث بالرحم المجردة، فإنه يستوي فيه الذكر والأنثى، مثل أولاد الأم، فإن ذكورهم وإناتهم سواء.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾: قال ابن عطية: الكلالة: مأخوذة من تكلل النسب، أي أحاط؛ لأن الرجل إذا لم يترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه، أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، والنبات إذا أحاط بالشئ، ومنه (روض مكلل بالزهر)، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب، فالأب والابن هما عمودا النسب، وسائر القرابة يكللون. وقال أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وسليم بن عبيد، وقتادة، والحكم، وابن زيد، والزهرى، وأبو إسحاق السبيعي: الكلالة: خلوة الميت عن الولد والوالد، وهذا هو الصحيح. وقالت طائفة: هي خلوة الميت من الولد فقط، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق، وعمر، ثم رجعا عنه. وقالت طائفة منهم الحكم بن عتيبة: الكلالة: الخلوة من الوالد، وهذان القولان ضعيفان؛ لأن من بقي والده أو ولده فهو موزوث بجزم نسب لا يتكلل. وأجمعت الآن الأمة على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا مع أب، وعلى هذا مضت الأمصار والأعصار. واختلّفوا في الكلالة فيما وقعت عليه في هذه الآية، فقال عمر، وابن عباس: الكلالة: الميت الموزوث إذا لم يكن له أب، ونصبها على خبر كان. وقال ابن زيد: الكلالة: الوارثة بجملتها، الميت والأحياء كلهم كلاله، ونصبها على الحال أو على النعت لمصدر محذوف تقديره: وراثه كلاله، ويصح على هذا أن تكون (كان) تامة بمعنى وقع، ويصح أن تكون ناقصة وخبرها (يورث). وقال عطاء: الكلالة: المال، ونصب على المفعول الثاني. قال القاضي أبو محمد: والاشتقاق في معنى الكلالة يفسد تسمية المال بها. وقالت طائفة: الكلالة: الورثة. وأجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية: الإخوة لأب؛ لأن حكمهم منصوب

في هذه الآية على صفة، وحكم سائر الإخوة مخالف له، وهو الذي في كلاله آخر السورة. وقال الرازي: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾: نصب على الحال، أي يوصي بها وهو غير مضارٍّ لورثته. واعلم أن الضرار في الوصية يقع على وجوه: أحدها: أن يوصي بأكثر من الثلث. وثانيها: أن يقر بكلِّ ماله أو ببعضه لأجنبي. وثالثها: أن يقر على نفسه بدین لا حقيقة له؛ دفعًا للميراث عن الورثة. ورابعها: أن يقر بأن الدين الذي كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه. وخامسها: أن يبيع شيئًا بثمن بخس، أو يشتري شيئًا بثمن غال، كلُّ ذلك لغرض أن لا يصل المال إلى الورثة. وسادسها: أن يوصي بالثلث لا لوجه الله لكن لغرض تنقيص حقوق الورثة. والإضرار في الوصية من الكبائر، فقد روى عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الإضرار في الوصية من الكبائر. واعلم أن العلماء قالوا: الأولى أن يوصي بأقل من الثلث، قال علي: "لأن أوصي بالخمس أحب إلي من الربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث". وقال النخعي: "فبض رسول الله ﷺ ولم يوص، وفبض أبو بكر فوصى، فإن أوصى الإنسان فحسن، وإن لم يوص فحسن أيضًا". واعلم أن الأولى بالإنسان أن ينظر في قدر ما يخلف ومن يخلف، ثم يجعل وصيته بحسب ذلك، فإن كان ماله قليلًا وفي الورثة كثرة لم يوص، وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب حاجتهم بعده في القلة والكثرة. وقال الشوكاني: ﴿وإن كان رجل يورث كلاله وله أخ أو أخت﴾: قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الإخوة هاهنا هم: الإخوة لأُم. وأفرد الضمير في قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾؛ لأن المراد كل واحد منهما. ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾: الإشارة بقوله: ﴿من ذلك﴾ إلى قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾، أي أكثر من الأخ المنفرد أو الأخت المنفردة بواحد، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعدًا، ذكرين أو أنثيين أو ذكرًا وأنثى. وقد استدلل بذلك على أن الذكر كالأنثى من الإخوة لأُم؛ لأن الله شرَّك بينهم في الثلث، ولم يذكر فضل الذكر على الأنثى كما ذكره في البنين والإخوة لأبوين أو لأب. قال القرطبي: وهذا إجماع.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْإِخْوَةَ لِلْأُمِّ إِذَا اسْتُكْمِلَتْ بِهِمُ الْمَسْأَلَةُ كَانُوا أَقْدَمَ مِنَ الْإِخْوَةِ لِأَبَوَيْنِ
أَوْ لِأَبٍ، وَذَلِكَ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمَسْمَاةِ بِالْحِمَارِيَّةِ، وَهِيَ إِذَا تَرَكَتِ الْمَيِّتَةُ (زَوْجًا، وَأُمًّا، وَأَخَوَيْنِ
لِلْأُمِّ، وَإِخْوَةً لِأَبَوَيْنِ)، فَإِنَّ لِلزَّوْجِ النِّصْفَ وَلِلْأُمِّ السُّدُسَ وَلِلْأَخَوَيْنِ لِلْأُمِّ الثُّلُثَ وَلَا شَيْءَ
لِلْإِخْوَةِ لِأَبَوَيْنِ. وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ وَجِدَ الشَّرْطُ الَّذِي يَرِثُ عِنْدَهُ الْإِخْوَةُ مِنَ الْأُمِّ وَهُوَ
كَوْنُ الْمَيِّتِ كَلَالَةً، وَيُؤَيِّدُ هَذَا حَدِيثُ: "الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوَّلَى رَجُلٍ
ذَكَرٍ" وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا. ﴿غَيْرُ مُضَارٍّ﴾: أَيُّ يُوصِي حَالَ كَوْنِهِ غَيْرَ مُضَارٍّ
لِوَرَثَتِهِ بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الضَّرَارِ، وَهَذَا الْقَيْدُ. أَعْنِي قَوْلُهُ: ﴿غَيْرُ مُضَارٍّ﴾. رَاجِعٌ إِلَى الْوَصِيَّةِ
وَالَّذَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فَهُوَ قَيْدٌ لَّهُمَا، فَمَا صَدَرَ مِنَ الْإِقْرَارَاتِ بِالذُّيُونِ أَوْ الْوَصَايَا الْمَنْهِيَّ عَنْهَا
لَهُ، أَوْ الَّتِي لَا مَقْصِدَ لِصَاحِبِهَا إِلَّا الْمَضَارَّةَ لِوَرَثَتِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ لَا يَنْفَعُ مِنْهُ شَيْءٌ لَا
الثُّلُثُ وَلَا دُونُهُ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أُخْتُ﴾: أَيُّ مِنْ أُمٍّ، كَمَا هِيَ فِي بَعْضِ الْقَرَاءَاتِ. وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِخْوَةِ
هُنَا: الْإِخْوَةَ لِلْأُمِّ، فَإِذَا كَانَ يُورِثُ كَلَالَةً، أَيُّ لَيْسَ لِلْمَيِّتِ وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ، أَيُّ لَا أَبٌ، وَلَا
جَدٌّ، وَلَا ابْنٌ، وَلَا ابْنُ ابْنٍ، وَلَا بِنْتُ ابْنٍ، وَلَا بِنْتُ ابْنِ ابْنٍ. وَهَذِهِ هِيَ الْكَلَالَةُ كَمَا
فَسَّرَهَا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ حَصَلَ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّفَاقُ وَاللَّهُ الْحَمْدُ. ﴿فَلِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾: أَيُّ مِنَ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ﴿السُّدُسُ﴾. ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾: أَيُّ
مِنْ وَاحِدٍ. ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: أَيُّ لَا يَزِيدُونَ عَلَى الثُّلُثِ وَلَوْ زَادُوا عَنْ اثْنَيْنِ.
وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: أَنَّ ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ سَوَاءٌ؛ لِأَنَّ لَفْظَ (التَّشْرِيكِ)
يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ. وَدَلَّ لَفْظُ ﴿الْكَلَالَةِ﴾ عَلَى أَنَّ الْفُرُوعَ وَإِنْ نَزَلُوا، وَالْأَصُولَ الذَّكَورَ وَإِنْ
عَلَوْا، يُسْقُطُونَ أَوْلَادَ الْأُمِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُوَرِّثْهُمْ إِلَّا فِي الْكَلَالَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يُورِثُ كَلَالَةً، لَمْ
يَرِثُوا مِنْهُ شَيْئًا اتِّفَاقًا. وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: أَنَّ الْإِخْوَةَ الْأَشْقَاءَ
يَسْقُطُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمَسْمَاةِ بِالْحِمَارِيَّةِ، وَهِيَ (زَوْجٌ، وَأُمٌّ، وَإِخْوَةٌ لِلْأُمِّ، وَإِخْوَةٌ أَشْقَاءٌ):
لِلزَّوْجِ النِّصْفَ، وَلِلْأُمِّ السُّدُسَ، وَلِلْإِخْوَةِ لِلْأُمِّ الثُّلُثَ، وَيَسْقُطُ الْأَشْقَاءُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَ

الثالث للإخوة من الأمّ، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعا لما فرّق الله حُكْمَهُ. وأيضا فإنّ الإخوة للأمّ أصحاب فروض، والأشقاء عصبات. وقد قال النبي ﷺ: "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر" رواه الشيخان، وأهل الفروض هم الذين قدّر الله أنصباءهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك. وأمّا ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَقْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ..﴾ [النساء: ١٧٦]. وقال العثيمين: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾: يحتمل أن تكون ﴿كَانَ﴾ هنا ناقصة، وتكون جملة ﴿يُورَثُ﴾ خبر كان، ويحتمل أن تكون تامة، و﴿رَجُلٌ﴾ فاعل، و﴿يُورَثُ﴾ صفة لرجل، وهذا أقرب؛ لأنّ التقدير: وإن وجد رجل يورث كلاله، وقوله: ﴿كَالَالَةً﴾ مفعول مطلق، ودليل أنّها مفعول مطلق: أنه يصحّ أن يقدر قبلها المصدر، والتقدير: يورث إرث كلاله، فعليه تكون مفعولاً مطلقاً. وإرث الكلاله: أن يرث من دون الأصول والفروع، أي أن يكون الوارث من غير الأصول والفروع؛ لأنه كالإكليل الذي يحيط بالشيء، وهم الحواشي، فالكلاله: هو من كان ورثته حواشي، وهو من لا يرثه فرع ولا أصل؛ ولهذا جاء عن السلف: أنّ الكلاله: من ليس له ولد ولا والد، فالمورث كلاله هو الذي لا يرثه إلا الحواشي، مثل: رجل مات عن إخوة، أو عن أعمام، أو عن بني إخوة، أو عن بني أعمام فهو كلاله، فكلّ من يورث بلا أصل ولا فرع فهو كلاله. وقوله: ﴿أَوْ امْرَأَةً﴾ معطوف على رجل، ولكن كلمة ﴿امْرَأَةً﴾ معطوفة على رجل بصفة، والمعنى: أو امرأة تورث كلاله، وقد اتفق النحويّون وكذلك الأصوليون على أنّ الوصف إذا تعقّب جملاً عاد على الكلّ، كقولنا: (أكرم زيدا وعمروا وبكرا وخالدا إن اجتهدوا في الدراسة)، فإنّ هذا الوصف يعود على الكلّ، وأمّا إذا انفرد وتقدّم، مثل قولنا: (أكرم زيدا وعمروا وخالدا إن اجتهدوا وبكرا)، فقد اختلفوا: هل يكون إكرام بكر مطلقا، أو يكون موصوفاً بما سبق؟، والصحيح: أنه يرجع في هذا إلى القرائن، والقرائن هنا قد دلّت على أنّ ﴿امْرَأَةً﴾ معطوفة على رجل

باعتباره موصوفاً بكونه يورث كلاله. وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾: الضمير في قوله: ﴿وَلَهُ﴾ يعود على الرجل الذي يورث كلاله وكذلك المرأة، ولم يقل: (ولهما أخ أو أخت)؛ اعتباراً بالوصف الأول الذي هو الرجل. وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ مطلق، فيشمل (الأخ الشقيق، أو لأب، أو لأم)، ولكن العلماء أجمعوا على أنّ المراد به هنا: (الأخ لأم، والأخت لأم)، وقد وردت بها قراءة عن بعض السلف، (وله أخ من أم أو أخت من أم)، وهذا ظاهر جداً، حتى وإن لم ترد هذه القراءة؛ وذلك لأن (الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب) قد ذكر الله حكمهم في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ امْرَأَتَكَ لَأُمٌّ وَأَنَّ امْرَأَتَكَ لَأُخْتٌ﴾ [النساء: ١٧٦]. وقوله: ﴿فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: أي إذا كانوا اثنين فأكثر فهم شركاء في الثلث، فإن كانوا ثلاثة أو أربعة أو أكثر فهم شركاء في الثلث، وهنا لا يفضل الأخ على الأخت؛ لأن الله قال: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، ومقتضى الشركة عند الإطلاق: التسوية. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾: نقول فيها ما سبق، من أنّ هذه الوصية وصية شرعية في حدود ما أذن به الشرع. وقوله: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾: أي أو من بعد دين. و(أو) هنا مانعة خلو كما سبق، لكنه قال هنا: ﴿غَيْرِ مُضَارٍّ﴾: أي بشرط ألا يكون المقصود بالوصية المضارة، فإن ثبت أنّ المقصود بها المضارة فهي لاغية، كما لو علمنا أنّ هذا الميّت الذي ليس له إلا (إخوة من أم) أنه أوصى بالثلث من أجل أن يضيق على الإخوة، فهذه وصية ضرار، فلا تنفذ؛ لأن الله اشترط في الوصية النافذة أن تكون غير مضارّ بها، وكذلك لو فرض أنّ المريض تدبّر ديناً يضرّ بالورثة يستغرق جميع ماله، فإنه في هذه الصورة ينظر فيه إذا كان قد ضارّ بهم، فإنّ الضرر ممنوع شرعاً.

﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾: قال الرازي: فيه سؤالان: الأول: كَيْفَ انْتِصَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَصِيَّةً﴾؟. والجواب: فيه من وجوه: الأول: أَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ أَيُّ يُوصِيكُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ وَصِيَّةً، كَقَوْلِهِ:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾. الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ مَنصُوبَةً بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أَي لَا تُضَارُّ وَصِيَّةُ اللَّهِ فِي أَنَّ الْوَصِيَّةَ يَجِبُ أَنْ لَا تُزَادَ عَلَى الثُّلُثِ. الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ بِالْأَوْلَادِ وَأَنْ لَا يَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ وَجُوهَ النَّاسِ بِسَبَبِ الْإِسْرَافِ فِي الْوَصِيَّةِ، وَيَنْصُرُ هَذَا الْوَجْهَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ: (غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً) بِالْإِضَافَةِ. السُّؤَالُ الثَّانِي: لِمَ جَعَلَ خَاتِمَةَ الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، وَخَاتِمَةَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾؟. الْجَوَابُ: أَنَّ لَفْظَ الْفَرَضِ أَقْوَى وَآكَدٌ مِنْ لَفْظِ الْوَصِيَّةِ، فَحَتَمَ شَرْحَ مِيرَاثِ الْأَوْلَادِ بِذِكْرِ الْفَرِيضَةِ، وَحَتَمَ شَرْحَ مِيرَاثِ الْكَلَالَةِ بِالْوَصِيَّةِ؛ لِيُذَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْكُلَّ وَإِنْ كَانَ وَاجِبَ الرِّعَايَةِ إِلَّا أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ وَهُوَ رِعَايَةُ حَالِ الْأَوْلَادِ أَوَّلَى. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿وَصِيَّةً﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ وَجُوبًا؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا هُنَا: الْإِلْزَامُ. وَالْوَصِيَّةُ بِمَعْنَى: الْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: قَالَ الرَّازِيُّ: أَيُّ عَلِيمٌ بِمَنْ جَارَ أَوْ عَدَلَ فِي وَصِيَّتِهِ. ﴿حَلِيمٌ﴾: أَيُّ عَلَى الْجَائِرِ لَا يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ وَهَذَا وَعِيدٌ. وَقَالَ ابْنُ عَاشُورَ: قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تَذْيِيلٌ، وَذِكْرُ وَصْفِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ هُنَا؛ لِئِنْ نَاسَبَتْ أَنَّ الْأَحْكَامَ الْمُتَقَدِّمَةَ إِبْطَالُ لِكَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ كَانُوا شَرَّعُوا مَوَارِيثَهُمْ تَشْرِيعًا مَثَارُهُ الْجَهْلُ وَالْقَسَاوَةُ، فَإِنَّ حِرْمَانَ الْبِنْتِ وَالْأَخِ لِلْأُمِّ مِنَ الْإِرْثِ جَهْلٌ بِأَنَّ صِلَةَ النَّسَبَةِ مِنْ جَانِبِ الْأُمِّ مُثَالَّةٌ لِصِلَةِ النَّسَبَةِ مِنْ جَانِبِ الْأَبِ، فَهَذَا وَخَوُّهُ جَهْلٌ، وَحِرْمَانُهُمُ الصِّغَارَ مِنَ الْمِيرَاثِ قَسَاوَةٌ مِنْهُمْ. وَقَالَ الْعَنِيمِينَ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أَيُّ بِمَا يَصْلَحُ عِبَادَهُ. ﴿حَلِيمٌ﴾: أَيُّ بِمَنْ عَصَاهُ، فَلَا يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَالْفَائِدَةُ مِنْ خَتَمِ هَذِهِ الْآيَةِ الطَّوِيلَةِ . الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى إِرْثِ الزَّوْجَيْنِ وَالْإِخْوَةِ لِأُمِّ . بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ: أَنَّهُ قَدْ تَكُونُ الْوَصِيَّةُ مُضَارًّا بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ بِالْعُقُوبَةِ؛ وَلِهَذَا خَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَاءِ الْكَرِيمَيْنِ: الْعَلِيمِ وَالْحَلِيمِ.

• قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: أن الله تعالى بعد بيان سهام الموارث ذكر الوعد والوعيد؛ ترغيباً في الطاعة؛ وترهيباً عن المعصية، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ..﴾.

• تفسير الآية:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: قال ابن عطية: الحد: الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره، ومن هذا قولهم للبواب: حداً؛ لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة، وهو امتناعها عن الزينة، هذا هو الحد في هذه الآية. وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾: يريد من تحت بنائها وأشجارها الذي من أجله سميت الجنة؛ لأن أنهار الجنة إنما هي على وجه أرضها في غير أخاديد. ﴿خَالِدِينَ﴾: قال الزجاج: هي حالة على التقدير، أي مقدرين خالدين فيها، وجمع ﴿خَالِدِينَ﴾ على معنى ﴿مَنْ﴾ بعد أن تقدم الأفراد مراعاة للفظ ﴿مَنْ﴾، وعكس هذا لا يجوز. وقال الرازي: في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: قولان: الأول: أنه إشارة إلى أحوال الموارث؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات. الثاني: أنه إشارة إلى كل ما ذكره من أول السورة إلى ههنا من بيان أموال الأيتام، وأحكام الأنكحة، وأحوال الموارث، وهو قول الأصم، وذلك لأن عودته إلى الأقرب إذا لم يمنع من عودته إلى الأبعد مانع يوجب عودته إلى الكل. وقال أبو حيان: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: قيل: الإشارة بـ(تلك) إلى القسم المتقدمة في الموارث. والأولى أن تكون إشارة إلى الأحكام السابقة في أحوال الأيتام والزوجات والوصايا والموارث. وجعل هذه الشرائع حدوداً، لأنها مؤقته للمكلفين لا يجوز لهم أن يتعدوها إلى غيرها. وقال ابن عباس: حدود الله: طاعته. وقال السدي: شروطه. وقيل: فرائضه. وقيل: سننه. وهذه أقوال متقاربة. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾: لما أشار تعالى إلى حدوده التي حدها قسم الناس إلى عامل بها

مُطِيع، وإلى غَيْرِ عاملٍ بِهَا عاصٍ. وَبَدَأَ بِالْمُطِيعِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ الطَّاعَةُ؛ إِذِ السُّورَةُ مُفْتَتِحَةٌ بِخِطَابِ النَّاسِ عَامَّةً، ثُمَّ أَرَدَفَ بِخِطَابِ مَنْ يَتَّصِفُ بِالْإِيمَانِ إِلَى آخِرِ الْمَوَارِيثِ؛ وَلِأَنَّ قِسْمَ الْخَيْرِ يَنْبَغِي أَنْ يُبْتَدَأَ بِهِ وَأَنْ يُعْتَنَى بِتَقْدِيمِهِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿تِلْكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْأَحْكَامِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي شُئُونِ الْيَتَامَى وَالْمَوَارِيثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: أَيُّ شَرَائِعِهِ الْمَحْدُودَةِ الَّتِي تَجُوزُ مُجَاوَزَتُهَا. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أَيُّ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا مَا فُصِّلَ هَهُنَا. وَإِظْهَارُ الْإِسْمِ الْجَلِيلِ لِمَا ذُكِرَ آنِفًا. ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ﴾: نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَعَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ عِنْدَ الْأَخْفَشِ. ﴿بِجَنَّتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: صِفَةٌ لِـ(جَنَّاتٍ) مَنْصُوبَةٌ حَسَبَ انْتِصَابِهَا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حَالٌ مُقَدَّرَةٌ مِنْ مَفْعُولٍ ﴿يُدْخِلُهُ﴾. وَصِيعَةُ الْجَمْعِ بِالنَّظَرِ إِلَى جَمْعِيَّةٍ (مَنْ) بِحَسَبِ الْمَعْنَى، كَمَا أَنَّ إِفْرَادَ الضَّمِيرِ بِالنَّظَرِ إِلَى إِفْرَادِهِ لَفْظًا. ﴿وَذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى مَا مَرَّ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّاتِ الْمُوصُوفَةِ بِمَا ذُكِرَ عَلَى وَجْهِ الْخُلُودِ وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلإِبْدَانِ بِكَمَالِ غُلُوِّ دَرَجَتِهِ. ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أَيُّ الَّذِي لَا فَوْزَ وَرَاءَهُ. وَوُصِفَ الْفَوْزُ وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْخَيْرِ بِالْعِظَمِ إِمَّا بِإِعْتِبَارِ مُتَعَلِّقِهِ، أَوْ بِإِعْتِبَارِ ذَاتِهِ، فَإِنَّ الْفَوْزَ بِالْعَظِيمِ عَظِيمٌ، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ بِجَنَّتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أَيُّ مِنْ تَحْتِ شَجَرِهَا وَمَسَاكِينِهَا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أَيُّ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يُخْرَجُونَ. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أَيُّ النَّجَاةِ الْوَافِرَةِ بِالْجَنَّةِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَكُونَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، الْمَبْتَدَأُ اسْمُ الْإِشَارَةِ ﴿تِلْكَ﴾، وَالْخَبَرُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَوَارِيثِ فِي الْآيَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَحْكَامِ قَبْلَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ . وَإِنْ كَانَتْ آيَاتُهُ مَفْصَلَاتٌ .، لَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَلَامٌ وَاحِدٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَالسِّيَاقُ، وَمَعْنَى قَوْلِنَا: (كَلَامٌ وَاحِدٌ): أَنَّ بَعْضَهُ يَنْبَنِي عَلَى بَعْضٍ؛ وَلِهَذَا اعْتَنَى بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ بَبَيَانِ تَنَاسُبِ الْآيَاتِ، كَمَا اعْتَنَى بَعْضُهُمْ بِبَيَانِ تَنَاسُبِ السُّورِ، وَهَذَا بَحْثٌ جَيِّدٌ. وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ الْإِشَارَةَ تَعُودُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ عَلَى

حسب القاعدة: "أَنَّ الضمير يعود على أقرب مذكور، وكذلك الإشارة تعود إلى أقرب مذكور"، كان المراد بالمشار إليه هنا ما ذكر في هذه الآية: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾. وقوله: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: حدود جمع حَدّ: والحَدّ: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض يفصل بعضها عن بعض. وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود واجبات، وحدود محرمات، أمّا الحدود الواجبات فهي: ما أوجبه الله على عباده بشروطها وأركانها وواجباتها. وأمّا حدود النواهي فهي: ما حرّمه الله على عباده؛ كالزنى، واللواط، وشرب الخمر، وقتل النفس، وغير هذا، قال أهل العلم: إذا قال الله: ﴿تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] فهي من حدود الأوامر، وإذا قال: ﴿تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] فهي من حدود النواهي، فالزنى مثلاً نقول: هو حَدّ من حدود الله، فلا تقربه. والصلاة حَدّ من حدود الله، فلا تتعدّه، أي لا تتجاوزّه. والآية هنا من حدود الأوامر. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: هذه الجملة شرطية، واسم الشرط فيها ﴿وَمَنْ﴾، وفعل الشرط ﴿يُطِيعُ﴾، وهو مجزوم بالسكون كما هو ظاهر، وأصل ﴿يُطِيعُ﴾: يطيع، لكنها حذفت (الياء)؛ لالتقاء الساكنين؛ لأن العين استحققت السكون بالشرط، و(الياء) ساكنة. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: قال العلماء: إنّ الطاعة هي موافقة الأمر، وتكون بفعل الأوامر، واجتناب النواهي، فتارك شرب الخمر امتثالاً لنهي الله يقال: إنه مطيع، والمصلّي يقال: إنه مطيع، وهذا إذا أفردت الطاعة، فإنّها تشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وأمّا إذا قرنت بالمعصية، فقليل مثلاً: من أطاع الله، ومن عصى الله، كانت الطاعة في الأوامر خاصّة، والمعصية في النواهي، والآية التي معنا من النوع الثاني، إذّا: المراد بها: القيام بالأوامر. وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ عطف اسم الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو وصفه على اسمه تعالى؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقوله:

﴿وَرَسُولُهُ﴾: المراد به حين نزول القرآن رسول معيّن، وهو مُحَمَّد ﷺ، وأمّا حين قيام الشرائع السابقة، فالمراد بالرسول: من كانت شريعته قائمة، ففي عهد المسيح يكون المراد بالرسول عيسى، وفي عهد موسى يكون المراد بالرسول موسى وهكذا، لكن بعد بعثة الرسول يكون المراد بالرسول محمداً ﷺ. وقوله: ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ﴿يُدْخِلُهُ﴾: جواب الشرط، وهو مجزوم بالسكون، والقاعدة ومقتضى الدلالة العقلية: أنّ الشرط يترتب على المشروط، فالشرط الطاعة، والمشروط الجزاء والثواب، فالمشروط يترتب على الشرط ترتباً عقلياً، فهنا يكون قوله: ﴿يُدْخِلُهُ﴾ هو المشروط الذي اشترطه الله لمن أطاعه، فتكون نتيجة حتمية ضرورة لصدق المخبر به؛ لأن المخبر به هو الله، وهو أصدق القائلين، والمخبر به قادر على فعله؛ ولهذا فإن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]؛ لأنه كامل الصدق، كامل القدرة، وإخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إمّا الكذب، أي كذب الواعد، وإمّا العجز وعدم القدرة، والله لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: جنّات: جمع جنة، وهي في الأصل: البستان الكثير الأشجار، وسمّي بذلك لأنه يستر من كان فيه؛ لكثرة أشجاره، وهذه المادة (الجيم والنون) تدلّ على الستر، ومنها: (الجنان) وهو القلب؛ لأنه مستتر، و(الأجنة) وهي الأحمال في بطون الأمهات؛ لأنها مستترة، و(الجنّ)؛ لأنهم مستترون، و(الجنة) ما يستتر به المقاتل؛ لأنها تستتره، فهذه المادة كلّها تدور على هذا المعنى، فالجنّات: هي البساتين الكثيرة الأشجار، ولكنّه لا يحسن أن نفسرها في هذا الموضع بهذا المعنى؛ لأنها إذا فسّرت بهذا المعنى فكأنما حصر مدلولها بما يعرفه الناس، وسوف يقلل من أهمية الجنة الموعود بها؛ ولهذا ينبغي أن تفسّر بأنها الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا فسّرت بهذا التفسير بقيت هيبتها في النفوس، لكن لو فسّرت بالمعنى الأوّل؛ لتوهم الإنسان وقال: هذا كبستان فلان ابن فلان، كثير الأشجار، وكثير النخيل، وما أشبه ذلك. والجنة أعظم ممّا في الدنيا

بأضعاف مضاعفة، لا يعلمها إلا الله، قال ابن عباس . رضي الله عنهما :. "ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء"، وإلا فالحقائق تختلف، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" رواه الشيخان. وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: الجريان معروف، وهو سير الماء على الأرض، وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾: أي من تحت هذه الجنات، فهي أشجار وارفة الظل، والأنهار تجري من تحتها، ولو تخيل الإنسان هذا النعيم، لوجده أكبر نعيم، وهذه الأنهار قد فسرها الله في سورة القتال بقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [مُحَمَّد: ١٥]، فليس هو عسل نحل، إنما عسل مصفى، خلقه الله هكذا، ولبن ليس كلبن البقر أو الغنم، بل خلقه الله أنهار، وكذلك الماء لا يأسن أبدًا مهما طالت مدته، بخلاف ماء الأرض فإنه يأسن وتتغير رائحته بطول المكث، والخمر لذّة، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧]. وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: قال العلماء: إنها تجري من تحتها، ولا تحتاج إلى بناء يمنع تسرب الماء، ولا إلى حفر أخدود، بل تسير هكذا حيثما أردت، فهي أنهار لا تحتاج إلى حفر سواقي، ولا إلى إقامة أخدود، بل تجري هكذا على الأرض، وقال أهل العلم أيضًا: إنها تجري حيثما أراد الإنسان، من دون أن يحتاج إلى مواد البناء ونحوها، بل يريد بها بقلبه أو يأمرها بلسانه. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من الضمير في قوله: ﴿يُدْخِلُهُ﴾، لكن يشكل عليه أنّ الحال كالنعت، والنعت يتبع المنعوت في إفراده وتثنيته وجمعه، وهنا صاحب الحال مفرد والحال جمع، فما هو الجواب عن ذلك؟ الجواب عن ذلك: أن نقول: إنّ صاحب الحال عائد على (مَنْ) الشرطيّة، و(مَنْ) الشرطيّة يجوز فيها مراعاة لفظها ومراعاة معناها،

فإن راعيت اللفظ أعدت الضمير إليها مفردًا، وإن راعيت المعنى أعدت الضمير إليها جمعًا، وكذلك ما يشبه الضمير من الحال والصفة وما أشبهه، فيجوز مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فهنا يقول الله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فراعى اللفظ في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وراعى المعنى في قوله: ﴿خَالِدِينَ﴾، ويجوز أن تراعى اللفظ والمعنى وتعود مرة ثانية لمراعاة اللفظ، قال الله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فراعى في الأوّل اللفظ، ثم راعى المعنى، ثم راعى اللفظ، وهذا جائز في اللغة العربيّة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: قال العلماء: الخلود: هو المكث الدائم، إلا أن يدلّ دليل على أنه مؤقّت، فيراد به المكث الطويل، وإلا فالأصل أنّ الخلود هو الدوام، لكن إن وجد دليل يدلّ على أنّ المراد به طول المكث عمل به. وقوله: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: المشار إليه ما ذكر من هذا الثواب الذي أعدّه الله لمن أطاعه. ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الفوز معناه: الرّبح، يقال: فاز فلان، بمعنى: ربح. والعظيم: معناه: ذو العظمة، والعظمة: هي ضخامة الشيء، وجلالة الشيء، وكثرة الشيء أيضًا، ومعلوم أنّ نعيم الجنّة يتّصف بالضخامة والجلالة والدوام، فهو أعظم فوز، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)﴾:
- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الرازي: أنّه تعالى بعد بيان سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد؛ ترغيبًا في الطاعة وترهيبًا عن المعصية، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ..﴾.

وقال أبو حيان: لَمَّا ذَكَرَ ثَوَابَ مُرَاعِيِ الْحُدُودِ ذَكَرَ عِقَابَ مَنْ يَتَعَدَّاهَا، وَغَلَّظَ فِي قِسْمِ
 الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَكْتَفِ بِالْعَصِيَانِ، بَلْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾.
 وقال البقاعي: لَمَّا أَشْرَبَتِ الْقُلُوبُ الصَّافِيَةُ ذَوَاتُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ حُبَّ نَيْلِ هَذَا الْفَوْزِ أَتْبَعَهُ
 التَّرْهِيبَ؛ فَطَمَّأَ لَهَا عَنْ تِلْكَ الْقَوَائِدِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ..﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: قال الواحدي: قال الضحاك: المعصية ههنا: الشرك. وقال
 عكرمة عن ابن عباس: من لم يرض بقسم الله، ويتعدى ما قال الله يدخله نارا. وقال
 الكلبي: يعني: يكفر بقسمة الموارث ويتعد حدوده استحلالا. وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا
 خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: في نصب ﴿خَالِدًا﴾ وجهان: أحدهما: أنه حال من
 (الهاء) في ﴿يُدْخِلُهُ﴾، على تقدير: يدخله خالداً في النار، إلا أنه لما تقدم ذكر النار
 كُتِيَ عنها. الثاني: أنه من نعت النار في قول الزجاج، وهذا كما يقول زيد: مررت بدار
 ساكن فيها، ومثله قوله تعالى: ﴿مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]. وقال
 الرازي: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا
 بِمَنْ تَعَدَّى فِي الْحُدُودِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا وَهِيَ حُدُودُ الْمَوَارِيثِ، أَوْ يَدْخُلُ فِيهَا ذَلِكَ وَغَيْرُهُ،
 وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ يَلْزَمُ دُخُولُ مَنْ تَعَدَّى فِي الْمَوَارِيثِ فِي هَذَا الْوَعِيدِ. وقال القرطبي: ﴿وَمَنْ
 يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يُرِيدُ فِي قِسْمَةِ الْمَوَارِيثِ فَلَمْ يَفْسِمَهَا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا. ﴿وَيَتَعَدَّ
 حُدُودَهُ﴾: أَيُّ يُخَالِفُ أَمْرَهُ. ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾: الْعَصِيَانُ إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكُفْرُ،
 فَالْخُلُودُ عَلَى بَابِهِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْكِبَائِرُ وَتَجَاوُزُ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَالْخُلُودُ مُسْتَعَارٌ لِمُدَّةٍ مَا. كَمَا
 تَقُولُ: خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ. وقال أبو حيان: ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾: قِيلَ: أَفْرَدَ خَالِدًا
 هُنَا، وَجَمَعَ فِي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ لِأَنَّ أَهْلَ الطَّاعَةِ أَهْلُ الشَّفَاعَةِ، وَإِذَا شَفَعَ فِي غَيْرِهِ
 دَخَلَهَا، وَالْعَاصِي لَا يَدْخُلُ النَّارَ بِهِ غَيْرُهُ، فَبَقِيَ وَحِيدًا. ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ
 عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: نَاسَبَ الْحَثْمَ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ؛ لِأَنَّ الْعَاصِيَ الْمُتَعَدِّيَ لِلْحُدُودِ بَرَزَ فِي

صُورَةَ مَنْ اغْتَرَّ وَتَجَاسَرَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وقال أبو السعود: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي ولو في بعض الأوامر والنواهي. قال مجاهد: فيما اقتَصَّ مِنَ المَوَارِيثِ. وقال عكرمة، عن ابن عباس: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَسَمِ اللَّهِ وَيَتَعَدَّ مَا قَالَهُ اللَّهُ. وقال الكلبي: يَعْنِي: وَمَنْ يَكْفُرُ بِقِسْمَةِ اللَّهِ المَوَارِيثَ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ اسْتِحْلَالًا. والإظهار في موقع الإضمار للمبالغة في الزجر بتهويل الأمر وتربية المهابة. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾: أي شرائعه المَحْدُودَةَ في جميع الأحكام فَيَدْخُلُ فِيهَا مَا نَحْنُ فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا. ﴿يَدْخُلُهُ نَارًا﴾: أي عَظِيمَةً هَائِلَةً لَا يَقَادِرُ قَدْرُهَا. ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: حال. وَلَعَلَّ إِيثَارَ الْإِفْرَادِ هَهُنَا نَظَرًا إِلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ. واحتياطًا لجمع هناك نظرًا إلى المعنى؛ لِلإِيذَانِ بِأَنَّ الخُلُودَ فِي دَارِ الثَّوَابِ بِصِفَةِ الْاجْتِمَاعِ أَجْلَبُ لِلْأَنْسِ كَمَا أَنَّ الخُلُودَ فِي دَارِ الْعَذَابِ بِصِفَةِ الْإِنْفِرَادِ أَشَدُّ فِي اسْتِجْلَابِ الْوَحْشَةِ. ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: أي وَلَهُ مَعَ عَذَابِ الْحَرِيقِ الْجِسْمَانِيِّ عَذَابٌ آخَرُ مُبْهَمٌ يُعْرَفُ كُنْهُهُ وَهُوَ الْعَذَابُ الرُّوحَانِيُّ كَمَا يُؤْذِنُ بِهِ وَصْفُهُ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ. وقال العثيمين: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: المعصية: مخالفة الأمر، أو الوقوع في النهي، فمن ترك الواجب فقد عصى، ومن فعل المحرم فقد عصى، يقول شيخ الإسلام: فعل المنهي يعتبر ترك واجب، والقاعدة صحيحة، فترك الواجب وقوع في النهي، وفعل النهي ترك للواجب؛ لأنه يجب الكف عن المنهي، ويستشهد لذلك بقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: "من نسي من نسكه شيئًا أو تركه فليهرق دمًا" رواه مالك، وصححه ابن باز، والدم على من فعل المنهي في الحج، وفعل المنهي ترك للواجب. وقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾: أي يتجاوزها، والمراد بالحدود هنا: الأوامر، أي يتجاوز ما حده الله بأوامره. وقوله: ﴿يَدْخُلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾: هنا لطيفة: في قول الله عن أهل النار: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾، وقال عن أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، والحكمة في ذلك: أَنَّ أهل الجنة يَتَنَعَّمُونَ بِاجْتِمَاعِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ؛ ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أما أهل النار فقد ورد أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي تَابُوتٍ لَا يَرَى أَحَدًا وَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾:

أي إدخاله النار، وخلوده فيها، لا يبقى مستقراً أبداً، بل هو معذب عذاب إهانة، فيكون عذاباً جسمياً وعذاباً قلبياً نفسياً؛ لأن العذاب الجسمي أهون من العذاب والالم القلبي؛ ولهذا قال العلماء: ينبغي أن يُختن الإنسان وهو صغير؛ لأن ختان الصغير ليس فيه إلا الألم الجسمي، أما إذا ختن وهو كبير صار هناك ألم جسمي وألم نفسي قلبي، فإنه يفكر ويقول: ربما يزداد الجرح، وربما يموت، وما أشبه ذلك، لكن الصغير إذا برد عليه سكت، وإذا صال عليه الوجع صاح، وإذا حملناه إن كان لا يستطيع المشي سكت. فعذاب أهل النار عذاب مهين، أي ذو إهانة؛ لأنهم يقرعون ويوبخون.

• قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥):

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال القرطبي: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْإِحْسَانَ إِلَى النِّسَاءِ وَإِبْصَالَ صَدَقَاتِهِنَّ إِلَيْهِنَّ، وَانْجَرَ الْأَمْرَ إِلَى ذِكْرِ مِيرَاتِهِنَّ مَعَ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ، ذَكَرَ أَيْضًا التَّغْلِيظَ عَلَيْهِنَّ فِيمَا يَأْتِيَنَّ بِهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ؛ لِئَلَّا تَتَوَهَّمِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ يَسُوغُ لَهَا تَرْكَ التَّعَفُّفِ.

• تفسير الآية:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: قال الماوردي: يَعْنِي بِالْفَاحِشَةِ: الزَّنا. ﴿فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾: يَعْنِي بَيِّنَةً يَجِبُ بِهَا عَلَيْهِنَّ الْحَدُّ. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: اخْتَلَفُوا فِي إِمْسَاكِهِنَّ فِي الْبُيُوتِ هَلْ هُوَ حَدٌّ أَوْ مَوْعِدٌ بِالْحَدِّ عَلَى قَوْلَيْنِ. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ يَعْنِي بِالسَّبِيلِ الْحَدَّ. وَاخْتَلَفُوا فِي نَسْخِ الْجُلْدِ مِنْ حَدِّ الثَّيِّبِ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَنْسُوخٌ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ التَّابِعِينَ وَالْفُقَهَاءِ. الثَّانِي: أَنَّهُ ثَابِتُ الْحُكْمِ، وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ، وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَهَذِهِ الْآيَةُ

عَامَّةً فِي الْبَكْرِ وَالتَّيِّبِ. وَاخْتُلِفَ فِي نَسْخِهَا عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِهِمْ فِيهَا هَلْ هُوَ حَدٌّ أَوْ مَوْعِدٌ بِالْحَدِّ؟، فَمَنْ قَالَ: هِيَ حَدٌّ، جَعَلَهَا مَنْسُوحَةً بِآيَةِ الثَّوْرِ، وَمَنْ قَالَ: هِيَ مَوْعِدٌ بِالْحَدِّ، جَعَلَهَا ثَابِتَةً. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾: أَيِ يَفْعَلْنَهَا، يُقَالُ: أَتَيْتُ أَمْرًا قَبِيحًا، أَيِ فَعَلْتَهُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ [مريم: ٨٩]. وَالْفَاحِشَةُ: الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ، وَهِيَ مُصَدَّرٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ، كَالْعَافِيَةِ وَالْعَاقِبَةِ، يُقَالُ: فَحَشَ الرَّجُلُ يَفْحَشُ فَحْشًا وَفَاحِشَةً، وَأَفْحَشَ إِذَا جَاءَ بِالْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ. ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾: أَيِ فَاحْبِسُوهُمْ فِي السُّجُونِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هَذَا أَمْرٌ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إِذَا كَانَ الزَّانِيَانِ تَبَيَّنَ حُبْسًا وَمُنْعًا مِنْ مَخَالَطَةِ النَّاسِ، وَإِذَا كَانَا بِكَرْبَيْنِ أَوْ ذِيَا بِالْتَعْنِيفِ وَالتَّوْبِيخِ، يُقَالُ لَهُمَا: انْتَهَكْتُمَا حُرْمَاتِ اللَّهِ وَعَصَيْتُمَاهُ، وَاسْتَهْدَفْتُمَا لِعِقَابِهِ، هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْكَلَامِ، ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ الْحَبْسَ وَالْأَذَى بِرَجْمِ التَّيَّبِينَ وَجِلْدِ الْبَكْرَيْنِ. وَخَصَّ النِّسَاءَ بِالذِّكْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَالْحَدَّ فِي الزَّانَا عَلَى النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ أَحْرَصَ عَلَى الزَّانَا مِنَ الرَّجُلِ، فَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ، كَمَا قَدَّمَ اسْمُهَا فِي آيَةِ الزَّانَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]. وَقَدَّمَ اسْمَ الرَّجُلِ فِي آيَةِ السَّرْقَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] مِنْ حَيْثُ كَانَ الرَّجُلُ أَحْرَصَ عَلَى السَّرْقَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: بَعْضُ الْآيَةِ مَنْسُوخٌ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ فِي الْبُيُوتِ، وَبَعْضُهَا ثَابِتٌ، وَهُوَ اسْتِشْهَادُ الْأَرْبَعَةِ. وَاقْتَرَنَ بِنَاسِخِ الْوَحْيِ وَحْيٍ غَيْرِ مُتَلَوٍّ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ وَهُوَ التَّغْرِيبُ وَالرَّجْمُ. وَجِلْدُ الثَّيِّبِ مَنْسُوخٌ أَيْضًا، فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ تَرَكَهُ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ: ﴿فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾: هُوَ خُطَابُ الْحُكَّامِ، يَعْنِي: فَاطْلُبُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الشُّهُودِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْحُجَّةُ عَلَى أَنَّ شُهُودَ الزَّانَا أَرْبَعَةٌ. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: وَكَانَ هَذَا هُوَ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْبَكْرِ بِالْجُلْدِ وَالتَّغْرِيبِ، وَفِي حَقِّ الثَّيِّبِ بِالْجُلْدِ وَالرَّجْمِ، وَهُوَ

بَيَانِ السَّبِيلِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، وَالْحُجَّةِ عَلَيْهِ: حَدِيثُ عِبَادَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا، الْبُكَرُ بِالْبُكَرِ جِلْدُ مِائَةِ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جِلْدُ مِائَةِ وَرَجْمُ بِالْحِجَارَةِ" رواه مسلم. وقال ابن عطية: كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ عُقُوبَاتِ الزَّانَةِ: الْإِمْسَاكُ فِي الْبُيُوتِ. قَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَالْحَسَنُ وَجَاهِدٌ: حَتَّى نُسَخَ بِالْأَذَى الَّذِي بَعْدَهُ، ثُمَّ نُسَخَ ذَلِكَ بِآيَةِ النُّورِ وَبِالرَّجْمِ فِي الثَّيِّبِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ كَانَ الْأَذَى هُوَ الْأَوَّلُ ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأُذَوْهُمَا﴾، ثُمَّ نُسَخَ بِالْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾، وَلَكِنَّ التَّلَاوَةَ أَخَرْتُ وَقَدَّمْتُ، ذَكَرَهُ ابْنُ فُورَكٍ. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا﴾: أَيْ مَحْزَجًا بِأَمْرِ مِنْ أَوَامِرِ الشَّرْعِ، رَوَى حِطَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِيُّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَوَجْهُهُ مُحْمَرٌّ، فَقَالَ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا، الْبُكَرُ بِالْبُكَرِ جِلْدُ مِائَةِ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جِلْدُ مِائَةِ وَالرَّجْمُ". رواه مسلم. وقال الرازي: ﴿اللَّاتِي﴾: جَمْعُ اللَّاتِي، وَلِلْعَرَبِ فِي جَمْعِ (اللَّاتِي) لُغَاتٌ: (اللَّاتِي، وَاللَّاتِ، وَاللَّوَاتِي، وَاللَّوَاتِ). قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ: الْعَرَبُ تَقُولُ فِي الْجَمْعِ مِنْ غَيْرِ الْحَيَوَانِ: (اللَّاتِي)، وَمِنْ الْحَيَوَانِ: (اللَّاتِي)، كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْوَالُكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]، وَقَالَ فِي هَذِهِ: (اللَّاتِي، وَاللَّاتِي)، وَالْفَرْقُ: هُوَ أَنَّ الْجَمْعَ مِنْ غَيْرِ الْحَيَوَانِ سَبِيلُهُ سَبِيلُ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا جَمْعُ الْحَيَوَانِ فَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا غَيْرٌ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْ غَيْرِهَا بِخَوَاصِّ وَصِفَاتٍ، وَمِنْ الْعَرَبِ مَنْ يُسَوِّي بَيْنَ الْبَابَيْنِ، فَيَقُولُ: مَا فَعَلَتِ الْهِنْدَاثُ الَّتِي مِنْ أَمْرِهَا كَذَا، وَمَا فَعَلَتِ الْأَنْثَابُ الَّتِي مِنْ قِصَّتِهِنَّ كَذَا، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُخْتَارُ. وَفِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: الْمُرَادُ مِنْهُ: الزَّانَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا نُسِبَتْ إِلَى الزَّانَا فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا إِلَّا بِأَنْ يَشْهَدَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ مُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهَا ارْتَكَبَتْ الزَّانَا، فَإِذَا شَهِدُوا عَلَيْهَا أُمْسِكَتْ فِي بَيْتٍ مُحْبُوسَةً إِلَى أَنْ تَمُوتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. الْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾: السَّحَاقَاتُ، وَحُدُثُنَّ الْحَبْسِ إِلَى الْمَوْتِ. وَاحْتَجَّ أَبُو مُسْلِمٍ عَلَيْهِ بُجُوهُ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ مَخْصُوصٌ بِالنِّسْوَانِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ مَخْصُوصٌ بِالرِّجَالِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاللَّذَانِ تَثْنِيَةُ الذُّكُورِ. فَإِنْ قِيلَ: لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمِرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّذَانِ﴾ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِلَّا أَنَّهُ غَلَبَ لَفْظُ الْمَذَكَّرِ؟. قُلْنَا: لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا أَفْرَدَ ذَكَرَ النِّسَاءِ مِنْ قَبْلُ، فَلَمَّا أَفْرَدَ ذَكَرَهُنَّ ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ سَقَطَ هَذَا الْإِحْتِمَالُ. الْوَجْهَ الثَّانِي: هُوَ أَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يُحْتَاجُ إِلَى التِّزَامِ النَّسْخِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ، بَلْ يَكُونُ حُكْمُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بَاقِيًا مُقَرَّرًا، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ يُحْتَاجُ إِلَى التِّزَامِ النَّسْخِ، فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ أَوَّلَى. الْوَجْهَ الثَّلَاثُ: أَنَّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾ فِي الزِّنَا وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ يَكُونُ أَيْضًا فِي الزِّنَا، فَيُقْضَى إِلَى تَكَرُّرِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ فِي الْمَوْضِعِ الْوَاحِدِ مَرَّتَيْنِ وَإِنَّهُ قَبِيحٌ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قُلْنَا لَا يُقْضَى إِلَى ذَلِكَ فَكَانَ أَوَّلَى. الْوَجْهَ الرَّابِعُ: أَنَّ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الزِّنَا فَسَرُّوا قَوْلَهُ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ بِالرَّجْمِ وَالْجُلْدِ وَالتَّغْرِيبِ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَكُونُ عَلَيْهِنَّ لَا لَهُنَّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نَفْسَرُ ذَلِكَ بِأَنْ يُسَهِّلَ اللَّهُ لَهَا قَضَاءَ الشَّهْوَةِ بِطَرِيقِ النِّكَاحِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ قَوْلُهُ ﷺ: "إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ وَإِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ" رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ. وَاحْتَجُّوا عَلَى إِبْطَالِ كَلَامِ أَبِي مُسْلِمٍ بُجُوهُ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا قَوْلٌ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ فَكَانَ بَاطِلًا. الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّهُ رُويَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: "قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الثَّيْبُ تُرْجَمُ وَالبِكْرُ يُجْلَدُ" رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَازِلَةٌ فِي حَقِّ الزُّنَاةِ. الْوَجْهَ الثَّلَاثُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ اخْتَلَفُوا فِي أَحْكَامِ اللِّوَاطِ، وَلَمْ يَتَمَسَّكْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَعَدَمَ تَمَسُّكِهِمْ بِهَا مَعَ شِدَّةِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى نَصِّ يَدُلُّ عَلَى

هَذَا الْحُكْمِ مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَيْسَتْ فِي اللَّوَاظَةِ. وَالْجَوَابُ عَنِ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: أَنَّ هَذَا إِجْمَاعٌ مَمْنُوعٌ، فَلَقَدْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ مُجَاهِدٌ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَارِ الْمُفَسِّرِينَ؛ وَلِأَنَّ بَيْنَنَا فِي أَصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ اسْتِنْبَاطَ تَأْوِيلٍ جَدِيدٍ فِي الْآيَةِ لَمْ يَذْكُرْهُ الْمُتَقَدِّمُونَ جَائِزٌ. وَالْجَوَابُ عَنِ الْوَجْهِ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا يَفْتَضِي نَسَخَ الْقُرْآنِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ وَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ. وَالْجَوَابُ عَنِ الْوَجْهِ الثَّالِثِ: أَنَّ مَطْلُوبَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ هَلْ يُقَامُ الْحَدُّ عَلَى اللَّوْطِيِّ؟ وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِالنَّفْيِ وَلَا بِالِاثْبَاتِ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهَا. فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وَجُودٌ: أَحَدُهَا: أَيِ مِنْ زَوَّجَاتِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]. وَكَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]. وَثَانِيهَا: أَيِ مِنَ الْخَرَائِرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَالْغَرَضُ: بَيَانُ أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى الْإِمَاءِ. وَثَالِثُهَا: أَيِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ. وَرَابِعُهَا: أَيِ مِنَ النَّبِيَّاتِ دُونَ الْأُنْبَكَارِ. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾: أَيِ فَخَلِدُوهُنَّ مَحْبُوسَاتٍ فِي بُيُوتِكُمْ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا تَفَعَّ فِي الزَّنا عِنْدَ الْخُرُوجِ وَالْبُرُوزِ، فَإِذَا حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الزَّنا، وَإِذَا اسْتَمَرَّتْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ تَعَوَّدَتِ الْعَفَافَ وَالْفِرَارَ عَنِ الزَّنا. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: مَا مَعْنَى ﴿يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ وَالْمَوْتُ وَالتَّوْفِي بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَصَارَ فِي التَّقْدِيرِ: أَوْ يُمَيِّتُهُنَّ الْمَوْتُ؟ الْجَوَابُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، أَوْ حَتَّى يَأْخُذَهُنَّ الْمَوْتُ وَيَسْتَوْفِي أَرْوَاحَهُنَّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿اللَّاتِي﴾ جَمْعُ الْآتِي، وَهُوَ اسْمٌ مُبْهَمٌ لِلْمُؤَنَّثِ، وَهِيَ مَعْرِفَةٌ، وَلَا يَجُوزُ نَزْعُ الْأَلِفِ وَاللَّامِ مِنْهُ لِلتَّنْكِيرِ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِصِلَتِهِ. ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾: الْفَاحِشَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الزَّنا. وَالْفَاحِشَةُ: الْفِعْلَةُ الْفَيْحَةُ، وَهِيَ مَصْدَرٌ كَالْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ. ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: إِضَافَةٌ فِي مَعْنَى الْإِسْلَامِ وَبَيَانُ حَالِ الْمُؤْمِنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لِأَنَّ الْكَافِرَةَ قَدْ تَكُونُ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِنَسَبٍ وَلَا يَلْحَقُهَا هَذَا الْحُكْمُ. ﴿فَاسْتَشْهِدُوا

عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ: أَيُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلَ اللَّهُ الشَّهَادَةَ عَلَى الزَّانَا خَاصَّةً أَرْبَعَةً؛ تَغْلِيظًا عَلَى الْمُدْعَى؛ وَسِتْرًا عَلَى الْعِبَادِ. وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشُّهُودُ ذُكُورًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ﴾، وَلَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ. وَأَنْ يَكُونُوا عُدُولًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ شَرَطَ الْعَدَالَهَ فِي الْبُيُوتِ وَالرَّجْعَةِ وَهَذَا أَعْظَمُ، وَهُوَ بِذَلِكَ أَوَّلَى. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾: هَذِهِ أَوَّلُ عُقُوبَاتِ الزَّانَا، وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، قَالَهُ عِبَادَةُ بَنُ الصَّامِتِ، وَالْحَسَنُ، وَمُجَاهِدٌ حَتَّى نُسَخَ بِالْأَدَى الَّذِي بَعْدَهُ، ثُمَّ نُسَخَ ذَلِكَ بِآيَةِ (النُّورِ) وَبِالرَّجْمِ فِي النَّبِيِّ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ كَانَ الْإِيذَاءُ هُوَ الْأَوَّلُ، ثُمَّ نُسَخَ بِالْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ، وَلَكِنَّ التَّلَاوَةَ أُحْرِثَتْ وَقُدِّمَتْ، ذَكَرَهُ ابْنُ فُورَكَ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةُ﴾: أَيُّ يَجْنُنَ وَيَعْشَيْنَ. وَأُطْلِقَ عَلَى الزَّانَا اسْمُ الْفَاحِشَةِ؛ لِزِيَادَتِهَا فِي الْقُبْحِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِحِ. قِيلَ: فَإِنْ قِيلَ: الْقَتْلُ وَالْكُفْرُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّانَا، قِيلَ: الْقَوَى الْمَدْبُورَةُ لِلْبَدَنِ ثَلَاثُ: النَّاطِقَةُ، وَفَسَادُهَا بِالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَشُبْهَيْهِمَا. وَالْعَضْبِيَّةُ، وَفَسَادُهَا بِالْقَتْلِ وَالْعَضْبِ وَشُبْهَيْهِمَا. وَشَهْوَانِيَّةٌ، وَفَسَادُهَا بِالزَّانَا وَاللَّوْاطِ وَالسَّحْرِ، وَهِيَ أَحْسَنُ هَذِهِ الْقَوَى، فَفَسَادُهَا أَحْسَنُ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ، فَلِهَذَا حَصَّ هَذَا الْعَمَلُ بِالْفَاحِشَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ، وَاحْتَارَهُ أَبُو مُسْلِمٍ بَنُ بَحْرٍ الْأَصْبَهَانِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي النَّسَاءِ. وَالْمَرَادُ بِالْفَاحِشَةِ هُنَا: الْمَسَاحَقَةُ، جَعَلَ حَدَّهِنَّ الْحَبْسَ إِلَى أَنْ يَمُتْنَ أَوْ يَتَزَوَّجْنَ. قَالَ: وَنَزَلَتْ ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ فِي أَهْلِ اللَّوْاطِ. وَالَّتِي فِي النَّوْرِ: فِي الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي، وَخَالَفَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ. وَالْمُخَاطَبُ بِهَذَا الْأَمْرِ: أَهْلُ الْأَزْوَاجِ أَمَرُوا بِذَلِكَ إِذَا بَدَتْ مِنَ الزَّوْجَةِ فَاحِشَةُ الزَّانَا عُقُوبَةً هُنَّ وَكَانَتْ مِنْ جِنْسِ جَرِمَتِهِنَّ؟ أَمْ الْأَوْلِيَاءُ إِذَا بَدَتْ مِمَّنْ لَمْ عَلَيْهِنَّ وَلَايَةٌ وَنَظَرٌ يُحْبَسْنَ حَتَّى يَمُتْنَ؟ أَوْ أُولُو الْأَمْرِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْقُضَاةِ؛ إِذْ هُمْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْحُدُودَ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَوَاحِشِ؟ أَقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْإِمْسَاكَ فِي الْبُيُوتِ إِلَى الْغَايَةِ الْمَذْكُورَةِ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْحَدِّ هُنَّ، وَأَنَّ حَدَّهُنَّ كَانَ ذَلِكَ حَتَّى نُسَخَ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ. وَالْحَبْسُ فِي الْبَيْتِ آلَمٌ وَأَوْجَعُ مِنَ الضَّرْبِ وَالْإِهَانَةِ، لَا سِيَّمَا إِذَا انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَخْذُ الْمَهْرِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ؛ لِأَنَّ آلَمَ الْحَبْسِ

مُسْتَمِرٌّ، وَأَلَمَ الضَّرْبُ يَذْهَبُ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مُنْعَنَ مِنَ النِّكَاحِ حَتَّى يَمُتَ؛ عُقُوبَةً لَهُنَّ حِينَ طَلَبْنَ النِّكَاحَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ. وَقَالَ قَوْمٌ: لَيْسَ بِحَدِّ بَلٍّ هُوَ إِمْسَاكُ هُنَّ بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَهُنَّ الْإِمَامُ؛ صِيَانَةً لَهُنَّ أَنْ يَقَعْنَ فِي مِثْلِ مَا جَرَى لَهُنَّ بِسَبَبِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبُيُوتِ، وَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ الْإِمْسَاكُ حَدًّا. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: إِذَا كَانَ (يَتَوَفَّى) بِمَعْنَى: يُمِيتُ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى بِالتَّوَفَّى: الْأَخْذَ، فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى حَذْفِ مُضَافٍ؛ إِذْ يَصِيرُ التَّقْدِيرُ: حَتَّى يَأْخُذَهُنَّ الْمَوْتُ. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: السَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُنَّ مَبْنًى عَلَى الْإِخْتِلَافِ الْمُرَادِ بِالْآيَةِ. فَقِيلَ: هُوَ النِّكَاحُ الْمُحْصَنُ لَهُنَّ الْمَعْنَى عَنِ السَّفَاحِ، وَهَذَا عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّ الْخِطَابَ لِلْأَوْلِيَاءِ أَوْ لِلْأَمْرَاءِ أَوْ الْقُضَاةِ، دُونَ الْأَزْوَاجِ. وَقِيلَ: السَّبِيلُ: هُوَ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ حُكْمُ الزَّنا مِنَ الْحَدِّ، وَهُوَ (الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالتَّيِّبُ بِالتَّيِّبِ) رَمَى بِالْحِجَارَةِ. وَثَبَتَ تَفْسِيرُ السَّبِيلِ بِهَذَا مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ. وَحَدِيثُ عُبَادَةَ لَيْسَ بِنَاسِخٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا لِأَنَّهُ الْجُلْدُ، بَلْ هُوَ مُبَيَّنٌ لِمُجْمَلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ إِذْ غَيَّرَ إِمْسَاكُهُنَّ فِي الْبُيُوتِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُنَّ سَبِيلًا، وَهُوَ مُخَصَّصٌ لِعُمُومِ آيَةِ الْجُلْدِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: الْفَاحِشَةُ: الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ أُريدَ بِهَا الزَّنا لِزِيَادَةِ قُبْحِهِ. وَالْإِثْنَانُ: الْفِعْلُ وَالْمُبَاشَرَةُ، يُقَالُ: أَتَى الْفَاحِشَةَ، أَيِ فَعَلَهَا وَبَاشَرَهَا وَكَذَا جَاءَهَا وَرَهَقَهَا وَغَشِيَهَا. ﴿يَأْتَيْنَ﴾: أَيِ يَفْعَلَنَّ الزَّنا كَائِنَاتٍ مِنْ نِسَائِكُمْ، أَيِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وَبِهِ قَالَ السُّدِّيُّ. ﴿فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾: حَبْرٌ لِلْمَوْصُولِ، وَ(الْفَاءُ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى سَبَبِيَّةِ مَا فِي حَبْرِ الصَّلَةِ لِلْحُكْمِ، أَيِ فَاطْلُبُوا أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْهِنَّ بِأَتْيَانِهَا أَرْبَعَةٌ مِنْ رِجَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَخْرَارِهِمْ. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾: عَلَيْهِنَّ بِذَلِكَ. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾: أَيِ فَاحْبِسُوهُنَّ فِيهَا وَاجْعَلُوها سِجْنًا عَلَيْهِنَّ. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ﴾: أَيِ إِلَى أَنْ يَسْتَوَفِّيَ أَزْوَاجَهُنَّ. ﴿الْمَوْتُ﴾: فِيهِ تَهْوِيلٌ لِلْمَوْتِ وَإِبْرَازٌ لَهُ

في صُورَةٍ مَنْ يَتَوَلَّى قَبْضَ الْأَرْوَاحِ وَتَوَفِّيَهَا أَوْ يَتَوَفَّاهُنَّ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ. ﴿أَوْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: أي يَشْرَعَ لَهُنَّ حُكْمًا خَاصًّا بِهِنَّ، وَلَعَلَّ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِالسَّبِيلِ؛ لِلإِذَانِ بِكَوْنِهِ طَرِيقًا مَسْلُوكًا، فَلَيْسَ فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى كَوْنِهِ أَحَفَّ مِنَ الْحَبْسِ كَمَا قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ. وقال العثيمين: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾: ﴿وَاللَّاتِي﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿فَاسْتَشْهَدُوا﴾. وقد اقترنت (الفاء) بخبر المبتدأ؛ لأنه لما كان المبتدأ اسمًا موصولًا كان مشبها لاسم الشرط في العموم، فأعطي حكمه واقترنت (الفاء) بخبره، ومنه قول النحويين في المثال المشهور: "الذي يأتيه درهم"، فإنه نائب مناب قولك: "من يأتيه درهم"، فالاسم الموصول لما أشبه الشرط في العموم، صار دخول (الفاء) في خبره كدخول (الفاء) في جواب الشرط. وقوله: ﴿وَاللَّاتِي﴾: جمع التي، لكنّه على غير القياس؛ لأن هذه الأسماء غير مشتقة. وقوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾: الفاحشة: ما يستفحش شرعًا وعرفًا، والذي يستفحش شرعًا يستفحش عرفًا، أي في أعراف المسلمين، لا في أعراف غير المسلمين، وإنما قيّدنا بذلك؛ لأن الزنا فاحش شرعًا، وفاحش عرفًا في عرف المسلمين، لكنّه في عرف الكفار ليس بفاحش، ومن هنا نعرف أنّ قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: "الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" رواه مسلم، أنّ هذا خاصّ بالمسلم الذي يكره الإثم ويخشى أن يطلع عليه الناس في حال إثمه، وإلا فإنّ الكافر لا يحوك في نفسه الإثم. والمراد بالفاحشة هنا: الزنا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وعلى هذا فتكون "أل" للعهد الذهني؛ لأنه لم يذكر، لكنّه معروف شرعًا، وإنما قرّرنا ذلك لردّ قول من يقول - كأبي مسلم الخراساني -: إنّ المراد بها: السّحاق بين النساء. وهذا بعيد عن الصواب، ولم يذهب إليه أحد من الصحابة والتابعين فيما نعلم، والصواب: أنّ المراد بها الزنا. وقوله: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: المراد به الجنس، أي من جنس النساء، سواء كانت من الزوجات أو من غير الزوجات. ﴿وَمِنْ﴾: وقوله: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ بيان للموصول في قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾. وقوله

تعالى: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾: أي اطلبوا شهادة أربعة. وقوله: ﴿أَرْبَعَةً﴾ عدد يدل على أن المعداد مذكّر؛ لأن العدد المؤنث يكون معدوده مذكراً فيما دون العشرة، فنقول: تسعة رجال، وتسع نساء. وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾: الخطاب للمسلمين؛ لأن من شرط الشهادة: أن يكون الشاهد مسلماً. وقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾: أي على فعل الفاحشة. ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ﴾: الخطاب هنا عام، والذي يقصد به ولي الأمر؛ إما الخاص، وإما العام. ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾: أي أمسكوها في بيئتها واحبسوها حتى لا تخرج؛ لأن ذلك وسيلة إلى تقليل الزنا، حيث تبقى محبوسة في بيئتها ولا تخرج فتفتن الناس وتفتن. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾: أي حتى يقبضهن، يقال: توفيت حقي من فلان، أي قبضته. ﴿الْمَوْتُ﴾: أي ملك الموت، ولكن قد يعبر عن ذلك بالموت توسعاً. والموت: هو فقد الحياة، وذلك بخروج الروح من البدن؛ لأن الروح في البدن عارية، متى دعيت خرجت. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، و﴿يَجْعَلَ﴾ معطوفة على (يتوفى) فهي منصوبة، والمعنى: أو يُصَيِّرَ لَهُنَّ سَبِيلًا، أي طريقاً للخلاص من هذا الإمساك، وقد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] قال النبي ﷺ: "خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم" رواه مسلم، فتبين بهذا أنّ المراد بالسبيل هنا: هو ما شرعه الله من حدّ الزاني جلداً وتغريباً، أو جلداً ورجماً.

• قال الله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (١٦):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لَمَّا ذَكَرَ أَمْرَ النِّسَاءِ أَتْبَعَهُ حُكْمَ الرِّجَالِ عَلَى وَجْهِ يَعْزُمُ النِّسَاءَ أَيْضًا، فَقَالَ: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا..﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾: قال الماوردي: في الأذى المأمور به ثلاثة أقاويل: أحدها: التعيير والتوبيخ باللسان، وهو قول قتادة، والسدي، ومجاهد. الثاني: أنه التعيير باللسان، والضرب بالتعال. الثالث: أنه مجمل أخذ تفسيره في البكر من آية النور، وفي الثيب من السنة. فإن قيل: كيف جاء ترتيب الأذى بعد الحبس؟ ففيه جوابان: أحدهما: أن هذه الآية نزلت قبل الأولى، ثم أمر أن توضع في التلاوة بعدها، فكان الأذى أولاً، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم، وهذا قول الحسن. الثاني: أن الأذى في البكرين خاصة، والحبس في الثيبين، وهذا قول السدي. ثم اختلف في نسخها على حسب الاختلاف في إجمالها وتفسيرها. ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عَنْهُمَا﴾: يعني تابا من الفاحشة وأصلحا دينهما، فأعرضوا عَنْهُمَا بالصفح والكف عن الأذى. وقال السمعاني: اختلفوا في المراد من الآيتين، قال مجاهد: الآية الأولى في النساء، وهذه الآية في الرجال إذا زنوا. وقال غيره: الأولى في الثيب، وهذه الآية في الأبكار. وفيه قول ثالث: أن الآية الأولى في المرأة إذا أتت المرأة سحفاً، والآية الثانية في الرجل إذا أتى الرجل. ﴿فأذوها﴾: إن قيل: ذكر الحبس في الآية الأولى، والإيذاء في الآية الثانية، فكيف وجه الجمع؟ قيل: أما على قول من قال: إن الآية الأولى في صنف، والآية الثانية في صنف آخر، يستقيم الكلام. وقال بعضهم: أراد به: الجمع بين الإيذاء والحبس في حق الزاني فيؤذى أولاً، ثم يحبس، والآية الثانية وإن كانت في التلاوة متأخرة، فهي في المعنى متقدمة، كأنه قال: (واللذان يأتيانها منكم فأذوها وأمسكوها في البيت). وقال الرازي: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾: الذين قالوا: إن الآية الأولى في الزناة قالوا: هذه الآية أيضاً في الزناة، فعند هذا اختلفوا في أنه ما السبب في هذا التكرير وما الفائدة فيه؟ وذكرنا فيه وجوهاً: الأول: أن المراد من قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: الزواني، والمراد من قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾: الزناة، ثم إنه تعالى حصَّ الحبس في البيت بالمرأة وحصَّ الإيذاء بالرجل،

والسَّبَبُ فِيهِ: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الزَّنا عِنْدَ الْخُرُوجِ وَالْبُرُوزِ، فَإِذَا حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ انْقَطَعَتْ مَادَّةُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَبْسُهُ فِي الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهُ يَخْتِاجُ إِلَى الْخُرُوجِ فِي إِصْلَاحِ مَعَاشِهِ وَتَرْتِيبِ مُهِمَّاتِهِ وَاكْتِسَابِ قُوتِ عِيَالِهِ، فَلَا جَرَمَ جُعِلَتْ عُقُوبَةُ الْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ الْحَبْسُ فِي الْبَيْتِ، وَجُعِلَتْ عُقُوبَةُ الرَّجُلِ الزَّانِي أَنْ يُؤْذَى، فَإِذَا تَابَ تَرَكَ إِبْدَاؤَهُ. وَيُحْتَمَلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْإِيذَاءَ كَانَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالْحَبْسُ كَانَ مِنْ حَوَاصِ الْمَرْأَةِ، فَإِذَا تَابَا أُزِيلَ الْإِيذَاءُ عَنْهُمَا وَبَقِيَ الْحَبْسُ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَهَذَا أَحْسَنُ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ. الثَّانِي: قَالَ السُّدِّيُّ: الْمَرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: الْبِكْرُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَبِالْآيَةِ الْأُولَى: النَّيِّبُ، وَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ. قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، فَأَضَافَهُنَّ إِلَى الْأَزْوَاجِ. الثَّانِي: أَنَّهُ سَمَّاهُنَّ نِسَاءً وَهَذَا الْإِسْمُ أَلْيَقُ بِالنَّيِّبِ. الثَّلَاثُ: أَنَّ الْأَذَى أَحْفُ مِنَ الْحَبْسِ فِي الْبَيْتِ وَالْأَحْفُ لِلْبِكْرِ دُونَ النَّيِّبِ. الرَّابِعُ: قَالَ الْحَسَنُ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ فَادَّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا)، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾، يَعْنِي إِنْ لَمْ يَتُوبَا وَأَصْرًا عَلَى هَذَا الْفِعْلِ الْقَبِيحِ، فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكُمْ أَحْوَاهُنَّ، وَهَذَا الْقَوْلُ عِنْدِي فِي غَايَةِ الْبُعْدِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ فَسَادَ التَّرْتِيبِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ. الْخَامِسُ: مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ: أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى فِي السَّحَاقَاتِ، وَهَذِهِ فِي أَهْلِ اللَّوَاطِ. السَّادِسُ: أَنَّ يَكُونَ الْمَرَادُ: هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ عَلَى الزَّنا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونُوا أَرْبَعَةً، فَبَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا شَاهِدَيْنِ، فَادَّوهُمَا وَخَوَّفُوهُمَا بِالرَّفْعِ إِلَى الْإِمَامِ وَالْحَدِّ، فَإِنْ تَابَا قَبْلَ الرَّفْعِ إِلَى الْإِمَامِ فَاتْرَكُوهُمَا. ﴿فَادَّوهُمَا﴾: اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْإِيذَاءِ مِنَ الْإِيذَاءِ بِاللِّسَانِ وَهُوَ التَّوْبِيخُ وَالتَّعْيِيرُ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ: بِئْسَ مَا فَعَلْتُمَا، وَقَدْ تَعَرَّضْتُمَا لِعِقَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، وَأَخْرَجْتُمَا أَنْفُسَكُمَا عَنْ اسْمِ الْعَدَالَةِ، وَأَبْطَلْتُمَا عَنْ أَنْفُسِكُمَا أَهْلِيَّةَ الشَّهَادَةِ. وَاحْتَخَفُوا فِي أَنَّهُ هَلْ يَدْخُلُ فِيهِ الضَّرْبُ؟ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ يُضْرَبُ بِالنَّعَالِ،

والأوّل أولى؛ لأنّ مدلول النصّ إنّما هو الإيذاء، وذلك حاصلٌ مُجَرَّدُ الإيذاءِ باللسانِ، ولا يكونُ في النصّ دلالةٌ على الضربِ فلا يجوزُ المصيرُ إليه. ﴿فَإِنْ تَابَا وَأُصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ يعني فارتكبا إيذاءهما. وقال أبو حيان: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهما﴾: قولُ مجاهدٍ، واختيارُ أبي مُسلمٍ: أنّها في اللّوَاطَةِ، ويُؤَيِّدُهُ ظاهِرُ التَّشْنِيَةِ. وظاهرُ قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ إذ ذلك في الحقيقة هو للذكور. والجمهورُ على أنّها في الزّناةِ الذّكورِ والإناثِ. و﴿اللَّذَانِ﴾: أريدَ به الزّاني والزّانية، وعَلَبَ المَذَكَّرُ عَلَى الْمُؤَنَّثِ، وَتَرَتَّبَ الْأَذَى عَلَى إِيثَانِ الْفَاحِشَةِ وهو مُقَيَّدٌ بِالشَّهَادَةِ عَلَى إِيثَانِهَا. وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَهُوَ شَهَادَةُ أَرْبَعَةٍ. وَالْأَمْرُ بِالْأَذَى بَدَلٌ عَلَى مُطْلَقِ الْأَذَى بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ بِهَمَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ النَّيْلُ بِاللِّسَانِ وَالْيَدِ، وَضَرْبُ النَّعَالِ وَمَا أَشْبَهَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ التَّعْيِيرُ وَالتَّوْبِيخُ. وَقَالَ قَوْمٌ: بِالْفِعْلِ دُونَ الْقَوْلِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ السَّبُّ وَالْجَفَا دُونَ تَعْيِيرٍ. وَقِيلَ: الْأَذَى الْمَأْمُورُ بِهِ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ: الْجُلْدِ وَالرَّجْمِ، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ، وَفَعَلَهُ فِي الْهَمْدَانِيَّةِ: جَلَدَهَا ثُمَّ رَجَمَهَا. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا﴾ الْعُمُومُ. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: هِيَ فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ الْبَكْرَيْنِ، وَأَمَّا الْأُولَى فَفِي النِّسَاءِ الْمَرْجُوحَاتِ، وَيَدْخُلُ مَعَهُنَّ فِي ذَلِكَ مَنْ أُخْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ بِالْمَعْنَى. وَرَجَّحَ هَذَا الْقَوْلَ الطَّبْرِيُّ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَنْسُوحَتَانِ بِآيَةِ الْجُلْدِ، إِلَّا فِي تَفْسِيرِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَذَى فَلَا نَسْخَ، وَإِلَّا فِي قَوْلٍ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَذَى بِالتَّعْيِيرِ مَعَ الْجُلْدِ بَاقٍ فَلَا نَسْخَ عِنْدَهُ؛ إِذْ لَا تَعَارُضَ، بَلْ يُجْمَعَانِ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ. وَإِذَا حُمِلَتِ الْآيَتَانِ عَلَى الزَّنا تَكُونُ الْأُولَى قَدْ دَلَّتْ عَلَى حَبْسِ الزَّوَانِي، وَالثَّانِيَةُ عَلَى إِيْذَانِهَا وَإِيْذَائِهِ، فَيَكُونُ الْإِيْذَاءُ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا، وَالْحَبْسُ مُخْتَصٌّ بِالْمَرْأَةِ فَيُجْمَعُ عَلَيْهَا الْحَبْسُ وَالْإِيْذَاءُ، هَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ. وَقِيلَ: جُعِلَتْ عُقُوبَةُ الْمَرْأَةِ الْحَبْسَ؛ لِتَنْقُطَعَ مَادَّةُ هَذِهِ الْمُعْصِيَةِ، وَعُقُوبَةُ الرَّجُلِ الْإِيْذَاءُ، وَلَمْ يُجْعَلِ الْحَبْسُ؛ لِإِخْتِيَاجِهِ إِلَى الْبُرُوزِ وَالْإِكْتِسَابِ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ قَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ: مِنْ أَنَّ الْأُولَى فِي النَّسَبِ، وَالثَّانِيَةُ فِي الْبِكْرِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَقَدْ اخْتَلَفَ مُتَعَلِّقُ الْعُقُوبَتَيْنِ، فَلَيْسَ

الإيذاء مُشْتَرَكًا. وَذَهَبَ الْحَسَنُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾: يَعْنِي إِنْ لَمْ يَتُبْنَ وَأَصْرَرْنَ فَأَمْسِكُوهُنَّ إِلَى إِيضَاحِ حَالِهِنَّ، وَهَذَا قَوْلٌ يُوجِبُ فُسَادَ التَّرْتِيبِ، فَهُوَ بَعِيدٌ. وَعَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ يَظْهَرُ لِلتَّكَرُّرِ فَوَائِدُ. وَعَلَى قَوْلِ قَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ لَا تَكَرُّرَ، وَكَذَلِكَ لَا تَكَرُّرَ عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَأَبِي مُسْلِمٍ. وَقَالَ الْعَثِمِيُّ: ﴿وَاللَّذَانِ﴾ فِي مُقَابِلِ ﴿وَاللَّائِي﴾، وَتَكُونُ ﴿وَاللَّذَانِ﴾ لِلذَّكُورِ، وَلَكِنْ الْمُقَابِلَةُ لَيْسَتْ بِتَامَةٍ، فَهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّذَانِ﴾، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّائِي﴾. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِ﴿وَاللَّذَانِ﴾ هُنَا: الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ، وَلَكِنْ الزَّانِيَةُ سَبَقَ حُكْمُهَا، وَهُوَ أَنَّهَا تَحْبَسُ فِي الْبَيْتِ، وَالزَّانِي يُؤْذَى وَلَا يُحْبَسُ فِي الْبَيْتِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِهُمَا: اللَّوْطِيَّانِ، أَيْ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ، وَأَضَافَ الْإِيتْيَانِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ أَنَّهُ مَأْتِي؛ لِأَنَّ الْقَابِلَ الرَّاضِيَ كَالْفَاعِلِ؛ وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ" أَخْرَجَهُ الْخَمْسَةُ إِلَّا النَّسَائِيَّ، وَقَالَ الْأُبَايُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَالصَّحِيحُ: ﴿وَاللَّذَانِ﴾ هُنَا يَرَادُ بِهِمَا: اللَّائِطَانِ، أَيْ الرَّجُلُ الَّذِي يَلُوطُ بِآخَرٍ. وَلَكِنْ لِمَاذَا عَبَّرَ فِي حَقِّ النِّسَاءِ بِ﴿وَاللَّائِي﴾، وَفِي حَقِّ الذَّكُورِ بِ﴿وَاللَّذَانِ﴾؟ وَالْجَوَابُ: لِأَنَّ فَشَوَ الزَّانَا فِي النِّسَاءِ أَكْثَرَ مِنْ فَشَوِ اللَّوْطِ فِي الذَّكُورِ، وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَعْرِفُونَ اللَّوْطَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَصَّ عَلَيْنَا مَا قَصَّ مِنْ نَبَأِ قَوْمِ لُوطٍ، لَمَا كُنَّا نَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذَا يَقَعُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ رَجُلًا يَرْضَى أَنْ يُفْعَلَ بِهِ كَمَا يَفْعَلُ بِالْمَرْأَةِ! هَذَا شَيْءٌ مُسْتَحِيلٌ فَطَرَةً، وَمُسْتَحِيلٌ شَرْعًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾: الضَّمِيرُ فِي ﴿يَأْتِيَانَهَا﴾ يَعُودُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَفَاحِشَةُ الرِّجَالِ هِيَ اللَّوْطُ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ فَاحِشَةِ الزَّانَا؛ وَالْدَّلِيلُ عَلَى عَظَمَتِهَا: أَنَّ لُوطًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وَفِي الزَّانَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢]، أَيْ مِنَ الْفَوَاحِشِ، أَمَّا اللَّوْطُ فَقَالَ عَنْهُ: الْفَاحِشَةُ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَفْحِشَةٌ فِي عَقْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ، ثُمَّ إِنَّ الزَّانَا جَنَسَهُ مِمَّا يَبَاحُ بِالْعَقْدِ، وَاللَّوْطُ لَا يَبَاحُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، لَا بِعَقْدٍ وَلَا بِغَيْرِهِ، فَكَانَ أَفْحَشَ. وَقَوْلُهُ:

﴿فَادْهُمَا﴾: أي بالسبِّ، والتعير، والضرب، والإعراض على سبيل التعزير، والهجر، وما أشبه ذلك مما يتأذيان به. وقوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: أي إن تابا مما وقع منهما، وأصلحا عملهما في المستقبل، فأعرضوا عنهما؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيعرض عنه؛ لأن السبب ما دام موجودًا، فإن المسبب يتبعه، فإذا زال السبب زال المسبب. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾: توابًا: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة توبته وكثرة من يتوب عليهم، فالذين يتوب الله عليهم لا يحصون. وتوبة الله على العبد نوعان: توبة قبل فعل التوبة، وتوبة بعدها، فالتوبة التي قبل فعل التوبة معناها: التوفيق للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، والتوبة التي بعد التوبة هي: قبول التوبة، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، والله تَوَّابٌ بهذا المعنى وبهذا المعنى، فهو تواب: أي مهيبٌ للتوبة لمن شاء من عباده. وتواب: أي قابلٌ للتوبة. ﴿رَحِيمًا﴾: أي ذو رحمة يوصلها إلى من شاء من عباده.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)﴾:

• مناسبة الآية لما قبلها:

قال الرازي: اعلم أنه الله لما ذكر في الآية الأولى أَنَّ الْمُتَكِبِينَ لِلْفَاحِشَةِ إِذَا تَابَا وَأَصْلَحَا زَالَ الْأَذَى عَنْهُمَا، وَأُخْبِرَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَيْضًا أَنَّهُ تَوَّابٌ رَحِيمٌ، ذَكَرَ وَقْتُ التَّوْبَةِ وَشَرْطَهَا، وَرَغَبَهُمْ فِي تَعَجِيلِهَا؛ لِئَلَّا يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ مُصِرُّونَ فَلَا تَنْفَعُهُمُ التَّوْبَةُ. وقال الألوسي: لَمَّا وَصَفَ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِالتَّوَّابِ الرَّحِيمِ عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانِ شَرْطِ قَبُولِ التَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ...﴾.

• تفسير الآية: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: قال البغوي: قَالَ الْحَسَنُ: يَعْنِي التَّوْبَةُ الَّتِي يَقْبَلُهَا، فَيَكُونُ ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: أَي عِنْدَ اللَّهِ. وَقِيلَ: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: أَي مِنْ اللَّهِ. وقال ابن عطية:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ حاصِرَةٌ، وهو مَقْصِدُ الْمَتَكَلِّمِ بِهَا أَبَدًا، فَقَدْ تُصَادِفُ مِنَ الْمَعْنَى مَا يَفْتَضِي الْعَقْلُ فِيهِ الْحَصْرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وَقَدْ تُصَادِفُ مِنَ الْمَعْنَى مَا لَا يَفْتَضِي الْعَقْلُ فِيهِ الْحَصْرُ، كَقَوْلِهِ: (إِنَّمَا الشُّجَاعُ عَتَرُهُ)، فَيَبْقَى الْحَصْرُ فِي مَقْصِدِ الْمَادِحِ، وَيَتَحَصَّلُ مِنْ ذَلِكَ لِكُلِّ سَامِعٍ تَحْقِيقُ هَذِهِ الصِّفَةِ لِلْمَوْصُوفِ بِمُبَالَغَةٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ بِمَا يُوجِبُ النَّظَرَ فِيهَا أَهْمًا حَاصِرَةً لِلتَّوْبَةِ. وَالتَّوْبَةُ فِي عَرَفِ الشَّرْعِ: الرُّجُوعُ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ. وَحَدُّ التَّوْبَةِ: النَّدَمُ عَلَى فَارِطٍ فِعْلٍ، مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْصِيَةُ اللَّهِ. وَالتَّوْبَةُ فَرَضٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ. وَالْإِجْمَاعُ هِيَ الْقَرِينَةُ الَّتِي حُمِلَ بِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١] عَلَى الْوُجُوبِ. وَتَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهِ. وَتَصِحُّ التَّوْبَةُ وَإِنْ نَقَضَهَا النَّائِبُ فِي ثَانِي حَالٍ بِمُعَاوَدَةِ الذَّنْبِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْأُولَى طَاعَةٌ قَدْ انْقَضَتْ وَصَحَّتْ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ بَعْدَ مُوَاقَعَةِ الذَّنْبِ إِلَى تَوْبَةٍ أُخْرَى مُسْتَأْنَفَةٍ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾: السُّوءُ يَعْمُ الْكُفْرَ، وَالْمَعَاصِي غَيْرُهُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ تَسْوَةٌ عَاقِبَتُهُ. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: قَالَ عِكْرِمَةُ: أُمُورُ الدُّنْيَا كُلُّهَا جَهَالَةٌ، يَعْنِي مَا اخْتَصَّ بِهَا وَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: جَهَالَتُهُ مِنْ حَيْثُ آثَرَ اللَّذَّةَ الْفَانِيَّةَ عَلَى اللَّذَّةِ الْبَاقِيَّةِ، وَالْحِظَّ الْعَاجِلَ عَلَى الْآجِلِ. وَقِيلَ: الْجَهَالَةُ الْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَعَلَهُ غَيْرَ مُصَرٍّ عَلَيْهِ، فَأَشْبَهَ الْجَاهِلَ الَّذِي لَا يَتَعَمَّدُ الشَّيْءَ. وَقَالَ الرَّزْمِيُّ: جَهْلُ الْفِعْلِ: الْوُقُوعُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَيَكُونُ الْمَرَادُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَنِ الْخَطَا، وَيُحْتَمَلُ قَصْدُ الْفِعْلِ وَالْجَهْلُ بِمَوْقِعِهِ، أَيْ أَنَّهُ حَرَامٌ، أَوْ فِي الْحَرَمَةِ أَيْ قَدَرٍ هِيَ فَيَرْتَكِبُهُ مَعَ الْجَهَالَةِ بِحَالِهِ، لَا قَصْدَ الْإِسْتِخْفَافِ بِهِ وَالتَّهَاقُوتِ بِهِ. وَالْعَمَلُ بِالْجَهَالَةِ قَدْ يَكُونُ عَنْ غَلَبَةِ شَهْوَةٍ، فَيَعْمَلُ لِعَرَضٍ اقْتِضَاءِ الشَّهْوَةِ عَلَى طَمَعٍ أَنَّهُ سَيَتُوبُ مِنْ بَعْدٍ وَيَصِيرُ صَالِحًا، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى طَمَعِ الْمَغْفِرَةِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ. وَقَدْ تَكُونُ الْجَهَالَةُ جَهَالَةً عُقُوبَةً عَلَيْهِ. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: أَيْ مِنْ زَمَانٍ قَرِيبٍ. وَالْقُرْبُ هُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى زَمَانِ الْمَعْصِيَةِ، وَهِيَ

بَقِيَّةُ مُدَّةِ حَيَاتِهِ إِلَى أَنْ يُعْرَغَرَ، أَوْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى زَمَانِ مُفَارَقَةِ الرُّوحِ. فَإِذَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ تُقْبَلُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فَقَبُولُهَا قَبْلَهُ أَجْدَرُ، وَقَدْ بَيَّنَّ غَايَةَ مَنَعِ قَبُولِ التَّوْبَةِ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا بِحُضُورِ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَيُّ قَبَلٍ أَنْ يُحِيطَ الشُّوءُ بِحَسَنَاتِهِ، أَيُّ قَبَلٍ أَنْ تَكْثُرَ سَيِّئَاتُهُ وَتَزِيدَ عَلَى حَسَنَاتِهِ، فَيَبْقَى كَأَنَّهُ بِلاَ حَسَنَاتٍ. وَقِيلَ: أَيُّ قَبَلٍ أَنْ تَتْرَاكُمُ ظُلُمَاتُ قَلْبِهِ بِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ الْمَحِيطِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَأَبُو مَخْلَزٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَيُّ قَبَلٍ الْمَعَايِنَةُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالسَّوْقِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالشُّدِّيُّ: أَيُّ قَبَلِ الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ. فَذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَحْسَنَ أَوْقَاتِ التَّوْبَةِ، وَذَكَرَ مَنْ قَبْلَهُ آخَرَ وَقْتِهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَيُّ قَبَلٍ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ سُلْطَانُ الْمَوْتِ. قِيلَ: وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُدَّةُ قَرِيبَةً؛ لِأَنَّ الْأَجَلَ آتٍ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ؛ وَتَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ مُدَّةَ عُمُرِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ طَالَتْ فَهِيَ قَلِيلَةٌ قَرِيبَةٌ؛ وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَوَقَّعُ كُلَّ لَحْظَةٍ نُزُولَ الْمَوْتِ بِهِ، وَمَا هَذِهِ حَالُهُ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِالْقُرْبِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مَسْهُوقٌ لِيَبَانَ أَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ مِنَ اللَّهِ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، كَمَا يُنْبِئُ عَنْهُ وَصْفُهُ تَعَالَى بِكَوْنِهِ تَوَّابًا رَحِيمًا، بَلْ هُوَ مُقَيَّدٌ بِمَا سَيَنْطِقُ بِهِ النَّصُّ الْكَرِيمُ. وَمَعْنَى كَوْنِ التَّوْبَةِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ: أَيُّ صُدُورِ الْقَبُولِ عَنْهُ تَعَالَى. وَكَلِمَةُ ﴿عَلَى﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّحَقُّقِ الْبَتِّ بِحُكْمِ جَرَيِ الْعَادَةِ وَسَبْقِ الْوَعْدِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا مُرَادُ مَنْ قَالَ: كَلِمَةُ ﴿عَلَى﴾ بِمَعْنَى (مِنْ). وَقِيلَ: هِيَ بِمَعْنَى (عِنْدَ)، وَعَنِ الْحَسَنِ يَعْنِي: التَّوْبَةُ الَّتِي يَقْبُلُهَا اللَّهُ. وَقِيلَ: هِيَ التَّوْبَةُ الَّتِي أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ بِفَضْلِهِ قَبُولَهَا، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ صِفَةٌ لِلتَّوْبَةِ بِتَقْدِيرِ مُتَعَلِّقِهِ مَعْرِفَةً عَلَى رَأْيٍ مَنْ جَوَّزَ حَذْفَ الْمُضَوَّلِ مَعَ بَعْضِ صَلَاتِهِ، أَيُّ إِنَّمَا التَّوْبَةُ الْكَائِنَةُ عَلَى اللَّهِ. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ﴾: الْمُرَادُ بِالشُّوءِ هُنَا: الْمُعْصِيَةُ صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: ﴿التَّوْبَةُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ﴾ حَبْرَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الْحَبْرُ مِنَ الْإِسْتِقْرَارِ، وَمَعْنَى كَوْنِ التَّوْبَةِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ: صُدُورُ الْقَبُولِ عَنْهُ تَعَالَى،

وَكَلِمَةُ ﴿عَلَى﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّحْقُقِ الْبَتِّ بِحُكْمِ سَبْقِ الْوَعْدِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ عَلَيْهِ
سُبْحَانَهُ. والمرادُ بِالسُّوءِ: الْمُعْصِيَةُ، صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ حَالًا
مِنْ فَاعِلٍ ﴿يَعْمَلُونَ﴾: أَيِ مُتَلَبِّسِينَ بِهَا، أَيْ جَاهِلِينَ سُفَهَاءَ، أَوْ بِ﴿يَعْمَلُونَ﴾: عَلَى أَنَّ
(الباءَ) سَبَبِيَّةٌ، أَيْ يَعْمَلُونَهُ بِسَبَبِ الْجَهَالَةِ، والمرادُ بِالْجَهْلِ: السَّفَهُ بِارْتِكَابِ مَا لَا يَلِيقُ
بِالْعَاقِلِ لَا عَدَمَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالْجَهْلُ بِهَذَا الْمَعْنَى حَقِيقَةٌ
وَارِدَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، كَقَوْلِهِ: فَجَعَلْتُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: أَيِ
مِنْ زَمَانٍ قَرِيبٍ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ: اشْتِرَاطُ وَقُوعِ التَّوْبَةِ عَقِبَ الْمُعْصِيَةِ بِلا تَرَاخٍ، وَإِنَّمَا بِذَلِكَ
تَنَالُ دَرَجَةَ قَبُولِهَا الْمَحْتَمَّ تَفْضُلًا؛ إِذْ بَتَّاءُخِهَا وَتَسْوِيفِهَا يَدْخُلُ فِي زُمَرَةِ الْمُصِرِّينَ، فَيَكُونُ
فِي الْآيَةِ إِرْشَادٌ إِلَى الْمِبَادَرَةِ بِالتَّوْبَةِ عَقِبَ الذَّنْبِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَى الْمَوْلَى بَعْدَهُ فَوْرًا، وَوُجُوبِ
التَّوْبَةِ عَلَى الْقَوْرِ مِمَّا لَا يُسْتَرَابُ فِيهِ، إِذْ مَعْرِفَةُ كَوْنِ الْمُعَاصِي مُهْلِكَاتٍ مِنْ نَفْسِ الْإِيمَانِ
وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْقَوْرِ. وَقَالَ الْعَنِيَمِينَ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: ﴿التَّوْبَةُ﴾: مُبْتَدَأُ
مُسَبَّوقٍ بِأَدَاةِ الْحَصْرِ وَهِيَ: ﴿إِنَّمَا﴾، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾، أَوْ قَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ فَيَحْتَمِلُ هَذَا وَهَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾:
﴿السُّوءَ﴾: يَعْنِي: الْعَمَلَ السَّيِّئَ، كَالْمُنْكَرَاتِ، وَفَعَلَ الْمَحْظُورَاتِ، أَوْ تَرَكَ الْوَاجِبَاتِ، وَلَكِنَّهُ
قَيَّدَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾، وَالْمُرَادُ بِالْجَهَالَةِ هُنَا: السَّفَاهَةُ، وَلَيْسَ الْجَهْلُ؛ لِأَنَّ فَاعِلَ السُّوءِ
بِجَهْلٍ مُعْذُورٌ، وَلَا ذَنْبٌ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾
[البقرة: ٢٨٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: أَيِ ثُمَّ إِذَا فَعَلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ تَابُوا
إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَالْقَرِيبُ هُنَا: مَا كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْمَوْتِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.
وَقَوْلُهُ: ﴿يَتُوبُونَ﴾: بِمَعْنَى يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ بِتَرْكِ مَا قَامُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ، أَوْ فَعَلَ مَا
تَرَكَهُ مِنَ الْوَاجِبِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِاعْتِبَارِ مَا
قَبْلَهَا تَأْكِيدٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحُكْمَ مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، وَلَكِنَّهُ أَكَّدَ مَا
الْتَزَمَ بِهِ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: قال مكِّي: أي يرزقهم إنابة إلى طاعته، ويتقبل منهم توبتهم إليه. وقال أبو السعود: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما ذكر، وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد. والخطاب للرَسُول ﷺ أو لكلِّ أحدٍ ممن يصلح للخطاب، وهو مُبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وما فيه من تكرير الإسناد؛ لتقوية الحكم، وهذا وعدٌ بقبول توبتهم إثر بيان أنَّ التَّوبَةَ لَهُمْ. و(الفاء) للدلالة على سببها للقبول. وقال العثيمين: أشار إليهم بـ﴿أُولَئِكَ﴾ مع أنهم باعتبار الحديث عنهم في محلِّ القرب، والقريب يشار إليه بـ(هؤلاء)، لكنه هنا قال: ﴿أُولَئِكَ﴾، فأشار إليهم بإشارة البعيد؛ إشارة إلى علو منزلتهم بالتوبة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: قال ابن عطية: أي بمن يتوب ويُسِرُّهُ هو للتَّوبَةِ. ﴿حَكِيمًا﴾: أي فيما يُنفِذُهُ مِنْ ذَلِكَ، وفي تأخير من يُؤَخَّرُ حَتَّى يَهْلِكَ. وقال أبو السعود: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: مُبالِغًا في العِلْمِ والحِكْمَةِ، فَيَبْنِي أَحْكَامَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَى أَاسَاسِ الْحِكْمَةِ والمَصْلَحَةِ. والجُمْلَةُ اغْتِرَاضِيَّةٌ مُقَرَّرَةٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوْضِعِ الإِضْمَارِ؛ لِلإِشْعَارِ بِعِلَّةِ الْحُكْمِ، فَإِنَّ الْأُلُوْهِيَّةَ مَنْشَأٌ لِاتِّصَافِهِ تَعَالَى بِصِفَاتِ الْكَمَالِ. وقال السَّعْدِيُّ: وَمِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ صَادِقَ التَّوْبَةِ وكَاذِبَهَا، فيجَازِي كِلَا مِنْهُمَا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّ بِحِكْمَتِهِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يُوَفِّقَ مَنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ تَوْفِيقَهُ للتَّوْبَةِ، ويَخْذُلَ مَنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ عَدَمَ تَوْفِيقِهِ. وقال العثيمين: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أي ذَا عِلْمٍ وَحُكْمٍ وَحِكْمَةٍ، فَالْعِلْمُ: إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَهَذَا التَّعْرِيفُ يَخْرُجُ الْجَهْلَيْنِ جَمِيعًا: الْجَهْلَ الْبَسِيطَ، وَالْجَهْلَ الْمُرَكَّبَ؛ لِأَنَّ الْجَهْلَ الْبَسِيطَ لَيْسَ فِيهِ إدْرَاكٌ مُطْلَقًا، وَالْجَهْلَ الْمُرَكَّبَ فِيهِ إدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَالْعِلْمُ: إدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَبِالنِّسْبَةِ لَعِلْمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ عِلْمٌ شَامِلٌ كَامِلٌ، وَقَوْلُنَا: كَامِلٌ: أَي أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ بِجَهْلٍ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِنَسْيَانٍ، قَالَ مُوسَى . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . لِفِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] قَالَ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا

يَنْسَى ﴿طه: ٥٢﴾، ﴿لَا يَضِلُّ﴾: أي لا يجهل، ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ ما علم، وهو كذلك شامل، قال تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد بين الله علمه في كتابه أحياناً بالإجمال والعموم، وأحياناً بالتفصيل، فقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] هذا تفصيل، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، أيضاً فيه شيء من التفصيل، وأما الإجمال فكثير في القرآن. والعلم أشمل من القدرة وأوسع؛ لأنه يتعلق بكل شيء، حتى بالممتنع، بخلاف القدرة، فإنها شاملة لكل شيء، لكن ما كان مستحيلاً فليس بشيء بالنسبة للقدرة، أما العلم فيشمل حتى المستحيل، فمثلاً قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فإن تعدد الآلهة ممتنع، ومع ذلك أخبر الله أنه لو كان لكان ما ذكر الله. وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾: مشتق من الحكم والحكمة، فهو حاكم إذا جعلناه مشتقاً من الحكم، ومُحكِم إذا جعلناه مشتقاً من الحكمة.

• قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨):

• مناسبة الآية للتي قلها: قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما ذكر شرائط التوبة المقبولة أورد فيها بشرح التوبة التي لا تكون مقبولة.

وقال البقاعي: ولما بين سبحانه المقبول أتبعه المطرود، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...﴾.

● تفسير الآية:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: قال الواحدي: قال سعيد بن جبير: نزلت الأولى في المؤمنين، يعني قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، ونزلت الوسطى في المنافقين، يعني قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾، ونزلت الأخرى في الكافرين، يعني قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وقال ابن عطية: نفى الله بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس، وابن زيد، وجماعة المفسرين. وقال الربيع: الآية الأولى قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ هي في المؤمنين، والآية الثانية قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ نزلت في المسلمين، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فحتم ألا يغفر للكافر وأرجأ المؤمنين إلى مشيئته، لم يئسهم من المغفرة. قال القاضي أبو محمد: طعن بعض الناس في هذا القول بأن الآية خبر، والأخبار لا تُنسخ. وهذا غير لازم؛ لأن الآية لفظها الخبر، ومعناه تقرير حكم شرعي، فهي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وإنما يضعف القول بالنسخ من حيث تنبني الآيات ولا يحتاج إلى تقرير نسخ؛ لأن هذه الآية لم تنف أن يغفر للعاصي الذي لم يثب من قريب، فنحتاج أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٤٨] نسخها، وإنما نقت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يثب إلا مع حضور الموت. فالعقيدة عندي في هذه الآيات: أن من تاب من قريب فله حكم التائب فيغلب الظن عليه أنه ينعم ولا يعذب، هذا مذهب أبي

المعالي وغيره، وقال غيرهم: بل هو مغفور له قطعاً، لإخبار الله بذلك، وأبو المعالي يجعل تلك الأخبار ظواهر مشروطة بالمشيئة، ومن لم يتب حتى حضر الموت فليس في حكم التائبين، فإن كان كافراً فهو يخلد، وإن كان مؤمناً فهو عاصٍ في المشيئة، لكن يغلب الخوف عليه، ويقوى الظن في تعذيبه، ويقطع من جهة السمع أن من هذه الصنف من يعفو الله له تفضلاً منه ولا يعذبه. وأعلم الله أيضاً أن الذين يموتون وهم كفار فلا مستعتب لهم ولا توبة في الآخرة. وقال ابن الجوزي: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات﴾: في السيئات ثلاثة أقوال: أحدها: الشرك، قاله ابن عباس، وعكرمة. الثاني: أنها النفاق، قاله أبو العالية، وسعيد بن جبير. الثالث: أنها سيئات المسلمين، قاله سفيان الثوري، واحتج بقوله ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾. قوله تعالى: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾: في الحضور قولان: أحدهما: أنه الشوق، قاله ابن عمر. الثاني: أنه معاينة الملائكة لقبض الروح، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أنزل الله بعد هذه الآية: ﴿إن الله لا يعفو أن يشرك به﴾ الآية [النساء: ١١٦]، فحرّم المغفرة على من مات مشركاً، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة، فعلى هذا تكون منسوخة في حق المؤمنين. وقال الرازي: ﴿ولا الذين يموتون﴾: فيه وجهان: الأول: معناه الذين قرب موته، والمعنى: أنه كما أن التوبة عن المعاصي لا تقبل عند القرب من الموت، كذلك الإيمان لا يقبل عند القرب من الموت. الثاني: المراد: أن الكفار إذا ماتوا على الكفر فلو تابوا في الآخرة لا تقبل توبتهم. وقال القرطبي: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات﴾: يعني قبول التوبة للذين أصرّوا على فعلهم. ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾: يعني الشرق والنزع ومعاينة ملك الموت. ﴿قال إني تبت الآن﴾: فليس لهذا توبة. ثم ذكر توبة الكفار فقال تعالى: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾: أي وجيعاً دائماً. وقال البيضاوي: سوى الله بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار، وبين من مات

عَلَى الْكُفْرِ فِي نَفْيِ التَّوْبَةِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي عَدَمِ الْإِعْتِدَادِ بِهَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ:
 وَتَوْبَةُ هَؤُلَاءِ وَعَدَمُ تَوْبَةِ هَؤُلَاءِ سَوَاءٌ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ: عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ.
 وَبِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ: الْمُنَافِقُونَ؛ لِتَضَاعُفِ كُفْرِهِمْ وَسُوءِ أَعْمَالِهِمْ. وَبِالَّذِينَ يَمُوتُونَ:
 الْكُفَّارُ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: نَفَى تَعَالَى أَنْ يَكُونَ التَّوْبَةُ لِلْعَاصِي الصَّائِرِ فِي حَيِّزِ الْيَأْسِ مِنَ
 الْحَيَاةِ، وَلَا لِلَّذِي وَافَى عَلَى الْكُفْرِ. فَلأَوَّلُ كَفَرَعُونَ؛ إِذْ لَمْ يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ وَهُوَ فِي عَمْرَةِ الْمَاءِ
 وَالْغَرَقِ، وَكَالَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾
 [غافر: ٨٥]، وَحُضُورُ الْمَوْتِ أَوَّلُ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ، فَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لَا تُقْبَلُ
 مِنْهُ التَّوْبَةُ فِي الْآخِرَةِ، فَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي حَضَرَهُ الْمَوْتُ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ
 لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: أَيِ الْمَعَاصِي فِيمَا دُونَ الْكُفْرِ. ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
 الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: وَذَلِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ فِي هَذِهِ الْحَالِ
 تَوْبَةُ اضْطِرَارٍ لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا، إِنَّمَا تَنْفَعُ تَوْبَةُ الْإِخْتِيَارِ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: هُنَا قَالَ:
 ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (عَلَى اللَّهِ)؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ مُنْتَفِيَةٌ شَرْعًا، فَهِيَ لَيْسَتْ
 حَقِيقَةً. وَقَوْلُهُ: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهَا الْجِنْسُ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، أَوْ الْجَمْعُ؛ لِأَنَّهُ
 ظَاهِرُ الْفِعْلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾: فَهَؤُلَاءِ لَا
 تَوْبَةَ لَهُمْ؛ لِأَنَّ تَوْبَتَهُمْ تَوْبَةُ ضَرُورَةٍ، كَالْمَكْرَهِ عَلَى الْعَمَلِ، وَالْمَكْرَهِ عَلَى الْعَمَلِ لَا حَكَمَ
 لِعَمَلِهِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِأَنَّ مَنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَحْكَمْ بِكَفْرِهِ،
 وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي تَابَ بَعْدَ أَنْ أَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَيَقَنَ أَنَّهُ رَاحِلٌ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ لَا
 تَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا شَاهَدَ الْمَوْتَ أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ، وَأَيُّ تَوْبَةٍ صَادِقَةٍ لِشَخْصٍ عَلِمَ أَنَّهُ مُفَارِقُ
 الدُّنْيَا؟! وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ ﷺ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عِنْدَمَا سُئِلَ: "أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟" قَالَ:
 أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَأْمَلُ الْبَقَاءَ، وَتَخْشَى الْفَقْرَ" رَوَاهُ الشَّيْخَانُ، فَقَوْلُهُ:
 "تَأْمَلُ الْبَقَاءَ": أَيُّ لَصَحَّتْكَ، فَإِنَّ الصَّحِيحَ يَسْتَبْعِدُ الْمَوْتَ، وَ"تَخْشَى الْفَقْرَ"؛ لِأَنَّهُ
 شَاحِبٌ، ثُمَّ قَالَ: "وَلَا تَهْمَلْ - لَا تُؤَخَّرْ - حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ

كذا، وقد كان لفلان كذا"، أي للوارث، وهذا يقع كثيراً، فإنه إذا آيس الإنسان من حياته ذهب يوصي، فيقول: أوصيت بكذا لأعمال البر، وبالصدقة على الفقراء، وبناء المساجد، مع أنه قبل أيام لم يوص؛ لأنه الآن آيس من حياته، وعلم أنه مفارق لا محالة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: (الواو) في قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾: حرف عطف، ﴿وَلَا﴾ زائدة للتوكيد. و﴿الَّذِينَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾، والمعنى: وليست التوبة أيضاً للذين يموتون وهم كفار، فإن الذين يموتون وهم كفار لا توبة لهم. وظاهر الآية مُشْكِل؛ لأن من مات انقطع عمله، فكيف يقول: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؟ فنقول: المراد بذلك: ندمهم يوم القيامة، حيث يندمون ويقولون: ﴿يَالَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قال الله: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فتوبة الكافر بعد الموت يراد بها: ندمه الذي يظهره يوم القيامة، فإن ذلك لا ينفعه؛ لأن وقت العمل قد انتهى، وما بقي إلا وقت الجزاء والحساب.

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: قال الواحدي: أي هيأنا وأعددنا. يقال: أعتدت الشيء فهو معتدّ وعتيد، وقد عتد الشيء عتادة وهو عتيد، أي حاضر، قاله الليث، قال: ومن هنالك سميت العتيدة: التي فيها طيب الرجل وأدهانه. والعتاد: ما أعدّه الرجل من السلاح والدواب والآلة للجهاد، ويُجمع: أَعْتَدَّةً، وأَعْتَدًا. ويقال: فرس عَتِدٌ وعَتْدٌ، وهو المَعْد للركوب. وقال ابن عطية: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: إن كانت الإشارة إلى الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ فَقَطْ، فالعذاب عذاب خُلُودٍ، وإن كانت الإشارة إِلَيْهِمْ وإلى مَنْ يَنْفُذُ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ، مِمَّنْ لَا يَتُوبُ إِلَّا مَعَ حُضُورِ الْمَوْتِ مِنَ الْعَصَاةِ فَهُوَ فِي جِهَةِ هَؤُلَاءِ، عَذَابٌ وَلَا خُلُودَ مَعَهُ. و﴿أَعْتَدْنَا﴾ مَعْنَاهُ: يَسَرَّنَاهُ وَأَحْضَرْنَاهُ. وظاهر هذه الآية: أَنَّ النَّارَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ. وقال البيضاوي: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تَأْكِيدٌ لِعَدَمِ قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، وبيانُ أَنَّ الْعَذَابَ أَعَدَّهُ لَهُمْ لَا يُعْجِزُهُ عَذَابُهُمْ مَتَى شَاءَ. والاعتدَادُ: التَّهْيِئَةُ

مِنَ الْعَتَادِ وَهُوَ الْعُدَّةُ. وَقِيلَ: أَصْلُهُ أَعَدَدْنَا، فَأُبْدِلَتْ (الدَّالُّ) الْأُولَى (تَاءً). وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿أُولَئِكَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى الصَّنَفَيْنِ، وَيَكُونَانِ قَدْ شَرِكَا فِي إِعْدَادِ الْعَذَابِ لهُمَا، وَإِنْ كَانَ عَذَابُ أَحَدِهِمَا مُنْقَطِعًا وَالْآخَرُ خَالِدًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ وَعِيدًا لِلْعَاصِي الَّذِي لَمْ يَتُبْ إِلَّا عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْمَوْتِ حَيْثُ شَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الَّذِي وَافَى عَلَى الْكُفْرِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿أُولَئِكَ﴾ إِشَارَةً إِلَى الصَّنَفِ الْآخِرِ؛ إِذْ هُوَ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ يَجْرِي مَجْرَى الضَّمِيرِ، فَيُشَارُ بِهِ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، كَمَا يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَيَكُونُ إِعْدَادُ الْعَذَابِ مُرْتَبًا عَلَى الْمَوَافَاةِ عَلَى الْكُفْرِ؛ إِذِ الْكُفْرُ هُوَ مَقْطَعُ الرَّجَاءِ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ. وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: ﴿أُولَئِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْقَرِيقَيْنِ. وَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ؛ لِلْإِذَانِ بِتَرَامِي حَالِهِمْ فِي الْفَضَاعَةِ وَبُعْدِ مَنَزِلَتِهِمْ فِي السُّوءِ، وَهُوَ مُبْتَدَأُ حَبْرُهُ ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾، أَيْ هَيَّأْنَا لَهُمْ. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تَكْرِيرُ الْإِسْنَادِ لِمَا مَرَّ مِنْ تَقْوِيَةِ الْحُكْمِ. وَتَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ؛ لِإِظْهَارِ الْإِعْتِنَاءِ بِكَوْنِ الْعَذَابِ مُعَدًّا لَهُمْ. وَتَنْكِيرُ الْعَذَابِ وَوَصْفُهُ؛ لِلتَّفْخِيمِ الدَّائِي وَالْوَصْفِيِّ. وَقَالَ الْعِثِمِيُّ: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا: الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ هُمُ الْكَفَّارُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى مَا دُونَ الْكُفْرِ، فَهَذَا أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، فإِعدادُ النَّارِ إِنَّمَا هُوَ لِلْكَافِرِينَ، أَمَّا الْعَصَاةُ فَقَدْ يُعْفَى عَنْهُمْ وَلَا يَدْخُلُونَ النَّارَ أَبَدًا.

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِنَظِهِبُوا بَعْضَ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾:
- سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: سَبَبُ نَزُولِهَا: "أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا مَاتَ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ

أُخْرَى: "كَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، قَامَ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْهُ، فَيُلْقِي عَلَى امْرَأَتِهِ ثَوْبًا، فَيَرِثُ نِكَاحَهَا". وَقَالَ مُجَاهِدٌ: "كَانَ إِذَا تُوِّفِيَ الرَّجُلُ، فَابْنُهُ الْأَكْبَرُ . مِنْ غَيْرِهَا . أَحَقُّ بِامْرَأَتِهِ، فَيَنْكِحُهَا إِنْ شَاءَ، أَوْ يَنْكِحُهَا مَنْ شَاءَ". وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ ابْنُ حَنِيفٍ: "لَمَّا تُوِّفِيَ أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسْلَتِ أَرَادَ ابْنُهُ . مِنْ غَيْرِهَا . أَنَّ يَتَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". قَالَ عِكْرِمَةُ: وَاسْمُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ: كَيْشَةُ بِنْتُ مَعْنٍ بِنِ عَاصِمٍ، وَكَانَ هَذَا فِي الْعَرَبِ. وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: كَانَتْ الْأَنْصَارُ تَفْعَلُهُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَ هَذَا فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْأَوْلِيَاءِ مَا لَمْ تَسْبِقِ الْمَرْأَةُ، فَتَذْهَبُ إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنْ ذَهَبَتْ، فَهِيَ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال الألوسي: لَمَّا هَيَّ اللَّهُ فِيمَا تَقَدَّمَ عَنْ عَادَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى وَالْأَمْوَالِ عَقَبَهُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِسْتِنَانِ بِنَوْعٍ مِنْ سُنَنِهِمْ فِي النِّسَاءِ أَنْفُسَهُنَّ أَوْ أَمْوَالَهُنَّ.

● تفسير الآية:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتِيَتْموهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾: قال مكِّي: (الكره، والكره) لغتان بمعنى واحد عند البصريين والكسائي. وقال الفراء: الكرّ بالفتح: أن يكون على الشيء. والكره: المشقة، هذا معنى قوله. وقال القتيبي: الكرّ بالفتح بمعنى: القهر. وبالضم بمعنى: المشقة. وقيل: إنّ الآية ناسخة لما كانوا عليه في الجاهلية، وذلك أنه كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها كان ابنه من غيرها، أو قريبه أولى بها من غيرها، ومنها بنفسها، فإن شاء نكحها، وإن شاء منعها من النكاح وهو العضل، فحرّم الله ذلك على المؤمنين بهذه الآية. فمعنى الوراثة هنا: هو أن يأخذها لنفسه، ويكون بها أولى من وليّ نفسها ومن غيره. وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتِيَتْموهُنَّ: معنى العضل هنا: أن يأخذها ويمنعها من تزوّج غيره، كذلك قال جماعة أهل التفسير، ولكن اختلفوا: فقيل: كان ذلك

سُنَّة قريش في الجاهليَّة. وقيل: كان ذلك سُنَّة الأنصار. وقيل: كان ذلك سُنَّة الجميع يمنع امرأة قريبه أن تتزوج ويغضبها نفسها إن شاء. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾: معناه: أن تشتم عرضه، أو تخالف أمره، وتبذو عليه، فكلَّ فاحشة نُعِتَتْ (مُبيَّنة) فهي من البذاء باللسان. وكلَّ فاحشة مطلقة فهو الزنا، والزنا يُسْتَرَّ ويخفى، فلا تكون (مُبيَّنة)، والنطق بالبذاء يظهر، فهو مبين من لسان فاعله، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، عني بذلك مخالفة أمر الرسول ﷺ والأذى بالنطق، ونعوذ بالله من أن يعني بذلك الزنا، هذا معنى قول ابن بكير. وسَمَحَ للأزواج في المضاربة إذا أتى بفاحشة ظاهرة يفتدين ببعض ما أعطوهنَّ، قال ذلك الحسن. وقال عطاء: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة سلَّمت إليه ما أخذت منه وأخرجها، فنسخ ذلك بالحدود. وقال أبو قلابة: للرجل أن يضارَّ بالمرأة إذا أتت بفاحشة، ويضيق عليها حتى تحتلع منه. وقال ابن عباس: الفاحشة هنا: النشوز، إذا نشزت جاز له أن يأخذ منها الفدية. وقيل: الفاحشة: هو بذاء اللسان على زوجها، والزنى، والنشوز، فله إذا فعلت شيئاً من ذلك أن يأخذ منها الفدية ويضارَّ بها حتى تفتدي منه، وإذا كانت الفاحشة بالألف واللام فهي الزنا واللواط. وقال ابن الجوزي: في معنى قوله: ﴿أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ قولان: أحدهما: أَنْ تَرْتُوا نِكَاحَ النِّسَاءِ كَرْهًا، وهذا قول الجمهور. الثاني: أَنْ تَرْتُوا أَمْوَالَهُنَّ كَرْهًا. روى ابنُ أبي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ يُلْقِي حَمِيمَ الْمَيْتِ عَلَى الْجَارِيَةِ ثَوْبًا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تُزَوِّجُهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً حَبَسَهَا حَتَّى تَمُوتَ، فَيَرْتُهَا. وَفِيمَنْ حُوْطِبَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْأَزْوَاجِ، ثُمَّ فِي الْعَضْلِ الَّذِي هِيَ عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُكْرِهُ صُحْبَةَ أَمْرَأَتِهِ، وَلَهَا عَلَيْهِ مَهْرٌ، فَيَحْسِبُهَا، وَيَضْرِبُهَا لِتَفْتَدِي، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ. الثَّانِي: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَنْكِحُ الْمَرْأَةَ الشَّرِيفَةَ، فَلَعَلَّهَا لَا تُؤْفِقُهُ، فَيَفَارِقُهَا عَلَى أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَيَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا حُطِبَتْ، فَأَرْضَعَتْهُ، أُذِنَ لَهَا، وَإِلَّا عَضَلَهَا،

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ كَانُوا بَعْدَ الطَّلَاقِ يَعْضُلُونَ، كَمَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُ، فَنُهِوا عَنْ ذَلِكَ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا. وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي سُورَةِ "البَقَرَةِ" أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا كَذَلِكَ أَبَدًا إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ يَقْصِدُ إِضْرَارَهَا، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٢٩]. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلأُولِيَاءِ، ثُمَّ فِي مَا نُهِوا عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ لَهُ قَرَابَةٌ قَرِيبَةً، أَلْقَى عَلَيْهَا ثَوْبَهُ، فَلَمْ تَتَزَوَّجْ أَبَدًا غَيْرُهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. الثَّانِي: أَنَّ الْيَتِيمَةَ كَانَتْ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ فَيَحْبِسُهَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَتَزَوَّجَ بِابْنِهِ. مِنْ غَيْرِهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْأُولِيَاءَ كَانُوا يَمْنَعُونَ النِّسَاءَ مِنَ التَّزْوِيجِ؛ لِيَرْتَوْهُنَّ، رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا. الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ خِطَابٌ لَوَرَثَةِ أَزْوَاجِ النِّسَاءِ الَّذِينَ قِيلَ: لَهُمْ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾، كَانَ الرَّجُلُ يَرِثُ امْرَأَةً قَرِيبَةً، فَيَعْضُلُهَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَرُدَّ عَلَيْهِ صَدَاقَهَا. هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْكَلَامُ مُتَّصِلًا بِالأَوَّلِ، وَعَلَى الْأَقْوَالِ الَّتِي قَبْلَهُ يَكُونُ ذِكْرُ الْعَضْلِ مُنْقَطِعًا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾: فِي الْفَاحِشَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُا النُّشُورُ عَلَى الزَّوْجِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ. الثَّانِي: الزِّنَى، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَعَطَاءٌ، وَعِكْرَمَةُ. وَقَدْ رَوَى مَعْمَرٌ، عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ، قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا أَصَابَتْ فَاحِشَةً أَخَذَ زَوْجُهَا مَا سَاقَ إِلَيْهَا وَأَخْرَجَهَا، فَنُسِخَ ذَلِكَ بِالْحَدِّ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْحَدَّ حَقُّ اللَّهِ، وَالْإِفْتِدَاءَ حَقُّ لِلزَّوْجِ، وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا مُبْطَلًا لِلْآخَرِ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ إِذَا أَتَتْ بِأَيِّ فَاحِشَةٍ كَانَتْ مِنْ زِنَى الْفَرْجِ، أَوْ بَدَاءَةِ اللِّسَانِ جَازَ لَهُ أَنْ يَعْضُلَهَا، وَيُضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ. وَقَالَ الرَّازِيُّ: فِي الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ يَكْرَهُ زَوْجَتَهُ وَيُرِيدُ مُفَارَقَتَهَا، فَكَانَ يُسِيءُ الْعِشْرَةَ مَعَهَا وَيُضَيِّقُ عَلَيْهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ نَفْسَهَا بِمَهْرِهَا، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتِيَارُ أَكْثَرِ الْمُهَسِّرِينَ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: لَا يَحِلُّ لَكُمْ التَّزْوُجُ مِنْهُنَّ بِالْإِكْرَاهِ، وَكَذَلِكَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ بَعْدَ التَّزْوُجِ مِنْ الْعَضْلِ وَالْحَبْسِ؛ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا

آتَيْتُمُوهُنَّ. الثَّانِي: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلوَارِثِ بِأَنْ يَتْرَكَ مَنَعَهَا مِنَ التَّرْجُوحِ بِمَنْ شَاءَتْ وَأَرَادَتْ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مَعْنَاهُ: أَتَمَّ كَانُوا يَحْبِسُونَ امْرَأَةَ الْمَيِّتِ وَعَرَضُوهُمْ أَنْ تَبْدُلَ الْمَرْأَةُ مَا أَخَذَتْ مِنْ مِيرَاثِ الْمَيِّتِ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ عَضْلِ الْمَرْأَةِ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْأَزْوَاجِ، فَإِنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُطْلِقُونَ الْمَرْأَةَ وَكَانُوا يَعْضُلُونَهُنَّ عَنِ التَّرْجُوحِ وَيُضَيِّقُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِنَّ لِعَرَضٍ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُنَّ شَيْئًا. الْخَامِسُ: أَنَّهُ عَامٌّ فِي الْكُلِّ. قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَادَا؟ فِيهِ وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَخْذِ الْأَمْوَالِ، يَعْنِي لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَحْبِسَهَا ضَرَارًا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ إِلَّا إِذَا زَنْتَ، وَالْقَائِلُونَ بِهَذَا مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَقِيَ هَذَا الْحُكْمُ وَمَا نُسِخَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ الْجُلْدِ. الثَّانِي: أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْحَبْسِ وَالْإِمْسَاكِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ، وَزَعَمَ أَنَّهُ غَيْرُ مَنْسُوخٍ. الثَّالِثُ: يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾؛ لِأَنَّ الْعَضْلَ هُوَ الْحَبْسُ، فَدَخَلَ فِيهِ الْحَبْسُ فِي الْبَيْتِ، فَالْأَوْلِيَاءُ وَالْأَزْوَاجُ نُهُوا عَنْ حَبْسِهِنَّ فِي الْبُيُوتِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحِلُّ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَزْوَاجِ حَبْسُهُنَّ فِي الْبُيُوتِ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿كَرَهَا﴾: أَيُّ حَالٍ كَوْنِهِنَّ كَارِهَاتٍ لِذَلِكَ، أَوْ مُكَرِهَاتٍ عَلَيْهِ. وَالتَّقْيِيدُ بِالْكَرِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ عِنْدَ عَدَمِهِ؛ لِأَنَّ تَخْصِيصَ الشَّيْءِ بِالذِّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى نَقْيِ مَا عَدَاهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣١]. وَقَالَ الْعَنِيَمِيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الْخِطَابُ إِذَا ابْتَدَى بِالنِّدَاءِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ، وَالْعَنَاءِ بِهِ، وَإِذَا صَدَرَ بِهَذَا الْوَصْفِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ امْتِثَالَهُ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّخَاذِ الْاسْمِ الْمَغْرِيِّ بِالشَّيْءِ، أَيِ الْحَاثِّ عَلَى الشَّيْءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فَكَأَنَّهُ يَغْرِيهِمْ عَلَى قَبُولِ مَا سَيُوجِبُهُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ إِذَا ذَكَرَ عَلَى وَجْهِ يَهَيِّجُ الْإِنْسَانَ، كَانَ هَذَا إِغْرَاءً بِهِ، كَمَا تَقُولُ: يَا أَيُّهَا الْكَرِيمُ لَا تَبْخُلْ عَلَى الضَّعِيفِ، يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ لَا تَغْلِبْكَ النِّسَاءُ، فَإِنْ هَذَا يُوجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَهُ

الحماس حتى يمتثل. وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ نفي الحلّ يقتضي التحريم، والحلل والمحرم هو الله؛ ولهذا يعبر الله أحياناً بالتحريم، وأحياناً بنفي الحل، ففي هذه الآية قال: ﴿لَا يَحِلُّ﴾، وسيأتي بعدها بآيات التصريح بالتحريم في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ﴾. وقوله: ﴿كَرَّهًا﴾: أي كُرْهًا عليهنّ، بحيث لا يرضين بذلك، وأنتم تجربوهنّ على هذا الميراث. وليس المعنى أنهم يرثوهنّ كما يرثون المال، بمعنى أنهم يسترقوهنّ، بل المعنى: أنهم يخلفون أزواجهنّ فيهم دون تملك، فسمّاه الله ميراثاً؛ لأن كل من خلف غيره في شيء فهو وارث له، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]، مع أنّ الله مالك لها من قبل، ومالك لمن عليها، لكنّه يفني من عليها ويبقى هو سبحانه، وقال تعالى عن زكريّا - عليه السلام -: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ (٦)﴾ [مريم]، أي يخلفني في قومي في العلم والنبوة، وليس المعنى أنه يرثهم ميراث مال، وذلك لأن الأنبياء لا يُورثون. وقوله: ﴿كَرَّهًا﴾: هذا القيد لبيان الواقع، وإذا كان لبيان الواقع فلا مفهوم له، ولا يدلّ على أنهنّ لو رضين أن يخلف الرجال أزواجهنّ فإن ذلك جائز؛ لأن هذا لا يجوز إلا بعقد نكاح شرعيّ، فلا يحلّ أن يرثوا النساء لا كرهًا ولا اختياراً، وذلك أنهم كانوا في الجاهليّة إذا مات الرجل جاء ورثته من بعده ومنعوا المرأة أن تتزوّج إلا بمن يرضون هم، وإذا كانوا من بني عمّه اختارها أحدهم فتزوّجها قهراً عليها، وهذا لا شكّ ظلم وعدوان؛ فلهذا نهى الله عنه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾: هذه مسألة أخرى تشبه ما سبق، أي لا تمنعهنّ حقوقهنّ فتلجئوهنّ إلى المخالفة، وهذا يقع كثيراً من بعض الأزواج الظلمة، فيعضل زوجته ويمنعها، فإذا ضاقت به ذرعاً اضطرت إلى أن تفتدي نفسها منه بمال، فيكون هذا أخذاً لما أعطاه من قبل، إمّا الكلّ وإمّا البعض. وقوله: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾، فلو عضلها ليأخذ كلّ ما أعطاه فإنه يدخل في النهي. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾: أي إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فلكم أن تعضلوهنّ. والفاحشة المبيّنة فيها

أقوال: قيل: إنها الزنا، فإذا زنت فله أن يعضلها من أجل أن تفتدي منه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يبقى مع زوجة زانية، ولا تطيب نفسه أن يطلقها هكذا فيذهب ماله، فله في هذه الحال أن يعضلها ويمنعها حقها من أجل أن تخالع وتفتدي نفسها منه. وقيل: إنَّ المراد بالفاحشة المبيئة: بذاءة اللسان، بأن تكون سليطة اللسان عليه وعلى أهله وعلى الجيران، فإنَّ ذلك مستفحش عُرفًا، فإذا حصل من المرأة هذا فله أن يعضلها حتى تفتدي منه. وقيل: المراد: سوء العشرة، بحيث لا تعطيه حقه على وجه الرضا والانبساط والانشرح، فإذا دعاها إلى فراشه قامت تتقهقر، وتتمنع ولا تجيبه، وإذا أمرها بحاجة صارت تنكره لبذل هذه الحاجة التي يجب عليها أن تبذلها، فهذا من الفاحشة المبيئة. والقول الأخير يشمل القولين قبله؛ لأنه لا شك أنَّ من سوء العشرة أن تخدع المرأة زوجها فتزني، ولا شك أيضًا أنَّ من سوء العشرة بذاءة اللسان، فعليه يكون المعتمد: أنَّ المراد بالفاحشة المبيئة: سوء العشرة بأي شيء كان، سواء كان ممَّا يستفحش شرعًا كالزنا، أو عرفًا، مع أنَّ الزنا يستفحش شرعًا وعرفًا.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: قال الواحدي: أي صاحبوهنَّ بالمعروف في المبيت والكلام. وقيل: المعروف: إمساكنهنَّ بأداء حقوقهنَّ التي لهنَّ عليكم، أو تسرحوهنَّ بإحسان. وقال السمعاني: أي الإجمال في المبيت والقول والنفقة. وقال ابن عاشور: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أعقب النهي عن إكراه النساء والإضرار بهنَّ بالأمر بحسن المعاشرة معهنَّ، فهذا اعتراض فيه معنى التدبيل لما تقدّم من النهي؛ لأنَّ حسن المعاشرة جامعٌ لنفي الإضرار والإكراه، وزائدٌ بمعاني إحسان الصُحبة. والمعاشرة مُفاعلةٌ من العشرة وهي المخالطة. والمعروف: ضدُّ المنكر. وسمي الأمر المكروه منكرًا؛ لأنَّ النفوس لا تأنسُ به، فكأنَّه مجهولٌ عندها نكرة، إذ الشأن أنَّ المجهول يكون مكروهًا، ثمَّ أطلقوا اسمَ المنكر على المكروه، وأطلقوا ضدهُ على المحبوب؛ لأنَّه تألفه النفوس. والمعروف هنا: ما حدّده الشرع، ووصفه العرف. والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إغماق النظر وتغلُّل الرأْي في

عَوَاقِبِ الْأَشْيَاءِ، وَعَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالْبَوَارِقِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا بِمَيْلِ الشَّهَوَاتِ إِلَى مَا فِي الْأَفْعَالِ مِنْ مُلَائِمٍ، حَتَّى يَسِيرَهُ بِمَسْبَارِ الرَّأْيِ، فَيَتَحَقَّقَ سَلَامَةٌ حُسْنِ الظَّاهِرِ مِنْ سُوءِ خَفَايَا الْبَاطِنِ. وَافْتَصَرَ هُنَا عَلَى مُقَارَبَةِ حُصُولِ الْكَرَاهِيَةِ لِشَيْءٍ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، دُونَ مُقَابِلِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ لِبَيَانِ حُكْمٍ مِّنْ حَدَثٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ مَا كَرِهَهُ فِيهَا، وَرَامَ فِرَاقَهَا، وَلَيْسَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ مَيْلٌ إِلَى غَيْرِهَا، فَكَانَ حَالُهُ مُقْتَضِيًا بَيَانَ مَا فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْمَكْرُوهَاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الْمَحْبُوبَةِ شُرُورًا؛ لِكَوْنِهِ فَتْحًا لِبَابِ التَّعَلُّلِ لَهُمْ بِمَا يَأْخُذُونَ مِنَ الطَّرَفِ الَّذِي يَمِيلُ إِلَيْهِ هَوَاهُمْ. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: أَيِ النِّسَاءِ. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَيِ بِمَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَلَا يَنْكَرُهُ الشَّرْعَ، وَالْمَعَاشِرَةُ مَفَاعِلَةٌ، فَهِيَ تَكُونُ مِنَ الْجَانِبِينَ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يَكُونُ مَصْدَرُهُ مَفَاعِلَةٌ أَنَّهُ وَقَعَ مِنَ الْجَانِبِينَ، مِثْلُ: جَاهِدَ مُجَاهِدَةً، قَاتَلَ مُقَاتَلَةً، يَاسِرَ مِيَاسَرَةً، عَاسِرَ مَعَاسِرَةً، عَاشَرَ مَعَاشِرَةً، وَقَدْ لَا يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِينَ كَسَافِرٍ، فَإِنَّ السَّفَرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ وَاحِدٍ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أَيِ لِيَعَاشِرَ كُلٌّ مِنْكُمْ الْآخَرَ بِالْمَعْرُوفِ، أَيِ بِمَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَلَا يَنْكَرُهُ الشَّرْعَ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَلَكِنِ الشَّرْعَ يَنْكَرُهُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ بَلْ هُوَ مَنْكَرٌ، وَالْمَرَادُ: الْمَعَاشِرَةُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَابْتَدَلُ. بِالْقَوْلِ: بَأَنَّ يَلِينُ لَهَا الْقَوْلَ، وَتَلِينُ لَهُ الْقَوْلَ. وَبِالْفِعْلِ: بِالْخِدْمَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا. وَبِالْبَدَلِ: بِذَلِ النِّفَقَاتِ مِنْ كَسْوَةٍ، وَطَعَامٍ، وَشَرَابٍ، وَمَسْكَنِ، وَلَا يَلْزِمُهَا قِضَاءُ دِينِهِ، وَلَا يَلْزِمُهُ قِضَاءُ دِينِهَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَسْتَدِينَ لِنَفَقَةٍ وَاجِبَةٍ عَلَيْهِ، فَإِنْ اسْتَدَانَتْ لِنَفَقَةٍ وَاجِبَةٍ عَلَيْهِ وَجَبَ عَلَيْهِ قِضَاءُ هَذَا الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا زِمَ لَهُ.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رُبَّمَا زَرَقَ اللَّهُ مِنْهُمَا وَلَدًا، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي وَلَدِهَا خَيْرًا كَثِيرًا. وَقَدْ نَدَبَتِ الْآيَةُ إِلَى إِمْسَاكِ الْمَرْأَةِ مَعَ الْكَرَاهَةِ لَهَا، وَتَبَهَّتْ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُ وُجُوهَ الصَّلَاحِ، فَزُبَّ مَكْرُوهٍ عَادَ مَحْمُودًا، وَمَحْمُودٌ عَادَ مَذْمُومًا. الثَّانِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكَادُ يَجِدُ مُحْبُوبًا لَيْسَ فِيهِ

ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب. وقال الرازي: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: أي كرهتكم عشرتهن بالمعروف وصحبتهن، وآثرتم فراقهن ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: الأول: المعنى: أنكم إن كرهتكم صحبتهن فأفسدكنهن بالمعروف فعسى أن يكون في صحبتهن الخير الكثير، ومن قال بهذا القول فتارة فسّر الخير الكثير بولد يحصل، فتقلب الكراهة محبة، والنقرة رغبة، وتارة بأنه لما كره صحبتهن ثم إنه يتحمل ذلك المكروه طلبًا لثواب الله، وأنفق عليها وأحسن إليها على خلاف الطبع، استحق الثواب الجزيل في العقبى والثناء الجميل في الدنيا. الثاني: أن يكون المعنى: إن كرهتُمُوهُنَّ ورغبتم في مفارقتهن، فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيرًا كثيرًا، وذلك بأن تتخلص تلك المرأة من هذا الزوج وتجد زوجًا خيرًا منه، ونظيره قوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، وهذا قول أبي بكر الأصم، قال القاضي: وهذا بعيد؛ لأنه تعالى حث بما ذكر على سبيل الاستمرار على الصحبة، فكيف يريد بذلك المفارقة؟! وقال البيضاوي: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا: أي فلا تفرقوهن لكرهه النفس، فإنها قد تكره ما هو أصلح دينًا وأكثر خيرًا، وقد يحب ما هو بخلافه، وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، والمعنى: فإن كرهتُمُوهُنَّ فاصبروا عليهن، فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. وقال العثيمين: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: أي أنه قد يكره الإنسان الزوجة فلا يعاشرها بالمعروف؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه إذا كره شيئًا لا ينقاد له، ولا يفرح به، فيقول الله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: أي لسوء أخلاقهن، أو لغير ذلك، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وهذا إشارة إلى أن نصبر عليهن، أي إن كرهتموهن فاصبروا، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا تتوقعونه، ومن الخير: أن يقدر الله بينهما ولدًا صالحًا، فإن هذا من أعظم الخيرات،

ومن الخير أيضاً أن يقلب الله أحوالها وصفاتها التي كان يكرهها من أجلها إلى أحوال وصفات يرضاها، وحينئذ يطمئن إليها ويعيش معها عيشة حميدة.

• قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠)﴾:

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال الواحدي: قال المفسرون: لما ذكر الله في الآية الأولى مُضَارَّةَ الزوجات إذا أتت بفاحشة، بيّن في هذه الآية تحريم المضارة في غير حال الفاحشة.

وقال القرطبي: لَمَّا مَضَى فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ حُكْمُ الْفِرَاقِ الَّذِي سَبَبُهُ الْمَرْأَةُ، وَأَنَّ لِلزَّوْجِ أَخْذَ الْمَالِ مِنْهَا عَقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْفِرَاقِ الَّذِي سَبَبُهُ الزَّوْجُ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ نُشُوزٍ وَسُوءِ عِشْرَةٍ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهَا مَالًا.

وقال البقاعي: وَلَمَّا نَهَى عَنِ الْعِضْلِ أَتْبَعَهُ التَّصْرِيحَ بِالنَّهْيِ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنْهُ فِي غَيْرِ الْحَالَةِ الَّتِي أَذِنَ فِيهَا فِي الْمِضَارَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ...﴾.

• تفسير الآية:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا...﴾:

قال الماوردي: يَعْنِي أَنَّهُنَّ قَدْ مَلَكَنَ الصَّدَاقَ، وَلَيْسَ مِلْكُهُنَّ لِلصَّدَاقِ مَوْثُوقًا عَلَى التَّمَسُّكِ بِهِنَّ، بَلْ ذَلِكَ لَهُنَّ مَعَ إِمْسَاكِهِنَّ، وَفِرَاقِهِنَّ. وَإِنَّمَا مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْإِسْتِبْدَالِ بِهِنَّ وَإِنْ كَانَ مَمْنُوعًا مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَبْدَلْ بِهِنَّ أَيْضًا؛ لِأَنَّ يَتَوَهَّمُ مَوْتَهُنَّ أَنَّهُ يَجُوزُ مَعَ اسْتِبْدَالِ غَيْرِهَا بِهَا أَنْ يَأْخُذَ مَا دَفَعَهُ إِلَيْهَا لِيُدْفَعَهُ إِلَى مَنْ اسْتَبْدَلَ بِهَا مِنْهُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عُمُومًا. وقال الواحدي: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ دليل على جواز المغالاة في المهر، فقد رُوي أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَلَى الْمَنْبَرِ: أَلَا لَا تُعَالُوا فِي مُهُورِ نِسَائِكُمْ، فَقَامَتْ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ: يَا ابْنَ الْخَطَابِ، اللَّهُ يُعْطِينَا، وَأَنْتَ تَمْنَعُ، وَتَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: كُلِّ

الناس أفاقه من عمر، ورجع عن كراهة المغالاة. وقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾: البهتان في اللغة: الكذب الذي يواجه به صاحبه على جهة المكابرة له، وأصله من قولهم: بُهت الرجل، إذا تحير، فالبهتان: كذب يُحير الإنسان لعظمه، ثم جعل كل باطل يتحير من بطلانه بهتاناً، وهو اسم من البهت، يقال: بهته، أي: استقبله بأمر يقذفه به وهو منه بريء، ومنه الحديث: إذا واجهت أخاك بما ليس فيه فقد بهته. قال الزجاج: البهتان ههنا مصدر وضع موضع الحال، والمعنى: تأخذونه مباهتين وآثمين. وقال ابن عباس في هذه الآية: يريد أن أخذك إياه بعدما دخلت بها بهتان وإثم عظيم. وفُسر البهتان في هذه الآية بالظلم. وقال البغوي: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾: أَرَادَ بِالزَّوْجِ: الزَّوْجَةَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا نُسُوزٌ وَلَا فَاحِشَةٌ. ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾: هُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ، صَدَاقًا. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾: أَيِ مِنَ الْقِنْطَارِ. ﴿شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ﴾: اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى التَّوْبِيخِ. ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: انْتِصَابُهُمَا مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا بِنَزْعِ الْحَافِضِ، وَالثَّانِي بِالْإِضْمَارِ، تَقْدِيرُهُ: تُصَيِّوْنَ فِي أَحَدِهِ بُهْتَانًا وَإِثْمًا. وقال ابن الجوزي: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾: هَذَا الْخِطَابُ لِلرِّجَالِ. وَالزَّوْجُ: الْمَرْأَةُ. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾: إِنَّمَا ذَلِكَ فِي حَقِّ مَنْ وَطَّئَهَا، أَوْ خَلَا بِهَا، وَقَدْ بَيَّنَّتْ ذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا. قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى: وَإِنَّمَا خُصَّ النَّهْيُ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِمَّا أُعْطِيَ بِحَالِ الْاسْتِبْدَالِ، وَإِنْ كَانَ الْمَنْعُ عَامًّا؛ لِأَنَّ يَطْنُ ظَانُّ أَنَّهُ لَمَّا عَادَ الْبُضْعُ إِلَى مِلْكِهَا، وَجَبَ أَنْ يُسْقِطَ حَقُّهَا مِنَ الْمَهْرِ، أَوْ يَطْنُ ظَانُّ أَنَّ الثَّانِيَةَ أَوْلَى بِالْمَهْرِ مِنْهَا؛ لِقِيَامِهَا مَقَامَهَا. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: فِي الْبُهْتَانِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الظُّلْمُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ. الثَّانِي: الْبَاطِلُ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَتَأْخُذُونَهُ مُبَاهِتِينَ آثِمِينَ. وقال الرازي: قَالُوا: الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْمَغَالَاةِ فِي الْمَهْرِ، وَعِنْدِي أَنَّ الْآيَةَ لَا دَلَالَهَ فِيهَا عَلَى جَوَازِ الْمَغَالَاةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ إِبْتِئَاءِ الْقِنْطَارِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لَا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ الْآلِهَةِ. وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ جَعْلِ

الشَّيْءِ شَرْطًا لَشَيْءٍ آخَرَ كَوْنُ ذَلِكَ الشَّرْطِ فِي نَفْسِهِ جَائِزُ الْوُقُوعِ. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا
 وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾: فِي انتصاب ﴿بُهْتَانًا﴾: وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: قَالَ الرَّجَّاجُ: الْبُهْتَانُ هَهُنَا مَصْدَرٌ
 وَضِعَ مَوْضِعَ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: أَتَأْخُذُونَهُ مُبَاهِتِينَ وَآمِنِينَ. الثَّانِي: قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ:
 يُحْتَمَلُ أَنَّهُ انْتَصَبَ؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَرَضًا فِي الْحَقِيقَةِ، كَقَوْلِكَ: قَعَدَ عَنِ
 الْقِتَالِ جُبْنًا. الثَّالِثُ: انْتَصَبَ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيْ بُهْتَانٍ. الرَّابِعُ: فِيهِ إِضْمَارٌ تَقْدِيرُهُ:
 تُصِيبُونَ بِهِ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا. وَفِي تَسْمِيَةِ هَذَا الْأَخْذِ بُهْتَانًا وَجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى فَرَضَ لَهَا
 ذَلِكَ الْمَهْرَ فَمَنْ اسْتَرَدَّه كَانَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكَ بِفَرْضٍ فَيَكُونُ بُهْتَانًا. الثَّانِي: أَنَّهُ عِنْدَ
 الْعَقْدِ تَكْفُلٌ بِتَسْلِيمِ ذَلِكَ الْمَهْرِ إِلَيْهَا، وَأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَخَذَهُ صَارَ ذَلِكَ الْقَوْلُ
 الْأَوَّلُ بُهْتَانًا. الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ مِنْ دَائِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا تَطْلِيقَ الزَّوْجَةِ رَمَوْهَا بِفَاحِشَةٍ حَتَّى
 تَخَافَ وَتَشْتَرِيَ نَفْسَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ الْمَهْرِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ وَاقِعًا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فِي
 الْأَعْلَبِ الْأَكْثَرِ، جُعِلَ كَأَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ الْآخَرُ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ:
 ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضٍ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، وَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ لَا يُخَالِفُ
 أَمْرَ اللَّهِ، فَإِذَا أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا أَشْعَرَ ذَلِكَ بِأَنَّهَا قَدْ أَتَتْ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ
 كَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ صَحَّ وَصْفُ ذَلِكَ الْأَخْذِ بِأَنَّهُ بُهْتَانٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِهَا
 بِالْفَاحِشَةِ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ. وَفِيهِ تَقْرِيرٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ أَخْذَ الْمَالِ طَعْنٌ فِي ذَاتِهَا
 وَأَخْذٌ لِمَالِهَا، فَهُوَ بُهْتَانٌ مِنْ وَجْهِ وَظُلْمٍ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَكَانَ ذَلِكَ مَعْصِيَةً عَظِيمَةً مِنْ
 أُمَمَاتِ الْكِبَائِرِ. الْخَامِسُ: أَنَّ عِقَابَ الْبُهْتَانِ وَالْإِثْمِ الْمُبِينِ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ، فَقَوْلُهُ:
 ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ مَعْنَاهُ: أَتَأْخُذُونَ عِقَابَ الْبُهْتَانِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
 أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]. وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي
 عِلَّةِ هَذَا الْمَنْعِ أُمُورًا: أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا الْأَخْذَ يَتَضَمَّنُ نِسْبَتَهَا إِلَى الْفَاحِشَةِ الْمُبِينَةِ، فَكَانَ
 ذَلِكَ بُهْتَانًا وَالْبُهْتَانُ مِنَ أُمَمَاتِ الْكِبَائِرِ. وَثَانِيهَا: أَنَّهُ إِثْمٌ مُبِينٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَالَ حَقُّهَا،
 فَمَنْ ضَيَّقَ الْأَمْرَ عَلَيْهَا لِيَتَوَسَّلَ بِذَلِكَ التَّشْدِيدِ وَالتَّضْيِيقِ وَهُوَ ظُلْمٌ، إِلَى أَخْذِ الْمَالِ وَهُوَ

ظَلَمَ آخَرَ، فَلَا شَكَّ أَنَّ التَّوَسُّلَ بِظُلْمٍ إِلَى ظُلْمٍ آخَرَ يَكُونُ إِثْمًا مُبِينًا. وثالثها: قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهَا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. وقال القاسمي: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ: أَيِ تَزْوُجِ امْرَأَةٍ تَرْغَبُونَ فِيهَا. ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾: أَيِ تَرْغَبُونَ عَنْهَا بِأَنْ تُطَلِّقُوهَا. ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾: أَيِ إِحْدَى الزَّوْجَاتِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالزَّوْجِ الْجِنْسُ. ﴿قِنْطَارًا﴾: أَيِ مَالًا كَثِيرًا مَهْرًا. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾: أَيِ يَسِيرًا، فَضْلًا عَنِ الْكَثِيرِ. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾: أَيِ بَاطِلًا. ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: أَيِ بَيِّنًا، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيِ أَتَأْخُذُونَهُ بِاهْتِيئٍ وَآثِمٍ. وقال العثيمين: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾: أَيِ إِنْ اخْتَرْتُمْ، فَالْإِرَادَةُ هُنَا بِمَعْنَى: الْمَشِيئَةِ وَالِاخْتِيَارِ. ﴿اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾: أَيِ أَخَذَ زَوْجًا. ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾: أَيِ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا الزَّوْجَةَ الْأُولَى، وَتَأْخُذُوا بِدَلًّا عَنْهَا زَوْجَةً جَدِيدَةً. ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾: الْآيَةُ مَبْهَمَةٌ، لَكِنْ مَا دَامَ الْأَمْرُ فِيهِ بَدَلٌ، فَإِنَّ الْمَبْدَلَ مِنْهُ هُوَ الْأُولَى، وَالْمَعْنَى: وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ، وَهِيَ الْأُولَى، عَلَى أَنَّهُ يَصَحُّ أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَّةُ، بَأَنِ يَتَزَوَّجُ ثَانِيَةً وَلَكِنْ لَا يَرِغَبُ فِيهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَطْلُقَهَا، فَتَكُونُ الْآيَةُ عَامَّةً لِهَذَا وَلِهَذَا. وقوله: ﴿وَأَتَيْتُمْ﴾: بِمَدِّ الْهَمْزَةِ، بِمَعْنَى: أَعْطَيْتُمْ، أَمَّا قَصْرُ الْهَمْزَةِ (أَتَيْتُمْ) فَهُوَ بِمَعْنَى: جِئْتُمْ، وَهِيَ تَنْصِبُ مَفْعُولِينَ، لَيْسَ أَصْلُهُمَا الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ: ﴿إِحْدَاهُنَّ﴾، وَالثَّانِي: ﴿قِنْطَارًا﴾. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هِيَ الْعَلَامَةُ عَلَى أَنَّهَا نَصَبْتُ مَا لَيْسَ بِمُبْتَدَأٍ وَلَا خَبَرٍ؟ فنقول: الْعَلَامَةُ: أَنَّهُ إِنْ صَحَّ الْإِخْبَارُ بِالثَّانِي عَنِ الْأَوَّلِ، فَأَصْلُهُمَا الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ، وَإِنْ لَمْ يَصَحَّ، فَلَيْسَ أَصْلُهُمَا الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ، فَهَذَا لَوْ قِيلَ: (هَنْ قِنْطَارًا) فَإِنَّهُ لَا يَصَحُّ. وقوله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾: (الْفَاءُ) رَابِطَةٌ لْجَوَابِ الشَّرْطِ، وَإِنَّمَا رُبِطَ الْجَوَابُ بِ(الْفَاءِ)؛ لِأَنَّهُ طَلَبُ. وَ(لَا) نَاهِيَةٌ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا نَاهِيَةٌ جَزْمُ الْفِعْلِ، وَإِذَا وَقَعَ الْجَوَابُ جُمْلَةً طَلِبِيَّةً وَجِبَ اقْتِرَانُهُ بِ(الْفَاءِ). وقوله: ﴿مِنْهُ﴾: أَيِ مِمَّا آتَيْتُمُوهُمْ. ﴿شَيْئًا﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ، فَهِيَ تَعَمُّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ. وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِمَّا أُعْطِيْنَاهُمْ؛ لِأَنَّ لَهَا الْمَهْرَ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا.

• قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١):

• مناسبة الآية للتي قبلها:

قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ بَعْدَ الإنكارِ، أي لَيْسَ مِنَ المَرْوَةِ أَنْ تَطْمَعُوا فِي أَخْذِ عَوَضٍ عَنِ الفِرَاقِ بَعْدَ مُعَاشَرَةِ امْتِزَاجٍ وَعَهْدٍ مَتِينٍ.

• تفسير الآية:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: قال الواحدي: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾: استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لأخذ المهر بغير حِلِّه. ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: الإفضاء في اللغة معناه: الوصول، يقال: أفضى إليه، أي وصل إليه بالملابسة معه، وأصله من الفضاء، الذي هو السَّعة، يقال: فضاء يفضو، فُضُوًا وفُضَاءً إذا اتسع، والفاضي: المكان الواسع، فالإفضاء: الوصول باتساع المذهب. وقال ابن المظفر: أفضى فلان إلى فلان: أي وصل إليه، وأصله: أنه صار في فُرْجته وفَضائِهِ. وللمفسرين في الإفضاء في هذه الآية قولان: أحدهما: أنَّ الإفضاء ههنا كناية عن الجماع. قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريد الجماع، وهو قول مجاهد، والسدي، واختيار الزجاج، وابن قتيبة، ومذهب الشافعي؛ لأنَّ عنده للزوج أن يرجع في نصف المهر إذا طلق قبل المسيس وإن خلا بها. القول الثاني: أنَّ الإفضاء أن يخلو بها وإن لم يُجامعها، وهذا القول اختيار الفراء في الإفضاء، ومذهب أبي حنيفة؛ لأنَّ الخلوة عنده تمنع من الرجوع في شيء من المهر بالطلاق. واللغة تحتل المذهبين، روى ثعلب، عن ابن الأعرابي: أفضى الرجل: دخل على أهله، وأفضى: إذا جامعها، قال: والإفضاء في الحقيقة: الانتهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾: أي انتهى وأوى. وابن عباس والأكثر على القول الأول. ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: قال الحسن، وابن سيرين، والضحاك، وقتادة، والسدي، وعكرمة،

والفرءاء: هو قولهم عند العقد: زَوَّجْتُكَهَا عَلَى مَا أَخَذَ اللَّهُ لِلنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ إِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ. قال الزَّجَّاجُ: التَّسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ لَا يَكُونُ بَأَنْ يَأْخُذَ مَهْرَهَا، هَذَا تَسْرِيحٌ بِإِسَاءَةٍ لَا تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ. وقال مجاهد، وابن زيد: الميثاق الغليظ : كلمة النكاح التي يُسْتَحَلُّ بِهَا فُرُوجُ النِّسَاءِ، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: الميثاق الغليظ: يريد الشهادة والخطبة التي فيها ذكر الله والصلاة على النبي ﷺ والنكاح. وقد قال النبي ﷺ: "اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فُرُوجَهُنَّ بكلمة الله" رواه مسلم. والصحيح: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ غَيْرُ نَاسِخَةٍ لِمَا جَوَّازِ الْخُلْعِ، وَأَنَّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمُخْتَلَعَةِ؛ لِأَنَّ النِّشْوَزَ مِنْهَا، فَهُوَ فِي حَكْمِ الْمَكْرَهَةِ، لَا الْمُرِيدِ لِلِاسْتِبْدَالِ. وَذَهَبَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمُخْتَلَعَةِ شَيْئًا بظاهر هذه الآية. وقال البغوي: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾: هَذَا عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعْظَامِ. ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: أَرَادَ بِهِ الْمُجَامَعَةَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ يُكَيِّ. وَأَصْلُ الْإِفْضَاءِ: الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ. وقال ابن الجوزي: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: أَيُّ كَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ أَخْذَهُ. ﴿وَأَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: فِي الْمِرَادِ بِالْمِيثَاقِ هَاهُنَا: ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ لِلنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ: الْإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ التَّسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ. هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ سِيرِينَ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ، وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلٍ. الثَّانِي: أَنَّهُ عَقْدُ النِّكَاحِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَابْنُ زَيْدٍ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ أَمَانَةُ اللَّهِ، قَالَهُ الرَّبِيعُ. وقال السعدي: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ الزَّوْجَةَ قَبْلَ عَقْدِ النِّكَاحِ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الزَّوْجِ وَلَمْ تَرْضَ بِحِلِّهَا لَهُ إِلَّا بِذَلِكَ الْمَهْرِ الَّذِي يَدْفَعُهُ لَهَا، فَإِذَا دَخَلَ بِهَا وَأَفْضَى إِلَيْهَا وَبَاشَرَهَا الْمُبَاشَرَةَ الَّتِي كَانَتْ حَرَامًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَالَّتِي لَمْ تَرْضَ بِذَلِكَ إِلَّا بِذَلِكَ الْعَوْضِ، فَإِنَّهُ قَدْ اسْتَوْفَى الْمَعْوِضَ، فَثَبَّتَ عَلَيْهِ الْعَوْضَ، فَكَيْفَ يَسْتَوْفِي الْمَعْوِضَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَرْجِعُ عَلَى الْعَوْضِ؟! هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَكَذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْأَزْوَاجِ مِيثَاقًا غَلِيظًا بِالْعَقْدِ، وَالْقِيَامِ بِحَقُوقِهَا.

وقال العثيمين: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾: استفهام للتعجب والإنكار. وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: الجملة هنا في موضع نصب على الحال، والمعنى: والحال أنه قد أفضى بعضكم إلى بعض، أي انتهى بعضكم إلى بعض بما لا ينتهي إليه إلا الزوج. وقوله: ﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: (النون) في قوله: ﴿وَأَخَذَ﴾ ليس فيها (ألف)؛ لأنها (نون) نسوة، وليست ضمير متكلم، فإنها لو كانت ضمير متكلم لكان: (وأخذنا)، فقوله: ﴿وَأَخَذَ﴾: أي النسوة. وقوله: ﴿مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: هنا إشكال من جهة أنَّ ما سبقه إمّا مفرد، وإمّا مثني، فكيف عاد الضمير جمعاً لما سبق؟ والجواب عن ذلك أن يقال: إنّ ما سبق من المفرد أو المثني يراد به الجنس، وإذا أريد به الجنس صحّ أن يُجمع باعتبار الجنس. وقوله: ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: الميثاق: هو العهد. والغليظ: هو المشدّد، أو الشديد، أي أخذن منكم ميثاقاً غليظاً وذلك بعقد النكاح، فإنّ عقد النكاح يستلزم أنه متى ملك العوض ملك المعوض، فأنت عندما ملكت البضع، واستحللت منها ما لا يستحلّه إلا الزوج وجب لها المهر الذي هو العوض، وهو عهد وميثاق غليظ لا يوجد له نظير من العقود، فإنّ أشدّ ما يكون من العقود وأخطر ما يكون منها هو عقد النكاح؛ لأنه يترتب عليه أشياء كثيرة، كثبوت المحرمية، ولحوق النسب، ووجوب النفقة، وغير ذلك من الأحكام الكثيرة؛ ولهذا احتاط له الشرع ما لم يحتط لغيره، فلا بدّ فيه من وليّ، ولا تستقلّ به المرأة بنفسها، مع أنّ بيع مالها ولو كثر تستقلّ به إذا كانت مكلفة رشيدة، ولا بدّ فيه من شهود عند كثير من أهل العلم، وعقد البيع لا تجب فيه الشهادة، ولا بدّ فيه من الخلو من الموانع، وبقيّة العقود قد تنعقد مع مانع لكن مع الإثم، أمّا هذا فلا، ثم عند التحلّل منه وفسخه ليس هو كغيره من العقود متى شاء فسخ، بل لا بدّ له من قيود، فلا يفسخه في حيض، ولا يفسخه في طهر جامع فيه، ثم إذا فسخ فإنه يترتب على ذلك آثار، كالعدّة وغيرها، إذا فهو أخطر العقود؛ ولهذا سمّاه الله مِيثَاقًا غَلِيظًا.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)﴾:

- سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزي: قال ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يُحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فنزلت هذه الآية". وقال بعض الأنصار: "ثوبان أبو قيس بن الأسلت، فخطب ابنه قيس امرأته، فأنت النبي ﷺ تستأذنه، وقالت: إنما كنت أَعُدُّه ولداً، فنزلت هذه الآية".

- مناسبة الآية للتي قبلها:

قال البقاعي: لما كَرَّرَ الإِذْنَ فِي نِكَاحِهِنَّ وَمَا تَضَمَّنَهُ مَنْطُوقًا مَفْهُومًا، وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ الإِذْنَ فِي نِكَاحِ مَا طَابَ مِنَ النِّسَاءِ، وَكَانَ الطَّيِّبُ شَرْعًا قَدْ يَحْمِلُ عَلَى الْحِلِّ، مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى مَا يَحِلُّ مِنْهُنَّ لِذَلِكَ وَمَا يَحْرُمُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا...﴾.

وقال ابن عاشور: عَطَفَ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا...﴾، وَالْمُنَاسَبَةُ: أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَحْوَالِ إِرْثِهِمُ النِّسَاءَ كَرْهًا: أَنْ يَكُونَ ابْنُ الْمَيِّتِ أَوَّلَى بِزَوْجَةِ أَبِيهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمُّهُ، فَتُهَوَّاهُ عَنْ هَذِهِ الصُّورَةِ نَهْيًا خَاصًّا مُعَلِّطًا، وَتُخَلِّصَ مِنْهُ إِلَى إِحْصَاءِ الْمَحْرَمَاتِ.

وقال العثيمين: صلة هذه الآية بما قبلها واضحة؛ لأن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، ومن جملة النساء زوجات الآباء، التي يخلفها الأب بعد موته، فبين الله أن زوجات الآباء لا تحل.

- تفسير الآية:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: قال الواحدي: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: سَلَفَ فِي اللُّغَةِ مَعْنَاهُ: تَقَدَّمَ وَمَضَى، يُقَالُ: سَلَفَ يَسْلُفُ سُلُوفًا فَهُوَ سَالِفٌ. وَكُلُّ مَالٍ قَدَّمْتَهُ فِي ثَمَنِ سَلْعَةٍ اشْتَرَيْتَهَا بِصَفَةٍ مَعْلُومَةٍ فَهُوَ سَلَفٌ وَسَلَمٌ. وَيُقَالُ: سَلَفَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أَيْ تَقَدَّمَ، وَالسَّلَفُ أَيْضًا: مَنْ

تقدّم من آبائك وذوي قرابتك. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾: في هذا قولان: أحدهما: أنّ هذا إخبار عمّا كان في الجاهليّة، أعلموا أنّ هذا الذي حُرّم عليهم لم يزل مُنكرًا في قلوبهم، ممقوتًا عندهم، وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه: (مقيت، ومقتي)، والمقت عندهم: بُغضٌ عن أمر قبيح ركبته صاحبه، وهذا الوجه اختيار الزّجاج، وابن الأنباري، قال أبو بكر: يريد أنهم لم يزلوا يستسمجونه وإن أتوه، ويسمّونه المقت؛ لبغضهم إيّاه فخبّر الله بـ(كان) عمّا مضى من شأنهم له قبل الإسلام الذي حظه. القول الثاني: أنّ المعنى: أنه فاحشة في الإسلام، أي زنا ومقت من الله لمن فعله، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء، واختيار المبرّد، ويذهب إلى أنّ (كان) زائدة، والمعنى: إنه فاحشة ومقت، وأنكر ذلك عليه الزّجاج، وابن الأنباري، وقالوا: كيف تكون زائدة وهي عاملة؟!، وبعض النحويّين نصّر أبا العباس، وقال المعنى: هو فاحشة، وأدخلت (كان)؛ ليُدلّ أنه عند الله قبل هذه الحال كذا كان. وقوله تعالى: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: قال الليث: ساء يَسُوء فعلٌ للدّمّ ومجاوز، يقال: ساء الشيء يسوء، فهو سيّء إذا قُبِح، ويقال: ساء ما فعل صنيعًا، أي قبح صنيعُه صنيعًا. قال ابن قتيبة: أي قبح هذا الفعل فعلًا وطريقًا، كما تقول: ساء هذا مذهبًا، وهو منصوب على التمييز. وقال ابن عطية: هذه الآية مُحاطَبَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَرَبِ فِي مُدَّةِ نُزُولِ الْآيَةِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ وَالْتَحَرِيمِ الَّذِي بَعْدَهَا مُسْتَقَرٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعٍ. وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَوَّلُونَ فِي مُقْتَضَى أَلْفَاظِ الْآيَةِ، فَقَالَ فِرْقَةٌ: قَوْلُهُ: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يُرَادُ بِهِ النِّسَاءُ، أَيْ لَا تَنْكِحُوا النِّسَاءَ اللَّوَاتِي نَكَحَ آبَاؤُكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مَعْنَاهُ: لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَدَعُوهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعْنَى: لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَهُوَ مَعْفُودٌ عَنْكُمْ لِمَنْ كَانَ وَاقِعُهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: (وَلَا تَفْعَلُوا حَاشَا مَا قَدْ سَلَفَ)، وَ(مَا) عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَاقِعَةٌ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ مِنْ حَيْثُ هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ صِنْفٌ مِنْ أَصْنَافِ مَنْ يَعْقِلُ، وَ(مَا) تَقَعُ لِلْأَصْنَافِ وَالْأَوْصَافِ مِمَّنْ يَعْقِلُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: قَوْلُهُ: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يُرَادُ بِهِ فِعْلُ الْآبَاءِ، أَيْ لَا تَنْكِحُوا كَمَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ عُقُودِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ

سَلَفَ ﴿ مَعْنَاهُ: إِلَّا مَا تَقَدَّمَ مِنْكُمْ وَوَقَعَ مِنْ تِلْكَ الْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ فَمُبَاحٌ لَكُمْ الْإِقَامَةُ عَلَيْهِ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا كَانَ مِمَّا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْقَرَابَةِ، وَيُجَوِّزُهُ الشَّرْعُ إِنْ لَوْ ابْتَدِئَ نِكَاحُهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى سُنَّتِهِ. وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أَيْ فَهُوَ مَعْفُو عَنْكُمْ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ: وَ(مَا) عَلَى هَذَا مَصْدَرِيَّةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يَطَّأَ الرَّجُلُ امْرَأَةً وَطَيْهَا الْآبَاءُ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنَ الْآبَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الزِّنَا، لَا عَلَى وَجْهِ الْمُنَاكَحَةِ، فَذَلِكَ جَائِزٌ لَكُمْ زَوَاجُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الزِّنَا كَانَ فَاحِشَةً، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فَرَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُثْتَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ: كُلُّ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا أَبُوكَ أَوْ ابْنُكَ دَخَلَ أَوْ لَمْ يَدْخُلْ فَهِيَ عَلَيْكَ حَرَامٌ. وَ﴿كَانَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْتَضِي الْمَاضِيِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَقَالَ الْمِيزَانُ: هِيَ زَائِدَةٌ، وَذَلِكَ خَطَأٌ يَزِدُّ عَلَيْهِ وُجُودُ الْحَبْرِ مَنْصُوبًا. وَالْمُثَقَّ: الْبُعْضُ وَالْإِحْتِقَارُ بِسَبَبِ رَذِيلَةٍ يَفْعَلُهَا، فَسَمِيَ تَعَالَى هَذَا النِّكَاحَ مُثَقًّا؛ إِذْ هُوَ دُوْ مَقْتٍ يَلْحَقُ فَاعِلُهُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَغَيْرُهُ: كَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي الْوَلَدَ الَّذِي يَحْيِي مِنْ زَوْجِ الْوَالِدِ (الْمُقْتِي). وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: أَيْ بِئْسَ الطَّرِيقُ وَالْمِنْهَجُ لِمَنْ يَسْلُكُهُ؛ إِذْ عَاقِبَتُهُ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: فِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَتَاهَا بِمَعْنَى: بَعْدَ مَا قَدْ سَلَفَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهُ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وَالْمُفَضَّلُ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: الْمَعْنَى: لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ، فَإِنَّكُمْ تُعَذِّبُونَ بِهِ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، فَقَدْ وَضَعَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ. الثَّانِي: أَتَاهَا بِمَعْنَى: سِوَى مَا قَدْ سَلَفَ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ. الثَّلَاثُ: أَتَاهَا بِمَعْنَى: لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَدَعَاؤُهُ، قَالَهُ فَطْرُبُ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ، فَإِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً. الرَّابِعُ: أَنَّ الْمَعْنَى: وَلَا تَنْكِحُوا كِنِكَاحِ آبَائِكُمُ النِّسَاءَ، أَيْ كَمَا نَكَحُوا عَلَى الْوُجُوهِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي لَا تَجُوزُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ، مِنْ نِكَاحٍ لَا يُجُوزُ ابْتِدَاءً مِثْلَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ مَعْفُو لَكُمْ عَنْهُ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ: (لَا تَفْعَلْ مَا فَعَلْتُ)، أَيْ لَا تَفْعَلْ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ، ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. الْخَامِسُ: أَتَاهَا بِمَعْنَى (الْوَاوِ)، فَتَقْدِيرُهَا: (وَلَا مَا قَدْ سَلَفَ)، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: اقْطَعُوا مَا أَنْتُمْ

عَلَيْهِ مِنْ نِكَاحِ الْآبَاءِ، وَلَا تَبْتَدِئُوا، قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي. السَّادِسُ: أَتَمَّا لِلْإِسْتِثْنَاءِ، فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ بِالنِّكَاحِ الْجَائِزِ الَّذِي كَانَ عَقْدُهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنْهُمْ بِالزَّانَا، وَالسِّفَاحِ، فَإِنَّهُمْ حَلَالٌ لَكُمْ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ﴾: يَعْنِي النِّكَاحَ. ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: الْفَاحِشَةُ: مَا يُفْحَشُ وَيُقْبَحُ. ﴿وَمَقْتًا﴾: الْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ. وَفِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْمَقْتِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ اسْمٌ لِهَذَا النِّكَاحِ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ نِكَاحَ امْرَأَةِ الْأَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: مَقْتًا، وَيُسَمُّونَ الْوَلَدَ مِنْهُ: الْمَقْتِيَّ. فَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِكَاحِ امْرَأَةِ الْأَبِ لَمْ يَزَلْ مُنْكَرًا فِي قُلُوبِهِمْ مَقْمُوتًا عِنْدَهُمْ. هَذَا قَوْلُ الرَّجَاحِ. الثَّانِي: أَنَّهُ يُوجِبُ مَقْتِ اللَّهِ لِفَاعِلِهِ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ. قَوْلُهُ: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: أَيُّ: قَبَحَ هَذَا الْفِعْلُ طَرِيقًا. وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: وَاخْتَلَفَ فِي (مَا) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا نَكَحَ﴾، فَلَمْتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَتَمَّا مَفْعُولُهُ، وَأَتَمَّا وَاقِعَةٌ عَلَى النَّوعِ كَ(مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، أَيْ وَلَا تَنْكِحُوا النَّوْعَ الَّذِي نَكَحَ آبَاؤُكُمْ. وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ (مَا) تَقَعُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ يَعْقِلُ، وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ مَنْ يَمْنَعُ وَفُوعَهَا عَلَى أَحَادٍ مِنَ يَعْقِلُ. أَمَّا مَنْ يُجِيزُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَتَضَحَّحُ حَمْلُ (مَا) فِي الْآيَةِ عَلَيْهِ، وَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ مَذْهَبُ سَبِيئُونِهِ. وَعَلَى هَذَا الْمَفْهُومِ مِنْ إِطْلَاقِ (مَا) عَلَى مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ تَلَقَّتِ الصَّحَابَةُ الْآيَةَ، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْأَبْنَاءِ حَلَائِلِ الْآبَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا يَحُرِّمُ إِلَّا امْرَأَةَ الْأَبِ، وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ أَيْضًا: كُلُّ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا أَبُوكَ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ، فَهِيَ عَلَيْكَ حَرَامٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: (مَا) هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا تَنْكِحُوا نِكَاحَ آبَائِكُمْ، أَيْ مِثْلَ نِكَاحِ آبَائِكُمُ الْفَاسِدِ، أَوْ الْحَرَامِ الَّذِي كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَالشَّعَارِ وَغَيْرِهِ، كَمَا تَقُولُ: ضَرَبْتُ ضَرْبَ الْأَمِيرِ، أَيْ مِثْلَ ضَرْبِ الْأَمِيرِ. وَبَيِّنُ كَوْنُهُ حَرَامًا أَوْ فَاسِدًا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: وَلَوْ كَانَ مَعْنَاهُ وَلَا

تَنْكِحُوا النِّسَاءَ اللَّاتِي نَكَحَ آبَاؤُكُمْ، لَوْ جَبَّ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ مَا مِنْ. وَحَمَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَعَطَاءُ النَّكَاحِ هُنَا عَلَى الْوَطْءِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرِثُونَ نِكَاحَ نِسَائِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُرَادُ بِهِ: الْعَقْدُ الصَّحِيحُ، لَا مَا كَانَ مِنْهُمْ بِالزَّنا. انْتَهَى. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: الْإِسْتِثْنَاءُ هُنَا مُنْقَطِعٌ؛ إِذْ لَا يُجَامِعُ الْإِسْتِثْنَاءُ الْمَاضِي، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُهُمْ، دَلَّ عَلَى أَنَّ مُتَعَاظِي ذَلِكَ بَعْدَ التَّحْرِيمِ أَثَمٌ، وَتَطَرَّقَ الْوَهْمُ إِلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ قَبْلَ النَّهْيِ مَا حُكِّمَهُ؟ فَقِيلَ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أَيْ لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ النَّهْيُ فَلَا إِثْمٌ فِيهِ. وَلَمَّا حَمَلَ ابْنُ زَيْدٍ النَّكَاحَ عَلَى الْعَقْدِ الصَّحِيحِ، حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عَلَى مَا كَانَ يَتَعَاظَاهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الزَّنا، فَقَالَ: إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنَ الْآبَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الزَّنا بِالنِّسَاءِ، فَذَلِكَ جَائِزٌ لَكُمْ زَوَاجُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمُقْتَاً، وَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا تَعْقِدُوا عَلَى مَنْ عَقَدَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ زِنَاهُمْ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَتَزَوَّجُوهُمْ، وَيَكُونُ عَلَى هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعًا. وَقِيلَ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ: إِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ النَّهْيُ أَنْ يَطَأَ الرَّجُلُ امْرَأَةً وَطِئَهَا أَبُوهُ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ مِنَ الْآبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الزَّنا بِالْمَرْأَةِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِبْنِ تَزَوُّجُهَا، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا؛ إِذْ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿مَا نَكَحَ﴾؛ إِذِ الْمُرَادُ: مَا وَطِئَ آبَاؤُكُمْ، وَمَا وَطِئَ يَشْمَلُ الْمُطَوَّعَةَ زِنًا وَغَيْرَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: مَا وَطِئَ آبَاؤُكُمْ إِلَّا الَّتِي تَقَدَّمَ هُوَ، أَيْ وَطِئَهَا زِنًا مِنْ آبَائِكُمْ فَانْكِحُوهُنَّ. وَمَنْ جَعَلَ (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَكَحَ﴾ مُصَدَّرِيَّةً، قَالَ: الْمَعْنَى إِلَّا مَا تَقَدَّمَ مِنْكُمْ مِنْ تِلْكَ الْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ فَمُبَاحٌ لَكُمْ الْإِقَامَةُ عَلَيْهِ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا كَانَ بِمَا تَقَرَّرَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يُحَرِّمُ تَعَالَى زَوَاجَاتِ الْآبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا أَنْ تُوطَأَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتَحُرِّمُ عَلَى الْإِبْنِ مُجَرَّدَ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ الْأَلَوْسِيُّ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾: شُرُوعٌ فِي بَيَانِ مَنْ يَحُرِّمُ نِكَاحُهَا مِنَ النِّسَاءِ وَمَنْ لَا يَحُرِّمُ بَعْدَ بَيَانِ كَيْفِيَّةِ مُعَاشَرَةِ الْأَزْوَاجِ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضٍ مُرْتَبِطٌ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ

كَرَّهًا»، وَإِنَّمَا خُصَّ هَذَا النِّكَاحُ بِالتَّهْيِ وَلَمْ يُنْظَمْ فِي سِلْكِ نِكَاحِ الْمُحَرَّمَاتِ الْآتِيَةِ؛ مُبَالِغَةً فِي الرَّجْرِ عَنْهُ، حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ دَيْدَنًا لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَقَالَ لِقَاسِمِي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: أَيُّ بِنِكَاحٍ أَوْ مِلْكٍ يَمِينٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أُمَّهُاتِكُمْ. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أَيُّ سِوَى مَا قَدْ مَضَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مَعْفُوٌّ لَكُمْ وَلَا تُؤَاخِذُوا بِهِ. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾: أَيُّ خَصْلَةٍ فَبِيحَةٍ جَدًّا؛ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ نِكَاحَ الْأُمَّهَاتِ. وَقَالَ الْعَثِيمِينَ: النِّكَاحُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَطْلُقُ عَلَى الْعَقْدِ، وَعَلَى الْوِطْءِ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَى أَجْنَبِيَّةٍ، فَلِمَرَادٍ بِهِ: الْعَقْدُ، أَمَّا إِذَا وَقَعَ عَلَى زَوْجَةِ الْإِنْسَانِ فَلِمَرَادٍ بِهِ: الْوِطْءُ، فَإِذَا قِيلَ: نَكَحَ زَوْجَتَهُ، فَهُوَ الْوِطْءُ، وَإِذَا قِيلَ: نَكَحَ بِنْتَ فُلَانٍ، فَهُوَ الْعَقْدُ. فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] الْمَرَادُ بِهِ: الْجَمَاعُ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ زَوْجٌ إِلَّا بَعْقَدُ؛ وَلِهَذَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ صَحِيحًا حَتَّى تَتَحَقَّقَ الزَّوْجِيَّةُ، أَمَّا فِيمَا عدا ذَلِكَ فَلِمَرَادٍ بِهِ: الْعَقْدُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾: بِنَاءٌ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ يَكُونُ الْمَرَادُ بِالنِّكَاحِ هُنَا: الْعَقْدُ، أَيُّ مَا عَقَدُوا عَلَيْهِنَّ، سِوَاءِ حَصْلِ الدِّخُولِ أَمْ لَمْ يَحْصُلْ، وَسِوَاءِ حَصْلِ الْوِطْءِ أَمْ لَمْ يَحْصُلْ. وَقَوْلُهُ: ﴿آبَاؤُكُمْ﴾: جَمْعُ أَبٍ، وَهُوَ شَامِلٌ لِلْأَبِ الْأَدْنَى وَمَنْ فَوْقَهُ، وَهُمْ الْأَجْدَادُ، وَشَامِلٌ لِلْجَدِّ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ وَمَنْ قَبْلَ الْأُمِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النِّكَاحَ يَكْفِي فِي تَحْرِيمِهِ أَدْنَى مَلَابَسَةٍ، بِخِلَافِ الْإِرْثِ وَالنَّفَقَاتِ، فَإِنَّهُ فِي بَابِ الْإِرْثِ وَالنَّفَقَاتِ لَا يَدْخُلُ فِي الْآبَاءِ الْأَجْدَادُ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ، أَرَأَيْتَ الرِّضَاعَ مِثْلًا، فَإِنَّهُ يَحْرِمُ فِي النِّكَاحِ، لَكِنَّهُ لَا يُوْجِبُ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا يُوْجِبُهُ النَّسَبُ مِنْ نَفَقَةٍ، أَوْ تَحْمَلٍ دِيَّةٍ، أَوْ صَلَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. إِذَا الْمَرَادُ بِالْآبَاءِ: الْآبَاءُ الْأَدْنَوْنَ وَالْأَعْلَوْنَ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ وَمَنْ قَبْلَ الْأُمِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿النِّسَاءِ﴾: هَذَا بَيَانٌ لِمَا (مَا) الْمَوْصُولَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ (مَا) الْمَوْصُولَةَ وَكَذَلِكَ أَسْمَاءَ الشَّرْطِ مُبْهَمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، فَيَأْتِي فِي الْغَالِبِ الْبَيَانُ بَعْدَهَا مُصَدَّرًا بِ(مَنْ). وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا

مَا قَدْ سَلَفَ ﴿١﴾: (إِلَّا) هنا أداة استدراك، وليست أداة استثناء، فهي بمعنى (لكن)، ويعبر بعض العلماء عن مثل هذا بأنه استثناء منقطع، ويعبر آخرون بأنَّ (إِلَّا) هنا بمعنى (لكن)، وليست استثناء أصلاً؛ لأن الاستثناء لا بد أن يكون المستثنى قد دخل في المستثنى منه، ثم أخرج، والاستثناء المنقطع لا يصدق عليه ذلك. وعلى هذا، فإذا جاء الاستثناء المنقطع، فإننا نجعل (إِلَّا) بمعنى (لكن)، ويكون هذا من باب تناوب الحروف بعضها عن بعض. وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أي لكن ما مضى، فإنه لا حرج عليكم فيه، ولا يلحقكم فيه الإثم. فإن قال قائل: ما قد سلف لن يلحقهم فيه إثم؛ لأن الحكم لم يقرّر بعد، فكيف استدرك وقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؟! فالجواب: أنه لما كان عقد النكاح أخطر العقود وأشدّها، استثنى ما سلف؛ لئلا يظنّ الظانّ أنّ ما سلف ينسحب عليه الحكم الذي ثبت أخيراً، فكأنه قال: لا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء، وقد عفا الله عمّا سلف؛ لتطمئنّ النفوس، وليس معنى ذلك: أنّ ما سلف من العقد يبقى، ويقرّر عليه الإنسان، بل يجب فسخه، والتفريق بين الإنسان والزوجة التي هي زوجة أبيه؛ لأن هذا التحريم باقٍ لم يزُل وصفه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: الضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾، أي إنّ نكاحكم، والضمير قد يعود على المصدر المفهوم من الفعل؛ لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، فقوله: ﴿هُوَ﴾: أي العدل المفهوم من كلمة اعدلوا. فقوله: ﴿إِنَّهُ﴾: أي نكاحكم ما نكح آبؤكم. قوله: ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: أي والآن هو فاحشة، فعلى هذا تكون ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمان، وإنما جاءت؛ لتحقيق هذا الأمر؛ لأن (كَانَ) إذا سلبت الزمان صارت للتّحقيق، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، فليس المعنى: كان فيما مضى، ولكن ثبت ثبوتاً قطعياً أنه غفور رحيم، وهنا نقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: أي ثبت فحشه. وقوله: ﴿فَاحِشَةً﴾: أي في نفسه، ﴿وَمَقْتًا﴾: أي عند الله، فنكاح ما نكح الآباء من النساء

فاحشة في نفسه، تستفحشه العقول والشرع، وهو أيضاً مقت. والمقت: أشدّ البغض. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: ﴿سَاءَ﴾ فعل ماضٍ من أنواع الأفعال الجامدة، فهو جامد في سياقه على هذا الوجه، أي على أنه إنشاء، وإنما قيّدت ذلك؛ لأنه إذا جاء بمعنى الإساءة أو السيئة صار متصرفاً، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا أُولَئِكَ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿يَسْؤُوا﴾ مضارع ساء، ف(سَاءَ) إذا كان المقصود به إنشاء الذم صار فعلاً جامداً، وإذا كان المقصود به ضدّ ما يسرُّ صار متصرفاً، فإذا قلت: إنّ (سَاءَ) فعل جامد، فلا بدّ من قيد: أن تقول: إذا كان المقصود به إنشاء الذم. وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقاً، فوصف الله نكاح ما نكح الآباء بثلاثة أوصاف: أنه فاحشة، وأنه مقت، وأنه سبيل سيئ.

• قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُتِ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٢٣)﴾:

• مناسبة الآية لما سبق:

قال النسفي: لما ذكر في أوّل السورة نكاح ﴿مَا طَابَ﴾، أي حلّ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾، وذكر بعض ما حرّم قبل هذا، وهو نساء الآباء، ذكر المحرّمات الباقيات. وقال أبو حيان: لما تقدّم تحرّم نكاح امرأة الأب على ابنه وليست أمّه، كان تحرّم أمّه أولى بالتحرّم.

وقال البقاعي: ولما ابتدأ بتعظيم الآباء واخترامهم في أن ينكح الأبناء أزواجهم على العموم، ثبّت بخصوص الأم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ..﴾.

وقال ابن عاشور: تَخْلُصُ إِلَى ذِكْرِ الْمَحْرَمَاتِ بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ تَحْرِيمِ نِكَاحِ مَا نَكَحَ الْآبَاءُ وَغَيْرُ
أُسْلُوبِ النَّهْيِ فِيهِ؛ لِأَنَّ (لَا تَفْعَلْ) نَهْيٌ عَنِ الْمَضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى زَمَنِ الْحَالِ، فَيُؤْذَنُ
بِالتَّلَبُّسِ بِالْمَنْهِيِّ أَوْ إِمْكَانِ التَّلَبُّسِ بِهِ، بِخِلَافِ ﴿حُرِّمَتْ﴾، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَحْرِيمَهُ أَمْرٌ
مُقَرَّرٌ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُ الْإِسْلَامُ، إِلَّا امْرَأَةَ
الْأَبِ، وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَيْضًا نَحْدُ حُكْمَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ غَيْرَ فِيهِ
بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ، فَقِيلَ: ﴿وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

● تفسير الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾: قَالَ الْبَغَوِيُّ: جُمْلَةُ الْمُحْرَمَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْبَعٌ عَشْرَةٌ:
سَبْعٌ بِالنَّسَبِ، وَسَبْعٌ بِالسَّبَبِ. فَأَمَّا السَّبْعُ بِالسَّبَبِ فَمِنْهَا اثْنَتَانِ بِالرِّضَاعِ وَأَرْبَعٌ بِالصَّهْرِيَّةِ
وَالسَّابِعَةُ الْمُحْصَنَاتُ، وَهُنَّ ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ. وَأَمَّا السَّبْعُ بِالنَّسَبِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: وَهِيَ جَمْعُ أُمٍّ، فَيَدْخُلُ فِيهِنَّ الْجَدَّاتُ وَإِنْ عَلَوْنَ مِنْ قَبْلِ الْأُمِّ وَمِنْ قَبْلِ
الْأَبِ. ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾: جَمْعُ بِنْتٍ، فَيَدْخُلُ فِيهِنَّ بَنَاتُ الْأَوْلَادِ وَإِنْ سَفَلْنَ.
﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾: جَمْعُ الْأُخْتِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ وَالْأُمِّ أَوْ مِنْ قَبْلِ أَحَدِهِمَا.
﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾: جَمْعُ الْعَمَّةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ جَمِيعُ أَخَوَاتِ آبَائِكِ وَأَجْدَادِكَ وَإِنْ عَلَوْنَ.
﴿وَحَالَاتُكُمْ﴾: جَمْعُ خَالَةٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ جَمِيعُ أَخَوَاتِ أُمَّهَاتِكَ وَجَدَّاتِكَ. ﴿وَبَنَاتُ
الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾: وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ بَنَاتُ أَوْلَادِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ وَإِنْ سَفَلْنَ. وَجُمْلَتُهُ: أَنَّهُ
يَحْرُمُ عَلَى الرَّجُلِ: أُمُّوهُ، وَفُصُولُهُ، وَفُصُولُ أَوَّلِ أَصُولِهِ، وَأَوَّلُ فَصْلٍ مِنْ كُلِّ أَصْلٍ بَعْدَهُ.
وَالْأُصُولُ: هِيَ الْأُمُّهَاتُ وَالْجَدَّاتُ. وَالْفُصُولُ: الْبَنَاتُ، وَبَنَاتُ الْأَوْلَادِ. وَفُصُولُ أَوَّلِ
أَصُولِهِ هِيَ: الْأَخَوَاتُ، وَبَنَاتُ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ. وَأَوَّلُ فَصْلٍ مِنْ كُلِّ أَصْلٍ بَعْدَهُ هُنَّ:
الْعَمَّاتُ وَالْحَالَاتُ وَإِنْ عَلَوْنَ. وَأَمَّا الْمُحْرَمَاتُ بِالرِّضَاعِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي
أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾: وَجُمْلَتُهُ: أَنَّهُ يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ.
وَأَمَّا الْمُحْرَمَاتُ بِالصَّهْرِيَّةِ فَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾: وَجُمْلَتُهُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَقَدَ النِّكَاحَ

عَلَى امْرَأَةٍ تَحْرُمُ عَلَى النَّكِحِ أُمّهَاتُ الْمُنْكَوْحَةِ وَجَدَّاتُهَا وَإِنْ عَلَوْنَ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَالنَّسَبِ
بِنَفْسِ الْعَقْدِ. ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾: الرَّبَائِبُ
جَمْعُ رَبِيبَةٍ: وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ، سُمِّيَتْ رَبِيبَةً لِتَرْبِيَّتِهِ إِيَّاهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾: أَيُّ فِي
تَرْبِيَّتِكُمْ، يُقَالُ: فَلَانٌ فِي حِجْرِ فَلَانٍ إِذَا كَانَ فِي تَرْبِيَّتِهِ. ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾: أَيُّ
جَامَعْتُمُوهُنَّ. وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ أَيْضًا بَنَاتُ الْمُنْكَوْحَةِ وَبَنَاتُ أَوْلَادِهَا وَإِنْ سَفَلْنَ مِنَ الرِّضَاعِ
وَالنَّسَبِ بَعْدَ الدُّخُولِ بِالْمُنْكَوْحَةِ، حَتَّى لَوْ فَارَقَ الْمُنْكَوْحَةُ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا أَوْ مَاتَتْ
جَارَ لَهُ أَنْ يَنْكِحَ بِنْتَهَا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْكِحَ أُمّهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَطْلَقَ تَحْرِيمَ الْأُمّهَاتِ، وَقَالَ
فِي تَحْرِيمِ الرَّبَائِبِ. ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، يَعْنِي فِي نِكَاحِ بَنَاتِهِنَّ
إِذَا فَارَقْتُمُوهُنَّ أَوْ مِتْنَ، وَقَالَ عَلِيٌّ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُمُّ الْمَرْأَةِ لَا تُحْرَمُ إِلَّا بِالدُّخُولِ بِالْبِنْتِ
كَالرَبِيبَةِ. ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: يَعْنِي أَزْوَاجَ أَبْنَائِكُمْ، وَاحِدَتُهَا:
حَلِيلَةٌ، وَالذَّكَرُ حَلِيلٌ، سُمِّيَا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَلَالٌ لِصَاحِبِهِ. وَقِيلَ: سُمِّيَا
بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَحِلُّ حَيْثُ يَحِلُّ صَاحِبُهُ مِنَ الْخُلُولِ وَهُوَ التُّزُولُ. وَقِيلَ: إِنَّ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَحِلُّ إِذَا رَزَّ صَاحِبُهُ مِنَ الْحَلِّ وَهُوَ ضِدُّ الْعَقْلِ. وَجُمْلَتُهُ: أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الرَّجُلِ
حَلَائِلُ أَبْنَائِهِ وَأَبْنَاءِ أَوْلَادِهِ وَإِنْ سَفَلُوا مِنَ الرِّضَاعِ وَالنَّسَبِ بِنَفْسِ الْعَقْدِ، وَإِنَّمَا قَالَ
﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ حَلِيلَةَ الْمُتَبَتَّى لَا تُحْرَمُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي تَبَنَّاها، فَإِنَّ
النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ امْرَأَةً زَيْدَ بْنِ حَارِثَةَ، وَكَانَ زَيْدٌ تَبَنَّاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَالرَّابِعُ مِنَ
الْمَحْرَمَاتِ بِالصَّهْرِيَّةِ: حَلِيلَةُ الْأَبِ وَالْجَدِّ وَإِنْ عَلَا فَيَحْرُمُ عَلَى الْوَلَدِ وَالْوَلَدِ بِنَفْسِ
الْعَقْدِ، سِوَاءَ كَانَ الْأَبُ مِنَ الرِّضَاعِ أَوْ مِنَ النَّسَبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ
آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾: لَا يَجُوزُ
لِلرَّجُلِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ، سِوَاءَ كَانَتِ الْأُخُوَّةُ بَيْنَهُمَا بِالنَّسَبِ أَوْ
بِالرِّضَاعِ، فَإِذَا نَكَحَ امْرَأَةً ثُمَّ طَلَّقَهَا بَائِنًا جَارَ لَهُ نِكَاحُ أُخْتِهَا، وَكَذَلِكَ لَوْ مَلَكَ أُخْتَيْنِ
بِمِلْكِ الْيَمِينِ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا فِي الْوِطْءِ، فَإِذَا وَطِئَ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَحِلَّ لَهُ وَطْءُ

الْأُخْرَى حَتَّى يُحَرِّمَ الْأُولَى عَلَى نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلَا
 بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا؛ لحديث: "لَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا" رَوَاهُ
 الشَّيْخَانُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: يَعْنِي لَكِنْ مَا مَضَى فَهُوَ مَعْفُو عَنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ
 كَانُوا يَفْعَلُونَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ عَطَاءٌ، وَالسَّيِّدِيُّ: إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَعْقُوبَ . عَلَيْهِ السَّلَامُ
 . فَإِنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ لَيْلَى أُمِّ يَهُودَا، وَرَاحِيلَ أُمِّ يُوسُفَ، وَكَانَتَا أُخْتَيْنِ. وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ:
 ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾: أَيِ نِكَاحُهُنَّ، فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَجْمَلِ، بَلْ هَذَا مِمَّا
 حُذِفَ مِنْهُ الْمِضَافُ؛ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ: حُرِّمَ عَلَيْكَ الْحَمْرُ، إِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ
 شُرْبُهَا. وَحُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ، أَيِ أَكْلُهَا. وَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَلَمَعْنَى: نِكَاحُ أُمَّهَاتِكُمْ؛
 وَلِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.
 ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ تَحْرُمُ بَنَاتُهُمَا وَإِنْ سَفُلْنَ. وَأُفْرَدَ الْأَخُ وَالْأُخْتُ وَلَمْ يَأْتِ
 جَمْعًا، لِأَنَّهُ أُضِيفَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ، فَكَانَ لَفْظُ الْإِفْرَادِ أَحْفَ، وَأُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ الْمُنْتَضِمُ فِي
 الدَّلَالَةِ الْوَاحِدَةِ وَغَيْرِهِ. فَهَؤُلَاءِ سَبْعٌ مِنَ النَّسَبِ تَحْرِمُهُنَّ مُؤَبَّدٌ. وَأَمَّا اللَّوَاتِي صِرْنَ مُحَرَّمَاتٍ
 بِسَبَبِ طَارِيٍّ فَذَكَرَهُنَّ فِي الْقُرْآنِ سَبْعًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
 وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾: سَمَّى الْمُرْضِعَاتِ أُمَّهَاتٍ؛ لِأَجْلِ الْحُرْمَةِ، كَمَا سَمَّى أَزْوَاجَ رَسُولِ
 اللَّهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَّا سَمَّى الْمُرْضِعَةَ أُمًّا، وَالْمُرْضِعَةَ مَعَ الرَّاضِعِ أُخْتًا، نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى
 إِجْرَاءِ الرِّضَاعِ مَجْرَى النَّسَبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حُرْمٌ بِسَبَبِ النَّسَبِ سَبْعٌ: اثْنَتَانِ هُمَا الْمُنْتَسِبَتَانِ
 بِطَرِيقِ الْوِلَادَةِ وَهُمَا: (الْأُمُّ، وَالْبِنْتُ)، وَخَمْسٌ بِطَرِيقِ الْأُخُوَّةِ، وَهُنَّ: (الْأُخْتُ، وَالْعَمَّةُ،
 وَالْخَالَئَةُ، وَبِنْتُ الْأَخِ، وَبِنْتُ الْأُخْتِ)، وَلَمَّا ذَكَرَ الرِّضَاعَ ذَكَرَ مِنْ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذَيْنِ
 الْقِسْمَيْنِ صُورَةً تَنْبِيْهَا عَلَى الْبَاقِي، فَذَكَرَ مِنْ قِسْمِ قَرَابَةِ الْأَوْلَادِ الْأُمَّهَاتِ، وَمِنْ قِسْمِ قَرَابَةِ
 الْأُخُوَّةِ الْأَخَوَاتِ، وَنَبَّهَ بِهَذَيْنِ الْمِثَالَيْنِ عَلَى أَنَّ الْحَالَ فِي بَابِ الرِّضَاعِ كَالْحَالِ فِي بَابِ
 النَّسَبِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَكَّدَ هَذَا بِصَرِيحِ قَوْلِهِ ﷺ: "يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ" رَوَاهُ
 الشَّيْخَانُ، فَصَارَ صَرِيحُ الْحَدِيثِ مُطَابِقًا لِمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ فَزَوْجُ الْمُرْضِعَةِ أَبُوهُ، وَأَبَوَاهُ

جَدَّاهُ، وَأُخْتُهُ عَمَّتُهُ، وَكُلُّ وَلَدٍ وَلَدَ لَهُ مِنْ غَيْرِ الْمَرْضِعَةِ قَبْلَ الرِّضَاعِ وَبَعْدَهُ فَهُمْ إِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ لِأَبِيهِ، وَأُمُّ الْمَرْضِعَةِ جَدَّتُهُ، وَأُخْتُهَا خَالَتُهُ، وَكُلُّ مَنْ وَلَدَ لَهَا مِنْ هَذَا الزَّوْجِ فَهُمْ إِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَأَمَّا وَلَدُهَا مِنْ غَيْرِهِ فَهُمْ إِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ لِأُمِّهِ. وَقَالُوا: تَحْرِيمُ الرِّضَاعِ كَتَحْرِيمِ النَّسَبِ إِلَّا فِي مَسْأَلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُخْتِ ابْنِهِ مِنَ النَّسَبِ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُخْتِ ابْنِهِ مِنَ الرِّضَاعِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى فِي النَّسَبِ وَطْءُ أُمِّهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الرِّضَاعِ. الثَّانِيَةُ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمُّ أَخِيهِ مِنَ النَّسَبِ، وَيَجُوزُ فِي الرِّضَاعِ؛ لِأَنَّ الْمَانِعَ فِي النَّسَبِ وَطْءُ الْأَبِ إِيَّاهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الرِّضَاعِ، وَظَاهِرُ الْكَلَامِ إِطْلَاقُ الرِّضَاعِ. ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾: ظَاهِرُهُ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي تَحْرِيمِهَا: أَنْ تَكُونَ فِي حِجْرِهِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَبِهِ أَخَذَ دَاوُدُ الظَّاهِرِيُّ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ وَفَارَقَ أُمُّهَا بَعْدَ الدُّخُولِ جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، قَالُوا: حَرَّمَ اللَّهُ الرَّبِيبَةَ بِشَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ فِي حِجْرِ الزَّوْجِ. الثَّانِي: الدُّخُولُ بِالْأُمِّ. فَإِذَا قُدِّدَ أَحَدُ الشَّرْطَيْنِ لَمْ يُوجَدِ التَّحْرِيمُ. وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ وَغَيْرُهُ: إِضَافَتُهُنَّ إِلَى الْحُجُورِ؛ حَمَلًا عَلَى أَغْلَبِ مَا يَكُونُ الرَّبَائِبُ، وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي الْحِجْرِ. ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: أَيُّ فِي نِكَاحِ الرَّبَائِبِ، وَلَيْسَ جَوَازُ نِكَاحِ الرَّبَائِبِ مَوْقُوفًا عَلَى انْتِفَاءِ مُطْلَقِ الدُّخُولِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ، تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، وَفَارَقْتُمُوهُنَّ بِطَلَاكِ مِنْكُمُ إِيَّاهُنَّ، أَوْ مَوْتٍ مِنْهُنَّ. وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: أَيُّ نِكَاحُهُنَّ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ مِنَ النِّسَاءِ، فَحَرَّمَ سَبْعًا مِنَ النَّسَبِ، وَسِتًّا مِنَ الرِّضَاعِ وَالصَّهْرِ، وَأَلْحَقَتِ السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ تَحْرِيمَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا، وَوَقَعَ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ. فَالسَّبْعُ الْمَحْرَمَاتُ مِنَ النَّسَبِ: (الْأُمَّهَاتُ، وَالْبَنَاتُ، وَالْأَخَوَاتُ، وَالْعَمَّاتُ، وَالْخَالَاتُ، وَبَنَاتُ الْأَخِ، وَبَنَاتُ الْأُخْتِ). وَالْمَحْرَمَاتُ بِالصَّهْرِ وَالرِّضَاعِ: (الْأُمَّهَاتُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَالْأَخَوَاتُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَأُمَّهَاتُ النِّسَاءِ، وَالرَّبَائِبُ، وَحَلَائِلُ الْأَبْنَاءِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)، فَهَؤُلَاءِ سِتٌّ، وَالسَّابِعَةُ:

(مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ)، وَالنَّامَنَةُ: (الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا). قَالَ الطَّحَاوِيُّ: وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْمَحْكَمِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، وَغَيْرُ جَائِزٍ نِكَاحٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِالْإِجْمَاعِ إِلَّا أُمَّهَاتُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَدْخُلَ بَيْنَ أَزْوَاجُهُنَّ، فَإِنْ جُمُهورُ السَّلَفِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْأُمَّ تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْإِبْنَةِ، وَلَا تَحْرُمُ الْإِبْنَةُ إِلَّا بِالْدُّخُولِ بِالْأُمِّ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْأُمُّ وَالرَّيْبَةُ سَوَاءٌ لَا تَحْرُمُ مِنْهُمَا وَاحِدَةٌ إِلَّا بِالْدُّخُولِ بِالْأُخْرَى. قَالُوا: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾: أَيِ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، وَزَعَمُوا أَنَّ قَيْدَ الدُّخُولِ رَاجِعٌ إِلَى الْأُمَّهَاتِ وَالرَّبَائِبِ جَمِيعًا، رَوَاهُ خِلَاسٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَرِوَايَةُ خِلَاسٍ عَنْ عَلِيٍّ لَا تَقُومُ بِهَا حُجَّةٌ، وَلَا تَصِحُّ رِوَايَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَالصَّحِيحُ عَنْهُ مِثْلُ قَوْلِ الْجَمَاعَةِ. وَقَدْ أُحْبِبَ عَنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ قَيْدَ الدُّخُولِ رَاجِعٌ إِلَى الْأُمَّهَاتِ وَالرَّبَائِبِ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ، وَبَيَّانُهُ: أَنَّ الْحَبْرَيْنِ إِذَا اخْتَلَفَا فِي الْعَامِلِ لَمْ يَكُنْ نَعْتُهُمَا وَاحِدًا، فَلَا يَجُوزُ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ: (مَرَرْتُ بِنِسَائِكَ وَهَوَيْتُ نِسَاءَ زَيْدٍ الظَّرِيفَاتِ)، عَلَى أَنْ يَكُونَ الظَّرِيفُ نَعْتًا لِلْجَمِيعِ، فَكَذَلِكَ فِي الْآيَةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ نَعْتًا لَهُمْ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الْحَبْرَيْنِ مُخْتَلِفَانِ، قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَالصَّحِيحُ: قَوْلُ الْجُمُهورِ؛ لِدُّخُولِ جَمِيعِ أُمَّهَاتِ النِّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾. وَقَالَ الْعِثِمِينَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾: الْحَرِّمُ هُوَ اللَّهُ، وَقَدْ حُذِفَ الْفَاعِلُ؛ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَأَصْلُ الْحَرَامِ فِي اللُّغَةِ: الْمَنْعُ، وَمِنْهُ: حَرِيمُ الْبَثْرِ، وَهُوَ مَا حَوْلَهَا مِمَّا يَكُونُ حِمَاةً لَهَا، وَيَمْنَعُ غَيْرَ مَالِكِهَا مِنْ تَمَلُّكِهِ، فَأَصْلُ الْحَرَامِ فِي اللُّغَةِ: الْمَنْعُ، وَالْمَعْنَى: مُنْعَمٌ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾: أُمَّهَاتُ: جَمْعُ أُمٍّ، أَوْ أُمَّةٌ، وَيُقَالُ فِي جَمْعِ أُمٍّ فِي الْعَاقِلِ: (أُمَّهَاتُ)، وَفِي غَيْرِ الْعَاقِلِ: (أُمَّاتُ) بِحَذْفِ الْهَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ يَشْمَلُ الْأُمَّ الدُّنْيَا وَالْأُمَّ الْعِلْيَا، كَالْجَدَّةِ أُمِّ الْأَبِ، وَأُمِّ الْأُمِّ، وَأُمِّ الْجَدِّ، وَأُمِّ الْجَدَّةِ، وَنَقُولُ فِيهَا كَمَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿آبَاؤُكُمْ﴾، فَهِيَ تَشْمَلُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ مِنَ الْأُمَّهَاتِ، مِنْ جِهَةِ الْأَبِ وَمِنْ جِهَةِ الْأُمِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾: الْبَنَاتُ: جَمْعُ بِنْتٍ، وَيَشْمَلُ الْبِنْتَ، وَبِنْتَ الْإِبْنِ، وَبِنْتَ الْبِنْتِ وَإِنْ

نزلن، ويشمل أيضاً البنت من الزنا على قول جمهور أهل العلم، وإن كانت لا تنسب إليه شرعاً، لكنها خلقت من مائه، فهي على القول الراجح داخلة. وقوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾: الأخوات: جمع أخت، وهن فروع الأب الأدنى. وقوله: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾: العمّات: جمع عمّة، وهن فروع الأب الأعلى، أي فروع الجدّ، وفروع أب الجدّ، وفروع جدّ الجدّ، وهنّ جزاً. وليعلم أنّ عمّة الرجل عمّة له ولذريّته من بنين وبنات؛ ولهذا فعمة أبيك عمّة لك، ولأولادك وبناتك، وأولاد أبنائك وأولاد بناتك. وقوله: ﴿وَحَالَاتُكُمْ﴾: الحالات: فروع أب الأمّ وإن علا، وهنّ أخوات أمّك. وقوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾: وإن نزلن، ويشمل الأخ الشقيق، والأخ لأب، والأخ لأمّ، ونسبتك إلى بنات الأخ: عمّ. وقوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾: وهنّ من تكون خالاً لهنّ، فبنات الأخوات حرام على الإنسان وإن نزلن. إذا هؤلاء المحرّمات من النسب، وهن سبع: (أمّهاتكم، وبناتكم، وأخواتكم، وعمّاتكم، وخالاتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت)، ويقال في حصرهنّ على طريقة الفقهاء: (الأصول، والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى دون فروعهنّ)، فالأصول مثل: الأمّهات والجدّات. والفروع: كالبنيات وإن نزلن، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن هنّ: (الأخوات، وبنات الأخوات)، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصّة: (العمّات، والحالات)، وقولنا: لصلبهم خاصّة، أي دون من نزلوا، فبنت العمّة مثلاً حلال، وبنت الخالة حلال. فهذه طريقة الفقهاء. أمّا على طريقة العدّ الذي هو أفصح شيء، وهو كلام الله، فلا يحتاج إلى كبير تأمل؛ ولذلك لو قيل للعامي: يحرم عليك نكاح الأمّ، والبنت، والأخت، والعمّة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت، لذهب مطمئناً متّضحاً له الأمر، لكن لو قيل له: تحرم عليك الأصول، والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصّة دون من نزلن، لقال: إنّ هذا شيء معقّد، وذهب يطلب تفسيراً لهذا الكلام؛ ولذلك فإنّ القرآن أبلغ شيء مهما كان، فمهما تكلم أحد في بلاغته، فإنّ القرآن أبلغ منه، وأوضح، وأبين. وقوله تعالى:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾: هذا صنف آخر؛ لأن المحرمات أصناف: بالنسب، وبالرضاع، وبالمصاهرة، وهنا المحرمات بالرضاع، فقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾: الرضاع: امتصاص الرضيع للثدي، أو إسقاؤه إياه بعد انفصاله عن الثدي، كما لو جعل في إناء أو في ثدي صناعي، أو ما أشبه ذلك. وقوله: ﴿اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾: كلمة (أرضع) فعل، والفعل في الأصل للإطلاق، والإطلاق يصدق بمرة واحدة، فإذا قلت مثلاً: ضربت، فإنه يصدق بمرة واحدة، إذاً قوله: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يصدق بمرة واحدة، أي برضعة واحدة، فالآية تدلّ على أنّ مطلق الرضاع يثبت به التحريم. وقوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾: الأخوات من الرضاعة: هنّ بنات المرأة التي أرضعتك، وبنات زوجها منها أو من غيرها؛ لأن بنات زوجها يكنّ أخواتك من الأب، وبنات التي أرضعتك أخوات لك من الأب والأمّ، أي شقائق، أو من الأمّ؛ لأنها قد ترضعك بلبن زيد، ولها بنات من عمرو، فتكون بناتها من عمرو أخوات لك من الأمّ، فقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾ يشمل الشقيقات، واللاتي لأب، واللاتي لأمّ. وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾: هذا هو الصنف الثالث: وهنّ المحرمات بالمصاهرة، والأمّ إذا أطلقت فهي التي ولدت الإنسان، قال الله: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، فأُمَّهات النساء، أي اللاتي ولدن نساءكم. وقوله: ﴿نِسَائِكُمْ﴾: أي زوجاتكم. وقوله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾: ربائب: جمع ربيبة، كصحائف: جمع صحيفة، وقوله: ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾: صفة لربائب، وقوله: ﴿مِنَ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: بيان لها، أي أنّ الربائب من هؤلاء النساء اللاتي دخلتم بهنّ، وقوله: ﴿مِنَ نِسَائِكُمْ﴾: أي زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهنّ عقدًا صحيحًا. وقوله: ﴿اللَّاتِي﴾: صفة لقوله: ﴿مِنَ نِسَائِكُمْ﴾، والمراد بالدخول بهنّ: الجماع دون الخلوة، وهنا لا بدّ أن نفرّق بين الدخول الذي هو الجماع، وبين الخلوة، فإن الخلوة لا تؤثر، إذا الربائب ذكر الله فيهنّ قيد الأول: أن تكون في حجر الإنسان، فيتزوّج امرأة ولها بنت من غيره، ويضمّ البنت مع الأمّ

فتكون عنده في حجره. القيد الثاني: أن تكون المرأة قد دخل بها الزوج، أي جامعها، فهل هذان القيدان معتبران؟ هناك قولان للعلماء: القول الأول: أنهما معتبران، وأنّ الربيبة إذا لم تكن في حجر الإنسان، أو لم يكن قد دخل بأمّها فهي حلال، وأنّها لا تحرم إلا إذا اجتمع القيدان: أن تكون في حجره، وقد دخل بأمّها. القول الثاني: وهو قول الجمهور، أنّ المعتبر هو القيد الثاني، وهو قوله: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، وأمّا القيد الأول فليس بمعتبر، وإنما ذكر بناءً على الأغلب، أو بياناً للحكمة، واستدلّ الجمهور لرأيهم هذا: بأن الله صرّح بمفهوم القيد الثاني ولم يصرّح بمفهوم القيد الأول، بل سكت عنه، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كان القيد الأول معتبراً لقال: فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ، أو لم يكن في حجورك، فلا جناح عليكم. ولو سكت الله عن المفهوم ولم يقل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؛ لكان القيد معتبراً، وكانت الحجة مع من جعله شرطاً. فالمراتب ثلاث: المرتبة الأولى: أن يقال: وربائبكم اللاتي في حجورك من نساءكم اللاتي دخلتم بهنّ، فإن لم يكن في حجورك أو لم تدخلوا بأمهاتهنّ، فلا جناح عليكم، ففي هذه المرتبة يكون القيدان معتبرين. المرتبة الثانية: أن يقال: وربائبكم اللاتي في حجورك من نساءكم اللاتي دخلتم بهنّ، فهنا القيدان معتبران. المرتبة الثالثة: أن يرد القيدان في الآية: ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فهذا يؤذن بأن القيد الثاني معتبر، والقيد الأول غير معتبر، وهذا هو رأي الجمهور، وهو الصحيح. وقوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: حلائل: جمع حليلة، وتشمل الزوجة، والمملوكة، لكن الزوجة تحرم على أبي الزوج بمجرد العقد، وأمّا السريّة فلا تحرم على أبي السيد إلا بالوطء، وذلك لأن السريّة قبل أن يجامعها يحتمل أن تكون سلعة تباع وتشترى، فإذا جامعها فقد اختارها لنفسه، فالحلائل إذاً جمع حليلة، وهي الزوجة التي استحلبها بالعقد، أو الأمة التي استحلبها بالوطء. ولم يذكر الله هنا قيداً، فتشمل كلّ زوجة، سواء دخل بها الابن أم لم

يدخل بها، وعلى هذا فزوجة الابن حرام على أبيه، وإن طلقها قبل الدخول، وإن طلقها قبل الخلوة؛ لعموم الآية. وقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: أصلاب: جمع صلب، وهو الظهر، والمراد: الأبناء الذين ولدوا من مائكم؛ لأن هذا هو ابن الصلب، وهذا قيد يخرج به جمهور العلماء أبناء التبني، فقد كان من عادة الناس في الجاهلية أن يتبنى الإنسان ابناً له، ويقول له: أنت ابني، ويجعله كابنه في الميراث وغيره، فقيد الابن هنا بكونه من الصلب؛ ليخرج ابن التبني، هذا هو رأي الجمهور، ولكن لا مانع من أن يقال: إنه يشمل ابن التبني، وابن الرضاع؛ لأن ابن الرضاع ليس ابناً لك من صلبك، وابن الرضاع يسمى ابناً شرعاً، لكن ابن التبني قد أبطله الشرع، فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، فإذا كان قد أبطل شرعاً فلا حاجة إلى قيد يخرج به؛ لأنه غير داخل شرعاً في معنى البنوة عند الإطلاق، ولا حسناً كذلك أيضاً؛ لأنه ليس من مائه، وعلى هذا فيكون هذا القيد لإخراج ابن الرضاع أظهر منه لإخراج ابن التبني؛ لأن ابن التبني غير معترف به شرعاً، فلا حاجة إلى قيد يخرج به من معنى البنوة. وإلى هذا ذهب ابن تيمية، وإن كان يظن أنه خالف الناس في هذا، لكن قوله عند التأمل هو الصواب، وهو أن المصاهرة لا تجري في الرضاع، ولا علاقة للرضاع بها؛ لأن الحديث: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" رواه الشيخان. وأبو الزوج، وابن الزوج إنما هو حرام بالمصاهرة، فكيف ندخل في الحديث ما لم يدخل فيه، وكذلك في الآية الكريمة؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وهذا المحرم ليس عيناً، ولكنه عمل، وهو الجمع، والمعنى: وحرم علينا أن نجتمع بين الأختين؛ ولهذا لا يصح التعبير بأن نقول: تحرم أخت الزوجة، أو تحرم عمّة الزوجة؛ لأن ذلك ليس وارداً لا في القرآن ولا في السنة، ففي القرآن: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وفي السنة: "لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها" متفق عليه، فالحكم معلق بعمل، وهو الجمع، وليس بعين وهي الأخت أو العمّة؛ ولهذا نقول: إنّ تعبير بعض العلماء: تحرم

أخت الزوجة وعمّتها وخالتها، فيه تساهل، فالصواب: أن يقال: يحرم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمّتها، وبين المرأة وخالتها. وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ يشمل الأختين الشقيقتين، والأختين لأب والأختين لأمّ؛ لأن الآية مُطلقة. قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أي لكن ما قد سلف معفو عنه، وإنما ذكره الله؛ لعظم المقام؛ ولئلا ينشغل الإنسان بفعله السالف الذي وقع على الوجه المنهي عنه، ومن الحكم بيان حكم الولد الحاصل من النكاح فيما سلف، بمعنى: أنه لو نكح الإنسان زوجة أبيه في الجاهليّة، وأتت منه بولد، ثم أسلم وفرّق بينهما؛ لأن سبب التحريم باقٍ، لكن الولد الذي حصل من النكاح الأول ينسب إليه شرعاً، فهذا هو الحكمة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأجل أن يزول ما في قلب الإنسان نهائياً؛ لأنه قد يقول: إذا كان ذلك حراماً عليّ، فما موقفي أمام الولد الذي خلق منّي في ذلك الوقت، فطمأن الله العباد بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فهذا هو الحكمة في استثناء واستدراك ما سبق، وإلا فقد يقول قائل: ما سبق كيف يرجع التحريم إليه بما يسمّى أثراً رجعيّاً؟ فنقول: الحكمة من ذلك هو عظم المقام، والثاني: أنه لو ولد ولد في ذلك النكاح، فالولد ولد شرعيّ؛ لأنه معفو عنه، أي عمّا سلف وعن آثاره. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيها تأكيد اسمين من أسماء الله بمؤكّدين: (إِنَّ، وَكَانَ). و(كَانَ) كما أسلفنا مسلوبة الزمان، فتفيد تحقيق الوصف. والغفور: صيغة مبالغة من الغفر، وهو ستر الذنوب، وعدم المؤاخذه عليها. والرحيم: صيغة مبالغة من الرحمة، والرحمة صفة ذاتيّة لله، ولكن لها آثار، مثل: نزول المطر، وسعة الرزق، وكثرة العلم، واتّجاه الناس اتّجهاً سليماً، وما أشبه ذلك، فهذه الأشياء هي من آثار رحمة الله، ولكن ليست هي الرحمة، إنما يطلق عليها الرحمة؛ لأنها آثار رحمة الله، كما قال تعالى في الجنة في الحديث القدسيّ: "أنت رحمتي أرحم بك من أشياء" رواه الشيخان.

بحمد الله وتوفيقه تمّ تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم
